اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلد الرابع

إفريقيا من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر

المشرف على المجلد: ج. ت. نياني



اليونسكو

تَارِيخ إِفْرِيقِيَا العَام

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام (اليونسكو)

تاريخ إفريقيا العام

المجلد الرابع

إفريقيا من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر

المشرف على المجلد: ج. ت. نياني

اليونسكو

Imprimerie catholique
Aria - Beirut. 1988

صدر عام ١٩٨٨
عن منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة
٧ ، ميدان فونتنوا ،
٧٥٧٠٠ باريس

نضد وطبع بالمطبعة الكاثوليكية ش.م.ل.
عاريا (بيروت) لبنان

ISBN 92-3-601710-x

المحتويات

تمهيد

بقلم السيد أحمد مختار أمبو
المدير العام لليونسكو

لقد ظلّت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لافريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الافريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليو فروبينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لابريولا، فان عددًا كبيرًا من الأخصائيين غير الافريقيين المتشبثين بمسلمات معيّنة قد ظلّوا ينحازون الى القول بأنّ هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعًا للدراسة العلميّة، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة الى نقص المصادر والوثائق المكتوبة.

وإذا كان من الممكن أن تعتبر الألياذة والأوديسا بحق مصادر أساسية لتاريخ اليونان القديمة، فانّ ذلك كان يقابله إنكار كل قيمة للتراث الافريقي المنقول، الذي يعتبر بمثابة ذاكرة تنتظم في نسيجها الكثير من الأحداث التي تميزت بها حياة شعوب افريقيا. وقد اقتصر الاهتمام عند كتابة تاريخ جزء كبير من أفريقيا على مصادر خارجة عن افريقيا، فانتهى ذلك إلى رؤيا لا تكشف عن المسار المرجح لشعوب افريقيا عبر تاريخها، بل تعبّر عن رأي البعض في الطريق الذي لا بدّ وأن يكون هذا المسار قد سلكه. ونظرًا لأنّ «العصر الوسيط» الأوروبي هو الذي كان يتّخذ في الغالب منطلقًا للدراسة ونقطة للاحالة، فانّ أساليب الانتاج والعلاقات الاجتماعية والنظم والمؤسسات السياسيّة في افريقيا لم تكن تدرس الاّ من منطلق المقارنة مع ماضي اوروبا.

وقد كان ذلك في الواقع رفضًا للاعتراف بأنّ الافريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرّت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرّخ أن يدركها الاّ إذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، وإلا اذا جدد منهجه.

كذلك يبدو أنّ القارة الافريقية لم تعتبر قط كيانًا تاريخيًا له ذاتيته المتميزة. وإنّما انصبّ التأكيد بصفة خاصة على كل ما من شأنه أن يعزز الرأي القائل بوجود انفصام منذ الأزل بين «افريقيا بيضاء»

و « افريقيا سوداء » تجهل كل منهما الأخرى. وكثيرًا ما صورت الصحراء الكبرى على أنّها فضاء منيع يحول دون امتزاج الاثنيات والشعوب وتبادل السلع والمعتقدات والتقاليد والعادات والأفكار بين المجتمعات التي تقوم على الجوانب المختلفة من تلك الصحراء. وبذلك رسمت الدراسات حدودًا مصطنعة صارمة بين حضارتي مصر القديمة والنوبة وبين حضارات الشعوب القاطنة جنوبي الصحراء.

حقيقة أنّ تاريخ افريقيا شمالي الصحراء كان أكثر ارتباطًا بتاريخ حوض البحر المتوسط من تاريخ افريقيا جنوبي الصحراء، ولكن من المعترف به الآن على نطاق واسع أنّ حضارات القارة الافريقية – عبر لغاتها وثقافاتها المتنوعة – تشكل بدرجات مختلفة الروافد التاريخية لمجموعة من الشعوب والمجتمعات التي تربط بينها روابط عريقة.

وهناك ظاهرة أخرى أضرّت كثيرًا بالدراسة الموضوعية للماضي الافريقي. وأنا أعني هنا ما اقترنت به تجارة الرقيق والاستعمار من ظهور أفكار عنصرية جامدة عن الأجناس تولد عنها الازدراء وعدم الفهم، وكانت من شدّة الرسوخ بحيث امتدّ تشويهها الى مفاهيم كتابة التاريخ ذاتها. فمنذ أن بدأ استخدام عبارات مشحونة بأفكار معيّنة، مثل « البيض » و « السود » لتمييز نوعين عامين من البشر هما المستعمرون منظورًا اليهم كنوع ممتاز من ناحية وأهالي المستعمرات من ناحية أخرى، صار لزامًا على الافريقيين أن يقاوموا عبودية مزدوجة، اقتصادية وسيكولوجية. أما وقد صار الافريقي موسومًا بلون بشرته، وتحوّل الى سلعة بين السلع، وسخّر للأعمال التي لا تتطلّب الاّ القوة العضلية، فقد أصبح يمثل في أذهان قاهريه ماهية جنسية خيالية، هي ماهية الزنجي المنحطّة التي توهموها. وأدّى هذا التصنيف الزائف الى الهبوط بتاريخ الشعوب الافريقية في عقول الكثيرين الى مستوى التاريخ الاثنى، الذي لا يمكن فيه تجنّب التزييف في تقدير الوقائع التاريخية والثقافية.

وقد تطوّر الوضع كثيرًا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الافريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعّالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة افريقيا بمزيد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الافريقية ذاتها، وان لم يخل ذلك بطبيعة الحال من التحفظات التي رسخت بحكم العادة. أمّا الافريقيون أنفسهم فقد بدأوا يشعرون اذ يمارسون حقهم في المبادرة التاريخية بحاجة عميقة الى أن يعيدوا الى مجتمعاتهم صفتها التاريخية على أسس راسخة.

ومن هنا كانت أهميّة « التاريخ العام لافريقيا »، الذي تبدأ اليونسكو اصداره في ثمانية مجلّدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولاً أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلّما كان ذلك ضروريًا وممكنًا. وجدّوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الافريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

وفي هذه المهمة التي تتميز بالجسامة والتعقيد والعسر نظرًا لتنوع المصادر وتشتت الوثائق، سارت اليونسكو على مراحل. فكانت المرحلة الأولى (١٩٦٥ – ١٩٦٩) هي مرحلة الأعمال الخاصة بتوثيق الكتاب وتخطيطه، حيث تم القيام بأنشطة ميدانية في الموقع: ما بين حملات لجمع التراث المنقول، وانشاء لمراكز التوثيق الاقليمية المخصصة لهذا التراث، وجمع للمخطوطات غير المنشورة بالعربية و « العجمية » (اللغات الافريقية المكتوبة بالحروف العربية) وحصر للمحفوظات، واعداد لدليل لمصادر تاريخ افريقيا بالاستناد الى محفوظات ومكتبات البلدان الاوروبية، وهو الدليل الذي نشر في تسعة

مجلّدات. ومن ناحية أخرى، نظّمت للأخصائيين لقاءات تولّى فيها الافريقيون وغيرهم من القارات الأخرى مناقشة القضايا المنهجية وحددوا الخطوط العريضة للمشروع بعد فحص دقيق للمصادر المتاحة.

ثم كانت مرحلة ثانية خصصت لوضع الكتاب في صورته وتقسيمه وتفصيله، وامتدّت من ١٩٦٩ الى ١٩٧١. وفي هذه الفترة اضطلع اجتماعان دوليان لخبراء عقدا في باريس (١٩٦٩) وأديس أبابا (١٩٧٠) بدراسة وتحديد المشكلات التي تتعلّق بصيانة الكتاب ونشره، وهي: ظهوره في ثمانية مجلّدات، وطبعه طبعة رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية، وكذلك ترجمته الى لغات افريقية مثل السواحيلية والهاوسا والبيول واليوروبا واللينجالا. ومن المتوقع كذلك اعداد ترجمات الالمانية والروسية والبرتغالية والاسبانية والسويدية، فضلاً عن اصدار طبعات مختصرة ميسرة للجمهور الافريقي والدولي على نطاق أوسع.

وخصصت المرحلة الثالثة للصياغة والطبع. وقد بدأت بتشكيل لجنة علمية دولية من ٣٩ عضوًا، ثلثاهم من الافريقيين والثلث الآخر من غير الافريقيين، عليها أن تنهض بالمسؤولية الفكرية عن الكتاب.

ولما كان المنهج المتّبع يتّسم بالجمع بين عدة تخصصات، فقد تميز بتعدد المناحي النظرية وتعدد المصادر. وينبغي أن يذكر في مقدّمة ذلك علم الآثار، الذي يفتح كثيرًا من المغاليق في تاريخ الثقافات والحضارات الافريقية، والذي بفضله أصبح من المتّفق عليه اليوم أن افريقيا كانت على أرجح الاحتمالات مهد البشرية، وأنها شهدت احدى أوائل الثورات التكنولوجية في التاريخ وهي ثورة العصر الحجري الحديث، وأنها بفضل وجود مصر فيها كانت موطنًا لازدهار حضارة من أكثر الحضارات القديمة تألّقًا في العالم. ثم ينبغي بعد ذلك ذكر التراث المنقول، فقد استهين به في الماضي، لكنه يبدو اليوم مصدرًا ثمينًا من مصادر تاريخ افريقيا، يتيح تتبع مسيرة شعوبها المختلفة في المكان والزمان، ومن ثم تفهم الرؤيا الافريقية للعالم من داخلها، وادراك السمات الأصيلة للقيم التي ترتكز عليها ثقافات القارة ومؤسساتها.

واننا لنشعر بالامتنان للجنة العلمية الدولية المسؤولة عن هذا التاريخ العام لافريقيا ولمقررها وللمشرفين على مختلف المجلّدات والفصول ولمؤلّفيها لأنهم ألقوا ضوءاً أصيلاً على ماضي افريقيا في مجموعه، وتجنّبوا كل نزعة قطعية في دراسة المسائل الجوهرية، مثل تجارة الرقيق التي كانت «استنزافًا لا ينقضي» نتجت عنه عملية من أقسى عمليات الترحيل في تاريخ الشعوب وأدّى الى تفريغ القارة من جزء من قواها الحيوية، في حين أنه لعب دورًا حاسمًا في الازدهار الاقتصادي والتجاري لاوروبا ومثل الاستعمار بكل ما ترتب عليه من نتائج في نواحي الاقتصاد والسكان والنواحي النفسية والثقافية؛ ومثل دراسة العلاقات بين افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والعالم العربي؛ وعملية ازالة الاستعمار والبناء الوطني التي ما زالت تحرك العقول والعواطف في اناس لا يزالون أحياء ولا يزال بعضهم يمارس نشاطه كاملاً. وقد عولجت جميع هذه المسائل بروح الحرص على التزام الأمانة والدقة، وهما ليسا أهون ما في هذا الكتاب من مزايا؛ اذ انّ له كذلك مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن افريقيا ويعرض الثقافات الافريقية من وجهات نظر شتى، ويقدّم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.

ان هذا الكتاب الجديد اذ يبين قصور مناهج البحث التي ظلت تستخدم زمنًا طويلاً في دراسة افريقيا، فإنه يدعو الى تجديد وتعميق تناولنا للإشكالية المزدوجة المتعلّقة بكتابة التاريخ وبالذاتية الثقافية، وبما يجمع بينهما من روابط متبادلة. وهو مثل أي مؤلّف تاريخي قيّم يفتح الطريق لبحوث جديدة متعددة.

وقد حدا ذلك باللجنة العلمية الدولية بدورها الى أن تحرص – بالتعاون الوثيق مع اليونسكو – على اجراء دراسات تكميلية للتعمق في عدد من المسائل التي تتيح رؤية أكثر وضوحًا لبعض الجوانب في ماضي افريقيا. ومن شأن هذه البحوث التي تطبع في سلسلة «اليونسكو – دراسات ووثائق – التاريخ العام لافريقيا» أن تكون تكملة مفيدة لهذا الكتاب. وسوف يتابع هذا الجهد كذلك عن طريق اعداد دراسات عن التاريخ الوطني أو شبه الاقليمي.

ان هذا التاريخ العام يلقي الضوء في الوقت نفسه على وحدة تاريخ افريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى – وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الافريقيين في الأمريكتين وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الافريقية. أو «الافريقيات». وغني عن الذكر أنّ مؤلفي الكتاب الذي نحن بصدده لا يعتنقون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أميركا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الافريقيين دومًا وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للانسانية. وانه لمن الواضح اليوم أن التراث الأفريقي قد أثّر بدرجات متفاوتة في أساليب الشعور والتفكير والتخيل والعمل لدى عدد من البلاد في نصف الكرة الغربي، كلٌّ حسب موقعه. فمن جنوب الولايات المتحدة حتى شمال البرازيل مرورًا بمنطقة الكاريبي، وعلى ساحل المحيط الهادي، تبدو الآثار الثقافية المنقولة عن افريقيا واضحة في كل مكان. بل انها في بعض الحالات هي الأسس الجوهرية للذاتية الثقافية لدى عدد من أهم القطاعات بين السكان.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لافريقيا من علاقات بجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدّمته من مساهمات افريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

واني لعلى اقتناع بأن ما تبذله شعوب افريقيا من جهود لنيل استقلالها وتوطيده ولتأمين تطورها وترسيخ خصائصها الثقافية حريّ بأن يتأصّل في وعي تاريخي مجدد يؤثر تأثيرًا عميقًا في حياة أصحابه ويتناقلونه جيلاً بعد جيل.

وان ما تلقيته من تعليم، وما حصّلته من خبرة كمعلم ورئيس، منذ بداية الاستقلال ومنذ أول لجنة أنشئت لاصلاح برامج تعليم التاريخ والجغرافيا في بعض بلاد افريقيا الغربية والوسطى، قد أتاح لي أن أقدّر كم هو ضروري لتعليم النشء ولاعلام الجمهور أن يوجد كتاب للتاريخ أعدّه علماء يعرفون من الداخل مشكلات افريقيا وآمالها، ويملكون القدرة على النظر الى القارة ككل.

ولجميع هذه الاسباب، ستعمل اليونسكو على أن ينشر هذا التاريخ العام لافريقيا على نطاق واسع وبلغات عديدة، وعلى أن يكون أساسًا لاعداد كتب للأطفال وكتب مدرسية وبرامج اذاعية أو تلفزيونية، وبهذا يمكن للنشء والتلاميذ والطلاب والكبار في افريقيا وفي غيرها أن يكونوا صورة أفضل عن ماضي القارة الافريقية وعن العوامل التي تفسّر هذا الماضي، وأن يتوصلوا الى فهم أصدق لتراثها الثقافي ولاسهامها في التقدّم العام للانسانية. فهذا الكتاب جدير اذن بأن يشجع التعاون الدولي ويوطد تضامن الشعوب فيمًا تطمح اليه من عدالة وتقدّم وسلام؛ أو هذا على الاقل هو ما أرجوه بكل اخلاص.

ويبقى لي أن أعرب عن امتناني العميق لأعضاء اللجنة العلمية الدولية ومقررها والمشرفين على مختلف المجلدات والى المؤلفين وجميع الذين ساهموا في تحقيق هذا المشروع الضخم. فان ما قاموا به من عمل وما

قدموه من مساهمة هو خير دليل على ما يمكن أن ينجزه في الاطار الدولي الذي تتيحه اليونسكو رجال جاءوا من آفاق متباينة تحفزهم نية صادقة واحدة وعزيمة واحدة الى خدمة الحقيقة الخالصة ، فتمكنوا من إنهاء مشروع تكاد أهميته العلمية والثقافية أن تكون بلا حدود. كما أقدم شكري كذلك الى المنظمات والحكومات التي مكّنت اليونسكو بفضل هباتها السخية من أن تصدر هذا الكتاب بلغات مختلفة وأن تكفل له ما يستحقه من انتشار عالمي النطاق في خدمة المجتمع الدولي بأكمله.

عرض المشروع

بقلم الأستاذ بثويل أ. أوغوت
رئيس اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام

طلب المؤتمر العام لليونسكو، في دورته السادسة عشرة، من المدير العام الشروع في تحرير تاريخ عام لافريقيا. وقد عهد بهذا العمل الضخم الى لجنة علمية دولية أنشأها المجلس التنفيذي في ١٩٧٠.

ووفقًا للنظام الاساسي للجنة، الذي اعتمده المجلس التنفيذي لليونسكو في ١٩٧١، تتكون هذه اللجنة من ٣٩ عضوًا (الثلثان من الافريقيين والثلث الباقي من غير الافريقيين) يشتركون في اجتماعاتها بصفتهم الشخصية ويعيّنهم المدير العام لليونسكو لمدة صلاحية اللجنة.

وكانت المهمة الأولى للجنة تحديد الخصائص الرئيسية للمصنف. وقد حددتها في دورتها الثانية على النحو التالي:

• انّ هذا التاريخ، ولئن كان يستهدف بلوغ أرفع مستوى علمي ممكن، لا يتوخى شمول كل شيء وانما هو مصنّف يجمع بين عناصر شتّى دون تعصب لرأي معيّن. وسيتكوّن في أحيان كثيرة من عرض للمشكلات مع توضيح للوضع الراهن للمعارف والتيارات الكبرى للبحث، ولا يتقاعس عن التنويه عند الاقتضاء، بتباين المذاهب والآراء. وهو بذلك يمهّد السبيل لوضع مؤلفات لاحقة.

• تعتبر افريقيا كلاً واحدًا. والغرض هو اظهار العلاقات التاريخية بين مختلف أجزاء القارّة، التي غالبًا ما كانت تخضع لتقسيمات فرعية كثيرة في المؤلّفات التي ظهرت حتى الآن. وتحظى صلات افريقيا التاريخية مع القارّات الأخرى بالعناية التي تستحقها، وتحلل تلك الصلات من زاوية المبادلات والمؤثرات متعددة الأطراف على نحو يبرز بصورة ملائمة اسهام افريقيا في تطور البشرية.

• تاريخ افريقيا العام، هو قبل كل شيء، تاريخ أفكار وحضارات ومجتمعات ومؤسسات. وهو يقوم أساسًا على مصادر متعددة بالغة التنوع يدخل فيها التراث المنقول والتعبير الفني.

• ينظر الى هذا التاريخ أساسًا من الداخل. ففضلاً عن كونه مصنّفًا علميًا فهو أيضًا الى حد بعيد انعكاس أمين لكيفية رؤية المؤلفين الافريقيين لحضارتهم. وعلى الرغم من اعداد هذا التاريخ في نطاق

دولي واستعانته بجميع البيانات العلمية المتوفرة حاليًا ، فانه سيمثل أيضًا أحد العناصر الأساسية في التعرف على التراث الثقافي الافريقي وسيبرز العوامل التي تسهم في وحدة هذه القارّة . ويشكل هذا الاتجاه نحو رؤية الأشياء من الداخل الجانب الجديد في هذا المصنّف ، ويمكنه أن يضفي عليه فضلاً عن مزاياه العلمية ، قيمة كبيرة بالنسبة للأحداث الراهنة . واذ يُظهر هذا التاريخ الوجه الحقيقي لافريقيا ، في عصر تهيمن عليه ضروب المنافسة الاقتصادية والتقنية ، فانه يمكن أن يطرح للبحث تصورًا خاصًا للقيم الانسانية.

وقررت اللجنة أن يصدر هذا المصنّف ، الذي يتناول ما يربو على ثلاثة ملايين سنة من تاريخ افريقيا ، في ثمانية مجلّدات يقع كل منها في حوالي ٨٠٠ صفحة من النصوص ، ويتضمن عددًا من اللوحات والصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم الخطية.

ويعيّن مشرف رئيسي لكل مجلّد يساعده ، عند الاقتضاء واحد أو اثنان من المشرفين المعاونين.

وتنتخب اللجنة المشرفين على المجلدات من بين أعضائها أو من غير أعضائها بأغلبية الثلثين. وبناط بالمشرفين اعداد المجلّدات وفقًا للقرارات التي تتخذها اللجنة والخطط التي تضعها . ويكون المشرفون مسؤولين من الناحية العلمية أمام اللجنة أو أمام مكتبها بين دورات انعقادها ، عن مضمون المجلدات وعن الصياغة النهائية للنصوص وعن الصور ، وبوجه عام عن جميع الجوانب العلمية والفنية للتاريخ . ويكون المكتب هو المرجع الأخير في اقرار المخطوط النهائي . ويقوم بتسليمه للمدير العام لليونسكو عندما يرى أنه أصبح معدًّا للنشر. وتظل السلطة اذن منوطة باللجنة ، أو بالمكتب بين دورات انعقاد اللجنة.

ويحتوي كل مجلّد على قرابة ثلاثين فصلاً. ويحرّر كل فصل مؤلّف رئيسي يساعده عند الاقتضاء معاون أو اثنان.

وتختار اللجنة المؤلّفين بعد الاطّلاع على بيانات المؤهّلات والخبرة الخاصة بهم ، ويفضَّل المؤلّفون الافريقيون بشرط أن يكونوا حائزين على المؤهّلات المطلوبة . وتحرص اللجنة بوجه خاص على أن يراعى قدر المستطاع في اختيار المؤلّفين أن تكون جميع مناطق القارّة وكذلك جميع المناطق التي كانت لها علاقات تاريخية أو ثقافية مع افريقيا ممثلة تمثيلاً عادلاً.

وبعد أن يعتمد المشرف على المجلّد نصوص مختلف الفصول ترسل الى جميع أعضاء اللجنة لكي يقدّموا تعليقاتهم عليها..

وفضلاً عن ذلك ، يعرض النص المرسل من المشرف على المجلّد على لجنة قراءة لدراسته ، وتعيّن هذه اللجنة من بين أعضاء اللجنة العلمية الدولية ، تبعًا لاختصاصات الأعضاء ، وتكلّف هذه اللجنة باجراء تحليل متعمّق لمضمون الفصول وشكلها.

ويتولى المكتب إقرار المخطوط بصورة نهائية.

وقد تبيّن أن هذه الاجراءات التي قد تبدو طويلة ومعقّدة هي إجراءات لازمة لأنها تضمن أكبر قدر من الدقة العلمية للتاريخ العام لافريقيا. فقد حدث فعلاً أن رفض المكتب بعض المخطوطات أو طلب إجراء تعديلات هامة لها بل وعهد باعادة تحرير الفصل الى مؤلّف آخر . وأحيانًا يستشار اخصائيون في فترة معينة من فترات التاريخ أو في مسألة معيّنة من أجل وضع المجلّد في صيغته النهائية.

ويصدر المؤلّف بادئ الأمر في طبعة رئيسة بالانجليزية والفرنسية والعربية وفي طبعة عادية بنفس اللغات.

وتصدر نسخة مختصرة من المؤلّف بالانجليزية والفرنسية تتّخذ أساسًا للترجمة الى اللغات الافريقية. وقد اختارت اللجنة العلمية الدولية السواحيلية ولغة الهوسا كأول لغتين افريقيتين يترجم اليهما المؤلف.

ومن المزمع أيضًا العمل ، بقدر المستطاع ، على أن ينشر تاريخ افريقيا العام في عدة لغات واسعة

الانتشار على الصعيد الدولي (ومنها الأسبانية والألمانية والايطالية والبرتغالية والروسية والصينية واليابانية، الخ...).

فالأمر يتعلّق اذن، كما نرى، بمشروع ضخم يشكّل مخاطرة كبرى بالنسبة لمؤرّخي افريقيا والأوساط العلمية بوجه عام وكذلك بالنسبة لليونسكو التي تشمله برعايتها. ذلك أنه ليس من المتعذّر أن نتصوّر مدى تعقيد مهمة مثل تحرير مصنّف عن تاريخ افريقيا يغطّي في المكان قارّة بأكملها وفي الزمان الأربعة ملايين عام الأخيرة ويلتزم بأرفع المعايير العلمية ويستعين كما ينبغي، بأخصائيين ينتمون الى شتى البلاد والثقافات والمذاهب الفكرية والتقاليد التاريخية. انه لمشروع قاري ودولي وجامع لفروع العلم على أوسع نطاق.

وأودّ في النهاية أن أنوّه بأهمية هذا المصنّف بالنسبة لافريقيا والعالم أجمع. ففي الوقت الذي تكافح فيه شعوب افريقيا من أجل اتحادها وتعمل سويًا من أجل صنع مصائرها، يمكن للمعرفة الصحيحة بماضي افريقيا وللوعي بالروابط التي توحّد ما بين الافريقيين من ناحية، وبين افريقيا وسائر القارّات من ناحية أخرى، أن تيسّر الى حدّ بعيد التفاهم بين شعوب الأرض بل وأن تنشر على الأخص المعرفة بتراث ثقافي هو ملك للبشرية جمعاء.

بتويل. أ. أوجوت
٨ أغسطس / آب ١٩٧٩
رئيس اللجنة العلمية الدولية
لتحرير تاريخ افريقيا العام

التأريخ

لقد تقرّر تدوين التواريخ الخاصة بعصر ما قبل التاريخ على النحو التالي:

- إمّا بالاشارة الى الحاضر باعتبار سنة الأساس +١٩٥٠ وتكون جميع التواريخ سلبية بالنسبة الى +١٩٥٠.
- أو بالاشارة الى بداية التاريخ الميلادي وتوضع علامة + أو – أمام التواريخ المحدّدة بالنسبة للتاريخ الميلادي.

أمثلة:

(١) ٢٣٠٠ قبل الحاضر = – ٣٥٠

(٢) ٢٩٠٠ قبل الميلاد = – ٢٩٠٠
١٨٠٠ ميلادية = + ١٨٠٠

(٣) القرن الخامس قبل الميلاد = القرن الخامس قبل العصر الحالي القرن الثالث ميلادي = القرن الثالث من العصر الحالي.

الفصل الأول

مقدّمة

بقلم جبيرل ت. نياني

يشمل المجلّد الحالي تاريخ افريقيا من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر. ولعلّ تفصيل العهود التاريخية والتقسيم الزمني التقليدي لا يناسبان هنا: هل يمكن، على الأقل، أن يكون لتاريخ أو لقرن ما نفس الأهمية بالنسبة لقارة بأكملها؟ إن الأمر لأبعد من أن يكون كذلك. وهكذا يمكننا أن نتساءل ما اذا كان لتلك الفترة نفس الدلالة لكافة مناطق القارة.

وعلى الرغم من أن قضية التقسيم لا تزال مطروحة، فانه يبدو لنا أن الحقبة المعنية تنطوي على نوع من الوحدة وتمثّل، من جوانب متعدّدة، فترة أساسية في التطوّر التاريخي لمجموع القارة. ولقد كانت تلك فعلاً حقبة متميّزة ترى فيها افريقيا تطوّر ثقافات أصيلة وتتمثّل المؤثرات الخارجية دون أن تفرط في شخصيتها. ورأينا المجلّد السابق، بفضل الكتابات العربية، افريقيا وهي تخرج من الظلام، فكان اكتشاف المسلمين السودان الثري جنوبي الصحراء الكبرى الذي كانت تهيمن عليه السوننكه، وملكها، كايا ماغان، ويتحكّم في كافة مناطق السودان الغربية من منعطف مجرى نهر النيجر الى مصب نهر السنغال. ولم تكن هذه المملكة التي وصف البكري بذخها، المجموعة السياسية الوحيدة في ذلك الوقت. فقد عاصرتها مجموعات أخرى مثل مجموعة السّونغوي، والى الشرق من ذلك وحتى بحيرة التشاد، بلاد كانم – بورنو وممالكها.

وبعد نهاية القرن الحادي عشر، صارت الوثائق المكتوبة المتعلّقة بأفريقيا الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى أكثر وفرة، وعلى الأخص منذ نهاية القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر. وعلى كل فان المصادر البرتغالية قد جاءت منذ أواسط القرن الحادي عشر، لتسدّ الفراغ وتفيدنا عن الممالك الساحلية بافريقيا الغربية التي كانت في عز نهضتها آنذاك. وعلى الرغم من ذلك فان انعدام الوثيقة المكتوبة لا يعني شيئاً. وقد كان خليج بنين ومصب نهر الكونغو من أهمّ المراكز الحضارية. وهناك عدّة سمات أساسية تميّز هذه الحقبة.

أولها انتصار الاسلام في جزء كبير من القارة. وقد نشر هذه الديانة المحاربون والتجار في آن واحد. واتّضح أن المسلمين تجار ماهرون سيطروا على التجارة العالمية واسهموا في تنمية العلم والفلسفة والتقنية حيثما حلّوا.

والحدث الأساسي بالنسبة الى افريقيا هو أنها طبعت الاسلام بطابعها المتميّز سواء في افريقيا الشمالية أو في السودان الشاسع، جنوبي الصحراء الكبرى.

ولنذكر أن المرابطين، عندما انطلقوا من مصب نهر السنغال في القرن الحادي عشر بجيوش تضم وحدات زنجية عديدة من تكرور، استطاعوا، بعد أن فتحوا جزءًا من بلاد المغرب وشبه جزيرة ايبيريا، أن يحيوا السنة في كامل المغرب الاسلامي.

وفيما بين ١٠٥٠ و ١٠٨٠، حارب المرابطون امبراطورية غانا التي انتهى بها الأمر الى السقوط نحو سنة ١٠٧٦. ويمثّل هذا التاريخ بالنسبة للسودان بداية فترة حالكة من الصراع بين أقاليم الامبراطورية من أجل السيطرة. وتمثّل سنة ١٠٧٦ علامة هامة في تاريخ بلاد المغرب والسودان على السّواء، لكن سقوط كومبي، «عاصمة» غانا لم يكد يثير الانتباه في تلك الحقبة لأن تجارة الذهب لم تنقطع، بل إنها تكثّفت، اذ أن بعض الممالك الخاضعة لغانا والغنية بالذهب (تكرور، مندانغ) ومملكة غاو القديمة على فرع النيجر الشرقي، التي دخلت الاسلام منذ أمد طويل، قد استمرّت في تنشيط المبادلات مع العرب – البربر.

ومن جهة أخرى، فتح تجار، انطلقوا من الجزيرة العربية ومن الخليج الفارسي، سواحل افريقيا الشرقية من قرن الذهب حتى مدغشقر، في وجه التجارة بين القارات. وأصبحت مراكز سوفالة وكيلوة ومقديشو التجارية منافذ لافريقيا على المحيط الهندي. وانطلاقًا من مصر، تقدّم الاسلام نحو بلاد النوبة والسودان الشرقي، لكنه اصطدم هناك بمقاومة شديدة من قِبل الممالك المسيحية القبطية القديمة. وقد عطّلت المقاومة النوبية تقدّم الاسلام على النيل لفترة. ولكن الاسلام، انطلاقًا من البحر الأحمر وخاصة من القرن الافريقي، تسرّب الى الداخل وساعد على نشوء ممالك اسلامية تطوّق المسيحيّين، وغدا الصراع عنيفًا بين الديانتين في هذا القطاع. وقدجسمت اثيوبيا هذه المقاومة للاسلام – من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر، قبل أن يتدعّم الملوك الأحباش بالقوة المسيحية الجديدة، ممثلة في البرتغال، في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر.

وقد أكّد الاستاذ تامرات في الفصل السابع عشر، بشكل خاص، هذه المسيحية الافريقية التي لا تقلّ أصالة بفنها وكنائسها ذات النمط المتميّز. وقد أسّس لاليبلا، الملقّب «بالقدّيس لويس الاثيوبي»، عاصمة جديدة سمّاها «القدس الجديدة»، ووفّر العاهل التقي بذلك لرعيته مكانًا تحجّ اليه، حيث كانت الحبشة معزولة عن البطركية في الاسكندرية وعن مهد المسيحية. وتعدّدت الأديرة في الهضاب العليا بالحبشة. وفي سكينة هذه الأديرة التي تحتل الأعالي المنيعة أصلاً، كتب الرهبان تاريخ الملوك وأعدوا اصلاحًا. وفي أواسط القرن الخامس عشر، كانت المسيحية الحبشية في «أوج نهضتها»، فحافظت على الممارسات الدينية الافريقية القديمة السابقة على ظهور المسيحية وأعطتها شكلاً مسيحيًا. وتجلّت رواسب الرصيد الكوشيتي العريق من خلال الحفلات والرقصات والغناء والقرابين الحيوانية. وهنا أيضًا تتجلّى الشخصية الافريقية من مختلف جوانبها، لأن مسيحية النوبة والحبشة أخذت الطابع الافريقي تمامًا، كما هو الشأن بالنسبة للاسلام الافريقي. وعلى طول السواحل، من القرن الافريقي حتى مدغشقر، نمت حول المراكز التجارية الاسلامية حضارة اسلامية افريقية متميّزة، هي الحضارة السواحلية التي تعبّر عن ذاتها بلغة تحمل نفس الاسم، حافظت على هيكلها البانتو، وان استعارت الكثير من اللغة العربية.

وقد قدّر لهذه اللغة أن تصبح لغة الاتصال في كامل افريقيا الشرقية من الساحل حتى البحيرات الافريقية الكبرى، ثم بالتدريج حتى نهر الكونغو.

وهكذا صار للاسلام بشكل مباشر أو غير مباشر تأثير على كامل المنطقة. وغالبًا ما طرح السؤال عن أسباب انتشار الاسلام السريع، لا في افريقيا فحسب، بل في غيرها من الأماكن. فنمط عيش البدو الرحّل في الجزيرة العربية لا يختلف كثيرًا عن نمط عيش البربر والفلاّحين في شمال القارة الافريقية. وفي السودان (الغربي)، اذا ما استثنينا فترة الحروب التي خاضها المرابطون، نجد أن الاسلام قد شاع في أعماق افريقيا ببطء وبهدوء. ولم يكن فيه قط نظام متدرّج مترابط أومبشّرون كما في الغرب المسيحي. كذلك فان الاسلام في افريقيا، وهو دين المدن والبلاطات، لم يقلب الهياكل التقليدية. كما انه لم يحدث أن دخل الملوك السودانيون أو سلاطين افريقيا الشرقية في حروب متعمّدة ومنظّمة لحمل السكان على اعتناق الاسلام، بل كانت التجارة هي المهيمنة وكان الاسلام مرنًا، فأتاح للشعوب المهزومة أن تحافظ على شخصيتها مقابل أداء الجزية.

والأمر الثاني الكبير الذي يمكن استخلاصه من هذه الحقبة شديد الارتباط بالاسلام وبتوسّعه. وهو يتعلّق بالتطوّر المذهل في العلاقات التجارية والمبادلات الثقافية والاتصالات البشرية. فمن نهر السند الى جبل طارق، ومن البحر الأحمر الى مدغشقر، ومن افريقيا الشمالية الى المناطق الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى، كان انتقال البشر والممتلكات حرًّا الى درجة أن روبرت كورنفان كتب عن وحدة العالم الاسلامي الاقتصادية وعن الاستقلال السياسي للاسلام الافريقي ازاء بغداد، فقال:

«انها وحدة يصعب تصوّرها في عالمنا الذي يئن تحت وطأة الحدود، وحيث الجوازات والتأشيرات ضرورية لكل تنقّل. وعلى مدى العصر الوسيط بأكمله، كان التاجر أو الحاج المسلم يجد نفسه – من السند حتى اسبانيا وفي السودان – أمام لغة واحدة، ونمط عيش واحد، وديانة واحدة، على الرغم من خلافات الخوارج والشيعة التي كانت تبدو مع ذلك سياسية أكثر منها دينية صرفة».

وفضلاً عن ذلك فقد أصبحت افريقيا، من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس عشر، ملتقًى تجاريًا دوليًا من أكثر من وجه. وكان تأثيرها في باقي العالم مذهلاً. وقد بيّن السيد ديفيس)- على نحو بليغ في الفصل ٢٦؛ وأصبح المحيط الهندي، أكثر من البحر المتوسط، نوعًا من «بحر الاسلام» قبل أن يبدأ التفوّق الصيني المبني على الملاحة بواسطة سفن الرقائع (الضوّ).

ولم تكن العلاقات بين الأقاليم الافريقية أقلّ كثافة. فقد كانت قوافل كبيرة تجوب الصحراء الكبرى من شمالها الى جنوبها، وكان بعضها يشتمل على ٦٠٠٠ جمل أو حتى ١٢٠٠٠ تحمل سلعًا ومواد متنوّعة. وقد نمت بين مناطق السافانا السودانية ومناطق الغابات الواقعة الى الجنوب من ذلك – من كازامنس حتى خليج بينين – تجارة كثيفة لم يكد يعرفها العرب الذين كانوا يعتقدون أن الأراضي الواقعة وراء ما كانوا يعرفونه من أقاليم غاو ومالي لا تزيد عن صحاري. أما اليوم، فان علم الآثار والمواقعية (وهي دراسة أصل أسماء المواقع الجغرافية) والألسنية قد جعلتنا ندرك بشكل أفضل العلاقات العريقة بين السفانا والغابة. ولم يكن للاسلام أي تأثير جنوبي خط الاستواء، ومع ذلك لم تكن المبادلات بين تلك الأقاليم أقل أهمية، بفضل تنقّل السكان وبفضل الاتصالات العديدة التي كانت تعقد بمناسبة الأسواق.

وشهدت افريقيا في هذه الحقبة مبادلات متصلة بين المناطق، وهو ما يفسّر هذه الوحدة الثقافية الأساسية للقارة. وقد ادخلت نباتات غذائية جديدة انطلاقًا من المحيط الهندي بصفة خاصة، كما تنقّلت التقنيات من منطقة الى أخرى. ولابراز الطابع المميّز لافريقيا الواقعة جنوب السودان والتي لم تكن معروفة جيدًا لدى العرب ولدى كل الأجانب الآخرين، الحّ مؤلّفو الفصول ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ من

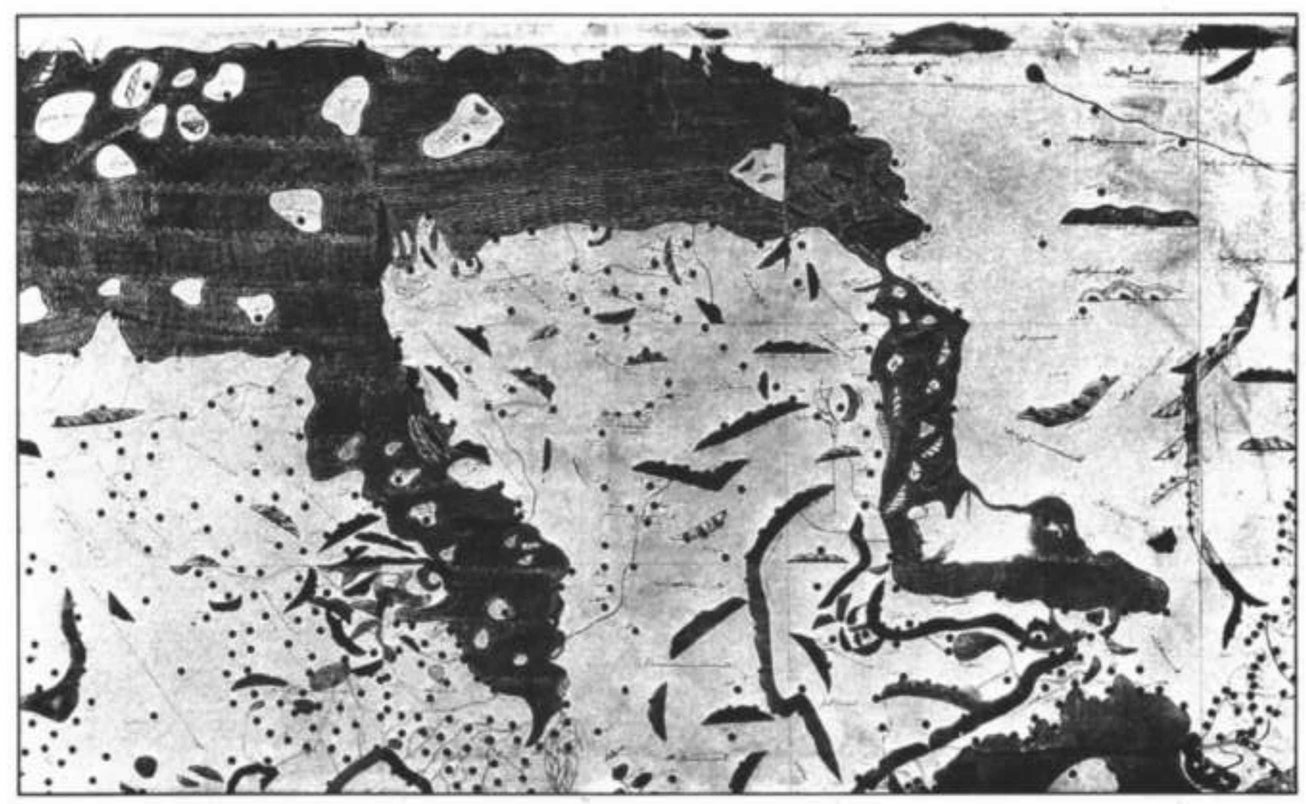
هذا المجلّد على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمناطق الممتدة من البحيرات الكبرى حتى نهر الكونغو ، ونهري زمبيزي وليمبُوبُو ، وهي مناطق شاسعة لم تكد تخضع لتأثير الاسلام ، ووراء سهول أعالي النيل – من أسوان الى منابع هذا النهر – يستحق الجنوب الافريقي ذكرًا خاصًا ، وسنرجع اليه فيما بعد ، فزيادة على الذهب ، صدّرت افريقيا العاج الخام أو المصنّع الى الجزيرة العربية والى الهند ، عبر المحيط الهندي. وهكذا ، غذّت الصناعة الحرفية المزدهرة في السودان والفلاحة المتنوعة في سهل النيجر ، التجارة عبر الصحراء الكبرى ، فصدّرت الحبوب والأحذية والجلود والقطنيات نحو الشمال ، بينما كانت البلاطات الملكية في نياني وغاو ، والمدن مثل تومبكتو ، وحواضر الهوسا ، وكانو ، وكاتسينا ، كانت تورد بالخصوص موادّ الترف والبذخ ، كالأنسجة الحريرية ونسيج البروكار والأسلحة المزخرفة.

وكان السودان يصدّر العبيد أيضًا لتغطية احتياجات البلاطات المغربية والمصرية (النسوة للحريم ، والرجال لتكوين قوات الحراسة للسلاطين). ولنذكر أن الحجاج السودانيين كانوا هم أيضًا يشترون العبيد في القاهرة ، وخاصة الفنانين منهم ، ومن جملتهم الموسيقيون. وقد بالغ بعض المؤلّفين في عدد العبيد الذين انطلقوا من السودان أو من الساحل الشرقي الى البلدان العربية. ومهما كان عدد الزنوج كبيرًا في العراق أو في مراكش أو بلاد المغرب عمومًا ، فليس هناك أي شبه بين تجارة الرقيق خلال الحقبة التي ندرسها وتجارة الرقيق التي سيقيمها الأوروبيون على السواحل الأطلسية الافريقية بعد اكتشاف العالم الجديد ، ليطوّروا هناك مزارع القطن وقصب السكر. وسيركز المجلدان الخامس والسادس على هذا «النزيف» الذي سمّي تجارة الرقيق.

وأخيرًا ، هناك أمر هام جدًا يجب ابرازه ، ألا وهو تطوّر الممالك والامبراطوريات فيما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر. فطالما سعى المؤرخون والبحاثون الاستعماريون إلى تثبيت الفكرة القائلة بأن الفضل في انتشار الدول جنوب الصحراء الكبرى يرجع الى التأثير العربي. واذا كان هذا التأثير لا يقبل الشكّ بالنسبة للمنطقة السودانية – الساحلية – على الرغم من أن عدة ممالك قد برزت الى حيّز الوجود قبل انتشار الاسلام بالمنطقة – فاننا مجبرون على الاقرار بأن هناك دولاً ، مثل مملكة الكونغو وزيمبابوي، ومونوموتابا لم تتأثّر قط بالاسلام. وبالطبع فان الحياة الحضرية في مدن بلاد المغرب وفي المدن السودانية – الساحلية معروفة أكثر بفضل المؤلفات العربية.

وقد قامت على جانبي الصحراء الكبرى مدن تجارية ، حيث تولّت طبقة نشيطة من التجار والمثقفين تنشيط الحياة الاقتصادية والثقافية في جينيه ، ونياني ، وغاو ، وتومبكتو ، وولاته ، بالنسبة الى السودان الغربي. وفي سجلماسة ، وتوات ، وورقلة ، ومراكش ، وفاس ، والقاهرة بالنسبة لشمال الصحراء الكبرى. أما في السودان الأوسط ، فلم تكن الحياة الثقافية والاقتصادية أقل نشاطًا في مملكة كانم – بورنو وفي حواضر الهاوسا ، مثل زاريا ، وكاتسينا ، وكانو. وهناك شعوب مثل شعوب الهوسا تحت تأثير الونغارا في التجارة. أما الجاليات العربية – الفارسية ، المستقرة منذ القرنين التاسع والعاشر ، بموانئ افريقيا الشرقية ، فقد جعلت من مومباسا ، ومن سوفالة ومدغشقر خاصة ، مراكز تجارية نشيطة ، لها علاقات مستقرة مع الهند والصين.

ولكن السودان الغربي كانت له على الصعيد السياسي مؤسساته وهياكله الاجتماعية الخاصة التي لم يؤثّر فيها اسلام البلاطات السطحي. وقد اكتسب البربر العادات العربية ببطء كبير. وكانت اللغة العربية في مدن السودان الغربي لغة رجال الأدب المرتبطين بالمساجد ، ولغة بعض التجار الأثرياء. ولم يكن هناك تعريب. وحتى في بلاد المغرب ، حيث رافق التعريب انتشار الاسلام ، ظلّ العمق البربري حيًّا ، وحافظت اللغة البربرية على كيانها الى عصرنا هذا في المناطق الجبلية.



• خريطة العالم للادريسي (القرن السابع عشر) ؛ خريطة مصر والجزيرة العربية وايران. ويبدو في أسفل الخريطة ساحل أفريقيا الشرقي (اتجاه الشرق).
والادريسي يتابع هنا الفكرة التي عبّر عنها بطليموس (الأصل محفوظ في خزانة المخطوطات للمجموعات الجغرافية بالمكتبة الملكية، رقم BN/GE AA 2004)

وأصبحت مصر المركز الثقافي للعالم الاسلامي، متجاوزة في ذلك بغداد ودمشق ومدن الجزيرة العربية التي لم تعد تحتفظ الاّ بقدسية الحج. وكانت بلاد المغرب والأندلس، غربًا، منذ القرنين العاشر والحادي عشر، مصادر اشعاع ثقافي كبير، كما كانت بصفة خاصة مراكز لنشر العلم والفلسفة باتجاه اوروبا، وقد اضطلع المغاربة والاندلسيون بقسط كبير في الاعداد لنهضة العلوم والثقافة في اوروبا.

ولم يكن الجنوب الايطالي بمنأى عن هذا التأثير الاسلامي. ولنذكر أن الادريسي كتب في بلاط الملك المسيحي، روجار الصقلي، كتابه «صورة الأرض» الشهير، الذي حوى مجموعة المعلومات عن البلدان في تلك الحقبة.

وقد كان مؤلّف الادريسي هذا يمثّل تقدّمًا كبيرًا، فبفضله اكتشفت ايطاليا افريقيا، واذا برجال الأعمال يهتمون بهذه البلاد الغنّاء. ولكن ساعة السطوة الأوروبية لم تكن قد حانت بعد.

وعلى الصعيد السياسي، وبعد حركة المرابطين التي جعلت ذهب السودان ينهمر حتى اسبانيا، أصاب الانهاك رجال «الرباط» بسرعة وبدأ نجم امبراطوريتهم يأفل في بداية القرن الثاني عشر. واستعاد الفونس السادس، ملك قشتالة، مدينة طليطلة الحرية من المسلمين. ولكن ابن تاشفين استطاع سنة ١٠٨٦ ان يضيء لفترة مشعل المرابطين، فقاد جيوشًا اسلامية تضم وحدة قوية من رجال تكرور وأحرز انتصارًا مبينًا على المسيحيين في معركة الزلاّقة حيث برّز المحاربون الزنوج في قوات المرابطين. وفي افريقيا ذاتها، في السودان وفي بلاد المغرب، انتهى القرن الحادي عشر بتفتّت سلطة المرابطين. وقد وضعت الصراعات بين قبائل بلاد المغرب والصحراء، وصمود مقاطعات غانا، بعد وفاة أبي بكر سنة ١٠٨٧ في بلاد تاغنت، حدًّا لجهود المرابطين في افريقيا ما وراء الصحراء الكبرى.

يبدأ القرن الثاني عشر في افريقيا الشمالية اذن بتقهقر المرابطين في عدة جبهات. وغامر روجار الثاني، ملك الصقليين، حتى بلغ السواحل الافريقية، وفرض الجزية على بعض الموانئ التي كان ينطلق منها القراصنة البربر. ولكن التجدّد الاسلامي بزعامة الموحدين أوقف هذه الجرأة في القرن الثاني عشر. وفي مصر في الشرق، قدّر لهذا التجدّد أن يتمّ على أيدي الأيوبيين والمماليك خاصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وشدّد المسيحيون في هذه الفترة بالذات حركتهم الصليبية في الشرق الأدنى، ولكن مصر أوقفت هذا التوسّع بقيادة المماليك، واضطر الصليبيون الى التحصّن في القلاع، وأفلتت القدس من أيديهم. وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر دحرت مصر الخطر المسيحي بينما كانت مدارسها تشع وتعطي للحضارة الاسلامية بريقًا خاصًا. وشهدت هذه الفترة أيضًا توسّع الممالك والامبراطوريات السودانية وبلوغها الذروة. وقد حان الوقت للعودة اليها.

وفي الفصول السادس إلى العاشر أبرز متخصّصون من الأفارقة السود اشعاع دول مالي والسونغوي وكانم – بورنو ومملكتي الموسى وداغومبا داخل منعطف نهر النيجر. وتكشف دراسة المؤسسات في مالي وفي ممالك الموسى مثلاً الرصيد التقليدي الافريقي المشترك. وقد ساعد الإسلام، وهو دين الدولة في مالي وفي غاو، على بروز طبقة من المثقفين. وكان الونغارا من (سوننكة ومانتكة «المالنكة»). المتخصّصون في التجارة ينشّطون الحياة الاقتصادية منذ عصر غانا. وكانوا ينظّمون القوافل في اتجاه الغابات في الجنوب التي يجلبون منها الكولا، والذهب، وزيت النخيل، والعاج، والخشب الثمين، مقابل السمك المجفف والقطنيات والمصنوعات النحاسية.

وقد كثّف أباطرة مالي المسلمون علاقاتهم مع مصر على حساب بلاد المغرب. وبلغت الأمبراطورية ذروتها في القرن الرابع عشر. ولكن القرن الثاني عشر غير معروف جيدًا. ومن حسن الحظ أن الإدريسي، الذي نقل بعض أخباره عن البكري، وضح لنا وجود ممالك تكرور، ومالي، وغاو.

وتساعدنا اليوم روايات امبراطورية الماندانغ في واغادو وتكرور على أن نلمح الصراع العنيف الذي قام بين المقاطعات التي برزت نتيجة تصدّع أمبراطورية غانا.

ونحن نعرف الآن، من خلال دراسة الروايات الشفوية، انه فيما بين سقوط غانا وبروز مالي ظهرت مرحلة هيمنة قبائل الصوصو (فرع من السوننكة الماندانغ متمرد على الاسلام) التي نجحت لفترة ما في توحيد المقاطعات التي كانت تحت حكم سلالة الكايا ماغان. ومع القرن الثالث عشر بدأ صعود مملكة ملّي أو مالي. وهزم الفاتح العظيم سونجاتا كيتا، سوماورو (ملك الصوصو) في معركة كيرينا الشهيرة سنة ١٢٣٥، وأنشأ امبراطورية الماندانغ الجديدة. ودأبا على تقاليد أسلافه الذين أسلموا سنة ١٠٥٠، قام سونجاتا، بعد أن أعاد بناء الامبراطورية، بتجديد الاتصال مع التجار والمثقفين الزنوج والعرب. ومن سنة ١٢٣٠ الى سنة ١٢٥٥، أقام مؤسسات ظلت لعدة قرون تطبع بطابعها الأمبراطوريات والممالك التي تعاقبت في السودان الغربي. وأعاد الحج والتجارة الصحراوية الحياة إلى طرق القوافل بالصحراء الكبرى.

تقابل التجار والحجاج الزنوج في ملتقى الطرق بالقاهرة، وأُقيمت سفارات زنجية بمدن بلاد المغرب. وتكثّفت العلاقات الثقافية والاقتصادية مع العالم الإسلامي، خاصة في القرن الرابع عشر في ظل حكم المانسا المترف موسى الأول والمانسا سليمان. وفي السودان الأوسط أقامت مملكتا كانم وبورنو علاقات أكثر توثّقًا مع مصر وليبيا. ومرة أخرى، تلقي المصادر العربية والمؤلفات المحلية والروايات الشفوية الضوء بشكل متميّز، على هذا القرن الرابع عشر السوداني.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى بعض الكتّاب العرب، والمؤرّخين، والجغرافيين، والرحّالة، وكتّاب البلاط، الذين تركوا لنا وثائق ممتازة عن افريقيا، خاصة في القرن الرابع عشر.

وقد كان ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦)، أكبر مؤرّخي «العصر الوسيط» مغربيًا. وقد اشترك في الحياة السياسية في عصره، سواء في بلاطات فاس وتونس أو في الأندلس. ثم اعتزل، إثر خيبات شتى، في «قلعة» وشرع في كتابة مؤلّفه التاريخي. ويعدّ مؤلفه الضخم تاريخ البربر أعمق دراسة اجتماعية تاريخية كُتبت عن المغرب على الإطلاق. وقد خصّص في أحد مجلّدات هذا التاريخ صفحات شهيرة عن مملكة مالي. ونحن مدينون له بقائمة ملوك القرنين الثالث والرابع حتى سنة ١٣٩٠. وقد أرست مقدمته أسس علم الاجتماع وأوضحت مبادئ تاريخ علمي موضوعي مبني على نقد المصادر.

وكان ابن بطوطه، المشهور برحلتيه، رحالة القرن الرابع عشر حقًا. وتظل أخباره عن الصين وعن السواحل الشرقية لافريقيا وكذلك وصف رحلته إلى مالي، نموذجًا للأدب الاثنولوجي. فهو لم يغفل عن شيء، وعالج بدقة وتمكّن، أنماط العيش والمشاكل الغذائية وطريقة الحكم وعادات الشعوب. وابن بطوطة هو أفضل من أخبرنا بأحوال سواحل افريقيا الشرقية وبالتجارة بين الأقاليم الافريقية، وبأهمية التجارة في المحيط الهندي. وفي حديثه عن جزر المالديف (ذيبة المهل) كتب يقول:

«وصرف أهل الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه من البحر ويضعونه في حفر هنالك فيذهب لحمه، ويبقى عظمه أبيض. وتمارس التجارة بواسطة هذه الكوريات على أساس ٤ بوستو بدينار واحد. وقد تنخفض أسعارها إلى درجة أن ١٢ بوستو تُباع بدينار واحد. ويبيعونه من أهل بنجالا (البنغال) بالأرز.»

«وهو أيضًا صرف أهل بلاد بنجالا... وهذا الودع أيضًا صرف السودان في بلادهم. رأيته يُباع في مالي (نياني، أمبراطورية مالي) وفي غوغو (غاو، عاصمة السونغوي) بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي.

وكانت صدفة الكوري هذه، خلال الحقبة التي تهمنا، عملة معظم الممالك السودانية؛ ولا نجدها إلاّ في جزر المالديف، وهو ما يوضح مدى كثافة تنقل الرجال والممتلكات في افريقيا وفي المحيط الهندي.

وثمة مؤلف ثالث كانت أخباره مدققة، ومبنية على وثائق مختارة: وهو ابن فضل الله العمري الذي كان كاتبًا في بلاط المماليك فيما بين ١٣٤٠ و١٣٤٨. وكانت للملوك السودانيين آنذاك قنصليات في القاهرة لاستقبال مئات الحجاج القاصدين مكة. وكان العمري يتصرّف، من جهة، في المحفوظات الملكية ويقوم، من جهة أخرى بجمع المعلومات سواء من أهل القاهرة الذين يزورون الملوك السودانيين عند مرورهم من مدينتهم أو من السودانيين أنفسهم. ويعتبر كتابه في وصف افريقيا ما عدا مصر أحد أبرز مراجع تاريخ أفريقيا في العصر المتوسط. ونذكر، أخيرًا، ليون الافريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي)، هذا الضيف البابوي، الذي زار السودان مرتين في أوائل القرن السادس عشر. وتتميّز أخباره عن السودان الغربي والأوسط بأهمية كبرى لدينا بالنسبة إلى تلك الحقبة التي انقلبت فيها ريح التاريخ لتنفخ في أشرعة «كارافيلات» (سفن شراعية سريعة) الغزاة البيض. وبلغ الانهيار مداه في نهاية القرن السادس عشر، حيث أخذ نجم المدن السودانية يأفل رويدًا رويدًا.

وقد أمكن التعرّف على كومبي (غانا) بعد اختفائها بخمسة قرون، وأُجريت فيها حفريات منذ سنة ١٩١٤. وما انفكّت أوداغوست، المدينة التجارية الشهيرة الواقعة بين كومبي وسجلماسة، تستقطب منذ عشر سنوات علماء الآثار الى موقعها. وقد اكتشف بها الأستاذان ج. ديفيس و س. روبرت عدة مراحل تواجد بشري، وكنوز تدل على أن بلاد أوكو كانت فعلاً «بلاد الذهب». والى الجنوب من ذلك عم التنقيب مقابر مدينة نياني، عاصمة مالي المبنية من اللبن. وبدأت مدينة «العصور الوسطى» عاصمة سونجاتا والمنسا موسى الأول، تبوح من سنة إلى أخرى بأسرارها. وأضحى علم الآثار يمثل يومًا بعد يوم العلم الضروري لجعل الأرض الافريقية تمدّنا بوثائق أفصح من النصوص ومن الرواية.

وقد حان الوقت لنتحدّث عن سائر افريقيا التي لم يعرفها الإسلام. وقد سبق أن قلنا إن انعدام الوثيقة المكتوبة لا يعني شيئًا. وقد أعطتنا أفريقيا الاستوائية والوسطى والجنوبية مثلاً رائعًا على ذلك بصروحها الحجرية التي تجعل التفكير يتّجه فورًا الى ممالك من نوع «مصر القديمة». وهذه المباني الضخمة تُعدّ بالعشرات في أماكن على غرار «زيمبابوي» و«مابونغوبويه» الواقعة بعيدًا عن الساحل. وتثبت هذه المدن الحصينة وهذه المدارج الضخمة التي شيدها السكان البانتو كم كانت بعض تقنيات البناء متطورة، وذلك على الرغم من انعدام الكتابة. ونتجاوز هنا النظريات العديدة التي قيلت بشأن مشيدي هذه المباني الحجرية، لأن المستعمرين، بطبيعة الحال، لا يمكنهم أن يقبلوا بأن أجداد الشونا أو الماتابيلي هم مشيدو هذه الصروح المذهلة. ولم يكن المؤرّخون الاستعماريون مهيّئين أيضًا لكي يسلّموا بأن الزنوج قد استطاعوا أن يستعملوا الحجارة في البناء. وفي كتابه «أفريقيا قبل البيض»، عَنْوَنَ بازيل دافيدسن الفصل التاسع المخصص لافريقيا الوسطى والجنوبية: «بناة الجنوب». فهو يقدّم في هذا الفصل رؤية جديدة للمسائل التي يطرحها تاريخ أفريقيا، وهو يؤدّي لأفريقيا ما لها، ونقصد بذلك التقدير المعنوي لعمل الأجداد.

وكان البرتغاليون الذين نزلوا الساحل الشرقي للقارة بعد أن جاوزوا رأس الرجاء الصالح، في سوفالة، قد سمعوا من يتحدّث عن أمبراطورية عظيمة تقع في عمق الأراضي: بل إنهم اتصلوا ببعض أبناء هذه المناطق الذين كانوا يأتون بانتظام إلى الساحل للاتّجار مع العرب. وتتحدّث الوثائق البرتغالية الأولى عن مملكة بينا ميتابا. ويرجع أحد الأوصاف الأولى لتلك الصروح الحجرية التي جعلتها الصورة مألوفة لدى الجميع الى داغويس:

«يوجد بوسط هذا البلد حصن مبني من الداخل والخارج بحجارة كبيرة وثقيلة... إنها بناية جد

غريبة وحسنة البناء لأننا لا نرى ، حسبما يُروى ، أي ملاط لشد الحجارة بعضها إلى بعض . وهناك في مناطق أخرى من الهضبة سالفة الذكر قلاع أخرى مبنية على نفس الشاكلة ، للملك في كل منها قواد . ويعيش ملك بيناميتابا عيشة بذخ وترف ويخدم على الركب المثنية احترامًا واعتبارًا » .

ويضيف دي باروس أن « أهالي هذا البلد يسمون كل هذه البناءات سيمباؤوية ، وهو ما يعني في لغتهم « بلاط » إذ يمكن أن يسمى هكذا كل مكان يمكن أن يوجد به بينا ميتابا ، وهم يقولون بأن كل بيوت الملك الأخرى تحمل هذا الاسم ، بوصفها ممتلكات ملكية » . وهذا يذكّرنا بالمباني المسماة « مادوجو » ، وهو الاسم الذي كان يُطلق على مقرّرات إقامة ملوك في مالي .

واليوم ، بفضل أعمال الكثير من الباحثين ، أصبحت افريقيا الوسطى والجنوبية معروفة بشكل أفضل . وإن الجهود المشتركة التي بذلها علماء اللغويات وعلماء الآثار والأنثروبولوجيون قد ألقت ضوءًا ساطعًا على هذه الصروح وبناتها . وكانت زيمبابوي وموينيه موتابا (بيناميتابا عند البرتغاليين ومونوما تابا عند المحدثين) مملكتين عظيمتين بلغتا أوجهما بالضبط فيما بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر ، ومن ثم فقد عاصرتا امبراطوريتي غانا ومالي في الشمال . وكانت قوة هذه الممالك قائمة على تنظيم اجتماعي وسياسي قوي . وكان الموينى – موتابا (وهو الملك) يحتكر الذهب . وعلى غرار كايا ماغان معاصره السوداني كان يدعى ، « سيد المعادن » . وهذه المناطق التي يشغلها اليوم جزء من الموزمبيق وجمهورية زيمبابوي وزامبيا ومالاوي بلاد غنية بالنحاس والذهب والحديد . وذكر دافيدسن ، أنه قد أحصيتا آلاف المناجم القديمة ، التي ربما بلغ عددها ٦٠,٠٠٠ أو ٧٠,٠٠٠ .

ولا يزال التسلسل الزمني يثير المشاكل . والثابت هو أنه وإن كانت مويني – موتابا وزيمبابوي قد ظلتا ، عند مجيء البرتغاليين ، تبدوان بمظهر الدولتين الكبيرتين ، فإن اضمحلالها كان قد بدأ فعلاً ، ثم تسارع مع جشع البرتغاليين ونهبهم ، هم ومن اقتفى أثرهم من الأوروبيين . ومارس سكان هذه المناطق زراعة مزدهرة على مدرجات أنشأوها على المرتفعات . وهناك فكرة بدأت تتحدّد وهي أن مختلف الأعراق والثقافات المحلية تنتمي إلى أصل واحد ، هو الأصل البانتو . وقد أساءت الاثنولوجيا بوجه ما إلى التاريخ ، إذ اعتبرت كل اثنية بمثابة جنس قائم بذاته . ومن حسن الحظ أن علوم اللغويات مكّنتنا من إرجاع الأمور إلى نصابها . فكل هذه المجموعات الصغيرة وليدة الاضطراب الذي اتّسمت به أربعة قرون سادتها تجارة الرقيق ومطاردة الإنسان ، تنتمي إلى عالم واحد ، هو عالم البانتو . وقد فرضت قبائل البانتو نفسها على السكان القدامى ودفعت الأقزام ، ومجموعات أخرى ، إلى الغابات الموحشة أو نحو الصحارى . وتستمر الحفائر في زامبيا . وتتيح جمهورية زيمبابوي الفتية مجالاً للبحوث يبشر بخير كثير . ونجد في الترانسفال وفي غيرها في افريقيا الجنوبية بقايا حضارات ساطعة ترجع إلى ما قبل القرن الثامن عشر .

وبعد طرح الرأي القائل بنسبة زيمبابوي ومويني – موتابا إلى الفينيقيين مع تجديد أسطورة « بلاد أوفير » الذهبية ، تغلّبت الموضوعية لدى الباحثين . وهم يسلّمون جميعًا اليوم بأن المؤثرات الخارجية كانت معدومة . وأكّد دافيد رندال مكايفر ، عالم المصريات الذي زار « روديسيا الجنوبية » ، (زيمبابوي) ، الأصل الافريقي لآثارها . وقد ذكر هذا العالم الأثري معربًا عن وجهة النظر العلمية أنه : « لا وجود لأي أثر لطراز شرقي أو أوروبي من أي عصر من العصور ... ان طابع الدور التي تحيط بها الأطلال الحجرية والتي تكون جزءًا لا يتجزأ من هذه الأطلال هو طابع افريقي دون أي خطأ ممكن » . ويستطرد دافيد رندال مكايفر قائلاً : « إن الفنون والتقنيات التي وجدت عينات منها في تلك المساكن افريقية أصلية ، إلاّ ما كان منها مستوردًا ويعرف تمامًا أنه يرجع إلى العصر الوسيط أو ما بعد الوسيط » .

وقد كتب المؤلف المذكور هذه الأسطر سنة ١٩٠٥ . ولكن هذه الأدلة العلمية لم تكن لتقنع قط

أصحاب النظرية «الأوفيرية». بيد أن مؤلفة أخرى من العلماء هي الدكتورة جرترود كاتون – تومسن كتبت، بعد ذلك بربع قرن، تقريرًا، بعنوان «حضارة زيمبابوي». وذكر بازيل دافيدسن أنها أكّدت فيه بجلاء تام وفكر لامع وحدس أثري كبير، ما قاله مكايفر من قبل. فقد كتبت جرترود كاتون – تومسن التي يستند مؤلفها إلى دراسة علمية صارمة «ان دراسة جميع الوثائق المتوافرة والمستمدة من كل قطاع لا يمكن أن تكشف ولو شيئًا واحدًا ينافي الادّعاء بأصله البانتو وتاريخه الوسيط». وأوضح الأستاذ فاجوم من الفصل الحادي والعشرين، استنادًا إلى الدراسات الأثرية، أن زيمبابوي وحضارات الجنوب الأخرى قد تطوّرت قبل القرن السادس عشر بفترة طويلة، وبمعزل شبه تام عن أية مؤثّرات خارجية، أو على الأقل لم يكن لهذه المؤثّرات أي إسهام حاسم في تكوين هذه الحضارات.

ومن السهل علينا أن نتصور الوصف الطنّان الذي كان من شأن يراعة كاتب عربي أن تخلفه لنا لو أن زيمبابوي ومملكة «سيد المعادن» تلقتا ما تلقته غانا ومالي من زيارات الرحّالة والجغرافيين العرب. وتشمخ زيمبابوي العظيمة بأسوارها الحجرية تحوطها الأسرار كالأهرام شاهدة على متانة وتماسك المؤسسات التي خضع لأحكامها بناة تلك الآثار التي شيدت تمجيدًا لملوكهم، بل قل لآلهتهم».

وعندما بلغ الملاّحون البرتغاليون «أثيوبيا الغربية» أو، افريقيا الغربية، كما تُدعى اليوم، ساورهم العجب والدهشة منذ اللحظة التي بلغوا فيها مصب نهر السنغال. سينيغامبيا اتصلوا بأباطرة مالي، وأقاموا علاقات مع ملوك «وولوف». وفي غضون استفسارهم عن مصادر الذهب، فان هؤلاء البرتغاليين الذين زاحموا المسلمين في مصبات الأنهار على متن سفنهم الكارافيل كان ردّ فعلهم الأول هو الإعجاب بالتنظيم السياسي – الإداري وبالرخاء ووفرة الخيرات في البلاد.

وكلما اتجهوا جنوبًا كلما أدركوا حقيقة فقرهم، واحتدمت سورة جشعهم، وكفكفوا من إحساسهم بالتفوق لكونهم مسيحيين.

ونتناول في الفصول ١٢، ١٣، ١٤، دراسة الساحل الأطلسي لغينيا العليا ولخليج غينيا، أي من سينيغامبيا إلى مصب نهر النيجر. وإن كانت معلوماتنا لا تزال هزيلة، فمن الثابت أن الغابة لم تكن وسطًا مجافيًا للاستيطان البشري، حسبما حاول الكثيرون من إخصائيي الدراسات الافريقية الاقناع به. وفي ذلك مجال واسع متاح للبحث أمام المؤرّخين وعلماء الآثار. لقد ازدهرت مدن بنين وما أبدعه مثالو اليوروبا من تماثيل جميلة في هذا الوسط الغابي. وإن الرؤوس المصنوعة من البرونز والنقوش البارزة للقصور والكثير من هذه الأعمال الفنية التي توجد اليوم في المتحف البريطاني أو في متاحف برلين وبروكسل قد نسبت إلى أجانب وهميين، قبل أن يدعو مجرد التفكير السليم إلى وضع هذه القطع الأثرية في إطارها الاجتماعي – الثقافي والتسليم بأن أبناء البلاد الأصليين هم مبدعوها دون سواهم. واليوم، وبفضل البحوث العلمية الأثرية، أمكن بيسر إدراك الرابطة بين فخار حضارة نوك (٥٠٠ سنة قبل عصرنا) والرؤوس البرونزية في بنين القرن العاشر – القرن الرابع عشر).

ولكم سال مداد الأقلام عبثًا لحرمان افريقيا من ماضيها! وكم من جرائم ارتُكبت لتنتزع من هذه القارة روائعها الفنية!

هذا العرض السريع مكّننا من أن نرى أن نظام الدولة قد قام في افريقيا في عدة أشكال. وتمثّل العشيرة أو السلالة الشكل البدائي للدولة. ويعترف أفراد العشيرة أو السلالة بسلف مشترك لهم، ويعيشون تحت سلطة رئيس منتخب أو شيخ جليل ذي سلطة أبوية مهمته الرئيسية السهر على توزيع دخل الجماعة بالعدل، وهو أيضًا الأب العائل والأب المنصف. وتعيش العشيرة في إقليم محدّد أو تملك مجالاً للتنقل، إذا كان أفرادها يمارسون تربية الماشية متنقلين. وفي الصحارى أو في الغابات يكون لأعضاء العشيرة اقليم

متفاوت الاتساع يتصرفون فيه ، وكثيرًا ما يعيشون متكافلين مع سكان الحضر ويبادلونهم نتاج أنشطتهم.
وليس لرئيس العشيرة سلطة تقديرية ، ولكن عندما يتزايد دخل الجماعة فإنه ينتفع بالفائض ويُعفى من العمل اليدوي ؛ وهو يتولى مهمة التحكيم في المنازعات التي تنشأ بمناسبة توزيع الأراضي.
وتضم المملكة عدة عشائر. وغالبًا ما يكون الملك رئيس عشيرة فرض نفسه على عشائر أخرى. وهو ما حدث لعشيرة كيتا مؤسسة امبراطورية مالي في القرن الثالث عشر. ويحيط بالملك مجلس يعيش أعضاؤه في كنفه. وبذا فإن المملكة تشغل إقليمًا على قدر من الاتّساع. بيد أن كل عشيرة تحتفظ بكيانها الاقليمي وبطقوسها الاجتماعية الخاصة. والعامل المهم هو الولاء للملك الذي يتمثل في دفع ضريبة (عينية غالبًا). واحتفظ الملك في أغلب الأحيان ، بصفته رئيسًا سياسيًا ، بالوظائف الدينية لرئيس العشيرة. فشخصه مقدس. ويظهر هذا الطابع « المقدس » بجلاء لدى ملك الكونغو وعاهل مونوموتابا وامبراطور مالي الذي كانت تقسم رعيته باسمه.
والحكام الذين يدعون « أباطرة » يسيطرون عادة على اقليم شاسع أو على الأقل على ملوك يتمتّعون باستقلال ذاتي كبير. وقد شملت امبراطورية الموحدين جزءًا كبيرًا من بلاد المغرب. حيث كان يخضع لإمرة السلطان المنحدر من قبيلة أو عشيرة سلاطين آخرون يحكمون هم أنفسهم رؤساء قبائل أو شيوخًا. وكانت تخضع لسلطة امبراطور مالي أو المنسا اثنتا عشرة ولاية من بينها مملكتان ، الخ...
وكان يحيط دائمًا بالعاهل ، ملكًا كان أم أمبراطورًا ، مجلس تتمثّل مهمته عادة في كفالة اعتدال سلطان الملك إذ أن السلطة كان ينظّمها دائمًا « دستور » أو « عرف ».
وقد سبق أن أشرنا إلى « المدن – الدول » التي هي في الواقع ممالك قاصرة على نطاق مدينة والمناطق الداخلية القريبة منها. وتشكّل مدن الهوسا ومدن اليوروبا في بنين أبرز نماذج لذلك. واتسمت المؤسسات فيها أيضًا بالإعداد المتقن ، وتشكّلت حاشية الملك من موظفين وارستقراطية.
وكانت مدن الهوسا تعترف بمدينة أم هي « دورا » بينما كانت « ايفي » تقوم بهذا الدور عند اليوروبا. ووحدة الثقافة هي الرابطة التي غالبًا ما جمعت هذه الدول المتحاربة.
وهكذا ، استبعدنا من معجمنا عبارات « مجتمع مجزأ » و« مجتمع بدون دولة » التي كانت عزيزة على الباحثين والمؤرّخين في عصر معين.
كما استبعدنا من معجمنا عبارات قبيلة وشامي وحامي وفتشي ، والسبب أن لعبارة « قبيلة » ، في بعض المناطق الافريقية ، معنى مذمومًا ، ومنذ استقلال الأقطار الافريقية وصفت النزاعات الاجتماعية والصراعات السياسية بأنها « حروب قبلية » بمعنى « أنها حروب بين متوحشين ». ولهذه المناسبة خُلقت كلمة « قبلية ». وكانت كلمة قبيلة تعني ، في الأصل ، جماعة اجتماعية – ثقافية. أما اليوم ، فقد أصبحت تعني ، بصدد افريقيا ، تكوينًا « بدائيًا » أو « رجعيًا ». وليس مفهوم كلمة فتشية بأقل من ذلك تحقيرًا ؛ ويستعملها اخصائيو الشؤون الافريقية للدلالة على الديانة التقليدية الافريقية ، ويعتبرونها أيضًا مرادفًا لـ« شعوذة » أو « ديانة المتوحشين » ، إن جاز إطلاق اسم الدين على تسمية الممارسات الافريقية. ولكلمة « احيائية » التي تُطلق على ديانة افريقيا التقليدية ، مضمون سلبي أيضًا. أما نحن ، فبدلاً من الاحيائية والفتشية ، سنستعمل عبارة « الديانة التقليدية الافريقية ».
ولكلمة شامي أو حامي تاريخ طويل. فقد أُطلقت هذه الكلمة على شعوب من الرعاة البيض « حاملي الحضارة ». ويدعى أن هؤلاء الرعاة المفترضون ، الذين لم يتمكّن أحد من الإحاطة بحقيقتهم وبتاريخيتهم ، قد عاشوا حياة البدو الرحل عبر القارة جالبين الثقافة والحضارة هنا وهناك إلى المزارعين الزنوج. والأغرب من ذلك أن كلمة شامي مشتقة من شام (اسم جد الزنوج ، حسبما ورد في الكتاب

المقدس). وأما أن تُطلق آخر المطاف على شعب أبيض، فهذا مدعاة حيرة دائمة. والواقع أن ذلك ليس سوى خدعة من الخدع الكبرى من التاريخ. وكان المؤرّخون الاستعماريون يقرّرون مبدأ تفوق الرعاة على محترفي الزراعة! وهو قول اعتباطي تمامًا لا أساس له البتة. وللأسف، أن الاستعمار إذ عمد إلى تأجيج العداء بين العشائر وبين الزرّاع والرعاة، ترك في رواندا وبوروندي، ساعة الاستقلال، موقفًا متفجّرًا حقًّا. فالصراعات بين قبائل الباتوتسي والباهيا (باتوتو) والاضطهادات والأحداث الدامية التي وقعت عامي ١٩٦٢ – ١٩٦٣، لا يتحمل مسؤوليتها إلاّ الاستعماريون البلجيكيون الذين عملوا، طوال أكثر من نصف قرن، على إذكاء نار الفتنة بين عشائر «مستعمراتهم»، بين من سموا بالرعاة الشاميين والزراع «الزنوج».

إن تخليص التاريخ من صبغته الاستعمارية تعني بالضبط القضاء على النظريات الزائفة والآراء المتحيزة التي اختلقها الاستعمار لإحكام نظام هيمنته واستغلاله على أساس أوطد، ولتبرير سياسة التدخّل. ان هذه النظريات العلمية الزائفة لا تزال تنقلها مؤلّفات كثيرة بما فيها الكتب الدراسية بمدارسنا نفسها. فكان من المهم أن نورد هنا بعض الإيضاحات.

الفصل الثاني

المغرب : توحيد المغرب في عهد الموحدين

بقلم ع. السعيدي

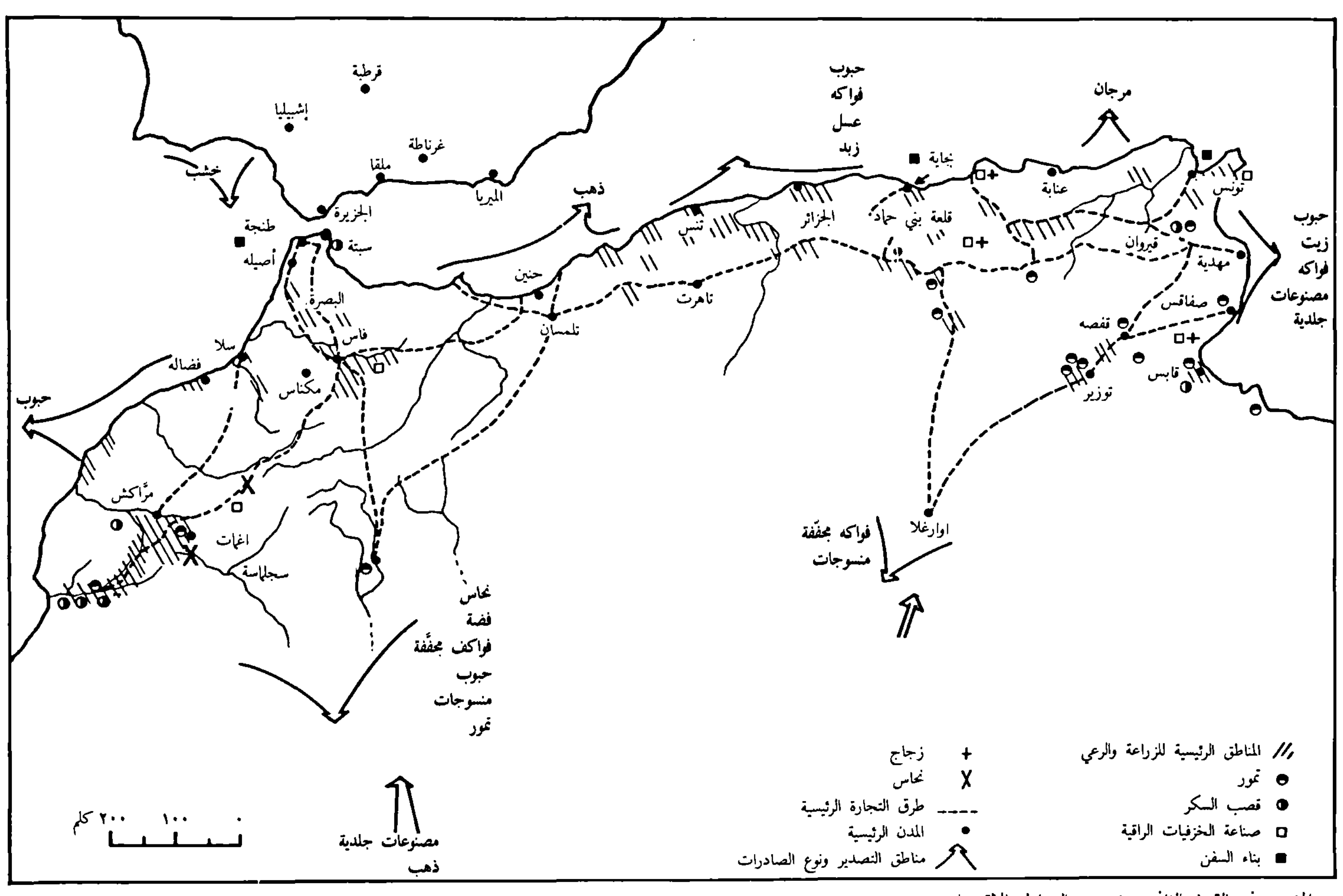
يمثّل عصر الموحّدين من منتصف القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر أوج محاولات توحيد المغرب بل الغرب الإسلامي كله. وعملية التوحيد الموحدية التي حاول أن يعيدها من تلاهم من أصحاب السلطان دون جدوى تتجاوز، بكثير من حيث مداها، محاولة المرابطين. فقد كان منطلقها حركة إصلاح دينية تزعّمها مهدي الموحدين الشهير، ابن تومرت. وقد اعتمد على جماعة منظمة تنظيمًا محكمًا هي جماعة الموحّدين ثم تطوّرت في شكل حركة سياسية شاملة. وقد قاد تلك الحركة ملوك من سلالة مؤسسها واحد من أقدم أصحاب ابن تومرت وأبرزهم شأنًا. هي سلالة بني عبد المؤمن بن علي.
ولم تكن دوافع الحركة وأغراضها دينية وسياسية فحسب، بل حدتها اعتبارات ومتطلبات وضرورات اقتصادية تنطوي على عنصرين جوهريين: يتمثّل الأول في السيطرة على الطرق التجارية الكبرى عبر الصحراء، أو على الأقل في السيطرة على محطاتها الشمالية الأخيرة. ويتمثّل العنصر الثاني في إدماج مختلف أقطاب التطور الاقتصادي في المغرب والغرب الإسلامي ببسط نفوذ الموحّدين ليشمل المغرب وأفريقيا.

الوضع الديني في المغرب ومطلب الموحّدين

الإسلام والسنّة

كانت الدعوة الشيعية الباطنية في أواسط القرن الحادي عشر لا تزال قوية على الرغم من الوهن السياسي الذي أصاب الفاطميين في مصر[1]. وكانت تلك الحركة البطيئة الساعية إلى توحيد الأمة والتي

(١) أنظر عبدالله العروي، ١٩٧٠، ص ١٦٣.



• المغرب في القرن الثاني عشر — النشاط الاقتصادي

بدأت منذ عهد بعيد – أي منذ فشل المعتزلة في أواسط القرن التاسع – لا تزال على قدر من التشتت.

ويمكن أن نميّز، في هذا المسعى إلى تحقيق الوحدة، بين سبل مختلفة لم تكن قد أفضت بعد إلى عملية تأليف مذهبية، وهي: سبيل التطهّر والزهد القائمة على دراسة الحديث والسنة، وتقع في تطرف المتصوفة، وسبيل توحيد النظام الفقهي التي غالبًا ما كانت تسقط في مهاوي الشكلية الجامدة والطقوسية شبه الآلية، وأخيرًا سبيل من اختار تعميق الأطروحات الدينية التوفيقية التي صاغها الأشاعرة وتهذيبها[٢].

لقد تميّزت هذه المباحث وهذه المحاولات التوليفية – الجزئية إن لم تكن شخصية – في مواجهتها للمذهب الشيعي وللفلسفة، كما سنرى ذلك، بمجهود حقيقي لتوحيد الجماعة. وكانت تجري مجراها منذ عهد بعيد على نحو يتناسب عكسيًا مع التفكك السياسي للمجموعة الإسلامية. وعلى ضوء هذا التطور بالذات يجدر أن نفحص وضع الإسلام والسنة في المغرب وكذلك أيضًا في الغرب الإسلامي[٣].

لقد لقي الإسلام صعوبات جمّة في توطيد أركان نفوذه في المغرب وإرساء أسس وحدته به[٤]. فقد واجه به أعظم حركات المقاومة وأطولها نفسًا وهي الحركات التي سرعان ما اتّخذت شكل «البدعة» الخارجية المتسمة بمزيج من الفوضوية والمساواتية، والتي أغوت الأوساط البدوية والمجتمعات الريفية على وجه الخصوص. وقد استفادت هذه «الهرطقة» – مرتكزة على تصورات وتقاليد وأشكال من التنظيم العرقي – من الظروف الخاصة لممارسة السلطة الإسلامية لتنغرس لدى البربر وتبشرهم ببطلان مبدأ الوراثة في تولي منصب الخلافة وبطلان أحقية قبيلة دون أخرى ولو كانت قبيلة النبي[٥].

وكان المذهب الخارجي أيضًا في المغرب قناعًا ايديولوجيًا لشتى حركات المعارضة، فقد كانت العبارة تُطلق أحيانًا حتى على المواقف التي يتميّز أصحابها بتهاون عظيم في القيام بالفرائض الدينية، بل بتعطيل الإسلام في بعض الحالات. وتُضاف إلى ذلك أيضًا – رواسب من مخلفات العرف البربري الذي كان لا يزال قائمًا – رغم مناقضته أحيانًا لأحكام الفقه الإسلامي حتى عهد يوسف بن تاشفين المرابطي.

وعلى الرغم من المجهود الجبار الذي بذله بنو أمية في الأندلس، والأدارسة وحتى الفاطميون لنشر الإسلام، وجب أن ننتظر عهد المرابطين والموحدين لكي يزول ما شاب الإسلام من شائن الشوائب وتضمحل مختلف أشكال حركات الانشقاق البربري الأكثر جلاء التي تخفي مواقف اجتماعية – اقتصادية لم تنل حتى الآن حظها من التوضيح.

وهناك خاصية أخرى من خصائص الإسلام المغربي تتجلى في اتّباع المذهب المالكي، وهو المذهب السائد إلى يومنا هذا. ذلك أن تلاميذ مالك بن أنس، من أمثال عبد الرحمن بن القاسم[٦] قد نشروا تعاليم مدرسته الفقهية ودعموا أركانها بواسطة أتباع محليين. وسرعان ما أصبحت القيروان مركز إشعاع للمذهب المالكي: فهي التي أنجبت شجرة من الفقهاء، نذكر من بينهم الإمام سحنون (٧٧٦ – ٨٥٤)

---

(٢) أنظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، فصل «الأشعري» (وُلد ٨٧٣/٨٧٤ وتوفي ٩٣٥/٩٣٦) ص ٧١٥–٧١٦ و ٧١٧–٧١٨.

(٣) من الواضح أن اعتراض ابن تومرت على ما كانت عليه الحالة الدينية في المغرب يمثل شاهدًا ملموسًا على ذلك الوضع بالذات وعلى موقف الغرب الاسلامي من مختلف المدارس الفكرية الدينية الاسلامية.

(٤) أنظر خاصة ي. جولد تسيهر، ١٨٨٧، وم. الطالبي، ١٩٦٦، ص ١٧–٢١.

(٥) أنظر بشأن نجاح هذه الآراء وموقف البربر المتخاذل، م. الطالبي، ١٩٦٦، ص ١٩.

(٦) توفي بالقاهرة سنة ٨٠٦، وقد ترك لنا المدونة وهي المؤلف الرئيسي في المذهب المالكي بعد «موطّا»، الامام الشهير مالك بن أنس.

الذي كان الداعية المتحمس لمؤلف ابن القاسم. وقد توصّل هؤلاء الفقهاء في أغلب الأحيان إلى الالتحام بسكان البلاد الأصليين، وخاصة في مواجهة الهجمة الشيعية الفاطمية في القرن العاشر[٧].

وبينما كانت دراسة أصول الشريعة الإسلامية (أي القرآن والحديث) تحتل منزلة تتضاءل يومًا فيومًا، فإن كتب الفروع (كتب الفقه العملية) كانت تمثّل أهم مرجع لتطبيق الأحكام.

وكانت هذه النزعة تفضي أحيانًا إلى ازدراء فعلي لدراسة الأحاديث، كما يشهد بذلك مثل عالم جليل كان قاضيًا بقرطبة هو أصبغ بن خاث[٨].

أما المحاولات النادرة الوجلة، مثل محاولة بقّي بن مخلد[٩]، فإنها قد تحطّمت على جدران القلعة الحصينة التي كان يمثّلها «جماعة» الفقهاء المالكية الذين غالبًا ما كانوا من كبار المالكين العقاريين.

وكان هذا الوضع يتميز أيضًا بضعف الأهمية التي كان يوليها الفقهاء للمذهبية الروحانية التي كانت سائدة في بلاد المشرق. وقد كانوا يزعمون أنهم يقفون عند «حقيقة» المعنى الحرفي لكلام الله، متجنبين كل تأويل لأنه لا يعدو أن يكون مصدر تشويه في نظرهم.

وكان هذا الموقف ينطوي على بعض الصعوبات – ان لم نقل على بعض التناقضات – خاصة فيما يتعلّق بصفات الله. وهو السبب الذي من أجله اتّهم هؤلاء الفقهاء من المالكية بأنهم من «المشبهة» وبأنهم أيضًا من «الحشوية» الذين لا يعيرون اهتمامًا إلاّ لظواهر الأمور ويتشبّثون في خضوع كامل بعلوم التطبيقات الفقهية معتبرين نجاة المؤمنين في تطبيق ظاهر الأحكام الشرعية مهملين الحياة الدينية الباطنية كل الإهمال.

وهكذا لم يكتب البقاء لأية محاولة من محاولات التجديد أو التعمق، وأفضت سيطرة أصحاب المذهب المالكي المطلقة واضطهادهم لسواهم إلى عزلة أولئك البعض من الداعين إلى سبل في التفكير والبحث كانت قد ظهرت على سواها في المشرق.

وقد أثار هذا الجمود ردود فعل قصوى باسم حرية التفكير بل باسم ضرب من ضروب الدين الكوني الشامل[١٠]، مما أدى إلى نوع من التوازي تنتفي فيه أية عملية توليفية. وهكذا فإن الأشعرية، القائمة بصورة خاصة على الجدل والتي كانت تروم استجلاء سبيل وسط بين تمسك المعتزلة بالعقل من جهة وبين المشبهة المتشبثة بحرفية النص والنقل من جهة أخرى، هذه الأشعرية كانت مفتقدة في المغرب بشكل ملموس. بل ان فلاسفة الغرب الإسلامي من أمثال ابن رشد كانوا يدفعون إلى مثل هذا التوازي إذ كانوا يصرحون بأن «التأويلات ينبغي ألا يصرّح بها للجمهور». وكانوا يرمون الأشاعرة بأنهم يفسدون عقائد العامة. وبذلك كانوا يدعون موضوعيًا إلى ما كان يدعو إليه أصحاب المذهب المالكي الذين تميّز موقفهم منهم بتسامح يبعث على الدهشة.

وفي الختام فان المذهب السنّي في المغرب وفي بلاد الأندلس كان منحصرًا في عهد ابن تومرت في نوع من الإسلام يتميّز بطغيان المشاغل التقعيدية الخالية من كل حيرة وغموض. وصار الدين مسألة احتياط وحساب وادخار. وذلك لعمري نجاح الطقوسية المقتصرة على التكرار الرتيب لبعض الشعائر حتى يضمن

(٧) أنظر ج. مؤنس، ١٩٦١، جزء ١، ص ١٩٧ – ٢٢٠.
(٨) أنظر بشأن المذهب المالكي في الأندلس، ي، جولد تسهير، ١٩٠٣.
(٩) أنظر بشأن هذا المفسر القرطبي، دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، جزء ١، ص ٩٨٦.
(١٠) أنظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، جزء ٢، مجلّد ٣، ص ٨٩٢ – ٨٩٦، فصل «ابن مسرة». توفي في ٣١٩ هـ/٩٣١ م.

صاحبها لنفسه بالمقابل «أجرًا». فليس من الغريب اذن أن يرى عدد كبير من عظاء المفكرين من أمثال الغزالي أو ابن حزم في هذه الممارسة للإسلام، وقد انحصرت في نشاط طقوس تقنيني، خطرًا يمكن أن يؤدي إلى فقدان الإيمان الحق [١١]. ولقد حمل الغزالي خاصة في كتابه الشهير «إحياء علوم الدين» على هذا الصنف من الفقهاء حملة عنيفة وعاب عليهم احتكار الحياة الدينية واستغلالها لكسب عيش رغيد عن طريق مؤسسات البر والإحسان وأموال اليتامى. كما أخذ عليهم أيضًا سفسطائيتهم لتبرير تصرفات صاحب السلطة الدنيوية الذي تربطهم، به صلة مهادنة لا يليق برجال الدين بالمعنى الحقيقي. كما أنه رد عليهم تمسكهم بالشكليات الجوفاء، وطالب بالعودة والارتواء من معين «الماء المحيي» من منهلي القرآن والسنة.

ولهذا السبب كان الغزالي هدفًا لحملة عنيفة شنها عليه فقهاء المالكية، ذهبوا فيها إلى حدّ اتّهامه بأنه قد نبذ الإيمان الحق بسبب عقيدته الأشعرية وبسبب ميوله الصوفية.

تكوين ابن تومرت

لا نعرف إلاّ النزر اليسير عن ابن تومرت [١٢]. فقد كان مصيره – كما تبدو لنا شخصيته – محاطًا بهالة من الأساطير والألغاز والقصص. ومن المرجح أنه وُلد حوالي ١٠٧٥ في الأطلس الجنوبي بالمغرب الأقصى بايجليزن – هرغه. وينتمي أبوه إلى قبيلة الهرغه [١٣]. أما أمه فتنتمي إلى قبيلة المسكالة، وهما بطنان من قبيلة مصمودة المعروفة في أيامنا هذه بالشلوح. وقد اقتضت الضرورة الإيديولوجية لدعوته وادعاؤه أنه المهدي أن يتخذ لنفسه – أو أن يأمر من يصنع له – نسبًا عربيًا وأن يجعله ينحدر من الأشراف، مع ما يتخلّل هذه الشجرة، بطبيعة الحال، من المداخلات البربرية [١٤].

ولا شك أنه كان ينتمي إلى عائلة ميسورة، لأن أباه كان يلقب «بأمغار» التي كانت تُطلق على رئيس القرية أو القبيلة في جنوب المغرب الأقصى؛ فضلاً عن كونه قد تمكّن هو نفسه من مزاولة التعلم ومن القيام برحلة طويلة إلى المشرق ليكمل التحصيل. وكانت أسرته تتميّز على حدّ قول ابن خلدون [١٥] بالورع، وكان هو نفسه قد استحق من بينهم اسم «امغو» (أي «المشعل» بلغة الشلوح) لمواظبته على الدرس والصلاة.

وفي سنة ١١٠٧ خرج ابن تومرت في رحلة طويلة يقصد إكمال معارفه. ولا تزال هذه الرحلة في مسارها ومراحلها ومداها الحقيقي موضوع أخذ وردّ كبيرين وروايات مختلفة [١٦]. ومن ناحية أخرى، فإن

---

(١١) أنظر علي مراد، ١٩٦٠–١٩٦١، مجلّد ١٨–١٩، ص ٣٧٩.

(١٢) أنظر بشأن ابن تومرت، دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، جزء ٣، ص ٩٨٣–٩٨٤.

(١٣) أنظر فيمَا يتعلّق بالمشاكل التي تثيرها هذه القبيلة البربرية، أ. ليفي – بروفنسال، ١٩٢٨، ص ٥٥ و ر. مونتانيه، ص ٦٤، وأنظر أيضًا التوضيح الممتاز في دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة ص ٢١٢–٢١٣.

(١٤) كذلك كان امر أبيه اذ صار اسمه عبدالله بعد أن كان تومرت بن اوغليد.

(١٥) ابن خلدون، ترجمة م.ج. دوسلان (فرنسية)، المجلّد ٢، ص ١٦٣.

(١٦) أنظر على سبيل المثال ابن القطان، طبعة م. أ. المكي (بدون تاريخ)، ص ٤، وابن قنفذ، ١٩٦٨، ص ١٠٠.

الثابت ، على عكس ما ترويه سيرة ابن تومرت[١٧] ، هو أنه لم يلق الغزالي ، أمام المتصوفة الكبير ، ولا حضر حلقة درسه ؛ وبالأحرى لم يكل إليه الغزالي مهمة إصلاح الإسلام بالمغرب أو تقويض سلطان المرابطين بها[١٨] . والواقع أن الاستشهاد بالغزالي واستغلال مكانته أمر متأخر كثيرًا. فاسم الغزالي لا يظهر بوصفه منطلق حياة ابن تومرت العامة إلاّ في الوقت عينه الذي بدأ يفتر فيه نفور الفقهاء المغاربة من الآراء الكلامية للإمام المشرقي الكبير[١٩] .

ويمكن تقسيم حياة ابن تومرت العامة إلى عدة مراحل. فقد كان على التوالي من الناهين عن المنكر الآمرين بالمعروف ، ففقيهًا له كلمته في مراكش ، فشيخ مدرسة جديدة في أغمات ، وأخيرًا رئيسًا لحزب وجماعة معتصمًا في تنملل وسط الجبال ومرشحًا لتولي الحكم.

ويبدو أنه قد أخذ يثير الإعجاب بعلمه وورعه في افريقيا ، وأن جماهير متزايدة الاهتمام والأعداد ما فتئت تتحلّق حوله أثناء وقفاته الطويلة العديدة.

وإن مرحلة « بجاية » ، عاصمة بني حماد الرائعة المزدهرة حيث كانت الأخلاق على جانب كبير من التساهل ، تمثّل في مسيرة ابن تومرت نحو الغرب ، أوج نشاطه بوصفه آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر. وإذ أدرك المخاطر الفعلية التي تتهدّده ، فقد توجّه إلى ملاّله ، في ضواحي بجاية حيث يبدو أنه قضى فترة طويلة كرّسها للدرس والتأمّل.

وتتسم هذه المرحلة بأهمية كبيرة بحكم ما سيكون لها من تأثير فيما بعد. ففيها التقى بعبد المؤمن بن علي الكومي[٢٠] ، الذي خلفه ، وقد كان عبد المؤمن بن علي في طريقه إلى المشرق طلبًا للعلم. واقتنع عبد المؤمن بالعدول عن رحلته والبقاء إلى جانب ابن تومرت. وقد أحاطت الأساطير بهذا اللقاء وخلعت عليه رمزية غامضة ، إلاّ أنه تجدر الإشارة إلى أن ابن تومرت لم يعد وحيدًا منذ هذا اللقاء ؛ ويبدو أن مسيرته نحو الغرب أصبحت أكثر تنظيمًا ، وما انفكّ عدد رفاقه يزداد. وحلت محل مجالس الدرس والجدل المرتجلة لقاءات تنظّم في بيوت رجال الدين. وبدأ ابن تومرت يتلقى أخبارًا عن المغرب الأقصى ، كما يحتمل أن يكون قد بدأ منذ ذلك الوقت يستقبل بعض الرسل. ويجري الاتصالات كلما توقف في مكان[٢١] .

وفي طريقه من سلا إلى مراكش رفض أن يدفع المكس. ووقعت المناظرة الفكرية الشهيرة في عاصمة المرابطين بينه وبين فقهاء البلاد في حضرة الأمير المرابطي علي بن يوسف ، وفيها أفحم ابن تومرت مناظرية المتسلطين على الأمير.

وهكذا تجاوزت انتقادات ابن تومرت المجالات الفقهية وبذلك أصبحت تشكّل خطرًا. وذلك ما حمل الوزير مالك بن وهيب على أن يشير بالتخلّص منه. إلاّ أن شخصية أخرى من حاشية الأمير ، هو ينتان بن عمر ، أجاره وأقنعه بالفرار من العاصمة.

---

(١٧) أنظر ابن الأثير ، ٤٠٠-٤٠٧ (طبعة معادة ، ١٨٧٦-١٨٩١) وهو ينفي ذلك اللقاء. وأنظر خاصة : أ. هويسي ميرندا ، « الاندلس » (فرنسية) ، ١٩٤٩ ، مجلّد ١٤ ، ص ٣٤٢-٣٤٥.

(١٨) أنظر ابن القطان ، طبعة م. أ. المكي (بدون تاريخ) ، ص ١٤-١٨ ، و ر. لوتورنو ، ١٩٦٩ ، ص ٧٩ ، نقلاً عن « الحلل ».

(١٩) أنظر ي. جولد تسيهر ، ١٩٠٣.

(٢٠) بخصوص عبدالمؤمن وبلاده ، انظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية) ، الطبعة الجديدة ، ص ٨٠-٨٢.

(٢١) لعل وضع خريطة لمسار ابن تومرت من الأمور الهامة جدًا من وجوه عديدة. وخاصة إذا نحن قارنّاها بمسيرة الفتح التي قادها عبدالمؤمن بن علي نحو الشرق في زمن لاحق.

فالتجأ حينئذٍ إلى أغمات[٢٢] حيث بدأ مرحلة جديدة من حياته العامة ، إذ أعلن الخروج على المرابطين رافضًا الذهاب إلى مراكش عندما أمره أميرها بذلك.

ومنذ ذلك الحين ، أصبح همّ ابن تومرت هو إقامة حركة الموحدين وتنظيمها. وقد أخذ الهدف السياسي لهذه الحركة – وهو الإطاحة بحكم المرابطين – يتضح يومًا بعد يوم. وشيئًا فشيئًا وجد ابن تومرت نفسه الرئيس الروحي لقوى ما انفكّت تتزايد ، وقد وحّدتها في تلك المرحلة مشاعر قبلية مناهضة للمرابطين أكثر مما وحدها الحرص على نقاء الشريعة ودقة تطبيق أحكام الإسلام.

حركة ابن تومرت الموحدية الإصلاحية

إن المبادئ والأفكار والكيفية التي صيغت بها حركة ابن تومرت الإصلاحية فيما يتعلّق بالأخلاق والعقيدة الدينية والتشريع قد اتضحت معالمها في ذهنه شيئًا فشيئًا أثناء رحلته للدراسة في المشرق وفي طريق عودته إلى المغرب الأقصى ، وأخيرًا من خلال اتصاله بأصحابه الذين تزايد عددهم يومًا بعد يوم ؛ وانتهى به الأمر إلى أن يستقر وإياهم في مسقط رأسه[٢٣].

ويتعلّق المبدأ الأول بطبيعة الحال بالتوحيد (أي تقرير وحدانية الله) وهو ما يتمثّل كما ذكر في «إثبات إله واحد ونفي ما ليس اياه من آلهة وشريك وولي وصنم ...[٢٤]». وهو يؤكّد استنادًا إلى أحاديث شتى أن التوحيد هو أول ما يجب معرفته للأسباب التالية : فهو ركن من أركان الدين وأعظم الفروض وهو دين الأولين والآخرين من الأنبياء.

ولقد دعا الموحّدون إلى مذهب روحاني للتوحيد موسوم بتأثير الغزالي. وانطوى ذلك ، في الواقع على العودة إلى منابع الإسلام ثائرين على المرابطين الذين كان يغلب عليهم الطابع الفقهي ، كما كانوا أكثر اهتمامًا بدراسة النصوص منهم بالشريعة المجردة. ولقد تميز الموحّدون بالتقشف والبساطة ، وهما صفتان استحسنهما البربر كل الاستحسان لأنهم من أهل الريف العازفين عن أسباب الترف.

ومن المهم أن نلاحظ أن المهدي كان يستعمل اللغة البربرية في خطبه بل لعله حرّر بعض الكتابات بلغته الأصلية.

وعلى الصعيد السياسي اعتمد على مجلس الأعيان على طريقة البربر وظلّ وفيًا لعادات قبيلة الشلوح.

واعتنق ابن تومرت أفكار المعتزلة الذين يعدون الله روحًا محضًا[٢٥]. ودعا إلى تأويل الآيات المتشابهات التي تستعمل فيها ألفاظ أو صيغ ذات طابع مادي أو بشري ، وخاصة ما تعلّق منها بصفات الله. فلا يصح إخضاع تفسير تلك الألفاظ أو تلك الصيغ لحدود العقل البشري بالتمسّك بالحرفية ، بل

(٢٢) بشأن أغمات ، أنظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية) ، الطبعة الجديدة ، جزء أول ، ص ٢٥٨ ، و ج. دوفيس «مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» *Revue d'histoire économique et sociale* ١٩٧٢ ، ص ٦٣ و ٦٦ و ٧٠.

(٢٣) ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، في ايغليزه ، وهي القرية التي وُلد بها ، حيث سكن غارا اعتبر منذ ذلك الحين غارًا مقدّسًا ؛ ثم ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م في تنملل في وادي نفيس الأعلى على بعد حوالى ٧٥ كلم جنوب غربي مراكش.

(٢٤) ابن تومرت ، الترجمة الفرنسية ، ١٩٠٣ ، ص ٢٧١.

(٢٥) أنظر رسالة ابن تومرت الى جماعة الموحّدين في «وثائق تنشر لأول مرة ، عن تاريخ الموحّدين» ، (ترجمة أ. ليفي – بروفنسال ، ١٩٢٨ ، ص ٧٨). وفيها يحذّر أتباعه من النزوع الى تقييد الله بحدود أو اتجاهات وهو ما يفضي بهم الى أن يجعلوا منه مخلوقًا ، لأن الذي ينتهي الى هذا يشبه من يعبد الأصنام.

ينبغي تفسيرها تفسيرًا مجازيًا تلافيًا لكل تشبيه وتكييف[٢٦]. وتلك احدى النقاط الجوهرية التي أدان المرابطين بسببها. فهم، في رأيه، من الكفار لأنهم من المشبهة. وفي هذه النقطة بالذات يقف موقفًا متطرّفًا يؤدّي بالضرورة إلى تكفير المرابطين لأنه يطبق المبدأ القائل بمسؤولية من بيدهم الأمر عن رعيتهم؛ ولذا اعتبر أن المرابطين هم المسؤولون الرئيسيون عن نزعة التشبيه السائدة في المغرب. ومن ثمّ فقد أعلن الجهاد ضدهم. وبذلك وقف منهم موقف أشد الأشاعرة والمعتزلة تطرّفًا.

ولما كان ابن تومرت يقول بالتوحيد، فقد أنكر أن يكون لصفات الله وجود مستقل وهاجم بشدة أولئك الذين جعلوا لله صفات، فنعتهم بالشرك. وثار في نفس الوقت على الأشاعرة الذين يزعمون أن لله صفات أزلية ملازمة لذاته، وعلى أهل السنة القائلين بأن تلك الصفات متميّزة عن ذاته.

وذهب إلى أن جعل لله من صفات، أي الأسماء الحسنى، لم يقصد به سوى تأكيد وحدانية الله المطلقة. فالخالق اذن حيّ بالضرورة[٢٧]؛ عليم، قدير، مريد... كل هذا بلا كيف يتسنى إدراكه.

وبعد أن برهن ابن تومرت على وحدانية الله، فتأكّد على أزليته؛ فهو الخالق ولا يمكن أن يكون قبله شيء. وهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية[٢٨]. كما أكّد بقوة على قدرة الله غير المحدودة، التي يلطفها أنه لا يكلف نفسًا إلاّ وسعها. وموقف ابن تومرت من ذلك شبيه إلى حد ما بموقف المعتزلة.

أما عن تصور البعثة النبوية، فان ابن تومرت يتبنى وجهة نظر أهل السنة، الذين تبينوا صحة بعثة رسول الله من العلامات الخارقة أي الآيات.

وفي مسألة حاسمة مثل مسألة القدر التي كان من شأنها أن تكون لها آثار سياسية – وهو ما حدث فعلاً – فقد ابتعد ابن تومرت عن مبدأي المعتزلة، أي قدرة الله وعدله؛ ورغم قوله بالحكمة الإلهية، فقد قال بالقضاء والقدر.

وثمة عنصر من مقومات مذهب ابن تومرت يختلف اختلافًا واضحًا عن مواقف أهل السنة وهو الايمان بالمهدي (أي الإمام المعصوم) الذي يهديه الله سواء السبيل. والأقوال المأثورة المتعلقة بالمهدي ترجع تاريخيًا إلى عهد الرسول الذي تنسب إليه أحاديث تنبئ بظهور المصلح، المنقذ ويكون من سلالة الرسول. وعند أهل السنة أن المهدي لا يظهر إلاّ قبيل الساعة، فيعيد الناس إلى الدين الحق ويطبق أحكامه. أما عند الشيعة فهو إمام محتجب سيظهر من جديد ويحكم بنفسه بتفويض إلهي؛ وكان الإيمان بمجيء المهدي منتشرًا بين الطبقات الشعبية، لأنه كان يرمز إلى العدل. وقد أورد ابن خلدون في القرن الرابع عشر[٢٩] ما يؤكّد أن هذا الرجاء كان لا يزال قائمًا حينذاك في مسا من بلاد السوس.

لقد جعل ابن تومرت مهمته تالية مباشرة لموت علي (ابن أبي طالب) سنة ٦٦١ هـ. فمن الواجب اذن طاعته طاعة عمياء في أمور الدنيا والدين، والاقتداء به في جميع أفعاله، وقبول أحكامه وتفويض الأمر إليه في كل شي. وطاعة المهدي من طاعة الله ورسوله لسبب بسيط، هو أن المهدي خير الناس معرفة بالله ورسوله. ويرى البعض أن إعلان ابن تومرت نفسه مهديًا هو النهاية الطبيعية لدعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ويرى آخرون أن قوله بأنه المهدي إنما هو إعمال لتقاليد وعقائد محلية[٣٠]

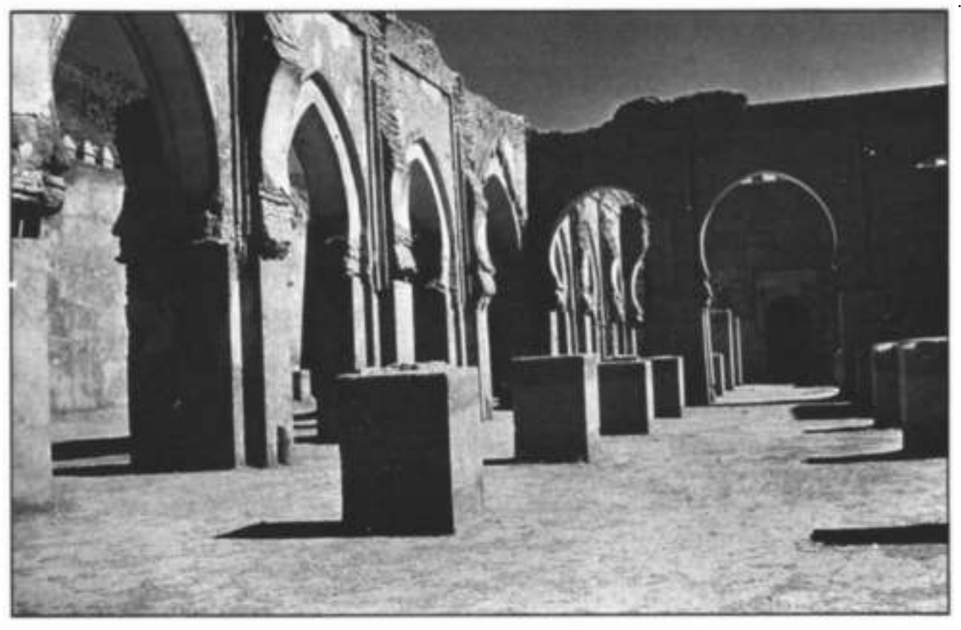
---

(٢٦) أنظر ر. بورويبة، «مجلة الغرب الاسلامي والبحر المتوسط»، عدد ١٣-١٤ / ١٩٧٣، ص ١٤٥.
(٢٧) ابن تومرت، الترجمة الفرنسية، ١٩٠٣، ص ٢٣٥.
(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٣٢.
(٢٩) ابن خلدون، الترجمة الفرنسية، ١٨٦٣ – ١٨٦٨، مجلّد ٢، ص ٢٠٠.
(٣٠) شأن صالح، نبي برغواطة وها–مين، نبي الريف.



١

٢



١. القبلة والحائط الشرقي لمسجد تنملال (مراكش).
وبصفته أول عمل كبير لجماعة الموحّدين
فإن المسجد يعتبر نموذجًا للصرامة المعمارية والزخرفية التي أراد الموحّدون فرضها.
٢. الفناء الداخلي للمسجد في تنملال

كساها ثوبًا من الأسانيد الإسلامية بالاستشهاد بأحاديث – من المحتمل أنها موضوعة – تنبئ بدور استثنائي لأهل المغرب. والمسلكان ليسا متناقضين بالضرورة. أما ما يجب ملاحظته فهو أن العقيدة المهدية تعطّل – إن صحّ التعبير – جوانب المذهب الموحدي التي كانت حريّة بأن تؤدي إلى تعميق أصول الدين تعميقًا مثريًا لإسلام ذلك العهد المتسم بالسطحية والشكلية.

وقد وقف ابن تومرت فيما يخص إعمال الرأي نفس موقف الظاهرية، فهو يرفضه لاعتقاده أنه قد يورد صاحبه موارد الخطأ. ويضيف إجابة على الاعتراض الضمني المتعلق بالشهادة إنها ليست أصلاً من الأصول وإنما هي مجرد بيان ذي قيمة نسبية[٣١].

فالأصول التي ينبغي أن تُعتمد لاستنباط الأحكام الشرعية هي إذن بالنسبة إليه القرآن والسنة، وفي بعض الحالات الإجماع والقياس. أما فيما يتعلّق بالحديث، فهو يفضل الأحاديث التي تُروى عن أهل المدينة، وهذا دليل آخر على حرص ابن تومرت على الالتصاق بأقرب المصادر إلى النبي. ولا يمكن في رأينا الأخذ بمذهب جولدتسيهر[٣٢] في تفسيره حرص ابن تومرت الشديد على أقوال أهل المدينة وأفعالهم بأنه حرص على مداراة المدرسة المالكية. أما عن الإجماع فهو عند ابن تومرت منحصر في صحابة النبي. وأما القياس فموقفه منه أكثر حذرًا، إذ أنه يستنكر القياس العقلي.

وبعد تعداد مصادر التشريع الإسلامي، يدعو ابن تومرت إلى استخدامها مباشرة وينكر الاقتصار على استعمال مؤلفات الفروع، ويغتنم فرصة تعرّضه لذلك فيهاجم الفقهاء المرابطين ويتهمهم بإهمال السنّة والإعراض عنها إلى حدّ إغفال شأن الحديث أحيانًا إغفالاً فعليًا.

فالفقه في رأي ابن تومرت ينبغي أن يغيّر وأن يثري لأن باب الاجتهاد لم يُغلق بموت ابن مالك وسائر أئمّة المدارس الفقهية، ويمكن لكل متبحر في علم أصول الفقه أن يستنبط الأحكام الشرعية من تلك المصادر بنفسه. وأنكر ابن تومرت الانتماء إلى مذهب فقهي لأن اختلاف الآراء حول مسألة بعينها عبث. وهو يؤكّد في نفس السياق، شأنه شأن الظاهرية، على استحالة حصر تطبيق أمر من الأوامر في حالات خاصة إذا صيغ صياغة عامة.

تنظيم الحركة الموحدية: «حزب» دعوة وتلقين مذهبي ونضال

من الأرجح أن ابن تومرت قد وجد نفسه، شيئًا فشيئًا منذ اعتزاله في أغمات، يتصدّر حركة أخذت منذئذ تتسع لا لتبلغ أهدافًا ليست دينية فحسب، بل سياسية أيضًا، ولتضم إلى صفوفها سكان الأطلس.

وتطلّعًا إلى ذلك، بدأت تخامر ذهن ابن تومرت فكرة إعلان نفسه مهديًا، إذ حرص منذ حلوله ايغيليز سنة ١١٢١ على الاقتداء بالرسول، لا سيّما بسكناه غارا (الغار المقدّس)، وبذلك هيأ العقول لظهور المهدي الذي لم يكن أحدًا سواه. وأعلن نفسه مهديًا على لسان عشرة من أصحابه، ومنهم عبد المؤمن بن علي، الذي يذكروننا بالعشرة المبشرين بالجنة[٣٣]. وتمت المبايعة تحت شجرة كما في بيعة الرضوان. وسميت حملات ابن تومرت غزوات، شأن غزوات الرسول. أما اعتزاله في تنملل فقد سمي

---

(٣١) جولد تسيهر، ١٩٠٣، ص ٤٦.
(٣٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.
(٣٣) دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، طبعة جديدة، جزء ١، ص ٧١٤.

هجرة ، وشبه سكان تلك الجهة ، أهل تنملل ، بالأنصار.

وبعد هذه الخطوة الأولى من التنظيم ، أتاحت بعض الاشتباكات الخفيفة لابن تومرت الاستيلاء على معظم الأطلس الجنوبي وبلاد السوس ، وأصبحت كل قبائل المصامدة على استعداد لمناصرته.

على أن ضغط المرابطين أخذ يزداد ، فرأى ابن تومرت أن من الأسلم الانسحاب إلى موقع يكون الدفاع عنه أيسر ، فهاجر سنة ١١٢٣ م الى تنملل. ويبدو أن نزوله في تلك البلدة قد اقترن بالعنف وأن أهل تنملل من طبقات الموحدين كانوا يظهرون بمظهر المجموعة غير المتجانسة ، وهو ما يحمل على افتراض أن السكان الأصليين قد أبيدوا وحلّت محلهم مجموعة مختلطة من الأنصار من الموحدين.

وبعد ذلك استغلت حركة الموحدين ما كان يلاقيه المرابطون في اسبانيا من مصاعب ومن عداء القبائل الجبلية لهم ، فأخذت تتوسّع وتعزّز جانبها. لكن صفوف الموحدين شهدت الكثير من الخلافات الداخلية. ولم يكن المصامدة ، المنقسمون إلى جماعات صغيرة عديدة ، على استعداد للاندماج في تجمع أوسع.

وبالفعل ، فقد امتدّ التنظيم البنيوي لأنصار الحركة إلى مرافق الدولة. ولهذا السبب فإن دراسة تنظيم الأنصار يمكن أن تكون نهجًا مثمرًا لبيان أسس الصرح الموحدي واتجاهاته والعوامل التي كانت دون سواها حاسمة التأثير.

فالعشرة يتميزون بالعلم والقدرة على القيادة وروح التضحية. وكانوا أصحاب ابن تومرت قبل إعلان مهدوتيه[٣٤] باستثناء «أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي» الذي عيّن تعيينًا بعد التوحيد. وهو ينتمي إلى قبيلة هنتاتة[٣٥] الكثيرة العدد ، وكان من أكبر رؤسائها. ونلاحظ من جهة أخرى أنه لا يوجد في هذه المجموعة أي عضو من قبيلة هرغه.

أما مجلس الخمسين فقد تكوّن تدريجًا[٣٦]. ويمثّل الخمسون قبائل الموحدين التي قامت عليها الحركة والقبائل التي انضمت إليها في أوقات مختلفة[٣٧] : ؛ فقبيلة هسكورة، على سبيل المثال، لم تنضم الى الحركة إلاّ في عهد عبد المؤمن بن علي[٣٨] . وهذا ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن هذا المجلس كان بدون شك في طور التكوين في ايغليزه وبدأ يتّخذ صورته العملية في تنملل[٣٩] . والراجح أن بعض القبائل كانت ممثلة في ذلك المجلس قبل انضمامها الجماعي إلى الحركة.

ولعلّ جماعة «الطلبة» كانت سابقة على الفئتين السابقتين. فصاحب «المعجب»[٤٠] يذكر أن ابن تومرت كان ، قبل أن يتلقّب بالمهدي ، يرسل إلى القبائل رجالاً يثق بحصافتهم ليدعوها إلى مناصرة قضيته. وهكذا كان هؤلاء الطلبة دعاة الحركة ، وقد استمرّ نشاطهم بطبيعة الحال بعد إعلان ابن تومرت لمهدويته[٤١] .

وكان لكل تنظيم من تلك التنظيمات دور محدّد يساعدنا على أن ندرك كنهه إدراكًا أفضل.

(٣٤) ع. و. المراكشي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٨٨ ، وابن ابي زرع الفاسي ، ترجمة لاتينية ، ١٨٤٣ ، ص ١١٣.
(٣٥) ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٨٧ و أ. هويسي ميرندا ، ١٩٥٧ ، مجلّد ١ ، ص ١٠٣.
(٣٦) «وثائق تنشر لأول مرة عن تاريخ الموحّدين» ، المرجع السابق ، ص ٣٥-٣٦.
(٣٧) المرجع نفسه ، ص ٢٨ ؛ ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٢٨ ، ٩٢-٩٣.
(٣٨) المرجع نفسه ، ص ٧٦ ؛ ابن خلدون ، ١٩٥٦ ، مجلّد ٦ ، ص ٤٧٦.
(٣٩) أ. هويسي ميرندا ، ١٩٥٧ ، مجلّد ١ ، ص ١٠٣.
(٤٠) ع. و. المراكشي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٨٧.
(٤١) «وثائق تنشر لأول مرة عن تاريخ الموحّدين» ، ص ١٣٢ ؛ ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٨٤ – ٩٣.

العشرة – أهل الجماعة

ان الاسم المزدوج للمجلس الذي تورده المصادر[٤٢] التي تتحدّث في الوقت نفسه عن العشرة وعن أهل الجماعة ، يجعل من العسير أن نعرف ما إذا كانت التسمية تتعلّق بالجهاز ذاته أو بعدد الأشخاص الذين يتركّب منهم. فعدد هؤلاء وترتيبهم يختلف باختلاف المصادر التي تجعلهم سبعة وعشرة واثني عشر[٤٣] . وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن رقم عشرة قد أُطلق على المجلس حرصًا على تشبيهه بعدد صحابة الرسول. ولا شكّ أن عددهم الحقيقي قد تغيّر إمّا باستبعاد البعض منهم كما حدث «للفقيه الأفريقي»[٤٤] أو نتيجة إحلال نفر من الصحاب محل غيرهم. ومن جهة أخرى يذكر بعض المؤلّفين[٤٥] أشخاصًا ينتمون في الوقت نفسه إلى العشرة والى «أهل الدار» «وهم جماعة بيت المهدي أو مجلسه الخاص) ، وهذا يفترض نوعًا من المرونة والاتصال الوظيفي بين التنظيمين.

ويختلف نظام ترتيب أعضاء مجلس العشرة حسب المصادر ، ولا يساعدنا كثيرًا على إدراك أهمية كل منهم ودوره. وتجعل أغلب المصادر لعبد المؤمن بن علي مكان الصدارة ، وربما كان ذلك لأنه خلف المهدي ؛ في حين يجعل بعض الكتّاب هذه المكانة إمّا لعبد الواحد الشرقي أو البشير الونشريسي المشهور ، صاحب «التمييز» الشهير لسنة ١١٢٨ – ١١٢٩ م ، الذي كان يبدو مؤهّلاً أكثر من سواه لخلافة المهدي لو لم يمت في معركة البحيرة[٤٦] .

وكان أعضاء مجلس العشرة أو أهل الجماعة بالنسبة إلى المهدي بمثابة الوزراء. فهم أهل ثقته ، يشاورهم في المسائل الهامة ويكلفهم بتنفيذ القرارات الكبرى[٤٧] . ومن بين هؤلاء البشير الذي كثيرًا ما تولى القيادة العسكرية ، وعبد المؤمن وعمر أصنج وموسى بن تمرة الذين تولوا هذه المهمة في مناسبات مختلفة[٤٨] ، وتولى آخرون مهام الكتاب أو القضاة[٤٩] ، الخ...

مجلس الخمسين

ويلي ذلك مجالس الشورى. ويبدو أن أهمها كان مجلس الخمسين (أهل الخمسين) كما يبدو أن عدد خمسين هو نقطة الانطلاق التي تتفق عليها المصادر ، إلاّ أن مصادر أخرى تذكر رقم سبعة أو أربعين أو سبعين[٥٠] . وقد أسلفنا كيف كان ذلك المجلس يمثّل القبائل التي انضمّت إلى الموحّدين ، إلاّ أن حركة

---

(٤٢) أنظر : «وثائق تنشر لأول مرة عن تاريخ الموحّدين» ، المرجع السابق ؛ فالبيذق يسميهم أهل الجماعة فحسب ، أنظر ع. و. المراكشي. ١٩٤٩ ، القاهرة ، ص ١٨٨ و٣٣٧ ؛ وابن القطان (بدون تاريخ) ص ٢٨ و ٣٠ و ٧٤ و ٧٦ ؛ وابن ابي زرع الفاسي ، ترجمة فرنسية ١٨٤٣ ، ص ١١٣.

(٤٣) ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٩٧.

(٤٤) المرجع نفسه ، ص ٩٧.

(٤٥) «وثائق تنشر لأول مرة عن تاريخ الموحّدين» ، ص ٣٤.

(٤٦) أنظر أ. ف. موسى ، في «أبحاث» ، ١٩٧٠ ، مجلّد ٢٣ ، ص ٥٩ وحاشية ٤٢ ؛ «وثائق تنشر لأول مرة...» ، ص ٣٦ ؛ ابن القطان (بدون تاريخ) ص ١٠٢ – ١٠٣ ؛ وأ. هويسي ميرندا ، ١٩٥٦ – ٥٩ ، مجلّد ١ ، ص ١٠١ .

(٤٧) أنظر ابن القطان ، ص ٧٤ – ٨١ ؛ والحلل الموشية ، طبعة فرنسية ، ١٩٣٦ ، ص ٨٨.

(٤٨) «وثائق تنشر لأول مرة...» ، ص ٧٥ ، وابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ١١٧.

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ٣٣ ، وع. و. المراكشي ، ١٩٤٩ ، ص ٣٣٨.

(٥٠) ابن القطان (بدون تاريخ) ص ٢٨ – ٢٩ و ٣٢.

الانضمام تجعلنا نفترض تغييرًا مستمرًا في عدد أعضائه ، وهو ما قد يفسّر ما تذكره المصادر من أرقام تتراوح بين أربعين وسبعين[٥١] . وأخيرًا فلعل السبعة الذين تذكرهم بعض المصادر[٥٢] ليسوا إلاّ جماعة من مجلس الخمسين قد تكون ممثلة للقبائل الثلاث الكبرى ، وهي قبيلة هرغا وأهل تنملل وقبيلة هنتاتة. أما رقم سبعين فقد يكون نتيجة توليف بين مجلس الخمسين وجهاز موحدي آخر[٥٣] .

والمجموعات المهيمنة هي أهل تنملل ، وهي مجموعة غير متجانسة ، وهرغا قبيلة المهدي وقبيلة جنفيسة ، وقد تحالفت المجموعات الأولى منذ بداية الحركة مع قبيلة هنتاتة[٥٤] .

ويُشار إلى الخمسين باعتبارهم أصحاب مشورته[٥٥] .

الطلبة

يبدو أن هذه اللفظة ، التي سكتت المصادر عن ذكر أصلها ، من اختراع الموحدين[٥٦] . فمنذ كان المهدي حيًا كان هناك عدد كبير من الطلبة . وقد أرسل عددًا كبيرًا منهم سنة ١١٢١ م إلى السوس[٥٧] ، وهو ما يجعلنا نفترض أن هؤلاء المبعوثين من مريدي ابن تومرت الذين كان يعدّهم ويعلّمهم أثناء مجالس النقاش والمجادلة التي كان يعقدها بلا انقطاع في طريق عودته إلى المغرب الأقصى. وقد أكسبه مروره بمراكش مزيدًا من هؤلاء الطلبة . ولعلّ تدريسه في ايغليزه مدة سنة تقريبًا قبل إعلان مهدويته ، قد دعم هذه الجماعة من المريدين[٥٨] .

الكافة

هي عامة الموحدين . ولم تبق هي الأخرى دون تنظيم لأن ابن تومرت جعل من القبيلة وحدة سياسية ودينية معًا . وجعل على رأس كل عشرة أنفار نقيبًا[٥٩] ، وكان غالبًا ما يعمد إلى عرضهم . وكان لكل فئة من الموحّدين رتبة . وبلغ عدد الرتب فيما رواه ابن القطان[٦٠] أربع عشرة . وقد أتاحت هذه الأشكال التنظيمية تلقينًا مذهبيًا مكثفًا وناجعًا في أغلب الأحيان . ويبدو أن الغاية المزدوجة منه كانت خلق شعور لدى الموحّدين بالانفراد بصفات تميزهم وابتعاث موقف عداء عنيف

---

(٥١) في ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ، أضيف أكثر من عشرة أشخاص ، حسب أ. ليفي - بروفنسال ، المرجع السابق ، ص ٣٥ ، الى مجلس الخمسين بعد عملية تطهير.

(٥٢) ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٣٠-٣١ ؛ أ. ليفي - بروفنسال ، المرجع السابق ، ص ٣٣-٣٥.

(٥٣) هما إما الخمسون وأهل الجماعة أو الخمسون وأهل الدار ، أنظر ج.ف.ب. هوبكنس ، ١٩٥٨ ، ص ٩٠.

(٥٤) أنظر أ.ف. موسى ، المرجع السابق ، ص ٦٣.

(٥٥) ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٧٥ و ٨١ ؛ ابن ابي زرع الفاسي ، ترجمة فرنسية ، ١٨٤٣ ، ص ١١٤.

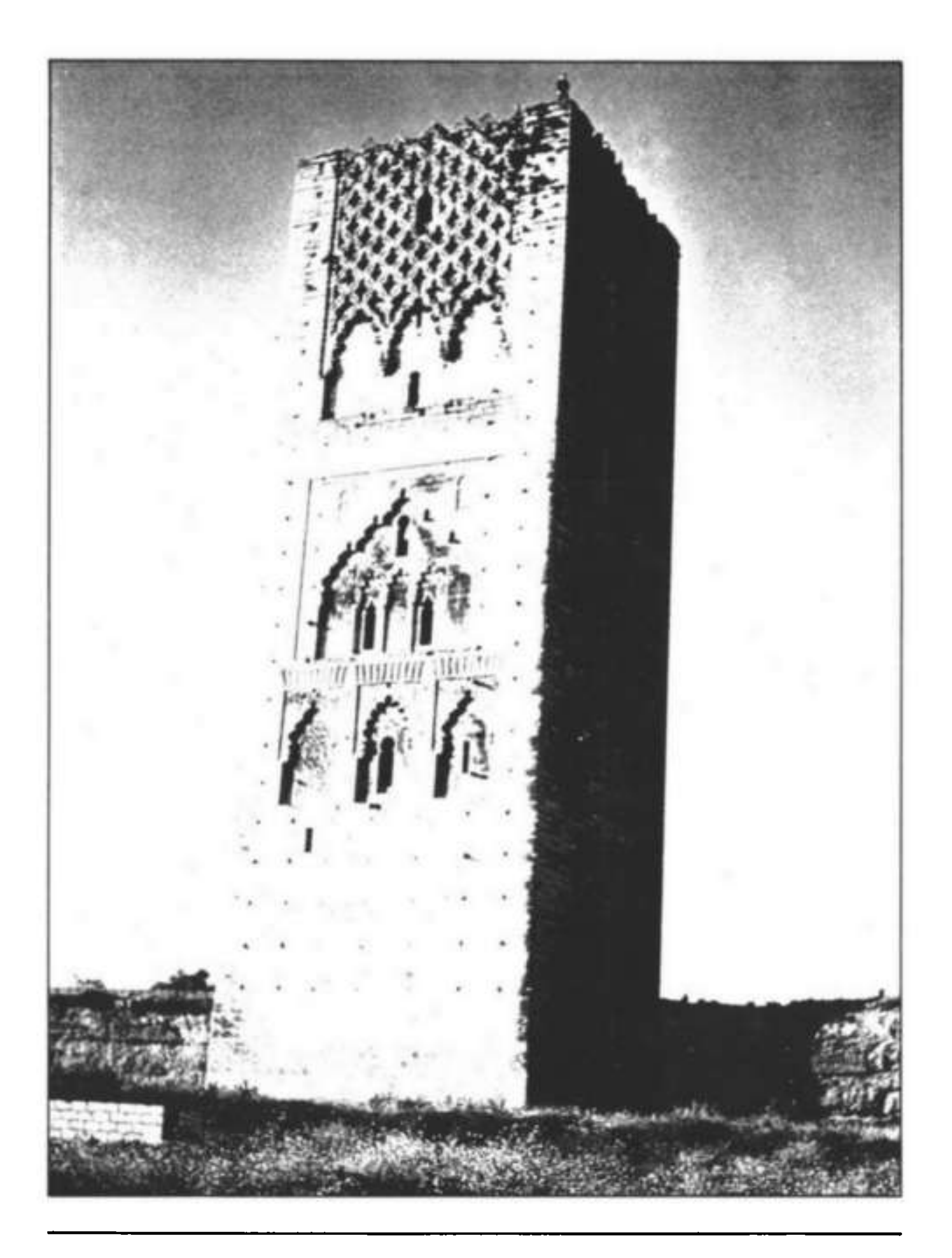
(٥٦) ابن عذاري ، في ا. هويسي ميرندا ، ١٩٦٥ ، مجلّد ٣ ، ص ١٨.

(٥٧) ألفا وخمسمائة حسب ابن أبي زرع الفاسي ، ترجمة تورنارغ ، ١٨٤٣ ص ١١٣.

(٥٨) أنظر ابن القطان (بدون تاريخ) ، ص ٨٧ و ٩٣ ؛ أ. ليفي - بروفنسال ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ ؛ ابن أبي زرع الفاسي ، المرجع السابق ، ص ١١٣ ، والسلاوي ، مجلّد ٢ ، ص ٩٢.

(٥٩) أنظر ابن القطان ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ والحلل الموشية ، ١٩٣٦ ، ص ٨٩ ، حيث يقول ان النقيب يسمّى أيضًا مزوارًا. وأنظر بهذا الخصوص ابن القطان ، ١٣١٦ ، أ. هـ. ، مجلّد ١ ، ص ٩٣.

(٦٠) أنظر ابن القطان ، المرجع السابق ، ص ٢٨-٢٩ و ٨١.



• مئذنة مسجد حسن الذي لم يتمّ في الرباط.
وهو مثال جيد على فن زخرفة المساحات
لدى الموحّدين.

ومطلق لديهم إزاء غير الموحّدين. ولا شكّ أن هذا الموقف المزدوج قد ضمن لهم طاعة مطلقة وليدة نظامهم التربوي. وقد كان هذا النظام قائمًا على ثلاثة عناصر، هي : آراء ابن تومرت، وما سمح به من مصادر وسبل تؤدي إلى المعرفة، وما وضعه من أساليب لبلوغ المعرفة. ولا يمكن إرجاع آراء ابن تومرت إلى مذهب آخر سابق. إذ أن آراءه تتميّز بانتقائية مذهبية قائمة على التنوّع، ساعدت الموحّدين فيما يبدو على الشعور بالاختلاف عن الغير وبالاتحاد، بل وبالانعزال في هذا التميّز في فهمهم للدين الحق بالنسبة إلى سائر المسلمين.

لقد قطع مذهب ابن تومرت الصلة تمامًا مع الممارسات التي كان المالكية يحرصون عليها[٦١]. فقد كان على الموحّدين أن يتميّزوا عن غيرهم حتى في اللباس، وأن يجتنبوا الأماكن التي لا يدعو فيها الناس إلى وحدانية الله[٦٢]، حتى يشاطروا إخوانهم اتّباع الدين الحق مسلكهم.

وقد درّس ابن تومرت كل هذه التعاليم دون كلل ولا ملل في شكل خطب في أول الأمر ثم في شكل مؤلّفات مشروحة شرحًا مستفيضًا، جاهدًا في ربط العلم بالعمل، مستعملاً اللغتين العربية والبربرية[٦٣]، مكيّفًا عمله التكويني حسب مختلف مستويات الفهم لدى الجمهور[٦٤].

وكانت هذه الأساليب التعليمية تتميّز بصرامتها المفرطة في أكثر الأحيان مما يكفل طاعة عمياء قد تؤدي بالموحد إلى حد إعدام أبيه أو أخيه أو ابنه ان هو أمر بذلك. وكثيرًا ما تجلّت هذه الصرامة في عمليات تطهير بلغت أحيانًا حد المذابح الحقيقية[٦٥].

على أن تنظيم الموحّدين لم يبق ثابتًا. إذ لا نجد ذكرًا لأهل الجماعة وأهل الخمسين بعد موت ابن تومرت إلاّ بمناسبة بيعة عبد المؤمن، وهو ما يحمل على افتراض أن عبد المؤمن قد حلّ هذين المجلسين. وفعلاً فإن ابن تومرت قد مات بعد هزيمة البحيرة النكراء. ويبدو أن مشكلة خلافته قد زعزعت وحدة الموحّدين. الأرجح أن عبد المؤمن، الذي يبدو أنه أحس بعزلة شديدة، قد رأى أن من الحنكة أن يتعاون مع الشخصيات المنتمية إلى هذين التنظيمين دون اعتبار للتنظيمين ذاتهما[٦٦]. وهو ما قد يفسر ظهور مجلس شيوخ الموحدين الذي يبدو أنه قد حلّ محل مجلسيّ أهل الجماعة وأهل الخمسين.

ويبدو أن هذا التحوير التكتيكي هو سبب الاضطرابات التي وقعت في صفوف أعيان الموحّدين وتجلّت في ثورة ابن ملوية سنة ١١٣٣[٦٧].

وإن الأهمية والدور المتعاظم للشيوخ الذين سعوا إلى تكوين سلطة موازية لسلطة الخلفاء أمرهما معروف، وهو ما حدا بالخليفة الناصر إلى أن يكيل لهم ضربة قاضية زعزعت مكانتهم عشية معركة

(٦١) ابن تومرت، لوشياني، ١٩٠٣، ص ٢٥٨ – ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٩٠، ٢٩٦؛ وابن القطان، طبعة م. أ. المكي، ١٩٦٤، ص ٤٢، ٤٦ و ٨٥.

(٦٢) ابن تومرت، المرجع السابق، ص ٢٦١، ٢٦٣ و ٢٦٤.

(٦٣) ع. و. المراكشي، م.س. العريان، ١٩٤٩، ص ١٨٨؛ الأنيس المطرب، «بروض القرطاس»، تورنبرغ، ١٨٤٣، ص ١١٤.

(٦٤) ابن القطان، المرجع السابق، ص ٢٤ و ٢٩ و ١٠٣؛ ع. و. المراكشي، المرجع السابق، ص ١٩١. والأنيس المطرب، «بروض القرطاس»، المرجع السابق، ص ١١٨–١١٩.

(٦٥) ف.ا. موسى، المرجع السابق (١–٤)، ص ٧١–٧٢.

(٦٦) أ. هويسي ميرندا، ١٩٥٦ – ١٩٥٩، مجلّد ١، ص ١٠٢.

(٦٧) ابن عذاري، طبعة دار الثقافة، ١٩٦٧، مجلّد ٣، ص ٢٤٠ – ٢٤١؛ وابن أبي زرع الفاسي، أ. هـ. تورنبرغ، ١٨٤٣، ص ١٦٩.

العقاب، لعلها سبب تلك الهزيمة النكراء[٦٨]. ولا شكّ أن ضعف الخلافة الموحدية قد أمدهم بقوة جديدة. فكوّنوا آنذاك عصبة ضاق بها الخليفة المأمون ذرعًا بحيث ذهب إلى حدّ إلغاء العقيدة المهدية.

وقد كان أبناء أعضاء أهل الجماعة وأهل الخمسين – حسبما يذكر ابن خلدون – أكثر عددًا بين الشيوخ[٦٩] وخاصة منهم شيوخ هنتاتة وأهل تنملل، في حين أن قبيلة هرغا لم يظهر من بينها شيوخ ذوو تأثير، ولعلّ ذلك هو السبب في ثورة أخوي المهدي.

ويبدو أن مجلس الشيوخ كان تنظيمًا قصد به توسيع قاعدة الحركة الموحّدية. فقد كان نموذجًا نظمت على منواله قطاعات جديدة انضمت إلى الحركة، فظهر مجلس شيوخ العرب[٧٠] ومجلس شيوخ الجند الأندلسيين[٧١] الذي غلبت عليه مع ذلك النزعة العسكرية.

وكانت جماعة الطلبة محل عناية خاصة أولاها إياهم عبد المؤمن. وقد ظلّ لدورهم الدعائي أهمية بالغة بعد احتلال مراكش كما يتضح من الرسائل الرسمية، ومنها تلك التي أرسلها عبد المؤمن إلى طلبة الأندلس سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م.

على أنهم اكتسبوا صلاحيات أخرى ومارسوا نشاطهم في مختلف المجالات من تربية وتعليم وإدارة وجند. ولئن كان واجبهم يتمثّل بصورة خاصة في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فإنه يبدو لنا أنهم أصبحوا، مع اتّساع الأمبراطورية، ينهضون شيئًا فشيئًا بدور «المندوبين السياسيين» و«الايديولوجيين» بين أفراد القوات المسلحة وبصورة خاصة في البحرية[٧٢].

ولقد ظلّ الموحّدون على موقفهم الطائفي مدة طويلة[٧٣]، لكن يبدو أنهم فطنوا منذ وقت مبكر[٧٤] إلى كونه عاملاً من عوامل العزلة السياسية، وهو ما يفسر تخلي المأمون عن عقيدة المهدي[٧٥].

توحيد المغرب على يد الخلفاء الموحّدين من بني عبد المؤمن

كوّنت حركة الموحّدين تجمّعًا أخذت غايته السياسية تتضح شيئًا فشيئًا: وهي إقامة نظام حكم جديد لتطبيق إصلاحات ابن تومرت. وأدرك المرابطون ذلك تمامًا. وتميّزت بداية المواجهة بثلاثة أحداث ذات

(٦٨) ابن عذاري، المرجع السابق، ص ٨٥؛ ابن صاحب الصلاة، ١٩٦٤، ص ١٤٨، ٣٢٤، ٣٩٩–٤٠٠؛ وابن الأثير، ١٩٦٧، مجلد ١١، ص ١٨٦.

(٦٩) ابن خلدون، ١٩٦٥ – ١٩٦٩، مجلّد ٦، ص ٥٣٤، ٥٤٢، ٥٤٥ و ٥٤٦.

(٧٠) ابن صاحب الصلاة، المرجع السابق، ص ٢١٨، ٣٩٩ – ٤٠٠، ابن عذاري، المرجع السابق، مجلّد ٣، ص ٨٥.

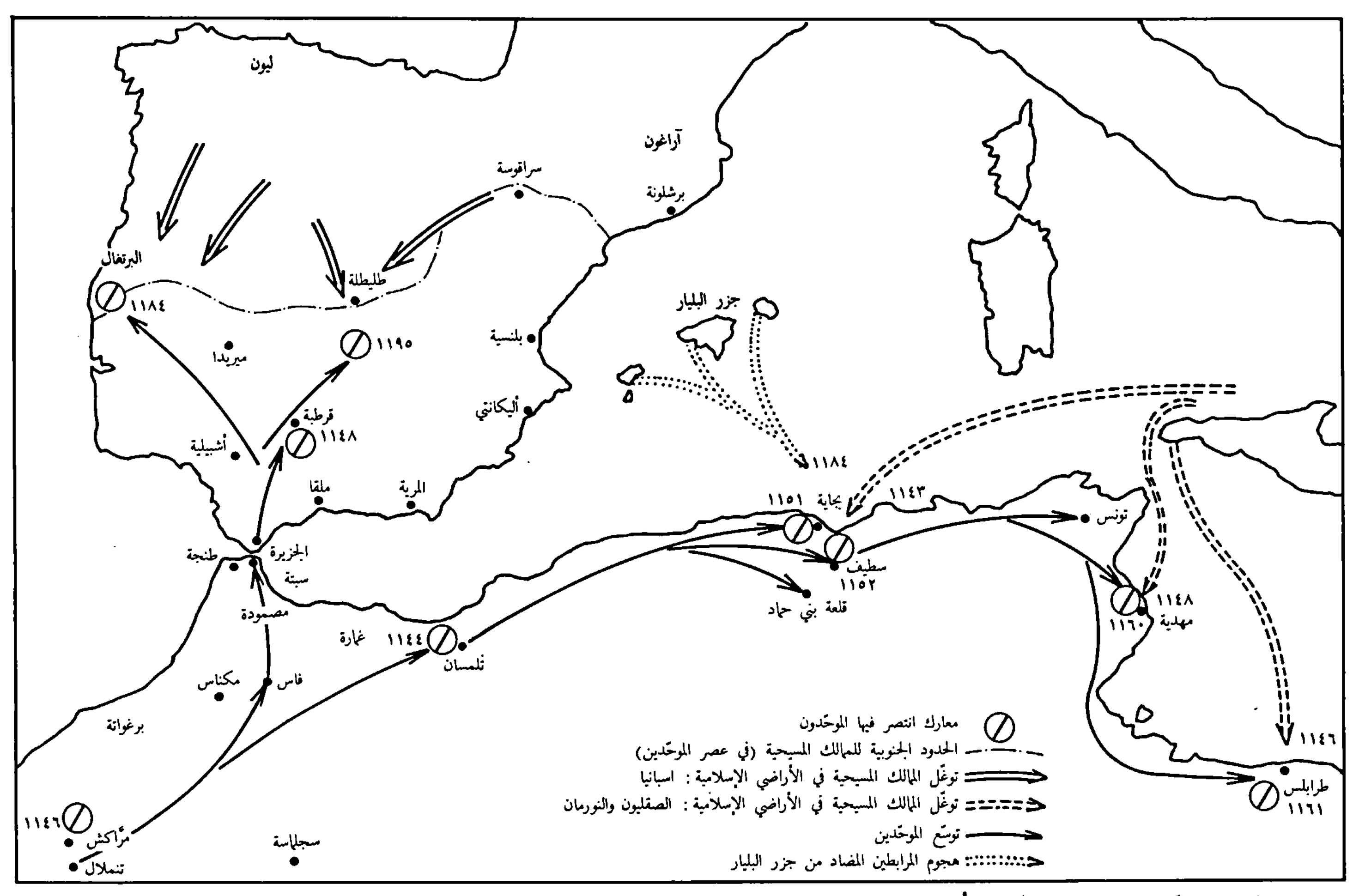
(٧١) ابن القطان، ١٩٦٤، ص ٢٢٦.

(٧٢) أنظر: نص الرسالة في ابن القطان (المرجع السابق، ص ١٥٠ وما بعدها) و أ. ليفي – بروفنسال، «هسبريس»، ١٩٤١، ص ٦، وبشأن لجنة من الطلبة للاشراف على بناء مدينة جبل الفتح؛ أنظر ابن عذاري. (المرجع السابق، مجلّد ٤، ص ٤٣–٤٤) وعن الدور الاداري الذي كان يقوم به الطلبة في قفصة بعد استرجاع الموحّدين اياها سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م. أنظر أ. ليفي – بروفنسال، المرجع السابق، ص ٢١٥.

(٧٣) أنظر أ. ف. موسى، المرجع السابق، ص ٢٣؛ ابن عذاري، المرجع السابق، مجلّد ٤، ص ٨٥.

(٧٤) أ. المراكشي، ١٩٤٩، ص ٢٩١ – ٢٩٢.

(٧٥) ابن عذاري، المرجع السابق، مجلّد ٣، ص ٢٦٣–٢٦٨؛ ابن خلدون، ١٩٦٥–١٩٦٩، مجلّد ٦، ص ٦٣٠ – ٦٣٧؛ وابن أبي زرع الفاسي، أ. هـ.، ١٨٤٣، ص ١٦٧–١٦٨.



• الفتح الجديد للموحّدين (خريطة مستمدّة من أ. سعيدي)

أهمية قصوى: فقد فشل المرابطون أمام «أغمات» وأحرز الموحّدون أول نصر لهم في «كيك»، سنة ١١٢٢ م[٧٦] وجعلوا في الحال من مراكش هدفهم، فحاصروها مدة أربعين يومًا. لكن فرسان المرابطين هزموهم شر هزيمة في معركة البحيرة (سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م)[٧٧] التي كانت نكبة على الموحّدين، إذ قُتل فيها البشير الونشريسي، أحد صحابة ابن تومرت المرموقين، وعاد عبد المؤمن – وهو مثخن بالجراح – بما تبقّى من فلول الجيش الموحّدي إلى تنملل بمشقة شديدة[٧٨].

وفي هذه الظروف العسيرة توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ/١١٣٠ م. والمرجح أن تنظيم أمر خلافته وتولى عبد المؤمن بن علي مقاليد الأمور سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م. لم يكونا دون مشاكل. ودفن ابن تومرت في تنملل، وذكر ليون الأفريقي أن ضريحه كان لا يزال موضع الإكبار بعد مضي خمسة قرون على وفاته.

عهد عبد المؤمن بن علي وتأسيس الامبراطورية (١١٣٣ – ١١٦٣ م)

من الأرجح أن تكون حركة الموحدين قد شهدت اثر موت ابن تومرت أزمة طويلة نسبيًا، رغم افتقارنا الشديد إلى المعلومات عن هذه الأزمة. وقد فسر تولي عبد المؤمن الحكم تفسيرات شتى. وفي رأينا أن التفسيرات «القبلية» تبدو لنا مفرطة في السطحية، وأن «جان ديفيس»[٧٩] على حق في اعتباره من صميم هذه القضية دور عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت ودوره في إطار الحركة منذ لقائهما في ملالة. ومن هذه الزاوية، فان توليه مقاليد الأمور الذي يبدو أن أبا حفص عمر الهنتاتي، وهو أيضًا من أصحاب ابن تومرت، قد نهض فيه بدور فعال، ينبغي أن ينظر إليه بوصفه تجاوزًا للدعوة المحلية، وهو تجاوز يحتمل أن يكون هدفًا شخصيًا توخاه عبد المؤمن نفسه. فهل تراه قد طور الفكرة التي ارتسمت ملامحها منذ لقاء ملالة، والتي تتمثّل في إعادة توحيد المغرب في ظل الامتثال الصارم لأحكام الإسلام؟ أم أنه أتى ذلك مؤسسًا امبراطورية لصالحه الخاص ولصالح أسرته؟ أم أنه أخيرًا – وهو الأرجح – قد توخى الأمرين معًا؟

وطوال حكم طويل دام ثلاثين سنة فان عبد المؤمن، الذي تولى مقاليد السلطة وسنّه خمس وثلاثون، قد كشف عن صفات رفيعة بوصفه قائدًا عسكريًا ورئيسًا حازمًا لائتلاف ظل إلى ذلك الحين غير متجانس، وبوصفه رجل دولة. وكانت هذه الخصال ضرورية حتى ينجح في مهمته المزدوجة: مجاهدة المرابطين وتنظيم الحركة الموحّدية وتدعيم أركانها قصد التوصل إلى فتح المغرب وإخضاعه وإحلال السلام في ربوعه وتدعيم أركان السلطة السياسية.

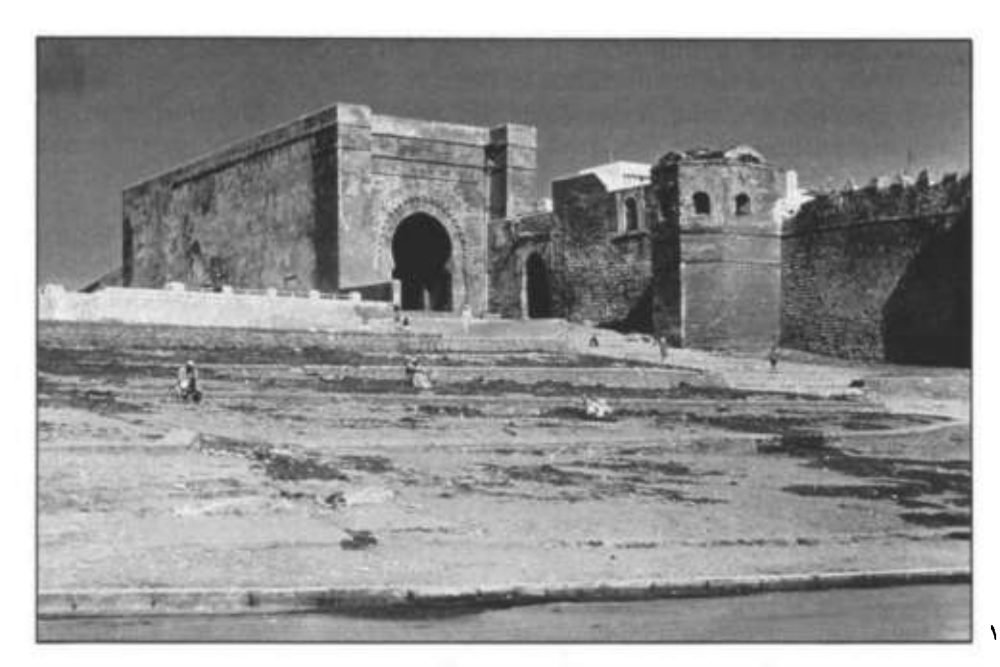
وقد أنجز هذا العمل – الذي تبيّن أنه طويل وشاق – بإحكام تام وعلى مراحل عديدة وفق

(٧٦) «وثائق تنشر لأول مرة عن تاريخ الموحّدين»، المرجع السابق، ص ١٢٢ وما بعدها.

(٧٧) ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م. حسب أ. ليفي – بروفنسال، في دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، طبعة جديدة، مجلّد ٣، ص ٩٨٤.

(٧٨) بشأن معركة البحيرة، انظر «الحلل الموشية»، ١٩٣٦، ص ٩٤ «ست قطع تنشر لأول مرة عن تاريخ مجهول المؤلف عن بداية الموحّدين»، ترجمة أ. ليفي – بروفنسال، ١٩٢٥؛ «قطعة ٤»، وابن الأثير، ترجمة فرنسية، تورنبرغ، ١٨٧٦ – ١٨٩١، مجلّد ١٠، ص ٤٠٧؛ وابن الأثير، ترجمة فرنسية، فانيان، ١٩٠١، ص ٥٣٦.

(٧٩) ج. ديفيس، عرض عن ر. لوتورنو، ١٩٦٩.



١

٢



١. منظر عام لقصبة الودايا التي بناها الموحّدون في مواجهة مدينة سلا لتقف حارسًا أمام مناطق الساحل الأطلسي التي لم يتمّ اخضاعها بعد.

٢. تفاصيل بوابة قصبة الودايا في رباط. وتشبه الزخرفة على البوابة الموحّدية الضخمة تلك الموجودة في عدد من المدن الإسبانية والمغربية.

استراتيجية دقيقة جدًا جمعت بين المشاغل العسكرية والاقتصادية[٨٠]. وليس همّنا هنا استعراض كل تفاصيله ولا حتى رسم جميع فصوله، بل حسبنا أن نبرز مراحله الحاسمة.

فتح المغرب الأقصى

كان الغرض من المرحلة الأولى ضمان الاستحواذ على المغرب الأقصى، وقد جرى ذلك على مرحلتين.

استخلص عبد المؤمن العبرة من ذلك الفشل الذريع الذي أسفرت عنه موقعة البحيرة، فوطد العزم على اجتناب السهول حيث كان للفرسان المرابطين التفوق. وعمل على إخضاع أهل الجبل من البربر ليضمن السيطرة على الطرق التجارية والثروات المتدنية[٨١]. فضم قبائل عديدة من جبال الأطلس إلى صفه[٨٢]، وأخضع السوس ووادي الذراع، وهي مناطق أساسية في نظام تجارة المرابطين الرابحة مع أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وجعل منها قاعدة صلبة للانطلاق وللانسحاب عند الاقتضاء. وبذا أمكن للموحّدين أن يفكّروا في مهاجمة خط الحصون التي كانت تطوق الأطلس الكبير شمالاً وتحمي طرق السهول والعاصمة.

وسلك الجيش الموحّدي سبيل المرتفعات زاحفًا نحو الشمال الشرقي[٨٣]، معرضًا عن السهول، في مناورة لعزل الإقليم الأوسط للمرابطين. وتمكن الموحّدون بذلك من الاستيلاء على الأطلس الأوسط وعلى واحات تافيلالت خلال سنتي ١١٤٠ – ١١٤١ م[٨٤].

واذ بلغ الموحّدون شمال المغرب الأقصى اتّخذوا من قمم «جبالة» نقطة ارتكاز واستولوا على حصون منطقة تازة. ومن هذا الموقع المنيع شرع عبد المؤمن في ضم قبائل المنطقة الواقعة جنوب البحر المتوسط إلى معسكره، وانتهى به الأمر إلى دخول قريته الأصلية تغرة ظافرًا منصورًا. وهكذا أفلت زمام الأمور من أيدي الجهاز الحربي المرابطي ونجحت عملية التطويق.

وتحمل بعض الأبحاث المعاصرة[٨٥] على الاعتقاد بأن ذلك المسار لم تكن له قيمة عسكرية فحسب، بل كانت الغاية منه اقتصادية أيضًا، وهي الاستيلاء على المناجم الجبلية، عصب الحرب.

ومنذ تلك الآونة رأى عبد المؤمن، وقد أصبح على رأس قوة عسكرية ضخمة وتوافرت له موارد هامة على الأرجح، رأى أنه قادر على شن الهجوم في السهول ومواجهة المرابطين فيها.

وكانت الظروف مؤاتية جدًا لهذه المبادرة. ففي سنة ١١٤٣ م، تسبّب النزاع على ولاية الخلافة بعد علي بن يوسف بن تاشفين في حدوث انقسامات بين رؤساء قبيلتي لمتونة ومسوفة، عماد النظام المرابطي. وفي سنة ١١٤٥ فقد المرابطون بوفاة ريفيرتر (الروبرطير) القطالوني، قائد الجند المسيحيين التابعين لهم وقائدًا من أخلص قوادهم وأمهرهم في الحرب. وأخيرًا، فان توحيد زناتة قد رجّح كفة الموحدين، فاستولوا على تلمسان وأجبروا الأمير المرابطي تاشفين بن علي على الانسحاب نحو وهران، حيث لقي حتفه على أثر

(٨٠) المرجع نفسه.
(٨١) أنظر ب. روزنبرغ، المجلة الجغرافية المغربية، ١٩٧٠.
(٨٢) ان حكم ر. لوتورنو، ص ٥٢، حول افتقار عبدالمؤمن للصرامة يجب أن يخفّف كثيرًا.
(٨٣) ع. العروي، ١٩٧٠، ص ١٦٨.
(٨٤) أنظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، المجلّد الأول، ص ٨١.
(٨٥) ب. روزنبرغ، «هسبريس»، ١٩٦٤، المجلّد الخامس، ص ٧٣.

سقوطه عن ظهر جواده.

وفي ذلك التاريخ أخضع الأطلس بأكمله حتى الريف، وكذلك ساحل البحر المتوسط، والجانب الغربي من المغرب الأوسط. وضيّق الموحّدون الخناق على الأراضي الخاضعة للمرابطين حيث اختلت سلطتهم شيئًا فشيئًا.

وعمد عبد المؤمن إلى تنظيم البلاد التي فتحها حديثًا على أساس النظام السياسي لجماعة الموحّدين. ولم تكن هذه البلاد سهلة الانقياد مما ألجأ الخليفة الجديد إلى الصرامة القصوى حتى يخمد الثورات ويحبط الدسائس(٨٦).

ولا شكّ أن الخليفة الجديد لم يكن يحظى بالتأييد الإجماعي للموحّدين الذين لم يكونوا على تجانس كامل في ذلك العهد فيما يبدو، لذلك كان من الممكن أن تقوم في الوقت نفسه حركات معارضة للحاكم الجديد ومحاولات للرجوع إلى حرية العهود السالفة. وفعلاً، فإن اثنين من الموحدين هما ابن ملوية وهو شيخ الجماعة سابقًا وممثل قبيلة جنفيسة، وعبد العزيز بن كرمان الهرغي، من قبيلة ابن تومرت نفسه، قد ثارا على الخليفة لكنهما لم يبلغا حد تهديد السلطة تهديدًا فعليًا. ومن جهة أخرى، فان الموحدين قد واجهوا حتى زمن الفتوحات ثورات عديدة وحركات مقاومة كانت أهمها ثورة المدعو مصبوغ اليدين في جهة آجرسي (غرسيف) في منطقة فاس، وثورة أبي يعلى من قبيلة ازماسين، من صنهاجة وثورة سعيد من الغيّاته في منطقة تازه.

وعلى الرغم من هذه الحركات، فان الموحدين أتمّوا تكوين قوة عسكرية تسيطر بالتحديد على محور التجارة بين السودان والبحر المتوسط فيما يخص القسم الشرقي من مراكش؛ وكان ذلك المحور في أوج تطوره آنذاك. ومنذ ذلك الحين، فإن حركات التمرد التي كانت تدوم ردحًا من الزمن في السوس وفيما بين سبته وأغادير، في المناطق التي أصبحت في المرتبة الثانية من حيث أهميتها الاقتصادية، لم تعد تشكّل تهديدًا حقيقيًا(٨٧)، ولا سيّما أن الموحدين – وهم منشغلون بعمل ضخم يسير من نصر إلى نصر، وبتكديس الغنائم فوق الغنائم – قد حافظوا على وحدة صفوفهم حول عبد المؤمن الذي ظلّ وفيًا لتعاليم المهدي ولم يفكر في إدخال أي تجديد واحتفظ إلى جواره بشيوخ الموحدين المشهورين الذين كانوا حفظة مصالح جمهور الموحدين وضامني ولائهم.

على أنه يمكن معرفة مدى أهمية التغيير بالوقوف على الطريقة التي أجري بها، وردود فعل السكان المعنيين. فقد كانت انتصارات الموحدين في أغلب الأحيان دامية؛ فلم يكتب لهم أي فتح لامع، ولم يكن أي انتصار من انتصاراتهم سهلاً، ولم يتم لهم الاستيلاء على أية مدينة هامة إلاّ عنوة. والواقع ان المجتمع المرابطي كان فيما يبدو ذا هياكل مرنة نسبيًا(٨٨). وكان عهد المرابطين فيما يروي صاحب القرطاس ومؤلف «الحلل» المجهول(٨٩)، عهد رخاء وأمن؛ ولم يكن السكان يعتبرون الحكام المرابطين كفارًا، وكان المذهب المالكي ملائمًا لهم. ولذلك لم يكن الموحدون ليظهروا بمظهر المحررين إلاّ في نظر الساخطين الراغبين في الإفلات، ولو مؤقتًا، من مطالب الجباة، وربما في نظر أهل جبال مصمودة. وقد صمدت أغلب المدن – التي كانت مراكز للتطور الاقتصادي – في وجه غارات الموحدين حتى إن إخضاعهم

(٨٦) ع. مراد، ١٩٥٧، «حوليات معهد الدراسات الشرقية»، كلية الآداب بالجزائر العاصمة، المجلّد الخامس عشر، ص ١١٤، وما بعدها.

(٨٧) ج. ديفيس، عرض عن ر. لوتورنو، ١٩٦٩.

(٨٨) الادريسي، ١٨٦٦، عن أغمات وفاس والزركشي، ص ٨.

(٨٩) ابن أبي زرع الفاسي، ١٨٤٣، ص ١٠٨، و«الحلل الموشية»، ١٩٣٦، ص ١١٥–١١٦.

المغرب الأقصى بأكمله قد استغرق منهم خمس عشرة سنة. لذلك ينبغي للمرء ألاّ يعجب من الثورات المتكررة التي تلت احتلال عبد المؤمن لمدينة مراكش، وهي ثورات آزرتها تواطؤات عديدة وترجع دون شك الى أسباب أقوى من مجرد التعلق الديني بالمذهب المالكي. فالغالب على الظن أن هذه الثورات كانت تعبيرًا عن رد فعل مجتمع شككت فيه تشكيكًا جذريًا جماعة متعصبة لآرائها فرضت نفسها بواسطة حرب لا هوادة فيها.

فتح المغرب الأوسط

بعد أن أعاد عبد المؤمن تعزيز مركزه في المغرب الأقصى رأى أنه أصبح في إمكانه أن يمدّ فتوحاته إلى بقية المغرب فيما وراء حدود ممتلكات المرابطين. لكن الخليفة قد دعي، قبل الشروع في هذه المهمة، إلى التدخل في الأندلس حيث لم يعد السكان يحتملون سلطة المرابطين، وأخذ خطر القشتاليين يتعاظم تهديده يومًا بعد يوم[٩٠]. بل ان الخليفة قد استقبل، أثناء محاصرته لمراكش وفدًا أندلسيًا إثر انضمام بعض المدن مثل خريز في ١١٤٤ م؛ فأرسل إليهم آنذاك حملة عسكرية اشترك فيها عبد العزيز وعيسى امغار أخوا المهدي[٩١]. وتبع ذلك انضمام مدن أخرى كان أهمها اشبيلية وقرطبة. إلاّ أن المقاطعات الشرقية ظلت متحفظة إزاء الموحدين؛ لذلك فإن عبد المؤمن عندما استقبل سنة ١١٥٠ م. وفود الأندلسيين الذين جاؤوا يبايعونه، لم يفكر قط في التدخل توًا في شؤون شبه الجزيرة؛ فقد كان يتطلع قبل كل شيء إلى الشرق.

وأغلب الظن أن أول الخلفاء الموحّدين في أواسط ذلك القرن الثاني عشر، قد بدأت تخامره أفكار محدّدة جدًا في المجال السياسي وهي أن يضمن لنفسه قبل كل شيء قاعدة متينة بتوحيد المغرب ثم الانطلاق بعد ذلك إلى ما وراء المضيق.

وكانت افريقيا كذلك معرّضة لتهديد مسيحي. إذ أن نفوذ السلالات الصنهاجية في القيروان وبجاية قد تقوضت أركانه نتيجة للتنظيم الإقليمي الجديد في افريقية والمغرب الأوسط لصالح الامارات الصنهاجية والعربية داخل البلاد، بينما كانت أقدام النورمان – بقيادة ملك صقلية روجر الثاني – ترسخ في أهم موانئ افريقيا... ومن ثم توافر المبرر لإرسال الموحّدين حملة إلى افريقيا لا سيّمَا أنه كان من الممكن الاستناد إلى واجب الجهاد[٩٢].

وبعد سنتين من الاستعدادات، توجّه عبد المؤمن نحو سبته، وهو ما كان من شأنه أن يحمل على الاعتقاد أنه ينوي العبور إلى أسبانيا. لكنه تظاهر بالعودة من سبته إلى مراكش، ثم سلك بدلاً من ذلك طريق الشرق في أوائل صيف ١١٥٢ م، وسار سيرًا حثيثًا فبلغ المغرب الأوسط[٩٣]، فاستولى على

(٩٠) أنظر بشأن بدايّات استقرار الموحّدين في شبه جزيرة ايبيريا، دائرة المعارف الاسلامية، (فرنسية)، الطبعة الجديدة، المجلّد الأول، ص ٨١.

(٩١) أنظر تفصيل ذلك في ابن خلدون (ترجمة دو سلان)، ١٨٥٢ – ١٨٥٦، المجلّد الثاني، ص ١٨٣–١٨٨.

(٩٢) أنظر بشأن المغرب الأوسط وافريقيا في أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر الميلادي، هـ. ر. ادريس، ١٩٦٢، المجلّد الأول، الفصل ٦، ص ٣٠٣ وما بعدها، وص ٣٦٣ وما بعدها. وأنظر بشأن غزو الموحّدين للمغرب الأوسط تلخيصًا جيدًا في ج. برينيون، وآخرين، ١٩٦٨، ص ١١٢.

(٩٣) كان آخر بني حماد في بجاية، المنصور والعزيز ويحيى، قد توصّلوا الى وجه من وجوه التعايش السلمي مع بني هلال أسياد الهضاب الجدد والى تطوير التجارة والقرصنة، مغتنمين ما كان فيه بنو عمهم الزيريون في المهدية من صعوبات، وشرعوا في عملية اصلاح حقيقية للأوضاع. أنظر ع. العروي، ١٩٧٠، ص ١٦٨.

الجزائر أولاً ثم على بجاية دون كبير عناء. وأرسل فصيلاً بقيادة ابنه عبدالله لاحتلال القلعة، عاصمة بني حماد القديمة، فدخلها عنوة وأعمل فيها السلب والنهب ووضع السيف في رقاب سكانها. أما قسنطينة، وهي المدينة التي لجأ إليها أمير بني حمادة يحيى بن عبد العزيز، فقد أسلمها وزير بني حماد، وتوجهت منها حملة على بدو منطقة قسنطينة. وفي أثناء تلك العمليات أغار رجل يدعى أبو قصبة على بجاية ومعه أفراد من قبيلة بني زلدويو غارة أشبه ما تكون بعملية فدائية قصد بها اغتيال الخليفة. فتعرّض المغيرون للقمع بقسوة، وبدّد عبد المؤمن قبائل صنهاجة ولواته وكتامة التي كانت انضمت إلى المغيرين[٩٤].

كان مصير المغرب في سبيله إلى التغيّر فكان ذلك نذيرًا للقبائل العربية من حلفاء أسرة صنهاجة المهزومة أو مواليها. وفيما قفل عبد المؤمن راجعًا إلى المغرب الأقصى، هرع العرب إلى نجدة بجاية، فردّهم الموحّدون على أعقابهم ثم جروهم إلى سهل سطيف حيث هزموهم سنة ١١٥٣ م، بعد ثلاثة أيام من المقاومة البطولية، وجرّدوهم من أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم. وقد تغلّب جيش الموحّدين المتمرس بشؤون القتال وبما كان يتميّز به من تنظيم وصلابة وانضباط على حماسة العرب وسرعة تحركهم. وكانت تلك المعركة ذات وقع عظيم وايذانًا بطور جديد في مصير السلطة الموحدية الجديدة.

ولقد أبدى الخليفة الموحّدي رغم ما عُرف عنه من الشدة بل القسوة «سماحة» مذهلة تجاه العرب المهزومين الذين كسر تحالفهم. فهل كان يريد أن يبين لهم مدى قوته حتى يعظم في أعينهم ثم يشملهم بحلمه حتى ينضموا الى صفوفه؟ هذا الأمر محتمل اذا نحن قدّرنا قيمة العنصر العربي في المغرب الأوسط، وافريقيا، وحاجة الخليفة إلى توسيع قاعدة نظامه الموحدية البربرية – بما يتناسب واتساع رقعة امبراطوريته الناشئة[٩٥]. ولعله قد فكّر أيضًا في الاستعانة بالعرب باسم الجهاد في الأندلس حيث كثر الاستصراخ به أمام تهديدات المسيحيين التي أخذت خطورتها تتفاقم يومًا بعد يوم.

وعلى أثر هذه الأحداث، فضّل الخليفة أن لا يغامر بجيوشه فيما وراء منطقة قسنطينة فترك في المغرب الأوسط ولاة وحاميات وقفل راجعًا إلى المغرب الأقصى.

تدعيم نفوذ عبد المؤمن

سبق أن ذكرنا أن تولّي عبد المؤمن منصب الخلافة لم يكن قط موضع الإجماع وإن قوة الشكيمة والعزم اللذين اتصف بهما وما أظهره من مزايا في ذلك هو ما أدى إلى العدول عن حركات المعارضة الخفية التي دبت في صفوف الموحدين. إلاّ أن انتصاراته التي زادت من احتمالات بقائه في الحكم قد أثارت حفيظة المعارضة التي اندلعت حركتها، بتحريض من أقارب المهدي بن تومرت أنفسهم[٩٦]، في قبيلة هرغه وأهل تنملل دون أن تجر وراءها قبائل موحدية أخرى. فأمر عبد المؤمن بقتل الثوار وغضب على آل آيت أمغار أسرة ابن تومرت وأبعدهم إلى فاس حيث حددت إقامتهم.

وعلى أثر هذه الأزمة، توجّه إلى تنملل وفي زيارة هي بمثابة حج، ففرق العطايا ووسع المسجد الذي فيه ضريح المهدي كي ينسى الناس الحوادث الدامية القريبة العهد ويهيّئ الأمور في الوقت نفسه لجعل الملك في ذريّته.

(٩٤) أنظر أ. ليفي – بروفنسال، ١٩٢٨، «النص الأصلي»، ص ١١٥؛ والترجمة الفرنسية ص ١٨٩–١٩٠؛ وابن الأثير، ترجمة فانيان الفرنسية، ١٩٠١، ص ٥٠٤.

(٩٥) ابن الأثير، المرجع السابق، ص ٥٧٦.

(٩٦) ع. مراد، المرجع السابق، ١٣٥ وما بعدها.

وقد نجح فعلاً سنة ١١٥٦ – ١١٥٧ م في معسكر سلا[٩٧] ، أولاً في أخذ البيعة لابنه البكر محمد وليًا للعهد ثم في تعيين أبنائه الآخرين عمالاً بلقب «السيد» على أهم أمصار الأمبراطورية.

ولقد أعدّت هذه التدابير بفضل مساندة القوى الامبراطورية الجديدة ، من عرب بني هلال وقبائل الشرق وخاصة صنهاجة ، وتسنى تطبيقها بفضل موافقة الشيخ الموحّدي الأجلّ أبي حفص عمر الهنتاتي الشهير. وأراد الخليفة أن يهدئ الخواطر بعد اتخاذ هذه التدابير ، فسارع إلى إعلام «حاليات» الموحّدين في مختلف المقاطعات أن كل سيد من بني عبد المؤمن سيصحبه شيخ من شيوخ الموحدين ليست له صنعة القائمقام والوزير فحسب بل والمستشار أيضًا. وقد أضعفت فتوحات عبد المؤمن وانتصاراته الكبراء من الرعيل الاول بدرجة كبيرة ، وبذا كانت موافقة رؤساء قبائل الأطلس دليلاً على ما أصابهم من ضعف أكثر مما كانت مظهر تأييد وولاء.

وقد أدت هذه الإجراءات التي أمر بها الخليفة إلى ثورة عدد كبير من القبائل خاصة في الجنوب الشرقي[٩٨] .

فقد أحسنت قبيلة جزولة ايواء يحيى الصحراوي الشهير ، والى المرابطين سابقًا على فاس ورأس ثورة سبتة فيما مضى ، وأحدثت هذه القبيلة القلاقل على تخوم السوس ، كما ثارت قبائل لمته وهشتوكة ولمتونة... وغيرها على الرغم من أن هؤلاء كانوا على هامش السياسة الموحدية ؛ ولعلّ ثورتهم كانت بسبب قسوة الولاة من بني عبد المؤمن[٩٩] . وبصفة أعم ، يبدو أن هذه الحركات كانت من سمات مرحلة من مراحل تطور حكم بني عبد المؤمن حديث العهد ، وهي مرحلة كان هذا الحكم فيها يبحث عن توازنه.

ويمكن اعتبار هذه الانتفاضات – على كل حال – بلا خطورة إن هي قورنت بحدث أهم من حيث آثاره اللاحقة ، ألا وهو ثورة عيسى وعبد العزيز[١٠٠] أخوي المهدي ابن تومرت نفسه ، اللذين دبّرا في مراكش مؤامرة كادت تفلح.

ورجع الخليفة إلى عاصمته مسرعًا ، وبعد التحقيق ، أظهرت الوثائق التي اكتشفت عن قائمة المتآمرين وكانوا ٣٠٠ ، خمسة منهم من الأعيان من تجار مراكش. فاسلموا لغضب الجماهير الناقمة.

وبعد هذه المحن ، أصبح عبد المؤمن بصفة نهائية رئيس أمبراطورية أكثر منه أمير «جماعة من المؤمنين» ، ونشأ بينه وبين كبار حركة الموحدين ضرب من الفتور. أفلم يجمع سكان مراكش بعد إخفاق ثورة آيت امغار ، ليقول لهم على ما روى البيان : «أعرف أنه ليس لي اليوم سواكم من أخ ولا مولى...»[١٠١] ؟ فهل هو اعتراف صادق مرير أم هو مجرد ديماغوجية؟ وعلى أي حال ، فإن أمرًا يبدو مؤكّدًا وهو أن عبد المؤمن وجّه منذ ذلك الحين سياسته وجهة جديدة ؛ إذ لم يعد يعتمد على «العشيرة»

(٩٧) المرجع نفسه ، ص ١٤٢ ؛ وانظر أيضًا أ. ليفي – بروفنسال ، «هسبريس» ، ١٩٤١ ، ص ٣٤ – ٣٧ ؛ وابن الاثير ، ترجمة فانيان الفرنسية ، ١٩٠١ ، ص ٥٨١ الذي ينطبق تاريخه مع الرسائل الرسمية.

(٩٨) ع. مراد ، المرجع السابق ، ص ١٤٦.

(٩٩) أ. ليفي – بروفنسال ١٩٢٨ ، «النص الأصلي» ، ص ١٧٧ ؛ الترجمة الفرنسية ، ص ١٩٣ ، يذكر على لسان عبدالمؤمن مخاطبًا أبا حفص وقد أرسله لقمع تلك الثورات : «لقد نهضت الناقة رغم حملها يا أبا حفص».

(١٠٠) أ. ليفي – بروفنسال ، ١٩٢٨ ، «النص الأصلي» ، ص ١١٩ ؛ الترجمة الفرنسية ، ض ١٩٨ – ١٩٩.

(١٠١) تحدّثنا الرسالة الرسمية رقم ١٧ عن جولة تفتيشية قام بها الخليفة وأتباعه – عبدالمؤمن فذهب الى ايغليز ثم الى تنملل واستقبل أثناء هذه السفرة وفود عدد كبير من القبائل من الرعيل الأول أو من التي أخضعت بعد أن كان لها ماضٍ مضطرب ، جاءت تعاهده على الولاء ، ثم حث السكان على دعم تعلّقهم بالمذهب الموحّدي. ثم عاد يوم ٢٨ رمضان سنة ٥٥٢ هـ / ٤ نوفمبر ١١٥٧ م. الى مراكش حيث احتفى بعيد الفطر وكأنه عيد سلام بني عبدالمؤمن في المغرب الأقصى. أنظر ع. مراد. المرجع السابق ، ص ١٥٤.

المهيمنة فقط، أي على ارستوقراطية بني مصمودة، وسعى إلى توسيع قاعدة سلطانه كي تشمل قبائل أخرى لا سيّما العرب من بني هلال وقبائل المغرب الأوسط. وأخذ عبد المؤمن يتحرّر شيئًا فشيئًا من تصور ابن تومرت للجماعة القائم على العشيرة والطائفة، ويتبع سياسة امبراطورية حقيقية آخذًا فيها بعين الاعتبار جميع فئات المجتمع في الأمبراطورية الجديدة.

فتح افريقيا

كان حكم عبد المؤمن سنة ١١٥٦ م قد أصبح ثابت الأركان وكانت جميع حركات المعارضة والمنازعة قد كسرت شوكتها[١٠٢]. فأمكن لعبد المؤمن أن يشرع في الحملة الثانية على الشرق، وهي الحملة التي ترتّب عليها، لأول مرة، توحيد بلاد المغرب تحت لواء سلطة واحدة[١٠٢].

وقد عني عناية خاصة بإعداد هذه الحملة، ولم يقرّر الزحف على الشرق إلاّ سنة ١١٥٩ م. وكان الحسن بن علي، أحد أمراء بني زيري الذي لجأ إليه، لا يفتأ يحرّضه على ذلك، كما كان سكان افريقيا يكرّرون الاستغاثة به من تصرفات النصارى. وفي ربيع ١١٥٩ م ترك الخليفة أبا حفص نائبًا له في مراكش وسار من سلا على رأس قوات كبيرة[١٠٣]، بينما أقلع أسطول ضخم نحو الشرق. وبعد ستة أشهر بلغت الجيوش الموحّدية أبواب مدينة تونس[١٠٤]، فاحتلتها بعد حصار. ثم جاء دور المهدية وكانت في يد النصارى النورمان منذ اثنتي عشرة سنة، فتم احتلالها هي الأخرى بعد محاصرتها، وبفضل استخدام وسائل فعّالة قهرت العدو بعد سبعة أشهر من الجهود.

واستولى عبدالله، ابن الخليفة، على مدينتي قابس وقفصة. وفي أثناء ذلك وقعت مدينتا صفاقس وطرابلس في أيدي الموحّدين. أما المناطق الداخلية من افريقية فقد وقعت بين فكي كماشة تتمثّل في هجمات الأسطول على السواحل واختراق الفرسان خطوط العدو متّجهين نحو الجنوب، فانتهى الأمر بهذه المناطق إلى الاستسلام.

هكذا زالت من افريقيا الإمارات الصغيرة التي تقاسمت أشلاء مملكة بني زيري، وتمّ إجلاء النورمان عن مواقعهم الساحلية، فتوحّدت بذلك بلاد المغرب.

إعداد العدّة للتدخل في الأندلس ونهاية عهد عبد المؤمن

على أن الوضع في الأندلس كان يبعث على الانشغال يومًا بعد يوم. فقد ثار ابن مردنيش[١٠٥]، وهو من أكبر سادة الأندلس، على السلطة الموحّدية، وكان يهدّد شرق البلاد. وكان ابن غانية[١٠٦]، وهو آخر ممثلي سلالة المرابطين، يؤجج نيران الفتنة ضد الموحّدين. وأخيرًا كان المسيحيون يحقّقون مزيدًا من التقدّم فازدادت غاراتهم في شمال الأندلس.

---

(١٠٢) أنظر بشأن فتح عبدالمؤمن لإفريقيا، هـ. ر. ادريس، ١٩٦٤، المجلّد الأول، ص ٣٨٤ وما بعدها.

(١٠٣) أنظر ع. مراد، ١٩٥٧، المجلّد الخامس عشر، ص ١٥٤ وما بعدها وص ١٥٥ رقم ٨ بشأن عدد الجيوش حسب مختلف المصادر.

(١٠٤) أنظر تفصيل ذلك لدى م. ع. عنان، ١١٦٤، المجلّد الأول، ص ٢٨٩–٣٠٢.

(١٠٥) أنظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، طبعة جديدة، المجلّد الثالث، ص ٨٨، وتفاصيل عن شؤون اسبانيا لدى م.ع. عنان، المرجع السابق، ص ٣٠٤–٤١١.

(١٠٦) دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، طبعة جديدة، ص ١٠٣٠ – ١٠٣٢.

وحينما عاد عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ، أخذ يعد العدة للتدخل في اسبانيا. فأرسل إمدادات تتضمن وحدات من الجند العرب أحرزوا بعض الانتصارات في بطليوس وباجة. ثم ذهب إلى مراكش حيث استقبل عددًا كبيرًا من الكماة من أبناء قبيلته المخصصين فيما يبدو لتكوين حرسه الخاص. وفي سنة ١١٦٣ م ، اتجه إلى سلا لقيادة حملة عسكرية كبيرة على اسبانيا. إلاّ أن المنية عاجلته قبل أن يحقق مبتغاه ، فنُقل إلى تنملل حيث دُفن بالقرب من قبر المهدي بن تومرت. ولا حاجة بنا إلى أن ننوّه ، فيما يخص عبد المؤمن ، بخصاله بوصفه قائدًا عسكريًا وخبيرًا استراتيجيًا. وما ينبغي إبرازه هو أنه قام بالفتح بطريقة منهجية نتبين من خلالها صفاته العظيمة بوصفه منظمًا خبيرًا بشؤون البلاد ، عليمًا بأصول الحرب. إلاّ أن أكثر الأمور استرعاء للانتباه ، هو أن سياسة الفتوحات التي سار عليها عبد المؤمن كانت تستهدف أيضًا أغراضًا اقتصادية. من ذلك أنه فصل المغرب الأقصى الواقع على المحيط الأطلسي عن أفريقيا ، وكان المرابطون قد أقاموا لأول مرة صلات هامة بينه وبين الصحراء ، فضمن عبد المؤمن لنفسه التحكم في محور يصل بين الذراع ووهران ، أصبحت تمر به منذ ذلك الحين القوافل المحمّلة بالذهب ومنتوجات السودان الغربي.

ومن جهة أخرى ، كان لزامًا على الخليفة ألا يغفل عن الشمال والشرق لأن البحر المتوسط كان ذا أهمية جوهرية بالنسبة إلى المغرب ، لا سيّمَا ان المسيحية كانت قد بدأت هجماتها على جميع الجبهات. ولذلك نلمح منذ ذلك الحين صعوبة تلك المحاولة التوحيدية التي شرع فيها الموحّدون والتي كان يستحيل في إطارها عمليًا السيطرة على افريقيا والأندلس معًا.

وعلى الصعيد المغربي ، فان عهد عبد المؤمن قد أضاف الوحدة السياسية إلى وحدة المغرب الاقتصادية والثقافية اللتين تحققتا منذ عهد بعيد. فقد خرج عبد المؤمن عن سنّة المرابطين المستوحاة من التنظيم الأموي الأندلسي فوضع تنظيمًا إداريًا يأخذ بعين الاعتبار ضرورات سياسية يفرضها اتساع الامبراطورية كما تفترضها الرغبة في مراعاة حساسيات المحيطين به من البربر الموحّدين من الرعيل الأول. ولا يزال عدد كبير من قواعد ذلك النظام باقيًا في تنظيم المخزن بالمغرب الأقصى المعاصر. لقد جمع الجهاز الإداري الموحّدي بين الضرورات التقنية – مستعينًا في ذلك مثلاً بالأندلسيين أو المغاربة الذين تتلمذوا على المدرسة الأندلسية – وبين الشواغل السياسية التي يعبّر عنها ذلك التلازم بين السادة من بني عبد المؤمن والشيوخ الموحّدين. والشواغل ذات الطابع الايديولوجي ، ممثلة في وجود الطلبة والحفاظ ، الذين كانوا بمثابة «المندوبين السياسيين» الفعليين للنظام الحاكم.

وقد كفلت ضرائب جديدة تحويل هذا التنظيم الإداري الذي فاق في تنوّع عناصره المتميزة تنظيم المرابطين. فقد روي أن عبد المؤمن ، حين عاد من أفريقية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م ، أمر بإجراء مسح[١٠٧] شامل لبلاد المغرب من برقة في طرابلس إلى النول في جنوب المغرب الأقصى ، وأسقط من هذا التقدير الثلث مقابل الجبال والأراضي غير المنتجة ، وما بقي فقد فُرض عليه الخراج (الضريبة العقارية) نقدًا وعينًا. وجدير بالذكر أنه منذ عهد الرومان لم يقم أحد قبل عبد المؤمن بإنشاء سجل عقاري ؛ ويمكن للمرء بكل يسر أن يتصوّر الموارد الضخمة التي كان يمكن أن تتوفّر للخليفة ، الذي فرض الخراج على جميع الأهالي ، فكانوا لذلك بمثابة غير المسلمين لأنهم لم يكونوا ، باستثناء جماعة الموحّدين ، معتبرين من أهل التوحيد حقًا. ومن المحتمل أن يكون الهلاليون قد فرضوا ضريبة مماثلة في

(١٠٧) ابن أبي زرع الفاسي ، ١٨٤٣ ، «النص الأصلي» ، ص ١٢٩ ؛ والترجمة الفرنسية ، ص ١٤٧.

شرق المغرب وأن عبد المؤمن قد اقتصر على تعميمها[١٠٨] ، مستخدمًا أولئك الهلاليين أنفسهم لجبايتها ؛ ولم يبق إلاّ المجال الإقليمي للموحّدين غير خاضع لهذا الخراج ؛ وهكذا فإن المغرب الاوسط وافريقيا كانا يُعتبران أراض مكتسبة بطريق الفتح. فتحقّقت الوحدة اذن لصالح المنتصر. وهذا ما زاد توحيد المغرب صعوبة لا سيّما أن الايديولوجية الموحّدية ، على الرغم من التعديلات التي أدخلها عليها عبد المؤمن ، ظلت طائفية إلى درجة تحول دون «تهدئة الخواطر»[١٠٩] .

ويبدو أن عبد المؤمن قد اعتمد على جيشه وعلى أسطوله أكثر مما اعتمد على سياسة توحيد حقيقية ، على الرغم من توسيعه النواة الأولى للنظام المكونة من المصامدة. وقد تمكّن الموحّدون – بفضل نظامهم الضرائبي وعملتهم القوية ، من أن يكون لهم جيش وأسطول عظيمان ، إلاّ أن الجيش الموحدي ، المشهور بتنظيمه ، وانضباطه وصفاته القتالية ، لم يكن موحّدًا قط ، وكان ذلك نقطة ضعف استفحل أمرها على مر الأيام.

ويبقى عنصر أخير يصعب تقديره في حدود هذا الكتاب – يتعلّق بعهد عبد المؤمن ، ويستحق أن نبينه ، ألا وهو ما يُطلق عليه غالبًا اسم «إبعاد» الهلالين. إذ أن عملية نقل البدو من مواطنهم كانت لها دواعٍ ونتائج من الكثرة بحيث يصعب الحكم عليها في كلمة كما فعل ذلك لوتورنو[١١٠] ، ذلك أن أفكاره المسبقة عن الحقبة الاستعمارية الفرنسية القريبة جدًا جعلته يصف عملية إبعاد الهلاليين بأنها «مصيبة».

طور الاستقرار والتوازن

أبو يعقوب يوسف ، ١١٦٣ – ١١٨٤

لم يخلف عبد المؤمن ولي عهده محمد الذي عُين سنة ١١٥٤ م ، وإنما خلفه ابن آخر له ، هو أبو يعقوب يوسف ، الذي لم يحمل لقب «أمير المؤمنين» إلاّ سنة ١١٦٨ م. لقد حدثت اذن أزمة خلافة لعلّها كانت سبب الاضطرابات التي اندلعت في شمال المغرب الأقصى في صفوف قبيلة غمارة[١١١] ، بين سبتة والقصر الكبير. وقد جرّوا معهم في ثورتهم جيرانهم من صنهاجة وأوربة وخضعوا لرئيس قيل إنه ضرب العملة. ونفهم من قراءتنا للقرطاس[١١٢] ، ان هذه الثورة كان سببها تسريع الخليفة الجديد للجيش الذي جنّده عبد المؤمن لحملة الأندلس. في حين أن الرسالة الرسمية رقم (٢٤) تفسر هذه الثورة التي دامت سنتين بقيادة المسمى سبأ بن منغفاد تفسيرًا دينيًا ، ومن شأن المقاومة المالكية بمنطقة سبتة ، بتحريض من القاضي عياض الشهير ، أن تضفي على هذا التفسير الديني شيئًا من الواقعية.

وعلى كل ، فقد كانت الحركة على درجة كبيرة من الخطورة ، فاضطر الخليفة الجديد سنة ١١٦٦ – ١١٦٧ م إلى أن يقود بنفسه حملة على المتمردين مصطحبًا فيها أخويه عمر وعثمان. وقد أعقب

---

(١٠٨) ع. العروي ، ١٩٧٠. ص ١٧١.
(١٠٩) المرجع نفسه ، ص ١٧٢.
(١١٠) ر. لوتورنو ، ١٩٦٩ ، ص ٥٩.
(١١١) أنظر دائرة المعارف الاسلامية (فرنسية) ، الطبعة الجديدة ، المجلّد الثاني ، ص ١١٢١ ؛ ع. مراد ، ١٩٦٢ ، المجلّد العشرون ، ص ٤٠٩ ، والهوامش ؛ وابن أبي زرع الفاسي ، ص ١٣٧ والترجمة ص ٢٩٦.
(١١٢) ابن أبي زرع الفاسي ، المرجع السابق ، «النص الأصلي» ، ص ١٣٧–١٣٨ ، والترجمة الفرنسية ص ٢٩٥.

انتصار الخليفة فيما يروي ابن الأثير، مذبحة[١١٣]. وقد اغتنم الخليفة فرصة انتصاره فتلقب بلقب أمير المؤمنين، وتوّج عمله بأن عهد إلى أخيه بولاية سبتة، مع تكليفه بمراقبة الريف.

الحملة الأندلسية

جعل الخليفة أخويه عمر وعثمان يتقدماه، فنجحا في إلحاق الهزيمة بابن مردنيش ومرتزقته من المسيحيين سنة ١١٦٥ م، لكن عاصمته، مرسية، صمدت أمامهم فحافظت الامارة على استقلالها خمس سنوات أخرى.

لكن أخطارًا جسيمة بدأت تظهر من جهة الغرب –أي البرتغال– ذلك أن خيرالدو سمبافور، القائد الشهير لألفونسو هنريكيس، استولى سنة ١١٦٥ م على عدة مواقع ثم ضرب برفقة الملك حصارًا على بطليوس التي لم تفلت من قبضته إلاّ بفضل تدخل فردينان الثاني ملك ليون، حليف الموحّدين.

في تلك الأثناء، أبعد خطر ابن مردنيش في شرقي الأندلس بلا خسائر تُذكر. إذ دبّ الخلاف بينه وبين صهره ونائبه ابن همشق (المسمى هموشيكو في التواريخ المسيحية) فتخلى عنه معظم أتباعه، ومات سنة ١١٧٢ م كمدًا وهو يرى عمله يتلاشى. أما أفراد عائلته، فقد انضموا إلى الموحدين وصاروا لهم من أعز النصحاء. وفي سنة ١١٧٢ – ١١٧٣ م، فشل حصار وبذة، وهي الموضع الذي كان قد أُعيد تعميره حديثًا بالسكان، وأصبح يشكّل خطرًا على كونكا والحدود الشرقية. فكشف هذا الفشل عن نقاط الضعف في الجيش وفي الإدارة الموحدية كما كشف عن قلة حزم الخليفة. فما أن اقترب الجيش القشتالي، حتى فكّ الموحّدون الحصار، وانسحبوا إلى مرسية حيث تمّ تسريح الجيش.

وفي سنة ١١٨١ – ١١٨٢ م، دخل الخليفة مراكش في جيشه، ولحقت به وحدات عربية من افريقيا يقودها الشيخ العربي أبو سرحان مسعود بن سلطان.

أبو يوسف يعقوب المنصور، ١١٨٤ – ١١٩٩

لا يبدو أن الأمير أبا يوسف يعقوب قد عيّن وليًا للعهد[١١٤]. ولما وقع اختيار الموحّدين عليه، حدثت اعتراضات من بينها اعتراض أخيه عمر، حاكم مرسية[١١٥]، ولكن من المرجح أنه فرض نفوذه سريعًا لما عُرف به من الحزم والإقدام. وفضلاً عن ذلك كان وزيرًا ومساعدًا لأبيه، بذا تسنى له الإحاطة بشؤون الدولة[١١٦]. على أن بداية عهده تتسم بصعوبات مرتبطة بتفاقم الاضطرابات في المغرب الأوسط وافريقيا، وقد تسبّب فيها هذه المرة أعوان معارضون وطّدوا العزم على الإطاحة بالنظام الموحّدي، هم بنو غانية.

---

(١١٣) أنظر م.ع. عنان، ١٩٦٤، المجلّد الثاني، ص ٢٣، وما بعدها؛ ودائرة المعارف الاسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، المجلّد الأول، ص ١٦٥.

(١١٤) أنظر بشأن حكم هذا الأمير: دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية) الطبعة الجديدة، المجلد الأول، ص ١٦٩، وأنظر أيضًا الأطروحة غير المنشورة لسعد زغلول عبد الحميد، باريس، ١٩٥٢؛ ع. ومراد، ١٩٦٢، المجلّد العشرون، الجزء الثاني، ص ٤١٩ وما بعدها.

(١١٥) ع. و. المراكشي، «النص الأصلي»، ص ١٨٩ و ١٩٢، والترجمة الفرنسية، ص ٢٢٦ و ٢٢٩؛ أ. ليفي– بروفنسال، ١٩٤١، رقم ٢٧، ص ١٥٨ – ١٦٢ الذي يستبعد أن يكون الخليفة أبا يعقوب يوسف قد اتّخذ أي قرار.

(١١٦) ابن الأثير، ١٩٠١؛ ع. و. المراكشي، ١٨٨١، ص ١٩٢؛ «النص الأصلي»، ص ١٩٢، وترجمته الفرنسية، ص ٢٢٩.

بنو غانية في المغرب الأوسط

يرجع اسم هذه العائلة إلى اسم الأميرة المرابطية غانية التي زوجها السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين لعلي بن يوسف المسوفي، فخلفت له ابنين هما يحيى ومحمد(١١٧).

ونهض الأخوان بدور كبير في عهد المرابطين لا سيّما في اسبانيا(١١٨). فقد كان محمد حاكم الجزر الشرقية (الباليار) في الوقت الذي انهار فيه حكم المرابطين. فحولها إلى ملاذ للاجئين، وأعلن استقلاله بها: وجعل منها قاعدة ينسحب إليها عدد كبير من أنصار السلالة الحاكمة المهزومة. وقد سلك ابنه اسحاق من بعده سياسته وجعل المملكة الصغيرة مزدهرة بفضل القرصنة. أما محمد(١١٩)، ابن اسحاق فقد كان مستعدًا للاعتراف بسيادة الموحّدين، إلاّ أن اخوته خلعوه ونصبوا مكانه أخًا آخر يدعى عليًا. وقرّروا منذ ذلك الحين أن يقاوموا الموحّدين مقاومة لا هوادة فيها حتى يمنعوهم من الاستيلاء على الجزيرتين(١٢٠). ثم إنهم أقرّوا العزم بعد ذلك على نقل الحرب إلى المغرب لأسباب تجارية على وجه الخصوص. فلم يكن الأمر إذن متعلّقًا بمجرّد تمرّد، ولكن بمعركة شبه سياسية ترتبت عليها من بعد آثار عميقة بالنسبة لسكان المغرب، وكانت لها عواقب وخيمة بالنسبة للأهداف الموحدية. فكان علي المعروف بعلي بن غانية هو الذي خاض من بعد تلك المعركة تحت إلحاح المحيطين به من المرابطين الذين لا تلين لهم قناة.

اعتلى الخليفة الجديد يعقوب السلطة في ظروف غير ملائمة. إذ أن بني حماد من الصنهاجيين في بجاية، لم يفقدوا كل أمل في استعادة سلطانهم. وانتهز المرابطون في ميورقة فرصة هذه الظروف السانحة ليقوموا بعملية جريئة أفضت إلى الاستيلاء على بجاية في ١٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١١٨٤ م(١٢١). وشرعوا آنذاك في تأسيس المملكة الحمادية القديمة لصالحهم الخاص.

وقد بيّن نجاح هذه الضربة، التي أُنجزت بوسائل متواضعة لا تتجاوز أسطولاً يتكوّن من ٢٠ قطعة وجيشًا مكوّنًا من ٢٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة، هشاشة السلطة الموحّدية التي كانت تواجه عداوات كثيرة لا شكّ أنها تضافرت لتسهيل عملية المرابطين من ميورقة التي أدّت إلى طرد الوالي الموحّدي وانسحابه إلى تلمسان.

وواصل علي بن غانية مسيرته يظاهره العرب من رياح وأثبج وجذام، فترك أخاه يحيى في بجاية، وزحف نحو الغرب ليفصل المغرب الأوسط عن السلطة الموحّدية. فنجح في احتلال الجزائر ومزية ومليانة تاركًا فيها عمالاً وحاميات من جنده، ولم يتوغّل أكثر من ذلك نحو الغرب خشية الاصطدام بأهالي منطقة تلمسان الموالين للموحدين، فقفل راجعًا إلى الشرق، واستولى على القلعة وانقض على قسنطينة التي واجهته بمقاومة مستميتة. إلاّ أن اقتراب الخليفة الموحّدي جعله يتراجع (١٢٢) ثم يولي هاربًا في نهاية الأمر.

---

(١١٧) أنظر دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، المجلد الثاني، ص ١٠٣١؛ أ. بل، ١٩٠٣.

(١١٨) أنظر تفصيل ذلك لدى م. ع. عنان، ١٩٦٤، المجلّد الأول، ص ٣٠٥ وما بعدها، وخاصة ص ٣١٤ – ٣١٥ والمجلّد الثاني، ص ١٤٤ وما بعدها.

(١١٩) أنظر المرجع السابق، ص ١٤٨؛ ودائرة المعارف الإسلامية (فرنسية)، الطبعة الجديدة، المجلّد الثاني، ص ١٠٣٠.

(١٢٠) أنظر ع. مراد، ١٩٦٢، ص ٤٢٢، حاشية ٩.

(١٢١) أ. هويسي ميرندا، يجعل تاريخ ذلك ١٩ صفر ٥٨١/٢٢ مايو ١١٨٥ م.

(١٢٢) أنظر م. ع. عنان، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ١٤٨، وما بعدها؛ ع. مراد، ١٩٦٢، ص ٤٢٤.

رغم فشل هذه المغامرة المرابطية الأولى[١٢٣] ، فقد كان لها وقع عظيم. ولذلك فإن مؤلف «المعجب» [١٢٤] قد أصاب بعض الشيء إذ اعتبرها أول ضربة هامة توجّه إلى امبراطورية المصامدة التي كانَ أثرها لا يزال محسوسًا في الوقت الذي كتب فيه مؤلّفه (١٢٢٤ – ١٢٢٥).

وفعلاً فإن صاحب ميورقة استردّ أنفاسه وحشد كافة القوات المناهضة للموحّدين التي وجدت فيه الرئيس المنشود. فابن خلدون[١٢٥] على سبيل المثال قد وصف لنا مدى الحماس الذي أبداه العرب في مؤازرتهم لصاحب ميورقة. كما ينبغي أن نبيّن تباطؤ الحكومة الموحدية المركزية التي لم تحرّك ساكنًا ردًّا على ذلك إلاّ بعد ستة أشهر، وهو ما أقلق أقل الفئات ميلاً إلى معارضة السلطة الموحدية.

لقد استغلّ ابن غانية الصعوبات التي أحاطت ببداية عهد الخليفة الجديد الذي ما أن عاد إلى إشبيلية حتى عني بوجه خاص بالإعداد لردّ الصاع صاعين، فجهز من سبتة حملة برية بحرية وجّهتها مدينة الجزائر. وقد نجحت هذه العملية الموحّدية في إعادة احتلال ما كان الموحّدون قد فقدوه من أراض، لكن قائد الجيش، السيد أبا زيد، ابن أخي الخليفة، أخطأ خطأً فادحًا باعتقاده أن ابن غانية قد انتهى خطره بفراره وتوغّله جنوبًا نحو المزاب. والواقع أن ابن غانية لجأ مع أخويه إلى افريقيا ليستعيد قواه ويستأنف القتال من جديد.

بنو غانية في افريقيا

حين فقد بنو غانية أسطولهم، واسترجع الموحّدون منهم مدينة بجاية – وكانت بالنسبة إليهم رأس جسر – اتبعوا في محاربة الموحدين أسلوبًا جديدًا، إذ تحوّلوا إلى نوع من «حرب العصابات»، وجعلوا من الصحراء بسكانها المنشقين بصفة دائمة، قاعدتهم ومحل تجمعهم. فتوجّه على ابن غانية إلى الجريد واحتلّ مدينة قفصة بمساعدة عرب المنطقة. ولما وجد مقاومة من توزر، قرّر أن ينضم إلى قراقوش الأرمني، وهو عبد اعتقه ابن أخ لصلاح الدين الأيوبي، وكان يمسك بمقاليد الأمور في منطقة طرابلس بواسطة جيش من التركمان الغزّ. وفي الطريق تحالف ابن غانية مع القبائل البربرية من لمتونة وماسوفة، وحصل على مساندة العرب من بني سليم[١٢٦] . وإذ عزّز ذلك مركزه بدرجة فائقة، فقد اتّخذ المبادرة التي كشفت عن المدى الحقيقي لمطامحه السياسية، إذ أرسل يبايع الخليفة العباسي الناصر، فحصل على تأييده والوعد بالمساعدة. وحسبما ذكر ابن خلدون فقد عهد الخليفة إلى صلاح الدين[١٢٧] ، بتيسير أسباب التعاون بين قراقوش وابن غانية، وما لبث هذا التعاون أن أتى أكله. فقد اتّخذ قراقوش من قابس قاعدته الأساسية، واحتلّ صاحب ميورقة الجريد بأكمله منشئًا بذلك منطقة نفوذ متجانسة في جنوب غربي تونس.

وانطلاقًا من ذينك الموقعين، أخذ خطر الحليفين يحوّم حول افريقيا باستمرار، وبلغت غزواتها الوطن القبلي؛ ولم تنج من عملياتها[١٢٨] إلاّ تونس والمهدية. ولذلك كان لزامًا على الخليفة أن يتدخّل.

---

(١٢٣) أنظر عن وضع جزر الباليار زمن ثورة ابن غانية في المغرب، م.ع. عنان، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٦ – ١٥٨.

(١٢٤) ع. و. المراكشي، ١٨٩٣، ص ٢٣٠.

(١٢٥) ابن خلدون، ١٨٤٧ – ١٨٥١، ص ٩٠؛ وع. مراد، ١٩٦٢، ص ٤٢٧ وما بعدها.

(١٢٦) رفضت فصائل بني سليم أن تترك أراضيها في منطقة طرابلس وبرقة رغم إنذارات الخليفة يوسف؛ أنظر أ. ليفي – بروفنسال، ١٩٤١، رقم ٢٦، ص ١٥٦.

(١٢٧) أنظر ابن خلدون، ١٨٤٧ – ١٨٥١، المجلد الثاني، ص ٩٣ – ٩٤.

(١٢٨) ابن الأثير، ١٩٠١، ترجمة فانيان الفرنسية، ص ٦٠٧ – ٦٠٨.

تدخل أبي يوسف يعقوب في افريقيا

رغم ما قوبل به الأمر من أعراض وهياج داخل أسرة بني عبد المؤمن نفسها ، فقد قرّر الخليفة أن يقود بنفسه حملة إلى الشرق(١٢٩) . فاتجه على رأس ٢٠٠٠٠ فارس نحو تونس في شهر ديسمبر/كانون الأول من سنة ١١٨٦ م. وما أن علم ابن غانية بالنبأ حتى تراجع وانسحب إلى الجريد. فلاحقه جيش من الموحّدين يضم ٦٠٠٠ فارس ، فجرّهم إلى منطقة نفوذه ولم يشتبك معهم إلاّ في عمرة قرب قفصة فهزمهم هزيمة نكراء في ٢٤ يونيو/حزيران ١١٨٧ م. فاشترك الخليفة بنفسه في العمليات ؛ وسار نحو القيروان وقطع عن ابن غانية سبيل الانسحاب إلى قفصة. وانهزم ابن غانية في الحامة في ١٤ أكتوبر/تشرين الأول ١١٨٧ م ، وسُحقت جيوشه ؛ أما هو فقد أصيب بجراح إلاّ أنه تمكّن من أن يختفي في الصحراء. وقد أخطأ الخليفة إذ لم يأمر بمطاردته. ثم استدار الخليفة لمهاجمة قراقوش واحتلّ معقله ، قابس ، يوم ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ١١٨٧ م ، واستولى على كنوزه وأسر أهله ولكنه أبقى على حياته.

وعلى أثر هذه الانتصارات ، شرع الخليفة في إرساء قواعد السلطة الموحدية من جديد في تلك البقاع المضطربة. فقام بعمليات تطهير في الجريد بأسره ، ذلك الحوض الغني الذي كان يغذي قوى الخصم(١٣٠) . فاستولى على نفزاوة (توزر) وتقيوس ونفطة. واستردّ قفصة بعد حصار مرير ، وعاقب العمال المرابطين عقابًا صارمًا ، إلاّ أنه أظهر حلمه مع الغُزّ الذين كان يريد فيما يبدو أن يجعل منهم فيلقًا ممتازًا في جيشه.

وسحقت القوات المرابطية ، ودكّت قواعدها وشتت حلفاؤها(١٣١) . فصار الجنوب التونسي بأكمله خاضعًا من جديد للسلطة الموحدية. وعمد أبو يوسف يعقوب في نهاية حملته ، إلى «نقل»(١٣٢) مجموعات جذام ، ورياح وعاصم ، فأنزل معظمها بتامسنة ، وهي منطقة أُفرغت من سكانها البرغواطة المشهورين ، أو كادت ، منذ الفتح المرابطي وحملات القمع الموحدية المتتالية. وهكذا ازداد العنصر العربي في المغرب الأقصى ازديادًا ملحوظًا.

وأظهرت الأحداث اللاحقة أن أفريقيا ما زالت بعيدة عن استتباب الهدوء فيها. إذ أن يحيى بن غانية الذي خلف أخاه عليًا ، قد أعاد بعزم ومهارة نادرتين ، بناء التحالف ضد الموحدين ، وواصل الصراع ضد الأمبراطورية الموحدية طوال نصف قرن تقريبًا ، فسدّد لقوتها أشد الضربات ، وأنهك ولايتها الشرقية ، وتسبّب لها في أكبر الصعوبات ، فأسهم بذلك بدرجة كبيرة في إضعافها.

ظهور بني غانية من جديد في افريقيا وفي المغرب الأوسط

أعاد يحيى ، رئيس بني غانية الجديد ، بناء قواته ، وأقام الصلات من جديد مع قراقوش واستأنف عملياته. فركّز هجماته على المغرب الأوسط متجنبًا افريقيا حيث أصاب الضعف العرب البدو فيها بعد عملية الإبعاد الكبرى التي تمّت سنة ١١٨٧ م – ١١٨٨ م. فهل كان يريد بواسطة هذه الحيلة بلوغ الساحل وإعادة الاتصال بميورقة(١٣٣) ؟

(١٢٩) ع. مراد ، ١٩٠٢ ، المجلّد الثاني ، ص ٤٣٢ وما بعدها.
(١٣٠) أ. ليفي – بروفنسال ، ١٩٤١ ، رقم ٣١.
(١٣١) المرجع نفسه ، رقم ٣٢ ، ص ٢١٨ ؛ وفي «هسبريس» ، ١٩٤١ ، ص ٦٣ – ٦٤.
(١٣٢) المرجع نفسه ، رقم ٣٣ ، مؤرّخة في منزل أبي سعيد قرب المهدية ، في ١٠ من ربيع الثاني ، ص ٥٨٤.
(١٣٣) أنظر بشأن أعماله ، أ. بل ، ١٩٠٣ ، ص ٨٩.

وأيًا كان الأمر ، فان محاولاته ضد قسنطينة باءت بالفشل ، وانسحب إلى الجنوب حيث انضمّ إلى قراقوش الذي أخذت علاقاته به تزداد عسرًا يومًا بعد يوم.

ووضع قراقوش حدًا لتحالفه التكتيكي مع الموحدين[١٣٤] ، وأعاد بفضل مساعدة رئيس قبيلة رباح الغربية ، مسعود البلط ، تكوين منطقة نفوذه الممتدة من طرابلس إلى قابس[١٣٥] ؛ واستولى يحيى على بسكرة وسيطر من جديد ، مع حليفه على كافة المناطق الداخلية في تونس.

وفي سنة ١١٩٥ م ، نشب خلاف بين الحليفين ، فدفع يحيى قراقوش إلى جبل نفوسة بفضل تدخل أسطول أرسله أخوه عبد الله من الباليار ؛ وهكذا صارت له السيادة على اقليم شاسع يمتد من منطقة طرابلس إلى الجريد دون انقطاع.

وفضلاً عن ذلك ، فقد نشبت في صفوف الموحّدين أزمة زادت أوضاعهم في افريقية ضعفًا. ففي سنة ١١٩٨ م ، ثار خلاف بين ضابط موحدي يدعى محمد بن عبد الكريم الرجراجي ، وهو رجل ذو شعبية كبيرة في المهدية ، مسقط رأسه التي كان يصد عنها غارات البدو ، وبين الحاكم الموحدي لتونس ، فأعلن هذا الضابط استقلاله وتسمى باسم المتوكل[١٣٦].

إلاّ أن محاولته أخفقت ، وفتحت بعد وفاته آفاقًا جديدة أمام يحيى الذي تمكّن ، خلال سنتين من الحملات ، من تخريب البلاد ، والاستيلاء على باجة وبسكرة وتبسة والقيروان وعنابة.

وانتهى الأمر بالحاكم الموحدي ، صاحب تونس ، إلى الاستسلام ، لا سيّما أن نشاط خوارج جبل نفوسة قد دعم في الوقت المناسب موقف ابن غانية الذي بلغ ذروة قوته بسيطرته على النصف الشرقي من بلاد المغرب.

حملة الأرك ونهاية حكم يعقوب

اقترن وقوع هذه الحوادث الخطيرة في الشرق بظهور صعاب على نفس الدرجة من الخطورة في اسبانيا[١٣٧] . وظهرت بحدة المأساة الموحدية المتمثّلة في استحالة التدخل في الجبهتين معًا. فكيف واجه يعقوب تلك الحوادث؟ المصادر في هذا الصدد متضاربة[١٣٨] ، إلاّ أن ما يمكن استخلاصه هو أن الخليفة فيما يبدو قد قبل على مضض منذ سنة ١١٩٤ م ، أن يترك عمليًا افريقيا تواجه مصيرها بنفسها[١٣٩] ليقصر جهوده على شؤون الأندلس.

وانتهت مدة هدنة ١١٩٠ م مع القشتاليين وبلغ ألفونس الثامن منطقة إشبيلية. وعبر الخليفة المضيق مرة أخرى ، وانتصر على القشتاليين في ١٨ يوليو/تموز ١١٩٥ في معركة الأرك الشهيرة. وتسمى الخليفة بعد تلك المعركة باسم المنصور بالله. وفي السنة التالية ، شرع الخليفة في حملة اكتساح بلغ فيها أبواب مدريد ، وكان ذلك على وجه الخصوص بفضل المنازعات التي نشبت بين القشتاليين والنافاريين

(١٣٤) ربما على أثر فشل سفارة من صلاح الدين إلى يعقوب المنصور سنة ٥٨٦ ؛ أنظر م. ع. عنان ، المجلّد الثاني ، ١٩٦٤ ، ص ١٨١ – ١٨٦.

(١٣٥) ج. مارسي ، ١٩١٣ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤.

(١٣٦) أنظر تفاصيله لدى ع. مراد ، ١٩٦٢ ، ص ٤٤٠.

(١٣٧) أنظر تفصيله لدى م. ع. عنان ، ١٩٦٤ ، المجلّد الثاني ، ص ١٩٦ وما بعدها.

(١٣٨) أنظر ع. مراد ، ١٩٦٢ ، ص ٤٤٣.

(١٣٩) ابن الأثير ، ترجمة فانيان الفرنسية ، ١٩٠١ ، ص ٦١٣.

والليونيين. إلاّ أن تلك العمليات لم تكن سوى ضربات محدودة المدى ؛ وكان الخليفة مدركًا لذلك ، لأنه سارع بقبول الهدنة التي عرضتها عليه قشتالة المتحالفة مع أراغون ضد ليون.

وغادر الخليفة اشبيلية متوجّهًا إلى المغرب الأقصى في مارس/آذار من سنة ١١٩٨ م. ولما بلغها وكان المرض قد أنهكه ، عين ابنه محمد وليًا للعهد ودخل على ما قيل مرحلة من التأمل حتى وفاته في يناير/كانون الثاني ١١٩٩ م.

أبو عبد الله محمد الناصر، ١١٩٩ – ١٢١٤

اعتلى محمد العرش دون أن يثير ذلك أي مشكلات(١٤٠) ، إلاّ أنه ورث وضعًا غير مرضٍ. فلئن كان المغرب الأقصى يشهد آنذاك ، فيما يبدو(١٤١) عهدًا من السلام والرخاء ؛ فإن موازين القوى في اسبانيا لم تتغير. أما في افريقيا ، فانّ ابن غانية كان مطلق اليد بعد استسلام حاكم تونس.

وقد جعل الخليفة الجديد افريقيا همه الأول ، فأرسل إليها وحدات من الجيش لمحاولة الحدّ من توسّع ابن غانية ، الذي ظلّ مع ذلك يوسّع ممتلكاته غربًا شيئًا فشيئًا كما نصّب الولاة وأمر بالدّعاء للخليفة «العباسي» في المساجد(١٤٢).

ولم يتمكن الخليفة، رغم ذلك، من توجيه قوات كبيرة إلى الشرق، لأن إذ نشبت في الوقت ذاته، في أراضي السوس وجزولة، حركة عصيان بزعامة المدعو أبو قصبة(١٤٣) الذي كان يزعم أنه القحطاني المنتظر، فأعاق الموحّدين في المغرب الأقصى حيث أصبح الناس يقاتلونهم باسم العقيدة المهدية نفسها. وقد استوجب الأمر حملة كبيرة للقضاء عليهم كان الفضل فيها بصفة خاصة للقوات المكونة من الغز(١٤٤).

وقد أنحى الخليفة على أهالي المنطقة باللّوم المرّ لبلوغ حركة أبي قصبة ذلك المبلغ من الأهمية بينهم بالذات في بلاد هي مهد الحركة المهدية(١٤٥).

ومن ذلك يتضح مدى اختلاف الموحدين في أواخر القرن الثاني عشر عن حملة لواء العقيدة والإصلاح التوحيدي في العهد الأول. فقد تسلّل الفتور والكلال إلى صفوفهم ، فكان ذلك هو الخطر الأكبر بالنسبة إلى مشروع بدت عليه أمارات الإعياء.

وقد ظهر هذا الموقف الانهزامي على نحو أوضح عندما تعيّن اتّخاذ موقف إزاء ابن غانية ؛ فمن بين جميع مستشاري الخليفة ، كان أبو محمد ، ابن الشيخ أبي حفص عمر الشهير ، الرجل الوحيد الذي اعترض على عقد الصلح مع المرابطي، ودعا إلى حملة لطرده من إفريقيا نهائيًا(١٤٦) . وهكذا ظهرت علامات الاستسلام المؤذنة بفشل فكرة الامبراطورية في بطانة الخليفة ذاتها. إلاّ أن الخليفة قرّر في صحوة عزم مفاجئة أن يحمل على ابن غانية حملة كبرى.

---

(١٤٠) على الرغم من أن صاحب القرطاس (ص ١٥٣)، يشير إلى ثورة وقعت في بلاد غمارة سنة ٥٩٦ هـ.

(١٤١) ابن أبي زرع الفاسي، «النص الأصلي» ص ١٥٣.

(١٤٢) ابن خلدون، ترجمة دو سلان، ١٨٥٢ – ١٨٥٦.

(١٤٣) أنظر تفصيل ذلك لدى م.ع. عنان، ١٩٦٤، المجلد الثاني، ص ٦٥٦ ؛ وع. مراد، ١٩٦٢، المجلد الثاني، ص ٤٤٨ – ٤٤٩.

(١٤٤) ع. و. المراكشي، ترجمة فانيان الفرنسية، ١٨٩٣، ص ٢٧٦.

(١٤٥) المرجع نفسه.

(١٤٦) ابن خلدون، ١٨٥٢ – ١٨٥٦، المجلد الثاني، ص ٢٢٠ – ٢٢١.

هجمة الناصر على بني غانية واعادة تنظيم سلطة الموحّدين في افريقيا

تميّزت هجمة الناصر[١٤٧] باستراتيجية جديدة. إذ أنه بادر إلى إخضاع معقل المرابطين في الجزر الشرقية (البالبار) واستولى على ميورقة، في ديسمبر/كانون الأول من سنة ١٢٠٣ م[١٤٨]، وبذلك حرم بني غانية من قاعدة بحرية، وتجارية على وجه الخصوص، كانوا يقيمون انطلاقًا منها علاقات طيبة مع أراغون وجنوة وبيزا، وقد جمعهم عداء مشترك مع الموحّدين. لكن قواعد المرابطين بافريقيا كانت تتدعم مع الأيام، واستولوا على مدينة تونس في ١٥ ديسمبر/كانون الأول ١٢٠٣ م. وعندئذ شنَّ الخليفة حملته على افريقيا[١٤٩]. فلما اقترب من تونس، فرَّ ابن غانية إلى داخل البلاد، بعد أن ترك أهله وكنوزه في أمان في المهدية، وانتقل إلى قفصة وهي من أكثر مواقعه مناعة.

وأسفر إنزال قوات موحّدية برًا عن الاستيلاء على مدينة تونس، وأعقب ذلك مذبحة كبرى[١٥٠]. ثم انقسمت قوات الموحّدين في اتجاهين، فزحف الخليفة على المهدية وانطلق أبو محمد في أعقاب ابن غانية.

وأخذت المهدية بعد حصار طويل شاق، وانتهى أمر عاملها علي بن غازي، ابن أخي ابن غانية بالاستسلام والانضواء تحت لواء الموحدين في ١١ يناير/كانون الثاني ١٢٠٦ م.

ورجع الخليفة إلى مدينة تونس؛ وأقام بها سنة كرّسها لإعادة تنظيم الولاية التي عهد إلى أخيه أبي اسحاق بإعادة فتحها وإعادة السلام إلى ربوعها. فأخضع أبو اسحاق أهالي مطماطة ونفوسة، وطارد ابن غانية – الذي هزمه في تلك الأثناء أبو محمد عبد الواحد الحفصي في تاجرة، قرب قابس، وجرّده من جميع ممتلكاته وتعقبه حتى منطقة برقة، دون أن يفلح مع ذلك في أسره.

ثم أخذ الخليفة بالنصيحة السديدة – وإن كانت متأثرة بالمصلحة الذاتية – التي نصحه بها أبرز ضباطه، فقرّر أن يعهد بالولاية على افريقيا، وهي مهمة خطيرة وعسيرة، إلى الشيخ الهنتاتي، المنتصر في معركة تاجرة، أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر. ولم يقبل أبو محمد، وقد كان من «كبراء المملكة»، هذه المهمة الدقيقة – التي كان من شأنها أن تبعده عن السلطة المركزية – إلاّ بناءً على إلحاح الخليفة؛ وبشروط تجعله عمليًا بمثابة نائب الملك[١٥١]. وكان هذا التدبير الحكيم دليلاً إضافيًا على فشل مشروع الموحدين في إقامة امبراطورية.

وفي مايو/أيار ١٢٠٧ م، سلك الخليفة طريق العودة إلى المغرب الأقصى، فعاد ابن غانية إلى الظهور، يؤازره عدد كبير من عرب قبائل رياح وسليم والدواودة، وحاول أن يقطع عليه الطريق، إلاّ أنه سحق في سهل الشليف. فانسحب متابعًا تخوم الصحراء، ثم ظهر من جديد في جنوب افريقيا. إلاّ ان العامل الجديد، وكان قد كسب إلى جانبه أقسامًا كبيرة من سليم، زحف عليه وأنزل به هزيمة ساحقة عند واد شبرو، قرب تبسة، سنة ١٢٠٨ م.

وتوغّل ابن غانية في الصحراء ليظهر من جديد في الغرب. ثم مضى حتى بلغ تافللت، فاستولى على سجلماسة وأعمل فيها السلب والنهب، وهزم عامل تلمسان وقتله. وقد خرّب خلال هذه الحملة المغرب

---

(١٤٧) أنظر تفصيله لدى م. ع. عنان، ١٩٦٤، المجلد الثاني، ص ٢٥٧ – ٢٦١.

(١٤٨) أ. ليفي – بروفنسال، ١٩٤١.

(١٤٩) أنظر تفصيله لدى م. ع. عنان، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٦٣ – ٢٧٠.

(١٥٠) ابن خلدون، الترجمة الفرنسية ١٨٥٢ – ١٨٥٦، المجلد الثاني، ص ٢٢١ – ٢٢٢ و٢٨٦ – ٢٨٧.

(١٥١) ر. برنشفيك، المجلد الأول، ١٩٤٠، ص ١٣.

الأوسط بأسره الذي كتب عنه ابن خلدون في القرن الرابع عشر : «إنك لم تعد ترى به نارًا موقدة ولا تسمع فيه ديكًا يصيح»(١٥٢) .

وقد اعترض عبد الواحد ، العامل الجديد على افريقيا ، سبيل ابن غانية أثناء عودته من هذه الحملة المدمرة ، فهزمه ، وجرّده من جميع غنائمه قرب الشليف(١٥٣) . فانسحب الميورقي وحلفاؤه إلى منطقة طرابلس ، حيث أعدّ العدّة لمعركته الأخيرة ضد عبد الواحد ؛ الذي هزمه رغم ذلك سنة ١٢٠٩ – ١٢١٠ م شر هزيمة ، عند سفح جبل نفوسة ، في عدد كبير من عرب قبائل رياح وعوف ودباب والدواودة ، وعدد كبير من الزناتيين. وشهدت افريقيا بعد ذلك عقدًا كاملاً من السلام بفضل حزم الوالي الجديد(١٥٤) . ذلك أن ابن غانية زاد من توغله جنوبًا ، في الودان ، حيث تخلص من حليفه القديم ومنافسه قراقوش ، إذ دبّر قتله وحلّ محله سنة ١٢١٢ م. إلاّ أنه وقع في أسر خليفة عبد الواحد سنة ١٢٣٣ م.

وقد اختلفت الآراء في الحكم على عهد بن غانية المضطرب الذي استمر أكثر من نصف قرن ، والذي جمع على نحو ملحوظ بين بعد جزري بحري وبعد بدوي صحراوي وهو ما يذكّر ، حتمًا بمستهل الملحمة المرابطية. ويرى جورج مارسيه ، الذي يهتم بالنتائج أكثر من الدوافع ، أن هذا العهد ليس سوى امتداد لما يسميه «بالكارثة» الهلالية ، و«يتهم» الميورقيين بأنهم نشروا «الآفة» العربية في المغرب الأوسط(١٥٥) .

إلاّ أن هذه المغامرة لا يمكن أن تُعتبر مجرد إثارة للقلاقل أو تمرّدًا عاديًا بلا أهداف سياسية ؛ إذ كانت بالفعل نضالاً فيه مثابرة ملحوظة ضد سلالة عبد المؤمن ، بل ضد النظام الموحدي. وخلاصة القول إنها كانت صراعًا بين قوتين ، خاضه بنو غانية ساعين إلى الظهور بمظهر البديل للنظام الموحدي. وإن دأبهم وجلدهم ومثابرتهم في نضالهم لدليل على ما كان لعملهم من دوافع عميقة وعلى أنه كان في خدمة قضية لا شكّ أنهم كانوا شديدي الحرص عليها.

ولا شكّ أنه كان للدافع السياسي والايديولوجي أهمية كبرى من بين جملة الدوافع إلى هذا النضال ، إذ ألّف هذا النضال بين كل القوى المعارضة للموحدين : ومنها الأسر الحاكمة القديمة المخلوعة وأوساط المالكية ، والأوساط الوفية للخليفة العباسي ببغداد ، وقبائل العرب الرحل ، والعناصر البربرية من منطقة طرابلس الراغبة في الخروج من عزلتها وسط الجبال(١٥٦) .

وهناك سمتان يمكن أن تساعدانا ، على الأقل ، على تبين أسبابًا اقتصادية محتملة جدًا ، للنجاح النسبي الذي أحرزه الميورقيون. أما السمة الأولى فتتعلّق بالقاعدة البحرية والتجارية والدبلوماسية التي كانتها ميورقة ، والتي آذن سقوطها بنهاية بني غانية. وتتعلّق السمة الثانية بالمجال الجغرافي السياسي الواقع تحت نفوذ بني غانية ، والذي كان يتكوّن أساسًا في بلاد المغرب من منطقة تمتد من ودان ومن جنوب

---

(١٥٢) أنظر دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية) ، الطبعة الجديدة ، المجلد الثاني ، ص ١٠٣١.

(١٥٣) أنظر تفصيله لدى ع. مراد ، ١٩٦٢ ، المجلد الثاني ، ص ٤٥٤ وما بعدها ؛ وم. ع. عنان ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٢٧١ – ٢٧٦.

(١٥٤) ابن خلدون ، المرجع السابق ، الترجمة الفرنسية ، المجلد الثاني ، ص ٢٩٠ – ٢٩١.

(١٥٥) أنظر دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية) ، الطبعة الجديدة ، المجلد الثاني ، ص ١٠٣٢. لقد درست قضية بني هلال في أيامنا هذه دراسة فيها مزيد من الرصانة ، وقد تخلّى الباحثون والمؤرّخون عن النظرية المغرضة التي تعتبر «البدوي» آفة الحضارة.

(١٥٦) لا شك أنه ينبغي القيام بدراسة عن هؤلاء المعارضين ودورهم في «الملحمة الميورقية».

شرقي منطقة طرابلس شرقًا الى مواطن الخوارج القديمة في جنوب المغرب الأوسط غربًا. وهذا الشريط الأفقي الطويل الذي كان يمتدّ نحو الجنوب تارة ونحو الشمال تارة أخرى، هو شريط واحات خصبة وجماعات شديدة المراس، لكنه كان فوق ذلك يشكّل منفذ الطرق الكبرى التقليدية عبر الصحراء الكبرى والتي أشير إلى أهميتها في أكثر من فصل من هذا المجلد. فقد كانت للتجارة عبر الصحراء الكبرى أهمية فائقة في اقتصاد بلاد المغرب.

فإذا نظرنا إلى نضال بني غانية على ضوء ذلك، فربما كان هدفه تلقي – الإرث الفاطمي – الزيري (الصنهاجي) والإرث المرابطي في ميدان جوهري هو ميدان المبادلات. أما محور السلطة الموحدية فيبدو أنه، رغم جاذبية اسبانيا، قد ظلّ متّجهًا أساسًا من الغرب إلى الشرق، كما يبدو لنا خاصة بوصفه محورًا تلّيًا ودون تلّي؛ ولهذا السبب بالذات يمكن القول إن المشروع الموحدي قد تحقق في فترة أقل رخاء من الفترة التي بدأت فيها وتطورت ملحمة المرابطين، إذ ربما أعوز الموحدين دائمًا وهم يواجهون تقدّم حرب الاسترداد المسيحية في الشمال، ذلك العمق الاقتصادي والاستراتيجي الذي كانت تمثّله بلاد السودان الثرية، والتي كان ذهبها يمثّل رئتي اقتصاد البحر المتوسط.

هزيمة العقاب، ونهاية عهد الناصر(١٥٧)

لقد كانت معركة الأرك (١١٩٤ م) نذيرًا للنصارى، ولذلك ما لبثوا أن تناسوا خلافاتهم، وأعادوا تنظيم أنفسهم، واستأنفوا سالف عملياتهم المناهضة للموحّدين، وذلك رغم الهدنة المبرمة واحتجاجات الناصر.

وفي سنة ١٢٠٠ م، هدد ألفونس (الفنش) الثامن ملك قشتالة منطقة مرسية، وفي سنة ١٢١٠ م أعمل بدرو الثاني الليوني الهدم والتخريب في منطقة بلنسية. فكانت تلك الأعمال علامة على وضع جديد في الجانب المسيحي. إذ ان حرب الاسترداد ستصبح، بدفع من أسقف طليطلة الشهير، «رودريغو خيمينيز دي رادا»، حربًا صليبية حقيقية، أنست المسيحيين ما كان بينهم من خلافات، وأتتها الإمدادات من أوروبا قاطبة. وقد توّج عمل أسقف طليطلة بحصوله من البابا «إنوسنت الثالث» على إعلان حرب صليبية.

أما عن الموحدين، فقد افتقرت صفوفهم للأسف إلى المتانة والتجانس. ذلك أن أول التدابير التي اتّخذها الناصر، اثر عبوره المضيق، أنه عمد إلى إجراء تطهير في صفوف الجيش أسفر عن إعدام عدد كبير من كبار الضباط. فلا غرابة اذن في هزيمة الموحدين هزيمة قاسية في معركة العقاب يوم ١٦ يوليو/تموز ١٢١٢ م، والتي ما لبثت أن تحوّلت إلى اندحار مفجع. وقد بالغ المسيحيون، بطبيعة الحال، في تقدير مدى انتصارهم ذاك، لكن عالمًا اسبانيًا هو «امبروزيو هويسي ميرندا»(١٥٨) هو الذي أرجعها إلى أهميتها الحقيقية، مشيرًا إلى أنها لم تتسبّب في انهيار المواقع الإسلامية في اسبانيا. إلاّ أنها تحتفظ بقيمتها الرمزية.

وقد كانت هذه الواقعة بالفعل أول انتصار كبير للنصارى المتحدين ضد مسلمي اسبانيا والمغرب، يقودهم الخليفة نفسه؛ وبهذا الوصف فقد كان لها دوي عظيم، لأن الذي هزم ليس جيشًا موحديًا بسيطًا وإنما الأمبراطورية الموحدية بقيادة خليفتها.

---

(١٥٧) أنظر تفصيله لدى م. ع. عنان، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٨٢ – ٣٢٦.

(١٥٨) أ. هويسي ميرندا، ١٩٥٦، ص ٢١٩ – ٣٢٧؛ ١٩٥٦ – ١٩٥٩، الجزء الثاني، ص ٤٢٨ – ٤٢٩.

ومن جانب المسلمين فإن الهزيمة قد كشفت ، فيما يعدو جانبها العسكري ، عن هشاشة النظام الموحّدي. فقد كانت هزيمة سياسية لنظام بدأ يعاني أزمة ، وافلاس قوة عسكرية فقدت معنوياتها في القتال ، أكثر منها هزيمة عسكرية.

إن الأمبراطورية الموحدية ، وإن شهدت من بعد بعض السنوات الزاهرة ، إلاّ أن معركة العقاب كانت العرض الذي لا ينكر لبداية تفكّك النظام. وإنه لأمر ذو دلالة في نهاية الأمر أن الغرب الإسلامي لم يبد أي ردّ فعل بعد الهزيمة ولم يدبّ فيه الحماس ، بل يمكن القول إنه كانت هنالك سلبية أو ما يقرب من عدم الاكتراث. إذ كان الخليفة نفسه القدوة ، فقد عجّل بالعودة إلى مراكش وعاش كئيبًا لفترة طويلة حتى وفاته سنة ١٢١٣ م ، وهو موقف يذكّرنا بشكل غريب بموقف أبيه سنة ١١٩٨ م.

تفتت الأمبراطورية وتفكك النظام الموحدي

كان خليفة الناصر ، يوسف المنتصر أو المستنصر ، شابًا يافعًا لم يبايعه كبراء الموحدين إلاّ على شروط تحدّ من سلطانه[١٥٩]. وتعهد بالفعل بأن لا يبقي جيوش الموحدين مدة طويلة في بلاد العدو ، وأن لا يتأخّر في صرف أجورهم ، فشهدت شؤون الدولة[١٦٠] آنذاك تدهورًا ملحوظًا.

ورغم ذلك ، فلم يشهد عهده أية اضطرابات ، رغم أنه قد ظهر بين صنهاجة ثم جزولة ، شخصان ادّعى كل منهما أنه من الفاطميين وأنه المهدي. واستمر الهدوء حتى سنة ١٢١٨ م ، تاريخ ظهور بني مرين للمرة الأولى قرب فاس[١٦١]. غير أن ذلك الهدوء كان خادعًا. فالخطر المسيحي أخذ يستفحل يومًا بعد يوم ، وتحرّك بنو غانية من جديد ، أما بنو مرين الذين كانوا قد أبقوا إلى ذلك الحين فيما وراء الحدود الصحراوية للأمبراطورية ، فقد نفذوا إلى قلب المغرب الأقصى نفسه ، بين تازة ومكناس أولاً ، ثم إلى منطقة فاس[١٦٢]. وبالإضافة إلى ذلك وعلى صعيد نظام الحكم من الداخل ، بدأ الوزراء يمارسون سلطات واسعة ويستأثرون بالسلطة الفعلية في الدولة. يمكن القول إذن ان عهد المستنصر كان عهد هدوء كاذب وعهد ترقب لأنه ما لبث أن ظهر منافسون آخرون عجّلوا بنهاية الأمبراطورية.

ومنذ وفاة المستنصر سنة ١٢٢٤ م ، تعاقبت الأحداث بسرعة وبدأت حقبة طويلة من الفوضى والاحتضار البطيء[١٦٣]. وقد طبع اثنان من بين الخلفاء هذه الحقبة بما أبدياه من حزم ، هما المأمون (١٢٢٧ – ١٢٣٢ م) وابنه السعيد (١٢٤٢ – ١٢٤٨ م) ، إلاّ أن محاولاتهما الإصلاحية كان مآلها الفشل لأن أسباب الفرقة بلغت منتهاها[١٦٤].

ومن أخطر تلك الأسباب الضعف العسكري. فقد حلّ محل الجيش الفاتح فيما مضى جيش قليل

(١٥٩) ع. مراد ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٤٥٩ – ٤٦٠.

(١٦٠) ابن خلدون ، المرجع السابق ، الترجمة الفرنسية ، المجلد الثاني ، ص ٢٢٧ ، وابن أبي زرع الفاسي ، «النص الأصلي» ، ص ١٦١ ، ترجمة فرنسية ص ١٨٦ – ١٨٧.

(١٦١) المرجع نفسه ، ص ٢٢٨.

(١٦٢) إن وضع بني مرين في سهول الفجيج العليا حيث لم يكونوا يعترفون بالسلطة الموحدية يدل فيما يدل ، على أن سلطة الموحّدين لم تكن تمتدّ إلى أبعد من التل في المغرب الأوسط. أنظر ر. لو تورنو ، ١٩٦٩ ، ص ٩٠ – ٩١.

(١٦٣) أنظر أ. هويسي ميرندا ، ١٩٥٦ – ١٩٥٩ ، المجلّد الثاني ، ص ٤٥١ ، وما بعدها ؛ وفي «هسبريس» ، ١٩٥٤ ، المجلّد الواحد والأربعون ، ص ٩ – ٤٥.

(١٦٤) أنظر الفصل الرابع من هذا المجلّد.

التجانس ، عجز عن الصمود في مختلف الجبهات ، وانتهى به الأمر إلى الانهيار تحت ضغط ما أصبح الحرب الصليبية في الغرب[١٦٥] .

وبعد أن أصاب الجبهة العسكرية ما أصابها تجلّت مواطن ضعف أخرى للعيان ، أهمها عجز الموحدين عن أن يفرضوا أنفسهم عقائديًا ، والعداء الخفي بين بني عبد المؤمن والشيوخ الموحدين . فقد حاول هؤلاء الشيوخ منذ ١٢٢٤ م أن يستولوا على الحكم من جديد وأن يثأروا لأنفسهم خاصة من الوزراء من أمثال ابن جامع ؛ وبما أنه لم يكن لهم رؤساء ولم تكن لهم غايات بعيدة ، فان محاولاتهم كانت قليلة الشأن ولم تؤد إلاّ إلى المزيد من الفوضى السائدة . وقد أفضت جباية الضرائب وما كانت تمارسه الحاشية من نهب لسد حاجاتها المتزايدة ، في النهاية ، إلى إثارة عداوة الشيوخ الذين قاموا بدور المدافعين عن الشعب .

ولما مات المستنصر ، بايع شيوخ الموحدين خليفة في سن الشيخوخة ؛ فلم يعترف به أهل شرقي الأندلس حيث بايعوا أخًا للناصر ، هو العادل الذي استتب له الأمر . ولكن شيوخ الموحدين تمكّنوا بفضل ما حاكوه من دسائس ، مع النصارى خاصة ، أن يدسوا إلى العادل من قتله سنة ١٢٢٧ م ، مما أثار عدة قبائل من بينها قبيلة الخلط . وهكذا بدأت حقبة من الفتن الداخلية أخذ فيها دور المسيحيين ودور القبائل العربية يتعاظم شيئًا فشيئًا .

وعقد أبو العلاء ادريس الذي أعلن نفسه خليفة في اشبيلية سنة ١٢٢٧ م وتسمى بالمأمون – معاهدة مع فردناند الثالث ، ملك قشتالة – تخول له ، في مقابل التخلي عن بعض المواقع الحصينة في الأندلس ، أن يجنّد مرتزقة من المسيحيين. وبفضل هؤلاء الجند انتصر على منافسه يحيى ابن الناصر ، الذي بويع في مراكش وسانده أهل تنملل وهنتاتة .

وفي سنة ١٢٣٠ م ، كان المأمون سيد الامبراطورية بأكملها . فاتخذ آنذاك مبادرتين لها دلالتها ، تمثّلت الأولى في انتهاجه سياسة تسامح وتفاهم إزاء المسيحيين ، وتمثّلت الثانية ، وهي أعمقها مغزى ، في إسقاطه العقيدة الموحدية من الخطبة على المنابر ، وابطال الاعتقاد في المهدي وجماعته[١٦٦] . وقد أثارت المبادرة الثانية جدلاً كثيرًا وفسرت وأولت تفسيرات وتأويلات شتى . فهل كانت مبادرة ضد الأرستقراطية الموحّدية أم كانت تردّدًا لأصحاب المذهب المالكي؟ ومهما يكن من أمر ، فان المأمون يبدو وكأنه اتّخذ قرارًا انتهازيًا[١٦٧] أدى في الواقع إلى تقويض مركز سلالته نفسها بحرمانها من كل شرعية ومن كل أساس أخلاقي وايديولوجي .

وفعلاً ، فإنه قد أصبح منذ سنة ١٢٣٠ م مضطرًا إلى الاعتماد على المرتزقة من النصارى ، مقابل تنازلات ما فتئت تتعاظم ، وكانت سببًا في تمركز التجارة المسيحية بالمغرب الأقصى ، وفي امتيازات مُنحت لأعراب بني هلال المكلّفين بجباية الضرائب . وفي سنة ١٣٣٢ م توفي في سهل «وادي أم الربيع» ، أثناء زحفه على منافسه يحيى الذي كان قد استولى من جديد على مراكش .

وأمكن للرشيد ابن المأمون الانتصار بفضل حنكة أمه «هبادة» ، وكانت مملوكة من أصل مسيحي ، وبفضل حزم قائد المرتزقة المسيحي[١٦٨] . لكن لما كان عمره لا يتجاوز ١٤ سنة ، فان عهده كان فاتحة

(١٦٥) منذ عهد المستنصر وربما قبله ، بدأ الموحّدون يستعملون مرتزقة من المسيحيين في المغرب الأقصى للدفاع عن نظامهم . أنظر ش. أ. دو فورك ، ١٩٦٨ ، مجلة «ت. ح. ق.» العدد الخامس ، ص ٤١ .

(١٦٦) ش. أ. دو فورك ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(١٦٧) وجد المأمون قبل وفاته سنة ١٢٣٢ متسعًا من الوقت لإعادة الاعتبار للسنة الموحّدية ولشأن المهدي بن تومرت ، تحت ضغط الشيوخ الموحّدين ، أنظر ر. برنشفيك ، ١٩٤٠ ، المجلّد الأول ، ص ٢٢ ، حاشية رقم ٤ .

(١٦٨) ش. أ. دو فورك ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

فترة من الفوضى ومن الفتن الداخلية ، حاولت القوى المسيحية استغلالها إلى أقصى حد ، خاصة في موانئ المغرب الأقصى على البحر المتوسط (١٦٩) . وقد كان على الرشيد حتى موته ، في ديسمبر ١٢٤٢ ، أن يقاوم منافسه يحيى الذي كان سرعان ما يفر إلى الأطلس ثم يكر منه ، وأن يناضل بني مرين. ثم خلفه السعيد ، أخوه لأبيه من جارية سوداء ، فواصل السياسة نفسها ، وتعرّض لمناوشات بني مرين وبني عبد الوديد في تلمسان.

ولما توفي في سنة ١٢٤٨ م ، انفتح الباب أمام أزمة طويلة دامت إلى سنة ١٢٦٩ م ، تاريخ استيلاء بني مرين على مراكش. ومن سنة ١٢٦٩ م إلى ١٢٧٧ م ، قام في تنملل «حكم» موحدي. فما أغرب هذا الرمز ، رمز الرجوع إلى نقطة الانطلاق!

وهكذا ، دام احتضار الحكم الموحدي حوالى نصف قرن ، ولم يفتأ مجال سلطاتهم يتقلص تحت ضربات أعداء شتى وقوى نابذة زادت فعاليتها على مر الأيام.

فبدأ الأمر بانفصال افريقية عن الأمبراطورية (١٧٠) ، على أثر تلك المقاومة الطويلة الشرسة التي قادها يحيى بن غانية والتي أحبطت جميع التدخلات التي قامت بها الأمبراطورية شرقًا. ثم تولى السلطة أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي ، سنة ١٢٢٨ ، فقبض على ابن غانية سنة ١٢٣٣ م ، وتذرّع بالتغييرات التي أجراها المأمون ، فأعلن استقلاله ، بل أصبح من الطامعين في الخلافة.

ثم كان انفصال اسبانيا فضياعها ، حسب مسلسل أصبح مألوفًا منذ بداية القرن الحادي عشر. «فقد تشتتت السلطة بين ولاة موحّدين أخلوا مكانهم لأندلسيين ، استنجدوا بدورهم بملوك النصارى ، ثم بعد مدة أصبحوا خاضعين لسلطانهم (١٧١) ». وقد اقتدوا في ذلك بمن فوقهم ، لأن مختلف الطامعين في الخلافة كانوا غالبًا ما يلتمسون مساندة المسيحيين. وفتحت هذه الحال المجال أمام المنحدرين من السلالات المحلية القديمة ، مثل بني هود وبني مردنيش ، فكونوا امارات ما لبثت أن أصبحت بالضرورة تابعة للملوك المسيحيين. وفي ١٢٣٠ م ، زال حكم الموحدين من شبه الجزيرة ، وحلّ محله اما ولاء مبهم وبعيد «للعباسيين» ، أو ولاءٌ للحفصيين أصحاب أفريقية. فأخذت الحواضر الإسلامية عندئذ تتساقط الواحدة تلو الأخرى تحت سيطرة ملوك قشتالة (قرطبة سنة ١٢٣٦ م) وأراغون (بلنسية سنة ١٢٣٨ م).

---

(١٦٩) المرجع نفسه ، ص ٥٥.

(١٧٠) ر. برنشفيك ، ١٩٤٠ ، المجلد الأول ، ص ١٨ — ٢٣.

(١٧١) ان هذا التفكّك وهذا التدخّل من المسيحيين في السياسة الداخلية للمغرب الإسلامي ، يؤذنان بنهاية تفوّق المسلمين في البحر المتوسط.

الفصل الثالث

اشعاع الحضارة المغربية وتأثيرها على الحضارة الغربية

بقلم م. طالبي

اشعاع الحضارة المغربية

عصر الموحّدين

الذروة

الذروة؟ من الصعب تحديد نقطة الذروة في أية حضارة. فهل عرف المغرب ذروته في عهد الأغالبة عندما هدّدت الجيوش الأفريقية روما، في القرن التاسع، وسادت البحر المتوسط؟ أم في القرن العاشر، عندما جعل الفاطميون من المهديّة مقرًا لخلافة تنافس خلافة بغداد؟ أم يجب أن نرى ذروته في عهد الموحدين (١١٤٧ – ١٢٦٩ م) الذين وحّدوا لأول مرة امبراطورية شاسعة تمتد من طرابلس الى اشبيلية، تحت امرة أسرة محلية بربرية الأصل؟ لا بدّ من التسليم بوجود أكثر من ذروة، ومن المؤكّد أن ذروة القرن الثاني عشر ليست أقلها شأنًا.

واسبانيا؟ من المؤكّد أنها فقدت عظمتها السياسية القديمة في عهد عبدالرحمن الثالث (٩١٢ – ٩٦١)، أو عهد الدكتاتور المنصور بن أبي عامر أو «المانزور» الرهيب كما أطلقت عليه التواريخ المسيحية. لكن علاقة أسبانيا بالمغرب كانت مثل علاقة اليونان بروما. فلقد سادت مرتين غزاتها البربر العتاة، سواء كانوا من المرابطين أم كانوا من الموحّدين، عندما قدّمت لهم الكنوز القديمة لتقاليدها الفنية والثقافية، الأمر الذي جعل منهم بناة حضارة. هكذا كانت حضارة المغرب الاسلامي، ابتداءً من القرن الثاني عشر، حضارة أيبيرية – مغربية أكثر مما كانت في الماضي.

وقد أسهم فن هذه الحضارة، بنسب يصعب تحديدها، زنوج ينتمون أصلاً الى المناطق الواقعة

جنوبي الصحراء الكبرى. وكان عددهم كبيرًا في مراكش والمغرب بأسره. وكثيرًا ما حدث تزاوج، حيث لم تكن توجد ضدّه أية نظرة متعصّبة، لكنه بطبيعة الحال لم يخل من آثار حيوية ثقافية يصعب تقديرها بدقة[1].

وقد وجد عدد من الزنوج في أسبانيا، وخاصة في اشبيلية وغرناطة. وسواء أكانوا مؤقّتًا من العبيد أم كانوا أحرارًا، فقد لعبوا دورًا مهمًا في الجيش والحياة الاقتصادية، وأدخلوا معهم أيضًا بعضًا من عادات بلادهم الأصلية[2]. وعرف بعض منهم، مثل حنا اللاتيني (جان لاتان) – الذي كان استاذًا جامعيًا في اسبانيا – كيف يصعد الى أعلى درجات الحياة الفكرية، وهكذا أكسبوا الحضارة الأيبيرية – المغربية معنًى افريقيًا أوسع.

الفن والمعمار

في الفترة التي تهمّنا، كان النصف الغربي من المجموعة المغربية محورًا لهذه الحضارة. كانت القيروان قد تداعت، وفقدت «افريقية» مكانتها الأولى. ولنلاحظ أيضًا أن قرن الموحّدين كان في الوقت نفسه قرن المرابطين (١٠٦١) – (١١٤٧). واذا استبعدنا الجوانب الدينية، فاننا لا نجد أي انقطاع بين العهدين على مستوى الحضارة[3]. ولم يكن فن الموحّدين، بصفة خاصة، سوى ازدهار وخاتمة للأساليب التي أوجدتها أو أدخلتها اسبانيا في عهد المرابطين.

كان المرابطون من أعظم البناة، لكن لم تبق سوى أطلال قليلة من عمارتهم المدنية التي تعرّضت أكثر من غيرها لغضب البشر ومعاول الزمن. فلم يبق شيء من القصور التي شيّدوها في مراكش وتجرارت (تغرارات). ولم تبق سوى آثار قليلة لقلاعهم. ولا نكاد نعرف شيئًا عمّا أنجزوه من مرافق عامة، خاصة في مجال الري. الاّ انه يمكن أن نتأمل في اعجاب بعضًا من اجمل منشآتهم التي خصّصوها للعبادة. ويوجد منها اليوم في الجزائر ما يحمل أكثر من غيره الخواص المميزة لهذه الفترة. ولسوء الحظ، زال مسجد مراكش الأكبر وجرفه مدّ الموحّدين. وفي مدينة فاس، لا ينتمي مسجد القرويين الى عهد المرابطين الاّ جزئيًا، فهو بناء يرجع الى منتصف القرن التاسع الميلادي، جرى توسيعه وادخال بعض التعديلات عليه، في حين أن المسجد الأكبر في الجزائر – الذي بني عام ١٠٩٦ تقريبًا – بناء ينتمي الى عهد المرابطين كلية، ولم يتأثر كثيرًا بالتعديلات التي أدخلت عليه في القرن الرابع عشر وفي عهد الأتراك بعد ذلك. ويمكن أن نذكر أيضًا مسجد ندرومه. لكن مسجد تلمسان الأكبر هو بلا منازع أجمل هذه المباني. فهو بناء ضخم، مساحته ٥٠ مترًا في ٦٠ مترًا، بدأ بناؤه قرب عام ١٠٨٢ وانتهى عام ١١٣٦، ويجمع بين قوة أبناء الصحارى وجلالهم واناقة الفن الأندلسي ورقته. يقول ج. مارسيه[4] «لا يحتاج الأمر الى الكثير من الكلام لابراز أهمية مسجد تلمسان الأكبر. فهو يحتل مكانة مرموقة في سلسلة المباني الاسلامية بفضل خواص تصميمه، وما يتميّز به من ترابط وثيق بين القبة الأندلسية التي تعلو التعاريق وخرجة المقرنصات ذات الأصل الايراني».

ولقد واصل فن الموحّدين فن المرابطين ووفق الى تطويره، وأعطاه مزيدًا من الجمال والعظمة بفضل

(١) أنظر ر. برنشفيك، المجلّد الثاني، ١٩٤٧، ص ١٥٨.
(٢) أنظر الفصل ٢٦ من هذا المجلّد.
(٣) أنظر الفصلين الثاني والخامس من هذا المجلّد.
(٤) ج. مارسيه، ١٩٥٤، ص ١٩٦.

جلال التناسب ، وتوازن الأحجام ، وثراء الزخارف ، فكان ذروة الفن الاسلامي في الغرب ، ودرة هذا الفن هي «جامع الكتبية» ، أي مسجد أصحاب المكتبات في مراكش ، وهو من أجمل المنشآت في الاسلام ، بناه مؤسّس الأسرة عبدالمؤمن بن علي (١١٣٠ – ١١٦٣) ، كما بنى مسجد تنملل . وترتفع مئذنته ذات الطوابق الست الى أكثر من ٦٧ مترًا فوق سطح الأرض ، تشغلها قاعات ذات قباب متنوعة ، ويزدان جناحه العرضي بخمس قباب ذات متدليات للزينة ، «يمكن اعتبارها تتويجًا لتاريخ المقرنصات»[٥] . ونجد في هذا المسجد – اكثر مما نجد في مسجد تلمسان – ان البوائك المزينة بالعقود ذات الفصوص المجمّلة بالزخرفة تمتد فوق أساكيب المسجد السبعة عشر والأروقة السبعة بين العوارض وتتشابك الى ما لا نهاية ، فتعطي احساسًا بالاتّساع والرحابة . أما جامع اشبيلية الأكبر ، وهو درة أخرى من درر فن الموحّدين ، فندين به لأبي يعقوب يوسف (١١٦٣ – ١١٨٤) ابن عبدالمؤمن وخلفه . ولقد حلّت محلّه كاتدرائية ، بعد إعادة الفتح الاسباني ولم يبق منه اليوم سوى المئذنة «الخيرالدا الشهيرة» ، التي كان أكملها أبو يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ – ١١٩٨) ، وتوّجها ، منذ القرن السادس عشر ، قنديل مسيحي . أما أعظم المباني ، وهو جامع حسان ، الذي بدأ المنصور بناءه في الرباط ، فقد ظلّ غير مكتمل . لكننا يمكن أن نتأمل حتى اليوم روعة أعمدته البالغة الكثرة المقامة فوق مساحة طولها ١٨٣ مترًا وعرضها ١٣٩ مترًا ، وكذلك مئذنته المهيبة – أي برج حسّان الشهير – التي ترتفع في جلال عند منتصف الواجهة . كما أجريت في مسجد القصبة في مراكش ، الذي أسّسه المنصور أيضًا ، تغييرات بعيدة الأثر ، لم يعد باقيًا لكثرتها ما يعكس فن الموحّدين بصدق .

وكما حدث للمرابطين ، ولنفس الأسباب ، فان حظ العمارة المدنية التي أنشأها الموحّدون من البقاء كان أقل ، ولم يبق شيء من قصورهم أو من المستشفى الكبير الذي زوّدوا به عاصمتهم . وتحتفظ الرباط ، التي أنشأها المنصور ، ببابين من سورها القديم المبني من الآجر والذي كان طوله يزيد على الخمسة كيلومترات : وهذان البابان هما : باب الرواح ، وباب الوداية ، وكذلك من جملة ما ندين به للموحّدين ، «قصبة باد اخوز» ، و «قلعة دي جواديرا» ، – وهي قلعة مقامة على بعد خمسة عشر كيلومترًا من أشبيلية – ، و «برج الذهب» الشهير ، ذي الزوايا الاثنتي عشرة ، الذي اتخذ لمراقبة الملاحة في الوادي الكبير ، وتجدر أخيرًا ملاحظة أن فن الموحّدين يجمع بين الجلال والقوة ، ورقة الزخرفة ، وتألّق الألوان ، بفضل استخدام الفخار المزجّج المتعدّد الألوان «الزليج» . وهو فن يدلّ على النضج ، والقدرة ، والعظمة .

الأدب

اشتهر القرن الثاني عشر أيضًا بنشاط أدبي لامع . اذ سرعان ما ذاب تحت شمس اسبانيا الدافئة التحفّظ الذي أبداه المرابطون والموحّدون تجاه الشعراء والمؤلّفات الدنيوية بشكل عام . فلقد راعى أمراء الاسرتين تقاليد الاستنارة التي درج عليها الحكّام العرب برعاية الفنون والاهتمام بها ... لذا ، شجعوا الثقافة ، وحموا رجال الأدب .

في هذا المجال أيضًا ، كانت الصدارة للجزء الغربي من المجموعة الايبيرية المغربية . أما افريقيا فلم تتألّق قط . ولا يكاد يذكر بالنسبة لهذه الفترة فيها ، سوى ابن حمديس الصقلي (نحو ١٠٥٥ – ١١٣٣ م) ، الذي كان شاعرًا أصيلاً ذائع الصيت . على الرغم من أنه وُلد في صقلية . فقد اضطرّ الى

---

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .

مغادرة وطنه هذا – وهو بعد شاب – عندما فتحه النورمانديون. ومنذ ذلك الحين، ظلّ يردّد ذكرياته بحنين مؤثّر. وبعد مروره لفترة قصيرة ببلاط المعتمد بن عباد في أشبيلية، قضى الجزء الأكبر من حياته في افريقيا.

أما في المغرب الأقصى، وخاصة في اسبانيا، فكان هناك حسّ مرهف في استلهام ربات الشعر. ولنذكر من بين الذين حظوا برضاهن: ابن عبدون (مات في ايفورا عام ١١٣٤م)، وابن الزقاق البلنسي (توفي نحو عام ١١٣٣ م)، وابن باقي (توفي عام ١١٥٠ م) الذي قضى عمره كلّه متنقلاً بين أسبانيا والمغرب الأقصى والذي كان ينهي كل موشّح من موشحاته – وهو اللون الذي برع فيه – بخرجة بلغة «الرومانس»، وأبو بحر صفوان بن ادريس (توفي عام ١٢٢٢ م)، وأبو الحسن عبيّ بن حريق (توفي عام ١٢٢٥ م)، ومحمد بن ادريس مرج الكحل (توفي عام ١٢٣٦ م)، وابن دحية الذي هاجر من اسبانيا ومات في القاهرة بعد أن جاب المغرب كلّه وأقام بعض الوقت في تونس، وابن سهل (توفي عام ١٢٥١ م)، وهو اشبيلي يهودي الأصل يتمتع بحس شاعري عظيم، والتحق بخدمة حاكم سبتة بعد سقوط المدينة التي وُلد فيها في أيدي فرديناند الثالث (١٢٤٨ م)، وأبو المطرّف بن عميرة (توفي نحو عام ١٢٥٨ م) الذي وُلد في بلنسية وخدم آخر الموحّدين في عدّة مدن مغربية قبل أن يختم حياته وهو في خدمة الحفصيين في تونس.

وهناك نجمان تميزا ببريق خاص وسط هذه الكوكبة، وهما: ابن خفاجة (١٠٥٨ – ١١٣٩ م)، وهو عمّ ابن الزقاق سالف الذكر، ثم ابن قزمان بصفة خاصة (وُلد بعد ١٠٨٦ م وتوفي عام ١١٦٠ م). ولم يكن الأول شاعر بلاط بمعنى الكلمة – اذ كان ينتمي الى أسرة ميسورة من «ألسيرا» في مقاطعة بلنسية –، لكنه امتثل للتقاليد، وامتدح سادة عصره، ومن بينهم الأمير المرابطي أبو أسحق ابراهيم بن تاشفين. لكن الأجيال التي جاءت من بعده تذكره بصفة خاصة على أنه شاعر تغنّى بالطبيعة على نحو لا نظير له. فلقد تغنّى في شعره الحسيّ والرومانتيكي ببهجة الحياة، وبالجداول والبحيرات، والحدائق والأزهار، والثمار، ومتع الوجود، ولُقّب بشاعر الجنّان. ولا يوجد كتاب مقتطفات قديم أو حديث لا يورد مختارات من قصائده، فهو أحد الشعراء العرب الكلاسيكيين.

وكان ابن قزمان بلا منازع «أمير الشعر الشعبي» (امام الزجالين)، وهو ذلك الشعر الذي يبتعد عن اللغة الفصحى، ويستخدم العامية العربية الاسبانية للتعبير. وكان ابن قزمان طويل القامة شديد القبح، ذا لحية حمراء وعينين صغيرتين أصابهما الحول. وعاش حياة صاخبة متحرّرة واباحية، يعب الخمر، ولا يتراجع أمام أي من المحرمات الجنسية (الزنا واللواط). وكان يفتقر إلى المال دائمًا، ويسير هائمًا على وجهه من مدينة الى أخرى – لكنه لم يغادر أسبانيا أبدًا – بحثًا عن يسر الحال وكرم الرعاية والمغامرات الغرامية. وقد عرف السجن بطبيعة الحال، ولم يفلت من الموت جلدًا بالسياط الاّ بفضل تدخّل رجل من ذوي المناصب الرفيعة من المرابطين هو محمد بن صير. وكان دائم العوز ملهمًا وفاسقًا، يذكّرنا، حتى في توبته – ولربّما أصبحت توبة نصوحًا مع السن – بالمصير الشاذ لأبي نواس أو فرانسوا فيون. وتتخذ أزجاله التي أهدى معظمها الى حُماته شكل الموشّحات الغنائية القصيرة للغاية (ثلاثة أدوار) أو الطويلة للغاية (٤٢ دورًا)، التي يتخلّى فيها الشاعر عن صنعة الشعر التقليدي، مبدعًا أوزانًا جديدة، مع تنويع القافية. وكان يختتم مدائحه بنوع من الترجيع الشائع في صنعة الشعر آنذاك، ولكن قريحته الشعرية كانت تنطلق حرّة محلّقة في الأزجال الخالية من الاهداء – التي يتغنّى فيها جميعًا بالحب والخمر – أو الدعابة التي يبدأ بها القصائد المهداة. فهنا، يُطلق الشاعر العنان لوحيه، ويرسم لوحات أخّاذة، مليئة بالهزل اللاذع، عن معاصريه عندما يفاجئهم في شجارهم أثناء الشرب، ومتاعبهم كأزواج مخدوعين، أو

يصوّرهم في حياتهم اليومية في مشاهد لا تقلّ عن ذلك سخرية. وكان يصف الغناء والرقص، ويولع بالطبيعة المتحضرة، طبيعة الحدائق وأحواض السباحة التي تتهادى فيها الحسان. كان شاعر الدعابة الماجنة، لكنه نادرًا ما تمادى فيها الى درجة البذاءة. وباختصار كان شعر ابن قزمان شعرًا شعبيًا أصيلاً، تساعده قدرة نادرة على الملاحظة وبراعة لا ينضب معينها. وواصل التقاليد التي أرساها ابن قزمان وملك ناصيتها مواطنه «مدغاليس»، ثم ظلّت تلك التقاليد موضع الاتباع زمنًا طويلاً من بعده، حتى في المشرق العربي.

ولا يوجد أدب حيّ بغير نقّاد وجامعين للمختارات. وكان ابن بسام (توفي عام ١١٤٨ م) يداعب ربة الشعر كلّما واتته الفرصة، ويحرص بصفة خاصة على الدفاع عن وطنه الأسباني، وابرازه بالأمثلة الأدبية. وكتابه «الذّخيرة» عبارة عن نخبة شاملة تدلّ على الذكاء أملاها عليه اعتزازه بوطنه أمام تفوّق المشرق المزعوم، وهو أفضل مرجع لنا عن النشاط الأدبي في اسبانيا في القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، ونَدين لابن بشكوال (ابن بسكوال، المتوفي عام ١١٨٣ م) بكتاب «الصلة» (المنتهي عام ١١٣٩)، الذي أراد له صاحبه أن يكون تكملة «لتأريخ» ابن «الفرضي» (المتوفي عام ١٠١٣ م)، وهو كتاب يضمّ ١٤٠٠ سيرة للمشاهير في اسبانيا الاسلامية.

أما علم اللغة فكان يمثّله اثنان من كبار اللغويّين: ابن خير الاشبيلي (المتوفي عام ١١٧٩ م)، صاحب «الفهرسة»، الذي يحدّثنا عن المؤلّفات التي كانت تدرس في عصره، ثم ابن مضاء القرطبي (المتوفي عام ١١٩٥ م) خاصة، الذي سبق أنصار تبسيط النحو العربي الحاليين بعدّة قرون، ونقد النحو نقدًا دقيقًا، وندّد في كتاب «الردّ على النحاة»[٦] بتعقيداته الزائدة التي لا لزوم لها.

واذا كنّا لا نستطيع أن نذكر كل المؤرّخين والجغرافيين البارزين. فيكفي أن نذكر اسم أحدهم، «وربّما كان أكبر جغرافي في العالم الاسلامي»[٧]، الا وهو الادريسي (١٠٩٩ إلى نحو ١١٦٦ م) الذي عاش في بلاط روجر الثاني في صقلية، والذي ما زالت مؤلّفاته تحت الطبع – طبعة علمية – في ايطاليا[٨].

الفلسفة، والطب، والعلوم

غير أن عصر الموحّدين كان بصفة خاصة عصر الفلسفة الذي شهد مجموعة من الأسماء اللامعة: ابن باجة (Avempace) (المتوفي عام ١١٣٩ م)، وأبو بكر بن طفيل (Abubacer) (المتوفي عام ١١٨٥ م)، وابن رشد (Averroès) (١١٢٦ – ١١٩٨ م)، واليهودي الأندلسي موسى بن ميمون (Moise Maimonide) (١١٣٥ – ١٢٠٤ م). وباستثناء ابن ميمون الذي هاجر الى مصر قبل ١١٦٦، فقد خدم كل هؤلاء الفلاسفة الموحّدين، وأفادوا من حمايتهم ومن اعاناتهم المالية، على الرغم من بعض تقلّبات الحظ العابرة، واكتسبوا جميعًا – علاوة على مجال الفلسفة – معرفة جيدة بالعلوم الدينية، وألمّوا الى حدّ ما بعدد من العلوم الوضعية كالرياضيات، وعلوم الفلك، والنبات، والطب خاصة. وقد أخذت العصور الوسطى المسيحية عنهم جميعًا. ونهلت طويلاً من أفكارهم – ويتّضح ذلك من التحوير اللاتيني

---

(٦) طبعة القاهرة، ١٩٤٧.

(٧) أ. نييلي، ١٩٦٦، ص ١٩٨.

(٨) الإدريسي، طبعة روما، ١٩٧٠. يمكن الرجوع، فيا يتعلّق بالمزايا العلمية لمؤلّفات الإدريسي، إلى ت. ليفيكي. ١٩٦٦، المجلد الأول، ص ٤١ – ٥٥.

لأسمائهم. ولا يتّسع المقام هنا للتوقّف عند كل منهم. لكن، لنتوقّف عند نجم كان له بريق خاص وسط هذه الشوامخ، ألا وهو القرطبي ابن رشد. فلقد كان فيلسوفًا وفقيهًا في الوقت نفسه، واضطلّع بمهمة القضاء. وكانت له ملاحظات في علم الفلك، وألّف كتابًا في الطب هو «الكليات». وقد وقع الحدث الحاسم في حياته قرب عام ١١٦٩، عندما قدّمه صديقه ابن طفيل للخليفة أبي يعقوب يوسف الذي كان مولعًا بالفلسفة، وكان يشكو من غموض مؤلفات أرسطو. فكتب ابن رشد شروحه على هذه المؤلفات بناءً على دعوة الخليفة، واعتبرته الأجيال اللاحقة متمًّما للفيلسوف الاغريقي العظيم ومفسّرًا عبقريًا له.

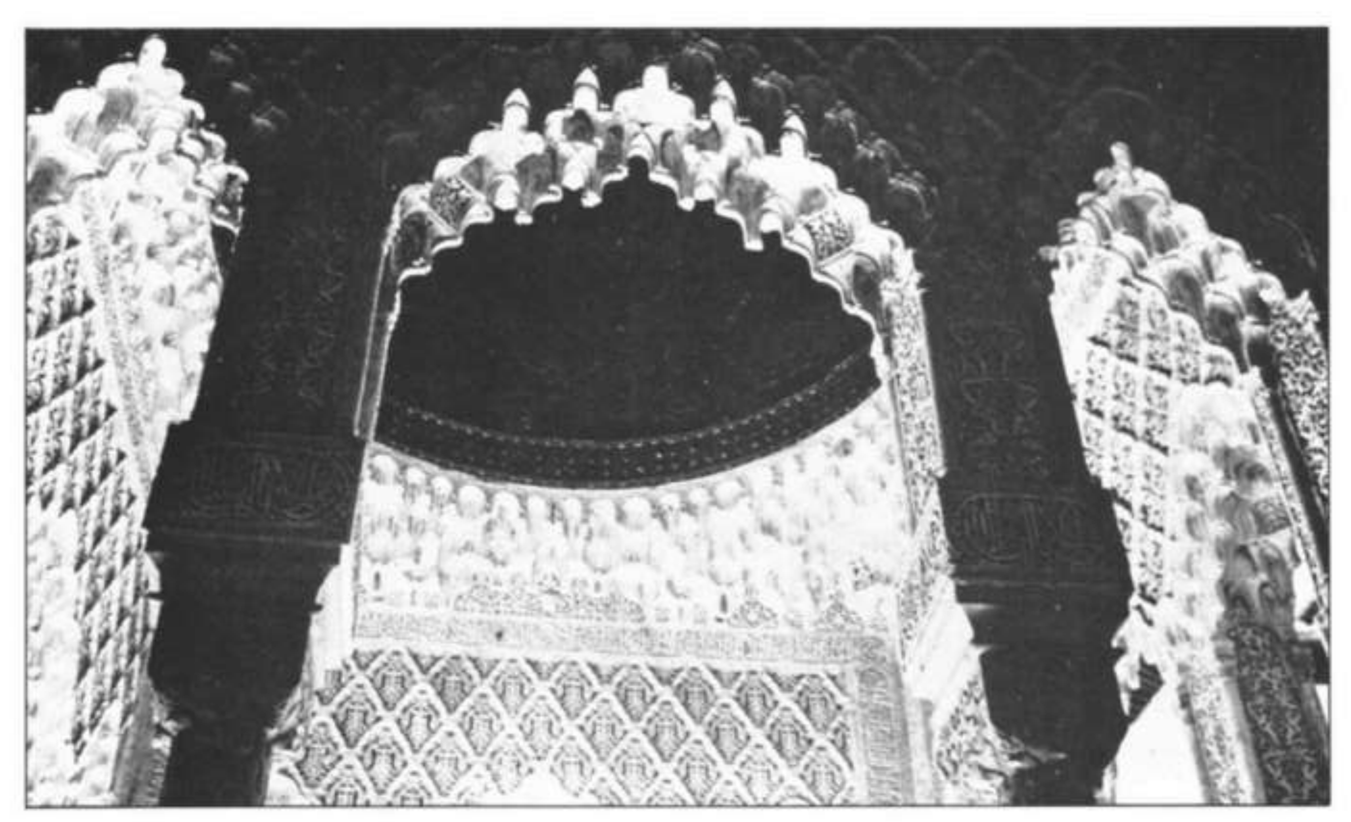
لكن الافتقار الى السماحة كتم صوت ابن رشد، على الرغم من تشجيع الخليفة وحمايته له. فقد ادانة الفقهاء، وذاق مرارة النفي وزوال الحظوة. وأحرقت مؤلفاته، لذلك لم يصل الينا منها الاّ جزء يسير باللغة العربية. أما أغلب كتاباته فنقلت الينا مترجمة الى اللاتينية أو العبرية. وفضلاً عن «الشروح»، يجدر بنا أن نذكر بصفة خاصة «فصل المقال»، الذي يحاول فيه أن يحل النزاع الأزلي الصعب بين الايمان والعقل، و «تهافت التهافت»، وهو تفنيد دقيق، نقطة بنقطة، «لتهافت الفلاسفة» للغزالي، أكبر فقهاء الاسلام الحنيف.

لقد اختلفت الآراء حول أفكار ابن رشد وعطائه، وأثير الشك حول أصالته، وجرى التركيز أيضًا على ازدواجيته التي جعلته – فيمَا يُقال – يخفي نزعته المادية الملحدة – التي لم يبح بها إلاّ للصفوة – خلف ستار من الخطاب الديني الحنيف والمخصّص للعوام. والواقع أن فكر ابن رشد لم يقل كلمته الأخيرة بعد، على الرغم من المؤلّفات العديدة التي تناولته، وذلك لأنه لم يلق حتى الآن بحثًا كاملاً مستفيضًا، أو تتبعًا متكاملاً لتطوّره من خلال النصوص العربية واللاتينية أو العبرية التي عبّر فيها عن نفسه. ومن المؤكّد أن ابن رشد يدين بالكثير لأرسطو، شأنه شأن كل فلاسفة العصر الوسيط. لكننا لا ينبغي أن ننسى أن فكره قد تكوّن في اتصال بتيار فلسفي عربي بأكمله، وكثيرًا ما كان بمثابة رد فعل لذلك التيار. كذلك يجب أن نحرص على عدم الفصل، عند ابن رشد – كما يفعل البعض أحيانًا بطريقة تعسفية – بين المتكلّم والفيلسوف. وفي رأينا أن صدق ايمانه – الذي كان بالطبع ايمانًا مستنيرًا وبالتالي مثيرًا للريبة – ليس موضع شك. فلقد كان ابن رشد، بلا جدال، شارحًا عبقريًا لأرسطو، و «أكبر مفسّر للفلسفة عرفه التاريخ»، في رأي عبدالرحمن بدوي[9]. لكنه كان أيضًا، وبلا جدال، مفكرًا يتّسم بالعمق والثراء والأصالة. ولا يهم أن يكون البعض قد وجد هذه الأصالة في «فصل المقال»، وأن يكون البعض الآخر قد وجدها في «التهافت». فهذا يؤكّد فقط مرونة فكر هذا الفيلسوف وثراءه الذي يعالج في يسر علم الكلام والفقه (فصل المقال) كما يعالج الفلسفة البحتة (التهافت). لقد كانت عبقريته هي الخاتمة الرائعة للفلسفة الاسلامية في الغرب.

وشهد عهد الموحّدين أيضًا ممثلين مرموقين للعلوم الوضعية، نذكر من بينهم بايجاز: الطبيبين أبا العلاء بن زهر (Aboali) (المتوفي عام ١١٣٠ م)، وابنه أبا مروان (Avenzoar) (المتوفي عام ١١٦١ م). وعلماء النبات ابن الرومية العشاب (المتوفي عام ١٢٣٩ م)، وابن البيطار (المتوفي عام ١٢٤٨ م)، كما نذكر بصفة خاصة علماء الفلك والرياضيات جابر بن أفلح، والبطروجه، والزرقالي، وينتمي ثلاثتهم الى القرن الثاني عشر.

---

(٩) ع. بدوي، ١٩٧٢، المجلد الثاني، ص ٨٦٩.



• قصر الحمراء في غرناطة. غرفة مجاورة لغرفة السباع نموذج للزخرفة في القرن الرابع عشر

الاشعاعات الأخيرة قبل الغسق

لم تصمد الامبراطورية التي أسّسها عبدالمؤمن بن علي لأثر الهزيمة التي حلّت بها في موقعة العقاب (١٢١٢ م). واذ أنهكتها الحروب الخارجية والتآكل الداخلي، تركت مكانها لأربع ممالك مستقلة، واحدة في اسبانيا وثلاث في المغرب.

غرناطة أو نوع من الذروة

نتيجة لتأثير الرومانسية، فقد اعتبرت مملكة غرناطة الصغيرة، التي حوت درة «قصر الحمراء»، النادرة، قمة الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى. وهذا رأي مبالغ فيه طبعًا. فلعلّها كانت ذروة الترف التي تمثّل نوعًا من الرقة البالغة. لكن الواقع، كما يلاحظ هـ. تيراس، هو أن «هذه المملكة الصغيرة لم تكن في كل شيء سوى صورة مصغرة ومتأخرة من خلافة قرطبة»[١٠].

ونحن ندين لبني نصر في غرناطة بعدّة شوامخ أثرية مدنية وعسكرية، أروعها «قصر الحمراء». ويشعر من بروز «قصر الحمراء» أن هذا المبنى البديع ثمرة لأشد أنواع الخيال افراطًا، بما يحويه من الأبواب، والنوافذ المزدوجة، وصفوف البوائك المغطاة بالعقود ذات الزخرفة المنسوجة التي تعلو أعمدة مرمرية رقيقة، وبقع الضوء وبقع الظل، والأروقة، والممرات، الخ... كل هذا يبدو وكأنه جعل للتوفيق ببراعة بين المؤثرات المتباينة، كي يثير الدهشة في كل خطوة، ويحدّ من رتابة الأماكن المغلقة بمناظر أخّاذة يتوه فيها المرء. لكن الفوضى الخيالية ظاهرية فحسب. فاذا نظرنا الى المبنى من الخارج ومن أعلى أدهشنا توازن أشكاله وما يتّسم به توزيع الأجزاء من انسجام وتوافق. ومبعث سحره الخلاّب الذي يستلفت النظر لأول وهلة ويترك في النفس أعمق انطباع هو ثراء الزخارف وروعتها التي لا تضارع. فليس فيها اختراع جديد، وانما استخدام ذكي لكل ما اكتسبه الفنّ الاسباني المغربي، وبراعة مقتدرة في الصنعة: قباب ذات مدليات للزينة، وأسقف من الخشب المطلي، ونحت على الجص، ورسوم ولوحات على الجدران، وسيمفونية من الألوان الهادئة أو الصارخة عمدًا، حيث يجتمع كل هذا لكي يشيع جوًا مترعًا بالثراء الهادئ والأحلام المستسلمة لمشاعر الترف الحسيّ في غير اكتراث. ففن غرناطة يمقت عزلة الفراغ. والجدران مكسوة بالزخارف النباتية المموجة، والكتابية أو الهندسية. انه فن تجريدي رمزي، يولد احساسًا بالاتساع واللانهاية. فالخيوط تطول وتنطلق في كل اتجاه، ثم تتوقّف، ثم تنبعث من جديد، ثم تتقاطع في رقصة مجنونة لا تصل الى نهاية. وقد ظلّت موسيقاها الرقيقة – التي كثيرًا ما كتب ابن زمرك كلماتها – تسحر أقل الزوار انتباهًا، على مرّ الأجيال. إنه فن ساحرًا أخّاذ، لكنه أيضًا – ولا بدّ من أن نقولها – فن خال من القوة. انه آخر أنشودة لحضارة حبيسة نفسها في انعراجاتها وداخل الشرنقة الدافئة لأحلامها، لم تعد لديها قدرة على التجدّد أو مواجهة الحياة.

والثقافة في عهد بني نصر لها نفس الملامح. فلقد كانت استمرارًا وامتدادًا للماضي، وكان يمكن أن تبدو متألقة بما فيه الكفاية في بعض المجالات. ومع ذلك، فلا مفرّ من أن نلاحظ انحدار الفلسفة التي لم يعد لها ممثلون يعتدّ بهم. كما أن العلوم الوضعية في مجموعها راوحت في مكانها أو تخلّفت. ولا يكاد يذكر

(١٠) هـ. تيراس، ١٩٥٨، ص ٢٠٣.

في هذا المجال سوى ابن خاتمة (المتوفي عام ١٣٦٩ م) أو عالم الرياضيات القلصادي (١٤١٢ – ١٤٨٦ م).

وكان الأدب هو المجال الذي احتفظت فيه غرناطة ، حتى آخر أيامها ، بشيء من التألق . اذ أنها لم تفتقر قط الى علماء اللغة ، أو الشعراء أو الكتاب ذوي الأساليب الأنيقة الذين تفنّنوا في الصياغة البديعة المنمقة للسجع – الذي كان الجمهور المثقّف آنذاك يتذوّقه بدرجة كبيرة كما تفنّن الذين برعوا في تغطية جدران – قصر الحمراء – وأفضل من يمثل هذه الفترة لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ – ١٣٧٥) ، أكبر علماء الآداب القديمة في عصره ، والذي لا يزال علمًا من أعلام الأدب العربي . وكان صديقه ابن خلدون يعتبره «معجزة حقيقية في مجال الشعر والنثر والعلوم والآداب». كان كاتبًا ووزيرًا لبني نصر ، عرف قمة المجد ، وتميّز في فروع المعرفة كافة : الشعر والمختارات ، والرسائل المختلفة ، وقصص الرحلات ، والتاريخ ، والتصوّف ، والطب . كتب ما لا يقلّ عن ستين مؤلّفًا ، وفرض نفسه بصفة خاصة بسحر أسلوبه ، وبراعة لغته التي لا تضارع . لكن الفنان الساحر انتهى نهاية بائسة . فلقد اتهمه زورًا بالزندقة بعض ذوي النفوذ ، ومن بينهم الشاعر ابن زمرك (١٣٣٣ – بعد ١٣٩٣) الذي كان لسان الدين يرعاه ، والذي خلفه في منصب الوزارة ، وأعدم لسان الدين خنقًا في زنزانة مظلمة في مدينة فاس ، وأحرقت جثته . ولم يكن في خلفه أقل سحرًا من فنه . وكانت نهاية الخلف مأسوية كنهاية السلف ، فلقد كان ابن زمرك يسحر القلوب بالكلمة ، شعرًا كانت أم نثرًا ، وانتهت حياته بقتله بناءً على أمر السلطان . ولم يصل ديوانه الينا . لكن بعض قصائده «التي تحوّلت الى نقوش جميلة ، وخط يختلط بالزخارف الهندسيّة والنباتية »[11] لا تزال تزيّن جدران « الحمراء» . وهي أفضل تعبير عن التوافق الدقيق بين فن بني نصر وأدبهم .

إن غرناطة حضارة انتهت بزخارف كلامية ومعمارية ؛ زخارف جميلة عفى عليها الزمان كما عفى على كل ما يزيّن المتاحف . ولم يكن في مقدورها أن تنصت الى ابن الهذيل (المتوفي بعد عام ١٣٩٢ م) الذي حاول عبثًا أن ينتزعها من حلمها ، فأشاد لها بما في فن الفروسية من شيم الرجولة؟

ورثة الموحّدين في المغرب

كان تقطّع الأنفاس باديًا في كل مكان وفي جميع المجالات في الغرب الاسلامي . ففي عهد بني مرين ، وآل عبدالوديد ، والحفصيين – أي حتى العقود الأخيرة من القرن السادس عشر – أصبح تاريخ المغرب تاريخ تيبّس بطيء . غير أن هذا ليس مقام تتبع تاريخ هذا الخمول الذي ولّد التدهور والأفول ، وهي ظاهرة أساسية لم تبحث بعد بما فيه الكفاية . لكن ، هناك أمرًا أكيدًا ، هو أنه بينما كان الغرب المسيحي يشهد انفجارًا سكانيًا حقيقيًا ، كان الغرب الاسلامي يخلو من سكانه ، وكان هذا ملموسًا ابتداءً من منتصف القرن الحادي عشر . ويبدو أن الأمر بلغ الدرك الأدنى في منتصف القرن الرابع عشر . وقد سجّل ابن خلدون هذه الظاهرة ، وكان محقًّا عندما جعل من هجرة السكان أحد العناصر الحاسمة في انحسار الحضارات وموتها . فقد تدهورت الزراعة ، وخاصة زراعة الأشجار.

(١١) أ. جارسيا – جوميز ، عن هـ. تيراس ، ١٩٥٨ ، ص ٢١١.

وانتشرت البداوة ، واختفت المدن والقرى أو خلت من سكانها . وأصبحت القيروان مجرّد قرية كبيرة ، في حين كان عدد سكانها يبلغ مئات الآلاف في القرنين التاسع والعاشر . ويسجّل يوحنا – ليون الافريقي[١٢] عن مدينة بجاية أنه لم يكن بها سوى ثمانية آلاف عائلة ، في حين أنها تتّسع بكل سهولة ، لأربعة وعشرين ألفًا . ويمكن بصفة عامة – ونحن في انتظار الدراسات الديمغرافية التاريخية التي لا بدّ منها – أن نقول إن عدد سكان المغرب انخفض الى الثلث . لماذا؟ إن الأوبئة – وهي ليست أسبابًا فحسب بل نتائج أيضًا – لا تفسّر كل شيء . على كل حال ، فان التدهور السكاني الحقيقي الذي راح المغرب ضحية له يفسّر لنا أفضل من سائر الأحداث التي ليست بالتأكيد سوى ظواهر فرعية ، اختلال التوازن الذي ظلّ يزداد خطورة بين شمال البحر المتوسط الذي كانت تشرق عليه شمس النهضة ، كما يلاحظ ابن خلدون[١٣] ، وبين جنوبه الذي لم يكف الظلام عن ابتلاعه رويدًا ، وذلك حتى النهضة المعاصرة التي صاحبها انفجار سكاني لا يزال مستمرًا ، فهل هذه مجرّد صدفة؟

في مجال « العمارة » ، ظلّ المغرب خاضعًا للتأثيرات الأندلسية ، أي لغرناطة ، التي أثّرت بصفة خاصة على المغرب وعلى الجزء الغربي من الجزائر . لكن هذه التأثيرات اقل وضوحًا في افريقيا ، حيث لم يبق سوى عدد قليل نسبيًا من آثار الحفصيين . وكان بنو مرين هم أعظم البناة في تلك الفترة . ولا يسعنا هنا أن نذكر كل شيء ، وتكفينا الاشارة الى أن القرن الثالث عشر قد تميّز بظهور نمط جديد من المباني : فالمدرسة – وهي دار للتعليم العالي – ، مأخوذة عن الشرق . وعادة ما كان تصميم المدرسة بسيطًا الى حدّ ما : فناء داخلي تتوسطه نافورة ، وتحيط به أروقة تفتح عليها مساكن الطلاب . وتطل على أحد الجوانب قاعة كبيرة فيها محراب ، تستخدم في آن واحد كقاعة درس ومصلى . إن كل عواصم المغرب ، وكثير من المدن الكبيرة ، كانت لها مدارسها ، وأكبرها مدرسة أبي عنانية في مدينة فاس (١٣٥٠ – ١٣٥٧) . ولا بدّ من الاشارة أيضًا الى ظهور « الزاوية » ، وهي مقرّ لـ « طريقة » دينية ، ومزار لضريح « الوليّ » الذي أسّسها . وقد اعتبر الفن المغربي في الفترة التي تلت عهد الموحّدين فن النضوج ، وهو يمثّل نوعًا من الفن الكلاسيكي الذي بلغ ذروة تقنيته ، لكنه لم يعد يعبّر عن أي تقدّم ، أي أنه غدا فنًا بلغ مرحلة التجمّد ، ومن ثم أصبح ينذر بالتدهور .

وكانت للثقافة نفس السمات ، ويلاحظ ابن خلدون ، بنفاذ بصيرته المعهود ، أن « سوق المعرفة » في عصره كانت في ركود تام في المغرب[١٤] . ويضيف بعد ذلك ، في الفصل المخصّص للعلوم العقلية ، أن هذه العلوم ، بصفة خاصة ، « كانت قد زالت تقريبًا ، وانه لم يعد يمارسها سوى أفراد قلائل خاضعون لرقابة علماء الدين الحنيف » . وهو يفسّر هذا الوضع المؤسف بتقهقر الحضارة والانهيار السكاني (تناقص العمران) .

وكان المراكشي ، « ابن البنّاء » (١٣٥٦ – ١٣٢١ م) آخر عالم رياضيات له قدره ، والافريقي « ابن الكماد » آخر علماء الفلك . وعن الفلسفة ، يمكن أن نذكر « الآبلي » ، من تلمسان (١٢٨٢ – ١٢٥٦ م) ، الذي تتمثّل قيمته الأساسية في أنه أسهم في اعداد ابن خلدون . أما الجغرافيا الوصفية ، في شكل قصص الرحلات ، فقد وجدت أشهر أعلامها في شخص المراكشي ابن بطوطة (١٣٠٤ – ١٣٧٧ م تقريبًا) الذي زار الهند ، والصين ، وافريقيا ، وفاق إلى حدّ بعيد أقرانه ومعاصريه مثل « الأبدري » ، و « خالد البلوي » ، و « التيجاني » . ولا يسعنا هنا أن نذكر جميع المؤرخين الذين تبرز من

(١٢) ج . ل . الإفريقي ، ترجمة ايبولار (فرنسية) ، ١٩٥٦ ، المجلد الثاني ، ص ٣٦١ .
(١٣) ابن خلدون (الترجمة الفرنسية) بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٧٠٠ و٨٦٦ .

بينهم شخصية ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) ، ولا أن نذكر كل من كتبوا سيَر الأولياء ، أو التراجم ، أو المختارات . وقد توافر الشعراء والكتاب . ولكن الفترة التي تهمنا هنا اتسمت بالتدهور ، على الرغم من بعض الأعمال الناجحة . فقد استمرّ بطبيعة الحال نظم القصائد ، والمدائح المفرطة في صنعتها والتي تبدو لنا اليوم سخيفة بالقدر الذي تناقض به الواقع على نحو مضحك . وكانوا يكتبون أيضًا في الرثاء ، ساكبين دموع تماسيح تذرف على أصحاب النفوذ ، ونادرًا ما يوحي بها الألم الصادق[١٥] . كما كان يلذ لهم أن يكتبوا في الوصف ، مشيدين بالجمال الزائل لزنبقة أو زهرة لوز أو مازجين أنينهم مع صوت النواعير ، وأن يتغنّوا بالحب الصوفي . لكنهم كانوا يتغنون أيضًا بالخمر ، وتهدهدهم أشعار الغزل الساحرة ذات الدلالة المزدوجة التي لا تميّز بوضوح في أغلب الأحيان بين قوام المحبوبة الأنثى وقوام المحبوب الذكر . وكانت تلك الموضوعات قد أصبحت كلاسيكية منذ أمد بعيد ، وعولجت بلا أدنى أصالة . كان الشعراء ينظمون «أبياتًا قديمة» خالية من «الأفكار الجديدة» . كان المعين قد نضب ، الاّ أن الصنعة ظلّت في اكمل صورة . وكان التذوق ينصرف الى رقّة الفنان ، أو مهارة الشاعر المنشد ، أو الاستمتاع بصقل الأشياء الغثة وقبولها على أنها لآلئ ودرر ، بشرط أن تكون في قالب سائغ . إنه أدب طبقة مترفة لاذت بعبق الماضي أو شذاه ؛ أدب يعتبر فن الشعر والنثر الممتزجان في رسائل رقيقة – تحفًا دقيقة الصنع ، تذكّرنا أشكالها ورقتها على الفور بالزخارف الرقيقة التي تزيّن قصور الموسرين ومساكنهم . انها أشكال جامدة في طريق التدهور ، لكنها تنم مع ذلك عن ثقافة حقيقية ؛ ثقافة بورجوازية المدن . وربما لم تحظ الكتب والمكتبات في أي وقت بمثل هذا الحب . وكان التعليم واسع الانتشار نسبيًا – بما في ذلك تعليم النساء ، كما كان الناس مغرمين بالموسيقى ، التي كان قد سادها بالفعل تأثير «المألوف» الأندلسي . ويلاحظ يوحنا – ليون الافريقي ، في حديثه عن تيدليس (Dellys) ان «الناس ودودين يحبون الحياة المرحة . فجميعهم تقريبًا يجيدون العزف على آلة العود والقيثار»[١٦] . ويضيف في موضع لاحق أن «أهل بجاية اناس ظرفاء يحبون قضاء الوقت في الفرح والسعادة . وكل منهم يجيد العزف والرقص ، ولا سيّما السادة المترفون منهم»[١٧] . لقد كانت تلك هي آخر الومضات من حضارة آخذة في الأفول .

تأثير المغرب على الحضارة الغربية

على الرغم من الصراعات الحتمية وتباين المصائر ، فإن التبادل المادي والثقافي لم يتوقّف قط بين الغرب الاسلامي والغرب المسيحي . ولكي تكون الصورة التي سنرسمها متوازنة ، نستخلص أولاً ، وباختصار ، السمات الخاصة بالتبادل المادي ؛ وسنقصر كلامنا هنا على اسبانيا التي كانت ، كما سنرى ، جسرًا رئيسيًا للتبادل الثقافي .

(١٤) ابن خلدون (الترجمة الفرنسية) بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٧٨٩ و٨٦٦.
(١٥) الرثاء هو لون من ألوان الشعر العربي ، ويسمى أيضًا مرثية . وكثيرًا ما يعبّر عن الرسميات ليس إلاّ .
(١٦) ج. ل. الإفريقي ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢.
(١٧) المرجع نفسه ، ص ٣٦١.

التبادل المادّي

كانت التجارة مع أسبانيا وبقية بلاد أوروبا محكومة بمعاهدات تحدّد أشكالها ، وتنظم اقامة الأفراد. ووفقًا لهذه المعاهدات ، كان سكان شبه جزيرة أيبيريا – الذين لم تخل علاقاتهم من المنافسات – يمتلكون في كل الموانئ المغربية الكبرى ، بل في داخل البلاد ذاتها – في تلمسان ومراكش مثلاً – سلسلة كاملة من الفنادق. وكانت هذه الفنادق – وهي في الوقت نفسه نزل كل منها مزوّد بالكنيسة الصغيرة ، والفرن ، والمطعم ، والمخازن ، ومراكز التجارة الخ... – تخضع عادة لادارة قناصل يمثلون اخوانهم في الدين أمام السلطات المحلية.

ولكن المغاربة – ولا بدّ من تأكيد ذلك – كانوا أقل دينامية. لذا لم يتمكنوا من الاستناد الى تنظيم مماثل في البلاد المسيحية. كما أن دورهم في النقل البحري لم يكن يستحق الذكر. ولقد خضعت البورجوازية لهذه الحركة واستفادت منها بعض الشيء ، لكنها لم تندمج فيها ، لأنها افتقرت الى روح المبادرة والى تشجيع الانتاج الداخلي المخصّص للتصدير. أما الأرباح التي اتخذت أساسًا شكل الضرائب المالية التي يدفعها الأجانب ، فقد ذهبت الى خزانة الدول[١٨].

وظهر اختلال التوازن أيضًا في المنتجات المتبادلة. فمن ناحية المبدأ ، لم تكن هنالك أية قيود على الواردات من الجانبين ، في حين كان التصدير خاضعًا للاشراف المتمثل في : تعيين حصص بعض المنتجات الحيوية مثل الحبوب ، وأوامر – تراعي الى حدّ ما – تحظّر تصدير المواد الاستراتيجية ، كالأسلحة ، والحديد ، والخشب ، الخ... وكان الايبيريون يصدّرون الى المغرب المعادن ، والخشب ، والمصنوعات المعدنية البسيطة ، والتوابل المشتراة من الشرق ، ومواد الصباغة ، والنبيذ ، والورق ، بالاضافة بصفة خاصة الى المنسوجات من كل نوع. وكانوا يستوردون : الأصواف ، والجلود ، والشمع – وهو انتاج ارتبطت به شهرة مدينة بجاية* – ، والتمر ، والسجاد ، ومنتجات حرفية أخرى. وكانت مملكة أراجون تشترط لنفسها في أغلب الأحيان نسبة من الرسوم الجمركية التي يدفعها تجارها ، وكانت تبذل قصارى جهدها بصفة خاصة ، وبمختلف السبل ، لكي تحتفظ بالاشراف على المحور التجاري برشلونة – ميورقة – تلمسان – سجلماسة – ، وهو أحد ممرات ذهب السودان[١٩].

ولما كانت كفّة المغرب في التبادل المادي غير راجحة ، فقد توسّع فيما يصدره من محرزات تراثه الثقافي الذي لم يكن يحسن تقديره حق قدره أو استثماره ، والذي اكتشف الغرب المسيحي بحماس قيمته التي لا تقدر لكي يستكمل «نهضته» ويدفعها في كافة المجالات.

التبادل الثقافي

كان دور المغرب مزدوجًا. فقد لعب دور الوسيط ، كطريق تمرّ به بالضرورة كل القيَم الحضارية ، العربية والاسلامية ، الداخلة الى الغرب ، وصدر تراثه الثقافي الخاص. وسوف نقصر حديثنا هنا على الشق الثاني من هذا الموضوع ، لأن هذا الشق لا يُشار اليه عادة بقدر كاف.

---

(١٨) عن التجارة مع أوروبا وسيطرة المسيحيين على المجال البحري ، أنظر الفصل ٢٦ من هذا المجلّد.

* «بوجي»... كلمة معناها شمعة باللغة الفرنسية ، وهو الاسم الذي أطلقه الأوروبيون على مدينة بجاية.

(١٩) لرسم صورة عامة لنشاط أراجون في المغرب ، أنظر ش. أ. دوفورك ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦٤.

المناخ والدوافع

ساعد على نقل القيم الحضارية التي صيغت في الغرب الاسلامي الى الغرب المسيحي – خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر – جوّ السماحة البالغة الذي كان سائدًا ، والذي لم يبدأ في التدهور بشكل خطير وصل الى محاكم التفتيش وطرد المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية قهرًا (Morisques) عام ١٦٠٩ إلاّ بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢) . وكان الانفتاح على هذه القيم نتيجة لدافعين : التعاطف المنزّه عن الأغراض والاستراتيجية الروحية . وقد استجاب روجر الثاني – ملك صقلية (١١٠٥ – ١١٥٤) – لذوقه الشخصي عندما أحاط نفسه بالأدباء والعلماء العرب . وظلّ هذا التقليد قائمًا ، بل واتّسع نطاقه ، في عهد الامبراطور فريدريك الثاني (١١٩٧ – ١٢٥٠) الذي أعجب اعجابًا عميقًا بالفكر الاسلامي . وفي اسبانيا ، كان « پدرو الأول » (١٠٩٤ – ١١٠٤) يوقّع خطاباته بالعربية ، ويسك نقودًا على غرار المسكوكات الاسلامية »[٢٠] . لكن كانت هناك أيضًا الشواغل التكتيكية للدومينيكان والفرنسيسكان خاصة ، الذين كانوا يحلمون بالغزوات الروحية . والى هذه الفترة ترجع دراسة اللغة العربية والفكر الاسلامي لهدف تكتيكي – لا يستبعد منه التعاطف بالضرورة – هو مساندة جهود التبشير ، ولم يختف هذا الوضع نهائيًا منذ ذلك الحين . وربما كان رامون لول (١٢٣٥ – ١٣١٥) – وهو من أكبر شخصيات العصور الوسطى الملفتة للنظر في اسبانيا – أفضل رمز لهذه الروح . فلقد سعى طوال حياته الى « الحوار » مع المسلمين ، وألّف أبحاثًا باللغة العربية ، وألقى مواعظه في المغرب ، وتونس ، وبجاية ، مخاطرًا بحياته وحريته . وكان يفضّل السبيل الفلسفي لكي ينقذ المسلمين من كفرهم ، ولكنه لم يكف عن اثارة الرياح الصليبية لدى البابا سلستين الخامس عام ١٢٩٤ ، والبابا بونيفاس الثامن عام ١٢٩٥ م ، والملك الفرنسي فيليب لي بيل عام ١٢٩٨ م ، والبابا كليمنت الخامس عام ١٣٠٢ م . وفي مجمع فيينا الديني (١٣١١ م) ، ولم يقترح رامون لول انشاء مدارس لدراسة العربية فحسب ، بل اقترح كذلك انشاء نظام عسكري للقضاء على الاسلام . فلم تكن دراسة العربية ، في هذه « الحرب الصليبية » المزدوجة التي واصلها ، سوى سلاح ضمن أسلحة أخرى . وإذا كان هذا الرجل قد أسهم أكثر من أي شخص آخر في خلق « السلاح » الصليبي ، إلا أنه لم يدرك أن الأجيال اللاحقة سترى فيه « صوفيًا مسيحيًا » ، نظرًا لتأثره بابن عربي (١١٦٥ – ١٢٤٠ م) ، أكبر متصوفي الاسلام الأسباني . هكذا التقى التعاطف المنزّه عن الأغراض مع الاهتمامات التكتيكية ، لكي تحفز تأثير الحضارة العربية الاسلامية على الغرب المسيحي الذي كان ينبض بعنفوان المراهقة ، وله حماسها ، وشهيتها .

معاهد الدراسات العربية

انتقلت منجزات هذه الحضارة عبر محورين ، يمرّ أحدهما بصقلية وايطاليا ، ويمرّ الآخر – وهو أهم بكثير – باسبانيا وجنوب فرنسا ، وعلى عكس اعتقاد شاع كثيرًا فيما مضى ، لم تلعب الحروب الصليبية في كل هذا سوى دور ثانوي للغاية .

كانت أول مدرسة بدأ منها نشر العلم العربي ، انطلاقًا من ايطاليا – هي مدرسة سالرنو على ما يبدو . وينسب انشاؤها الى قسطنطين الافريقي ، وهو طبيب تاجر وُلد في تونس نحو عام ١٠١٥ م . وتحوّل عن

(٢٠) ش . أ . دوفورك ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣ .

الاسلام الى اعتناق المسيحية ، وأنهى حياته (١٠٨٧ م) رئيسًا لدير مونت – كاسنو. لكن التأثير العربي جرى بأكثر الطرق فاعلية انطلاقًا من باليرمو بصفة خاصة ، وذلك بفضل تشجيع الامبراطور فريدريك الثاني (١١٩٧ – ١٢٥٠ م) ، وابنه غير الشرعي مانفريد (١٢٥٨ – ١٢٦٦ م) ، ورجال أسرة «أنجو» (الفرنسية) الأوائل. وكان ذلك العصر في صقلية هو العصر الذهبي للترجمة من العربية الى اللاتينية ، ومن أهمّ ممثليه المنجّم تيودور ، ويوحنا وموسى الباليرميان ، والانجليزي مايكل سكوت (المتوفي عام ١٢٣٥ م) بصفة خاصة. وجميعهم ممن كانوا يحيطون بفريدريك الثاني. وينبغي أن نضيف اليهم اليهودي فرج بن سالم الأجريجينتي* ، الذي وضع يراعه في خدمة شارل دانجو (١٢٦٤ – ١٢٨٢ م).

أمّا في اسبانيا ، فقد ظلّت المعلومات قليلة عن الحركة التي بدأت في القرن العاشر في قطالونيا في دير ريبول الشهير – حيث درس الراهب «جلبير» الذي كان ضمن السفارة التي أوفدت لمقابلة الحكم الثاني في قرطبة عام ٩٧١ م ، والذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣ م). ولم يتّضح الأمر بعض الشيء إلاّ في الربع الأول من القرن الثاني عشر. وكانت برشلونة هي التي تقدّمت ركب الترجمة ، الذي يجدر أن نضع في صفه الأول أفلاطون دي تيفولي ، واليهودي الأندلسي ابراهام بار – حيّة (المتوفي حوالي عام ١١٣٦ م) الشهير «بصاحب الشرطة». فلقد أتاح تعاونهم ترجمة عدّة مؤلّفات في التنجيم والفلك ، ومن بينها الجداول القيّمة التي خلفها العالم المشرقي «البطّاني» Albategni أو Albatenius المتوفي عام ٩٢٩م).

ثم جاء دور طليطلة في احتلال مكان الصدارة وحجب المراكز الأخرى ببريقها. فقد اجتذبت العلماء من كافة أنحاء أوروبا : انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وايطاليا ودالماشيا. ولكي تخصب ثقافة الغرب المسيحي بالثقافة العربية الاسلامية ، لعبت الدور ذاته الذي لعبته بغداد بالنسبة للتراث اليوناني في القرن التاسع. وكان الفونس العاشر الحكيم (١٢٥٢ – ١٢٨٤ م) صورة طبق الأصل من الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ – ٨٣٣م) الذي كان شديد التعلّق بأرسطو. ويمكن تمييز فترتين هامتين في نشاط مدرسة طليطلة. أحيا الأولى كبير الأساقفة ريمون (١١٢٥ – ١١٥٢م) ، وأحيا الثانية كبير أساقفة آخر ، هو «رودريجو خيمينيز دي رادا» (١١٧٠ – ١٢٤٧ م). وكان اليهود والمستعربون – خاصة في البداية – مرشدين ومعلمين للغة العربية. وكثيرًا ما كانت الترجمات تمرّ بعدّة مراحل ، وتضطر الى الالتجاء الى وساطة اللغة العبرية أو لغة قشتالة ، قبل أن تجد شكلها اللاتيني النهائي ، وهو ما أدّى أحيانًا إلى أخطاء لم يكن يمكن تجنبها.

ويجب أن نذكر من بين مترجمي الفترة الأولى رئيس شمامسة سيغوفيا ، دومينيكوجونديسالفي (المتوفي عام ١١٨١ م) ، وهو من أهم فلاسفة العصر الوسيط الأسباني ، وتأثر تأثرًا عميقًا بالشروح العربية لفلسفة أرسطو ، واشترك معه في العمل يوحنا الاسباني إبن داود (المتوفي عام ١١٦٦ م) ، وهو يهودي اعتنق المسيحية... ولكن الشخصية التي احتلت مكان الصدارة بلا منازع هو اللومباردي «جيرار دي كريمونا» (١١١٤ – ١١٨٧م) الذي تعلّم العربية على يد المستعرب غالب Galippus ، وتمكن منها بسرعة وبقدر كافٍ ، ووضعها في خدمة ترجمة لا تعرف الكلل أو الملل. ونحن مدينون له بترجمة لا يقل عن سبعين كتابًا. ولنذكر أيضًا اثنين من الانجليز ، هما : آديلارد أوف باث وروبيرت أوف كيتون اللذان قدما لبيير لي فينيرابل (١٠٩٢ – ١١٥٦ م) ، مصلح دير «كلوني» ، أول ترجمة لاتينية للقرآن أتماها عام ١١٤٣ م – وكذلك هيرمان الدلماشي.

* نسبة إلى مدينة اجريجنتو.

أما الفترة الثانية لطليطلة فسيطر عليها اثنان من المترجمين ، هما : مايكل سكوت الانجليزي وهيرمان الألماني .

وقد سرى نجاح طليطلة الهائل سريان العدوى ، وتعدّدت الدراسات العربية . وفي عام ١٢٣٦ ، أوصى الاخوان المبشرون المجتمعون في باريس بدراسة اللغة العربية في كل مكان يتّصل فيه المسيحيون بالمسلمين . وفي عام ١٢٥٠ م ، وصف ابن رشيق – وهو من أهالي مرسية – دير تلك المدينة باعجاب . وكانت المدينة لا تزال اسلامية ، حيث تمكّن ابن رشيق من مقابلة بعض الرهبان ، ومن المؤكّد أنهم كانوا من الدومينيكان الذين يعرفون العربية والقرآن معرفة تامة . وفي الوقت نفسه كان معهد الدراسات العربية في تونس ، Studium Arabicum الذي أسّسه الدومينيكان بناءً على توصية ملك أراجون جاك الأول الفاتح (١٢١٣ – ١٢٧٦ م) ، في قمّة الانطلاق ، واستقبل ، مع سبعة من الاخوان المبشرين ، رامون مارتي (١٢٣٠ – ١٢٨٦ م) مؤلّف Pugio Fidei Adversus Mauros et Judaeos (خنجر الايمان الموجّه ضدّ المسلمين واليهود) . وكان رامون مارتي يعرف العربية معرفة تامة ، ودليل ذلك القاموس العربي – اللاتيني الذي نسب اليه[٢١] . وفي عام ١٢٥٦ ، بدأت احدى المدارس تعمل أيضًا في اشبيلية باشراف ايجيد يو دي تابالديس وبيترو دي رجيو ، بتشجيع من الفونس العاشر . وكان أرنولد دي فيلانوفا (المتوفي عام ١٣١٢ م) آخر مشاهير هذه المدرسة . وفي عام ١٢٦٩ م ، عهد الفونس العاشر بادارة مدرسة مرسية المستولي عليها عام ١٢٦٦ م – الى فيلسوف مسلم من المنطقة ، هو الرقوطي ، وذلك قبل أن ينقلها الى أشبيلية عام ١٢٨٠ م . وفي عام ١٢٧٦ م ، أسّس الراهب الفرنشيسكاني رامون لول ، في ميورقة ، مدرسة ميرامار الشهيرة ، حيث درس ثلاثة عشر من الرهبان العربية قبل ذهابهم الى البلاد الاسلامية للتبشير . وأخيرًا ، افتتحت معاهد عربية في جامعات اكسفورد ، وباريس ، وسالامانكا ، وروما ، وبولونيا حيث كان يوحنا – ليون الافريقي لا يزال يدرّس في القرن السادس عشر (١٤٨٩ تقريبًا – ١٥٥٠ م تقريبًا) ، وذلك بناءً على الاقتراح الذي قدّمه لول الى مجمع فيينا (١٣١١ م) .

وفي جنوب فرنسا ، لا بدّ من الاشارة بصفة خاصة الى نشاط أسرة يهودية تنتمي أصلاً الى غرناطة ، هي أسرة بني طيبون . ونحن ندين خاصة ليهوذا بن طيبون – الذي توفي في لونيل عام ١١٩٠ م – ، ولابنه صمويل – الذي مات في مرسيليا عام ١٢٣٢ م – بعدة ترجمات من العربية الى العبرية ... ولقد أبقى الأحفاد لفترة ما بعد ذلك على تقاليد الأسرة .

ترجمة بعض الأعمال الأندلسية والمغربية وتأثيرها

الفلسفة

على الرغم من أن تيار النقل المباشر لم ينقطع تمامًا في أي وقت ، فان من المؤكّد أن العصور الوسطى المسيحية لم تكتشف وتقدّر وتفهم حقًا ميراث الفكر القديم الاّ من خلال الفلاسفة العرب والمسلمين الذين احتل الأندلسيون وأبناء المغرب مكانة مشرفة بينهم . ولا توجد لدينا أية نسخة لاتينية لابن باجة . ولم تصل الينا سوى نسخ عبرية من كتاباته ، من بينها «تدبير المتوحّد» التي نقلها موسى الناربوني في

(٢١) طبعة شياباريلّلي Sciaparelli ، ١٨٧٢ م .

منتصف القرن الرابع عشر. وكذلك الأمر بالنسبة لابن طفيل. فكتابه «حي بن يقظان» الذي تُرجم الى العبرية في تاريخ غير معروف قد علّق عليه موسى الناربوني بنفس اللغة عام ١٣٤٩ م. وترجع أول ترجمة لاتينية معروفة لذلك الكتاب – وهي تلك التي قام بها بوكوك تحت عنوان «الفيلسوف المعلّم لنفسه» Philosophus Autodidactus – الى عام ١٦٧١ م. ومع هذا، فمن المؤكّد أن ابن باجة وأبو بكر بن طفيل Abubacer و Avempace) لم يكونا مجهولين في العصور الوسطى اللاتينية.

غير أن ابن رشد كان الاستاذ الأكبر بلا جدال. وقد ترجمت كتاباته على نطاق واسع – ونوقشت بحماس – لدرجة أنها لم تصل الينا في أغلب الأحيان الاّ في ترجمتها اللاتينية أو العبرية فقط. ومن بين حشد الذين ترجموا كتاباته، يبرز وجه الانجليزي مايكل سكوت (المتوفي عام ١٢٣٥ م)، الذي يمكن أن يعتبر رائدًا في نشر فكر ابن رشد. ويجب أن نفرد الى جانبه مكانًا لهيرمان الألماني (المتوفي عام ١٢٧٢ م). وكان الاثنان من المحيطين بالامبراطور فريدريك الثاني، وكانا قد عملا في طليطلة. ويجدر أن نشير أيضًا، فيما يتعلّق بانتشار فكر ابن رشد بين اليهود، الى جهود بني طيبون في بروفانس Provence . ولقد لقيت مؤلّفات ابن رشد اقبالاً شديدًا بحيث أجريت عدة ترجمات «للشروح»، منذ القرن الثالث عشر.

وبطبيعة الحال، اعتبر فان ابن رشد، خصم الغزالي ومؤلّف «تهافت التهافت» – الذي ترجم تحت عنوان Destructio - Destructionis * –، قد اعتبر في نظر مثقّفي العصور الوسطى اللاتينية بطل النزعة العقلانية، ومناهضة التزمّت المذهبي (الدوجماتية). ومنذ ذلك الحين، انقسم الغرب المسيحي الى معسكرين: أنصار ابن رشد، والمعادين له. وكان سيجير دي برابان، من جامعة باريس، أكثر أنصاره تحمسًا. لكن النظريات التي نسبت لابن رشد، والتي أكّدت، ضمن أشياء أخرى، خلود العالم وأنكرت خلود الأرواح الفردية لم يكن من الممكن الا تستنفر المدافعين عن الكنيسة، فشنّ عليها هجومًا عنيفًا، بصفة خاصة، كل من البير الكبير (ألبرتوس ماغنوس) (١٢٠٦ – ١٢٨٠ م)، والقديس توما الأكويني ١٢٢٧ – ١٢٧٤ م)، ورامون لول (١٢٣٥ – ١٣١٥ م تقريبًا). ومع هذا، فقد ظلّ فكر ابن رشد يمارس جاذبيته، مما اقتضى ادانته رسميًا عام ١٢٧٧ م. فحكم على سيجير بالحرمان (الطرد من الكنيسة) وسجن، وانتهت حياته نهاية أليمة (نحو عام ١٢٨١ م). ولا يهم أن يكون سبب الادانة هو خطأ في التفسير. ويبيّن جول رومان في كتابه «دونوغوو تونكا» مدى خصوبة النتائج التي يثمرها الخطأ. لقد هزّ ابن رشد الأذهان هزًا عنيفًا، وحمل الناس على التفكير، سواء أكانوا من مؤيّديه أو معارضيه، وهذا هو الدليل القاطع على نجاحه، وعلى المشاعر التي أجّجها. ولقد نفذ حتى الى عالم المصورين، كرمز لرفض التسليم الأعمى. ففي بيزا، أفرد له أندريه أوركانيا مكانًا متميزًا الى جانب النبي محمد والمسيح الدجال، في جحيمه الذي يزين المخيم المقدّس Campo Santo ونراه، في كنيسة سانت كاترين، في لوحة لفرنشيسكو تريني ترجع الى عام ١٣٤٠ م تقريبًا، ملقى عند قدمي القدّيس توماس. ولسخرية القدر التي تقلب الأوضاع في كثير من الأحيان، ينتصر ابن رشد أكثر ما ينتصر على من يحسب أنه قاهره؛ فيقول إرنست رينان: «كان القديس توماس الأكويني، في آن واحد، أخطر المناهضين لفكر ابن رشد – ويمكن أن نقولها بدون أن نناقض أنفسنا – وأول تلميذ لهذا الشارح الكبير»[٢٢]. ويؤكّد هذا الرأي م. اسين بالاسيوس وخوزيه ماريا كاشيارو، اللذان أوضحا «الرشدية اللاهوتية» لدى القدّيس توماس،

* كلمة لاتينية معناها التفنيد أو الدحض. – (المترجم)

(٢٢) رينان، طبعة ٣، ١٨٦٦، ص ٢٣٦.

الذي يستشهد بالفيلسوف الكبير مالاً يقل عن ٥٠٣ مرات. وشهد ابن رشد مزيدًا من الانتصار في القرن الرابع عشر، بعد «تنقيته»، أو فهمه فهمًا أفضل. واعتبر جون أوف باكونثورب (المتوفي عام ١٣٤٦ م، وهو رئيس أديرة الكرم في انجلترا، «أميرًا» لأنصار ابن رشد في عصره. وفي عام ١٤٧٣ م، عندما أعاد لويس الحادي عشر تنظيم تعليم الفلسفة، أوصى بمذهب «أرسطو وابن رشد الذي علق عليه، وهو مذهب أقرّ الناس منذ أمد بعيد بأنه سليم ومأمون»[٢٣]. لكن اشعاع فكر ابن رشد ظلّ أكثر تألقًا، وبقي تأثيره واضحًا في جامعة بادوا، حيث كان شيزار كريمونيني (المتوفي عام ١٦٣١ م) آخر تلاميذه الكبار. ولم ينطفئ تراثه كلية الاّ في القرن الثامن عشر.

العلوم

كان الفلاسفة في العصور الوسطى أطباء أيضًا في كثير من الأحيان. لذلك رحّب الغرب المسيحي بمؤلّفات ابن رشد الطبية، وترجمت «كلياته» في بادوا عام ١٢٥٥ م، ترجمها اليهودي بوناكوسا تحت عنوان «Colliget». وكانت أحسن مؤلّفات ممثلي مدرسة الطب الشهيرة في القيروان — اسحق بن عمران (المتوفي عام ٨٩٣ م)، واسحق بن سليمان الاسرائيلي (المتوفي عام ٩٣٢ م)، وابن الجزار (المتوفي عام ١١٠٤ م) — قد ترجمت منذ القرن الحادي عشر، على يد قسطنطين الأفريقي، ودرّست في سالرنو. وظلّت مؤلّفات اسحق الاسرائيلي الطبية موضع حظوة كبيرة حتى نهاية القرن السادس عشر، ونشرت في ليون عام ١٥٧٥ م تحت عنوان «كل أعمال اسحق» Omnia Opera Ysaac — ولم يكن «زاد المسافر» لابن الجزار أقل نجاحًا. فلقد تُرجم الى اليونانية والعبرية، بالاضافة الى النسخة اللاتينية. و «كتاب التعريف» للأندلسي أبو القاسم الزهراوي (٩٣٦ — ١٠١٣ م) Abulcasis — الذي ترجم جيرار دي كريمونا جزءًا منه تحت عنوان «أسارڤيوس» Açaravius . أو «السهارفيوس» Alsaharavius — كان ذائع الصيت طوال العصور الوسطى، خاصة فيمَا يتعلّق بالجراحة. وأخيرًا، فقد ظهرت الترجمة اللاتينية لكتاب «التيسير» لابن زهر في البندقية عام ١٢٨٠ م على يد بارافيسيوس. وأسهمت كل هذه المؤلّفات اسهامًا كبيرًا وفعّالاً في تقدّم الدراسات الطبية في الغرب المسيحي، على الرغم من عدم انتشارها كانتشار «القانون» Canon لابن سينا المشرقي، الذي كان دستورًا لكل الأطباء في العصور الوسطى. أما علم الصيدلة في العصر الوسيط فدين للأندلسي ابن وافد (٩٨٨ — ١٠٧٤) Abenguefit بواحد من الكتب الأساسية، ترجمة جيرار دي كريمونا تحت عنوان «حول التطبيب المبسّط» Simplicibus De medicamentis».

ولم يكن اسهام الأندلس والمغرب في نشر علوم الرياضة والفلك في الغرب المسيحي أقل أهمية. فقد ترجم آديلار أوف باث الجداول الفلكية لـ «مسلمة المجريتي»، وهي جداول كتبها عام ١٠٠٠ تقريبًا، مستندًا الى الخوارزمي (المتوفي عام ٨٤٩ م). وترجم يهوذا بن موشيه، عام ١٢٥٤ م، الى لغة مقاطعة قشتالة دائرة المعارف الفلكية لصاحبها الافريقي ابن أبي الرجال (المتوفي بعد عام ١٠٣٧ م)، وعنوانها «كتاب الباري في أحكام النجوم». وانطلاقًا من هذا النص، وجدت ترجمتان باللاتينية، وثلاثة بالعبرية، وواحدة بالبرتغالية، وترجمات فرنسية وانجليزية، مما يدلّ على النجاح الساحق الذي أحرزه الكتاب. ونحن ندين لجيرار دي كريمون بترجمة «الجداول» للزرقالي Azarquiel — وهي جداول تحمل اسم Tablas Toledanas (جداول طليطلة)، فرضت نفسها على أوروبا كلّها في العصور

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٣١٧.

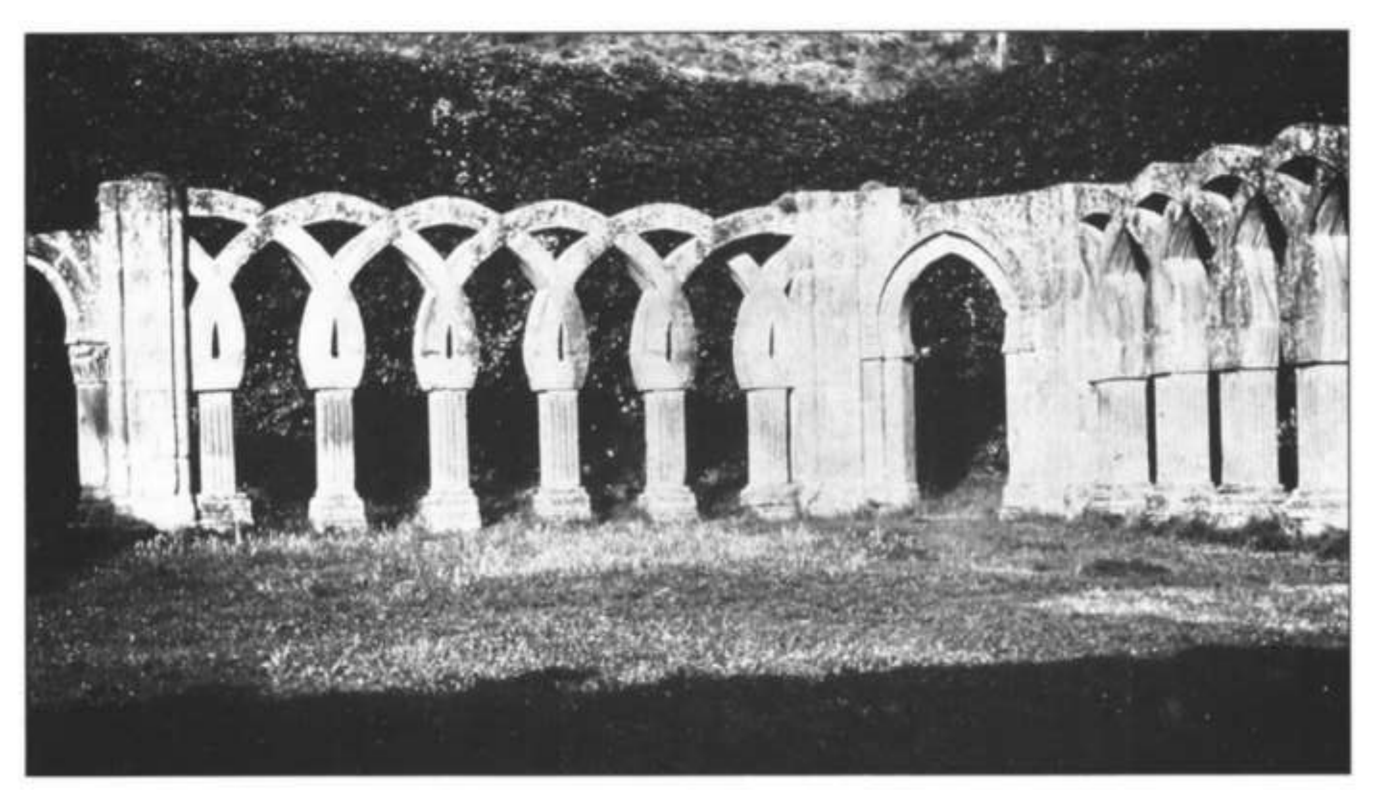
الوسطى – ، و « اصلاح المجسطي » ، لجابر بن أفلح. وترجم مايكل سكوت كتاب البطروجي « كتاب في الهيئة » (عن علم الفلك) الى اللاتينية ، كما ترجمه موسى بن طيبون عام ١٢٥٩ م الى العبرية ، وعن هذه الترجمة ، قدّم كالونيموس بن دافيد عام ١٥٢٦ م ترجمة لاتينية جديدة طُبعت في البندقية عام ١٥٣١ م ، مما يدلّ على النجاح المستمرّ الذي لقيه هذا الكتاب. كما يجدر في النهاية أن نشير الى أن العبقرية الرياضية لليوناردو دي بيزا (المولود حوالي عام ١١٧٥ م) ، والذي أقام فترة طويلة في بجاية ، حيث كان أبوه موثقًا ، هذه العبقرية مدينة بالكثير – خاصة بالنسبة للجبر – لتأثير العرب ، حيث كان هو الذي أدخل نظام أرقامهم الى أوروبا.

الآداب ، واللغة ، والفن

أثارت قضية تأثير الأدب الناطق بالعربية على أوروبا العصر الوسيط نقاشًا حاميًا في كثير من الأحيان. هل كان فن الشعراء المتجوّلين Troubadours الذي ازدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، والمتّسم بالجدة الفائقة من حيث شكل أدواره الايقاعية المقفاة ، وجوّه النفسي ، وموضوعاته التي تغنّت بالحب العذري ، شعرًا عربي الأصل؟ يرد « جان انجلاد » بالنفي ، « فالشعراء المتجوّلون هم الذين أبدعوا كل شيء ، شكلاً ومضمونًا » ؛ في حين يرد بالايجاب كل من جان ريبيرا ، ورامون مينيديس بيدال بصفة خاصة ، وهو من أفضل المتخصصين في أدب « الرومانس ». والواقع أن هناك شبهًا ملفتًا للنظر – لا ينكره أحد – بين الموشّح أو الزجل في اسبانيا الاسلامية ، وهما اللون الذي ملك ناصيته ابن قزمان كما رأينا ، ولغة دوك (لا تغدوك) الذي يمثّله غليوم التاسع دي بواتييه ؛ ومن ناحية أخرى ، لم يكن الاتصال بين المسيحيين والمسلمين نادرًا ، خاصة في اسبانيا ، بل كان وثيقًا أحيانًا. فما المانع اذن أن توجد تأثيرات في مثل هذه الظروف؟ ومع هذا ، فلا يزال الشك يساور بعض المتخصصين المعاصرين ، أمثال « لي جنتي » ، ولا يزال النقاش مستمرًا.

لكن نقاشًا آخر انتهى فيما يبدو ؛ ونعني به النقاش الذي طال حول « الكوميديا الآلهية » لدانتي. فقد استند اسين بالاسيوس – في كتابه « فكرة الآخرة في الاسلام في الكوميديا الآلهية La escatologia musulman en la Divina Commedia – إلى تحليل يمكن أن يعتبر نموذجيًا من نوعه ، واكتشف في الكوميديا آثارًا عربية واسلامية لا يمكن انكارها. لكن هذا الرأي لم يلق اتفاقًا اجماعيًا ؛ ثم اكتشفت الحلقة المفقودة – التي جاءت بالدليل القاطع – في نص « المعراج » ، وهو قصة شعبية عن صعود الرسول محمد ﷺ الى السماء ، انتشرت انتشارًا واسعًا في أسبانيا الاسلامية ، وترجمها الفونس العاشر الى لغة قشتالة. وعن هذه الترجمة المفقودة اليوم ، قدم الايطالي بونافنتورا دي سيينا ترجمة لاتينية عنوانها « كتاب صعود محمد » Liber Scalae Machometi وأخرى باللغة الفرنسية القديمة بعنوان Le Livre de l'eschiele Mahomet . وقد ثبت الآن – على يد أ. تشيروللي وآخرين – أن دانتي قد عرف « المعراج » ، وهو أمر لا يقلّل في شيء من عبقريته بطبيعة الحال. ولم تعد المناقشات تدور الآ حول مدى التأثير الاسلامي على « الكوميديا الآلهية ». ولنضف أن أوروبا في العصور الوسطى تأثرت أيضًا بأدب الحكم والأمثال العربي الذي انتشر في أسبانيا ، وعمّمه – ضمن آخرين – بيتروس الفونس في « النظام الاكليريكي » Disciplina Clericalis ، وهو كتاب ألّفه لألفونس الأول ملك أراغون (١١٠٤ – ١١٣٤ م) ولقي نجاحًا مستمرًا حتى الأزمنة الحديثة.

ونتيجة لهذه الصلة الحميمة الطويلة الأمد بين الغرب الاسلامي والغرب المسيحي ، بين افريقيا الناطقة



• الرواق في سوريا. مثال على تأثير الإسلام على الفن المسيحي في إسبانيا.

بالعربية وأوروبا ، احتفظت اللغات الأوروبية بعديد من الآثار. فكلمات مثل Algèbre (الجبر) ، ولوغاريتم Logarithme ، وسمت Zénith ، ونظير السمت Nadir ، وسمت Azimut ، والانبيق Alambic ، والكحول Alcool ، وصفر Chiffre ، وتعريفه Tarif ، وشراب Sirop ، وسكر Sucre ، ومئات أخرى من مفردات علم الرياضيات ، وعلم الفلك ، والطب ، والكيمياء ، وعلم النبات ، أو الحياة اليومية ، كلّها كلمات عربية الأصل ؛ ويبلغ عددها في الاسبانية أربعة آلاف كلمة.

وهذا التأثير ملموس أيضًا في الفن ، وليس في الفن المدجن mudéjar فقط ، « هذه الزهرة التي تفتّحت بعد أوانها » ، على حدّ قول ج. مارسيه ، أو العمارة الأسبانية – المغربية فحسب وانما أيضًا في الرومانس. ومنذ أن كشفت تحليلات « أ. مال » عن هذه السمة الأخيرة ، جاءت دراسات أخرى وأبرزتها بشكل أوضح. ولنختم بقولنا انه حتى فن الطهو في أوروبا في العصور الوسطى مدين بشيء ما لفن الطهو العربي ، كما بين مكسيم رودنسون.

خاتمة

بفضل هذين المعبرين – صقلية واسبانيا خاصة – اللذين يربطان افريقيا بأوروبا عبر البحر المتوسط ، لم يتوقّف التبادل المادي والثقافي أبدًا بين هذين العالمين وهاتين القارتين. وفي القرن الثاني عشر ، تألقت شعلة الثقافة الأفريقية ، في شكلها الأندلسي – المغربي ، لآخر مرة ، قبل أن يخبو بريقها وتنطفئ في ظلام الأفول. وأدّى التدهور السكاني الذي يثمر الركود ، والتأخر أو الانكماش الاقتصادي ، الى الضمور الثقافي ؛ إذ توقّفت العصارة المغذية عن الصعود الى الفروع التي تساقطت أوراقها عندئذٍ واختنقت ؛ هنالك جمعت أوروبا التراث المكدّس في الساحل الشمالي من أفريقيا وفي اسبانيا الاسلامية ، واكتشفت متحمسة ، وهي في أوج انفجارها السكاني ، قيمته الثقافية والتكتيكية التي لا تقدّر بمال. وكان هذا التراث بالنسبة لها دافعًا قويًا من دوافع « النهضة ».

واليوم يقطف كل من المغرب وافريقيا كلّها ، بدورهما ، ثمار الحضارة الغربية على نطاق واسع. لكن هذا الوضع لا يخلو من الأزمات ، أو صراع الضمير ؛ وهو صراع قد تتعارض فيه الأصالة والمعاصرة في كثير من الأحيان...

فعن أي شيء تراه سيتمخض؟

الفصل الرابع

تفكّك وحدة المغرب السياسية

بقلم ايفان هربك

سقوط الموحّدين

من المسلّم به عمومًا أن هزيمة جيش الموحّدين في مواجهة القوات المتّحدة للممالك المسيحيّة الاسبانيّة في معركة العقاب كانت بداية انهيار الامبراطورية الموحّدية ، الاّ أنّ سقوطها لم يحدث فجأة كما لم يكن أيضًا نهاية تدرّج طويل. فقد بدأ تفككها غداة المعركة ببطء في أول الأمر ثم ازداد بسرعة وشدّة ، فما انفكّ الاقليم الذي كان خاضعًا بالفعل لحكم الخلفاء الموحّدين يتقلّص ، وحدث ذلك تدريجًا ابتداءً من الجانب الشرقي للمغرب (افريقيا) ، وفي الاندلس كذلك ، وامتدّ بعد ذلك إلى المغرب الأوسط (تلمسان) ثم المغرب الأقصى ليشمل في نهاية الأمر جنوب المغرب الأقصى – آخر معاقل الدولة الموحّدية – الذي فتحه المرينيون سنة ١٢٦٩ م.

وعند دراسة الأسباب العميقة لانهيار هذه المملكة القوية ، يمكننا أن نميّز من بينها أسبابًا عديدة ، بعضها شديدة الترابط فما بينها وبعضها الأخرى تبدو للوهلة الأولى بلا رابطة تجمعها.

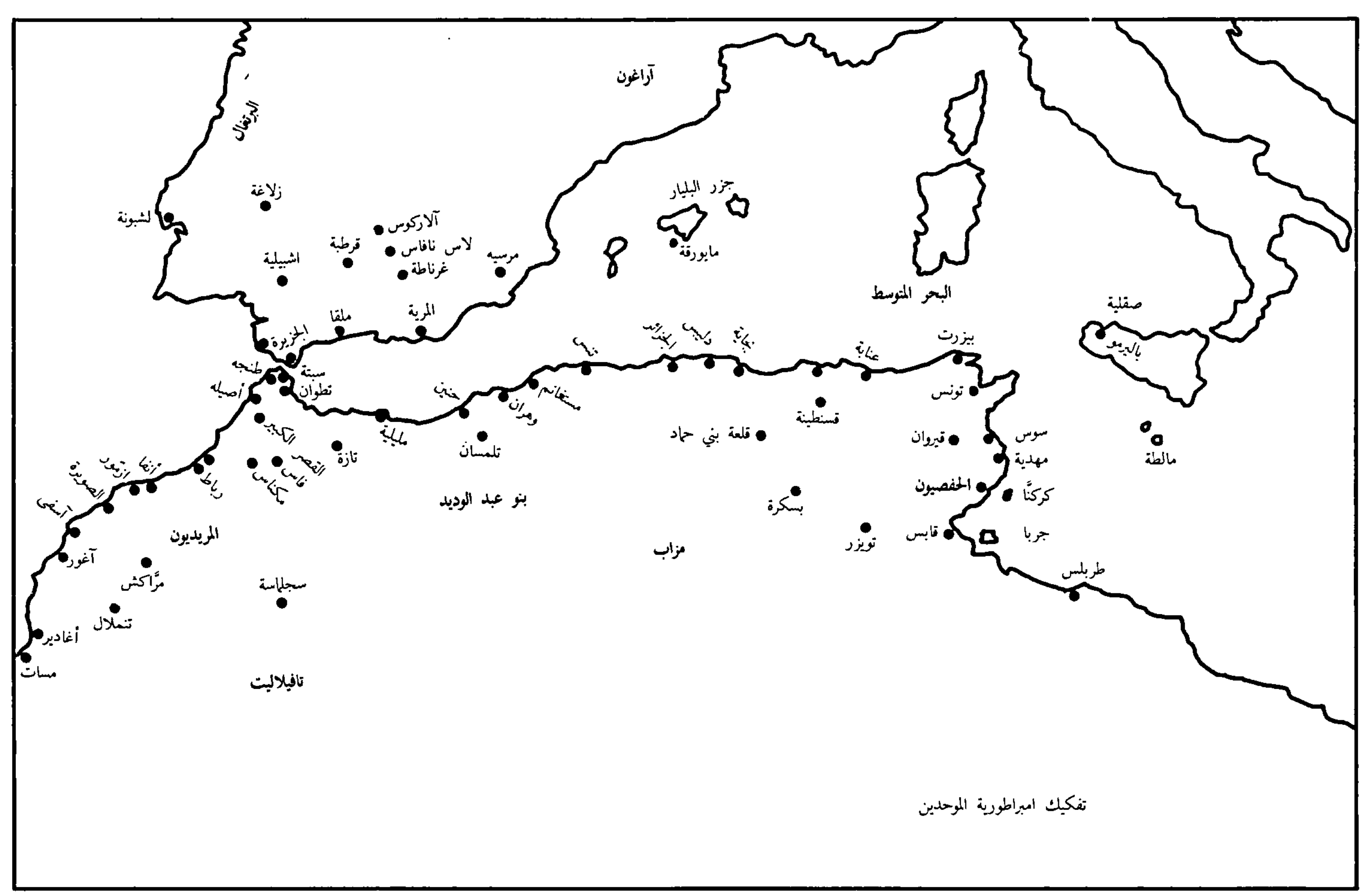
وعلى الرغم من أنّ الكثير من الخلفاء الموحّدين قد حاولوا تحسين المواصلات داخل مملكتهم بمدّ الطرق ، فانّ ابعاد امبراطوريتهم ذاتها – التي تشمل في الوقت نفسه كلاً من الأندلس ومجموع المغرب – جعلت الادارة المركزية غاية في العسر ، وممّا زاد الأمور صعوبة موقع عاصمتهم مراكش المتطرّف.

وكانت المعارك التي كان على الامبراطورية أن تخوضها على طرفيها – أي في افريقيا واسبانيا ، تستنفد كل مواردها. وكان عليها في الوقت نفسه محاربة أعدائها الخارجين واخماد ثورات الأعراب وبني غانية ومختلف المجموعات البربرية بل والحضرية العديدة وانتفاضاتها الكثيرة. وأخذت المملكة تجنّد أكثر فأكثر مرتزقة من عرب زناتة بل ومن المسيحيين الى درجة فقد معها الجيش الموحّدي روحه آخر الأمر. وكانت الارستقراطية الموحّدية متمسّكة بامتيازاتها ، وتعتبر أنّ كل المسلمين غير المنتمين الى مذهب الموحّدين

كفّار ، ففقد الكثير من هؤلاء حقوقهم في خاصة أراضيهم وأخذوا شيئًا فشيئًا ينوءون تحت عبء الجباية.
وكانت هذه الهوّة بين جمهور الرعية والنخبة القليلة الحاكمة سبب عدّة ثورات وانتفاضات بالمغرب والاندلس على حدّ سواء. وكانت الارستقراطية الموحّدية نفسها منقسمة الى فريقين متعاديين ، هما ، من جهة ، ذرية عبد المؤمن الذين كانوا يلقّبون بلقب «السيد» وتساندهم قبيلتهم كومية (وهي فرع من قبيلة زناتة) ونفر من العرب ، ومن جهة أخرى فريق الموحّدين من قبيلة مصمودة ، ويضم رؤساء مختلف العشائر والشيوخ (الأئمة) ، يضاف الى ذلك المشاحنات بين هؤلاء الشيوخ وبين البيروقراطية الأندلسية التي لا تقاسم الموحّدين مذهبهم ولا تعترف الاّ بسلطة الخليفة.
وقد أسهم الخلفاء الضعفاء الذين تعاقبوا بعد موت الناصر (١١٩٩ – ١٢١٣ م) هم أيضًا في تداعي الأسرة الحاكمة التي مزّقتها الفتن الداخلية. وقد اندلعت الخصومة بين الشيوخ الموحّدين والأسرة الحاكمة في وضح النهار عام ١٢٣٠ م ، عندما جاء المأمون ، وهو أخو أبي يوسف يعقوب من الأندلس الى افريقيا الشمالية على رأس فصيل من الفرسان يتكوّن من جنود مسيحيين وضعهم ملك قشتالة تحت تصرّفه وهزم جيش الخليفة الحاكم وشيوخ الموحّدين وسمّى نفسه أمير المؤمنين. وقد قاد حتى وفاته سنة ١٢٣٢ م حملة عنيفة ضد الشيوخ الأئمة وبلغ به الأمر أن أنكر المذهب الموحّدي على رؤوس الأشهاد فحرم بذلك دولته من شريعتها الدينية. وعلى الرغم من أنّ خليفته الرشيد (١٢٣٢ – ١٢٤٢ م) قد سعى جهده لاستئصال أسباب الفتن الداخلية بالرجوع إلى مذهب المهدي من جديد وتوصّل الى اتّفاق مع الشيوخ ، فان الأوان قد فات وأخذت الامبراطورية التي أصبحت عاجزة عن البرء من الفوضى في التفكك ، واستمرّت السلالة المالكة تحكم جانبًا من البلاد في المغرب الأقصى ظل يتضاءل حتى سنة ١٢٦٩ م ، وهو التاريخ الذي خلع فيه المرينيون الواثق (١٢٦٦ – ١٢٦٩ م) آخر خلفاء الموحّدين.

انقسام المغرب الى ثلاثة أجزاء

لقد أعاد سقوط الامبراطورية الموحّدية المغرب الى الوضع الذي يظهر أنه كان عليه قبل ظهور الفاطميين (أنظر المجلّد ٣ ، الفصل ١٠). فعلى أنقاض الامبراطورية كانت ثلاث دول مستقلة كثيرًا ما ناصبت بعضها بعضًا العداء ، كما هدّدتها في الداخل الخصومات بين الأُسر الحاكمة والثورات وهدّدتها من الخارج هجمات العدو المسيحي المتزايدة. وقد شهدت هذه الأقطار الثلاثة من بعد نشأة الدول التي أصبحت تعرف بأسماء تونس والجزائر والمغرب والتي تباينت سبل تطورها رغم ما تشترك فيه من خصائص.
ولمّا كان وصف المجتمع المغربي في الفترة التي تلت عهد الموحّدين يرد تفصيلاً في الفصل التالي (الفصل ٥) فسنقتصر هنا على تقديم لمحة عن المميزات العامة للبنى السياسية والاجتماعية لهذه الدول. فقد كانت كل منها محكومة من قبل أُسرة حاكمة من أصل بربري لكنها قد تعرّبت حتى الأعماق ، تحظى بتأييد قبائل المخزن ولا تهيمن عمليًا الاّ على المدن والسكان المستقرين في السهول. أمّا المناطق الجبلية والسهوب الشاسعة فقد كانت معقل الجبليين من البربر أو الأعراب البدو المتحفزين دائمًا لشن الغارات على المناطق الواقعة عند أطراف أراضي المخزن. وقد كانت طاعة أوامر السلطان مرتهنة بحقيقة سلطته وقدرته على ممارستها. وكان السلاطين من أُسرتي الحفصيين وبني مرين ينتحلون في فترات عديدة لقب



• تفكيك إمبراطورية الموحّدين

الخليفة ، وهذا اللقب يمثل بالنسبة اليهم الوسيلة الوحيدة لنيل اعتراف رعاياهم ، وقد كانوا أهل شغب ، بسلطتهم الروحية. لكن ادّعاءاتهم لم تلق استجابة الاّ داخل أقاليمهم. واذا ما استثنينا اعتراف أشراف مكة ومماليك مصر لفترة وجيزة بالسلطان الحفصي المستنصر ، في أواسط القرن الثالث عشر ، فان هؤلاء «الخلفاء» من المغرب كانوا عاجزين عن منافسة الخلافة العباسية بالقاهرة فيما يخص الاعتراف بوظيفة الخلافة من قبل مجموع العالم الاسلامي.

وخلال الفترة التي أعقبت دولة الموحّدين ، كان على هذه الدول الثلاث أن تناضل أيضًا ضد الضغط المتزايد الذي كانت تمارسه على المغرب عامة الدول المسيحية القائمة في شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا وصقلية وفرنسا. وقد وقع هذا الضغط العسكري والسياسي والاقتصادي معًا نتيجة للتغييرات التي طرأت على ميزان القوى بين اوروبا الغربية وبلدان البحر المتوسط الاسلامية. واجتهدت دول المغرب الثلاث في ايجاد أداة لمواجهة هذا العدوان الجديد للعالم المسيحي ؛ ورغم أنها تكبّدت بعض الخسائر الطفيفة ولم تتمكن من الحيلولة دون وقوع غرناطة – التي كانت آخر ما تبقّى من الأندلس – في أيدي النصارى ، فانها استطاعت مع ذلك المحافظة على ترابها بصفة عامة. الاّ أنه يصح التساؤل عمّا اذا ما لم يكن المغرب في مجموعه ، أو على الأقل في جهاته الشرقية ، سيؤول أمره في القرن السادس عشر الى ما آل اليه أمر غرناطة لولا ظهور الامبراطورية العثمانية ، تلك القوة الاسلامية الجديدة التي عدّلت في هذه الفترة الحاسمة ميزان القوى في حوض البحر المتوسط. ولا ننسى أنّ الدولتين الايبيريتين – البرتغال واسبانيا – كانتا في تلك الحقبة في انشغال متزايد بعملياتهما وراء البحار التي استغرقت كل اهتمامها والجانب الأكبر من إمكانياتهما البشرية.

والأُسر الحاكمة الثلاث التي خلفت الموحّدين وتقاسمت المغرب وبقيت في الحكم خلال الجزء الكبير من الفترة التي نعالجها هي الحفصيون (١٢٢٨ – ١٥٧٤ م) وعاصمتهم تونس ، وبنو عبد الوديد أو بنو زيان (١٢٣٥ – ١٥٥٤ م) في تلمسان ، وبنو مرين في المغرب الاقصى (١٢٣٠ – ١٤٧٢ م). وسنبدأ بذكر أهم الحوادث التي طبعت تاريخ هذه الأسر الحاكمة الثلاث ، ثم نحلل الأحداث الرئيسية لتاريخ شمال افريقيا في جملته.

الحفصيون

ان الجدّ الذي أعطى لهذه السلالة اسمها هو أبو حفص عمر بن يحيى ، رفيق المهدي ابن تومرت ، وشيخ قبيلة هنتاتة البربرية الذي أسهم اسهامًا جليلاً في عظمة ملك الموحدين ، وقد حكم ابنه عبد الواحد بن أبي حفص افريقيا من ١٢٠٧ الى ١٢٢١ م ، حكمًا شبه مستقل ، في الواقع ، وأرسى بالتالي أسس الاستقلال المستقبل لهذه المنطقة. وفي سنة ١٢٢٨ صارت الولاية لابنه أبي زكريا من بعده بعد أن برز في حربه ضد بني غانية ، آخر ممثلي المرابطين بافريقيا. وبدعوى الدفاع عن التعاليم الصحيحة للحركة الموحّدية وجوهرها – وذلك في الفترة التي نبذ فيها الخليفة الموحّدي هذا المذهب – فقد أغفل أبو زكريا ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة وتلقب بلقب الأمير على سبيل الاستقلال (عام ١٢٢٩ م). وبعد ذلك بسبع سنوات أكّد سيادته نهائيًا بأنّ فرض ذكر اسمه هو في الخطبة.

وعلى الرغم من أن أبا زكريا قد تحرر من وصاية الخلفاء الموحّدين السياسية ، فانه مع ذلك لم ينكر

المذهب الموحّدي ، بل انه ، على العكس من ذلك ، برر استحواذه على السلطة معتبرًا هذه العملية أداة لاحياء السنة الموحّدية الصحيحة ، ونجح في ذلك الى حد ما ، اذ اعترفت به عدّة مراكز بالمغرب الأقصى والأندلس خليفة شرعيًا. ومنذ ١٢٣٤ م وضع حدًا نهائيًا لثورات بني غانية في الجهة الجنوبية من افريقيا. وكلّلت حملاته في الغرب بالانتصارات ، فاستولى على التوالي على قسنطينة وبجاية والجزائر ، كما أخضع كل ساحل طرابلس في الشرق ، وبذلك جمع العناصر التي كوّنت من بعد اقليم الدولة الحفصية. بل أن يغمراسن بن زيان ، مؤسس دولة بني عبدالوديد ، خضع لسلطانه ، كما اعترف بسيادته بنو مرين ، شأنهم في ذلك شأن بني الأحمر بغرناطة.

وأتاح استتباب السلم والأمن نموًا اقتصاديًا سريعًا ، وتردّد على العاصمة ، تونس ، من جديد التجار الأجانب القادمون من بروفانس وقطالونيا والجمهوريات الايطالية. وصارت العلاقات مع صقلية ودية ، إلاّ أنّ السلطان الحفصي بدأ في سنة ١٢٣٩ م يدفع اتاوة لفريدريك الثاني مقابل ممارسة التجارة البحرية واستيراد القمح الصقلي دون قيود.

وعندما مات أبو زكريا عام ١٢٤٩ م ، ترك لابنه وخليفته أبي عبدالله محمد المستنصر (١٢٤٩ – ١٢٧٧) دولة يسودها الرخاء والأمن وتمارس في شمال أفريقيا هيمنة لا تنكر. ولم تتعرّض سلطة المستنصر لأي خطر جدّي نتيجة للمؤامرات أو التمردات ، وإن هزّتها من حين الى حين المنافسات بين شيوخ الموحّدين واللاجئين والنازحين الأندلسيين الذين كانوا يمثلون نخبة سياسية ذات تأثير بالغ. وفي سنة ١٢٥٣ م اتخذ المستنصر لقب أمير المؤمنين ، واعترف بخلافته أشراف مكّة (في ١٢٥٩ م) وفي العام التالي اعترف بها مماليك مصر.

لكن هذا الاعتراف من قبل المشرق كان قصير الأمد ، ولم يحصل الاّ بتضافر بعض الظروف ، اذ قتل المغول آخر خلفاء بني العباس ببغداد عام ١٢٥٨ م وبقي منصب الخلافة شاغرًا. ولكن في ١٢٦١ ولّي السلطان المملوكي بيبرس خليفة عبّاسيًا صوريًا بالقاهرة ، ولم يعترف كل المشرق الاسلامي حتى سنة ١٥١٧ م الاّ بهذه السلاله من الخلفاء. لكن ذلك لا يمنع من أن تكون خلافة المستنصر العابرة دليلاً على التقدير الكبير الذي كان يحظى به الحفصيون في العالم الاسلامي ، حيث كانت دولتهم تعتبر من أكثر الدول استقرارًا وقوة.

وبعد بضع سنوات ارتفعت شهرة المستنصر في العالم الاسلامي بفضل إنهائه للحملة الصليبية التي قادها سان لويس ملك فرنسا ضد تونس عام ١٢٧٠ م. والأسباب الحقيقية لهذه الحملة الصليبية المتأخرة ليست واضحة تمامًا ، وقد فسّرت تفاسير عديدة [١] ، وافترض البعض أن ازدهار أفريقيا قد أغرى الفرنسيين ، أو كما روى ابن خلدون أيضًا أنّ تجار بروفانس كانوا وراء هذه الحملة لأنهم لم يتمكنوا من استرداد الأموال التي أقرضوها للتونسيين وكان سان لويس نفسه يعتقد أن المستنصر كان يود التنصّر ، وفضلاً عن ذلك كان ملك فرنسا يأمل أن يجعل من أفريقيا قاعدة لحملة لاحقة على مصر. ولم يجر الاعداد لهذه الحملة جيدًا حتى أن شارل دانجو ، ملك صقلية وأخا سان لويس لم يعلم بها إلاّ في آخر لحظة. ونزل الصليبيون بقرطاج. لكن الوباء تفشى في معسكرهم بعد بضعة أسابيع ، وأصاب الملك نفسه ، فسارع شارل دانجو بعقد صلح ، لأنه لم يكن مهتمًا قط بالحرب الصليبية ، وكان متعجّلاً من جهة أخرى لاعادة العلاقات التجارية الطيبة مع الدولة الحفصية. وكان المستنصر الذي أعلن الجهاد منذ البداية وكوّن وحدات عسكرية تضم رجالاً أصلهم من مدن مختلفة وأعرابًا ، مستعدًا مثل شارل دانجو

(١) أنظر م. مولا ، في مجلة «التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» (فرنسية) عدد ٥ ، ١٩٧٢ م ص ٢٨٩ – ٣٠٣.

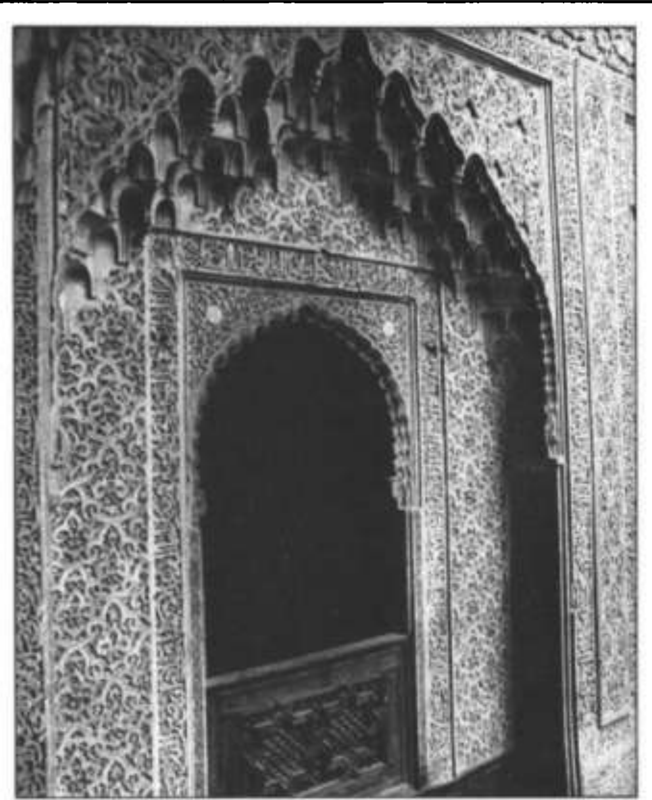
لوضع حد لهذه المأساة ، لا سيّمَا أن حلفاءه من الأعراب كانوا قد شرعوا في التقهقر نحو الجنوب متّجهين إلى مراعيهم الشتوية. وكانت معاهدة الصلح حلاً وسطًا ، وقبل الخليفة الحفصي مواصلة دفع الاتاوة لصقلية وكذا الضرائب المفروضة على استيراد القمح ، كما وافق على أن يطرد من افريقيا آخر ممثلي أسرة هوهنشتاوفن الذين التجأوا الى هذه الأراضي الأفريقية بعد أن هزمهم شارل دانجو نهائيًا. وأمّا النتيجة غير المتوقعة لهذه الحملة الصليبية الأخيرة فكانت هي استئناف العلاقات التجارية على نطاق أوسع مِمّا كانت عليه من قبل.

وفي عهدي أبي زكريا والمستنصر بلغت الأسرة المالكة الحفصية الذروة الأولى لنفوذها ، اذ تمّ الاعتراف لها بالهيمنة على المغرب بأسره وامتدّ نفوذها حتى الأندلس غربًا والحجاز شرقًا. وكان على كل الدول الأوروبية في غربي البحر المتوسط أن تضع قوتها في الحسبان ، وسعى الملوك الاسبان والايطاليون جاهدين الى التحالف معها.

ثم تدهور الوضع بعد موت المستنصر ، وظلت الامبراطورية الحفصية ما يقارب القرن مسرح منازعات داخلية دورية بين أعضاء الأُسرة الحاكمة ، وهزتها ثورات الأعراب وانشقاق مدن عديدة ، بل ومناطق بأكملها. وقد وقع هذا الانشقاق خاصة في بجاية وقسنطية اللتين انشأتا مرات عديدة امارات مستقلة يحكمها أفراد من الأسرة المالكة معارضون للنظام المركزي. وكانت هذه النزاعات الانفصالية تزداد قوة في فترات ضعف السلطة المركزية ، بل لقد شوهد في بعض الفترات ثلاثة أو أكثر من الحفصيين ، من الولاة على هذه المدينة أو تلك ، يطالبون بالعرش الحفصي في تونس ولم يكن من شأن ذلك الاّ الرجوع بالأمور الى وضعها في الماضي معيدًا السلطة الى غرب المغرب ، أي الى المرينيين بالمغرب الأقصى. وقد احتلّت الجيوش المرينية مرتين، في ١٣٤٨ م وفي ١٣٥٧ م مناطق هامة من الاقليم الحفصي بما فيها العاصمة تونس ، لكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً في الحالتين ودحر الاعراب الغزاة. وفي نهاية عهد أبي اسحاق (١٣٥٠ – ١٣٦٩ م) كان يحكم بجاية وقسنطينة وتونس ثلاثة ملوك حفصيين مستقلين ، بينما بقي الجنوب والجنوب الشرقي وجزء من الساحل مستقلاً عن تونس.

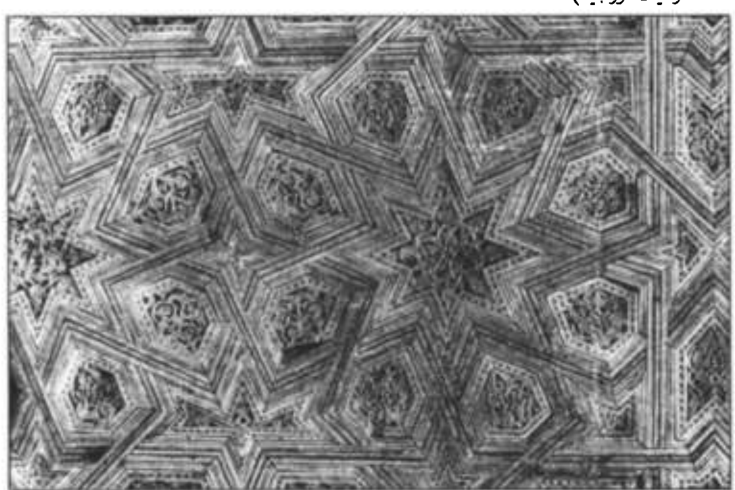
وبدأت نهضة القوة الحفصية مرة أخرى مع أبي العباس (١٣٧٠ – ١٣٩٤ م) واستمرت في عهدي خليفتيه أبي فارس (١٣٩٤ – ١٤٣٤ م) ثم عثمان (١٤٣٥ – ١٤٨٨ م) الطويلتين. وقد أفلح أبو العباس في اعادة توحيد البلاد وتنظيمها وألغى الامتيازات العقارية وتمكن من كبح النزعات المحلية للعصيان وأعاد هيبة الأسرة المالكة. وبفضل الفتن الداخلية التي كانت تلمسان مسرحًا لها ، وبفضل العداوة المعلنة بين بني عبد الوديد وبني مرين ، لم يعد هناك ما يخشاه من جهة الغرب. وأكمل ابنه أبو فارس ما بدأه من توحيد ، وأطاح بالأسر المحلية المالكة في بجاية وقسنطينة وطرابلس وقفصة وتوزر وبسكرة ، وعيّن فيها ولاة مختارين من بين مواليه العتقاء. وبعد ذلك امتدّت سلطته فشملت بني عبد الوديد بتلمسان ، وكثيرًا ما تدخل في المغرب الأقصى بل وفي الاندلس. ويرجع هذا النجاح في جانب كبير الى أنّ أبا فارس مارس سياسة توازن بين أهم مجموعات السكان في المملكة من موحّدين وعرب وأندلسيين ، وأظهر التسامح مع اليهود وان كان هو نفسه مسلمًا ورعًا. وترجع الشعبية التي تمتع بها أساسًا الى حرصه على العدل ، والى ما كان يغدقه من هبات على السلطة الدينية (سواء تعلّق الأمر بالعلماء أو بالأشراف) والى الغاء الضرائب غير الشرعية وما أنجزه في مجال العمارة ، وفي نهاية الأمر الى ما كان يحيط به الأعياد الاسلامية من فخامة وأبّهة.

وعلى الرغم من أنّ السنوات الأولى من حكم حفيده عثمان كانت مضطربة بسبب الصّراع الذي خاضه ضد بعض العصاة من أفراد عائلته ، فان عهده الطويل كان هادئًا على العموم. وتمكن السلطان



١. مدرسة ابو عنانية في فاس. تفصيل شباك يطل على الفناء،القرن الرابع عشر (صورة اليونسكو / دومنيك روجيه)

٢. مدرسة ابو عنانيه في فاس. تفصيل نقش أحد الأبواب ، القرن الرابع عشر (صورة اليونسكو/ دومنيك روجيه)



من الحفاظ على سلامة المملكة. أما الحقبة الثانية من عهده فقد كدر صفوها المجاعة وأوبئة الطاعون وكذلك استئناف قلاقل الأعراب في الجنوب. ومع ذلك توصل عثمان بعناء الى ابقاء نفوذه على تلمسان. واعترف به مؤسس أسرة بني وطاس الحاكمة الجديدة بفاس. والسنوات الأخيرة من عهده غير معروفة جيدًا، الاّ أنه يبدو أنه غرس بذور الاضطرابات التي طرأت بعد ذلك برجوعه إلى تعيين أعضاء أسرته في مراكز ولاة المقاطعات. وفي حين كانت شخصيته القوية تمكّنه من الحدّ من نزعة هؤلاء الولاة الطبيعية للاستقلال، فقد أظهر خلفاؤه عجزهم عن وقف تيار الفوضى. وانهارت السيطرة الحفصية الثانية فجأة كالأولى تمامًا، وشهدت نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الفوضى تستنزف طاقة الأسرة الحفصية من جديد الى درجة لم تعد قادرة معها على مواجهة الوضع الخطير الناجم عن التنافس بين اسبانيا والامبراطورية العثمانية الراغبتين كلتيهما في بسط سيطرتهما على حوض البحر المتوسط. لكن جهود الحفصيين اليائسة لصيانة استقلالهم في عالم متغير تتعلّق بالفترة المدروسة في المجلّد اللاحق.

بنو مرين

ينتمي بنو مرين الذين جاؤوا من الزاب الى أنبل فروع زناتة الصحراويين. وكانوا لا يعرفون لا الفضة ولا السكّة ولا الفلاحة ولا التجارة، إذ كانت الابل والخيل والعبيد كل ثروتهم [٢]. ويمثل المرينيون فيما يبدو أفضل شاهد لتصور ابن خلدون المتعلّق بظهور الأسر البدوية الحاكمة وعصبيتها القبلية، حيث كان يرى القوة ذاتها التي كانت دفعت الأعراب الى الخروج من الصحراء لفتح الأمصار وتأسيس الدول. وبعد معركة العقاب (١٢١٢ م) أخذ بنو مرين الذين كانوا يعيشون في السهوب شبه الصحراوية بين تفيلالت والفيكيك يكتسحون شمال شرقي المغرب الأقصى مغتنمين ضعف القوة الموحّدية، وبسطوا نفوذهم على المزارعين المحليين، بل أجبروا مدنًا مثل تازة وفاس والقصر الكبير على دفع إتاوات. وما كان لهم من دافع في بداية الأمر غير الرغبة الطبيعية لدى كل البدو في الاثراء على حساب السكان المستقرين. الاّ أن المطامح السياسية أخذت تراود رؤساءهم تدريجًا. وفيما بين ١٢٤٠ م – تاريخ انهزام المرينيين في حصار مكناسة (مكناس) أمام جيش الموحّدين – و ١٢٦٩ م عندما أخذوا مراكش عنوة، كان نجاح النضال الذي خاضوه متقطعًا. ولا شك أنّ غياب كل باعث ديني هو ما يفسر طول المدة التي استغرقها الفتح، في حين أن هذا الدافع هو الذي ساهم في سرعة فتوحات المرابطين والموحّدين. على أنّ هجمتهم الأولى قد كلّلت بالنجاح في ١٢٤٨ م. ففي تلك السنة استولى أبو يحيى قائدهم (١٢٤٤ – ١٢٥٨ م) على فاس وتازة ومكناس وسلا والرباط. وفي عهد أبي يوسف يعقوب (١٢٥٨ – ١٢٨٦ م)، الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للسلطنة المرينية أدمج آخر ما تبقى من الأراضي في أيدي الموحّدين (الأطلس الأعلى والسوس ومنطقة مراكش) في المملكة الجديدة تدريجيًا، ثم أنهى فتح مراكش عام ١٢٦٩ م ملك الموحّدين.

واتّخذت الأسرة المالكة الجديدة من فاس (بدلاً من مراكش) قاعدة لحكمها، وفيها أسّس أبو يوسف فاس الجديد، وهي مدينة متميزة عن المدينة العتيقة التي دعيت منذئذ فاس البالي.

(٢) ابن أبي زرع الفاسي. ترجمة بوميه (فرنسية)، ١٨٦٠، ص ٤٠١.

وعلى الرغم من أنه لم يكن بوسع المرينيين أن يدّعوا أية شرعية دينية ، فانهم ما لبثوا أن اعتبروا أنفسهم ورثة الموحّدين واجتهدوا في ترميم امبراطوريتهم مع تفضيل العنصر الأندلسي ، لكن ذلك لم يمنعهم من أن يزحفوا نحو الشرق كلّما سنحت الفرصة . والظاهرة الغريبة هي أن هؤلاء البربر سواء من كان منشؤهم الصحراء أو السهوب أو الجبال ، مرابطين كانوا أم موحّدين أم مرينيين ، قد اجتذبتهم روابي الأندلس الخضراء وسهولها الخصبة .

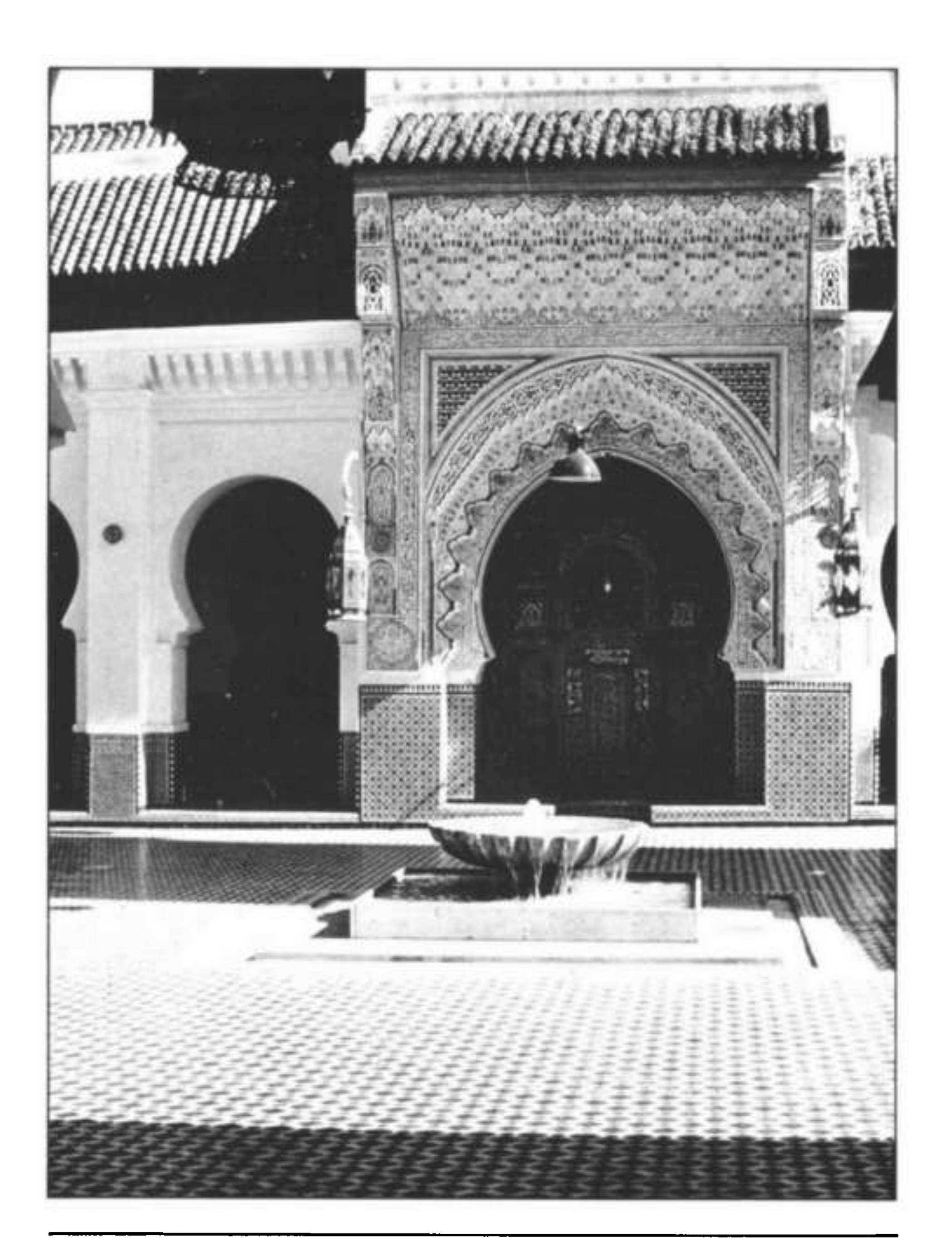
وعلى غرار تاريخ الحفصيين ، يمكن أن نميّز في تاريخ المرينيين فترتين رئيسيتين وان كانتا أقصر مدة . وتشمل الفترة الأولى خلافة أبي يوسف يعقوب وابنه أبو يعقوب (١٢٨٦ – ١٣٠٧ م) ، والفترة الثانية تقابل عصر أبي الحسن (١٣٣١ – ١٣٤٨ م) وابنه أبي عنان فارس (١٣٤٨ – ١٣٥٩ م) . وخلال هذه الفترة الثانية فقط أمكن للمرينيين أن يؤكدوا ، ولمدة قصيرة أنّ لهم نفوذًا فعليًا في المغرب .

وكان تزايد النفوذ العربي في المغرب الأقصى من الأمور التي دمغت بطابعها عهد المرينيين . ففي خلافة الموحّدين ، بدأ دخول البدو الأعراب إلى البلاد محدثين تغييرًا في طابعها البربري الصرف . وإن سياسة بني مرين ازاء الغرب أملتها عليهم اعتبارات عديدة . اذ لم يكن لهم بدّ من الترحيب بمؤازرة البدو الأعراب بسبب قلّة عدد أنصارهم من زناتة . والزناتيون أنفسهم كانوا شديدي الاندماج بالعرب ، وكان المخزن المريني مكونًا من المجموعتين من السكان . وأوجدت كل هذه العوامل ظروفًا ملائمة لتوسع الأعراب في بلاد المغرب الأقصى ، حيث فضّلوا الاستقرار في السهول ، وتعربت عدة مجموعات بربرية . وعلى النقيض من جيوش المرابطين والموحّدين حيث كان التخاطب بالبربرية ، فان العربية أصبحت اللغة الدّارجة والرسمية في عهد المرينيين .

وكان لتوسّع البدو هذا جوانب سلبية أيضًا ، اذ ما انفك مجال البدو الرحّل يتسع ومجال المزارعين يضيق ، اذ حوّل البدو الحقول والحدائق والغابات الى مراعٍ . وقد أسهم نمو البداوة هذا الى حد كبير في تكوين هذه البنية الاجتماعية التي تميّز بها المغرب الأقصى في القرون التالية ، بانقسام السكان الى بدو رحّل وحضريين وجبليين .

وعلى المستوى السياسي ، نتج عن هذا التقسيم أن المدن والمناطق الريفية المحيطة بها مباشرة هي وحدها التي كانت خاضعة لادارة السلاطين ، في حين أن قبائل المخزن والأعراب وزناتة كانت تحظى باستقلال ذاتي كبير . وكان من صلاحياتها جباية الضرائب من الفلاحين مقابل الخدمة العسكرية . ولكن لما لم يكن السلاطين المرينيون قادرين على الاطمئنان تمامًا لولاء الفصائل العسكرية البدوية وجدواها ، فانهم لجأوا – على غرار سابقيهم وجيرانهم – إلى الاعتماد المتزايد على جيوش تتألف من العبيد المرتزقة الذين جعلت اقامتهم في ثكنات في المدن الهامة . وبقي بربر الأطلس والريف والجبال خارج نظام الحكم بمعناه الضيق ، وان اعترفوا احيانًا بسيادة السلاطين . لكنهم في فترة الانحلال ، شنوا غارات على بلاد المخزن وأخضعوا بعض اجزائها لسيطرتهم أو حمايتهم ، موسّعين بذلك حدود بلاد السيبة (أي بلاد الخارجين على السلطان) .

وان التدفق المنتظم للمهاجرين الأندلسيين الذين جاؤوا معهم بأسلوب أكثر رقة في العمارة والفنون وشتى الصناعات الحرفية والأدب على حد سواء ، بث في حياة المدن وحضارتها قوة جديدة . وأصبحت العاصمة فاس المركز الثقافي الكبير في المغرب الاقصى ، في حين مرت مراكش ، الحاضرة القديمة ، بفترة انحلال . وعمّق الازدهار الثقافي في المدن الهوة التي كانت تفصل بين المدن والمناطق الريفية التي ظلت تحيا حياة مستقلة . وكان هذا الفرق واضحًا بصورة خاصة فيما يتعلّق بأنماط الحياة الدينية . ففي فاس وفي كل المدن الكبرى انتظمت هذه الحياة حول الجامعات ، مثل جامعة القرويين والمدارس العديدة التي كان



• مسجد القرويين في فاس :
تم تجديده في عهد المرابطين.
في فناء المسجد المدخل الرئيسي لقاعة الصلاة.

المذهب المالكي هو المذهب الراجح فيها تحت رعاية السلاطين المرينيين الرسمية ، في حين ازداد سكان الريف انجذابًا الى زوايا الطرق الصوفية ، ومقامات الأولياء الصالحين المحليين. وقد بدأت هذه النزعة في الظهور في عهد الموحّدين ، فضم هؤلاء الى تعليمهم مذهب الغزالي (المتوفى سنة ١١١١ م) ، الذي ادمج التصوف في الاسلام السنّي . وفي عهد المرينيين أدّى انشاء عدة طرق صوفية – هي في أغلبها تفريعات من الطريقة القادرية الى تحويل التصوف الى مؤسسة دينية. وأسهمت ظاهرة الاسلام الشعبي هذه كثيرًا في تحوّل الريف إلى الاسلام ، إذ أنه بلغ أقصى المناطق في المغرب الأقصى ولدى أهل الجبال البربر الذين ظلّوا حتى ذلك الوقت قليلي التأثر بالاسلام.

وسندرس في موضع آخر مختلف مظاهر التحدّي المسيحي ومواجهة مسلمي شمال غربي افريقيا له. الاّ أنه من الضروري أن نعالج هنا بايجاز مسألة تدخل المرينيين في شبه الجزيرة الأيبيرية. ذلك أن أبا يوسف يعقوب قد عبر في ١٢٧٥ م مضيق جبل طارق بعد أن وطّد سلطته في المغرب الأقصى ذاته ، وانتصر انتصارًا حاسمًا على القشتاليين قرب استجّه. وحتى سنة ١٢٨٥ م شنَّ السلطان ثلاث حملات على الجيوش الاسبانية ، وهزم الأسطول المريني البحرية القشتالية سنة ١٢٧٩ م ، وكان من أثر ذلك أن انحسر لفترة ما كان النصارى يسلطونه من تهديد على غرناطة والمغرب الأقصى. وأفضت الحملة الرابعة الى ابرام اتفاق التزم ملك قشتالة بمقتضاه بعدم التدخل في شؤون البلاد الاسلامية باسبانيا وبردّ ما استولى المسيحيون عليه سابقًا من المخطوطات العربية. واعتبر بنو مرين هذا الصلح القائم على التسوية (١٢٨٥) نصرًا لهم.

وكان على السلطان أبي يعقوب أن يقمع سلسلة من حركات التمّرد جنوبي المغرب الأقصى. وسعى جهده للاستيلاء على تلمسان والقضاء على أسرة بني زيان. ولهذه الأسباب مجتمعة لم يكن مستعدًا لتشتيت قواه والتدخل في الأندلس. إلاّ أنه في سنة ١٢٩١ م ، حين نقض ملك قشتالة اتفاق ١٢٨٥ م ، اضطر أبو يعقوب لشن حملة قصيرة ، لم تحقق أية نتيجة ايجابية ، واستأنف بعدها عملياته ضد تلمسان.

وبعد موته – وقد قتل غيلة – شهدت الدولة المرينية فترة كسوف ، ويعزى ذلك أساسًا الى انشقاق أحد أفراد الأسرة الحاكمة الذي استولى على مناطق شاسعة في جنوب المغرب الأقصى وأصبح يتحكم في التجارة المارة عبر الصحراء. ولم يقمع هذا العصيان الاّ بعد اعتلاء أبي الحسن العرش (١٣٣١ م). وطوال هذه الفترة من الصراع الداخلي ، اضطر المرينيون إلى التخلي عن سياستهم الهجومية في اسبانيا وفي المغرب على السواء.

وكان أبو الحسن أعظم سلاطين بني مرين بلا منازع ، فبعد توليه بزمن قصير وطّد سيادة فاس من جديد على جنوب المغرب الأقصى وقضى على الخصومات الداخلية وعاود سياسة الفتح. ومع ذلك فانه كرّس كل جهوده في النصف الأول من عهده لاعادة السيادة الاسلامية في اسبانيا ، لا سيّما أن ملك قشتالة قد حمل من جديد على غرناطة في سنة ١٣٢٧ م. وفي عام ١٣٣٣ م عبر جيش بني مرين المضيق واستولى على الجزيرة الخضراء. وطوال السنوات الست التالية ، ظل أبو الحسن وأمير بني الأحمر في غرناطة يتهيآن معًا لتوجيه ضربة قاضية لاسبانيا المسيحية. وقد أدى هذا الخطر الى التحالف بين قشتالة وأراغون لكن الأسطول المريني ، تدعمه بعض السفن الحفصية ، تحكّم في المضيق وانتصر سنة ١٣٤٠ م نصرًا حاسمًا على القوى البحرية القشتالية. وعندئذ حاصرت القوات البرية الاسلامية طريفه ، الاّ أن هذه القلعة صمدت حتى وصول الجيوش المسيحية التي هبّت لنجدتها. وانتهت المعارك الضارية في موقعة نهر سالادا (١٣٤٠ م) بانهزام المسلمين هزيمة ذريعة كانت أشدّ هزائمهم منذ هزيمة العقاب. وفي سنة ١٣٤٤ م استرجع النصارى الجزيرة الخضراء. ورغم أن جبل طارق بقي دائمًا بأيدي المرينيين ، فان

هزيمة نهر سالادا ، التي تبعتها النكبات في افريقيا بعد فترة وجيزة ، قد اضطرت السلطان الى العدول عن عملياته الاسبانية. ومنذ ذلك الحين لم يعد في استطاعة المرينيين ولا أية أسرة حاكمة أخرى في المغرب الأقصى التدخل الفعلي في اسبانيا. أما إمارة غرناطة ، وهي الوحيدة الباقية من عهد السيادة الاسلامية المجيدة ، فقد وجدت نفسها منعزلة في نضالها اليائس من أجل البقاء.

واغتنم بنو زيان بتلمسان وبنو مرين في فاس على السواء ضعف الحفصيين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر لتوسيع أراضيهم وانتهز أبو الحسن الفرصة بمهارة عظيمة ، اذ قام سنة ١٣٢٥ م بغزو المغرب الأوسط بدعوى مناصرة الحفصيين الذين كان يناوشهم سلطان بني زيان ، وبعد سنتين من الحصار استولى على تلمسان عاصمة بني زيان. وبتغلّبه على منافسيه التقليديين واعلام كل اضرابه من ملوك العالم الاسلامي بهذا النصر حسب الأصول ، تمكن أبو الحسن من تحقيق حلمه باعادة توحيد المغرب تحت سيادته ، فرزحت بلاد بني زيان تحت الاحتلال المريني وأصبح الحفصيون عمليًا تابعين للسلطان المريني. وعندما اجتازت الدولة الحفصية فيما بعد فترة منازعات جديدة حول الخلافة ، دخل أبو الحسن تونس (١٣٤٧ م) وضم اليه المملكة الحفصية. وبهذا الضم بلغ أوج سلطانه كما بلغ تاريخ الأسرة المرينية ذروته[٣] .

وبعد بلوغ القمة كان السقوط . ذلك أن السياسة التي اتبعها أبو الحسن في التدخل في شؤون القبائل العربية بافريقيا قد دفعت هذه القبائل في نهاية الأمر الى الثورة العامة. وفي سنة ١٣٤٨ م انهزم جيش السلطان قرب القيروان ، ووجد أبو الحسن نفسه محاصرًا في عاصمته. ورغم أنه تمكّن من الفرار واسترجاع سلطته على تونس شيئًا ما ، فان هزيمته قد كشفت النقاب عن هشاشة هيمنة المرينيين على المغرب ، فتخلّصت تلمسان من ربقة الدولة المرينية وحذا حذوها الأمراء الحفصيون ببجاية وقسنطينة وعنابة ، وأعلن أبو عنان بن أبي الحسن نفسه سلطانًا على فاس وعزل والده. وعندما حاول أبو الحسن استعادة عرشه مستعينًا بما تبقّى من جيشه هزمه ابنه أبو عنان سنة ١٣٥٠ م ، فاضطر إلى الاعتصام بالجبال حيث مات بعد ذلك بسنة.

وفي استطاعتنا أن نرى في صعود نجم أبي الحسن وأفواله مختصرًا لتاريخ المغرب البطولي المأسوي في ظل الأسر البربرية الحاكمة : تجميع بطيء للقوى تتبعه فترة طويلة تتوالى فيها الانتصارات وتزداد أهمية ، وفجأة ، وفي قمة المجد حين تبدو اكثر المشاريع جرأة قد تحققت ، تكون الطامة والانهيار اللذان يمزقان شر ممزّق كل ما يكون قد انجز حتى ذلك الحين ، وتنطلق كل القوى الفوضى والشقاق من عقالها. وتشبه أسباب اخفاق أبي الحسن في نهاية الأمر تلك التي أودت بالموحدين : وهي تشتت الموارد البشرية والمادية تشتتًا كبيرًا في حملات هجومية تقع في اتجاهين ، والعجز عن القبول بالخصوصيات والمصالح المحلية والقبلية ، ووضع مالي هش والافتقار إلى التماسك الداخلي حتى في صلب المملكة ذاتها.

وكان أبو عنان موفقًا في السنوات الأولى من عهده كما كان شأن أبيه في سنوات حكمه الأولى قبل عشرين سنة . ولما كان طموح أبي عنان يعدل من طموح أبيه ، فقد تلقب بلقب أمير المؤمنين وأراد توحيد المغرب من جديد. فاستولى ثانية على تلمسان في سنة ١٣٥٢ م ، وفي السنة التالية ضم بجاية ، وفي سنة ١٣٥٧ م حيث بلغ قمة مجده دخل تونس. ورغم كل انتصاراته فقد سقط بمثل السرعة التي سقط بها أبوه وللأسباب نفسها ، وهي : معارضة العرب الذين أجبروه على الجلاء عن افريقيا والعودة الى فاس حيث

(٣) كان ابن خلدون المؤرّخ الكبير يعلّق الأمل طويلاً على أن يرى المرينيين يوحّدون المغرب من جديد. وكان إخفاق أبي الحسن خيبة كبيرة بالنسبة إليه. أنظر ابن خلدون ، ترجمة م. ج. دو سلان الفرنسية ، ١٩٢٥ – ١٩٢٦.

اغتاله أحد وزرائه بعد ذلك بقليل. وبموته تنتهي فترة عظمة المرينيين. ومن هذا الوقت صار تاريخ هذه الدولة وحتى زوالها في القرن الخامس عشر زاخرًا بالفوضى والثورات، وانهيار وانحطاط على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية. وفيما بين ١٣٥٨ م و١٤٦٥ م تعاقب على عرش فاس ما لا يقل عن سبعة عشر سلطانًا، لكن أيًّا منهم لم يكن قادرًا على التحكم في قوى الفرقة الداخلية كما لم يستطع درء الخطر الخارجي. وازداد نفوذ الوزراء. وابتداءً من ١٤٢٠ م تقلّد هذا المنصب افراد من عشيرة بني وطاس من قبيلة زناتة. وقد ملك الوطاسيون الذين تزايد نفوذهم بانتظام، سلطة توليه الملوك وخلعهم طوال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وحتى ١٤٧٢ م، تاريخ مبايعة محمد الشيخ سلطانا بفاس بعد ست سنوات من النضال ضد الأشراف الذين كانوا يدّعون الانتساب الى ادريس الثاني مؤسس فاس ويطمحون الى تولي السلطة السياسية. وكان ارتقاء هؤلاء الأشراف مرتبطًا بتقديس الأولياء الصالحين والايمان بالبركة التي كان يبذلها الأولياء، وخاصة من كانوا من ذرية النبي محمد ﷺ. ومن جهة أخرى فان الضغط المتزايد الذي مارسه البرتغاليون على المغرب الأقصى قد أثار سخطًا شعبيًا واسع النطاق ومعارضة بنو مرين الذين عجزوا عن صد غارات الكفار.

وعلى الرغم من أنّ السلطانين الأولين من بني وطاس، محمد الشيخ (١٤٧٢ – ١٥٠٥ م) وابنه محمد البرتغالي (١٥٠٥ – ١٥٢٤ م) قد وفّقا الى حد ما في استعادة نفوذ سلطنة فاس وفي دحر حركة الأشراف، فلم يكن في وسعهما ايقاف التوسع البرتغالي على الساحل الأطلسي. وعلاوة على ذلك فان سلطة الوطاسيين لم تتجاوز قط فاس وأحوازها. وأما الجهات الجنوبية من المغرب الأقصى فكانت مستقلة عملاً وخرجت عن سيطرتهم. وتلك هي المناطق التي أعلنت فيها قوات شعبية في بداية القرن السادس عشر، بقيادة أسرة شريفية، الجهاد ضد الحصون البرتغالية في المنطقة الساحلية. وكانت هذه المعارك هي مقدمات سقوط الدولة الوطاسية نهائيًا[٤].

بنو زيان (بنو عبد الوديد)

في عام ١٢٣٥ م، تخلص والى تلمسان الموحّدي يغمراسن بن زيان (المنحدر من فرع ثانوي من آل زناتة) كما فعل أبو زكريا في تونس من قبل، من وصاية السلطان الذي كان يحكم امبرطورية في حالة تفكك تام. وأسس يغمراسن دولته الخاصة التي عمّرت أكثر من ثلاثة قرون (حتى سنة ١٥٥٤ م). وكان كيان هذه المملكة معرضًا منذ نشأتها لتهديد جيرانها الذين يفوقونها قوة في الغرب والشرق وتهديد بدو الجنوب، ويعتبر بقاؤها هذه المدة معجزة من المعجزات. وطول حياتها انما هو ثمرة السياسة البارعة التي انتهجها بعض الملوك الأكفّاء الذين كان من أكثرهم توفيقًا يغمراسن مؤسس الدولة (١٢٣٥ م) وأبو حمو الثاني (١٣٥٩ – ١٣٨٩ م). فكثيرًا ما قامت تلمسان خلال حكمها بمهاجمة المرينيين والحفصيين، اذ كان هدفها بلوغ وادي شليف وبجاية شرقًا والنفاذ الى مشارف فاس غربًا، لكن في معظم الأوقات أجبر بنو زيان على اتّخاذ موقف دفاعي. وقد هوجمت تلمسان أكثر من مرة وحاصرتها الجيوش المرينية، وفي القرن الرابع عشر، احتل المغاربة الجزء الأكبر من المملكة الزيانية طوال عدة عقود.

واستغل البدو دائمًا فترات الضعف ونفذوا في كل مرة الى وسط المملكة وتوصلوا الى اقتطاع بعض

(٤) أنظر المجلّد الخامس، الفصل ٨ (قيد التحضير).

ولاياتها الطرفية. وفي الوقت نفسه تكثّفت عملية تعريب البربر المنتمين الى زناتة بحيث فقدت بلاد الجزائر الغربية طابعها البربري الأساسي.

ويرجع الضعف الأساسي للمملكة الى قاعدتها الاقتصادية الضيّقة الأحادية الجانب، فقد كان سكان الدولة التي تضم أقل مناطق التل خصوبة يتألفون من فئة مستقرة قليلة العدد، ومن جمع كبير من الرعاة الرحّل الذين كانوا بدورهم عرضة لمناوشات العرب القادمين من الجنوب، مما افقدهم مراعيهم بصفة مستمرة. وقد أسهم عدم الاستقرار الناتج عن ذلك اسهامًا كبيرًا في تضاعف الخصومات داخل المجتمع وفي صلب الأسرة الحاكمة على حد سواء. وليس غريبًا في مثل هذه الظروف أن يقع بنو زيان، لفترات طويلة، تحت الوصاية المرينية والحفصية ثم الأراغونية.

ويكاد يبدو من غير المعقول، بالنظر الى الظروف السياسية والاقتصادية غير المواتية الى هذه الدرجة، ان يكون قد تسنّى لهذه الدولة البقاء حتى الفتح العثماني في أواسط القرن السادس عشر. وقد ظل عمادها الأساسي مدينة تلمسان التي صارت أهم مستودع للتجارة في المغرب الأوسط بعد تاهرت. وبموقعها عند ملتقى الطريق الرئيسية التي كانت تربط بين وهران والوحدات الصحراوية وتمتد من الشمال الى الجنوب حتى السودان بالمحور الغربي الشرقي الذي كان يربط بين فاس وافريقيا، فانه سرعان ما بزّت تلمسان المراكز الكبرى الأخرى وصارت مركز التجارة بين أوروبا والمغرب والسودان الغربي. وكانت علاوة على ذلك على اتصال مباشر بسجلماسة، وهي المحطة الشمالية الأخيرة في الطرق التجارية المارّة عبر الصحراء. وإن المزاحمة من أجل التحكّم في التجارة العابرة للصحراء تفسّر الى حدّ ما المعارك التي دارت بين الأسرتين الحاكمتين المتنافستين: الأسرة المرينية وأسرة بني زيان: وكان يغمراسن بن زيان أول من أدرك أهمية هذه السيطرة. فبعد محاولة فاشلة سنة ١٢٥٧م فتح سجلماسة سنة ١٢٦٤م واحتفظ بهذه المدينة حوالى عشر سنوات، جامعًا بذلك لأول مرة تحت سيادته أهم مركزين للتجارة العابرة للصحراء وهما: تلمسان وسجلماسة ولئن اضطر الزيانيون الى التخلي عن سجلماسة مبكرًا، فان تلمسان ظلّت تجتذب الجزء الأوفر من النشاط التجاري.

وسرعان ما أثارت هذه المدينة التجارية الغنية طمع المرينيين والحفصيين، وحاول المرينيون مرات عديدة الاستيلاء عليها. ففيما بين ١٢٩٩ و ١٣٠٧ م حاصر أبو يعقوب تلمسان وقرّر بناء مدينة قبالتها سميت بالمصورة لكنها اشتهرت باسم تلمسان الجديدة، وسرعان ما اصبحت مركزًا تجاريًا هامًا واجتذب جل النشاط التجاري. غير أنّ الجيش المريني اضطر الى الانسحاب بعد وفاة أبي يعقوب ونجت تلمسان من المحنة، وبادر بنو زيان إلى هدم مدينة المصورة المنافسة.

وطوال السنوات الثلاثين التالية كانت تلمسان مركزًا تجاريًا هامًا واجتذبت التجار الاوروبيين وتجار المغرب وبلدان الشرق الاسلامي، وكان يقطنها يومئذٍ نحو أربعين ألف نسمة[٥]. والمثل السائر في تلمسان حتى يومنا هذا والقائل: «خير دواء للفقر هو السودان» يشير الى الثروات التي اكتسبتها المدينة من التجارة عبر الصحراء. وتسنّى للدولة كذلك التمتع من جديد بحرية سياسية أكبر، واستطاعت أن تنفّذ سياسة هجومية ضد الحفصيين الذين اعتراهم الضعف بينما كانت الدولة المرينية هي الأخرى مشغولة بالفتن الداخلية.

ووضع اعتلاء أبي الحسن عرش المرينيين حدًّا للتوسّع الزياني، وفتحت تلمسان سنة ١٣٣٧ م بعد

(٥) على وجه التقريب في نفس الفترة كانت كل من فاس وتونس يقطنها حوالي مائة ألف نسمة ومراكش حوالي ستين ألفًا، أنظر أ. لاكوست، ١٩٦٦، ص ٥٠.

حصار دام عامين، ووقعت المحطات النهائية للتجارة العابرة للصحراء في أيدي المرينيين. ورغم ذلك، فكما ذكرنا من قبل، فان جهود أبي الحسن لاعادة توحيد المغرب لم يكتب لها الاستمرار. وبينما كان هذا السلطان هو وابنه يتنازعان السلطة، استرجعت تلمسان استقلالها.

ولئن عرفت دولة تلمسان خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر فترة ازدهار ورخاء في عهد السلطان القدير أبي حمّو موسى الثاني (١٣٥٩ – ١٣٨٩ م)، فان السلاطين المرينيين قد احتلوها مرتين وهدتها غارات الأعراب وثوراتهم. وتلك هي الفترة التي أقام فيها ابن خلدون في تلمسان وتوسّط لأبي حمو لدى شيوخ البدو مما يسّر له فهم نظام أو آلية الحياة السياسية وانقلاب التحالفات، كما ترك وصفًا للثقافة الزيانية: «لقد ازدهرت العلوم والفنون هنا بتلمسان وأنجبت هذه المدينة العلماء والرجال الأفذاذ الذين طار صيتهم وراء الحدود». وازدانت المدينة بمآثر كثيرة بقيت الى يومنا هذا وجعلت من تلمسان أهم العمارة الاسلامية في المغرب الأوسط.

وبعد أن خلع أبا حمو ابنه أبو تاشفين (١٣٨٩ – ١٣٩٤ م) دخلت مملكة تلمسان حقبة طويلة من الانحلال كانت خلالها تابعة لفاس تارة ولتونس تارة أخرى، ولم يكن لها خلالها الاّ دور باهت في سياسة المغرب. وخلال القرن الخامس عشر صارت عمليًا محمية لأراغون وتفككت في نهاية الأمر الى أجزاء عديدة، فانحصرت سلطة الأمراء من بني زيان في مدينة تلمسان وضواحيها. واضطرتهم الخصومات على العرش الى التماس المزيد من عون الاسبانيين والتعويل على مرتزقتهم النصارى الذين آل اليهم الحكم الحقيقي في نهاية الأمر. وفي القرن التالي لم تعد مملكة تلمسان الاّ مجرد بيدق في المعركة الكبرى بين اسبانيا والامبراطورية العثمانية، وانهارت أخيرًا تحت غارات الأتراك عام ١٥٥٤ م.

تحدّي أوروبا المسيحية

كانت الاتصالات بين الغرب الاسلامي وأوروبا المسيحية فيما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر أعمق مما كانت عليه في الفترة السابقة. لكن من الخطأ أن نعتبر أنّ كلاً منهما كان كيانًا وحيدًا متجانسًا ينتهج سياسة عدائية جامدة ازاء الآخر. فبعد زوال ملك الموحّدين انقسم الغرب الاسلامي الى أربع دول: إمارة بني نصر بغرناطة والسلطنة المرينية في المغرب الأقصى ومملكة بني زيان في تلمسان والسلطنة الحفصية في تونس. وكان خصومهم فيما وراء البحر المتوسط أكثر منهم انقسامًا. فقد كان في شبه جزيرة ايبيريا مملكتان هما قشتالة وأراغون بالاضافة الى مملكة البرتغال فيما بعد، أمّا في ايطاليا فقد كانت جنوة وبيزة والبندقية، وصقلية كذلك (قبل أن تضمها أراغون) تمارس سياسات مستقلة ومتعارضة في كثير من الأحيان. وقد انسحب الفرنسيون بعد فشل الحملة الصليبية الأخيرة بقيادة الملك لويس التاسع ولم يعد لهم بعدها الاّ دور ثانوي في المغرب. ولما كان تعدّد الدول يتيح امكانات شتى لاقامة الأحلاف التي كثيرًا ما تغافلت عن الحواجز الدينية، فان من المغالاة في تبسيط الوضع أن نقصّر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في غرب البحر المتوسط، خلال الفترة المدروسة، على حرب لا هوادة فيها بين خصمين عنيدين تحدو أحدهم روح الجهاد وتحدو الآخر الروح الصليبية. وليس ذلك لأن هاتين الظاهرتين لم تدخلا في الاعتبار، اذ غالبًا ما لعبتا بالفعل دورًا حاسمًا في بعض الفترات، بل لأنه يمكننا أن نستشف

وراء هذا النضال تصارع مصالح اقتصادية تجارية. وهذا الصراع هو الذي يفسر تشابك الأحلاف والأحلاف المضادة بين الدول الاسلامية والمسيحية ولولاه لبقى هذا التشابك غير مفهوم. ونظرًا لأن الفصل ٢٦ يتضمن بحث هذه العوامل التحتية على مستوى بقية القارات فاننا سنقتصر هنا على دراسة المظاهر السياسية لعلاقات المسلمين بالمسيحيين.

فقد مثل منتصف القرن الثالث عشر نقطة تحوّل حاسمة في تاريخ غرب البحر المتوسط عندما بلغت إعادة الفتح المسيحي[٦] اوجها لفتح قلب الاندلس. وكانت مناطق نفوذ المسلمين التي تساقطت تباعًا بأيدي مختلف الممالك الأيبيرية هي التالية: جزر الباليار (الجزر الشرقية) (ميورقة) عام ١٢٢٩ م وبطليوس عام ١٢٣٠ م وقرطبة عام ١٢٣٦ م وبلنسية عام ١٢٣٨ م ومرسية عام ١٢٤٣ م وجيان عام ١٢٤٦ م واشبيلية عام ١٢٤٨ م والغرب (غرب الأندلس) عام ١٢٤٩ م وقادس وشريش ونبلة في ١٢٦٠ – ١٢٦٢ م. ومنذ ذلك التاريخ صار حوالي تسعة اعشار شبه الجزيرة الأيبيرية تحت حكم المسيحيين واقتصرت بلاد المسلمين على امارة غرناطة التي أسّست سنة ١٢٣٢. وقد كانت المنافسة بين قشتالة وأراغون ومعاونة المرينيين لغرناطة طوال قرن بعد تأسيسها، هما اللذان أتاحا لغرناطة أن تواصل البقاء حتى سنة ١٤٩٢ م. وعلى الرغم من أنّ أمراء بني نصر تدخّلوا بصفة نشطة في السياسة المغربية ومن أنهم بهذا أسهموا في تعقيد الوضع السياسي، فإن دور اسبانيا الاسلامية، كقوّة متوسطية مستقلة، قد انتهى تقريبًا. إنّ هذا التغيير في ميزان القوى لم يظهر أثره على الفور، خصوصًا وأنّ بنو مرين كما رأينا، حاولوا العديد من المرّات تقييم الوضع (المؤقت في نظرهم) باسبانيا، وحاولوا ارجاع الامبراطورية الموحّدية إلى حدودها القديمة.

ولم يتحول ميزان القوى بشكل جليّ لصالح المسيحيين الاّ في أواسط القرن الرابع عشر. واقتصر المغرب على موقف الدفاع.

وقد ذكرنا من قبل بعض العوامل التي تفسّر انحطاط قوة الدول الاسلامية السياسية والعسكرية اذ أنه في كل هذه الدول كانت السلطة السياسية تتميز بالمركزية في أول عهد الأسرات الحاكمة الجديدة ثم تتعرّض بصورة منتظمة ومتزايدة للتفتت بسبب مختلف القوى الانفصالية المتمثلة في أفراد الأسر الحاكمة المنشقين، وفي شيوخ البدو والمرتزقة النصارى وشيوخ المتصوفة أو الأشراف، الراغبين جميعًا إمّا في المشاركة في ممارسة الحكم وإمّا في الحصول على أقصى قدر من الاستقلال الذاتي بلا مبالاة بالصالح العام. وكان التضارب بين المدن الساحلية، المهتمة بالتجارة الخارجية، وبين الريف، من جهة، وبين البدو الرحل وبين السكان المستقرين، من جهة ثانية، عامل فرقة اضافيًا في مجتمع تتواجه فيه فئات لا رابط بينها. وكان لازدياد عمق الأزمة التي كان المغرب يجتازها أسباب ذاتية أيضاً. فقد كانت هذه المنطقة قليلة السكان بالمقارنة ببلدان البحر المتوسط الأخرى. ويبدو أنّ معدّل ازدياد السكان قد ظل

(٦) يستعمل لفظ «ريكونكيستا» في تواريخ مؤرّخي ايبيريا وأوروبا للدلالة على تدرّج المقاومة المسيحية للسيطرة الإسلامية وما خيض من حروب لتخليص شبه الجزيرة منها. ويشمل هذا التاريخ تقليديًا كامل الفترة الممتدّة ما بين ٧٢٢ م (معركة كوفادونجا) و١٤٩٢ م (سقوط غرناطة). وفي السنوات الأخيرة أخذ بعض الأخصائيين الاسبان في نقد مفهوم «إعادة الفتح» ذاته مبرزين أنه فيما بين (٧٢٢ هـ – ١٠٣١ م و١٢٥٢ هـ – ١٤٨١ م) لم تقع لا فتوحات ولا إعادة فتوحات مسيحية، وان لفظ «فتح» في حد ذاته لا يمكن أن ينطبق إلاّ على الفترة ١٠٣٥ – ١٢٦٢ م وبصورة أخص على السنوات ما بين ١٠٨٥ م (فتح طليطلة و١٢٤٩ م (فتح كل الأندلس تقريبًا)، ثم على الفترة من ١٤٨١ م حتى ١٤٩٢ م التي تسبق سقوط غرناطة. أنظر م. كروث هرناداث في أوراق ١٩٧٠. عدد ٢، ص ٢٥ – ٤٣.

ضعيفًا خلال القرون العصيبة(٧) فلم يعوّض تدفق اللاجئين الاندلسيين عدد ضحايا وباء «الطاعون الأسود» في أواسط القرن الرابع عشر إلاّ بصعوبة، وكان من نتيجة النظام الاقطاعي وعدم الاستقرار العام أن هجرت الأراضي الزراعية في مناطق عديدة. ونصوص بداية القرن السادس عشر تتضمن أمثلة وفيرة لأراضٍ مهجورة كما يتّضح منها أنّ السكان قد قل عددهم في المناطق التي كانت من قبل مزروعة آهلة. وقد لعب تدهور التربة الزراعية التدريجي دوره أيضًا في التخلّي عن الأراضي. ويرجع هذا التدهور الى قطعان البدو الرحّل، من جهة، وإلى انخفاض الخصوبة في المناطق القاحلة التي استنفدت قوتها الزراعة الكثيفة من جهة أخرى. وهنا أيضًا لم يسمح تناقص الأيدي العاملة بالعودة الى الانتاجية السابقة.

وأخذت التجارة العابرة للصحراء، التي كفلت ازدهار المغرب اقتصاديًا طوال قرون، تتحول شيئًا فشيئًا صوب مصر ابتداءً من النصف الثاني من القرن الرابع عشر. ولم تظهر آثار هذه الظاهرة على مستوى طبقة التجّار فحسب، بل وعلى مستوى الحكومات بقدر أكبر، اذ كانت الرسوم الجمركية المفروضة على السلع من أيسر موارد الدخل منالاً.

وقد حدث كل ذلك في نفس الفترة التي كانت الدول المسيحية توطد فيها قوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، وعلى الرغم من أنّ المغرب الشرقي الخاضع لحكم الحفصيين لم يكن في تلك الفترة مهدّدًا بمثل ما هدّد المناطق الواقعة غربيّه، الاّ أنه تعرّض من حين لآخر للاقتحام والحملات العسكرية. ففي سنة ١٢٨٢ م احتل شارل دانجو كولوّ وفي السنوات التالية استولت القوات الصقليّة والأراغونية بقيادة روجي دي لوريا على جربة وقرقنة ومرسي الخرز (لاكال). وظلت جربة بأيدي المسيحيين حتى سنة ١٣٣٥ م كشوكة في خاصرة الدولة الحفصية. وفي نهاية القرن الرابع عشر، عاودت الاساطيل المسيحية هجماتها على المناطق الساحلية. وحاصر الفرنسيون، الذين تحالفوا هذه المرة مع أهل البندقية، المهدية دون جدوى (١٣٩٠ م) وهاجمت أساطيل بلنسية وميورقة دليس (١٣٩٨ م) وعنابة (١٣٩٩ م). واستأنف الأراغونيون هجماتهم على قرقنة وجربة سنة ١٤٢٤ م وسنة ١٤٣٢ م، كما تعرّضت حتى نهاية القرن عدّة موانئ واقعة بين طرابلس والجزائر للغارات العديدة وعمليات السطو والهجمات من قبل أهل جنوة والبندقية. وما كانت هذه الهجمات، بالاضافة الى عمليات القراصنة المغاربة، الاّ لتزيد العلاقات السياسية بين الحفصيين والدول المسيحية خطورة. إلاّ أنها لم تؤد قط إلى قطيعة تامة ولم يفقد النشاط التجاري شيئًا من حيويته. ولم يكن الايطاليون يمثلون سياسيًا خطرًا جدّيًا، لأن أهدافهم كانت تجارية بحتة، وما كانوا يطمحون في فتح أراضٍ جديدة. وكان للحكّام المسلمين عمومًا علاقات مع التجار الايطاليين أيسر من علاقتهم بتجار شبه جزيرة أيبيريا الذين كانت مطامحهم سياسية قبل كل شيء.

وكان الوضع السائد في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مغايرًا وأكثر تعقيدًا في الآن نفسه. فقد حافظ ملوك أراغون طوال كامل القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر على العلاقات السياسية الودّية مع المغرب الأقصى، وكان لهم نفوذ قوي في تلمسان. وقد أملى سياستهم هذه تنافسهم مع قشتالة ومطامعهم السياسية في ايطاليا ووسط حوض البحر المتوسط. وعلى العكس من ذلك كانت قشتالة والبرتغال تتحينان الفرصة للتدخل في المغرب الأقصى. وكان انتصار موقعة نهر سالادا نهاية عهد

(٧) كان مجموع سكان المغرب بأسره في نهاية القرن السادس عشر يُقدَّر بثلاثة ملايين نسمة وفي نفس الفترة بلغ سكان شبه جزيرة ايبيريا حوالي تسعة ملايين نسمة. وفرنسا حوالى خمسة عشر مليونًا وايطاليا قرابة اثني عشر مليونًا. أنظر جان مونلاو، ١٩٦٤، ص ٣٩ و ٤٠.

اشتباكات المغرب الأقصى على الأرض الاسبانية ، إذ أنّ المنازعة هذه المرة بين قشتالة وغرناطة كان لها طابع الصراع الاقطاعي بين السيد وتابعه ، لا طابع الحرب بين النصارى والمسلمين. وفي نظر القشتاليين كان الأعداء الحقيقيون هم مسلمو المغرب . ولذلك عملوا جاهدين على درء خطر مزدوج : لأنهم كانوا مهدّدين بغزو من المغرب الأقصى وبخطر ازدياد أنشطة القراصنة.

والقرصنة في البحر المتوسط لم تنقطع منذ العصور القديمة . وفي القرون الوسطى كان يمارسها المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء ، لكن اعادة فتح اسبانيا من قبل المسيحيين صبغت هذه العمليات – التي كان هدفها الأساسي ماديًا قبل كل شيء – بلون ديني. وابتداءً من القرن الخامس عشر اعتبر القراصنة المسلمون ، ولا سيّما أولئك الذين طردوا من الأندلس ، عملياتهم بمثابة ضرب من ضروب الجهاد وشكل من أشكال الانتقام لابعادهم . وقد أسس القراصنة في بعض الموانئ المغربية الهامة «جمهوريات» مستقلة كانوا يقومون منها بأنشطة غالبًا ما كانت تتعارض مع ارادة السلطات الرسمية . وقد اتبع بنو مرين وبنو وطاس وكذلك الحفصيون سياسة متقلبة ازاء القراصنة ، اذ كانوا يساندونهم حينًا ويحاولون الحدّ من أنشطتهم حينًا آخر خوفًا من أن تتخذها الدول المسيحية ذريعة لحملات تأديبية ، لأنّ بعض الغارات المذكورة أعلاه على المناطق الساحلية كانت في الحقيقة عمليات انتقام لهجمات القراصنة المسلمين على السفن المسيحية وعلى شواطئ اسبانيا . واذا ما نظرنا إلى أنشطة القراصنة المسلمين في اطارها التاريخي فانها تبدو بمثابة ردّ فعل للتحدّي المسيحي في فترة كانت فيها حكومات الدول المغربية عاجزة ذاتيًا وغير قادرة على الصمود في وجه الهجوم الأوروبي . وتشبه أنشطة القراصنة من بعض الوجوه الحركات الشعبية التي ظهرت داخل المغرب الأقصى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بقيادة الاشراف والأولياء ضد السلطة المركزية العاجزة عن طرد البرتغاليين من البلاد.

إلاّ أنّ وضع اسبانيا الداخلي قبل اتحاد قشتالة وأراغون لم يساعد على التعجيل بالقيام بهجوم مشترك على المغرب في ذلك الوقت بالذات . وكان فتح تطوان المؤقت من قبل القشتاليين سنة ١٣٩٩ م ، الذين قتلوا نصف سكانها واستعبدوا النصف الثاني ، قد ظل أمدًا طويلاً هو التدخل الاسباني الهام الوحيد في أراضي المغرب الأقصى. ولم تستأنف الهجمات الاسبانية الاّ بعد القضاء على غرناطة (١٤٩٢ م).

وقد تبين أنّ البرتغاليين أخطر عداوة للمغرب ولأفريقيا عامة على حد سواء. فبعد أن طرد ملوك أسرة أفيس – الذين استولوا على الحكم سنة ١٣٨٥ م – آخر العرب من أراضيهم ، قرروا مواصلة الحرب ضد المسلمين في الأراضي الأفريقية. وكانت دوافعهم معقدة تجمع بين التحمّس الديني والأمل في فتح أراضٍ جديدة وتكديس غنائم ثمينة والرغبة في التخلص نهائيًا من القراصنة المسلمين.

وفي سنة ١٤١٥ م استولى الأسطول والجيش البرتغاليان بقيادة الأميرين هنريك (هنري الملاح فيما بعد) وفرناندو ابنيّ الملك جواو على ميناء سبتة بالمغرب الأقصى بعد معارك قصيرة ، وكان هذا النصر بداية التوسع الاستعماري البرتغالي وراء البحار. ويرى كل المؤرخين تقريبًا ، أنّ الاستيلاء على سبتة يمثل مؤشرًا (أو مرحلة) هامة بالنسبة للتاريخ الأوروبي وحتى العالمي ، لأنهم يرون فيها نقطة البدء في توسع أوروبا وراء حدودها الطبيعية بهدف الفتح والاستعمار. وان حكمًا كهذا ليحتاج الى تعديل طفيف ، لأنه يجب ألاّ ننسى أن الحروب الصليبية كانت تمثل محاولة مشابهة للتوسع فيما وراء البحر والسيطرة على تجارة الشرق واستغلال البلدان والشعوب غير الأوروبية ، في حين أنه لا جدال في أن سنة ١٤١٥ م هي بداية تلك السياسة العدوانية التي انتهجتها دول أوروبا الغربية بلا انقطاع والتي مكّنتها من السيطرة شيئًا فشيئًا على القارات الأخرى واكتشاف أراضٍ جديدة يسعها فيها متابعة مآربها الاستعمارية. وسيدرس هذا الجانب العام تفصيلاً في مقدّمة المجلّد التالي ، ولذا سنقتصر هنا على تحليل نتائج العدوان البرتغالي بالنسبة الى

افريقيا الشمالية الغربية والمغرب الأقصى على وجه الخصوص.

فلم تكن مطامح البرتغاليين قاصرة بداهة على فتح ميناء واحد، بل كان هدفهم احتلال بلاد المغرب الأقصى بأسرها للسيطرة على تجارة الذهب الرابحة. وكما بينّا من قبل، فقد ظهر عجز الدولة المرينية عن مقاومة هذا التهديد، وكان الوزير أبو زكريا الوطاسي هو الذي اجتهد فعلاً لتعبئة البلاد. وفي سنة ١٤٣٧ م حاول البرتغاليون من جديد بقيادة الأميرين فتح طنجة، لكنهم منوا بهزيمة فادحة وتعهدوا برد سبتة الى المغاربة المنتصرين، مخلّفين الأمير فرناندو رهينة بالمغرب الأقصى. وعلى الرغم من ذلك فان اخاه الملك دوارتي أصرّ على عدم التخلّي عن الموقع الهام الذي كان يحتله على الأرض المغربية، ومات فرناندو التعيس في الأسر بفاس.

وقد حوّرت هزيمة طنجة الى حد ما سياسة البرتغاليين ومشاريعهم التوسعية بالقدر الذي اتضح به أنّ هجومًا مباشرًا لن يضمن لهم السيطرة على المغرب الأقصى ولا على المسالك التجارية السودانية، ومن ثم اضطروا الى البحث عن سبل أخرى لبلوغ مصادر الذهب. وكانوا في الوقت ذاته يعلّقون الأمل على أن يجدوا حليفًا في جنوب المغرب الأقصى قد يساعدهم على اغتصاب جزء من بلاد العدو المسلم. وما كان هذا التحول في الأولويات يعني بالضرورة أن ملوك البرتغال وبورجوازيتها قد تخلوا عن مشاريعهم في شمال غربي افريقيا، بل ان اهتمامهم أخذ يتركز تدريجيًا على الساحل الأطلسي. وابتداءً من أواسط القرن الخامس عشر احتلوا على التوالي المدن المغربية الساحلية التالية: القصر الصغير (١٤٥٨ م) آنفا (١٤٦٩ م) وأصيلة (١٤٧١ م) ومسات (١٤٨٨ م) وأغادير (١٥٠٥ م) وآسفي (١٥٠٨ م) وأزمور (١٥١٣ م) والجديدة (١٥١٤ م) وأغوز (١٥١٩ م). وتوصلوا أخيرًا في سنة ١٤٧١ م الى الاستيلاء على طنجة أيضًا. ولم يكن فتح المغرب الأقصى في نظرهم مجرد مرحلة من مراحل عملياتهم التوسعية على طول الساحل الافريقي، بل كانت له قيمة في حد ذاته، اذ أن الخزانة البرتغالية كانت تجني فوائد عظيمة من الغارات التي تشن داخل البلاد. وقد نهبت مدن عديدة (منها مراكش سنة ١٥١٥ م) وقرى كثيرة في هذه الغارات واستعبد أهاليها وبيعوا رقيقًا. وفي ذات الوقت ظلت للبرتغاليين علاقات تجارية ودّية مع المغاربة، فكانوا يشترون منهم أساسًا الحبوب والخيول، وخاصة الأنسجة الصوفية التي كانوا يقايضونها في افريقيا الغربية بالرقيق والذهب.

وفي حين كان البرتغاليون يحرزون نصرًا بعد نصر في توسعهم على طول الساحل الأطلسي بالمغرب الأقصى وجنوبيه، باحثين عن الذهب وعن «برسترجون» الملك المسيحي الشرقي الأسطوري الذي كانوا يرون فيه حليفًا محتملاً ضد العدو المسلم، فاتحين بذلك عهد الاكتشافات الكبرى والامبراطوريات الاستعمارية، وثّقت قشتالة وأراغون وحدتهما بزواج الملك فرديناند من الملكة ايزابيلا. وبعد عشر سنوات من الحرب سقطت غرناطة في أيدي الاسبان. وفي الوقت نفسه، أي في سنة ١٤٩٢ م قام كريستوفر كولولمبس برحلته الأولى التي اكتشف خلالها أقصر طريق مؤدية الى ذلك العالم الجديد الذي سميّ فيما بعد أميركا.

لكن اكتشاف هذه الآفاق الجديدة وراء البحار لم ينس الأسبان اعداءهم المباشرين في افريقيا الشمالية. وقد بارك البابا في عام ١٤٥٤ م الاتفاق الذي تقاسمت المملكتان الأيبيريتان المغرب بموجبه، حيث آلت المناطق الواقعة غربي سبتة إلى البرتغال وتلك الواقعة شرقيّها إلى اسبانيا. ولم يلبث الاسبان أن استغلوا هذا الاتفاق كما استغلوا ضعف الزيانيين والحفصيين. وفيما بين ١٤٩٦ م و ١٥١٠ م استولوا على عدة موانئ على البحر المتوسط، ومن أهمها مليلة والمرسي الكبير ووهران وبجاية وطرابلس، إلاّ أنهم أخفقوا على الرغم من ذلك في التوغّل بعمق أكبر داخل البلاد. وكانت معاقلهم، ومنها مليلة التي لا

زالت في أيديهم تقتصر على الموانئ ولا تتزود بالمؤن الآ عن طريق البحر ، مما جعلها قليلة المناعة إلى حد كبير في مواجهة أية قوة بحرية.

ومن ثم تميّزت القوة الاسلامية في المغرب في نهاية القرن الخامس عشر بالضعف البالغ اذ كانت أغلب الموانئ الاسلامية سواء أكانت على الساحل الاطلسي أم على ساحل البحر المتوسط قد سقطت في أيدي النصارى ، وكانت السلطة المركزية في كل من دول المغرب تتّسم بالعجز وضعف الجانب ، وكانت هذه البلدان عينها منقسمة على نفسها شيعًا متنافسة ، وكانت اقتصادياتها هشة معرّضة للضغوط الناتجة عن اختلال توازن القوى الشامل. ولئن كان القرن التالي بالنسبة الى المغرب قرن النهضة ، بفضل حركة شعبية قوية ظهرت في غربه وبفضل تدخل القراصنة الأتراك وتدخل الامبراطورية العثمانية فيما بعد ، فانه لن يبلغ قط الذرى السياسية والاقتصادية والثقافية التي بلغها في عهد المرابطين والموحّدين وأوائل سلاطين كل من الأسرتين الحفصية والمرينية.

الفصل الخامس

المجتمع في المغرب بعد زوال الموحدين

بقلم هـ. ر. ادريس (*)

إذا كان تدوين التاريخ في المغرب، على الأقل بالنسبة لبعض شرائح الفترة التي تهمنا، متقدّمًا تقدّمًا كافيًا، فما زال تاريخه الاجتماعي في حاجة إلى أن يكتب. ويعكس هذا الوضع[1] نقص المؤلفات الشاملة عن هذا الموضوع. لذلك لا بدّ من العناية بأعمال البحث عن الوثائق، وتحليلها وتفسيرها. ولا شك أن الأفكار العامة عن الإسلام في العصور الوسطى لا تزال مفيدة لفهم كثير من القضايا. لكن، لا بدّ من أن تؤخذ في الاعتبار الفوارق بين الشرق والغرب، ومختلف إمكانيات التطور، وان بدت ضعيفة أو بطيئة[2].

(*) هذا المقال منشور بعد وفاة المؤلّف: ففي الواقع أن البروفسور هادي روجر ادريس توفي في ٢٩ أبريل /(نيسان) ١٩٧٨.

(١) يوجد، مع هذا، كتابان قيّمان: ج. مارسيه، ١٩١٣، ص ٧٦٧، ور. برنشفيك، المجلّد الأول، ١٩٤٠، ص ٢٨١ – ٤٧٢، والمجلّد الثاني، ١٩٤٧، ص ٥٠٣.

(٢) بالنسبة لتاريخ الحضر الذي يحتلّ مكانًا هامًا إلى حد ما في هذا المقال، يمكن الرجوع، من وجهات نظر مقارنة، إلى مجموعة دراسات خاصة بالمدن الشرقية: أ. هـ. حوراني، وس. م. سترن، ١٩٧٠.

هيمنة البدو والحياة الحضرية

البدو

منذ القرن الحادي عشر، اختل التوازن الموغل في القدم، والمتسم بالقلق بين حياة الحضر وحياة البداوة، فتقوض لصالح هذه الأخيرة، نتيجة لغزو البدو العرب من بني هلال، ثم من بعدهم بنو سليم في القرن الثاني عشر. وفي بداية القرن الثالث عشر، أتت أعمالهم التخريبية على الثقافات، وأشاعت الفوضى في أفريقيا، والمغرب الأوسط [٣] وتلبية لمقتضيات استراتيجيتهم العسكرية والاقتصادية، ترك لهم الموحّدون السهول الواقعة على المحيط الأطلسي، ونقلوهم إليها بأعداد كبيرة، بينما احتلّ بدو آخرون هم بنو معقل جنوب وشرق الأطلس المراكشي. وبذا انقطعت صلة المغرب بالمشرق كما أصاب علاقاته مع السودان ضعف ملحوظ، واقتلعت حضارته، من الوسط والغرب خاصة ودُفع بها إلى ساحل البحر المتوسط.

الريفيون

يمثل الفلاحون (مربو الماشية المستقرون، والمزارعون، وزارعو الأشجار المثمرة، وزارعو الخضر، الخ...)، الذين كثيرًا ما تختلف أنماطهم بدرجة كبيرة باختلاف الأراضي، الجزء الأكبر من السكان، خاصة مع ازدياد التأثير المتبادل بين المدينة والريف ولا سيّما بين المدن الصغيرة والريف. ولم تكن الأيدي العاملة الكثيرة التي تحتاجها الزراعة والتي لم يزدد عددها كثيرًا منذ العصور القديمة من الاقنان وكانت المزارع العائلية الصغيرة هي الشكل السائد. وكان بعض أصحاب النفوذ يملكون ضياعًا كبيرة وتملك الغالبية العظمى من الريفيين أراض جماعية، وكثيرًا ما كانت الضيعة غير قابلة للتجزئة. وكان كثير من قطع الأرض الصغيرة أوقافًا (حبوس) [٤] خاصة أو عامة يزرعها الملتزمون أو بالأحرى يعهدون بزراعتها إلى مزارعين بالمشاركة. وفي كثير من الحالات، إن لم يكن في أغلبها، كانت الأرض تزرع بمقتضى عقد مبرم مع المالك: عقد مغارسة، أو أنواع مختلفة من الزراعة بالمشاركة، وخاصة بالخمس. وكان الخمّاسون لا يتوصلون دائمًا إلى تأمين قوتهم، وكثيرًا ما كانوا يعانون من البؤس الشديد، خاصة في السنوات التي يكون فيها المحصول سيئًا. فكانت كل أسرة تستمد غذاءها الزهيد من الأرض التي تملكها أو تزرعها للمالك. وكان تبادل منتجات الزراعة وتربية الماشية، وكذلك تبادل الصناعات الحرفية للحضر والريف على السواء، يتم في أسواق ريفية، موسمية أو أسبوعية وكثيرًا ما كانت تتحوّل إلى قرى كبيرة يتداخل فيها المقيمون في الحضر وأشباه البدو، والبدو.

---

(٣) إن نظرية هذه «الأعمال التخريبية» لا تحظى بإجماع المؤرّخين، ع. العروي، ١٩٧٠، ص ١٣٩ - ١٤٦، يكتب عنه نقدًا لا يمكن إغفاله.

(٤) الوقف (أو الحبوس) هبة أو مؤسسة خيرية خاصة أو عامة، مكوّنة من أموال مرصودة لا يتمتّع بعائدها إلاّ من تؤول إليهم، ويمكن أن يتغيّر هؤلاء (كالفقراء في احدى المدن، أو فئات اجتماعية أو أسر معيّنة، أو طلبة).



• أغادير (الأهراء المقواة)
في فري – فري
في منطقة تجنيت في جنوب مراكش

وتحليل بنية المجتمع القروي ضرب من المخاطرة ، نظرًا لنقص الوثائق . فهو مجتمع يختلف إلى حد ما باختلاف الأراضي ، وقد بقي على حاله في المناطق المنعزلة التي ظلّت تتكلّم لغة البربر إلى عهد قريب. وحيثما خضع هذا المجتمع لتأثير البدو دون أن يغمره تيارهم ، ظل توازنه ، أساسًا ، استمرارًا للماضي ، وبقي ثابتًا عدة قرون.

سكان المدن

أما حياة الحضر ، فالطريقة الوحيدة الممكنة للحديث عنها هي تحليلها في كل من دول المغرب الثلاث ، بدءًا من الغرب ، الذي جاءت منه التأثيرات الغالبة بشكل ملحوظ . إلاّ أنه يمكن في البداية استخلاص بعض السمات العامة.

ولا جدوى من الإطالة في الحديث عن خواص المجتمع العربي الإسلامي : الأسرة التي يحكمها الأب ، والفصل بين الجنسين ، مع استخدام الحجاب في المدن ، وتعدّد الزوجات ، واتخاذ الجواري ، والزواج من داخل القبيلة ، والتفرقة بين الأحرار والعبيد ، والمسلمين وأهل الذمّة ، الخ... ونقول نفس الشيء عن تنظيم المدن الإسلامية التقليدي : حيث نرى مسجدًا كبيرًا وسط الأسواق ، وشوارع ضيّقة متعرّجة ، وحمامات[٥] ، وأسوارًا بها أبواب تمتد بالقرب منها المقابر والأسواق ، والضواحي ، الخ...

كانت الأقمشة المستوردة تخزن في الأسواق ، وتستودع بعض البضائع في «فنادق» للقوافل تطل قاعاتها على فناء داخلي ، وكان التجار الأوروبيون المقيمون في الموانئ يوزعون حسب جنسياتهم على الفنادق ، ولكل بلد قنصل يمثّله ، وكان القراصنة يعودون بعبيد يتّخذون خدمًا بصفة خاصة ؛ وكان الرهبان المسيحيون يسعون أحيانًا إلى افتدائهم بالمال.

أما اليهود ، فقد زاد عددهم في نهاية القرن الرابع عشر ، نتيجة لمجيء الكثيرين منهم ، هربًا من الاضطهاد المسيحي . وقد لعبوا دورًا بارزًا في مجال الاقتصاد بفضل رؤوس أموالهم ، وقدراتهم ، وعلاقتهم باليهود الذين بقوا في أوروبا . وأقام كثير منهم في تلمسان وبجاية Bougie ، واستقبلوا استقبالاً حسنًا في افريقية (تونس) لكنهم لم يشغلوا فيها الوظائف العليا التي كثيرًا ما توصّلوا إلى شغلها في مراكش (المغرب الأقصى) . ووقعت بعض مذابح لليهود في مدينة فاس في بداية ونهاية عهد المرينيين . كذلك عانت الجالية اليهودية في توات من الاضطهاد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

لكن الملفت للنظر بصفة خاصة هو هجرة أهل الأندلس التي تلت إعادة الفتح المسيحي ، فلقد جاءوا في موجات مستمرة بلغت أشد ذروتها في النصف الأول من القرن الثالث عشر ونهاية القرن الخامس عشر . واستقر هؤلاء الأندلسيون في الموانئ بصفة خاصة ، وكوّنوا مجموعات متماسكة تنوّع نشاط أفرادها من أعلى السلم الاجتماعي إلى أسفله : أدباء وموسيقيين وقضاة ، وكتبة ، وعسكريين ، وتجار ، ونساج ، وعمال تطريز ، بنائين ، وبستانيين ، ومزارعين ، الخ ... وكثيرًا ما كان السلاطين يختارون المقرّبين إليهم من بين هؤلاء.

ومن ناحية أخرى ، لوحظ في المدن وكذلك بين سكان الريف والبدو ، حدوث اختلاط في الأجناس

---

(٥) حمام حرفيًا : سخان (من العربية حمى . «سخن» . والعبرية حام ، أي «يكون ساخنًا») «حمام بخار ساخن . والحمامات أبنية منعزلة تتصل بالشارع أو السوق بوساطة بوابة كبيرة أو صغيرة . (دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية) طبعة جديدة ، ص ٢٦٩ .

على أثر تدفق العبيد السود من الجنسين، واتخاذ الجواري من الزنجيات.

وأخيرًا، حتى في المدن التي تعتبر أفضل مكان للتعايش لم تقض المعايشة بين العرب والبربر [٦] والتي بدأت غداة الغزو وزادت بشدة منذ بداية القرن التاسع، على نزعة قبلية ظلّت حيّة رغم الإسلام.

إن ميل هذا الدين إلى حياة الحضر أمر معروف فهو وإن وُلد في شبه الجزيرة العربية، فإنه ظهر في مدينة للتجارة والقوافل. لذا يُستحسن أن ننطلق من حياة المدينة عند رسم لوحة التطور الديني في المجتمع المغربي – وهو مجتمع عميق في التديّن – من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر.

انتصار المالكية وتيارات التصوف

إن مذهب الموحّدين الذي لم يزعزع مالكية المغاربة قد اتّخذ شكل دين رسمي أضفى الشرعية على سلطة المصامدة. لكنه تلقى ضربة قاضية عند سقوطهم. ولم يكن لخلفائهم المرينيين وبني عبد الوديد عقيدة دينية خاصة فأخذوا بالمذهب السني المالكية التي نشطوها بإنشاء عديد من المدارس التي توفّر المأوى والتعليم لطلبة يعين من بينهم الموظفين، وسرعان ما اتضح أثر الأندلسيين في هذه المدارس. أما في أفريقية فقد تطوّر الوضع بشكل مختلف: فالحفصيون موحّدون ظلّوا مخلصين لعقيدتهم، حيث بذلت مدارسهم الأولى الجهود لنشرها، لكن بلا جدوى، لأن أهل أفريقية ظلّوا مالكين في أعماقهم. بل قوى هذا الاتجاه أنه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، أضفى بعض العلماء البارزين على المالكية بريقًا جديدًا فسادت كل المؤسسات الدينية والقضائية، والتعليم في المدارس. ولم يكتف الحفصيون بإفساح المجال لهذا التطور، بل نشأ بينهم وبين العلماء المالكيين تعاون حقيقي، وبفضل ابن عرفة الشهير، انتصرت المالكية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

ليست المالكية هي العامل الوحيد للوحدة الدينية. فمنذ القرن الثاني عشر تأثّرت الممارسات الدينية لأهالي المغرب بنزعة صوفية سرت لأعماقها، فروى شعب المغرب ظمأ إيمانه المكبوت من نبع التصوف. ومع هذا بعد أن سلّط عليه المرابطون طوق قانونيتهم الصارم والمحدود والجافّ، وهم الذين أحرقوا مؤلّفات الغزالي، وبعد أن حاول الموحّدون عبثًا تلقينهم، عقيدتهم التي كانت أكثر مرونة لكنها كانت مفرطة في العقلانية –، وأعلنت عصمة المهدي، وأدانت الفقه ومن ثم صدمت مالكيته المتأصلة. وبعد انتهاء عهد الموحدين، تطوّرت هذه الحركة تطوّرًا كبيرًا في مراكش (المغرب الأقصى) نتيجة لتأثير الصوفية الأندلسية والزهد الذي تعرفه المنطقة منذ القدم وتجلّت في كوكبة من أئمة المتصوّفين الذين أصبحوا أولياء في نظر الأهالي. وانتشرت هذه الحركة بعد ذلك في المغرب الأوسط وأفريقيا.

وُلد بومدين (سيدي بومدين) بالقرب من أشبيلية، وبعد أن تعلّم ومارس التصوف مع المراكشيين، راح ينهله من منابعه في المشرق. وبعد إقامته فترة طويلة في بجاية استدعاه الخليفة في مدينة مراكش الذي أقلقته سمعته، ولكنه مات وهو في طريقه إلى تلمسان (١١٩٧ – ١١٩٨). وكان له نظير في نفطة (سيدي أبو علي النفطي)، ومريدون مثل الدهماني (المتوفي عام ١٢٢٤) وهو بدوي ينتمي أصلاً إلى فيافي قيروان، والمهداوي (المتوفي في عام ١٢٢٤) من مهديه. وكان أبو سعيد الباجي (سيدي بو سعيد) (المتوفي عام ١٢٣١) يعلّم التصوّف في تونس وضواحيها.

(٦) هـ. ر. ادريس، ١٩٧٣، ص ٣٨٢ – ٣٩٣.

أما سيدي أبو الحسن الشاذلي (سيدي بلحسن) فقد وُلد في جنوبي تطوان (نحو عام ١١٩٧ تقريبًا) وكان تلميذًا لأحد أتباع بومدين، وأحد كبار أولياء المنطقة، هو مولاي عبد السلام بن مشيش. بدأ أبو الحسن وعظه في المناطق المحيطة بتونس، حيث استقرّ وأحاط به عدد كبير من المريدين بعد خلوته في جبل زغوان. لكن، حامت حوله شبهة أنه من العلويين المحرّضين على الفتن - إذ كان يزعم أنه شريف من نسل الحسن بن علي -، فاضطر إلى الانسحاب إلى المشرق حيث توفي (١٢٨٥) وخلّف في تونس حشدًا من الأتباع، ويميل تصوّفه الورع - وإن كان يعوزه الصقل - إلى تكريم الأولياء والصالحين بالتماس البركة، وصنع الخوارق، وتوخي الزهد في كل شيء، والقيام بالأعمال الغريبة، والحياة في الصومعة أو الزاوية) والتآخي مع أهل الطريقة. وسنرى فيما بعد أن الشاذلية تطوّرت في مراكش (المغرب الأقصى) الذي سيلعب دورًا طليعيًا في هذا الصدد.

ويمكن أن نذكر، من بين أصحاب الشاذلي الذين يناهز عددهم الخمسين، امرأة عاشت في أفريقية الحفصية هي للاّ منَوبيّة (المتوفاة عام ١٢٦٧) التي اتسم سلوكها بتصرفات «المجاذيب» وان حظيت بالخشية والتبجيل. وطالب بعض الفقهاء، المتشدّدين بالقبض عليها، ولكن الحاكم اعترض على ذلك. وسرعان ما زالت المعارضة الجادة لمثل هذه الشطحات بل أن المرجاني (المتوفي في عام ١٣٠٠)، وهو شيخ زاوية كان على صلات ممتازة بالبلاط والعلماء.

ثم تألّق سيدي ابن عروس (المتوفي في عام ١٤٦٣) والذي ينتمي أصلاً إلى رأس بون. وبدأ بممارسة بعض الأعمال المتواضعة، في الوقت الذي كان يدرس فيه التصوف في تونس ثم في مراكش - حيث أقام زمنًا طويلاً. وعندما عاد إلى تونس عاش كما يعيش الزهّاد المتجوّلون[7] وصانعو الخوارق وانغمس في أعمال مستغربة مشينة، وفي التهريب (أي انتهاك القواعد الأخلاقية والدينية). كان بعض الفقهاء يناصبونه العداء، لكنه كسب انبهار الجميع به وعطف كثير من الحفصيين، وعندما دُفن في زاويته، بكى الناس، كبيرهم وصغيرهم، وليًا ما لبثوا أن رفعوه إلى مرتبة سيدي محرز الذي كان الولي الحامي لتونس منذ خمسة قرون. وترك ابن عروس أتباعًا كثيرين لكن الطريقة العروسية لم تتجسّد إلاّ في القرن السادس عشر - وانتشر الأولياء في افريقية كلها، وتكوّنت قبائل من الزهّاد مثل قبيلة الشابية التي أسست فيما بعد دولة صوفية عاصمتها قيروان، ثارت فيما بعد على الأسبان والأتراك.

لكن الشاذلية ازدهرت أكثر ما ازدهرت في مراكش (المغرب الأقصى) موطن مؤسسها، خاصة في أغماط ومدينة مراكش... وأسس آل رجراجة زاوية الشاذلية (عام ١٣٧٠)، وانتشر المبشّرون بالشاذلية في الجنوب كله، سهوله وجباله.

وأخيرًا، جاء الجازولي (المتوفي في عام ١٤٦٥) الذي أعطى دفعة جديدة للصوفية التي وجّهها إلى الولاء لفكرة الزهد ونسب الأشراف. عاصر هذا البربري - وهو من سوس، وتقول الروايات انه ينحدر من نسل النبي، اكتشاف (عام ١٤٣٧) جسد محفوظ بشكل خارق في مسجد فاس. وسرعان ما أعلن أنه جثمان ادريس الثاني - ومن ثم، أصبح مولاي ادريس موضع تقديس متحمس. وفي مكناس وفاس، كوّن الأشراف من الأدارسة مجموعات قوية سمح المرينيون بأن يكون لهم نقيب. واعتنق الجازولي الشاذلية، وأقام شعائرها، وسرعان ما أصبح له أتباع كثيرون انتظموا على الأرجح في طريقة حقيقية،

---

(٧) بالفرنسية: Gyrovague وهي مرادف لكلمة شريد، وهو اسم لمتعبدين يقضون حياتهم في التنقّل من إقليم إلى آخر، ومن صومعة إلى أخرى ولا يبقون - في مكان واحد أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ويعيشون على الصدقات - كانوا يدعون أيضا Messaliens

وأصبح جنوب مراكش نبعًا يفيض بالأولياء الذين انتشروا إلى الشمال والشرق، حتى مدينة طرابلس. واختلطت فكرتا النسب الشريف والزهد اختلاطًا وثيقًا. وانخرط رجال العلم والفقه في الطرق الصوفية، بعد أن كانوا معرضين عنها أول الأمر. وعندما مات الجازولي نظم أحد أتباعه تمرّدًا قويًا في سوس حاملاً معه رفات شيخه في نعش طوال عشرين عامًا، وفي النهاية، نقله الشريف السعدي الأعرج (عام ١٥٢٤) مع جثمان أبيه إلى مدينة مراكش، ودُفنا في ضريح واحد، فختم على تحالف الأسرة الجديدة مع الجازولية مما ضمن لها الانتصار.

وانتشر عن طريق مراكش (المغرب الأقصى) الاحتفال بالمولد النبوي (١٢ ربيع أول) الذي احتفل به الأيوبيون في المشرق في بداية القرن الثالث عشر، وانتشر كذلك في بلاد البربر التي كانت تنبض بالحماس الديني. وحظي هذا الاحتفال بالقبول أولاً في سبته، في منتصف القرن الثالث عشر. ثم جعل منه المريني أبو يعقوب (عام ١٢٩٢) عيدًا رسميًا. وفي منتصف القرن التالي، احتفل به أبو حمو من آل عبد الوديد (الزيانيين) احتفالاً باهرًا في تلمسان. واحتفل به الحفصي أبو يحيى (١٣١٨ – ١٣٤٦) في تونس، ولكن الفقهاء قابلوا مبادرته بالإدانة العنيفة مما جعله يتخلّى عنها. وفي عهد أبي فارس فقط (١٣٩٤ – ١٤٣٤)، تبنّت افريقية الاحتفاء بالمولد النبوي نهائيًا. واقترن ذلك بالطبع، كما كان الحال في مراكش وتلمسان بإنشاد القصائد، والابتهالات، والموسيقى والأنوار... الخ – هنا أيضًا كانت الطرق الصوفية بصفة خاصة هي التي تحييه وتستأثر به. وقد زاد الاحتفاء به من مكانة الأشراف.

السلطة الملكية والأبنية الاجتماعية

إن القبائل البربرية الفاتحة هي التي أسّست الأسر المرينية والزيانية (بنو عبد الوديد) والحفصية. وكانت عشيرة المنتصرين تمثّل الدولة أو المخزن. لكن هذه التفرقة بين المنتصرين والمنهزمين لا تتطابق مع التفرقة التقليدية بين «الخاصة» (الأفراد، وأفراد الحاشيات الأرستقراطية السياسية والعسكرية، الصفوة، الخ...) «والعامة» (الناس العاديون، والسوقة والشعب، والدهماء، الخ...) والتي خلقها الفقهاء، والمؤرّخون، والحكام. فضلاً عن أن مبدأ المساواة أساس في الإسلام، وكثيرًا ما تعني «الخاصة» المتعلّمون، في حين يقصد «بالعامة» الأميّون. ومع ذلك، وضع حدًا لهذه التفرقة النظرية، وخفّف من تلك الروح وجود طبقة متوسطة، أشبه بالبرجوازية الصغيرة، لها قدرة فائقة على الاستيعاب، وذلك في فاس وتلمسان وتونس. وكان الارتقاء متاحًا للجميع بفضل الثروة أو الثقافة بل حتى التقوى ورضى العظماء.

المرينيون

ضم المرينيون إلى قواتهم الأصلية القليلة المكوّنة من الفرسان، أفرادًا من العرب وزناتيين من المغرب الأوسط، وكانوا يستدعون هؤلاء وأولئك في وقت الحرب فقط. كان لديهم ما يقرب من ثمانية آلاف جندي من الفرسان المرتزقة (بينهم تركمانيون، وافرنج، و«مرتدون»[8]، وأندلسيون)، وحرس سلطاني

(٨) كان «المرتدّون» عادة مرتزقة مسيحيين أسلموا وقدم أغلبهم من أسبانيا ليخدموا في الجيوش المغربية.

أغلب الظن أنه كان مكوّنًا من الزناتة وكان الزناتة يكوّنون الأرستقراطية السياسية والعسكرية التي ينبثق عنها كبار الموظفين أو الوزراء الذين ينتمون إلى أسر متنافسة لها قدرة متزايدة على التأثير – فعائلة بني وطاس كان منها أوصياء على آخر المرينيين، وأسّسوا أسرة سيطرت على فاس وجزء من البلاد. أما شؤون القضاء والحسابات فأسندت إلى كتبة مراكشيين أو أندلسيين. وكان أغلب الحجّاب من العبيد المعتقين ولم تكن لهم سلطة سياسية، باستثناء واحد منهم فقط – يهودي – حيث كان حاجبًا في عهد أبي يعقوب يوسف (١٢٨٦ – ١٣٠٧)، وانتهى به الأمر إلى رئاسة الحكومة، وكَلّفَ آخر المارتيين وكان مدينًا لليهود، اثنين منهم بجباية الضرائب. وكان «المزوار» قائد «الجندر»[٩] الذين يقفون عند باب الحاكم ينفّذون أوامره، يعمل على أن يتصرّف الناس بلباقة أثناء مقابلات السلطان في دار العامة.

كان ولي العهد يشترك عن كثب في ممارسة السلطة. كما كان حكّام الولايات الهامة من أمراء الأسرة الحاكمة أو من رؤساء زناتة أو العرب، وحظي الأطلس عمليًا بالاستقلال الذاتي. وتولى إمرة القبائل الطائعة رؤساء ذوو نفوذ كانوا يختارون من بين أفراد الأسر الكبيرة المخلصة في طاعة الأسرة الحاكمة. وحصلت القبائل العربية على حق فرض الضرائب (الاقتطاع)[١٠]. وخصّ الأشراف والأولياء بنصيب من إيراد الضرائب. أما الطرق الصوفية فكانت معفاة من الضريبة.

بلغت فاس أوج مجدها في منتصف القرن الرابع عشر وما أن أصبح أبو يوسف يعقوب سيد للمغرب حتى هجر مدينة مراكش، عاصمة المرابطين المهزومين، وانتقل إلى فاس، حيث أسس عام ١٢٧٦ مدينة «فاس الجديدة» وهي مدينة إدارية عسكرية تضمّ حيًا للأمراء، وآخر يُعرف باسم «حي المسيحيين»، وثالثًا أصبح الملاح (الحي اليهودي) فيما بعد. أما اليهود الذين فضّلوا أن يسلموا بدلاً من قبول العيش في «الملاّح»، فقد ذابوا في السكان المسلمين، واشتغلوا بتجارة الجملة، ودعم كثير من اللاجئين الأندلسيين الصفوة الفكرية، والفنية، والتجارية.

ولكي يوفّر السكن، والغذاء، والتعليم للطلبة المتدفّقين على البلاد أسّس أبو يوسف، في المدينة القديمة، أولى المدارس المارينية الشهيرة التي ألحق بها ببعض الأوقاف، وبنى أربع مدارس أخرى فيما بين ١٢٢٠، ١٣٢٣، ومدرسة سادسة عام ١٣٤٦ – ١٣٤٧. وأضاف أبو عنان (١٣٥١ – ١٣٥٨) المدرسة التي تحمل اسمه.

وكانت التجارة مع أسبانيا، والبرتغال، وجنوة، والبندقية، تجارة نشطة. وكان التجار المسيحيون يتجمّعون على شكل جاليات كل منها في أحد المباني، ويخضعون لسلطة قنصل عام (Feitor كما في النصوص البرتغالية). وكان للجالية اليهودية رئيس وإدارة خاصة بها. أما المحتسب فكان يشرف على النشاط التجاري[١١].

---

(٩) «جندار (وأيضًا جاندار) كانت نوبة الجندرية، في دولة المماليك والمارنيين تحرس السلطان، سواء في القصر أم في تنقّلاته، وكان الجندرية مكلّفون بإدخال الأمراء في حضرة السلطان عندما كان يستقبلهم في مجلسه، أو لأمور خاصة بالخدمة...» (دائرة المعارف الإسلامية، (فرنسية) الطبعة القديمة، ص ١٠٤٣.

(١٠) من الصعب التعبير، في اللغات الأوروبية، عما تعنيه كلمة «اقتطاع» وعن الواقع القانوني والمالي الذي تدل عليه (أنظر في هذا الخصوص دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية) الطبعة الجديدة، ص ١١١٥ – ١١١٨. وهي تعني، في هذه الحالة بالذات، جباية الضرائب.

(١١) المحتسب: «رقيب، رسمي يعيّنه الخليفة أو وزيره، مكلّف بمراقبة تطبيق تعاليم الإسلام الدينية، واكتشاف المخالفات ومعاقبة المجرمين. وكانت وظائفه موازية لوظائف القاضي، من بعض النواحي، لكن قضاء المحتسب كان يقتصر على الأمور المتعلّقة بالمعاملات التجارية، والموازين والمقاييس الناقصة، والغش في البيع، وعدم دفع الديون...» (مأخوذ عن دائرة المعارف الإسلامية، ص ٧٥١).

وانهار ازدهار فاس الثقافي والاقتصادي بانهيار هذه الأسرة. ولم يفده قط مجيء السعديين لأن هؤلاء اختاروا مدينة مراكش عاصمة لهم التي كان قد أفل نجمها وأصبحت شبه مخرّبة ولكنهم بعثوا القوة في أوصالها من جديد، فأنعشوها.

بنو عبد الوديد

كان بنو عبد الوديد من تلمسان أقارب للمارينيين ومنافسين لهم. وكانوا هم أيضًا من البربر البدو الزناتة الذين حكموا دولة من الحضر. عاش يغمراسن (١٢٣٦ – ١٢٨٣) مؤسّس هذه الأسرة في الخيمة حتى الثلاثين، ولم يتكلّم إلاّ البربريّة. وتولّى الوزارة، في بادئ الأمر، بعض أقارب الحاكم، ثم انتقلت ابتداءً من أبي حمو الأول (١٣٠٨ – ١٣١٨) إلى صيارفة من أسرة كانت تمارس هذه المهنة في قرطبة، حصل أفرادها على بعض الأراضي التي يستغلّونها في ضواحي تلمسان. وأصبح أحد سكان «الملاح» هؤلاء وزيرًا للمالية في عهد يغموراسن. وكان المشرف على الشؤون المالية للقصر يختار من بين الفقهاء، ويتولّى شؤون القضاء والحسابات بالإضافة إلى وظيفته. واتّخذ أبو تاشفين (١٣١٨ – ١٣٣٧) الأندلسي المعتوق هلال القطالوني، حاجبًا (رئيس المراسم، أو ناظر القصر، أو الوزير الأول) له اليد العليا في مجال الإدارة.

واستخدم يغموراسن مرتزقة سبق أن خدموا الموحّدين (منهم أتراك، وأكراد ومسيحيون، لكنه استغنى عن المسيحيين بعد ١٢٥٤)، أما الجيش فكان مكوّنًا أساسًا، من بني هلال وكانت لهم امتيازات مالية هامة (الإقطاع) يجبون الضرائب ويأخذون نصيبهم منها.

وكان يغموراسن تقيًا، فبنى المآذن للمساجد الكبرى في تلمسان وأغادير. وينسب إليه إنشاء قلعة «المشوار» التي جعل منها مقرًا لإقامته. وأنشأ خلفه مسجد سيدي بالحسن (١٢٩٦)، وبنى أبو حمو الأول مدرسة ليمكّن اثنين من العلماء من نشر علمهما. وبنى ابنه مدرسة أخرى وثلاثة قصور، وشهدت تلمسان آنذاك قمة ازدهارها.

وأثناء حصار تلمسان (١٢٩٨ – ١٣٠٦)، بنى الماريني أبو يعقوب يوسف مدينة محصنة هي المنصورة، التي عاد أبو الحسن إلى احتلالها وتحصينها أثناء حصار جديد (١٣٣٥). وعظّم المرينيون، وقد سادوا على تلمسان (من ١٣٣٧ الى ١٣٤٨)، سيدي بومدين وجمّلوا ضريحه، وضمّوا إليه مسجد العبّاد ومدرسة. وأثناء الاحتلال المريني الثاني (١٣٥٢ – ١٣٥٩) أمر أبو عنان ببناء مسجد سيدي الحلوي، وهو ولي أندلسي الأصل استقرّ في تلمسان (في بداية القرن الثالث عشر)، وألحق به مدرسة وزاوية، وفي عهد حمو الثاني (١٣٥٩ – ١٣٨٩)، عاش «المشوار» أجمل ساعاته. وفي أيام المولد كانت تُقام الولائم الرائعة لكبار رجال الدولة والشعب الذين كانوا يتأمّلون بإعجاب ساعة عملاقة بشخوص إليه. وبنى أبو حمو مجموعة كبيرة من المؤسسات الدينية في المنطقة وضريحًا للأُسرة، ومدرسة وزاوية، وندين لأبي العباس (١٤٣٠ – ١٤٦١) بضريح ومسجد سيدي بالحسن (المتوفي ١٤٥٣).

ظلّت تلمسان اذن متألّقة رغم التقلبات السياسية، ولم يعرف ثراؤها الأفول أبدًا. كانت ثروات تجارها المسلمين واليهود تقوم على تجارة خارجية مزدهرة. فكانت الأقمشة المستوردة من أوروبا تُخزن بالقرب من المسجد الكبير وتباع في قيصرية. وكان لتجار جنوة والبندقية فنادقهم. وكان النشاط الحرفي مزدهرًا: المنسوجات الصوفية والسجاد والخزف والسروج، والجلود المطرّزة، الخ... وكانت السفن تمرّ

بحنين ووهران. ويبدو في النهاية، أن تلمسان قد حلّت محلّ مدينة مراكش كمحطة للتجارة الصحراوية التي شهدت نوعًا من الانتعاش في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وكان العبيد والذهب يصلون من سجلماسة إلى تلمسان عبر طريق يسيطر عليه بنو معقل.

الحفصيون

كان وضع بجاية مشابهًا لوضع تلمسان التي كانت من المراكز الرئيسية في المغرب الأوسط (الجزائر). فقد كانت بجاية ميناءً تجاريًا، وقاعدة للقراصنة، ومركزًا فكريًا ودينيًا، وأحيانًا حاضرة للدولة. كانت غابة منطقة القبائل تمدّ ترساناتها البحرية بالخشب والقار. وتألّف سكانها من «القبائل» والأندلسيين، بالإضافة إلى الأجانب عابري السبيل، والضيوف الوافدين من حين لآخر، فضلاً عن طائفة يهودية، وبعض المسيحيين. ولم تكن بها مدرسة أو زاوية، فيما يبدو، في حين كانت قسنطينية – وهي مدينة لها نفس الأهمية – تضمّ كثيرًا منها. وكانت تسكن هذه الأخيرة جالية يهودية كبيرة العدد وبورجوازية ثرية قديمة.

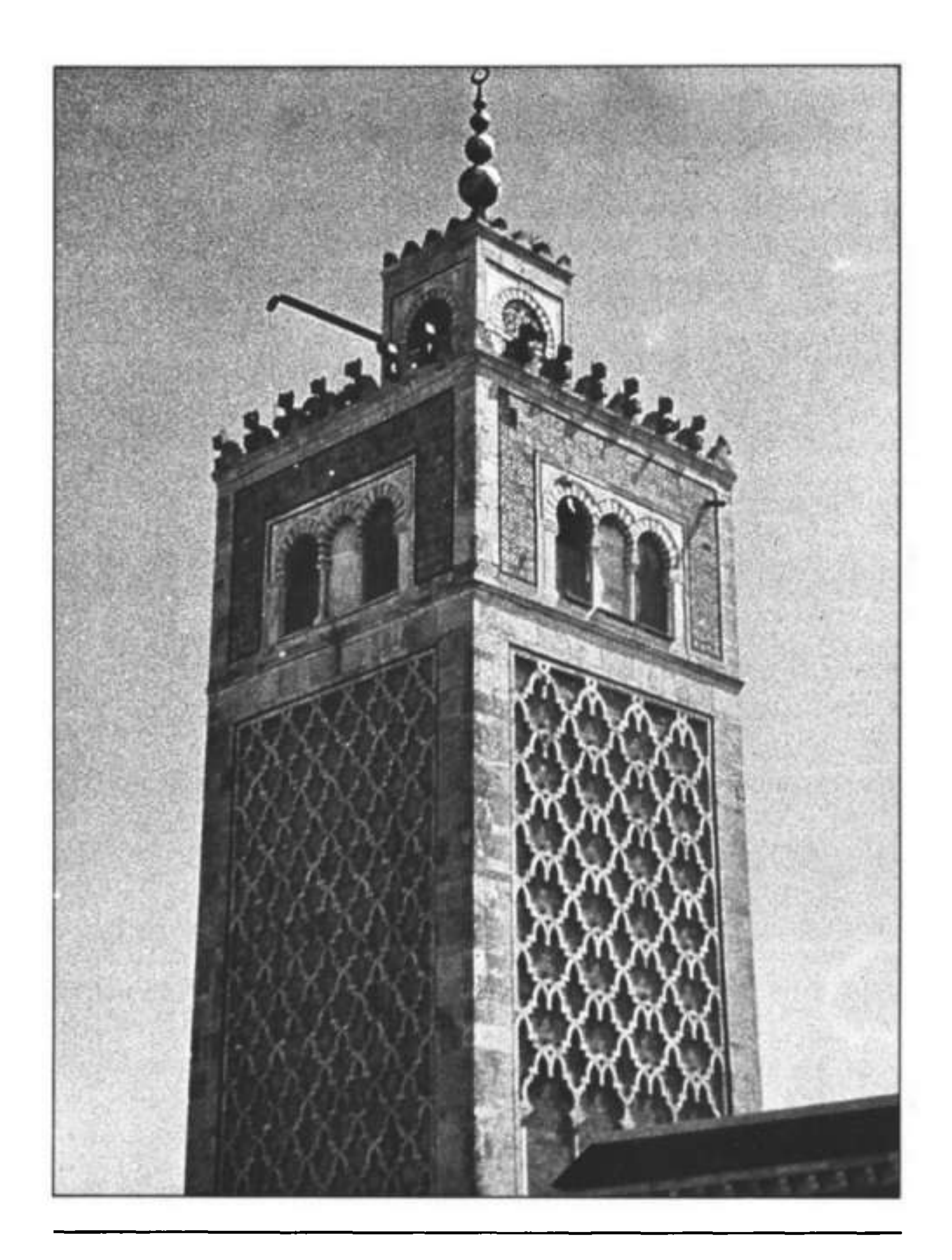
وكفل الحفصيون، استمرار نظام الموحدين في أفريقية (تونس). فكان عشيرهم يأتمر بأمر واحد منهم يُلقَّب «مزوار القرابة». وكان الذين يشتركون في ممارسة السلطة، وهم حكام الأقاليم أساسًا، يحملون لقب أمير. أما أبناؤهم الذين تجري تنشئتهم في البلاط مع أبناء السلطان وكبار رجال الحاشية فكانوا يكوّنون فئة «الصبيان» التي تحظى تربيتها بالعناية. ومن بين خدم القصر، يلعب العبيد المسيحيون الذين أسلموا وأُعتقوا دورًا متزايد الأهمية في القيادات العليا العسكرية والمدنية. ويتولى خصيّ وظيفة «القهرمان» في القصر. وتضمّ عصبة الشيوخ الموحدين – التي تشكّل الأرستقراطية العسكرية – أولئك الذين ينحدرون من قبائل الموحدين الأولين، وعلى رأس كل منها «مزوار»[١٢]. وتأتمر جميعها بأمر شيخ الموحّدين المعين لمدى الحياة، والذي كان من أقوى من تعتمد عليهم الدولة نفوذًا، وينقسم «الشيوخ الكبار» إلى: مجموعة الثلاثة، ومجموعة العشرة، ومجموعة الخمسين[١٣]. ويشترك صغار الشيوخ في الاحتفالات، ووفقًا لمفهوم المساواة عند الموحّدين، كان كل شيخ يتقاضى نفس الراتب، بما فيهم السلطان، وكانوا يتمتعون، علاوة على ذلك، بامتيازات عقارية ورواتب سنوية، مادية وعينية. وأخذ نفوذ الموحّدين يتضاءل شيئًا فشيئًا، لصالح الأندلسيين والموالي، وإن شهد هذا النفوذ فترات بعث ساطعة. ويتكوّن المجلس (الشوري) من الموحّدين الذين سرعان ما انضمّت إليهم شخصيات أخرى. وكان الخليفة يعقد عديدًا من الجلسات العامة والخاصة ويعقد كل أسبوع مجلس فقهاء العاصمة وقضاتها ومفتيها، ويتولى شخصيًا ردّ المظالم.

في الفترة التي كانوا فيها مجرد ولاة في ظل الموحدين، كان للحفصيين كاتب أشبه برئيس للوزراء. فكان لأبي زكريا ثلاثة وزراء (١٢٢٨ – ١٢٤٩): وزير للعسكر، وهو شيخ كبير من الموحدين، بل شيخ الموحّدين، الذي يقوم بوظيفة رئيس الوزراء، ووزير المال، ووزير القضاء. وفي نهاية القرن الثالث

---

(١٢) مزوار: «ظهرت كلمة مزوار أو مزور في وقت مبكر في التاريخ المغربي، في معرض الحديث عن مؤسسات الموحّدين، حيث كانت تدل على رئيس الديوان ويبدو أن هذه الوظيفة اختلطت في كثير من الأحيان بوظيفة الحافظ أو المحتسب، في تلك الفترة...» (دائرة المعارف الإسلامية (فرنسية) الطبعة القديمة، المجلّد الثالث، ص ٦١٦)

(١٣) عن أصل هذه المجموعات المختلفة، أنظر إسهام ع. السعيدي، الفصل ٢ من هذا المجلّد.



• مسجد القصبة في تونس

عشر ، ظهرت وظيفة الحاجب وهي أساسًا تتعلّق بالشؤون الداخلية للقصر وأصلها أسباني . وكان يشغلها أندلسيون ظلّ نفوذهم في ازدياد مستمر ، وفي القرن الرابع عشر ، أصبح الحاجب رئيسًا للوزراء . وكان الحاجب ابن طفرجين (١٣٥٠ - ١٣٦٤) دكتاتورًا ، وبقي اللقب من بعده ، ولكن الوظيفة أصبحت فخرية . كان وزير المال يختار في البداية من بين الشيوخ الموحّدين ثم أصبح يختار من بين الموظفين أو الأندلسيين . وابتداءً من أبي فارس (نهاية القرن الرابع عشر ، وبداية القرن الخامس عشر) ، أصبح «للمنفذ» الذي ينظّم مصروفات البلاط اليد العليا في الشؤون المالية . وبعد زوال شيخ الموحّدين والحاجب (عام ١٤٦٢) ، احتلّ المنفّذ المركز الأول في سلم الموظفين ، بينما تدهورت مكانة وزير المالية فأصبح مجرّد أمين للخزانة . وبذا تمكّن المزوار ، وهو المسؤول عن إدارة القصر ، والحاجب ورئيس الحرس والخدم (نهاية القرن الخامس عشر) من الإشراف على إدارة الجيش واحتلال المرتبة الثانية بعد المنفّذ . واستعيض تدريجيًا عن الكتبة ، وأغلبهم من الأندلسيين ، بعناصر من افريقيا .

وفي بادئ الأمر ، كان الشيوخ الموحّدون يحتلّون مركز الولاة في الأقاليم ، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حلّ محلّهم موظفون من الموالي يُطلق عليهم «القوّاد» ، واختار الحفصيون الولاة الرئيسيين من بين أقاربهم ، وأبنائهم خاصة ولا سيما الابن الأكبر الذي كان يتدرّب بهذه الطريقة على الحكم ؛ وكانوا يعيّنون إلى جانبهم معاونًا سمي أولاً كاتبًا ثم حاجبًا فيما بعد . وكان شيوخ القبائل الذين يختارون من بين أفراد أسرة أو عشيرة تحتلّ مكان الصدارة يعيّنون من قبل السلطان ، ويقودون الجند من قبيلتهم ، وهم يجبون الضرائب للخزانة ، ويتمتّعون بامتيازات عقارية ومالية .

كان الجيش غير متجانس ومكوّنًا من الموحّدين ، والعرب الرحّل ، وبربر المغرب أو افريقية ، وبعض الشرقيين والأندلسيين والافرنج المسيحيين ؛ كانت قوة الموحّدين لا تذكر بالقياس إلى قوة عرب افريقية الذي كان لهم وزن كبير . ونلاحظ وجود جند للمدن ، وجند أندلسيين ، ومرتزقة تركمان ، وحرس من الفرسان المسيحيين . وكان هؤلاء الفرسان القادمين من أسبانيا أو ايطاليا يكوّنون الحرس السلطاني ، ويؤدّون شعائر دينهم ، ويسكنون احدى ضواحي العاصمة . علاوة على أن بعض المسيحيين الذين أسلموا وأغلبهم عبيدًا اعتقوا ، كانوا يكوّنون عنصرًا عسكريًا متينًا . وكثيرًا ما كان القادة من الموالي أو المرتدّين . وكانت القرصنة تلعب دورًا كبيرًا ، فكان رجال الأعمال أو الحكومة هم الذين يجهّزون السفن .

ونظرًا لاهتمامات الحفصيين البحرية ، فلم يفكّروا في العودة إلى القيروان ، عاصمة افريقية القديمة التي تحوّلت نتيجة لغزو بني هلال لها إلى كم مهمل . وذاب سكان المدينة القدامى ، وكأن تدفّق البدو الذي غمر السهول قد أغرقهم .

وشهدت صناعاتها الحرفية بعض النشاط بفضل منتجات البدو الرعاة . وأُنشئت فيها زوايا عديدة .

كانت مدينة تونس حاضرة مزدهرة . أدخل أبو زكريا بعض التعديلات على قصبة الموحّدين وجعل منها مدينة حكومية صغيرة . وبنى (عام ١٢٤٠ تقريبًا) بجانب جامع الزيتونة الكبير مدرسة السماعية ، وهي أقدم مدرسة في شمال أفريقيا . وابتداءً من القرن الخامس عشر ، أنشأ بعض الأمراء والأميرات زهاء عشر مدارس أخرى . وتعدّدت الزوايا في المدينة والضواحي . وفي حي البحرية ، شُيِّدت فنادق التجار المسيحيين المتجمّعين حسب جنسياتهم . وفي الضواحي ، عني الأندلسيون بالحدائق والبساتين . وانتشرت المنتزهات ومساكن الأمراء بكثرة . وهناك شواهد على وجود قصر باردو منذ عام ١٤٢٠ .

وفي تونس ، وُلد أفضل من يمثّل عصره من الشخصيات ، ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وسنختتم هذه اللوحة السريعة بلمحات من حياته وأفكاره عن عصره .

آل ابن خلدون عرب من أصل يمني استقرّوا في اشبيلية منذ فتحها ، حيث لعبوا دورًا سياسيًا ، ثم

هاجروا بعد إعادة الفتح المسيحي لاسبانيا إلى سبتة ، ثم إلى افريقية . وخدم الجد الثالث لابن خلدون أبا زكريا في عنابة ، وكان أبو جده وزيرًا للمالية في عهد ابن اسحق ، وشغل جده ، على التوالي ، منصب حاجب أبي فارس في بجاية ، ورئيس وزراء أبي حفص ، ونائب حاجب أبي عصيدة ، وصاحب الحظوة عند أبي يحيى أبو بكر . أما أبوه ، فقد تفرّغ للأدب ، والفقه ، والعبادة ، ومات عندما حلّ وباء الطاعون الأكبر عام ١٣٤٩ . كان ابن خلدون آنذاك في السابعة عشر ، وكان قد تلقّى تكوينًا ثقافيًا متينًا في تونس ، وأفاد لتوه من تعليم العلماء الذين تدفّقوا إليها أثناء الغزو الماريني (١٣٤٧ – ١٣٤٩) . وفي العام التالي ، حصل من أبي اسحق الثاني على وظيفة مسؤول « العلاّمة » (التوقيع) وعندما غزا أمير قسنطينة افريقية ، فرّ إلى الغرب ، وبدأ حياة مليئة بالاضطرابات ، والتقلّبات ، والدسائس . والتحق بخدمة المريني أبي عنان في فاس ، حيث أتمّ تعليمه – لكنه تآمر وسجن عامين (١٣٥٧ – ١٣٥٨) . وأصبح كاتبًا في ديوان القضاء ومادحًا لأبي سليم ، ثم عُيِّن قاضيًا للمظالم . وبعد بعض الدسائس ، قضى بضع سنوات في غرناطة ، حيث استقبله صديقه الوزير ابن الخطيب ، ثم كُلِّف بمهمة (سفارة) في اشبيلية لدي بييرلي كرويل (١٣٦٤) . وفي العام التالي ، أصبح حاجبًا للحاكم الحفصي لبجاية الذي ما لبث أن هزمه ابن عمه حاكم قسنطينة ، الذي سلمه ابن خلدون المدينة (١٣٦٦) . وسرعان ما اضطر إلى الإلتجاء إلى العرب الدواودة ، ثم إلى بني مزني في بسكرة . واعتذر عن قبول عرض سلطان تلمسان أبي حمو الثاني الذي اقترح عليه أن يتّخذه حاجبًا ، قائلاً إنه يودّ أن ينكبّ على الدراسة والعلم . وبالفعل ، فقد أكبّ على ذلك ، لكنه لم يتخلّ مع ذلك عن السياسة : فشجّع تحالف الحفصيين في تونس وبنى عبد الوديد في تلمسان ضد الحفصيين في بجاية – ثم جنّد بعض العرب للماريني حاكم فاس . وبعد أن مني ببعض المحن في المغرب الأوسط ، وفاس ، وغرناطة ، عاد إلى تلمسان (١٣٧٥) ، حيث عهد إليه السلطان أبو حمو الثاني بمهمة يقوم بها لدى الدواودة . وانتهز ابن خلدون الفرصة لكي يختلي بنفسه فترة في قلعة ابن سلامة ، بالقرب من تيارت ، حيث أعدّ مقدمته الشهيرة على مدى أربع سنوات . ولكي يواصل العمل كان لا بدّ له من الاطّلاع على الوثائق ، فأذن له الحفصي بالعودة إلى تونس (ديسمبر ١٣٧٨) ، حيث قام بالتدريس وأكمل كتابه « التاريخ » الذي أهدى نسخة منه إلى السلطان . ودفعته مكيدة دبّرها له الفقيه ابن عرفه إلى الحج إلى بيت الله (١٣٨٢) وأمضى بقية حياته في القاهرة ، حيث قام بالتدريس وتولى منصب كبير القضاة المالكية عدة مرات . وأثناء وجوده في دمشق عندما حاصرها تيمورلنك ، أتيحت له ، قبل وفاته ببضع سنوات ، فرصة الاتصال بالغازي المغولي . لكن مؤلّفات ابن خلدون تستمدّ مادتها من تجربته المغربية التي استخلص منها تعاليم عبقرية تتسم بالأصالة المذهلة .

« ومقدمته » ثمرة أعمال رجل في عقده الخامس لفكر معجز فيما رآه وقام به . وبكتابته هذا البحث في أصول المعرفة التاريخية ، كان ابن خلدون يدرك أنه يرسي قواعد « علم جديد » هو تاريخ الحضارة . وكان يريد فهم وتفسير الوقائع التي تخضع لقوانين وأن يعد فلسفة للتاريخ . فأخذ بفكرتين أساسيتين : هما نوع الحياة والقبلية ، ففرّق بين الحياة البدوية البدائية وحياة الحضر المتحضرة . فالأولى تقوم أساسًا على القبلية وشعور الانتماء الجماعة (عصبية) ، الذي يعدّ قوة حية تقيم الأمبراطوريات الجديدة وتهدّد الدول القائمة باستمرار . أما الثانية ، فتزدهر ، ثم تذبل وتزول في النهاية تحت ضربات قوة بدوية جديدة . ورأى ابن خلدون أن آثار حكم بني هلال والطاعون الأكبر قد أحدثت تغييرات عميقة في حياة المغرب الإسلامي كله لدرجة جعلته يتحدّث عن « عالم جديد » . وهذا تطوّر دوري يقوم على طبيعة الأشياء التي لاحظها المفكّر أكثر من كون هذا التطور وليد تفاؤل أو تشاؤم : والأمر كذلك بالنسبة لنظريته عن السيادة التي لا تستمر إلاّ أربعة أجيال .

إن ما يلفت النظر في فكر ابن خلدون هو واقعيته ، ورفضه للآراء المسبقة وحتميته العلمية أي باختصار حداثته . وهو ما يفسّر اعتبار فيلسوف التاريخ العبقري هذا رائد التاريخ الشامل ، والاقتصاد الاجتماعي ، بل وعلم الاجتماع الحديث والمادية التاريخية . وإن كنا نجد في مؤلّفاته ، من ناحية أخرى ، كثيرًا من سمات عصره وبيئته . وان محاولة تفسير هذا العمل الضخم على نحو ينطوي على الخلط بين العصور إن هي إلاّ إثم لا يُغتفر . فلقد ُبني برصانة فائقة بفضل التوازن المستمر بين الواقعية ، ثمرة الملاحظة ، والعقلانية التي تفسّر القوانين الحتمية وتستنبطها .

أما كتابه عن التاريخ الشامل «كتاب العبر» ، فإن لم يكن تطبيقًا للمنهج الذي نادى به في «مقدمته لمنهج التاريخ» فهو ، خلافًا للحوليات العربية الإسلامية التقليدية ، يدرس على التوالي القبائل العربية وأسرها الحاكمة ، ثم تاريخ البربر وممالكهم . كما يعدّ هذا الكتاب المرجع الأساسي للمعلومات عن الفترة المعاصرة للمؤلّف .

الفصل السادس

مالي والتوسّع الثاني للماندانغ

بقلم جبريل ت. نياني

يشمل شعب الماندانغ عدة جماعات فرعية متفرّقة في سائر أنحاء المنطقة السودانية – «السهلية»، من المحيط الأطلسي إلى بلاد آئير مع تغلغلها داخل غابات خليج بنين. وكانت مناطق استيطان الماندانغ في بداية القرن الثاني عشر أقل اتساعًا. وفي الوقت الذي بلغت فيه غانا ذروة مجدها، في نهاية القرن الحادي عشر كانت هناك ثلاث مجموعات كبرى هي: قبائل السوننكة أو ساركوليه، مؤسسة غانا، وهي تعمُر أساسًا مقاطعات واغادو (أوكر) وباخونو وكنياغا. ويليهم جنوبًا في سفوح جبال كوليكورو، قبائل الصوصو وعاصمتهم مدينة صوصو، وإلى الجنوب من هذه المنطقة تقع مواطن المالنكة وهي البلاد المسماة ببلاد الماندي أو مندان بأعالي حوض النيجر بين كنغابا وسيغيري. وكانت قبائل السوننكة، التي تسمى أيضًا ماراكا أو واكوريه (ونغارا)[1]، هي التي أسّست امبراطورية غانا التي كانت أول مظهر للتوسّع المنادانغي[2]. وفي الوقت الذي تداعت فيه الأمبراطورية تحت هجمات المرابطين المتكرّرة، كانت قبائل السوننكة قد تجاوزت بكثير بلاد واغادوا موطنها الأصلي، فاختلطت بسكان ضفاف نهر النيجر فأنشأت مستوطنات جديدة. ويُحتمل أن يكون البحث عن الذهب قد أدى بها إلى المضي مسافات بعيدة جدًا حتى بلغت حافة الغابات في الجنوب ويُعتقد عمومًا أن مدينة جينيه التي بلغت أوج ازدهارها في القرن الخامس عشر – قد أسّسها تجار من السوننكة ومن المحتمل أن يكون ذلك قبل قدوم العرب بكثير.

يجدر بهذه المناسبة أن نتعرّض بإيجاز لتطور جينيه؛ فمنذ بضع سنوات، توافر لنا قدر أكبر من

(١) تُطلق كلمة ونغارا أو أنغارا عند الفولبي والهوسا على المندان. ولكلمة ونغارا أو واكوريه نفس الأصل على الرغم من أن واكوريه تنطبق بصورة أخص على قبائل سوننكة أو ساراكوليه. وكان الماندانغ يعرفون في الغابة العاجية بعبارة ديولا التي تعني في لغة المالنكة: تاجر. وكلمتا ونغارا وديولا مترادفتان وتُطلقان بصورة أخص على المندان الذين يتعاطون التجارة.

(٢) يخبرنا م. كاتي (١٩٦٤) أن «أمبراطورية مالي لم تتكوّن في الواقع إلاّ بعد سقوط سلالة كاياماغا التي كان نفوذها يشمل كامل المنطقة الغربية دون استثناء أية منطقة».

المعلومات عن مدينة جينيه وضواحيها. وقد توصل علماء الآثار إلى موقع المدينة القديم المسمى «جيني - جينو». وتثبت النتائج التي توصّلوا إليها، أن التطور الذي شهدته المدينة لم يكن نتيجة للتجارة عبر الصحراء الكبرى التي تعاطاها العرب ابتداءً من القرنين التاسع والعاشر. وفي الواقع، فإن أقدم تواجد بشري في «جيني - جينو» يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وكانوا يمارسون الزراعة وتربية المواشي وكذلك الحدادة[٣]. وباستثناء نيجيريا (مرتفع بوشي)، فإن مدينة جيني - جينو القديمة هي المكان الوحيد في الغرب الافريقي الذي قامت به صناعة تعدين في ذلك التاريخ.

ومنذ القرن الأول بعد الميلاد كان الأرز يُزرع في هذه المنطقة؛ ومن ثم فإن زراعة الأرز الافريقي من الصنف المعروف باسم (اوريزا غلابريما) ترجع إلى القرن الأول على الأقل وهو ما يفند نهائيًا آراء المدافعين عن نظرية الأصل الآسيوي للأرز. وحوالى القرن الثاني كانت جيني - جينو، مدينة كبرى تتبعها قرى زراعية صغيرة. وكانت على اتّصال بالقرى الكبرى المتناثرة على طول نهر النيجر وروافده، نهر باني[٤]. ونحو سنة ٥٠٠ ميلادية، كانت توجد تجارة عابرة للصحراء، إذ عُثر في جيني - جينو على مصنوعات من النحاس يرجع تاريخها إلى تلك الفترة، ولا يمكن أن يكون مصدر هذا النحاس غير المناجم الصحراوية في تاكيدّة. وبلغت المدينة. نحو ذلك التاريخ أكبر مساحة لها، وقدرها ٣٤ هكتارًا، كما تبيّن حفائر ١٩٧٧ أن ضواحي جينيه كانت مزدحمة بالسكان.

فمتى ولِمَ بارح السكان جيني - جينو واستقرّوا في جينيه؟ من المحتمل أن تكون النواة الإسلامية والتجارية بالمدينة القديمة قد فضّلت المقام بعيدًا عن الجماهير العريضة التي بقيت على وثنيتها. وكانت جينيه نحو سنة ٨٠٠ للميلاد قد أصبحت مدينة هامة جدًا ومركزًا تجاريًا له صلات ببلدان منطقة السفانا و«السهل». وكانت جينيه، على غرار ايغبو - ايكوو الواقعة عند مصب نهر النيجر، مستوردًا هامًا للنحاس الذي كانت تقايضه في الجنوب بالذهب والكولا والعاج[٥].

إن الأدوات النحاسية التي عُثر عليها في جينيه وايغبو - ايكوو، والتي يرجع عهدها إلى ما قبل القرن الثامن، تدل على أن دور العرب قد اقتصر على توسيع نطاق التجارة عبر الصحراء. فاستعداد أقوام الونغارا أو جيولا للتجارة كان سابقًا لمجيء العرب.

وقد مكّنت الحرب والتجارة الونغارا من توسيع نفوذها إلى حد بعيد في كل الاتجاهات.

وبدأت، بعد سقوط كومبي في نهاية القرن الحادي عشر، فترة غير معروفة جيدًا. وليس لنا عن الفترة الواقعة بين استيلاء المرابطين على كومبي نحو ١٠٧٦ وانتصار سونجاتا سنة ١٢٣٥، تاريخ مولد مالي إلاّ القليل من المصادر المكتوبة عن السودان الغربي. ويوافق التوسّع الثاني للماندانغ بروز مالي. وقد نقلت عشائر المالنكه، التي انطلقت من أعالي النيجر، الحرب إلى المحيط الأطلسي غربًا واستقرّت في سينيغمبيا. وأدخل التجار المندانغ الإسلام - في القرن الرابع عشر - إلى بلاد الهاوسا واتّجهوا جنوبًا فتوغّلوا داخل منطقة الغابات حيث كانوا يشترون جوز الكولا الثمين والذهب من الشعوب التي لم تبلغها دعوة الإسلام. وقد حقّق الماندانغ توسّعهم هذا بالطرق السلمية والحربية معًا.

فقد كان هذا التوسّع سلميًا في بلاد الهاوسا ونحو الجنوب إذ تمّ على أيدي التجار والأولياء المسلمين

(٣) أنظر ر. ج. ماكنتوش، وس. ك. ماكنتوش، في «مجلة تاريخ أفريقيا»، ١٩٨١، المجلّد ٢٢، عدد ١.

(٤) أكّد علم الآثار ما جاء في تأريخ السودان من أن منطقة جينيه كانت عامرة وقراها متقاربة إلى درجة أن أوامر الملك كانت تبلّغ من فوق الأسوار وينقلها المنادي بهذه الطريقة من قرية إلى أخرى. وكانت التربة الغرينية التي يرسبها النهران كثيرة الخصوبة وتصلح لزراعة الأرز.

(٥) أنظر الفصل ١٤ من هذا المجلّد: ايغبو - ايكوو.

بينما كان هذا التوسّع في الغرب، في سينيغمبيا حربيًا أول الأمر. وتوافد الغزاة والأولياء والتجار إثر ذلك بأعداد كبيرة وأصبحت المقاطعات الغربية امتدادًا لبلاد مندية القديمة.

وبدأ تدهور امبراطورية الماندانغ في القرن الخامس عشر، ولكن التوسّع استمرّ خاصة في اتجاه الجنوب حيث أسّست قبائل المالنكه عدة مراكز تجارية كان أهمها مركز بيغو، في بلاد برون أو أكان، الغنية بالذهب.

وسنعمل في هذه الدراسة على تحديد بداية هذا التوسّع وازدياده في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وسنحاول أيضًا استخلاص الملامح الأساسية لحضارة الماندانغ. إلاّ أنه يتعيّن أولاً توضيح مسألتين:

فكيف كانت أوضاع السودان الغربي في بداية القرن الثاني عشر؟ وماذا حدث لشعوب المنطقة وممالكها بعد سقوط كومبي؟

مملكة السودان الغربي وأقاليمها في القرن الثاني عشر

استولى المرابطون على كومبي، عاصمة غانا، نحو سنة ١٠٧٦. ونحن لا نعرف جيدًا تاريخ السودان في القرن الثاني عشر، فبعد المعلومات الثمينة التي أمدّنا بها البكري نحو سنة ١٠٦٨. لم يتسنَّ الحصول على معلومات أخرى إلاّ في عام ١١٥٤، من الجغرافي الإدريسي.

إلاّ أنه منذ استقلال دول غرب افريقيا، وبفضل تدوين الروايات الشفوية، بدأنا نعرف تاريخ غانا الداخلي بعد سقوط كومبي[٦]. فالمؤلّفات التاريخية السودانية في القرن الثاني عشر القائمة على الروايات الشفوية، تلقي الضوء على مراحل هامة من تاريخ السودان الغربي عمومًا.

يُضاف إلى هذه المصادر إسهام علم الآثار في هذا المجال إسهامًا متزايد الأهمية. فمنذ عقدين يجري التنقيب في موقع كل من مدن كومبي واوداغوست ونياني، والحصيلة وافرة وهي تؤكّد الكثير من معطيات الرواية الشفوية[٧].

التكرور

كانت أهم الأقاليم، مثل مندية والتكرور، قد انفصلت وتحرّرت من هيمنة غانا منذ أواسط القرن الحادي عشر[٨]. وقد ساهم ورد جابي، ملك التكرور، الذي اعتنق الإسلام، مساهمة نشيطة في الجهاد الذي أعلنه المرابطون. ثم واصل ابنه، لابي أو لابا، سياسة التحالف هذه مع المرابطين وقاتل إلى جانبهم قبائل غودالا[٩]، سنة ١٠٥٦.

وقد حلّ التكرور الذي أصبحت له السيادة على نهر السنغال والسيطرة على مناجم الذهب في

(٦) محاضرة دجيري سيلا في ندوة باماكو، التقرير الثاني، ١٩٧٥ (مؤسسة سكوا).

(٧) ج. ديفيس، وس. روبير، ١٩٧٠.

(٨) الإدريسي، ١٨٦٦، وكذلك ابن سعيد، في ج. كوك، ١٩٧٥.

(٩) كانت قبائل غودالا أو غدالا جزءًا من قبيلة صنهاجة البربرية التي كانت تسكن الصحراء.



• كومبي صالح حفريات تظهر جزءًا من مسجد بني بين القرنين العاشر والرابع عشر

غالام ، محل كومبي مؤقتًا كمركز تجاري. وذكر الإدريسي أن التكرور كانت في القرن الثاني عشر مملكة قوية لها سلطان مطلق على نهر السنغال كما ضمت مدينة باريزا ، وكان ملوكها يتحكّمون في مناجم الملح في اوليل.

وفي القرن الثاني عشر أصبحت معرفة العرب ببلاد التكرور تفوق معرفتهم بسواها من بلاد السودان عدا غانا. ويبدو أن تجارها قد بزّوا تجار غانا الذين عاقتهم الحرب الأهلية التي ألحقت الدمار بأقاليم واغادو وباخونو وكنياغا وميما التابعة لقبائل السوننكة. وكان نهر السنغال ، الصالح للملاحة حتى غونديورو (منطقة كايس) ، طريقًا مناسبًا للتغلغل سلكها التجار التكاررة أو التوكولور إلى ما بعد باريزا لمقايضة ملح أوليل بالذهب[١٠].

ويزداد وضوحًا أن التكرور بلغت أوج ازدهارها فيما بين نهاية القرن الحادي عشر وأواسط القرن الثاني عشر. وقد لعبت ، قبل بروز صوصو ومالي ، دورًا اقتصاديًا من الدرجة الأولى. ولذا فلا غرو أن أطلق العرب اسم التكرور على السودان الغربي بأسره.

وكان تجار المغرب من العرب والبربر يؤمون مدن سنغانا ، وتكرور ، وسيلا. ولم تنقطع تجارة الذهب بسقوط كومبي بل شغلت تكرور ، على العكس من ذلك ، الفراغ الذي تركته كومبي[١١]. وكانت مدينة تكرور التي وصفها البكري مصرًا كبيرًا يضم ، مثل كومبي ، حيًا من المغاربة العرب – البربر. إلاّ أنها اكتفت بإشعاعها في نطاق حوض السنغال ولم تشترك في الصراع على النفوذ الذي دار بين قبائل السوننكة والمالنكه من جهة وبين قبائل الصوصو من جهة أخرى.

الصنغي

لم تبسط غانا هيمنتها على الصنغي ، وقد أقامت هذه المملكة العريقة في وقت مبكر جدًا علاقات مع المغرب العربي. واستقدم ملوكها الذين اعتنقوا الإسلام نحو سنة ١٠١٠ مثقفين وتجارًا من المغاربة العرب والبربر[١٢] ، إلى كوكيه وغاو. ولم تصعّد قبائل الصنغي في نهر النيجر إلاّ في أواخر القرن الحادي عشر وكان ذلك من كوكيه في دندي لاحتلال منعطف النيجر. وقد نقلوا عاصمتهم من كوكيه إلى غاو. ونحو سنة ١١٠٠ (نهاية القرن الخامس للهجرة) أسّس الطوارق المغشران ، تومبكتو. وكانوا يقصدون هذه البقاع بحثًا عن المرعى لمواشيهم... وكان المسافرون القادمون بالطريق البري أو النهري يلتقون هناك أول الأمر[١٣].

(١٠) الإدريسي ، ١٨٦٦ ؛ أنظر أيضًا ابن سعيد ، في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠١ – ٢٠٥.

(١١) يذكر البكري والإدريسي وابن سعيد مدن تكرور. لكن لم يتم القيام بأي عمل يُذكر لتحديد مواقع هذه المدن التي توارت تحت رمال الصحراء أو دمّرتها الحروب. وترجمة كتاب البكري قديمة جدًا. ويمكن ، بإعادة النظر فيها اليوم ، أن نقوم بقراءة جيدة لأسماء الأماكن والإعلام. ولم يتسنَّ إلى الآن تحديد مواقع مدن سنغانا وتكرور وباريز على طول نهر السنغال.

(١٢) أنظر المجلّد الثالث ، الفصل ٣ ، أسلم الملك زا – كوزوا سنة ١٠١٠ ؛ أنظر السعدي ، ص ٥. يذكر البكري كوغا أو غاو التي كان سكانها مسلمين... وكانت معظم السلع التي جلبها إلى هذه المدينة تتمثّل في الملح والودع (نوع من الأصداف استعملت نقدًا) والنحاس والفربيون (نبات)، طبعة ١٩٧٥ ، ص ٣٦٥.

(١٣) السعدي ، ١٩٦٤ ، ص ٣٦ – ٣٧.

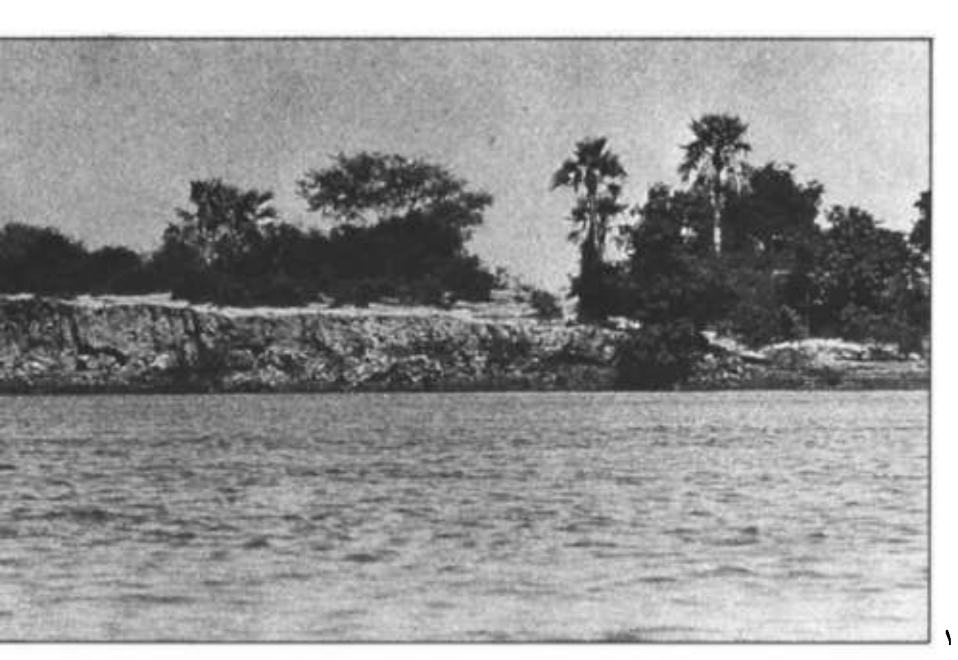




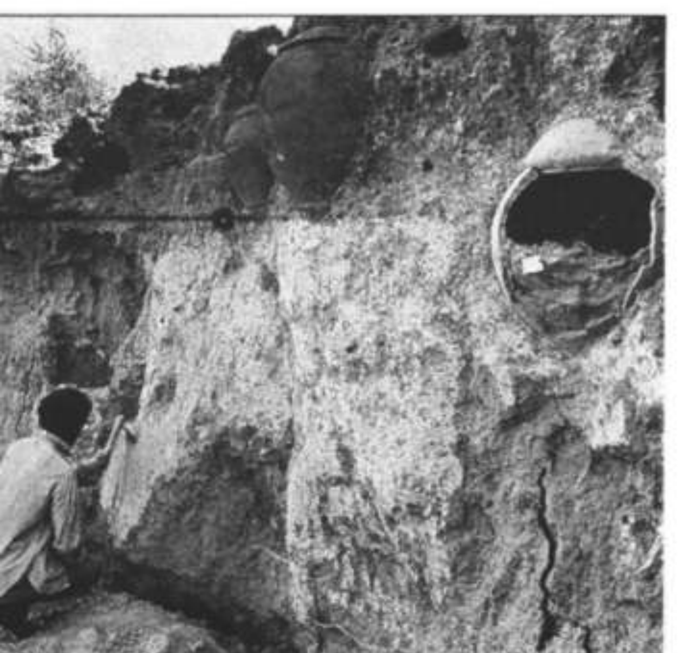
٤



٣



١



٢

١. توغيري غاليا. منظر عام للربوة التي يقطعها نهر الباني مصورة من ناحية الغرب

٢. توغيري غاليا. حفائر تظهر ثلاثة قدور جنائزية في مكانها بعد الحقبة الثانية (١٦٠٠ - ؟).

٣. توغيري دويويل مقطع «جـ» وبه قدر جنائزية في مكانها. والغطاء مقفل بحزام من الطمى. الحقبة الأولى (القرن ١٣-١٤؟)

٤. توغيري دويويل مقطع «جـ» وبه قدر جنائزية في مكانها. وبها هيكل شخص بالغ يظن أنه ذكر في وضع القرفصاء (القرن ١٣-١٤؟).

ثم لم يلبث الصنغي أن استقرّوا على طول منعطف النهر. وقد جعل تواجدهم في تمبوكتو من هذه المدينة الجديدة ملتقىً تجاريًا هامًا. وكان ملوك غاو يريدون أيضًا القيام بدور سياسي في المنطقة. وهو ما يُستفاد من تقدّمهم داخل دلتا النيجر. إلاّ أن عهد عظمة ملوك غاو لم يكن قد حان بعد.

أقاليم سوننكة

أدى الاستيلاء على كومبي إلى نشوب سلسلة من الحروب كما أدى إلى حركات هجرة في صفوف السوننكة. وكانت كومبي، قبل سقوطها في أيدي المرابطين، تأوي تجارًا كثيرين اعتنقوا الإسلام. وأشار البكري إلى اعتناق أحد أقرباء الملك الديانة الجديدة بقوله: «كانت مدينة ألوكان في حكم ملك يدعى كانمر، ابن بيسي (الملك) ويُقال إنه مسلم وانه يخفي دينه[١٤]. ولا ننسى أنه كانت لغانا منذ القرن الثامن علاقات تجارية مع بلاد المغرب. وكان بعض المغاربة المسلمين يشغلون وظائف سامية[١٥] في البلاط، ولكن معظم السكان ظلّوا على وفائهم لدين الأجداد. وحدثت مجابهات غامضة بين الأقاليم، وكذلك بين العشائر داخل الأقاليم.

وقد مزّقت الحروب الأهلية اقليم واغادو الأوسط، وهربت بعض جماعات السوننكة التي بقيت وفية لمعتقداتها القديمة، واستقرّت بمقاطعة ميما[١٦]. كما حدثت مجابهات مماثلة بين سكان كنياغا. وقد أشار إليها محمود الكتبي بقوله: «كان ببلاد كانياغا مدينة هامة وعتيقة أُنشئت قبل ديارا، وكانت بمثابة عاصمة للبلاد. واسمها سن دمبا. وكانت أبرز مدن قوم ديافونو الذين يسمون ديافونوكيه». وترجع هذه المدينة إلى عهد أسرة (كاياماغا) وقد أصابها الدمار عند سقوط هذه الأسرة أثناء فترة الاضطرابات التي أعقبت هذا السقوط. ولم تُشيَّد ديارا إلاّ بعد تدمير امبراطورية الكاياماغا. وهاجر قسم من سكان الأمبراطورية إلى كوساتا وهم من سموا الكوسا. وقصد الآخرون ديارا حيث هزمهم الكانياغا فارين الذي استولى على مملكتهم وأخضع العرب الذين كانوا يشكّلون جزءًا منها حتى فوتوتي، في تيشيت وتاكاناكا[١٧]. واشتركت مملكة ديارا في الصراع من أجل الهيمنة واصطدمت بقبائل الصوصو التي كانت في عز توسّعها.

هيمنة الصوصو

كانت قصيرة الأمد وانحصرت فيما بين ١١٨٠ و١٢٣٠. وفي نهاية القرن الثاني عشر حارب شعب الصوصو المسلمين، في ظل حكم أسرة كانتيه.

---

(١٤) البكري، ١٩٦٥، ص ٣٣٥.
(١٥) أنظر المجلّد الثالث، الفصل ٣.
(١٦) ن. لفتزيون، ١٩٧٣، ص ٤٦ – ٤٩؛ ش. مونتاي، ١٩٢٩، ص ٨٥٣.
(١٧) م. كاتي، ص ٧٠ – ٧١؛ ك. مياسو، ١٩٦٧، ص ٩ حول الكوسا.

قبائل الصوصو

تشكّل فرعًا من مجموعة المالنكة، وتذهب الروايات إلى أن عاصمتها – صوصو – تقع في منطقة كوليكورو، في الجبال (على بعد ٨٠ كلم شمال باماكو)[١٨]. ولكن لم تجر حتى الآن بحوث في هذه المنطقة للتعرّف على الآثار فيها، كما حدث بالنسبة لغانا ومالي. ولم تكن قبائل الصوصو، في الواقع سوى عشيرة من المالنكة متخصصة في صناعة الحديد. وقد أبدت هذه العشيرة من الحدادين، منذ أواسط القرن الثالث عشر، تصميمًا قويًا على صد الإسلام وعلى فرض نفوذها على المجال الإقليمي السوننكي[١٩]. وتروي الأساطير أن عشيرة الدياريسو استقلت عن غانا وذلك قبل سقوط كومبي. وقد تفوّقت قبائل الكانته على مملكة صوصو وكانياغا وأسّست أسرة حاكمة. ووحّد ملك الصوصو كيموكو، في أواخر القرن الثاني عشر، اقليمي كانياغا وصوصو في مملكة واحدة، وخلفه على العرش ابنه سوماورو (أو سومنغورو) كانته الذي واصل فتوحه.

سوماورو كانته

ونتبع هنا ما جاء في الروايات الشفوية للماندانغ في سرد أعمال سوماورو كانته الحربية، الذي تولى الحكم فيما بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٢٣٥[٢٠]. ووفقًا لهذه الروايات فان سوماورو، بعد أن أخضع مقاطعات السوننكة، هاجم بلاد الماندي التي أبدى ملوكها مقاومة شديدة، كما «حطّم»، أي نهب مندية تسع مرات. وفي كل مرة يعيد المالنكة بناء قواتهم ثم يهاجمون[٢١]. وبعد وفاة الملك ناريه فاماغان رأى ابنه الأكبر، مانسا دنكران تومان، أن من الحكمة التفاهم مع سوماورو. ولتأكيد هذا الولاء زوّج أخته، الأميرة نانا تريبان، من ملك صوصو الذي امتدّ سلطانه إلى كل المقاطعات التي كانت خاضعة قديمًا لحكم غانا، باستثناء مندية. وتؤكّد الروايات الشفوية، كلها، قسوة سوماورو الذي بث الرعب في مندية، إلى درجة أن الرجال لم يعودوا يتجرّؤون على عقد مجالس للحديث، خشية أن تنقل الريح أقوالهم إلى مسامع الملك. وكان لسوماورو مهابة في نفوس السكان لقوته العسكرية وقدرته السحرية على حد السواء، إذ كان مرهوب الجانب بوصفه الساحر الكبير. وكان يسمى الملك الساحر[٢٢]. ويُنسب إليه

(١٨) إن المدينة هي التي أعطت اسمها للشعب. وكانت قبائل الصوصو فرعًا من المالنكة، ويأتي الفرق الوحيد من كون المالنكة وملوكهم يساندون الإسلام في حين تميّز الصوصو بعدائهم للدين الجديد وتمسّكهم بتقاليد الأجداد.

(١٩) ن. لفتزيون، ١٩٧٣، ص ٥١.

(٢٠) حوليات وقائع مالي أعدّها موريس ديلافوس، انطلاقًا من مدد الحكم التي حدّدها ابن خلدون. ويتعلّق الأمر بتاريخ تقريبي تنتهي مدته المحتملة مع بداية حكم الملك ماغا الثالث سنة ١٣٩٠ وهو حكم ذكره ابن خلدون الذي فرغ بعد هذا التاريخ بقليل من تأليف تاريخ البربر.

(٢١) بخصوص أسطورة سوماورو، أنظر م. ديلافوس، ١٩١٣؛ ش. مونتاي، ١٩٢٩؛ د. ت. نياني، ١٩٦٠؛ ندوة باماكو، مؤسسة سكوا، ١٩٧٦؛ ج. اينس، ١٩٧٤.

(٢٢) أنظر ندوة باماكو (١٩٧٥). تقول إحدى الروايات التي استقاها (بحّاثو) مؤسسة سكوا لدى وا كاميسوكو، المعروف بشاعر كيرينا، أنه لم تكن لسوماورو في بداية الأمر إلاّ نية طرد تجار سوننكة الذين كانوا يتعاطون تجارة الرقيق، من البلاد. ولكن المالنكة رفضوا مقترحات صوصو. ويتضح أنه لا يزال بالإمكان استقاء معلومات كثيرة حول هذه الفترة بدراسة المجتمعات السريّة، وجمعيات الصيادين، التي تعتبر مستودع الروايات غير الرسمية والتي تقابل روايات أحفاد العرّافين الذين كانوا في خدمة أمراء مالي.

أيضًا اختراع آلة البلافون الضابطة للإيقاع الموسيقي وآلة الدان وهي قيثارة رباعية الأوتار خاصة بشاعر الصيادين. وكشف لنا التحقيق لدى حدادي كانته وجهًا مختلفًا تمامًا لسوماورو. إذ يبدو أنه أراد إلغاء تجارة العبيد التي كان يتعاطاها السوننكة بالتواطؤ مع المالنكة. ولكن الثابت، على أي حال، أنه أبدى عداءً شديدًا للإسلام، ويُقال إنه هزم وقتل تسعة ملوك. وإزاء افتئات الملك الساحر على الحق، ثارت قبائل «ماندنكا» مرة أخرى وحثّت مانسا (الملك) دنكران تومان على تولي قيادة العمليات. ولكن ملك الماندية خشي من انتقام سوماورو، ففرّ إلى الغابات في الجنوب حيث أسّس كيسدوغو أو «مدينة السلام»، وترك المكان شاغرًا. وعند ذلك دعا المتمرّدون سونجاتا، ثاني أبناء ناره فاماغان، وكان يعيش في المهجر بمدينة ميما[٢٣]. ولكن قبل التعرّض إلى حروب الأمير الشاب وفتوحه، سنقدّم وصفًا موجزًا لمندية، نواة أمبراطورية مالي.

الماندية قبل سونجاتا

المصادر المكتوبة

كان البكري أول من أورد ذكر مالي، التي سمّاها مالل، والي مملكة دو، في القرن الحادي عشر. إذ يقول إن الزنوج العجم الذين يسمون نونغراماطا (ونغارا) تجار ينقلون التبر من ايرسني إلى كافة البلدان. وكانت قبالة هذه المدينة على الضفة الأخرى للنهر (السنغال) مملكة عظيمة تمتدّ على مسيرة ثمانية أيام ويدعى ملكها دوو (دو). ويخرج أهلها إلى القتال بالسهام. ويوجد وراء هذا البلد بلد آخر يسمى ملال يُطلق على ملكه لقب المسلماني[٢٤]. وبعد مضي قرن ذكر الادريسي هذه المعلومات نقلاً عن البكري وأضاف إليها تفصيلات جديرة بالاهتمام. فيذكر الإدريسي أنه كانت توجد جنوب باريزا (ايرسني عند البكري) بلاد أقوام لِم لِم. وكان سكان التكرور وغانا يغيرون عليها لجلب العبيد. ويذكر هذا الجغرافي العربي مدينتين: ملال ودو[٢٥] تفصل بينهما مسيرة أربعة أيام.

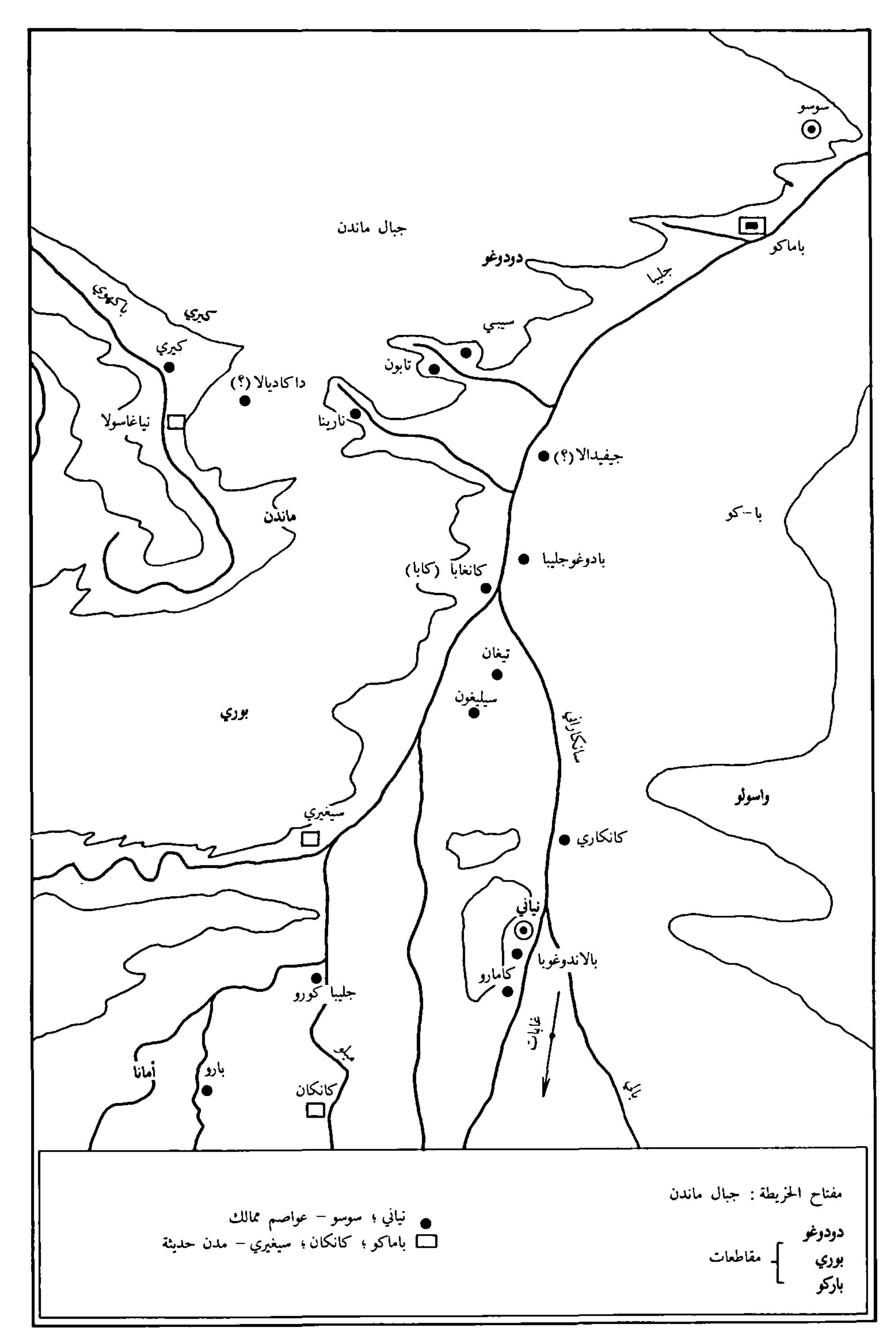
ويشير هذان المؤلفان إلى كيانين سياسيين متميزين: ملال أو مند ودو. وقد ذكر كل منهما تجار ونقارا. ويجدر بنا، كما فعل الإدريسي، ملاحظة أن سكان غانا وتكرور كانوا يشنون الغارات على الوثنيين لاتخاذ الأسرى وبيعهم رقيقًا. ويلاحظ الإدريسي، في نفس الفقرة، أن قوم لِم لِم كانوا يَشِمون وجوههم (بالغرز أو الشرط) إلاّ أنه استنادًا إلى تفاصيل جمة، فإن هذه الأوصاف تصدق على سكان أعالي النيجر – السنغال[٢٦].

(٢٣) د. ت. نياني، ١٩٦٠.

(٢٤) يصف البكري (١٩٧٥)، ص ٣٣، في نفس الفقرة ظروف اعتناق ملك مندية الإسلام على يدي ضيف مسلم كان يعيش في بلاط الملك. وفي هذه الدراسة، وتفاديًا لكل خلط، فإن مندية ستطلق على النواة الأصلية للمالنكة. وسنستعمل عبارة مندانغ للدلالة على كل الشعوب التي تلحق لغويًا بالسوننكة والمالنكة. ونجد تحت تسميات مختلفة، متكلّمين بلغة المندية في غينيا ومالي والسنغال وغينيا بيساو وساحل العاج وفولتا العليا وليبيريا وسيراليون، الخ... وقد حصل هذا التوسّع انطلاقًا من النواة المركزية من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر.

(٢٥) الإدريسي، في ج. كوك، ١٩٧٥، ص ١٣٢.

(٢٦) م. ديلافوس، ١٩١٣؛ ش. مونتاي، ١٩٢٩، ص ٣٢٠ – ٣٣٥. وملال أو مالي التي تعنينا تُطلق على النواة الأصلية التي سينطلق منها المالنكة لتأسيس أمبراطورية مالي.



• ماندة القديمة

المصادر الشفوية

تمكننا من التعرّف، من الداخل، على تاريخ المنطقة، ولا تزال عملية التدوين مستمرة في منطقة (السفانا) منذ عقدين.

وتوجد عدة مراكز أو «مدارس» للروايات الشفوية في بلاد المندانغ، نذكر من بينها كيلا، قرب كنغابا، التي يشرف عليها شعراء عشيرة دياباته، ونياغاسولا ودجيليباكورو وكيتا وفاداما، الخ... [٢٧]. (أنظر الخريطة). والروايات التي تدرس بهذه المدارس التي يشرف عليها «أساتذة الكلمة» أو (بلان – تيغي) هي نماذج من الروايات المختلفة لتاريخ مالي المتمحور حول شخص سونجاتا. ونجد من مدرسة إلى أخرى، مع فروق طفيفة، النقاط الأساسية المتصلة بأصل مالي وبالأعمال الحربية لمؤسّس الأمبراطورية.

وتؤكّد هذه المصادر أنه كانت هناك مملكتان في بادئ الأمر هما مملكة دو ومملكة كيري أو مندية. وقد أُطلق هذا الاسم فيما بعد على بلاد المالنكة بأسرها. وكانت تعمر مملكة «دو» أو دودوغو عشيرة كونديه، بينما كانت عشيرتا كوناته وكيتا تقطنان بلاد كيري (مندية). وكانت مملكة دودوغو تقع شمال كيري. ومن أهم مدن عشيرة كامارا: سيبي وتابون وقد استولت هذه العشيرة تدريجيًا على الضفة اليمنى لنهر النيجر. أما سلالة تراوري فقد احتلت جزءًا من كيري، ولكن العدد الأكبر كان يعيش في المقاطعة التي ستسمّى فيما بعد غنغران.

وكانت مملكة دودوغو العتيدة تشمل اثنتي عشرة مدينة (لم تعدّدها الرواية). بينما كانت الضفة اليمنى لنهر النيجر، أي باكو أو مانيه، تشمل أربع مدن [٢٨]. ومن ثم فان الروايات التاريخية المحلية تؤيّد ما أورده البكري والإدريسي من أنه كانت هناك مملكتين على الأقل هما مملكتا دو وملال (دو وكيري في الروايات المحلية). وقد حققت ملال الوحدة من بعد واختفى اسم دو.

ويجعل البكري تاريخ اعتناق ملك ملال للاسلام سابقًا لسقوط كومبي، ولكن ابن خلدون هو الذي نقل إلينا اسم هذا الملك، الذي كان يُدعى برمندانا أو سرمندانا [٢٩]. ويصح أن يكون هذا الحاكم هو المانسا باريمون الذي ورد اسمه ضمن قائمة ملوك المندانغ التي جمعها ماسا ماكان دياباته [٣٠]

(٢٧) تقع كيلا على بعد ١٠ كم من مدينة كنغابا (جمهورية مالي) وهي قرية السحرة حفظة الروايات الشفوية للعائلة الأمبراطورية كيتا. وعشيرة جابات دياباته في كيلا هي التي تنظّم كل سبع سنوات حفل ترميم سقف دار المتحف أو كامابلون كنغابا. ويتولّى رئيس عشيرة جياته خلال الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة سرد تاريخ سونجاتا وقصة تكوين أمبراطورية مالي. وكيتا هي مركز آخر للروايات الشفوية. وقد جمع ماسا ما كان دياباته، وهو من عائلة الشعراء الكبرى بهذه المنطقة، ودوّن قصص عمه كالي مونزون الشهير. أنظر م. م. دياباته، ١٩٧٠. وتقع وفاداما، على نهر نياندان في غينيا، وهي مركز للروايات الشفوية ينشّطه شعراء كونده. ودجيليبا كورو (غينيا) هي أيضًا مركز للروايات الشفوية. وفي نياني، وهي قرية صغيرة لسلالة كيتا تقع فوق موقع العاصمة القديمة (غينيا)، يمكن أيضًا جمع الروايات الشفوية. وفي سينيغمبيا، يدرس الشعراء التاريخ ولكنهم يخصّصون، إلى جانب سيرة سونجاتا، مكانًا بارزًا لتيراماغان تراوري، قائد جيش سونجاتا، الذي غزا هذه المناطق. وهو يُعتبر كمؤسّس مملكة غابو (بين غمبيا ونهر غراندي).

(٢٨) هناك صيغة مخصّصة لهذا الذكر: «دو ني كيري»، «دودوغو تان نيفلا»، «باكو دوغو ناني»، «ومعناها: دو و كيري دولة المدن الاثني عشرة». «با كو»: مملكة المدن الأربع» استخلص شارل مونتاي (١٩٢٩، ص ٣٢٠ – ٣٢١) وجود مملكتين: مالي الشمالية ومالي الجنوبية. وقد تطوّرت الأمبراطورية الثانية في ظل حكم سونجاتا لتصبح أمبراطورية مالي. ومهد سلالة كيتا هو بلاد جبال مندية حول مدن داكاديالا ونارينا وكيري. ولا تزال احدى مقاطعات منطقة سغيري (غينيا) تحمل إلى اليوم اسم (كندية) مندية. ومالي هو نتيجة لتحريف مندية من قبل الفولبي. ومليت هو اسمها البربري.

(٢٩) ابن خلدون، في ج. كوك، ١٩٧٥.

(٣٠) م. م. دياباته، ١٩٧٠.

في كيتا.

وقد وحّد ملوك عشيرة كيتا، فيما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر سائر الممالك الصغيرة في أعالي النيجر. ويقول ابن خلدون إن الملك برمندانا أسلم وحج إلى مكة. ويمكن افتراض أن دو وكيري اندمجتا، في عهد ذلك الملك، في إطار مملكة واحدة أو أن «ملال» كانت قد بلغت قدرًا كافيًا من القوة تسنى معه للملك أن يسافر إلى مكة.

وتزعم أسرة كيتا، مؤسسة مالي، أنها من نسل دجون بلالي أو بلال ابن رباح، من الصحابة وأول مؤذّني الأمة الإسلامية[٣١]. ويُقال إن لوالو، ابن المؤذّن، قدم للاستيطان في بلاد مندية حيث أسّس مدينة كيري أو كي[٣٢].

وقد أنجب لوالو هذا لاتال كلابي الذي أنجب دامال كلابي الذي أنجب بدوره لهيلا ـ تول كلابي. وكان هذا الأخير أول من حجَّ إلى مكة من ملوك مندية. وكان حفيده المدعو مامادي كاني «سيدا صيادا»[٣٣]. وهو الذي وسّع مملكة آل كيتا لتشمل سائر بلاد دو وكيري وباكو وبوريه. وكان معظم هؤلاء الملوك صيادين مهرة. وأغلب الظن أن أول قوة عسكرية في مندية قد تكوّنت من الصيادين[٣٤]. وكان الصيادون في بلاد مالنكة، وإلى تاريخ غير بعيد يكوّنون رابطة مغلقة إلى حدّ كبير، عُرف عنها الإحاطة بالكثير من أسرار منطقة السفانا والغابات. وكان لقب «سيمبون» أو «معلم – صياد» لقبًا مغبوطًا. وفي الروايات ان الصيادين كانوا أول المدافعين عن المجموعات القروية. وقد جمع مامادي كاني شتاتهم عندما عزم على تكوين جيش، كما استعان بصيادي عشائر كامارا وكيتا وكوناته وتراوري الخ... ويمكن تحديد فترة حكم مامادي كاني بأوائل القرن الثاني عشر. وقد رُزق أربعة أبناء من بينهم سيمبون باماري تانيوغوكيلين الذي أنجب مبالي نيني، جد ماغان كون فاتا أو فراكو ماغان كيني والد سونجاتا، الفاتح ومؤسّس امبراطورية مالي. وحكم ماغان كون فاتا في بداية القرن الثالث عشر. وكانت بلاد صوصو آنذاك في غمرة توسّعها في عهد أسرة كانته. وإثر وفاته، اعتلى ابنه الأكبر منسا دنكران تومان العرش ولكن سوماورو، ملك صوصو، ضمّ بلاد مندية.

وهكذا، فحسبما جاء في الروايات[٣٥]، يكون قد توالى على العرش ستة عشر ملكًا قبل سونجاتا. وتختلف قوائم أسماء الملوك السابقين لسونجاتا من «مدرسة» إلى أخرى. فقائمة كيليه مونزون دي كيتا تتحدّث، كما هو معلوم، عن منسا بيريمون الذي رأينا فيه بارامنداما الذي ذكره ابن خلدون. وتطلق روايات سيغيري الشفوية اسم لهينول كلابي على أول ملك مندانغي يحج إلى مكة. بيد أن جميع الروايات تجمع على أن الملوك الأوائل كانوا «معلمين – صيادين» أو سيمبون؛ كما أنها تبرز دخول الإسلام بلاد مندية في عهد مبكر جدًا.

لقد لعب الصيادون دورًا بارزًا في نشأة مالي. فإن أم سوندجاتا من عشيرة تراوري الصيادين

(٣١) أنظر ن. لفتزيون، ١٩٧٣، ص ٦١؛ ش. مونتاي، ١٩٢٩، ص ٣٤٥ – ٣٤٦. كان الانتساب إلى أجداد مسلمين من أصل شرقي أمرًا شائعًا في البلاطات السودانية. ويُلاحظ أن سلالة كيتا لا تدّعي الانتساب إلى جدّ أبيض وإنّما إلى الزنجي الحبشي بلال بن رباح.

(٣٢) كي: تعني عمل، ويمجد كيليه مونزون أصل كيري بتعظيم شأن العمل: «في البداية كان العمل» أنظر م. م. دياباته، ١٩٧٠، ص ٩.

(٣٣) د. ت. نياني، ١٩٦٠، ص ١٥ – ١٦.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ١٦.

(٣٥) أنظر د. ت. نياني، ١٩٦٠، ص ١٤ – ١٧.

الذين[٣٦] ، زوجوها ماغان كون فاتا. وكان أعضاء هذه العشائر يسيطرون على بلاد واسعة ، هي كنغران ، شمال غربي بوريه التي ألحقت ببلاد مندية قبل أن يتولى فراكو ماغان كينيي الحكم بقليل.

إتحاد العشائر المالنكية

في عهد المانسا دنكران تومان تمرّد المالنكة مرة أخرى على سلطة سوماورو. وإزاء تهرّب الملك ، فقد استدعوا كما رأينا ، شقيقه سونجاتا. وتقع الحرب التي قامت بين منديه وقبائل الصوصو فيما بين ١٢٢٠ و ١٢٣٥.

شخصية سونجاتا

من المؤكّد أنه لو لم يذكر ابن بطوطة سنة ١٣٥٣ ، وابن خلدون من بعده سنة ١٣٧٦ ، هذا الفاتح في كتاباتهما لاعتبر المؤرّخون الأوروبيون سونجاتا شخصية خيالية أو أسطورية نظرًا للمكانة الفائقة التي احتلها في الروايات الشفوية لتاريخ مالي : «وكان أعظم هؤلاء الملوك هو الذي أخضع سوسو (صوصو) واحتلّ مدينتهم وأفتك سلطانهم. وكان يتسمى ماري دجاتا. وتعني كلمة ماري في لسانهم أمير ودجاتا أسد. ودام حكم هذا الملك الذي لا نعرف شجرة نسبه ، ٢٠ سنة حسبما ذكر لي»[٣٧]. وقد استقى ابن خلدون من مصدر علم ؛ وهو أيضًا الكاتب الوحيد في ذلك العهد الذي تحدّث عن الصوصو الذين بسطوا نفوذهم على المجال الإقليمي للسوننكي – المالنكي. ولكن ما الذي نعرفه عن سونجاتا فضلاً عن ذلك؟ ليس فيما كتب شيء يُذكر عن ذلك. ولكن الرواية الشفوية تتحدّث بإسهاب عن أعمال سونجاتا الباهرة[٣٨].

وقد عاش سونجاتا طفولة صعبة وظلّ مقعدًا لفترة طويلة. لذلك كانت أمه ، سوغولون كونديه ، موضع سخرية زوجات الملك الأخريات وعندما أصبح قادرًا على السير ، تزعّم أقرانه. وإذ اضطهده دنكران توما ، فقد اضطر إلى الهرب برفقة والدته وشقيقه مندية بوغاري (أبو بكر)[٣٩]. ودام هذا المنفى أو «نياني نابوري» سنوات طويلة. ولم يتجرّأ أي من قادة المالنكة على إيوائه ، فسافر إلى غانا حيث أكرمت وفادته في كومبي. ولكنه استقرّ في ميما برفقة والدته وشقيقه. وقد أعجب ملك ميما ، منسا

(٣٦) ي. سيسيه ، في *JSA* ، ١٩٦٤ ، المجلّد ٣٤، ص ١٧٥ – ١٧٦.

(٣٧) ابن خلدون في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٣٣٤.

(٣٨) منذ ظهور «سونجاتا أو الملحمة الماندانغية» ، كان جمع الروايات الشفوية شاملاً ، أنظر ج. اينس ، ١٩٧٤ ، الذي جمع في سينيغمبيا ثلاث روايات لتاريخ سونجاتا ؛ أنظر م. سيسوكو ١٩٦٦ ؛ م. لي – تال ، ١٩٧٨ ؛ ندوات سكوا ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ ، ١٩٨٠. الندوات التي نظمتها مؤسسة سنغور سنة ١٩٨٠ ، حول الروايات الشفوية في غابو.

(٣٩) د. ت. نياني ، ١٩٦٠ ، ص ٥٦ – ٧٣. باستثناء بعض الاختلافات ، تتفق بعض «المدارس» التي تناولت ملحمة سونجاتا ، حول النقاط الأساسية : طفولة سونجاتا الصعبة ، منفاه في ميما ، إرسال مبعوثين في طلبه ، عودة سونجاتا. التحالف وقسم رؤساء العشيرة ، انهزام سوماورو واختفاؤه واعلان سونجاتا مانسا.

تونكارا أو ميا فارين تونكارا ، بشجاعة جاتا الشاب فوكل إليه مسؤوليات كبرى. وفي ميا جاءه مبعوثو مندية فزوّده الملك بقوة من الجند عاد بها إلى مندية.

معركة كيرينا

أثار نبأ وصول جاتا حماسًا كبيرًا في صفوف المالنكة. وكانت كل عشيرة قد كوّنت جيشها. وفضلاً عن ذلك كان أبرز القواد من أتراب سونجاتا ، مثل تابون وانا (تابون غانا) الذي كان رئيسًا لفرع من الكامارا ، وابن عمه كاماديان من كامارا منطقة سيبي (بين سيغيري وكنغابا). وقد اتّحدت كلمة فاوني كونديه وسيارا كومان وكوناته وتيراماغان تراوري ، وهم جميعًا قادة الجيش. وحصل اللقاء مع سونجاتا في سهل سيبي ووثق الحلفاء وحدتهم ، وتولى سونجاتا إدارة العمليات.

وأبدت عندئذ قبائل الكامارا المقيمة على الضفة اليمنى لنهر النيجر في مقري نياري وسلفوغو ونيغان ، المتجمعة حول المانسا كارا نورو ، والتي كانت أولى القبائل التي تمرّدت ، ولم ينتصر سوماورو إلاّ بفضل فاكولي ، ابن أخيه وقائد قواته. وكان القتال عنيفًا لأن منسا كارا نورو كان يقود جيشًا من الجنود المدرّعين بالحديد. ولكن فاكولي تغلّب عليه بفضل خيانة زوجة المانسا كارا نورو ، التي أسلمت زوجها لفاكولي.

واحتفاءً بهذا النصر أعلن سوماورو أفراحًا عظيمة في نياني ، عاصمة المانسا كارا نورو ، وهي الاحتفالات التي تكدّر خلالها صفو علاقاته مع ابن أخيه فاكولي المدعو وانا أو غانا فاكولي. فقد فتن سوماورو بمهارة طبخ كيلايا كونكون ، زوجة ابن أخيه ، فانتزعها منه. واغتاظ فاكولي ، وعبر نهر النيجر بجيشة وانضمّ إلى الحلفاء المتجمعين في سيبي انتقامًا. وهكذا حرم سوماورو من أفضل قادته. ولكنه سرعان ما بادر إلى شن الهجوم. وبعد معركتين متكافئتين استجمعت المالنكة شجاعتها. وكان اللقاء الحاسم في كيرينا ، وهي بلدة يصعب تحديد موقعها ، لأن قرية كيرينا الحالية ، حسب الروايات الشفوية حديثة التأسيس. وكان جيش سوماورو جرّارًا إلاّ أنه من الصعب تقدير عدده. وكان يوجد من بين قادته جولوفينغ مانسا ، ملك الجولوف الذي كان معروفًا هو الآخر بأنه من كبار السحرة ، ورئيس قبائل تونكارا بمنطقة كيتا. وكانت فرسان سوماورو ذوو شهرة ولا تُردّ هجماتهم.

ولكن جيوش سونجاتا كانت مشتعلة حماسًا ، وبدا قائد الحلفاء واثقًا مطمئنًا ، فقد تمكّنت نانا تريبان ، شقيقة سونجاتا التي زُوِّجت من سوماورو رغم إرادتها ، من الهرب من بلاد الصوصو والالتحاق بشقيقها الذي أصبح بذلك يعرف سر قوة سوماورو. وكان السحر ملازمًا لكل عمل في افريقيا قديمًا. وكان سوماورو لا يؤذيه الحديد ، وكان طوطمة (تانا) ظفر ديك أبيض. وقد أدرك ، منذ فرار زوجته والشاعر بالافاسيكيه ، أن سره قد انكشف. وبدا كئيبًا في ساحة القتال ، ولم تكن له تلك الهيبة أو تلك الخيلاء التي تهزّ الجنود. إلاّ أنه تغلّب على قلقه الباطني ونشبت المعركة. ولكن هزيمة الصوصو كانت نكراء ، ولاحق سونجاتا خصمه حتى كوليكورو ولكنه أفلت منه فزحف على مدينة صوصو ودكّها دكًا.

ولم يكن نصر كيرينا نصرًا عسكريًا للحلفاء فحسب ، بل أنه وثّق التحالف بين العشائر. ولئن كانت حرب التمائم والسحر هذه ، قد كفلت انتصار سلالة كيتا ، فمن المفارقات أنها مهّدت لإنتشار الإسلام ، لأن سونجاتا كان حامي المسلمين. وكان بين أعضاء الوفد الذي ذهب لاستدعائه حين كان في المنفى ، بعض الأولياء. ولم يرد ذكر اسم هذا البطل من أبطال الإسلام ، الذي لم يدر بخلده أنه كان كذلك ، في أي مؤلف عربي من مؤلّفات القرن الثالث عشر ، كما لم تذكر معركة كيرينا في الحوليات العربية. غير

أن ابن بطوطة يخبرنا أن سونجاتا أو ماري جاطة قد اعتنق الإسلام على يدي شخص يُدعى المدرك، كان حفيده يعيش في بلاط المانسا موسى[٤٠]. أما الروايات الشفوية فلم تر فيه إلاّ محرّر المالنكة.

أعمال سونجاتا

الفتوح العسكرية

أخضع سونجاتا، الذي كان يساعده قوّاد محنّكون، جلّ البلدان التي كانت تخضع قديمًا لسيطرة غانا. وظلّت الروايات الشفوية تذكر اسمي تيراماغان تراوري وفاكولي كوروما. وكان سونجاتا قد أوفد الأول إلى الجولوف لقتال الملك جولوفين منسا الذي كان قد أوقف قافلة تجار أرسلها جاتا لشراء الخيل. وبعد أن هزم ملك الجولوف حارب تيراماغان في منطقة السنغال وغمبيا وغزا الكازامنس وأعالي بلاد غينيا - بيساو الحالية وهي الكابو. ويُعتبر تيراماغان في نظر المندانغ الغربيين مؤسّسًا لعدة ممالك كانت أهمها مملكة كابو أو غابو[٤١].

أما فالكولي كوروما فقد أخضع المناطق الجنوبية المتاخمة للغابة وغزا مناطق أعالي نهر السنغال[٤٢]، وهزم سونجاتا بنفسه ملكي دياغان أو ديافانو وكيتا حليفي سوماورو. وبذلك أعاد بناء السودان الغربية. وواصل ابنه وقادة جيشه هذه الفتوح فضموا غاو والتكرور.

دستور مالي

تعزو تقاليد مندية إلى قاهر كيرينا الشاب تقنين قواعد العرف والمحرمات التي لا تزال تنظّم العلاقات، فيما بين العشائر المندانغية من جهة، وبين عشائر المندان هذه، وعشائر الغرب الإفريقي الأخرى من جهة أخرى. وقد نسبت لهذا النظير الافريقي للإسكندر الأكبر أعمال تالية لهذه بزمن طويل. إلاّ أن من الثابت

(٤٠) ابن بطوطة، «تاريخ»، رقم ٩، (ترجمة فرنسية)، ١٩٦٦، ص ٦٣.

(٤١) مرحلة جولوفين مانسا هامة جدًا في ملحمة سونجاتا. وربما كان ملك الجولوف حليفًا لسوماورو إذ كان مثله مناهضًا للإسلام. وقد صادر خيول جاتا، وأرسل إليه بجلد طالبًا منه أن يصنع لنفسه منه حذاء لأنه لم يكن صيادًا ولا ملكًا جديرًا بركوب الخيل. واغتاظ سونجاتا للأمر واعتزل الناس أيامًا عديدة. وعندما ظهر، جمع رؤساء جيشه وأمر بالزحف على الجولولوف. ورجاه تيراماغان أن يذهب بمفرده لقتال ملك الجولوف متعللاً بأن الحاجة لا تدعو إلى تعبئة كل القوى. ولما ألح عليه هذا القائد الذي هدّد بقتل نفسه إذا لم يستجب جاتا لرغبته، جهّزه بفيلق. فسار تيراماغان نحو هدفه وهزم جولوفين مانسا وغزا السنغال وغمبيا وكعبو أو غابو. وقد ردّد شعراء كابو أصداء هذه السيرة في عدة قصائد طويلة على نغمات آلة كورا الموسيقية. وتزعم عدة قرى في بلاد كابو أنها تؤوي رفات تيراماغان. ولكن بعض روايات كنغران تؤكّد أن قاهر وجولو فينغ مانسا عاد إلى مالي (أنظر: ملتقى حول الروايات الشفوية ببلاد كعبو نظمته مؤسسة ل. س. سنغور، وخاصة م. سيسوكو، والسيدة م. لي ستال، ولا تزال الحاجة تدعو إلى جمع الروايات الشفوية في غمبيا العليا وفي السنغال الشرقية. فهذه المناطق تحتوي على مواقع وعلى قرى ذات أهمية قصوى لمعرفة توسّع المندانغ باتجاه الغرب.

(٤٢) أحفاده هي عشائر سيسوكو ودومبويا وكورويا. وتوجد في نوراسوبا، وهي قرية الكوروما في جمهورية غينيا، أصنام وملابس حربية كانت على ملك فاكولي. وبصفة عامة يتولى المندان أمر بعض المتاحف الصغرى المخصّصة لجمهور ضيق من العارفين أو المحظوظين فحسب. وهكذا لا تزال بعض الذخائر الموغلة في القدم محفوظة بهذه الطريقة.

أن الدستور والهياكل الإدارية في جوهرها من وضعه. وسونجاتا هو الرجل المتعدّد الأسماء. فهو يُسمى ماغان سونجاتا أو الملك سونجاتا في لغة السوننكية؛ وماري جاتا أو السيد دجاتا (أسد) بالمالنكية، كما يُدعى ناري ماغان كوناته أو ملك قبائل كوناته، ابن ناري ماغان؛ وسينبوم سالابا أو المعلم الصياد ذو الرأس المقدس، الخ...

وتذكر الروايات الشفوية كوروكان فوغا بوصفه مكان عقد الجمعية الكبرى (جْبارا) التي كانت جمعية تأسيسية حقة، وكوروكان فوغا سهل غير بعيد عن كنغابا. وأمام الحلفاء المجتمعين بعد النصر، اتُّخِذت التدابير التالية:

أ) نودي بسونجاتا رسميًا مانسا (بالمالنكة) أو ماغان (بالسوننكة)، أي أمبراطورًا، ملك الملوك. وأقرّ كل رئيس حليف في مهامه في مقاطعته (فاران). وفي الواقع، لم يحمل لقب ملك إلاّ رئيسا ميما وواغادو.

ب) قرّرت الجمعية وجوب اختيار الأمبراطور من ذرية سونجاتا، ووجوب اتّخاذ الأمراء زوجاتهم الأولى دائمًا من بين نساء عشيرة كونديه (تخليدًا للزواج السعيد لناريه فاماغان وسوغولون كونديه، والدة سونجاتا). وطبقًا للتقاليد القديمة يخلف الشقيق شقيقه وأن المانسا هو القاضي الأعلى، ورب العائلة، و «أبو الرعية كافة» وهو ما يفسر عبارة «مفامنسا» التي يخاطب بها الملك «وترجمتها أبي الملك».

ج) كوّنت المالنكة وحلفاؤها ست عشرة عشيرة من الرجال الأحرار أو النبلاء (تونتا – دجون تني ورو)، وهي العشائر الست عشرة «حاملة الجعاب»[٤٣].

د) أطلق رسميًا على عشائر الزوايا الخمس وهي من حلفاء الرعيل الأول، ومن بينها عشيرتا توريه وبيرتيه اللتان اشتركتا بشكل فعّال في البحث عن سونجاتا في منفاه، إسم «الحراس الخمسة للدين (أو موري كاندا لولو)». وينبغي أن يُدرج في عداد هذه العشائر، عشيرة سيسيه وأغادو، التي أسلمت وحالفت سونجاتا سياسيًا.

هـ) قسم الحرفيون إلى أربع طوائف (نارا ناني) منها طائفتا الشعراء والاسكافيين وبعض طوائف الحدادين.

وقد أُقيمت صلات بين أسماء العشائر المندانغية وأسماء عشائر تنتمي إلى أعراق السودان الأخرى. وسادت هذه القرابة الوهمية بين الأعراق واستمرّت هذه الممارسة بعد سونجاتا. وخفّف هذا النسب في العديد من الحالات من التوتر بين الجماعات العرقية[٤٤]. ولمكافأة نوتية السفن في النيجر من السومونو والبوزو، فقد منحهم سونجاتا لقب «سادة المياه». وكما تقول الرواية فإن سونجاتا قد «قسّم العالم» أي أنه حدّد حقوق كل عشيرة وواجباتها. وقد اتّخذ إجراءً خاصًا وزّعت بمقتضاه قبائل الصوصو على الطوائف الحرفية، واعتُبر اقليمها من أملاك الأمبراطورية. وهاجر الكثيرون منهم إلى الغرب.

(٤٣) كانت القوس والجعبة تمثّلان شارة الرجال الأحرار الذين كان من حقهم وحدهم التجوّل بالسلاح. وقد لاحظ البرتغاليون في القرن الخامس عشر أن نبلاء المالنكة كانوا يتجوّلون في المدينة حاملين جعابهم المملوءة بالسهام. وكانوا لا يتجرّدون قط من أسلحتهم، التي كانوا يُعرفون بها.

(٤٤) يُعتبر رجل من عشيرة كونديه، مثلاً، عند الولوف، أخًا عند أفراد عشيرة اندياي. وكذلك كان الفرد من عشيرة تراوري يُعامَل معاملة الأخ من قبل عشيرة ديوب، الخ...، ويمكن للفرد التراوري، عند الاستيطان ببلاد الولوف أن يأخذ اسم عشيرة ديوب أو العكس، بحيث يصبح الفرد من عشيرة ديوب، تراوري عند المندان. ان هذا النسب الوهمي وهذه الأخوّة بين العشائر قد لعبت ولا تزال تلعب دورًا كبيرًا في السودان الغربي. ونشأت، منذ سونجاتا، صلات جديدة بين المندانغ وسكان البلدان التي استقرّوا بها (منطقة الغابات في غينيا وليبيريا وساحل العاج).

وكان لهذا الدستور نفعه العظيم وآثاره البعيدة المدى. ذلك أنه أخذ أولاً عن أمبراطورية غانا تنظيمها للطبقات الاجتماعية وهي الأمبراطورية التي كانت تعترف أيضًا لكل منطقة بذاتيتها. ولكن سونجاتا قنّن نظام الطوائف الحرفية وأصبحت المهن وراثية. في عهد غانا كان كل فرد، فيما يبدو، يمارس الحرفة التي اختارها؛ أما منذ ذلك الحين فقد أصبح لزامًا على الابن أن يمارس حرفة أبيه لا سيّما في إطار الطوائف الحرفية الأربع.

حكومة سونجاتا

كوّن سونجاتا حكومة من رفاقه. وبالإضافة إلى العسكريين وقادة الحرب أحاط سونجاتا نفسه بمثقفين من السود من عشائر الزوايا (الأولياء) التي سبق ذكرها. وكان أفراد هذه العشائر أبناء عمومة وهميين لعشيرة كيتا. ومن المحتمل أن يكون بعض التجار العرب قد تردّدوا في عهده، على بلاطه. فقد ذكر ابن بطوطة أن ماري دياتا أسلم على يدي شخص يُسمى مدرك، كان أحد أحفاده يعيش في بلاط المانسا سليمان. ولكن الرواية الشفوية لا ترى في سونجاتا إلاّ محرّر الماندية وحامي المستضعفين. ولكنّه لم يعتبر قط من دعاة الإسلام.

كان هناك نوعان من المقاطعات: تلك التي بادرت إلى الانضمام إلى سونجاتا واحتفظ ملوكها بألقابهم غانا (كومبي) وميما[٤٥] وتلك التي ضُمّت عن طريق الفتح، والتي كان يمثّل المانسا فيها حاكم (أوفارن) إلى جانب الرئيس التقليدي. واحترم سونجاتا المؤسسات التقليدية للمقاطعات التي غزاها، ولذلك كانت الإدارة مرنة وكانت الأمبراطورية أشبه باتحاد ممالك أو مقاطعات أكثر منها بامبراطورية تأخذ بنظام المركزية. ولكن أقامت حاميات مندانغية في المناطق الرئيسية لكفالة الأمن ولتكون قوة رادعة في الوقت نفسه.

وربما كان سونجاتا هو الذي قسّم الأمبراطورية إلى منطقتين عسكريتين. «وكان يخضع لأوامر الأمير قائدان: أحدهما للمنطقة الجنوبية والآخر للمنطقة الشمالية. وكان الأول يُسمى سنغار زوما والثاني فاران سورا. وكان يخضع لأوامر كل منهما عدد من القواد وقوات من الجند»[٤٦].

نياني، عاصمة مالي

كانت مدينة نياني الواقعة على نهر سنكاراني توجد في بلاد كامارا وقد رأينا فيما تقدّم أن قبائل كيتا كانت تقيم قديمًا في داكا ديالا كيري ونارينا. والواقع، أن سونجاتا لم يقرّر إقامة عاصمته في بلاد

(٤٥) العمري، الترجمة الفرنسية، ١٩٢٧، ص ٥٧. «لم يكن أحد يحمل، على كامل امتداد مملكة هذا العامل، لقب ملك غير ملك غانا الذي ليس في الحقيقة سوى نائب للملك». وهذه الفقرة تدحض ما أكّده موريس ديلافوس، من أن ماري دياتا دمّر غانا سنة ١٢٤٠. فالرواية قطعية وهي تقول بأن ملوك واغادو والسيسيه وملوك ميما كانوا من أول حلفاء سونجاتا وهو ما يفسر الامتياز الذي حظي به ملوك هذه البلدان.

(٤٦) لا شك أن هناك خطأ في القراءة. إذ يُقال بلغة المندانغ «سنكران سوما» أو رئيس سنكران وهي مقاطعة جنوبية كانت تضم حوض النيجر الأعلى وروافده. واقترح تصويب فاران سورا، لتصبح سورا فاران أي «رئيس بلدان الشمال».

مالي[٤٧] الغنية آنذاك بالذهب والحديد إلاّ بعد الانتصار في كيرينا. ويمكن للمؤرّخ أن يتساءل عما دعا سونجاتا إلى تفضيل بلاد مالي على قرية داكا ديالا القديمة التي اتّخذت منها عدة أجيال من الملوك مقرًّا لإقامتها، وأسباب ذلك متعدّدة منها[٤٨]:

أ) لم يكن الفاتح يشعر بالأمن بين أفراد عشيرته ذاتها في داكا ديالا.

ب) كان من الصعب الوصول إلى هذه المدينة المحصورة بين الجبال.

ج) تميّز موقع نياني بحصانته الطبيعية. فهي تقع في سهل واسع محاذ لنهر سنكراني تحيط به نصف دائرة من المرتفعات بينها ممرات ويشرف عليها مرتفع صخري (نياني كورا). كما أن نهر سنكراني عميق وصالح للملاحة طوال السنة.

د) وكانت بلاد مالي أو نياني متاخمة للغابة مصدر الذهب والكولا وزيت النخيل والتي كان التجار المالنكة يقصدونها لبيع الأقمشة القطنية والمواد النحاسية. ولم تكن نياني أو ماني حتى ذلك الحين سوى مدينة صغيرة ذاع صيتها بفضل صمود ملكها سوماورو. والعاصمة الجديدة تقع في مكان قصي في الجنوب، بعيدًا عن منطقة شغب شعوب «السهل» الرحل. وقد نمت المدينة بسرعة كبيرة في ذلك السهل الشاسع. وكانت نياني على رأس طريقين: طريق مندية المتجهة إلى الشمال (مندانغ سيلا)[٤٩]، وطريق القوافل المتجه إلى الشمال الشرقي (ساراكوليه – سيلا). وكانت هذه الطريق تمر بين جبل نياني وجبل داوليني كورو (جبل الباب الأحمر). وقد أصبحت هذه المدينة العاصمة السياسية والاقتصادية للأمبراطورية. واجتذبت نياني في آن واحد التجار الزنوج والمغاربة. وقد أطلق ابن بطوطة على المدينة وقد زارها سنة ١٣٥٣ اسم «مالي». ولكن ابن فضل الله العمري أورد المزيد من التفصيلات: «ان منطقة مالي هي التي بها مدينة نياني مقر الملك، التي تتبعها كل المناطق الأخرى، علمًا بأنها تحمل اسم مالي الرسمي لأنها هي حاضرة مناطق هذه المملكة»[٥٠].

ولقد شغل موقع عاصمة مالي أذهان الباحثين زمنًا طويلاً، وقدّمت عدة افتراضات قبل أن يوفق م. ديلافوس في قراءة مخطوطة العمري قراءة صحيحة. وإن ما أورده العمري هو الذي أتاح القراءة الصحيحة لاسم عاصمة مالي. وهي بالفعل نييني أو نياني التي حدّد موريس ديلافوس موقعها قرب قرية نياني الحالية الواقعة على نهر سنكراني، على الحدود الحالية بين مالي وغينيا.

وزار عدد من الباحثين موقع نياني، الذي تمّ التعرّف عليه منذ العشرينات من هذا القرن[٥١]،

فكلمته سورا تعني البلدان الساحلية التي احتلّها المغاربة والطوارق الذين يسمون بالمالنكية «قوم سورا» أو «سوركا». أنظر السعدي، ١٩٦٤، ص ٢٠.

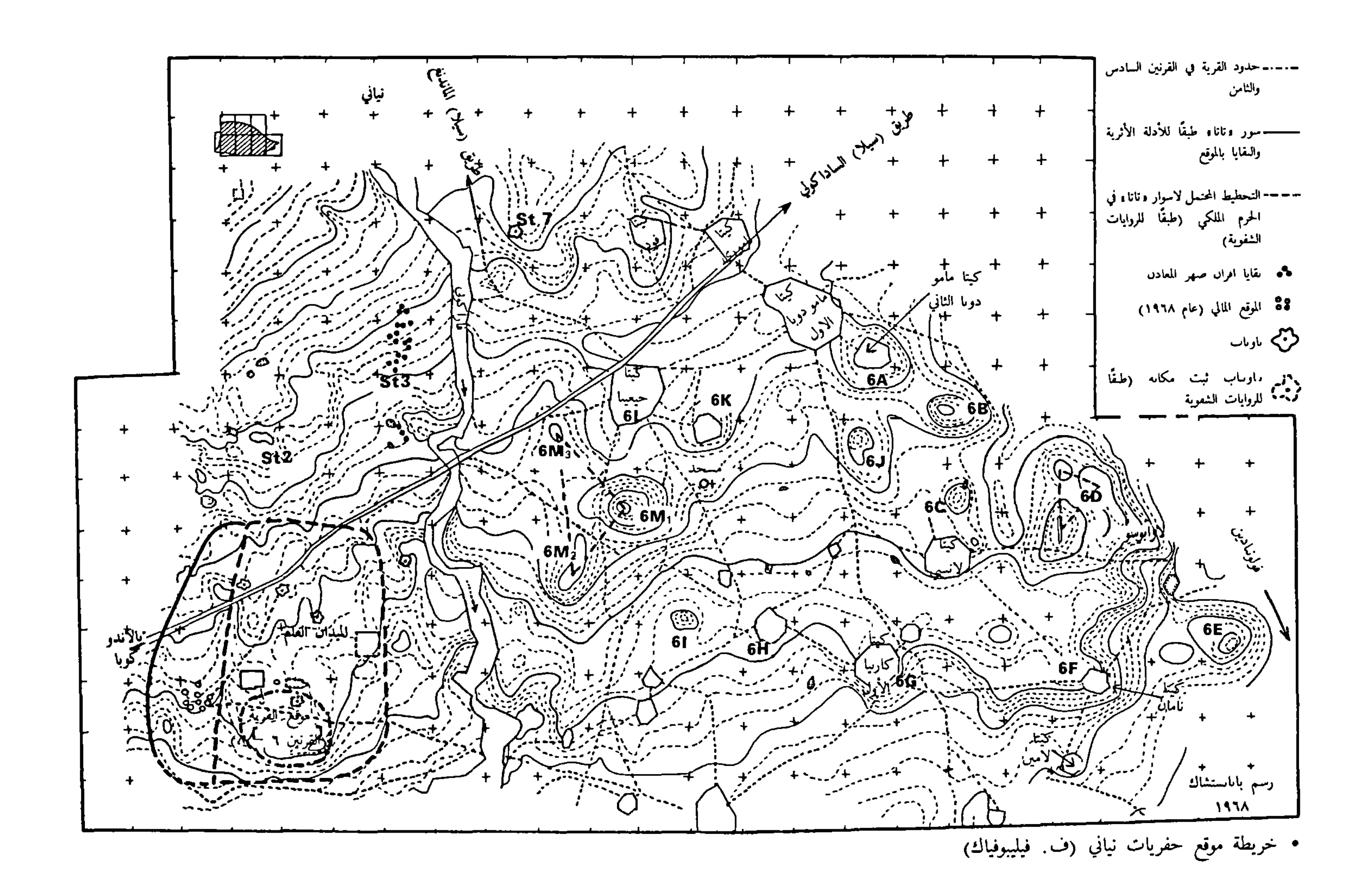
(٤٧) توجد نياني بالفعل في بلاد غينيا. وكان أول مستقر بشري بهذا الاسم تقيمه قبائل كامارا سيبي، يقع في جبال الضفة اليسرى بين باماكو وكنغابا. أنظر ندوة مؤسسة سكوا، ١٩٧٥، (محاضرة، ي. سيسيه).

(٤٨) موريس ديلافوس، ١٩١٢، ص ١٨١ – ١٨٢. بعد البحوث التي قام بها فيدال وغايار في موقع نياني، وبعد تحليل مدقّق لرحلة ابن بطوطة، استنتج م. ديلافوس، وهو محق في ذلك أن عاصمة المانسا كانت توجد في نياني.

(٤٩) تُطلق المالنكة عادة على السوننكة عبارتي ماركا أو ساراكوليه. ومع ذلك فإن سوننكة أو سونونكة هي – لدى المالنكة – مرادف للمالنكة من أتباع الدين التقليدي. وفي سينيغمبيا فإن سوننكة مرادف للمندان أتباع الدين التقليدي. وفيها لا تستعمل كلمة ساراكوليه. مندية سيلا طريق مندية، ساراكوليه سيلا طريق الساراكوليه. يتجه الأول نحو الشمال، إلى مندية ويتجه الثاني نحو الشرق.

(٥٠) أنظر العمري، ص ٥٧، ترجمة ١٩٢٧.

(٥١) م. غايار، ١٩٢٤، ص ٦٢٠ – ٦٣٦؛ ج. فيدال، ١٩٢٤، ص ٢٥١ – ٢٦٨، ر. موني، ١٩٦١، و. فيليبوياك، ١٩٧٢ و١٩٧٩.



• خريطة موقع حفريات نياني (ف. فيليبوفياك)

ولكن لم تجر فيه أعمال هامة إلاّ ابتداءً من سنة ١٩٦٨ : إذ تجرى بعثة غينية – بولندية حفائر في هذا الموقع منذ ذلك التاريخ. وتمّ التعرّف على الحي العربي وعلى المدينة الملكية. وكشف علماء الآثار عن أسس بعض الدور المبنية من الحجارة، وكذلك اسّس مسجد بالمدينة الملكية ومحرابه. وعثر على مسار سور هذه المدينة. ومما يلفت النظر في هذا الموقع ان كل المباني كانت من الطين المدكوك أو البانكو كما ذكر العمري الذي كتب يقول : «إن مساكن هذه المدينة مبنية من الطبقات الطينية مثل أسوار حدائق دمشق. وكان البناء يتم على النحو التالي : يجري البناء بالطين إلى ارتفاع ثلثي الذراع ثم يترك البناء حتى يجف، ثم يستأنف البناء فوق ما أنجز وهكذا حتى إتمام البناء. وتصنع السقوف من العوارض الخشبية والغاب (الخيزران) وأغلبها على شكل قباب (يعني انها مخروطية) أو كسنام الإبل أشبه بعقود الأقبية. أما أرضية المنازل فهي من الطين المخلوط بالرمل[٥٢]»، وظلّ نمط البناء الذي وصفه العمري سائدًا إلى عهد التغلغل الاستعماري الذي أدخل قالب لبنات الآجر. وكما هو معروف فإن المنازل ذات السقوف المخروطية الشكل المبنية من القش لا تزال موجودة في سائر أنحاء منطقة السفانا المندانغية، وأرضية هذه المنازل من التراب المدمك. ووصف العمري دقيق جدًا، وقد أثار سبيل الباحثين الذين قارنوا هذا الوصف بما ذكرته الروايات.

ومدينة نييني ممتدة طولاً وعرضًا، إذ يبلغ طولها نحو «بريد» وكذلك عرضها. ولا يحيط بها سور ومنازلها بصفة عامة منعزلة. وللملك قصور يحيط بها سور دائري[٥٣].

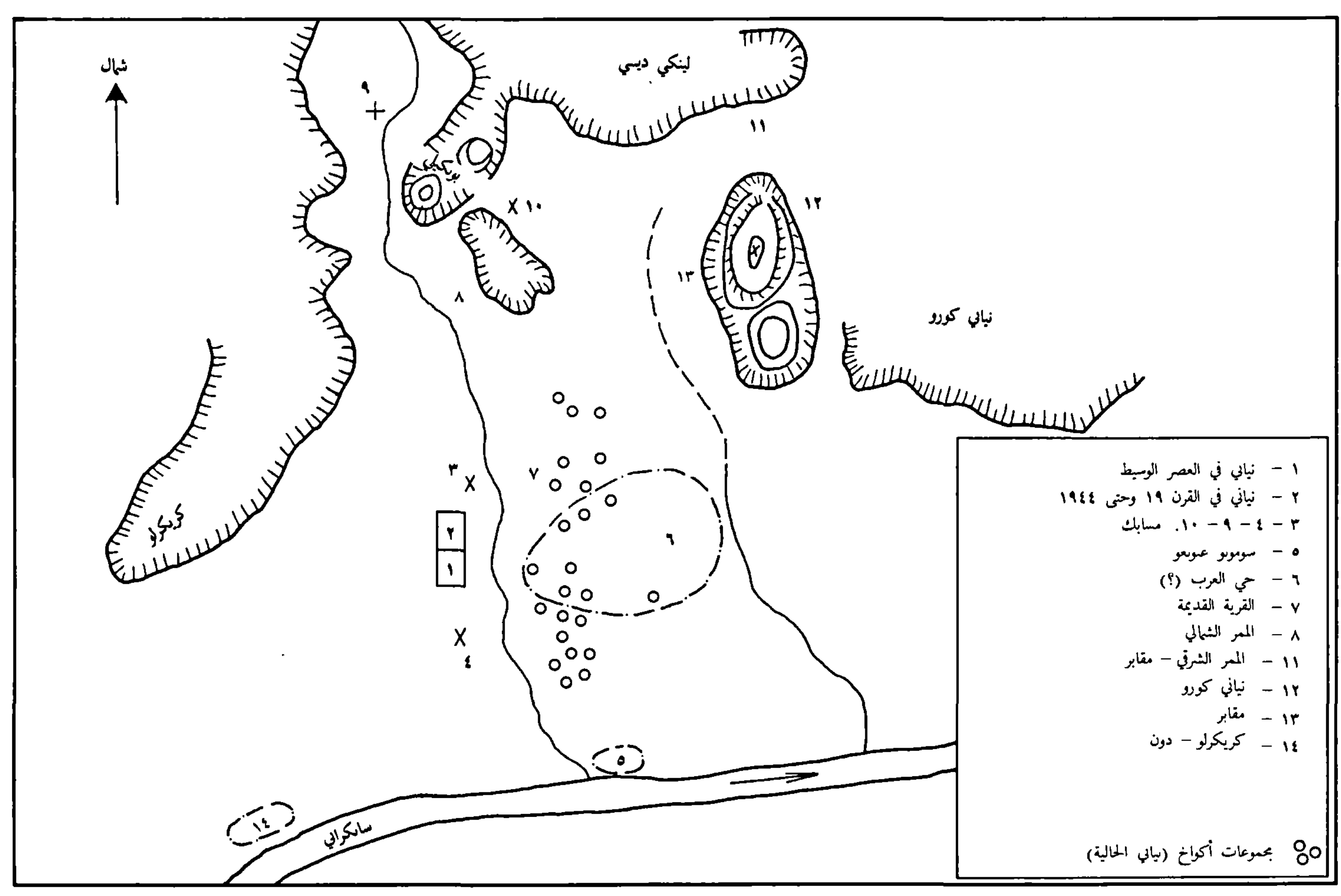
وقد لاحظ علماء الآثار سمة تشتت المساكن. وكان يوجد حول المدينة الملكية عدد كبير من القرى الصغيرة والكبيرة الخاصة بالطوائف الحرفية من حدادين وصيادي أسماك، الخ... والأنقاض اليوم متناثرة من نياني إلى سيديكيلا على امتداد نحو ٢٥ كم.

وكان سونجاتا قد أعلن نياني أرضًا تابعة للأمبراطورية أو وطنًا مشتركًا لكافة الشعوب[٥٤]. وكان سكان المدينة خليطًا من الأجناس لأن جميع المقاطعات والفئات الحرفية كانت ممثلة فيها. وقد أعاد الفاتح العمل من جديد بالتقليد الذي يقضي بتنشئة أبناء حكام الأقاليم والملوك التابعين في البلاط أسوة بما كان عليه الأمر في عهد أسرة كاياماغان.

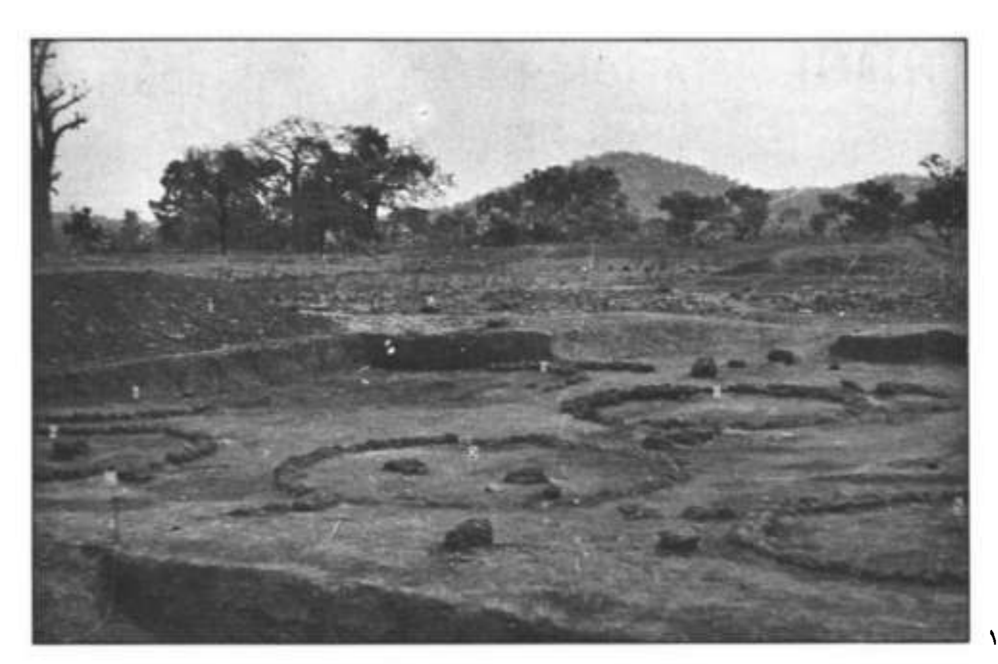
نهاية سونجاتا

هناك عدة أساطير تتردّد عن نهاية الفاتح، ولا يسعنا إلاّ أن نسوق افتراضات لأن حفظة الروايات الشفوية أبعد ما يكونون عن الاتفاق. وفضلاً عن ذلك، فمن المحظور في بلاد المندانغ البوح بموقع عظماء الملوك. وليس هناك مقبرة ولا مدفن معروف لملوك المندانغ. وتزعم رواية روّجها موريس ديلافوس أن سونجاتا قُتل عن غير قصد، بسهم أصابه خلال احتفال. ونعتقد فيما يخصنا أن سونجاتا مات غرقًا في مياه نهر سنكراني، في ظروف ظلّت غامضة، لأننا نعلم أنه يوجد في النهر موقع قبل نياني يبعد عنها بمسافة ١٠ كيلومترات يسمى «سونجاتا – دون» (مياه سونجاتا العميقة). وهذا الجزء من النهر عميق جدًا تهيّجه دوامات المياه وتبتعد عنه الزوارق توخيًا للحذر. وقد أقام آل كيتا المقيمين في نياني، على كل من

(٥٢) العمري، ترجمة فرنسية، ١٩٢٧، ص ٥٤ – ٥٦.
(٥٣) المرجع نفسه، ص ٥٧.
(٥٤) رواية استقيناها شخصيًا. محاضرة في ندوة مؤسسة سكوا، ١٩٧٥.



• نياني : خريطة المواقع في منطقة سنغويري (ج. ت. نياني)

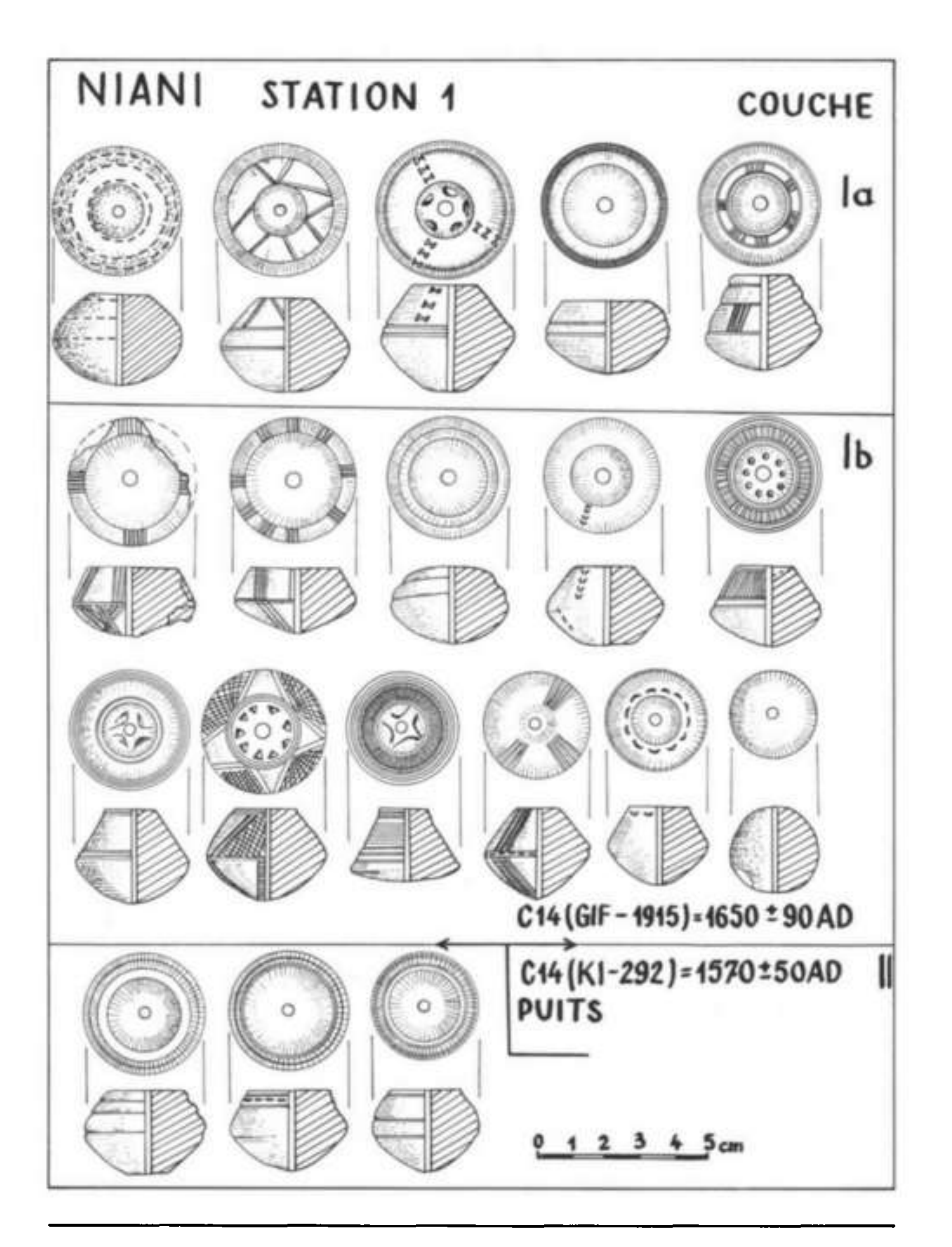


١

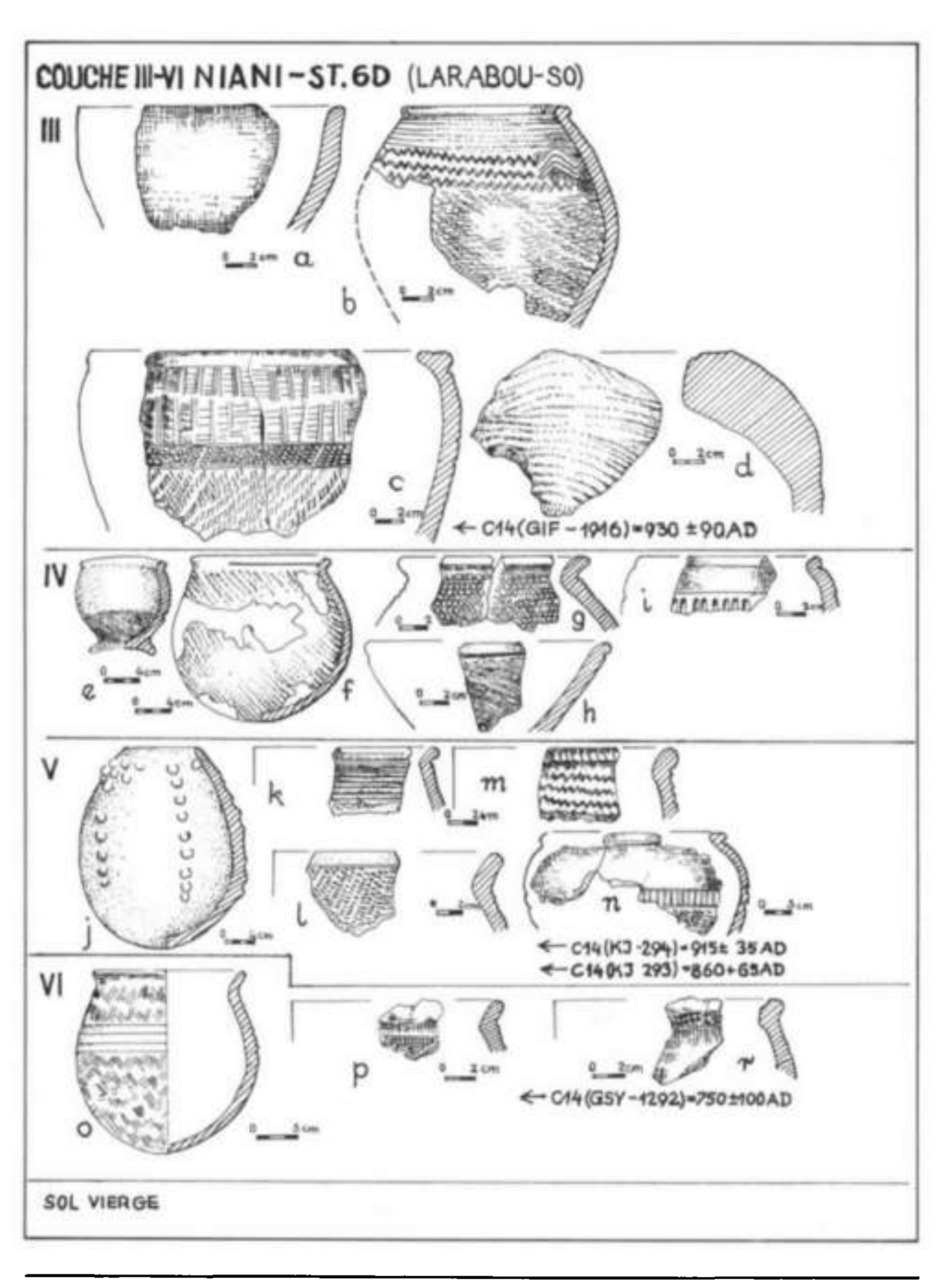
٢



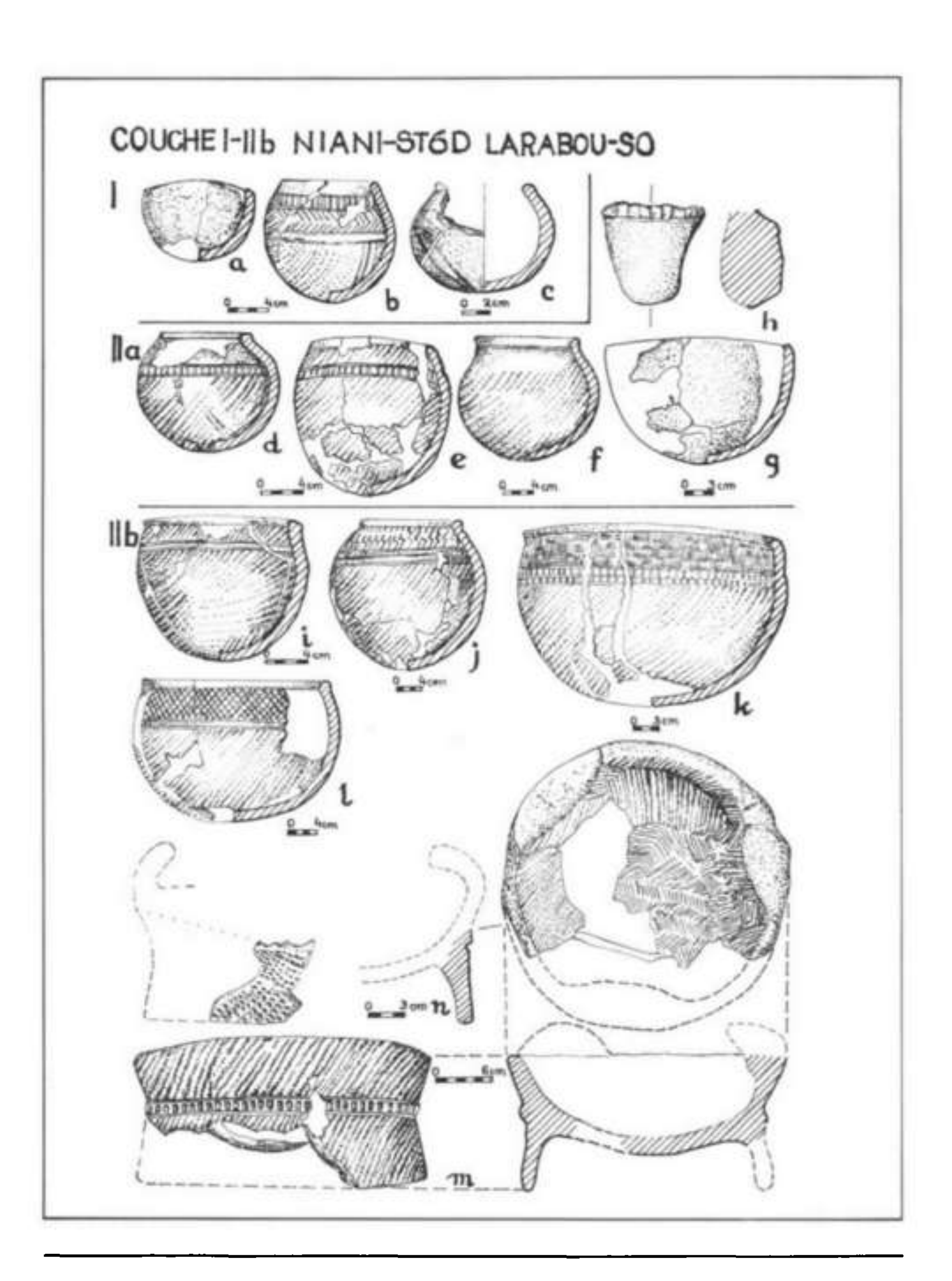
١. نياني. محطة ١. منظر عام لأساسات الأكواخ في المنطقة المأهولة (منسوب ٢)
٢. نياني. محطة ٢٩. صخور ضخمة من الدولريت على سفح نياني لورو.
(حيث وجدت شقف فخارية عديدة). مكان للعبادة؟



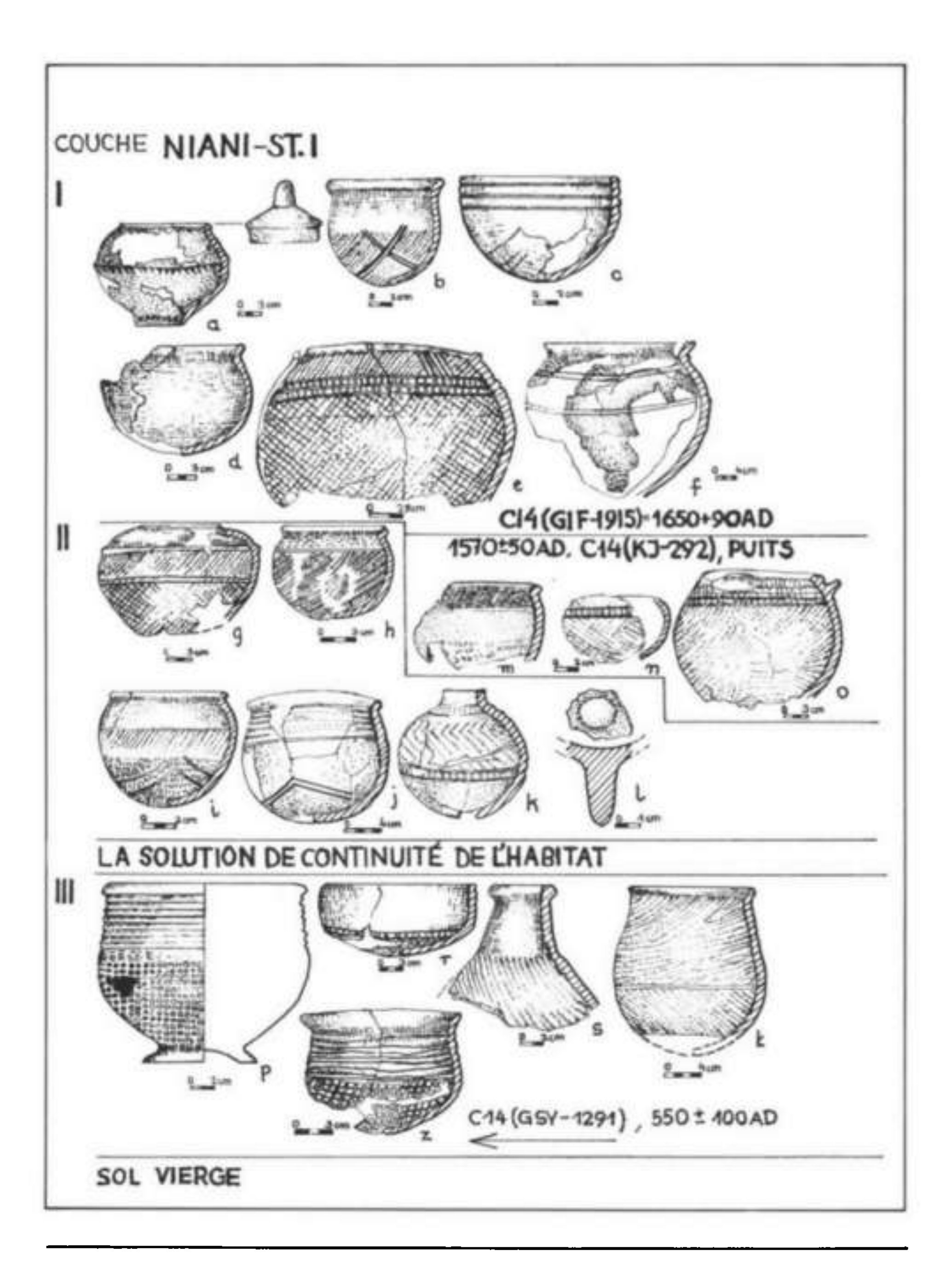
• نياني. المحطة ١.
مجموعة من المغازل وجدت في طبقات الحي السكني
من المنطقة الملكية
(حسب فيليبوفياك ١٩٧٩).



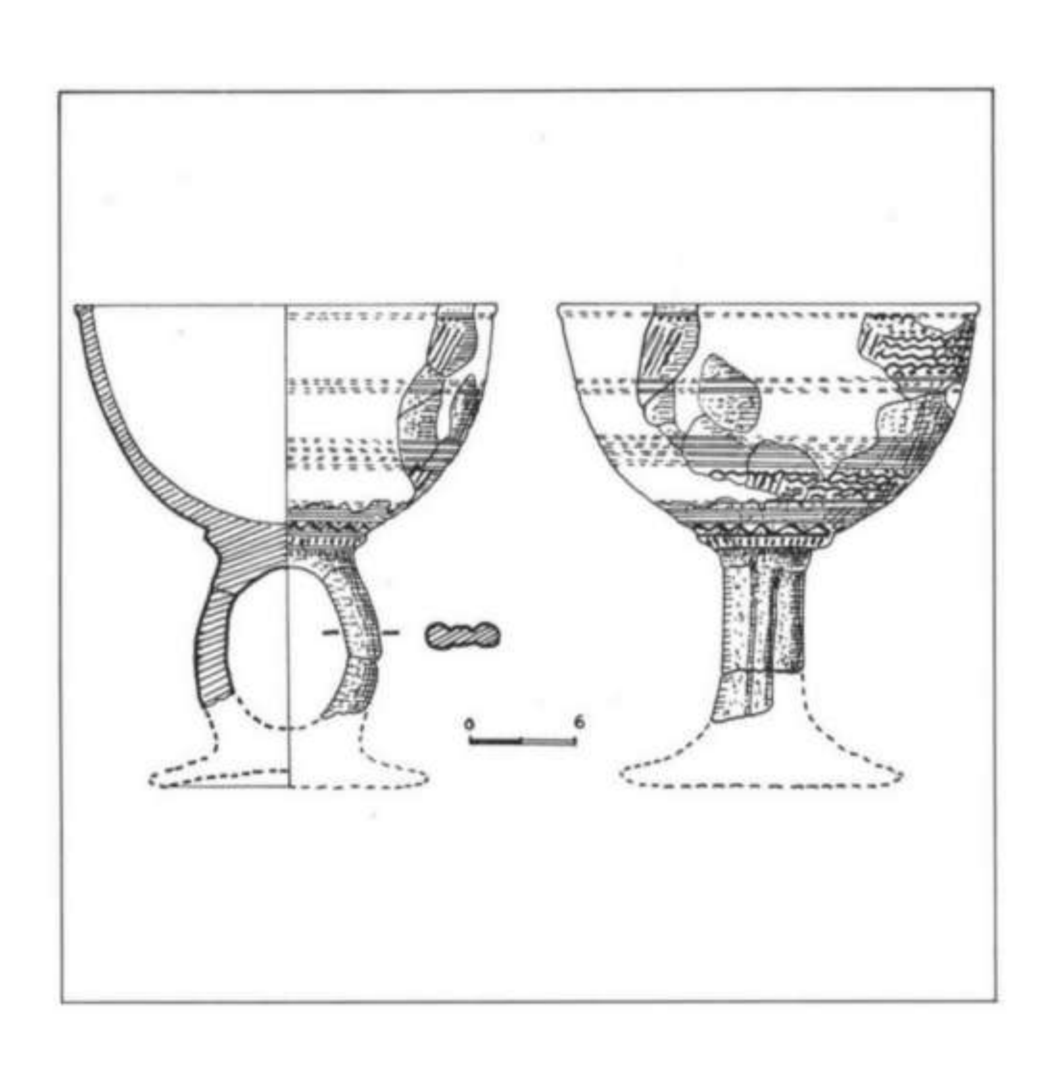
• نياني. المحطة ٦ – د (حيّ العرب)
مجموعة من الأواني الخزفية
وجدت في الطبقات ٣–٦ المؤرخة بالكربون
(حسب فيليبوفياك ١٩٧٩)



• نياني. المحطة ٦ د (حيّ العرب)
مجموعة من الخزفيات من الطبقات ١ الى ٢ ب
(حسب فيليبوفياك ١٩٧٩)



• نياني. المحطة ١.
مجموعة من الأواني الخزفية
وجدت في الطبقات ١–٣ المؤرخة بالكربون
(حسب فيليبوفياك ١٩٧٩).



• نياني. المحطة ٣٢ (المقابر)
كأس من الخزف من الربوة الجنائزية رقم ١
(حسب فيليبوفياك ١٩٧٩).

ضفتي النهر ، عند هذا المستوى ، مكانًا للتعبّد يلتقي فيها دوريًا خاصة نسل الفاتح لتقديم الذبائح من الدجاج والخراف والماعز والبقر. كما أقام سكان بعض القرى أماكن عبادة تخليدًا لذكرى سونجاتا : في كيرينا ، على نهر النيجر ، يقدم «التقليديون» المامسيوكو الأضاحي للفاتح وسط غابة مقدسة. ويوجد لدى الكامارا في تيغان ، شمال شرقي نياني ، كومة كبيرة من الرماد تسمى «بوندالين» يُقال إن تحتها نعلان وخنجر ولباس حربي لسونجاتا. ثم هناك الشعائر المعروفة التي تقام كل سبع سنوات في كنغابا حول الموقع المقدس الذي يُسمى كامابلون والذي يُقال كذلك إنه يحوي بعض أشياء كانت لسونجاتا[٥٥] . وختامًا تجدر ملاحظة أن الموسيقى المندانغية الكلاسيكية قد وُضعت «في عهد سونجاتا» (سونجاتا تيلي). وتقترن رواية ملحمة البطل بلحن موسيقي. محدد وقد ألّف هذه الملحمة أو سونجاتا فاسا ، بالا فاسيكيه ، الشاعر الغازي. شاعر الفاتح سوندجاتا. وقد لحّن شعراء الملك سوماورو السحرة الأنشودة المسماة بولوبا (الموسيقى الكبرى). وقد جعل منه سونجاتا اللحن الموسيقي لكل محارب مندانغي. وهذا يعني أن كل فرد من المالنكة له أن يطلب من أحد الشعراء العازفين أداء هذه الموسيقى ليستمع إليها أو ليرقص على أنغامها. وقد صنّف اللحن ، المسمى جانجون (المجد للمحارب) تمجيدًا لفاكولي ولبطولاته في الحرب. ويتغنى اللحن المسمى تيراماغان فاسا[٥٦] ببسالة فاتح المقاطعات الغربية لامبراطورية مالي وأعماله الحربية. أما دوغا ، وهو لحن حربي قديم ، فهو سابق لعهد سونجاتا بزمن طويل ، وهو مكرّس للمحاربين البارزين في الأمبراطورية.

خلافة سونجاتا

نحن مدينون لابن خلدون بالقائمة الكاملة لسلاطين مالي ، من أواسط القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر. وهي تطابق من أوجه عديدة القائمة المستقاة من الروايات التاريخية لبلاد الماندي[٥٧] .

وقد بيّن ابن خلدون في تاريخه الرائع للبربر وكذلك في المقدمة ، أهمية مالي السياسية والاقتصادية الكبيرة بالنسبة إلى العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر. وللحصول على المعلومات فقد استقاها ابن خلدون من مصادر وثيقة سواء من التجار العرب أو من السفارات المالية في القاهرة. وإدراكًا منه لمكانة مالي في العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر ، فقد خصّص صفحات طويلة لتاريخ امبراطورية المانسا.

وبعد موت سونجاتا بطل العمل بالمبدأ الذي كان متبعًا منذ القدم في ثورات العرش وهو مبدأ خلافة الحواشي (الاخوة واحدًا بعد الآخر). فقد تولّى الحكم ابن سونجاتا الأكبر مانسا يريلينكو أو مانسا أولين وظلّ متربّعًا على العرش من سنة ١٢٥٠ إلى نحو سنة ١٢٧٠ . وقد تمكّن من الحفاظ على تماسك الجيش وواصل قواده الغزوات. والراجح أن المالنكة استولوا في عهده على التكرور ودعموا فتوحات

(٥٥) رواية استقيناها نحن في نياني ، ١٩٦٨.
(٥٦) المقصود هو تيراماغان تراوري.
(٥٧) عن التأريخ المتسلسل لأباطرة مالي ، أنظر ن. لفتزيون ، في *JAH* ، المجلّد الرابع ، ١٩٦٣ ص ٣٤٣ - ٣٥١.

تيراماغان في منطقة السنغال وغامبيا. وأقام الماندي في هذه المناطق مستعمرات استيطانية. وقد لفت حج المانسا أولين إلى مكة انتباه البلدان العربية إلى مالي. وبعد وفاته كانت الأمبراطورية على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار نتيجة الدسائس التي كانت تُحاك في القصر، فأنقذها ساكورة، من قواد سونجاتا[٥٨]. إذ استأنف الفتوح وأخضع قبائل الطوارق ودعم سلطة مالي على وادي النيجر وسيطر على غاو. وبعد أن أعاد بذلك النظام إلى نصابه، سافر إلى مكة، ولكنه قتل في طريق العودة على أيدي قطّاع الطرق الصحراويين. ويُقال إن جثمانه أُعيد إلى مالي حيث دُفن بما يليق بالملوك[٥٩]. وخلفه على العرش ملوك ضعفاء. ولكن الخلافة آلت، نحو عام ١٣٠٧، إلى أحد أبناء إخوة سونجاتا، كنكو موسى المعروف باسم مانسا موسى الأول الذي حكم من عام ١٣٠٧ إلى نحو عام ١٣٣٢. وكان حجّه إلى مكة سنة ١٣٢٥ مادة غزيرة للأدب. وبلغت مالي تحت حكمه ذروة عظمتها. وخلفه على العرش ابنه ماغان الأول أو سوما بوريما ماغان كينيي الذي أبعده المانسا سليمان وهو شقيق المانسا موسى الأول عن الحكم نحو سنة ١٣٣٦. وقد حافظ المانسا سليمان على عظمة الأمبراطورية كاملة، ولكن مؤامرات القصور عادت بعده للظهور[٦٠]. وتكوّنت عدة «تكتّلات» سياسية حول الأمراء من أحفاد المانسا موسى الأول والمانسا سليمان، بينما لم يعد «حزب» كيتا يخفي مطامعه في الحكم. ولم يبق فومبا أو كاسا، ابن المانسا سليمان في الحكم إلاّ عامًا واحدًا (١٣٥٩) قبل أن يطيح به ماري جاطه أو سونجاتا الثاني الذي كان حكمه استبداديًا. فقد «أفسد ملكهم... وأتلف ذخيرتهم... وباع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم». وهو حجر يزن عشرين قنطارًا. وقال ابن خلدون: فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المتردّدين على بلده وابتاعوه منه بأبخس ثمن[٦١]. وأصابت ماري جاطة الثاني علة النوم فأُبعد عن الحكم واعتلى ابنه المانسا موسى الثاني العرش (١٣٧٤ – ١٣٨٧). ولكن السلطة الفعلية كانت بيد قائد الجيش الذي قبض بحزم على ناحية أمور الدولة وقمع انتفاضة تيجيدة. (تأكيدة أوتكرت): المدينة التي اشتهرت بصناعة النحاس. وقد أشاعت مؤامرات القصر التي أججتها الأميرات من الاضطراب في نهاية القرن الرابع عشر. وأخذت طاعة حكام الأقاليم للسلطة المركزية تتناقص ولكن الأمبراطورية استطاعت المحافظة طويلاً على هيبتها.

---

(٥٨) ابن خلدون، في ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٣٤٥.

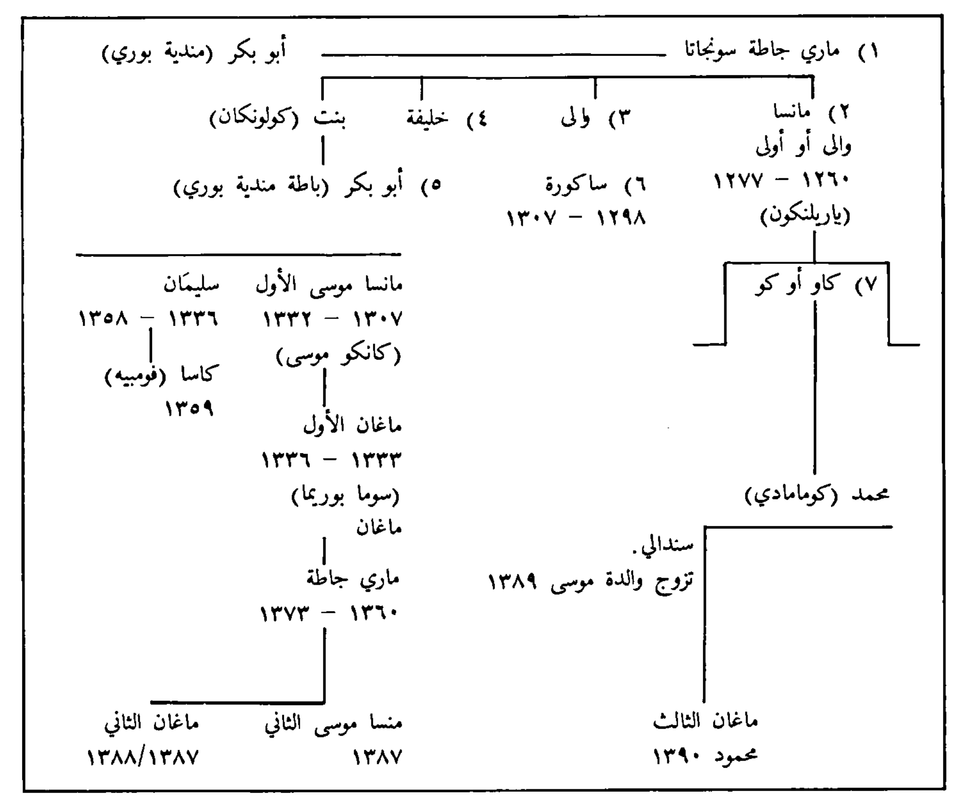
(٥٩) م. ديلافوس، الجزء الثاني، ١٩١٢، ص ١٨٥ – ١٨٦.

(٦٠) ابن بطوطة، «تاريخ»، رقم ٩، ترجمة فرنسية، ١٩٦٦، ص ٦٢ – ٦٣. يروي الرحّالة الشهير كيف أن زوجة المانسا سليمان تآمرت للإطاحة بزوجها. وستتسبّب هذه الفتن الأهلية في انهيار الأمبراطورية.

(٦١) ابن خلدون، في ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٣٤٨ – ٣٤٩. («النص الأصلي»، المجلّد السادس، ص ٢٠٢، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ – المترجم).

ترتيب سلالات مانسا مالي حسب ابن خلدون

ملاحظة : الأسماء بين قوسين مستقاة من الروايات الشفوية



هكذا حدّد موريس ديلافوس مدد حكم سونجاتا مانسا موسى[٦٢].

سونجاته	١٢٣٠ – ١٢٥٥
مانسا ولين	١٢٥٥ – ١٢٧٠
والي	١٢٧٠ – ١٢٧٤
خليفة	١٢٧٤ – ١٢٧٥
أبو بكر	١٢٧٣ – ١٢٨٥
ساكورة	١٢٨٥ – ١٣٠٠
كاو	١٣٠٠ – ١٣٠٥
محمد	١٣٠٥ – ١٣١٠
مانسا موسى	١٣١٢ – ١٣٣٧

(٦٢) بما أن ابن خلدون جعل مدة حكم مانسا موسى ٢٥ سنة فقد وجب التصحيح وتحديد مدة حكمه فيما بين ١٣٠٧ و١٣٣٢. أنظر ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٣٤٣ – ٣٤٦.

انتصار الإسلام في ظلّ حكم مانسا موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢)

مانسا موسى الأول

هو أشهر سلاطين مالي. وكان حجه إلى مكة سنة ١٣٢٥، ولا سيّما إقامته بالقاهرة حيث وزّع الذهب بالقدر الذي أدى إلى انخفاض سعر المعدن الثمين لوقت طويل، سبباً في ذيوع صيته الذي جاوز القاهرة. وكان لهذا الحج نتائج عديدة بالنسبة لتاريخ السودان الغربي اللاحق. فمذ تلك الفترة، شغل السودان الأذهان وتزايد اهتمام مصر والمغرب والبرتغال والمدن التجارية الإيطالية بمالي شيئاً فشيئاً. وقد أسهم مانسا موسى شخصيًا، وكان معتدًا بسلطانه، في إضفاء صورة الثراء الأسطوري على مملكته[٦٣].

وما إن اعتلى العرش، حتى بادر إلى دعم ما تمّ إحرازه وكفل احترام السلطة المركزية. وقد عاضده في ذلك بمهارة قائد محنّك هو ساران منديان الذي لم تقتصر جهوده على توطيد سلطة العهل في سهل النيجر إلى ما وراء غاو فحسب، بل وطّد هذه السلطة في جميع أنحاء «السهل» حيث أخضع الصحراويين الرحّل الذين كانوا ينزعون كثيرًا إلى النهب والتمرّد. وأعدّ ذلك سفر مولاه إلى مكة لأن اغتيال ساكورة على أيدي القبائل الصحراوية كان لا يزال عالقًا بأذهان ملوك المالنكة.

وأعدّ مانسا موسى الأول بدقة سفره إلى مكة. حسبما تقضي به التقاليد، وطلب لذلك مساهمة خاصة من جميع المدن التجارية والمقاطعات. وغادر نياني وسط حراسة كبيرة. وإن الأرقام التي ذكرها المؤلّفون العرب وإن بدت مبالغًا فيها، إلاّ أنها تدلّنا على كل حال على عظمة ملك مالي الذي صحبه ٦٠٠٠٠ حمّال و ٥٠٠ خادم في حلل موشاة بالذهب ويحمل كل منهم عصا من الذهب. وذكر محمود الكعتي في بداية القرن السادس عشر، استنادًا إلى احدى الروايات المدوّنة، أن السلطان كان لا يزال في قصره بينما بلغت طلائع قافلته تومبكتو. وفي القاهرة استقبل مانسا موسى الأول بما يليق بسلطان عظيم مثله. وأكبرت فيه مهابة وأريحية تليق بملوك زمن ألف ليلة وليلة، وهو من الملوك القلائل الذين تناهى إلينا وصفهم. فقد وصفه المقريزي بقوله: «لقد كان شابًا أسمر البشرة، جميل المحيى، حسن الهيئة، عالمًا بفقه المالكية. وكان يبدو بين صحبه حسن الهندام مطهّم الجواد، وفي معيته ما يربو على العشرة آلاف من رعيته، وقد حمل من الهبات والهدايا ما يدهش الرائي لروعته[٦٤].

ويقول حفظة الروايات الشفوية أنه اشترى في مكة والقاهرة الأراضي والدور لايواء الحجيج السودانيين. والمهم أن مانسا موسى قد أقام علاقات قوية مع البلدان التي مرّ بها.

---

(٦٣) كانت لمانسا موسى حاشية عديدة: فقد جاء هذا الملك مانسا موسى من بلده بثمانين حملاً من التبر كل حمل ثلاثة قناطير أو ٣٫٨٠٠ كلغم تقريبًا... وكان يرافقه ٦٠٠٠٠ حمّال ومسبوقًا بخمسمائة عبد يحمل كل واحد في يده وعاء من الذهب يزن ٥٠٠ مثقال، أي نحو ٣ كلغم م. دبلافوس، ١٩١٣، ص ١٨٧). كان واضعو الخرائط يرسمون السودان مع صورة لمانسا موسى وهو يمسك بيده تبرًا.

(٦٤) المقريزي، في ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٩١ - ٩٢.

الباني وراعي الفنون

عاد مانسا موسى إلى بلاده، مبهورًا دون شك بجمال قصور القاهرة وعظمتها. وقد اصطحب معه المهندس المعماري الشهير أبا اسحق الطونجق، فبنى المسجد الجامع بمدينة غاو الذي لم يبق منه إلاّ بعض الحطام وجانب من المحراب. وفي تومبكتو بنى مهندس الأمبراطور الجامع الكبير أو دجينغيريبر وقصرًا ملكيًا أو مادوغو بلغة المالنكة. ولكن أجمل عمل أنجزه الطونجق كان قاعة المجلس الشهيرة التي بناها في نياني وأودعها خلاصة فنه. وكان الملك يريد بناءً متينًا مجصّصًا.

فبنى الطونجق «قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته، وكان صنّاع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني ووقعت من السلطان موقع الإستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفًا من مثاقيل التبر مثوبة عليها»(٦٥).

وما من شكّ في أن مهندس السلطان قد استعمل أكثر المواد شيوعًا في هذه المنطقة من السودان وهي الطين المضغوط والمباني المشيّدة بمثل هذه المادة في الأماكن المماثلة لنياني في موقعها من خطوط العرض، تستدعي الترميم بشكل مستمر. أما شمالي ذلك فإن قلة الأمطار تتيح صون المباني بشكل أفضل. وتلك حال مساجد جينيه وتومبكتو وغاو. ونظرًا لقلّة الحجارة، فقد استعمل الطين المضغوط المقوى بالخشب، وهو ما نتج عنه هذا النمط الطريف من المساجد السودانية المقواة بالأخشاب. وازاء ما توالى على نياني من أعمال التخريب وبعد أن تعرّت الجدران من طبقة الجص التي كانت تغطيها، تحوّل البناء الذي أنجزه المهندس الشاعر إلى كومة من الطين والحجارة شأن معظم مباني نياني، بفعل المياه.

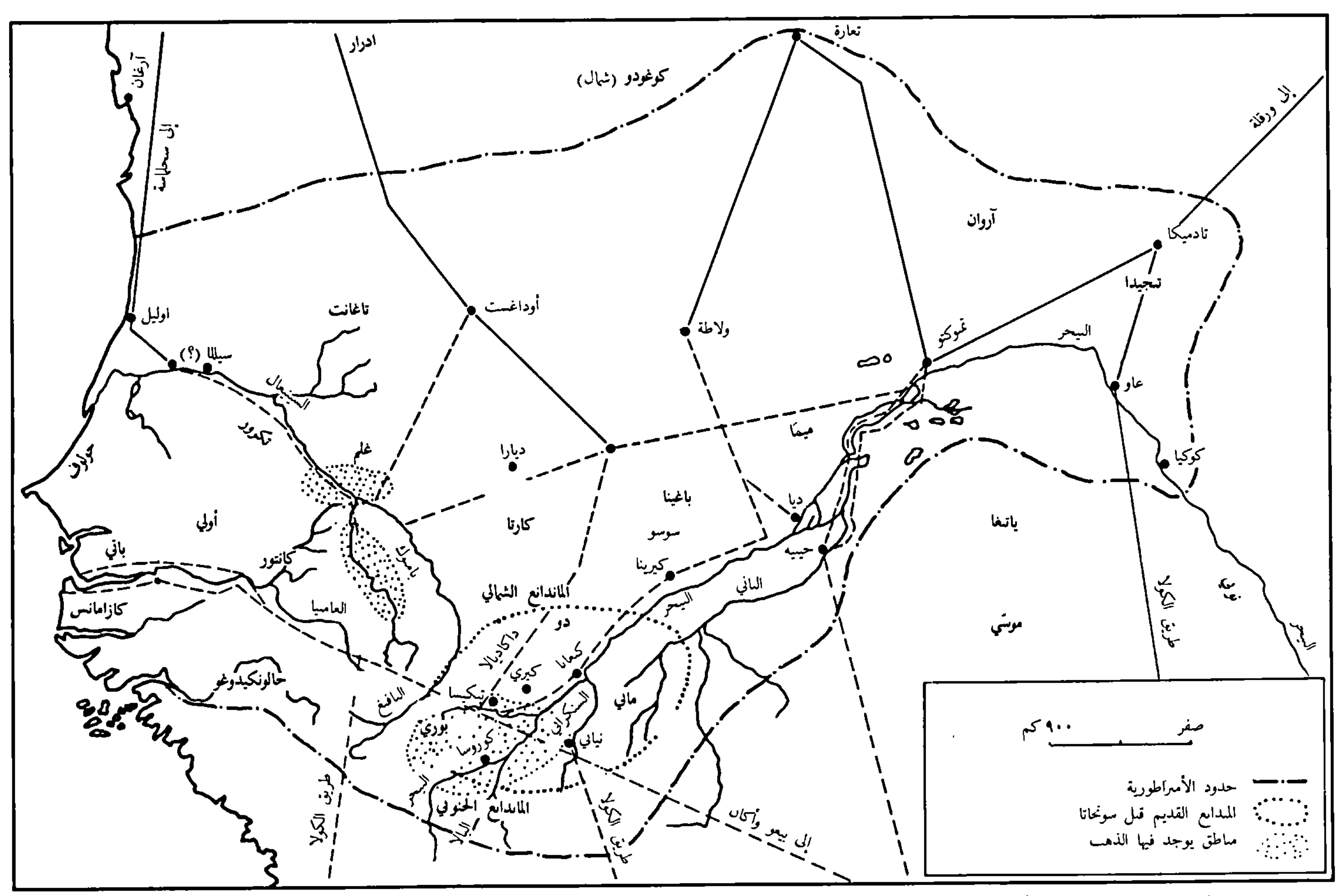
وخلال زيارته للقاهرة، لم يضنّ المانسا بالإجابة على أسئلة العلماء والمتملّقين الذين التفّوا من حوله، فأسهب في الحديث عن مملكته بما لا يخلو من المغالاة. ومن ذلك أنه أكّد «أن له حقًا غير منازع على الذهب الذي يحصله كإتاوه» وذكر ابن أمير عجيب، حاكم القاهرة والقرافة الذي جعله السلطان المملوكي في خدمة الحاج العظيم، بأن عَلَم السلطان كان أصفر اللون على خلفية حمراء. «وكان إذا ركب فرسه ظلّلته الرايات الملكية، وهي أعلام كبيرة». وقال عن مملكته «إن عدد سكانها ضخم، وهم جمع هائل، بيد أنهم إذا قورنوا بالشعوب السوداء التي تحيط بهم والمنتشرة نحو الجنوب، لبدوا كرقعة بيضاء صغيرة على بدن بقرة سوداء». وكان المانسا موسى على وعي تام بوجود شعوب عديدة وممالك عظيمة. كما ذكر العاهل أنه يملك مدينة تسمى تجيده (تاكيدة) (أزليك الحالية) «بها منجم للنحاس الأحمر»، وكان هذا المعدن يقتطع في شكل قضبان تُحمل إلى نياني».

«وقال لي السلطان ليس في مملكتي بأسرها مورد للرسوم يضارع حصيلة تلك المفروضة على الواردات من هذا النحاس الخام: وهو يُستخرَج من هذا المنجم دون سواه. ونرسله إلى بلاد الزنوج الوثنيين حيث نبيعه بواقع مثقال من النحاس لقاء ثلثي وزنه من الذهب. فنقايض اذن مائة مثقال من هذا النحاس بستين مثقالاً وثلثي مثقال من الذهب»(٦٦). كما صرّح المانسا موسى الأول في القاهرة أيضًا بأن سلفه توفي في بعثة بحرية، لأن هذا الملك أبي أن يصدّق أنه يتعذّر بلوغ نهاية البحر المحيط، فصمم على تحقيق هدفه.

---

(٦٥) ابن خلدون، في ج. كوك ١٩٧٥، ص ٣٤٨. (وابن خلدون، المجلد السادس)، ص ٢٠١، طبعة بولاق – المترجم).

(٦٦) العمري، ترجمة فرنسية، ١٩٢٧، ص ٨٠ – ٨١. تفصيل مهم جدًا يشهد على نشاط تجاري مكثّف بين مالي وبلدان منطقة الغابات التي كان يجلب منها زيت النخيل والكولا والذهب. أنظر، الفصل الخامس والعشرون من هذا المجلّد.



• امبراطورية مالي ١٣٢٥ (ج. ت. نياني)

وازاء فشل بعثة ضمّت مائتي سفينة «غاصة بالرجال وسفنًا أخرى مُلئت ذهبًا وماءً وزادًا كافيًا لسنوات...» تولى الملك بنفسه قيادة العمليات فجهّز ألفي سفينة ورحل، لكنه لم يعد أبدًا. فما هو مصير هذه البعثة وما مدى صحة ما رواه المانسا موسى الأول؟ ان بعض الكتّاب مثل فاينر وجيفرز قد أثاروا مشكلة اكتشاف المالنكة لأميركا. وبذلك يكون السود قد بلغوا السواحل الأميركية قبل كولومبس بقرنين! بيد أن القصة تثبت أن الفاتحين المندانغ عندما استوطنوا السواحل، وخاصة في غمبيا، قد اهتمّوا فعلاً بمشاكل الملاحة البحرية(٦٧). وقد اجتذب المانسا إلى بلاطه عددًا من المثقّفين. وكان هو نفسه على ثقافة عربية رفيعة، ولكنه كان يستعين دومًا بالتراجمة للحديث مع العرب. واتّخذ القضاة والكتّاب، وكانت له دواوين حقيقية، إلاّ أنها كانت في الواقع من قبيل مظاهر الأبّهة. وبعد هذه الحجة التي ذاع أمرها، اهتمّ المرينيون في فاس ومدن المغرب التجارية اهتمامًا كبيرًا بمالي وتبودلت الهدايا والسفارات بين عاهلي المملكتين. وفتح مانسا موسى مدارس لتحفيظ القرآن، واقتنى عددًا كبيرًا من الكتب من البقاع المقدسة ومن القاهرة. والراجح أن عهده كان العصر الذي أصبحت فيه ولاته ذات شأن. وبدأ ازدهار جينيه وتومبكتو حتى أصبحتا، بعد قرن مركزين حضريين ذوي صيت عالمي.

وترك مانسا موسى الأول، بوصفه من البناة، أثرًا دائمًا. ولا تزال بصماته باقية في كل المدن السودانية، بفضل تلك المباني من الطين المضغوط المقوى بالخشب. وما مساجد جينيه وتومبكتو إلاّ نماذج لما اصطلح على تسميته بالطراز السوداني.

وإذ كان مانسا موسى، راعيًا للآداب فقد نشأ في رعايته الأدب الزنجي الناطق بالعربية، ذلك الأدب الذي أعطى أفضل ثماره في القرنين الرابع عشر والسادس عشر في مدينتي جينيه وتومبكتو(٦٨).

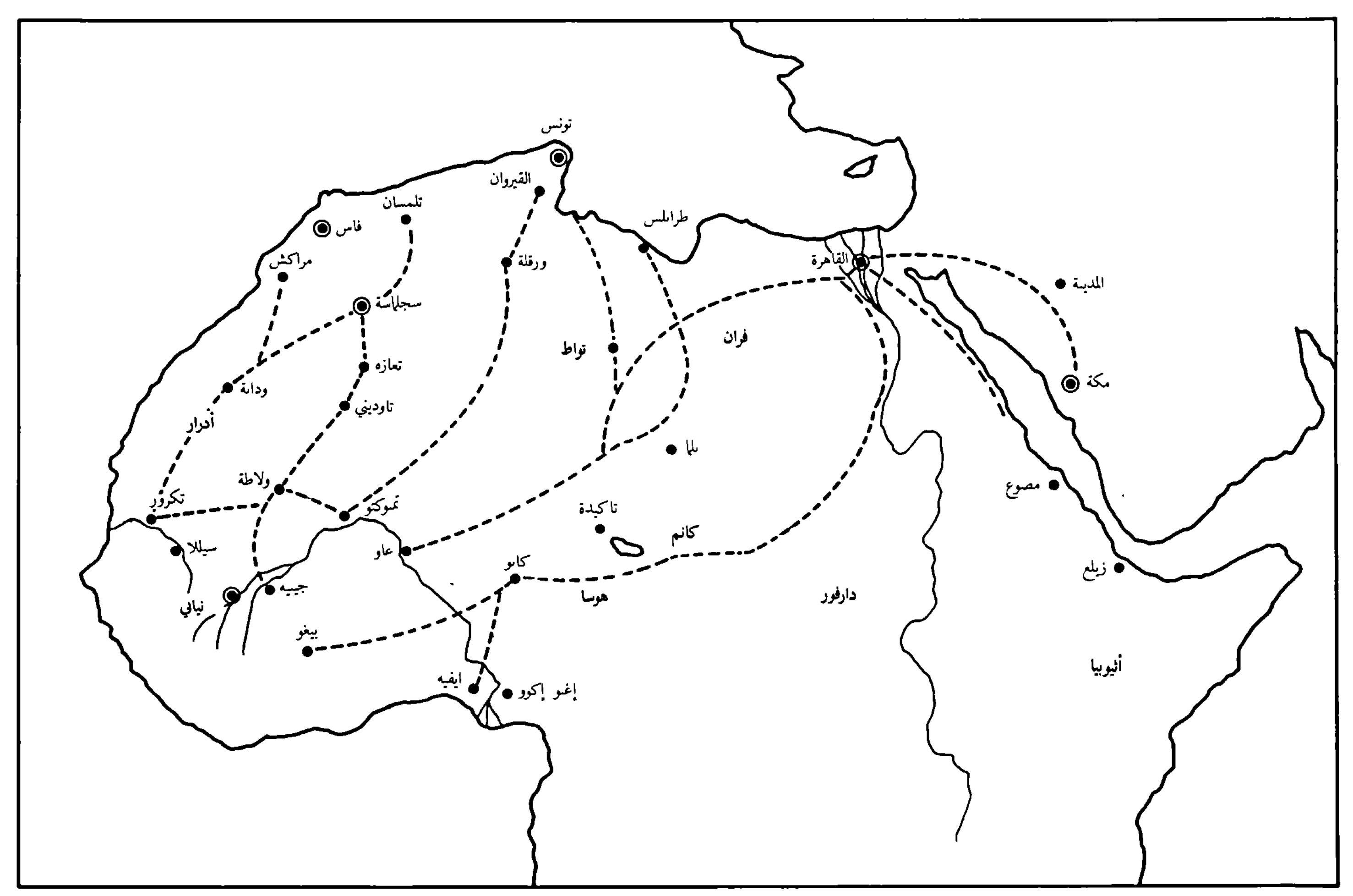
مانسا سليمان

بعد أن حكم ماغان الأول، ابن مانسا موسى، فترة قصيرة آل العرش إلى الوريث الشرعي وهو المانسا سليمان (١٣٣٦ – ١٣٥٨) شقيق مانسا موسى الأول. وفي عهده زار الرحّالة، ابن بطوطة، مالي وأقام في حاضرتها تسعة أشهر. وأكمل المعلومات التي أوردها العمري، وقدّم لنا صورة حية عن حياة البلاط وإدارة شؤون الدولة. وكانت الاحتفالات في البلاط تخضع لمراسم صارمة، وصفها ابن بطوطة تفصيلاً.

يبدو المانسا قبل كل شيء – على غرار كايا ماغان – بصفته المنصف والأب الذي تُرفع إليه الشكاوى من كل الناس. وكان الولاة يمثّلونه في المقاطعات والمفروض أنهم كانوا يُعزلون من مهامهم لدى علم المانسا

(٦٧) ايفان سرتيما، باحث افريقي أميركي تقدّم بافتراض مفاده أن السود قد يكونون أول من ركبوا البحر باتجاه أميركا. وقد تناول في كتابه (١٩٧٦) بالتحليل المدقّق حضارة المكسيك وأميركا الوسطى لكي يستخلص وجود عناصر مندانغية في هذه الثقافات. وهذه النظرية جذّابة لكنها تحتاج إلى تأكيد.

(٦٨) نادرًا ما تذكر الروايات الشفوية مانسا موسى بل إن بعضها تجاهله تمامًا. وقد اتضح بعد بحث طويل أن مانسا موسى يُعتبر «غير وفيّ لتقاليد الأجداد المندان». وكان حجه معروفًا جدًا لدى بعض المعنيين بالروايات التقليدية إذ كان يعاب عليه تبديد كنز المملكة. (أنظر مؤسسة سكوا، ١٩٨٠). ويمكن تحديد ميلاد جمعية كومو السرية التي أحدثها البمبارا أثناء فترة حكم مانسا موسى. وقد كرّست هذه الجمعية القطيعة بين المالنكة (الماندانغ الذين أسلموا) والبمبارا (بان – ما – نا) التي رفضت سلطة المانسا لتظل وفية للديانة التقليدية. أنظر ديوان الأدب المندانغ، في *AKKT*، ١٩٨٠، ص ٢١٥ – ٢٢٧.



• الطرق عابرة الصحراء الرئيسية في القرن الرابع عشر (ج. ت. نياني)

بأنهم اقترفوا مظالم. ويخاطب الرعايا المانسا في خضوع ويغطون ملابسهم بالتراب وينادونه بعبارة: «مفا مانسا» أي «مولاي، وأبي». وكان المانسا يجلس مرتين للاستماع إلى المطالب حسب ما أورده ابن بطوطة، مرة في القصر، في قاعة الجلسات الشهيرة التي بناها موسى الأول، داخل القصر، ومرة أخرى في الخلاء تحت شجرة حيث يُقام العرش ذو الركائز العاجية والذهبية ويأخذ رئيس الجيش (كانكورو سيغي)، والأعيان والحكام والخطيب والفقهاء أماكنهم بينما يقف جيلي أو الشاعر الناطق باسم البلاط مدير الاحتفالات، أمام قاعة «المشور»، مرتديًا الثياب الفاخرة، وعلى رأسه «عمامة ذات حواش، لهم في تعميمها صنعة بديعة، وكان يتقلّد سيفًا غمده من الذهب، وفي رجله الخف والمهاميز، ولا يلبس أحد في ذلك اليوم خفًا غيره. ويحمل في يده رمحين صغيرين أحدهما من ذهب والآخر من فضة، وسنانهما من الحديد»[٦٩].

ولا تقل جلسة السلطان في الخلاء التي يصفها لنا ابن بطوطة فخامة. وقد كانت تُعقد عادةً كل يوم جمعة بعد صلاة الظهر وهي مناسبة يروي فيها الشاعر التاريخ ويذكّر بمخصصات الملوك ومآثرهم. وكانت الروايات الشفهية في أوجها. وكان سرد التاريخ بمثابة موعظة دائمة سواء للبلاط أو للعائلات. وكان الناس يحلفون باسم الملك، واستمرّت هذه العادة في مالي حتى القرن التاسع عشر.

كانت مراسم الاحتفالات في نياني المأخوذة عن مراسم الكايا ماغان، تتم بأبّهة أكبر، والجديد هنا هو أن الملك كان مسلمًا ويحتفي بالأعياد الإسلامية الكبرى. ولكنه ظلّ وفيًا لبعض الممارسات الوثنية. وقد أثارت بعض الممارسات غير المألوفة استنكار ابن بطوطة. وفيما عدا حضور العرب وبعض المظاهر الإسلامية الخفيفة، فإن ما يجري في بلاط الملوك المانسا لم يكن يخالف ما كان بالإمكان مشاهدته في بلاط الملوك غير المسلمين، مثلاً في بلاط ملوك الموسى[٧٠].

كان الأعيان، حسب ما أورده العمري، يرتدون ثيابًا فاخرة مزركشة بالذهب ولهم أسلحة رائعة. وكان العسكريون يتميّزون بكناناتهم، وكانت طبقة النبلاء العسكريين تتكوّن من المنتسبين إلى الفاتحين بينما كان المرابطون السود ينتمون إلى العشائر الخمس حارسة العقيدة (موري كاندا لولو). ويكوّنون طبقة النبلاء المعمّمين.

الحضارة الماندانغية

شعوب الأمبراطورية

كانت مالي في ذروة اتساعها في عهد مانسا موسى ومانسا سليمان، تشمل كامل افريقيا الغربية (بما فيها «السهل» السوداني). وهكذا فقد أُدمجت شعوب وأعراق مختلفة في مجموعة سياسية واحدة.

(٦٩) ابن بطوطة، «تأريخ»، عدد ٩، ١٩٦٦، أخبرنا أيضًا بأن الناس يحلفون باسم الملك وهي عادة استمرّت في مالي حتى القرن التاسع عشر - (ابن بطوطة، «الرحلة»، طبعة دار معارف الشعب، ص ٤٤٦ - المترجم).
(٧٠) أنظر الفصلان التاسع والعاشر من هذا المجلد.

الرحّل والرعاة

كان لكبار الرحّل الصحراويين، المتمثّلين بصفة رئيسية في مسوفة، مجال واسع من المراعي يمتد من ملاّحات تغازة إلى مدينة ولاّته، الملتقى الهام لطرق التجارة عبر الصحراء في مالي. وكان المسوفة أبرز وسطاء تجارة الملح. كما كان أدلاّء القوافل يتخذون من بينهم إذ كان لا بدّ من معرفة تامة بالصحراء للتنقل بين بلاد المغرب بالسودان. وفي الغرب، نحو المحيط الأطلسي، كان بربر لمتونة وصنهاجة وغدالة يقطنون البلاد التي تعرف اليوم بموريتانيا. وكانوا كالمسوفة، ينتفعون من التجارة الصحراوية ويستغلّون ملاّحات إيجيل (إيدجيل).

وكان مجال الطوارق يمتد بين ولاته ومنعطف نهر النيجر. وكان كل هؤلاء الرحّل الصحراويين لا يخلّون بالنظام بفضل الحاميات المرابطة في ولاّته وتومبكتو وغاو وكومبي. وكان هذا الميدان الصحراوي الشاسع يخضع لرقابة قيادة السورا فاران العسكرية[٧١].

سكان «السهل»

وكان «السهل» ينعم آنذاك بمناخ ألطف، وكانت المراعي من الوفرة بمكان. وفي هذه المنطقة توجد مدن السودان الشمالية مثل تكرور وأودغوست وكومبي وولاّته وتومبكتو.

وكانت أقوام الفولبي، رعاة الأبقار، تعيش مترحلة في المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسي من مصب نهر السنغال حتى منعطف نهر النيجر. وكانت أكثر ما تمارس الانتجاع في مراع محدودة. بيد أن مجموعات من هذه القبائل تسلّلت في القرن الرابع عشر موغلة نحو الجنوب ونزعت إلى الاستقرار خاصة بمنطقة جينيه وعلى الضفة اليمنى لنهر سنكراني، في مستوى نياني، وبمنطقة تكرور[٧٢].

وكان مزارعو «السهل» من التكاررة[٧٣] والسوننكة والهونغي الذين أسلموا باكرًا، (القرنان الحادي عشر والثاني عشر) يعيشون في قرى كبيرة. وكانت المواصلات، اليسيرة في هذه الربوع المنبسطة، تساعد على إنشاء مدن جديدة وثقافة مشتركة، حتى وإن لم تكن الشعوب المعنية تتكلّم لغة واحدة.

شعوب السفانا

هذه الشعوب، هي، من الغرب الى الشرق، شعوب الولوف والماندانغ والسوننكة. وقد هرع المالنكة، بعد غزوات تيراماغان، إلى الكازامنس والى منطقة سينغمبيا للاستقرار فيها بأعداد غفيرة. وكانت هذه المناطق الغربية أراضي استيطانية. ويثور التساؤل عما إذا لم يكن حلول المالنكة في منطقة

---

(٧١) أنظر أعلاه: حماية الأمبراطورية.

(٧٢) أدّى احتلال قبائل الفولبي الضفة اليمنى لنهر سنكراني بعد ذلك بقرنين إلى ميلاد مقاطعة واسولو. وقد تخلّت أقوام الفولبي في هذه المنطقة عن لغتها لتتكلّم بالمالنكه. وربما بدا تسلّل قبائل الفولبي إلى فوتا جالون، وتكرور، والبوندو وإلى مسينا حوالى القرنين الحادي عشر والثاني عشر ليتكثّف بداية من القرن الخامس عشر.

(٧٣) المعروف ان توكولو هي تحريف لتكرور. وكان المعنيون أنفسهم يطلقون على أنفسهم عبارة «هال بولار – أن» (الذين يتكلّمون لغة بول أو بولار). ولكن كل جيرانهم من الولوف وسيرير، يسمونهم توكولور. وهم مزارعون أكثر مما هم تجار أو رعاة. ويحشر علماء اللغويات لغة بول أو بولار وكذلك الولوف والسيرير في نفس الفصيلة اللغوية غربي المحيط الأطلسي.

السنغال وغمبيا سابقًا لعهد سونجاتا. ومن المحتمل جدًا أن يكون التجار الأولياء من السوننكة والمالنكه قد تردّدوا على هذه المناطق قبل القرن الثالث عشر بزمن طويل(٧٤). وعلى الساحل بين غمبيا ونهر ريو غراندي، كانت جماعات المزارعين من أقوام بيافادا وبالنته وفيلوبه وباينوكه، المشهورة بحذقها لزراعة الأرز، محاطة بالمالنكة.

في أواسط القرن الخامس عشر، اتصل الملاحون البرتغاليون بسلاطين مالي عندما بلغوا مصب نهر غامبيا – وبواسطتهم نعرف أن هذه المناطق الغربية قد اصطبغت بشكل قوي بالطابع الماندانغي(٧٥).

ونعرف أيضًا، من مؤرّخي تمبكتو، أن مالي كانت آهلة بالسكان وكانت منطقة جينيه كثيفة السكان، حسب ما أورده مؤلّف تاريخ السودان الذي يقول: «كان إقليم جينيه خصبًا آهلاً بالسكان. وكانت تقوم به أسواق عديدة كل أيام الأسبوع ويؤكّد بعضهم أن هذا الإقليم كان يعد ٧٠٧٧ قرية قريبة جدًا من بعضها البعض. والحدث التالي يكفي لإعطاء فكرة عن تقارب هذه القرى. فمثلاً إذا رغب السلطان في استدعاء أحد سكان قرية من القرى المجاورة لبحيرة ديبو، فما على الرسول المكلّف بهذه المهمة إلاّ أن يتوجّه إلى أحد أبواب المدينة حيث يتلو الرسالة المكلّف بنقلها بصوت عال. ويتولّى الناس ترديد هذا النداء، من قرية إلى أخرى، فلا تلبث الرسالة أن تصل إلى المعنى فيلبي الدعوة»(٧٦).

وإذا لم نقبل بوجود ٧٠٧٧ قرية في إقليم جينيه، فإنه يجدر بنا أن نسجّل في معرض الحديث الروايات الشفوية كوسيلة إبلاغ.

ويقول محمود الكعتي، إن مالي «تضم حوالى ٤٠٠ مدينة وإن أرضها في غاية الثراء. ولا وجود بين ممالك العالم الأخرى لبلد أجمل منها سوى سورية التي كان سكانها أثرياء ويعيشون في يسر»(٧٧). ولا تعني هذه الأرقام سوى أن البلاد كانت آهلة جدًا بالسكان، ويمكن التسليم بأن عدد سكان مالي كان يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ مليون نسمة. وكانت أودية النهر (النيجر والسنغال) تعجّ بالبشر. وكان تعداد سكان العاصمة نياني في القرن الرابع عشر لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ نسمة(٧٨).

ولكن لم يهتم سلاطين مالي، فيما يبدو، بضفة النيجر اليمنى في محاذاة تومبكتو، وذلك على خلاف ملوك غاو من بعد الذين نصّبوا حاكمًا في هومبوري في سفوح الجبال(٧٩)، قرب بلاد الدوغون.

وثقافة الدوغون من أكثر الثقافات المدروسة في افريقيا السوداء ولكن من زاوية اثنولوجية قصيرة النظر لا تسمح بتحديد وضع الدوغون من الناحية الزمنية بالنسبة إلى السكان السودانيين الآخرين. وتتميّز أعمال

(٧٤) أنظر محاضرتي س. م. سيسوكو وم. مانيه في الندوة حول «الروايات الشفوية في غابو»، ١٩٨٠.

(٧٥) أنظر الفصلين ٧ و١٢ فيما يلي؛ أ. دونليا، ١٩٧٧، ص ١٠٧ – ١٢١؛ محاضرة ي. ب. كاكيه في الندوة «حول الروايات الشفوية في غابو»، ١٩٨٠.

(٧٦) السعدي، ١٩٦٤، ص ٢٤ – ٢٥.

(٧٧) محمود الكعتي، ترجمة ١٩٦٤، ص ٦٧.

(٧٨) في بداية القرن السادس عشر، عندما لم تعد نياني ذلك المصر السوداني الكبير، قدر ليون الإفريقي عدد سكانها بـ٦٠٠٠ عائلة أي نحو ٦٠٠٠٠ نسمة على أساس معدل ١٠ أشخاص لكل عائلة. وهذا أدنى حد في افريقيا.

(٧٩) محمود سهاتي، ١٩٦٤، ص ١٥٠ (٨)، ص ٢٥٤ – ٢٥٥. توفي الشيخ على إثر عودته من حملة من ناحية التومبو أو الهابية أو الدوغون، سنة ١٤٩٢. وتقول احدى الروايات المستقاة في نياني أن غزوات سلالة كيتا امتدّت إلى حد (الكادو كورو (جبال الدوغون). وتنسب هذه الغزوات إلى سيريه نانديوغو، أحد ملوك القرن السابع عشر، وهو ما يؤيّد هذا الزعم نظرًا لأن نياني لم تعد لها السيطرة حينذاك على مجمل بلاد المالنكة. فقد تفككت الأمبراطورية.

ر.م.أ. بيدو بالابتكار المتمثّل في محاولة بيان الصلة بين الدوغون والتلان وشعوب أخرى من شعوب منعطف نهر النيجر من زاوية اجتماعية تاريخية. وآثار الدوغون الفنية مشهورة في العالم بأسره لكن أجملها ليس في متحف باماكو بل في المتاحف الأوروبية ضمن المجموعات الخاصة الأوروبية والأميركية[٨٠].

قبائل الدوغون

تمتدّ داخل منعطف نهر النيجر هضاب صخرية أشهرها هضبة بانديا غارا. وهي تنتمي إلى كتلة هومبوري الجبلية. وكانت قبائل الدوغون تعيش في هذا الموقع الجبلي دون أن يكون لملوك مناطق السفانا نفوذ يُذكر عليها. فقد كانت هذه الأقوام تعيش في قرى صغيرة معتصمة بسفوح الجبال[٨١]، وقد مُنيت جميع المحاولات الرامية إلى السيطرة عليها بالفشل. فمن هم هؤلاء الدوغون؟ تقول رواياتهم الشفوية أنهم نزحوا من بلاد الماندي إلى الجبال، وقد يرجع استقرارهم في موقع سانغا[٨٢] إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وقد تكون قبائل الدوغون وجدت بالجبال سكانًا آخرين أطلقت عليهم اسم التلم، (ومعناه «وجدناهم بالمكان»). وقد يكون هؤلاء السكان غادروا البلاد لدى حلول قبائل الدوغون ليستقرّوا ببلاد ياتنغا.

ومن المسلّم به اليوم أن قبائل الدوغون قادمة من المناطق الجنوبية (الماندي)، ولكن العديد من التساؤلات حول الدوغون والتلم لا تزال بلا جواب. والدراسات المقارنة التي أُجريت على الأواني الفخارية للدوغون ومالنكة نياني – الخزفيات ذات الساق – قد تبعث على الاعتقاد بأن اتصالات قد وقعت بين العرقين.

وثمة ثقافة مشتركة كانت تربط بين هؤلاء السكان «للسهل» السوداني. وقد أسهم الإطار الذي خلقته الأمبراطورية في دعم النقاط المشتركة وتخفيف الخلافات بفضل نظام الاتصال والأسماء وأواصر القربى والنسب الوهمي بين الماندانغ والفولبي وبين الفولبي والولوف وبين الماندانغ وشعوب «السهل» بصفة عامة.

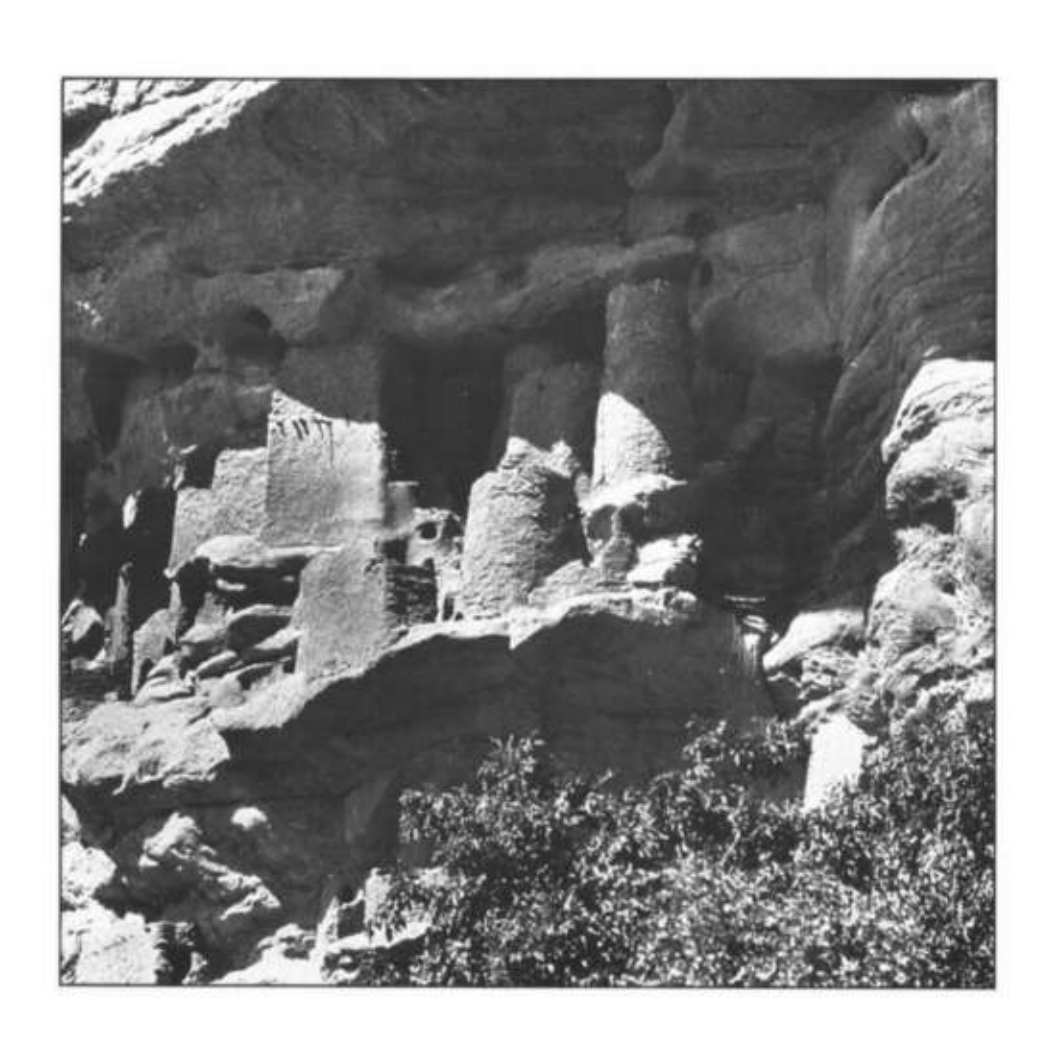
التنظيم السياسي والإداري

كانت هذه الأمبراطورية الشاسعة، في آخر الأمر، بمثابة اتحاد تعاهدي (كونفدريالي) تحتفظ كل مقاطعة في إطاره باستقلال واسع، وكما سبق أن رأينا، فإن ممالك تابعة مثل غانا وميما، لم تكن مرتبطة بالسلطة المركزية برابطة هي أقرب إلى الولاء الرمزي.

(٨٠) أنظر م. غريول، ١٩٣٨ و١٩٦٦؛ س. م. سيسوكو، ١٩٦٨، في *BIFAN*، مجلّد ٣٠، السلسلة ب. ص ٨٠٦ – ٨٢١؛ ج. روش، ١٩٥٣، في *BIFAN*، و١٩٧٣؛ ر. م. أ. بيدو، ١٩٧٢، في *JSA*، المجلّد ٤٢، رقم ٢، ص ١٠٣ – ١٨٥، و١٩٧٤ في *JSA*، المجلّد ٤٢، رقم ١، ص ٧ – ٤٢؛ ل. ديبلاني، ١٩٠٧.

(٨١) تسمى قبائل الدوغون هابيه من قبل الفولبي وكادو من المالنكة. وترجع الروايات الماندانغية أصل الدوغون إلى الماندي ولكن هذا الزعم يحتاج إلى تحقيق.

(٨٢) ر. م. أ. بيدو، ١٩٧٧، ص ٨٧، ٩٢.

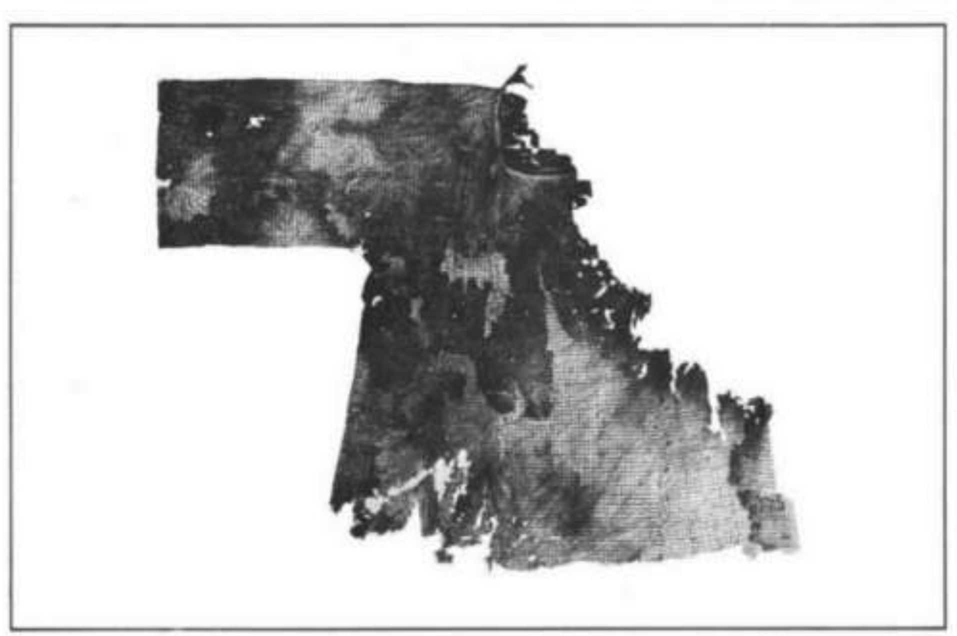


• يبغوي منظر الكهف «P» في تيليم :
أهراء حبوب من الطوب النيئ
(تيليم المرحلة الثالثة ، القرن ١٢-١٤).



١

٢



١. يبغوي : كأس من تيليم بأربع أرجل وقاعدة من الكهف «D»
(تيليم المرحلة الثانية القرن ١١-١٢)

٢. يبغوي : قميص من القطن وُجد بالكهف « »
(تيليم المرحلة الثانية ، القرن ١١-١٢)

السلطة المركزية

المانسا هو رئيس الحكومة ، فهو مصدر السلطان . وهو محاط بعدد من كبار الموظفين وذوي المناصب الرفيعة يختارون من المنتسبين إلى صحابة سونجاتا .

وفي بلاد الماندي ، فإن القرية نفسها أو الدوغو كانت لها مكانتها الأساسية في الصرح السياسي . وعادة يسكن القرية أفراد ينتسبون إلى نفس الأصل . ومجموعة قرى خاضعة لسلطة رئيس واحد تكوّن مقاطعة أو كافو (جامانا) .

وكان كيتا ملك الماندي ، في الأصل ، رئيسًا ضمن نفر من الرؤساء الآخرين ، والأمر الذي جعل منه ملكًا ذا نفوذ هو اتحاد مقاطعات دو وكيري وباكو . وأصبح ملك الماندي ، بفضل فتوحات سونجاتا ، وخلفائه ، مانسا أو أمبراطورًا يخضع لسلطانه عدة ملوك . وتشكّلت الأرستقراطية العسكرية من المنتسبين إلى قواد سونجاتا . وهم يؤلّفون ، حول المانسا ، مجلسًا مسموع الرأي فيما يتّخذه العاهل من القرارات . وهناك شخصية بالغة الأهمية هي الشاعر الحاجب . وقد أورد ابن بطوطة معلومات عن مهامه في بلاط المانسا سليمان ، يُستفاد منها أنها كانت مهامًا وراثية . ويُختار شاعر المانسا دائمًا من بين عشيرة كوياتي المنحدرة من بالافيسيكي ، شاعر سونجاتا . والشاعر هو أولاً الناطق باسم المانسا لأنه كان على المانسا أن يتكلّم بصوت خافت فيردّد الشاعر كلامه بصوت عال . وكان حملة البريد يغادرون نياني يوميًا على متن الجياد ، أما القادمون منهم من المقاطعات فكانوا يتوجّهون إلى شاعر المانسا . كما كان الشاعر هو مؤدّب الأمراء وهو الذي كان يتولى مهام رئيس التشريفات ويقود تخت البلاط[٨٣] .

وفي القرن الرابع عشر ، منذ المانسا موسى ، كان للملك طائفة من الكتبة كانوا لا يضطلعون بمهامهم إلاّ إذا وجّه المانسا رسائل إلى السلاطين أو يتلقّى منهم شيئًا منها . وفيما عدا ذلك كان الأسلوب الشفوي هو الشكل المعتاد لنقل الرسائل أو حفظها .

وقد حرص الأمبراطور دومًا على أن يؤدي دوره باعتباره « أبا الشعب » ، ولذلك كان يجلس للقضاء[٨٤] بنفسه في جلسات مشهودة لسماع شكاوى رعاياه ضد الولاة أو « الفاران » الذين يمثّلونه في المقاطعات . وكان يقضي في المنازعات بين الأفراد وفق قوانين البلاد[٨٤] .

وهكذا ، فعلى الرغم من شتى مظاهر البلاط الإسلامي المحيطة بالمانسا ، فإنه قد ظلّ عميد القوم ، والأب الذي بإمكان الجميع أن يقصده طلبًا للعدل . وكان له في المقاطعات قضاء يعيّنهم بنفسه ويقضون وفق النصوص القرآنية .

الموظّفون

باستثناء الشاعر الذي وصف ابن بطوطة دوره الهام ، فليست لدينا معلومات كافية عن موظفي السلطة المركزية الآخرين . ويقول نفس المؤلّف إن من أعوان المانسا المباشرين نائب عام لم تكن مهامه محدّدة تمامًا ، وكان بمثابة قائد للقوات المسلحة[٨٥] .

---

(٨٣) ابن بطوطة ، في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٣ – ٣٠٥ .

(٨٤) العمري ، ١٩٢٧ ، ص ٥٧ – ٥٨ ؛ ابن بطوطة ، في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٣ – ٣٠٥ . كان القرويون يقطعون عشرات الكيلومترات سيرًا على الأقدام للشكوى من مظالم الولاة . وكان المانسا يفصل في القضايا . فإذا كان الوالي مذنبًا عزل . أنظر ابن بطوطة ، في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٩ .

(٨٥) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ . أنظر أيضًا الفصل ٨ من هذا المجلّد . يبدو جليًا أن الصنغي قد استوحوا هياكل مالي

وكان السانتيجي (أمين الخزانة) بمثابة وزير للمالية. والسانتيجي في الأصل هو أمين مخازن الغلال الملكية. ومع نمو مصادر الدخل أصبح أمين خزائن الذهب والثروات الأخرى (من عاج، ونحاس، وأحجار كريمة). وكان يمارس هذه الوظيفة في أول الأمر عبد من عبيد الملك.

ويُستفاد من الروايات الشفوية أن طوائف الحرفيين كان يمثّلها لدى المانسا رؤساء يتلقّون الأوامر لينقلوها إلى طوائفهم. وهكذا كان كل من رؤساء الحدادين والنوتية وصيادي الأسماك والاسكافيين مسؤولين في الواقع عن طائفة حرفية حقيقية.

حكم المقاطعات

كانت الأمبراطورية مكوّنة من مقاطعات وممالك تابعة. وعلى رأس كل مقاطعة وال (أو فاران).

وكانت الأمبراطورية، في أوج عظمتها، في القرن الرابع عشر، تشمل اثنتي عشرة مقاطعة[٨٦]، وأهمها: مقاطعة تكرور التي تشغل الحوض الأوسط والأدنى لنهر السنغال – وقد كانت، في الواقع، مملكة أُخذت بقوة السلاح – وكانت تشتمل على مدن تجارية عديدة مثل سيلا وتكرور التي أُطلق اسمها على البلاد، ومقاطعة بامبوغو الشهيرة بمناجم الذهب وسكانها جميعهم أو جلّهم من المالنكة، ومقاطعة زاغا أو ديا، بلاد ديافونو بوادي النيجر الأوسط، ومقاطعة غاو أو صونغي وهي مملكة فتحها خلفاء ماري جاته، وكانت عاصمة غاو في القرن الرابع عشر مركزًا سياسيًا واقتصاديًا عظيم الازدهار. ومنذ نهاية ذلك القرن تخلّص الصونغي من سيطرة المندانغ، وكانت مقاطعة سنغانة (موريتانيا الحالية) التي ذكرها العمري هي أراضي قبائل سنغانة وغدالة المترحّلة، وهناك أخيرًا مملكتا غانا ومما حليفتا سونجاتا منذ الساعات الأولى. أما مقاطعة الماندي، التي توجد بها العاصمة، فكانت خاضعة للمانسا مباشرة.

وكانت كل مقاطعة تتكوّن من عدة أقسام تنفرد بالواحد منها أحيانًا عشيرة. والحكم الإقليمي هو نموذج مصغّر للحكم المركزي. وكانت تحيط بالفاران حاشية من كبار الموظفين والأعيان تحظى عاداتهم وتقاليدهم باحترام هذا الحاكم. وتتألّف أقسام المقاطعات من مجتمعات قرويّة مجمّعة تحت سلطة رئيس تقليدي محلي (دوغوتيجي).

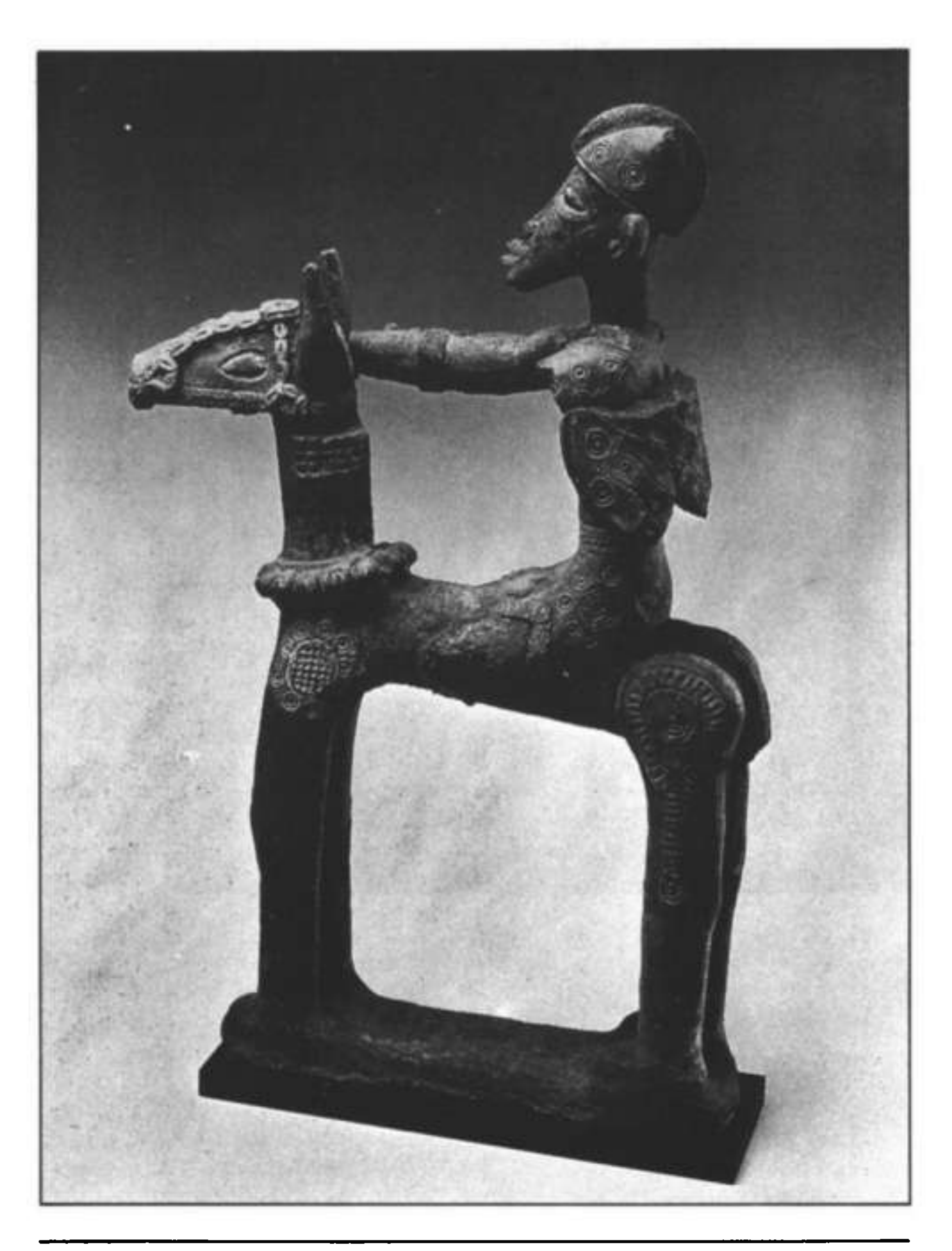
وإن تنظيم المقاطعات المرن الذي تمثّل في الاعتماد على الرؤساء المحليين مع الإشراف عليهم، قد كفل لمالي استقرارًا كبيرًا. فقد أمن الناس على أنفسهم وأموالهم بفضل سياسة ناجعة وجيش ظلّ أمدًا طويلاً لا يُقهر.

الإدارية. إذ كانت توجد عدة وزارات في غاو يرجع أصلها إلى عهد مالي. ولنذكر من بينها وزير المالية أو «خالص فارما» ووزير البيض (الأجانب) أو كوراي فارما، وكان «الكنفاري» أو «البالاما» بمثابة نائب للملك أو أمين الأمبراطورية العام. وكان «الواناي فارما» عند الصنغي نظير السانتيغي عند المالنكة: فهو رئيس النظافة. وكان «الساو فارما» هو «التوتيغي» عند الماندانغ أي سيد الغابات. وفي مالي كان رئيس الحدادين يشغل هذه الوظائف التي كان يمارسها في الماضي أمير الأسرة المالكة. و«الهاري فارما» عند الصنغي هو «الدجى تيغي» عند المالنكة أو سيد المياه (سومونو أو بوزو).

(٨٦) العمري، ١٩٢٧. بعض المقاطعات التي ذكرها العمري لم يتم التعرّف عليها. وقد يكون ذلك راجعًا إلى تحريف في الأسماء.



• امبراطورية مالي :
مجموعة من الفرسان وجدت في منطقة باماكو
(حوالي القرن ١٤-١٥)



• امبراطورية مالي:
تمثال فارس وجد في منطقة باماكو
(تأريخ بالإضاءة الحرارية:
٦٨٠ + ١٠٥ قبل ١٩٧٩، أي ١١٩٤-١٤٠٤)

الجيش

معلوماتنا عن عدد أفراد الجيش غير كافية. ويبلغ الرقم الذي تورده الوثائق العربية عادة ١٠٠ ٠٠٠ رجل وهو رقم تقريبي ليس إلاّ. وكانت قوة هذا الجيش تكمن في استعداد الماندان الحربي وحرصهم على النظام وهم الذين كانوا عماد ذلك الجيش. وكانت هناك حامية في أبرز مدن الأمبراطورية مثل ولاته وغاو وتومبكتو، ونياني، الخ... وكانت سلطة المانسا الفعلية تمتدّ إلى تغازة. ويمكن تبيّن مدى ما كان لمالي من هيبة مما ذكر عن استنجاد بعض الأمراء المغاربة المخلوعين بمانسا موسى لاستعادة عرشهم[٨٧].

وكانت الأرستقراطية العسكرية وطبقة النبلاء العسكريين تفضّل ممارسة وظائف عسكرية. وكانت طبقة الفرسان مكوّنة من التون – تيغي أو «الرماة» وتمثّل، منذ عهد سونجاتا، نخبة المقاتلين. وتجلب الخيول في معظمها من تكرور ومن الجولوف ولكن سرعان ما ازدهرت تربيتها في سهل النيجر. وكان الفارس الماندانغي مسلحًا، بالإضافة إلى الكنانة والقوس، برماح طويلة وسيوف[٨٨]. وكان الفرسان، باعتبارهم صفوة مقاتلة، يخضعون مباشرة لأوامر المانسا. بينما يخضع المشاة لأوامر طبقة صغار النبلاء وكان سلاحهم الرماح أو السهام حسب المنطقة التي ينتمي إليها الجنود. فالجنود الماندي يتسلّحون غالبًا بسهام وكنائن، بينما كان للجنود الصحراويين دروع من الجلد ويقاتلون بالرماح. ولم يكن للأمبراطورية في أوج قوتها، فيما يبدو، جند من العبيد. ولم يظهر هؤلاء إلاّ مؤخرًا في جيش مالي. وكانت كل مقاطعة تقدّم قوة من الرجال الأحرار. وكفل وجود الحاميات في المدن وقوات كبيرة العدد في المناطق الحساسة (منطقة «السهل» والصحراء) من الحدود الأمبراطورية ضمانة للأمبراطورية من الانتفاضات وغارات جيرانها لمدة طويلة.

الحياة الاقتصادية

الزراعة

كانت امبراطورية المانسا معروفة في الخارج بثروتها من الذهب، بيد أن اقتصادها كان يرتكز على الزراعة وتربية الماشية اللتين كانتا تشغلان الجزء الأوفر من السكان. ولا نعرف الأنشطة الريفية تفصيلاً. لكن الوثائق المكتوبة التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر، تكشف بكل تأكيد وفرة المواد الغذائية. وكان الأرز يُزرع في أودية نهري النيجر والسنكراني، في منطقة السنغال وغمبيا وفي كابو[٨٩]، في حين أن الدخن، الذي تفضّل له التربة الجافة، كان المحصول الرئيسي لمنطقة «السهل» التي تسقط فيها الأمطار لمدة شهرين أو ثلاثة، كما كانت تزرع الفاصوليا والخضروات العديدة الأخرى. وقد نوّه ابن بطوطة بوفرة الأغذية في مالي، فالمعيشة ليست باهظة التكاليف، وليس بالمسافر حاجة إلى التزوّد بالمؤونة

(٨٧) ابن خلدون، في ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٣٤٧؛ ب. كاكيه، محاضرة في الندوة حول «الروايات الشفوية في كابو»، ١٩٨٠، ص ٤٦ – ٥١.

(٨٨) العمري، ١٩٢٧، ص ٥٧ – ٥٩؛ ب. كاكيه، ١٩٨٠.

(٨٩) عن الملاّحين البرتغاليين، ومن بينهم فالنتيم فرنانديس، ١٩٥٦.

نظرًا لوفرة الأغذية في كل قرية(٩٠).

وهذه الثروة الزراعية هي التي كانت تمكّن المانسا من مواجهة احتياجات جيش كبير العدد، ومن الاضطلاع بدور «أبي الشعب»، بالإكثار من الولائم للرعية.

وكلما جنى محصول، تعيّن الوفاء للمانسا أو لممثليه، بنصيب ولو رمزي، فقد كان الخروج عن طاعة المانسا يتجلّى في رفض تقديم باكورة المحصول إليه. وفي منطقة الماندي جرت التقاليد على تقديم باكورة محصول الأنيام (البطاطا) إلى رئيس القبيلة، باعتبار ذلك مظهرًا من مظاهر الاحترام، وكان المانسا ينزل عقابًا صارمًا بسارقي الأنيام. وانتشرت زراعة القطن على نطاق واسع في الأمبراطورية، في نهاية القرن الخامس عشر، إذ أن الملاّحين البرتغاليين يتحدّثون عن ثروة الكازامنس الكبيرة من القطن، الذي كان يقايض بالحديد.

تربية الماشية وصيد الأسماك

كانت شعوب «السهل» كالغولبي، تنفرد بتربية الماشية. وفي القرن الرابع عشر أصبح معظم الريفيين في وادي النيجر، يمارسون أيضًا تربية البقر والأغنام والماعز، وفي ذلك العهد، استقرّت بعض جماعات من الغولبي في الجولوف، وفي التكرور والماندي، حيث اجتذبتها مراعي الوادي الوفيرة.

وكان صيد الأسماك تمارسه جماعات عرقية متخصّصة جدًا: السومونو في أعالي النيجر والبورو في حوض النيجر الأوسط والسوركو فيما بين تومبكتو وغاو في بلاد الصنغي. وكان السمك المدخن أو المجفّف يغلّف في سلال كبيرة ليُباع في كافة أنحاء الأمبراطورية بما فيها المناطق الواقعة على حافة الغابات في الجنوب. وكان سمك موبتي (المدينة التي حلّت محل جينيه)(٩١)، يستهلك إلى وقت غير بعيد في غانا (المعاصرة) وساحل العاج وفولتا العليا.

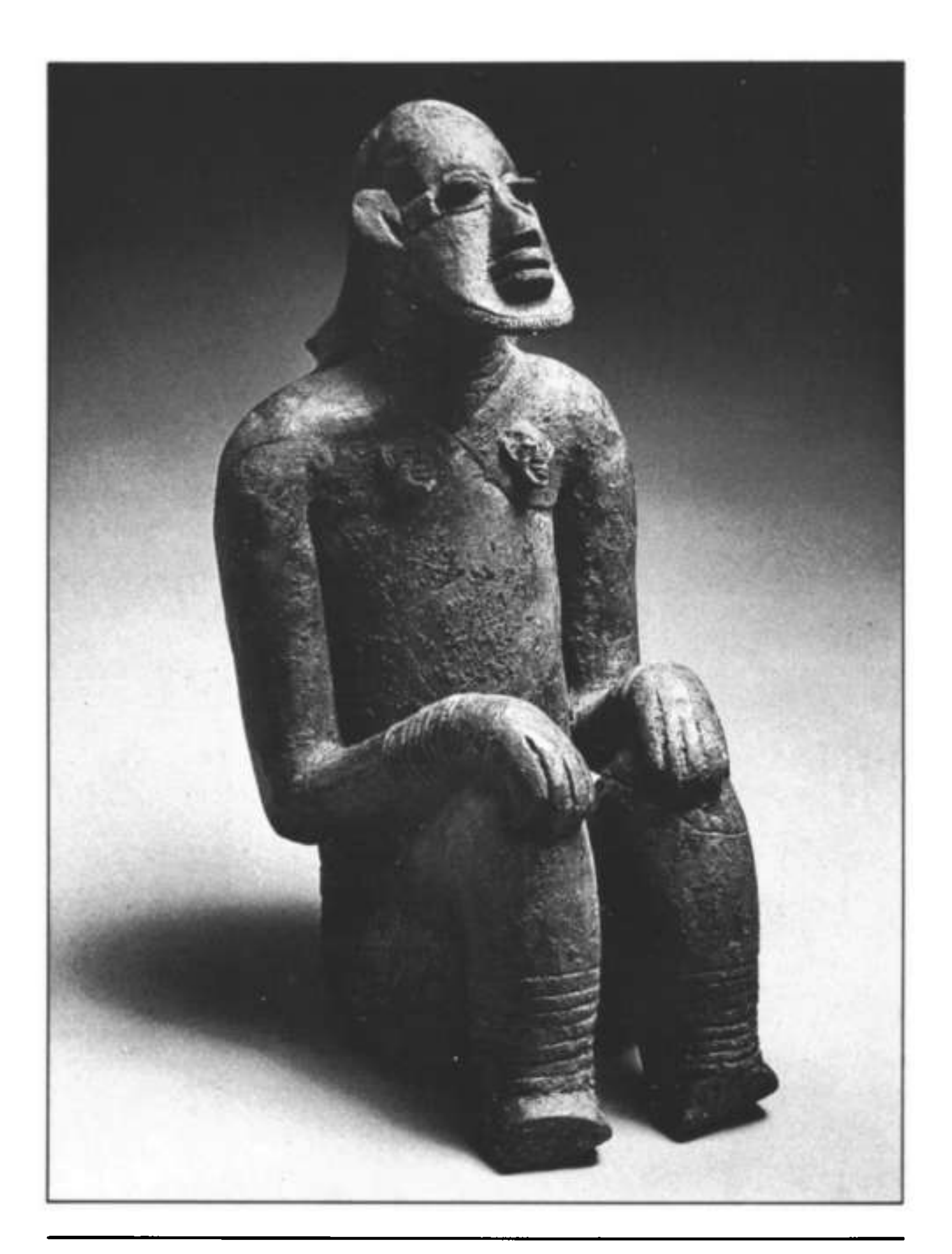
الحرفيون

كانت الحرف وقفًا على أهل الطوائف. ومنهم الحدادون الذين انفردوا بالحدادة. وكان الحديد وفيرًا في جبال الماندي وكذلك في منطقة نياني. وكان الحدادون(٩٢) يصنعون الأدوات الزراعية (كالرفش – دايا – والمنجل) والأسلحة. وكانت للمانسا ورش حدادة كبيرة في نياني. وكانت الجلود التي تعالجها طوائف الاسكافيين تمثّل ثروة لأن بلدان الشمال كانت تستورد منها كميات كبيرة. وكانت صياغة الذهب حرفة لها مكانتها، مارسها في مقاطعة الماندي فئة من الحدادين تُدعى «سياكي» (صائغي) تقطن المراكز

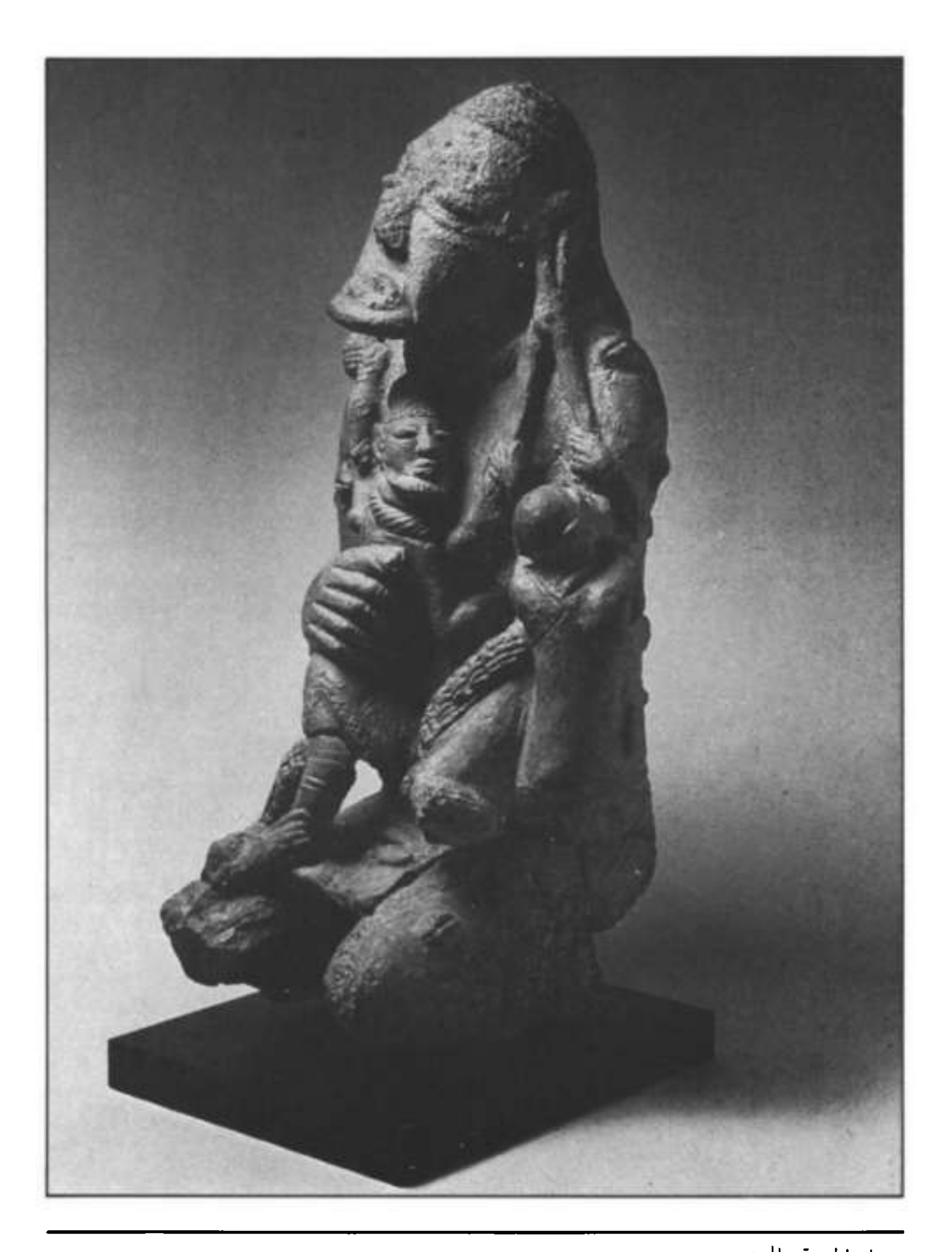
(٩٠) العمري، ١٩٢٧؛ الأنيام (البطاطا) يسهل حفظها، وهي تستعمل كغذاء تعويضي خلال المشتى وهنالك أناشيد للماندان تشيد بفلاحة الأرض. ولا يأنف النبلاء من فلاحة حقولهم. فالزراعة تأتي بعد الحرب ضمن الأنشطة العادية، لكل رجل حر. ويرتبط صيد الحيوان ارتباطًا وثيقًا بالزراعة. وهذان النشاطان هما الوحيدان اللذين يمكن للنبلاء ممارستهما دون الإخلال بمقتضيات مكانتهم.

(٩١) أنظر الفصل ٨ من هذا المجلّد. كانت الأتاوات المفروضة على الصيادين والمزارعين تحدّد طبقًا للعرف وتدفع عن كل عائلة. وتبعث هذه الاتاوات الثابتة على الاعتقاد بأن رق الأرض كان ممارسًا أكثر من الاستعباد.

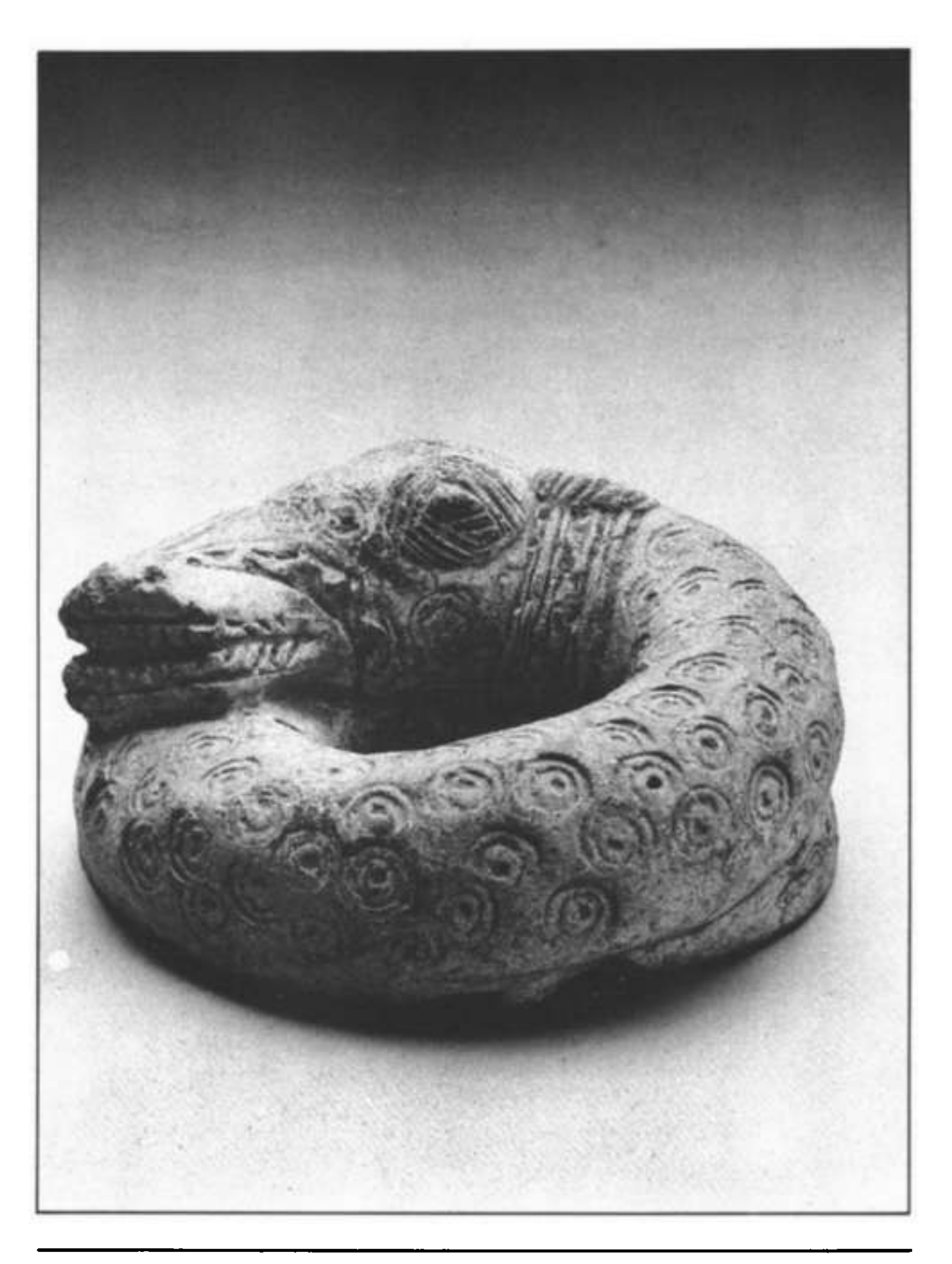
(٩٢) و. فيلبوياك. ١٩٧٠. اكتشف علماء الآثار عدة أماكن لاستخراج الحديد حول موقع نياني. وكانت نسبة الحديد في الخام المستخرج جيدة.



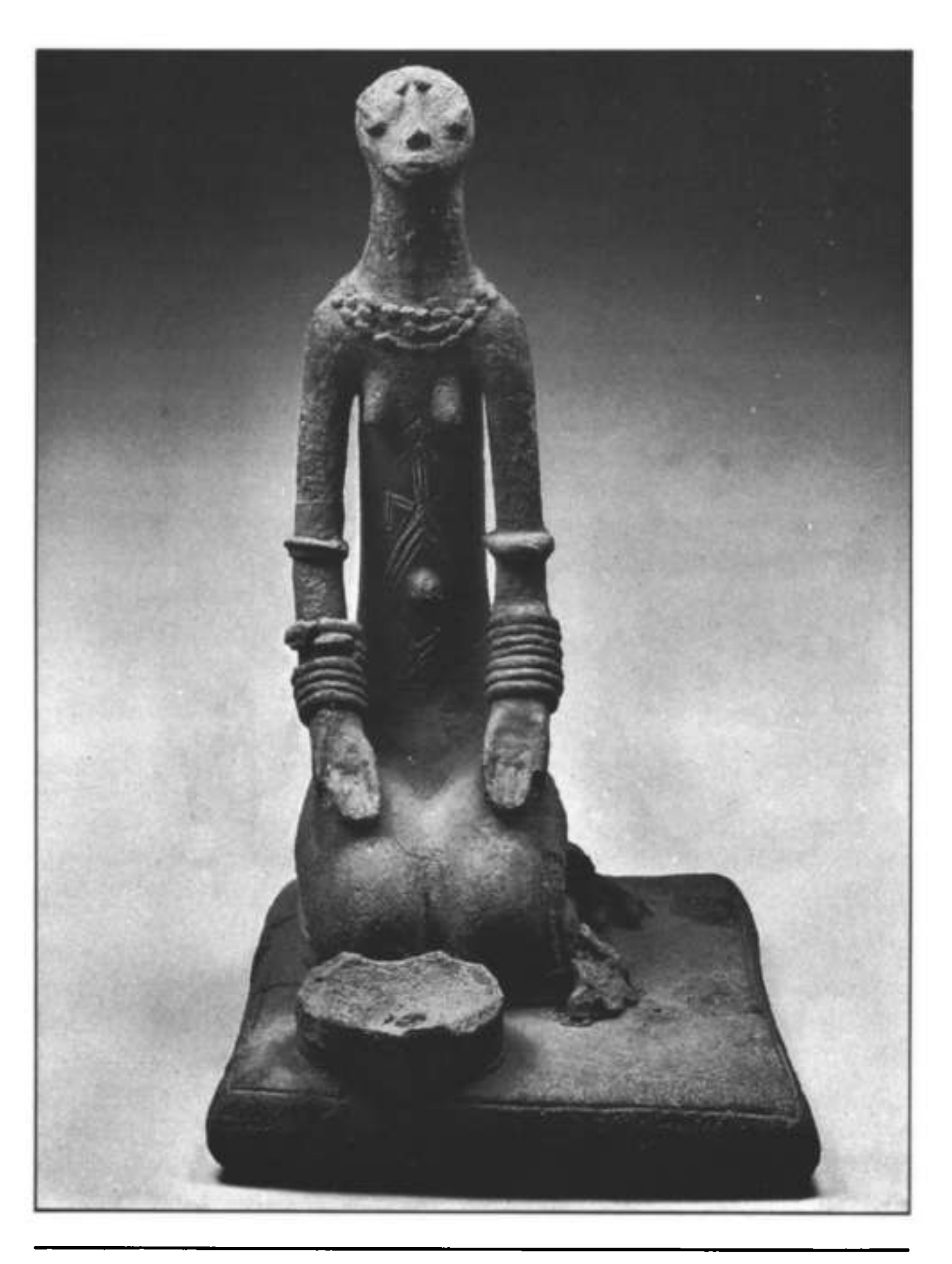
• امبراطورية مالي :
تمثال شخص ملتحى مصنوع من الفخار
(تأريخ بالإضاءة الحرارية :
٨٦٠ + ١٨٠ قبل ١٩٧٩، اي ٩٣٩ - ١٢٩٩)



• امبراطورية مالي :
تمثال من الفخار لأم وطفلها
(تأريخ بالإضاءة الحرارية :
٦٩٠ + ١٠٥ قبل ١٩٧٩ ، الى ١١٨٤-١٣٩٤)



• امبراطورية مالي :
ثعبان ملتف من الفخار
(تأريخ بالإضاءة الحرارية :
٤٢٠ ± ٦٥ قبل ١٩٧٩ ، الى ١٤٩٤ - ١٦٢٤).



• امبراطورية مالي:
تمثال من الفخار لشخص راكع من منطقة بانكوني
(تأريخ بالإضاءة الحرارية:
١٣٩٦ - ١٥٨٦).

الحضرية الكبرى. وكانت صياغة المعادن الثمينة في تكرور وفي الجولوف من التقاليد التي ترجع إلى عهد الكايا ماغان وحرفيو هذه المناطق من أشهر الحرفيين في أفريقيا الغربية.

كان الحرفيون يتزوّجون من داخل طوائفهم. وكانت للطوائف في عهد الأمبراطورية، واجبات بلا ريب، إلاّ أنه كانت لهم أيضًا حقوق محدّدة. ولم يكن من حق المانسا ولا النبلاء، وبالأحرى سائر الرجال الأحرار، مطالبة صاحب حرفة بأكثر مما يفرضه عليه العرف من التزامات.

وكانت صناعة النسيج مزدهرة، وكانت هناك تجارة كبيرة من المنسوجات ولفائف الأقمشة القطنية نشطتها مقاطعات الأمبراطورية التي كانت تصدّرها إلى بلدان الجنوب. وقد تخصّص التكاررة والسوننكة في صناعة المنسوجات المصبوغة بالنيلة في وقت مبكر جدًا. وأكبّت طائفة خاصة من الحرفيين هي عشيرة مابو على صناعة النسيج والصباغة في تكرور.

التجارة

الذهب، الملح، النحاس، الكولا. أسهمت هذه المنتجات بدور بالغ الأهمية في الاقتصاد المالي. فقد كانت مالي تمتلك مناجم عديدة من الذهب مما جعلها أكبر منتج له في العالم القديم. وكانت تستغل ذهب بوريه وهي مقاطعة متاخمة للماندي، قصر سكانها نشاطهم على هذا المعدن. وكانت بمبوك وغالام، الواقعتان على ضفاف السنغال الأعلى فضلاً عن منطقة نياني، تنتج الذهب. وكما في عهد كايا ماغان، كان المانسا ينفرد بملكية قطع الذهب[٩٣]. وكانت مالي تستخرج الذهب أيضًا من مناطق الغابات في الجنوب. وكانت بيغو، في بلاد البرون (غانا الحالية)، مركزًا كبيرًا لتجارة الكولا والذهب والنحاس[٩٤]. وكان الجيولا (التجار) يبيعون الملح المستخرج من تغازة وايجيل بالتجزئة في كل مناطق الأمبراطورية. وتنتج المناطق الساحلية (السنغال وغامبيا) الملح البحري، ولكن هذا الملح لم يكن يصل إلى المناطق الداخلية. وكانت تاكيدة آنذاك المركز الرئيسي لإنتاج النحاس وتسويقه. وكان يُصنع في شكل قضبان ويصدّر إلى الجنوب حيث كان السكان يفضّلون الذهب. ونعرف اليوم أن النحاس لم يكن يُباع لقبائل أكان فحسب بل وفي النطاق الجغرافي الذي تسوده الثقافة المشتركة بين بينين – ايفي/ايغبو – ايكوو[٩٥].

وكانت مالي تستورد جوز الكولا من بلدان الجنوب، وكانت هذه الثمرة محل تجارة أقامت الصلات بين الجيولا أو الونغارا وعدد من بلاد الغابات من بينها شعوب الأكان والغورو (وهي أعراق تقطن حاليًا غانا وساحل العاج). وقد اختص السوننكة، والمالنكة، بهذه التجارة، وهم يعرفون لدى سكان الغابات باسم الجيولا أو الونغارا بمعنى التجار[٩٦].

وأسس الماندانغ، في مسعاهم لجلب الكولا والذهب، محطات يأوون إليها على الطرق المؤدية من

---

(٩٣) العمري، ١٩٢٧.

(٩٤) م. بوسنانسكي، ١٩٧٤. من المجازفة الدخول في مضاربات لتقدير كميات الذهب التي كانت تصدّر سنويًا إلى بلدان الشمال. ومهما يكن من أمر فإن الطلب كان قويًا جدًا في القرن الرابع عشر في حوض البحر المتوسط حيث أخذت مدن تجارية مثل مرسيليا وجنوة، وغيرها بقاعدة الذهب.

(٩٥) أنظر الفصل ٢٥، من هذا المجلّد، فيما يخص التجارة الصحراوية والتجارة بين السفانا ومناطق الغابات الاستوائية.

(٩٦) بخصوص تجارة الكولا بالمنطقة الغابية، أنظر ج. زنون غنوبون، في «غودو غودو»، عدد ٢، ١٩٧٧.

ضفاف النيجر إلى كونغ (ساحل العاج) وبيغو (جمهورية غانا). وقد نشروا الإسلام والثقافة الماندانغية بعيدًا نحو الجنوب[٩٧]. وتقول روايات الهوسا أن الإسلام دخل منطقة السودان الوسطى عن طريق الونغارا في القرن الرابع عشر[٩٨]. وكانت قبائل الجيولا أو الونغارا تسير باتجاه الغابة قوافل من الحمير المحمّلة بالملح والأقطان والأواني النحاسية وكانت تستعمل أيضًا الحمالة، من ذلك أن بعض الونغارا من سكان جينيه على ما ذكره فالنتيم فرناندين كانوا يملكون من العبيد عددًا قد يبلغ المائتين مهمتهم نقل الملح إلى بلدان الجنوب حيث كانوا يستبدلون به الذهب[٩٩].

ولا تزال هذه التقاليد وهذا الحسّ التجاري حتى اليوم من مميزات الماندانغ الذين ظلّوا محرّك النشاط التجاري في أفريقيا الغربية.

(٩٧) تكثّف تقدّم الماندانغ نحو الجنوب في أواخر القرن الخامس عشر، عندما فقدت مالي مقاطعاتها الشرقية في منعطف نهر النيجر.

(٩٨) أنظر، الفصلين ١١ و٢٥، من هذا المجلّد.

(٩٩) ف. فرناند يس، ١٩٣٨، ص ٨٥ – ٨٦. أنظر أيضًا الفصل ٢٥، من هذا المجلّد.

الفصل السابع

تدهور امبراطورية مالي

بقلم مادينا لي – تال

مقدّمة

شهدت مالي ، بعد القرن الرابع عشر الذي سيطرت عليه شخصية مانسا كانكون موسى البارزة ، فترة طويلة من التدهور التدريجي[1] . وتميّز القرنان الخامس عشر والسادس عشر بتحوّل مركز اهتمام الأمبراطورية تدريجيًا نحو الغرب . إذ تحوّلت تجارة مالي المتبادلة حينئذ ، مع العالم الإسلامي تحوّلاً جزئيًا ، نحو الساحل وذلك ابتداءً من أواسط القرن الخامس عشر ، بينما ظلّت التجارة التي احتكرها المسلمون على حالها لم تتغيّر بالنسبة للبلدان الأخرى الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى (الصنغي وكانم ، الخ...) . وهكذا فأسواق تومبكتو ودجيني ، التي خضعت للإشراف المباشر للصنغي وحلّت محلها أسواق سوتوكو وجمنا سورا على نهر غامبيا . وهذا التقلص الواضح في العلاقات مع العالم الإسلامي هو الذي يفسّر ندرة الإشارات في المصادر العربية إلى هذه الفترة . وإذا كان ابن خلدون ، وهو أهم مصدر لتاريخ سلاطين مالي ، حتى نهاية القرن الرابع عشر فلا بدّ أن ننتظر أكثر من قرن للحصول على آخر المصادر العربية عن تاريخ امبراطورية مالي[2] ، بفضل «وصف أفريقيا» لليون الأفريقي.

وترجع هذه الأهمية المتزايدة لغرب الأمبراطورية إلى التواجد البرتغالي الذي بدأ منذ ١٤١٥ ، بالاستيلاء على سبتة ، فلم يعد المغاربة هم وحدهم المتعاملون تجاريًا مع أفريقيا الغربية . كما حلّت أخبار

---

(١) ترجع هذه المعلومات الأخيرة حول مالي إلى سنة ١٣٩٣ . حيث انتهى ابن خلدون من تأليف كتاب العبر سنة ١٣٩٣ – ١٣٩٤ .

(٢) مؤشرات عديدة تدعو إلى الحذر ، إذ يبدو أن هذا المؤلّف لم يزر فعلاً كل البلدان التي ذكرها . وهو أبو الحسن بن محمد الوزان والمعروف للأوروبيين باسم ليون الأفريقي.

رحلات البرتغاليين، ومعها المصادر الأوروبّية، محل المصادر العربية عن مالي وخاصة بالنسبة إلى الأقاليم الغربية لكل من غامبيا وكازامنس. وهناك تكامل في هذا الصدد بين روايتي كادا موستو[٣] وديبغوغومس[٤] اللذين صعدا في نهر غامبيا تفصل بينهما سنة (١٤٥٥ و١٤٥٦). ولنا أيضًا بالنسبة إلى بداية القرن السادس عشر شهادتان متعاصرتان هما: «اسميرالد وسيتو أوربيس» لدوارتي باشيكوبيريرا (١٥٠٥ – ١٥٠٦)[٥]، والمعلومات الثمينة لفالنتيم فرنانديس (١٥٠٦ – ١٥٠٧)[٦].

ولكن أهم مصدر يطلعنا على آخر بريق لقوة أمبراطورية مالي، وكذلك شهرتها حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر هو: «تراتادو وبريفي دوس ريوس دي غيني» (دراسة مقتضبة حول أنهار غينيا) لمؤلّفه أندريه ألفاريس دالمادا، وهو برتغالي وُلد بأفريقيا بجزيرة سانتياغو بالرأس الأخضر، التي كانت لها تجارة مع ساحل غينيا.

وإلى جانب هذه الوثائق المكتوبة، العربية منها والأوروبية، هناك الروايات الشفوية التي كثيرًا ما تضمّنت معلومات ثمينة رغم تباعد الزمن. والحوليات السودانية لأواسط القرن السابع عشر، تاريخ السودان وتاريخ الفتاش، رغم مواقف مؤلّفيها الشديدة الانحياز، مفيدة جدًا لمعرفة مالي بعد تفكّكها. وقد استكملت في كل ما يتعلّق بروايات الماندانغ سواء روايات جمهورية غينيا أو جمهورية مالي أو غامبيا. وكثيرًا ما يتحدّث نقلة الروايات الشفوية بمنطقة سيجوري عن نياني مانسا مامودو الذي يرى فيه ايف بيرسون مانسا محمد الرابع[٧]. وفي الغرب كانت روايات الماندانغ الغربيين هامة بشكل خاص بسبب الدور الاقتصادي الخاص لمقاطعة غامبيا في أمبراطورية الماندانغ في القرنين الخامس والسادس عشر. ولا تقل روايات مملكة غابو (كابو) الماندانغية أهمية عن ذلك.

وتنيرنا روايات الفولانيين لكل من منطقتي فوتا – تورو وفوتا جالون الجبليتين كثيرًا حول العلاقات بين أمبراطورية الماندانغ ودولة الفولاني لمنطقة فوتا – تورو.

وتساعد المصادر البرتغالية التي لم تستغل كثيرًا حتى الآن، وكذلك البحوث الأكثر عمقًا حول الروايات الشفوية، على تناول الحقبة من تاريخ أمبراطورية الماندانغ التي تمتدّ من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر، من زاوية جديدة.

وبعد القرن الرابع عشر شهدنا ازدياد العلاقات بين مالي وافريقيا الشمالية إثر حجة مانسا كانكون موسى الشهيرة إلى مكة. وقد تبع ذلك تطور كبير شمل الاقتصاد والثقافة في آن واحد وهو تطور نقل إشعاع مالي إلى أبعد من حدودها بكثير. ولكن التوسّع في الأخذ بالثقافة الإسلامية سيغيّر عادات البلاد بعض الشيء. وطوال الفترة التي حكم فيها الأمبراطورية سلاطين يتميّزون بالحزم، مثل كانكون موسى أو مانسا سليمان، فقد استقامت الأمور. ولكن الدسائس تعدّدت في بلاط مالي في عهد خلفائهم الذين كانوا دونهم مقدرة. وقد انتهى القرن الرابع عشر الذي بلغت فيه مالي أوج قوتها بضعف السلطة المركزية. وفي تلك الأثناء كانت تنمو في الحوض الأدنى لنهر النيجر قوة جديدة هي صنغي التي حلّت من بعد محل أمبراطورية مالي في كافة أقاليمها الشمالية.

---

(٣) أ. كادا موستو، ترجمة فرنسية، أ. شيفر، ١٨٩٥.

(٤) د. غومس، ترجمة فرنسية ت. مونود، ج. ديفال و ر. موني، ١٩٥٩.

(٥) د. باشيكو بيريرا، ترجمة فرنسية، ر. موني، ١٩٥٦.

(٦) ف. فرنانديس، ترجمة فرنسية، ت. مونود، أ. تيكسيرا داموتا و ر. موني، ١٩٥١.

(٧) ذلك أن محمد الأول قد حكم من ١٣٠٥ إلى ١٣١٠، والذي هاجم جيني سنة ١٥٩٩ هو الرابع الذي يحمل هذا الاسم.

أمبراطورية مالي تفقد سيطرتها على التجارة عبر الصحراء

كان الطوارق والبربر الآخرون أول من سدّد الضربات لامبراطورية الماندانغ قبل سني علي وجيوش صنغي.

الطوارق والبربر

خضعت لامبراطورية الماندانغ في أوج قوتها في القرن الرابع عشر جماعات شتى من البربر. واذا كان بعضها مثل كيل انتاسار والينتاغه والمداسه (مدوزه) ولمتومه (لمتونه)، قد بدأ يستقر في ربوع الماندي، مع دفع الجزية لسلاطين مالي، فان جماعات أخرى كانت تعيش حياة التنقّل والترحال بمنطقتي آير وادرار الايفوغا، وكانت ترفض بشدّة الخضوع لسلطة المالنكة المركزية. ولم يتسن إخضاعها بالفعل إلاّ في بعض الأوقات في عهد بعض السلاطين من أمثال كانكون موسى وسليمان. وفي نحو سنة ١٣٨٧، عند وفاة المانسا موسى الثاني، مرت الأمبراطورية بفترة أزمة نشأت عن الصراع على العرش. فقد حاولت سلالة سونجاتا الذين كانوا يشكّلون الفرع الأكبر سنًا في الأسرة الملكية استعادة الحكم الذي كان، منذ تولي كانكون موسى، بيد الفرع الأصغر سنًا المنحدر من ماندي بوري، أخي سونجاتا الأصغر.

وقد أدى هذا الصراع الى اغتيال اثنين من المانسا خلال ثلاث سنوات وأسهم، بشكل كبير في إضعاف النفوذ الملكي والسلطة المركزية، خاصة في مناطق الساحل. وابتداءً من القرن الخامس عشر شنّ الطوارق عدة غارات على مدينة تومبكتو التي سيطروا عليها نحو سنة ١٤٣٣ كما استولوا على معظم المدن الساحلية مثل ولاته وميما بل وربما غاو أيضًا.

وبحرمان مالي على هذا النحو من المناطق الشمالية التي كانت تابعة لها، دعّم الطوارق بهذا الزحف نحو الجنوب، مركزهم ودورهم في التجارة عبر الصحراء. ولكن هذا التفوق العسكري كان قصير الأمد. فصعود دولة الصنغي تحت حكم سني علي، قد سدّد بدوره ضربة حاسمة للطوارق، وكان ذلك سبب الخلافات الايديولوجية التي ثارت من بعد بين سني علي وارستقراطية تومبكتو المكوّنة من علماء وفقهاء، قدم معظمهم من مدينة ولاته البربرية.

وكانت أهم نتيجة لهذه الأنشطة العسكرية للطوارق ولهيمنة الصنغي، هي تعرّض مالي لخطر الاختناق الاقتصادي. ولكن نمو التجارة الأطلسية الناجم عن مجيء البرتغاليين، ساعد مالي من بعد على استعادة أنفاسها من جديد. وإذا كان العمق الإقليمي قد أسهم حتى ذلك التاريخ بدور رئيسي في الأمبراطورية، فإن الأهمية التجارية للمقاطعات الغربية ازدادت بعد ذلك.

مقاطعات مالي الغربية

على الرغم من المحاولة الفاشلة للملاحة في المحيط الأطلسي في ظل حكم المانسا أبي بكر[8]، سَلف

(٨) أنظر الفصل السادس والعشرون من هذا المجلّد.

المانسا كانكون موسى على العرش ، فان مقاطعات منطقة السنغال وغامبيا ، وكذلك المحيط ، كان لها دور ثانوي في تحديد الاتجاه الجغرافي السياسي والتجاري لمالي قبل الكشف البرتغالي. ولكن ملوك البرتغال ومالي أقاموا ، ابتداءً من القرن الخامس عشر ، علاقات ديبلوماسية فيما بينهم بينما كانت الروابط التجارية كثيفة.

التجارة

ظلّت لسلاطين مالي السيادة على مناجم الذهب في بوري ، وكان تجار الونغارا يذهبون ، بالإضافة إلى ذلك ، إلى حدّ بلاد أشانتي للحصول على المعدن الأصفر. وكانت القوافل تأتي بصفة دورية إلى الساحل لمقايضة الذهب بالنحاس والمنتوجات القطنية السوداء والزرقاء والمنسوجات الرقيقة والأقمشة الهندية والخيط الأحمر وحتى الملابس الموشاة بالذهب والفضة[٩]. وغالبًا زاد ما لدى الونغارا من الذهب عما تجلبه سفن «الكارافيل» التجارية من بضائع فيعودون بما تبقّى منه. ذلك أنّهم كانوا فعلاً تجارًا بالغي الفطنة لهم موازينهم وصنجهم ، فما كانوا يكتفون بالتقديرات المبهمة. وبذا أمكنهم أن يفيدوا من ذهبهم أقصى فائدة[١٠].

واستغلّ الأوروبيون ، في وقت مبكر جدًّا إمكانات المبادلات بين الأقاليم المختلفة. فكانوا يشترون الخيول من قبيلة فوتا ليبيعوها في غامبيا. وأدت تجارة الخيل هذه ، بدعمها لجيوش الماندي ، إلى تنمية تجارة أخرى ، هي تجارة الرقيق. فأمام تزايد طلب ملوك الجولوف وحكام غامبيا الماليين على الخيول ، فان البرتغاليين، الذين أخذوا من جهتهم يجلبون أعدادًا متزايدة من السود إلى البرتغال، اعيد مقايضة الخيول بالعبيد ، وذلك بواقع جواد مقابل ثمانية عبيد في بادئ الأمر ، وسرعان ما صار ذلك بواقع خمسة عشر عبدًا للجواد الواحد). ولم يلبث التوازن التجاري أن تدهور على نحو مخلّ بمصالح الأفارقة. وظلّت التجارة في هذه المقاطعات الغربية من أمبراطورية مالي على كثافتها حتى نهاية القرن السادس عشر. وفي سنة ١٥٩٤ كان لا يزال في وسع البرتغالي أندريه الفاريس دالمادا أن يكتب : «ان أهم تجارة في غينيا بأسرها إنما تمارس في غامبيا» ، وكانت غامبيا لا تزال آنذاك مقاطعة من مقاطعات مالي[١١].

ولم يكن يشتغل بالتجارة إلاّ فئة متخصّصة من السكان هم الونغارا. أما الجانب الأوفر من السكان فقد كان من الفلاحين والمشتغلين بتربية الماشية.

الزراعة وتربية المواشي

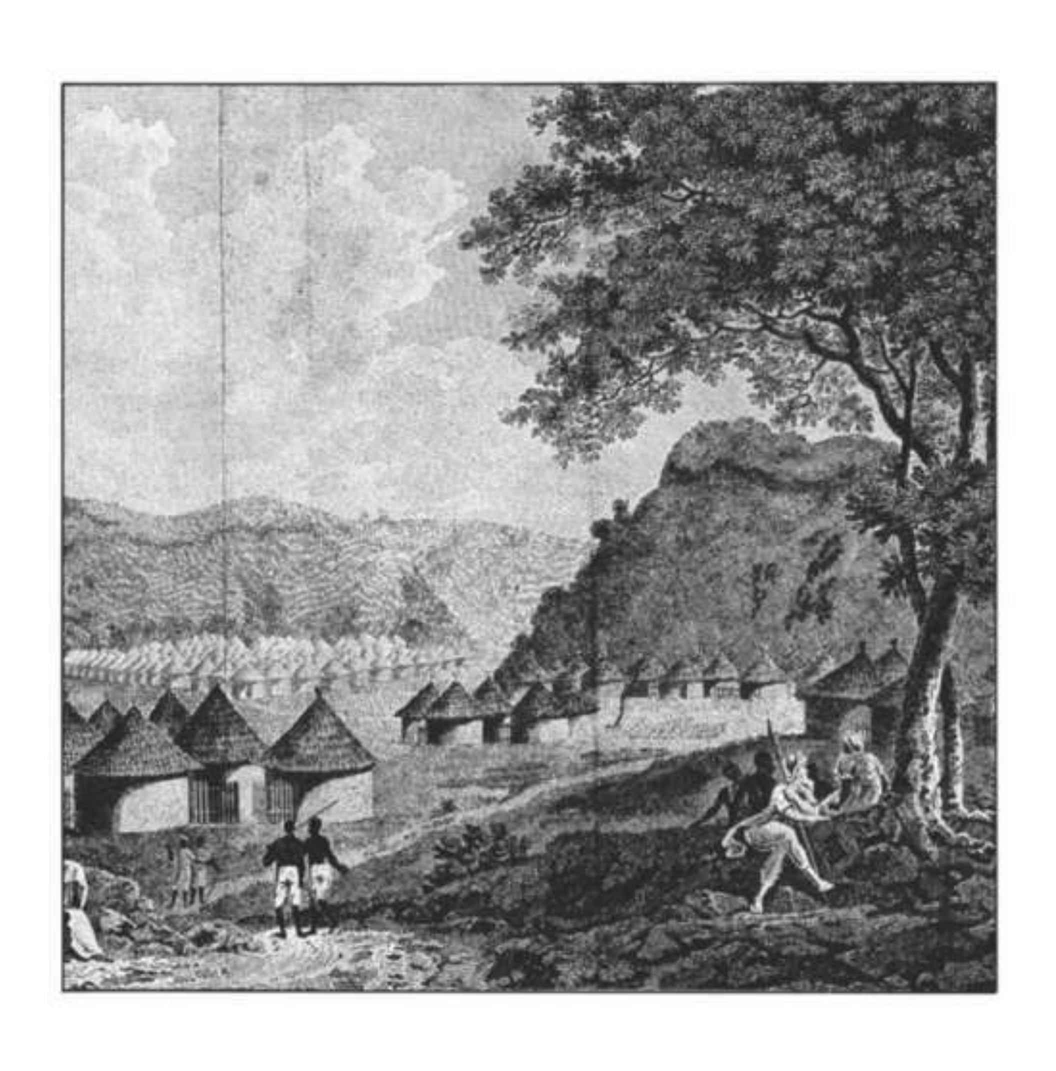
وكانت تُشاهد في أقاليم مالي الغربية ، التي ترويها الأمطار والمجاري المائية بوفرة خلال فصل الأمطار ، حقول الأرز والقطن الرائعة وخاصة على طول ضفاف نهر غامبيا[١٢]. وهذا النهر الرائع الذي تروي الأمطار الغزيرة كامل مجراه يرسّب تربة غرينية خصبة على ضفافه. وكانت فيضاناته من الغزارة بحيث

(٩) د. باشيكو بيريرا ، ترجمة فرنسية ، ر. موني ، ١٩٥٦ ، ص ٦٩ و٧٣ ؛ أ. ألفاريس دالمادا ، ترجمة فرنسية ف. دوستناران ، ١٨٤٢ ، ص ٢٦ و٢٧ و٢٩ و٤٣.

(١٠) أ. ألفاريس دالمادا ، المرجع السابق ، ص ٣٠.

(١١) المرجع السابق ، ص ٣٥.

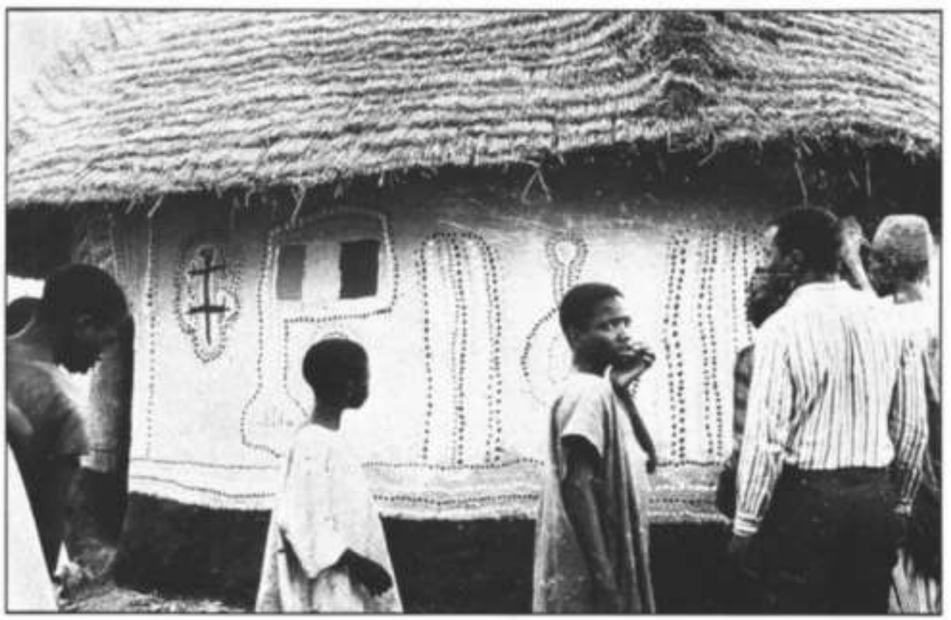
(١٢) ج. أ. زورارا ، ١٩٦٠ ، ترجمة فرنسية ل. بورالون ، ص ٣٤٦ ؛ أ. كاداموستو ، ترجمة فرنسية أ. شيفيرا ، ص ٧٠.



• منظر كاماليا (جنوب غربي كانغابا، مالي).
مأخوذ من رحلات مونغوبارك
في الأقاليم الداخلية في أفريقيا (١٧٩٩)

١

٢



١. الكامابلون في كانغابا (كوخ الاحتفالات السباعية) منظر عام

٢. واجهة الكامابلون في كانغابا

تخرج السفن المصعّدة فيه أحياناً من المجرى لتجد نفسها وسط الأشجار[١٣]. وكانت الغابات الكثيفة الممتدة على ضفافه، مأوى لصيد كثير بينما كانت تعيش فيما يتجاوز ذلك إلى الداخل حيث تقل كثافة الغابة قطعان عظيمة من الفيلة التي كانت أنيابها تغذي تجارة العاج. وكان المنداغ الغربيون تماماً كالمنداغ الشرقيين، صيادين مهرة. وكان الصيد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدين، إذ لا بدّ للصياد، لكي يصبح شهيراً، أن يكون ذا خبرة عظيمة بالأدغال وهي خبرة تقترن بالسحر. وكانت تربية المواشي في هذه المقاطعات الغربية المتميّزة برطوبتها مقترنة بالزراعة. فالمزارعون هم في ذات الوقت مربو مواشٍ. ولكن عدد قبائل الفولاني كان يتزايد في غامبيا وفي غابو، إذ حدا هؤلاء الرعاة ميل إلى الاستقرار إزاء وفرة المراعي. وقد نظّمت هذه المجموعات من الفولانيين نفسها، في أواخر القرن الخامس عشر، وقامت بدور سياسي، كما سيأتي فيما بعد.

وكان لتربية المواشي شأنها في اقتصاد الاقليم، ومع ذلك فان تجارة الجلود لم تتم إلاّ بعد ذلك بكثير.

المجتمع وعاداته لدى الماندانغ الغربيين

كانت العائلة تقوم على الانتساب إلى الأم. وكان الأطفال ينتمون إلى سلسلة نسب أمهم، تماماً كما هو الشأن لدى قبائل السوننكة في غانا. والأثر المترتّب على ذلك على الصعيد السياسي هو أن الخلافة كانت تتم على أساس الانتساب إلى الأم. من ذلك أن رئيس غامبيا بأسرها، الفاران سانغولي، كان يمثّله في نيومي، الواقعة قرب مصب نهر غامبيا، أحد أبناء أخته. وبالفعل كان العديد من اختصاصات السلاطين مرتبطاً، بالنسبة للماندانغ الغربيين، بالانتساب إلى السلالة الملكية وهو ما أملى اختيار ابن الأخت تفادياً لأي خطأ[١٤]. وهذا هو نفس التفسير الذي أورده البكري للخلافة القائمة على أساس الانتساب إلى الأم في غانا. وعلى الفاران الجديد، في بعض المناطق كمنطقة الكازامنس، أن يتطهّر، بعد أن يعينه مجلس القدامى، وذلك بأن يعتزل لمدة سنة يتولى خلالها أوصياء حكم البلاد. وكان هؤلاء الأوصياء في كثير من الأحيان من القادة التابعين للفاران السابق، بشرط أن ينتسب أحدهم على الأقل إلى الأسرة الملكية[١٥]. وكان ذلك بالطبع باباً مفتوحاً للدسائس السياسية.

ومن خصائص الماندانغ الغربيين الأخرى معتقداتهم الدينية. فقد كانوا راسخي الايمان بالارواحية[١٦]. وكان السحر (الضار) هو دائماً التهمة الرئيسية في المحاكمات. وكانت كل حالات المرض تعزى تقريباً إلى هذه الممارسة. فكان المتهم يمثل أمام الفاران الذي يلجأ، لإقامة الحجة، إلى ما كان يُعرف بـ «حكم الماء الأحمر»، فقد كانت الأطراف تُسقى ماءً محمراً بمفعول جذور نبات الكايسدرا، ومن تقيأ قبل خصمه حُكم له. أما المُدان، فانه، وقد ثبتت إدانته بالشعوذة، يُلقى فريسة للحيوانات أو يسترق ومعه جميع أفراد أسرته[١٧]، ومن البديهي أن هذه الطريقة كانت مناسبة جداً للرؤساء للحصول على العبيد.

وكان الإسلام أكثر انتشاراً بين الرؤساء. لكن إسلامهم في الغالب إسلام ظاهري. من ذلك أنه كان

(١٣) أ. ألفاريس دالمادا، المرجع السابق، ص ٣٣.
(١٤) المرجع السابق، ١٨٥٢، ص ٨٠.
(١٥) المرجع السابق، ص ٤٢.
(١٦) أ. كادا موستو، ١٨٩٥، ص ٧٠.
(١٧) أ. الفاريس دالمادا، المرجع السابق، ص ٤٠.

من عادة المانسا المسلم في الكازامنس قبل الدخول في حرب ، أن يعهد للإمام نفسه بمهمة العرافة[١٨] . وفي الكازامنس أيضًا كان الرئيس المسلم يقدّم القرابين للأموات ، فكان لا يشرب الخمر أو الدولو قط دون أن يسكب بعض القطرات على الأرض ، قربانًا للموتى. وفي الحقول ، كانت الأوتاد تُطلى بدقيق الأرز أو الذرة مخلوطًا بدم عنزة أو عجلة ضمانًا لجودة المحاصيل. وظلت الطقوس الزراعية محتفظة بسطوتها التامة. كما ظلّت مملكة غابو الماندية فما وراء ذلك ، بين نهر كازامنس والنهر الكبير (ريو غراندي) ، شديدة التمسك بالديانة التقليدية. وكان الملك لا يزال تابعًا في القرن الخامس عشر لسلطة نياني المركزية ولكنه كان منذئذ قد بسط نفوذه على جميع مقاطعات الماندي أو معظمها. والملك يُعرف في الروايات الشفوية التقليدية باسم «كابو مانسابا» (أي ملك الكابو الكبير) ولكنه يُعرف في النصوص البرتغالية باسم «فاران كابو»[١٩] .

ومع ذلك ، فقد حقّق الإسلام في القرن السادس عشر تقدّمًا كبيرًا في هذه المناطق[٢٠] . وكان الأولياء الصالحون يتجوّلون في شتى المناطق الساحلية ينهون عن تناول لحم الخنزير ويوزّعون التمائم. ولكن الذي كان يسعى إليه هؤلاء الأتقياء أساسًا هو دعوة الرؤساء إلى اعتناق الإسلام كما حدث في القرن الرابع عشر ، لأن دخول الرؤساء في الإسلام كان يعني اعتناق الرعية إياه ولو ظاهريًا. ولكن إسلامهم كان على درجة من السطحية تجعلهم لا يتورّعون ، في أول فرصة ، عن الارتداد عن ديانتهم الجديدة ليعتنقوا المسيحية[٢١] .

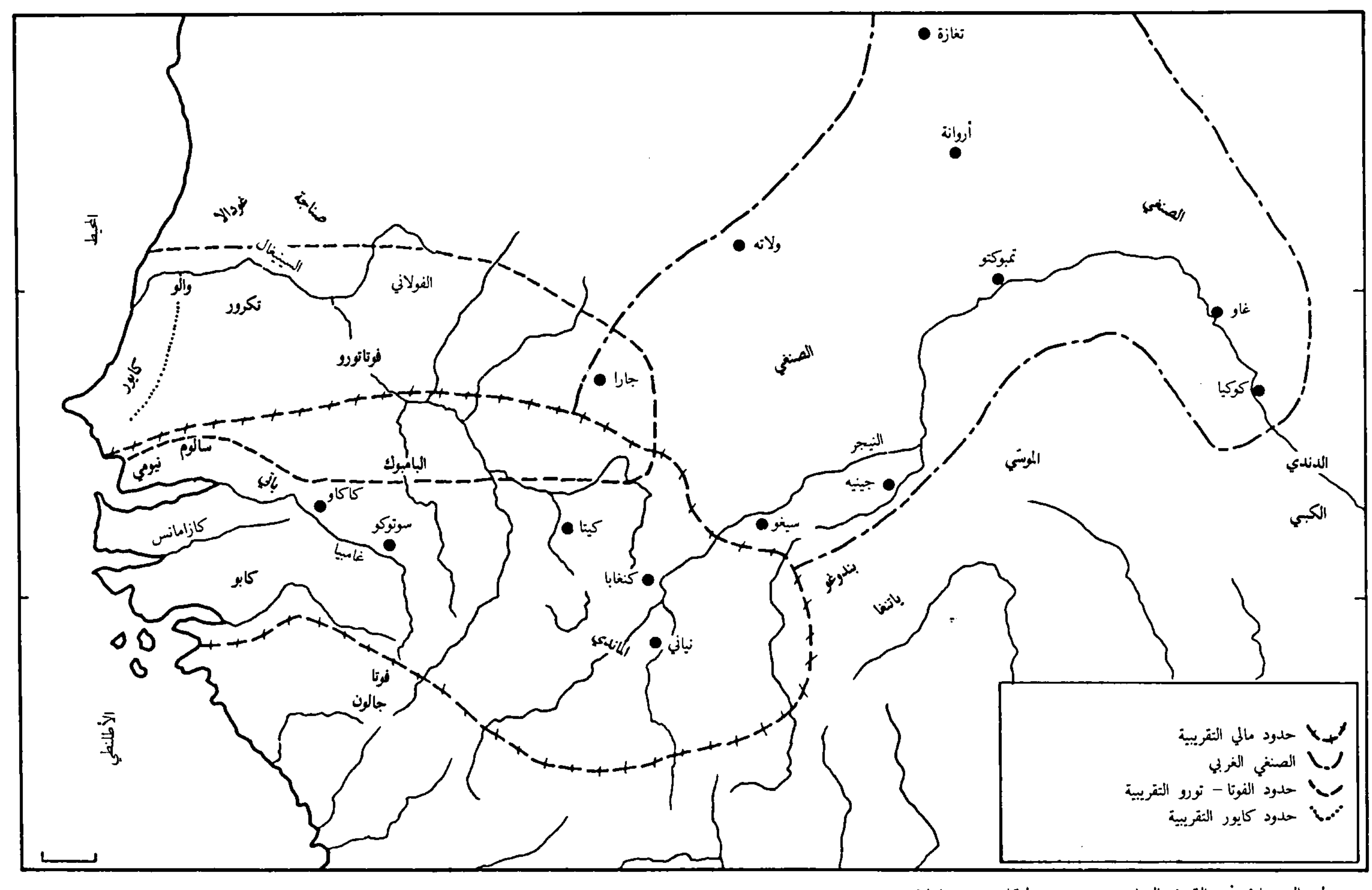
نرى إذن أن المجتمع الماندي الغربي كان يواجه واقعًا جديدًا يتمثّل في تسرّب الثقافة الإسلامية بل والمسيحية. ولم يكن ثمة مناص من أن تتسبّب هذه الثقافات الخارجية في الإخلال بالتوازن التقليدي. ولكن الخطر الأكبر لم يكن يتمثّل في ذلك بل كان بالأحرى ذا طابع عسكري. ففي حين كان المندانغ لا يفكّرون إلاّ في ازدهار تجارتهم وزراعتهم كانت تتكوّن في الشمال قوة مخيفة هي قوة فولو الأكبر[٢٢] .

ظهور قبائل الفولبي (الفولاني) : تعرّض ممتلكات مالي الغربية للخطر

سلالة تنغيلا : ١٤٩٠ – ١٥١٢

ما انفكّت قبائل الفولانيين ، المعروفة بترحالها بمنطقة تارم ، تتسلّل منذ القرن الثالث عشر إلى الجنوب في الفوتا – تورو أولاً ومن ثم إلى فيافي بوندو ماسينا المترامية الأطراف وهضاب الفوتا – جالون المعشبة. وانتهى بها الأمر ، بعد أن خضعت في البداية لسلطة الرؤساء المحليين ، إلى فرض هيمنتها على السكان

(١٨) المرجع السابق ، ص ٣٩.
(١٩) أ. دونيليا ، ترجمة انكليزية ، أ. تيكسيرا داموتا ، ١٩٧٧.
(٢٠) ولعلّ ذلك مرتبط بتقدّم قبائل هال بولار التي ستحل محل قبائل الفولبي دنيانكه معتنقي الديانة التقليدية بمنطقة فوتا.
(٢١) راجع دخول مانسا نيومي المشهود في المسيحية كما ورد في مؤلّف د. غومس ، ١٩٥٩ ، ترجمة فرنسية ت. مونود ، ج. دوفال و ر. موني ، ص ٤٢ – ٤٤ ، وأنظر أيضًا أ. ألفاريس دالمادا ، ١٨٤٢ ، ص ٢٥.
(٢٢) هكذا كان يسمى رئيس قبائل الفولاني دينيانكي.



• دول السودان في القرن السادس عشر (طبقاد ج. بازان)

الأصليين وتأسيس دول قوية. وهكذا نشأت بقيادة تنغيلا، دولة الفولبي بالفوتا – تورو. وكان ابنه كولي، أكثر شهرة.

وكولي تنغيلا هو إحدى الشخصيات الافريقية التي أحاطت بتاريخها الأساطير، وتزعم روايات الفوتا – تورو أنه من أبناء سونجاتا. وأن تنغيلا ليس سوى أبيه بالتبني. ولا يمكن أن نرى في هذه البنوة سوى محاولة أسطورية تستهدف التقريب بين هذين العلمين الكبيرين في تاريخ الغرب الافريقي في العصر الوسيط. ويمكن على الأكثر أن نأخذ كما فعل البعض، بالافتراض الذي مؤداه انه كان ذا نسب مندانغي [٢٣].

وستغزو قبائل الفولبي دينيانكي أو دينيانكوبي بزعامة تنغيلا وكولي منطقة السنغال وغامبيا بأسرها، ولا يزال الطريق الذي سلكته هذه القبائل محل نقاش حتى الآن. ففي حين يرى البعض أنها انطلقت من منطقة الفوتا – تورو في اتجاه منطقة الفوتا – دجالون [٢٤]، يعتقد البعض الآخر أنها اتّبعت مسارًا عكسيًا [٢٥]. وبذا تكون في الحالتين قد واجهت حتمًا قبائل المندانغ [٢٦].

ولم تحدّد تواريخ الحروب بين قبائل دينيانكوبي ومانسا مالي تحديدًا دقيقًا. فقد وقعت فيما بين ١٤٨١ و ١٥١٤. وتركت جيوش الفولانيين ذكرى حية ردّدتها الروايات المحلية. فقد سمع أندريه الفاريس دالمادا، بعد نحو قرن من ذلك، من يتحدّث عن عدد فرسانهم الكبير. وقد أبرزت الروايات في البلدان التي مرّوا بها أو روايات الفولانيين على جد سواء كثرة محاربيهم وقطعانهم، مما يؤكّد بوضوح أن كولي لم يقتصر على فتح بلاد الفوتا ولكنه استقرّ فيها إذ اجتذبته خصوبتها.

وفقدت مالي سلطتها التي ظلّت تمارسها حينئذ بصورة أساسية على مرتفعات فوتا دجالون، فتراجعت بذلك سبل اتصالها بالمقاطعات الغربية نحو غامبيا والكازامنس شمالاً [٢٧]. ومن ثمّ شهدت نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر انكماش الممر الذي كان يربط بين مالي الغربية ومالي الشرقية ولم يعد التجار الماندي الذين أوفدهم مانسا مالي لبيع الذهب في سوق سوتوكو في غامبيا في مأمن. وكانوا مجبرين على أن يسلكوا سبلاً متعرّجة بحيث كانت رحلتهم تبلغ أحيانًا ستة أشهر [٢٨].

وهكذا اجتاحت جيوش كولي ووالده، تدعمها التعزيزات من شتى القبائل الفولانية (خاصة ماسينا)، منطقة البوندو ومنها إلى الفوتا – تورو [٢٩]. وقد عبرت نهر غامبيا من نقطة سميت لذلك «ممر الفولان». ولإعطاء فكرة عن ضخامة هذه القوات ذكرت الروايات الشفوية انه لم تكن بالجندي حاجة إلى حمل أكثر من حجر واحد لملء النهر الذي يبلغ عرضه فرسخًا واحدًا.

وبعد منطقة البوندو افترق الأب وابنه، فتوجّه تنغيلا نحو مملكة ديارا بينما شرع كولي في غزو الفوتا – تورو.

---

(٢٣) ج. بولاغ، ١٩٦٨، ص ١٨٦.

(٢٤) هذا ما يعتقده بالخصوص موريس ديلافوس، وأخذه عنه تيكسيرا داموتا وصحّحه فيما يتعلّق بالتواريخ كما يراه كل الذين استوحوا من هذين المؤلّفين.

(٢٥) بين بولاغ، ج. ١٩٦٨، ص ١٨٣، خلافًا لذلك أن تقدّم قبائل الفولبي (الفولاني) قد تمّ من الفوتا – – جالون نحو الفوتا – تورو.

(٢٦) لعلّ الرجوع إلى شجرة نسب كولي تنغيلا يثبت تطابق با – كيتا بين العشيرتين (الفولبي والماندانغ).

(٢٧) ي. بيرسن، في هـ. ديشان، (نشر)، ١٩٧٠، ص ٢٨٧.

(٢٨) أ. ألفاريس دالمادا، ترجمة ف. دي ستنارام، ١٨٤٢، ص ٣٠ – ٣١.

(٢٩) ج. بولاغ، ١٩٦٨، ص ١٨٦ إلى ١٨٩.

فتح مملكة ديارا

رأينا أن مملكة ديارا قد سقطت منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر (١٥٠٠ – ١٥٠١) في أيدي الصنغي. وقد هبّ الأسكيا محمد لنجدة أخيه عمر كومزاغو الذي كان يواجه الصعاب في مملكة ديارا الماندية حيث هزم الأسكيا ممثل المانسا وبقي فترة طويلة في المنطقة «لإحلال السلام فيها» وتنظيمها على أسس جديدة[٣٠].

ولكن السلام لم يدم طويلاً لأن جيوش الفولانيين التي كانت قد تحرّكت فعلاً، لم تلبث أن اقتحمت مملكة ديارا. واضطر شقيق الأسكيا لخوض المعركة مرة أخرى. وكان حظه أفضل منه في مواجهة الماندي لأن تنغيلا هُزم وقُتل. وكان مقتله وفقًا لما جاء في تاريخ السودان في ١٥١١ – ١٥١٢[٣١]، وفي ١٥١٢ – ١٥١٣ حسبما ورد في تاريخ الفتاش[٣٢].

وهكذا أقام الصونغي الدليل مرة أخرى على مدى تشبثهم بمملكة ديارا التي تتيح لهم السيطرة على مناجم البامبوك. ولم يصر كولي على الوقوف في وجههم، بل توجّه إلى الفوتا – تورو[٣٣].

غزو الفوتا – تورو والدجولوف

كانت منطقة الفوتا لا تزال متميّزة بنظام الإدارة الماندية. وتسنى لسائر حكّام المقاطعات الذين كانوا تابعين للملك ديارا ابّان خضوعه لسلطة مانسا مالي أن يتحرّروا بشكل أو بآخر بفضل ضم الصونغي لمملكة ديارا.

وكان على كولي أن ينازل عددًا من الرؤساء الصغار المحليين المنقسمين وهو ما سهّل مهمته كثيرًا. وقد جعل عاصمته في أنيام – غودو. وقد شن منها عدة هجمات على أمبراطورية الدوجولوف وفتح عددًا من أقاليمها. وتقول الروايات التي استقاها رافانال سنة ١٨٤٦، أن كولي «سرعان ما أصبح يمثل الرعب بالنسبة إلى كل الشعوب المجاورة وخاصة الوولوف الذين هزمهم في عدة معارك، وصم أجمل أراضيهم إلى فتوحاته في بلاد الموريتانيين ولم يبقَ في حوزة الجولوف بعد ذلك إلاّ أراضي الجنوب البعيدة عن النهر وروافده»[٣٤]. واستمرّت سيادة الفوتا على الدجولوف إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر.

وهكذا اقتُطعت من مالي ممتلكاتها الغربية، على يد من أسماه البرتغاليون بشكل غير دقيق «فولو الأكبر» يعنون بذلك سيلاتيغي الفوتا. وعلى الرغم من ذلك ظلت سلطة مانسا مالي الماندي تشمل الأراضي الممتدة من غامبيا إلى الكازامنس حتى نهاية القرن السادس عشر، كما ورد في شهادة أندريه الفاريس دالمادا. وكان مانسا مالي معروفًا ومطاعًا في بقاع تبعد عن سوتوكو بما يزيد على ٣٠٠ فرسخ. وقد جعلت منه المعتقدات الشعبية سلطان جميع الشعوب السوداء. وكان سكان مدينة الميناء يسمونه الفيل الأكبر، وإن كان فيلاً نالت الشيخوخة من قواه بقدر جسيم.

---

(٣٠) السعدي، ترجمة فرنسية هوداس، ١٩٦٤، ص ١٢٤ – ١٢٥.
(٣١) المرجع السابق، ص ١٢٧.
(٣٢) م. كاتي، ترجمة و. هوداس و م. ديلافوس، ١٩٦٤، ص ١٢٧.
(٣٣) السعدي، المرجع السابق، ص ١٢٧.
(٣٤) أ. رافنال، ١٨٤٦، ص ٣١٧ – ٣١٨.

نهاية أمبراطورية مالي

وكان على الأمبراطورية الهرمة ، المعرّضة للهجمات من الشرق والغرب ، أن تجابه خطرًا آخر لا يقل شأنًا عن ذلك رغم خفائه الشديد ألا وهو التدخّل البرتغالي في الحياة السياسية للغرب الافريقي.

مالي والبرتغاليون : مانسا محمود الثاني ومانسا محمود الثالث

بعد اتصالات البرتغاليين الأولى بافريقيا السوداء التي تميّزت بالعنف ، وإزاء تصميم سكان المناطق الساحلية على المقاومة ، اضطر البرتغاليون إلى تغيير سياستهم : فقد بذلوا جهدًا أكبر لكسب ثقة الملوك المحليين(٣٥) . فأوفد ملوك البرتغال عدة بعثات ديبلوماسية إلى ملوك غرب أفريقيا . من ذلك أن حنا الثاني ملك البرتغال أرسل فيما بين ١٤٨١ و ١٤٩٥ ، سفارات إلى كل من ملك الفوتا وتيمبكتو كوي وإلى مانسا مالي .

وقد أوفد إلى مالي سفارتين ، مما يبرز الأهمية التي كان يوليها ملك البرتغال لهذا البلد . وقد انطلقت الأولى من غامبيا والثانية من حصن المينا . وكان المانسا الذي استقبلها يُدعى محمود . وهو ابن المانسا ولي ابن المانسا موسى(٣٦) . وكان الصراع بين مالي والفولبي الدينيانكي قد بدأ إلاّ أن قوة مالي كانت لا تزال كبيرة . وقد ذكر المانسا محمود الثالث في رسالة بعث بها إلى ملك البرتغال أن سلطانه لا مثيل له سوى قوة أربعة سلاطين هم : سلطان اليمن وسلطان بغداد وسلطان القاهرة وسلطان التكرور(٣٧) . وكان المانسا محمود الثالث هو الذي استقبل ، سنة ١٥٣٤ ، بعثة برتغالية أرسلها خواودي باربوس ، ممثل ملك البرتغال في حصن الميناء . وقد جاءت هذه البعثة لتفاوض ملك المندانغ في قضايا مختلفة مرتبطة بالتجارة المارة بنهر غامبيا .

ولكن البرتغاليين كانوا قد بدأوا فعلاً يتدخّلون في المنازعات الداخلية للبلدان الساحلية . من ذلك أن بيمُوي ، الوصي على عرش دجولوف ، قد حصل في نحو سنة ١٤٨٢ ، على مساعدة ملك البرتغال العسكرية ضد الورثة الشرعيين . ثم أن بعثات «الصداقة» كانت أيضًا مصادر للمعلومات عن الوضع الداخلي في الأمبراطورية الهرمة .

وقد انتهج البرتغاليون سياسة أخرى تمثّلت في محاباة صغار الرؤساء في المناطق الساحلية ، بواسطة التجارة ، لحملهم بذلك على التحرّر من سلطة مانسا الماندي . وهو ما حدث في مملكة سالوم .

---

(٣٥) كانت مطاردة حقيقية للإنسان ، أنظر م. لي – تال ، ١٩٧٧ ، ص ١٧ .
(٣٦) نلاحظ تواتر الأسماء مثل محمود وولي وموسى ، ذلك أن تشابه الأسماء كان شائعًا جدًا في الأسرة الملكية في مالي .
(٣٧) لا شك أن مانسا محمود الثاني قد استسلم لإغراء المغالاة بعض الشيء في وصف قوته .

مالي ومملكة سالوم

إن مملكة سالوم التي تأسّست على الأرجح في نهاية القرن الخامس عشر على يد ملك السينة امبيغان اندور، قد شهدت توسعًا كبيرًا في القرن السادس عشر. وكانت تضم، نحو عام ١٥٦٦، كل شمال نهر غامبيا وجزءا كبيرًا من السينة. وقد زودت ببني إدارية وعسكرية متينة جعلت منها واحدة من أقوى الأقاليم في مقاطعة غامبيا[٣٨]. وقد اجتذب أحكام تنظيمها العسكري بشكل خاص انتباه التاجر البرتغالي اندريه الفاريس دالمادا. وكان اثنان من القواد العسكريين، «الجاغاراف» أو «جراف»، يرأسان كافة رؤساء القرى الذين يسمون جاغودي، وقد ذكر اندريه الفاريس دالمادا انه «لم يكن على الملك اذا أراد تعبئة جيش إلاّ أن يخطر هذين الجاغارافين فيبلغان بدورهما الأمر إلى رؤساء القرى، فيتولى كل منهم جمع رجاله بحيث لا يلبث أن يحشد جيشًا جرّارًا يشتمل على عدد كبير من الفرسان يمتطون خيولاً مشتراة من الفولانيين والموريتانيين»[٣٩].

وقد تمكّنت مملكة سالوم في نهاية الأمر من التخلّص من سيطرة غامبيا بل ضمّت العديد من القيادات الصغيرة التي كانت تكوّن، هذه المملكة على امتداد مجرى النهر. وفي بداية القرن السابع عشر (١٦٢٠ – ١٦٢٤)، لم يسمع الإنكليزي ريتشارد جوبسن أي ذكر لمملكة غامبيا في هذه المناطق. فقد حلّ محل هذه الولاية الهامة من مالي ثلاث ممالك: سالوم وورلي وكانتر[٤٠].

وهكذا فإن ما تبقّى من أمبراطورية مالي القديمة قد فقد منفذه الوحيد على العالم الخارجي. وحاول مانسا مالي، في انتفاضة أخيرة، أن يرسي من جديد سيطرته على المنطقة الوسطى من دلتا النيجر، سنة ١٥٩٩. إلاّ أنها كانت انتفاضة الموت.

انتفاضة مالي الأخيرة:
فشل مانسا محمود الرابع في الاستيلاء على جني سنة ١٥٩٩

حاول مانسا محمود الرابع الاستفادة من حالة الاضطراب التي أحدثها الاحتلال المغربي في دلتا النيجر. وقد زحف على جني، يسانده معظم الرؤساء المحليين بامانا (بامبارا) والفولبي (الخالا، شاع بكر، وحمادي/خالا أمينًا لمنطقة ماسينا ورؤساء ناحية فاركو وأمه). ولكن الخالا شاع سيخذله مفضّلاً الانضمام إلى المغاربة، بعد أن لاحظ غياب قائدي المانسا العسكريين زنغار زوما والفاران سورا. ولولا هذه الخيانة لربّما تمكّن مانسا مالي من استعادة جني. ومهما يكن من أمر فقد اندهشت التعزيزات المغربية عندما بلغت المدينة لمرأى جيش سلطان مالي «الذي كان من ضخامة العدد بحيث كان يمتدّ حتى ذراع النهر الذي كانت المراكب تعبره في طريقها إلى المدينة»[٤١].

---

(٣٨) أ. ألفاريس دالمادا، ١٨٤٢، ص ٢٦.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٤٠) ج. بولاغ، ١٩٦٨، ص ٢٣٨، أ. دونيليا، ترجمة أ. تكيسيرا داموتا، ١٩٧٧، يكشف لنا عن وجود مملكة غابو (فارين كابو). ويبدو أن هذه المملكة المندانغية كانت بعد عام ١٦٠٠، أكبر مجموعة في منطقة السنغال وغامبيا.

(٤١) السعدي، ١٩٦٤، ص ٢٧٩ (من الترجمة الفرنسية).

وقد قضى المغاربة، بفضل نصائح الخالا شاع الحكيمة، على جيش الماندان إثر تبادل عنيف لإطلاق النيران. ولكن المانسا قد حظي، حتى وهو مغلوب، بمظاهر الاحترام. من ذلك فان الخالا شاع بكر وسُريا محمد تبعاه حتى وصلوا لمأمن وحيّوه تحية السلطان وقلعوا قلانسهم تعظيمًا له على عادتهم »[٤٢]. وهكذا إذن مُني المانسا محمود بالفشل في آخر محاولة له للسيطرة على العاصمة التجارية الكبرى لافريقيا الغربية. وتحرّرت المقاطعات التي كانت لا تزال خاضعة لسلطة مانسا مالي الواحدة تلو الأخرى. ونجم عن التفتت قيام خمس ممالك صغرى حسب السعدي[٤٣].

وستكون قبائل بامانا (بامبارا) هي المستفيدة من انهيار مالي. فقد بادرت وهي ما تزال خاضعة لمانسا مالي حتى بداية القرن السابع عشر بتنظيم نفسها في شكل مراكز على قدر من الأهمية في مملكة ديارا والمناطق الداخلة في دلتا النيجر. وستتدعّم هذه النوايا طوال القرن السابع عشر بفضل موجات قوية من الهجرة كانت أهمها تلك التي قادها الأخوان بارامنغولو والتي ستشكّل أساس تكوين مملكتي سيغو وكآراتا البامانيتين.

ولم تعد مالي، التي انحصرت في مملكة الماندان (مندانغ) تشمل إلاّ مناطق، كعبا، وكيتا، وجيوما وجيوماوانيا[٤٤].

خاتمة عامة

شهدت أمبراطورية مالي فترة طويلة من التدهور السياسي. ولئن فقدت مقاطعاتها الشمالية في النصف الأول من القرن الخامس عشر لفائدة الطوارق أولاً ثم لفائدة الصونغي، فقد استطاعت أن تؤمّن بقاءها بجوار هذه الدولة الجديدة حتى نهاية القرن السادس عشر بفضل الحيوية الاقتصادية لمقاطعاتها الغربية. وستكون حيوية قبائل الوانقارة والجيولا منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر فترة إشعاع ثقافي وتجاري. وقد ترك لنا الأوروبيون الذين زاروا مالي الغربية صورة عن هياكل سياسية واقتصادية واجتماعية متينة.

وعلى الصعيد الإداري، كان يمثّل مانسا مالي فاران يخضع له العديد من رؤساء القرى: النيوني – مانسا، والباتي – مانسا، والكازا – مانسا، الخ... وكان اسم هذا الفاران في منتصف القرن الخامس عشر هو سنغولي، ويقطن على مسيرة عشرة أيام إلى الجنوب – جنوب – شرقي قرية باتي مانسا[٤٥]. وكان بعض رؤساء هذه القرى عبيدًا تابعين للعائلة الملكية. وكانت الخلافة عمومًا تتم على أساس الانتساب إلى الأم. من ذلك أن دييفو غومس يقول ان فارانغازيك، رئيس قرية قريبة من مصب نهر غامبيا، كان ابن أخت الفاران – سنغولي[٤٦]. ولكننا نرى في القرن السادس عشر، مع اعتناق بعض

(٤٢) المرجع السابق، ص ٢٧٩.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٢١.
(٤٤) ي. بيرسن، في هـ. ديشان، (مدير نشر)، ١٩٧٠، ص ٢٨٣.
(٤٥) أ. كادا موستو، ترجمة فرنسية ونشر ج. ر. كرون، ١٩٣٧، ص ٦٧.
(٤٦) د. غومس، ترجمة فرنسية، ت. مونود، ج. دوفال و ر. موني، ١٩٥٩، ص ٣٤.

المانسا المحلين للديانة الإسلامية ، بدء العمل بخلافة الابن لأبيه . وستثبت غابو وجودها في بداية القرن السادس عشر ، كمملكة مستقلة كما ستفرض هيمنتها على مجموعة بلدان السنغال وغامبيا[٤٧] .

وكان للفاران حاشية عديدة تضم الكثير من العبيد . وكان هؤلاء العبيد يخلعون ثيابهم لتحيته بينما يلقي الرجال الأحرار سلاحهم جانبًا ويسجدون .

وكان الفاريا ، وهم من الموظفين ، يجوبون القرى لجباية الضرائب وهي المصدر الرئيسي لدخل المانسا .

وكانت بلاد السنغال وغامبيا التي يرويها نهرا غامبيا وكازامانس زاخرة بالمنتجات الزراعية . وكل المصادر البرتغالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تتحدّث عن حقول القطن الرائعة ومزارع الأرز الشاسعة والغابات الساحرة الجمال بمملكتي غامبيا وكازامانس . ولكن أهم نشاط اقتصادي فيها هو التجارة . وكان الملح يُرسل من مصب نهر غامبيا إلى داخل المملكة حيث يقايض بالذهب . وقد أنشأت التجارة مدنًا كانت تمثّل أسواقًا هامة جدًا على طول نهر غامبيا : مثل سوتوكو وجمنا سورا التي كان يتردّد عليها التجار البرتغاليون بانتظام حيث يبيعون الخيل ، والخمور وأقمشة مقاطعة بريتاني والمصنوعات الزجاجية والجواهر والمسامير والأساور . وقد أدهشهم من التقوا بهم هناك من التجار الماندانغ بما لهم من خبرة بالتجارة[٤٨] . وكانت تجارة الذهب تدرّ أرباحًا طائلة . وأدت إلى نشأة فئة من التجار الأثرياء هم الونغارا . وسيلعب أسلاف الجيولا هؤلاء دورًا بالغ الأهمية في نشر الثقافة المندانغية وبخاصة في اتجاه مناطق الغابات في الجنوب (ساحل العاج وغانا وغينيا) .

وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظلّ تأثير الإسلام ضعيفًا في الغرب[٤٩] . وقد لقي ديبغوغومس في بلاط نيوني مانس وليا صالحًا من سكان احدى مقاطعات مالي الشرقية ولكن تأثيره كان ضعيفًا لدرجة جعلت الرحّالة البرتغالي لا يجد أي عناء في إقناع المانسا باعتناق المسيحية[٥٠] . ولم يبدأ الإسلام في التغلغل داخل مملكة غامبيا إلاّ ابتداءً من النصف الثاني من القرن السادس عشر فحسب . وغالبًا ما كان الرؤساء مسلمين لكنهم حافظوا مع ذلك على عقيدتهم الأرواحية . وبقيت الغابو معقل الديانة التقليدية في منطقة السنغال وغامبيا وستسد الطريق في وجه المسلمين ، سواء كانوا من الفولانيين أو من السوننكة ، حتى القرن التاسع عشر[٥١] .

وبتضاؤل أهمية تجارة الذهب انسحب الماندانغ نحو الجنوب حيث اجتذبتهم تجارة الكولا[٥٢] . وشهدت نهاية القرن السادس عشر هجرات عديدة للماندانغ نحو الجنوب والجنوب الشرقي[٥٣] ، حيث أسّسوا قرى على طول طرق تجارة الكولا . وقد اعتمد ساموري توري على هذه المراكز لبناء امبراطوريته ، في القرن التاسع عشر .

---

(٤٧) أ. ألفاريس دالمادا ، ترجمة فرنسية ف. دي سانتاران ، ١٨٤٢ ، ص ٨ ؛ أ. دونيليا ، ترجمة أ. تايكسيرا داموتا ، ١٩٧٧ ، ص ١١٩ – ١٢٠ .

(٤٨) أ. ألفاريس دالمادا ، المرجع السابق ، ص ٢٩ . كانوا يستعملون موازين لوزن ذهبهم ويجيدون استعمال الصنج .

(٤٩) كان سكان غامبيا ينتمون في أغلبيتهم الساحقة إلى الأرواحية ، ج. باروس ، ترجمة ونشر ج. ر. كرون ، ١٩٣٧ ، ص ٧٠ .

(٥٠) د. غوميس ، ترجمة فرنسية ت. مونود ، ج. دوفال و ر. موني ، ١٩٥٩ ، ص ٤٢ – ٤٤ .

(٥١) أ. ألفاريس دالمادا ، ترجمة فرنسية ف. دي سانتاران ، ١٨٤٢ ، ص ٢٨ . دراسات عديدة حول الروايات الشفوية بالغابو . راجع محاضرات س. م. سيسكو ، و م. سيد بيه ، بالمؤتمر الماندانغي بلندن ، ١٩٧٢ .

(٥٢) تقلّصت تجارة الذهب مع تكثّف تجارة العبيد على الساحل .

(٥٣) ي. بيرسن ، في هـ. ديشان (مدير نشر) ، ١٩٧٠ ، ص ٢٨٤ .

الفصل الثامن

الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر

بقلم سينيكي مودي سيسوكو

في نهاية تطور طويل استغرق نحو ثمانية قرون ، أقامت جماعات « الصنغي » التي كانت قد استقرّت على ضفتي النيجر الأوسط ، في القرن الخامس عشر دولة قوية ووحّدت جزءًا كبيرًا من السودان الغربي ، وأتاحت بذلك ازدهار حضارة رائعة كانت في حالة مخاض منذ قرون. ولزيادة التوضيح سوف ننظر في فترتين كبيرتين من هذا التطور ، ونحاول أن نستخلص منها أهم السمات الحضارية بالقدر الذي نستطيعه ، اعتمادًا على كتابي « التاريخ » المصنفين في تومبكتو[1] ، واعتمادًا أيضًا على المصادر العربية والأوروبية وروايات الصنغي نفسها.

مملكة غاو من القرن الثاني عشر حتى مجيء «سني علي بر» عام ١٤٦٤

إن تاريخ الصنغي قبل عهد سني علي بر (١٤٦٤ – ١٤٩٢) غير معروف تمامًا. والمصادر العربية القليلة عن هذه الفترة تثير من المشكلات أكثر مما تقدّم من معلومات. أما الروايات المنقولة فلا يمكنها توضيح حقائق هذه العصور القديمة إلاّ بصورة منقوصة تمامًا. ومن ثم فإن دراسة هذه الفترة ستكون

(١) السعدي ، ترجمة فرنسية ، أ. هوداس ، أُعيد طبعها عام ١٩٦٤ ؛ م. الكعتي ، ترجمة فرنسية م. ديلافوس ، وأ. هوداس ، أُعيد طبعها عام ١٩٦٤. كتب هذان المصنّفان بأقلام سودانية في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، وهما يشكّلان المصادر الأساسية لتاريخ الصنغي والسودان الغربي في الفترة التي نحن بصددها.

دراسة نقدية، تثير من القضايا أكثر مما تقدّم من الحلول. أما الحلول المقترحة فلا يمكن اعتبارها سوى فرضيات للبحث.

مملكة غاو في القرن الثاني عشر

أصبحت مدينة غاو، بحكم موقعها الجغرافي على نهر النيجر عند حدود السودان والساحل، عاصمة دولة صنغي الناشئة، وانتهى بها الأمر إلى أن حجبت مدينة كوكيا القديمة أو كوغا كما يسميها المؤلّفون العرب. وبفضل تجارة الملح من طوطق Towtek (غير معروفة الهوية)، والسلع الآتية من ليبيا ومصر وأفريقية عبورًا بتادمكة Tadmekka، وقوافل توات، وكذلك من المغرب الأقصى، أصبحت مدينة غاو سوقًا كبيرة مختلطة.

وليست المصادر العربية مع ذلك دقيقة كل الدقة فيما يتعلّق باسم المدينة. ويقول البكري، الذي يكتبها «كاو – كاو»[٢]، إن المدينة تقع على نهر النيجر. ويميز الادريسي بين مدينة كوغا «العامرة بالسكان» والمحاطة بالأسوار[٣] عند الضفة الشمالية وبين مدينة كاو – كاو (جاوجاو) على مسيرة عشرين يومًا شمالاً. وما يمكن الخروج به من ذلك هو أنه في القرن الثاني عشر كانت توجد مدينتان، هما جاو وكوكيا.

وكانت المملكة الممتدة على ضفتي النيجر من دندي إلى غاو تحت سيطرة «الجع» Jaa أو «الزعّ» وهما على ما يظن عشيرتان من عشائر الصنغي اختلطتا بالبربر[٤]. وعلى أي حال، فالضيا Dia، كان يُلقّب باللقب الصنغالي كنتا أو كندا في القرن الحادي عشر. وكان الحدث الكبير في ذلك الحين هو اعتناق جع كوسوي Jaa Kosoy الإسلام عام ١٠١٩. ولا يبدو أن بقية الصنغي حذوا حذوه، بل ظلّوا مدة طويلة متمسّكين بمعتقداتهم وممارساتهم الدينية التقليدية.

وتحمل شواهد القبور التي عُثر عليها في جاو – ساني Gao-Sani أسماء إسلامية تختلف عن تلك الواردة في كتابي «التاريخ». وهناك أسباب كثيرة تحمل على الظن بأنها أسماء مستوردة.

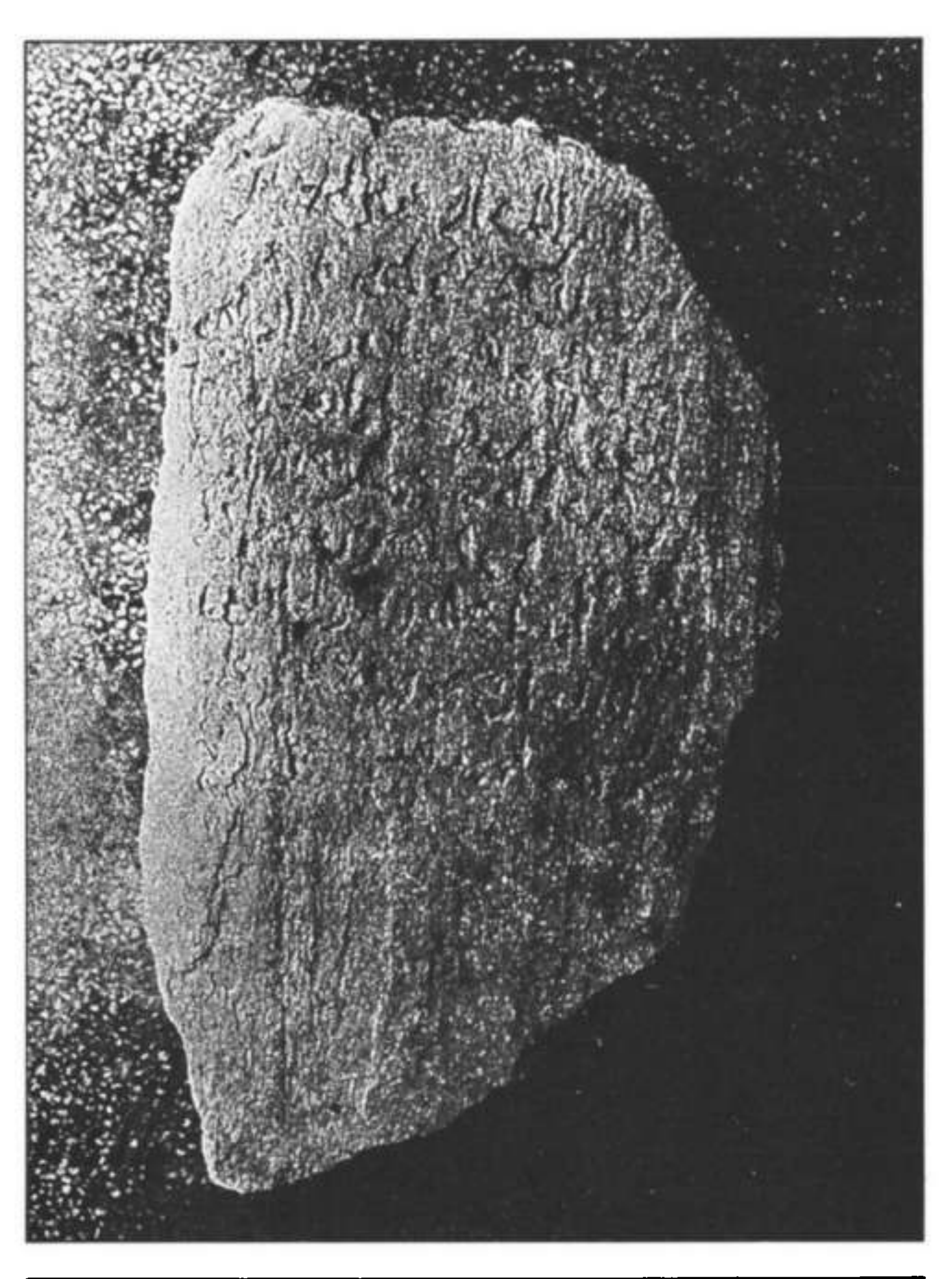
حكم الماندنغ وأسرة سني من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر

من المحتمل أنه حوالى ١٢٧٥، وبصورة أدق ما بين ١٢٨٥ و ١٣٠٠[٥]، غزت جيوش الماندنغ مملكة غاو. وقرابة ١٣٢٤ – ١٣٢٥، أقام المانسا كانكون موسى، مسجدًا في غاو عقب عودته من

(٢) ف. مونتي، «بيفان»، رقم ١ : ١٩٦٨، ص ٧٩.
(٣) الإدريسي، ١٨٦٦، ترجمة فرنسية ر. دوزي وم. ج. دي غوجي، ص ١٢ – ١٤.
(٤) السعدي، المرجع السابق، الفصل الأول، أسطورة عن نشأة الزّع أو ضياء الذي جاء جده من اليمن. م. ديلافوس (١٩١٢ الجزء الثاني) يعتقد أن آل ضياء هم «البربر الذين اعتنقوا المسيحية» وحرّروا مملكة غاو من السوركو الذي حاولوا نهبها. ويرى ب. حلٍ (١٩٦٨) أنهم عشيرة مولّدة من الصنغي في الشمال اعتنقت الإسلام.
(٥) ش. مونتي، (أعيد طبعه عام ١٩٦٨) يفصل الموضوع بنقد دقيق لرأي م. ديلافوس (١٩١٢ – الجزء الثاني) الذي يحدّد تاريخ غزو الماندنغ في (١٣٢٤ – ١٣٢٥).



• شاهد رقم ١١ من غاو – ساني (SO ٥٠ – ٥٩ مكرّر)
شاهد مستطيل من حجر الكوارتز (ارتفاع ٠,٣٨ متر وعرض ٠,٢٨ متر)
كُتب عليه هذا قبر محمد بن الجمعة رحمة الله عليه.
توفي يوم الجمعة السادس من شعبان ٤٩٦ هـ. [١٥ مايو ١١٠٣]



• شاهد رقم ١٤ من غازو – ساني (SO ٥٠ – ٥٤)
شاهد من الحجر الأخضر الأصفر (ارتفاع ٠,٤٩ متر) كُتب عليه :
كل من عليها فان وكل نفس مقبوضة الى بارئها.
هذا قبر حواء بنت محمد رحمة الله عليها توفيت ليلة الخميس الثاني عشر من رمضان ٥٣٤ هـ. [مايو ١١٤٠]

الحج. ونظمت جماعات الماندانغ المنطقة الواقعة على منحنى النيجر تحت قيادة الفاريين Farin أو الحكام، وعملوا على تنميتها اقتصاديًا، فأصبحت غاو موقعًا تجاريًا كبيرًا وواحدة من أجمل المدن السودانية [٦].

ولم يستمر حكم الماندانغ طويلاً، فقد كان جع غاو في الواقع تابعًا، حاول استغلال الصعوبات التي كانت مالي تواجهها ليتحرّر. وعلى أي حال يبدو أن نهاية القرن الرابع عشر كانت هي أيضًا نهاية حكم الماندانغ في غاو. وحلّت محلهم أسرة جديدة هي أسرة «سني Sonni» التي أسّسها «علي قولون» في القرن الثالث عشر، ثم استقلت وطردت الماندانغ.

ويذكر بوبو حما Boubou Hama [٧]، أن هذه الأسرة – التي لا يزال أصلها مثارًا لمشكلات لم تحل – قد جاءت على أغلب الظن من كوكيه وطردت جماعات الماندانغ من غاو. وكانت جماعات السني أو السيعي أو الشيعي جماعات محاربة. وقد خرج الثلاثة الأخيرون من غاو ونقلوا الحرب إلى الغرب تجاه اقليم مسينا الغني وأمبراطورية مالي. وقام «السني ماداوو»، أبو «السني علي» بحملة كبيرة غزا بها نياني عاصمة أمبراطورية الماندانغ، وأعمل فيها السلب وانتزع منها أربعة وعشرين قبيلة كانت خاضعة للمانسا. وقام خليفته «السني سليمان دَعْمه»، فغزا بدوره مدينة نيما مركز اقليم سونينكي في أمبراطورية مالي ودمّرها وخرج منها بغنيمة كبيرة. وقد زادت الحروب من إمكانيات نشاط المملكة. وأصبح ملك غاو السيد الحقيقي لمنعطف نهر النيجر، وبلغت الأسرة ذروتها عام ١٤٦٤ بتولي «السني علي» الحكم.

أمبراطورية صنغي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

«سني علي بر» أو «سني علي الكبير» (١٤٦٤ – ١٤٩٢)

لقد غير «سني علي بر» مصير مملكة غاو، إذ تخلى عن سياسة غارات النهب التي انتهجها أسلافه وقام بفتوحات اقليمية [٨]، وجنّد لهذا الغرض جيشًا مدرّبًا على الحرب ومنظّمًا تنظيمًا محكمًا بقيادة عدد من القادة المقتدرين، وأعدّ أسطولاً صغيرًا على النيجر يقوده الهيقوي Hikoi (وزير النهر والأسطول) وحشد جيشًا من المشاة يزداد عدد أفراده بصورة مطردة نتيجة انضمام المحاربين من الجيوش المهزومة إليه، كما جهّز فرقة من الفرسان كانت بفضل خفة وسرعة تحرّكها تعتبر رأس الحربة في كل غزوات السني الكبير. وكان «سني علي بر» طوال حكمه يجوب على رأس فرسانه اقليم السودان المجاور للنيجر في كافة الاتجاهات وقد أدهش خصومه بمفاجأته لهم وبسرعة تحرّكه، وفرض سلطانه بالعنف والخوف، واشتهر بين معاصريه بأنه المحارب الذي لا يُقهر، وكان بمثابة تجسيد للعبقرية الحربية.

---

(٦) ابن بطوطة، ترجمة فرنسية موني وآخرين ١٩٦٦، ص ٧٢.
(٧) ب. حما، ١٩٦٨، الفصل الثالث والرابع والخامس.
(٨) عن مملكة صنغي يمكن الرجوع إلى أ. و. باردو، ١٩٧١، ص ٤١ – ٥٩.

واشتهر بأنه ساحر كبير، وكان ينظر إليه كرجل ذي قدرة خارقة وجاذبية سحرية، وأطلق عليه الشعب لقب «دعالي»[٩].

واهتمّ سني علي كأسلافه بالإقليم الغربي ذي الثروة الكبيرة، وبالمدن النيجيرية وبالجزء الأوسط من دلتا نهر النيجر. وقد غزا على مراحل اقليم جني وجزءًا من مسينا، حيث فتك بعدد كبير من الفولانيين، وغزا على الخصوص تمبكتو (١٤٦٨)، وهاجم الطوارق، وردهم حتى شمال الساحل، وقام بعدة حملات في الجنوب ضد جماعات الدوجون والموسى والباريبا. وفي عام ١٤٨٣ لحق بالملك موسى ماسيري الأول، وكان هذا عائدًا من ولاته محمّلاً بالغنائم الوفيرة، فغلبه بالقرب من جني، وبذلك وضع حدًا لما كان يتهدّد وادي النيجر من غارات الملك موسى.

وعند مصرعه عام ١٤٩٢، كان سلطانه نافذًا على أمبراطورية كبيرة محورها نهر النيجر وامتدادها من دندي حتى مسينا. وكان قد نظمها على غرار أمبراطورية الماندنغ، وأسّس عددًا من الأقاليم الجديدة التي أسند زعامتها إلى ملوك يحملون لقب فاري أو فارما[١٠]، ماندنغ أو لقب قوي أو موند زو (منغي)، وعيّن قاضيًا في تمبكتو، وربما في مدن إسلامية أخرى. وكان جميع ولاة الدولة هؤلاء يتبعون السني بصورة مباشرة. وهكذا أصبحت دولة غاو ذات النظام الأبوي التقليدي دولة مركزية تشرف على جميع الأقاليم النيجيرية. ونهض «سني علي» بالتنمية الاقتصادية في مملكته الناشئة. واذا كان قد أخفق في محاولته حفر قناة من النيجر حتى ولاتة، فقد نجح في بناء السدود بوادي النهر وشجّع الزراعة.

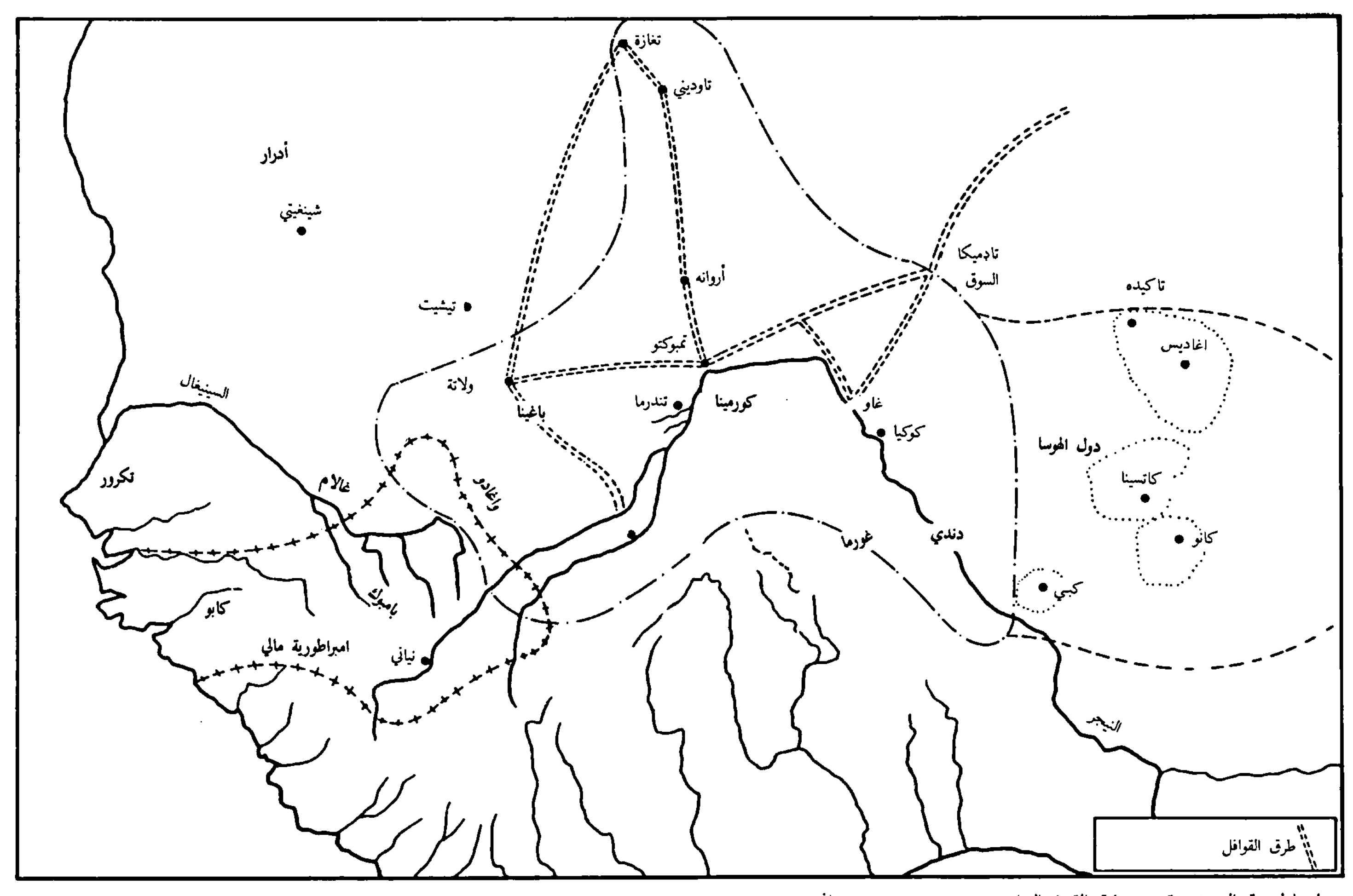
السياسة الدينية

صادف «سنّي علي» صعوبات كبيرة من جانب الأرستقراطية المسلمة، ولا سيّما في تمبكتو التي صوره علماؤها للخلف بعد قرنين من الزمن في صورة ملك قاس وطاغية فاسق. غير أن اعتباره قد رُدّ إليه اليوم[١١] بما لا يترك مجالاً للشك. فقد كانت أسباب معارضته للعلماء من رجال الدين أسبابًا سياسية وأيديولوجية، إذ كان سني علي بحكم تربيته في بلده الأم، الفارو (سقطو) مسلمًا لم يحسن إسلامه، حيث لم يهجر يومًا العبادات التقليدية للصنغي. أما العلماء من رجال الدين فكانوا لا يكفّون عن انتقاد السني، وقد انضمّ كثير منهم للطوارق التابعين لعقيل الملاول، الذي كان سنّي علي يحاربه آنذاك وكان سنّي علي فوق كل شيء رمزًا للثقافة الصنغية التقليدية أمام القوى الجديدة المتمثّلة في الإسلام والمدن.

(٩) م. كاتي (ترجمة فرنسية م. ديلافوس وأ. هوداس، إعادة الطبع ١٩٦٤، ص ٨٤) يترجم عبارة «دعالي» بعبارة «العلى»، ويظن أن هذه صفة يجب أن تطلق على الله.

(١٠) أنظر الصفحات ١٣ – ٢٦ فيما يلي.

(١١) المدافعون عن سنّي علي: ج. روش، ١٩٥٣، ب. حما، ١٩٦٨، ش. أ. ديوب، ١٩٦٠، ر. موني ١٩٦١، س. م. سيسوكو، ١٩٦٦، ومؤرّخون آخرون صحّحوا ما افتري به على السني الكبير وشرحوا أعماله في ضوء الظروف التاريخية التي وُجد فيها.



• امبراطورية الصنغي قرب نهاية القرن السادس عشر (ج. ت. نياني)

أسرة الـ«اسكيات» (١٤٩٢ – ١٥٩٢)

أسكيا محمد الأول، السيلانكي[١٢]

اندلعت الحرب بعد موت سني علي إذ رفض سني باري اعتناق الإسلام، فثار على السني الجديد حزب إسلامي بقيادة الهومبوريلوا محمد، وأخيه عمر كومدياغو، وهزمه في أنفاو قرب غاو. واستولى محمد توري أو سيلا على السلطة، وأطلق على نفسه لقب أسكيا، وأسّس أسرة حاكمة مسلمة.

وكان «أسكيا محمد» من أصل سوننكي من عشيرة توري أو سيلا[١٣] المنحدرة من التكرور. وعلى الرغم من كونه أمّيًا فقد كان مسلمًا ورعًا، ورجلاً متزنًا ومعتدلاً، وسياسيًا بعيد النظر، وكان انتصاره انتصارًا للإسلام. وقد اعتمد على القوى الجديدة لتوسيع ودعم الأمبراطورية التي أسّسها «سنّي علي بر». ولم يكن أبرز حدث في بداية حكمه ما حققه من فتوحات بقدر ما كان حجه إلى مكة.

فقد قصد العاهل الجديد الأراضي الحجازية في ١٤٩٦ – ١٤٩٧ بدافع التقوى وكذلك بدوافع سياسية، واصطحب معه جيشًا من ٨٠٠ فارس وعددًا كبيرًا من علماء الدين، وحمل معه ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ دينار لنفقاته. ونزل بالقاهرة حيث زار قطبًا من أقطاب الإسلام هو الشيخ السيوطي شيخ الأزهر الذي نصحه بما يجب أن يكون عليه الحكم. وابتاع في مكة حكرًا أوقفه على الحجاج السودانيين وحصل من شريف مكة على لقب خليفة السودان، وعلى شعارات هذه الولاية الجديدة، وعلى وعد بإيفاد شريف الصقلي إلى مملكته. وهكذا رجع إلى السودان مزوّدًا بالشرعية الإسلامية وباعتراف عالمي بسلطانه.

واصل «اسكيا محمد» ما أنجزه «سني علي بر» فعمل بمساعدة أخيه عمر كمدياغو، على توسيع مملكته من جميع حدودها، فأخضع مسينا وديارا (غارا) حيث لقي تنغلا مصرعه عام ١٥١٢، غير أن ابن الأخير كولي تنغلا خلفه في الحكم. وفرض أسكيا محمد سلطانه على الصحراء حتى مناجم تغازه، وفتح أغاديس ومدن الهوسا (كاتسينا وكانو). وهاجم شعوب الجنوب: الباريبا، والموسى، والدوجون، ولكنه لم ينجح في إخضاعهم. وبفضل فتوحاته قوّى دعائم أمبراطورية الصنغي وامتدّ بها حتى أقصى أطرافها من دندي إلى سيبيريدوجو جنوب سيغو، ومن تغازه إلى حدود ياتنغا.

ونظم الاسكيا الأمبراطورية وفقًا للتقاليد الموروثة عن سني علي. وسمى أخاه عمر كمديا «كورمينا – فاري»، وشيّد هذا الأخير عاصمته تندرما دفعة واحدة. وأنشأ الأسكيا مقاطعات جديدة واستبدل عمّال سنّي علي بأتباعه هو، ونصّب قضاة في كل المدن الإسلامية، وأعاد تنظيم البلاط والمجلس الأمبراطوري ووضع سلّمًا للمناصب ونظّم المراسم، ووزّع مناصب القصر بين مختلف خدمه، وأعطى الأولوية في الدخول عليه للعلماء والقضاة.

وكان أسكيا محمد حاكمًا مستنيرًا، فأولى اهتمامه لجميع أنشطة أمبراطوريته، وشجّع التجارة التي استفادت المملكة منها أعظم استفادة، واجتهد في وضع ومراقبة استعمال أدوات القياس، وحمل القضاة على سرعة البت في القضايا وتأمين النظام فيما يتعلّق بالمعاملات، وذلك بحشد عدد كبير من رجال شرطة

---

(١٢) سيلانكا: كلمة سوننكي معناها الانتماء إلى أسرة سيلا.

(١٣) ورد هذان الإسمان في كتب التاريخ. وأغلب الظن أن الأسكيا كان من عشيرة سيلا. وكان لقب توري في ذلك الحين لقبًا دينيًا مثل لقب سيسي. وتبنى الفاتحون المغاربة لقب توري وأخذوا به.

الأسواق. ويُقال إنه حفر قناة في منطقة كابارا – تومبكتو[١٤]، وشجّع الزراعة، فأنشأ عددًا كبيرًا من القرى الزراعية وحشد فيها ما كان يعود به من عبيد في حروبه، وخفض الضرائب على المحاصيل الزراعية. وشجّع الإقبال على التعليم والدراسة بما كان يقدّم من عطايا ومن معاشات لعلماء الدين، وعلى الأخص بما كان يحوطهم به من احترام. ولكن من سوء حظه أنه أنجب كثيرًا من الأبناء وعمر طويلاً في الحكم، فأصابه الكبر وفقد البصر، وتآمر عليه أبناؤه وأطاحوا به، بقيادة الابن الأكبر موسى الفاري مندزو (وزير الأملاك) الذي نصّب أسكيا في عام ١٥٢٨.

خلفاء أسكيا محمد

تعاقب أبناء أسكيا محمد على الحكم خلفًا لأبيهم حتى عام ١٥٨٣: موسى (١٥٢٨ – ١٥٣١) ومحمد الثاني بنكان كيرياي (١٥٣١ – ١٥٣٧) اسماعيل (١٥٣٧ – ١٥٣٩)، اسحق الأول (١٥٣٩ – ١٥٤٩)، فداود (١٥٤٩ – ١٥٨٣)، ثم انتقلت الخلافة إلى أبناء داود الحاج محمد الثالث (١٥٨٣ – ١٥٨٦)، محمد الرابع (١٥٨٦ – ١٥٨٨)، فاسحق الثاني (١٥٨٨ – ١٥٩١) ثم محمد غاو (١٥٩٢). ولم يقم هؤلاء الخلفاء بفتوحات حقيقية ولكنهم كانوا يغيرون على البلدان المتاخمة للمملكة. أما في الداخل فقد كانت أزمة الخلافة على الحكم مثار صراعات خضّبت دماؤها أكثر من مرة هذا الجزء من ثنية النيجر. وأما في الخارج فقد نشأت مشكلة جديدة تتعلّق بمناجم الملح في تغازه، الأمر الذي هدّد بإفساد العلاقات مع سلاطين المغرب الأقصى. ونحن نلمس هذه المشكلات خلال ثلاثة عهود رئيسية من الحكم.

يصف كتابا «التأريخ» اسحق الأول (١٥٣٩ – ١٥٤٩)[١٥] بأنه أمير حازم مطاع. وقد قاد أخوه داود حملة على عاصمة أمبراطورية مالي وأعمل فيها السلب والنهب. وفي عهد اسحق الأول أثيرت مسألة تغازة. فقد طالب سلطان مراكش السعدي محمد الشيخ بملكية مناجم الملح، ولكنه أخفق في محاولة احتلالها. وقد ردّ عليه اسحق الأول بغزو وادي درعة المغربي[١٦] بفرسان من الطوارق.

وحكم داود (١٥٤٩ – ١٥٨٣) بن اسكيا محمد الأول، طويلاً واتفق ازدهار حكمه مع ازدهار مملكة صنغي. وتصف لنا كتب التاريخ الأسكيا داود أميرًا ذكيًا، شديد الدهاء، متفتّحًا على كل الأمور، صديقًا للأدباء، وكان قد مارس مهام سياسية كبيرة، وعرك كل المشكلات أثناء تولي اخوته الحكم، الأمر الذي أكسبه خبرة عظيمة بالأمور وبالناس.

وبلغت المملكة ذروتها في عهد الأسكيا داود، وحقّقت نهضة اقتصادية وفكرية عظيمة الشأن. وكانت الزراعة كثيفة في وادي النهر، بينما شهدت المدن التجارية الكبيرة أقصى ما يمكن بلوغه من نشاط. كان ذلك هو عصر القافلة عابرة الصحراء التي أظهرت تفوّقها، كما يقول ف. م. جودينيو[١٧]، على السفينة العابرة للمحيط الأطلسي المسمّاة بـ«الكارافيل». وأصاب الأسكيا فوائد جمة من هذا الرخاء العام، بل كوّن أيضًا وديعة من حصيلة النقود التي كانت تُجبى كضرائب على المعاملات التجارية وايراد العقارات من الأملاك الأمبراطورية. وكانت متاجره تتلقّى آلاف الأطنان من

(١٤) كما جاء في الروايات المنقولة المأخوذة من تومبكتو حيث يوجد رسم لقناة تتجه نحو كابارا.
(١٥) السعدي، المرجع السابق، ص ١٥٧ – ١٦٤.
(١٦) المرجع السابق، ص ١٦٣ – ١٦٤، أنظر أيضًا ر. موني، ١٩٤٩، ص ١٢٩ – ١٤٠.
(١٧) ف. جودينيو، ١٩٦٩.

الحبوب التي تُجمع من مختلف أنحاء المملكة. وقد رعى دواد – شأنه في ذلك شأن أبيه – الأدباء والعلماء، فكرّمهم وأغدق عليهم الهدايا وأحاطهم بالتقدير والاحترام، وأسهم في ترميم المساجد والإنفاق على الفقراء.

أما من الناحية العسكرية فقد قام الأسكيا بحملات كثيرة لتهدئة الأمور في مسينا شرقًا، وبوجه خاص عند جماعات الموسى التي كان يوجّه الغارات عليها. وصارت أخطر مشكلة هي مشكلة تغازة، إذ ظلّ سلطان المغرب مولاي أحمد المنصور يطالب بالمناجم. ويبدو أن الأمر انتهى إلى إيجاد حل وسط يحفظ للصنغي حقوقهم وملكيتهم. غير أن حملة مغربية في عهد الأسكيا الحاج محمد الرابع (١٥٨٣ – ١٥٨٦) احتلت المناجم. وبدأ الطوارق يستغلون تناودارا (تاوديني) على مسافة ١٥٠ كم جنوب تغازة التي تهدّمت.

وبعد موت محمد الرابع نصّب أخوه محمد الخامس بانو خلفًا له عام ١٥٨٦، وأثارت هذه الخلافة حربًا أهلية. وثار عدد كبير من أخوة الأسكيا ومن بينهم الصدّيق والي منطقة تمبكتو. وقام الصدّيق بغزو غاو عام ١٥٨٨، على رأس جميع قوات كورمينا والمقاطعات الغربية، ونصبته تمبكتو أسكيا ولكنه لم ينجح أمام صمود أسكيا غاو الجديد، اسحق الثاني، وقمع هذا الأخير الثورة بوحشية وأباد جيوش الغرب. وهكذا انقسمت المملكة من الناحية المعنوية، وخاب أمل الغرب فتخلى عن اهتمامه بغاو، وانضمّ عدد كبير من أمراء الصنغي بدون صعوبة لصفوف الغزاة المغاربة عام ١٥٩١، بعد انقضاء ثلاث سنوات على الحرب الأهلية، وهكذا انهارت أمبراطورية الصنغي وراحت ضحية لتناقضاتها الداخلية.

حضارة الصنغي

التنظيم السياسي والإداري

تتميّز أمبراطورية الصنغي في تنظيمها السياسي والإداري بالابتكار العميق، فالتركيب المتين لهيكل السلطة والمركزية المنتظمة والملكية المطلقة، كلها تضفي على مملكة غاو لونًا محدثًا وتختلف في ذلك مع النظام السياسي التقليدي للممالك المتحدة، وهو النظام الذي عرفته أمبراطوريات غانا أو مالي.

النظام الملكي

يقوم النظام الملكي في غاو بما له من تقليد قديم في الحكم على أساس القيم الإسلامية والتقليدية وذلك في عهد الأسكيا. وتقضي التقاليد القديمة الصنغية والسودانية باعتبار التوى Toi أبًا للشعب، وله سلطة شبه مقدّسة، وهو مصدر الخصوبة والرخاء. وكان موضع توقير ولا يقترب أحد منه إلاّ ساجدًا.

أما التقليد الآخر فهو تقليد إسلامي، فقد اعتنق ملوك غاو الإسلام منذ القرن الحادي عشر، وكان عليهم من حيث المبدأ أن يحكموا طبقًا لتعاليم القرآن. وقد امتزج هذان التقليدان، وكان بروز أي منهما يتوقّف على شخصية الحاكم. وكان أسكيا محمد الأول وأسكيا داود يرتكزان على الإسلام في حين كان سني علي وأغلبية الأسكيا الآخرين يغلب عليهم الطابع الصنغي أكثر من الطابع الإسلامي.

وكان الملك يقيم في غاو، يحيط به عدد كبير من رجال القصر، وهم السنة. وتتكوّن السنّة من أفراد أسرته ومن كبار الموظفين ومن الشعراء والمنشدين: الجزيري والمابو. وكان يجلس على نوع من المنصة يحيط به ٧٠٠ من الأغوات. وكان الشاعر (أو المنشد) – واندو – يقوم بدور المنادى... ويقوم بمختلف

الأعمال المنزلية عدد كبير من الخدم ، غالبيتهم من العبيد ، تحت إشراف وإدارة « هوهو كوروي قوي » ، عمدة القصر. ويتولى شخص معين شؤون غرفة الملابس(١٨).

وكان أكبر الأخوة يتولى الخلافة بعد موت الملك. والواقع أن معيار القوة هو الذي كان يحدّد خليفة الملك ، ومن ثم كانت الأزمات الدورية. وكانت السنّة هي التي تعيّن الأسكيا الجديد وتنصّبه في عاصمة كوكيا القديمة.

الحكومة الملكية

كانت الحكومة تتشكّل من وزراء ومستشارين يعيّنهم ويقيلهم الأسكيا ويصنّف مراتبهم حسب وظائفهم. وكانت هناك الحكومة المركزية التي توجد حيث يوجد الأسكيا ، وحكومة الأقاليم.

الحكومة المركزية

يشكّل أعضاء الحكومة المركزية المجلس الملكي الذي يناقش كل قضايا المملكة. ويتولّى أمين مستشار تدوين قرارات المجلس ، والعناية بمراسلات الملك ، وتحرير وتنفيذ مواثيقه. ويتولى الإشراف على الأقسام الإدارية المختلفة أعضاء آخرون ، لا نعرف وظائفهم على وجه التحديد ، فلم يكن هناك تخصّص دقيق في الوظائف بالمعنى الحقيقي. ويعطينا محرّرو التاريخين قائمة بكبار موظفي الحكومة المركزية الذين نذكر أهمهم(١٩) فيما يلي :

كان « الهي كوي » صاحب الماء ورئيسًا للأسطول ، وكانت الوظيفة قديمة وعلى جانب كبير من الأهمية نظرًا للدور الذي كان النيجر يلعبه في حياة قدامى الصنغي. وأصبح الهي كوي واحدًا من كبار موظفي الديوان الملكي ، وكان بمثابة وزير للداخلية ويخضع لإدارته جميع حكام الأقاليم. ونقرأ فيما نقرأ على أي حال أن الهي كوي في عهد الأسكيا اسحق الأول أنّب الأمير داود حاكم إقليم كورمينا المعروف بجبروته ، وأمره بالعودة دونما تأخير إلى إقليمه.

الفاري موندزو أو مونجو

كان الفاري موندزو وزيرًا للزراعة ... ومن الجائز جدًا أن يكون قد تولّى إدارة الكثير من الأملاك الأميرية المبعثرة في جميع أنحاء المملكة والتي كانت تدرّ كل سنة ايرادات كبيرة. وكانت هذه الوظيفة البالغة الأهمية تسند عادة إلى الأمراء من أبناء العائلة المالكة وبالأصح إلى أولياء العهد. وكان على الفاري موندزو أيضًا تسوية النزاعات المتعلّقة بالأرض ، وكان فارما الهاري يتولى شؤون المياه والبحيرات ، وفارما الساو شؤون الغابات والورني شؤون الملكية.

فارما الكاليزا : « وزير المال »

لم تحدّد كتب التاريخ مواصفات هذه الوظيفة. ولا بدّ أنها كانت تتصل بشؤون الخزانة الملكية.

---

(١٨) حوالي ٢١٠ بزات حريرية ، وأصواف وأقطان ، أنظر م. كاتي ، ترجمة فرنسية م. ديلافوس وأ. هوداس ، إعادة الطبع ١٩٦٤ ، ص ٢٦٠ – ٢٦١.

(١٩) قائمة كاملة بموظفي الحكومة الملكية من وضع ج. ن. كوديو عام ١٩٧١ ، ص ٢٧٠ – ٢٧٢ ، و روش ١٩٦٣ ، ص ١٩٢ – ١٩٣.

والمعروف أن الأسكيا كانوا على جانب كبير من الثراء ، وكانت ايراداتهم العينية والنقدية متمركزة في غاو. وكان فارما الكاليزا يتولى حراسة الخزانة ويؤمّن نفقات الملك. وكان المسؤول بلا شكّ عن إدارة الودائع النقدية التي جمعها الأسكيا داود. وكان لفارما الكاليزا ثلاثة مساعدين ، فارما الواني ، المشرف على الأموال ، وفارما البانا المسؤول عن الأجور ، وفارما الدوي مسؤول المشتريات.

البالاما

كانت وظيفة البالاما وظيفة عسكرية ، ولا تذكر كتب التاريخ مواصفاتها بالتحديد. فقد كان البالاما في الماضي هو قائد الجيش. ولا بدّ أن هذه الوظيفة فقدت شيئًا من أهميتها في القرن السادس عشر ، فلم يرد لهذه الوظيفة ذكر على رأس الجيوش الملكية. وقد أصبح البالاما رئيسًا لفصيلة من الجيش ترابط في اقليم كابارا – تمبكتو ، وكانت بلا شكّ تابعة لفاران كورمينا ، ويبدو أن الوظيفة كانت تُسند إلى أمراء الأسرة المالكة.

ولا بدّ أن هناك إدارات أخرى كانت موجودة في غاو لتسيير دفة الحكم في المملكة ولكن كتابي التاريخ أغفلاها. ولنذكر منها وظيفة فارما الكوري وهو الوزير المسؤول عن الأجانب من الجنس الأبيض ، والمفوّضون الملكيون الذين كان الملك يرسلهم بصفة دورية إلى الأقاليم لحل بعض المشكلات العاجلة ، ولجباية الضرائب الاستثنائية من تجار المدن الكبيرة ، ولمراقبة الموظفين المحليين ومديري الأقاليم.

– حكومة الأقاليم

انتهج الصنغي نظامين من الحكم وذلك حسب الاقليم المعني. فهناك مجموعة أولى تضم الأقاليم التي تمّ غزوها ، وقد تولّى حكمها زعماء يعينهم ويقيلهم الأسكيا في أي وقت شاء. وكان هؤلاء الحكام يخضعون لسلم وظيفي محدود ويمارسون كافة السلطات فيما عدا السلطة القضائية التي كانت من اختصاص القضاة. وكانوا يحملون لقب فاري أو فارما أو فاربا وهو لقب مشتق من النظام الماندنغي للـ« فارين». وكانت مملكة مالي قد أقامت مجموعة من الحكام (فارين) في إقليم ثنية النيجر ، وحافظ كل من سني علي والأسكيا على الوظيفة واللقب. وكان لقب كوي من الألقاب التي أنشأها الصنغي ، ومعناه الزعيم من درجة أدنى. كذلك الأمر بالنسبة للفظ موندزو التي كانت تُطلق في الوقت نفسه على موقع معين (تمبكتو – موندزو) ، أو على إدارة حكومية (الفاري موندزو) ، أما لقب شا مارنغا وغيره من الألقاب فلا نعرف عنها شيئًا.

وكانت الأمبراطورية تنقسم إلى إقليمين كبيرين ، اقليم كورمينا في الغرب واقليم دندي في الجنوب الشرقي ، وكان الذين يتولون وظيفة فاري كورمينا أو الكانفاري هم أمراء الأسرة المالكة – إلاّ في حالات استثنائية قليلة – وفي أغلب الأحيان كانت الوظيفة تُسند لولي العهد الأمبراطوري[٢٠]. وكان فاري كورمينا يقيم في تندرما ، ويُعتبر الشخصية الثانية في الدولة ، ولا نعرف بالتحديد حدود سلطاته. ويبدو أنه كان يدير كل أقاليم غرب تمبكتو ، ولكن ذلك غير مقطوع به ، لأن حكام هذه المنطقة كان تعيينهم يتم عن طريق غاو وكانوا يتبعون في أمورهم الأسكيا. غير أنه قرب نهاية القرن السادس عشر فرضت السلطة العسكرية لفاري كورمينا نفسها على سائر أقاليم الغرب وأصبح حاكم كورمينا الزعيم الحقيقي ،

(٢٠) ومنهم أسكيا محمد الثاني بنكن – وأسكيا داود.

وكان له جيش قوي يتكوّن من حوالى ٤٠٠٠ رجل وكان في استطاعته تحدي السلطة في غاو، وقد حدث ذلك أكثر من مرة.

أما فاري الدندي وهو حاكم اقليم دندي فكان يشرف على مقاطعات دندي أي على الجنوب الشرقي من المملكة. وكان بمثابة الشخصية الثالثة في الدولة، وكانت هذه الوظيفة عادةً لأحد كبار موظفي الديوان الأمبراطوري. وكان جيشه على درجة من الأهمية أقل مما كان عليه جيش كورمينا. وكان يتولى الدفاع عن جنوب المملكة. وهناك أقاليم أخرى ذات أهمية ثانوية كان يتولّى شؤونها حكام يعيّنهم الأسكيا، فمنهم «كوي البارا» و «كوي الدرما» و «كوي الهومبوري» و «فارما الأرابندا» و «فارما البنجا» و «الكالاشا» و «فارما الباغينا» الذي فقد لقب أسكيا... الخ.

وكانت المدن التجارية مثل تمبكتو وجني وتغازه وولاته تتمتّع بنوع من الحكم الذاتي تحت إدارة زعمائها من الكوي أو الموندزو. وكانت الأنشطة التجارية والحرفية وكذلك الكثافة السكانية تقتضي وجود عدد كبير من الموظفين الإداريين. وعلى سبيل المثال في تمبكتو، كان هناك إلى جانب القاضي الذي يتولّى شؤون القضاء، وكوي تمبكتو رئيس المدينة، عدد كبير من الموظفين منهم موندزو الأسارا، وهو أشبه بمأمور الشرطة وكان مسؤولاً عن الأسواق وعن المدينة وعن تنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي، وكان هناك مفتّشو الموازين والمكاييل، وجباة الضرائب من الأسواق، ورجال الجمارك في كابارا، ورؤساء مختلف الجماعات الحرفية، ورؤساء المجموعات العرقية، وقد انضوت كل مجموعة منها في حي لها، ومراقبو الأكواخ في ضواحي المدينة. وكل هؤلاء الناس كانوا يشكّلون نواة حكم إدارة فعّالة في المدن الكبيرة.

– الإدارة غير المباشرة

كانت الإدارة غير المباشرة تعنى بالبلدان التابعة أو الخاضعة. وكان زعيم أي من هذه البلدان ينصّب وفقًا للتقاليد المحلية ويعترف الأسكيا بهذا التنصيب، غير أنه قد تحدث اعتراضات من جهة الطامعين في المنصب، أو قد تنشب ثورات ضد السلطة الأمبراطورية، وكان الأسكيا يتدخّل في هذه الحالات ويفرض مرشّحه. وهكذا عزل الأسكيا الحاج محمد الثالث بوبو مرياما، فندق مسينا، ونفاه إلى غاو[٢١]. وكانت دولتا الهاوسا (كانو وكاتسينا) ومملكة أغاديس وأمبراطورية مالي[٢٢]، واتحاد طوارق الانتسار (الأندسيون طبقًا للسعدي)، واتحاد طوارق «المغشارن»[٢٣] (الطوارق من أصل صنهاجي في منطقة تمبكتو – ولاتا)، كانت كلها من فئة هذه الدول التابعة أو الخاضعة بدرجات متفاوتة حسب اتجاه سياسة غاو. وكان الحكام يدفعون الجزية بانتظام، ويقدّمون فصائل من جيوشهم إذا طلب الأمبراطور ذلك منهم، ويقيمون العلاقات الطيبة عن طريق الزيارات والهدايا والمصاهرة.

---

(٢١) السعدي، المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢٢) لم تدم أبدًا سيادة الصنغي على أمبراطورية مالي. ويذكر ليون الإفريقي، (ترجمة ابولار، وقد أُعيد طبعها في ١٩٥٦) أن مانسا مالي كان يدفع الجزية لأسكيا محمد الأول. وإذا كانت هذه سيادة فعلية إلاّ أنها لم تدم طويلاً، فقد اضطر الأسكيا اسحق الأول إلى إرسال حملات جديدة ضد مالي. والواقع أن المنسا قد تخلّص من سيادة غاو. وكانت الحدود الفاصلة بين المملكتين، أي السيبيريد وجو، تقع جنوبي سيجو، عند أطراف الماندي، على مستوى مدينة كوليكورو الحالية وهذا يتفق مع رأي تمسير نياني، المبني على أساس روايات الماندانغ التي جمعها في منطقة نياني.

(٢٣) لا يشكّل المغشارن مجموعة قومية أو عشيرية، ولكنها تمثّل طبقة النبلاء في المجتمع. أنظر ح. لحوت، ١٩٥٦، ص ٣٣٤ – ٣٧٠.

بفضل هذين النظامين الإداريين تمكّنت مملكة غاو من تأطير سكان إقليم السودان في منطقة النيجر وتوفير الأمن للسكان والأموال وتهيئة تنمية اقتصادية واسعة. واستطاعت مملكة الأسكيا بفضل ما تميّزت به من سلطة محكمة التنظيم لا تحمل طابعًا فرديًا معيّنًا بل تتأصّل في القيم الصنغية والإسلامية، من التغلّب على كثير من الأزمات المتعلّقة بالخلافة الأسرية. وكان بإمكانها، لولا الغزو المغربي الذي اقتلع منها جوهرها، أن تتطوّر لتصبح دولة افريقية حديثة تصون الحريات الأساسية للأفراد على الرغم من المركزية السياسية الشديدة.

أهم أجهزة الدولة

كانت الدولة تمتلك من الإمكانات الضخمة ما يكفل تقويتها وتحقيق استقلالها. وكان لها قوة مسلّحة دائمة قادرة على حماية الأمبراطورية وفرض إرادة السلطان على أتباعه وقمع كل عصيان، ومع هذا فلم تكن الدولة على الرغم من قوة أجهزتها واستقرارها دولة مستبدة. فالعدالة التي يتولّى شؤونها قضاة مستقلون تقريبًا أو زعماء عرفيون، كانت تعمل على صون حرية الناس وحقوقهم. وتساعد دراسة أجهزة الدولة الرئيسية على إبراز طابع الحداثة للدولة الصنغية. فقد ورثت المملكة تقاليد حربية عريقة، ولم يكن الصنغيون فلاحين أو تجارًا بل كانوا من المحاربين. وكتب م. الكعتي يقول «كان كبار الصنغي متمرّسين في فنون الحرب. وكانوا على درجة كبيرة من الشجاعة والجسارة والخبرة في حيل الحرب»(٢٤).

وكان النبلاء منهم مهيّئين للوظائف السياسية والعسكرية. وكانوا هم الذين يشكّلون غالبية سلاح الفرسان الذي يُعتبر رأس الحربة في الجيش الصنغي. وكان الفارس الصنغي يمتشق الرّماح الطويلة والسيوف والسهام، ويرتدي تحت سترة الحرب درعًا من حديد، ولما كان ثمن الحصان باهظًا (ما يعادل ١٠ أسرى تقريبًا في القرن السادس عشر) فقد اعتبر الفرسان صفوة موفورة الثراء. أما المشاة فكانوا يمثّلون أكثر أسلحة الجيش عددًا، وكان سلاحهم يضم كل فئات المجتمع من عبيد ونبلاء الدرجة الثانية وأحرار... الخ. وكانت أسلحتهم الحراب والسهام وكانوا يستعملون الدروع الجلدية أو النحاسية. وكان صيادو النيجر، ولا سيّما السوركو، يكوّنون أسطولاً دائمًا يزيد عدد قطعه على ٢٠٠٠ قارب على سطح النيجر. وكان للجيش أبواق طويلة تسمى كاكاكي وأعلام، وأسلوب سير معيّن، وكان ينتشر في المعركة على شكل مروحة.

ولا نعرف بالضبط عدد أفراد الجيش. وكان الأسكيا محمد الأول والأسكيا محمد بنكان قد أدخلا إصلاحات على الجيش ورفعا عدد أفراد جيش غاو الدائم إلى قرابة ٤٠٠٠ جندي، هذا غير ٣٠٠ محارب آخرين هم حرس السلطان الشخصي، ويُطلق عليهم اسم «السنة»(٢٥). وكان غالبية الجنود من عبيد الأسكيا وكان يحق له أن يرثهم وأن يتزوّج بناتهم. وقد بلغ تعداد الجيش كله، الذي تمّ حشده في عام ١٥٩١ في معركة تونديبي، ما يقرب من ٣٠٠٠٠ من المشاة و ١٠٠٠٠ من الفرسان. وكان ذلك يمثّل أكبر جيش منظّم في السودان الغربي، وقد مكّن الأسكيا من فرض إرادته وزوّده بمغانم الحرب خاصة.

---

(٢٤) م. الكعتي، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢٥) إنها غير السنة الخاصة بالمجلس الملكي. المقصود هنا جنود أخذ عليهم العهد بالولاء غير المشروط. ولم يكن يجوز لهؤلاء الجنود الفرار من المعركة، وقد حاربوا حتى الموت في معركة تونديبي عام ١٥٩١.

– الموارد المالية

كان سلطان غاو قويًا وغنيًا. وكانت موارد المملكة مضمونة ودائمة وكانت تُجبى من كل أنحاء الأمبراطورية، ويتولّى تصريف شؤونها عدد كبير من الإداريين على رأسهم فارما الكاليزا. وتنوّعت مصادر الإيرادات الأميرية فكان هناك ايرادات الممتلكات الخاصة بالسلطان، ثم حصيلة الزكاة (العشر) للإنفاق على الفقراء، ثم الضرائب العينية المفروضة على المحاصيل الزراعية، والأنعام وصيد الأسماك، ثم الضرائب والرسوم الجمركية الخاصة بالنشاط التجاري، ثم الضرائب الاستثنائية المفروضة على تجار المدن الكبرى، ثم وعلى وجه الخصوص حصيلة غنائم الحرب وتكاد تكون سنوية. فالسلطان كما نرى كان يمتلك من الموارد ما لا ينضب معينه، وكان ينفق منها كما يشاء. وكان جزء كبير منها مخصّصًا لمصاريف الديوان الملكي والجيش الدائم... وكان الأسكيا يسهم أيضًا في تشييد أو ترميم المساجد والإنفاق على فقراء المملكة والهدايا والصدقات المخصّصة لكبار الأولياء.

– القضاء

كان القضاء حقًا من حقوق السلطان. وكان الأسكيا وهو أمير المسلمين وأبو الشعب يفوّض في هذا الحق ممثلين له مستقلين تمام الاستقلال عن السلطة المركزية أو عن موظّفيها. وعلى أي حال كان هناك قضاءان، القضاء الإسلامي والقضاء العرفي.
والقضاء الأول يخضع لأحكامه طوائف المسلمين. وهو مستمد من المذهب المالكي الذي يدرس في الجامعات السودانية. وكان للقاضي حكمه القاطع ورأيه الأعلى. وكان السلطان يعينه مدى الحياة. ولم يكن منصب القاضي شيئًا مرغوبًا فيه، وكثيرًا ما كان السلطان يلجأ إلى القوة لتعيين القاضي. وفي تمبكتو احتكر هذا المنصب طوال القرن السادس عشر كله أفراد أسرة القاضي محمود بن عمر الأقيط (١٤٩٩ – ١٥٤٨) وكانت من الأسر الكبيرة التي قدّمت أيضًا الأئمة لمسجد سنكوريه[٢٦]. وأصبحت وراثة المنصب تقليدًا ثابتًا في كثير من المدن. وكان يساعد القاضي معاونو عدل منهم الحاجب والكتبة والموثقون... الخ. ويتولّى تنفيذ الأحكام موندزو الأساري وهو عامل الملك. وكان القاضي ينظر في كل الأمور الجنائية والتجارية وكان حكمه نهائيًا، وكان القاضي يتولى فضلاً عن ذلك بعض الأحوال المدنية مثل تسجيل المحرّرين من العبيد، وتقسيم التركات وتوثيق العقود الخاصة... الخ. كان القاضي هو الرئيس الفعلي لمدينة تمبكتو. وكانت سلطته تتجاوز مهام القضاء بمعناها الضيق وتمتد إلى حماية حرية الأفراد.
أما القضاء العرفي فكان يختص بالجزء الأكبر من المملكة، بل حتى في المدن الإسلامية الكبيرة. فكان الناس يسوون خلافاتهم فيما بينهم داخل نطاق الأسرة أو على يد رئيس المجموعة العرقية – حسب تقاليد كل منهم. وكان المجلس الملكي في غاو ينعقد في هيئة محكمة سياسية للنظر في قضايا الدولة، وهي غالبًا قضايا المتآمرين على السلطان من الأمراء وشركائهم. ورغبة من الأسكيا اسحق الثاني في مكافحة الفسق والفجور، ولا سيّما جريمة الزنا التي أصبحت وباءً منتشرًا في أوساط المجتمع الراقي في منطقة منعطف النيجر، أسّس محكمة مختصة بقضايا الزنا، وكانت تعاقب حالات التلبس بقسوة.
والذي يلفت الانتباه خاصة ما أُتيح للسكان من إمكانية رفع قضاياهم أمام محاكم مختصة. وكان في

(٢٦) بشأن هذه الأسرة، أنظر ج. كوك ١٩٧٨، ص ٨٥ – ١٠٢.

ذلك أكبر ضمان للنظام والحرية. وبهذا شجّعت دولة الصنغي على ازدهار حضارة ثقافية لامعة، وعلى إحداث تنمية اقتصادية واجتماعية كبيرة.

التنمية الاقتصادية

كانت أمبراطورية الصنغي بحكم موقعها السوداني الساحلي منطقة متميزة في مجال التبادل عبر الصحراء. فنهر النيجر الذي يخترقها من الغرب إلى الشرق يسهّل الاتصالات والوادي خصب كثيف الزراعة. ويمكن التمييز بين قطاعين اقتصاديين: قطاع ريفي تقليدي، وقطاع حضري تجاري.

القطاع الريفي

لا تعطينا كتب التاريخ معلومات كثيرة عن الأنشطة الريفية، والأساليب الزراعية لم تتطوّر كثيرًا منذ ذلك الوقت، فالفأس (الكاونو عند الصنغي)، والأسمدة الحيوانية، وممارسة البستنة في الوادي والزراعة المتنقّلة في السافانا... الخ، لا تزال كما كانت منذ قرون. وعلى العكس كان وادي النيجر آهلاً إلى درجة الكثافة بالسكان الذين يعملون في الزراعة وصيد الأسماك وتربية الماشية. وكانت هناك مزارع واسعة يمتلكها الأمراء أو علماء الدين في المدن الكبرى ويتولّى استثمارها عبيد مقيمون في القرى الزراعية. وكان الأسكيا نفسه من كبار ملاّك الأرض. وكانت حقوله موزّعة في أنحاء الوادي ويقوم بفلاحتها طوائف من العبيد تحت رقابة مشرفين يُطلق عليهم اسم «فانفا». وكان يستقطع من قيمة المحاصيل جعل يرسل إلى غاو[٢٧]، كذلك كان الحال بالنسبة لعبيد الخواص.

أما صيد السمك فكانت جماعات السوركو والدك والبوزو هي التي تمارسه، وكان المحصول السمكي يُجفَّف أو يُدخَّن ثم يُباع في جميع أنحاء المملكة. وكانت الأبقار والماعز تُربى في الأطراف الساحلية لمسينا أو باكونو، بينما كان سكان وادي مسينا المستقرّون يعنون بتربية الأبقار، وكانت هذه الأنعام تشكّل موردًا هامًا للألبان واللحوم وخاصة لسكان المدن.

والواقع أن جزءًا كبيرًا من الموارد الزراعية (حبوب وأسماك ولحوم) كانت تُستغل في التجارة وتساعد أبناء الريف على اقتناء ما يحتاجونه من مواد أساسية كالملح مثلاً.

القطاع التجاري

كانت المدن الواقعة على حدود السودان والساحل، مثل ولاتة وتمبكتو وجني وغاو... الخ، كلها مراكز تجارة عبر الصحراء الكبرى، على صلة بالأسواق الكبيرة في الصحراء وشمال أفريقيا، ومن ثم ببلدان أوروبا المطلّة على البحر المتوسط.

كانت هناك طرق تخترق الصحراء[٢٨] انطلاقًا من وادي النيجر متجهة نحو الشمال. وأهم هذه الطرق: طريق تمبكتو – تغازة – توات، المتجه إلى تافيلالت والمغرب الجزائري وطريق تمبكتو – ولاتة – تيشيت – ودانة في اتجاه درعة وتافيلالت، وطريق غاو – تادمكه – غات المتجه نحو ليبيا ومصر،

(٢٧) م. كاتي، المرجع السابق، ص ١٧٨ – ١٨٠.
(٢٨) ر. موني، ١٩٦١، الفصل الثالث، ص ٥.

وطريق غاو – تادمكه – غدامس المتجه نحو ساحل ليبيا وتونس، ثم طريق غاو – هاوسا – كانم – بورنو المتجه نحو وادي النيل. وكما يتضح كانت التجارة عبر الصحراء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر موجّهة بصورة خاصة إلى المغرب والجزائر وليبيا. وفي منطقة الوسط كانت مناجم الملح في تغازة وواحات توات وغات محطات تجارية كبيرة على طريق السودان. وكانت التجارة في أيدي التجار العرب – البربر (وكانت مدينة تمبكتو تغص بسكان أصلهم من توات وغدامس) والسودانيين من جماعات وانقارة (ماندنغ) وواكوري (سوننكي) وموسى وهوسا وصنغي. وكان محط الالتقاء في المدن التي أفاد سكانها إفادة كبيرة من أعمال الوساطة (السمسرة). وكان بعض التجار يحرصون على تنظيم تجارتهم تنظيمًا محكمًا، فكان لهم فروع في عديد من المدن، وكانوا يتابعون تقلّبات الأسعار لتحقيق أكبر الأرباح. وكانوا يمتلكون أسطولاً تجاريًا في النيجر وجمالاً وثيرانًا يحمّلونها وينقلون عليها بضاعتهم. وكان مرفأ كابارا يغصّ بكل أنواع السلع عندما وصل إليه ليون الافريقي في بداية القرن السادس عشر[٢٩].

وكانت المعاملات التجارية تتمّ بطريق المقايضة، ولكن بصورة أعم بواسطة العملة النقدية من الكاوري (وهو نوع من الصدف) في الصفقات الصغيرة، أو ذهبًا أو ملحًا أو نحاسًا حسب الأسواق. وكان السودان يستورد المنسوجات ومعظمها من أوروبا[٣٠] (البندقية، فلورنسا، جنوة، ميورقة، انجلترا، فرنسا، ... الخ) وكان الملح يُستورد من تغازة، ومن أجيل كانت تُستورد الأسلحة والخيول والنحاس والمصنوعات الزجاجية والسكر والمنتجات الحرفية المغربية (أحذية وأصواف)... الخ. وكان الملح هو عصب التجارة المحرك. وكان يحوّل إلى ألواح مستطيلة تزن من ٢٥ إلى ٣٠ كيلوغرام ثم يُوزَّع في جميع أنحاء البلاد الداخلية. وكان السودان يصدّر الذهب والعبيد والعاج والتوابل والكولا والقطنيات... الخ. أما الذهب في شكل مسحوق: التبر أو في هيئة سبائك، فقد كان يأتي من مناجم بامبوك وبور ومن بلاد الموسى، ولا سيّما بلاد أسانتي (البيتو). وكان الذهب محور التجارة عبر الصحراء وكانت أوروبا تبتاع منه الكثير[٣١]. وكان أهم ما يعني التجارة السودانية هو المنتجات المحلية. فقد كانت الأسواق في كل التجمعات الهامة ملتقى الفلاحين الذين كانوا يبادلون سلعهم بأخرى ويشترون من الباعة المتجوّلين الملح والمنسوجات وغير ذلك من السلع الآتية من الشمال. وعلى سبيل المثال كانت الحبوب والغلال الآتية من وسط الدلتا ومن دندي تذهب إلى تمبكتو وغاو والساحل، أما الكولا والذهب فيأتيان من الجنوب إلى الشمال، ومن هناك تنقل البضائع العابرة للصحراء. وقد لعبت جني دورًا كبيرًا كسوق جذب وتوزيع في غرب أفريقيا كله.

وختامًا يمكن القول بأن المبادلات قد ساعدت على إثراء المدن النيجيرية وتوفير قدر من الرخاء في الريف... ولكن لسوء الحظ لم تكن هذه المبادلات تعنى إلاّ قليلاً بالإنتاج المحلي من زراعي وحرفي. وكان جوهر المبادلات منصبًّا على ما ينتج من عمليات الاستخراج والجني. وملخص القول إن التجارة عبر الصحراء كانت أشبه بالصفقات التجارية منها باقتصاد السوق الحقيقي المعتمد على الكفاية الإنتاجية المحلية. ولهذا لم تغير أبدًا من البنيات الاجتماعية ولم تساعد على إحداث ثورة في التقنيات. ومع هذا فقد

(٢٩) ج. ليون الافريقي، ترجمة فرنسية أ. إيبولار، ١٩٥٦، الجزء الثاني، ص ٤٦٧ – ٤٧٢.
(٣٠) أنظر ف. برودل، ١٩٤٦، ص ٩ – ٢٢؛ ج. هيرس ١٩٥٨، ص ٢٤٧ إلى ٢٥٥؛ أ. ف. جوتييه، ١٩٣٥، ص ١١٣ – ١٢٣، وقد أثبتوا بما فيه الكفاية أهمية التجارة السودانية في اقتصاد البحر المتوسط والاقتصاد الأوروبي في العصر الوسيط.
(٣١) أنظر أيضًا فيما بعد ما ذكره ج. ديفيس في الفصل ٢٦ أدناه، وج. هيرس، ١٩٥٨.

أتاحت الفرصة لتقدّم مادي يتعلّق بالظروف المعيشية لسكان النيجر وزيادة الترف عند الطبقة الأرستقراطية. فالثوب الطويل الفضفاض – البوبو – والنعال الجلدية – والمسكن المريح والأطعمة المتنوعة، كانت كلها علامات على التقدّم في مجتمع النيجر.

المجتمع

كان المجتمع الصنغي في بنياته العميقة يشبه المجتمعات الأخرى في غرب السودان ويبدو الجديد هناك في تطور اقتصاد السوق الذي تولّد عنه مجتمع حضري متنوّع الأنشطة، هامشي إلى حد ما بالنسبة للمجتمع الكلي الذي كان ريفيًا في أساسه.

بُنى مجتمع النيجر

كان المجتمع الصنغي، سواء في المدينة أم في القرية، يتميّز بأهمية الروابط الأسرية، وكانت الأسرة هي العنصر الأساسي الذي ترك طابعه على كل المؤسسات الاجتماعية وعلى الحياة اليومية.

وتضم العشائر أسرًا متعدّدة وأقدمها من أصل سوننكي (توري، سيلا، تونكارا، سيسي، دياكيتا، درامي، دياوارا)، والقليل منها من أصل صنغي (المايجا) وهنا تطرح المشكلة الخاصة بتركيب الشعب الصنغي الذي اختلط اختلاطًا قويًا بأقوام من السوننكي والبربر وبجنسيات أخرى مثل الماندنغ والجبري والهوسا... الخ.

أما فيما يتعلّق بتنظيم القوميات الخاصة فلا تتحدّث عنه كتب التاريخ إلاّ لتذكر الطبقات السكانية المستعبدة[٣٢] أو الريفية التي تعمل في زراعة الحقول أو في مهن طائفية (أي مخصّصة لطوائف بينها).

والسمة الأساسية في المجتمع الصنغي هي تنظيمه في فئات متدرّجة تبدأ بطبقة النبلاء ثم طبقة الأحرار ثم طوائف العمال وأخيرًا العبيد، وهذا أمر معروف تمامًا في كل السودان الغربي. في هذه المنطقة تظهر ملامح طبقة النبلاء بوضوح أكبر، وكان أفرادها يقصرون اهتماماتهم على الإدارة والحرب. أما العبيد وكان عددهم كبيرًا فكانوا يقومون بالأعمال المنزلية أو يشتغلون في الحقول. وكان دورهم السياسي والعسكري ثانويًا جدًا.

المجتمع الريفي

فيما عدا وادي النيجر حيث نجد مدنًا تجارية كبيرة، كان الصنغي والأقوام الذين تتكوّن منهم الأمبراطورية يعيشون في القرى على ما يمارسونه من أنشطة ريفية. وكان الفلاّحون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهم يعيشون متجمعين في أكواخ مستديرة لا يختلفون كثيرًا عن الفلاّحين اليوم. ولم تحدث ثورة تقنية أو غيرها لتقلب البنيات الأساسية على الرغم من أن ظروف المعيشة قد تغيّرت بالتأكيد. والمعلومات القليلة التي يقدّمها كتابا التاريخ تقول بوجود كثافة سكانية ريفية في وادي النيجر، ولا سيّما في منطقة جني. وكانت هذه المنطقة تعيش بوجه خاص على منتجات الزراعة. ومما لا شكّ فيه وجود طوائف منظمة من الحرفيين (مثل الحدّادين والنجّارين والخزّافين.. الخ)؛ ولكن نشاطهم المهني كان موسميًا

(٣٢) م. الكعتي، المرجع السابق، ص ٢٠ – ٢١.

على أغلب الظن وكان معظمهم يعيش على الزراعة. وكذلك الشأن بالنسبة لصيادي النيجر (السوركو والبوزو والسومونو) الذين كانوا يمارسون الفلاحة في فصل الشتاء. ويبدو أن ظروف المعيشة لم تكن بالبؤس الذي يصوّره ليون الأفريقي [٣٣]. وكان الأمن مستتبًّا والمجاعات نادرة. ويقدّم لنا كتابا التاريخ بعض مؤشرات بخصوص الحياة في الريف. وتكاد لا توجد أية إشارة إلى حركات تمرّد فلاّحية. فالجعائل التي كان يفرضها السادة على عبيدهم لم تكن ترهقهم. وعلى العكس فإن بيان ثروة أي مشرف أمبراطوري في الدندي يعطينا انطباعًا بتوافر نوع من الرخاء في الريف، بل كان الفلاّحون يبيعون جزءًا من إنتاجهم في الأسواق المحلية ويحصلون بذلك على منتجات مثل الملح أو المنسوجات، وبذلك يفتحون لأنفسهم باب المبادلات التجارية.

ومن الناحية الروحية لم يتأصّل الإسلام في الريف؛ فقد بقي الفلاحون متمسّكين بقيم أرضهم، وظلّت منطقتا الدندي والجنوب – وهما من أكثر المناطق الريفية أصالة – على ما كانتا عليه من معتقدات تقليدية على الرغم من اعتناقها الإسلام بشكل سطحي. وهكذا بقي الريف، مع انفتاحه على اقتصاد السوق، مغلقًا إلى حد ما أمام القيم الروحية الآتية من المدينة: والمدينة هي العنصر الثاني في مجتمع النيجر.

المدن والمجتمع الحضري

أدّت النهضة التجارية الكبيرة إلى نمو مدنية حضرية في كل منطقة السودان الساحلي. ونجد في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مدنًا مثل ولاتة وجني وتفكو وتندرمة وتمبكتو وبامبا وجاو وأغاديس، ومدن الهوسا مثل كاتسينا وكانو... الخ. وكانت بصورة عامة مدنًا مفتوحة بغير أسوار. وكانت السوق داخل المدينة. أما الضواحي فكانت الخيام والأكواخ فيها تؤوي أقوامًا من الرحل. وكان وسط المدينة يعجّ بالدور المبنية بالطوب على الطراز السوداني ذات طابق أو طابقين، وداخل كل بيت فناء تطل عليه الحجرات ويدلف إليه عن طريق ردهة.

وكانت أكبر المدن ثلاث هي تمبكتو وجني وغاو، ونتوقّف عندها بعض الشيء.

فمدينة تمبكتو التي تمّ فتحها على يد «سني علي بر» حوالي ١٤٦٨ بلغت ذروة مجدها في القرن السادس عشر: وبلغ عدد سكانها ما يقرب من ٨٠٠٠٠ نسمة في عهد الأسكيا داود [٣٤]. وكانت حينذاك العاصمة الاقتصادية للمملكة، والمدينة المقدسة للسودان وهي مشهورة بأوليائها وجامعتها.

ومدينة جني [٣٥] جزيرة في الدلتا الوسطى، وترتبط اقتصاديًا وروحيًا بتمبكتو، ويبلغ عدد سكانها ما بين ٣٠ و ٤٠ ألف نسمة. وكانت في الحقيقة أهم تجمّع سكاني للسود في السودان الداخلي، وبها مسجد

(٣٣) يصف لنا ج. ليون الافريقي، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ٤٧٢، الفلاحين البؤساء الجهلة الذين تطحنهم الضرائب الأمبراطورية.

(٣٤) هذا الرقم تقريبي جدًا. ومع هذا فهو يبدو لنا أقرب إلى الواقع من الرقم الذي ذكره ر. موني، ١٩٦١، ص ٤٩٧، وهو ٢٥٠٠٠ نسمة. وكانت المدينة كبيرة المساحة في القرن السادس عشر، وتجمع كافة الروايات المنقولة على التأكيد بأن مقبرة القاضي محمود، وهي الآن بعيدة عن المدينة، كانت حينذاك منزلاً. ويجعلنا تراكم الرمال اليومي حول المدينة نشك في قيمة الصورة الجوية للموقع القديم. ومن جانب آخر يجب أن نلاحظ أن تمبكتو كانت مدينة مرتفعة وأن المنازل المكوّنة من أكثر من طابق واحد كانت منتشرة للغاية. ومن ثم كان التوطن متركّزًا بصورة بالغة.

(٣٥) أنظر مقال ر. ج. ك. س. ماكنتوش، ١٩٨٠، الذي يقدّم توضيحًا جديدًا لمسألة جني.

جميل هو درة الفن السوداني ، وكانت أكبر سوق في الجنوب ، وعلى صلة ببلدان السافانا والغابات.

وكانت غاو العاصمة السياسية ، وهي أقدم من المدينتين السابقتين ، وكانت مساحتها الواسعة تستوعب حوالي ١٠٠ ٠٠٠ نسمة[٣٦] . وبحكم موقعها كان اتجاهها الطبيعي نحو الهوسا والدندي وليبيا ومصر.

وكانت كل مدن النيجر هذه تضم إلى جانب الغالبية الصنغية المتسيدة – ولغتها هي الدارجة في المدينة – سكانًا مخلطين من العرب والبربر ، من الموسى والهوسا والماندانغ (والنقارة) والسوننكي والفولّي.

وكان المجتمع الحضري مجتمع طبقات وفئات على النمط السوداني. غير أن معيار التمييز هنا كان معيارًا اقتصاديًا. ويتكوّن المجتمع الحضري من ثلاثة عناصر أساسية ، التجار والحرفيون ورجال الدين ، ويعيشون جميعًا بشكل مباشر أو غير مباشر على التجارة.

وكان التجار في غالبيتهم من الأجانب ، أما الصنّاع وصغار التجار فكانوا يكوّنون طبقة نشيطة متحرّكة تتجمّع في طوائف لها نظمها وتقاليدها. وأما رجال الفكر والأولياء والطلاب فكان معشرهم طيبًا وكانوا يحظون بالتقدير الاجتماعي العظيم.

وكان مجتمع النيجر مهذبًا ومرفهًا على الأقل على مستوى الطبقات الأرستقراطية. فكانوا يحبون الملابس الفضفاضة والأخفاف الجلدية الصفراء – البابوج – والحياة الرغدة في البيوت والأطعمة المتبلة ، وفوق كل شيء مجالس الأنس. وقد أدى ذلك إلى تراخ في الأخلاق يظهر بجلاء في كثرة المحظيات ، وفيما انتشر من خلاعة بين الأرستقراطية من أبناء الأسرة المالكة.

وهكذا يختلف المجتمع الحضري اختلافًا بيّنًا عن المجتمع الريفي التقليدي... ولكنه لم يستطع أن يطغى على الريف. وكانت معظم الطبقة القيادية في هذا المجتمع تتكوّن من الأجانب ، ومشبعة بالقيم الإسلامية والتجارية ، فكانت كأنّما تعيش جنبًا إلى جنب ولكن في حالة انفصال عن المجتمع الكلي. فكبار التجار لم يتمكّنوا من ترسيخ أقدامهم في البلاد ، وكان اقتصادهم اقتصاد معاملات وصفقات ، ولهذا لم يستطيعوا إحداث تأثير عميق ودائم في المجتمع الصنغي.

الازدهار الديني والفكري

دخل الإسلام السودان الغربي في القرن الحادي عشر ، وأخذ ينتشر ببطء وعلى مستويات مختلفة حسب المناطق ، حتى تمكن آخر الأمر من أن يفرض نفسه على إقليم منعطف النيجر ومنطقة الساحل. وفي غير هذه المناطق ، ترك بصمات خفيفة على العقائد الموجودة ولكنه لم يستطع أبدًا الوصول إلى تثبيت جذوره إلى الأعماق. وفي مناطق الحضر تكوّنت صفوة من المسلمين المثقفين استطاعت بجهد خلّاق كبير أن تسهم في شرح الإسلام وإعادة تفسيره... وتحقّق هذا الازدهار بفضل ما تميّز به السودان من رخاء عام اجتذب منذ القرن الخامس عشر عددًا من العلماء الأجانب ، وبفضل السياسة العطوفة التي انتهجها بوجه خاص ملوك غاو ، إذ حذوا مؤسس أسرة الأسكيا ، فكرّموا علماء الإسلام أعظم التكريم وأغدقوا عليهم الهدايا ، وكفلوا لهم مكانة اجتماعية لا مثيل لها في البلاد. وقد اتّبع الأسكيا محمد الأول في سياسته نهجًا إسلاميًا قويمًا وعمل على ترسيخ الإسلام وانتشاره في السودان.

(٣٦) هذا الرقم مستمد من أول تعداد للمدينة أجري في أواخر القرن السادس عشر وذكر فيه وجود ٧٦٢٦ منزلاً. فضلاً عن الأكواخ بالضواحي.

الحركة الدينية

وبالإضافة إلى كل ما تقدّم لم يكن الإسلام هو الدين السائد في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إذ كانت أغلبية جماعات الصنغي والقوميات الأخرى في المملكة والتي تعيش في الريف باقية على تمسّكها بما ورثت عن الآباء من معتقدات مترسخة. وقد شكا الأسكيا محمد الأول من هذه الأوضاع في خطاب وجّهه إلى الماغيلي، وعمل على محاربتها ولكنه لم يفلح في تغييرها.

كان أهل الصنغي يعبدون ما يسمى «هولي» أو «القرائن» – ويعبدون الجن من سكان الطبيعة ويعملون على كسب رضاهم[٣٧]. وهكذا كان معبدهم الشامل يضمّ عددًا كبيرًا من الآلهة، منها هراكي ديكو إله النهر ودونجو إله الصواعق. وكان السحرة المطببون، السوننكي من سلالة أسرة سني المنتهية، يحظون باحترام الجماهير وتوقيرها، وكانوا يحمون المجتمع من الأرواح الشريرة ومن السحرة المشعوذين أو «التيركي». وكان رئيس كل عشيرة يقدّم الفروض الدينية للموتى. وهكذا كان الدين التقليدي راسخًا قويًا في قلوب أهل الريف، وكان له الفضل في حماية المجتمع وتأمين التوازن النفسي له واستمراره.

وجاء الإسلام إلى جانب هذه المعتقدات، وأرسى جذوره شيئًا فشيئًا في الريف. وكان قد بدأ في المدينة وبين الطبقات الأرستقراطية حتى انتهى بالتكيّف مع الأوضاع السائدة لينتشر على نحو أفضل. ومنذ ذلك الوقت والإسلام إسلام افريقي – أسود – متسامح. واكتسب مواقع جديدة بفضل أسكيا محمد الأول وعلماء الإسلام، وبفضل انتشار التجارة انتشارًا سلميًا. وكان الإسلام مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالتجارة منذ بداية نشأته في افريقيا السوداء. وكان الأسكيا محمد الأول يستعين بإرشادات كبار العلماء مثل الماغيلي في توات[٣٨]، والسيوطي[٣٩] في القاهرة، وكوكبة من الأولياء في مملكته. وحارب الأوثان وطارد رفاق السني من المسلمين غير الصالحين، وفرض نظام القضاة والمذهب المالكي على عدد من الجماعات، ودعا إلى الجهاد ضد الكفّار من الموسى، كما أتمّ التجار المتنقّلون وغيرهم هذه الدعوة فحملوا معهم الدين حتى أعماق مناطق الغابات الجنوبية.

وهكذا استطاع الإسلام في نهاية القرن السادس عشر أن يسود كل منطقة منعطف النيجر من مسينا حتى دندي، وكان قد انتشر انتشارًا عظيمًا في غيرهما من المناطق. ونستطيع أن نلمس أثر الحياة الدينية في المدن أكثر من غيرها. فكان لكل من جني ودیا في الدلتا الوسطى، وغاو وتمبكتو وغيرها، مسجدها وأئمتها وقضاتها ومدافنها وكثير من المدارس التي كان يتولاّها بعض أهل التقوى وبعض الأولياء الذين ما زالوا حتى اليوم يحظون بالتبجيل في منطقة منعطف النيجر. وكانت مدينة تمبكتو نموذجًا لذلك... كان بها ثلاثة جوامع كبيرة، الجنجربير، وسيدي يايا، والسنكوري، وقد بنى الأخيران في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وقد اشتهر أولياؤها وعلماؤها (الشريف سيدي يايا، (يحيى) المتوفي في ١٤٦٤، والقاضي محمود بن عمر أكيت المتوفي في ١٥٤٨، وعدد من أفراد أسرته ومنهم القاضي العقيب الذي قام بترميم المساجد الكبرى... الخ)، كل هذه الأمور أكسبت المدينة لقب المدينة المقدسة في السودان. وعملت جامعتها على نشر الثقافة الإسلامية في جميع أنحاء السودان الغربي.

(٣٧) صحّح ج. روش، (١٩٥٤ و ١٩٦٠)؛ ب. هاما، ج. بولنوا، (١٩٥٤)، المفهوم المتمركز حول الإسلام لتاريخ الصنغي.
(٣٨) الحاج ر. مباي، ١٩٧٢.
(٣٩) ج. هنويك، ١٩٧٠.

الحركة الفكرية

عرف السودان في منطقتيه النيجيرية والساحلية حركة فكرية عظيمة الازدهار في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وسادت نزعة إنسانية سودانية بوصفها من معطيات الإسلام كدين عالمي. وتلقّت صفوة من أبناء السودان علومها في جامعتي القرويين بفاس والأزهر بالقاهرة، وتحرّرت فكريًا، واجتهدت حتى بلغت القمة من العلوم الإسلامية. وبقيت المدن مراكز لهذه الحركة الفكرية. وساعد الفائض التجاري على نمو طبقة من المتعلّمين عكفوا على خدمة الدين والدراسة (٤٠). واجتذب الرخاء العام إلى مدن النيجر علماء قدموا من شتى أقاليم السودان والساحل. وكانت أشهر جامعة دون شك هي جامعة تمبكتو، ومنها خرج كتابا التاريخ اللذان وُضعا في القرن السابع عشر ولكنهما يُعتبران أعظم ما أُخرج من كتب تاريخية تتعلّق بالسودان. ولم تكن الجامعة، وهي مركز تحصيل ونشر للمعرفة، هيئة منظمة كما كان الحال في شمال أفريقيا، وإنّما كانت تضم عددًا كبيرًا من المدارس الحرّة ولا سيّما جامع سنكوري الشهير والذي كان يقدّم التعليم العالي... وكان بمدينة تمبكتو في القرن السادس عشر حوالى ١٨٠ مدرسة قرآنية وآلاف من الطلبة القادمين من جميع أنحاء السودان والساحل، وكان الأساتذة وبعض الأهالي يستضيفون الطلبة عندهم... ولم يكن الأساتذة يتقاضون أجورًا ولكنهم كانوا يعيشون مع ذلك في بحبوحة كافية ويتفرّغون تمامًا للدراسة ليلاً نهارًا.

وكانت الدراسة على مستويين: المستوى الأولى (المدارس القرآنية)، ويتركّز على قراءة القرآن وحفظه. والمستوى العالي، حيث تتناول الدراسات العلوم الإسلامية. وكانت الجامعة السودانية، شأنها في ذلك شأن كل الجامعات الإسلامية المعاصرة لها، تدرس العلوم الإنسانية التي تضم العلوم التقليدية كعلم التوحيد والتفسير والحديث والفقه المالكي والنحو والبلاغة والمنطق والتنجيم والفلك والتاريخ والجغرافيا... الخ. ولا شكّ أن المعلومات العلمية والرياضية كانت غير ذات شأن. وكان الفقه المالكي من اختصاصات علماء تمبكتو وكتابا التاريخ لا يذكرانهم إلاّ بكلمة الفقهاء... ولم تتطوّر أساليب التعليم كثيرًا منذ القرن السادس عشر. وكان جوهر التعليم هو شرح النصوص والتعليق عليها، وفقًا للأسلوب التعليمي التقليدي.

وكان التعليم يتم على أيدي كثير من المدرّسين السودانيين والصحراويين، نذكر منهم في القرن الخامس عشر الشريف سيدي يايا (يحيى) والمؤدّب محمد الكبَّاري من مدينة كبّارة. وقد تخرّج على أيديهم معلمو الجيل التالي. وشهد القرن السادس عشر فيضًا من مشاهير المعلمين في كل أنحاء منعطف النيجر. وكانت هناك أسرتان كبيرتان من البربر، أسرة الأكيت والأندا أخ محمد، تربط بينهما روابط النسب، ومن هاتين الأسرتين خرج أكبر عدد من المعلّمين. وكان أشهرهم القاضي محمود بن عمر أكيت (١٤٦٣ – ١٥٤٨)، وكان عالمًا في الفقه والنحو، وأخوه أحمد (المتوفي سنة ١٥٣٦)، وابن عمه المختار وبنو أخيه وأشهرهم عباس أحمد بابا بن أحمد أكيت (١٥٥٦ – ١٦٢٧)(٤١).

ولم يصلنا شيء تقريبًا من النشاط الفكري العظيم الذي عرفه القرنان الخامس عشر والسادس عشر. والأعمال التي نعرف عناوينها هي في غالبيتها أعمال تحقيق وتدقيق لا يمكن الاستهانة بها أبدًا. فقد حاول العلماء السودانيون فهم وتفسير الإسلام وفقهه وممارساته بإمكانياتهم الخاصة.

---

(٤٠) أ. شيربونو، ١٨٥٤ – ١٨٥٥، ص ١ – ٤٢.

(٤١) المرجع نفسه، و ج. هونويك، ١٩٦٤، في *BSOAS*، مجلّد ٢٧.

وينبغي مع هذا وضع هذه الثقافة الإسلامية في إطار المضمون السوداني العام. فقد كانت في أساسها ثقافة صفوة من الناس ، ولم يصل تأثيرها إلاّ لقليل من أبناء السودان. وكانت تعتمد على الكتابة ولكنها لم تدمج فيها اللغات والثقافات المحلية الأصلية. وكانت ثقافة حضرية ولذلك بقيت هامشية ، ثم انهارت بانهيار المدن التي أنجبتها.

الفصل التاسع

شعوب وممالك منعطف النيجر
وحوض الفولتا
من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر

بقلم ميشيل ايزارد

الموسّي في منطقة منعطف النيجر

على ضوء معلوماتنا الحالية، يتركّز تاريخ منعطف النيجر، بالضرورة، في الفترة البعيدة التي نحن بصددها هنا، على نشأة ممالك الممبروزي، وداغومبا، والموسّي، وتوسّعها الإقليمي، وهذا لسببين يرتبط كل منهما بالآخر: الأول هو أن المعلومات التي لدينا عن هذه المجموعة من الممالك أكثر ثراء بكثير من تلك التي يمكن أن نستخدمها بالنسبة لتكوينات تاريخية أخرى في نفس هذه المنطقة، الغرمة مثلاً، وبالأحرى، المجتمعات ذات السلطة السياسية اللامركزية. والثاني هو أن قضية أساسية تطرح بمناسبة تشكيل تاريخ الموسّي، وهي قضية تحديد هوية الموسّي الذين جاء ذكرهم في الحوليتين الكلاسيكيتين: تأريخ السودان، وتأريخ الفتّاش. ولسوف نرى أن على حل هذه القضية يتوقّف تحديد إطار تاريخي مرضٍ لمجموعة المنطقة التي سنتحدّث عنها في هذا الفصل.

يجب أن نبدأ من تحليل الإشارات الخاصة بالموسّي التي تشتمل عليها الحوليات السودانية... يذكر تأريخ الفتّاش غارات شنّها الموسّي على أراضي مملكة غاو الصنغية، في منتصف القرن الثالث عشر تقريبًا، أي في الربع الأول من الفترة التي يغطيها هذا المجلد. كانت سلطة زا باراي الذي يُقال إن الموسّي حاربوه أو زا بيرافولوكو – وفقًا لقائمة الأسر التي وضعها ج. روش[1] تمتد، في وادي النيجر، من غاو إلى تيلا بيري. وفي عهد خلفه، زع آسيباي، انتقلت مملكة غاو إلى سيادة مانسا والى مالي، الذي حكم بين ١٢٦٠ و١٢٧٧، على حد قول نيحيميا لفتزيون. ويقول لنا تأريخ الفتاش، الذي لا يحدّد مكان أراضي الموسّي، إن هؤلاء كانوا يغزون أحيانًا الجزء الغربي من منعطف النيجر، حيث كان نفوذ مالي يصطدم

(١) ج. روش، ١٩٥٣، ص ١٧٤، حاشية رقم ١٣.

بنفوذ الطوارق في الشمال. والنصان القصيران من تاريخ الفتاش اللذان نرجع إليهما[٢] يشيران إشارة هامة بحديثهما عن «موسي كوي»، أي عن «زعيم» الموسّي أو ملكهم. وما من شيء مما نُقل إلينا يشير، فيما يبدو، إلى جماعات من النهّابين لا تخضع للسيطرة قليلاً أو كثيرًا. بل يشير كل شيء، على عكس ذلك، إلى أننا بصدد سكان أو جماعة حاكمة منظمة تنظيمًا سياسيًا وعسكريًا متينًا، ولربّما كانت نمطًا من أنماط الدولة، وقاعدة اقليمية صلبة، لا يمكن أن تقع إلاّ داخل منطقة منعطف النيجر، بدون أي ايضاح آخر. على أي حال، كان هذا المجتمع العسكري قادرًا، منذ منتصف القرن الثالث عشر، على مواجهة القوى الأساسية المهيمنة التي تتقاسم منعطف النيجر. أخيرًا، يتحدّث هذان النصان عن غارات موسية في اتجاه تمبكتو. ولسوف نرى أن الموسّي الذي جاء ذكرهم في كتابي التاريخ سيسعون دائمًا، طوال الفترة التي تتابعت فيها عملياتهم الواسعة النطاق، إلى التحكّم مباشرة في المواقع التجارية الواقعة شمال – غربي المنعطف.

وإذا تتبّعنا التسلسل التاريخي للأحداث، لوجدنا أن موسّي منعطف النيجر كانوا في عهد مانسا كنكون موسى (١٣١٢ – ١٣٣٧). وتأريخ السودان هو الذي نقل، هذه المرة، الأحداث المقابلة لهذه الفترة. ويستحق المقطع الشهير الخاص باستيلاء الموسّي على تمبكتو أن يذكر كاملاً: «أن السلطان كنكون موسي هو، كما يؤكّدون، الذي أمر ببناء مئذنة مسجد تمبكتو الكبير، وفي عهد أحد أمراء أسرته، قاد سلطان الموسّي حملة ضد هذه المدينة، على رأس جيش قوي، استولى الرعب على سكان مللي، فلاذوا بالفرار وأسلموا تمبكتو للمهاجمين. دخل سلطان الموسي المدينة، وسلبها، وأحرقها، وخربها، وبعد أن أمر بقتل كل الذين استطاع أن يصل إليهم، واستولى على كل الثروات التي وجدها، عاد إلى بلاده[٣] ويتم عادة إرجاع تاريخ استيلاء الموسّي على تمبكتو إلى عام ١٣٣٧[٤]: هكذا، بعد قرن تقريبًا من تهديدهم لغاو، لم يترك هذا الشعب المحارب مقدمة المسرح، ليس هذا فحسب، بل ازدادت قوته، فيما يبدو. ومن بلاده الغامضة، أطلق سلطان الموسّي حملات بعيدة، وهاجم مدنًا هامة، بل ومحصّنة جيّدًا، فيما يظن، مما يفترض وجود قوة بشرية هائلة، وخيول وأسلحة كثيرة. وفي تاريخ السودان أيضًا، جاء ذكر غارة على بنكا (غربي منعطف النيجر، أعلى في النهر من تمبكتو) شنّت، فيما يبدو، قبل ١٤٣٣/١٤٣٤، وهي السنة التي استولى فيها الطوارق على تمبكتو[٥]: وانقضى قرن آخر، وبقي الموسّي كما هم مصدر تهديد. وقد جعل روش[٦] من الحملة التي شنّت ضد بنكا حدثًا ضمن سلسلة من العمليات الموجهة ضد منطقة البحيرات.

ونصل إلى الفترة المعروفة معرفة لا بأس بها من تاريخ الموسّي الشماليين، أي تلك التي اتفقت وحكم السني علي والأسكيا محمد، الذين يذكرهما التأريخان اللذان تتكامل إشاراتهما.

في عهد سني علي (١٤٦٤ – ١٤٩٢)، نجد الإشارات الآتية: ١٤٦٤/١٤٦٥، تولى سنّي علي الحكم؛ الحرب ضد الموسّي، وكان يقودهم ملك يُدعى كمداوو؛ هزيمة الموسّي الذين طاردهم الصنغي حتى بلاد بمبرة (بامانان)، بينما تمكّن كمداوو من العودة إلى عاصمته ارجومة؛ ١٤٧٠/١٤٧١ –

(٢) م. الكعتي، ترجمة فرنسية ديلافوس، وهوداس، ١٩١٣، ص ٣٣٣ – ٣٣٤.
(٣) السعدي، ترجمة فرنسية هوداس، ١٨٩٨، ص ١٦ – ١٧.
(٤) ش. مونتي، ١٩٢٩، ص ٤١٤ – ٤١٥.
(٥) أنظر السعدي، المرجع السابق، ص ٤٥ – ٤٦، بالنسبة لبتكا، وم. الكعتي، المرجع السابق، ص ١١٨، ١٧٣، و١٧٨ بالنسبة لاستيلاء الطوارق على تمبكتو.
(٦) ج. روش، ١٩٥٣، ص ١٧٧.

١٤٧٢/١٤٧١ ، غارات الصنغي على بلاد الموسّي تحت قيادة سني علي ، أوّلاً ، ثم يبكوي ياتيه ؛ تخريب بركانا وهي منطقة يقيم فيها ملك الموسّي ؛ وموت زعيم الموسّي الذي يطلق عليه تأريخ الفتاش لقب تنجا نياما ؛ ١٤٧٨/١٤٧٧ ، دخول الموسّي أراضي الصنغي التي مكثوا فيها حتى ١٤٨٣ – ١٤٨٤ ؛ الاستيلاء على ساما وهي مكان يقع بين النهر وبين ولاتا ؛ ١٤٨٠ احتلال الموسّي لولاتا بعد حصار دام شهرًا ، ثم انسحاب المهاجمين الذين اضطروا أن يتركوا أسراهم لسكان المدينة ؛ ١٤٨٣ – ١٤٨٤ ، معركة كوبي أو معركة دجينيكي – توأوي ، بعد أن قبض الصنغي على أفراد بيت زعيم الموسّي والاستيلاء على غنائمه الحربية ؛ انسحاب الموسّي إلى بلادهم ، يطاردهم الصنغي الذين دخلوها[7] .

ما الذي حدث بين منتصف القرن الرابع عشر الذي اتسم ، بصفة خاصة ، بالإغارة على بنكا ، وبين منتصف القرن التالي الذي يعد في آن واحد ، فيما يبدو ، ذروة توسّع الموسّي ، مع الاستيلاء على ولاتا ، وفترة بداية التراجعات؟ تلوذ المصادر المكتوبة بالصمت بالنسبة لهذه الفترة الجديدة التي تعادل قرنًا . ومن الأحداث التي ملأت النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، يمكن على الأقل استخلاص الدرس الآتي : عندما تولى سني علي ، وهو عاهل ذو مقام رفيع ، كان الموسّي يمثلون بالنسبة لأمبراطورية الصنغي خطرًا جعل من هدم الخصم شرطًا لتدعيم قوة الصنغي ، وفي عهد سني علي ، توقفت حملات الموسّي المنتظمة ضد مدن منعطف النيجر ، وكذلك ردود الصنغي الدفاعية وإنّما نحن أمام حرب طويلة تصعب تهدئتها ، وتتواجه فيها قوتان عسكريتان عظيمتان مهيمنتان . وفي نهاية حكمه ، انتصر سني علي ، لكن خلفاءه لم يكتفوا بهذا النجاح ، وعملوا على إزالة دولة الموسّي الشمالية تمامًا . وكانت هذه الأخيرة قد فقدت المبادرة عندما تولّى الأسكيا محمد ، ومع هذا لم تختفِ من الوجود .

إن نصوص « التاريخ » الخاصة بموسّي الشمال في القرن السادس عشر فقيرة جدًا بالوقائع لكنها تقدّم لنا ، مع ذلك ، معلومة أساسية : فمع محمد (١٤٩٣ – ١٥٢٩) وخلفائه ، شنّ الصنغي الحرب على الموسّي باسم الإسلام ، لأن الموسّي « وثنيون » ، مثل سكان الغرمة[8] . وفي عام ١٤٩٧ – ١٤٩٨ ، أرسل محمد حملة ضد بلاد الموسّي ، حيث يحكم « السلطان » ناصرة . وانتصر جيش الصنغي ، وقتل عدد كبير من الموسّي ، وأُسرت نساؤهم كما أُسر أطفالهم ، وهُدِّمت عاصمتهم . وشنّ داود (١٥٤٩ – ١٥٨٢) الحرب على الموسّي في نفس العام الذي تولى فيه ، ثم عام ١٥٦٢/١٥٦١ ، وأخيرًا عام ١٥٧٥ تقريبًا . وتمكّننا حملة ١٥٦١ – ١٥٦٢ من أن نحدّد بدقة تاريخ زوال قوة الموسّي الشماليين تقريبًا ، تلك القوة التي ترجع إلى ثلاثة قرون ، في تصوّرنا . ويذكر لنا تأريخ السودان أن « زعيم الموسّي غادر البلاد مع كل قواته » ، بعد ثاني حملة أرسلها داود . ويذكر هذا التاريخ أيضًا باختصار أن الصنغي عادوا من ثالث وآخر حملة أُرسلت في عهد داود (١٥٧٥) « دون أن ينهبوا شيئًا » ، مما يعني ، بلا شك ، أنه لم يكن هناك شيء يستحق النهب ، وأن جيش الصنغي دخل بلدًا أنهكته الحرب ، وخلا من السكان[9] .

هكذا ، لا يمنعنا الطابع الجزئي للمعلومات التي اضطررنا أن نستند إليها ، من أن نعطي تاريخ الموسّي في منعطف النيجر نسيجًا متماسكًا نسبيًا . فطوال أكثر من ثلاثة قرون ، قاوم مجتمع عسكري غازي ، الصنغي ، لكي يسيطر على النهر ، بعد أن ضمن السيطرة على الداخل . لكنه انهزم في نهاية المطاف لأن

(٧) عن الموسّي في منعطف النيجر والسني علي ، أنظر م. الكعتي ، المرجع السابق ، ص ٨٥ – ٨٦ ، و٨٨ – ٨٩؛ وم. ايزار ، ١٩٧٠ ، ص ٣٨ – ٤٤ .

(٨) أنظر م. الكعتي ، المرجع السابق ، ص ١١٤ – ١١٥ ، ١٣٤ – ١٣٥ ؛ السعدي ، المرجع السابق ، ص ١٢١ – ١٢٢ ، ١٢٤ .

(٩) السعدي ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٩ .

العداء الديني أضيف إلى العداء السياسي، ابتداءً من حكم محمد. أما عن هويّة هؤلاء الموسّي وتحديد موقع بلدهم، فلا نستطيع مع الأسف إلاّ أن نقدّم بعض الافتراضات الغامضة للغاية، ويدل كل شيء على أنه، نظرًا لعدم وجود أي استكمال معقول من الروايات الشفوية، فلن نعرف المزيد إلاّ إذا أجريت الأبحاث الأثرية اللازمة.

وفي انتظار استكشاف اتجاهات جديدة للبحث، يمكن أن نحصر العلامات القليلة التي لم تؤخذ عن كتاب التاريخ والتي يمكن أن تكمل معلوماتنا أو تدعم افتراضاتنا على الأقل. يشير بوبو حما[١٠] إلى مخطوط يكتنفه الغموض مكتوب بالعربية عنوانه «أجناس افريقية» يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر ويُدعى مؤلّفه المفترض عبقل ولد عودار. هذه الحولية المسماة «تاريخ ساي» لم تترجم أو تنشر، حسب معلوماتنا، وإذا كان بوبو حما قد لخّص مضمونها، فهو لم يستشهد صراحة بأي جزء منها، ويرى بوبو حما مستندًا إلى عودار، أن الموسّي القادمين من الشرق أقاموا على الضفة اليسرى من نهر النيجر دولة تدعى ديامار، كانت روزي، في دالول بوزو، آخر عاصمة لها. ويمكن أن يكون وجود دولة روزي قد استمر خمسة قرون، من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر. وفي القرن الثاني عشر تقريبًا، أنشأ الموسّي ديامار الثانية، مركزها السياسي مندجي، لأنهم هجروا روزي تحت ضغط البربر، وذلك بدون أن يغادروا شاطئ الهوسا. ولم تعش ديامار الثانية إلاّ فترة قصيرة. فسرعان ما عبر الموسّي النهر، في أعقاب مجاعة، واستقرّوا على شاطئ الجرمة. وإذ انتصروا على السكان المحليين، جُرمَنكيبا وربما كورمبا، أنشأوا ديامار الثالثة والأخيرة. وطالما لا نملك النص الكامل والمحقّق لتأريخ ساي، فلن نستطيع الاستفادة علميًا من المعطيات التي قدّمها بوبو حاما، وبالذات الحكم على صحة بعض الأدلة الزمنية التي يعطيها لنا. مثلاً، هذا التاريخ: ١١٣٢ الذي قد يتفق مع الانتقال من ديامار الثانية إلى ديامار الثالثة، والذي يعتبره توكسييه[١١] بداية لحكم زا باراي، اول عامل صنغي حارب الموسّي، حسب ما جاء في كتابي التاريخ الكلاسيكيين. وفي وثيقة عربية أخرى معروفة جيدًا هي «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، كتبت عام ١٣٣٧، (المفروض أنها السنة التي استولى فيها الموسّي على تمبكتو)، جاء ذكر حديث دار بين المانسا موسى، وأبي الحسن علي، الذي سيتولّى الإمارة وهو أحد الذين قدّموا المعلومات للمؤلّف. فعندما سأل المصري ملك مالي عمن يحاربه، ردّ الملك قائلاً: «لنا عدو لدود، هو بين الزنوج بمثابة التتار بالنسبة لكم». وأوضح الملك أن هؤلاء الأعداء «مهرة» في رمي «السهام»، وأن لديهم «خيولاً مخصية مشقوقة الأنف»[١٢]. ويمكن أن نتساءل عما إذا كان هؤلاء الفرسان من الموسّي الشماليين حيث كانت عادة خصي الخيول (إشارة إلى «الخيول المخصية») مجهولة داخل منعطف النيجر. ومعروف أن التاجر أنطونيو مالفانته – من جنوة – زار توات عام ١٤٤٧. ويتضمّن خطاب مكتوب باللاتينية، وجّهه إلى مواطنه جيوفاني ماريونو – نشره لا رونسيير[١٣] – مقطعًا رأى فيه ايف بيرسون[١٤] إشارة إلى الموسّي الشماليين. ففي معرض الحديث عن مدينة تُدعى فاللو (يقول

(١٠) ب. حما، ١٩٦٦، ص ٢٠٥ – ٢١٥؛ أنظر م. ايزار، ١٩٧٠، الجزء الأول، ص ٤٧ – ٤٨.

(١١) ل. توكسييه، ١٩٢٤، ص ٢٢.

(١٢) نص ذُكر في «أمبراطورية مالي»، ١٩٥٩، ص ٦١.

(١٣) ش. دو لا رونسيير، ١٩٢٤ – ١٩٢٧، الجزء الأول، ص ١٥٦، يذكر لا رونسيير النص اللاتيني للخطاب وترجمته الفرنسية.

(١٤) إ. بيرسون، ١٩٥٨، ص ٤٥ – ٤٦. ولنلاحظ أن Vallo عند دو لا رونسيير تصبح Wallo عند إ. بيرسون؛ أنظر م. ايزار، المرجع السابق، ص ٥٠ – ٥٣.

برسون إنها ولاتا)، يذكر ملكًا من عبدة الأصنام، معه خمسمائة ألف رجل، جاءوا لمحاصرة هذا الموقع.
أخيرًا، لكي ننتهي من المصادر المكتوبة، يجب أن نذكّر بأن خواوو دي باروس تحدّث عن شعب موسّي، في كتابه «حوليات آسيا» الذي يرجع إلى عام ١٥٥٢ – ١٥٥٣. ويروي الكاتب البرتغالي الزيارة التي قام بها أمير من الوولوف يُدعى بيموي، عام ١٤٨٨، إلى بلاط دون خواوو الثاني. وقد شرح بيموي للملك أن أراضي الموشي تمتدّ من تمبكتو، في اتجاه الشرق، وتحديد هذا المكان لا يتعارض – بما أن الأمر يتعلّق بموسّي الشمال – مع ما يمكن أن نستخلصه من قراءة كتابي التأريخ. ورأى دون خواوو الثاني أن سلطان ملك موسي من القوة بحيث يظن أنه القس جان الشهير، الذي ينحدر من نسل ملكة سبأ، والمعروف بأنه أصل مملكة اثيوبيا، كما تقول الأسطورة. وذكر بيموي الحروب بين ملك موسّي وماندي مانسا، «ملك الماندنغ»، وقدّم عادات موسّي بطريقة جعلت محادثيه يقتنعون بأنهم مسيحيون: فهم ليسوا من المسلمين، على الأقل، وفي هذا يلتقي خواوو دي باروس بكتابي التأريخ[١٥].

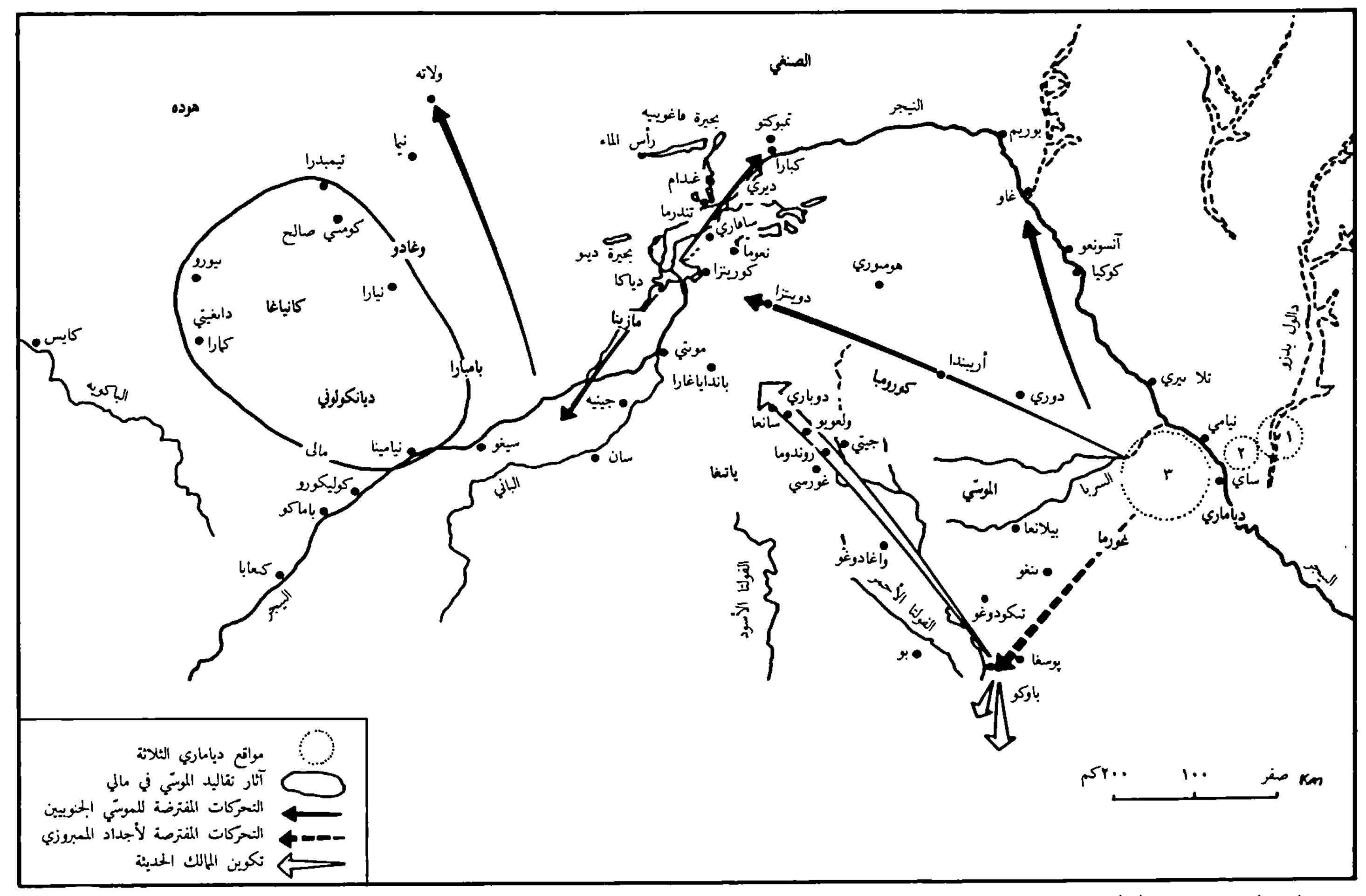
لا يأتي كتاب خواوو دي باروس إذن إلاّ بتأكيد لحوليات تمبكتو. أما المصادر المكتوبة الأخرى المذكورة، حتى إذا كانت غير صريحة، فتؤكّد لنا أنه وجدت، طوال القرن الخامس عشر، أمام مالي وأمبراطورية الصنغي، قوة «وثنية» سوداء، ظلّت القوى المهيمنة الأخرى في هذا الجزء من غرب أفريقيا، في صراع دائم معها. علاوة على ذلك، ندين لكلود ميياسو[١٦] بجمع روايات شفوية مالية هامة. صحيح أنه يجب أن تفسر تفسيرًا ادقيقًا، لكنها هامة، فيما يبدو. لأنها تعني بالموسّي الشماليين، ولقد وُجد أثر لهم في منطقة منحرفة جدًا بالنسبة لمنعطف النيجر ما دام الأمر يتعلّق بالحُد، وكانياجا، وواجادو. وهذه الروايات الشفوية هي الوحيدة حتى الآن، التي تُرجعنا إلى شعب «التاريخ» المحارب. وفي جانكولوني بين نيامينا ونارا، يوجد صف من الآبار نُسب حفره إلى الموسّي. ولنلاحظ أن هذا لا يتّفق مع الفكرة التي تكوّنت لدينا عنهم، وهي أنهم محاربون فقط. يُقال إنه في هذه المنطقة أباد الموسّي أو احتووا الغالبية العظمى من عشائر السومارية، بينما قاومت عشائر الدياريسو الغزاة وانتصرت عليهم. وبقيت ذكرى معركة بين الموسّي والسكان المحليين بالقرب من موقع دانجيتيه – كامارا الحالي، الذي يبعد مائة كيلومتر تقريبًا عن جنوب مورديار. وفي الحُد، يمكن أن يكون الموسّي قد احتلّوا عدة أماكن، وأنشأوا قيادة اقليمية مركزها غارا، تشتمل على ما يقرب من أربعين قرية. وأخيرًا، يمكن أن يكونوا قد حاصروا داووليه – جلبيه، على مسافة قريبة من موقع كومبي صالح[١٧].

(١٥) ج. دو باروس، ترجمة ل. مارك، ١٩٠٩، ص ٦ – ١٨؛ أنظر أيضًا ل. توكسيه، ١٩١٧، ص ٨٤ – ٨٥، وم. ايزار، المرجع السابق، ص ٥٣ – ٥٥.
(١٦) بحث شخصي استخدمه م. ايزار، المرجع السابق، ص ٥٥ – ٥٦.
(١٧) كومبي صالح: المفروض أنها عاصمة أمبراطورية غانا. وتقع كومبي على مسافة ٦٠ كيلومترًا جنوبي تِمبِدرا في موريتانيا.

موسّي منعطف النيجر وموسّي حوض الفولتا : النظرية الكلاسيكية

عندما بدأ المؤلّفون الأوائل يكتبون عن موسّي حوض الفولتا الأبيض ، استندوا في تحليلهم التاريخي إلى الروايات الشفوية التي تربط مجموع الأسر الملكية الموسية بنسل سلف واحد هو نابا ودراووجو ، وأقاموا علاقة صريحة بين أصل ممالك الموسّي وأصل دول الممبروزي والنانومبا والداجومبا . ويجب أن يعزى إلى ديلافوس[١٨] ، وفروبنيوس[١٩] ، وتوكسييه[٢٠] أنهم كانوا أول من شكّل تاريخ الموسّي ، الأول انطلاقًا من مراجعة الدراسات الإدارية الاستعمارية الأحادية الموضوع لعام ١٩٠٩ ، والثاني والثالث انطلاقًا من المواد التي جمعوها مباشرة . وفي روايات الموسّي الحالية ، لا نجد أي أثر لعمليات قام بها الموسّي ضد الصنغي ، أو لوجود الموسّي المستمر داخل منطقة منعطف النيجر . ومع ذلك يعرف المؤلّفون سالفو الذكر تأريخ السودان أما تأريخ الفتاش ، فإنه نشر وترجم في فترة متأخرة بالنسبة للتاريخ الكبير الآخر التومبيكتي الأصل . ولذا فهو لم يكن محل استنباط مماثل . وعلى الرغم من صمت روايات الموسّي الشفوية عن مكان من نسمّيهم موسّي منعطف النيجر ، فإن كون الموسّي الشماليين وموسّي الفولتا الأبيض شعب واحد ، لم يكن مشكلة بالنسبة لهؤلاء المؤسسين الحقيقيين لتاريخ الموسّي . ومن المفهوم أنه كان من الممكن طبعًا صياغة هذا الافتراض لأن الأمر لم يكن سوى فرضًا مبنيًا على تقارب في أسماء الأجناس ، بل لقد كان من الطبيعي أن تتم صياغته به ، لكن كان لا بدّ بمجرد طرحه ، من العمل على التحقّق من صحته بل والتخلّي عنه في حالة نقص الأدلة القاطعة . ولم يحقّق هذا الافتراض أبدًا ، لأنه لا يمكن ، منطقيًا ، اعتبار التقارب الممكن مثلاً بين اسم زعيم للموسي جاء ذكره في احدى حوليات الناصرة[٢١] واسم أحد ملوك ياتنجا – المغمورين[٢٢] – دليلاً على صحة هذا الافتراض . ومع ذلك ، فان تاريخ الموسّي قام على أسس واهية كهذه ، وخاطر بذلك بإغفال ما يُعتبر الطابع المبتكر لتكوينات الدولة أو السابقة على الدولة لدى الموسّي في منعطف النيجر . بل أكثر من هذا ، أصاب بالعقم الأبحاث التاريخية الخاصة بالموسّي ، بتقديمه مشكلة لم تُطرح بعد على أنها محلولة . وعندما جمع ديلافوس وتوكسييه – بصفة خاصة – بين موسّي منعطف النيجر وموسّي فولتا الأبيض ، قدّما ، دون مجهود يُذكر ، إطارًا زمنيًا لتاريخ ممالك الموسّي الحالية . وفي الوقت نفسه ، أعطيا هذا التسلسل الزمني «طولاً» أكبر بكثير من ذلك الذي يمكن أن يستخلص من مجرد بحث الروايات الشفوية لهذه الممالك ، والتكوينات التاريخية المجاورة . والواقع أن التمسّك بصحة الرواية الغالبة الخاصة بالأصل الجنوبي لممالك الموسّي الحالية ، وجعل موسّي فولتا الأبيض هم غزاة تيمبكتو كان يتطلّب ، وضع الافتراض التكميلي الآتي وهو أنه لم يكن للموسّي أن يندفعوا في حملات عسكرية بعيدة المدى إلاّ بعد فرض سلطتهم فرضًا قويًا على سكان الفولتا الأصليين . والأعمال التي جاء ذكرها في كتابي التاريخ ، لم تكن ممكنة في الفترة الأولى من تاريخ الممالك . ولكي يجعل ديلافوس[٢٣] من هذا الافتراض الخطير الذي لم يحقّق افتراضًا يمكن تصديقه ، انتهى إلى تحديد نهاية

(١٨) م. ديلافوس ، ١٩١٢ ، الجزء الثاني ، ص ١٤٠ – ١٤٢ .
(١٩) ل. فروبنيوس ، ١٩٢٤ ، ص ٢٦٠ – ٢٦٢ .
(٢٠) ل. توكسييه ، ١٩١٧ ، ص ٦٧ – ٨٤ .
(٢١) م. ديلافوس ، المرجع السابق ، ص ١٤١ – ١٤٢ ، ل. توكسييه ، ١٩١٧ ، ص ٨١ .
(٢٢) يتعلّق الأمر بالياتنجا نابا ناسودوبا ، الذي حكم ، لفترة قصيرة بلا شك ، في النصف الأول من القرن السابع عشر .
(٢٣) م. ديلافوس ، ١٩١٢ .



• منعطف النيجر وحوض الفولتا ١١٠٠ – ١٦٠٠

المصدر: م. إيزار في «مقدمة لتاريخ ممالك الموسّي» (رسالة دكتوراه، جامعة باريس، ١٩٧٠).

القرن العاشر تقريبًا كبداية لتاريخ ممالك الموسّي الحالية. وكان معنى هذا إما إطالة متوسط فترة حكم الملوك الموسّي إطالة بالغة – ولا تقدّم لنا الروايات الشفوية شيئًا عن مدة حكمهم مباشرة – أو اعتبار قوائم الأسر التي تمّ جمعها في بلاد الموسّي قوائم ناقصة. وهذا في الوقت نفسه أمر لا يمكن التحقّق منه ويصعب الوصول إليه، نظرًا لكثرة المادة المتعلّقة بالأنساب التي تقدّمها لنا الروايات الشفوية الحالية، والخاصة بأسر الملوك والزعماء.

وندين لأحد الإداريين العسكريين الفرنسيين، الكابتن لمبير[٢٤]، بنقد الجمع بين موسّي كتابي التأريخ والموسّي الحاليين، وذلك منذ عام ١٩٠٧. ولسوء حظ تأريخ الموسّي، لم تنشر دراسة لمبير أبدًا، على الرغم من جودتها، بحيث أصبحت لنظريات ديلافوس وتوكسييه قيمة العقيدة الراسخة، بغضّ النظر حتى عن اختلاف هذين المؤلّفين في الرأي، وأصل هذا الاختلاف خاصة[٢٥]. وكان لا بدّ من انتظار عام ١٩٦٤ لكي تصبح ما نسمّيه النظرية «الكلاسيكية» – نظرية ديلافوس وتوكسييه – محل نقد جذري، من قبل المؤرّخ البريطاني البارز ج. فاج. ففي مقال جدير بالذكر[٢٦]، أعاد فاج النظر مدقّقًا في النظرية الكلاسيكية، وبعد أن فنّدها، اقترح إعادة تفسير لمجمل تاريخ الموسّي، مقترحًا مباشرة، تمييزًا واضحًا بين موسّي منعطف النيجر وموسّي حوض أنهار الفولتا. ولم يستبعد مع ذلك افتراضًا قدّمه بطريقة متحفظة للغاية – عن احتمال وجود علاقة بين هاتين الجماعتين. يرى فاج أن النظرية الكلاسيكية تصطدم بعقبة خاصة بالتسلسل الزمني لا يمكن التغلّب عليها. وبعد تحليل الروايات الشفوية للداجومبا الذي أجراه مع الراحل دافيد تيت، انتهى فاج إلى الطول البالغ، ليس فقط للتسلسل الزمني الكلاسيكي لتاريخ الموسّي، وإنّما أيضًا إلى طول الفترة – وهي مقبولة عامة – التي تحدّث عنها تاما كلويه[٢٧] بالنسبة لتاريخ داغومبا، واقترح اعتبار عام ١٤٨٠ تقريبًا بداية لحكم نانياجس، مؤسّس دولة الداغومبا. هكذا رأى فاج أنه لا يمكن أن يكون ظهور تكوين الدولة الذي كان أصلاً للمالك التي نتحدّث عنها، سابقًا للقرن الخامس عشر. ويقبل فاج الافتراض القائل بأن هناك أصل مشترك بين موسّي الشمال وموسّي الفولتا، لكنه يربط موسّي الشمال بالمرحلة السابقة على ظهور الدولة، ويربط موسّي الفولتا بمرحلة الدولة من مراحل نفس التاريخ. وقدم ن. لفتزيون[٢٨]، في نفس الخط الذي اختطه فاج، عام ١٩٦٥، جدولاً زمنيًا مقارنًا لمجموع دول حوض أنهار الفولتا، فيما عدا الغرمة التي لا توجد معلومات خاصة بها، أعدت انطلاقًا من دراسة قوائم الأسر، وتستند إلى تحديد مدة كل جيل بأربعين عامًا في المتوسط، وتلتقي النتائج التي توصّل إليها لفتزيون بتلك التي توصّل إليها فاج، ما دام حكم نانياجس قد أتى بين ١٤٦٠ و ١٥٠٠، والجيلان السابقان (الجيل الأول: تأسيس مملكة الممبروزي، الجيل الثاني: تأسيس مملكة نانومبا) يتفقان والفترتين الزمنيتين الآتيتين: (١٣٨٠ – ١٤٢٠) و (١٤٢٠ – ١٤٦٠).

وحاولنا نحن أيضًا أن نسهم في هذا النقاش[٢٩]، وأن نقترح إطارًا زمنيًا لتكوين دول أنهار الفولتا

(٢٤) أصل دراسة لمبير محفوظ في أرشيف السنغال، في داكار.

(٢٥) لم يعد ديلافوس النظر أبدًا في كتابه، بعد نشره في ١٩١٢، بعكس توكسييه الذي عدل نظرياته في ١٩٢٤ بالنسبة لتفسير ما ورد بكتابي التأريخ عما كانت عليه عند صدورها أول مرة في ١٩١٧.

(٢٦) ج. فاج، ١٩٦٤، ص ١٧٧ – ١٩١.

(٢٧) لم تنشر الأبحاث التي قام بها ج. فاج ودو تيت عن تاريخ مملكة داغومبا.

(٢٨) ن. لفتزيون، ١٩٦٨، ص ١٩٤ – ٢٠٣.

(٢٩) م. ايزار، المرجع السابق، ص ٥٦ – ٧٠.

يستند إلى تحليل المادة المتعلّقة بأنساب الموسّي ، خاصة المادة الخاصة بمملكتي الموسّي الرئيسيتين الحاليتين ، مملكة ووغودوغو (واجادوجو) ومملكة ياتنجا . أما المنهج المستخدم فيتمثّل في البدء بتحديد تاريخ محوري لتأسيس الياتنجا ، وذلك بتعيين متوسط الفترة الزمنية لكل جيل . وتتحدّد هذه الفترة نفسها انطلاقًا من دراسة فترات الحكم السابقة للاستعمار التي يمكن استخدامها . هكذا نحصل ، بالنسبة لتأسيس مملكة ياتنجا ، على هذا التاريخ : عام ١٥٤٠ . ثم رجعنا إلى نابا ياديجا ، مؤسّس الياتنجا ، والى سلفه نابا ووبري ، مؤسّس مملكة ووغودوغو ، مستخدمين خواص شجرة أنساب ووغودوغو في هذا التقدير . وأدى هذا المسار إلى تحديد بداية حكم نابا ووبري (١٤٩٥) . وللرجوع إلى ما قبل تأسيس مملكة ووغودوغو ، انتهى بنا كل من العمق الضئيل لمادة شجرة الأنساب ، وعدم التأكد الخاص بطريقة نقل السلطة ، إلى اقتراح تسلسل زمني مفتوح ، يتراوح فيه متوسط زمن كل جيل بين خمسة عشر وثلاثين عامًا . وقبل نابا ووبري ، تقدّم أشجار الأنساب الملكية الخاصة بالموسّي «أباه» نبابا زنجرانا ، ووالد ذلك الأب ، نابا ودراووجو ، وأم هذا الأخير ، يننجا ، أول ابنة (؟) لمؤسّس مملكة الممبروزي الذين يسمونه ناباوا أو جبيوا ، ويسميه الموسّي والداجومبا نانيديجا . هكذا نحصل على النتائج الآتية ، حيث تشير التواريخ المبينة إلى بداية «العهود» الحقيقية أو المفترضة (حالة يننجا على الأقل) :

	المدة			
	١٥ عامًا	٢٠ عامًا	٢٥ عامًا	٣٠ عامًا
٥. نابا ووبري	١٤٩٥	١٤٩٥	١٤٩٥	١٤٩٥
٤. نابا زنجرانا	١٤٨٠	١٤٧٥	١٤٧٠	١٤٦٥
٣. نابا ودراووجو	١٤٦٥	١٤٥٥	١٤٤٥	١٤٣٥
٢. يننجا	١٤٥٠	١٤٣٥	١٤٢٠	١٤٠٥
١. ناباوا	١٤٣٥	١٤١٥	١٤٠٠	١٣٧٥

ولنلاحظ أن كل عمود في هذا الجدول يطابق متوسط فترة الجيل الواحد نفسها ويمكن أن نرى ، في الواقع ، وهذا أقرب الافتراضات إلى الصدق ، تغييرًا في الفترة الزمنية من جيل إلى آخر ، بحيث أن وضع جدول كامل كان يقتضي أن يؤخذ في الاعتبار نوعًا من التوفيق الحقيقي بين المدد . ولا يتعارض هذا التسلسل الزمني المفتوح كما قدمناه ، مع ذلك الذي اقترحه لفتزيون ، ما دام يحدّد بداية حكم ناباوا بالفترة الواقعة بين ١٣٨٠ و ١٤٢٠ ، على أساس أربعين عامًا كمتوسط زمن الجيل الواحد ، في حين نحدّد هذا الحكم بالفترة الواقعة بين ١٤٠٠ و ١٤٢٠ (المدة = ٢٥) وبين ١٣٧٥ و ١٤٠٥ (المدة = ٣٠) بالنسبة لفترات الحكم الأطول.

أصل دول حوض أنهار الفولتا : مستوى المعرفة الحالية

فلنلخّص أولاً ما يمكن أن نستخلصه من المصادر المختلفة الخاصة بموسّي منعطف النيجر. في النصف الأول من القرن الثالث عشر، عبر الموسّي الأول، من ديامار الثانية النهر في منطقة ساي، وأنشأوا ديامار الثالثة. ويبدو أن الحروب ضد صنغي غاو تسيطر على بداية تاريخ ديامار الثالثة ولا شك أن الهدف منها كان تدعيم التكوين الإقليمي الجديد. وفي القرن الرابع عشر، بعد تدعيم هذا التكوين، لم يعد التوسّع الموسّي يستهدف الشرق، وإنما غرب منعطف النيجر، دليل ذلك حملة عام ١٣٣٧ ضد تمبكتو. وبدأ القرن الخامس عشر باندفاعة جديدة للموسّي نحو الغرب وذلك بالغارة التي شنّوها على بنكا. واتسم النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أولاً، بنجاح هام أحرزه الموسّي، ثم بهجوم الصنغي المضاد الذي قاده السني علي، وكان هجومًا قويًا سرعان ما انتهى إلى النصر. بعد ذلك، بين عهد الأسكيا محمد وعهد الأسكيا داود، أي طوال ما يقرب من قرن، أصبح الموسّي، الذين نادى الملوك المسلمون الصنغي بالجهاد ضدهم، في موقف دفاعي فحسب. ونحو عام ١٥٧٥، انتهت كل مقاومة منظمة للموسّي الشماليين.

وطالما لا نملك معلومات مرضية عن الغرمة، وطالما لم يستكمل علم الآثار ما بدأه تحليل النصوص وجمع الروايات الشفوية، فلن نتمكّن من تقديم افتراضات صحيحة عن العلاقة القائمة بين موسّي الشمال وموسّي حوض أنهار الفولتا، أو، على نطاق أوسع، بين موسّي ديامار (الأولى، والثانية، والثالثة) والمحاربين الذين قاموا أصلاً بتكوين مملكة الممبروزي التي نشأت عنها تكوينات النانومبا، والداجومبا، من ناحية، وتكوينات الموسّي الحالية من ناحية أخرى، والتي ربما نشأت عنها، في النهاية، أسرة نونغو الحالية (فادا نغورما). إن القضية هامة وتتعلّق، في الواقع، بأسلوب انتشار نموذج للتنظيم السياسي عبر منطقة واسعة من غرب أفريقيا، ربما ابتداءً من البورنو، وربما كانت زمفرة، في بلاد الهوسا الحالية، إحدى مراحلها. إن ما يبدو مقرّرًا هو أن أسلاف ملوك الممبروزي جاؤوا من الشرق. وتجعل روايات شمال غانا من «صياد أحمر» عُرف باسم طوهاجي السلف الذي انحدر عنه مباشرة ناباوا، أول ملك ممبروزي (نهاية القرن الرابع عشر – بداية القرن الخامس عشر). ونحن نتبع هنا الروايات الغالبة التي جمعها تاما كلويه عند الداجومبا عام ١٩٣١ [٣٠].

كان طوهاجي يعيش في مغارة، ويصطاد في منطقة قريبة من مملكة مالللي القريبة من بلاد الهوسا. لجأ ملك مالللي إلى طوهاجي عندما كان يحارب جيرانه. وبعد أن استتب السلم، أعطى الملك للصياد احدى بناته، باجا وولجا – وكانت عرجاء –، مكافأة له على الخدمات التي قدّمها له. وأنجبت الابنة ولدًا، كبوغونمبو، الذي تقول بعض الأساطير إنه كان ذا «ذراع واحدة وساق واحدة». وتجمع الروايات على أنه كان عملاقًا. وظلّ كبوغونمبو إلى جوار والده حتى سن الرّشد. وعندما وجد ملك ماللي نفسه في شدة مرة أخرى، طلب من الابن العون الذي كان لا يستطيع أن يطلبه من الأب. وبعد أن حارب وانتصر لحساب حاميه، قرّر كبوغونمبو الرحيل نحو الغرب، بدلاً من أن يعود إلى مغارة أبيه. وبعد سفر استمر عدة أيام، بلغ بيون، في الغرمة. وأعطاه «سيد الأرض» في بيون إحدى بناته، سوهوسبغا أو سيسابغا. وكان قد رُزق بخمسة أبناء نتيجةً لهذا الزواج : توأمان ماتا في سن صغيرة، ثم نمزيسيل، ونيالغه،

(٣٠) أ. ف. تاماكلويه، ١٩٣١.

ونغملغنسام. أراد كبوغونمبو أن يستولي على حكم بيون، فقتل حماه، ونصّب نفسه زعيمًا. فأثار هذا الاغتصاب غضب داراماني، ملك الغرمة الذي أعلن الحرب على زعيم بيون، ولأنه لم يتوصّل إلى هزيمة كبوغونمبو، قرّر داراماني أن يجنح إلى السلم، وضمانًا لاتفاقهما، أعطى عدوه السابق احدى بناته، سويبني أو سوليبني، التي أنجبت له ابنًا، ناباوا أو جبيوا المقبل، والذي يُعرف عند الداغومبا والموسّي باسم نا نيديغا. هذا الابن هو الوحيد من بين نسل كبوغونمبو المباشر الذي غادر الغرمة بحثًا عن الحظ في مكان آخر. ودخل على رأس قوة كبيرة من المحاربين، بلاد الكوزازي الحالية، وجعل مقر إقامته في بوزوغا، ومنها، قاد الحرب ضد الكوزازي والبيزا، لكي يدعم سلطته في المنطقة.

يُقال إن ناباوا رُزق بتسعة أطفال: ابنة كبرى تدعى كاشيوحو، وثمانية صبيان اسمهم بالترتيب: زيريللي، وكوفوغو، وتوهاغو، ونغمنتمبو، وسيتوبو، وسيبيبي، وبيمون، وبوغوبيلغو. ورغم أنه كان من المفروض أن يخلفه زيرللي، أكبر أبنائه، لكن ناباوا اتفق مع أبنائه الآخرين على إبعاد هذا الوريث المفترض عن السلطة، لأنه كان يخشى شره. واختار ناباوا ابنه الثاني، كوفوحو خلفًا له. لكن الأم نبّهت زيرللي إلى ما يُدبَّر ضده. فقتل الوريث الذي اختاره أبوه. ومات ناباوا عندما علم بموت كوفوغو. واعتلت العرش الابنة الكبرى لناباوا. لكن زيرللي توصّل إلى تجريدها من السلطة الملكية، ولم يترك لها، على سبيل التعزية، إلاّ ولاية غندوغو. ويظهر زيريللي على أنه المنظّم الحقيقي لمملكة الممبروزي. وعندما مات، نشب نزاع على الخلافة بين ثلاثة من اخوته الأصغر منه، طاهاغو (توسوغو)، ونغمنتمبو، وسيتوبو. وطُرد طوهاغو من مملكة ناباوا، فأسّس نالبريغو، وأصبح أصل الأسرة الممبروزي الحالية. واستقرّ نغمنتمبو بين النانومبا، وأصبح ملكًا لهم. واستقرّ سيتوبو على التوالي في غمباغا، ثم ناباري، واستقرّ ابنه الأكبر نياغسي في باغال، وأبيه على قيد الحياة وكان أصلاً لأسرة الداغومبا.

من البديهي أن ما لخّصناه توًا في بضعة سطور يستحق تفسيرًا أطول من ذلك بكثير، لأنه يجب أن نضع في اعتبارنا، بكل دقة، تعدّد المتغيرات في هذه الرواية العامة. المهم، بالنسبة لنا هنا، هو أن نحاول أن نستخلص من هذه المادة مؤشّرات تاريخية عامة.

إذا قبل تسلسلنا التاريخي، أو ذلك الذي قدّمه لفتزيون، وهو قريب جدًا منه فإن التاريخ الأول للممبروزي كان مسرحه بلاد الهوسا (أي ضفة الهوسا للنيجر)، ثم الغرمة، خلال القرن الرابع عشر، أي في الفترة التي اندفع خلالها موسّي منعطف النيجر في أولى حملاتهم الكبرى نحو الغرب. وإذا كانت هناك علاقة بين هؤلاء الموسّي وأسلاف الممبروزي، فهي لا يمكن أن تكون إلاّ أصلاً مشتركًا قديمًا، قد يرجع إلى عهد ديامار الثانية (ضفة الهوسا للنيجر) وديامار الثالثة (ضفة الغرمة). وربّما يمكن أن نرجع إلى القرن الثالث عشر الفترة التي دخل فيها «الغرمة» محاربون مرتزقة، وعبروها ووصلوا إلى منطقة بوزوغا، انطلاقًا من القاعدة الإقليمية للموسّي الأوائل. وقد لاحظنا أن روايات الداغومبا التي نقلها تاماكلويه تتحدّث عن ملك مالي، وهم اسم يذكّرنا باسم مالي. ولنلاحظ، بهذه المناسبة، أن الموسّي الحاليين في ياتنغا يفرّقون بين مندية الغربية التي تقابل مالي، ومندية الشرقية التي يُقال إنه ينتمي إليها أصل قبائل كورمبا لوروم[٣١]، وموسّي ولاية بورسوما[٣٢] الصغيرة القديمة.

وكما قلنا فإن ناباوا كان معروفًا عند الموسّي الحاليين باسم نا نيديغا. ويمكن المطابقة بين كاشيوغو ابنة

(٣١) لتقديم عرض شامل عن الكورمبا، أنظر أ. شويغر – هافيل و و. ستود، ١٩٧٢، ص ١٩ – ١٢٧ خاصة.

(٣٢) بورسوما: قرية تقع وسط ياتنغا، يقول سكانها إنهم من موسّي مانديه الشرقية، ويعتبرهم الموسّي الآخرين من «أبناء الأرض».

ناباوا الكبرى في روايات الداغومبا وبين ياننغا ابنة نانيديغا الكبرى في روايات الموسّي. نحن لا نهتم هنا بتفاصيل الروايات – وهي معقّدة للغاية – بقدر ما نهتم بالحقيقتين الآتيتين: أ) توجد علاقة مباشرة بين تكوين دور الممبروزي، والنانومبا، والداغومبا من ناحية، وبين دول الموسّي من ناحية أخرى. ب) تمرّ هذه العلاقة المباشرة لا بنسل الأب – وهو نمط العلاقة السائد بين الأسر في شمال غانا –، وإنّما بصلة الرحم، وفي مجتمع يتبع خط النسب الأبوي، فإن هذا هو الدليل القاطع على انقطاع الاتصال، وعلى جدلية الاستمرار التاريخي وانقطاعه.

ولم نحصِ أقل من خمس عشرة صيغة للتاريخ الأسطوري لأصل ممالك الموسّي. ومن المؤكّد أن الروايات الشفوية، إذا جُمعت بعناية، ستقدّم لنا المزيد منها. فلنبحث ما يمكن أن نطلق عليه: الرواية الغالبة، أي تلك التي شاعت على نطاق واسع في بلاد الموسّي ومملكة ووغودوغو خاصة. إنها تذكر لنا أن نانيديغا، ملك الداغومبا (لا الممبروزي)، وكانت غمباغا عاصمته، كانت له ابنة كبرى، ياننغا، يرفض تزويجها، ويفضّل إبقاءها إلى جواره نظرًا لصفاتها كمحاربة. وتتردّد النصوص المختلفة لهذه الرواية الغالبة في ذكر الأسباب التي قادت ياننغا، وهي على جواد فحل، إلى غابة قريبة من بيتو، حيث ضلّت فيها. هل هربت من بيت أبيها، لعدم رغبتها في التضحية بأنوثتها من أجل أهداف والدها العسكرية، أم أن جوادها جمح، وباعد بينها وبين قوة الفرسان التي كانت تقودها؟ وأيًّا كان الأمر، فإن مخاطر هذه النزهة بالحصان، سواء أرادتها أم لا، جعلتها تلتقي في الغابة بأمير مندنغي الأصل، ريال أو ريار، يصطاد الفيلة في دولته. وعن هذا اللقاء، وُلد ولد عُرف في بلاد الموسّي باسم نابا ودراووغو، المأخوذ عن الكلمة «وِدراوو» بلغة الموري أي «فحل الخيل». وأصبح نابا ودراووغو فيما بعد أول الموسّي، وسلفًا لشعبٍ بأكمله.

والروايات التي تحت أيدينا تلزم الصمت بالنسبة لريال الذي لا يتدخّل هنا إلاّ كأب منسل لنابا ودراووغو. من الناحية الاجتماعية، لم يكن لنابا ودراووغو «أب»، فهو ابن ياننحا فقط. كما لا تفصح هذه الروايات أيضًا إلاّ قليلاً عن نهاية حياة ياننحا وبداية الدور الذي لعبه ابنها على المسرح التاريخي. ومع ذلك، يوضح بعضها أن أم نابا ودراووغو قدّمته لأبيها، عندما بلغ سن استخدام السلاح، فوضع الجد حفيده – بصلة الرحم – على رأس قوة من المحاربين. ولنذكر أنه يحتمل أن يكون هذا قد حدث في منتصف القرن الخامس عشر.

تشير عناصر كثيرة إلى أن دولة الغرمة كانت موجودة في هذه الفترة، حتى لو كان حكّامها لا ينتمون حتمًا إلى الأسرة الحاكمة الحالية. لم تكن الغرمة آنذاك دولة مركزية واحدة، بل كانت حينئذ – وظلّت كذلك إلى حد ما – اتحادًا من القيادات الإقليمية بعضها مستقل عن البعض الآخر قليلاً أو كثيرًا. نعرف أن كتابي التأريخ يذكران الغرمة وعلى سبيل المثال، وجّهت آخر حملة لسنّي علي ضد هذا البلد، في نهاية القرن الخامس عشر[٣٣]. وفي القرن السادس عشر، شنّ كل ملوك الصنغي غارات على «الوثنيين» في الغرمة. وفي ملحق تأريخ الفتاش الذي كتبه ابن المختار حفيد المؤلّف الرئيسيّ لهذه الحولية، محمود الكعتي، يذكر دخول الأسكيا اسحق بيلانغا «المقر الملكي لحاكم الغرمة»[٣٤]. وفيما عدا هذه المعطيات النادرة، فإن جهلنا الحالي بأصل دولة الغرمة، أو الدول المختلفة التي تتابعت على نفس هذه الأرض شبه تام. ومع ذلك فالرواية الغالبة عند الموسّي لا تلزم الصمت بالنسبة لأصل أسرة

(٣٣) السعدي، ترجمة فرنسية ديلافوس وهوداس، ١٩١٣، ص ١٠٥، ١١٥ – ١١٦.

(٣٤) م. الكعتي، ترجمة فرنسية هوداس، ١٨٩٨، ص ٢٧٥ – ٢٧٦، ٢٧٥، هامش ١، ص ٢٧٦، هامش ٢.

نونغو، فهي تجعل من أول ننبادو (ملك نونغو)، جابا، سلف اللمبو، ابنا لنابا ودراووغو. إلاّ أن هذه الرواية تبدو متأخرة، وصادرة بالتأكيد عن الامبريالية الايديولوجية للموسّي. وفي دورتنجا، جمع جنزو كاواادا[٣٥] رواية تجعل من جابا ابنًا لِـ نا نيديغا، ملك غمباغا. وما يتضح من عدم معرفة هذه الروايات في بلاد الغرمة نفسها أمر له دلالته، حيث يُقال أن أول ملوك ننغو هبط من السماء، على غرار أول ملك من الكورمبا حكم لوروم[٣٦] – وتكمن أهمية هذه الأسطورة، على الأقل، في تأكيدها استقلال تاريخ الأسرة الحاكمة للغرمة عن تاريخ الأسر الحاكمة لشمال غانا والموسّي.

بداية تاريخ ممالك الموسّي

في القرن السادس عشر، بسط خلفاء نابا ودراووغو سيطرتهم على مجموع سكان وادي الفولتا الأبيض. ووصلوا، فيما يبدو إلى الفولتا الأحمر، في اتجاه الغرب وعبروه. وكانت بورومو، في وادي الفولتا الأسود، أقصى مرحلة غربية لتقدّم الموسّي. ثم تراجعت حدود بلاد الموسّي وثبتت فيما بعد، وظلّت الحدود الخارجية لهذه البلاد كما هي لم تتغيّر، حتى الفترة الاستعمارية التي شهدت توسّعًا موسيًّا من نوع جديد هو التوسّع في التعمير الزراعي.

ظلّت بدايات تاريخ ممالك الموسّي غامضة بالنسبة لنا فترة طويلة، نظرًا، بالذات لأن رواية تنكودوغو تغلّبت حتى وقت متأخر على روايات أقدم منها – خاصة بولايات جنوبية قلّ إشعاعها اليوم. وبفضل أبحاث جنزو كاوادا[٣٧]، يمكن أن نكوّن الآن فكرة واضحة إلى حدّ ما عن تعقيد نشأة القيادات الإقليمية في جنوب بلاد الموسّي. وما زال هذا التعقيد يحول دون رؤيتنا لهذا التاريخ رؤية شاملة. والأمر المؤكّد هو أنه يعود بنا إلى فترة طويلة من النضج سبقت غزو وادي الفولتا الأبيض، بمعنى الكلمة وقيام الأسر الملكية الكبرى التي نعرفها اليوم. ويحدّد كاوادا أن بوزوغا كانت أصل مملكة الممبروزي في شكلها الأول. ويجعل من زمبارغا وسانغا أولى قيادات الموسّي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. ومن بوزوغا، خرجت مباشرة، فيما يبدو، الأسر المحلية؛ دورتنغا وكومين – يانغا، وزعماؤها من الغرمنكيبيا أو بالأحرى اليارسي[٣٨]. ولقد رأينا أن أصل أسرة الننغو الحالية يمكن أن يكون في دورتنغا. وفيما يبدو، نشأت عن ولاية زمبارغا ولاية كنتزم، التي يُقال إن ولايات ورغاي وللغاي وتنواغن نشأت عنها. ويُحتمل أن يكون الغزاة الأوائل قد انطلقوا من كنتزم متجهين إلى الشمال – الغربي. ويمكن أن تكون أسرة تنواغن قد نشأت عن أسرة غوديه، وأن تكون أسرة تنكودوغو قد انفصلت عن هذه الأخيرة.

بعد هذه الفترة التي كانت، فيما يبدو، فترة إعداد للمشروعات السياسية والعسكرية الطموحة، التي إطارها الأراضي الجنوبية حول زمبارغا وكنتزم وبعض الأماكن الأخرى الصغيرة الأهمية، تطوّرت غزوات الموسّي تطوّرًا سريعًا. ومع جيل «أبناء» نابا ودراووغو، تدخل في الروايات الشفوية شخصيتان رئيسيتان

(٣٥) ج. كاوادا، ١٩٧١، لم ينشر.
(٣٦) و. ستود، ١٩٦١.
(٣٧) ج. كاوادا، ١٩٧١.
(٣٨) كلمة «يانجا» تعني الشرق بالموري. و«اليارسي» شرقيون بالنسبة لموسّي المنطقة الجنوبية، وهم يحتلّون مكانًا وسطًا بين الموسّي والغرمنكيبيا.

من شخصيات هذا التاريخ القديم : نابا راوا ونابا زنغرانا ، اللذان نضع أعمالهما في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ولا شكّ أنه يجب أن نؤكّد بالضرورة أن علاقات البنوة – والأخوة بالتالي – التي نقيمها بين الشخصيات الأولى في تاريخ الموسّي هي علاقات مشكوك فيها للغاية ؛ على سبيل المثال ، وبصفة خاصة ، تلك التي تربط بين نابا ودراووغو ، ونابا راوا ونابا زنغرانا. وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن الروايات الخاصة بهذين الابنين المزعومين لنابا ودراووغو تتنافى فيما بينها : فحيث يتمّ الاعتراف بنابا راوا ، يتم تجاهل نابا زنغرانا ، والعكس صحيح. أخيرًا ، إذا كانت تاريخية نابا راوا لا تعد مشكلة ، لأن عناصر المعلومات والشواهد الخاصة به كثيرة ومتفقة ، فإن تاريخية نابا زنغرانا أكثر إثارة للشك بكثير. فبينما لا نجد أثرًا لنابا زنغرانا إلاّ في بضعة أماكن في جنوب بلاد الموسّي ووسطها ، يتّخذ نابا راوا على الفور شكل الغازي العظيم.

وكان الموسيقيون في ياتنغا يحيون نابا راوا بلقب زعيم البو (بلاد الكازينا ، أو بوغو بلغة الموري) ، وزندوما ، وسنغا ، ودوباري ، وتقع هذه المناطق الثلاثة الأخيرة ، حاليًا ، في أراضي مملكة الموسّي الشمالية الكبرى. ونابا راوا هو مؤسّس التكوين السياسي الموسّي الوحيد الذي شهد التأريخ نشأته ، ويستحق اسم «الأمبراطورية». عُرفت هذه الأخيرة باسم راواتنغا[٣٩] ، وجُمعت خلال فترة قصيرة جدًا ، تحت سلطة واحدة ، الجزء الأكبر من بلاد الموسّي الحالية ، مع شبكة هامة من القيادات المحلية في الجزء الأوسط من البلاد ، وأهمها نيو ، ونانورو ، وساوو ، ودابيليغو ، وميجيه ، ويابو. وكانت راواتنغا أمبراطورية كبيرة للغاية تكوّنت في فترة بعيدة جدًا ، بينما كانت كثافة قيادات الموسّي لا تزال ضعيفة ، وكان خضوع السكان الأصليين لا يزال جزئيًا ، لذا ، فلم تتمكّن من المحافظة على وحدتها. وإذا كان بعض أبناء نابا راوا أو رفاقه قد احتفظوا فترة طويلة ببعض الولايات ، في وسط بلاد الموسّي ، فإن التكوين السياسي الوحيد المتماسك الناتج عن الراواتنغا ، في حياة نابا راوا نفسه ، كان مملكة زندوما – التي تحمل اسم أحد محال إقامة نابا راوا الثلاثة – التي تقع في أراضي ياتنغا الحالية. وقد اختتم نابا راوا غزواته في سهل غوندو الذي يسكنه الدوغون ، وطرد هؤلاء من ياتنغا ، في اتجاه هضبة بندياغارا (تقع سانغا ودوباري اليوم على حدود بلاد الموسّي وبلاد الدوغون) ، وأنشأ نابا راوا ، في الشمال ، عدة قيادات محلية عهد بها إلى أبنائه ، أو اخوته الأصغر منه ، أو ضباطه. واليوم فإن القادة الذين ينتمون مباشرة أو بالتمثل إلى سلالة نابا راوا كثيرون في الياتنغا ، بينهم زعيم قرية زندوما ، حيث توجد مقبرة هذه الشخصية العظيمة. ووضعهم فيها هو وضع «سادة الحرب» (تاسونبامبا) ، وقدّم هؤلاء القادة ، على امتداد تاريخ المملكة ، عديدًا من كبار موظفي البلاط (نابيريد مبا) وتوسّعت أراضي الياتنغا فيما بعد على حساب مملكة زندوما إلى حد كبير ، ابتداءً من النصف الثاني من القرن السادس عشر. كما قلنا ، ليس لدى تاريخ الموسّي حاليًا إلاّ القليل يقوله عن نابا زنغرانا ، «الأخ» الأصغر لنابا راوا. ومع هذا ، نجد أثرًا له في أماكن مختلفة من البلاد ، خاصة في منطقة مانغا الجنوبية ، بينما اشتهرت مملكتا راتنغا وزيتنغا الصغيرتان المتاخمتان لياتنغا ، في الجنوب الشرقي ، بأن من أسّسوهما هم أبناء هذا الزعيم المغمور.

في هذه الفترة التي استقرّت فيها أولى الهياكل السياسية للموسّي يمكن أن نميّز خمسة تيارات كبيرة للتغلغل في المنطقة الوسطى من حوض فولتا الأبيض ، ابتداءً من الجنوب : (١) يتعلّق الأول بغرب هذه المنطقة ، مع نابا بسغو ونابا سيلغا ، اللذين عبرا الفولتا الأبيض ، وبسطا نفوذهما على مناطق كمبيزيري

(٣٩) كلمة تنغا تعني بالموري «الأرض» وأيضًا «بلد» ومن ثم كانت تراكيب مثل راواتنغا ، أي «أراضي تنغا» ، وياتنغا أي «أراضي ياديغا» ، وووبرتينغا أي «أراضي ووبري» ، الخ...

ومانغا ؛ (٢) وكان هدف الثاني هو منطقة كوغوبيلا (كوبيلا) ؛ (٣) ويتعلّق الثالث بضفاف بحيرة بام ، حيث استقرّ نابا راتاغيبا مؤسّس الراتنغا ، بينما أسّس أخوه ، نابا زيد والزيتنغا ، على مسافة ليست بالبعيدة ؛ (٤) يستهدف الرابع منطقة بولسا ، مع ناباغيغا ؛ (٥) يصل الأخير إلى قلب المنطقة الوسطى ، حيث نشأت الووبريتنغا التي أسّسها نابا ووبري وتجعل الروايات الشرقية من ناباغيغا أخًا أكبر لنابا ووبري ، استبعد من السلطة لصالح أخيه الأصغر [٤٠] . وقد غزا ناباغيغا بلاد الموسّي الحالية ، وبسط نفوذه في اتجاه الشمال حتى حدود ليبتاكو الحالية [٤١] . ويجدر بنا أن نلاحظ بهذه المناسبة أن تكوينات الموسّي السياسية في الشرق تكوّن معًا شريطًا عريضًا من الأراضي يتجه من الشمال إلى الجنوب على طول حدود الغرمة ، ويبدو تمامًا أن الغرمنكيبا انتظموا منذ هذه الفترة على أساس متين يكفي لكي تضع قاعدتهم الإقليمية حدودًا لا يمكن تخطّيها أمام أطماع الموسّي المتجهة إلى الشرق.

إن نابا ووبري هو مؤسّس الأسرة التي تحكم مملكة ووغودوغو حاليًا ، والتي يحمل ملوكها لقب موغو نابا « زعيم الموغو » ، أي مجموع بلاد الموسّي [٤٢] . ونحدّد الظهور السياسي لنابا ووبري بآخر القرن الخامس عشر (١٤٩٥ وفقًا لافتراض استنتاجي) . ومن ثمّ فإن حكمه ينصرف عمليًا إلى بداية القرن السادس عشر. وقد استولى نابا ووبري على منطقة زنياري التي اتّخذت اسم ووبرتينغا فيما بعد : ويُقال ان مجيئه وضع حدًّا للحروب المستمرة التي كان السكان الأصليون يشنّونها فيما بينهم. ومن ووبريتنغا ، بسط نابا ووبري سيطرته في اتجاه الشرق وشمال الشرق. وحارب سكان لي ، وقادته غزواته إلى ياكو وكودوغو في مناطق كان الموسّي لهم فيها عدة قيادات محلية ، وكان بعضها ملكًا لرواتنغا من قبل. ومات نابا ووبري في لا ، بالقرب من ياكو التي ربما جعل منها آخر مقر له. وقد نُقلت رفاته إلى القرية التي سُميت منذ ذلك الحين يوبريياووغيه (« مكان مقبرة ووبري ») ، بينما وُضعت مخلّفاته في جيلونغو ، ودابوزوجيه ياووجيه ، ولمبيلا ، وهي مناطق توجد فيها مزارات لملوك ووغودوغو. وعند وفاة نابا ووبري ، كانت المملكة التي أسّسها تضمّ كل القيادات المحلية التي تقع في وسط البلاد تقريبًا. وواصل خلفاؤه المباشرون عمل سلفهم ، وبسطوا نفوذهم في اتجاه الغرب بصفة خاصة. وفي عهد نابا نسبثيري ، ثالث أبناء نابا ووبري الذين تولّوا الحكم ، كانت عاصمة المملكة في « لا » حيث مات مؤسّس الأسرة. ورحل أبناء نابا ووبري في اتجاه ياتنغا الحالية : نابا ريمزو الذي أنشأ ولاية غامبو ، وأخوه الأصغر نابا وومتاني ، مؤسّس مملكة غيتي الذي حارب الدوغون واستعبد الحدّادين. وفي الوقت نفسه ، استقرّ زعيم عسكري ، نابا سويدا ، في مينيما ، بالقرب من غرسي ، حيث كان قد استقرّ زعيم آخر قادم من الجنوب ، نابا ورما.

اتّفق تولي نابا كمدومي ابن نابا نينغنمدو وحفيد نابا ووبري مع رحيل نابا باديغا ، ابن نابا نسبثيري ، إلى منطقة غُرسي. ولم يتغلّب نابا ياديغا الذي ربّاه نابا سويدا ، زعيم مينيما ، على نابا كمدومي ، في تنافسهما على السلطة ، فراح يجرّب حظه في مكان آخر ، تصحبه كبرى أخواته ، بابري التي سرقت من أجله ملابس الملك الرسمية التي كانت تحرسها بصفتها نابوكو [٤٣] . ونفترض أن هذه الأحداث وقعت عام

---

(٤٠) إبعاد الأخ الأصغر لأخيه الأكبر شكّل كثيرًا ما نجده في بلاد الموسّي ، في الروايات الأصلية للقيادات الإقليمية.

(٤١) لنذكر أن الليبتاكو امارة فولبي عاصمتها دوري ، تكوّنت بعد الفترة التي ندرسها هنا بفترة طويلة. ويظن أن سكان هذه المنطقة التي تقع شمالي فولتا العليا كانوا من السونراي ، والكورمبا ، والغرمنكيبا.

(٤٢) يطلق الموسّي (موسى ، المفرد موسي أو موغا) كلمة موغو على مجموعة البلاد التي يسيطرون عليها ، ويعتبرون بلاد الموسّي أنها « العالم » بأسره.

(٤٣) عندما كان يموت ملك أو زعيم من الموسّي ، كانت تتولّى السلطة ، بالنيابة ، الابنة الكبرى للمتوفي التي تحمل لقب

١٥٤٠ . وكما قلنا ، هذا هو تاريخنا المحوري الثاني في تأريخ الموسّي . ولقد لعب نابا كمدومي دورًا هامًّا للغاية في تكوين الممالك الحالية . وتحت قيادته ، بلغ تقدّم الموسّي الذروة ، وتوغّل هؤلاء توغّلاً عميقًا - لكنه لم يدم - في بلاد الغرونسي . وخلفاء نابا كمدومي المباشرين هم أصل الممالك الحالية الآتية : كنكستنغا ، ويـاكو ، وتيما ، وماني ، وبوسوما . وفي الجيل السابق ، كانت أسرة بولسا الحالية قد تأسّست على يد ابن لنابا ووبري ، هو نابا نامندي ، الذي تلقّى بالتالي جزءًا من ميراث ناباغيغما السياسي . وأسّس ابن لنابا نامندي ، نابا كوريتا[٤٤] ، مملكة كوغوبيلا . ويجب أن نضع في جيل أحفاد نابا ووبري أيضًا تأسيس مملكة كاياوو ، على يد نابا ييلليكو ، ابن نابا نسبثيري ، أي أخو نابا ياديغا من أبيه . وفي ظل نابا كودا ، ابن نابا كمدومي (النصف الثاني من القرن السادس عشر) ، اتّخذ وسط بلاد الموسّي شكله النهائي : وكانت المبادرة الرئيسية التي قام بها هذا الملك ، آخر «موغو نابا» ، في الفترة التي نحن بصددها هنا ، هي إرسال ابنه نابا تسانغو ، مؤسّس مملكة تاتنغا الحالية ، إلى هضبة رِسيام .

عندما بلغ نابا ياديغا منطقة غُرسي ، كانت أراضي ياتنغا الحالية قد شهدت غرس عديد من ولايات الموسّي . كانت القوة السياسية الرئيسية في المنطقة هي مملكة زندوما ، وهي صورة من راواتنغا ، في الشمال . لكن ، كانت تنافسها تكوينات أخرى أولها مملكة غيتي . وفي الجنوب الغربي ، على حدود بلاد الموسّي الجديدة وبلاد سامو ، لم تكن قيادتا مينيميا وغُرسي سوى ولايتان رئيسيتان من سلسلة من مواقع الموسّي المحصنة التي تكوّنت حولها قيادات اقليمية صغيرة . ومنذ أن وصل إلى غرسي ، عمل نابا ياديغا على تحييد ابنه بالتبني ، نابا سويدا ، وتحالف مع زعيم غرسي ، نابا ورما ، ومدّ غزواته في اتجاه بلاد سامو . وعندما ثبتت أقدامه في غُرسي[٤٥] ، أنشأ نابا ياديغا منطقة سكنية أخرى في لاغو . وفي ظل الابن الثاني لنابا ياديغا ، نابا جيدا (نهاية القرن السادس عشر) ، تحرّرت مملكة ياتنغا الشابة نهائيًا من كل رباط يربطها بمملكة ووغودوغو[٤٦] . ومنذ ذلك الحين ، أصبح لكل من مملكتي الموسّي الكبيرتين ، مملكة ووغودوغو ومملكة ياتنغا ، مصير منفرد . وكوّنت المملكتان القطبين الكبيرين المهيمنين في بلاد الموسّي . وكانت تحيط بكل منهما ممالك صغيرة تابعة تكوّن منطقة نفوذها .

وباختصار ، تطوّر تاريخ ممالك الموسّي الذي بدأ في النصف الأول من القرن الخامس عشر أو في منتصفه ، في الفترة التي نحن بصددها ، في مراحل رئيسية ثلاثة : (١) مرحلة النضج (النصف الثاني من القرن الخامس عشر) ؛ (٢) مرحلة الغزو (النصف الأول من القرن السادس عشر) ، (٣) مرحلة الاستقرار (النصف الثاني من القرن السادس عشر) .

نابوكو ، ومعناه حرفيًا «الزعيم - المرأة» ، وذلك فيما بين الإعلان الرسمي عن الوفاة (وهو مختلف عن لحظة الموت الفعلي) ، وتعيين خلف الملك أو الزعيم ، والنابوكو بديل لوالدها وهي ترتدي ملابسه .

(٤٤) الكوريتا هو ممثل زعيم ميت بين الأحياء ، وكلمة كوريتا التي تعني «الميت الحاكم» مبنية على ناريتا «الزعيم - الحاكم» . وعادة ما يختار الكوريتا من بين أبناء الزعيم المتوفي . وهو لا يملك أي سلطة نتيجة للقبه ومستبعد من الخلافة لكنه يستطيع أن يصبح زعيمًا خارج ولاية أسرته ، واذا أصبح الكوريتا زعيمًا ، احتفظ «باسم الحرب» (زاب يوري) لنابا كوريتا .

(٤٥) اليوم ، منطقة هامة في جنوب - غرب ياتنغا ، ويبدو أن غُرسي كانت مركزًا اقتصاديًا هامًا في فترة مبكرة للغاية ، ومركزًا حرفيًا وتجاريًا ، ومحطة لتجارة القوافل .

(٤٦) كان مؤسس الياتنغا ، نابا ياديغا ، يملك شعارات نابا ووبري الملكية ، التي سرقتها كبرى أخواته ، النابوكو بابري ، لكن ، يُقال إن بابا كوريتا ونابا جيدا ، سلفيه المباشرين ، نصبا في لاي التي كانت آنذاك مقر إقامة ملوك ووغودوغو .

النظام السياسي للموسّي

لن نقدّم هنا سوى لمحة سريعة عن نظام الموسّي السياسي. فبالفعل، نحن لا نعرف جيدًا تاريخ مؤسسات الموسّي، ولا يمكن أن نرسم خطوطه التوضيحية إلاّ ابتداءً من نهاية القرن الثامن عشر بالنسبة لياتنغا، وبداية القرن التاسع عشر بالنسبة لمملكة ووغودوغو. والواقع أن المعلومات الثرية التي جمعت والخاصة بتنظيم ممالك الموسّي – بدأت عملية الجمع هذه عام ١٩٠٧ – لا تمكّننا إلاّ من وصف الطريقة التي كانت تعمل بها المؤسّسات العامة في نهاية الفترة السابقة مباشرة للاستعمار. والواقع الأساسي الذي يبرزه نظام الموسّي السياسي – ويتفق كل المراقبين في هذه النقطة – هي التفرقة في المجتمع بين من يملكون السيطرة على الأرض (تِنغسوبُندو) ومن يملكون السلطة (نام). يمثّل الفريق الأول سكان البلاد الأصليين الذين يدعون أيضًا «أهل الأرض» أو «أبناء الأرض». ويمثّل الفريق الثاني الموسّي، من حيث المبدأ، وإن كان توزيع المهام في هذا الصدد، بين السكان الأصليين والغزاة لا يخلو دائمًا من الغموض واللبس. وفيما يتعلّق «بأهل السلطة»، يجب على الأقل أن نضيف إلى الموسّي بالمعنى الدقيق للكلمة (أي إلى نسل نابا ودراووغو) أسرى أو عبيد البلاط الملكي، وأغلبهم من أصل خارجي. وترتبط التفرقة بين السكان الأصليين والغزاة، أو بين «أهل الأرض» وبين «أهل السلطة»، مباشرة، بتلك التي تفرّق بين «سيد الأرض» (تنغسوبا) وبين «الزعيم» (نابا). ولها أيضًا صدى على الإيديولوجية الدينية، لأن أهل الأرض كما يدل اسمهم، مرتبطون بعبادة الأرض، في حين يعترف أهل السلطة بالسّيادة الإلهية لوندي، وأصله سماوي، وربما شمسي. وتشير وحدة المجتمع، حيث يرتبط المقدس بالسكان الأصليين وترتبط السلطة بالغزاة، إلى الوحدة التوفيقية بين نابا وندي (نابا = الزعيم) وناباغا تنغا (ناباغا: زوجة الزعيم).

ونحن لا نعرف جيدًا هوية السكان السابقين للموسّي، باستثناء ما يتعلّق بياتنغا التي كتب تاريخ تعميرها[٤٧]. وعلى ما يبدو يمكن تحديد ثلاث مجموعات كبيرة بين السكان الأصليين: السكان الذين يدعون غُرنسي، ولغتهم لغة فولتائية الأصل أو غور، ويمكن أن نربط بهم الكورُمبا على أساس التقارب اللغوي بينهما بالذات، ويكون الكورُمبا الذين يسميهم الموسّي فولسي القوام الرئيس السابق للموسّي في ياتنغا؛ الدوغون (كِبسي بالموري)، ويبدو أن موطنهم القديم امتدّ باتساع كبير في بلاد الموسّي، فيما مضى، لكنهم أصبحوا الضحايا الرئيسيين لقيام السلطة الجديدة نظرًا لمقاومتهم المسلّحة للغزو، جماعات الماندية، والمجموعتان الرئيسيتان منها هما السامو (نيميزي) والبيزا (بوزاري)، وهما منفصلتان اليوم اقليميًا، لكن ربّما كان أصلها مشتركًا. وكان السكان الأصليون، سادة الأرض وهم المكلّفون بطقوس الخصوبة السنوية. ففي الباتنجا مثلاً، لا يستطيع الملك المعين حديثًا، والذي يحمل عندئذ لقب نابا (ياتنغا نابا) كأي حائز للسلطة أن ينصّب إلاّ بعد تقديم، تضحيات على مذابح معينة ومخصّصة للأرض. عندئذ يكتسب الحق في لقب ريما، مما يعطيه الحق في أن يُدفن في المقبرة الملكية وأن يطالب أبناؤه أو الريمبيو – بالعرش من بعده.

وإذا اكتفينا بمثال ياتنحا وحده، وجدنا أن مالكي السلطة، فيما عدا الملك نفسه موزّعون على فئات ثلاثة: رجال البلاط الملكي (نايبريد مبا)؛ «سادة الحرب» (تاسوبانمبا)؛ وأعضاء السلالة الملكية أو ناكومبسي، وهم المجموعة التي يخرج الملك من بينها. ويمكن أن يكون رجال البيت الملكي أو خدم

(٤٧) أنظر م. ايزار، ١٩٦٥.

الملك ، وكذلك سادة الحرب إما من الموسّي أو من أسرى ملكيين. وينتمي من ينحدر منهم من أصل موسّي إلى أسر زعماء قديمة ، غالبًا ما يرجع أصلهم إلى التشكيلات السياسية السابقة العهد بالنسبة للياتنغا (مملكة زندوما مثلاً). هكذا يختار الملك ، من بين الموسّي البعيدين عنه من حيث النسب بدرجة كبيرة أو من بين الأسرى ، الرجال الذين تستند إليهم سلطته مباشرة ، بينما يصبح أقرباؤه الناكومبسي ، بالأحرى ، أولئك الذين تمارس ضدهم هذه السلطة. وكان اليانغا نابا يقيم في أحد المقار الملكية الأربعة في البلاد ، تحيط به زوجاته وخدمه ، سواء كانوا من الموسّي أم من الأسرى. ويكوّن خدم الملك أربع هيئات تختص كل منها بمقر ملكي. ويرأس كل هيئة موظف كبير يُدعى نيسومدي (جمع : نيسومبا). ويوجد اذن ، لكل بلاط ، مجمع مكوّن من أربعة نيسومبا ، وثلاثة منهم من أصل موسّي (توغو نابا ، بالوم نابا ، ورَنغا نابا) ، وواحد أصله أسير (بين نابا أو رسم نابا). ومجمع الناسومبا المكوّن من كبار الموظّفين الذين يعيّنهم الملك ، والملحق بمقر الإقامة الملكي الفعلي ، هو بمثابة حكومة حقيقية للمملكة ، وعندما يموت الملك ، يلعب دور هيئة انتخابية ، حيث أنه مكلّفا باختيار الملك الجديد من بين المرشّحين للعرش ، في نظام لنقل السلطة يجهل كل قواعد النقل الآلي. ونقل السلطة من الأخ الأكبر إلى الأخ الأصغر يؤدي ، في الواقع ، إلى السماح لأي ابن للملك أن يرشّح نفسه ، أو بعبارة أدق ، يسمح لكل أخ أكبر لمجموعة من الأخوة المنحدرين من ملك واحد بأن يرشّح نفسه. ويدل تاريخ الياتنغا في القرن التاسع عشر ، وهو معروف جيدًا ، على أن تساهل عادات الموسّي ، فيما يتعلّق بنقل السلطة ، قد أدى بانتظام إلى إثارة الأزمات الأسرية ، مما أفضى إلى حروب أهلية حقة بين العصب المتعادية المنتمية إلى النسب الملكي. ويمكن أن نعتقد ان الموسّي دخلوا داخل حدودهم في صراع مستمر على السلطة ، بعد فترة الغزوات الخارجية ، على الرغم من تزايد مركزية السلطة والأهمية التي اكتسبها جهاز الدولة أكثر فأكثر وذلك على حساب طبقة النبلاء التي تقدّم المرشّحين للعرش.

وإذا انتقلنا من طرف بلاد الموسّي إلى طرفها الآخر ، يمكن أن نلاحظ ، بالطبع ، أنه توجد متغيّرات عديدة في تفاصيل المؤسّسات. لكن ، ما يلفت النظر ، فيما وراء هذا القول ، هو الوحدة اللغوية والثقافية الملحوظة للمجتمع الموسّي ، على الرغم من تعدّد عناصره تاريخيًا. أكثر من هذا ، تظهر هذه الوحدة في تماسك ايديولوجية السلطة ، وعمق الفلسفة السياسية. ونحن هنا أمام احدى الحضارات الكبرى في غرب افريقيا.

سكان حوض أنهار الفولتا ، الذين لا يملكون نظامًا سياسيًا مركزيًا

هنا أيضًا ، يبدو أنه من الصعب علينا أن نتوسّع في الحديث عن قضايا تتبع فعلاً المعرفة التاريخية ، لكنها مجهولة للغاية. لدينا ، طبعًا ، صورة متماسكة لمجتمعات حوض أنهار الفولتا التي لم تعرف الدولة ، لكنها صورة معاصرة. ما زال التاريخ هنا في أغلب الأحيان بصدد التكوين. وفي أغلب الأحيان يجعل انعدام وجود هيكل للدولة ، في فترة ما قبل الاستعمار ، من تاريخ المجتمعات العرقية هذه أو جماعات القرى ، مجرد مسح إحصائي للهجرات المتأخرة في (القرن التاسع عشر) ، أو – لكننا نعود عندئذ إلى المجتمعات التي عرفت الدول – إلى آثار سياسة الغزو والإدماج الحضاري التي تتبعها الممالك المجاورة على

هذه المجتمعات. وفي الغالبية العظمى من الحالات، لا يسمح ما نعرفه حاليًا عن المجتمعات التي لم تعرف الدولة، نظرًا لنقص البحث المنتظم بلا شك، بالرجوع إلى ما قبل نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر: إذ توجد بين التاريخ الحديث وأساطير التأسيس، عادة، ثغرة هائلة على المؤرّخين أن يحاولوا سدّها. بعبارة أخرى، إذا كنا نقدّم هنا بعض المجتمعات، فلا يمكننا الحديث عن تاريخها، في الفترة التي نحن بصدد دراستها هنا (القرن الثاني عشر – القرن السادس عشر).

وما دمنا قد ركّزنا هذا البحث على تاريخ ممالك الموسّي، فإن ابتداءنا بالمجتمعات التي يُطلق عليها مجتمعات «الفولتا» أو غور – وهذه تسمية ترجع بالتحديد إلى تصنيفات لغوية – أمر مشروع، فيما يبدو.

لقد دُرست لغات الغور دراسة مستفيضة، لكنها دُرست من منظور تصنيفي أكثر منه من ناحية منشأها، في الواقع. وندين لجبرييل مانيسي[48] بقائمة معلوماتنا عن هذه الأسرة اللغوية الهامة. وتضم مجموعة الغور عددًا كبيرًا من اللغات التي يتكلّمها الناس اليوم في فولتا العليا ومناطق شمالية كبيرة في ساحل العاج وغانا، وتوجو، وبنين. ويقسم دي لا فيرني دي تريسان[49] لغات الغور إلى ثلاث مجموعات فرعية: موري، ولوبي – بوبو، وسنوفو. وتشتمل مجموعة الموري على اللغات الآتية: الموري، والغرمة، والتم، والغورونديي. ويعزل وسترمان وبريان[50] – كما فعل المؤلّف سالف الذكر – مجموعة فرعية للسنوفو. لكنهما ينوّعان كثيرًا المجموعات الفرعية الأخرى. وهكذا يعزلان الكولانغو، واللوبي – دوغون (لوبي، بوبو، دوغون)، والغروسي، والغرمة، والتم، والبارغو، والموسّي، بدورها. ويربطون الموسّي بمجموعة من اللغات التي تشتمل، علاوة على الموسّي بحد ذاتها، على الداغومبا، والننكنتزي، والتالنزي، والوالا، والدغاري، والبريفو، والنمم. ويقترح جرينبيرج[51] تصنيفًا قريبًا من التصنيف السابق، وذلك بتقسيم أسرة الموسّي – الغرنسي الفرعية أو الغور إلى سبع مجموعات فرعية: سنوفو، موسّي – غرنشي، تم، بارغو، غرمة، كيلنغا. ويري كوهلر[52] الذي أعاد مانيسي تشكيل تصنيفه، نواة مركزية للغات الغور التي يقسمها إلى ثلاث مجموعات: موسّي – داغومبا (ممبروزي، داغومبا، موسّي، لغات الآتاكورا)، وغروسي (غروسي شرقية: كبريه، تم، كالا؛ غروسي غربية؛ غروسي شمالية: كورمبا) وغرمة. ويدخل كوهلر أيضًا في لغات الغور السنوفو والباريبا، وعددًا من اللغات المتبقية من توجو والدوغون، وهي لغات تقترب مفرداتها من مفردات لغة الغور، وإن كان نحوها مندنغي النمط.

وعلى الرغم من أن المتخصصين أبعد ما يكونون عن الاتفاق الإجماعي فيما بينهم – وهم لا يقدّمون أبدًا مجموعة من المعايير القطعية التي يقيمون عليها تصنيفاتهم – فإنه يمكن بصفة عامة أن تميّز داخل لغات الغور، مجموعة هامة من لغات الموسّي تشتمل على ثلاث مجموعات فرعية: موسّي، وداغومبا، وبيريفو – داغاري – ويليه. تشتمل مجموعة داغومبا الفرعية على الداغومبا، والممبروزي، والنانومبا، والننكانا، والتالنزي، والكوزازي. وتفضي مشكلات التصنيف هذه إلى مشكلات أكثر تعقيدًا تتعلّق

(٤٨) ج. مانيسي، ١٩٦٣.
(٤٩) دو لافريني دو تريسان، ١٩٥٣.
(٥٠) د. وسترمان وم. أ. بريان، ١٩٧٠.
(٥١) ج. جرينبيرج، ١٩٥٥.
(٥٢) أ. كوهلر، ١٩٥٨، وبحث لم يُنشر (بلا عنوان) ذكره مانيسي، ١٩٦٣.

بنشأة بعض اللغات عن البعض الآخر ، وهو مجال لم يأتِ فيه علم تتابع اللغات في الزمان إلاّ بالنزر اليسير. ومجرّد تجميع اللغات للتقارب بينها يبيّن ، على الأقل ، أن اللغات المتقاربة فيما بينها يتكلّمها الناس بلا تمييز في المجتمعات التي عرفت الدول والمجتمعات التي لم تعرفها على السواء. على سبيل المثال ، الموري (لغة الموسّي) لغة قريبة جدًا من الداغاري. وفي أحسن الحالات ، يمكن أن نلاحظ أن توحيد الدولة يترتّب عليه عادة ظهور اللهجات بشكل ضعيف ، بينما يقابل النظم السياسية اللامركزية تعدّد اللهجات إلى حد كبير. علاوة على أن التصنيفات اللغوية تنتهي إلى طرح القضية الآتية : تحملنا بعض المؤشّرات على أن نعتقد أن الغزاة الأجانب فرضوا لغتهم على من غزوهم ، واضطر هؤلاء إلى التخلّي عن لغاتهم الخاصة وقد ساد هذا الاعتقاد فيما يتعلّق بالموسّي. هل حدث هذا فعلاً؟ أم أن الظاهرة العكسية هي التي حدثت؟ أي أن أهل الأرض هم الذين فرضوا ثقافتهم على أهل السلطة بطريقة ما؟ عندما نتمكّن من الردّ بالتحديد على هذا السؤال ، سنكون بلا شك قد خطونا خطوة هائلة في سبيل فهم البعض من العمليات الأساسية التي أُقيمت بها النظم المركزية الافريقية.

إذا نظرنا إلى مجموعة لغات الغور الواسعة ، أغرانا ذلك بالانتقال من تصنيف حسب اللغات إلى تصنيف حسب الثقافات. يفترض مثل هذا الانتقال أن بعض القضايا المنهجية التي لم تحل بصفة عامة قد حلّت فعلاً. مما يفسّر لنا معرفة لماذا كانت محاولات ديلافوس[٥٣] ، وبومان ووسترمان[٥٤] ، ومردوخ[٥٥] لا تأتي في الجملة بالنتائج المرجوّة. فضلاً عن أنه يجب أن نتنبّه إلى أن المجال الثقافي والمجال اللغوي ، في مناطق فولتا العليا ، لا تتطابق تطابقًا دقيقًا. فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يتكلّم البوالفة من لغات الغور ، لكن ثقافتهم ثقافة مانديه ، شأنهم شأن جيرانهم البوبو الذين يتكلّمون لغة المندانغ.

وقد قدّم أوزوالد كوهلر الذي سبق أن ذكرناه[٥٦] صورة كاملة للغاية لمجتمعات حوض أنهار الفولتا. لكن التجميعات التي أجراها ظلت قريبة جدًا من تصنيفه اللغوي. فهو يطلق اسم «غروسي الشمال» على الكورمبا ، بينما يبعد هؤلاء كثيرًا ، من الناحية الثقافية ، عن مجموع السكان الذي يطلق عليهم علماء الأنثروبولوجيا اسم «غرنسي» ، والذين يحتلون أراضي واسعة في غرب بلاد الموسّي. أما القائمة التي وضعها ج. لي موال[٥٧] ، فتمتاز بأنها خالية من الآراء المسبقة في التصنيف ، وهي ، وان كانت أقل نمطية بشكل مقصود ، إلاّ أنها مبنية حقًا على تناول انثروبولوجي للمجتمعات.

ومن بين سكان حوض أنهار الفولتا ، يميّز ج. لي موال ، على أساس من التجميعات الثقافية والاقليمية ، مجموعات الموسّي ، والغرنسي ، والبوبو ، والمانديه ، والسنوفو ، ويجمع سكان جنوب غرب فولتا العليا الحالية تحت اسم مشترك.

يجب أن نربط بالموسّي السكان السابقين لهم الذين احتفظوا بهويتهم إلى حد ما. هذا هو حال الكورمبا ، الذين أسّسوا بالتأكيد ، مع مملكة اللوروم ، تكوينًا سياسيًا يشتمل على العناصر الأولية لمركزية السلطة ، ضمن سياق مبدئي هو سياق : «المَلَكية المقدسة». وتحت تسمية الفولسي ، ينتمي الكورمبا إلى مجموعات أهل الأرض في ممالك الموسّي خاصة في ياتنغا ، شأنهم في ذلك شأن «الماراسي» ، وهم من الصنغي ، و«اليارسي» ، وأصلهم أساسًا من المانديه ، أو الكمبوزي ، وأصلهم من البمبرة أو الدافنغ أو

(٥٣) م. ديلافوس ، ١٩١٢.
(٥٤) هـ. بومان ود. وسترمان ، ١٩٤٧ ، بالنسبة للترجمة الفرنسية.
(٥٥) ج. ب. مردوخ ، ١٩٥٩.
(٥٦) أ. كوهلر ، ١٩٥٨ ، (لم تنشر).
(٥٧) ج. لي موال ، ١٩٦٣.

الديولا. ومع الغرنسي، نترك مجال الدول. من وجهة النظر الكلاسيكية، يطلق علماء الانثروبولوجيا اسم «غرنسي» على المجتمعات الستة الآتية، ذات الأسس المجزأة: ليلا، ونونا، وكازينا، وسيسالا، وكو، وبوغولي. وترتبط بهم مجتمعات أقامت على الحدود الحالية لغانا، وفولتا العليا، مثل التالنزي، والكوزازي والننكنزي. ويمكن أن نقول إنهم مستقلّون ثقافيًا بالنسبة للتكوينات المجاورة ذات الدولة، وان كانوا مجتمعات تابعة، من وجهة نظر هذه الدول. وأصبح من المعروف، منذ أن ظهرت مؤلّفات ماير. فورتس[٥٨]، ان هذه المجتمعات الأخيرة قدّمت للنظرية الانثروبولوجية نموذج النظام السياسي المسمى «المجزّأ والمقام على النسب» ويتكوّن السكان الذين يدعون «بوبو» (يمكن ان نضيف إليهم البورون وأصلهم من الماندية) أساسًا من البوا (كانوا يدعون فيما مضى بوبو – وَليه)، والبوبو بمعنى الكلمة (البوبو – فنغ فيما مضى). ويقوم التنظيم السياسي، في هذه المجتمعات التي يلعب داخلها تلقين الأسرار المرتبط بعبادة الدو دورًا هامًا، يقوم على وجود جماعات قروية مستقلة. وكذلك الأمر بالنسبة للسامو والبيزا، من ناحية، والدافنغ أو الماركا من ناحية أخرى. وتمتدّ بلاد الدافنغ من وادي سورو، في الشمال، إلى منطقة بوبو – ديولاسو في الجنوب. والدافنغ مسلمون بينهم أقليات كثيرة احتفظت بديانتها التقليدية، وتجار، ومحاربون، وهم أصل إنشاء عديد من الدويلات المركزية. وطريقة دخولهم تاريخ وادي الفولتا الأسود تماثل طريقة دخول الديولا تاريخ المنطقة التي تقع بين بوبو – ديولاسو وكنغ. وأخذت المجتمعات ذات القرابة من السنوفو، مثل الكارابورو والتوسيا والتركة، والجوى، والوارا، عناصر كثيرة من الثقافة التي ترجعهم إليها. فمثلاً، للتوسيا جماعة سرية، اللو، لها خواص قريبة من خواص البورو.

وتحت الاسم الإقليمي «سكان الجنوب الغربي»، يجمع لي موال بصفة خاصة الويلية، والداغاري، والبيريفو، واللوبي، والضيا، تنتمي هذه الشعوب أصلاً إلى غانا الحالية، وقد عبرت الفولتا الأسود، بموجات متتالية، ابتداءً من القرن السادس عشر. وكان الويليه أول من جاء، فطردوا البوغولي. ثم، جاء الداجاري، وهم قريبون من الويليه لغويًا وثقافيًا. لكن نظام خط النسب الصلبي لديهم نظام ثنائي، بينما نظام الويليه أبوي الجانب. وجاء البيفيرو في الوقت نفسه الذي جاء فيه الداغاري، أي بعد اللوبي. ونظام خط النسب الصلبي لديهم يمكن أن يقارن بنظام الداغاري. وللوليه، والداغاري، والبيريفو، لغة تنتمي إلى مجموعة الموسّي. فضلاً عن أنهم يتميّزون بأهمية تلقين أسرار الباغر في حياتهم الاجتماعية. وأخذ البيريفو عن اللوبي، جيرانهم المباشرين، عددًا من السمات الثقافية. وعند اللوبي، تغلّب عناصر النسب الأموية إلى حد كبير على سمات النسب الأبوية. وتلعب أهمية تلقين أسرار الديورو دورًا أساسيًا في السيطرة الاجتماعية. والضيا قريبون من اللوبي، وعبروا الفولتا الأسود معهم في الوقت نفسه تقريبًا. ولشعوب الجنوب – الغربي تنظيم سياسي مجزأ، وان لم تظهر عندهم، على عكس ما نجد عند الغرنسي، أشكال لمركزية السلطة الخاصة بالمَلَكية المقدسة.

وإلى جانب مجتمعات المزارعين هذه، يجب ألاّ ننسى أيضًا أنه توجد، عند منعطف النيجر وحوض أنهار الفولتا الأعلى مجتمعات رعوية من الفولبي والطوارق. وقد كوّن الفولبي الذين نجدهم في وادي الفولتا الأسود ووادي السورو، وسهل غندو، والجلغوجي، والليبتاكو، واليوغا، عديدًا من الولايات المحلية (دكوى، في وادي الفولتا الأسود، وباراني، في وادي السورو، وجيبو، وبارابول وتنغومايل في الجلغوجي). وهم أصل دولة ليبتاكو. لكن، هنا أيضًا، لا يمكن أن نرسم الخطوط الأولى لتاريخ

(٥٨) م. فورتسن، ١٩٤٠.

تكوينات الفولبي التاريخية إلاّ بالنسبة لفترات أحدث – ابتداءً من القرن السابع عشر والثامن عشر – من تلك التي نتحدّث عنها في هذا الفصل.

معالجة اقتصادية

تسيطر على جزء كبير من المنطقة التي نحن بصددها هنا، بالنسبة لزراعات الإعاشة، زراعة الذرة البيضاء التي تستبدل بأنواع برية ومزروعة من الفونيو، في الشمال والجذور الغذائية (البطاطا) في الجنوب. ولا شكّ أن القطن من نوع Gossypium - Punctatum – وهو ما زال معروفًا حتى اليوم – كان يزرع منذ تاريخ طويل للغاية في مناطق الأعشاب ذات الشجيرات الجافة. والأمر المؤكّد هو أن النسيج كان شائعًا، في الفترة التي أُنشئت فيها ممالك الموسّي الأولى، على الرغم من أن الملابس الطويلة كانت مقصورة على الزعماء. ويرتبط اليارسي القادمون من مندية الغربية بعملية النسيج هذه. وتقول روايات اليارسي الشفوية في مملكة ووغودوغو أن نسّاجًا صنع لنابا ووبري زيًّا مكوّنًا من قميص، وسروال، وطاقية. وحرفة الصباغة قديمة قدم حرفة النسيج، ومكمّلة لها. وكانت من تخصّص الصنغي. وكان النباتان الأساسيان اللذان تؤخَذ منهما مواد الصباغة هما شجرة النيلة وشجرة من فصيلة Anogeissus lecocarpus تعطي صبغة لونها أصفر كاكي.

كانت تربية الأبقار هي عمل رعاة الساحل الغولب. وكان المزارعون لا يربّون إلاّ حيوانات مرتبطة بفناء بيت الأسرة، كالأغنام، والماعز، والطيور. ويجب أن نذكر بصفة خاصة تربية الحمير والخيل التي لعب فيها شمال بلاد الموسّي الحالية دورًا هامًا منذ القدم. فعلى سبيل المثال، كانت الياتنحا تصدّر الحمير إلى وسط بلاد الموسّي وجنوبها. واشتهرت المناطق الشرقية من هذه المملكة بجودة خيولها الدنقلاوي التي يرجع أصلها البعيد إلى صعيد مصر. وفي حين كان الجواد، وهو حيوان الحرب النموذجي، – كان الحمار هو حيوان القوافل خاصة – ممثّلاً بخمسة أجناس، وهي التي مصدرها الياتنغا، والجلغوجي، وبلاد الكورمبا، وسهل غندو، وباراني[٥٩].

وكانت الصناعتان المحليتان اللتان ترتبطان عادة هما التعدين وصناعة الفخار. وهنا أيضًا، تميّزت الياتنغا عن باقي بلاد الموسّي بكثرة ما فيها من خام الحديد المرتفع للغاية بمحتواه النسبي، لكن خام الحديد يوجد أيضًا في غرب فولتا العليا الحالية كله.

ونحن لا نعرف شيئًا تقريبًا عن التاريخ القديم للتجارة البعيدة المدى والتي تكفل بها اليارسي في حوض أنهار الفولتا. لكن، يبدو أنها كانت موجودة عندما وصل الموسّي، حتى لو كانت قد شهدت فيما بعد تطوّرًا هامًا مع تكوين الدول. وفي هذا الصدد، توجد علاقة مباشرة بين تقدّم التجارة البعيد المدى والتمكّن من تقنيات صناعة النسيج. فكان اليارسي، وهم تجار ونساجون، يستخدمون بالفعل أطوالاً من قماش القطن الأبيض أو المصبوغ كسلعة تبادل محلية، في التبادل بين الأقاليم، وكان هذا التبادل يتم وفقًا لخط ذهاب واياب يتجه من الشمال إلى الجنوب. كان الشمال يقدّم الملح الصحراوي في شكل ألواح، وكذلك السمك المجفف والحصير. وكان الجنوب يقدّم جوز الكولا. وكانت أصداف الودع هي عملة

(٥٩) أنظر دو فرانكو، ١٩٠٥.

التبادل (الثقيلة : Cyprea annulus والخفيفة : Cyprea moneta) وربما تحدّدت قيمتها بالنسبة للذهب في فترة مبكّرة. وعمليًا ، كانت تُعرف عدة معايير لتقييم البضائع . كان ذراع قماش القطن يُستخدم كوحدة حسابية بالنسبة للبضائع العادية. بينما كانت الخيول ، مثلاً ، تُدفع في العادة مقابل الأسرى. وكان الحدّادون في مراكز التعدين يقومون بأنفسهم بالاتجار في المنتجات النهائية (الأدوات والأسلحة) ، أو كرات الحديد المخصّصة للحرف الدقيقة. ويمكننا تأريخ التعمير من إبراز قدم بعض الأماكن التجارية. وفي غياب المعطيات الأثرية القديمة ، فإن ما يمكن أن يُقال عن اقتصاد حوض أنهار الفولتا ، من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، ليس للأسف إلاّ تقديرًا افتراضيًا ، مبنيًا على المعطيات التي جمعها الرحّالة الأوروبيون في القرن التاسع عشر. وهذا اتجاه رئيسي للبحث يجب استكشافه.

الفصل العاشر

ممالك تشاد وشعوبها

بقلم ديرك لانجي

كان الجزء الأكبر من اقليم بحيرة تشاد تحت سيطرة مملكة كانم العظيمة في القرن الثاني عشر. ولا بدّ أنه منذ ذلك الوقت كانت هناك ممالك أخرى في هذا الإقليم، غير أن غالبية السكان كانوا يعيشون في صورة عشائر ومجموعات عرقية مستقلة. وعرف الرحّالة والجغرافيون العرب مملكة كانم في وقت مبكر، وتعدّت شهرة المملكة بكثير شهرة الكيانات السياسية الأخرى الواقعة فيما بين نوبة وادي النيل، والكاوكاو المقيمين في منعطف النيجر. وفي ضوء المصادر الموجودة والمعلومات المتوفّرة لنا، كان مما لا بدّ منه في هذه الدراسة التركيز على التنمية الداخلية لدولة كانم. ولهذا سيرد الحديث عن السكان المقيمين داخل المملكة أكثر منه عن المقيمين خارجها والذين لم يلفتوا نظر المؤرّخين والذين لا تتوافر لدينا عنهم سوى معلومات ضئيلة.

وقد جاء ذكر مملكة كانم في مصادر خارجية مختلفة منذ القرن التاسع، ولكنها ذكرت أيضًا في مصدر داخلي هو ديوان سلاطين كانم – بورنو. وترجع بداية كتابة الديوان على أغلب الظن إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر. ففي هذا العصر بدأ مؤرّخو الديوان الملكي بتدوين بعض المعطيات عن تاريخ الأسرة المالكة وهي معلومات كانت تتناقل قبل ذلك شفاهة. ولكن قبل انتقال المؤرّخين إلى أحداث زمنهم، حرصوا على تدوين وتسجيل أهم عناصر هذا التراث المنقول الذي يرجع العهد به إلى نهاية القرن العاشر. وتواصل بعد هذا استكمال الكتاب حتى نهاية أسرة السيفيين في القرن التاسع عشر: وكان يُضاف عند موت أي ملك فقرة تُخصَّص للعهد الذي حكم فيه. وكان يمكن أن تودّي هذه الطريقة في التأليف، بعد ستة قرون، إلى وضع كتاب ضخم، أما الواقع فان الديوان لا يضم في شكله الراهن، سوى خمس صفحات ونصف. ولا جدال في أن الديوان يقدّم لنا أولاً وقبل أي شيء معلومات عن تاريخ الأسرة الملكية في كانم – بورنو، ولكن يمكن استخلاص بعض المؤشرات منها بشأن جوانب أخرى من تاريخ وسط السودان[1].

(١) د. لانجي، ١٩٧٧.

ومن ناحية أخرى لدينا معلومات زوّدنا بها بعض الجغرافيين العرب. ومن أهمها على وجه التخصيص بالنسبة لتاريخ وسط السودان ما جاء في كتب الإدريسي (١١٥٤)[٢] وابن سعيد (المتوفي في ١٢٨٦)[٣] والمقريزي (المتوفي في ١٤٤٢)[٤]، وهاتان المجموعتان من المعلومات تتكاملان إلى حد كبير : فالمؤرّخون الافريقيون يقدّمون لنا الإطار الزمني ، والجغرافيون العرب يصفون لنا البعد المكاني.

أسرة السيفيين

ذكرنا في المجلّد السابق أن اقليم كانم كان خاضعًا عدة قرون لسلطان الزغاوة[٥]. وانتهت هذه السيطرة في منتصف القرن الحادي عشر بمجيء أسرة جديدة هي أسرة السيفيين التي أخذت هذا الاسم لزعمها الانتساب إلى البطل اليمني سيف بن ذي يزن.

ومؤسّس هذه الأسرة هو «حماي» (١٠٧٥ – ١٠٨٠) وثمة مؤشرات كثيرة تدل على أنه من أصل بربري. وإذا أخذ في الاعتبار اسمه المشتق من «محمد» ونسبه أمكن القول بأنه ينتمي إلى جماعة إسلامية أصيلة : ونعرف من الإدريسي أن سكان الكوار في ذلك الوقت كان معظمهم من البربر الملثّمين[٦]، وهناك مصادر أخرى تؤكّد أن الإسلام دخل هذا الإقليم قبل النصف الثاني من القرن التاسع[٧]. وثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن «حماي» يرجع أصله إلى الكوار غير أنه يجوز القول أيضًا بأنه ينتسب إلى جماعة من البربر اندمجت بأهل كانم عندما كانت هذه المملكة خاضعة لسلطان الزغاوة.

ومع هذا فإن الادّعاء بالانتساب إلى أصل يمني يدل بوضوح على أن «حماي» ورجاله كانوا على صلة بالبربر في شمال افريقيا، وكان هؤلاء ينسبون أنفسهم إلى أصول حِمْيَرية لكي يتميّزوا عن العرب العدنانيين. ولهذا ليس من باب المصادفة أن لا يذكر الديوان من بين من يفترض أنهم أسلاف سيف بن ذي يزن، سوى أسماء مأخوذة من سياق عربي شمالي : فنجد اسم قريش (الذي تنسب إليه قبيلة النبي)، واسم مكة (أرض الحج) واسم بغداد (عاصمة العباسيين)، ولا نجد في أي مكان ذكر لحِمْيَر أو قحطان أو اليمن. وفي بداية القرن الثالث عشر، أفرغ نسب «حماي» من مضمونه البربري واتّخذ البحث في هذا النسب اتجاهًا جديدًا : فبدلاً من إثبات أي أصل حِمْيَري، اهتمّ النسابون لأسرة الملوك السيفيين أول ما اهتموا بإثبات عراقتهم الإسلامية. وأصبح اسم سيف بن ذي يزن في ذلك العهد مجرّد أثر بال جُرِّد من مدلوله[٨].

---

(٢) الإدريسي، ترجمة فرنسية ر. ب. أ. دوزي وم. ج. دو جويجي، ١٨٦٦.

(٣) ابن سعيد المغربي، طبعة ج. ف. جينس، ١٩٥٨.

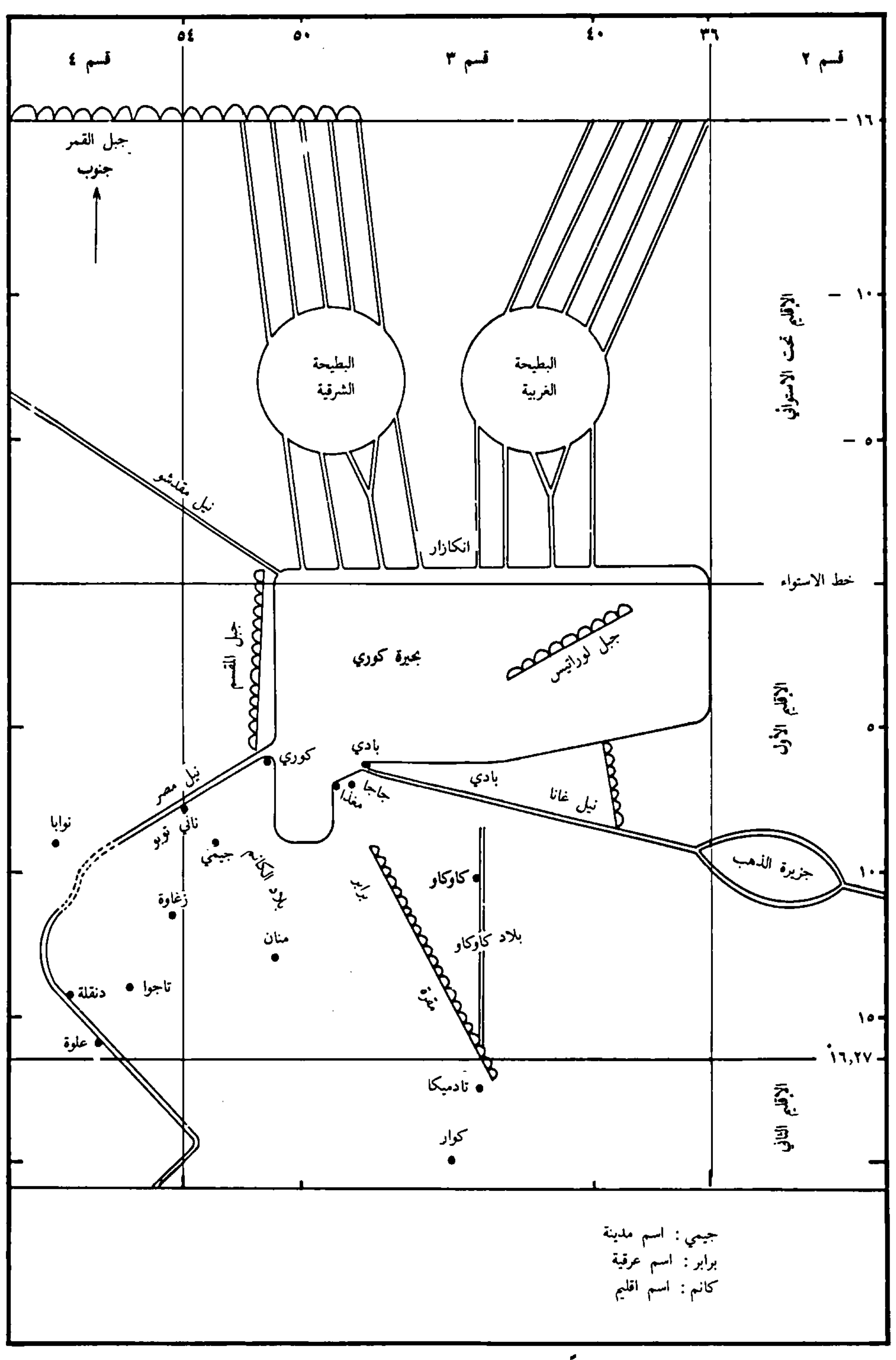
(٤) أنظر المقريزي، ترجمة ديرك لانجي، ١٩٧٩ وج. كوك، ١٩٧٥، ص ٣٨٢ – ٣٨٩.

(٥) أنظر تاريخ افريقيا العام، المجلّد الثالث، الفصل ١٥ (تحت الطبع).

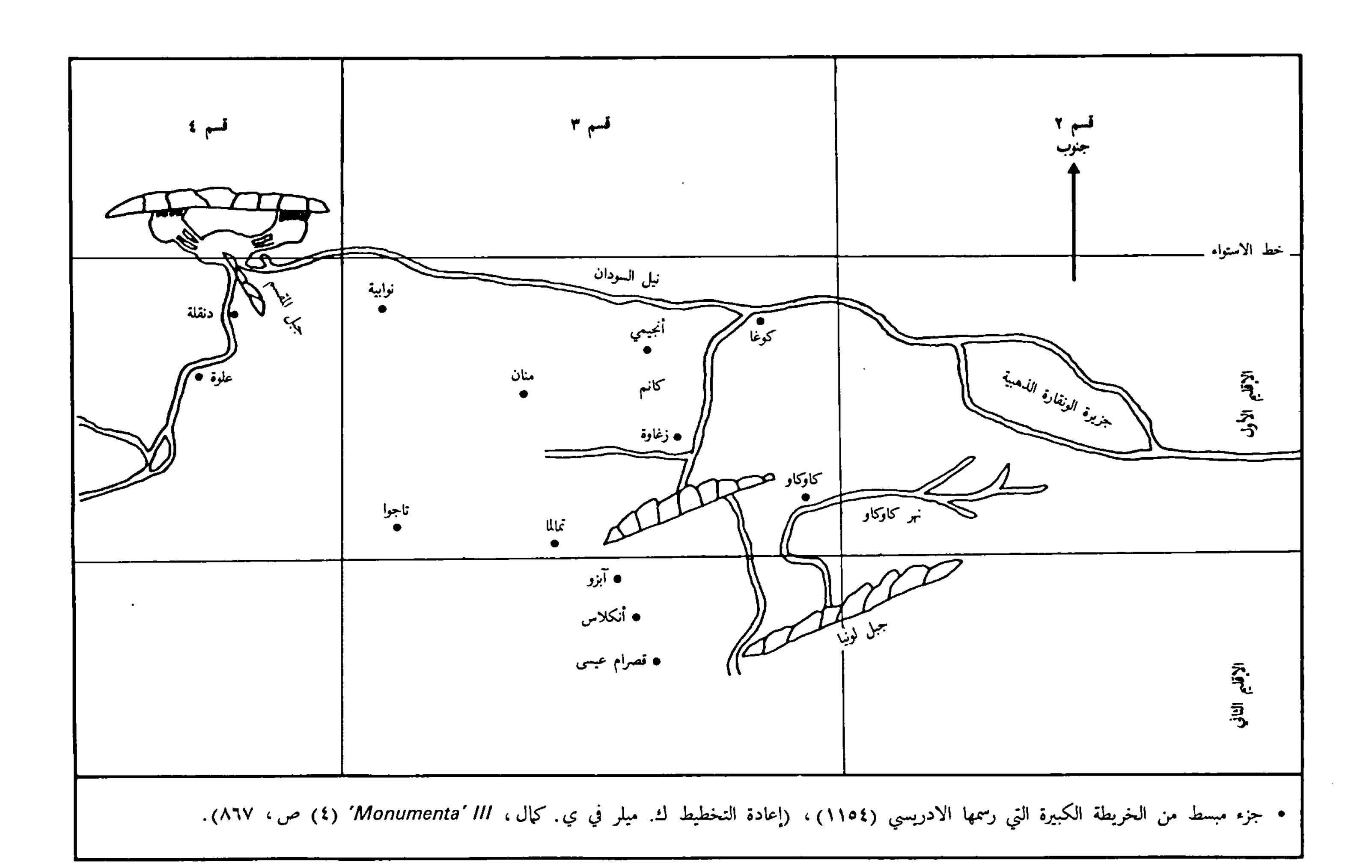
(٦) الإدريسي، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٧) اليعقوبي، ترجمة فرنسية ج. ويت، ١٩٣٧، ص ٢٠٥.

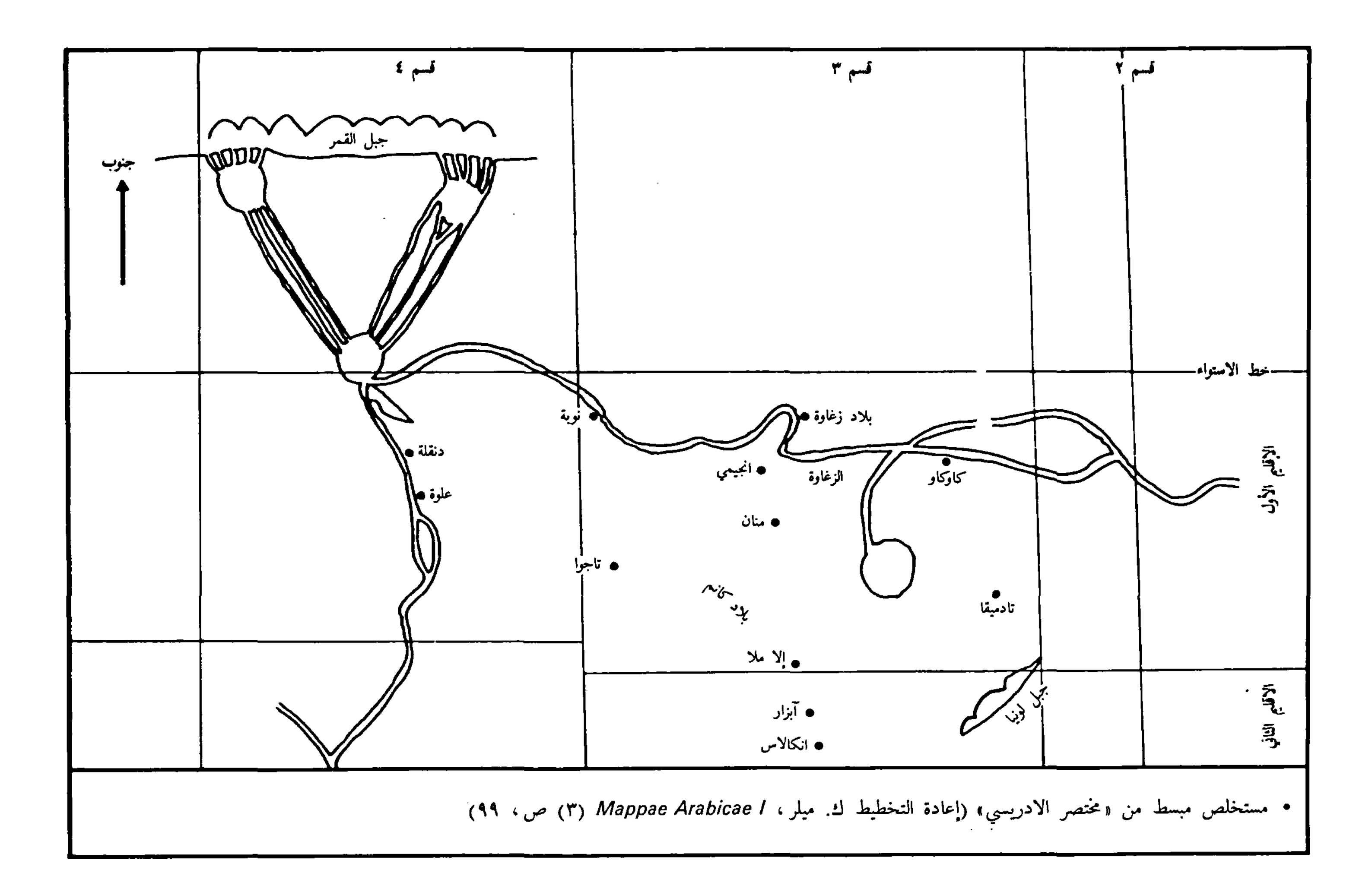
(٨) في رسالة من بورنو، تاريخها في نهاية القرن الرابع عشر، يرجع نسب سيف بن ذي يزن إلى قريش قبيلة النبي. ويعقب القلقشندي على ذلك فيقول : «هذا خطأ منهم، لأن سيف بن ذي يزن من سلالة التبّع اليمنيين وهم من أهل حِمْيَر».



• منطقة بحيرة تشاد (بحيرة كوري). طبقًا لاعادة تخطيط جزء من خريطة ابن سعيد (النصف الأول من القرن الثالث عشر) أجراها مؤلف هذا الفصل.



• جزء مبسط من الخريطة الكبيرة التي رسمها الادريسي (١١٥٤)، (إعادة التخطيط ك. ميلر في ي. كمال، *'Monumenta' III* (٤) ص، ٨٦٧).



• مستخلص مبسط من «مختصر الادريسي» (إعادة التخطيط ك. ميلر، *Mappae Arabicae I* (٣) ص، ٩٩)

وهناك مؤشرات أخرى تدل على أن ملوك السيفيين أرادوا جعل أصلهم الحقيقي في طي النسيان. ويلاحظ مؤرّخو ورواة القرن الثالث فعلاً بصدد سلمان بن عبد الله (١١٨٢ – ١٢١٠)، وهو ابن أحد أحفاد «حماي» أنه كان أسود فاحم السواد. ويقول المؤرّخون «إنه لم يولد سلطان واحد أسود البشرة منذ السلطان سيف حتى سليله، بل كانوا كلهم حمر الوجوه كالأعراب» (الديوان، فقرة ١٧). ولا شكّ أن هذه المعلومة تنطبق فقط على الأسرة الثانية. ومع هذا كان في الاحتمال توقّع وجود إشارة إلى الأصل البربري للسيفيين، ولكن مرة أخرى فضّل المؤرّخون المرور على ذلك مرّ الكرام، ذاكرين العرب بدلاً من البربر. ويوضح لنا هذا المثال تمامًا أن اللون الأبيض في نظر المؤرّخين لم يكن له مكان إلاّ بقدر ما يكون مرتبطًا بالدين الإسلامي، أي بعبارة أخرى أن الدين هو المهم وليس لون البشرة.

وجاء في فقرة من كتاب ابن سعيد أن الشعب نسي بسرعة الأصل الأجنبي للسيفيين. واستشهد ابن سعيد بابن فاطمة الذي كان قد زار مملكة كانم، فكتب يقول:

«إن سلطان كانم... هو محمد بن جبل، من سلالة سيف بن ذي يزن، وكانت عاصمة أجداده الكفّار، قبل دخولهم الإسلام، هي مدينة مانان، وقد أسلم جده الرابع نتيجة لتأثير أحد الفقهاء، وبعدها انتشر الإسلام في كل أنحاء كانم»[٩].

ومحمد بن جيل كان هو الإسم الذي عُرف به خارج البلاد، الملك العظيم دوناما ديبلامي (١٢١٠ – ١٢٤٨). وكان ابن فاطمة قد أقام في كانم في عهده، في النصف الأول من القرن الثالث عشر، وفي ذلك الحين كان السيفيون يعتبرون من سلالة الدجويين (الملوك الزغاويين) مباشرة. ولم يقع من أحداث سياسية تُذكر بالاضطرابات السياسية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، حسب الروايات الشعبية المنقولة، غير دخول الإسلام – وبغير إكراه – ثم تغيير العاصمة.

ويمكننا أن نستخلص من واقع استمرار التقاليد الأسرية: – ويشهد الديوان بذلك أيضًا – أن مملكة كانم كانت منذ ذلك العصر دولة قوية التركيب وذات تنظيم اقليمي متين. وفي ظاهر الأمر أن دخول الإسلام وتغيير الأسرة لم يحدث خللاً في أسس هذه الدولة والتي يرجّح رجوع نشأتها إلى القرن السادس[١٠]. بل ان تغيير العاصمة – الذي حدث إما في الوقت نفسه، وإما بعد تغيير الأسرة[١١] – لم يكن له في أغلب الظن أثر كبير في التطور السياسي للبلاد. فقد كان لكل من دولة السيفيين ودولة زغاوة عاصمة دائمة إذ كانت مانان مقامًا للملوك الدوجويين خلال قرن كامل على الأقل، وكانت جيمي مقرًا للملوك السيفيين مدة ثلاثة قرون، وفي نهاية القرن الرابع عشر فقط، عندما أُكره السيفيون على ترك كانم نهائيًا، فقدت جيمي وضعها الخاص لتصبح مدينة كسائر المدن[١٢]. أما فيما يتعلّق بتغيير العاصمة في

(٩) ابن سعيد المغربي، طبعة ج. ف. جينس ١٩٥٨ ص ٩٥، ج. كوك ١٩٧٥ ص ٢٠٩.

(١٠) رأينا أن الرواية التي يشير إليها ابن سعيد غير موثوق بها، فالإدريسي الذي ألّف كتابه في منتصف القرن الثاني عشر، يذكر في الوقت نفسه مانان وجيمي: ويرى أن مانان كانت مقر «أمير البلاد وزعيمها». (هل يقصد الزغاوة؟) بينما كانت جيمي أصغر منها ويكتفي بقوله إنها كانت تابعة لكانم. ولا شك أن الإدريسي حاول المزج بين معلومات معاصرة ومعلومات أخرى ترجع إلى عصر الزغاوة، فلا يُستبعد إذن أن تكون جيمي في عصره هي عاصمة كانم.

(١١) أنظر ر. لانجي، ١٩٧٧، الفصل السابع.

(١٢) فيما عدا جيمي ومانان لا تذكر المصادر الخارجية في كانم سوى مدينتي ترازكي (المهلبي) وناي (ابن سعيد). وفيما بعد، ذكر ابن فورطو، في وصفه للحملات الحربية التي قام بها إدريس الاوما (١٥٦٤ – ١٥٩٦)، عددًا كبيرًا من المواقع في إقليم بحيرة تشاد، ومن بينها جيمي. من ناحية أخرى، يجب أن نلاحظ أن «الديوان» يذكر كافة الأماكن التي دُفن فيها ملوك كانم وبورنو منذ القرن الحادي عشر. وربما كان بعضها مدنًا هامة، ونفكّر بصفة خاصة في زمتم

النصف الثاني من القرن الحادي عشر (أي بداية القرن الثاني عشر)، فجدير بالذكر أن مدينة جيمي كانت تقع جنوبًا بعد مانان: ولهذا يمكن الحكم على هذا الانتقال أنه مؤشّر على تزايد نفوذ أهل المدن المستقرين في كانم على حساب أنصاف البدو في الساحل.

وإذا تتبّعنا سياسة الارتباطات الزوجية بين الملوك السيفيين الأوائل كما هي مذكورة في سطور الديوان، لاحظنا أن «انعدام الصبغة البربرية» في الأسرة الجديدة – وهو أمر ملموس على الصعيد الايديولوجي – تقترن بالزيادة التدريجية في الثقل السياسي لأهل المدن. وقد عني المؤرّخون بتسجيل الأصول العرقية – للملكات الأمهات، وفي ضوء ذلك يمكن وضع القائمة التالية: أم «حماي» (١٠٧٥ – ١٠٨٦) كانت من جماعة قي.. وأم «دوناما» بن «حماي» (١٠٨٦ – ١١٤٠) كانت من قوم توبو، وأم «بير» بن «دونامة» (١١٤٠ – ١١٦٦) كانت من قوم قُيَم، وأم عبد الله بن بير (١١٦٦ – ١١٨٢) كانت من قوم توبو، وأم «سلمان» بن «عبد الله» كانت من قوم دبير، وأم «دوناما» بن «سلمان» (١٢١٠ – ١٢٤٨) كانت من قوم ماغومي (من السلالة الملكية). وبعدهن كان كل الملكات الأمهات فيما يبدو من قوم «ماغومي» ما عدا أم «ابراهيم» بن «بير» (١٢٩٦ – ١٣١٥) فكانت من قوم كنكونا.

ويلاحظ أولاً أن قوم توماغرا – ومن بينهم ملكتان من الأمهات في العهد الدوغوي – لم يرد لهما ذكر عند الحديث عن الملوك السيفيين: ولعلّ في ذلك مؤشّرًا يحمل على الظن بأنهم فقدوا سيادتهم عند تغير الأسر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. ومما لا شكّ فيه أن قوم توماغرا من بعدهم استمرّوا يلعبون دورًا هامًا في اقليم وسط السودان لأننا نجدهم اليوم في تيبستي وفي كوار (واحة بلما) حيث يفرضون سيادتهم على جماعات أخرى من قوم توبو موجودة هي أيضًا في كانم وفي بورنو، وقد امتزجوا هناك إلى حدّ كبير مع الكانمبو والكانوري، وتقول روايات بورنو أنهم الأصل لأسرتي مونيو وماندارا[١٣].

وعلى نقيض آل توماغرا جاء ذكر آل قي في الحديث عن الأسرتين. ولهذا يبدو أن وضعهم السياسي لم يتأثّر بسقوط الدّوغوايين. ويلاحظ بصورة خاصة أن أم مؤسّس الأسرة الجديدة كانت من قوم قي. ويعرف هؤلاء اليوم باسم القُيَم ويعيشون شمال بورنو بالقرب من كومادوغويو. وهم قوم مستقرّون غير أن استمرارهم في رعي الجمال في بيئة لا تصلح للرعي دليل على أن أصلهم من الشمال ومن البدو.

ولم يرد ذكر قوم توبو في الديوان إلاّ في الحديث عن علاقتهم بالسيفيين. ولعل هذا يرجع إلى طبيعة المعلومات المنقولة إذ أن المؤرّخين والرواة لا يقدّمون لنا في شيء من الدقّة إلاّ معلومات عن عهود الدوجويين السابقة لعهد ايوما (٩٨٧ – ١٠٠٧). ومع هذا إذا كانت أم «دوناما» بن «حماي» – أي أهم زوجات حماي – من قوم التوبو، فذلك أمر له دلالته: فمن الممكن أن يكون التوبو قد أسهموا في سقوط الدوجويين. ويجب أن نسلّم بأن العلاقة بين قوم توبو كما جاء في الديوان، وبين الزغاويين كما جاء في المصادر الخارجية، علاقة أبعد من أن تكون واضحة. وليست سوى رواية ابن فاطمة التي يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر والمنقولة عن ابن سعيد، هي التي تساعد على التمييز بوضوح بين هذين الكيانين القوميين: قوم الزغاوي المذكورين مع قوم داجو، وموقعهم غامض بين مملكة

(«الديوان»، الفقرة ١٧ و ٣٨)، ونانيجام (الفقرة ٢٥ و ٣٦) وديسكاما (الفقرة ٢٠) وهي مواقع تقع غرب بحيرة تشاد. وذكرت جيمي على أنها مكان دُفن فيها أربعة ملوك (الفقرات ١٩، ٢١، ٢٨ و٢٩).

(١٣) ج. ناختيجال، ١٩٦٧، المجلّد الثاني، ص ٣٣٨.

كانم والنوبة ، في حين أن قوم توبو مستقرّون بالتحديد في محيط بحر الغزال[١٤] . ولا يزال بعض جماعات توبو تعيش في أيامنا هذه في هذه المنطقة شرقي كانم . ويطلق عليهم بشكل جماعي اسم دازا أو جرعان ، أما قوم توبو الحقيقيون فيعيشون في تيبستي والمناطق المحيطة بها . وينظر بصورة عامة إلى هذه الجبال على أنها البلد المنشأ لكل جماعات التوبو (ويُقال ان معنى هذا الاسم : تو – بو – هو سكان الجبل) ، ولكن ذلك أمر غير مؤكّد بتاتاً[١٥] .

ويذكر الديوان قومين هما قوم الدبير وقوم كونكونا ولا وجود لهما اليوم. وتقول المعلومات التي جمعها ناختيجال أن آل دِبير (أو بالأحرى دِبّيري) كانوا فيما يظن من قوم كانمبو المستقرين في الحضر. وبعد اندماجهم مع بدو الدازا كوّنوا قوم قادوة الذين ما زالوا مقيمين في كانم . أما عن قوم كنكونا ، فيرى بارث وناختيجال أنهم أيضًا من قدامى قوم كانمبو الحضريين ، ولكن لم يستطع أي من الباحثين تحديد تسلسل دقيق يربط هؤلاء مع القوميات الموجودة في أيامنا هذه[١٦] .

وهناك آخر الأمر قوم ماغومي – ويكتبها المؤرّخون م.غ.ر.م. (الديوان الفقرة ١٧ ، و١٨) – وهم سلالة الأب التي ينحدر منها السيفيون. وإذا أخذنا ببيانات الديوان ، وجدنا أن أم دوناما ديبالامي (١٢١٠ – ١٢٤٨) كانت ابنة أخ عبد الله بكر (١١٦٦ – ١١٨٢) ولعلنا نجد هنا دلالة على التكوّن التدريجي لسلالة ستصبح فيما بعد نواة لشعب كانوري. وليس هناك ما يسمح بالظن بأن آل ماغومي كانوا موجودين من قبل عهد السيفيين ، ولعلّ من الخطأ اعتبارهم القوة السياسية التي ساعدت «حماي» على الوصول إلى السلطة. وعلى العكس فمن المقبول الظن بأن قوم ماغومي يضمون فعلاً كل ذرية الملوك السيفيين (بالعصب) كما توحي بذلك سلسلة أنسابهم وأسماء مختلف تفرّعاتهم[١٧] . ولو كانت هذه التقديرات صحيحة. لتبين أن آل ماغومي هم نواة شعب (الكانوري) الذي تكوّن تدريجيًا ابتداءً من أسرة هي أسرة السيفيين ، غير أن منشأ الدولة نفسها (كانم – بورنو) سبق تكوين الشعب الذي يُعتبر اليوم أهم أساس لها.

قبل تكوين شعب كانوري ، كان ملوك كانم يعتمدون على قوميات مختلفة ، وكانت هذه الأخيرة تجمع بين أهل البدو وأهل الحضر ، وكانت لغاتهم نيلية صحراوية على غرار أقوام توبو وزغاوي وكانوي وكانوري اليوم[١٨] ، إلى جانب لغات تشادية[١٩] . وفي فترات معينة ، امتدّ سلطان ملوك كانم ، كما حدث في القرن الثالث عشر ، ليشمل جماعات ناطقة بالبربرية. غير أن هذه الجماعات كانت دائمًا أقلية من الناحية الثقافية بالنسبة للجماعات النيلية الصحراوية[٢٠] . وإذا أخذنا ببعض المؤشّرات غير ذات

(١٤) النصوص الموجودة لكتاب الجغرافية تعطينا اسم توبو بأشكال مشوّهة. أنظر ج. ماركار ، ١٩١٣ ، ص ٨٤ ؛ أنظر أيضًا د. لانجي ، ١٩٧٧ ، الفصل الثاني ، الفقرة ١٣ ، رقم ٢.

(١٥) فيما يتعلّق بالتوبو بشكل عام ، راجع ج. شابيل ، ١٩٥٧. يلاحظ أن الفصل الخاص بتاريخ التوبو لا يعتمد عليه كثيرًا ، إذ أن المؤلّف استند إلى حد كبير على ما جمعه بصورة سريعة غير متروّية ي. أورفوي ، ١٩٤٩.

(١٦) فيما يتصل بالدبير ، راجع ناختيجال ، المرجع السابق ، ص ٣١٩ – ٣٢٠.

(١٧) ج. ناختيجال ، المرجع السابق ، ص ٤١٨ – ٤١٩. حيث الأقسام الآتية : الماغومي أوميوا (الحماي) ، الماغومي تسليموا (السلممة). الماغومي بيربوا (لبير) الماغومي دالاوا (لعبد الله).

(١٨) الزغاويون الحاليون لا يشبهون الزغاويين المذكورين عند المؤلّفين العرب (قبل ابن سعيد) ، أكثر مما يشبه الكانوريين أية مجموعة قومية نيلية صحراوية عاشت قبل القرن الثالث عشر. وقد يكون التوبو هم وحدهم الذين حافظوا على هويتهم القومية والثقافية منذ ذلك العصر دون تغيير يُذكر.

(١٩) من بين هذه اللغات نذكر حاليًا الانجيزيم والكوتوكو واللغات الحجرية.

(٢٠) يفترض بارث أن التوماغريين من أصل بربري ، وهو يعتبر أن الدور البارز للملكة الأم (غمصا) هو أثر من آثار

الشأن الكبير الوارد في الديوان ، رجحنا حدوث تطور على مراحل ثلاث أدى إلى دعم القاعدة القومية للملوك السيفيين.

وفي خلال المرحلة الأولى الممتدة من مجيء حماي حتى منتصف القرن الثاني عشر ، لعبت قوميتان من البدو - هما - التوبو والتي - دورًا فيما يبدو حاسمًا. وفي المرحلة الثانية حلّ قوم دبير وكنكونا - مع أقوام حضرية أخرى كما هو مرجّح - محل توبو وتي كحلفاء رئيسيين للسيفيين[٢١] . وعلى أثر هذا الانقلاب في التحالفات ، تأكّدت في المرحلة الثالثة القوة السياسية لسلالة ماغومي الملكية : كانت أم دونا ديبالامي (١٢١٠ - ١٢٤٨) من قوم ماغومي ، كذلك كانت واحدة من زوجاته ، أم قضاي (١٢٤٨ - ١٢٧٧) ، ولعلّ زوجته الأخرى - أم بير (١٢٧٧ - ١٢٩٦) كانت هي أيضًا من قوم ماغومي ، إلاّ أن المؤرّخين لم يحدّدوا أصلها القومي. وكانت أم ابراهيم نيكالي (١٢٩٦ - ١٣١٥) ، ابن وخليفة بير ، من قوم كنكونا. والديوان لا يوضح الأصل القومي للملكات الأمهات بعد ذلك ويمكن التفكير في أن آل ماغومي ، في بداية القرن الرابع عشر ، قد حجبوا نهائيًا القوميات الحضرية الأخرى في كانم.

ولعلّ هذا الارتباط الوثيق في السلالة الملكية يفسر إلى حد ما قوة المملكة في عهد دوناما ديبالامي (١٢١٠ - ١٢٤٨) وخلفائه المباشرين. وقد نرى في ذلك من ناحية أخرى السبب - حتى غير المباشر - للحرب الطويلة ضد قوم توبو التي نشبت أثناء حكمه. وإذا كان حقيقيًا ما يظنه بارث من أن زوجة دوناما الثانية - أم بير - من أصل قومي اسمه لكمة[٢٢] ، أمكن أن نرجع تكوين السلالات المتنافسة انطلاقًا من ولدي دوناما ، قضاي (وكانت أمه من قوم ماغومي) وبير ، إلى حرب النفوذ بين جماعات كانم الحضرية ، وسلالة ماغومي الملكية[٢٣] . وعلى أي حال فالأمر الذي له دلالته الكبيرة هو أن عهد انتقال العرش سلميًا من الأب إلى الابن قد انتهى عندما توقّف الملوك السيفيون عن اتخاذ زوجات (رئيسيات) لهم من الأجنبيات «وإنما اتخذوهن» من نساء ينحدرن من أصلابهم[٢٤] .

مملكة كانم في ذروتها

لا يمكن تفسير نمو وتطور دولة كانم دون الرجوع إلى التجارة عبر الصحراء. فليس من باب المصادفة دون شك أن نجد أكبر دولة في وسط السودان تتكوّن في المصب الجنوبي لمحور القوافل الكبير المار بفزان وبواحات الكوار. ويرجّح أن تكون هذه الطريق قد استخدمت منذ العصر الروماني : فقد

البربر. ويلاحظ كذلك انعدام أية مقتبسات بربرية في مفردات لغة الكانوريين.

(٢١) قد نميل إلى تفسير انتقال العاصمة بالتغيير الذي طرأ على هذا التحالف ، وبذلك نرجح كفة الإدريسي على ابن سعيد (أنظر الحاشية رقم ١ أعلاه).

(٢٢) هـ. بارث ، ١٩٦٥ ، المجلّد الثاني ، ص ٥٨٤ ، وقد رأينا أن أهم زوجات بير - أم ابراهيم نيكال - لم تكن من الماغومي.

(٢٣) يلاحظ المؤرّخون بصدد حكم دوناما ديبالامي أن أبناء السلطان في عصر دوناما انقسموا إلى عدّة أحزاب («الديوان» ، الفقرة ١٧). ولعلّ هذه المنازعات بين أبناء دوناما تعكس ، على صعيد الأسرة ، النزاع بين الماغومي وغيرهم من القوميات ، وربما كان هذا النزاع هو الأصل في أول خلافة للحواشي في تاريخ الأسرة الثانية لكانم.

(٢٤) يمكن تفسير أول خلافة للحواشي بما أصاب وضع الزوجة الأولى من ضعف ، وربما كان هذا الضعف نتيجة انفصام السيفيين البطيء عن ذاتيتهم البربرية.

كانت أكثر الطرق مباشرة للوصل بين اقليم بحيرة تشاد والبحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن لينافسها غير طريق الشرق الوعرة التي تمر بواحات الكفرة وطريق الغرب التي كانت تمر بتاكيدّة ثم فيما بعد بمدينة أغاديس.

التنظيم السياسي

لا نجد في الديوان أية معلومات عن التنظيم السياسي في كانم ، ولكن يمكن الافتراض في أنه في الفترة الأولى الممتدة حتى حكم الملك دوناما ديبالأمي (١٢١٠ – ١٢٤٨) ، كان أفراد الأسرة المالكة يحتلّون مكانة بارزة في أجهزة الدولة.

وتغير هذا الوضع في القرن الثالث عشر ، إذ نرى المؤرّخين يقولون ان خلافًا قد نشب بين السلطان وأبنائه (الديوان ، الفقرة ١٧) . ثم أمر ابراهيم نيقال بإعدام ابنه (الديوان ، الفقرة ٢٠) . ومن واقع هذه المؤشرات يمكن استنتاج أن السيفين ابتداءً من القرن الثالث عشر ، أبعدوا أفراد الأسرة المالكة من الوظائف الرئيسية في الدولة واعتمدوا على عناصر أجنبية ، لعلّهم كانوا من الزعماء المحليين. وأغلب الظن أن لقب بيريما (حاكم الشمال) ولقب قيغما (حاكم الجنوب) ، قد أطلقا في العهد البورنوي – ويبدو أن كليهما آتيان من المناطق الواقعة غرب بحيرة تشاد. فييري اسم اقليم في شمال غرب كومادوغويوبي ، وقاغا اسم اقليم يحيط بمدينة مايدوغوري الحالية.

ونحن نعرف أن الملكة الأم قد لعبت في عهود أقرب إلينا دورًا بارزًا في بورنو. وليس من باب الصدفة أن يذكر الديوان الأصول القومية لأمهات الملوك العشرة الأوائل ، وهو أمر جدير بالملاحظة ، إذ أن تأييد العشيرة التي تنتسب إليها أم السلطان المنتظر كان في إمكانه أن يقوم بدور حاسم عند تغيير الحكم. وفي فترة لاحقة نرى الزوجة الأولى للملك (الغمسو) تسبق الزوجات الأخريات فيختار الملك واحدًا من أبنائها ليخلفه على العرش (الشيروما).

ليس لدينا معلومات دقيقة عن إدارة الإقليم ، ولكننا نعلم أن سلطان السفويين كان يمتدّ في نهاية القرن الخامس عشر ليشمل اثنتي عشرة مملكة تابعة[٢٥] كانت الإدارة بشكلها المباشر تمارس على اقليم محدود ، وكان يتولاّها فيما يظن عبيد البيت الملكي.

أما فيما يتعلّق بالجيش فالنصوص تقول إن الملك كان عنده جيش دائم ، وهي تميّز بين «الجنود» وهم المحاربون ، الذين يدعون لحملة معينة ، وبين «العساكر» ، وهم المحترفون.

وكان القضاء من اختصاص الملك على الأرجح ، كما كان الحال في بلاط المانسا في مالي ، وذلك على الرغم من اعتناق الملوك الدين الإسلامي. وهذا لا ينفي أنه في عهود معيّنة جرت محاولات لإقامة قضاء على أساس الشريعة ، وهذا ما حدث فعلاً أثناء حكم ادريس ألاوما[٢٦] .

وقد تأثّرت كافة دول المنطقة تقريبًا بصورة مباشرة أو غير مباشرة بمملكة كانم بورنو من حيث التنظيم السياسي ونرى أثر ذلك في كل من الهاوسا والكوتوكا والباغرمي.

---

(٢٥) أنظر المقريزي ، ترجمة فرنسية د. لانجي ، ١٩٧٩.
(٢٦) أنظر ابن فورطوا ، ترجمة فرنسية، بالمر ، ١٩٣٢.

التجارة والتبادل التجاري

تقع مملكة كانم في شمال شرق بحيرة تشاد ، وكان محتومًا عليها – بحكم موقعها هذا – أن تشرف على المنطقة الواقعة في غرب البحيرة – حيث ستقوم مملكة بورنو – لتؤمّن سيطرتها على تجارة قفر في اتجاه الجنوب . غير أن الكوار كان يسهل الوصول إليها أيضًا من ناحية الآير (تاكيدّة ثم أغاديس) ، ولهذا كانت السيطرة على هذا الموقع الهام من الطريق هدفًا أساسيًا لملوك كانم ولملوك بورنو على حد سواء. وكانت السيطرة على كوار تمثّل أهمية أكبر من أهميتها كموقع استراتيجي للتجارة عبر الصحراء : فالواقع أن الملاحات الوفيرة الإنتاج في بيلما وأغرام (فاشي) كانت تدر على أصحابها دخولاً هائلة بسبب التصدير الكثيف للملح إلى بلاد الساحل ولم يكن في إقليم وسط الصحراء ، ملاحات تضاهيها في قيمتها الاقتصادية . غير أنه يجب أن نؤكّد أننا لا نمتلك أي مرجع لتحديد تاريخ البدء في استغلال الملح في كوار . ولعلّ أصحاب الديوان أرادوا أن يشيروا إلى أول محاولة من كانم للاستيلاء على ملاحات كوار ، عندما ذكروا أن أركو (حوالي ١٠٢٣ – ١٠٦٧) أقام مستعمرات للعبيد في دركو وسيغديم ، غير أن هذه معلومات غير مؤكّدة إطلاقًا[٢٧] .

وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر ، كان سكان كوار مستقلين عن جيرانهم الأقوياء في الشمال والجنوب . ويؤكّد الإدريسي وجود مدن صغيرة كثيرة يسكنها التجار وعمال مناجم الملح . وكان زعماء هذه الطوائف من الطوارق البربر الملثّمين. ويقول الإدريسي إن سكان كوار كانوا منشغلين على وجه الخصوص باستخراج الشبَّة وتسويقها (المستخدمة في الصباغة والدباغة) وكانوا ينقلونها شرقًا حتى مصر وغربًا حتى وَرْغلة[٢٨] . وهذه الصورة مرجعها بلا شكّ تصوّر خاطئ من ملاحظ خارجي ، فإذا كانت تجارة الملح مع منطقة الساحل نشيطة في ذلك العصر ، فلا بدّ أنها كانت تتجاوز بكثير حجم الصادرات من الشبَّة إلى مدن شمال افريقيا . ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الإدريسي لا يذكر شيئًا عن التجارة الواسعة النطاق عبر الصحراء ، التي كانت كوار هي المحيط الوحيد لرحلتها بين فزان واقليم بحيرة تشاد. ولعلّ سكوته هذا يكشف لنا عن الأهمية النسبية لكل من هذين النشاطين التجاريين : فالتجارة الإقليمية ، عظيمة الازدهار ، لم تكن فيما يظن أقل بكثير – على الأقل من حيث الحجم – إن لم يكن من حيث القيمة – من التجارة الدولية .

كان لمجموعة واحات فزان بالنسبة للتجارة عبر المسافات الطويلة أهمية تجاوز أهمية كوار . فهي تقع عند ملتقى طريقين من اكبر الطرق التجارية في غرب افريقيا ، ولهذا كانت السيطرة عليها تسمح بالسيطرة على المبادلات التجارية بين الشمال والجنوب (افريقية/طرابلس – كانم/بورنو) وبين الشرق والغرب (مصر / غانا – مالي/صنغاي) ولم يكن لكانم بديل لمبادلاتها التجارية طويلة المدى مع بلدان البحر المتوسط (باستثناء المغرب الأقصى) وكان لا بدّ لمعظم السلع الواردة والصادرة من المرور بها . وكان التجار الذين يتعاملون مع بلدان المغرب هم وحدهم الذين يستطيعون تجنّب فزان وسلوك الطريق البالغ الوعورة المار بجادو وتاسيلي . ولهذا فلا بدّ أن واحدًا من الأهداف الرئيسية لملوك كانم وبورنو ، كان تأمين طريق القوافل بين الشمال والجنوب والسيطرة على المحطات الواقعة على هذا الطريق .

---

(٢٧) في دراسة حديثة ، يعطينا ب . فوشا بيانات دقيقة عن المكاسب الضخمة التي يحقّقها طوارق الآير ، فهم الذين في أيامنا هذه يتولّون نقل ملح بيلما وفاشي إلى بلاد الساحل ١٩٧٤ .

(٢٨) الإدريسي ، المرجع السابق ، ١٨٦٦ .

ما هي السلع التي كانت كانم تتجر فيها مع الشمال؟ ان المعلومات التي تذكرها المصادر في هذا الصدد قليلة جدًا، ولكن يمكننا الافتراض أن السلع المتبادلة لم تتغيّر كثيرًا، فما بين بداية العصر الإسلامي والقرن التاسع عشر، وأغلب الظن أن تجارة الرقيق كانت دائمًا تلعب دورًا هامًا. وأقدم معلومة في هذا الشأن جاءتنا من اليعقوبي الذي يقول بأن التجار البربر من الكوار كانوا يجلبون إلى زويلة، عاصمة فزان، عديدًا من الرقيق الأسود[٢٩]. ولا شكّ أن هؤلاء العبيد قد جاءوا من كانم. ويعطينا ليون الافريقي في بداية القرن السادس عشر مزيدًا من التفاصيل الدقيقة عن تجار شمال افريقيا الذين كانوا في عصره يذهبون إلى بورنو بأنفسهم لاستحضار العبيد مبادلة بالخيول، وكانوا أحيانًا ينتظرون سنة كاملة حتى يجمع لهم الملك عددًا كافيًا من العبيد[٣٠]. والظاهر أن الغارات التي كان الملك يشنّها ضد الشعوب غير المسلمة جنوب بورنو لجمع الأسرى، لم تكن تكفي لسد الطلبات الكثيرة. وعندما حلّ الضعف بالمملكة، كان سكان كانم – بورنو أنفسهم مهدّدين بالوقوع أسرى بين أيدي أعدائهم من الخارج رغم كون غالبيتهم من المسلمين منذ القرن الثالث عشر. وفي نهاية القرن الرابع عشر، نجد بير بن ادريس (حوالي ١٣٨٩ – ١٤٢١) يشكو في رسالة وجّهها إلى سلطان مصر بيبرس، من العرب الذين يستعبدون رعاياه المسلمين[٣١]. ونحن نعرف عن د. جيرار أن بعض سكان بورنو في القرن السابع عشر لقوا نفس المصير على أثر غارات الطوارق[٣٢].

وزيادة على العبيد كانت القوافل المتجهة إلى فزان ومراكز البحر المتوسط تحمل معها أيضًا بعض السلع المستطرفة، مثل أنياب الفيلة. وريش النعام بل أيضًا حيوانات حية[٣٣]. ولكن إذا أردنا أن نعرف القيمة الحقيقية لتجارة العبيد، يحسن بنا أن ننظر إليها بصفة خاصة بالنسبة لجملة الأنشطة الإنتاجية. ومن وجهة النظر هذه ليس هناك أي شك في أن رخاء كانم – بورنو يرجع إلى زراعتها المزدهرة، وتربيتها الماشية ومناجمها (لاستخراج الملح) أكثر مما يرجع إلى مواردها الناتجة عن تجارة العبيد. ويجب أن الأخذ في الاعتبار أن الصناعات الحرفية لعبت دورًا هامًا، فبعض منتجاتها كان يصدر إلى البلدان المجاورة. ويذكر ابن بطوطة في القرن الرابع عشر أن بورنو كانت تصدّر بالإضافة إلى العبيد. ويجب الأخذ في الاعتبار أن الصناعات الحرفية لعبت دورًا هامًا، فبعض منتجاتها كان الإدريسي (القرن الثاني عشر)، أن شبَّة كوار كانت مطلوبة أشد الطلب في شمال افريقيا[٣٥].

وكانت الخيل أهم ما يستورد فقد كانت مطلوبة لقيمتها الحربية. ويؤكّد الرواة أن فرقة الفرسان في عهد فوناما ديبالامي (حوالي ١٢١٠ – ١٢٤٨) كانت تتكوّن من ٤١ ٠٠٠ حصان[٣٦]. ويقدّم لنا

(٢٩) اليعقوبي، المرجع السابق، ص ٢٠٥.
(٣٠) ج. ليون الإفريقي، ترجمة فرنسية أ. أبولار، ١٩٥٦، المجلّد الثاني، ص ٤٨٠.
(٣١) القلقشندي، ترجمة فرنسية ج. ديمومبين.
(٣٢) راجع ش. رونسيير، ١٩١٩، ص ٧٨ – ٨٨. فيما يتعلّق بالاستعباد وتجارة العبيد في وسط السودان، أنظر أ. وهـ. فيشر، ١٩٧٠.
(٣٣) نحن نعرف من ابن خلدون، (ترجمة م. ج. دو سلان، ١٨٥٢ – ١٨٥٦، المجلد الثاني، ص ٣٤٦ – ٣٤٧)، أن سلطان كانم وسيد بورنو أرسل في سنة ١٢٦٨ إلى سلطان الحفصيين المستنصر زرافة كانت مصدر إثارة كبيرة بين أهل تونس.
(٣٤) ابن بطوطة، طبع وترجمة ((فرنسية) ش. ديفريميري وب. ر. سانجينتي، ١٨٥٣ – ١٨٥٩، المجلد الرابع، ص ٤٤١ – ٤٤٢.
(٣٥) الإدريسي، المرجع السابق، ص ٣٩.
(٣٦) «الديوان»، فقرة ١٧ (مجهولة المصدر).

المقريزي معلومة هامة هي أن خيل كانم كانت صغيرة الحجم بشكل خاص ، ويمكن استنتاج أن الخيل كانت تربى محليًا منذ عهد قديم[٣٧] .

وكانت كانم تستورد من الشمال أيضًا سلعًا مصنّعة كالملابس والأقمشة والأسلحة الحديدية . ويُلاحظ ابن سعيد في جملة ما يلاحظ أنهم كانوا يستوردون إلى كانم في عهد دوناما ديبالامي ملابس من العاصمة التونسية[٣٨] .وكان المهلبي قد ذكر من قبل أن ملك زغاوة يرتدي الملابس الصوفية والحريرية الآتية من سوسه . وكانت صناعة النسيج المحلية في القرن الرابع عشر متقدّمة إلى درجة أن سكان كانم كانوا يستخدمون أشرطة من القطن كعملة نقدية في معاملاتهم التجارية[٣٩] .

ويمكن الافتراض من ناحية أخرى ان النحاس أيضًا كان من بين السلع المرسلة إلى وسط السودان . فنحن نعرف أن هذا المعدن كان يُستخرج في القرن الرابع عشر – بكميات صغيرة على الأرجح – من مناجم تقع بالقرب من تاكيدّة[٤٠] . ويظن أنهم كانوا في ذلك العصر قد بدأوا فعلاً في استغلال مناجم القصدير من الهضبة النيجيرية . ويروي لنا بيتي دي لاكروا أن القصدير كان في نهاية القرن السابع عشر من السلع المرسلة من بورنو إلى طرابلس[٤١] . والمعروف أن النحاس والقصدير (والزنك أيضًا) من المعادن التي لا غنى عنها لصناعة البرونز ، ونحن نعلم أن فن المصنوعات البرونزية كان مزدهرًا في بنين ونوبي قبل مجيء البرتغاليين إلى ساحل الأطلسي.

وكان حجم المعاملات التجارية بين الشمال والجنوب يتوقّف إلى حد كبير على حالة الأمن في طريق القوافل الرئيسي في الصحراء الوسطى . ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر كانت ثلاث دول كبرى تؤمّن المرور عبر هذا الطريق : مملكة فزان في الشمال – وكانت منذ بداية القرن العاشر تحت حكم أسرة بني خطاب البربرية ، ومقاطعات كوار البربرية في الوسط ، ومملكة كانم في الجنوب . وعندما غزا شرف الدين قراقوش الوزير المملوكي في ١١٧٢ – ١١٧٣ ، اقليم فزان ، وأعمل القتل والنهب في البلاد ، تزعزع الاستقرار القديم بشكل ينذر بالخطر[٤٢] ، وكان لا بدّ أن يدفع الفراغ السياسي الذي تركه اختفاء أسرة بني خطاب ، ان عاجلاً أو آجلاً ، ملوك كانم إلى التدخّل في فزان.

وفي القرن الثالث عشر يلاحظ ابن سعيد – ومعلوماته عن كانم تتعلّق بحكم الملك دوناما ديبلامي (حوالي ١٢١٠ – ١٢٤٨) – أن ملك كانم كان فعلاً يمتلك كوار وفزان[٤٣] . ويؤكّد العمري أن مملكة كانم امتدّت إلى الشمال وكتب في منتصف القرن الرابع عشر : ان أمبراطورية كانم تبدأ من ناحية مصر بمدينة اسمها زلة – شمال شرق فزان ، وتنتهي في اتجاه العرض ، بمدينة اسمها قاقا[٤٤] . وتبعد المدينتان الواحدة عن الأخرى بمسيرة ثلاثة شهور[٤٥] . ويؤكّد الرحّالة التيجاني أيضًا عظمة مملكة كانم في ذلك

(٣٧) المقريزي ، «حوليات إسلامية» ، رقم ١٥ ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٦ .
(٣٨) ابن سعيد ، طبعة ١٩٥٨ ، ص ٩٥.
(٣٩) العمري ، ترجمة فرنسية ج. ديمومبين ، ١٩٢٧ .
(٤٠) ابن بطوطة ، ترجمة فرنسية دفروميري وسانجينتي ، ١٨٥٣ – ١٨٥٩ ، المجلد الرابع ، ص ٤٤١.
(٤١) مخطوطة ٧٤٨٨ ، مقتنيات جديدة ، المكتبة الوطنية ، باريس.
(٤٢) التيجاني ، طبعة ح. ح. عبد الوهاب ، ١٩٥٨ ؛ ترجمة فرنسية أ. روسو ، ١٨٥٢ ، ص ٥٥ – ٢٠٨ ؛ ١٨٥٣ ، ص ١٠١ – ١٦٨ ، ٣٥٤ – ٤٢٤.
(٤٣) ابن سعيد ، طبعة العربي ، ١٩٧٠ ، ص ١١٤ – ١١٥ و١٢٧ .
(٤٤) يقول القلقشندي أن قابا كان اسمًا يُطلق على عاصمة بورنو (طبعة القاهرة ، ١٩١٣ – ١٩١٩ ، المجلد الخامس ، ص ٢٨١). ويحتمل أن يكون هذا الاسم هو نفسه اسم جاجا الذي أورده ابن سعيد (انظر فيما بعد).
(٤٥) العمري ، المرجع السابق ، ص ٤٣.

العصر إذ يقول إن رسل كانم استطاعوا في (١٢٥٨ - ١٢٥٩) قتل أحد أبناء قراقوش الذي كان قد غزا ودان، وهو اقليم في شمال فزان[٤٦].

ولكن من أجل السيطرة الفعّالة على كل التجارة بين وسط السودان وشمال افريقيا كان لا بدّ من التأكّد من أن مسارات التبادل التجاري لا تحول إلى طرق جانبية. ويوضح ابن سعيد أن ملك كانم كان يمتلك غربًا مدينة تاكيدة (في النص تادمكة)[٤٧]، وكان له في الشرق نفوذًا على تجوا (الداجو) وعلى الزغاوة. وكان ملك كانم يسيطر أيضًا على مملكة جاجا الواقعة شمال غرب بحيرة تشاد، وعلى بربر الجنوب (الطوارق)[٤٨].

غير أنه من التعسّف أن نؤكّد أن كانم كانت في القرن الثالث عشر أمبراطورية واسعة ذات تنظيم اقليمي متين. لا سيّما أننا لا نمتلك أية معلومات تسمح لنا بتحديد طبيعة الحكم الذي كانت كانم تمارسه على فزان: «فالـ«ماي علي» الذي يمكن مشاهدة قبره حتى الآن في تراغن كان في الحقيقة الملك ادريس بن علي (حوالي ١٦٧٧ - ١٦٩٦) الذي توفي في فزان في طريق الحج وليس كما كان يظن «حاكمًا» قديمًا أو «نائب ملك» يمثّل ملك كانم[٤٩]. ومن جانب آخر ليس مؤكّدًا أن مملكة كانم كانت تمتدّ شرقًا حتى أطراف دارفور. وينبئنا ابن سعيد نفسه بأن جماعات التوبو في بحر الغزال - غير بعيد عن جيمي - كانوا يتمتّعون بالاستقلال[٥٠] وظاهر الأمر أن دوناما ديبالامي لم يفلح في إخضاعهم على الرغم من الحرب الطويلة التي استمرّت «سبع سنوات وسبعة شهور وسبعة أيام» التي يحدّثنا عنها ابن فورطوا[٥١] واستمرّ السكان المقيمون حول بحيرة تشاد وفوق جزر البحيرة في الدفاع هم أيضًا عن استقلالهم بنجاح. ويؤكّد ابن سعيد استنادًا إلى معلومات ابن فاطمة أن «بحيرة كوري» (تشاد) كان يحيط بها قوم من السودان المتمرّدين الكفّار من أكلة لحوم البشر»[٥٢]. وفي شمال بحيرة تشاد تقيم جماعات البَدى (البدّة) - الذين يقول عنهم المقريزي أنهم كانت تنتظمهم مملكة[٥٣] -، في الجنوب الانكازار (المماثلون لكوتوكو؟)، وفي الشمال الغربي الجابيون وفي الجنوب الشرقي عند مصب بحر الغزال القوريون (الذين استقرّوا في الجزر على أيامنا هذه). ويوجد كذلك على ضفاف البحيرة، مكان اسمه دار الصناعة («الترسانة») يقول عنه ابن سعيد: «كان السلطان في معظم الأحيان يبدأ من هنا حملته متّجهًا بأسطوله نحو بلاد الكفار الواقعة على حدود البحيرة، لمهاجمة سفنهم، واعمال القتل فيهم وأخذ الأسرى منهم»[٥٤]. ويستند المقريزي أيضًا على مصدر من القرن الثالث عشر فيذكر أسماء شعوب وثنية كثيرة تقيم بجوار كانم. ومن هؤلاء جماعات البدّة والأفنو (وهو الاسم الذي يطلقه الكانوري على الهاوسا)

---

(٤٦) التيجاني، المرجع السابق، ص ١١١.

(٤٧) فيما يتصل بالمسائل الخاصة بالتحقّق من ذلك، راجع ر. بوكاي، ١٩٧٥، ص ٧٢٠ - ٧٧٨.

(٤٨) ابن سعيد، طبعة العربي، ١٩٧٠، ص ٩٤ - ٩٥.

(٤٩) مخطوطة بيفان، جزء ٣٧، رقم ٧٤٨٨، مقتنيات جديدة، المكتبة الوطنية، باريس.

(٥٠) يقول ابن سعيد إن شعب توبو كان كافرًا أسود اللون (أنظر فيما سبق هامش ١٤ و١٥. ويذكر ناختيجال فيما جمع من معلومات ١٩٦٧، المجلد الثالث، ص ٢١٠) أن جماعات التوبو في بحر الغزال كانوا فيما يبدو أول قوم اعتنقوا الإسلام.

(٥١) ابن فورطوا، المرجع السابق، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٥٢) ابن سعيد، طبعة العربي، ١٩٧٠، ص ٩٤.

(٥٣) المقريزي، ترجمة د. لانجي، ١٩٧٩، ص ١٨٧ - ٢٠٩.

(٥٤) ابن سعيد، طبعة العربي، ١٩٧٠، ص ٩٤ - ٩٥.

والكوتوكو (في النص : كان كو)[٥٥] . ويذكر نفس المؤلّف أن ملك كانم في (١٢٥٢ – ١٢٥٣)، أغار وهو عائد من جيمي على الكالكين، وهم فرع من المابنا (المابّا في وَدّاي؟) ولعله فعل ذلك أيضًا بهدف الحصول على الأسرى[٥٦] .

ويبدو أنه يمكن الاستنتاج من هذه المعلومات أن اتّساع مملكة كانم توقّف عند حدود الاقليم الشمالي، وظاهر الأمر أن العلاقات مع الشعوب غير المسلمة في الجنوب لم تتغير. وهذا أمر لا يدهشنا لأن رخاء المملكة – أو على الاقل رخاء الملك – كان يتوقّف بشكل مباشر على العوائد المفروضة على التجارة عبر الصحراء أكثر منه على زيادة في الإنتاج الزراعي أو الحيواني. والمعروف أن العبيد كانوا يمثّلون «السلعة» الرئيسية للحصول على المنتجات المستوردة من الشمال، وكان اقتناء العبيد يتم عن طريق الغارات ضد شعوب الجنوب غير المسلمة. ولذلك لم يكن من مصلحة ملوك كانم أن ينتشر الإسلام لأبعد من حدود معينة.

ولم يكن للإسلام، حتى في كانم، جذور عميقة قبل القرن الثالث عشر. ويعتبر المقريزي – الذي وضع كتابه في القرن الخامس عشر – أن دوناما ديبالامي هو أول ملك مسلم في كانم، غير أن هذا الحكم خاطئ دونما شك إذ يحتوي الديوان على معلومات تدل على أن كل السيفيين كانوا مسلمين وحسب رواية المؤرّخين حج ملك السيفيين، دوناما بن حماي (حوالي ١٠٨٦ – ١١٤٠) مرتين، ويُقال إنه توفي في رحلة حج ثالثة، وحماي نفسه وهو مؤسّس أسرة السيفيين مات في مصر، وقد يعني ذلك –إذا كان صحيحًا – أنه هو أيضًا أدّى فريضة الحج (الديوان، الفقرة ١٢ و١٣)، ويلاحظ إلى جانب هذا أنه ابتداءً من حكم بير بن دوناما (حوالي ١١٤٠ – ١١٦٦)، كانت الزوجات الرئيسيات لمختلف الملوك مسلمات كما يتبيّن من أسمائهن أو أسماء آبائهن الواردة في الديوان. ولكن أغلب الظن أن الإسلام الصحيح لم يتأصّل بعمق في طبقات الشعب إلاّ في عهد دوناما ديبالامي (حوالي ١٢١٠ – ١٢٤٨).

ويمكن الاستنتاج من واقع المصادر الداخلية والخارجية بأن دوناما ديبالامي كان مصلحًا إسلاميًا عظيمًا، ويأخذ عليه أصحاب الديوان – الذين أغفلوا ذكر حج ملكين من كانم في القرن الرابع عشر – وكذا ابن فورطوا انه هدم شيئًا مقدّسًا اسمه «موني». ولعلّ المقصود هنا ضريح كان من العناصر الأساسية في ديانة ملكية موروثة عن العهد السابق لدخول الإسلام. ويرى ابن فورطوا – وهو نفسه واحد من الأئمة (في القرن السادس عشر) أن هذا «العمل الماس بالقداسة» هو سبب اضطرابات مختلفة، وينسب إليه بصفة خاصة أصل الحرب الطويلة ضد جماعات التوبو[٥٧] . من ناحية أخرى، يرجح أن يكون دوناما ديبالامي قد أسّس «مدرسة» في القاهرة خُصِّصت لرعايا كانم[٥٨] . ويذكر ابن سعيد أن الملك اشتهر بالجهاد (الحرب المقدّسة) وبأعماله الحميدة. ثم يوضح أنه كان يحيط نفسه بفقهاء المسلمين، وأجبر بعض شعوب وسط السودان، ولا سيّما جماعات من البربر، على قبول الإسلام[٥٩] . وهكذا يتّضح أن في النصف الأول من القرن الثالث عشر سار انتشار الإسلام جنبًا إلى جنب مع التوسّع الإقليمي.

وتوفي دوناما ديبالامي حوالي ١٢٤٨ ودُفن في زمتم، وهي مدينة تقع غرب بحيرة تشاد؛ وليس هناك

(٥٥) تحصينات مدن كوتوكو قد يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر، وكانت المدن في هذه الحقبة محاطة بأسوار لتمكّن الأهالي من مقاومة غارات كانم.

(٥٦) المقريزي، المرجع السابق.

(٥٧) ابن فورطوا، المرجع السابق، ص ١٢٣ – ١٢٤.

(٥٨) العمري، المرجع السابق، ص ٤٦. أسست المدرسة في العقد التالي لسنة ٦٢٠ هجرية (١٢٤٢ – ١٢٥٢).

(٥٩) ابن سعيد، طبعة العربي، ١٩٧٠، ص ٩٥ – ٩٦.

مصدر يمكن مضاهاته بكتاب الجغرافية لابن سعيد، فيما يقدّم من معلومات عن امتداد مملكة كانم وانتشار الإسلام في الحقبة التالية. ويسجّل الديوان أثناء حكم بير بن دوناما (١٢٧٧ – ١٢٩٦) زيارة شيخين من جماعات «الفلانة» (الفولبي) بمالي لمملكة كانم، ولكن لا يذكر شيئًا عن رحلات الحج التي قام بها ابراهيم بن بير (حوالي ١٢٩٦ – ١٣١٥) وادريس بن ابراهيم (حوالى ١٣٤٢ – ١٣٦٦)[٦٠]. كذلك العمري الذي ألّف كتابه في منتصف القرن الرابع عشر، لا يذكر إلاّ معلومات قليلة وغير دقيقة. ويقول إن كانم كانت مملكة ضعيفة قليلة الموارد والجند. غير أنه يشيد بتدين أهل كانم إذ يؤكّد «أن العدل يسود البلاد وأنهم يأخذون بمذهب الإمام مالك، وانهم يتجنّبون الترف في ملابسهم، ويؤمنون إيمانًا قويًّا»[٦١].

وإذا وثقنا فيما يروي العمري فإن كانم كانت في ذلك الوقت تسيطر على فزان أما تاكيدة فكان لها على العكس سلطان مستقل[٦٢]. ولا شكّ أن كانم، على أثر الاضطرابات التي تفجّرت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر حول وراثة العرش، اضطرت إلى التخلّي عن الانفراد بالسيطرة على طريق القوافل في الصحراء الوسطى. وعندما نجح البلاليون في نهاية القرن الرابع عشر في الاستيلاء على السلطة في كانم وكسر احتكار التجارة مع شمال افريقيا، دخل السيفيون أحلك مراحل تاريخهم.

من كانم إلى بورنو

في القرن الثاني عشر على أكثر تقدير، شرع بعض سكان كانم بالارتحال متجهين نحو الغرب للاستقرار في بورنو، غرب بحيرة تشاد. ومن بين قدامى المهاجرين إلى بورنو نذكر التوماغرا والتورا والقاي (قُيام) والنغالما دقو. ولعلّ أقدم جماعات من الماغومي يرجع أصلهم إلى كانم، في حين أن الجماعات التي تكوّنت بعد نهاية القرن الرابع عشر لا توجد إلاّ في بورنو. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، وعلى أثر حملات ادريس ألاوما الظافرة، هجر عدد كبير من التوبو ومن العرب كانم بدورهم ليستقرّوا في أرض أكثر خصبًا وأوفر أمنًا – غرب بحيرة تشاد. ولم تنته هذه الهجرات التي صحبت التوسّع السياسي كما هو مرجح بالنسبة لأنصاف البدو إلاّ في بداية عهد الاستعمار[٦٣].

والتقت الجماعات القادمة من كانم في غرب بحيرة تشاد بشعوب حضرية مختلفة تتحدّث باللغات التشادية، وأخذًا بما جرت عليه تقاليد الكانوري يمكن أن يطلق عليها الاسم الجماعي «ساو». ولم يرد ذكر شعب يحمل هذا الاسم لا عند ابن سعيد ولا عند المقريزي. غير أن المؤرّخين يروون أن أربعة من ملوك السيفيين قُتلوا في منتصف القرن الرابع عشر في معركة ضد «الساو» (الديوان. الفقرات ٢٢ – ٢٥). مات اثنان منهم في غَلِيوا وهي موقع قد يكون مطابقًا لمدينة أنغالا الواقعة في جنوب بحيرة تشاد. ويسكن أنغالا اليوم الكوتوكو[٦٤]، غير أن هناك روايات شفوية جمعت في القرن التاسع عشر تقول إن

---

(٦٠) بير بن إدريس في رسالته لسلطان مصر يطلق عليهم لقب «حاج» (القلقشندي، طبعة القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٩، المجلد الثامن، ص ١١٧).

(٦١) العمري، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٦٢) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص ٤٤١ – ٤٤٢.

(٦٣) ج. ناختيجال، المرجع السابق، ص ٤١٥ – ٤٤٧. يقدّم لنا معلومات كثيرة عن تعمير بورنو.

(٦٤) يطلق المؤرّخون في العصور اللاحقة على هذه المدينة اسم غالا («الديوان»، الفقرة ٦٦).

الكوتوكو سبقهم في عهد قديم جماعات الساو[٦٥]، وكما تذكر المصادر المكتوبة، يعود الساو إلى الظهور في النصف الأول من القرن السادس عشر كما يذكر ليون الافريقي، الذي يحدّد مكان تواجدهم في غرب بحيرة تشاد وفي جنوب بورنو[٦٦]. وبعد نصف قرن من هذا التاريخ يأتي ابن فورطوا فيطلق اسم ساو على قوميتين هما الغافاتا ويسكن أفرادها على طول الكوماد وغوبو والتّتالا على الضفة الغربية من بحيرة تشاد. وقام ادريس الأوما (١٥٦٤ – ١٥٩٦) بشن سلسلة من الغارات التي لا تبقي ولا تذر ضد هذين الشعبين، وأكره الناجين منهم على مغادرة منازل آبائهم[٦٧]. فلاذ بعضهم بجزر بحيرة تشاد والمعروف أن الجغرافي الإيطالي ج.ل. أنانيا أطلق في عام «١٥٨٢» على بحيرة تشاد اسم «ساوو»[٦٨]. واليوم يعني اسم ساو (أو «سو») في إطار التراث الكانوري شعوبًا سبقت في التاريخ الكانوري – سواء في كانم أو بورنو أوكوار – وليس لدينا بهم معرفة دقيقة.

ومن الصعب تحديد طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين كانم وبورنو قبل نهاية القرن الرابع عشر. وهناك أمر مؤكّد هو أنه بين بداية القرن الثالث عشر ونهاية القرن الرابع عشر، زادت أهمية بورنو بالنسبة لكانم. ويذكر ابن سعيد مملكة تقع غرب بحيرة تشاد، ولكنه لا يورد غير اسم العاصمة جاجا[٦٩]. وموقعها الجغرافي يحملنا على الظن بأن الأمر يتعلّق ببورنو. ويقول المؤلف: «ان مدينة جاجا هي مقر «كرسي» مملكة أخرى... لها حواضرها وأصقاعها، وهي حاليًا تابعة لسلطان كانم[٧٠]. هناك إذن احتمالات كثيرة بأن تكون بورنو قبل القرن الثالث عشر، مملكة مستقلة، ويستخدم المقريزي – الذي عرف نصًا لابن سعيد غير موجود اليوم – نفس العبارة الغامضة «كرسي» ولكنه يستعملها في الوقت نفسه لكانم وبورنو. ويقول إن ابراهيم بن بير (حوالي ١٢٩٦ – ١٣١٥) كان يجلس على عرش (كرسي) كانم، وعلى عرش (كرسي) بورنو[٧١]. ويذكر ابن خلدون فيما يتعلّق بعام ١٢٦٨ «سلطان كانم وسيد بورنو»[٧٢]. وكان ابن بطوطة قد أقام في تاكيدّة – جنوب العير – بعلم ملك من ملوك السيفيين من بورنو، ولكن المسافة التي يذكرها للوصول إلى عاصمته تصل بنا إلى شرق بحيرة تشاد في كانم[٧٣]. ويمكن التوفيق بين هذه المعلومات المختلفة إذا سلمنا بأن كانم وبورنو كانتا في بداية الأمر مملكتين مختلفتين وكانتا منذ القرن الثالث عشر تحت سلطان أسرة حاكمة واحدة هي أسرة السيفيين.

مع هذا يؤكّد العمري في منتصف القرن الرابع عشر، أن سلاطين المماليك في مصر كانوا يتبادلون

---

(٦٥) يقرّر ناختيجال وجود ضريح كبير في أنجالا يضم ٤٥ مقبرة لملوك كوتوكو. وهو يفترض أن هذا هو عدد الملوك الذين حكموا أنجالا منذ أن حلّ الكوتوكو فيها محل الساو (المرجع السابق، ص ٤٢٦ – ٤٢٧).

(٦٦) ج. ليون الإفريقي، المرجع السابق، المجلّد الأول، ص ٥ و٥٣؛ والمجلّد الثاني، ص ٤٨٠.

(٦٧) ابن فورطوا، المرجع السابق، ١٩٢٦، ص ٦٣ – ٦٩.

(٦٨) أنظر د. لانجي وس. برتو، ١٩٧٢، ص ٣٥٠ – ٣٥١.

(٦٩) هي مدينة يطلق عليها العمري اسم كاكا، ترجمة فرنسية ج. ديمومبين، ١٩٢٧، ص ٤٣.

(٧٠) ابن سعيد، طبعة العربي، ١٩٧٠، ص ٩٤. فيما يتعلّق بكوار يكاد ابن سعيد يستخدم نفس التعابير، غير أنه في هذا الموضع يؤكّد الإدريسي وجود مقاطعات عسكرية سابقة لهذا العصر. ترجمة ر. ب. أ. دوزي ودي عويجي، ١٨٦٦، ص ١١٤.

(٧١) المقريزي، طبعة هـ. أ. هاماكر، ١٨٢٠، ص ٢٠٧.

(٧٢) كتاب العبر، ترجمة فرنسية، المجلد الثاني، ص ٣٤٦ – ٣٤٧؛ ابن خلدون، ترجمة فرنسية دو سلان، ١٩٢٥، ١٩٥٦، ص ٣٤٦ – ٣٤٧.

(٧٣) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص ٤٤١ – ٤٤٢.

الرسائل مع كل من ملك كانم وملك بورنو[٧٤]، ولعلنا نستطيع فيما يبدو أن نخرج من هذه المعلومة بأن البورنو احتفظت بنوع من الاستقلال على الرغم من سيادة ملوك كانم، وأن الأسرة الحاكمة القديمة استمرت تلعب فيها دورًا كبيرًا. وعندما كان سلطان السيفيين يضعف، كانت سلطة الحكام المحليين تقوى، وعندما كان سلطان السيفيين يشتدّ، كانت قدرتهم على المناورة تضمحل. ومع هذا فإن الجوهر العرقي لا يمكن أن يكون مختلفًا، وإلاّ كيف كان ابن بطوطة يستعمل كلمة بورنو للدلالة على مملكة السيفيين؟

كان لا بدّ لهذه الأوضاع أن تتغير في نهاية القرن الرابع عشر عندما اضطر السيفيون على أثر غارات البلاليين والعرب إلى ترك كانم والإقامة بصورة نهائية في بورنو. وكان البلاليون قومًا من الرعاة كانوا يقيمون على الأرجح في منطقة بحيرة فتري، حيث لا زالوا يعيشون حتى اليوم، قبل قيامهم بالغارات على كانم[٧٥]. كانوا يسيطرون هناك على قوم كوبا وهم قوم يتحدّثون لغة قريبة من السارا. وربما كان لزحفهم على كانم صلة بهجرة بعض القبائل العربية إلى الغرب على أثر تفكّك مملكة النوبة المسيحية (بداية القرن الرابع عشر) ونجد في نهاية القرن السادس عشر عربًا يتحالفون مع البلاليين (ابن فورطوا). وفي نهاية القرن الرابع عشر قُتل أحد الملوك السيفيين أثناء قتاله العرب.

ويبدو أن السبب المباشر في تدخّل البلاليين في كانم كان الضعف الذي أصاب مملكة السيفيين على أثر النزاع الأسري بين داود بن ابراهيم نيقالي (حوالي ١٣٦٦ – ١٣٧٦) وأبناء أخيه وسلفه، ولقي ادريس داود نفسه حتفه على يد الملك البلالي عبد الجليل، وقُتل أيضًا خلفاؤه الثلاثة في قتال البلاليين. واضطر عمر بن ادريس (حوالي ١٣٨٢ – ١٣٨٧) وهو رابعهم إلى مغادرة جيمي نهائيًا. ويبدو أنه هاجر من كانم كلها (الديوان، الفقرات ٢٧ – ٣١) ويقول أخوه بير بن ادريس في رسالته ان أخاه قُتل على يد عرب جذام (لعلها جهينة؟)[٧٦]. ولقي ملكان آخران من السيفيين حتفهما في المعارك التي نشبت مع البلاليين، وذلك قبل عهد الملك بير بن ادريس الذي استمر حكمه طويلاً (حوالي ١٣٨٩ – ١٤٢١)، والذي قضى على ما كان يلوح به هؤلاء الأعداء الأشدّاء من تهديدات لمملكة السيفيين.

ولم تمر هذه الأحداث في غفلة من البلدان الإسلامية الأخرى. ويلخّصها المقريزي على النحو التالي: «في سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) تقريبًا، كان ملكهم هو الحاج ابراهيم، من ذرية سيف بن ذي يزن، وكان يجلس على عرش كانم وعرش بورنو. وتولى الحكم من بعده ابنه الحاج ادريس ثم أخوه داود بن ابراهيم ثم عمر بن أخيه الحاج ادريس، وأخيرًا أخوه عثمان بن ادريس[٧٧] الذي حكم قبل سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ / ٩٨م) بقليل. ولكن شعب كانم ثار عليهم (أي الملوك) وارتدّ عن دينه. وبقيت بورنو تحت سلطانهم. وسكان بورنو مسلمون وقد أعلنوا الجهاد على شعب كانم. ولهم اثنتا عشرة مملكة»[٧٨].

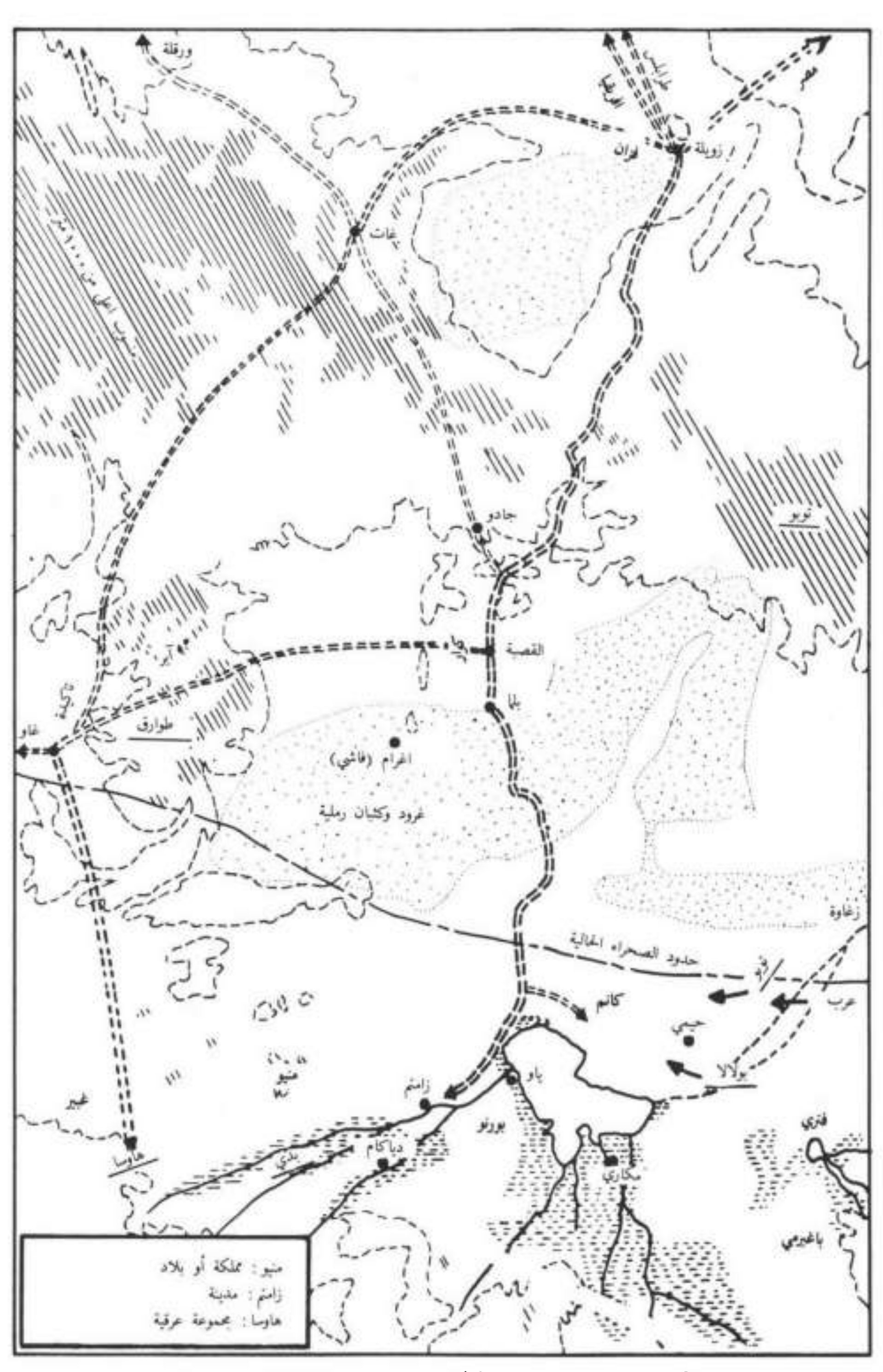
(٧٤) العمري، طبعة القاهرة، ١٨٩٤، ص ٢٧ والصفحات التالية.

(٧٥) ابن فورطوا، المرجع السابق، ١٩٣٢، ص ٤ – ٥. ويقول بارث ان البلاليين ربما كانوا ينحدرون من جد يدعى جيل شيكو ميني الذي يظن أنه من أبناء دوناما ديبلامي (١٩٧٥، المجلد الثاني، ص ٥٤٥ – ٥٨٦) ولكن الأرجح أنه لا توجد أية صلة قرابة بين البلاليين والسيفيين. (ناختيجال، «الصحراء»، ١٩٦٧، المجلّد الثالث، ص ٣٨ – ٣٩).

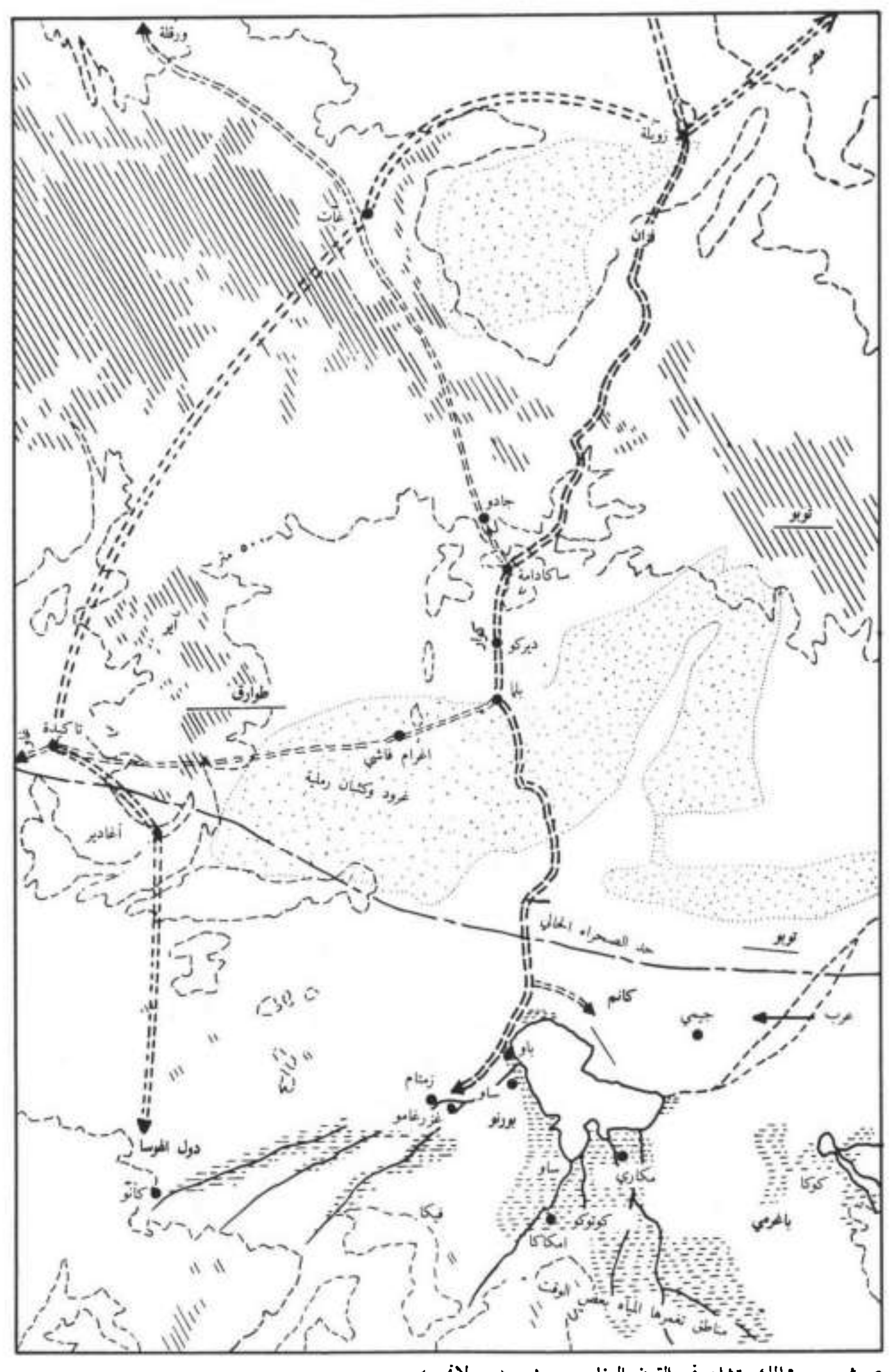
(٧٦) كان اسم جذام قد أصبح باليًا في القرن الرابع عشر (الموسوعة الإسلامية، المجلّد الأول، ص ١٠٩٠ – ١٠٩١). غير أن الجهينيين قد لعبوا دورًا هامًا في تفكيك مملكة النوبة المسيحية ثم زحفوا بعد ذلك نحو الجنوب والغرب. راجع هـ. أ. ماك مايكل، المجلد الثاني، ١٩٢٢.

(٧٧) اسمه في «الديوان» بير بن إدريس (فقرة ٣٤).

(٧٨) المقريزي، المكتبة الوطنية، باريس، مخطوطة ١٧٤٤. وقد وضعت الترجمات السابقة لهذه الفقرة عن نص خاطئ (هاماكر، «نموذج كاتالوج»، ص ٢٠٧).



• شعوب وممالك تشاد في القرن الرابع عشر (د. لانجي).



• شعوب وممالك تشاد في القرن الخامس عشر (د. لانجي).

وقد تحمل ملحوظة المقريزي على الظن بأن البلاليين لم يكونوا مسلمين ولكن لا الديوان ولا ابن فورطوا يؤكّدان ذلك. والمعلومات المتصلة بأمبراطورية السيفيين الجديدة أدعى للثقة. فقد كانت بورنو بمثابة المركز من هذه الأمبراطورية. ويبدو أن عددًا كبيرًا من الزعماء المحليين قد أعطوها عهدهم بالولاء وللتبعية. وأصبحت قاقا هي العاصمة الجديدة(٧٩) وظاهر الأمر أن بير (عثمان) بن ادريس كان من القوة بمكان ليحمل الحرب إلى أراضي العدو.

وأما البلاليون أنفسهم فقد أسّسوا مملكة قوية في كانم. ويذكر ابن فورطوا أن حلفاؤهم كانوا من التوبو ومن العرب. وعرف ليون الافريقي مملكتهم باسم «جاوجا» المشتق بلا شك من كوكا(٨٠). وتقول هذه المعلومات ان مملكة كانم كانت أوسع وأقوى من مملكة بورنو. وكان بين ملكها وسلطان مصر علاقات ممتازة(٨١). ولا يمكن أن ينصب هذا الوصف على – بداية القرن السادس عشر – وقت أن زار «ليون» كما يدعى ممالك الساحل(٨٢) – ولكنه قد يتطابق مع الحالة السائدة في نهاية القرن الخامس عشر، كما وصفها له تجار شمال أفريقيا. والمعروف فعلاً أن البورنو قد استردّوا جيمي في بداية حكم ادريس كاتاكارمابي (حوالي ١٤٩٧ – ١٥١٩) – بعد مرور ١٢٢ سنة على طردهم منها(٨٣)، غير أن البلاليين لم يهزموا بطريقة حاسمة إلاّ في النصف الثاني من القرن السادس عشر على يد ادريس الاووما.

أزمات ولاية العرش والأزمات السياسية

تتعلّق غالبية المعلومات الواردة في الديوان بتاريخ خلافة الأسر، وهذا هو الجانب الذي نعرفه أكثر من غيره في تاريخ كانم – بورنو. ومن حيث المبدأ لا يقدّم لنا الديوان سوى معلومات ذات صلة بالتعاقب على الحكم (ففقراته المتعاقبة مخصّصة للعهود المتعاقبة)، غير أن هذه المعلومات وفيرة لدرجة تمكّننا من تحديد تسلسل مختلف الملوك (سلسلة النسب بينهم) وتطور قواعد الخلافة من واحد لآخر. فعلى أساس هذه القواعد، أو بالأحرى على أساس السوابق، كان يتم اختيار خليفة للملك المتوفي. وعلى الرغم من أن علاقات القوى بين المجموعات الأسرية المختلفة كانت تؤخذ في الحسبان، فالعمل بالقواعد الموضوعة هو الذي كان يضفي على أية خلافة طابع الشرعية. لم تكن هذه القواعد مكتوبة ولكنها كانت أكثر استقرارًا خلال العصور من دساتيرنا الحالية. ولم تكن تتغير إلاّ على فترات متباعدة وعلى أثر وقوع تغيّرات أخرى هامة. وكانت المجموعات الأسرية تتشكّل وفقًا لهذه القواعد، ولم يكن في استطاعتها

(٧٩) القلقشندي، طبعة القاهرة، ١٩١٣ – ١٩١٩، المجلّد الخامس، ص ٢٨١. ورد اسم قاقا في العمري (أنظر ما سبق) وقد يكون هذا الاسم مطابقًا للفظة جاجا الواردة عند ابن سعيد، وقاغا الواردة في الديوان (الفقرة ٣١).

(٨٠) المقصود هنا مجموعة قومية وليس مدينة غاو أو غاوغا وكثيرًا ما تُكتب كاوكاو.

(٨١) ج. ليون الإفريقي، ترجمة فرنسية أبولار، ١٩٥٦، المجلّد الأول، ص ١٠؛ المجلّد الثاني، ص ٤٧٩ – ٤٨٣.

(٨٢) إن الأخطاء الكثيرة الواردة في وصف ج. ليون للممالك وسط السودان تستبعد أية زيارة منه لهذه المنطقة. ويُطلق على ملك بورنو هابرام (ابراهيم) ويذكر ملكين من ملوك غاوغا، هما موسى وعمر. والسلطان الوحيد الذي حكم بورنو باسم ابراهيم، في القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر، وهو ابراهيم بن عثمان (حوالى ١٤٣١ – ١٤٣٩) غير أن كلاً من الاسمين موسى وعمر لم يرد ذكرهما بين أسماء ملوك البلاليين في ذلك العصر.

(٨٣) ابن فورطوا، المرجع السابق، ١٩٣٢، الورقة الخامسة.

التلاعب بها كما تشاء، وتساعدنا عمليات إعادة تشكيل أو تغيير هذه القواعد بالتالي على زيادة فهمنا ليس فقط لتاريخ الأسر – بمعناه الضيق – ولكن لبعض جوانب العملية التاريخية نفسها.

ويذكر الديوان أن الملوك السيفيين الستة الأول قد توارثوا الملك ابنًا عن أب. ويشير كتبة هذه الحوليات إلى أن هذا الأسلوب في الخلافة قد انتهجه كذلك ملوك الدوغوا، ولكن فترات الحكم تدل على أن الملوك المتعاقبين لم يكن يسعهم الانتساب لأجيال متباينة. وهذا النظام في الخلافة – خلافة الأصول – ابنًا عن أب – لا بدّ أن يكون منشؤه بين حكام مقاطعات كوار من حيث جاء «حماي» مؤسّس أسرة السيفيين الجديدة.

وحدثت أول خلافة للحواشي – خلافة أخ لأخيه – بين أبناء دوناما ديبالامي، غير أن الجدير بالملاحظة أن قاضاي بن دوناما (حوالي ١٢٤٨ – ١٢٧٧) وبير بن دوناما (حوالي ١٢٧٧ – ١٢٩٦) كانا من أمين مختلفتين. وكانت أم قاضاي على الأرجح من ماغومي وأم بير من احدى عشائر كانم القديمة. ويمكن مقارنة هذا التفسير بملاحظة هامة يذكرها مؤرّخو «الديوان» في حديثهم عن حكم دوناما ديبالامي، يقولون «إن أبناء السلطان قد تفرّقوا في زمانه إلى عدة أحزاب، ولم يكن هناك أحزاب من قبل» (الديوان، الفقرة ١٧). ويجوز أن نستنتج من ذلك أن التنافس بين سلالة قاضاي، وسلالة بير تعكس منازعات أسرية نشبت منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر ولا شكّ أن منشأ هذه النزاعات، كما سبق أن رأينا، هو العداء المتصاعد بين سلالة ملوك ماغومي، وسلالات كانم الحضرية.

ويلاحظ من ناحية أخرى أن أول خلافة للحواشي (في الاتجاه الأفقي لا الرأسي) في تاريخ السيفيين حدثت كما يذكر المؤرّخون على أثر مصرع أحد ملوك كانم في كانم نفسها (أما دوناما بن حماي فقد قتل أثناء الحج). فقد لقي قاضاي حتفه في معركة مع العندكاما دوناما – من كبار الاقطاعيين في المملكة بلا شك – أما أخوه بير فقد توفي في جيمي وكانت وفاته طبيعية. وخلف ابراهيم نيقالي (حوالي ١٢٩٦ – ١٣١٥) أباه وفقًا لنظام خلافة الابن للأب، ولكنه لقي مصرعه أيضًا على يد أحد كبار الاقطاعيين اليريما محمد بن غادي، وانتقل الحكم الى ابن عمه عبد الله بن قاضاي (١٣١٥ – ١٣٣٥). ثم يعود نظام الخلافة القديم مرة أخرى: يموت عبد الله قاضاي ميتة طبيعية في جيمي ويخلفه في الحكم ابنه سلمَمَة (سلاما)، (حوالي ١٣٣٥ – ١٣٣٩). ويُستنتج من هذه المعلومات أن نظام خلافة الأصول كان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر هو النظام السائد، ولم تكن هذه القاعدة لتنتهك إلاّ باللجوء إلى العنف.

وفيما بعد فرض نظام خلافة الحواشي نفسه: تولى الحكم أربعة من أبناء عبد الله الواحد عقب الآخر، وقُتلوا جميعًا بعد فترات حكم وجيزة في معارك مع الساو. والظاهر أن الملوك من ذرية قاضاي تنازلوا عن الملك لأحد أحفاد بير، ادريس بن ابراهيم نيقال (حوالي ١٣٤٢ – ١٣٦٦) بعد أن عجزوا عن هزيمة الساو. وربما كان هذا الملك أكثر تفاهمًا وتسامحًا مع سكان بورنو الأصليين إذ كان هو نفسه من سلالة بير بن دوناما الذي كانت تربطه علاقات وثيقة بسكان كانم من غير الماغومي. وعلى كل حال يبدو أنه توصّل إلى اتفاق للتعايش مع جماعات الساو وإلى إقرار النظام في بورنو.

وعند وفاة ادريس، طُرحت مسألة الخلافة بحدة لم تُعرف من قبل: من يخلفه؟ أإبن أم أخ؟ ووقع الاختيار على أخ غير شقيق، هو الملك داود، وجاء هذا الاختيار على حساب أبناء ادريس[٨٤]. غير

(٨٤) على عكس أبناء دوناما ديبالامي، لا يبدو أن أبناء ابراهيم نيقالي كانوا يمثّلون بمجموعتين مختلفتين: وتشير بيانات الديوان إلى أن كلاً من أم ادريس وأم داود كانتا بالفعل شقيقتين. ومن المرجح أنهما تنتميان للماغومي.

أن هؤلاء لم يستسلموا للأمر . ويذكر مؤرّخو الديوان فعلاً أنه أثناء حكم داود نشبت الحرب بين ابن – أو أبناء – السلطان والسلطان نفسه(٨٥) ، ويظن أن حرب الخلافة هذه حملت البلالبين ، وقد ضعفت سلطة السيفيين ، على التدخّل : ففي الفترة بين ١٣٧٦ و ١٣٨٨ سقط سبعة ملوك قتلى في قتالهم ضد الغزاة (الديوان ، الفقرات ٢٧ – ٣٣) . كذلك أدّت حرب الخلافة هذه إلى تكوين فريقين من الفروع ، الداوديين والإدريسيين ، وكان الصراع بينهم على الحكم يتسم غالبًا بالعنف ، مما أدى إلى إضعاف مملكة السيفيين إلى حد خطير . وبعد قرن من الزمن فقط حلّت مشكلة الخلافة بالقضاء المبرم على أحد الفريقين المتنازعين.

في المدى القصير أثار العدوان الخارجي في الفريقين رد فعل مشتركًا وهو الدفاع عن المملكة : واستطاع عثمان (حوالي ١٣٧٦ – ١٣٧٩) أن يخلف أباه داود دون أي مشقة ، وبعد ذلك تناوب الداوديون والأدارسة على الحكم حتى نهاية المعارك في كانم . وفي ذلك العصر ، طغت ظاهرة الخلافة عن الحواشي فجاء عثمان بن ادريس بعد عثمان بن داود ، وخلف عمر ابن ادريس أبا بكر بن داود . وكان جليًا أن مبدأ الخلافة الشرعية كان يخضع – للمقتضيات السياسية الراهنة .

وليس من الغريب في هذه الظروف أن يصل رجل من غير السيفيين إلى الحكم : وفعلاً تولى الملك (وليس السلطان) سعيد (حوالي ١٣٨٧ – ١٣٨٨) الحكم خلفًا لعمر ، الذي أكرهه البلاليون على ترك كانم . وهكذا كان سعيد أول ملك يولي حكم بورنو وحدها ، ولعلّ السبب في اختياره أنه كان يمثل أحسن من غيره مصالح السكان في هذا الجزء من المملكة القديمة بل كان يمثّل أسرة البورنو الحاكمة القديمة . وقد لقي هو وخلفه قاضاي أفنو بن ادريس (حوالي ١٣٨٨ – ١٣٨٩) مصرعهما في المعارك التي خاضاها ضد البلالبين قبل أن يتمكّن بير (عثمان) بن ادريس أخيرًا من دحر الغزاة .

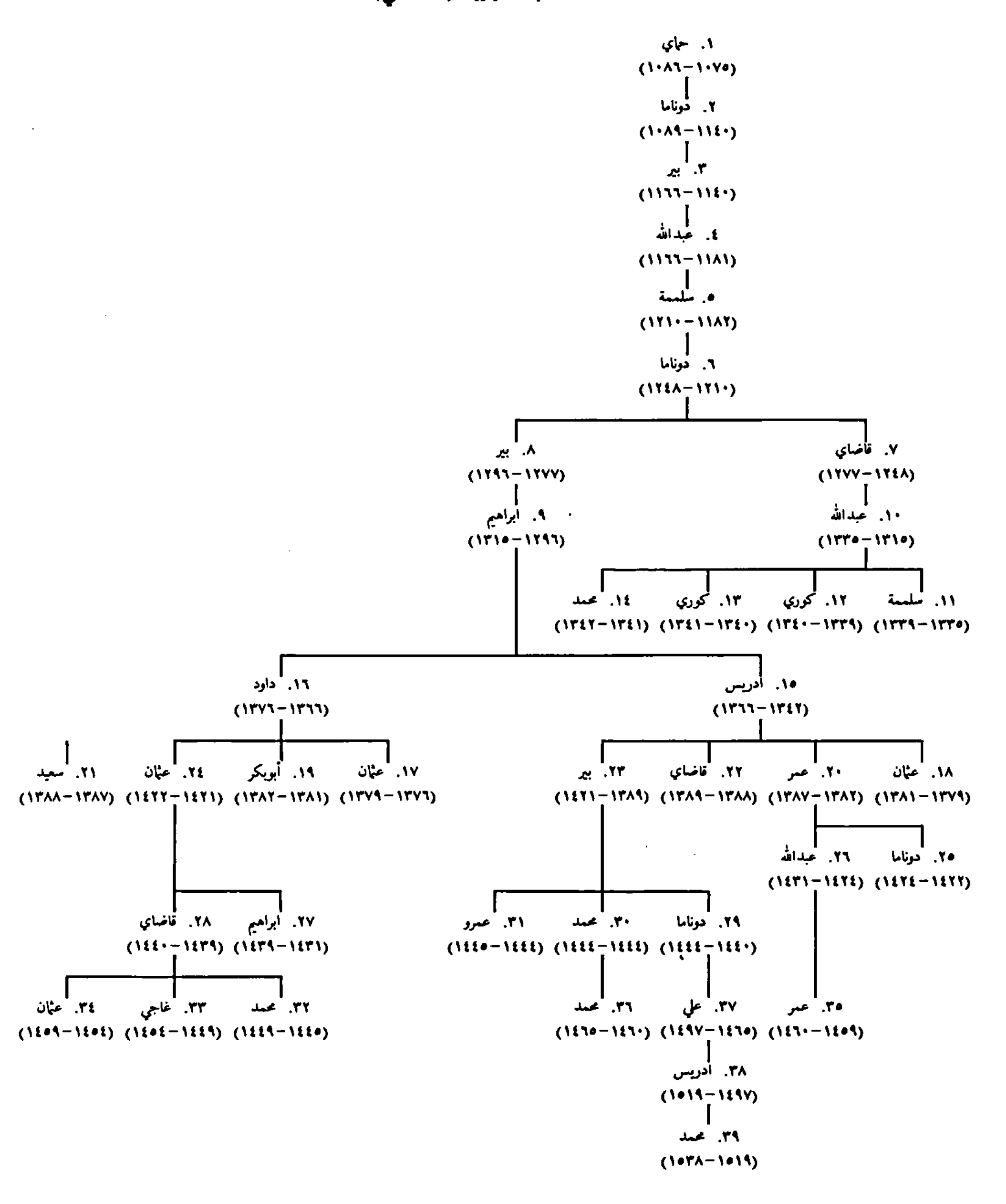
وقد يظن أن هذا النجاح سيعطي للأدارسة الوسائل الكافية لإبعاد ذرية داود عن الحكم نهائيًا . فالداوديون في ذلك الوقت صدّوا عن الخلافة ثلاث مرات ، وكان من شأن الفترة الطويلة التي حكم فيها بير (عثمان) بن ادريس (حوالي ١٣٨٩ – ١٤٢١) أن تجعل عودتهم إلى الحكم أمرًا غير مضمون . وإذا كان عثمان كلناما بن داود (١٤٢١ – ١٤٢٢) قد استطاع مع ذلك تولي الحكم بعد بير (عثمان) ، فالسبب في ذلك أن الذين استولوا على الحكم في ذلك الحين لم يكونوا على أغلب الظن من السيفيين بل من بعض كبار موظفي المملكة .

ويذكر لنا الديوان أن بير (عثمان) نفسه اضطر إلى محاربة الكايغاما (رئيس الجيش) محمد دالاتو . ونحى خلفه عثمان كلناما بعد تسعة شهور فقط من الحكم على يد الكايغاما نيقال بن ابراهيم واليريما (حاكم الشمال) قاضاي كاغاكو . وانتقلت السلطة بعد ذلك الى اثنين من أبناء عمر بن ادريس ، دوناما (حوالي ١٤٢٢ – ١٤٢٤) وعبد الله (حوالي ١٤٢٤ – ١٤٣١) قبل أن تذهب الى اثنين من الداوديين ، ابراهيم بن عثمان (حوالي ١٤٣١ – ١٤٣٩) وقاضاي بن عثمان (حوالي ١٤٣٩ – ١٤٤٠) . ومما لا ريب فيه أن هذا التأرجح في السلطة بين السلالتين يرجع إلى تلاعب موظفي المملكة بمسألة الخلافة ، ولا سيّما الكايغاما . ولا يدع مؤرّخو الديوان مجالاً للشك في النفوذ الكبير الذي كان يتمتّع به الكايغاما في ذلك العصر . ويذكرون بصدد حكم عبد الله بن عمر أن الكايغاما عبد الله داغلما قد نحاه عن الحكم أولاً وأحلّ محله ابراهيم بن عثمان الداودي ، وأنه أعاده ثانية إلى الحكم بعد موت هذا الأخير . ولهذا يمكن

---

(٨٥) ربما ظننا أن المقصود هنا هم أبناء داود ، ولكن لو كان هذا هو الحال ، لذكر المؤرّخون أن الحرب نشبت بين السلطان وابنه (أو أبنائه) ، كما فعلوا بصدد الحديث عن حكم دوناما ديبالامي («الديوان» ، الفقرة ١٧) .

سلسلة نسب السيفيين (د. لانجي)



القول بأن الحكام الفعليين في بورنو كانوا خلال عشرين سنة على الأقل من الزعماء العسكريين وليسوا أمراء الأسرة المالكة.

وليس من المصادفة أن يبدأ ظهور نفوذ كبار الموظفين المتصاعد لا سيّمَا نفوذ الكايغاما، أثناء حكم بير (عثمان) في ذات الوقت الذي قضى فيه على الخطر الخارجي المتمثّل في البلاليين. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها كان من مغريات الأمور لكبار المسؤولين عن تقوية المملكة أن يمنوا بنفوذهم على الأسرة الحاكمة، وربما كانوا أضعف وأكثر تفككًا من أن يسعوا للحلول محل السيفيين[٨٦]، غير أنهم استخدموا لأغراضهم الانقسامات القائمة بين المجموعات الأسرية، فأشعلوا من جديد الأزمة الأسرية التي كان في الإمكان حلّها بعد حكم بير (عثمان) الطويل.

ووقعت بعد ذلك وطوال عشرين سنة، اشتباكات مباشرة بين الداوديين والأدارسة وهاجم دوناما بن بير (حوالى ١٤٤٠ – ١٤٤٤) قاضاي بن عثمان واستردّ الملك لبني ادريس. وخلفه أخوان له استمر حكمهما معًا أقل من سنتين – محمد بن متلا، وعمرو بن عائشة بنت عثمان[٨٧] قبل أن يعود الداوديون مرة ثانية إلى الحكم. ولا نعرف الظروف التي في ظلّها خلف محمد بن قاضاي (حوالى ١٤٤٥ – ١٤٤٩) عمرو، ولكن يحتمل أن يكون قد فرض نفسه بالقوة وخلفه من بعده أخواه غاجي بن إماتا[٨٨] (حوالى ١٤٤٩ – ١٤٥٤) وعثمان بن قاضاي (حوالي ١٤٥٤ – ١٤٥٩) وهزم هذا الأخير على يد علي غاجديني ومعه ينتهي وجود الداوديين كقوة سياسية. وانتهى النزاع الأسري الكبير الذي استمرّ قرابة قرن ومزق البلاد، بانتصار الأدارسة انتصارًا تامًا.

لكن علي غاجديني، ابن دوناما بن بير، لم يكن متأكدًا من الخلافة، ويبدو أن اثنين من نسل دوناما بن بير «أقدم منه» كانا أحق بها منه بالفعل، ولم يتول علي غاجديني الحكم إلاّ بعد عمر بن عبد الله (حوالى ١٤٥٩ – ١٤٦٠) ومحمد (حوالى ١٤٦٠ – ١٤٦٥). ويجب التسليم بأنه خلال هذه الحرب الطويلة بين الداوديين والأدارسة استطاعت الأسرتان تدعيم بنيانهما تمامًا وبأن خلافة الحواشي (بترتيب السن) حتى انقراض جيل بكامله. فرضت نفسها فرضًا كقاعدة لم يستطع قاهر الداوديين نفسه الخروج عليها.

وقد وصلنا قليل من المعلومات الأصيلة عن حكم علي غادجيني (حوالي ١٤٦٥ – ١٤٩٧) وكل ما نعرفه بالتأكيد هو أنه شيّد مدينة غازرغامو (الواقعة بين كانو وبحيرة تشاد). التي ستظل عاصمة السيفيين أكثر من ثلاثة قرون. وتقاس أهمية حكمه بما حدث من تحوّل في قاعدة الخلافة في ذلك العصر لصالح سلالته الرأسيين، ابنه ادريس كتكرمالي (حوالى ١٤٩٧ – ١٥١٥)، وحفيده محمد بن إدريس (حوالى ١٥١٥ – ١٥٣٨) وبعد فترة الاضطرابات الطويلة، كانت عودة نظام خلافة الأصول في نظر أهالي بورنو بمثابة العودة إلى العهد الذهبي.

---

(٨٦) إن أسماء مختلف الكيغامات لا تدعو إلى استنتاج أن وظيفتهم كانت وراثية في ذلك الوقت. ويقدم أ. سميث الافتراض القائل بأن الكيغامات كانوا زعماء كماغا (في جنوب بورنو) وأنهم كانوا متأثرين بزحف السيفيين على أرضهم («الدويلات القديمة») ولما كانت الصبغة العسكرية لوظيفة الكايغاما لم تذكر إلاّ في النصف الثاني من القرن السادس عشر (ابن فورطوا) فإن هذا الافتراض يظلّ قائمًا بكل قوته.

(٨٧) إذا أغفل مؤرّخو الديوان ذكر بنوة العصب، فذلك لأنها كانت على الأرجح معروفة في ذلك الوقت. ولا يمكن أن نستنتج من ذلك أن محمدًا وعمرو كانا من المغتصبين.

(٨٨) أنظر الهامش السابق.

الفصل الحادي عشر

الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط

بقلم مهدي آدامو*

مقدّمة

يقع الحيز الذي يسكنه عادةً الهوسا في منطقة تمتدّ من جبال العير شمالاً حتى السفح الجنوبي لهضبة جوس جنوبًا، ومن حد مملكة برنو القديمة شرقًا حتى وادي النيجر غربًا. والهوسا هنا هي اللغة المحلية الوحيدة المعروفة منذ زمن بعيد. ولم يكن لهذه الأرض اسم محدّد، وإنما كانت تسمى كازار (قصر) هوسا فحسب، أي بلاد لغة الهوسا، كما لو كان الأمر يتعلّق بإبراز أهمية هذه اللغة. لكن المنطقة التي كانت لغة الهوسا مستعملة بها باعتبارها لغة أساسية للاتصال، قد امتدّت نحو الجنوب ونحو الغرب بفضل موجات من الهجرة والتمثل، في حين كان يتسرّب إلى هذا الإقليم ويستقر فيه، شمالاً عدد من الشعوب غير الهوسا ولا سيما الطوارق والزبرمة (الجرمة) والفولبي (فولاني).

والهوسا حاليًا هي اللغة السائدة في حزام السفانا بالسودان الأوسط. وتتكلّمها عدة مجموعات امتزج بعضها ببعض عبر القرون حتى انتهى بها الأمر إلى اكتساب نفس الذاتية الثقافية، وأفرزت معًا حضارة مشرقة. وبالفعل، يمكن أن نقول مع غي نيكولاس إن: «الهوسا، وهي تتكلّم نفس اللغة، وتتبع نفس التقاليد، وتخضع لنفس المؤسسات السياسية، تكوّن احدى المجموعات العرقية الهامة أكثر من سواها في افريقيا. وما أكثر الشعوب المجاورة لها التي تخلّت عن لغتها الأصلية وتقاليدها، وقد استهوتها ثقافة الهوسا، لتصبح جزءًا منها»[1].

(*) قرّر المكتب مراجعة هذا الفصل مستعينًا بمساهمة أ. ساليفو. وقد تولّت مراجعة هذا الفصل لجنة فرعية عيّنتها اللجنة العلمية الدولية لكتابة تاريخ عام لافريقيا، وتتكوّن من الأساتذة ج. ديفيس وأ. هربك وي. طالب.

(١) غ. نيكولاس، ١٩٦٩، ص ٢٠٢.

لكن من أين جاءت هذه المجموعة؟ وما هو أصلها؟ هذان هما السؤالان اللذان سنعالجها في الجزء الأول من هذا الفصل، قبل تحليل تكوّن دول الهوسا وتطوّرها حتى القرن السادس عشر. وسنحاول في الأجزاء التالية، بصورة أخص، تحليل ما لدول الهوسا من نظام سياسي وإداري، وتحليل تركيبها الاجتماعي والاقتصادي كذلك. وسنهتم في كل هذا الفصل بدراسة طبيعة وخصوصية العلاقات التي كانت قائمة بين هذه الدول، وكذلك مع الدول المجاورة مثل الصنغي وبورنو.

أصل الهوسا

طُرحت عدة نظريات، غالبًا ما تتناقض أو تتضارب، بخصوص أصول شعب الهوسا. ويمكن تلخيصها في الأربع نظريات التالية:

– النظرية الأولى المؤسسة على تأويل خاطئ لأسطورة بياجدّة (أو دورة) تزعم أن أجداد شعب الهوسا هم أصلاً عرب من بغداد بالعراق[٢]. وقد زوّدنا أ. سلفو مؤخرًا برواية أخرى لهذه الأسطورة، في حين كان و.ك. هلام يؤولها باعتبارها قصة لظهور سلالات حاكمة جديدة ببلاد الهوسا في مطلع الألف الحالي[٣]. ويقول ع. سميث: «إن كانت أسطورة بياجدة تدل على شيء، فإنما تدل على تأثير بورنو في مؤسسات الهوسا السياسية، مما قد تبيّنه إلى حد ما الكلمات الكنوري في معجم الهوسا»[٤]. ولم يعد المؤرّخون يعيرون أي قيمة للنظرية القائلة بالأصل العربي.

– تؤكّد النظرية الثانية، أن شعب الهوسا كان يقيم، في الأصل بجنوب الصحراء، قبل أن تصبح صحراء. وعندما جفّت هذه المنطقة، هاجر الهوسا نحو الجنوب[٥].

وبعد أن نفذوا إلى شمال نيجيريا الحالية، دحروا الشعوب المحلية على هضبة بوشي، أو – حسب فرضية أخرى – وجدوا هذه الأرض قليلة العمران، لهم فيها مجال متسع يغنيهم عن طرد السكان المحليين منها. وهذا يفسّر سبب وجود عدة أعراق في هذه الهضبة، تنتمي لغاتها إلى مجموعة لغوية مخالفة للهوسا. ونظرية انتساب الهوسا إلى الصحراء محتملة، لكن ليس هناك أمر واقعي يثبتها. ولذا تبقى مجرد فرضية.

– النظرية الثالثة تعارض النظريتين الأوليين: فهي تؤكّد أن أسلاف الهوسا كانوا سكان الضفة الغربية لبحيرة تشاد الكبرى[٦]، الذين يعيشون من الصيد، ومن صيد الأسماك ومن زراعات غذائية. وعندما بدأت البحيرة في التقلّص، وبلغت حجمها الحالي، قرّروا البقاء في نفس المكان وأن يصبحوا مزارعين مستقرين. وتقول هذه النظرية التي قدّمها سَتون مؤخرًا ان البلاد التي تكوّن ممالك دورا وكانو ورانو

(٢) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، الجزء الثالث، ص ١٣٣ وما بعدها.
(٣) أ. سلفو، ١٩٧١، ص ٢٤٥ – ٣٢١، وك. هلام، ١٩٦٦، ص ٤٧ – ٦٠.
(٤) عبد الله سميث، ١٩٧٠، ص ٣٢٩ – ٣٤٦. وانظر بشأن تأثير الكنوري في لغة الهوسا، ج. هـ. غرينبرغ، ١٩٦٠، ص ٢٠٥ – ٢١٢.
(٥) ع. سميث، ١٩٧٠، المرجع المذكور.
(٦) بحيرة تشاد الحالية هي بقية بحر داخلي قديم كان يغطي في العهد ما قبل التاريخي منطقة من ٤٠٠ ألف كيلومتر مربع. وقد بلغت البحيرة مستواها الأقصى حوالى ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد. وقد استمرّ ذلك المستوى حتى ٤٠٠٠ قبل الميلاد. راجع المجلّد الأول، الفصل السادس عشر.

وغارون غوباس كانت الموطن الذي نمت فيه حضارة الهوسا ؛ ومن ثم امتدّت هذه الحضارة نحو الغرب والشمال ، إلى أن عمّت مناطق كتسينه ، وزازو ، وغوبر ، وزمفرة وكبي . ويلخّص ستون نظريته بالطريقة التالية : «يتلخّص تاريخ بلاد الهوسا في الألف الحالي اجمالاً في حركة نحو الغرب ، من منطقة هديجيه – دوره – كانو إلى منطقة سوكوتو وما وراءها»(٧) . وبالتالي فإنه يرفض رفضًا تامًا الأطروحة القائلة بأصل الهوسا الصحراوي التي يدافع عنها ع . سميث . غير أن نظريته ما تزال في حاجة إلى دلائل قطعية .

– اقترح أخيرًا م . أدمو نظرية رابعة لتوضيح أصل الهوسا(٨) . والحجة الأساسية التي تستند إليها هذه النظرية هي أنه لم يكن لأية طائفة من شعب الهوسا أبدًا رواية تتعلّق بالنزوح من بلاد الهوسا ، وبخلاف ذلك ، فإن بعض الروايات المتناقلة محليًا تؤكّد أن أجداد الهوسا ، في هذه النواحي ، قد خرجوا من «ثقوب الأرض» . ويبدو أن هذا النوع من الروايات – الذي نلقاه في غير هذا المكان من افريقيا – دليل على أن أجداد شعب الهوسا كانوا من المحليين . وبالتالي ، يبدو أنه يجب أن نجعل أصل الهوسا بالضبط في هذه الأرض التي نسميها حاليًا بلاد الهوسا . وطبيعي أن هذه المجموعة العرقية قد استفادت أيما استفادة من موجات الهجرة القادمة من الشمال ومن الشرق . وفيما بعد ، جاءت بعض شعوب الونقارة (ديولا) والفولاني من الغرب واستقرّت في بلاد الهوسا . وما من أمر يناقض هذه النظرية القائلة بأن لغة الهوسا ومجموعة الهوسا العرقية نشأ منذ البداية في بلاد الهوسا . وما من شك في أن هذه النشأة تبقى غامضة بسبب المسافة الزمنية(٩) .

ومن المحتمل جدًا ، من ناحية أخرى ، أن الأرض التي تسكنها شعوب الهوسا كانت تضم في عهد بعيد بعض الأجزاء من جنوب الصحراء وخاصة الأزبين (العير)(١٠) . وتشير مصادر مختلفة إلى أن هذه المنطقة قد فتحها ، في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، الطوارق الذين أجبروا أغلب الهوسا الذين كانوا يعيشون هنالك على الهجرة جنوبًا نحو غوبر . واضطر الهوسا ، أمام الضغوط المسلّطة عليهم من الشمال ، إلى الانتقال جملة نحو الجنوب والاستقرار في مناطق تقطنها مجموعات عرقية أخرى . وفي القرون التالية ، تبنّت هذه المجموعات لغة الهوسا وعاداتها شيئًا فشيئًا .

وكلمة «هوسا» باعتبارها اسمًا عرقيًا لشعوب بلاد الهوسا ، لا تظهر في الوثائق المكتوبة إلاّ حوالى القرن السادس عشر أو السابع عشر . وحتى هذا العهد ، لم تكن شعوب الهوسا تُعرف إلاّ بأسماء مدنها أو ممالكها (قناوة وكتسناوة وغوبراوه الخ ...) . وفي مطلع القرن السادس عشر ، كتب ليون الافريقي أن اللغة المشتركة للمنطقة التي تكون حاليًا شمال نيجيريا كانت لغة البربر(١١) . ومع ذلك كان السيوطي ، المؤرّخ

---

(٧) ج . ا . ج . ستون ، ١٩٧٩ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٨) م . أدامو ، «ألف سنة من مساهمة بلاد الهوسا في التجارة العابرة للصحراء» (بالانجليزية) . وحتى عبد الله سميث (١٩٧٠) يؤكّد أن الشعوب الناطقة بالهوسا سكنت منذ فترة بعيدة جدًا المنطقة التي يسكنونها حاليًا .

(٩) تركنا جانبًا النظريات – المحمّلة بأكثر مما تحتمل – القائلة بأن الهوسا من أصل قبطي أو نوبي أو بربري كما ذهب إلى ذلك ك . ك . ميك ، ١٩٣١ ، المجلّد الأول ، ص ٦١ – ٨٧ ؛ وك . ر . نيفن ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ؛ وهـ . ر . بلمر في كتاباته العديدة التي هي تفريعات «للأسطورة الحامية» التي صارت اليوم بالية . أنظر بهذا الشأن المجلّد الأول ، ص ٣٥ وما بعدها .

(١٠) يزعم موني ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ ، أن الهراتين الحاليين في الواحات الصحراوية هم أحفاد السود القدامى الذين كانوا جزءًا من السكان الناطقين بالهوسا .

(١١) ليون الافريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي) ، ترجمة فرنسية إيبولار ، ١٩٥٦ ، المجلد الأول ، ص ٩ .

المصري (١٤٤٥/١٥٠٥) يستعمل كلمة هوسا للأرض المذكورة في رسائله إلى ملوك السودان والهوسا والتكرور[١٢] كما أن المؤلفين التمبكتوين لتأريخ الفتاش وتأريخ السودان يستعملان بانتظام كلمة هوسا حين يتحدّثان عن مناطق الضفة اليسرى لنهر النيجر التي كان يسكنها شعب الهوسا، وبالمقابل، كانا يستعملان عبارة غورمه للحديث عن سكان الضفة اليمنى[١٣].

كلمة هوسا في الأصل كانت تحيل على اللغة الأم لسكان بلاد الهوسا حيث كان الناس يسمون هم أنفسهم هوساوا، أي الذين يتكلّمون الهوسا[١٤]. ومع ذلك، فإنهم يستعملون أحيانًا كلمة هوسا، للدلالة فقط على الأرض المكونة من الممالك القديمة لزمفرة وكبّي وغوبر، مؤكّدين بذلك بطريقة غير مباشرة الحوليات السودانية، بما أن هذه الممالك كانت أقرب أراضي الهوسا من الصونغي.

ولأن يكون الاستعمال المعمم لكلمة «هوسا» باعتبارها اسمًا عرقيًا من أصل متأخّر نسبيًا، فذلك ما يبيّنه وجود عدة مجموعات غير مسلمة في نيجيريا والنيجر لا يتكلّمون إلاّ الهوسا ويشتركون في ثقافة الهوسا لكنهم يرفضون أن يدعوا هوسا. وفي نيجيريا، يسمون أنفسهم (ويسميهم الهوسا الآخرون) مغزاوة (أو بامغوج) في حين يُعرفون في النيجر باسم أزنة أو أرنه، وهما كلمتان تعنيان وثنيين عند الهوسا. ويعتبر هؤلاء الأزنة/الأرنه أن الامتداد الجغرافي لكلمة «هوسا» تحده مناطق زمفرة وكبي وغوبر. وحيث أن كلمة «مغزاوة» قد تكون مشتقة من اللفظ العربي مجوس (عبدة النار في الأصل ثم «كافر»)، فمن الممكن ان استقطاب الهوسا – مغزاوة/أرنه لم يبدأ إلاّ مع انتشار الإسلام داخل شعب الهوسا، أي بعد القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وفي هذا الفصل، سنستعمل لفظ «الهوسا» لتعيين كل الشعوب التي تتكلّم الهوسا أصلاً، مهما يكن موقعها الجغرافي أو دينها.

نشأة دول الهوسا وتطوّرها

تذكر أسطورة الهوسا الشعبية المتعلّقة بأصل هذا الشعب خروج الأمير بياجدّة من بغداد، واتجاهه غربًا إلى كانم – بورنو[١٥]. وقد زوّج الماي (الملك) ابنته الجيرة الى بياجدّه، لكنه حرمه من حراسه. وفرّ بياجدّه غربًا خوفًا من الماي، ووصل بعد فترة من الزمن الى مدينة، حال من وصول سكانها الى

(١٢) أنظر هـ. ر. بلمر، ١٩١٤، ص ٤٠٧ وما بعدها.

(١٣) «تأريخ الفتاش»، لمحمود الكعتي، ترجمة فرنسية، ١٩١٣، ص ٥٣ و١٧٨ و٣٣٠؛ «تأريخ السودان»، للسعدي، ترجمة فرنسية، ١٩٠٠، ص ٤١ و١٥٢ و٢٣٢؛ أنظر أيضًا ن. سكينّر ١٩٦٨، ص ٢٥٣ – ٢٥٧.

(١٤) يربط د. أولدروج، ١٩٥٩، ص ٦٨، الاسم العرقي هوسا بكلمة هوسا في لغة الهوسا، وتعني لسان ولغة. أنظر «ناغاني هوباركا»، «أفهم لغتكم».

(١٥) يعتبر كل من هـ. ر. بلمر، ١٩٣٦، ص ٢٧٣ وو. ك. هلّم، ١٩٦٦، ص ٤٧ – ٦٠، أن لبياجدّة هذا صلة تاريخية بأبي يزيد، الذي قاد ثورة خارجية من ثورات البربر ضد الفاطميين بشمال افريقيا خلال النصف الأول من القرن العاشر. ومن المحتمل أن أبا يزيد قد وُلد في غرب السودان، وقد وُلد لجارية بتدمكة وقتله الفاطميون سنة ٩٤٧.

(١٦) نجد أيضًا أسطورة البطل قاتل الأفعوان عند المندنغو (أصول ملوك وغدو).

مصادر الماء ثعبان كبير يدعى سركي (رئيس). فقتل الأفعى بسيفه[١٦]؛ ولمكافأته تزوجته الملكة «دورة»، ملكة تلك المدينة، وأهدته جارية أيضًا.

ووُلد له من دورة ولد سُمي باوغري، وأنجبت له الجارية طفلاً آخر، دُعي كاربوغاري أو كرافغاري (فاتح المدن) وسُمّيت المدينة داورا. ووُلد لباو، الذي خلف أباه، ستة أولاد هو الآخر، ثلاثة أزواج من التوائم أصبحوا رؤساء كانو ودورا، وغوبر وزازو (زغزغ أو زارية)، وكتسينة ورانو، بالإضافة إلى بيرام التي كان يحكمها ابن بياجدّة الذي أنجبته له أميرة بورنو؛ وكوّنت هذه الدول السبع «هوسا بكواي»، أي دول هوسا السبع.

وأسّس أبناء كاربوغاري أيضًا سبع دول، وهي كبّي، وزمفرة، وغواري، وجدكون (كوارارافة)، ويوروبا، ونوبه، وياوري، التي تسمّى بنزة بكواي: الهجن السبع، أو «السبع التافهات»[١٧].

وهذه الرواية، وإن تضمّنت تفصيلات أبعد قدمًا، فإنّها تعكس ما نتج من وضع في شمال نيجيريا في القرن السادس عشر. والدول التي كوّنت الهوسا بكواي هي تلك التي بقيت بعد قرون من الكفاح المظفّر ضدّ المجموعات المجاورة المنافسة. وكما بيّن عبد الله سميث، لم تنشأ الممالك والحكومات المركزية في بلاد الهوسا كأثر من مآثر بطل مؤسّس لحضارة قادم من الشرق، حامل لثقافة راقية: فأسطورة بياجدّة ذاتها تقر أنه عندما وصل إلى «دورة» وجد بها ملكة[١٨]. وتتكرّر نفس القصة في كانو حيث كانت توجد سلالة ملكية تحكم المدينة قبل مجيء باغودة ابن بياجدّة الذي يُعتبر مؤسّس كانو. وكل هذا يعني أن المدلول الحقيقي لأسطورة دورة لم يكشف بعد.

وكون هذه الأسطورة ذات أصل متأخر نسبيًا، فذلك ما يشهد به وصفها اللافت للنظر لتقسيم العمل بين مدن الهوسا. فقد أصبحت كانو ورانو، حسب هذه الأسطورة سراكنان بابا، (ملكا النيلة)، لأنها كانتا تشتغلان أساسًا بإنتاج المنسوجات وصبغها؛ وسُمّيت كتسينة ودورة سراكنان كزوة، (ملكا السوق) نظرًا لأن التجارة كانت مركّزة في هاتين المدينتين. وكان غوبر سركين يكي، (ملك الحرب)، وكانت مهمته الدفاع عن المدن الأخرى ضد الأعداء الخارجيين؛ وأخيرًا صارت زغزغ (زاريا) سركين بايي، (ملك العبيد)، لأنها توفّر اليد العاملة من العبيد لمدن الهوسا الأخرى[١٩]. وتعكس هذه القصة الوضع العام الذي ساد بعد إنشاء أهم المدن – الدول الهوسية، عندما بلغت مستوىً عاليًا من النمو الاقتصادي.

ويبدو أن ظهور دول مركّزة كان مرتبطًا وثيق الارتباط بإقامة مدن كبرى تسمى بيراني (مفرده: برني)، كوّنت مراكز السلطة السياسية. وكانت مدن الهوسا متفاوتة الأهمية حسب العهود، ولهذا السبب لن نعالج إلاّ تطور بعضها مثل كانو وكتسينة وزازو (زارية) وغوبر وكبّي التي قامت بدور هام، بعد القرن الرابع عشر على وجه الخصوص.

(١٧) أنظر هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١٣٢ – ١٣٤. تختلف الروايات المتعدّدة لأسطورة «دورة» هذه فيما يخص تركيب مجموعتي السبعة هذه: إذ نجد ضمن الهوسا بكواي أحيانًا زمفرة وكبّي وبوشي (باستثناء بيرم ورانو)، في حين تدرّج في قائمة بنزة بكواي غوامبي وبوشي وغورمه وزبرمة وبورنو. أنظر د. أولدروج، ١٩٥٩، ص ٧٢ – ٧٣ حيث وُضعت كل هذه الاختلافات في جداول.

(١٨) ع. سميث، ١٩٧٠، ص ٣٢٩ وما بعدها.

(١٩) أ. ج. ن. ترمين، ١٩١٣، ص ١٤١.

كانو

تاريخ كانو هو التاريخ المعروف أفضل من سواه ، بفضل حولياتها وثراء رواياتها الشفوية[٢٠] . وكانت الأرض التي كوّنت فيما بعد مملكة كانو خاضعة في الأصل لحكم مقاطعات صغيرة على رأس كل واحدة منها رؤساء ينبع ما لهم من سلطة على سائر السكان من قيامهم بأداء الطقوس الشعائرية. وكانت شيمي ودالا وسانتولو أهم هذه المقاطعات. وقد تعاقبت على دالا ستة أجيال من الرؤساء قبل مجيء باغودا.

ويرجع تاريخ وصول باغودا إلى منطقة كانو حسب هـ.ر. بلمر ، إلى سنة ٩٩٩. وحتى الآن لم يراجع أحد هذا التاريخ ، رغم أنه من الواضح أن تاريخ بلمر اعتباطي ، بالغ التقريب[٢١] .

عاش باغودا ومات بشيمي ، بعد أن أجبر السكان المحليين على الاعتراف بسلطانه السياسي. وحفيده جيجماز (١٠٩٥/١١٣٤) هو الذي أسّس كانو ، عند سفح تل دالا. وأمر أيضًا بإقامة سور حول المدينة ، لكنه لم يستكمل إلاّ في عهد ابنه تسراكي (١١٣٦/١١٩٤). وفي ١٢٠٠ كان قادة كانو قد أخضعوا كل حكام المقاطعات في الجهة تقريبًا ، باستثناء سانتولو ، التي ظلّت مستقلة لمدة قرن ونصف تالية.

وفي عهد ياجي (١٣٤٩/١٣٨٥) تمّ بسط النفوذ الكامل على المنطقة وعلى من كان يعيش من السكان حول المدينة على الرغم من أن مجموعات عديدة كانت تقوم بانتفاضات متقطعة بكانو وخارجها. وتميّز التوسّع الخارجي بغزو المقاطعات التي ما زالت مستقلة في زمنغابة واحتلال رانو مدة سنتين. ومنذ ذلك التاريخ لم يقدر لرانو أن تسترجع سيادتها الكاملة ، وإن ظلّت قائمة بذاتها.

واستعان ياجي في الحرب التي خاضها ضد سنتلو ، بفريق هام من مسلمي ونغراوة (ديولا) ، الذين وصلوا في هذا العهد إلى كانو حسب حوليات كانو. ولم ينضمّوا فحسب إلى جيشه خلال المعركة ، بل دعوا بالنصر للحملة. وأخيرًا انهزمت سانتولو ، وخرّب مركز المدينة الديني الذي كانت تقدّم به القرابين التقليدية ، تخريبًا تامًا. وكمّل هذا الفتح تثبيت مملكة كانو على الأراضي. ومن المهم أن نلاحظ أن حوليات كانو تصف الصراع بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب الذين ثاروا باستمرار ضد نوع من السلطة ما انفكت تزداد استبدادًا ، باعتباره قتالاً بين المسلمين وبين أتباع الملة القديمة[٢٢] . ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بتأويل متأخر لعملية فرض السلطة المركزية. وكان توسّع كانو متّجهًا نحو الجنوب ، وبعد الحملة على سنتلو ، تعاقبت حملات على مناطق الجنوب حيث اصطدمت جيوش كانو ، لأول مرة ، بالكوارارافة (جوكن). ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة ، إذ أن الكوارارافة أبت أن تدفع الجزية لياجي ولكنها أهدته مائة عبد.

وواصل كنانجي (١٣٩٠/١٤١٠) هذه السياسة التوسعية ، وبعد حملتين أخضع زازاو التي قُتل

(٢٠) يبدو أن «حوليات كانو» قد ألّفت نحو ١٨٩٠ ، ولكنها تعتمد نصوصًا قديمة ، سابقة للجهاد. وهي تعدّد ٤٨ سراكونا ، ملكًا من ملوك الهوسا (فولاني ، بعد ١٨٠٧) من باغودا إلى محمد بلّو. وهو مكتوب بالعربية. ونشر هـ. ر. بلمر ترجمته بالانجليزية ، ١٩٠٨ ، ص ٥٨ – ٩٨ ، وأعاد طبعه سنة ١٩٢٨ ، المجلّد الثالث ، ص ٩٢ – ١٣٢ (وهو الذي نقتبس منه هنا) وتوجد ترجمة بالهوسا تريهين كانو في ر. م. ايست ، لاغوس ، ١٩٣٣. ونجد في أغنية باغودا (مجهولة المؤلف) رواية أخرى لقائمة ملوك كانو. راجع م. هسكت ، ١٩٦٤ – ١٩٦٥.

(٢١) أنظر هـ. ر. بلمر ، ١٩٢٨ ، المجلّد الثالث ، ص ٩٢ وما بعدها.

(٢٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ وما بعدها. ويذكر «حوليات كانو» أيضًا إدخال الأبواق الحربية الطويلة إلى كانو في هذا العهد وكذلك إدخال نشيد وطني : **زارنا دايداي كانو غرنكيني** ، «اثبتوا ، كانو مدينتكم». راجع بلمر ، المرجع المذكور ، ص ١٠٤.

ملكها في المعركة. ويبدو أن العلاقات مع الكوارارافة كانت هادئة وكانت كانو تبادلها الخيل مقابل الرقيق. وأصبحت الاتصالات الخارجية أكثر كثافة، كما يشهد بذلك إدخال «الليفيدي» (غطاء مبطن لخيول الحرب)، وخوذات من الصلب والأزراد[٢٣]. وفي عهد داودا (١٤٢١/١٤٣٨) قوي التأثير الخارجي بمجيء أمير من بورنو لاجئًا، وقد دخل كانو مع رجاله وكثير من المعلمين. ويبدو أن أهل بورنو قد جاؤوا، علاوة على الهدايا كالخيل والطبول والأبواق والأعلام، بتصوّر أكثر تطوّرًا للإدارة. وفي هذا العهد، جرت في الاستعمال ألقاب بورنو مثل «غلاديما»، و«شيروما» و«كيغاما» في كانو.

وعلى الرغم من أن الحروب والحملات قد تواصلت طوال كامل القرن الخامس عشر، فقد زادت أنشطة كناوة التجارية المتنامية كثيرًا. ويؤكّد بعضهم فتح طريق بين بورنو وغوانجة (غونجة) في منتصف القرن، وراجت الابل والملح الصحراوي في بلاد الهوسا، وتطوّرت تجارة زاهرة في جوز الكولا والخصيان. وجلب ازدهار المملكة المتعاظم، وكذلك ازدياد تمسك الطبقة الحاكمة بالدين الإسلامي بشكل كبير، عديدًا من الفقهاء المسلمين إلى كانو. وفي الخمسينات من هذا القرن نفسه، وصل الفولاني إلى مالي، حاملين معهم «كتب التوحيد والاشتقاق» (في السابق لم يكن يعرف في بلاد الهوسا غير كتب السنة والشريعة). وفي نهاية القرن وصل بعض الأشراف أيضًا (حفدة النبي محمد) والمغيلي الفقيه النشيط[٢٤]. ومن جهة أخرى، اضطر ملوك كانو لدفع جزية لبورنو، ودخلوا في حرب مع كتسينة دامت قرنًا.

وتنسب حوليات كانو إلى محمد رومفة (١٤٦٣/١٤٩٩) سلسلة من التجديدات منها مدّ أسوار المدينة وبناء أبواب جديدة، وتعيين بعض الخصيان في مناصب الدولة، وإنشاء سوق كرمي (أهم أسواق كانو) وتأسيس مجلس من تسعة من كبار الموظفين، هم التارا –تا– كانو، «تسعة كانو»، الذين يكونون نوعًا من أنواع الوزارة. وتدل بعض هذه المستحدثات على أن رومفة كان يطمح إلى تقليد ما كان معمولاً به في بلاط بورنوبل في المغرب كإنشاء قصر جديد (جيدان رومفة)، واستعمال أبواق طويلة ومراوح من ريش النعام كشارات ملكية، وإعداد حريم مغلق به ألف زوجة وأخيرًا الاحتفال بعيد الفطر. وفي عهد رومفة وقعت الحرب الأولى مع كتسينة، التي دامت احدى عشرة سنة دون أن ينتصر أحد الفرقاء. واتبع خليفتاه عبد الله (١٤٩٩ – ١٥٠٩) ومحمد كيسوكي (١٥٠٩ – ١٥٦٥) سياسته وناضلا كتسينة دون جدوى، لكنهما هزما زارية. وبدأت قوة بورنو المتعاظمة تمدّ نفوذها على بلاد الهوسا، ونال السركي (ملوك كانو) المهانة عدة مرات من الماي؛ لكن كانوا استطاعت في مناسبات أخرى، الدفاع عن أرضها دفاعًا كُلِّل بالنصر.

كتسينة

يبدو، بصفة عامة، أن تاريخ كتسينة الذي ليس لنا به معرفة جيدة[٢٥] قد مرَّ بتطوّر مواز لتاريخ كانو، لكن مع تأخير كبير. كانت الأرض التي ستعرف فيما بعد باسم مملكة كتسينة مكوّنة في القرنين

(٢٣) هـ. ر. بالمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١٠٩.

(٢٤) المرجع السابق، وأنظر ما سيأتي عن المغيلي ودوره.

(٢٥) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٧، نشر قائمة ملوك كتسينة. أنظر أيضًا هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ٧٨ – ٨٢. وأحدث دراسة عن تاريخ كتسينة هي أطروحة دكتوراه (جامعة زارية) لـ. ي. ب. عثمان، ستُنشر قريبًا.

الثالث عشر والرابع عشر من مقاطعات مستقلة – تتكلّم الهوسا كلها، وأهمها مقاطعة دوربي – تا – كوشيي. وانطلاقًا من دوربي تطوّرت في نهاية الأمر مدينة كتسينة الدولة المركزية. ومع السركي محمد كوراو (١٤٤٥/١٤٩٥)، المؤسّس المحتمل لسلالة حاكمة جديدة، ندخل فترة تاريخية أكثر ثبوتًا. فقد عاين كوراو، وهو ما يزال بدربي، موقعًا هامًا تتقاطع فيه عدة مسالك تجارية، وبه منجم حديد، وضريح مقدس يدعى بَوادة. فبنى «السركي» مدينة جديدة محصّنة (برني) بهذا المكان، تسمى كتسينة[٢٦]. وسرعان ما استقطب العمران الجديد السكان والتجار العابرين، وبذلك درت المدينة مزيدًا من السلطة والثروة على صاحبها. وشيئًا فشيئًا، بدأ القادة المجاورون يدفعون له اتاوة في هيئة قضبان حديدة؛ هكذا بدأ الخراج المدفوع لكتسينة. وبفضل هذه القاعدة السياسية الاقتصادية الصلبة، طفق كوراو يرمي بغزواته بعيدًا، حتى اقتطع لنفسه اقليمًا كبيرًا، هو مملكة كتسينة. وجرت العادة باعتبار محمد كوراو أول قائد مسلم لكتسينة[٢٧]. وفي عهده، حل المغيلي بكتسينة. وفي نفس الفترة بنى مسجد غوبرو، الذي ما تزال منه بقية بعد، على غرار مساجد غاو وجني.

وتركّزت حملات كتسينة العسكرية، خارج بلاد الهوسا، كحملات كانو، على الأرض الواقعة بجنوب المملكة. وتذكر حوليات كتسينة[٢٨] أن محمد كوراو قد شنّ حملة على نوبة التي كان لها حدود مشتركة مع كتسينة. وقد تكون هذه الحرب قد اندلعت بسبب التوسّع الناشئ لنوبة الذي تسبّب في نشوب صراع بين هذه المملكة وبين يوروبا. ومن خلفائه، ابراهيم سورا (١٤٩٣/١٤٩٩) الذي اعتبره التاريخ ملكًا شديدًا كان يجبر رعيته على أداء الصلاة ويسجن من يمتنع. وكانت له أيضًا مراسلات مع السيوطي المؤرّخ المصري الشهير (توفي سنة ١٥٠٥). وسمي علي، الذي خلف ابراهيم وامتدّ عهده طوال الربع الأول من القرن السادس عشر، المرابط، ولعلّ في ذلك إشارة إلى تحصينه المدينة[٢٩].

زازو

فيما يخص بدايات تاريخ زازو (المسماة أيضًا زارية أو زِغزِغ)، ما يزال الأمر أكثر غموضًا مما هو بالنسبة إلى كتسينة. والمواد التاريخية أكثر نقصًا من أن تمكن من إعادة تركيب منطقي للتاريخ السياسي للمنطقة حتى أن تأويلات بعض المصادر الموجودة متناقضة. فعبد الله سميث يرى أن شعب الهوسا «كان قد عاش في زازو أكثر من ألف سنة قبل أن تظهر حكومة مركزية بالمنطقة، مع قاعدة مؤسسة في تورونكو[٣٠]، ومن ثمة وسع القادة أراضيهم بضم المقاطعات الصغيرة المجاورة، ثم بعد ذلك بإقامة مركزهم الجديد على الموقع الحالي لمدينة زارية. وقد يكون كل هذا قد حصل في نهاية القرن الخامس عشر.

(٢٦) بين ي. ب. عثمان خطأ ما أكّده بعض المؤلّفين القدامى من أن مدينة كتسينة قد أسّسها مهاجرون من الونغراوة.
(٢٧) ع. سميث، ١٩٧٢، ص ١٩٦ – ١٩٨.
(٢٨) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ٧٩ – ٨٠. أنظر أيضًا ي. ب. عثمان، ١٩٧٢، ص ١٧٥ – ١٩٧.
(٢٩) تاريخ منشأ كتسينة أقرب إلى الغموض. وقد بين عبد الله سميث، ١٩٦١، بالاعتماد على ذكر خسوف في عهد عليو كرياجيوا (أرخه بلمر من ١٤١٩ إلى ١٤٣١) أن تواريخ بلمر سابقة بقرن على الأقل عن الأحداث.
(٣٠) ع. سميث، ١٩٧٠ في مورتيمور (ط.) ص ٨٢ – ١٠١. أنظر أيضًا ع. سميث، ١٩٧٦.

ومنذ عهد قريب، أعدّ م. لاست جدولاً مغايرًا تمامًا عن نشوء سيطرة الهوسا بزازو: فحتى في ١٢٠٠، كانت توجد مملكة على هذه الأرض، لكنها كانت تسمى كنكومة (كنغومة أو كوانغومة، كما تُنطق حاليًا)، وكان قادتها من الكاموكو، لا الهوسا. وكان هذا الاتحاد الكنغومة «وريثًا لثقافة النوك، وكان اقتصاده مؤسّسًا على تجارة المعادن». وعندما انفصم هذا الاتحاد، نشأت مملكة كنغومة (عن هذا الانفصال) في تورونكو، التي عُرفت في القرن السادس عشر باسم زِغزِغ. وفي ١٦٤١ فحسب بدأ شعب الهوسا في التحكّم في زغزغ (زازو)، متّخذًا من زاريا عاصمة له[٣١]. هذه النظرية لا تخلو من مجازفة، وبها أكثر من نقطة ضعف (أغلبها لغوية)؛ وما لم تسند بحجج أكثر إقناعًا، فإنها ستظل من قبيل الفرضيات.

ويقدّم لنا ع. سميث جدولاً أفضل عن تاريخ زازو خلال هذه الفترة، يمكننا أن نلخّصه كما يلي: في سهل زازو، بأقصى جنوب بلاد الهوسا، ظهرت قبيل القرن الخامس عشر بعض المراكز المدنية المنظّمة وفق نمط إدارة المدينة – الدولة. وفي أثناء تطور التنظيم السياسي، تمكّنت مدينتان، هما تورونكو وكوفينا، من بسط سيادتهما على الأخريات. وكانت كل واحدة من المدينتين مستقلة عن الأخرى في الأصل، وظلّتا كذلك حتى نهاية القرن الخامس عشر، تاريخ استيلاء بَكوا، أحد قادة تورنكو، على السلطة في كوفينا أيضًا. وفي زمن لاحق، استقر ملوك زازو، الذين حكموا أراضي كوفينا القديمة وتورونكو، استقرارًا دائمًا في العاصمة الجديدة المقامة بأقصى شرق برني كوفينا، المسماة زارية، من اسم بنت لبكوا (كانت الأميرة زارية وأمينة المشهورة أختين). وعن اندماج تورونكو وكوفينا نشأت مملكة زازو فعلاً. ومنذ بداية القرن السادس عشر أخذت زازو في توسيع أراضيها غربًا وجنوبًا. وتقول الروايات التاريخية أن جيش زازو كان يقوده خلال بعض الحملات الحربية الغِمبيا (الأميرة) أمينة، ابنة بكوا. وهي التي حصّنت أيضًا زارية وكوفينا وأحاطت هاتين المدينتين بأسوار عريضة. وليس في الأدب ولا في الروايات الشفوية خارج القصر ما يحمل على إثبات أن أمينة كانت يومًا ملكة زازو. ولا نجد اسمها بأية قائمة من قائمات ملوك زازو، وقد عاشت وماتت أميرة، ولا شكّ أنها كانت ذات نفوذ، لكنها لم تتوّج يومًا. وتصوّرها الأسطورة محاربة كبيرة قادت الحملات وراء حدود زازو حتى بلاد نوبة في الجنوب الغربي والى كوارارافا في الجنوب الشرقي. وتؤكّد حوليات كانو أن «سركين نوبي» أرسل أربعين خِصيًّا وعشرة آلاف جوزة كولا إليها (إلى الأميرة). وكانت أول من حصل على الخصيان وجوز الكولا في بلاد الهوسا. وفي عهدها أُدخلت كل منتجات الغرب إلى بلاد الهوسا»[٣٢].

غوبر

إذا كانت زازو هي الدولة الهوسية الأبعد جنوبًا، فان غوبر كانت الأبعد نحو الشمال. وأرض الغُبراوة

(٣١) موراي لاست، في م. آدمو، «محاولات تاريخية على شرف الأستاذ عبدالله سميث»، زارية (تحت النشر).

(٣٢) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث. حسب «حوليات كانو»، فإنها كانت معاصرة لداودا كانو (١٤٢١/١٤٣٨). ويميل بعض الأخصائيين المحدثين إلى قبول هذا التاريخ (ر. أ. أدلاي، ١٩٧١، ص ٢٢٠ وما بعدها؛ هـ. ج. فيشر، في CHA، المجلد الثالث، ص ٢٨٣، عدد ١)، في حين يؤكّد آخرون أنها عاشت في القرن السادس عشر: س. ج. هغبن وأ. هـ. كيرك – غرين، ١٩٦٦، ص ٢١٦ – ٢١٨ (منذ ١٥٧٦) أو ع. سميث، المرجع المذكور (بداية القرن السادس عشر). وذلك هو أيضًا رأي المحرّرين لهذا الفصل.

الأصلية كانت تقع إلى الشمال بعيدًا، ابتداءً من منطقة أغادس، وتضم كتلة الأيير الجبلية. واللفظ الهوسي الدال على هذه المنطقة هو ازبن (ونطقه السليم هو: ابزن) في حين كانت لفظة غوبر تُستعمل للدلالة على المجموع السياسي الذي يتكوّن من الغُبراوة[٣٣]. وكانت مختلف المجموعات التي تكون هذه الدولة خاضعة منذ القرن الثاني عشر إلى ضغط الطوارق الذين أزاحوها إلى الجنوب. واستقرّ بعضها في سهول المنطقة المسماة حاليًا آدار، ومن يومها سموا أداراوة. وهاجرت مجموعات أخرى تتكلّم الهوسا، وأصبحت فيما بعد من الغبراوة، نحو الجنوب، وأسّست، في أماكن مختلفة وعهود متباينة، مملكة غوبر. وهكذا كانت هذه المملكة، في الفترة السابقة عن ١٤٠٥، تقع في جمهورية النيجر الحالية (ومركزها في ماراندت؟) في حين تحوّلت، فيما بعد، نحو الجنوب، واتّخذت من برنين لالي عاصمة لها لزمن معين. وتذكر حوليات كانو، في أواسط القرن الخامس عشر وصول الابزيناوة إلى غوبر، ويضيف أنه ابتداءً من هذا العهد أصبح الملح شيئًا معروفًا في بلاد الهوسا[٣٤].

ولا تمكّننا قلة المصادر المكتوبة والمروية من إعادة بناء تاريخ غوبر بطريقة أكثر تماسكًا، ولا التدرّج الذي نمت وفقه دولة مركزية في هذه المملكة. وكذلك الأمر فيما يخصّ تسلسل الأحداث، إذ ما من رواية لما لنا من قائمة الملوك ذات فائدة. ومهما يكن من أمر، فمنذ حوالى القرن التاسع الميلادي، كانت ماراندت مركزًا تجاريًا وصناعيًا هامًا، يقوم على التجارة العابرة للصحراء (مع غاو)، وبالتالي، فمن الممكن أن تكون غوبر قد تحوّلت إلى دولة مركزية في هذا العهد. ورغم ضغط الطوارق المتواصل، نجح الغوبراوة، خلال هذه الفترة وبعدها، في القيام بدور حماة الحدود الشمالية لبلاد الهوسا كما يرام.

رانو

في جلّ المؤلّفات التي تعنى ببداية تاريخ دول الهوسا، تقدّم رانو كاحدى الممالك التي قامت في مطلع الألف الحالي، ثم فقدت فيما بعد سيادتها لمصلحة كانو. لكن مراي لاست لفت الانتباه أخيرًا إلى أننا متى درسنا بإمعان حوليات كانو، لم نجد أي دليل على وجود مملكة رانو قبل القرن الخامس عشر[٣٥]. وإنما كانت توجد مقاطعة هوسية تسمى زمنغابا (أو زمنكوجي) مستقلة عن كانو. وتقول حوليات كانو[٣٦] أن ياجي، سركين كانو (١٣٤٩/١٣٨٥) هو الذي طرد قائدها من عاصمته، ثم ذهب إلى رانو وبوبو، وأقام بها سنتين. ويذهب لاست إلى أن زمنغابة كانت، قبل هذا الغزو، جزءًا من نظام سانتولو السياسي، وأن هذا النظام، الذي كان ما يزال مستقلاً عن كانو، لم يغزه ياجي إلاّ في آخر عهده. ويبدو إذن أنه ينبغي أن نعيد النظر في إدراج رانو من بين دول الهوسا الأولى، وأن نزيد في تحليل العلاقات بين رانو من جهة، وسانتولو وكانو من جهة أخرى. ولعله يجب أن تعوض زمنغابة رانو في قائمة الهوسا بكواي[٣٧].

(٣٣) تقول بعض الروايات الشفوية إن كل الهوسا أصلهم من كتلة الآيير الجبلية، أنظر د. هماني، ١٩٧٥.
(٣٤) «حوليات كانو»، في هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ٣.
(٣٥) م. لاست، ١٩٧٩، ص ١٣ – ١٥.
(٣٦) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١٠٤.
(٣٧) لعله يجدر أيضًا القيام ببحوث أخرى عن معنى لفظ «زَمنَكوجي» الوارد في «حوليات دورة» (أنظر هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١٣٤) باعتباره اسم مؤسّس كانو.

زمفرة

مع بداية القرن السادس عشر فحسب يمكننا أن نقول إن مملكة زمفرة تبدو بوضوح وكأنها دولة. وقبل هذا العهد كانت أهم المقاطعات بالمنطقة هي دوتسي وتوغنو وكياوة وجاته. ولسوء الحظ، فما من وثيقة من الوثائق التي بأيدينا تشير إلى التدرّج الذي تطوّرت وفقه حكومة مركزية هنا، لكن يبدو أن المناطق التي نشأت بها إدارة أول ما نشأت كانت أيضًا مواطن يُصهر فيها معدن الحديد، وتوجد بها ربوات ذات دلالات دينية[٣٨]. وقد بدأت عملية التمركز مع سادة دوتسي الذين كانوا قد أخضعوا بقية المقاطعات. ويمكن أن يكون إنشاء برنين زمفرة كعاصمة دائمة للملكة قد حدث في منتصف القرن السادس عشر، لأنه في هذا العهد شنّت زمفرة حملات في اتجاهات مختلفة. وقد وصلت هذه الحملات حتى ياوري، في حوض النيجر، لكنها لم تفضِ إلى احتلال دائم. وحتى ١٦٠٠، كان دعم الدولة هو أهم مشاغل حكام زمفرة[٣٩].

كبي

رغم أن كبي، وهي أبعد أجزاء بلاد الهوسا غربًا، كانت تسكنها منذ العصور السحيقة شعوب تتكلّم الهوسا، فإن الرواية المحلية لا تعتبر شعبها من ضمن «الهوسا بكواي» بل تصنّفه من بين «البنزة بكواي». ويرى محمد بلو أن «سكان كبي ينحدرون من أم من كتسينة ومن أب من الصنغي»[٤٠].

ويظهر شعب الكبي في التاريخ عندما تقع هذه المنطقة لأول مرة تحت سيطرة الصونغي على عهد سني على (١٤٦٤/١٤٩٢). وفي هذه الفترة، كان يدير وادي ريمة الأسفل رؤساء عشائر يحملون لقب مغاجي (خليفة)، لكن بعد ذلك بقليل بدأ يصل مهاجرون من مناطق هوسية أخرى. وكان من بين هؤلاء المهاجرين رجل من كيومبانا، بجنوب كتسينة يُدعى محمدو كانتا. واستطاع بفضل انتصاراته العسكرية الباهرة أن يزيح المغاجيين المحليين وصار الحاكم الفعلي لشبه اقليم كبي (مملكة الصونغي)[٤١]. والتحق بجيش الصونغي بصفته باردي (نقيب) وشارك في الحملة على سلطان أغاديس. وكُلّلت الحملة بالانتصار وأحرزت غنائم وفيرة. وبما أن كانتا لم يحصل على ما كان يتوقّعه من نصيب، فقد ترك مع أصحابه مملكة صونغي واعتبر خارجًا. وكان ذلك سنة ١٥١٦، وأعقبت ذلك سلسلة من الاشتباكات العسكرية مع الصونغي طوال سنوات. لكن كانتا استطاع المحافظة على استقلاله[٤٢].

واتّخذ من سرامي عاصمته وشجّع القوى الصغيرة على التوحّد وتكوين مدن محصّنة بأسوار تضمن مناعتها. وجمع هو نفسه تسع تجمّعات متفرّقة ليؤسّس برنين لاكا، ثم أسّس مدينة أخرى واتّخذها

(٣٨) راجع ن. غربة، «ظهور زمفرة وسقوطها» (بالانجليزية)، أطروحة دكتوراه، زاريا، ١٩٧٧.

(٣٩) أنظر: ك. كريغر، ١٩٥٩.

(٤٠) «انفاق الميسور»، ١٩٢٢، ص ١٣، وقد يرجع استثناء كبي من «الهوسا السبع» إلى كون مملكة كبي كانت حليفة الصونغي في القرن السادس عشر، وأنها شنّت حملات عديدة على دول الهوسا الأخرى، التي اعتبرتها لذلك عدوّة.

(٤١) أنظر بشأن بداية تاريخ كبي -بما في ذلك صعود كنته وسقوطه- م. ب. الكالي، أطروحة أستاذية، غير منشورة، زاريا، ١٩٦٩.

(٤٢) «تاريخ السودان»، ١٩٠٠، ص ١٢٩ - ١٣٠.

قاعدة دفاعية ضد الصونغي ودُعيت برنين كبي[٤٣] .

وتوجّه كانتا نحو الخارج بعد أن وطّد نظامه الدفاعي ، فاحتلّ منطقة العير (أغاديس) واقتطع هذه المنطقة من سلطة الصونغي . ونسب إليه محمد بلو فتح كل بلاد الهوسا وبعض أجزاء بورنو[٤٤] . وتتحدّث مصادر أخرى عن غزواته لياووري ونوبي جنوبًا[٤٥] . ويبدو أن كانتا لم ينشئ إدارة لإدماج الأراضي المفتوحة في الدولة الأم . وكان يكفيه أن تعترف الدول التابعة بولائها لكبي وتدفع لها جزية[٤٦] . وفي القرن السادس عشر أصبحت كبي قوة عظمى تعمل بمثابة منطقة عازلة بين بلاد الهوسا وحوض النيجر . وحاولت مملكة بورنو ، وقد أزعجها ظهور دولة جديدة قوية ، أن تسيطر عليها ، واكتسحت دول الهوسا الخاضعة لكانتا . لكن جيوشها سحقت . وفي طريق العودة من حملة مظفرة أخرى غربي بورنو ، قضى كانتا نحبه سنة ١٥٥٦ . وبعد وفاته ، انقطعت دول الهوسا عن إرسال الاتاوات إلى كبي وأصبحت مستقلة من جديد . ولم يحمل أحمدو ، خليفة كانتا وابنه البكر ، السلاح ليجبرها على دفع الاتاوة . وعند نهاية القرن السادس عشر ، لم يعد سادة كبي يسيطرون حتى على أغاديس ، لأن كانو وكتسينة تدخّلتا فيها لحماية عدو كبي . وآلت كبي من « أمبراطورية » إلى مملكة محلية زال سلطانها عن بلاد الهوسا تمامًا .

ويتضح ، ممّا تقدّم ، أن الفترة ما بين ١٢٠٠ و ١٦٠٠ يجب أن تعتبر فترة حاسمة في تاريخ شعب الهوسا . فقد قامت حكومات مركزية في ست دول ، حول عواصم محصّنة لعبت كذلك دور مراكز تجارية هامة . وبدأ بعض هذه الدول في الاتّساع ومهاجمة شعوب أخرى ، داخل بلاد الهوسا وخارجها سواء بسواء .

العلاقات مع الشعوب المجاورة

بطبيعة الحال ، لم يكن شعب الهوسا الشعب الوحيد الذي يقطن السودان الأوسط ، أي الأرض الممتدّة من بحيرة تشاد شرقًا إلى حوض النيجر غربًا ، ومن الساحل شمالاً إلى حوض بنوي جنوبًا . وفي هذا المحيط نمت اتصالات شعب الهوسا بالمجموعات العرقية الأخرى . وأسطورة دورة – أسطورة أصول الهوسا – تعدّد عددًا من الشعوب غير الهوسا ممن كانت للهوسا معهم علاقة نحو سنة ١٥٠٠ ميلادي . وعلى الرغم من أن كثيرًا من قوائم البنزة بكواي تضم أحيانًا مجموعات تتكلّم الهوسا (كِبي ، زَمفَرة) فإن الممثلين الرئيسيين لهذه الشعوب كانوا من الجوكون ، والكوارارافة ، والايواري ، واليوربا ، والنوبي ، واليووري . ومن المهم أن نلاحظ أنه ما من واحدة من هذه القوائم تتضمّن أسماء جيران أكبر وأهم مثل الكانم – بورنو والصونغي الذين كان تأثيرهم عظيمًا بلا ريب في بلاد الهوسا منذ زمن بعيد .

والهوسا يستعملون عادةً عبارة بارباري (أو بريبري) لتسمية شعوب امبراطورية كانم – بورنو . وهكذا لم تكن أسماء كاتيمبو ، وكانوري ، والشوه العرب ، وبوليوَه ونغيزيم وغيرها... دارجة في بلاد

(٤٣) م. ب. الكالي ، المرجع المذكور ، ص ٥٥ وما بعدها .
(٤٤) «انفاق الميسور» ، ١٩٢٢ ، ص ١٣ – ١٤ .
(٤٥) ر. م. ايست ، ١٩٣٢ ، المجلد الأول .
(٤٦) ر. أ. أدلاي ، ١٩٧١ ، ص ٥٦٤ .

الهوسا قبل العصر الحديث. وكانت الطبقات المهيمنة من الباريباري على علاقات بورنو مع بلاد الهوسا – وهم القادة والتجار ورجال الدين الميلمون – من أصل كانوري خاصة، وبذلك أصبحت بعض مظاهر ثقافة كانوري هي الممثلة للشعب الباريباري[٤٧].

وتكتسي العلاقات مع كانم – بورنو، في تاريخ بلاد الهوسا، أهمية فائقة، لأنه من هذه العلاقات استعيرت عدة عناصر ثقافية وأفكار جديدة، صارت فيما بعد جزءًا لا يتجزّأ من ثقافة الهوسا وحضارتها. وقد بدأت الاتصالات بين الهوسا وشعوب الكنوري حين كانت هذه الشعوب تقطن كانم؛ لكن هذه العلاقات قد اتّسع مداها عندما استقرّت هذه الشعوب لمدة طويلة ببورنو، جنوب غربي بحيرة تشاد[٤٨].

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر، عرفت مملكة بورنو استقرارًا جديدًا بعد فترة طويلة من الصراعات اللامتناهية. وكان هذا الاستقرار مرتبطًا بإنشاء عاصمة دائمة محصّنة في نغزرغومو، غربي تشاد، كانت فيما بعد قاعدة صلبة لتوسّع بورنو غربًا في بلاد الهوسا[٤٩]. وحوالى ١٤٢٥، التجأ المدعو عثمان كلنامة، أحد قادة بورنو المخلوعين إلى كانو، في مجموعة من أنصاره، وقام فيها بدور هام على عهد داودا (١٤٢١/١٤٣٨) وعهد عبد الله بورجه (١٤٣٨/١٤٥٢). ولم يخف على ماي بورنو هذا الخطر المحدق في بلاد الهوسا، فأخضع كانو وأجزاء أخرى من المنطقة لولائه، حتى أن عديدًا من المدن اضطرت لدفع الجزية لبورنو. وفي نحو نفس الفترة أخضعت كتسينة إلى حد ما لبورنو، وأجبرت أيضًا على إرسال اتاوة سنوية بمائة عبد، إلى نغزرغومو[٥٠]. ولا نعلم إلى أي حد أصبحت بلاد الهوسا مستقلة عن بورنو، وكم دام هذا الاستقلال. ويميل م.س. سميث إلى الاعتقاد أن بيرام وكانو كانتا في البداية التابعين الوحيدين لبورنو، نظرًا إلى أن كانو كانت الدولة الهوسية الرئيسية الواقعة على حدود بورنو، وانها كانت دون شك أول ما لفت انتباه الكانوري[٥١]. ومن جهة تذكر (جريدة) السكوتو بروفنشيال غازيتير أن «ياوري كانت ترسل جزية سنوية إلى زارية، سيدها المباشر، وبالتالي إلى بورنو. وكانت كل دول الهوسا الأخرى ترسل جزياتها إلى دورة ومنها لبورنو[٥٢].

وحقيقة طبيعة سيادة بورنو على بلاد الهوسا ومختلف مناطقها خلال هذه الفترة تقتضي بحوثًا أخرى. إلاّ أنه قد صار من الثابت أن تأثير بورنو، ابتداءً من هذا العهد، قد أصبح أشد وضوحًا، وأنه يمر أساسًا عبر كانو، مسهمًا بذلك في تطوّر بلاد الهوسا ثقافيًا.

وقد أدى ظهور كبي، خلال القرن السادس عشر، كأكثر دول السودان الأوسط تعطّشًا للحرب، إلى نزاعات متواصلة بين هذه المملكة وسادة بورنو. وخرج محمد كانتا ظافرًا من هذه المعركة التي كان هدفها الأساسي السيطرة على منطقة العير (أغاديس)، الملتقى الهام للمسالك العابرة للصحراء المؤدّية إلى بلاد الهوسا. إلى أي مدى كانت دول الهوسا معنية بهذا النزاع على السلطة؟ ذلك ما لا يزال من العسير الجواب عليه. لكن يبدو أن كانتا قد فرض سيطرته على الأقل على بعض المدن الدول، قاضيًا بذلك على وصاية بورنو السياسية.

(٤٧) ي. ب. عثمان، ١٩٧٢، ص ١٧٥ – ١٩٧.
(٤٨) أنظر م. ادامو، ١٩٧٩، الفصل العاشر من هذا المجلد يعالج تاريخ كانم بورنو.
(٤٩) ع. سميث، ١٩٧١، ص ١٨٢.
(٥٠) راجع «حوليات كانو»، في هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١٠٩ – ١١٠.
(٥١) م. س. سميث، ١٩٦٤، ص ٣٤٨.
(٥٢) المرجع نفسه.

وكانت الدولة القوية الأخرى الواقعة على حدود بلاد الهوسا هي أمبراطورية صونغي . ولم يقم مالي ، سلفها المهيمن بالسودان الأوسط (٥٣) أبدًا بدور في تاريخ الهوسا ، رغم أن تأثيره الثقافي قد يكون له وزن كبير ، عن طريق التجار ورجال الدين من الونغراوة أساسًا.

وحتى عهد قريب ، كان أغلب المؤرّخين يعتقدون أن أسكيا محمد (١٤٩٢ – ١٥٢٨) قائد أمبراطورية الصونغي القوي ، كان قد فتح كل بلاد الهوسا في السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، وانه فرض سيادته على كانو وكتسينة وغوبر وزمفرة وزازو . وحسب هذه النظرية فإن منطقة الهوسا قد أصبحت ، خلال العقود التالية ، مسرحًا لصراع مستمر بين دولتين امبراطوريتين ، هما الصونغي وبورنو ، رغم أن ظهور مملكة كبي المستقلة قد أضعف سيطرة الصونغي المباشرة على بلاد الهوسا منذ ١٥١٥ . لكن ، كما بين هـ.ج. فيشر جيدًا ، فإن المصدر الوحيد الذي ذكر هذا الاكتساح المزعوم واحتلال الصونغي إنما هو رواية ليون الأفريقي ، وهو رحالة مغربي سافر إلى عدة أماكن من السودان الغربي في ١٥١٠ و١٥١٣ (٥٤) .

ولا يمكننا أن ننكر أن وصف ليون الأفريقي لاحتلال الصونغي وصف حيّ جدًا ويتضمّن طائفة من التفاصيل عن مصير قادة الهوسا ، وعن الأتاوات الثقيلة والتحالفات عن طريق المصاهرة (٥٥) . ومن ناحية أخرى ، تلزم حوليات الهوسا الصمت بخصوص هذا الحدث البالغ الأهمية بالنسبة إلى تاريخ بلاد الهوسا السياسي ، ولا يمكننا أن نفسّره بمجرد رغبة مؤلّفي الحوليات في طمس ذكرى هزيمة نكراء ، نظرًا لأن حوليات كانو تذكر في كثير من الأحيان هزائم سركين كانو في مناسبات مختلفة في مواجهة دول أضعف من دولته مثل كتسينة أو زارية أو كوارارافه . وأهم من ذلك أن أخبار تمبكتو ، وهي تروي الأحداث من وجهة نظر الصونغي ، لا تذكر هذه الحملة المنصورة المزعومة لبطلهم المفضل أسكيا محمد . وإنما تكتفي بالإشارة المختصرة إلى حملة بسيطة على كتسينة عام ١٥١٤ ، بعيد زيارة ابن ليون الافريقي مباشرة (٥٦) . ويبدو الآن من الراجح كثيرًا أن غزو الصونغي بلاد الهوسا لم يحصل أبدًا ، وأن دول هذه المنطقة لم تقع يومًا تحت سيطرة الصونغي الفعلية.

وفي الجنوب الغربي من بلاد الهوسا ، على الضفاف الوسطى لنهر بنوي ، يعيش اليوم الجوكون . وعلى الرغم من أن هذا الشعب قليل العدد في الوقت الراهن ، فقد لعب قديمًا دورًا عظيمًا في تاريخ وسط نيجيريا وشمالها ، وكان له تأثير دائم في العديد من جيرانه.

وقد جاء الجوكون ، حسب نظرية مقبولة عمومًا ، من الشمال الشرقي . أما بخصوص البلد الأصلي الذي جاؤوا منه ، فإن الروايات تختلف ، إذ يذكر بعضها وادي النيل وكردفان ، بل يجعله بعضها جزيرة العرب أو اليمن . وتؤكّد رواية أخرى أن الجوكون وصلوا في نفس الوقت الذي وصل فيه الكانوري (٥٧) . وفي حين تبدو هذه الروايات القديمة الأصل باعثة على الشك الشديد ، يبدو من الممكن ان الجوكون قد جاؤوا من الشمال الشرقي عن طريق المنطقة الواقعة بين هضاب مندرة وبحيرة تشاد ، لكن البراهين اللغوية تبيّن أن لغة الجوكون تنتسب إلى الأسرة الفرعية لبنوي – كنغو مع التيف والايبيبو ، والإيفيك وكذلك جل لغات ما عبر النهر التي تشير إلى أصل جنوبي ، رغم أنه ليس مستبعدًا أن الجوكون قد كوّنوا آخر

(٥٣) غالبًا ما ترد الصونغي في تواريخ الهوسا على أنها «مللي» بمعنى «الأمبراطورية الغربية».

(٥٤) هـ. ج. فيشر ، ١٩٧٨ ، ص ٨٦ – ١١٢.

(٥٥) ليون الافريقي ، ترجمة فرنسية إبولار ، ١٩٥٦ ، المجلد الثاني ، ص ٤٧٣ وما بعدها.

(٥٦) «تاريخ الفتاش» ، ١٩١٣ ، ص ٧٧ و١٤٧ ؛ «تاريخ السودان» ، ١٩٠٠ ، ص ٧٨ و١٢٩.

(٥٧) ك. ك. ميك ، ١٩٣١ ، ص ٧٠.

موجة من حركة هجرة انطلقت عمومًا من الشمال والشمال الشرقي في اتجاه الجنوب. أما بخصوص الجزء الذي ينبغي اعتباره المنطقة التي أقام بها الجوكن بادئ الأمر نظامهم السياسي في نيجيريا فقد قدّمت نظريتان:

تؤكّد النظرية الأولى أن الجوكون قد أقاموا أمبراطورية كوارارافة التي غالبًا ما تذكر في نصوص الهوسا التقليدية في الجزء الأوسط من حوض بنوي، جنوبي مجرى النهر[٥٨]. ويمكن إلى الآن مشاهدة آثار المدينة المعروفة باسم كوارارافة في المنطقة. وكوارارافة هي الاسم الهوسي لشعب الجوكون ولعاصمتهم ومملكتهم[٥٩]. وعندما هجرت المدينة في نهاية القرن الثامن عشر[٦٠]، أسّست في نفس المنطقة مدينة وُكاري التي خلفتها وما تزال موجودة. وانطلاقًا من جنوب حوض بنوي انتشر الجوكون شمالاً، في وادي غنغولة، ثم فيما بعد في كسار شيكي[٦١]. ولم يحدّد بعد تاريخ هذا التوسّع نحو الشمال، لكنه قد وقع مع انهيار مدينة كوارارافة. ففي هذه المنطقة – أي جنوبي حوض بنوي – تطوّرت، في البداية، العلاقات بين الهوسا والجوكون. وقد ثبت أن لغة الجوكون نشأت جنوب هذا الحوض وأنها امتدّت نحو الشمال[٦٢]. والأصل الجنوبي لسلطة الجوكون السياسية واردة، من ناحية أخرى، في الروايات الشفوية لمختلف مدن كسار شيكي التي تؤكّد أن هذه المدن تنحدر من نازحين جوكون جاؤوا من الجنوب (كوارارافة ووكاري).

وتقول النظرية الثانية إن الجوكون بدأوا في تنظيم سلطتهم السياسية وكذلك في إقامة علاقات عسكرية وتجارية مع شعب الهوسا، في وادي غنغولة، شمالي بنوي، وفي بعض أجزاء حوض بنوي الأعلى. وأن سلطة الجوكون قد تطوّرت جنوب بنوي في وقت متأخر. أما متى كان ذلك وكيف، فذلك ما لا نزال نجهله[٦٣].

وليست هاتان النظريتان متنافرتين تمامًا، ويبدو أن الجوكون كان لهم مركزان للسلطة السياسية، هما الجزء الجنوبي من حوض البينين ووادي غُنغولة. ولأسباب ما تزال غامضة، تمكن جنوب حوض بنوي من طمس المناطق الأخرى سياسيًا حيث كان يوجد سكان من الجوكون. ويمكن أن تكون هذه الهجمات ضد الهوسا التي انطلقت من وادي غُنغولة بأمر من «الأكو» القائد الأعلى لشعب الجوكون[٦٤]، وكان مستقرًا بجهة الجنوب في مدينة كوارارافة المهجورة الآن. واستنادًا إلى كون الهوسا والكانوري كانوا يسمون عدوهم المشترك بأسماء مختلفة (كوانة بالكانوري، وكوارارافة بالهوسية). ذهب م. رياض إلى القول بوجود دولتين للجوكون، واحدة في الشمال، قرب بورنو، تدعى كوانة والأخرى بعيدًا إلى الجنوب وأكثر ارتباطًا

(٥٨) المرجع نفسه، ١٩٣١.

(٥٩) «كوارارافة» مشتقة من «كورورو – أفا»، التي تعني عامة «شعب الملح»، لأن أرض الجوكون مشهورة بمناجم الملح. راجع و. ب. بايكي، ١٨٥٦، ص ٤٤٥. ولفظ «كوروروفة» كما نجده في النصوص، قد يحيل على شعوب وادي بِنوى بصفة عامة وليس بالضرورة على الشعب – الجوكون – كل مرة. أنظر ت. هدغكن، ١٩٧٥، ص ٣١.

(٦٠) بخصوص تدهور مدينة كوارارافة وانهيارها، راجع ك. ك. ميك، ١٩٣١، ص ٣٢ وما بعدها؛ م. أدمو، ١٩٧٨، ص ٣٨ – ٤٣.

(٦١) كسار شيكي هو الجزء الأسفل من هضبة دولة نيجيريا الحالية، الواقع في مناطق ولايات وازي (لنغتنغ)، وشندم وآوى. وكسار شيكي تعني حرفيًا بالهوسا «ما بين الأرض»، ولم يدرس أصل الكلمة بعد.

(٦٢) أنظر دراسة عن لغة الجوكون لـك. شمزو (أطروحة غير مطبوعة)، ١٩٧١.

(٦٣) نظرية غونغولة يؤيّدها عبدالله سميث، ١٩٧١، كذلك سعد أبو بكر، مؤخرًا، في «أساس تاريخ نيجيريا»، إبادن، ١٩٨٠، ص ١٦٨ وما بعدها.

(٦٤) يعود الفضل لوضعية «الأكو» لدوره الديني. فقد كان يعتقد أنه معين من قبل الآلهة وكان بمثابة واسطة بين الآلهة والشعب. راجع ك. ف. يونغ، ١٩٦٦.

ببلاد الهوسا. ولم تكن هاتان الدولتان متعاصرتين، لأن الثانية مذكورة في القرن الرابع عشر، في حوليات كانو[٦٥].

ومما يؤسف له أن شعب الجوكون لم يحتفظ بتاريخه لا في كتاباته ولا في أسلوب «تاريخ الطبول»[٦٦] وأغلبية الجوكون اليوم (باستثناء هام، هو مجموعة بينديغة) قد نسيت تفاصيل ما كان لها قديمًا من أنشطة في مجال الحرب. ومع ذلك، فمن الواضح – بفضل مصادر مختلفة – أن شعب الجوكون كان يقيم، من ١٢٠٠ إلى ١٦٠٠، في الجزء الأوسط من حوض بنوى وفي وادي غنغولة أيضًا. بل من الممكن أن توسعه نحو كسار شيكي كان قد بدأ في القرن السادس عشر. وكان لا بد، خلال هذه الفترة، من دولة قوية، بلغت ذروة قوتها العسكرية في ١٦٠٠. والأهمية التي يفترض أن الجوكون قد اكتسوها واردة أيضًا لوجود مجموعات عرقية إما تؤكد الانحدار من الجوكون وإما تقلّد عدة مظاهر من ثقافتهم، بطريقة مباشرة أو بواسطة الايغالا. وإلى جانب الايغالا هؤلاء، كانت هذه الشعوب تضم الايدوما، والآنكوي والمونتول، والايغبرّة وشعوبًا أخرى[٦٧].

ومع النوبي، نبلغ الجزء الأبعد جنوبي السودان الأوسط. على أن الأدلة اللغوية والروايات الشفوية تبيّن أن الارتباطات الهامة الأولى كانت إلى الجنوب أكثر منها إلى الشمال. وكانت بلاد النوبي، بحكم موقعها الجغرافي مؤهّلة، مع ذلك، لتكوين رابطة بين مناطق الأعشاب الطويلة (السافانا) بالشمال وجهات الجنوب الغابية، وصارت نقطة التقاء وتبادل تأثير. وتؤكد كل المعطيات أن النوبي هم السكان الأصليين للمنطقة التي يقطنونها حاليًا، قرب الموضع الذي ينصب فيه البنوي في النيجر.

بل إن تاريخ تسويدي – البطل والمؤسّس الأسطوري لمملكة النوبي –[٦٨] يعتمد فحسب على ظهور حكومة مركزية لشعب نوبه، لا على ظهور النوبي كشعب[٦٩]. وقبل عهد تسويدي (كان «ايدجي» اسمه الآخر، لا سيّما عند الهوسا)، كان النوبي مقسمين إلى خمس مجموعات فرعية أو عشائر هي الايبه والبني (أو البيني)، والايباغي، والبناسي والديبو (أو زيتاكو، المسمين أيضًا غانا – غانا عند الهوسا)، وكانوا يكوّنون اتحادًا قليل المركزية يدعى اتحاد بني. وجلي، حسب المصادر، أنه كان يوجد ملوك قبل عهد «تسويدي»، وبعضهم مذكور الاسم بصورة خاصة. ويؤكّد ماسون ان تسويدي هو مجرد تشخيص لسلسلة من الأحداث أدّت إلى تأسيس دولة فوق القبلية...[٧٠]. وكانت هذه الفترة ثورية باعتبار أن تسويدي لم يحقّق فحسب توحيد النوبي المستقرين الممثلين باتحاد بني، بل كذلك توحيد الجماعات المتاخمين للنهر الكييدي (أو كيدي)، «المسيطرين على الماء»، ومجموعات فرعية أخرى عديدة غالبًا ما تتكوّن من اليوروبا والغواري والكانوري والايغالا النازحين أو المتمثّلين.

---

(٦٥) م. رياض، ١٩٦٠، ص ٤٨٣ وما بعدها.

(٦٦) الطبالون والمغنون هم نقلة الروايات الشفوية لعديد من المجتمعات بافريقيا الغربية. والأحداث التاريخية غالبًا ما يحتفظ بها في شكل أغان وأحاديث تروى أبًا عن جد في أسر الشعراء (المغنين) التقليديين. وأغلب هذه القصص متصلة بالتاريخ السياسي، لأن الملوك والرؤساء هم وحدهم الذين يمكنهم إعاشة المغنين بشكل دائم وكان الغناء يُستمع إليه وهو يُسرد في الاحتفالات. ويوجد بدول الهوسا أيضًا «تواريخ الطبول»، لكنها لم تجمع كلها بانتظام. ويستمد أغلب المؤرّخين معلوماتهم من حاشية البلاطات ورجالات الدين المسلمين (المعلّمون) ومن الوثائق المكتوبة أيضًا.

(٦٧) توجد تفاصيل بهذا الخصوص في مؤلّفات أ. تمبل، ١٩٢٢، وك. ك. ميك، ١٩٣١.

(٦٨) س. ف. نادل، ١٩٤٢، ص ٧٢.

(٦٩) م. ماسون، ١٩٧٠، ص ٣٢ – ٣٣.

(٧٠) المرجع نفسه.

ويعتقد ان تسويدي ذاته قد عاش في الجزء الأول من القرن السادس عشر ، لكن هذا التاريخ غير مؤكّد. وحتى ان لم يمكن إلى الآن تحديد نشوء الدولة زمنيًا بصورة يقينية ، فإن إشارات المصادر الهوسية إلى النوبي ترجع إلى القرن الخامس عشر ، وقد تكون بعضها متعلّقة باتحاد بني. وبالتالي فإن شعب نوبي كان يشكّل منذ القرن الخامس عشر جزءًا من مجموعة عرقية سريعة التوسّع. وكان يتضاعف عدديًا بتشجيع النازحين من أرض يوربا والايغالا (شعب يزعم أنه جاء مع تسويدي) والغواري والكمباري وبورنو ثم بتمثلهم فيما بعد. ومن الناحية الثقافية كان القرنان الخامس عشر والسادس عشر عهدًا صيغت فيه ثقافة حية لكل النوبي ، على حساب القيم الثقافية المحلية للمجموعات العرقية الصغرى. ولعبت تقاليد تسويدي دورًا مركزيًا في تطوّرها. وخلال هذه الفترة ، أقام ملوك النوبي علاقات ديبلوماسية وتجارية مع عدة دول مجاورة ومع مدن الهوسا على وجه الخصوص.

مجموعة أخرى أقامت علاقات مع الهوسا في هذه الفترة ، كانت تتكوّن من سكان بوشي. وبوشي هي اللفظ الهوسي المستعمل للإشارة إلى الأرض الواقعة جنوبي بلاد الهوسا — كساشن بوشي. وكانت تضم منطقة دولة بوشي الحالية ، ودولة الهضبة والجزء الجنوبي من دولة كادونا ، والجزء الشمالي لدولة النيجر ، والجزء الجنوبي لدولة سوكوتو (زورو وياوري)(٧١). والشعوب التي تعتبر هذه الأرض الفسيحة وطنها التقليدي شعوب عديدة ، وهي كلها ، باستثناء الكمباري ، مجموعات عرقية صغيرة(٧٢). وتؤكّد رواياتها التقليدية — باستثناء الكمباري مرة أخرى — أن منشأها إما بلاد الهوسا وإما بورنو.

ومن العسير أن نشخص العلاقات التي نمت بين الهوسا وشعوب بوشي حتى القرن السادس عشر بسبب النقص في المصادر التاريخية. ويبدو أنها كانت تتمثّل ، بصورة خاصة ، في هجرات الهوسا إلى أرض بوشي. وقد اتّجهت عدة شعوب نحو الجنوب لغايات تجارية أو عسكرية ، واتّجه البعض الآخر كلاجئين(٧٣). وباستثناء الجنود ، استقرّ جلّ هؤلاء المهاجرين في كساشن بوشي هنالك ولم يعودوا بعدها. واحتفظ بعضهم بلغة الهوسا ؛ وضيعها أحفاد مهاجرين آخرين ، وتم تمثّلهم لغويًا من قبل شعوب الكمباري والغنغاوة والدكاراوة والغواري والكاموكو والورجاوة التي استقبلتهم. ومن ناحية أخرى ، كانت أرض بوشي هدفًا مرموقًا لحملات كانو وزازاو لاستجلاب العبيد ، حتى أن عديدًا من السكان المحليين كانوا ينتقلون إلى بلاد الهوسا.

ويبدو أن الكمباري والكاموكو ، هما اللذان تمكّنا وحدهما ، من بين شعوب بوشي ، من تأسيس أنواع من الحكومات المركزية قبل القرن السادس عشر. ويبيّن تاريخ ياووري السياسي أنه عندما بدأ الهوسا يستقرّون في هذه المنطقة في نهاية القرن الرابع عشر ، اصطدموا بمقاطعة كمباري ماجنغا التي استولوا عليها وبسطوا عليها نفوذهم ابتداءً من هذا التاريخ. ولكن من الممكن أن ماجنغا قد أسّست مملكة كمباري نحو سنة ١٢٠٠ للميلاد. ومن الصعب أن نقول شيئًا عما كان بين دول الهوسا الأولى من علاقات في هذه الفترة بسبب نقص الوثائق. لكن من الجدير بالملاحظة أن أوائل الهوسا الذين بسطوا نفوذهم على ياووري في القرن الرابع عشر كانوا تجارًا (من جنوب كتسينة) مقيمين بالمنطقة(٧٤).

أما بخصوص الكاموكو ، فمن الممكن التعرّف عليهم في شعب يُدعى كاروكو ، مذكور في مؤلف

---

(٧١) أنظر بشأن مناقشة قصيرة للاستعمال التقليدي لكلمة بوشي ، م. ادامو ، ١٩٧٨ ، ص ٢٣.
(٧٢) أنظر ك. ك. ميك ، ١٩٢٥ ، وأ. تمبل ، ١٩٢٢.
(٧٣) م. آدامو ، ١٩٧٨ ، ص ٣٩ — ٤٠.
(٧٤) راجع م. ادامو ، نشأة سلطة الهوسا وزوالها في يوري ، الفصل الثاني ، (تحت الطبع).

المقريزي (توفي عام ١٤٤٢)، «أخبار أجناس السودان»، مع مملكة كنكومة، (أي كوانغومة أو كنغومة)[٧٥]. فهل كانت هذه المملكة التي يقدّم فيها الكاموكو كشعب مسيطر، موجودة بعد في ١٢٠٠، وهل كانت تمثّل الدولة التي سبقت زارية كما يؤكّد ذلك م. لاست؟[٧٦]، هذا أمر ما يزال غير ثابت. على أن شهادة المقريزي تشير إلى وجود شكل من أشكال التنظيم السياسي عند الكاموكو منذ القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر.

أهم الأحداث في بلاد الهوسا

الهجرة إلى بلاد الهوسا

من أهم أحداث هذه الفترة هجرة شعوب ومجموعات قادمة من مختلف الآفاق بأعداد هائلة إلى بلاد الهوسا في أزمنة مختلفة ولأغراض شتى.

والمناطق التي توافدت منها الأغلبية العظمى من هؤلاء النازحين هي الساحل شمالاً، بورنو شرقًا ومناطق امبراطوريتي مالي وصونغي غربًا. وكانت فئات النازحين تشمل رعاة، وصائدي سمك، ومزارعين، وتجار، وباعة صغار، ورجالات دين مسلمين، وعلماء (يسمون بالهوسا معلمين)، وكذلك بعض الأرستقراطيين.

وكان المهاجرون الرعاة من الفولاني (الفولبي) في المقام الأول، ثم من الطوارق. وبرغم كثرة ما كُتب بخصوص تاريخ الفولاني في وسط السودان، فلم يحصل من ذلك أي تشخيص مقبول لهجرتهم، اللهم إلاّ اتفاق جل الأخصائيين على الاعتقاد بأنهم بلغوا هذه المنطقة عن طريق الغرب. لكن التسلسل الزمني والطرق ما تزال غير معروفة إلاّ قليلاً. ويرى يوسفو عثمان أن الفولاني قد وصلوا أولاً إلى كتسينة في عهد جبدياكي، سركين كتسينة (حوالى ١٤٠٥ – ١٤٤٥)[٧٧]. وبعد ذلك بقليل، ورد ذكر مجيئهم في حوليات كانو بما نصه:

«في عهد يعقوبو (١٤٥٢ – ١٤٦٣)، قدم الفولاني إلى بلاد الهوسا، من مللي، وجاؤوا معهم بكتب التوحيد والاشتقاق. ولم يكن لفقهائنا من قبل، باستثناء القرآن، إلاّ كتب الشريعة والسنة. وقطع الفولاني البلاد، وذهبوا إلى بورنو، مخلّفين بعض الرجال في بلاد الهوسا، وبعض الرقيق وأناس أعياهم السفر»[٧٨].

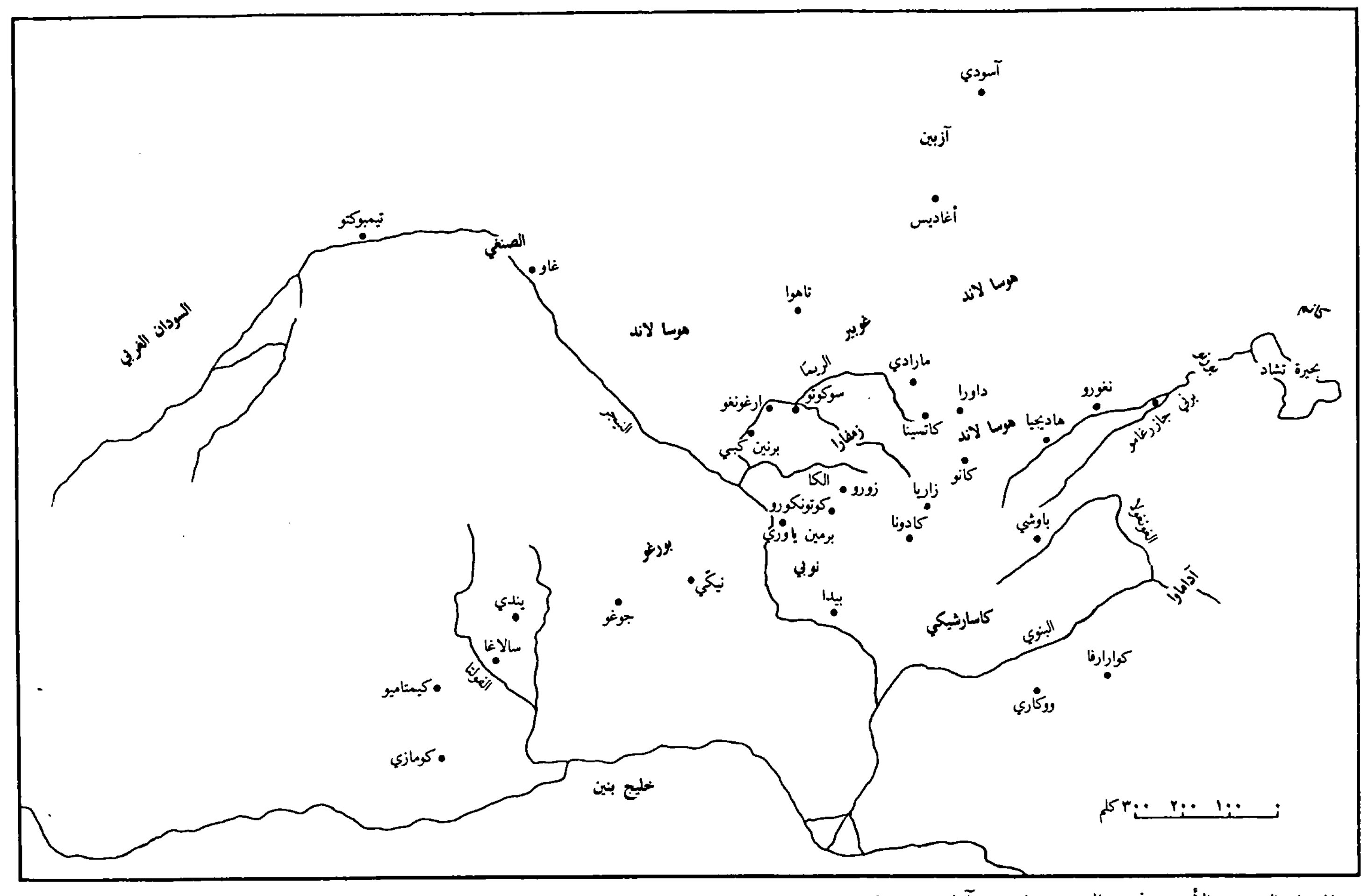
ومع كون بعض هؤلاء الفولاني من رجال الدين المسلمين، كما يدل على ذلك هذا الاستشهاد، فإن غالبيتهم العظمى كانت مؤلّفة من الرعاة الرحل، المتعلّقين بمعتقداتهم التقليدية، وقد جاؤوا بحثًا عن مراع جديدة أنسب لانعامهم من البقر والأغنام والماعز. ومن الصعب تحقيق عدد الفولاني الذين وصلوا، في

(٧٥) يوجد تحقيق جديد لهذا النص في د. لانجي، وتوجد ترجمة انجليزية سابقة في هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثاني، ص ٦.

(٧٦) م. لاست في آدامو (تحت الطبع).

(٧٧) ي. ب. عثمان، تحت الطبع، ص ٥٧٣.

(٧٨) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١١١.



• الهوسا والشعوب الأخرى في شمال نيجيريا (م. آدامو، ١٩٨١).

هذه الفترة، الى نيجيريا الشمالية (في حدودها الحالية)، لكن يبدو أنه لم يكن عددًا كبيرًا. وتتضمّن المناطق التي كان يوجد بها الفولاني في بلاد الهوسا وسط كانو، وشمال كتسينة ووادي ريمة (جزء من زمفرة وكبي). وكان رجال الدين المسلمين يعيشون خاصة في مراكز الهوسا المدنية حيث أسهم وجودهم كثيرًا في دعم الإسلام ولا سيّما في دولتي كتسينة وكانو.

دخل الطوارق بلاد الهوسا من أزبين في نهاية القرن الرابع عشر، عندما بدأوا في الاصطدام بهوسة غوبير. وقد سبق أن قلنا أنهم قد طردوا فيما بعد رئيس الهوسا في غوبير من منطقة أزبين، وأقاموا سلطنتهم سنة ١٤٠٥ في أغادس[٧٩]. ولم يهتم الطوارق، باعتبارهم رعاة، إلاّ قليلاً باحتلال الأرض بصفة مستقرة؛ بل كانت أهم مشاغلهم مبادلة منتوجاتهم بمنتوجات زراعية؛ كما كانوا يغيرون على المجموعات المستقرة جنوبي أزبين. على أن بعض المجموعات من الطوارق النازحين ما انفكّت تنفذ إلى بلاد الهوسا طلبًا للكلأ؛ وفيما بعد فحسب تكثّفت حركة هذه الهجرة.

ويحتمل أن الهجرة من بورنو إلى بلاد الهوسا كانت عملية قديمة جدًا[٨٠]، لكننا لا نمتلك شهادات مكتوبة على ذلك إلاّ ابتداءً من القرن الخامس عشر. وبغض النظر عن اللاجئين الارستقراطيين من بورنو الذين تتحدّث عنهم حوليات كانو[٨١]، ما فتئ أشخاص عديدون – خاصة من العلماء والتجار – يصلون إلى بلاد الهوسا. وقد استقرّوا في كل مكان تقريبًا، ولا سيّما في كانو وكتسينة وزارية[٨٢]، وان اعتُبرت الهجرة في الفترات السابقة أقل كثافة من هجرة ما بعد ١٦٠٠ م. وما من شيء يشهد على وجود صناع ضمن مهاجري بورنو الأوائل. لكن يجب ألاّ تُستبعد هذه الإمكانية.

وثمة موجة أخرى من المهاجرين، وهي هجرة الونغراوة (ديولا). وسنبحثها فيما بعد بالنظر إلى ارتباط مجيئها ارتباطًا وثيقًا بمشكلة نشر الإسلام في هذه المنطقة حيث لم يناقش بعد تاريخه. وقد تبعت الموجة الأولى – إما في القرن الرابع عشر أو في القرن الخامس عشر – بموجات من مجموعات أخرى من الونغراوة التجار خاصة. وقد استقرّ بعضهم في ياندوتو وكويامبانه، في كتسينة ليكا في حين فضّل آخرون الاستقرار بمراكز زاغو المدنية[٨٣] على أن أكثرهم استقرّوا، بطبيعة الحال، بكانو. وسرعان ما أدمج الونغراوة القادمون من السودان الأوسط في نظام الهوسا الاجتماعي، حتى وإن لم يفقدوا التحكّم في أنشطتهم الاقتصادية، وكوّنوا، لمدة من الزمن، مجموعة اجتماعية[٨٤].

وكان فريق آخر من المهاجرين قادم من الغرب مكوّنًا من صائدي السمك الصونغي الذين دخلوا وادي ريما المنخفض واستقرّوا به، وكانوا يمتلكون، عند وصولهم، عتادًا وطرائق صيد أكثر تطوّرًا[٨٥]. كما كانوا يتعاطون شيئًا من الزراعة. وكسائر المجموعات الغربية، فإنهم فقدوا في نهاية الأمر كليًا سمات

---

(٧٩) ج. أ. هنويك، ١٩٧١، ص ٢١٨ – ٢٢٢.

(٨٠) أنظر م. آدامو، ١٩٧٩.

(٨١) هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١٠٩.

(٨٢) أنظر ي. ب. عثمان، ١٩٧٢، وم. لاست، المرجع المذكور.

(٨٣) ي. ب. عثمان، ١٩٧٩، وم. لاست في آدامو (تحت الطبع).

(٨٤) أوضح مظهر لهذا الادماج الاجتماعي هو تقلّص استعمال الأنساب عند الدخول إلى بلاد الهوسا، ولذلك لم يشع أبدًا بأرض الهوسا استعمال أسماء العشائر مثل كمرة وسيسي وتراوري وترة، الخ. وصارت الهوسا اللغة الوحيدة التي يستعملها الونغراوة، في العلن، على الأقل.

(٨٥) أنظر م. ب. الكالي، المرجع السابق، ص ٤٩. وأنظر أيضًا أ. أوجيبه، أطروحة دكتوراه عن تاريخ حوض ريما قبل جهاد سوكوتو (١٨٠٤) الذي يختلف في هذه النقطة مع م. ب. الكالي.

ثقافة الصونغي وصاروا هوسا ، مكوّنين بذلك ما يمكن أن نسميه التخوم الغربية لبلاد الهوسا (أنظر الخريطة) . والفئة الأخيرة من النازحين التي يجب ذكرها تتكوّن من التجار والعلماء العرب والبربر القادمين من شمال أفريقيا وتومبكتو . وقد بدأوا في دخول بلاد الهوسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، في الوقت نفسه مع الفولاني تقريبًا . ومرة أخرى وقع اختيارهم على كانو وكتسينة لاستيطانها . وأصبحت كانو ، على وجه الخصوص ، مركز جاذبية للعلماء المسلمين الوافدين من الأماكن البعيدة . وكان هذا المد مرتبطًا في ذات الوقت بازدهار دول الهوسا المتنامي وباعتناق مجموعات عديدة وشرائح من سكان المدن الديانة الإسلامية .

الهجرة من بلاد الهوسا

فيما كانت الهوسا تستقبل النازحين إليها من مختلف الأصقاع ، كانت أرضها تفقد سكانها بمعدل لا يُستهان به واتّجه أغلب المهاجرين إلى الجنوب والغرب[٨٦] . ويبدو أن هذه الحركة البشرية التي انطلقت من بلاد الهوسا إلى الأراضي الواقعة جنوبيها مباشرة حركة قديمة جدًا ، لكن ما من شهادة باقية على ذلك . فالنصوص الأولى تشير إلى هجرات هوسية باتجاه الجنوب ، ويتعلّق جانب كبير منها بالحملات العسكرية التي شنّها ملوك كانو وكتسينة وزايرة (زاريا ؟) . ففي القرن الرابع عشر ، هاجمت جيوش هذه الدول الهوسية الشعوب غير الهوسية للدول الحالية لبوشي وغنغولة ، مثل الكوداوا والورجاوا والكوارارافة (جوكون) . وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، لم تتكثّف هذه الحملات فحسب ، بل صارت أكثر تنوّعًا[٨٧] . وتضم الجهات التي هوجمت الأراضي العالية بالهضبة والمنطقة المعروفة اليوم باسم زارية الجنوبية ومنطقة ياووري . وشملت بعض هذه الحملات محاصرات واقامات أخرى مطوّلة لعمليات التطهير . وتذكر النصوص[٨٨] ان العديد من الهوسا من غير المنتمين إلى صفوف الجيش ، كانوا قد تركوا مساكنهم وتبعوا الجيوش ، وكانوا يتّجرون ويتولّون تأدية مختلف الخدمات الاجتماعية مقابل ما تدفعه العساكر . ولم يعد جانب كبير من هؤلاء الناس أبدًا إلى بلاد الهوسا ، وبهذه الصفة أسهمت الحملات العسكرية في هجرة الهوسا وانتشارهم خارج أرضهم الأصلية .

وضمّت أصناف أخرى من المهاجرين تجارًا صغارًا ورجال دين مسلمين . من ذلك أن أهل منطقة كويامبانة (جنوب كتسينة) وطّدوا هيمنة الهوسا في ياوري في النصف الثاني من القرن الرابع عشر[٨٩] . واستقبلت بورنو هي الأخرى هوسا كانو في مطلع القرن الخامس عشر[٩٠] . ورغم أن هذه الحركات الهوسية قد بدأت خلال هذه الفترة ، فإنها لم تصبح شديدة الظهور ، ولم تفض إلى تكوين تشتت (ديسبورا) هوسي واسع في مختلف جهات أفريقيا الغربية ، إلاّ بعد القرن السادس عشر فحسب .

(٨٦) سنجد تحليلاً مفصلاً لهذه الحركات في م. آدامو ، ١٩٧٨ ، الفصول ٣ و٥ و٦ و٧ .
(٨٧) المرجع نفسه ، ص ٢٤ – ٢٥ .
(٨٨) هـ. ر. بلمر ، ١٩٢٨ ، المجلد الثالث ، ص ١١٠ .
(٨٩) أنظر م. آدامو ، ١٩٧٩ .
(٩٠) هـ. ر. بلمر ، ١٩٢٨ ، المجلد الثالث ، ص ١٠٨ .

انتشار الإسلام

ما يزال دخول الإسلام أول مرة إلى بلاد الهوسا محل جدال بين أهل الاختصاص. وقد قبل عديد المؤلّفين، دونما نقد، ما جاء في حوليات كانو، من أن الإسلام قد يكون دخل هذه الجهة في منتصف القرن الرابع عشر تقريبًا عن طريق الونغراوة (ديولا) القادمين من مالي في عهد ياجي، سركين كانو (١٣٤٩ – ١٣٨٥). وعلى الرغم من أنها الشهادة الأولى للإسلام ببلاد الهوسا التي تتحدّث عنها المصادر المكتوبة، فقد يكون من الراجح أن الإسلام أخذ في الانتشار قبل ذلك في بلاد الهوسا. فقد كان الإسلام موجودًا، في المقام الأول، بكانم – بورنو، منذ القرن الحادي عشر[٩١]؛ ومن الثابت ان الهوسا كانوا على اتّصال مستمر مع هذه الدولة قبل القرن الرابع عشر بكثير[٩٢]. وبالتالي، فإنه يستغرب كثيرًا ألاّ يكون هذا الدين قد بلغ بلاد الهوسا خلال الفترة الطويلة التي سبقت القرن الرابع عشر. وقد كانت تأثيرات كانم – بورنو الإسلامية مسلّطة على كانو منذ أمد بعيد، كما تثبته الحجج اللغوية: فقد كانت هنالك كلمات عربية كثيرة مرتبطة بالدين أُدخلت إلى الهوسا بواسطة الكانوري[٩٣]. وهذا مما يشير إلى أن الإسلام قد دخل هذه المنطقة من الشرق قبل دخوله من الغرب. وفي المرتبة الثانية، فإن الرواية الشفوية التي جمعت في كانو أخيرًا تبيّن أن الإسلام كان موجودًا في مدينة كانو قبل وصول الونغراوة بكثير[٩٤]. وفي المرتبة الثالثة، فإن الطريق التجارية بين فزان وغاو كانت تعبر، منذ القرن التاسع، أرض غوبر حيث نمت ماراندت وأصبحت مركزًا تجاريًا كبيرًا. ويمكننا بالتالي أن نفترض أن تأثير التجار المسلمين من شمال أفريقيا قد أدّى إلى إدخال الإسلام إلى غوبر قبل القرن الرابع عشر بكثير. وفي المرتبة الرابعة، وإن كنا لا نعتبر أنها حجة قاطعة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجود أشخاص عديدين في كانو، قبل عهد ياجي بكثير، كانت تُسمّى بأسماء إسلامية مثل داود (اسم مرادف لـِ باغودا) ومايداواكي وعبد الله، وزكِر، وسليمانة، وعِثمان، الخ[٩٥].

والوثيقة العربية التي اكتشِفت أخيرًا ونُشرت، وهي «أصل الونغريين»، المؤرّخة في ١٦٥٠ – ١٦٥١[٩٦] لا توضح في شيء، رغم ما عُلّق عليها من آمال، مسألة معرفة كيفية دخول الإسلام أول مرة بلاد الهوسا. وتصف هذه الوثيقة بالتفصيل وصول المسلمين الونغريين إلى كانو في عهد رمفا، سركين كانو (١٤٦٣ – ١٤٩٩ تقريبًا) الذي تراه معاصرًا لمجيء المغيلي المشهور. وهذا ما أدى بـِ أ. الحاج مباي إلى الاستنتاج أن بعثة الدعوة الونغرية هذه قد بلغت كانو في نهاية القرن الخامس عشر، وانه يجب عدم الأخذ بالتاريخ الوارد في حوليات كانو (القرن الرابع عشر). لكنه من الواضح تمامًا أن «أصل الونغريين» قد خلط حادثين يفصل بينهما فعلاً قرن من الزمان، وأرجعهما معًا إلى عهد رمفة[٩٧]. وبما أن «أصل الونغريين» كان محل مراجعات كثيرة، واحتوى بعض التناقضات الداخلية، فانه لا يمكن التسليم بمضمونه دون نقد[٩٨]. ويجدر اذًا تفضيل إشارات حوليات كانو، فيما يتعلّق بتاريخ وصول الونغراوة،

(٩١) ع. سميث، ١٩٧٦، ص ١٦٥ – ١٦٦.
(٩٢) م. آدامو، ١٩٧٩.
(٩٣) ج. هـ. غرينبرغ، ١٩٦٠، ص ٢٠٥ وما بعدها.
(٩٤) ج. بادن، ١٩٧٣، ص ٤٨ وما بعدها.
(٩٥) انظر «حوليات كانو»، في هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ٩٩ و١٠٠ و١٠٣ و١٠٤.
(٩٦) أ. الحاج مباي، ١٩٦٨، ص ٧ – ١٦.
(٩٧) راجع هـ. ج. فيشر، المجلد الثالث، ص ٢٣٦.
(٩٨) راجع الياس سعد، ١٩٧٩، ص ٥٢ – ٦٦.

أي القرن الرابع عشر. وبصرف النظر عن معرفة ما إذا كان التاريخان (القرن الرابع عشر أو الخامس عشر) صحيحين أم لا ، فمن الجلي أن الإسلام قد أُدخل إلى بلاد الهوسا قبل ذلك بكثير ، إما عن طريق العير أو غوبر ، وإما عن طريق كانم - بورنو - وهو الأكثر احتمالاً. وليس ببعيد أن تجار الغرب المسلمين (مالي وصونغي) كان لهم دور نشيط في بلاد الهوسا ، فنشروا الإسلام في أوساط تجار الهوسا وفي جزء من النخبة الحاكمة قبل مجيء الونغريين ، هؤلاء العلماء والدعاة المسلمين المهاجرين الذين أسهموا فيما بعد في إقامة سنة إسلامية أكثر حيوية وانتشارًا.

وواضح ، من جهة أخرى ، أنه وإن كان الإسلام منتشرًا انتشارًا واسعًا في بلاد الهوسا قبل القرن الرابع عشر ، فقد ظلّ دين التجار المغتربين والمجموعات التجارية المحلية الصغيرة والنخبة الحاكمة في حين كانت الجماهير متعلّقة ، عمومًا ، بديانتها التقليدية. على أنه يبدو أن السنة الإسلامية القوية قد بدأت تتركّز في القرن الخامس عشر بالتحديد ، ولا سيّما في كانو وكتسينة. ولم تتدعّم هذه السنّة بالعلماء الونغريين فحسب ، بل تدعّمت كذلك بالفقهاء الفولاني الذين جاؤوا معهم بكتب جديدة عن التوحيد والشريعة.

وفي هذه الفترة بالذات ، ظهرت وثائق عن عدة علماء مسلمين بارزين ينتمون لمناطق أخرى ، نموا مختلف الأنشطة في بلاد الهوسا ، ومن أشهرهم وأنبههم ذكرًا على الإطلاق محمد بن عبد الكريم المغيلي من توات ، بالصحراء)[٩٩] . وقد طار صيته من قبل بالمغرب باعتباره عالمًا ومجادلاً ومعذبًا لليهود. وانتقل في العقد التاسع من القرن الخامس عشر إلى أغادس وتاكيدّه وكانو وكتسينة وغاو.

وكان تأثيره في بلاد الهوسا كبيرًا ، رغم أن أعماله لم تذكر في كتسينة إلاّ لمامًا وان الروايات عنها هناك متناقضة بعض الشيء. وتقول بعض النصوص ان «السركي» أسلم على يد المغيلي نفسه[١٠٠]، وتشير مصادر أخرى إلى أن عامة الشعب قد أقبلت إقبالاً أعظم من إقبال الطبقات الحاكمة على خطب المغيلي ودعوته إلى الإسلام. وقد أصبح محمد الترختي (المتوفي سنة ١٥٢٩/١٥٣٠) العالم التومبكتي ، قاضي كتسينة بعد أن حج.

وفي كانو ، ألّف المغيلي «للسركي» محمد رومفة «المقالة» المسماة «واجبات الأمراء»[١٠١] ، والظاهر أنه أراد نصيحة سركين كانو في حكمه باعتباره حاكمًا مسلمًا. وقبيل زيارته لكانو ، سنة ١٤٩١/١٤٩٢ ، راسل المغيلي رومفة ، وشرح له تصوّره الخاص للحكومة المثالية[١٠٢] . لكن من العسير أن نقرّر إلى أي مدى أخذ «السركي» بنصائح المغيلي ودعواته نظرًا لما يعتري الوثائق من تناقض. ويبدو أن بعض «التجديدات» المذكورة في حوليات كانو[١٠٣] ، متناسبة مع المبادئ الإسلامية كما دعا إليها المغيلي ، في حين أن بعضها الآخر مخالف لها. ويتهم حوليات الهوسا[١٠٤] رومفة بالطرق الملتوية مشيرًا إلى ابتعاده عن الإسلام وإدخاله بعض العادات التي تحرمها الشريعة الإسلامية صراحة.

---

(٩٩) أنظر بشأنه أ. أ. بطران ، ١٩٧٣ ، ص ٣٨١ - ٣٩٤.

(١٠٠) قد يكون محمد كوراو ، الذي يحتمل أنه عاصر رومفة كانو ، أول رئيس مسلم لهذه الدولة. ونظرًا لما يخيّم من شك على تاريخ كتسينة ، فإننا لا نعرف من كان رئيسًا ابان زيارة المغيلي. أنظر ع. سميث ، ١٩٦١ ، ص ٧.

(١٠١) ترجمها ت. هـ. بلدوين إلى الانجليزية بعنوان : «واجبات الأمراء : دراسة عن الملك الإسلامي بقلم الشيخ محمد المغيلي التلمساني» ، بيروت ، ١٩٣٢.

(١٠٢) نشر هـ. ر. بلمر ترجمة انجليزية لها ، ١٩١٣ - ١٩١٤.

(١٠٣) أنظر أعلاه ، ص ١٣.

(١٠٤) ذكره ر. س. رتري ، في «حوليات الهوسا» ، الترجمة الانجليزية ١٩١٣ ، المجلد الأول ، ص ١٠ - ١٦.

ومن بين الشخصيات الأخرى التي ساهمت في دعم السنة وأنماط العيش الإسلامية بكانو، يجب أن نذكر أحمد بن عمر أقيت التومبكتي، جد أحمد بابا الشهير، وهو ممن دخل كانو ودرس بها نحو ١٤٨٧. وفيما بين ١٥٠٤ و١٥١٨/١٥١٩، وصل عبد الرحمن سُقَين المغربي، تلميذ ابن غازي المؤرّخ، إلى كانو قادمًا من مصر ودرس بها. وكان زميله مخلوف البلبلي (المتوفي بعد ١٤٣٤) نشيطًا هو الآخر في حقل التعليم بكانو وكتسينة. وكما قال ج. هنويك: «فإن ما قام به هذان العالمان من نشاط تعليمي كان له تأثيره في بروز كانو كمدينة إسلامية، وقد رمز إلى «اعتناقها الإسلام» بقطع الأشجار المقدّسة، وهو حادث تنسبه حوليات كانو والمصادر الونغرية إلى عهد محمد رمفة (١٤٦٦/١٤٩٩)»[١٠٥].

وفي نفس الفترة، دخل الإسلام دولاً هوسية أخرى. وفي زاريا، نحو نهاية القرن الخامس عشر، كان «السركي» محمد رابو يُعتبر عادةً أول رئيس مسلم[١٠٦] في حين يعتقد أن محمد كانتا (نحو ١٥١٦ – ١٥٥٤) أول سركين كبي وبعض قادته، قد اعتنقوا الإسلام بكبي. وهو أمر يكاد يكون ثابتًا، لأن كانتا، باعتباره قائدًا عسكريًا قديمًا في خدمة التقي الأسكيا محمد، لا بدّ أن يكون قد تأثر بالإسلام. والعديد من خلفائه يتسمّون بأسماء إسلامية إلى درجة أن مسحة من الثقافة الإسلامية ظلّت حيّة بكبي، رغم استمرار أغلبية الكباوة على اعتناق دينهم القديم لمدة طويلة جدًا. أما فيما يخص المناطق الأخرى من بلاد الهوسا، فإن معلوماتنا حول دخولها الإسلام خلال هذه الفترة معلومات ناقصة. وفي حالة ياوري، لا يمكننا إلاّ أن نفترض وجود مجموعات إسلامية صغيرة قبل ١٦٠٠، باعتبار ان هذه المنطقة كانت نقطة تلاقي تجار جوز الكولا على طريق بورنو إلى غونجة؛ ومن المعروف جدًا أن التجار المسلمين كانوا ينشرون الإسلام على طول المسالك التجارية وكانوا يؤسّسون مراكز صغيرة لجالياتهم في أهم الأماكن[١٠٧].

وعلى العموم، فقد كان انتشار الإسلام خلال هذه الحقبة مرتبطًا أساسًا بالنخبة الحاكمة وبمجموعات التجار، ولم يكن للإسلام تأثير كبير في غير المدن والمراكز الكبرى. وحتى في هذه الحالة، فإن أغلب الذين كانوا يسمون مسلمين لم يكونوا مسلمين بأتم معنى الكلمة، إذ كانوا يعتقدون دائمًا بأرباب آخرين يدعونهم في أضرحتهم عند الأشجار والصخور المقدّسة.

ويمكن أن نؤكّد أن الإسلام قد اندمج في التركيبة الدينية الافريقية لأنه لم يكن يعتبر ديانة أجنبية، أو غير متوافقة مع نظرة الهوسا الدينية للعالم. ولأن المجتمع الإسلامي – وهذا هو الأهم – لم يكن يطلب في هذا العهد السيطرة المطلقة لايديولوجيته الدينية، بل كان مؤهّلاً للتوافق مع مختلف المعطيات العقائدية والعادات التقليدية. ذلك هو احتمالاً – الموقف العام لأغلبية من اعتنقوا الإسلام وأحفادهم، في حين كانت نخبة محدودة من العلماء المغتربين (أو من تلاميذهم) تجتهد في اتّباع الشريعة والسنن الإسلامية اتّباعًا صارمًا. ومن جهة أخرى، ظلّ السكان الريفيون على دينهم التقليدي، مؤمنين بالشعوذة والسحرة لمدة طويلة جدًا. وما من شيء يتعارض، ظاهريًا، مع الدين الجديد طالما لم يلح الفقهاء المسلمون على تبديل بعض أشكال الحياة الاجتماعية والثقافية القديمة على الأقل.

وفي الميدان السياسي، دعم الإسلام عملية التمركز في عدة دول هوسية، بإضعاف الهيكل السياسي

(١٠٥) ج. أ. هنويك، ١٩٧١، ص ٢١٦ وما بعدها.
(١٠٦) ع. سميث، ١٩٧١، ص ١٩٦ – ١٩٨.
(١٠٧) أنظر س. أ. بالوغان، ١٩٨٠، ص ٢١٦.

التقليدي القائم على السيطرة على أماكن العبادة الهامة. وقد كانت السيطرة السياسية، في المقاطعات الصغيرة، قبل ظهور الدول المركزية، مرتبطة وثيق الارتباط بالطقوس الدينية التي يؤدّيها الرؤساء وتزخر حوليات كانو – التي كُتبت من وجهة النظر الإسلامية – بأقاصيص تتصل باعتراض القادة (الرؤساء) المحليين، الذين تقدمهم على أنهم كفار، يقومون في وجه ما يبذله قادة كانو، الذين يعتبرون مسلمين، من جهود من أجل المركزية. وقد تبع فتح هذه المقاطعات تدمير مقصود وواسع النطاق لأهم أماكن التعبّد القديمة، بما يحرم القادة المحليين من المصدر الأساسي لسلطتهم. وفي كانو، كانت سانتولو آخر هذه الأماكن القديمة التي دُمِّرت على عهد ياجي (١٣٤٩/١٣٨٥).

وأثر آخر لانتشار الإسلام، كان جلب عدد كبير من العلماء، ورجال الدين من نواح مختلفة بافريقيا. وأدّى هذا إلى انتشار الأفكار السياسية والاجتماعية والثقافية الجديدة في بلاد الهوسا، وانتشار القراءة والكتابة – ونعني بذلك في هذه الحالة القدرة على كتابة العربية وقراءتها، ثم الهوسا بعد ذلك باستعمال الأبجدية العربية (النظام «الأعجمي»)[١٠٨]. وساهم هذا بدوره في تحسين إدارة الدولة وكذلك مختلف الممارسات والعمليات التجارية. وأخيرًا وليس آخرًا ربط إدخال الإسلام وانتشاره بلاد الهوسا أوثق ارتباط بمنطقة ثقافية أكثر اتساعًا وتطوّرًا.

التنظيم السياسي والإداري

على الرغم من بعض الاختلافات الاقليمية، اتبع التنظيم السياسي الهوسي في مختلف مراحل تكوّنه وتطوّره خطًا موحّدًا، قائم على ذاتية ثقافية واجتماعية اقتصادية مشتركة تتجلّى قبل كل شيء في وجود لغة الهوسا التي يتكلّمها الجميع. وفي الوقت نفسه، يشهد النظام الإداري الذي ظهر في دول الهوسا منذ القرن الرابع عشر بتأثير كانم – بورنو حيث استعيرت نماذج كثير من المؤسسات والخطط، بل باحتفاظها بأسمائها الكانوري/كانمبو. وفعلاً فإن بورنو ظلّت لزمن طويل نمط الحضارة والثقافة الراقية، وقوى تأثيرها باستمرار، الهجرة من منطقة بحيرة تشاد.

ومن المهم أن نلاحظ أن دول الهوسا لم تعتبر أبدًا بورنو عدوًا برغم حملات رؤسائها وغاراتهم وما أجبرت هذه الدول على دفعه لهم من أتاوة، بخلاف صونغي وكبي وكوارارافة؛ بل يبدو أنها قد اعترفت ضمنيًا بأن تفوّق بورنو أمر طبيعي.

ومن ناحية أخرى، فإن الهيكل السياسي الإداري الهوسي كان مبتكرًا على كل المستويات، ما عدا أرقاها، وارتبط بالظروف المحلية فحسب.

وفي كامل البلاد، كانت المجموعات المحلية «كاويوكة»، مفردها «كاولي» تتركّب من عشائر أُسرية «جيداجه»، مفرده «جيدة» بإمرة رئيس يُدعى «المايغاري». وكانت هذه المجموعات تتألّف، في الواقع، من تجمعات زراعية غالبًا ما كانت صغيرة جدًا، بل متنقلة أحيانًا، وفي المستوى الثاني، كانت القرى «غاروروا»، مفرده «غاري» وهي أكبر وتعيش مستقرة. وكان على رأسها «سركين غاري» أو «مغاجين» غاري (رئيس القرية) بإمكانه عند الاقتضاء الاستعانة برؤساء الأحياء «مازو – انغوه»،

(١٠٨) يجب مع ذلك أن نلاحظ أنه لم يكتشف حتى الآن مخطوط «أعجمي» هوسي يرجع عهده إلى ما قبل ١٦٠٠.

مفرده «ماي – انغوه». وعلى قمة الهرم يوجد «البرني» (والجمع «بيراني») عاصمة البلاد، بقيادة «سركين كازه» لا «سركين برني» وهذا التعبير الأخير غير موجود في لغة الهوسا، أي رئيس البلد الذي يمتد سلطانه بصورة طبيعية على كل الرؤساء من المستويات الدنيا.

ويبدو أن بعض العوامل قد لعبت دورًا حاسمًا في نشوء «البيراني» باعتبارها مراكز نمط جديد من السلطة السياسية. وكانت هذه العوامل: أولاً تضاعف الموارد الزراعية والحرفية ببلاد الهوسا؛ ثانيًا توسّع تجارة المسافات البعيدة، ولا سيّما في القرن الخامس عشر؛ وأخيرًا وجود أسوار تحمي السكان المدنيين والزراعيين في المدن – الدول في حالة الحرب. وكانت هذه «البيراني» متميزة أيضًا بفضل اختلاط أجناس سكانها، بسبب التجارة ولكن أيضًا بسبب البطء الذي يبدو ان هذه المدن قد أُقيمت به[١٠٩].

وعلى رأس البلد، كان «للسركي» (الملك) نفوذ مطلق. وكان شخصه، نظريًا على الأقل، شخصًا مقدّسًا، بما أن مصير المملكة مرتبط به. وكان يختار، على العموم، من بين أعضاء السلالات الحاكمة؛ وبرغم سريان الخلافة من الأب إلى الابن، يجب أن نلاحظ أن حوليات كانو تشير إلى اسم أم كل حاكم، وهو أمر ربما كان راجعًا إلى بقايا نظام النسب الأموي. وكان «السركي» يقاسم السلطة قوادًا من درجة عالية ينتمون جزئيًا إلى نسبه هو، وفي جزء آخر إلى أهم سلالات العهد القديم، التي تحوّلت الآن إلى أرستقراطية وراثية. ومن ضمن هذه النخبة، كان البعض أعضاء في مجلس الدولة بتعيين من الملك. وكان هذا المجلس يسمى في غوبر «تارا تاغوبر» (تسعة غوبر، أو «تارن غوبر»)؛ وعندما يموت الملك، يقبل كل مرشح للخلافة قرارات المجلس المذكور[١١٠]. وكذلك الأمر في مجلس كانو الذي كان يحمل اسم «تاراتا كانو» (تسعة كانو)؛ ويذكر هذا المجلسان بمجلس الاثني عشر في أمبراطورية السيفيين القديمة بكانم – بورنو[١١١].

وكما رأينا من قبل فإن رمفة، «سركين كانو»، كان أول من عيّن العبيد بل الخصيان في مراكز هامة من مراكز الدولة وأوكل إليهم مراقبة الخزينة، وحراسة المدينة والقصر، وكذلك الاتصالات مع الموظفين الأحرار. وكانوا يتقلّدون مختلف المسؤوليات بالبلاط، مثل مراقبة الحريم[١١٢]. وكان أهم موظفي الدولة «الغلاديما»[١١٣]، وهو شبيه بالوزير الأول أو الوزير الأعظم، وبيده كل مقاليد الدولة. ويتقلّد هذه الوظيفة أحيانًا وريث العرش. وفي كثير من الأحيان كان «السركي» ألعوبة بيد «غلاديما» قوي. ويرأس «الغلاديما» طائفة من الموظّفين والأعيان، ويهتم كل واحد منهم بقطاع مخصوص أو بوحدة اقليمية تتفاوت من مقاطعة بأكملها إلى مجموعة قرى.

ومن المستحيل – لقلة الأدلة اللازمة – تشخيص المسار الذي اتبعه نظام الهوسا الإداري في تطوّره. وابتداءً من سنة ١٣٥٠ تقريبًا، كما بيّنه م.ج. سميث لعبت عدة عوامل دورًا حاسمًا في نمو حركات مركزية، ديكتاتورية أحيانًا؛ ومن هذه العوامل الإسلام، وغارات الاسترقاق ودفع الاتاوات عبيدًا،

---

(١٠٩) راجع ع. سميث، ١٩٧١، ص ١٨٧ – ١٩١، وتقول الرواية الشفوية إن إقامة كانو الدولة المدينة قد استغرق مئتي سنة على الأقل.

(١١٠) ج. نيكولاس ١٩٦٩، ص ٢٠٧.

(١١١) راجع تمبل، ١٩٢٢، ص ٤٦٧؛ ي. ارفوا، ١٩٤٩، ص ٣٧ – ٤٢.

(١١٢) أنظر «حوليات كانو»، في هـ. ر. بلمر، ١٩٢٨، المجلد الثالث، ص ١١٢.

(١١٣) هذه الصفة مستعارة من بورنو، لكنها تعني هناك والى المقاطعات الغربية، أي تلك التي كانت أقرب إلى بلاد الهوسا.

وتصدير العبيد، وتوطين العبيد، والموظفون العبيد، والخصيان والسراري[١١٤]. ويمكن أن يؤول تعيين العبيد في وظائف رسمية على أنه خطوة أخرى، بهدف إضعاف وضعية السلالات القديمة ومنح سلطة أكثر إطلاقًا «للسركي». وتشهد بعض «تجديدات» رمفة (الاستيلاء على الممتلكات والنساء، أو حق تسخير الرعية) بتزايد الصلاحيات الملكية، وتشير في ذات الوقت إلى التغيرات العميقة في التركيبة الاجتماعية.

النمو الاقتصادي

يمكن أن نلخّص إمكانات النمو الاقتصادي ببلاد الهوسا على النحو التالي:

– أولاً، مناجم حديد ثرية جدًا وحسنة التوزيع، وهذا ما لا تشهد به حوليات كانو فحسب (بالنسبة إلى كانو ذاتها)، وإنما تشهد به أيضًا الأبحاث الأثرية التي أُجريت في مناطق أخرى[١١٥]. وتقع أغلبية هذه المناجم، المستغلة في ذلك العهد، قرب مناطق الغابات، حيث كان ينتج خشب الحريق والفحم الخشبي بوفرة لصهر المعادن. وما من شك في أن حديد تل دالا قد أسهم في تنمية التجمع السكاني الذي صار فيما بعد كانو.

– ثانيًا، تمتلك بلاد الهوسا أراضي غنية خصبة في كل أرجائها تقريبًا. والوثائق الأولى مثل كتابات ابن بطوطة وليون الافريقي تبين أن الزراعة كانت أهم نشاط اقتصادي في دول الهوسا. وهو ما تؤكّده كل الدراسات اللاحقة.

– ثالثًا، رغم أننا نفتقر إلى معطيات إحصائية تتعلّق بكثافة السكان الهوسا، فإنه يمكننا أن نقدر، بالنظر إلى القرى والمدن الكثيرة بمختلف دول الهوسا، أن هذا البلد كان كثيف السكان. وكان توزيع السكان منتظمًا، ونعني أن الدول لم تكن مكتظة بسكانها في جانب واحد من البلاد.

– وثمة عامل رابع، هو الموقع الجغرافي لبلاد الهوسا، بين الساحل والصحراء شمالاً، ومناطق أعشاب السفانا والغابة الاستوائية جنوبًا. وكانت بلاد الهوسا تستفيد من قدرتها على القيام بدور الوسيط في مبادلة منتجات هذه الجهات.

ونتيجة لذلك، نمت في بلاد الهوسا، في وقت مبكر، الصناعة اليدوية والتجارة على المسافات البعيدة. لكن لا بدّ من مزيد الدراسات لتشخيص التاريخ الاقتصادي لبلاد الهوسا منذ بداية الألف الحالي. وعلى الرغم مما لنا من انطباع عام بأن الهوسا كانوا تجارًا «أولاً وقبل كل شيء»، فالواقع أن كل هوسي كان مزارعًا بالدرجة الأولى، وأن الزراعة كانت تكوّن محور الحياة الاقتصادية بالبلاد.

والأرض ملك المجموعة، (الدسكرة، القرية، المدينة) ورئيس المجموعة يشرف على استغلالها. ولم تكن تباع أبدًا. ويستفيد بغلاتها من يفلحها. وكان بإمكان الغرباء عن المجموعة اقتناء أرض واستغلالها بإذن من رئيس المجموعة. وفيما بعد، مع تقدّم الاقطاعية، صار بإمكان «السركي» ومن حقه أن يقطع الأرض لكل شخص محليًا كان أو غريبًا.

(١١٤) م. ج. سميث، ١٩٦٤ أ، ص ١٦٤ – ١٩٤؛ ١٩٦٤ ب، ص ٣٥١ – ٣٥٣.

(١١٥) بخصوص تشغيل الحديد في بزازو، أنظر ج. أي. ج. سوتن، في ZAP، المجلد الأول والثاني. وبشأن غوبر، أنظر د. غربنارت (تحت الطبع).

وكان يدير الفلاحين «تلاكاوا» مفرده «تلاكا» في أنشطتهم رئيس، هو «السركين بوما» (رئيس الزراعات)، المسؤول عن مراقبة بداية فصول الأمطار، وعما يقدّم من قرابين للآلهة المحلية بهدف ضمان محصول طيب.

وعلى مر الأيام، نمت في بلاد الهوسا ثلاثة أنماط من الضيعات هي: «الغندوم سركين» (حقول الملك)، المتسمة بمساحتها الكبيرة؛ و«الغندوم جيد» (حقول الأسرة)، المدعوة عامة «غونه» (الاسم العام لكل الحقول) وأخيرًا «الغيونة» الحقل الفردي[116]. وفي «الغندوم سركين»، كما في الحقول الكبرى لأعيان الدولة، كان لعمل العبيد الدور الأساسي. فعلى عهد عبد الله بُرجا (١٤٣٨ – ١٤٥٢) «سركين كانو»، كان يعيش بكانو وأحوازها آلاف العبيد. وكانت الأغلبية العظمى من هؤلاء تشغل بكل تأكيد في الزراعة. وتؤكد حوليات كانو أن «الغلاديما» في عهده أسس احدى وعشرين مدينة، ووطن بكل واحدة منها ألف عبد؛ وإن كان الكتاب لا يصرّح بماذا كانوا يشتغلون، فبإمكاننا أن نفترض أنهم مخصّصين لزراعة الأراضي المفتوحة أخيرًا.

وكان يمارس العديد من الزراعات ببلاد الهوسا، منها مختلف أنواع الذرة البيضاء، والذرة، والفونيو، والأرز (وخاصة في كبي وفي المناطق الغربية) وزراعات غذائية أخرى. وكانت زراعات النباتات ذات الأهمية التجارية، مثل القطن والنيلة (في دولة كانو) هامة بصورة خاصة[117].

وكانت الصناعة اليدوية تحتلّ، بعد الزراعة، مكانة هامة في اقتصاد الهوسا قبل القرن الرابع عشر بكثير. وقد بلغ الصناع مستوىً مرتفعًا نسبيًا من الإنتاج بفضل تقييم العمل والتخصّص. وكانت صناعة النسيج تحتلّ المرتبة الأولى. وقد نسجت الثياب القطنية في وقت مبكر ببلاد الهوسا. وكانت كل عمليات الصنع، من الحلج والتمشيط والغزل والصباغة والنسج تتم محليًا. وكان صانعو الجلود والإسكافيون في بلاد الهوسا يصنعون أنواعًا مختلفة من المواد (مختلف الحقائب والأكياس والأحذية والسروج والمخاد وغيرها) لا يزوّدون بها بلاد السودان فحسب، وإنّما أيضًا أسواق بلاد أفريقيا الشمالية[118].

وكان التعدين صناعة ضاربة في القدم، وكان الحدّادون يحتلّون مركزًا غاية في الأهمية. ويتم صهر المعدن بصب كميات كبيرة من خام الحديد في أفران كان الهوسا يسمونها «مرمرة». ومن هذه المادة الأولية كان الحدّادون (وكان أشهرهم حدّادو كانو) يصنعون ما تحتاج إليه المجموعة من أدوات كمواعين المطبخ، والأدوات الفلاحية، والسكاكين والفؤوس والسهام والحراب وغيرها. وكانت صناعة الفخار منتشرة جدًا هي الأخرى، وتنتج أغلبية الأواني اللازمة لحفظ السوائل والحبوب.

وكان يدير جلّ الأنشطة الصناعية نقابات، على رأس كل واحدة رئيس يعيّنه الملك باقتراح من أعضاء هذه النقابات في بعض الأحيان، وتتمثّل مهمتهم في جمع مختلف الضرائب التي يؤدّيها الصنّاع جباية. وكانوا أيضًا يشرفون على الانضمام إلى هذه النقابات، وطرق الإنتاج، ومقاييس جودة العمل والأثمان.

وكان المكان المفضل للمبادلات، عند الهوسا، هو السوق «كازُوة». وبقدر ما أصبحت التجارة أهم أنشطة السكان الحضريين، كانت السوق تقوم بوظائف أخرى أيضًا: فقد كانت «ملتقى للأقارب

(١١٦) أو «غيامة». ومع الزمن لم يعد اللفظ مستعملاً إلاّ للحقل الذي يمنح لامرأة تزرعه وتتصرّف بغلته كما تشاء.

(١١٧) كتب ليون الافريقي، ترجمة فرنسية إيبولار، ١٩٥٦، ص ٤٧٦: «وتزرع هذه المقاطعة (كانو) أنواع عديدة من القمح والأرز، وكذلك القطن».

(١١٨) ليون الافريقي، المرجع السابق، ص ٤٧٧ وما بعدها، (بخصوص غوبر)... «ومنهم من يصنع النعال كتلك التي كان يلبسها الرومان قديمًا. وتصدر هذه النعال إلى تمبكتو وغاو».

والأصدقاء، وموطن الاتصال بالأجانب»[١١٩] . وكان المشرف على السوق يسمى «سركين كازُوة»، وله أعوان، وهو يحفظ النظام في السوق، ويفض ما ينشب من خصومات بين التجار وزبائنهم ويجبي الضرائب للملك إما نقدًا وإما عينًا.

وفي وقت مبكر، انقسمت طبقة التجار إلى عدة فئات؛ فكان الهوسا يميّزون السوق أو التجارة (المحلية)، «السينكي»، وهي تجارة المنتجات الفلاحية والصناعية على نطاق محدود، يتولاّها المنتجون أنفسهم. وهناك، من ناحية أخرى، «الفاتوسي» وهي تجارة الجملة، وهي بيد التجار المحترفين الذين يسمون «فاتاكي» (مفرده «فَركي» أو «فَلكي»)، ويهتمون بالتجارة عبر المسافات البعيدة. وكانت هناك فئة متوسّطة هي الـ«يان كولي» (مفرده «دان كولي»)، ينتقلون من سوق إلى أخرى، يبيعون ويشترون المنتجات الرخيصة أو يبيعون بالمفرّق المنتجات الموردة بمعرفة «الفتاكي». وأخيرًا كانت «السينكي» بيد من يسمون «يان كازُوة» (مفرده «دان كازوة»)، ويعملون أساسًا في مدنهم الأصلية. وكان يوجد داخل هذا التقسيم، تخصّصات أخرى، مثل تجار اللحوم، وتجار الحبوب، الخ...

وكان السمسار «دلالي» جمعه «دلالاي» يحتل وظيفة خاصة في كل أسواق الهوسا. فهو يعرف أثمان كل سوق بالمنطقة، وبإمكانه أن يتوقّع تغيّرات الأسعار وتغيّرات العرض والطلب، ويضارب على أساس هذه المعرفة. وكان الدلالاي يتقاضون نسبة مئوية من أسعار المبيعات لقاء خدماتهم.

وعلى الرغم من أن السوق قد لعبت دورًا هامًا، فإن المعاملات كثيرًا ما تتم خارجها مثل حالة الصنّاع الذين يتخذون ورشاتهم في مساكنهم حيث يذهب إليهم الزبائن لشراء المنتجات. ومن جهة أخرى، كانت المواد، الموردة في أغلب الأحيان، توصل إلى مساكن الطبقات الراقية أو إلى البلاط الملكي، لأن منزلة هؤلاء القادة لم تكن تسمح لهم بأن يظهروا في الأسواق. وسمة أخرى لنظام الهوسا التجاري، وهي دور النساء، متزوّجات وعزباوات، اللائي كن يمتلكن دكاكين للتغذية قرب الأسواق أو يبعن القطنيات.

وما تزال معلوماتنا عن النقود المستعملة في هذه الأنشطة التجارية ناقصة، ويمكن أن نفترض أن المقايضة كانت سائدة في هذه الحقبة في حالة المبادلات بين الأقاليم. وكانت أهم الوحدات النقدية تتكوّن من أطوال من أقمشة القطن تُسمى بلغة الهوسا «سوايي»، ومن الملح والعبيد. أما فيما يخص الودع (الأصداف الغوري)، (بالهوسا «فارين كودي» = النقد الأبيض) فإن تاريخ دخولها لبلاد الهوسا غير معروف؛ وكان الودع رائجًا منذ زمن طويل في الغرب، بمالي وصونغي. ولكنه لم يدخل إلى كانم – بورنو إلاّ بعد ذلك بكثير، في القرن التاسع عشر. وحتى عهد قريب كان يعتقد ان الودع بدأ يتداول ببلاد الهوسا في القرن الثامن عشر[١٢٠]، لكن مصدرًا من القرن السادس عشر، نشر أخيرًا، يذكر «أنه كانت تُستعمل بكتسينة، أصداف بحرية شديدة البياض، عملة لشراء الأشياء الصغيرة مثلما هو الحال في كل السودان؛ وكان الذهب يبادل، بمقدار وزنه، بالبضائع التي يجلبها التجار»[١٢١].

ونظرًا لنمو الحكومات المركزية ببطء شديد بهذه المنطقة، فإن شبكة التجارة عبر المسافات البعيدة دخلت بلاد الهوسا بعد جيرانها في الغرب (مالي وصونغي)، والشرق (كانم – بورنو) بكثير. لكن عندما تحقّقت الظروف اللازمة، استغلّ شعب الهوسا تمامًا كل ما أتاحه له موقعه الجغرافي من إمكانات. ومن

(١١٩) م. آدامو ١٩٧٩، ص ١.
(١٢٠) م. جونسن، ١٩٧٠، ص ٣٣.
(١٢١) د. لانجي وس. برتو، ١٩٧٢، ص ٣٣٥.

الثابت أن الونغريين قد لعبوا دور الروّاد في تجارة المسافات البعيدة ببلاد الهوسا ، لكن يبدو أن هذا الدور قد غالى فيه بعض المؤلّفين[١٢٢] . إذ بغضِ النظر عن الونغريين ، كان هناك أيضًا المغاربة ، والطوارق ، والكانوري ، ومجموعات أخرى ساهموا أيضًا في هذه التجارة . وابتداءً من القرن الخامس عشر ، الذي يبدو أنه كان بداية التحوّل في اقتصاد الهوسا ، بدأت البلاد تتعاطى التجارة ، وتولّت القيام ببعض جوانبها مما قادها نحو الجنوب[١٢٣] . ويرتبط تطور كانو وكتسينة ، وكذلك تنافسها ، ارتباطًا وثيقًا بظهور التجارة عبر المسافات البعيدة وبمساهمة تجار الهوسا فيها مساهمة متنامية . فتجارة الهوسا كانت تتّجه عدة اتجاهات ، مستفيدة من الموقع الجغرافي وكذلك من تنوّع ما تحتاجه البلدان الأخرى من منتجات . وبصورة عامة ، فقد كان المحور الأساسي للتجارة في الأول من الشمال إلى الجنوب . وحدث توسعه الجانبي بعد عدة قرون نحو الشرق .

ويمكن أن تُعدَّد أهم البضائع في تجارة الهوسا بالطريقة التالية ، حسب مصادرها الأصلية :

(١) المنتجات المحلية لبلاد الهوسا : القطنيات ، والجلد ومصنوعات الجلد ، والمواد الفلاّحية (وخاصة الذرة البيضاء) المخصّصة لواحات الصحراء ، ومسك الزباد وريش النعام ، وربما الصمغ .

(٢) منتجات أفريقيا الشمالية (وجزئيًا من أوروبا) : المصنوعات المعدنية والأسلحة والخيل والجواهر والزجاجيات وكذلك الثياب الفاخرة .

(٣) منتجات الصحراء : قضبان القصدير من مناجم تاكيدّة (أزليك) والملح والنطرون من بلمة ومناجم أخرى للملح بالصحراء . وكانت أغادس وغوبر أهم المراكز لتجارة الملح[١٢٤] .

(٤) (أ) المناطق الواقعة جنوب بلاد الهوسا تقدم في المرتبة الأولى عبيدًا إما ضحايا غارات وإما جزية مقدّمة من البلدان المجاورة . وكانوا يقومون بأدوار مختلفة – من عملة ، وبضاعة ، وخدم ، وجنود ، وحرس ، ويد عاملة زراعية وصناعية – وكان بعضهم يبقى ببلاد الهوسا ، في حين يُباع البعض الآخر في أجزاء أخرى من أفريقيا (ولا سيّما في المغرب)[١٢٥] .

(ب) وكان جوز الكولا هو المنتج الثاني المصدر من الجنوب . وكانت غونجا (أو غوانجا) أهم مركز لإنتاج الكولا ، بشمال غانا الحالية . وكانت الطريق الرئيسية من غونجا إلى بلاد الهوسا تعبر زارية وبورغو .

ولا نعرف كيف كانت التجارة عبر المسافات البعيدة منظّمة . وكل ما يسعنا أن نقوله ، بالنظر إلى ما عليه معارفنا اليوم ، هو أن التجار من شمال افريقيا كان لهم المركز المسيطر على التجارة العابرة للصحراء الكبرى ، في حين كانت التجارة نحو الجنوب ، وتلك التي تتجه شرقًا وغربًا ، في جانب منها ، بيد التجار الهوسا . والأهم من ذلك هو أن بعض مدن الهوسا ، وخاصة منها كانو وكتسينة ، كانت تستخدم مستودعات بين الشمال والجنوب ، باعتبارها آخر محطات التجارة العابرة للصحراء . وغني عن القول ان الطبقة الحاكمة في دول الهوسا كانت تستفيد من ازدهار هذه التجارة للإثراء . وكان هذا منعكسًا ، ابتداءً

(١٢٢) راجع ب . أ . لافجدي ، ١٩٧٨ ، ص ١٧٣ – ١٩٣ .

(١٢٣) ولا يمكن استبعاد أن تكشف الأبحاث المستمرّة وجود طرق تجارية للهوسا في اتجاه الشرق .

(١٢٤) يتضمّن معجم الهوسا أكثر من خمسين كلمة للدلالة على مختلف أنواع الملح ، مما يبيّن أهمية هذه المادة في التجارة وفي الحياة اليومية .

(١٢٥) كان الهوسا يميّزون بين نوعين من العبيد : « البايبي » وهم الذين أسروا أو تمّ شراؤهم ، ولم تكن لهم إلاّ حقوق قليلة ، و« الكوسيناوة » الذين يحتلّون منزلة أقرب إلى القنانة منها إلى مجرّد الاستعباد ، نظرًا لكونهم من الجيل الثاني . أنظر بهذا الخصوص أ . ج . ب . وفيشر ، ١٩٧٠ ، المرجع السابق .

من القرن الخامس عشر ، في بذخ البلاطات. وبفضل هذا الازدهار ، أمكن لرمفة أن يقوم بالأعمال المعمارية الواسعة النطاق ، وبالإصلاحات الإدارية والسياسية والدينية أيضًا كما رأينا من قبل.

وحوالى نهاية القرن السادس عشر ، بعد سقوط أمبراطورية الصونغي ، أصبحت الطريق التجارية باتجاه الغرب غير مأمونة ، وتلاشت العلاقات بين الصونغي والأيير ، في حين تكثّفت ، من ناحية أخرى ، الصلات التجارية بين الشمال وبلاد الهوسا ، وخاصة انطلاقًا من كتسينة ، حيث أصبحت المحطة الأخيرة للقوافل العابرة للصحراء ، أكثر من أي وقت مضى ، حجر الزاوية في اقتصاد الهوسا ، إن لم نقل في اقتصاد كل السودان الأوسط.

الفصل الثاني عشر

الشعوب الساحلية
الاتصالات الأولى بالبرتغاليين
من الكازامنس إلى بحيرات ساحل العاج

بقلم إيڤ بيرسون

الخصائص العامة للمنطقة

نعني بلفظة غينيا ساحل افريقيا الغربي الممتد من مصب نهر غامبيا إلى دلتا نهر النيجر ، وهو المفهوم القديم المرادف للفظة أثيوبيا أو بلاد السودان ، كما جاء في كتابات روّاد الملاحة البرتغاليين. وتشمل غينيا العليا الأقطار الواقعة بين مصب نهر غامبيا ومنطقة بَنداما. وقد ظلّ هذا الساحل والمنطقة الممتدة منه داخل البلاد خارجين عن المجال الدراسي للرحّالة والمؤلّفين العرب ، إلاّ أن من المحتمل أن تكون قد وجدت منذ عهد غانا علاقات تجارية بين منطقة السفانا وهذه المناطق المغطاة بالغابات.

ورغم أن هذه ليست منطقة الغابات الكبرى أو الغابات الاستوائية بعد ، إلاّ أن البيئة مغايرة كثيرًا لبيئة منطقة السفانا ، وإحدى خصائص هذه المناطق هي تفتّت السكان إلى عدد كبير من الأعراق.

وبازدياد نفوذ «الماندانغ» دفعت جبهة الهجرة بطلائع نحو الجنوب ، حيث بلاد الكولا والذهب والعبيد والملح. ثم فجأة ، في القرن الخامس عشر ، لم تعد شواطئ المحيط الأطلسي تمثّل نهاية مطاف تصلح فقط للصيد الساحلي وللمبادلات المحلية ، بل أصبحت تشكّل جبهة ثانية للاتصال بأوروبا ، سرعان ما احتلت فيها تجارة العبيد نحو أميركا مكان الصدارة. ومنذ ذلك الحين تشكّل تاريخ غينيا العليا نتيجة التداخل بين هذين التيارين التاريخيين اللذين لا يلتقيان في الحقيقة ، واللذين ظلّت الشعوب المحلية تحاول التخلّص من تأثيرهما ، متّخذةً من أجل ذلك مبادرات عديدة لصيانة ذاتيتها والمحافظة على إمكانية تحكّمها في مصيرها.

(*) توفي الأستاذ بيرسون في ديسمبر ١٩٨٢.





• خريطة ميسيا دي فيلاديستي ١٤١٣ (خريطة ملوّنة مرسومة باليد على ورق البارشمان)

وقد تكوّنت الحضارة السودانية الساحلية التي يشكّل «الماندانغ» أحد مراكزها الرئيسية ابتداءً من القرنين الثامن والتاسع، على يد المجتمعات الريفية الأصلية التي جابهت مشاكل التجارة عبر الصحراء التي أعيد تنظيمها في أعقاب انتشار الإسلام في شمال افريقيا. وسرعان ما نشأت شبكة تجارية طويلة المسافات تغطي مجموع المنطقة السودانية، ويمثّل الباعة المتجوّلون «المالنكي» أشهر القائمين بها.

وقد بلغت هذه الشبكة درجة من التنظيم في القرن الثاني عشر تسمح بتصدير جوز الكولا – تلك المادة السريعة التلف – إلى شمال افريقيا.

وحسب ما نعلمه عن عهود أكثر قربًا، فإن هذه الشبكة كانت تمتدّ إلى حدود الغابة حيث كانت توجد منطقة سمسرة. وفي ما وراء ذلك، كان منتجو مواد الغابات المنظّمون في شكل جماعات عائلية يمارسون تجارة تتابعية تقوم على تسليم البضائع من مجموعة إلى جارتها دون تدخّل تجار متخصّصين. وذلك هو بالتأكيد منشأ تجارة جوز الكولا. ومن المؤكّد أيضًا أن هذه الطريقة هي التي كانت تجري بها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر المتاجرة في «فلفل» (مالاكيات) الذي كانت تختص بإنتاجه ليبيريا الجنوبية دون سواها، ولكنه كان يصل إلى أوروبا، وخاصة إلى شبه جزيرة أيبيريا، عبر المنطقة السودانية وبلاد المغرب. وقد قدّر لهذه التجارة أن تحول وجهتها بعد ذلك نحو الساحل بتأثير البرتغاليين.

وقد ترك الملاّحون البرتغاليون الذين أبحروا بمحاذاة هذه السواحل على مراحل صغيرة في الفترة ما بين ١٤٥٠ و١٥٠٠ في مؤلّفاتهم تحديدًا لمواقع السكان سيفيدنا جدًّا في هذه الدراسة.

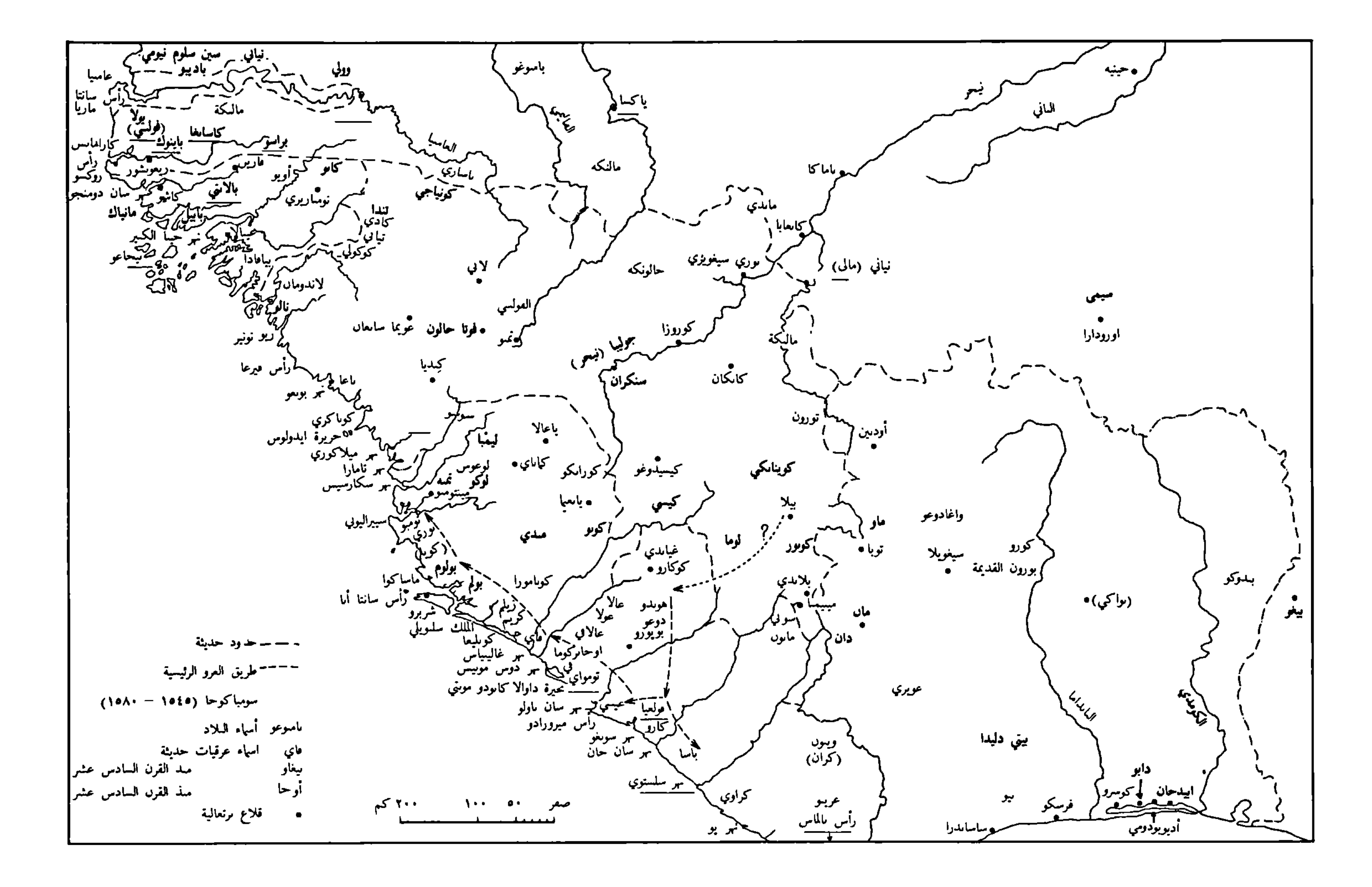
إن الساحل منخفض عمومًا وبه مستنقعات ومناطق موحلة ملائمة جدًّا لزراعة الأرز، وتقطعه مجارٍ كثيرة تنبع من جبال فوتا جالون وتنتهي في البحر بعد أن تقطع بضع مئات من الكيلومترات.

ولم يلعب البحر دورًا رئيسيًا في حياة سكان هذه السواحل الذين ظلّوا أساسًا مزارعين، غير أن البعض منهم كانوا يمارسون الملاحة الساحلية ويهتمون باستخراج الملح لبيعه لأهالي المناطق الداخلية.

لكن هذه المواد كلها قد غذّت بالأخص التجارة الاقليمية الطويلة المسافات، التي كان عليها أن تتلاءم مع التجارة الكبيرة مع العالم الخارجي منذ فتح النفوذ الإسلامي طرق الصحراء. ومن المعلوم أن هذه التجارة الكبيرة قامت أولاً وبالذات على البحث عن الذهب السوداني – باعتبار أن العالم المتوسطي يشكو من قلة هذا المعدن منذ العصور القديمة – ثم شملت بصفة ثانوية العبيد والعاج.

والذهب لا يخص غينيا العليا مباشرة، لأن مناطق الاستغلال الكبرى تقع خارج إقليمها، إما في حوضي نهري السنغال والنيجر، مثل بنبوغو وبوري، وإما في حوض نهر الفولتا في الشرق (لوبي، أكان). ومناجم منطقة غرزي (كبلة في جمهورية غينيا) القليلة الأهمية هي وحدها الكائنة داخل مجالها، لكن استغلالها منذ عهد قديم غير مؤكّد.

ان مواد التجارة الدولية هي التي قدر لها أن تجلب البرتغاليين إلى غينيا العليا منذ اللحظة التي فتح فيها «الاكتشاف» جبهة الاتصال الثانية. وكان المفروض بالطبع أن يكون الذهب في المقدّمة، لأنه وإن كان لا يُستخرج من المنطقة إلاّ نادرًا، إلاّ أنه كان لا بدّ أن يعبرها منذ اللحظة التي لم يعد فيها يصدر نحو الشمال بل نحو شواطئ البحر. غير أننا سنرى من جديد أن العبيد سرعان ما انتزعوا منه مركز الصدارة.



حدود حديثة
طريق العرو الرئيسية
سومباكوحا (١٥٤٥ – ١٥٨٠)
باموعو أسماء البلاد
فاي أسماء عرقيات حديثة
بيغاو منذ القرن السادس عشر
أوحا منذ القرن السادس عشر
قلاع برتغالية
صفر ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ كم
نياني
سين سلوم نيومي
باديو
وولي
عاميا
رأس سانتا ماريا
مالكة
بولا
(فولبي)
كاسانغا
باينوك
براسو
كارامانس
رأس روكسو
ريعوشور
فاريم
أويو
كابو
كاشو
بالانتي
مانياك
نهر سان دومنجو
نومارسري
تندا
كادي
نيالي
كوكولي
نهر حبا الكبير
بيجاعو
بيافادا
لاندومان
نالو
ريو نونير
رأس فيرغا
باغا
نهر بونغو
كوباكري
بحيرة ايدولوس
نهر ميلاكوري
نهر تامارا
نهر سكارسيس
سيراليوني
كوري
(كويا)
بولوم
ماساكوا
رأس سانتا أنا
شربرو
الملك سلوبلي
كوبليغا
نهر غاليناس
نهر دوس موبيس
بحيرة داوالا كانودو موبتي
توموواي
فاي
اوحاموكوما
عالاي
عولا
عالا
هوبدو
دوعو
بويورو
غياندي
كوكارو
عيمي
نهر سان باولو
رأس ميزورادو
نهر سوبغو
نهر سان حان
باسا
نهر سلستوي
كراوي
نهر يو
عريبو
رأس بالماس
ويبون
(كران)
عوبري
بيتي دليدا
بيو
فريسكو
ساساندرا
كوسرو
دابو
ايدحان
أديوبودومي
بيغو
بندوكو
باموعو
الغامبيا
ياكسا
مالنكه
لابي
فوتا حالون
غويما ساحان
تيمو
العولسي
كيديا
كونياجي
حالونكه
كوروزا
جوليا
(نيحر)
سنكران
كانكان
نوري سيغويري
كانعابا
ماندي
نياني (مالى)
ماماكا
النيحر
جيني
مالنكة
تورون
أودين
كوينانكي
كيسيدوغو
كوراكو
كيسي
كوبو
لوما
بيلا
مندي
باعالا
ليمبا
لوكو
كماي
يامبيا
كوبامورا
كوبور
توبا
ماو
واغادوعو
سيغويلا
بورون القديمة
كورو
بلاندي
مان
ميبينا
دان
مانون
سوليا
(بواكي)
مييمي
اورودارا

تطور أقطار غينيا العليا

وبعد أن حدّدنا الإطار ، لنر ما عسانا قادرين على معرفته من تطور الشعوب ومن ثقافاتها طيلة القرون الخمسة التي تهمنا. والحصيلة لا يمكن إلاّ أن تكون مؤقّتة ، لأن الفترة موغلة في القدم بالنسبة لأغلب الروايات الشفوية ، كما أن الوثائق المكتوبة لا تلقي الضوء عليها إلاّ في ما يتعلّق بالقرن الختامي . أما علم الآثار الذي سيأتينا يومًا ما بالأخبار ، فإنه لم يكن حتى ذلك الحين قد تخطى مرحلة البداية بعد. لذا يجب اللجوء إلى حد كبير إلى الطريقة الارتدادية ، بالاعتماد على معطيات انثروبولوجية ولغوية.

من كازامنس إلى جبل كاكوليمَا

في شمال غينيا العليا المتاخم للسينيغامبيا ، وسط شبكة أذرع البحر ومصبات نهر كازامنس ونهر كاشان توجد شعوب البالانته والديولا والفيلوبه ، وكلها تعيش على زراعة الأرز في شكل جماعات ريفية مستقلة.

في هذا القطاع تُعتبر قبائل البانيونكِه أو البانيوك (البانهون عند المؤلّفين البرتغاليين) بمثابة السكان الأصليين ، وكانت سلطة الماندي مانسا (أمبراطور مالي) تمتدّ على هذا الساحل بأكمله[1] . وقد كوّنت قبائل البيافادا (الذين يسمون أنفسهم ديولا) وإلى الجنوب منهم قبائل الكوكولي (أو لندوما) مناطق سيادة خاصة بها ومستقلة. وفي منتصف القرن الخامس عشر كانت مناطق البيافادا قد امتدّت بسرعة نسبية إلى البحر. وقد اصطدم هؤلاء القوم بقبائل البيجاغو المتحصّنة داخل جزرها والتي ستتمكّن بفضل تفوّقها البحري ، من فرض سيطرتها بالإغارة على القارة حتى العهد الاستعماري. وكان البيجاغو يُحسنون صناعة سفن كبيرة تستطيع أن تنقل ما بين ٩٠ و١٢٠ شخصًا.

وفي ما وراء ذلك داخل البلاد ، من غامبيا العليا إلى حدود منطقة فوتا – جالون الجبلية ، كان أسلاف شعوب تِنْدا باساري وكُونْيَاغي وبَدِيكْ وبادْيَارْ) يحتلّون منطقة شاسعة محتفظين بتنظيمهم في شكل مجموعات ريفية مستقلة. وكان البعض منهم قد شاركوا ، في أواخر القرن الخامس عشر ، ما بين ١٤٩٠ و١٥١٢ ، في الحملات العسكرية التي قادها تينغلىلا ، مؤسّس مملكة الدِّنْيَانْكِه. بيد أنهم أبدوا مقاومة شديدة لمحاولات الهيمنة التي قام بها المحاربون «الفولانيون»[2] و«الماندانغ». وكانت قبائل تندا تتعاطى زراعة متنقلة ، وكانت قراهم بمثابة معسكرات زراعية.

كانت مناطق قبائل اللندوما بايا والنالو والتيابي أو التمنه تمتدّ من نهر ريو غراندي إلى نهر ريو بونغو ، وكانوا جميعًا يزرعون الأرز ويصيدون الأسماك ، وقد شيدت قراهم وسط المناطق الموحلة ، وأحيانًا على سدود. وهذه هي الشعوب التي تتكلّم لغة مل. ومنذ القرن الخامس عشر كانت المجموعات الثلاث الأولى توجد في مجالها الحالي تقريبًا ، وتحتلّ قبائل بايا سواحل جمهورية غينيا الحالية من نهر ريو نونيز إلى

(١) ف. فرنانديس ، ترجمة فرنسية ، ١٩٥١ ، ص ٨٣–٨٩.
(٢) راجع الفصل السابع من هذا المجلّد.

جبل كاكوليمَا. ومن المحتمل أن تكون قبائل التمنه قد توجّهت تحت ضغطها نحو جنوب جزيرة تمبو لفتح مجال جديد[٣].

وقد شهد البحارة البرتغاليون الذين رسوا على هذه السواحل في أواسط القرن الخامس عشر بأنها كانت آهلة جدًا بالسكان. لكن لم توجد ممالك شاسعة لا عند الفيلوبه ولا البالنته ولا اللندوما ولا النالو ولا البابا على حد سواء. وهؤلاء اللذين كان الملاّحون يلقّبونهم بالملوك لم يكونوا في واقع الأمر سوى رُؤساء قبائل أو شيوخ عشائر ذوي سلطة محدودة جدًا.

ولقد كتب فالنتين فرنانديس في وصفه للسواحل الغربية لافريقيا: «ليس للملوك القرى كافة أية اتاوة ولا خراج من رعاياهم، لكن إذا أرادوا أن يغرسوا أو يزرعوا أو يجنوا، ساعدهم جميع رعاياهم في هذا العمل مجانًا، وإذا أرادوا أن يشيّدوا بيوتًا أو أن يسيّجوا أو أن يخرجوا إلى الحرب، استجاب الجميع أيضًا لندائهم». لكن نفوذ الملك يحدّ منه المجلس. «فإذا عزم الملك على الحرب، جمع كبار السن وكوّن مجلسه. فإذا رأى هؤلاء أن الحرب غير عادلة أو أن العدو أكثر قوة، قالوا للملك أنهم لا يستطيعون إعانته وأمروا بالجنوح إلى السلم رغم أنف الملك»[٤].

وقد كان هؤلاء الأهالي يعتنقون الديانة التقليدية. ولم يكن للإسلام من تأثير في جنوب نهر ريو غراندي. فازدهرت الديانة التقليدية هنا وأدرك البرتغاليون جيدًا الجوهر المشترك بين كل الطقوس المتواجدة على كامل هذا الساحل. فالسكان كانوا يعبدون أصنامًا منحوتة من الخشب، ويُسمى المعبود الأكبر كرو، كما أنهم كانوا يقدّسون الموتى، «وهي العادة المتمثّلة في إحياء ذكرى كل الأموات. فإذا تعلّق الأمر برجل جليل أُقيم له صنم يشبهه، أما إذا كان الميت من عامة الناس أو من العبيد فإنه يصنع له وجه من خشب ويودع بيتًا مغطى بالقش. وفي كل عام، تُقدَّم لهم قرابين من الدجاج أو الماعز...»[٥] وهذا هو أقدم وصف وصل إلينا للشعائر الدينية والجنائزية لشعوب الساحل. وإن التماثيل الصغيرة المُشار إليها هي «نوموليٖ» أو «بومتا» («بومدو» في المفرد) وهي تماثيل نُحتت من حجر لين هو الستياتيت (حجر الطلق). وتكتشف هذه التماثيل اليوم بالمقابر القديمة في جمهورية غينيا وفي سيراليون. وكان الأهالي يحنّطون الموتى قبل دفنهم.

من جبل كاكوليمَا إلى بلاد كرو

جنوبي كاكوليمَا، يبدأ مجال أقوام تمنه المنحدرة من السابس. ولم تبقَ عنهم سوى ذكرى مبهمة عالقة بالأذهان في جمهورية غينيا، ذلك أن التمنه متمركزون حاليًا في سيراليون. وبالقرب منهم كانت توجد أقوام لمبان وبولو، وإلى الخلف، في اتّجاه الداخل، توجد قبائل كيسي، وتتكلّم قبائل كل من بولو وكيسي لغة الشربرو.

---

(٣) ف. مونتاي، ١٩٦٦؛ د. باشيكو بيريرا، ١٩٥٦؛ ف. فرنانديس، ترجمة فرنسية، ١٩٥١، ص ٦٩ – ١٠٥.

(٤) ف. فرنانديس، ترجمة فرنسية، ١٩٥١، ص ٨٣.

(٥) راجع ف، مونتاي، ١٩٦٦؛ د. باشيكو بيريرا، ١٩٥٦، ص ٤٧؛ ف. فرنانديس، ترجمة فرنسية، ١٩٥١، ص ٦٩ – ١٠٥.

وعلى غرار السابقين، كانت هذه الشعوب منظّمة في شكل مجموعات تقوم على نظام الأنساب وتعيش في قرى مستقلة، وتطغى على هيكلها السياسي جمعيات ذات أقنعة تقليدية تتولى مسؤولية إعطاء السر، مثل السيمو في الشمال عند قبائل باغا ولندومان. ولم يلاحظ البرتغاليون أي فرق من نوع خاص بين السكان الساحليين. فالقرى عديدة سواء عند البولو أو عند التمنه، وتضم أحيانًا بين ١٥٠ و٣٠٠ ساكن، وذكرت المصادر وجود تجمّعات سكنية لقبائل بولو تضم من ألف إلى ثلاثة آلاف ساكن. وكان لكل قرية شيخها (بايي). وكانت زراعة الأرز متطورة جدًا في كامل الساحل. وفي أواخر القرن الخامس عشر كان البرتغاليون ينقلون فائض إنتاج أقاليم سيراليون إلى الشمال.

وكانت قبائل بولو على غرار قبائل بيجاغو، تصنع سفنًا كبيرة وتمارس صيد الأسماك بنجاح كبير، وقد طوّرت هذه القبائل النحت على الخشب كما كان لها باع في الصناعات العاجية، وكثيرًا ما طلب منها البرتغاليون أن تصنع لهم التحف (كالملاعق والملاحات وغيرها).

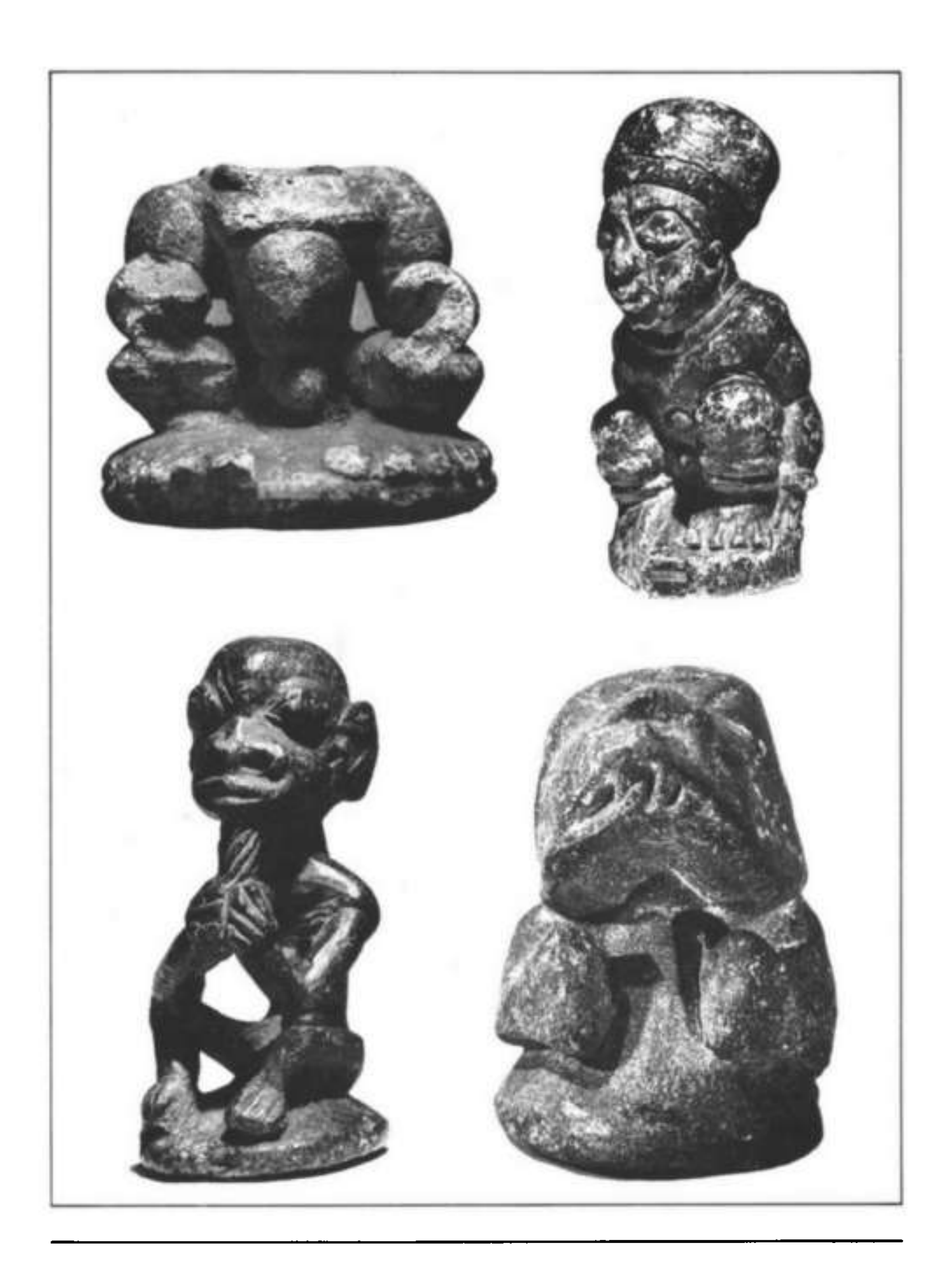
وفي عهد غير محدّد بالضبط، لكنه قد يرجع إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر، انتشرت لغة التمنه وثقافتهم إلى الداخل من الساحل بقليل، من شمال غرب فوتا - جالون إلى منطقة روكيل في سيراليون. وعند مجيء البرتغاليين كان التمنه لا يزالون مسيطرين على الإقليم ابتداءً من مرتفع كوناكري، لكن قبائل السوزو (سوسو منطقة فوتا - جالون) التي تمثّل طليعة الماندانغ أخذت تحاول دفعهم نحو الجنوب. وعلى الرغم من أن البرتغاليين تحدّثوا عن «أمبراطورية السابس» فإنه لم توجد قط دولة ذات هياكل محدّدة وإنّما وُجدت مجموعة من المقاطعات الخاضعة لسلطة رؤساء أو لنظام الأنساب توحّد بينها ثقافات مشتركة. ولسوف يلقي علم الآثار في يوم ما الضوء على تحرّكها المبكر نحو الجنوب، وهو تحرّك ينبغي أن لا يؤول حسب التصوّر القديم لحركات الهجرة على أنه تنقّل مباغت وجماعي، بل على أساس أنه انتشار ثقافي بطيء استمرّ على مدى قرون عديدة.

وعلى الساحل، فيما وراء مجال التمنه والبولو، تعترضنا شعوب كرو، التي يمتدّ مجالها الإقليمي إلى ذراع نهر البندما وسط بيئة غابات أساسًا كان من العسير بكل تأكيد اقتحامها حتى القرن السادس عشر. وفي ما يخصّ الفترة المعنية، فالمعروف لدينا قليل حول هذه المجموعة البالغة الخصوصية من وجهة نظر اللغوي وكذلك من وجهة نظر عالم الأنثروبولوجيا. بيد أنها كانت كالنالو واللندوما والباغا والبولو، تمارس صيد الأسماك بنشاط على طول السواحل، وتباشر زراعتها التي كانت أقل تطوّرًا من زراعة جيرانها في الشمال. فزراعة الأرز التي ربما جاءت من الماندانغ المتواجدين في المناطق الداخلية، كانت إذاك قليلة الانتشار. وكان مجال كرو الإقليمي أوسع مما هو عليه الآن ومقتطعًا جانبًا من منطقة السفانا في اتجاه سيغيلا حيث سيترك هؤلاء القوم المكان لقبائل المالنكة بداية من القرن السادس عشر.

ومهما يكن من أمر، فإن البرتغاليين سيجدون في القرن الخامس عشر باسا وكرو متمركزين جيدًا على السواحل.

تأثير منطقة السفانا

إذا ألقينا الآن نظرة على الاتصالات مع السودان، وجدنا أنها تتعلّق أساسًا بالماندانغ، ذلك أن قبائل الفولاني لم تظهر على المسرح إلاّ بشكل هامشي في أواخر الحقبة التي نحن بصددها. فالماندانغ الجنوبيون متّصلون منذ أزمنة قديمة جدًا بسكان مناطقنا، وقد تأثّرت ثقافتهم تأثّرًا بالغًا بهم. وما فتئ الماندانغ من



• تومولي (تماثيل من حجر الطلق



• نحت افريقي من العاج يمثّل محاربين وسفينة برتغالية
- منظر عام
- تفصيل

القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر يتقدّمون في اتجاه البحر ، بين نهر ريو غراندي وسواحل ليبيريا.

ويكوّن الماندانغ ، أي مجموع الشعوب التي تتكلّم لغات مالنكة وبمبارا وجوولا ، الخ... ، نواة العالم الماندي. وقد فرضت شخصيتهم التاريخية نفسها في القرن الثالث عشر عندما شيّدوا أمبراطورية مالي الشهيرة ، واتّجه اهتمامهم في وقت مبكر إلى غينيا العليا.

والماندانغ (وخصوصًا المالنكة والبمبارا) منظّمون في شكل مجموعات بشرية كبيرة قائمة على نظام الانتساب إلى الأب ، ومتجمّعة في قرى. وتتجمّع هذه القرى في «كافو» أو «جمانه» ، أي في وحدات إقليمية صغيرة لها طابع الدولة ، وهي بلا ريب غير سابقة على قيام أمبراطورية مالي ، إلاّ أن استمرارها أمر لافت للنظر. وعلى مستوى القرى ترتكز الحياة السياسية على جمعيات سرية كبيرة «جوو» ، وكان الإسلام حاضرًا في كل مكان ، لأنه وإن كان دين الأقلية إلاّ أنه ضروري بحكم ارتباطه بالتجارة عبر المسافات الطويلة.

ولقد بلغ التمايز الاجتماعي درجة متقدّمة نسبيًا ، كما عمّ تقريبًا وجود نوع من التنظيم على نمط الدولة كبنية فوقية تمارس جباية الضرائب من الـ«كافو».

ووجهت أمبراطورية مالي – التي اتّخذت من نهر النيجر محورها وظلّت قائمة حتى النصف الأول من القرن السابع عشر – وجّهت اهتمامها إلى مناطق السفانا الشاسعة وإلى السيطرة على التجارة عبر الصحراء. وقد جعلتها التجارة عبر المسافات الطويلة ولا سيّما تجارة الكولا والعبيد ، تهتم بالطرق المؤدّية إلى الجنوب والممتدة إلى مشارف الغابة ، لكن لا يبدو أنها قد توصلت إلى فرض سيطرة سياسية مستمرة فيما وراء خط يمتدّ من كوروسا إلى كنكان وأوديانه. غير أن الملوك كانوا حريصين دائمًا على إقامة علاقات حسنة مع قادة منطقة الغابات.

ولكن في شرقي منطقة فوتا – جالون التي يظهر أنها أفلتت دومًا من سلطة مالي ، لأن هضابها الجدباء المتكوّنة من الحجر الرملي كانت صعبة المسلك في حين بقي المحيط عقبة كأداء ، يبدو أن التوسّع المالنكي في هذا الإقليم قد تمّ خارج النطاق الأمبراطوري. وفي أقرب المناطق من الأمبراطورية ، يبدو أن توسّعًا بطيئًا صادرًا عن فلاحين يحميهم محاربون قد أتاح استيعاب الأهالي المحليين ، فتقاسمت الحكم سلالات نبيلة كبيرة ، بلا مركزية سياسية باستثناء فترات الهيمنة العسكرية ، كسلالة كونديه في سنكران بأعالي النيجر منذ القرن الرابع عشر على أقل تقدير ، وعشائر مالنكة وكوروما وكوناته في تورون الممتدة من كنكان إلى أوديانه في القرن الخامس عشر على أقصى تقدير.

وفيما وراء ذلك إلى الجنوب ، يبدو أن أول من قدموا إلى المنطقة هم جوولا الذين بلغوا مشارف الغابة بحثًا عن الكولا والذهب وربما عن فلفل الملاكيت والعبيد في الغرب. وكانوا قد بلغوا في جهة الشرق خارج منطقتنا خليج غينيا في اتجاه ساحل الذهب (غانا) قبل البرتغاليين ، ومعهم ظهرت الخلايا الأولى للإسلام. وقد جرّتهم خلافاتهم مع السكان الأصليين فيما بعد إلى الاستعانة بمحاربين مالنكة نظّموا البلاد سياسيًا واستقدموا فلاّحين قاموا باستيعاب أهليها (وهم الكورانكو في غينيا وسيراليون في القرن الخامس عشر على أقل تقدير ، والكونيان والماو حوالى أواخر القرن الخامس عشر ، والموروودوغو فيما بعد في القرنين السادس عشر والسابع عشر). وقد رأينا أن البعض منهم نفذوا إلى البحر منذ القرن الخامس عشر (الكونو والفاي). ومن المؤكّد تقريبًا أن الكامارا من كونيان هي التي مهّدت للسومبا غزوتها الكبرى التي انتهت إلى ساحل ليبيريا وسيراليون في الفترة ما بين ١٥٤٠ – ١٥٥٠.

وعلى ضفاف البنداما سيلتقي هذا التوسّع المالنكي الكبير بطلائع الجوولا الذين كانوا تعرّفوا منذ القرن الرابع عشر على الطريق الممتدة من دجنه إلى مناجم الذهب بأكان في بيغو وإلى خليج غينيا (بورون



• ناب من العاج وعليه مناظر الصيد

القديم وورودوغو وكورو). ومنذ نهاية القرن السادس عشر، سيفتح منفذ بحري من هذا الجانب في اتجاه البنداما السفلى.

على أن عالم المالنكة الجديد في الجنوب الممتد من منابع النيجر إلى البنداما، لم يكن مع ذلك متجهًا نحو البحر، بل نحو السودان والساحل والشمال، ولن يتأثر بنتائج تجارة العبيد إلاّ في وقت متأخر جدًا. وفي نهاية القرن السابع عشر فحسب سيصبح تأثير البحر بيّنًا، وسيتزايد العنصر الإسلامي والتجاري. وفي ذلك العهد قلبت شعوب أعالي النيجر – بنفاذها إلى المحيط الأطلسي – ثقافة السكان المحليين (سوسو وتمنه)، وقوّضت التوازنات القائمة في بلادها هي[٦].

دول أو مقاطعات الماندانغ الساحلية

يبدو أن أحداثًا جسامًا قد جدّت في الشمال الغربي منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر، وأفضت إلى نشوء مركز ثقافي مالنكي في كابو (غابو) الممتدّة من غامبيا إلى نهر ريو غراندي. ويبدو أن أمبراطورية مالي، المسيطرة على المناطق الحاوية لمناجم الذهب في أعالي السنغال وأعالي النيجر، قد فرضت على كامل السينغامبيا هيمنة لن تبقي عليها الأزمة التي ستصيب هذه الأمبراطورية بعد ذلك بقرن.

إلاّ أنه فيما وراء ذلك إلى الجنوب – من غامبيا إلى مشارف جبال فوتا – جالون – سيُكتب لعملها الدوام لأنه قام على توطين جديد وعلى تحوّل عميق للمجتمعات المحلية. وتنسب الروايات المتناقلة هذا الانقلاب إلى تيراماغان تراوري حامل لواء سونجاتا، الذي قد يكون آنذاك غزا كابو ونظّمها. وهذه الدولة الكبيرة، التي ستعمر حتى القرن التاسع عشر، وللدقة حتى سنة ١٨٦٧، كانت في بادئ الأمر عبارة عن حكومة مالي الغربية التي بسطت نفوذها غربًا على مناجم الذهب الموجودة في بمبوغو وأمّنت منفذًا على البحر صالحًا لتصدير الملح ومنتجات الصيد البحري فحسب، لكنه فيما يبدو قد خلب لب المالنكة في المنطقة السودانية.

كانت كابو محاطة بمجموعة من الدويلات الخاضعة لهيمنتها والتي يتكوّن سكانها أحيانًا من عناصر من غير الماندانغ تأقلمت مع ثقافتهم، ونذكر منها الكوكولي (التيابي) والبيافادا والكازنغا (باينوك المنطقة الشرقية)، أو مثل مملكة براس (أويو، على نهر ريو كوشو)، أو سلسلة الممالك الغامبية التي سيجدها البرتغاليون في القرن الخامس عشر، من مصب النهر إلى أعلاه، وهي: نيومي وباتي (باديبو) ونياني وولي. لكن البالنتا المناهضين لكل حكم مركزي بقوا على انفراد ولم يتم إخضاعهم إلاّ جزئيًا، ولئن ظلّت لغة الماندانغ وثقافتهم سائدتين ومزدهرتين إلى يومنا هذا، فإن النظام السياسي القائم مستقل استقلالاً كبيرًا بالنسبة إلى المركز في أعالي النيجر. والجدير بالملاحظة أن أرستوقراطية كابو تبنّت، تحت تأثير أهل البلاد، نظام وراثة يعتمد الانتساب إلى الأم. ومنها تنحدر سلالة جيلو وار التي ستقوم بتنظيم مملكات سيرير في تاريخ غير محدّد، لكنه بالتأكيد سابق على قدوم البرتغاليين سنة ١٤٤٦.

وباتجاه نهر كازامنس الأدنى، ستحتفظ مملكة باينوك – كازنغا الخاضعة للدولة الأم بهويتها إلى تاريخ تقويض أركانها على أيدي البالنته سنة ١٨٣٠. وسيشتق البرتغاليون من لقب ملكها (كازامنسا) الاسم الذي سيطلقونه على النهر (كازامنس). وبالطبع سيكون قدوم البرتغاليين فيما بين سنة ١٤٤٦ (اكتشاف غامبيا) وسنة ١٤٥٦ (اكتشاف نهر ريو غراندي) أهم حدث بالنسبة إلى هؤلاء المالنكة

(٦) أنظر و. رودناي، ١٩٧٠؛ وك. س. ويليه، ١٩٧٧.

الغربيين. وسيصبح المحيط منذئذ فصاعدًا جبهة الاتصال الثقافي الرئيسية، وستتبدّل دلالته كليًا بالنسبة إلى أمبراطورية مالي. وسيظل نهر غامبيا الصالح للملاحة بشكل ملحوظ أحد السبل الرئيسية للنفاذ إلى داخل القارة حتى القرن التاسع عشر.

فن هذا المكان سيخرج ذهب منطقة بمبوغو، بل وذهب منطقة بوريه، ثم سرعان ما سيخرج منه عدد لا يُستهان به من العبيد. ومن هذا المكان كذلك ستعبر منذ أواخر القرن الخامس عشر معظم البعثات البرتغالية في طريقها إلى أمبراطورية مالي (بين ١٤٨٤ – ١٤٨٥، وفي ١٤٨٧ و١٥٣٤). ومنذ نهاية القرن الخامس عشر، برز تحالف ضد الدنيانكه التابعين لتنغلا الذين كانوا يهدّدون هذا الطريق بغزوهم أعالي السنغال انطلاقًا من الفوتا – جالون. وسيزول هذا التهديد باستقرار الدنيانكه في الفوتا – تورو. بيد أن توطيد دعائم مملكة سيرير في السالوم في بداية القرن السابع عشر سيدخل تحت سلطتها البعض من الدول المالنكة من شمال غامبيا، من نييومي إلى نياني. وسترتبط حياة هذه الدول فيما بعد بنسق تجارة العبيد إلى القرن الثامن عشر.

ولم تحتفظ دولة كابو بسلطانها إلاّ في جنوبي نهر (كنتورا) وستبذل ما استطاعت من جهد للاتصال مباشرة بالبرتغاليين فيما يلي ذلك إلى الجنوب عن طريق نهري ريوكوشو وريوغراندي. ومع ذلك فإن كل القرائن تدل على أنّ هذه الدولة ستظل، رغم محن القرن السادس عشر، وفية لأمبراطورية مالي التي تقلّص ظلّها واجتزئت منها مقاطعاتها الساحلية لكنها لم تزل على قيد الحياة، خلافًا لما جزم به بعضهم طويلاً. ولا شكّ أنه يمكن تحديد تاريخ انتهاء هذا الاتصال التاريخي. فبعض المقارنات الجدية تحمل على الاعتقاد بأن منطقة بمبوغو، بما فيها من مناجم ذهب، قد ظلّت تابعة لمالي إلى ١٥٩٩، تاريخ إخفاق المنسا محمودو نهائيًا أمام دجنيه. وقد غزاها آنذاك (لصالح قبائل الدنيانكه في الفوتا – تورو الذين كانوا يشكّلون في تلك الحقبة «أمبراطورية فول الأكبر») برتغاليون اعتنقوا الإسلام جندهم غانا غوغا الشهير، وهو يهودي، أصله من كراتو اعتنق الإسلام وصار صهر السيلاتيجي أو ملك الدنيانكه[٧]، ومنذ هذا التاريخ نحو ١٦٠٠، أصبح كل اتصال بين الكابو وأعالي النيجر مستحيلاً، وسيتم تفكّك مالي كليًا في خلال ربع القرن التالي[٨].

وفيما يلي ذلك إلى الجنوب، كانت المنطقة الداخلية من بلاد السابس تحتلها كتلة جبال الفوتا– جالون الضخمة من الحجر الرملي ذات الهضاب الشاسعة التي تقطعها أودية عميقة غير خصبة لكنها صالحة لتربية المواشي بحكم مناخها. ومنذ عهد لم يحدّد بعد، كان هذا البلد مجال شعبين تجمع بينهما أواصر القرابة المتينة، هما الدجالونكه والسوسو، يتكلّمان بلهجات من لغة هي لغة الماندانغ قريبة جدًا من لغة المالنكة لكنها متميّزة عنها.

الفولاني وشعوب الفوتا – جالون

كان للدجالونكه المقيمين في شمال الكتلة الجبلية وشرقها والممتدّ تواجدهم شرقًا إلى البورية، بلاد الذهب، حضارة من نمط حضارة المندانغ، وكان تنظيمهم التقليدي يعتمد على النسب الأبوي وعلى

(٧) أ. تيكسيرا داموتا، ١٩٦٩، راجع أيضًا أ. دونلها، ١٩٧٧، ترجمة انجليزية، أ. تيكسيرا داموتا، ص ٢٦٨ – ٢٦٩.

(٨) أنظر الفصل السابع من هذا المجلّد.

قرى وقيادات صغيرة كما هو الشأن عند «الكافو». ولا بدّ أنهم كانوا خاضعين لمالي، جزئيًا على أقل تقدير، طيلة عصور عظمة الأمبراطورية، وحتى حدوث اضطرابات نهاية القرن الخامس عشر. ولا ريب أن هذا الخضوع قد استمرّ في أعالي النيجر إلى نهاية القرن السادس عشر.

وفي غرب الكتلة الجبلية وجنوبها، يبدو أن السوسو قد عاشوا على العكس من ذلك على انفراد في شكل جماعات صغيرة وكيّفوا ثقافتهم تحت تأثير شعوب مِل. من ذلك أن تنظيمهم السياسي – وهو أقل هيكلة بكثير من السابق – كان يخصّص منزلة كبيرة لجمعية سيمو السرية التي يرجع أصلها إلى التمنه أو الباغا. غير أن لغتهم فرضت نفسها شيئًا فشيئًا على شعوب الساحل. وفي تلك الحقبة كان الباغا والنالو لا يزالون كثيري العدد في وديان الفوتا – جالون، ولن يغادروا هذا البلد نهائيًا إلاّ في القرن الثامن عشر ابّان فترة الجهاد الذي أعلنه الفولاني.

ولا شكّ أن السوسو وهم من الفلاّحين والصيادين المستقرين على أطراف العالم السوداني وظلّوا زمنًا طويلاً غرباء عن الإسلام، قد عاشوا منطوين على أنفسهم إلى اليوم الذي حطّم فيه عاملان هذه العزلة وأدخل إلى اقليمهم طرق التجارة الكبيرة. ويتمثّل هذان العاملان في اقتحام الفولاني وحلول البرتغاليين بالساحل.

وكان دخول الفولاني (الفولبي) إلى المنطقة في القرن الخامس عشر. وهم رعاة شبه رحل يتكلّمون لغة أطلسية غربية قريبة جدًا من السيرير. وفي منتصف القرن الخامس عشر، في الوقت الذي تقلّصت فيه سلطة مالي من الساحل، بارحت جماعات من الفولاني منطقة الفوتا (في شرق موريتانيا الحالية) لتعبر أعالي السنغال وغامبيا من مجازة لا تزال تذكرها الروايات الشفوية. وعلى مشارف الفوتا – جالون الغربية هاجم دولو دمبا حوالى سنة ١٤٥٠ قبائل البيافادا التي كانت لا تزال تابعة لمالي. وبعد ذلك بقليل، استقرّت جماعة تِمّالا (تنغيلا) بأرض دجالونكي حول غيمي – سانغان. وستنطلق من هناك في نهاية القرن لمحاربة المالنكي في كابو وغامبيا ثم في بداية القرن السادس عشر لغزو أعالي السنغال والفوتا – تورو، حيث سيؤسّس كولي تنغيلا مملكة الدينيانكه.

ولن تنضمّ منطقة الفوتا – جالون إلى أمبراطورية «فول العظيم» إلاّ بصورة رمزية في أواخر القرن الخامس عشر، غير أن رحيل الدينيانكه لم يجر رحيل الفولاني بأجمعهم. فقد استقرّ هؤلاء المربّون للمواشي، الذين كانوا يومئذ يحتفظون بديانتهم التقليدية، بقطعانهم على المرتفعات في الأقاليم التي يقطنها السوسو والجالونكه. وحوالى سنة ١٥٦٠، اتّحدوا مع السوسو المستقرّين في منطقة البنا، على مشارف سيراليون الجبلية، بقصد إيقاف غزو المانى الذين كانوا قد اكتسحوا أقطار الجنوب من زمن قريب. بيد أنهم سوف يكتفون بوضعهم كهامشيين حتى توافد أفواج من المسلمين سينضمّون إليهم في آخر القرن السابع عشر، ثم سيخضعون لسلطانهم الجالونكه الذين ستحتفظ بلادهم بهذا الاسم، أثناء جهاد كاراموكسو ألفا الذي سيبدأ في سنة ١٧٢٧.

غير أن قدوم البرتغاليين هو الذي سيقلب مصير السوسو بتنشيط التجارة الساحلية فجأة. فمنذ نهاية القرن الخامس عشر، أخذت تعبر المنطقة تجارة مكثفة، بواسطة قوافل الدجاخانكة التي كانت همزة الوصل بين مناجم الذهب في أعالي السنغال (بمبوغو) وأعالي النيجر (بوريه) وبين ساحل الأنهار. وتتبع السوسو (أو سوسوي) هذه الحركة، فردّوا كلاً من الباغا والتمنه في اتجاه نهري بونغو وبنا، حيث وصلوا منذ أواسط القرن السادس عشر. وظهرت بينهم مراكز الإسلام الأولى، لكن التأثير السوداني لن يحدث لديهم تحوّلاً ثقافيًا واجتماعيًا عميقًا كالذي أحدثه لدى جيرانهم في الجنوب إلاّ في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر.

ضغط الماندانغ على السواحل – تقدّم المالنكه

كانت تسيطر على جبهة الغابات، من أعالي النيجر إلى الساسندرا، مجموعات من الماندانغ الحقيقيين أمثال الكورانكو أو المالنكه الجنوبيين (كونيان، ماو). ولا بدّ أن شبكة المتاجرة في مادة الكولا قد نُظِّمت في وقت مبكر جدًا من هذه الناحية على أيدي الجوولا مع منطقة سمسرة على اتصال بمنتجين كان يعتبرهم الجميع بمثابة «برابرة» الغابة، سواء تكلّموا لغة الماندية مثل قبائل الغورو أو الدان أو الكبلية أو اللوما (طوما)، أو لغة المِل مثل الكيسي.

إلاّ أن هذه المنطقة كانت بمعزل كبير عن مراكز مالي السياسية، ونحن نجهل إلى أي مدى وفي أي عهد أمكن للسلطة المركزية أن تبرز فيها بشكل محسوس. غير أننا نستطيع أن نجزم، بدون تاريخ ثابت، بأن استيطانًا حربيًا وفلاّحيًا وتجاريًا قد أفضى إلى إقرار التوطين الحالي بصورة بطيئة، إما باستيعاب الأهالي الأصليين الآنف ذكرهم وإما بطردهم. ويبدو من المؤكد أن التحرّكات الكبرى يرجع تاريخها إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٩]، أي إلى عهد كان فيه تقهقر مالي في الشمال يحرّض الطاقات على الاتجاه إلى الجنوب. وعلى كلّ، يظهر أن أهم شيء قد حدث قبل الاكتشاف البرتغالي، أو بدون أن تكون له علاقة به. بيد أن إشارة المان إلى أمبراطورية مالي توحي بأن الكونيانكي كانوا لا يزالون يعترفون نظريًا بسلطتها في أواسط القرن السادس عشر.

ولا ريب أن تعمير السنكاران والطورون لمنطقة شرقي أعالي النيجر، عند الاتصال بالكيسي والطوما، يرجع إلى القرن الرابع عشر. أما تعمير الكونيان والماو لتوبا في جمهورية ساحل العاج فإنه ولا شكّ – وإن كان أحدث عهدًا – يجب إرجاع تاريخه إلى آخر القرن الخامس عشر على أقل تقدير إذا أردنا أن يكون غزو الماني مفهومًا. ويجب تأكيد أهمية الهضبة ذات المناخ الصحي والصالحة لتربية المواشي، والمحاطة بجبال تشرف جنوبًا على الغابة الاستوائية على مقربة من مونروفيا وفريتاون. وقد كان موقعها يغري بفتح ثغرة في اتجاه الساحل منذ اللحظة التي أصبحت له فيها أهمية تجارية. غير أن هذا البلد كانت تقطنه عشائر من المالنكة خاضعة لهيمنة عشائر الكامارا والديومانده كان جدها الأسطوري فيرين – كامان قد طرد أهالي كبليه الأصليين أو استوعبهم. وفيا بعد استقطبت هذه الأراضي العالية عشائر عديدة من الفولاني، خصوصًا في القرن السابع عشر، لكن هؤلاء النازحين سيتبنّون لغة المالنكة.

وسيقوم الماندانغ، وقد ركّزوا في قبالة جبهة الغابات بخرقها مرتين على أقل تقدير لبلوغ شواطئ المحيط[١٠] ولكن في ظروف كانت في حقيقة الأمر مختلفة جدًا.

الكونو والفاي

هم ماندانغ استقرّوا بمنطقة الغابات في سيراليون وليبيريا في فترة سابقة للاكتشاف البرتغالي، أي قبل

(٩) إن مراجعة الأجيال حسب قيمتها الظاهرية قد يكون أحرى بأن يحملنا على التفكير في منتصف القرن السادس عشر، إلاّ أن المقارنة مع الكيتا بأعالي النيجر تقيم الدليل على أنه من المستحيل على المالنكة الرجوع بنسبهم بهذه الطريقة إلى ما يتجاوز أربعة قرون. فالحساب على أساس تعاقب الأجيال قد لا يؤدي اذن إلاّ إلى مدة دنيا.

(١٠) هذا التحرّك المزدوج قد دفعني خطأ في عمل سابق (ي. برسون، ١٩٦١) إلى اعتبار غزو الماني غزوين، أسفر الأول عن بروز عشيرة الماساكوا، والثاني عن ظهور عشيرة فاهنبوله وكلتاهما مسيطرتان اليوم عند الفاي (مندانغ ليبيريا).

١

٢



٣



١. تجار اوروبيون يتعاملون مع سكان كايور في الرأس الأخضر، صورة مطبوعة بالحفر على لوح معدني
٢. قرية إفريقية
٣. مدينة روفسكو الزنجية

١٤٦٠. وليس مستبعدًا أن يرجع عهد استقرارهم هنالك إلى القرن السابق، إلاّ أن بقاء لغتي كونو وفاي قريبتين من لغة المالنكة يرجح أن ذلك التاريخ أقرب نسبيًا.

وعلى كلّ، فقد خرجت عشائر من المالنكه انطلاقًا من أعالي النيجر، من السنكاران بدون شك، كي تبلغ البحر قرب منطقة الحدود الفاصلة بين ليبيريا وسيراليون الحاليتين، وكانت الكامارا تقود هذه العشائر، مما يدل، مثلما تؤكّد الروايات التقليدية، على أن لها قرابة بتلك التي ستستقر فيما بعد في الكونيان. وقد بقيت طائفة منهم في الطريق لتؤسّس شعب الكونو على مرتفعات عليا ذات مناخ صحي شبيهة بمرتفعات الكونيان[11]. أما الآخرون الذين كان يقودهم حسب الرواية كامالا الشاب وفنغولوما وكياتمبا فقد بلغوا البحر من ناحية بحيرة بيزو (قرب ميناء روبرتس بورت) حيث قاموا بتكوين شعب فاي. وقد أطلق عليهم البرتغاليون اسم غاليناس (الدجاج باللغة البرتغالية) لكثرة ما رأوا عندهم من دواجن. وقد أقلم هؤلاء السودانيون السابقون حضارتهم طبقًا لبيئة الغابة لكن يبدو أنهم احتفظوا بتركيبة سياسية قائمة إلى حد ما على السلطة المركزية. ونتيجة لذلك سيتكيّفون بسرعة كبيرة نسبيًا مع العالم التجاري الجديد الذي نشأ عن قدوم البرتغاليين، وإن كان الدافع الأصلي لهجرتهم هو بلا شكّ البحث عن الملح وصيد السمك. وسرعان ما سيتعرّضون لهجوم سودانيين آخرين هم المانى، غير أن هؤلاء، الذين ينتمون دون شك إلى نفس الأصل، لن يدخلوا الاضطراب على توازنهم الاجتماعي.

غزو الماني أو المانده

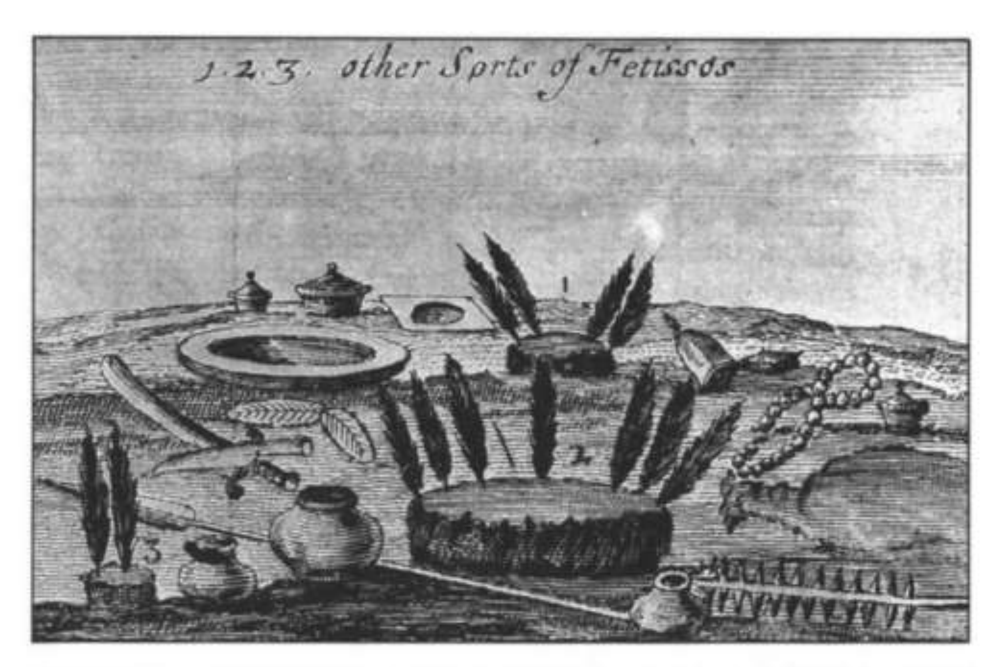
ويوافق زحف الماندانغ الكبير الثاني في اتجاه البحر الغزوات الشهيرة التي قام بها الماني – سومبا – كوجا – كارو. ويوجد، بشأن هذه الغزوات، مجموعة وثائق ضخمة، لكنها معقّدة ومتنوّعة، وكثيرًا ما أسيء درسها. فعملية الربط بين علم خصائص الشعوب (الاثنوغرافيا) أو تاريخ الشعوب المعاصرة لم تنجز بعد، والدراسات العديدة التي كانت هذه الأحداث مبعثًا لها لا تسمح بتقديم صورة مكتملة بعد.

وغزوة الماني هي أحد التحرّكات الكبرى التي هزّت دوريًا تاريخ بعض أقاليم أفريقيا، مثل تحرّك الجاغا بعد ذلك بنصف قرن في أنغولا أو تحرّك الزولو في القرن التاسع عشر. وقد أدخلت كل هذه التحرّكات الاضطراب على المؤسّسات والعلاقات بين البشر أكثر مما أدخلته على الخارطة الاثنولوجية اللغوية. ذلك هو شأن غزوة الماني التي لعبت على هذا الصعيد دورًا دون الدور الذي لعبته غزوة الفاي وإن كانت وسّعت بلا ريب مجال انتشار لغة المندانغ الجنوبيين وكانت بدون شك سبب نشوء عرق اللوكو. لكنها ساهمت خاصة في نشر مؤسسات سياسية ممركزة وفي توسيع شبكة التجارة السودانية عبر المسافات الطويلة.

ويبدو جليًا، رغم ما لا يزال يظهره البعض من شك، مثل الأستاذ «هاير»[12] أن غزوة الماني قد شنّها في أول الأمر جماعة من الماندانغ متعوّدون على التجارة عبر المسافات البعيدة وعلى طرق ذهب الشرق (إشارة إلى حرب ضد المينا). وبما أن تحرّكهم قد برز بعد أكثر من ثمانين عامًا من الاكتشاف البرتغالي،

(١١) تعني لفظة كونو في لغة الماندانغ «انتظر». وتقول رواية فاداما (مركز الروايات التقليدية الماندانغ) أن هؤلاء النازحين لُقّبوا بهذا الاسم لأنهم كانوا في وضع انتظار، لكنهم عندما لم يبلغهم أي نبأ عن الطليعة بقوا في موقعهم على مرتفعات سيراليون.

(١٢) هاير، ١٩٦٧، مجلة «تاريخ افريقيا»، المجلد الثامن.


1.2.3. other Sorts of Fetissos
1
2
3

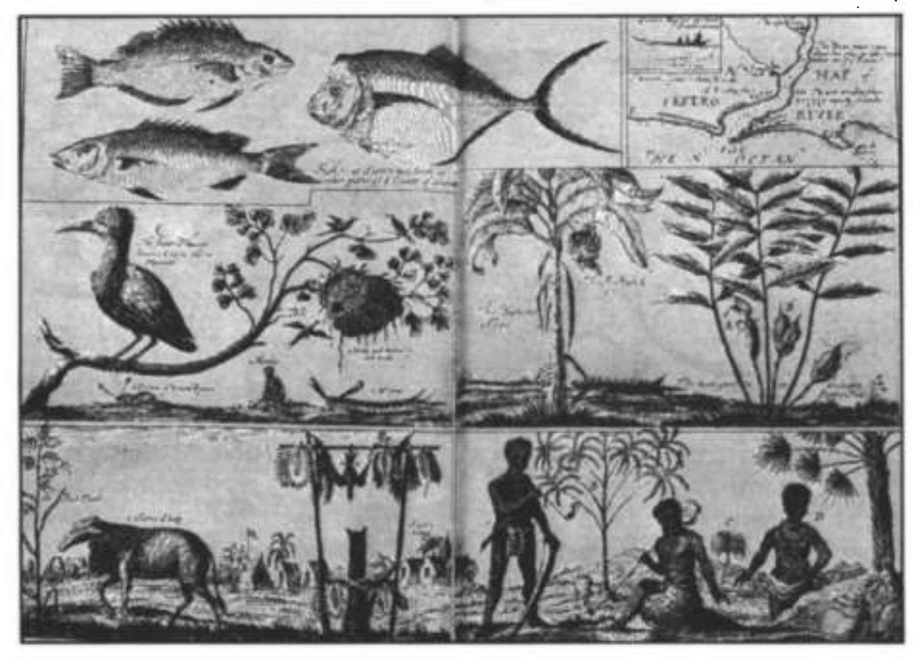

Fetisso Tree
Fetisso Tree
Fetisso
a Mountain Fetisso

• أصنام



١

٢



١. ملك سسترو (في القرن السابع عشر)

٢. نباتات وحيوانات غينيا العليا

فبالإمكان ألاّ نستبعد من دوافع هذه الغزوة دافع الرغبة في فتح طريق تجاري مباشر مع الساحل. وقد كان الغزاة، على الرغم من تفوّقهم بالتنظيم السياسي، قليلي العدد وغير معتادين على بيئة الغابات. ولذا لم يفلحوا إلاّ في تعبئة المهزومين شيئًا فشيئًا، وتضخيم صفوفهم بهذه الطريقة، إلى درجة أنهم سرعان ما أصبحوا أقلية صغيرة تسوقها قوة الدفع التي كانوا قد حرّكوها. وهكذا تتّضح الازدواجية التي أدهشت المراقبين البرتغاليين من أول وهلة.

جزر الرأس الأخضر

لقد استُعمرت جزر الرأس الأخضر المتكوّنة من أراض جدباء، قاحلة، منذ سنة ١٤٦٢، على نمط استعمار جزيرة ماديرا، لكنها عادت إلى السلطة البرتغالية منذ ١٤٨٤. وقد جعلت عاصمتها، منذ البداية، في سانتياغو، أقرب جزيرة من أفريقيا حيث سيقيم الحاكم ثم، ابتداءً من ١٥٣٥، الأسقف الذي ستمتدّ سلطته إلى ساحل القارة، من السنغال إلى رأس ميزورادو (ليبيريا).

وسرعان ما عمرت الأرخبيل بسبب مناخه أغلبية من العبيد الذين ابتيعوا في سينغامبيا وفي غينيا. وفيما بعد في سنة ١٥٨٢، ستضم الجزيرتان الرئيسيتان فوغو وسانتياغو، ١٦٠٠ نسمة من البيض و٤٠٠ من السود الأحرار و١٣٧٠٠ من العبيد. وقد كان اقتصاد الجزر في القرن السادس عشر قائمًا على تربية المواشي وزراعة القطن والنسيج حسب تقنيات افريقية. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الجزر لن تكتفي باستيراد العبيد لاستغلالهم في خدمة مصالحها الخاصة، بل سرعان ما أخذت تشحنهم إلى أميركا. وفيما كانت ساوتومي والكونغو تزوّدان البرازيل، ستوجّه جزر الرأس الأخضر منذ سنوات ١٥٣٠ – ١٥٤٠ العبيد إلى أميركا الاسبانية. ويمكن تقدير عدد العبيد الذين كانوا يُصدَّرون من المنطقة محل الجث خلال النصف الثاني من القرن بنحو ثلاثة آلاف عبد سنويًا. تمّ شراء جانب منهم مقابل منتجات الرأس الأخضر القطنية.

ولدراسة موضوع المتاجرة مع الساحل الافريقي ومع أميركا فلا بدّ من اعتبار سمات الاستعمار البرتغالي الخصوصية. فهذا الاستعمار يقوم على فكرة احتكار ملكي للتجارة، يجري التنازل عنه لفائدة أصحاب امتياز لآماد ومناطق محدّدة جيدًا. ومع ذلك فإن قانون ١٤٦٦ قد منح السكان حق الاتجار مع غينيا الرأس الأخضر أي الساحل الممتد إلى رأس ميزورادو. لكن في عام ١٥١٤ منع قانون الملك مانويل الذهاب إلى غينيا بدون ترخيص، فضلاً عن الاستقرار بها.

وفي مطلع القرن السادس عشر، كان هم السلطة البرتغالية الأكبر هو مقاومة مواطنيها الذين يستقرّون بالقارة بموافقة الملوك الأفارقة، ويتزوّجون فيها، ويفرضون أنفسهم وسطاء تجاريين. وهؤلاء هم اللنسادوس (من فعل «لنسار» أي اندفع في المغامرة)، أو التنغوماووس أي الذين انتحلوا التقاليد المحلية[١٣]. وفي ١٥٠٨، صدر مرسوم خاص يستهدف المقيمين في سيراليون، واعتبرهم مجرمين. ولا شكّ في أن كثيرًا من هؤلاء كانوا هامشيين، ومسيحيين جددًا على وجه الخصوص، أي يهودًا أُكرهوا على التنصّر.

(١٣) ج. بولاغ، ١٩٦٨.

خاتمة

إن مناطق الساحل مجال بكر بالنسبة للباحثين. فالمصادر المكتوبة بداية من القرن الخامس عشر قد تركها الملاّحون البرتغاليون، وقد فُتحت خزائن المحفوظات بلشبونة للباحثين من عهد قريب. وما زالت أعمال علماء الآثار في خطواتها الأولى. وقد بيّنت دراسة بعض الروايات الشفوية أن هذه المنطقة لم تعش منطوية على نفسها، إذ أن تجارة الكولا وغيرها من منتجات الغابة قد استمالت في وقت مبكر الماندانغ الذين أقاموا على مشارف الغابة تجمّعات قوية من التجار أو ممالك مثل كابو وكونيان. وقد عُرفت عدة من شعوب هذا الساحل بأعمالها النحتية، مثل النالو والباغا والبولون، وقد جُعلت زراعة الأرز التي كانت تمارسها هذه الشعوب بأساليب متقدّمة من هذه المنطقة «مخزن حبوب» حقيقيًا بالنسبة لأهالي منطقة السفانا الذين كانت لملوكهم غالبًا علاقات حسنة[١٤] مع القادة المحليين.

(١٤) يقول أحد الأمثال المالنكية: «من كان يريد زيت النخيل والكولا لا يخرج لمحاربة ملك الكيسي». ونادرًا ما سيخاطر المقاتلون من أهالي منطقة السفانا بأنفسهم في هذه المنطقة، ذلك أن الغابات والمستنقعات كانت تحول دون تحرّك الفرسان وانتشارهم.

الفصل الثالث عشر

من البحيرات العاجية إلى نهر الفولتا

بقلم ب. كيبريه

البلد

بعد كاب دي بالم (رأس النخيل) يتّجه الساحل رأسًا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، فيرسم قوس دائرة يتكوّن منه خليج غينيا. ونأخذ في الاقتراب من خط الاستواء فتتزايد كثافة النبات، ويبدأ مجال الغابة. ومن الخصوصيات البارزة الأخرى لهذه المنطقة، وجود بحيرات على طول السواحل. ويمكن تقسيم هذه المنطقة الساحلية إلى ثلاثة بلدان:

في غرب مصب رأس النخيل، عند نهر تانو، نجد سلسلة البحيرات الموازية للسواحل[1]، وعددها ١٢ بحيرة.

من تانو إلى منطقة أكرا، بعض التلال توهم بأن البلد وعر (رأس «تروا بوانت» الألسن الثلاثة).

تبدو البلاد، عند مصب نهر الفولتا، ذات طابع قاحل. فالغابة قد اختفت بصورة تكاد تكون كلية لتترك المجال لمساحات مكشوفة تتناثر فيها الأشجار.

وتتدرج هذه المنطقة في المناخ الاستوائي، حيث نسبة تساقط الأمطار فيها كثيفة، وتصل إلى ٢٠٠٠ مم من المياه سنويًا. ويمتدّ موسم الأمطار من مارس/آذار إلى يوليو/تموز، يليه موسم جاف من أغسطس/آب إلى سبتمبر/أيلول، ثم من جديد موسم أمطار قصير من أكتوبر/تشرين الأول إلى نوفمبر/تشرين الثاني، وأخيرًا موسم جاف من ديسمبر/كانون الأول إلى مارس/آذار. والجو مشحون بالرطوبة على الدوام حتى في موسم الجفاف، ويظل تأثير الغابة قويًا في مجموع البلاد.

(١) تمثّل هذه البحيرات سطح مياه شاسع يبلغ ٢٤٠٠ كلم² وهي بحيرات: نوني، تاديو، ماكه، أغبين، إبرييه، كوديو – بوه، أونو، بتو، أهي، هبو، تغبا، آبي.

مشكلة المصادر

لم تحظَ هذه المنطقة باهتمام البحث التاريخي إلاّ في وقت متأخر. فقد تركّز الاهتمام طويلاً على بلدان السهول والسواحل الواقعة إلى الشمال، والتي كانت مراكز أمبراطوريات حفل تاريخها بالملاحم والبذخ. فالرحّالة والمؤرّخون المسلمون الذين أقاموا بالسودان فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر، لم يعرفوا البلاد الغابية. ولذلك انعدمت المؤلّفات. أما علم الآثار فإنه ما زال في أول تنقيباته، بينما تثير الروايات الشفوية على الرغم من وفرتها عددًا من المشاكل.

المصادر المكتوبة

يتعلّق الأمر أساسًا برحلات البحارة البرتغاليين من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر. ولذا فإن هذه المصادر لا تهم إلاّ نهاية الفترة التي تعنينا. والبلد الواقع بين رأس النخيل ومصب نهر الفولتا اكتشفه البرتغاليون، واتّصلوا بسكانه من سنة ١٤٧١ إلى سنة ١٤٨٠. وشرعوا، بداية من سنة ١٤٨١، في تشييد حصن الميناء الذي أمّن لهم سيطرة ناجعة على التجارة في السواحل. وثمّة مصدران أساسيان هما: رحلة الملاّح دوارتي باشيكو بيريرا الذي ساهم في استكشاف السواحل، وكتب فيما بين ١٥٠٦ – ١٥٠٨، مؤلّفه «اسمير الدودي سيتواوربيس» وهو وصف لساحل غرب افريقيا من المغرب الأقصى إلى الغابون. أما المصدر الثاني فهو وصف افريقيا لـ أ. دابر الذي تناول مجمل الروايات من جديد وقدّم نظرة متكاملة لافريقيا في القرن السابع عشر[٢]. لكن، بماذا تفيدنا هذه المصادر البرتغالية؟

إنها تصف بعض السكان الساحليين وتعطي بعض التفصيلات حول الأنشطة البشرية. ففي رأس النخيل اتصل دوارتي باشيكو بيريرا بمجموعات بشرية أسماهم إيغُوريبُو، وليسوا في الحقيقة غير الغِرْيبُو. وقد دوّن بدقة أسماء الأنهار التي تصب في المحيط وذكر أن سانتو أندريه أو ساسندرا يمتلك «هراري أو مزارع أرز». ونحو الشرق، يطلق اسم ريو بيدرو على نهر تابو. وريو لاغوا هو نهرنا الكبير لاهو. وفيما وراء ريو لاغوا، تحدث دوارتي باشيكو بيريرا عن: «سبع قرى كثيفة السكان» ولكنها معادية للملاّحين. ويتعلّق الأمر بأقوام الكرو التي يصف الملاح أهلها بأنهم «أناس سيّئون»[٣]. وإلى حد نهر مايو (كومويه)، ينظر إلى الأجانب نظرة سوء: «ونحن لا ندري ما هي التجارة التي يمكن أن تكون لهذا البلد، ولكننا نعرف أن هذه المناطق كثيفة السكان»[٤]. وفي اكسيم بنوا حصنًا صغيرًا، هو حصن القديس أنطوان، وبعد ذلك بقليل بنى حصن «الميناء». وكان اكتشاف الذهب بهذه المنطقة سبب هذا التمركز القوي. ولبناء الحصن، أرسل ملك البرتغال تسعة سفن محمّلة بحجر البناء وبالجير. وقد شيّد الحصن تحت تهديد مستمر من السكان الذين تصدّوا، بطبيعة الحال، للمشروع البرتغالي. وعثر ملك البرتغال هنالك على مصدر للذهب كان يعتزم استغلاله بمفرده. وسرعان ما تحوّل «الميناء» إلى مركز تجاري استقطب كثيرًا من التجار. «وينتمي هؤلاء التجار إلى أمم مختلفة، هي: بريموس، أتيس،

(٢) د. ب. بيريرا، ترجمة فرنسية ر. موني، ١٩٥٦؛ د. أ. دابر، ١٦٨٦.
(٣) المرجع السابق، ص ١١٩ – ١٢١.
(٤) المرجع السابق، ص ١٢١.

هاكانيس ، بورويس ، مان ، دنغواس ، كاكرس ، اندرسس ، أو سوزوس وغيرها ممن أضرب صفحًا عن ذكرها تفاديًا لإطالة السرد »[٥] . ويمكن أن نتعرّف في هذه القائمة على الأتي والأكان والبرون أو الأبرون والماندانغ . وفي توافد التجار بأعداد كثيرة على « الميناء » دليل على أهمية التجارة . وقبل قدوم البرتغاليين ، كان الماندانغ ، أفضل زبائن « أهل الغابة » . ولنلاحظ أيضًا أن الأكان والأتى والبرون كانوا مهتمين بهذه التجارة لأنه كان يوجد ببلدانها ، بدون أي شك ، رواسب تحتوي على الذهب . وفي القرن السادس عشر ، تمّ التعرّف على معظم المجموعات . وكان البلد الواقع بين منطقة نهر بنداما ورأس الألسن الثلاثة يحمل اسم ساحل الأسنان (العاج) أو ساحل كواكوا . وكان ساحل الذهب (غانا الحالية) ممتدًا من رأس الألسن الثلاثة إلى نهر الفولتا . وقد ذكر البرتغاليون أسماء عدة مدن . وذكرت قرية ساما بسكانها الخمسمائة على أنها قرية كبيرة ، وينبّهنا مرفأ « فانتي الصغرى » ومرفأ « فانتي الكبرى » إلى أننا في بلاد الفانتي . وقد أصبحت هذه المنطقة ومعها « الميناء » ، في نهاية القرن الخامس عشر سوقًا رائجة للذهب .

وقد قدّم البرتغاليون معلومات ثمينة متناثرة عن العادات والأخلاق ، ولكن الثغرات أكثر من أن تساعدنا على تشخيص حياة البشر في إطار المؤسسات التي أقاموها .

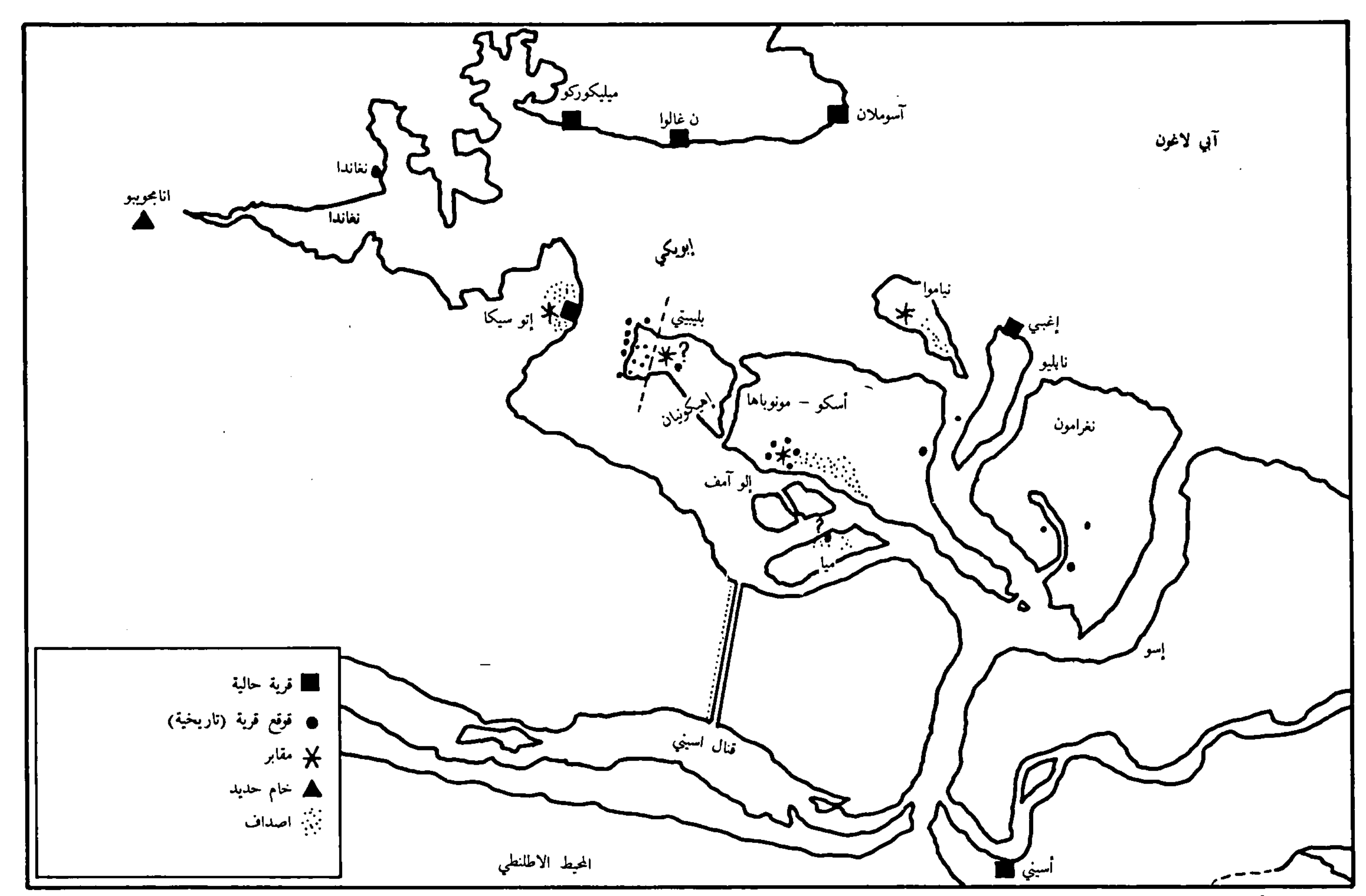
المصادر الأثرية

لقد بدأت البحوث الأثرية منذ وقت قصير ، وفتحت بعض الحفائر في غانا وفي ساحل العاج . وتبشّر النتائج الأولى ببحوث مثمرة حتى في المناطق التي تبدو فيها الغابة صعبة الاقتحام . ويبدو من الحفريات التي أنجزت في موقع بيغو باقليم البرون ، في الأطراف الشمالية للغابة حيث تبدأ مناطق السفانا ، أن العديد من مكوّنات الثقافة المادية قد تكون متأتية من دجيبيه[٦] . وتشهد هذه الحفريات بوجود نشاط تجاري كثيف مع وادي نهر النيجر الأوسط ؛ ويعتقد بوزنانسكي أن هذه العلاقات لا بدّ أن تكون قديمة جدًا . وقد كانت بيغو مركزًا تجاريًا يربط بين الغابة ومنطقة أعشاب السفانا ، وهي منطقة اتصال استوطنتها جالية قوية من المالنكة أو الديولا إلى جانب البرون . ويبدو أن الحفريات التي أجريت منذ سنة ١٩٧٠ ، خاصة بحي نياركو في بيغو ، قد بيّنت أن تاريخ هذا الموقع يعود إلى سنة ١١٠٠[٧] . والثابت أن بيغو كانت أحد أهم أسواق الكولا في القرن الرابع عشر . ومن المؤكّد مثلما يعتقد بوزنانسكي ، أن مجتمع أكان كان له في نفس الفترة ، نظام يمكّنه من القيام بدور الوسيط بين المندانغ ومنطقة الكولا الواقعة جنوبيهم . والأدلّة على وجود تجارة ذهب بين بيغو ومالي متوفّرة أيضًا . ولا بدّ أن هذا الذهب كان مصدره مناطق بعيدة إلى الجنوب . وقد تكثّفت العلاقات مع الغابة في القرن الرابع عشر ، الذي يمثّل الذروة التي شهدت طلبًا قويًا جدًا للذهب . ومن ناحية الغرب ، في بلاد الغورو ، بدأ التسرّب المندانغي قبل هذه الفترة بكثير . وتبدو تجارة الكولا اليوم أقدم مما كنا نعتقد . ويشكّل خط العرض الثامن منطقة الاتصال بين الغابة والسفانا ؛ وتقع غالبية المراكز التجارية على طول هذا الخط . وما زالت الحفريات التي عُثر عليها حول أودا في غانا وسيجبيه و(الساقية) في ساحل العاج ، لم تؤرّخ بعد . ففي سيجبيه (الساقية) يتعلّق الأمر بخنادق بيضوية

(٥) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٦) م . بوزنانسكي ، ١٩٧٤ ، ص ٤٨ .

(٧) م . بوزنانسكي ، ١٩٧٥ ، ص ٩ – ١٩ . توجد الأدلة على وجود تجارة الذهب بين بيغو ومالي في القرن الرابع عشر .



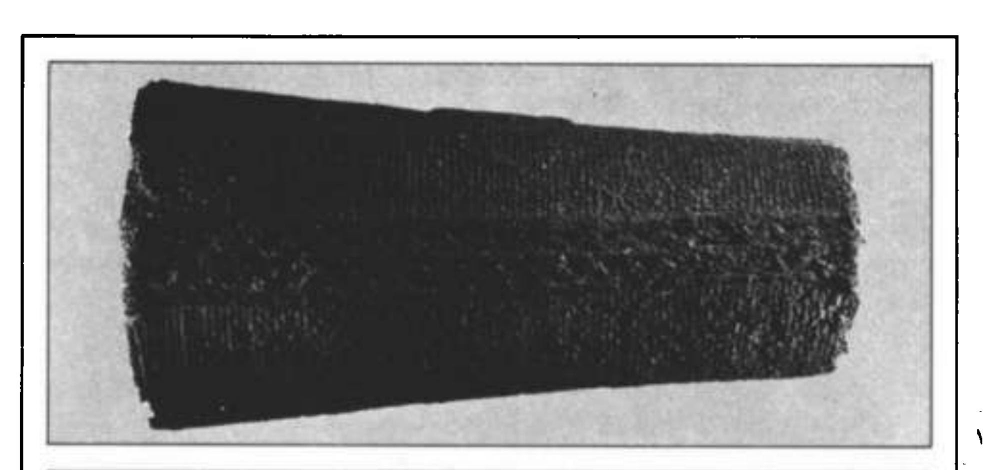
• المواقع الأثرية في آبي لاغون المصدر: مجلة غودو - غودو، عدد ١٢، ص ١٢٣، ابيدجان، ١٩٧٦.

١

٢



١. أنابيب وجدت في موقع سيغي
(نقطة بوليس أجبوڤيل)
٢. أنابيب وجدت في مقبرة نياموا



١
٢

١. إسوارة للذراع الأمامي وجدت في موقع سيغي
٢. إناءين وجدا في مقبرة نياموا

الشكل، تشبه مراكز الدفاع، ويتراوح عمقها بين ٤ و ٦ أمتار. وقد أماطت الحفريات اللثام عن كميات كبيرة من الخزفيات[٨]؛ ولكن التواريخ التي أعطيت لها ليست ثابتة. وينبغي أيضًا إجراء دراسة مقارنة بين خزف هذه المعالم وخزف المناطق المجاورة. فالأباي، وهم السكان الحاليون، يقولون أن أجدادهم عثروا على هذه الخنادق كما هي، ويجهلون من قام بحفرها. وتقول الروايات، أن الأباي قد استقرّوا بالبلاد قبيل الهجرة الكبرى لقبائل الأكان، في القرن الثامن عشر. وعلى كل حال فإن وجود هذه الآثار في قلب الغابة يحمل على الاعتقاد أنه بالإمكان العثور على مكتشفات مفيدة جدًا. ومهما يكن من أمر، فهناك فراغ يجب سدّه، إذ رأينا في المصادر البرتغالية، أن الساحل كانت تحتلّه مجموعات من الصيادين والمزارعين؛ ويجب أن يتّجه البحث رأسًا إلى الساحل ونحو الغابة، في الأماكن التي ذكرها الملاّحون بالذات.

ولقد قام معهد الآثار والفنون التابع لجامعة أبيدجان، بأعمال سبر بمنطقة البحيرات، ولكن البحث عسير جدًا في هذه المنطقة من المانغروف (شجر استوائي) حيث تتراكم أكوام عالية من الأوراق الميتة. وشمل السبر بحيرة آبي، في حين أمكن إجراء حفريات بثلاث جزر هي: بلييليه وأسوكو ونياموا. ونجد إلى جانب أكداس الأصداف التي تركها سكان الساحل الأوائل في العصر الحجري الأخير[٩]، أكوامًا كبيرة من الفضلات؛ وتمّ سبر ثلاث مقابر جزئيًا، جمعت منها عظام وأساور وجواهر، لكنها لم تؤرّخ حتى الآن.

وهناك الدليل في كل الأحوال، على وجود مواقع جديرة بالاهتمام على حافة البحيرات[١٠].

المصادر الشفوية

هذه المصادر وفيرة لأن لكل عرق أسطورة حول أصله، أو ملحمة، أو قصة هجرة. والتشتت العرقي شائع هنا إلى أبعد حد إذ نجد أعراقًا تعد أقل من ٠٠٠ ٢٠ نسمة موزّعة على قرى متناثرة في الغابة. وبالتالي، فإن المصادر الشفوية تطرح مشاكل جمة في وجه البحّاثين، ولها بعض الخصوصيات التي تستحق التنويه. وأولها أن ذاكرة بعض هذه الأعراق لا تعود إلى ما قبل القرن الثامن عشر، ثم نلاحظ تداخلات كثيرة أثناء الانتقال من عرق إلى آخر. فكثير من الأعراق تزعم أن جدّها نزل من السماء متدلّيًا بسلسلة ذهبية، بالنسبة إلى بعضها، أو بسلسلة من حديد، بالنسبة إلى بعضها الآخر، الخ... وتخرج أخرى أجدادها من مأرضة (عن النمل) أو من حفرة في الأرض. فالتداخل جلي، لا سيّما أن بعض العشائر تعتبر بعض العشائر الأخرى «شقيقة»، وتعاملها على أساس ذلك. فهذه عشائر الأبيكان تؤكّد أن عشائر الألاديان شقيقاتها. ولكن معظم الأعراق تتحدّث عن هجرات قام بها أجدادها، وهي تنسب نفسها إلى خارج البلد الذي تحتلّه الآن؛ وهناك روايات شائعة جدًا تقول أن أقوام الاديوكرو قدمت من الغرب، في ثماني موجات هامة من المهاجرين. لكن أين يوجد بلدها الأصلي، وإلى أي فترة يرجع تاريخ الهجرة الأولى ومتى كانت نهايتها؟ هذه أسئلة لا يمكن لبحث موجز أن يجيب عليها. وهناك أعراق أخرى يجمعها اسم أكان، تقول إن موطنها الأصلي يقع في جمهورية غانا الحالية.

(٨) ج. بوليه، ١٩٧٤، ص ٢٨ – ٤٤.
(٩) م. بوزنانسكي، ١٩٧٤، ص ٤٦.
(١٠) ج. بوليه، ١٩٧٦، ص ١٢١ – ١٣٩.

وتجعل روايات الأكوامو بلدها الأصلي في كونغ في الشمال، في قلب مناطق أعشاب السفانا. وكذلك تزعم قبائل الفانتي الساحلية أن أجدادها قدموا من تِنكيمان، الواقعة شمال غربي غانا. فالمشكلة اذن، ليست بسيطة. بل يجب قبل كل شيء القيام بتجميع كامل يعيّن ويحدّد موضع كل عرق. ويجب الالتجاء إلى عدة اختصاصات لإبراز الملامح الثقافية المشتركة وتصنيفها لأنه ما من عرق يشكّل كيانًا بذاته، بل يرتبط دائمًا بمجموعة أكبر. وبعد العمل التجميعي، يمكن للمؤرّخ أن يعيد بناء الماضي وفق الطرق المألوفة في اختصاصه. وفي هذا المجال أكثر من سواه، يشعر المرء بضرورة التعاون بين اللغويين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيا والمؤرّخين. وقد ضرب بحّاثو جامعة أبيدجان وجامعة ليغون في غانا، مثالاً مشجّعًا لهذا التعاون.

وقد تجسّم هذا التعاون في ندوة بوندوكو، المنعقدة من ٤ إلى ٩ يناير/كانون الثاني ١٩٧٤، حول موضوع: «الشعوب المشتركة بين ساحل العاج وغانا». وكانت النتيجة التي توصّل إليها البحّاثون الغانيون والعاجيون انطلاقًا من مقارنة المعطيات التي وفّرتها الرواية الشفوية وعلم الآثار والأنثروبولوجيا، هي أنه ليس بالإمكان فحسب كتابة تاريخ الأعراق، بل يمكن أيضًا أن نتبين المسار الذي جعلها، وهي تتفاعل في نفس المكان، تفرز ثقافة جديدة.

ويجدر أن نؤكّد، قبل أن ننهي البحث حول التقاليد الشفوية، أن التشتّت المذكور قد حصل فيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر.

وبالفعل، فإن الروايات تبدو لأول وهلة قليلة الفائدة باعتبار أن القليل منها فحسب يرجع الى ما قبل القرن السابع عشر. ومع ذلك، فإن قبائل الأكان والكرو والبرون كانت مستقرة في القرن الخامس عشر، وكانت قرية أكرا موجودة في تلك الحقبة. ولنا مثال نموذجي لتوضيح هذه الوقائع، وهو مثل قبائل الندنيه: إذ تقول الروايات إن هذه القبائل قد قادها جدّها الذي يسمى أنو أسينا إلى موطنها الحالي. وقد جاءت من البلد المسمى أنيانيا. ويقع هذا البلد إلى الشرق، في غانا، «وقد سن أنو أسينا قوانين للبشر». ولم تكن قبله... أشجار، لم يكن هناك أي شيء. وقد نزلت أمام أنو أسينا من السماء جفنة (إناء) من النحاس مدلاة بسلسلة».

وتقول الرواية أن أنو أسينا هو الذي علم الناس الزراعة بأن قدّم لهم الموز والبطاطا. ولكن اتضح بعد تحقيق ومقارنات مع عدة روايات، أن أنو أسينا عاش في القرن السابع عشر. وقد عثر كلود بيرو الذي قام بهذه البحوث، على وثائق في أوروبا تحدّد بدقّة عهد جد قبائل الندنيه في القرن السابع عشر، نحو سنة ١٦٩٠[١١].

ويمكن أن نميل إلى إرجاع هذا الجدّ الذي علّم البشر الزراعة، إلى أقدم العصور الأولى. ولكن ما الذي حدث في الواقع؟ لقد اندلعت في نهاية القرن السابع عشر، حرب بمملكة آووين، في غانا. وغادر أنو أسينا، رئيس العشيرة، البلاد مع رجاله، واستقرّ في منطقة أسيني، وهي حاليًا موطن قبائل الندنيه، (التي تشكّل فرعًا من عشيرة أكان الكبرى). وهناك أعاد الشعب نسج أسطورة الأصل القديمة حول أنو أسينا، وأضفى عليه كل صفات الجد الأسطوري. وهكذا فقد وقع تكييف للرواية؛ وإذا بنا أمام تاريخ جديد يأخذه الشعب في اعتباره، متناسيًا الأحداث التي سبقت الهجرة.

لقد قدّمنا هذا المثال للحثّ على الحذر في استعمال الروايات الشفوية كمصدر. ومن المهم أن نرى في قصة أنو أسينا كيف يتوصّل الباحث إلى إعادة بناء الماضي، عن طريق مقارنة مختلف المصادر الشفوية أو

(١١) كلود بيرو، ١٩٧٤، ص ٨٥ – ١٢٠.

المكتوبة بل الأثرية[١٢].

وسنحاول بمقارنة مختلف المعطيات المتوفّرة، رسم الخطوط العامة لتاريخ هذه المنطقة فيما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر. وعلى الرغم من أن بعض الثغرات ستظل قائمة نظرًا للنقص في المعلومات، فسنبيّن اتجاهات البحث التي تفرض نفسها في الوقت الراهن.

شعوب الساحل والمناطق الداخلية

جرت العادة بمقابلة سكان البحيرات والغابات بسكان المناطق الداخلية (الغابة غير الكثيفة والسفانا). وكانت الفئة الأولى تُسمى زنوج العصور الأولى، ويفترض أنها أول من عمّر الغابة والمنطقة الساحلية منذ عهد ما قبل التاريخ. ولكن هذه الصورة لم تصمد أمام ما وفّرته الأنثروبولوجيا وعلم اللغات من معطيات جديدة. وفعلاً، يبدو اليوم لمعظم الدارسين، أن سكان البحيرات والمناطق الداخلية كافة ينتمون إلى المجموعة الناطقة بلغة كوا. ونتذكّر أن الملاّحين البرتغاليين يُطلقون على جزء من هذه السواحل اسم «ساحل الكواكوا» (أنظر الخريطة)، أي ساحل «الأقوام التي تتكلّم لغة كوا»[١٣]

واعتمد الأستاذ بواهاين في دراسة قيّمة بعنوان «من هم الأكان؟»[١٤] إلى جانب إبرازه لأهم عناصر ثقافة الأكان، على أحدث بحوث علم اللغات لتأكيد، وحدة لسان الشعوب التي تسمي نفسها الأكان، ورسم مراحل هجرتها إلى مواطنها الحالية. ولعلّه من المفيد التذكير بأن الأكان، تمثّل في الوقت الحاضر ٤٥٪ من سكان غانا و٣٣٪ من سكان ساحل العاج. ونجد في غانا، من ضمن الأكان، الأعراق التالية: البونو والأشانتي، والكواهو، والأكيام، والأكوابم، والواسا، والتويفو، والأسين، والأكوامو، والبويم، والسفوي، والآووين، والنزيما، والآهانتا، والفانته، والغوموا، والأزونا؛ وفي ساحل العاج تنسب نفسها إلى الأكان كل من: الأبرون (البرون) والأنيي، والسانوي، والباوليه، والأتييه، والأباي، والأبيدجي، والأديو كران، والأبريه، والايغا (الدرا)، والأياتيله، والأبوريه، والأغوا، والأفيكام، والألاديان»[١٥].

ويكوّن الأكان اذن، مجموعة لغوية واسعة؛ وبالنسبة إلى الفترة التي نحن بصدد دراستها، فإن التشتّت العرقي ربما لم يكن قد حصل بعد، حتى ولو أن بعض اللهجات قد تميّزت عن غيرها.

وهكذا فإن شعوب البحيرات والأكان تنتمي كلها إلى عائلة الكوا. وينتمي كلاهما إلى أسرة فولتا – كومويه اللغوية. وقد يكون أجداد الشعوب التي تتكلّم الكوا قدموا من تشاد – بينويه[١٦]، على مراحل، عبر النيجر الأدنى واجتازوا بنين الحالية وتوغو، ليصلوا إلى البحيرات. وهناك استحدثوا

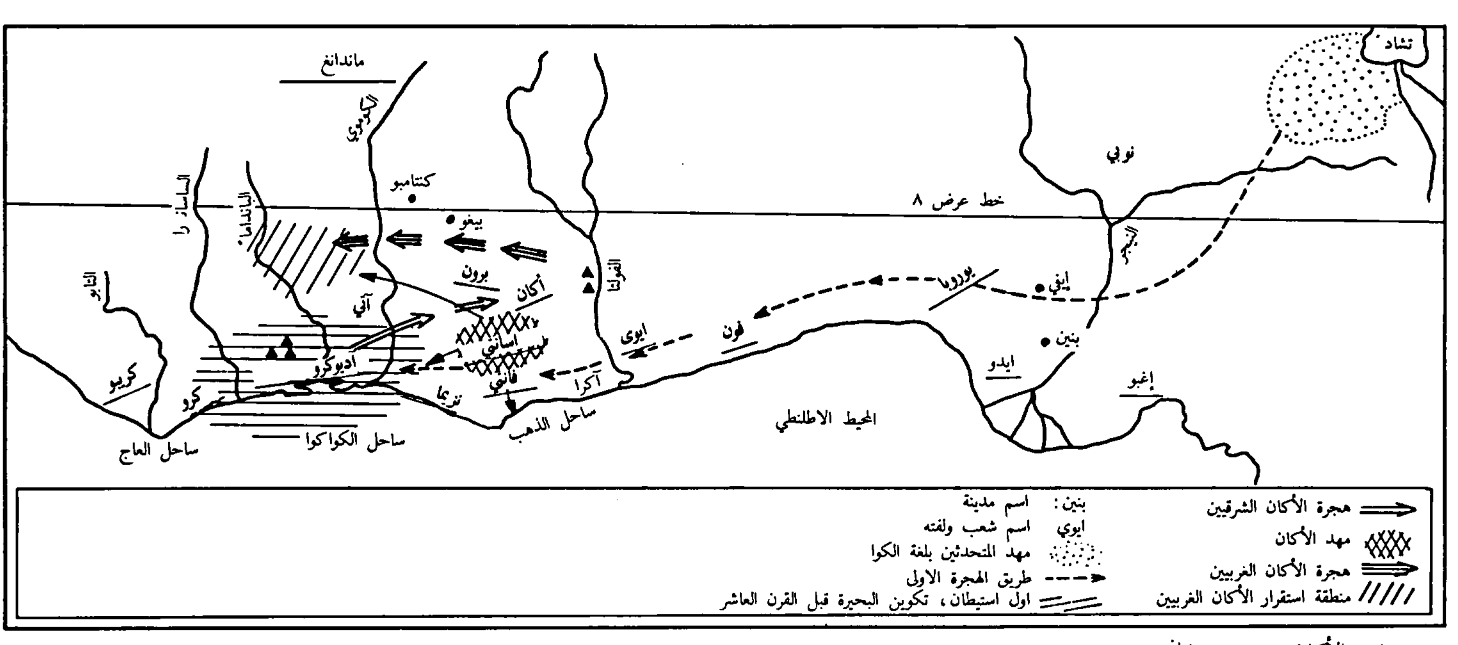
(١٢) المرجع السابق، ص ١١٨ – ١٢٠.

(١٣) د. أ. دابر، ١٦٨٦، ص ٢٩٠ – ٣٠٦.

(١٤) أ. أ. بواهين، ١٩٧٤، ص ٦٦ – ٨١، يفند المؤرّخ الغاني النظريات القديمة القائلة بأن قبائل الأكان قدمت من بلاد ما بين النهرين أو من ليبيا أو من غانا القديمة. ويجعل موطن الأكان الأصلي بمنطقة تشاد بينويه، اعتمادًا على نظريات جرينبرج اللغوية.

(١٥) أ. أ. بواهين، ١٩٧٤، ص ٦٦.

(١٦) ج. ستيوارت، ١٩٦٦.



• هجرات الأكان (ج. ت. نياني)

المؤسسات التي تحكمهم اليوم. ومن الأدانزي انطلق عدد من النازحين إلى الغرب، حيث نشأت من اختلاطهم بسكان البحيرات مجموعات الباوليه والنزيما والسفوي والأنيبي[١٧].

وهكذا يجب ملاحظة وجود ثلاثة مراكز استيطان (أو تشتّت) وهي: منطقة تشاد – بينويه وهي الموطن الأصلي، وبلاد البحيرات، وهي منطلق أكان غانا الحالية، والأدانزي، وهي نقطة انطلاق الموجة الأخيرة التي استوطنت الغرب (ساحل العاج).

ولا يلقي علم الآثار إلاّ قليلاً من الضوء على هذه الحركات السكانية، ولكننا رأينا أن الأكان (فرع البرون)، كانوا منذ سنة ١٣٠٠، منظّمين حول بيغو في جماعات لها هياكل محكمة تساعدها على تعاطي تجارة الذهب والكولا مع المندانغ[١٨].

أهل البحيرات

منذ متى يرجع تاريخ استيطانهم هناك؟ ربما كان ذلك قبل القرن الثاني عشر بكثير[١٩]. لقد رأينا البرتغاليين يقيمون علاقات مع الكرو والفانتي ومجموعات ساحلية أخرى. وفي القرن الخامس عشر، كوّن الكرو مجموعات قائمة على النسب، مستقلة عن بعضها البعض. «وزنوج هذه المنطقة الساحلية صيادو سمك ماهرين، ولهم زوارق مصنوعة من جذوع الأشجار ومجهّزة بمقصورات، لها أغطية بمثابة الشراع في مقدمتها»[٢٠]. وقد ظلّ أفراد قبائل الكرو، كما نعلم، حتى يومنا هذا بحارة ممتازين. ويلاحظ البرتغاليون أن الساحل آهل جدًا بالسكان ويضم قرى ضخمة. ونعلم أن أهالي «فانتي الصغرى»، و«سابو» و«فانتي الكبرى» كانوا يتكلّمون نفس اللغة التي يتكلّم بها أهالي الميناء. لكن المجموعات السكانية كانت مستقلة بعضها عن بعض. ويظهر من حكايات الملاّحين«أن رؤساء الأقوام كانوا قبل كل شيء رؤساء دينيين»[٢١]. وقد وُفّقت عشيرة الكرو المسيطرة على المناطق الغربية، في الحفاظ على مجتمعها القائم على النسب، بفضل ما كانت توفّره البحيرات والغابة من حماية ناجعة.

ونعرف، عن طريق البرتغاليين، أن أهل البحيرات كانت لهم روابط تجارية مع شعوب المناطق الداخلية. وكان أهالي ريو لا هو (لا هو الأكبر)، يبيعون الملح لسكان من المناطق الداخلية «كانت لهم معهم تجارة كبيرة في الملبوسات». ومن البديهي أن أهل البحيرات لم يكونوا منقطعي الصلة بسكان الغابات القريبة والسفانا، بل كانت المبادلات معهم تشمل الملح والسمك والأقمشة والذهب والنحاس.

وختامًا، كان أهل البحيرات يعيشون في نهاية القرن الخامس عشر، في تجمّعات قائمة على النسب، تحت سلطة آباء شيوخ كانت سلطتهم دينية أكثر منها سياسية.

وقد نشأت عن قبائل الكرو، حسب الأستاذ هاريس، أرومة «أنجبت قبائل الأهيزي في (منطقة أبرا ونيغي وتياغا) والأديوكرو (في بوبوري وديبريمون) والأبرييه – أبيا[٢٢]. ولكن يبدو لنا من الصعب،

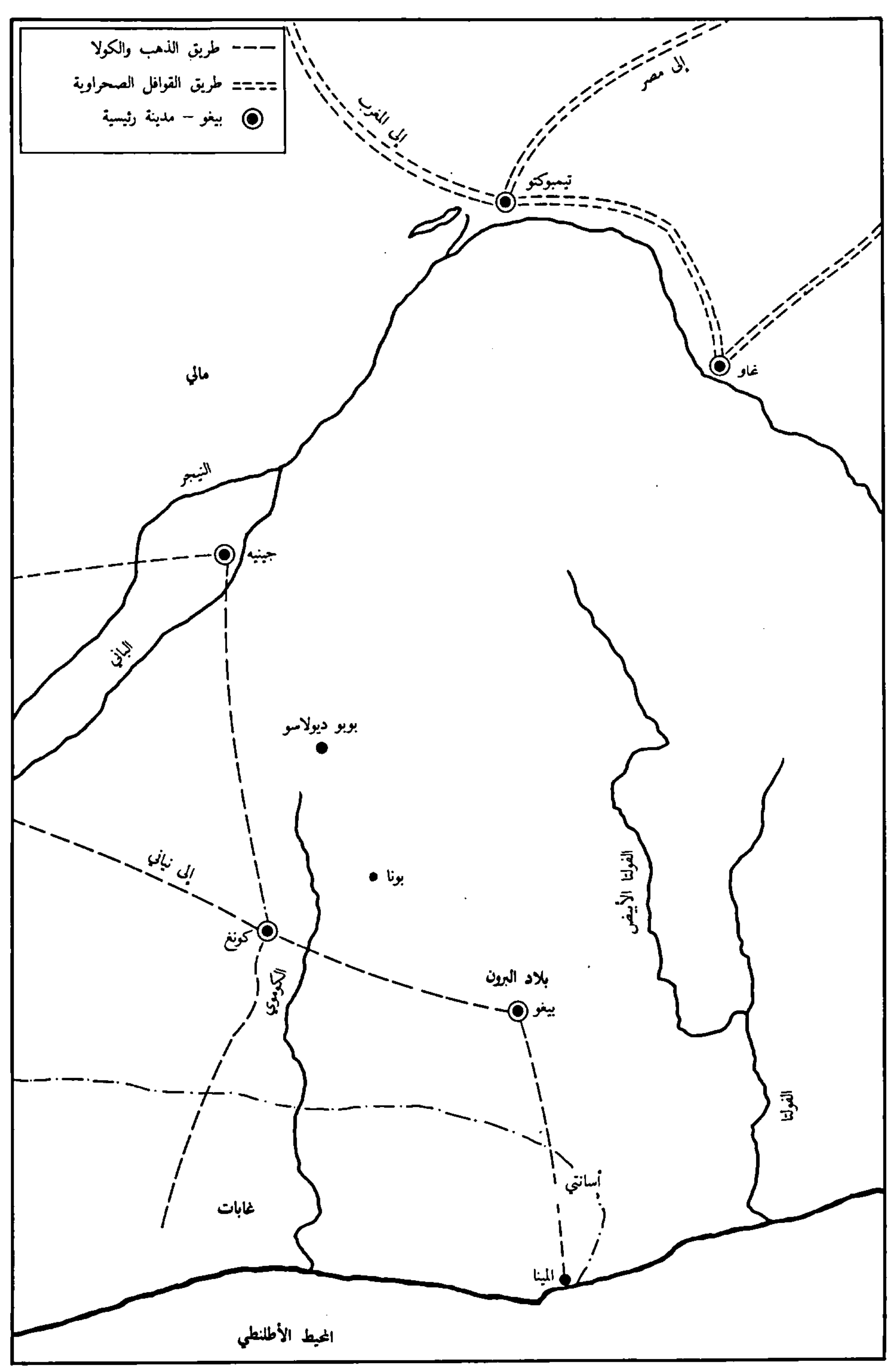
(١٧) أ. أ. بواهين، ١٩٧٤، ص ٧٦ – ٨١.
(١٨) متبعًا بوزنانسكي، يعتقد بواهين، «أن قبائل الأكان هيأت الهياكل الأساسية لمجتمعها فيما بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠.
(١٩) أنظر الفصل التاسع، المجلد الثالث.
(٢٠) د. أ. دابر، ١٦٨٦، ص ٣٠٢ – ٣٠٤.
(٢١) المرجع نفسه، ص ٣٠٤ يتحدّث عن ملك كانت تخشاه كامل المنطقة الساحلية، لما كان له من قوى سحرية.
(٢٢) ف. هاريس، ١٩٧٤، ص ١٣٥.

وحالة المعلومات على ما هي عليه الآن ، أن نقول متى وأين وفي ظل أي ظروف تفرّعت هذه الفروع.
وهكذا ، وفي منعطف القرن السادس عشر ، كوّنت مجموعة أكان الغربية ، من أهل البحيرات أساسًا ، مجموعات قائمة على النسب ، متميّزة جدًا بذاتها. ولئن كنا لا نعرف ما كان لهم من مؤسسات معرفة جيدة ، فإن رؤساء هذه المجموعات كان يحدوهم ميل واضح إلى تثبيت سلطتهم السياسية.

أصول مجتمع الأكان

رأينا أن قبائل الأكان تكوّن ، في الحقيقة ، الجانب الأكبر من الأهالي الذين استوطنوا بهذه المنطقة ، لأن شعوب البحيرات تشكّل الطبقة السكانية الأقدم[٢٣].
فالتجانس الانثروبولوجي النسبي الذي نلاحظه بمنطقة الغابة يرجع – حسب الأستاذ هاريس – إلى كون « السكان الذين امتزجوا بعضهم ببعض ينحدرون ، في الأصل من ثلاث أرومات. فمن أرومة أكان أخصب الأرومات التي يوجد محورها الأساسي في غانا ، انحدرت بالإضافة إلى الانيي ، كل من الباوليه ، والأكييه ، والأبوريه ، والمابتو ، والأباي ، والألأديان ، والنزيما ، والأبربيه ، والأديوكرو ، والأكراديو والأركان ». ويذكر هاريس أرومة الكرو التي أشرنا إليها من قبل ، وأخيرًا « سكانًا استوطنوا قديمًا مثل قبائل الأيوتريه ، والأغوا والكومبا الخ... »[٢٤].
وتظل مشكلة تحديد فترة انفصال هذه الفروع عن الأرومة الأم ، في مجرى الزمان ، قائمة. وكذلك الشأن بالنسبة إلى معرفة ما إذا كان نشوء مؤسسات الأكان الشرقية (في غانا) ، وكذلك ظهور أبرز مكوّنات ثقافتها سابقًا عن القرن الخامس عشر.
ويعتقد بوزنانسكي ، وهو يدرس مجتمع الأكان ، أن القرن السابع عشر يشكّل منعرجًا ، ذلك أن اكتشاف قطع خزفية جديدة ، على الساحل كما في الغابة ، يشهد بتطور ملحوظ. وتحتوي بعض قطع الفخار على زخارف تصوّر أشكالاً إنسانية أو حيوانية[٢٥]. وتشغيل النحاس وصياغة الذهب موغلة في القدم ، حتى وإن لم يكشف لنا علم الآثار عن تحف من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حول دول البرون التي يمكن تحديد بدايتها في القرن الخامس عشر. ويجب فحص العناصر الثقافية التي كشفت عنها الحفريات ، على ضوء معطيات الرواية الشفوية والأنثروبولوجيا وبعض الاختصاصات الأخرى. ولسد الفجوات فيما بين القرن الخامس عشر ، تاريخ قدوم البرتغاليين ، والقرن السابع عشر الذي شهد توسّع ممالك الأكان ، لا بدّ من جمع المزيد من المعلومات لدى حفظة الرواية الشفوية. ويمكن أيضًا للحفريات اللاحقة أن تقدّم عناصر جديدة حول الثقافة المادية للسكان.
ويمكن الاعتقاد بصورة معقولة أن بعض ممالك الأكان ، سواء كانت ساحلية أم داخلية ، أخذت تنمو في بداية القرن الخامس عشر : فعلى الساحل كان لممالك آسييو ، وفيتو ، وأجوافو ، وفانتي ، على تواضع أبعادها في نهاية القرن الخامس عشر ، تنظيم يهيّئها لصناعة الذهب والاتّجار فيه. وفي الداخل ، كانت بيغو عاصمة لمملكة البرون المهتمة جدًا بالتجارة مع الماندانغ.

(٢٣) أ. أ. بواهين ، ١٩٧٤ ، ص ٧٢ – ٧٣.
(٢٤) م. ف. هاريس ، ١٩٧٤ ، ص ١٣٥.
(٢٥) م. بوزنانسكي ، ١٩٧٤ ، ص ٤٦ – ٤٨.



• خريطة المنطقة الواقعة بين وادي النيجر وخليج غينيا (م. بوزنانسكي، نشرة ندوة بوندوكو، ١٩٧٤)

أسس مجتمع الأكان

هناك إجماع على أن أقوام الأكان الشرقية ، هي التي كوّنت عناصر الثقافة التي تحدّثنا عنها . ذلك أن حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت سببًا في موجات الهجرة نحو الغرب ، حيث حملت عدة عشائر السمات الثقافية الأساسية معها وهي :

لغة مشتركة بين أنواع اللهجات العديدة . (أكّد الأستاذ ووندجي ، في أعقاب ندوة بوندوكو ، أن الباحثين أصبحوا يخصّصون عبارة « أكان » للميدان السياسي ويطلقون عبارة « توي » على المجموعة اللغوية التي تنتمي إلى عائلة كوا)[٢٦] .

نظام الخلافة القائم على الانتساب إلى الأم (من الخال إلى ابن الأخت) .

نظام أسماء الأطفال : يطلق على الطفل اسمان ، اسم اليوم من الأسبوع الذي وُلد فيه ، ويختار الاسم الثاني من عشيرة الأب .

تقويم الأكان ، وتحتوي على شهر من ٤٢ يومًا . ويبدو أن هذا ناتج عن تمازج بين تقويم الأكان الأصلي (أسبوع من ستة أيام) والتقويم الإسلامي (أسبوع من سبعة أيام) ، ولكن موضوع أصل هذا التقويم يظل محل جدل كبير[٢٧] . ومن رأى نيانغوران – بواه أن الأمر قد يكون متعلّقًا «بشهر طقوسي له عدد محدّد جدًا من الأيام ؛ وعلى ضوء هذا الشهر ينظّم سكان المقاطعات نشاطاتهم الدينية»[٢٨] . ولكل قبائل الأكان نفس الموسيقى ونفس الرقصات ، كما أن لها مهرجانات وأعياد أخرى عند جني البطاطا .

وتنقسم قبائل الأكان إلى فخذين : فخذ يمارس الخلافة القائمة على الانتساب إلى الأم ، والآخر يتبع الخلافة القائمة على الانتساب إلى الأب . وهناك ثمانية فخوذ تمارس نظام الخلافة الأول ، واثنا عشر فخذًا يتبع نظام الخلافة الثاني . ويرى الأستاذ بواهين أن هذين الفخذين متكاملان في نظرة الأكان لنشأة الكون . فالمفروض أن الفخذ القائم على الانتساب إلى الأم يعطي الدم ، بينما يحدّد الفخذ الآخر الطباع والفكر والروح[٢٩] .

ومن اليسير جدًا معرفة عالم الأكان من هذه السمات الثقافية التي شكّلت الرجال ، وتبدو دولة الأكان ذات نظام مركزي قوي . وتضم كل دولة عددًا متغيرًا من المدن والقرى الخاضعة لسلطة ملك أو ملكة .

ولكل دولة من الأكان مجمع للآلهة خاص بها ؛ وللكاهن كلمة نافذة لدى الملك . وحضور الملكة إلى جانب الملك في الجلسات الرسمية أمر له أهمية خاصة[٣٠] . وكان الحكم في السابق ، حسب السيدة دياباتيه ، بيد الملكة . ويبدو أن الرجال قد استولوا عليه ، وأشركوا الملكة فيه ، عندما نشأت الممالك . ومن المحتمل أن الرجال قبلوا وجود ملكة على رأسهم ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، عندما كانت العشائر تعيش في خلايا منعزلة ، مستقلة في غير حاجة إلى قائد مشترك[٣١] . لكن ، عندما أصبح القتال يفرض نفسه أكثر فأكثر ، سواء من أجل البقاء أو التوسّع ، فضل القوم قائدًا دائم الاستعداد

(٢٦) ش. ووندجي ، ١٩٧٤ ، ص ٦٨٠ .
(٢٧) ج. غودي ، ١٩٦٦ ، ص ٢٠ .
(٢٨) نيانغوران – بواه ، ١٩٦٧ ، ص ٩ – ٢٦ . ذكره أ. أ. بواهين ، ١٩٧٤ ، ص ٦٩ .
(٢٩) المرجع نفسه ، ص ٧٠ – ٧١ .
(٣٠) هـ. دياباتيه ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٨ – ١٨٠ .
(٣١) ر. س. راتراي ، ١٩٢٩ ، ص ٨١ .

للحرب[٣٢]. ويمكن أن نستخلص أن ممالك الأكان قد تهيكلت في منعطف القرنين السادس عشر والسابع عشر. واقتضت ضرورات الدفاع أن تردف الملكة بقائد حربي قاسمها الحكم. فكان ظهور الملك علامة انتقال المجتمع القائم على النسب إلى نظام الملكية. وأصبح للملك منذ ذلك الوقت دور سياسي أكثر منه طقوسي.

خاتمة

شهدت منطقة البحيرات من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر تطور مجتمعات قائمة على النسب، مستقلة عن بعضها البعض؛ وبدأ ظهور تقسيم اجتماعي نسبي للعمل: إذ من المحتمل أن قبائل الكرو كانت تصطاد كثيرًا من الأسماك لبيع الفائض إلى جيرانها. وقد تسرّب تيار تجاري من الساحل إلى الشمال. وكان الساحليون يبيعون الملح وبعض الأقمشة الخاصة. وقد كان لوجود الذهب تأثير كبير على الماندانغ الذين كانوا يمارسون تجارة الكولا منذ وقت طويل. فقد توغّلوا، بعد ١٥٠٠، إلى ما وراء بلاد البيغو، عبر بلاد البرون وصولاً إلى الميناء، ليعيدوا الاتصال ثانية مع البرتغاليين، بعد أن كانوا قد عرفوهم في سينيغمبيا. لقد كانت أقوام الأكان تشكّل أغلبية السكان وقد أسّست ممالك ومدن – دول قبل وصول البرتغاليين في أواخر القرن الخامس عشر.

(٣٢) هـ. دياباتيه، ١٩٧٤، ص ١٨٥.

الفصل الرابع عشر

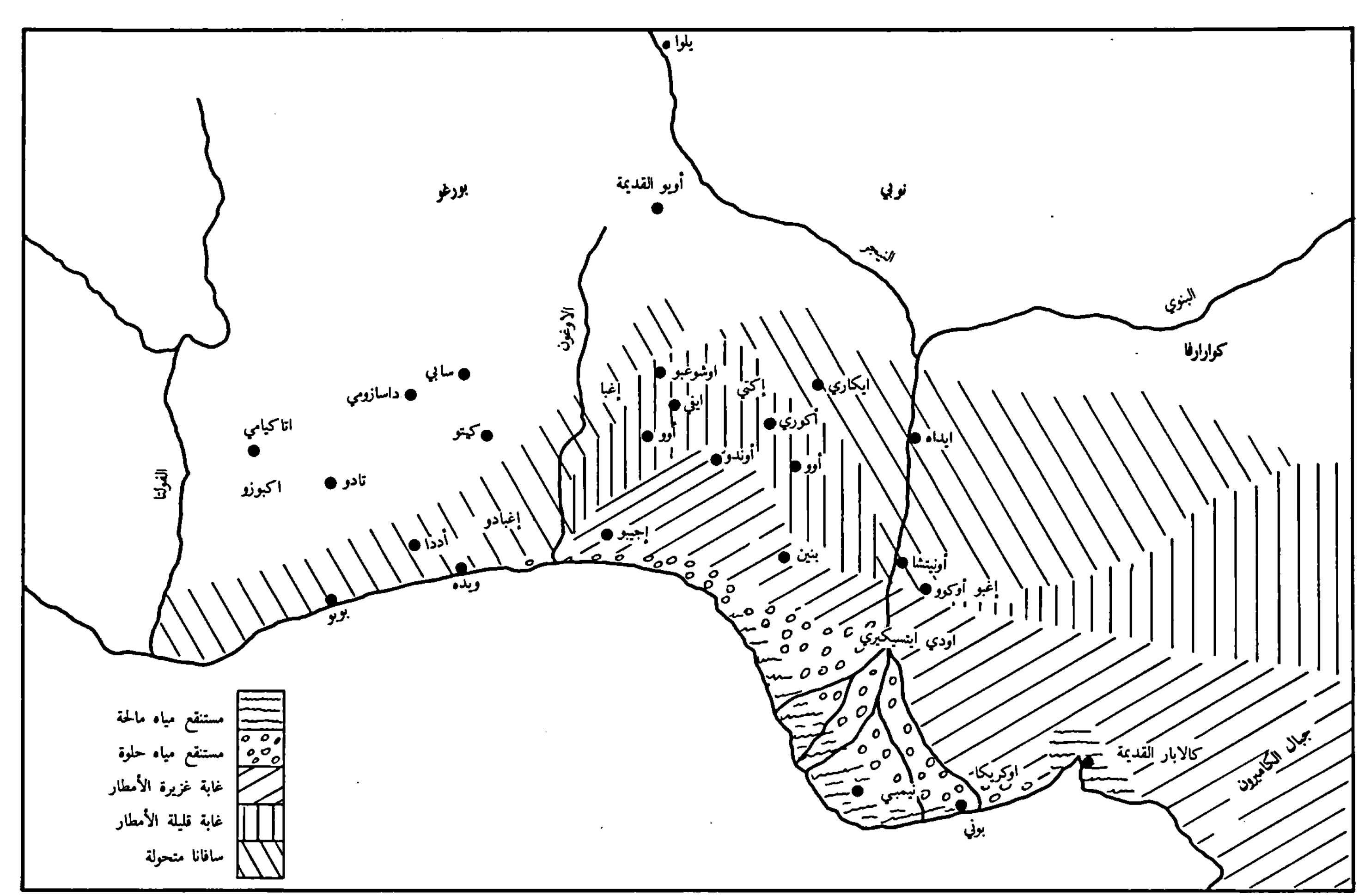
من نهر الفولتا إلى الكامرون

بقلم أ.ف.ش. رايدر

الايكولوجيا وعلم اللغويات

كان الشريط الساحلي من المنطقة الممتدّة بين نهر الفولتا والكامرون، قبل ثمانية قرون خلت، لا يختلف كثيرًا عن مظهره اليوم. في داخل الأراضي، كانت مستنقعات دلتا النيجر وأشرطة الغابات أقل ملاءمة لاستقرار البشر. ومنذ ذلك العهد، تراجعت الغابة نتيجة لما اقتُطع منها، وكذلك للمساحات التي أحرِقت لتُزرع المحاصيل مكانها وحلّت مكانها السفانا في عدة مواضع. وكانت الغابة، في جمهوريتي توغو وبنين الحاليتين، أقل اتّساعًا مما هي عليه في نيجيريا، إذ أتلفت الزراعة بعد الحريق الغابة الموجودة ذات الكثافة الخفيفة إلى حدّ كبير. وفي شرق النيجر، تسبّبت الزراعة أيضًا في تقهقر الغابة، وتوسّع مجال غرس النخيل المنتج للزيت.

وقد بدأ العمل المتمثّل في استصلاح الغابة عندما استقرّت مجموعات من الزنوج للمرة الأولى بالمنطقة منذ بضع آلاف من السنين. وقد ازداد سرعة بشكل ملموس مع انتشار تقنية الحديد، التي ساعدت على الانتقال من اقتصاد قائم على الصيد والجني إلى اقتصاد زراعي. وفي القرن الخامس الميلادي، كان استعمال الحديد قد دخل معظم المنطقة الغابية، وكان من نتيجته زيادة محسوسة في كثافة السكان. وهذه الروايات راسخة بالأخص لدى اليوروبا التي تشكّل تاريخيًا أهم مجموعة في المنطقة. غير أن تحليل لهجات هؤلاء القوم يبيّن أن حركات الهجرة قد تمّت من الغابة نحو السفانا. ونستنتج اذن أن ثمة تناقضًا جليًا بين التحليل اللغوي والروايات التاريخية. وقد أمكن الافتراض بأن هذا التناقض قد يفسر بتحرّكات مجموعات سكانية ثانوية من الغابة في اتجاه السفانا وفي الاتجاه المعاكس.



• خريطة المنطقة الواقعة بين الفولتا والكاميرون ١١٠٠ – ١٥٠٠ (أ. ف. رايدر)

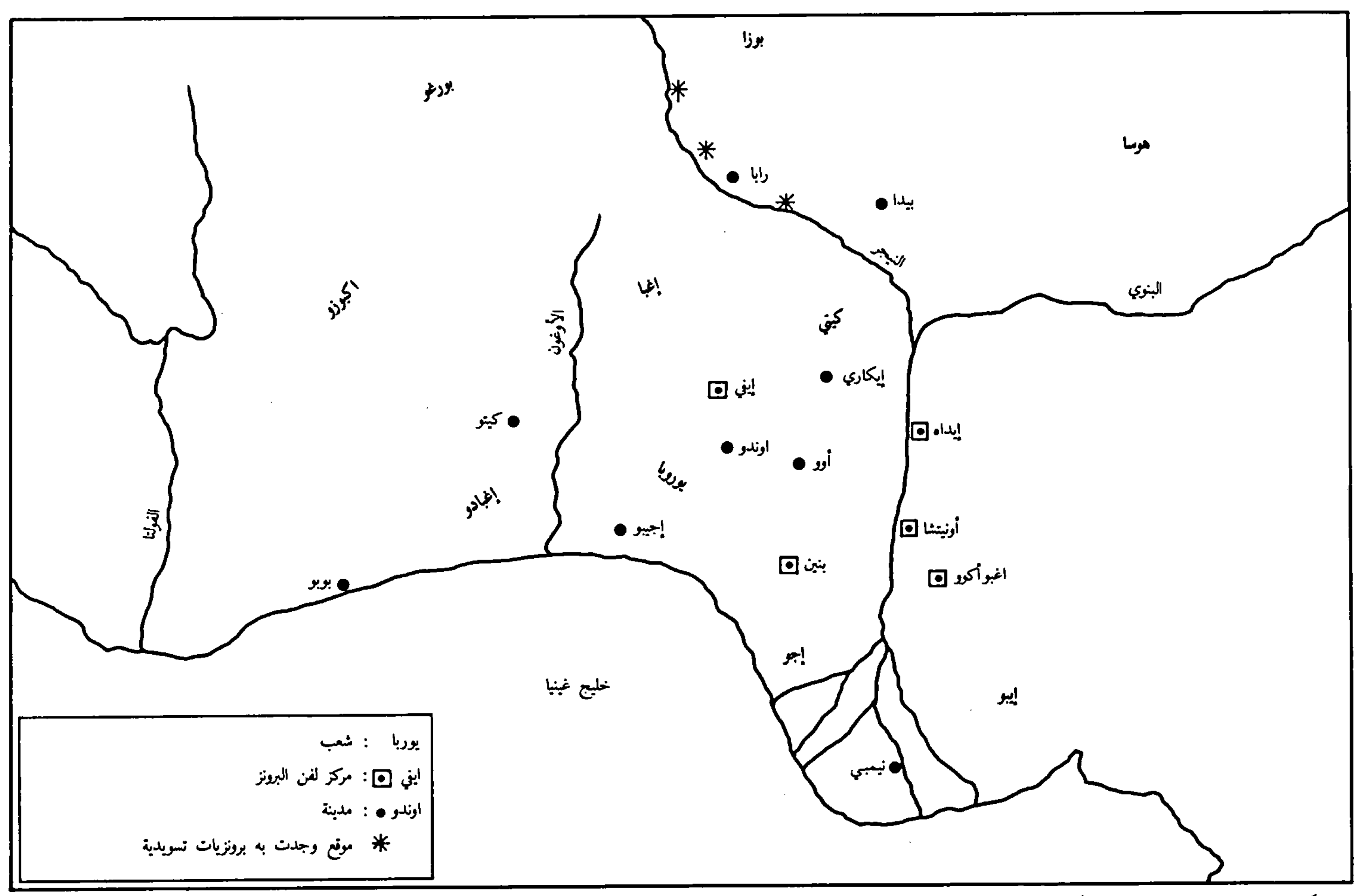
لقد تمّ التعرّف على ثلاث مجموعات رئيسية من لهجات اليوروبا[١]. فالمجموعتان اللتان يبدو أنهما تمثّلان مميزات أبعد العصور القديمة، وبالتالي أقدم استيطان، هما المجموعة الوسطى (التي تضمّ مناطق الإيفيه والإيليشا والإكيتي) ومجموعة الجنوب الشرقي (التي تضمّ مناطق الأوندو والآوو والإيلاجه والإيجيبو). وكانت كل هذه القطاعات، في القرن الثاني عشر، موجودة داخل المنطقة الغابية. أما المجموعة الثالثة من اللهجات، التي كان يتكلّم بها سكان أويو وأوزون وايبادان وسكان الجزء الشمالي من قطاع إغبا، فكانت تكوّن مجموعة الشمال الغربي، المرتبطة تاريخيًا بأمبراطورية أويو والتي تبدو أقل قدمًا من المجموعتين الأخريين. وتؤيّد هذا التحليل أسطورة ايفيه التي تزعم أن الأرض خلقت في جزيرة ايفيه، في حين أن أسطورة أويو، التي دوّنها صامويل جونسن، حوالى أواخر القرن التاسع عشر، تعزو أصول اليوروبا إلى حركة هجرة قدمت من الشرق[٢].

ويبيّن تحليل مماثل للغة الإيدو أنه يمكن جمع مختلف لهجاتها في مجموعتين: المجموعة الشمالية والمجموعة الجنوبية. وتضم هذه المجموعة الأخيرة لهجة مملكة بنين، وهي أكثر بلاد المنطقة تطوّرًا على المستوى السياسي والثقافي. وبالمقابل، فإنه لم يحدّد بعد إن كان هذا التقسيم يوافق ترتيبًا تاريخيًا للاستيطان والتشتت[٣]. وتحليل اللهجات المتفرعة عن لغة الايغبو، تحليلاً كليًا، لم ينجز بعد. لكن هناك نظريّة تؤكّد أن جماعة الإيبو ربما توسّعت نحو الشمال والشمال الشرقي والغرب والجنوب، انطلاقًا من موطنها الأصلي الذي ربما كان مجاورًا لأوويري – أومواهيا[٤].

وقد وُجدت آثار لهجرات الايجوك في الجزء الأوسط من دلتا النيجر وفيما حولها. وبإيجاز، فإن ما لدينا حاليًا من قرائن يحملنا جديًا على الاعتقاد بأن أغلبية الأقوام الذين لعبوا دورًا هامًا في التطور التاريخي خلال الألف سنة الماضية، قد قدموا من مناطق الغابات.

ومن المؤكّد أن اللغات التي كانت مستعملة في المنطقة، في بداية الفترة المعنية، لم تكن قد اكتسبت قوالبها الحالية، ولم يكن توزّعها مطابقًا لما هو قائم حاليًا. ولعلّها كانت متقاربة في شكلها أكثر مما هي الآن. ويُلاحظ أن أسلوب التأريخ اللغوي الذي يفترض أن أهم لغات الكوا قد نشأت على فترات تفصل بينها آلاف السنين – هذا الأسلوب قد فقد مصداقيته إلى حد بعيد. ولعلّ هذه اللغات أيضًا كانت أكثر عددًا لأن جانبًا وافرًا منها قد انقرض بلا ريب، وحلّت محله مجموعات لغوية أكثر منه صلابة لقيت الانتشار والنجاح. ومن المؤشّرات المؤيّدة لهذا الافتراض بقاء مجموعة من اللغات حية لا تُستعمل كل واحدة منها إلاّ في قرية أو قريتين على الأكثر؛ ويبدو أن هذه اللغات قد صمدت في وجه تقدّم اليوروبا والإيدو[٥]. وقد شهدت الحقبة المتراوحة بين ١١٠٠ و ١٥٠٠ أحداثًا حاسمة من جراء توسّع بعض الجماعات التي فرضت تفوّقها اللغوي، وتفوّقها السياسي أحيانًا، إما على أراض شاسعة سبق أن احتلّتها أقوام أضعف منها، وإما على مناطق تكاد تكون خالية. وأقوى دليل على هذا التوسّع هو إنشاء دول إقليمية ذات شأن كالأويو والبنين والإيفية، مثلاً، إلاّ أن الأمر لم يكن كذلك في كل مكان؛ فتشتّت

(١) أ. آديتوبغو، ١٩٧٣.
(٢) ص. جونسن، ١٩٢١.
(٣) ب. أو. ايلوغبيه، ١٩٧٤.
(٤) س. أوتنبورغ، ١٩٦١.
(٥) إفادة شخصية من الأستاذ كارل هوفمان، قسم علم اللغويات ولغات نيجيريا، جامعة ابادان. ولا تزال طبيعة هذه المجموعة اللغوية والوشائج الداخلية القائمة بينها غير معروفة معرفة جيدة.



• سكان دلتا النيجر (ج. ت. نياني)

الإيبو مثلاً لم يفضِ إلى تأسيس دولة كبيرة للإيبو وإنما أفضى إلى عديد من المستوطنات المستقلة المبنية على سلطة عائلية مجزّأة.

المجتمعات السلالية

نطلق هذا الاسم على المجتمعات التي ليس لها سلطة مركزية، وإنما تتكوّن من عشائر أو سلالات تعيش جنبًا إلى جنب في استقلال تام؛ وليس فيها لكبير الأسرة أو رئيسها نفوذ مطلق، بل تستغل كل عشيرة أو سلالة مزدرعًا متفاوت الاتساع. وبما أن التقنيات الزراعية كانت أحيانًا بدائية، فقد كان لا بدّ للمجموعة من الترحال بحثًا عن الأرض الخصبة.

وفيما يخصّ الفترة المعنية نلاحظ تزايدًا في عدد السكان مرتبطًا بالتقدّم التقني وبظهور نظام غذائي أكثر ثراء. من ذلك أن زراعة البطاطا المكثّفة والنخيل المنتج للزيت كان لها دور في استيطان الإيبو بكثافة في الغابة، شرقي النيجر. وقد أفضت عمليات الاستصلاح إلى تقهقر الغابة في بعض المناطق من بلاد الايبو[٦]. كما أدّى هذا التوسّع إلى استغلال الأرض استغلالاً أكثر كثافة وإلى نشوء تجمّعات قروية ضخمة. وقد نمت في هذه الربوع دول ومدن محكمة التنظيم وذات سلطة سياسية متميّزة جدًا وهو ما لا يمكن تفسيره.

وقد ظلّت سلالات كثيرة، من الإيبو، مستقلّة، ويمكن مقابلتها بمجتمعات أو سلالات ترأسها سلطة مركزية، متمثّلة في ملك مع طاقم من الموظّفين وحاشية. وبالإمكان إذن أن نميّز بين المجتمعات السلالية من ناحية وبين الدول – المدن والممالك التي لها سلطة سياسية أحكم تنظيمًا من الناحية الأخرى. وشكل آخر أكثر شيوعًا هو «المجتمع المتشتّت المحدّد إقليميًا» الناجم عن وضع تكون فيه الأراضي المتوفّرة لقوم في توسّع غير متكافئة مما يثير مشاكل: من ذلك أنه يجب على بعض الجماعات الراغبة في الحصول على أراض والاستقرار بها، أن تنفصل عن ذويها وتلتمس اقتناء أراض من لدن جماعات أخرى لا تربطها بها أواصر القربى.

وتوجد في الغابة، إلى جانب الممالك أو المدن، سلالات احتفظت باستقلالها وتعيش تحت سلطة شيوخ ذات طابع أقرب إلى الطقوسية منه إلى السياسة. ولئن عرف الأكبوسو في التوغو كيف يحافظون على تنظيمهم السلالي النوع، فربما يرجع الفضل في ذلك إلى الحماية التي كانت توفّرها لهم أرضهم الوعرة المسالك. إلاّ أن أغلبية الشعوب رأت نفسها مضطرة إلى التخلّي عن هذا الشكل من التنظيم وإلى جمع شتات السلالات المتقاربة في تجمّعات أوسع على نمط القرى، ضمانًا لنجاح دفاعها ضد أعدائها. وكان الأعداء، أحيانًا، هم الأهالي الأصليون، المكافحون من أجل حماية أراضيهم من الغزاة. ولنا في الروايات الشفوية المتعلّقة بالنزاع الذي قام بين الايفيه والإيغبو[٧]، دلالة واضحة على هذا الوضع. وقد تولّدت عن مقاومة الأوو لشعب يُعرف باسم «الايفينه»، أسطورة مماثلة. بيد أن الدفاع لم يكن، بدون شك، السبب الوحيد الذي كان حافزًا على إنشاء تجمّعات قروية، مقابل استيطان يكتسي طابع التشتّت.

(٦) أ. ج. ألاغوا، ١٩٧٠، ص ١٨٩ – ١٩٠.
(٧) يجب ألاّ نخلط بين الإيغبو الوارد ذكرهم في أسطورة الايفيه، والايبو الذين يعيشون حاليًا في نيجيريا الشرقية.

وترك قسم من شعب الإيجو مصب المياه العذبة ، واستقروا في منطقة المستنقعات ذات المياه المالحة ، متخلين بذلك عن الزراعة والصيد في الماء العذب ، ليمارسوا الصيد في الماء المالح وإنتاج الملح بطريقة غليان الماء. وكان هؤلاء القوم يعيشون ، في بيئتهم الأصلية ، في شكل مجموعات مستقلة ، تحكمها جمعية متكوّنة من كل الكهول الذكور ، يترأسها أكبرهم سنًا. وفي قرية صائدي السمك الجديدة ، المنحدرين من عدة سلالات لا تربط بينها أية صلة قرابة وتتنافس مع قرى أخرى في امتلاك أراض غير كافية ، استبدل السن باعتبارها مقياسًا لممارسة السلطة ، بالكفاءة الشخصية وبالانتساب إلى السلالة المسيطرة ، سلالة الجد المؤسّس عادة.

وفي خط مواز لنشوء أشكال تنظيم جديدة ، شجّعت القرية على إقامة مؤسسات مثل طبقات الاعمار والجمعيات السرية التي تضمّ الرجال حسب طبقات الأعمار والنساء أحيانًا ولكن بدرجة أقل بكثير. وكانت هذه الجمعيات تكوّن مجموعات هي في خدمة المجتمع القروي بأكمله. وكان السكان الذكور ينقسمون أساسًا إلى فريقين، الرجال وكبار السن. ويوجد في القرية أحيانًا نظام من ثلاثة طبقات ، إضافة إلى كبار السن ، الفتيان والكهول البالغين سن النضج ، وهم القوى المقاتلة في القرية ، وكبار السن وهم الذين يكوّنون مجلس الحكم. وكانت احتفالات المسارة التي تسبق الدخول في كل طبقة من طبقات الأعمار ، وسيلة لتأكيد التضامن على مستوى القرية ، بدلاً من فكرة التضامن على أساس الانتماء إلى العائلة ؛ كما ساهمت هذه الاحتفالات مساهمة محسوسة في فك ارتباطات أعضاء الجمعيات السرية بعائلاتهم من أجل أن يحتل الولاء للمجتمع المكان الأول[٨].

وبقدر ما كانت سعادة المجموعة العائلية مضمونة – فيما كانوا يعتقدون – بواسطة أرواح الأجداد التي كان العميد لسلالة ما يقدّم لها التعبّد بالنيابة عن عائلته ، كان لرئيس القرية صلات ممتازة بالقوى الروحية التي كانت لها القدرة على إسعاد المجتمع أو إشقائه بأجمعه. ويوجد في طقوس الـ « أما – تيمه – سوو » والـ « أما كيري » عند الإيجو صورة واضحة عن نشأة النزعة الدينية المتولّدة عن النزعة الجماعية. وتبعث طقوس « الأما – تيمه – سوو » على الاندهاش بوجه خاص لأنها تجسّد « روح المجتمع وجوهره بالذات » ويمكن القول بأن مصير المجتمع رهن هذه الطقوس[٩].

هل كانت القرية باعتبارها هيكلاً اجتماعيًا منتشرة في القرن الثاني عشر؟ بما أن أقدم الدول الإقليمية التي ثبت وجودها قد تكوّنت في تلك الحقبة ، فمن الممكن الافتراض بأن القرية كانت قائمة الكيان منذ أمد في بعض المناطق على الأقل ، وبخاصة في الغابة. والحفريات الأثرية لا تسمح لنا في الوقت الحاضر بإجابة قطعية عن هذا السؤال ، لأننا لا نملك ، إلاّ نادرًا ، الوسيلة اللازمة لتحديد ما إذا كان موقع قديم هو من بقايا قرية مجمعة أو من مستعمرة مشتتة. لذا لا يمكن أن نوضح أي نوع من الإقامة أنتج الفحم الخشبي المستخرج من آبار إيليه – إيفيه ، الذي يرجع التأريخ بواسطة الكربون ١٤ ، عهده إلى ما بين ٥٦٠ و ٩٨٠ م. ويشوب غموض مماثل موقع يلوا على ضفاف نهر النيجر ، الذي تدل ترسباته الأثرية على استقرار متواصل له فيما بين ١٠٠ و ٧٠٠ م. ولعلّ القيام بأبحاث مدقّقة يمتدّ نطاقها إلى أقاليم شاسعة ، هو الكفيل وحده بأن يثبت وجود قرى وأن يحدّد العهد الذي تكوّنت فيه[١٠]. ولعلّ بالإمكان تناول المشكلة

(٨) إن الطبقات العمرية والجمعيات السرية توجد في أغلب المجتمعات الافريقية من السنغال إلى زامبيا مرورًا بنيجيريا والكامرون. وتمثّل طبقات الأعمار الإطار المثالي للعمل الجماعي (الصيد والحراثة).

(٩) أ. ج. ألاغوا ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠٠.

(١٠) لقد كانت المادة المستعملة في بناء المساكن في بادئ الأمر هي الخشب والغاب ، وقد استُعمل الطين المدكوك

بطريقة أخرى تتمثّل في الانكباب بعناية على درس الروايات المتعلّقة بالأصول والهجرات والمؤسسات الدينية والاجتماعية والسياسية. وقد مكّنت بحوث من هذا القبيل، أُجريت على الإيجو، من إعادة رسم تشتت هذا الشعب عبر دلتا نهر النيجر، وبيّنت بشكل مؤكّد نسبيًا أن بداية التشتت بدأت على أقصى تقدير، في نهاية القرن الثاني عشر. وما من شك أيضًا في أن إقامة تجمّعات بشرية على شاكلة القرى عند الإيجو يرجع عهدها هي الأخرى إلى الحقبة نفسها، لأن التشتّت وسط بيئة جديدة هو الذي أدّى إلى نشوء هيكل سياسي جديد، مثلما بيّنا ذلك أعلاه.

وإذا كانت الأدلة الأثرية لا تسمح بإقرار تمييز بين استيطان زراعي مشتت وقرية، خلال الألفية الأولى للميلاد، فإنه من الصعب أكثر أن نجزم بوجود وحدات سياسية أكثر أهمية من القرية في ذلك العهد. على أنه من المعقول افتراض وجودها، ولا داعي البتة إلى البحث عن تأثيرات خارجية، ولو سودانية، لتفسير تحوّل قرية ما إلى دولة – مدينة في منطقة الغابات من أفريقيا الغربية. ويبيّن النموذج الذي قدّمه هورتون، لوصف تحوّل استيطان، منظّم حسب مبدأ النظام السلالي، إلى قرية كثيفة، إن أركان الدولة الأولى تظهر أحيانًا على امتداد هذا التطوّر التدريجي عن طريق التكيّف الداخلي[11]. وفقد دور الرئيس طابعه الانتقالي، وتزايدت سلطة السلالات المؤسسة، وظهرت مؤسّسات تغلب فيها النزعة الجماعية على النزعة العائلية، وأصبحت مبادئ الإدماج السياسي، المؤسسة على إقامة وتشريع مشتركين، هي الأسس لمبدأ السيادة.

ممالك وحواضر

وبمجرّد استقرار القرية، سرعان ما تنمو، إذا كانت الأرض خصبة لتصبح قرية ضخمة؛ وعندئذ يصبح إقامة تنظيم عسكري ناجع أمرًا ضروريًا. ومن المحتمل جدًا أن تكون الطرق التجارية والمبادلات قد لعبت دورًا كبيرًا في تنمية المدينة حتى في مناطق الغابات. وبمجرد أن تتكوّن المدينة، تصبح مركزًا اقتصاديًا نشيطًا يستقطب التجارة. وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن المدن قد نشأت في مناخ يتّسم بالتنافس إن لم نقل بالعداوة. وقد استطاعت المدن الأكثر عدوانية من غيرها أن توسّع مجالها الإقليمي باستيعاب مدن أخرى وأراض أخرى. غير أن الغابة كانت عائقًا أمام هذه النزعة التوسعيّة؛ كما أنها ساهمت في الحد من مجال المدينة؛ وما أقل المدن التي تجاوز شعاع نشاطها الستين كيلومترًا حول العاصمة؛ وفيما وراء هذه المسافة، كان على المدينة أن تفوض أمرها إلى «أتباع» أو إلى رؤساء لتنظيمات سلالية.

ويجب ألاّ يؤول إلحاحنا هنا، على ما تتميز به دولة الغابة من أصول داخلية، على أنه نفي لكل تأثير خارجي. فمن الممكن جدًا أن تكون دولة قد أخذت البعض من عناصر أبهتها ورسمياتها عن مصدر ما من المصادر الخارجية المرموقة؛ بل من الممكن أن تكون دولة ناشئة قد استعارت منها حتى حاكمًا. وتوجد في دول الغابة أمثلة على ذلك لا يشك في صحتها: وما انتشار استعمال سيوف الاحتفالات وشارات رئاسة

المعروف «بالبنكو» حوالى ٩٠٠ م. وتكاثرت القرى في فرجات الغابة والسفانا بسرعة، في شبكة من المسارب وطرق المواصلات.

(١١) ر. هورتون، ١٩٧١.

العشائر التابعة لِبنين، إلاّ واحد من أمثلة أخرى عديدة. لذا، فما من داع إلى الافتراض بأنه لم يحصل تبادل مماثل بين دول الغابة ودول السفانا.

وفي العهد الذي كانت غانا تبسط فيه سلطانها على السودان الغربي، كانت توجد، بدون شك، علاقات تجارية مع أقطار الغابة؛ وقد ساعدت هذه المبادلات التجارية لبعض السلع المرتفعة الثمن مثل النحاس والملح، بين السفانا والغابة أيضًا، على تبادل بعض السمات الثقافية والمؤسسات بين المنطقتين. ويقوم اتّساع نطاق تجارة الكولا والذهب والنحاس شاهدًا على توسّع شعوب السفانا في اتّجاه الغابة فيما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر. ولقد اتّصل المندانغ أو الونغارا، وكذلك الهاوسا بشعوب الغابة في زمن مبكر، وكانت لها بها علاقات حربية وتجارية على حد سواء(١٢).

وسنجد مثلاً على تطور دولة من هذا القبيل، مستقلاً بشكل واضح عن كل تأثير خارجي ملموس، في تحوّل قرية الإيجو المستقلة إلى مجتمع له مميزات الدولة. ففي قرى صيادي السمك الكائنة بالجزء الشرقي من دلتا نهر النيجر، أطلق على الرؤساء لقب معبّر هو «الأمانيامابو» («صاحب المدينة»)، وقد نشطت، حاجة سكان هذه القرى إلى مقايضة سمكهم وملحهم بالمنتجات الغذائية التي لم يكونوا قادرين على إنتاجها، تجارة هذه القرى مع شعوب الإيجو والإيبو المستقرّة بالداخل؛ وعزّزت هذه التجارة بدورها سلطة مؤسسات الدولة. وتضخّمت القرية وصارت مدينة أصبح رئيسها ملكًا أو «صاحب المدينة».

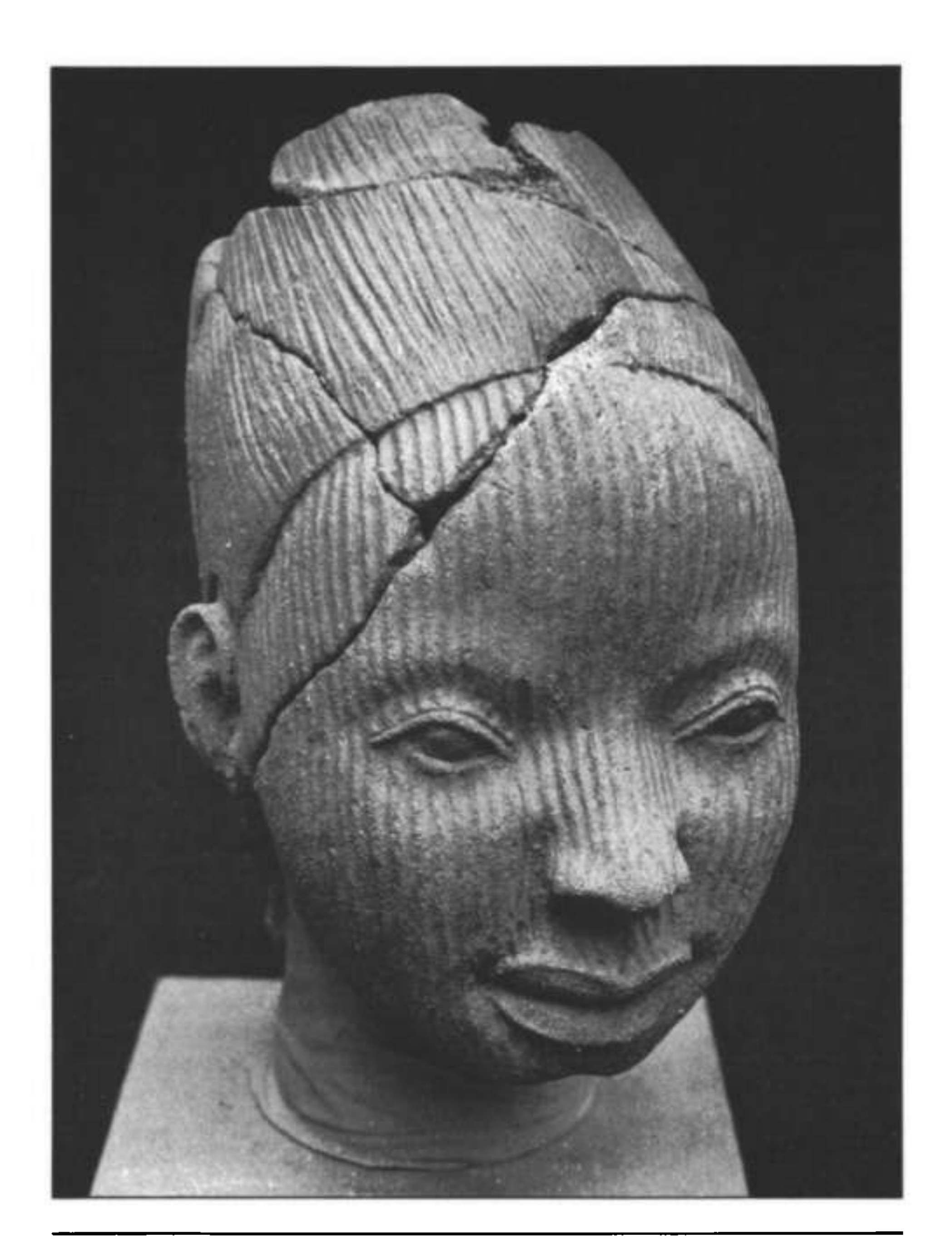
اليوروبا

لقد كانت مجموعة الدول التي تشمل الشعوب الناطقة بلغة اليوروبا أهم مجموعة لأنها كانت تحدّها أتاكبامه غربًا، وأوو شرقًا، وإيجيبو وأوديه ايتسيكيري جنوبًا، وأويو شمالاً. وأصولها أكثر غموضًا من أصول دول الإيجو، لأن الهيبة التي كانت تتميز بها اثنتان من دول اليوروبا، هما دولتا إيفيه وأويو، قد أثّرت في تقاليد الدول الأخرى. ولقد قيل مثلاً أن أصل الإيفيه الذي يزعم البوبو الانتساب إليه ربما لا يعود إلاّ إلى عهد احتلال منطقتهم على أيدي الأويو في القرن السابع عشر، عندما حرص الغزاة على إقامة صلة تربطهم بالإيفيه بغية تبرير هيمنتهم على شعب من اليوروبا(١٣). ومن المؤكّد أن كل مزاعم الشعوب أو السلالات التي تدّعي الإنحدار من الإيفيه هي مزاعم مشبوهة. ومن المفيد كذلك تأمل دول الإيجو حيث يوجد الكثيرون الذين يدّعون بأن منشأهم الأصلي هو بنين. وقد كتب في هذا الموضوع: «ان هذه الدعوى من الانتساب إلى بنين أو إلى مناطق أخرى بعيدة يبين في حقيقة الأمر موقفًا غريبًا للإيجو، من قضية المنشأ. وحقيقة الأمر أن هناك انحيازًا عنيدًا ضد الأفراد والجماعات الذين لا يعرفون أسلافهم. وينتج عن ذلك أنه عندما لا تتذكّر جماعة أسلافها الأصليين، فإنها تميل إلى اختيار «أسلاف» ممن يشتهرون بالقوة والعراقة، وبعيدين بما فيه الكفاية، حتى لا يهدّدوا استقلالها»(١٤). ومن المؤكّد أن هذا التعلّق بالسلف لم يكن يختص به الإيجو دون غيرهم؛ ولا بدّ أن اليوروبا وكذلك العديد من الشعوب الأخرى، التي كانت تدعى الانحدار من أصل الإيفيه، قد استلهمت ذلك من اعتبارات

(١٢) يبدو من المؤكّد تقريبًا أن نحاس تاكيدة قد وصل منذ القرن التاسع – العاشر إلى إيفيه وبنين وكذلك إلى ايغبو – ايكوو.

(١٣) ر. لو، ١٩٧٣.

(١٤) أ. ج. ألاغووا، ١٩٧٠، ص ١٨٧.



• رأس من الفخار (أوو نيجيريا)

مماثلة. ويبدو أن قيام قائد من الإيفيه، بل حتى من دولة أخرى من اليوروبا، في بعض الأماكن، قد حرّض الأهالي كافة على الانتساب إلى أصل الإيفيه(١٥).

وإذا سلّمنا بأن مهد اليوروبا كان يوافق المناطق التي تُستعمل فيها مجموعات لهجات الوسط والجنوب الشرقي، فإنه يجب علينا أن نبحث هناك عن أصول مؤسسات دولة اليوروبا. وان مزاعم الإيفيه بأنهم كانوا، في سالف الزمان، بناة أول دولة لليوروبا، لتستحق الاهتمام بكل تأكيد. فكل رواية من الروايات العديدة لأسطورة أودودوا، مؤسّس هذه الدولة، وحتى الروايات الصادرة من أويو، تقرّ بتفوّق إيفيه، ولم تحاول أية أسطورة منافسة أن تنسب هذا الامتياز إلى دولة أخرى. وقد أثبت، بالاعتماد على طريقة الكربون ١٤، أن الفحم الخشبي المُكتشف في مدينة «ايتا ييمو» يرجع عهده إلى الحقبة الممتدّة من ٩٦٠ إلى ١١٦٠م، وهو ما يؤيّد الاعتبارات الآنفة الذكر، إذ أن هذه الآثار أقدم عهدًا من الآثار المكتشفة في كل مواقع اليوروبا الحضرية الأخرى(١٦). وثمة برهان آخر لصالح مدينة إيفيه، هو أن قربها النسبي من مشارف الغابة شمالاً ربما عرض سكانها قبل غيرهم إلى ضغط من سكان السفانا.

الأصول

تقول أسطورة الإيفيه بأن جيلاً أولاً من دول اليوروبا قد تكوّن من زمن أحفاد أودودوا الذين تفرّقوا انطلاقًا من إيفيه؛ وهذه الدول هي أوو، وكيتو، وبنين، وايلا، وسابيه، وبوبو وأويو. إلاّ أنه من المستبعد جدًا أن تكون قد نشأت في وقت واحد وأخذت الشكل الذي ترسمه الأسطورة. وقد سبق أن نوقشت حالة بوبو. وتشتمل قائمة ملوك سابيه على واحد وعشرين اسمًا فقط مقابل تسعة واربعين لكيتو وسبعة وأربعين لإيفيه. غير أنه يبدو أن دولة إيجيبو، التي لا تذكر ضمن دول اليوروبا الأولى التي تذكرها الأسطورة هي أقدم دولة بقائمة تعد اثنين وخمسين ملكًا. ومن المؤكّد، أنه لا يزال ثمة الكثير مما يجب معرفته بخصوص الكيفية التي تأسّست بها هذه الدول وترتيب تأسيسها.

ومن خصائص دول اليوروبا أنها كانت ذات حجم متواضع جدًا، ومتكوّنة غالبًا من مدينة واحدة ومن القرى المجاورة لها. وقد كان قطاع الأكيتي، خلال القرون الأخيرة، يعد بمفرده ما لا يقل عن ست عشرة أو سبع عشرة مملكة، ولا شيء يدل على أن هذه الممالك كانت في وقت من الأوقات أقل عددًا من ذلك أو أكثر اتساعًا. ويبدو أن مدن الأغبادو لم تجتمع قط في شكل دولة كبيرة الحجم أو في شكل اتحاد، يضم دولاً – مدنًا في حين أن الإغبا، وكذلك الإيجيبو كانت تشكّل اتحاد دول – مدن صغيرة لا مملكة ذات مركزية. ومن المحتمل أن الأخدود الناتج عن الزلزال (ايريدو) الممتد على مسافة مائة وعشرين كيلومترًا يحدّد اقليم الإيجيبو الخاص. وحتى دولة الإيفيه لا يظهر أنها بسطت سلطانها على اقليم شاسع(١٧). ولم يتجاوز الأكوكو، الذين كانوا مستقرين في الطرف الشمالي الشرقي من منطقة نفوذ اليوروبا، في تنظيمهم الهيكلي السياسي، مستوى القرية أبدًا. ونجد في هذه الكتلة من الدويلات استثناءً مدهشًا، هو مملكة أويو، لكن طابعها «الأمبراطوري» لم يظهر حتى في هذه الحالة إلاّ في وقت متأخر

(١٥) قد تسمح دراسة حول أسماء الأماكن بإلقاء الضوء على تطوّر الدول. أما في الوقت الحاضر، فإن هذا الميدان منحصر تمامًا تقريبًا في الايتيمولوجيا الشعبية (علم الاشتقاق).

(١٦) يجب الإقرار بأن الحفريات الأثرية في مواقع اليوروبا لا تزال نادرة جدًا.

(١٧) ك. أديتوغبو، ١٩٧٣، ص ١٩٣.

جدًّا ، قد يكون بداية القرن السابع عشر. وربما تفسر هذه الحالة الفريدة طبيعة البيئة (السفانا) التي ازدهرت في إطارها أمبراطورية الأويو ، لأن التنقّلات داخلها كانت أيسر من التنقّلات عبر الغابة ، مما يسمح باستخدام الفرسان ووحدات عديدة من المشاة على مساحات أكثر اتّساعًا نسبيًا. والحقيقة أنه يعتقد أن دولة الأويو إنما كان يرجع الفضل في نموها إلى دول السفانا المجاورة ، وهي بورغو ونوبيه ، أكثر منه إلى دول اليوروبا القائمة في الغابة. ولا بدّ أنه كان عليها أن تبادر أولاً بفرض وجودها حيال منافسيها في الشمال قبل أن تكون قادرة على الاندفاع إلى غزو اليوروبا. ويُعتقد ، اعتمادًا على قائمة ملوك أويو ، أن المملكة ربما أمكن تأسيسها في بداية القرن الخامس عشر. وقد ثبت أن التخلّي عن العاصمة تحت ضغط النوبية قد تمّ خلال الربع الثاني من القرن السادس عشر. ويبدو أن أقدم شاهد أثري اكتُشِفَ حتى اليوم يرجع عهده إلى الفترة التي تمّ فيها استرداد العاصمة ، في نهاية هذا القرن نفسه تقريبًا. والخلاصة أنه من المستبعد أن تكون دولة أويو قد بلغت حجمًا ذا أهمية تُذكر في أواخر القرن الخامس عشر.

إيفيه

إذا أخذنا في الاعتبار المكانة المركزية الذي تحتلها إيفيه في تاريخ اليوروبا العام ، فمن الغريب أن لا نعرف عن تاريخها سوى هذا النزر القليل.

فبعد وفرة نسبية من التفاصيل حول أودودوا ، مؤسّس الدولة الأسطوري ، وخلفائه الذين جاءوا مباشرة من بعده ، لا نجد في التقاليد الشفوية إلاّ حكايات نادرة وجزئية حول الفترات التالية. وقد ساهمت الحفريات الأثرية في سدّ بعض الفجوات ، إلاّ أن البحوث في هذا الميدان لا تزال في بدايتها. وتبدأ مرحلة أولى من تاريخ الدولة حوالى القرن الحادي عشر ، متميزة بنمط من السكن المتشتت ، وبانتشار استعمال أرضيات المنازل من «شقاف» مرصوصة على حروفها ، وبصناعة الخرز البللور ، وبفن راق لصناعة الخزف ، متخصّص في إنتاج تماثيل صغيرة لأشكال طبيعية ، تجسّد بخاصة رؤوسًا بشريّة. وقد أدّت هذه التماثيل ببعض الأثنولوجيين إلى إقامة صلة بين ثقافتي إيفيه ونوك ، على الرغم من الألف عام التي تفصل بينهما. والتشابه الكبير بين فن الطين المحروق عند الإيفيه وذلك الذي اكتشف في مراكز أخرى من مراكز ثقافة اليوروبا أوضح دلالة. فقد عُثر على تماثيل لرؤوس يقارب أسلوب صنعها أسلوب إيفيه في اكترون وإيريه قرب أوشوغبو ، وفي ايدانريه قرب ايكاريه ، ومنذ زمن قريب ، في أوو (وهو أمر مهم بوجه خاص) حيث تمّ الكشف عن عدد كبير من التماثيل المصنوعة من الطين المحروق بين آثار القرن الخامس عشر. وتقوم المساحات الشاسعة التي كان هذا الأسلوب مستعملاً فيها ، شاهدًا على انتشار تأثير إيفيه انتشارًا واسعًا. لكن ربما تعلّق الأمر بمجرّد ظاهرة ثقافية قد تكون عمّت اليوروبا وقرنت بطقوس دينية لا بملوك الإيفيه. وبعبارة أخرى ، ليست إيفيه إلاّ مركزًا من المراكز الأخرى العديدة التي أنتجت تحفًا من هذا النوع. وتصبح النظرية القائلة بأن هذا الأسلوب الفني هو من اختصاصها دون سواها نظرية أقل صحة يومًا بعد يوم. كما أن ما يعثر عليه في كثير من الأحيان من أرضيات منازل مثبتة بشقاف مع تماثيل صغيرة من الطين المحروق ليس وقفًا على هذه المدينة لأنه عُثر على آثار مماثلة في أوو ، وإيفاكي ، وإيكيرين ، وإيديه ، وإيتاجي ، وإكيتي ، وإيكاريه ، وحتى فيما أبعد من ذلك بكثير ، في كيتو وداسا – زوميه ، بجمهورية بنين ، وكذلك في اقليم كبرايس في توغو. كما توجد في يلوا في موقع كان مشغولاً إلى سنة +٧٠٠ تقريبًا ، وفي دايما قرب بحيرة تشاد ، بين آثار يرجع عهدها إلى القرن الثامن ، وفي بنين ، بين آثار من القرن الرابع عشر. ويعود تاريخ أقدم الأرضيات المثبتة بالشقاف المكتشفة حتى الآن في إيفيه إلى

سنة ١١٠٠ م تقريبًا ؛ ويحمل أحدثها عهدًا سمة سنابل الذرة ، وهو ما يعني أن هذه الآثار لا يمكن أن يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر (١٨) . ولعلّ اختفاء التقنيات الخاصة بصنع الأرضيات وكذلك أيضًا اختفاء الفن الخزفي ، ناتج عن كارثة قد تكون حلّت بإيفيه في القرن السادس عشر. ومن الممكن أن تكون الخمس والعشرون رأسًا من «البرونز» (وهي في الحقيقة مصنوعة من خليط من الشبه والنحاس) الموجودة بمدينة إيفيه والشبيهة إلى حدّ مدهش جدًا من حيث أسلوب صنعها بتلك الخزفية ، قد صهرت في خلال السنوات التي سبقت النكبة ، حيث كانت المعادن المخصصة للصهر والقولبة وفيرة نسبيًا ، بسبب قيام البرتغاليين بتوريد الشبّه والنحاس. ولا يسعنا في الظرف الراهن ، إلاّ التخمين بشأن طبيعة الأحداث التي حطّمت هذه الثقافة : إذ يبدو أن تعرضها لغزوة أسرة مالكة أجنبية هو الفرضية المحتملة أكثر من غيرها.

وإذا صحّ هذا التفسير لتاريخ إيفيه ، فإن الأسرة المالكة فيها حاليًا هي التي استقرّت في القرن السادس عشر ، وبنت القصر في موقعه الحالي وكذلك الأجزاء الأولى من السور المحيط بوسط المدينة. ويحتمل أن تكون الأسرة المالكة الجديدة قد حافظت على البعض من المؤسسات السياسية والاجتماعية التي تركها أسلافها ، إلاّ أنه ما من شيء يدل على وجود مزيد من أوجه الشبه من الناحية السياسية أكثر من وجودها على الصعيد الفني بين النظام السابق وذلك الذي تلاه. فلا سبيل إذن إلى أن نصف وصفًا صحيحًا نمط الحكم الذي كان موجودًا في إيفيه قبل القرن السادس عشر. كما أننا لا نعرف إن كانت الروابط التي يدّعي عدد لا يُستهان به من دول اليوروبا أنها كانت تربطها بحضارة الإيفيه يرجع عهدها إلى الحقبة القديمة من تاريخ إيفيه أو إلى حقبة أكثر حداثة منها.

ولئن كانت بين مراسم حفلات التتويج والشارات الملكية اليوم أوجه شبه كبيرة في أغلب أقطار اليوروبا ، بما فيها إيفيه ، فإنها تختلف اختلافًا محسوسًا عن النياشين التي تحملها الشخصيات التي يظن أنها تنتسب إلى عائلات مالكة في الحقبة الأولى من تاريخ إيفيه. لذا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن ملكية اليوروبا في الأزمنة المعاصرة قد نشأت في فترة أكثر حداثة ، حتى لو أن الدول قد تكوّنت في الأصل طبقًا لنماذج الإيفيه في الأزمنة القديمة.

ولا يُستبعد أن يكون قيام وسقوط دول السودان الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، قد أثّر تأثيرًا مباشرًا متفاوتًا في تكوين دول بمنطقة الغابات من خليج غينيا. ففي تلك الحقبة نشأت أو بالأحرى تكوّنت من جديد عدة دول كبيرة تقع إلى شمال تلك التي تعنينا في هذه الدراسة ؛ وكانت ممالك بورغو وأيداه وكوارارافا أكثر هذه الدول أهمية (١٩) .

وقد يفسّر منشأها وتوسّعها دون شك ما عرفته دول الجنوب المجاورة من انقلابات في تلك الفترة تقريبًا. ونحن نعلم أن النوبية طردوا اليوروبا من أويو القديمة في بداية القرن السادس عشر وأن الأويو كانوا ، قبل أن يعودوا إلى عاصمتهم بعد ثلاثة أرباع قرن ، قد أعادوا تنظيم قواتهم العسكرية بتعزيز خيالتهم التي هي القوة الضاربة ضمن جيوش دول السفانا. وقد أخذ الأويو عن النوبية ديانة «ايغونغون» أي تقديس الأجداد ، ومن الممكن أن تكون بعض سمات دولتهم التي أُعيد تكوينها قد استعيرت هي الأخرى من المصدر نفسه.

---

(١٨) لقد أُدخلت الذرة التي أصلها من العالم الجديد (أميركا) إلى افريقيا عن طريق البرتغاليين في القرن السادس عشر.

(١٩) إن معرفتنا بالعلاقات بين السفانا والغابة لا تزال ناقصة. فباعتبار أهمية التجارة كما ندركها أكثر فأكثر ، ليس من المستبعد أن العلاقات كانت أكثر كثافة في الماضي. أنظر ت. شو ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥٤.

مملكة بنين

إن بنين هي أول دولة زارها البرتغاليون في هذا الساحل ؛ وقد ربطوا ، منذ زمن مبكر ، مع هذه المملكة ، صلات ديبلوماسية وتجارية.

ويُعتقد أن بلاد بنين ، الواقعة في جنوب غربي إيفيه ، قد أصبحت مملكة في وقت باكر ، وربما منذ القرن الثاني عشر. ويبدو أنها قد شهدت في القرن الخامس عشر تحوّلاً يُذكر ، من بعض الوجوه ، بما عرفته إيفيه في القرن السادس عشر. وليس من المستبعد أن يكون قد وجد نمط دولة عند الإيدو قبل القرن الثالث عشر ، إلاّ أن إقامة مملكة بصورة نهائية تعزى ، حسب الرواية في بنين وعند اليوروبا معًا ، إلى أحد المنحدرين من عائلة إيفيه المالكة ذات الصيت البعيد. وتقول الرواية إن أهالي بنين طلبوا من أو دو دوا ، ملك إيفيه ، أن يعطيهم أميرًا. فبعث الملك إلى هذا البلد بابنه أورانيان. ويُحتمل أن تكون هذه الأحداث قد جدّت في حوالى سنة ١٣٠٠ ، وتذكر الرواية أن سلطات الملوك الأوائل من سلالة ايفيه هذه ، كانت تحدّ منها سلطات الرؤساء الأهليين المعروفين باسم «العظماء». غير أنه من الممكن أن تكون ألقاب الرؤساء العظماء وتنظيمهم قد منحتهم إياها الأسرة المالكة ، لأن هناك شبهًا بين هذه الألقاب وأكثر الألقاب شيوعًا عند اليوروبا ، وهو ما لا يمكن تفسيره إلاّ بكونه تقليدًا من أولئك أو هؤلاء[٢٠].

ويظهر أن هؤلاء الرؤساء «العظماء» الستة قد لعبوا دورًا سياسيًا كثير الشبه بذلك الذي سينسب فيما بعد إلى «الاويومزي» السبعة أصحاب أويو. وإذا قبلنا بفرضية هورتون حول نشأة الدول ، فإن بإمكاننا أن نفترض أن عدة ممالك تبنّت صيغًا مختلفة من هذا المبدأ الأساسي الذي يقضي باقتسام السلطات بين الملك والرؤساء الممثّلين للمجموعات السلالية.

وتقول الرواية أن رابع ملوك الأسرة المالكة في بنين قد نجح في ترجيح الكفة لصالحه بعد صراع مسلح مع الرؤساء «العظماء». ثم انتقل ليستقر بقصر أوسع اتّخذ فيه لنفسه حاشية تحمل ألقابًا غير وراثية ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فإنه قلّما تجاوز هو أو أخلافه وضع الأول بين أقران متكافئين.

وفي القرن الخامس عشر ، تسبّبت اضطرابات داخلية عميقة في تحول هذا النظام الملكي المحدود النفوذ إلى نظام حكم فردي ، وأصبحت الدولة الصغيرة مملكة كبيرة. وتنسب الرواية هذا التحوّل إلى ملك اسمه إيواريه استولى على العرش بعد أن طرد أخاه الأصغر واغتاله ؛ ويُقال أن هذا الصراع قد يكون تسبّب في تدمير جانب مهم من العاصمة.

وان مثل هذا التفسير لهذه الأحداث القائل بأن وريثًا شرعيًا للعرش صارع أخًا أصغر غاصبًا ، ليثير شكوكنا ، إذ يبدو جيدًا أنه يسعى إلى صيانة الشرعية الضرورية لنسب سلالة فقدت من مصداقيتها في هذا الظرف بالذات بكل الاعتبارات الأخرى. وقد نكون أميل إلى تفسير العنف الذي اقترن به ارتقاء إيواريه إلى الحكم ، وكذلك التحوّلات الجذرية التي عقبته، بكونها نتيجة لغزو بنين من قبل دولة أجنبية.

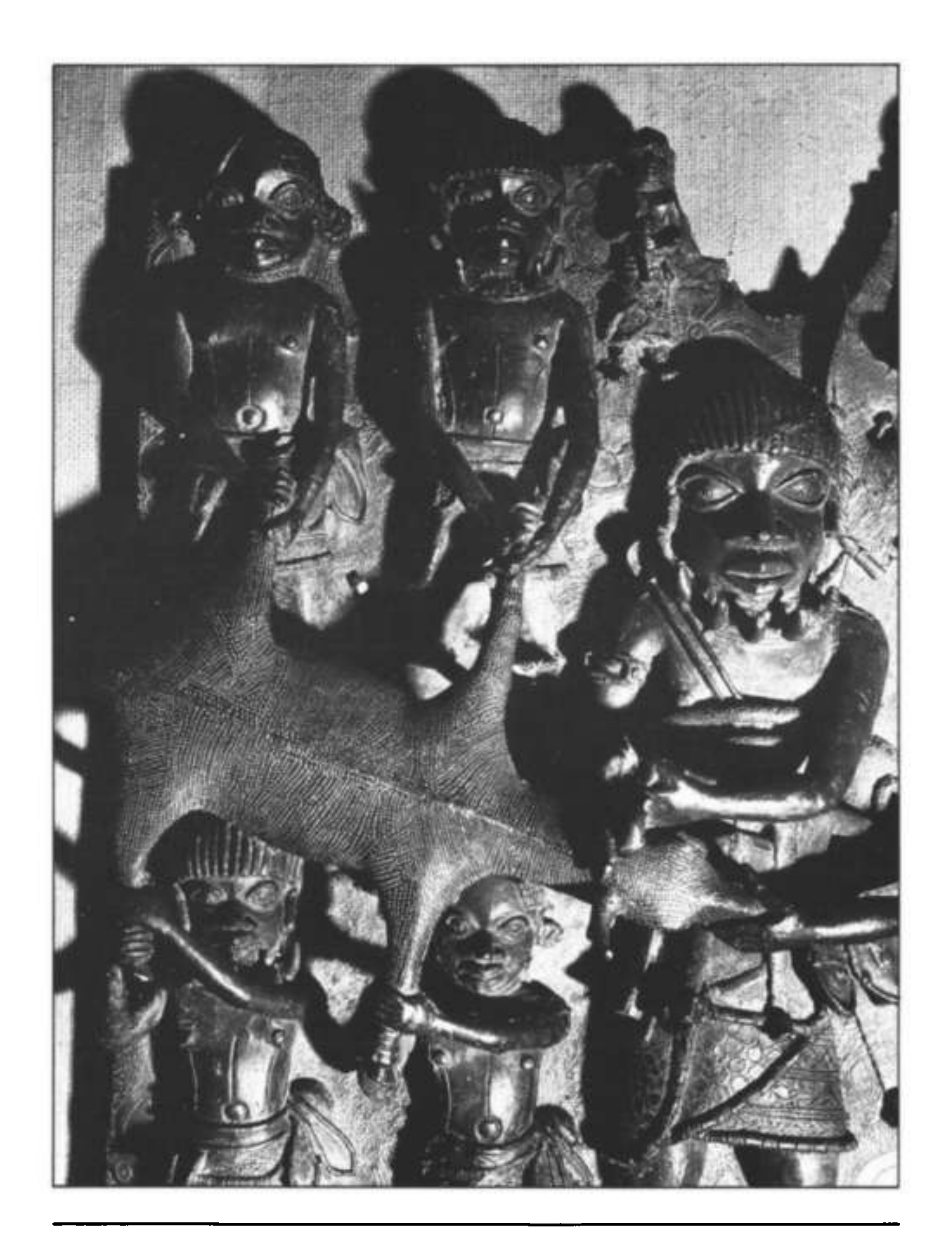
المدينة

أعاد إيواريه بناء عاصمته حسب مثال جديد وأطلق عليها اسم إيدو الذي ما زالت تحمله إلى

(٢٠) إلاّ إذا كانت ألقاب اليوروبا وبنين مشتقة من مصدر واحد خارجي. وألقاب الايدو وهي «أوليها» ، و«ايدونين» و«ايزومو» ، و«ايرو» ، و«ايهولونيريه» و«أولتوتون». ونظائرها عند اليوروبا هي «أوليزا» و«أودوفين» ، و«أوجومو» و«أرو» و «وزولو» و«اولوتون».



• أعمق الحفريات
في سور مدينة بنين،
منظر للحفرة من الخارج



• لوحة من بنين
تمثال التضحية ببقرة
بمعرفة خدّام أوبا



• عازف الناي، من البرونز

اليوم[٢١] . وقد هيئت في وسط المدينة ، على غرار مدينة إيفيه ، خنادق وأسوار ضخمة لم يعر تخطيطها أي اعتبار للمباني القائمة . وكان داخل المدينة شارع عريض يفصل القصر عن «المدينة» ، أي عن الأحياء التي كانت تأوي الجماعات العديدة من الحرفيين والقائمين على الطقوس في خدمة الملك . وكان القصر بالذات يشتمل على ثلاثة أجنحة : جناح الصوان ، وجناح خدم الملك الشخصيين ، وجناح الحريم . ولكل جناح مجموعة من المستخدمين موزعة هي ذاتها على ثلاث مراتب على غرار الرتب العمرية التي كان معمولاً بها في قرى إيدو . وكانت كل جماعة من حرفيي المدينة مهيكلة بالطريقة نفسها تابعة للجناح المناظر من القصر . وكان لكل فرد من مجموعة مستخدمي القصر ذوي الرتبة الرفيعة ، لقب يُسند إليه على مدى الحياة . وثمة أسباب تحمل على الاعتقاد بأن إيواريه كان يعيّن لخدمة القصر جميع رعاياه المولودين أحرارًا بأن يفرض عليهم قضاء مدة إجبارية في الرتب الدنيا . وكان معظم الرعايا يعودون إلى قريتهم بعد القيام بهذه الخدمة . وكان الملك يفرض على كافة رعاياه المولودين أحرارًا وشم وجوههم ويمنحهم صفة «خدم الأوبا» ، حرصًا على تمتين الصلة الشخصية التي كانت تربطهم به .

حكومة إيواريه

كانت حكومة بلاد البنين ، التي أعاد تشكيلها إيواريه ، تتكوّن من الملك ومن ثلاث مجموعات من كبار موظفي الدولة هي : مجموعة «العظماء» ذوي الوظيفة الوراثية ، ومجموعة رؤساء القصر ، ومجموعة رؤساء «المواطنين» وهي طبقة ابتدعها إيواريه . وكان هؤلاء الأعيان المنصّبون في قمة الترتيب يكوّنون المجلس الذي كان يتداول مع الملك في كل المسائل التي كانت تتعلّق رغبة العاهل بمشاورتهم فيها . وكان كل واحد منهم مكلّفًا كذلك بمراقبة عدد ما من الوحدات التابعة التي كانت تتركّب منها المملكة . أما الرعايا من الرتبة الدنيا ، فقد كانوا يقومون بمهنة السعاة ، أو يمدّون الجيش بالمدد ، أو ينفّذون بطرق مختلفة إرادة الملك . ومن المبادئ الدستورية الأخرى التي تمّ تبنيها في ذلك العهد ، يجدر ذكر حق اعتلاء العرش على أساس البكورية ؛ وقد أطلق إيواريه على ولي عهده صفة ايدايكين ، وأضافها إلى طبقة العظماء . كما عمد إيواريه ، في المجال الديني أيضًا ، وكان يعدّ ساحرًا كبيرًا ، إلى تعزيز قوى الملك الروحية ، فقرّر الاحتفال سنويًا بعيد إيكيه الذي كانت تنشط فيه قواه الحيوية .

وقد أدّى الإنجاز الكبير الآخر من إنجازات إيواريه ، وهو إقامة مملكة كبيرة ، بهذا الملك إلى الدخول في حروب مستمرة مع جيرانه ، فأخضع ، وهو يقود جيوشه بنفسه ، أقوامًا أخرى من الايدو ، وجانبًا كبيرًا من الإيبو الذين كانوا يعيشون في غرب النيجر ، والبعض من يوروبا القطاع الشرقي ، بما في ذلك ، على ما يُقال ، مدينتا أكوريه وأوو . وقد استطاعت الأمصار البعيدة أكثر من غيرها من بين التي احتلها ، أن تحافظ على نوع من الاستقلال مقابل جزية تدفعها لبنين . وفرض إيواريه على بلدان أخرى حكومات على هيئة حكومة بنين ، ونصب على رأسها أمراء من أسرته . وكانت الشعوب القاطنة حول المدينة في منطقة تبلغ مساحتها الستين كيلومترًا هي وحدها الخاضعة لهيمنة بنين المباشرة . وكان الملك في هذه المنطقة المركزية الوحيد القادر على إصدار حكم الإعدام .

ولا تخبرنا الرواية إذا كان إيواريه قد أدخل إصلاحًا جذريًا على جيشه ، وهو أمر ربما كان كفيلاً

(٢١) إن أصل اسم «بنين» الذي يطلقه على المدينة والمملكة كل من ليسوا من الايدو ، يحيط به الغموض . ولا يعطي له الاشتقاق الشعبي تفسيرًا مرضيًا . ومن الممكن أن يكون البرتغاليون الأوائل الذين نزلوا بالساحل قد سمعوا من الايجو لفظة «بيني» الدالة على «الذين كانوا يعيشون قرب الشواطئ» ، وأطلقوها خطأ على ايدو .

بتفسير نجاح توسعه. ولعلّ سر انتصاراته يكمن فيما أظهره من مهارة في تعبئة رعاياه، مما أتاح له أن يجمع قوات أكثر عددًا من قوات أعدائه. بيد أنه كان يتحتّم عليه أيضًا بدون شك، لكي ينجح في إقحام السواد الأعظم من رعاياه سليمي البنية ضمن جهاز الحرب، أن ينظّم حملات عديدة كان يخصّص ما يكسبه فيها من غنائم وما يستخلصه من جزية للإنفاق على الجيش. وكذلك كان الملوك المحاربون الذين تعاقبوا على العرش بعد إيواريه طيلة ما يربو على القرن، يجهّزون هم الآخرون بانتظام حملات عسكرية على الأقاليم المتاخمة لحدودهم أو حتى الأبعد منها. وقد وقعت أغلب شعوب الإيدو الشمالية تحت هيمنة بنين. وتوقّف توسّع نفوذ اليوروبا الذي كان يمتدّ نحو الشرق أمام تغلغل الإيدو والقوى داخل اقليم اليوروبا. وتجاوزت جيوش بنين كلاً من أوو وأكوريه وفرضت الجزية على أجزاء كبيرة من إكيتي. ويُقال في بلاد البنين أن ايجيبو، وهي من أقدم دول اليوروبا، قد وقعت مؤقتًا تحت وصاية إيدو. وعلى الرغم من أن الإيجيبولا يؤكّدون هذا الزعم إلاّ أن ثمة أوجه شبه كثيرة بين بعض المظاهر من حكومة إيجيبو وتلك التي تتميّز بها حكومة البنين، مثل جمعية قصر «إيفوريه». وتوجد تشابهات أخرى من هذا القبيل في أوندو، وهي دولة أخرى حدودية من دول اليوروبا. ولعلّ غزوات بنين قد تفسّر هذه التشابهات، إلاّ أنه من الممكن ايضًا أن تكون بعض دول اليوروبا قد طالبت بأن يحكمها ملك من بنين بعد أن ركّز إيواريه هيبة أسرته المالكة، أو على أي حال قد قبلت بذلك طوعًا. وكان هذا شأن الإتسيكيري، وهم فرع من سلالة اليوروبا في الشرق، إذ تقبّلوا ملكًا عليهم إيجينوا، حفيد إيواريه. وقد استقرّ بينهم، محفوفًا بجماعة من الإيدو المخلصين، وأسّس مملكة على غرار مملكة بنين اعترفت بسيادة الأسرة المالكة الأم لقرون عديدة.

وإذا كنا قد أسهبنا هنا في وصف خصائص دولة البنين بحسب ما أدخله عليها إيواريه من إصلاحات، بحيث قد تبدو غزارة ما أوردناه من تفاصيل مبالغًا فيها، فذلك من ناحية لأن هذه الدولة لعبت دورًا مهمًا للغاية في تاريخ الإيدو، ومن ناحية ثانية لأنها أثّرت تأثيرًا قويًا في كل الشعوب المجاورة. والسبب الثالث أن بنين هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي نعرف مؤسساتها الذي يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر، معرفة جيدة نسبيًا. وإذا كانت معرفتنا بتاريخ بنين القديم تنطوي على تفاصيل أغزر بكثير مما تحتويه المعلومات النزرة التي جمعت عن كل الدول الأخرى، فذلك بفضل ثراء الرواية الشفوية التي حافظ عليها البلاط، والمعلومات التي استقاها زائرون أوروبيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والأبحاث الأثرية التي أُجريت في المدينة خلال العشرين عامًا الماضية. وقد أثبتت الحفريات الأثرية صحة الرواية التي ترجع بناء سور إيواريه الكبير، وكذلك تجديد القصر، إلى القرن الخامس عشر. كما أبانت تطور فن بنين الشهير، المتمثّل في قولبة الشبهان (أو الشبه) والبرونز بالشمع المصهور. وقد ثبت أن جميع التحف المصنوعة من الشبهان التي عُثر عليها بين الآثار الراجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر قد كانت مطرقة لا مقولبة. وربما كانت تقنية القولبة بالشمع المذوّب معروفة قبل ذلك؛ إلاّ أن نتائج الحفريات ودراسة لأساليب صنع الكثير من التحف من الشبّه المصهورة التي لا تزال موجودة إلى اليوم في بنين تدل على أن هذا الفن لم يزدهر إلاّ في القرن السادس عشر، عندما استوردت كميات كبيرة من الشبّه من أوروبا[٢٢].

(٢٢) من أشهر القطع تمثال لرأس «أيوبا» أو «ملكة - أم» ينسب إلى أولى فترات القوالب المصنوعة من الشبهان في البنين. واذا صحّت هذه الفرضية، لا يمكن أن يكون هذا الرأس قد صنع قبل العقد الأول من القرن السادس عشر. عندما ابتدع الملك ايزيجيه صفة الايوبا خصيصًا لأمه.

فن إيفيه وتحف الخليج البرونزية

لقد كادت دراسة الفن الأفريقي تنحصر حتى الآن في الناحية الجمالية ، وقلما انصرف الاهتمام إلى الإطار الاجتماعي الذي نشأ فيه. وتتيح لنا حضارة إيفيه – بنين لنا الفرصة لدراسة فن افريقي في إطاره التاريخي الاجتماعي. وبصورة عامة فإن النحت على الخشب هو الطاغي على الفن الزنجي الأفريقي ، إلى درجة أن معظم القطع التي تبعث النشوة في نفوس متذوّقي الجمال ، يرجع عهدها إلى زمن متأخر جدًا. وتمثّل حضارة إيفيه – بنين الاستثناء البارز الذي نجد فيه تحفًا فنية مصنوعة من الطين المحروق ومن البرونز ، ومن ثم نتبيّن الأهمية الاستثنائية التي تكتسبها هذه المنطقة في التطور العام للفن الزنجي الأفريقي.

لقد تحدّثنا فيما سبق عن التحف المصنوعة من الشبهان المطروق وعن تقنية الشمع المصهور ، التي يحتمل أنها كانت معروفة في إيفيه قبل القرن الثالث عشر. وعلى ضوء آخر البحوث فإن هناك صلة طبيعية تجمع بين فن الطين المحروق الذي تجسّده في إيفيه تماثيل صغيرة طبيعية النزعة ، وبخاصة تماثيل لرؤوس بشرية ، وبين ثقافات نوك التي يرجع عهدها إلى العصر الحديدي (القرن الخامس قبل الميلاد). ولهذا الأمر أهمية قصوى إذ يبرز اتساع انتشار ثقافة نوك التي ينبغي ألا تحصر في حدود هضاب بوشي. وبالإضافة إلى ذلك هناك الدليل على حصول مبادلات واتصالات مستمرة بين بلدان السفانا في الشمال وبلدان الغابة في الجنوب[٢٣]. وهكذا ، فإن التحف البرونزية والشبهانية ، الطبيعية النزعة ، التي اشتهرت بصنعها إيفيه وبلاد البنين ، هي نتيجة تطور فني بدأ على أقل تقدير منذ العصر الحديدي ، في مجال ثقافي مترامي الأطراف.

ونحن نعفي القراء من كل العناء الضائع الذي تكلّفه المستعمرون من أجل إيجاد أصل غير افريقي لهذه الروائع المتسمة بنزعة طبيعية بلغت من الصفاء حدًا جعل إخصائيًا أوروبيًا في فن اليوروبا يكتب ما يلي : «إذا تأمّلنا تمثالاً لرأس (هو رأس لأوني من إيفيه يرجع عهده إلى القرن الثالث عشر) وجدنا أنفسنا للوهلة الأولى مدفوعين إلى الهتاف قائلين : «إنه بالتأكيد أثر من آثار عصر النهضة !»».

إن الألماني ليوفروبينيوس هو الذي اكتشف سنة ١٩١٠ ، أثناء رحلة إلى افريقيا ، تماثيل من إيفيه. لكن جد في نهاية القرن الماضي حدث ينبغي ألاّ نضرب عنه صفحًا : ألا وهو قيام طابور انكليزي بنهب إيفيه. فقد نهب الغزاة المدينة وسلبوا من قصر إيفيه عدة تماثيل نقلوها إلى انكلترا.

وما أن عرّف ليوفروبينيوس علماء العالم بروائع إيفيه ، حتى تاه الفنانون والاثنولوجيون في فرضيات كلها تزداد سعة خيال من واحدة إلى أخرى ، لشرح «معجزة إيفيه»[٢٤]. وقد عُثر في سنة ١٩٣٩ ، في مكان غير بعيد عن قصر الأوني بمدينة إيفيه ، على مجموعة من التحف البرونزية. ومنذ ذلك التاريخ ، سُجِّلت اكتشافات كثيرة سواء في إيفيه أو في البنين. وقام ب. فاغ بحفريات سنة ١٩٤٩ في أبيري على مقربة من إيفيه.

---

(٢٣) و. فاغ ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٥.

(٢٤) كتب و. فاغ ، يقول : «كثيرًا ما قيل إن هذه التحف البرونزية هي من صنع مصريين ، أو من صنع فنان متجوّل روماني أو يوناني ، بل وحتى من صنع ايطالي من عصر النهضة أو من صنع يسوعيين برتغاليين». المرجع نفسه ، ص ١٠٥.

مميزات فن البنين

كان برنارد فاغ قد اكتشف في أحد القبور ثلاثة رؤوس مصنوعة من الطين المحروق : وكان أحدها مصوغًا بالأسلوب ذي النزعة الطبيعية البحتة ، والآخران نمطيان إلى أبعد الحدود. وكما يلاحظ أحد الاخصائيين في فن اليوروبا ، فإن في ثقافة إيفيه ظاهرة غريبة ، نادرة للغاية في تاريخ الثقافة العالمية : ألا وهي التعايش ضمن ثقافة واحدة بين فن طبيعي النزعة تمامًا ، وفن يكاد يكون تجريديًا تمامًا ، وهي ظاهرة لا يمكن تصوّرها في الفترات الكلاسيكية من عصر النهضة في أوروبا[٢٥] .
ويُعتبر أحد هذه الرؤوس مثالاً من أحسن الأمثلة على أسلوب إيفيه الواقعي أو الطبيعي ؛ فكل القياسات في منتهى الدقّة «ويمكن حتى ملاحظة حدبة القذال». والوجه هادئ، ويضفي عليه توازن داخلي قوة تعبير أخاذة. وإلى جانب هذا الرأس ، وفي القبر ذاته ، يتميّز الرأسان الآخران بنمطية مبالَغ فيها ؛ «إذ يرمز إلى العينين ثقبان وإلى الفم خط أفقي... وتبرز النمطية بشكل مؤكّد... ومع ذلك فهذه التحف التي عُثر عليها في نفس القبر هي من أصل واحد... فالمادة الأولية وتقنية الحريق وحالة الحفظ متشابهة. ويبدو أنه ينبغي إرجاع تعبيرين للفكر الإنساني على هذا القدر من الاختلاف ، لا إلى إسهام جنس أجنبي عن أفريقيا ، بل إلى معتقد روحاني من ديانة اليوروبا القديمة»[٢٦] . وفعلاً ، فإن فن إيفيه والبنين ، في البداية ، كان له طابع ديني أساسًا.

تطور فن البنين

ماذا كانت تمثّل هذه الرؤوس؟ غالبًا ما تمثّل الأوني ، رئيس إيفيه الديني ، وكانت هذه الأعمال الفنية تنجز بعد موت الأوني لتوضع في قبره. وتوجد معروضة في متحف قصر الأوني «مئات القطع من الرؤوس والتماثيل الصغيرة من الطين المحروق ، بأسلوب الرؤوس البرونزية ذاته ؛ يمتاز بعضها بفن يعادل بل يفوق أجمل الرؤوس البرونزية ، قد تمّ الكشف عن كل هذه الرؤوس وكل هذه القطع تقريبًا ، لا في أثناء الحفريات المنظمة ، وإنما بالصدفة ، في اثنين أو ثلاثة ، من المائة معبد التي توجد في إيفيه. ويتميّز الكثير منها بطابع طقوسي جلي ، لأن هذا الفن وثيق الارتباط بحياة المجتمع»[٢٧] .
وتفيد الرواية التقليدية أن أوبا البنين طلب من الأوني نحاتًا بارعًا قام بتدريب حرفيي البنين على تقنية صب البرونزيات ؛ وهكذا كانت إيفيه حقًا المدينة – الأم التي يأتي منها الدين والتي يأتي منها الفن الذي به يكرم الأجداد. وبما أن تقديس الأجداد كان أساس المعتقد التقليدي ، فقد ابتدعت إيفيه فنًا لتخليد ذكرى «أولئك الذين يحرسون الأحياء دائمًا». وتوحي الأعداد الكبيرة من التماثيل الصغيرة التي عُثر عليها في المعابد بأن البعض منها كان أدوات شعائر في المعابد ولم يكن بالتالي مخصّصًا للدفن. لكن هذا الفن لم يظل منحصرًا في مجال إيفيهْ – بنين.

---

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٠٦.
(٢٦) المرجع نفسه ، ص ١٠٦.
(٢٧) المرجع نفسه ، ص ١٠٤.

مشكلة البرونزيات

لقد تمّ القيام، خارج مجال إيفيه – بنين، باكتشافات لا في منطقة الدلتا فحسب بل أيضًا إلى الشمال، على تخوم نوبي.

إيغبو – أوكوو

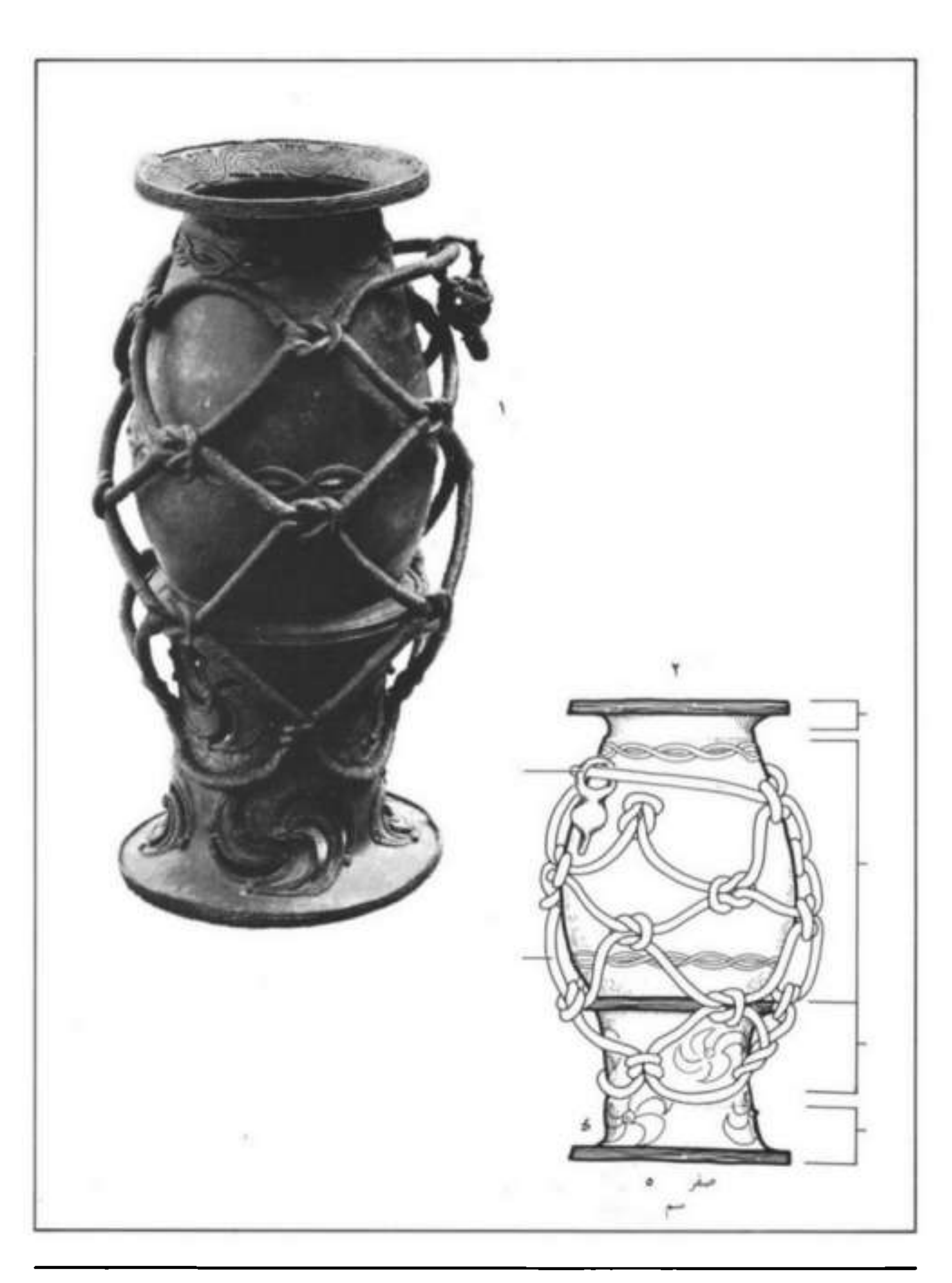
اكتشف موقع إيغبو – أوكوو سنة ١٩٣٩ في شرق نيجيريا، وأجرى فيه الأستاذ ثورستان شو حفريّات سنة ١٩٥٩. واكتُشفت حوالى ٨٠٠ قطعة من البرونز تختلف اختلافًا كليًا عن برونزيات إيفيه – بنين. وإيغبو – أوكوو مجمع حضري، يوجد في وسطه القصر والمعابد. وقد أمكن كشف مباني مختلفة :
- قاعة كبرى كانت أُودعت فيها أوانٍ وأطباق، وأشياء خاصة بالطقوس، وكنوز.
- الغرفة الجنائزية الخاصة بالكاهن الأكبر، ذات الزخارف الفخمة جدًا.
- حفرة واسعة وُضعت فيها خزفيات وعظام وأشياء متنوّعة.

ولا شك أن ثمة بعض الاختلافات بين مكتشفات إيغبو – أوكوو البرونزية وتحف إيفيه الفنية، إلاّ أنها تشترك في سمات عديدة تدل على أن المركزين يشاركان في نفس الثقافة. ذلك أننا نجد أنفسنا، كما في إيفيه، أمام ملكية طقوسية[٢٨].

إن مهارة فناني إيغبو – أوكوو لبارزة سواء تعلّق الأمر بالتحف الفنية المصنوعة من الطين المحروق أو بالبرونزيات؛ فالمادة المستعملة تنطاع للأيدي البارعة التي تصوغها في الشكل المقصود بثراء في التفاصيل يكاد يصل إلى حد التكلّف. وتمتاز أقداح من البرونز في شكل القرع، وأوان من الخزف توشيها زخرفة ثعبانية، بإتقان فني كبير.

ويُعتقَد أن إيغبو – أوكوو ربما كانت العاصمة الدينية لمملكة مترامية الأطراف، وأن الكنوز كانت تودع هناك تحت حراسة ملك – كاهن هو ايزيه – نزي[٢٩]. ولا زلنا نفتقر إلى معلومات مؤكّدة حول ثقافة إيغبو – أوكوو؛ وما زالت التحقيقات لدى حفّاظ الروايات الشفاهية متواصلة، فيما يشهد علماء الآثار اتّساع مجال صنع البرونزيات. بيد أنه يبدو أن إيغبو – أوكوو، بملكيتها الطقوسية ووفرة منتجاتها المقولبة بطريقة الشمع المذاب، تعارض الفرضية الآنفة الذكر حول الفترة التي أُدخل فيها صهر الشبهان، بل حتى أغلب التقديرات المتعلّقة بتواريخ تكوين الدول، لأن التأريخ بالكربون ١٤ يدل على أن هذه الثقافة المرهفة جدًا قد كانت بعد موجودة في القرن التاسع عند الإيبو الذين كانوا يعيشون، كما نعلم، في شكل مجتمع «سلالي». وبعبارة أخرى، فإن ثقافة الإيغبو – أوكوو سابقة بما لا يقل عن قرنين على ثقافة إيفيه وبنين وعلى كل ما تمّ اكتشافه إلى الآن في المنطقة الغابية من ثقافات أخرى في درجة مماثلة من التطور. ولولا التأريخ بالكربون الإشعاعي، لكان من الممكن نسبة التحف التي عُثر عليها في إيغبو – أوكوو إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر بدون تردّد. ومن ناحية أخرى، فقد أسّست مملكة أونيتشا المجاورة في ذلك العهد تقريبًا تحت تأثير بنين؛ ولم تؤسّس دولة ايغالا، التي قد تكون ساهمت في تنظيم الجماعات ذات الرؤساء عند الأوميري، وهي المجموعة التي ينتسب إليها إيغبو – أوكوو، إلاّ في القرن الخامس عشر. فإلى أي حد يمكن الوثوق بالتأريخ بالكربون الإشعاعي؟ إن هذه الطريقة تدعو، عندما

(٢٨) ت. شو، ١٩٧٠، ص ٢٦٦.
(٢٩) أنظر ف. ويليت، ١٩٦٧، ص ١٧٢ – ١٧٣.



١. إناء من البرونز ملفوف بحبل
٢. رسم يوضح الإناء البرونزي الملفوف بحبل
(حسب ت. شاو ١٩٧٠)

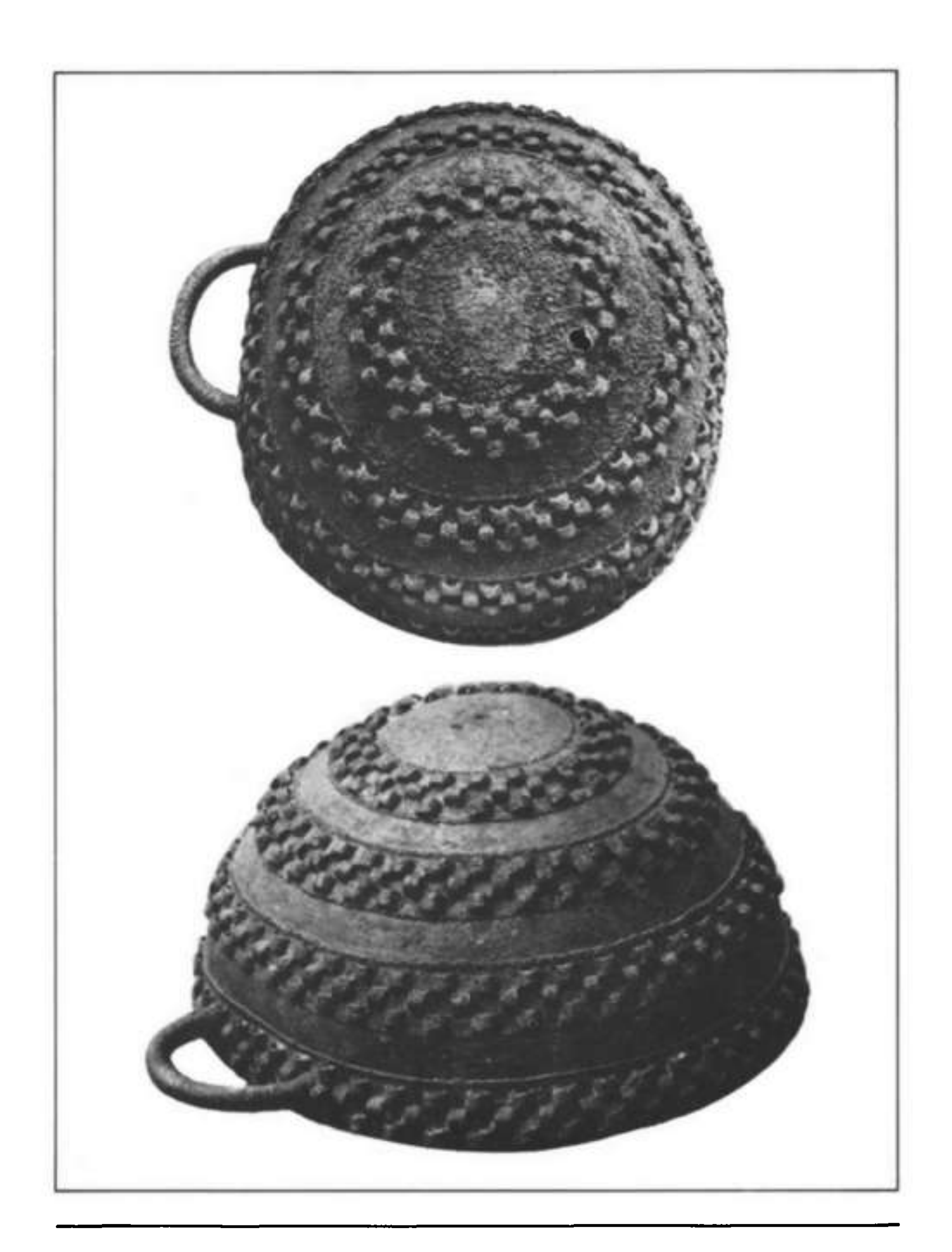


١

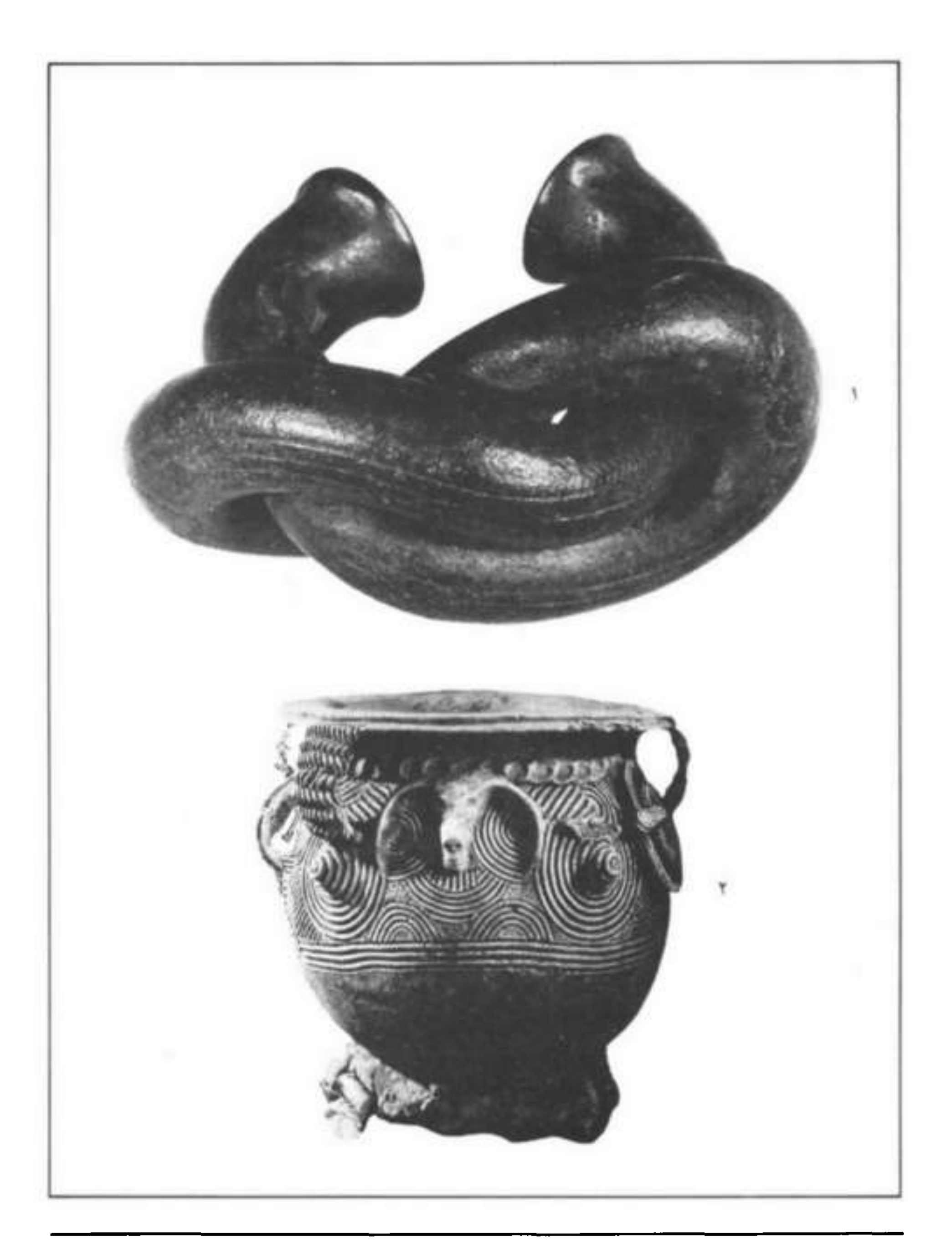
٢



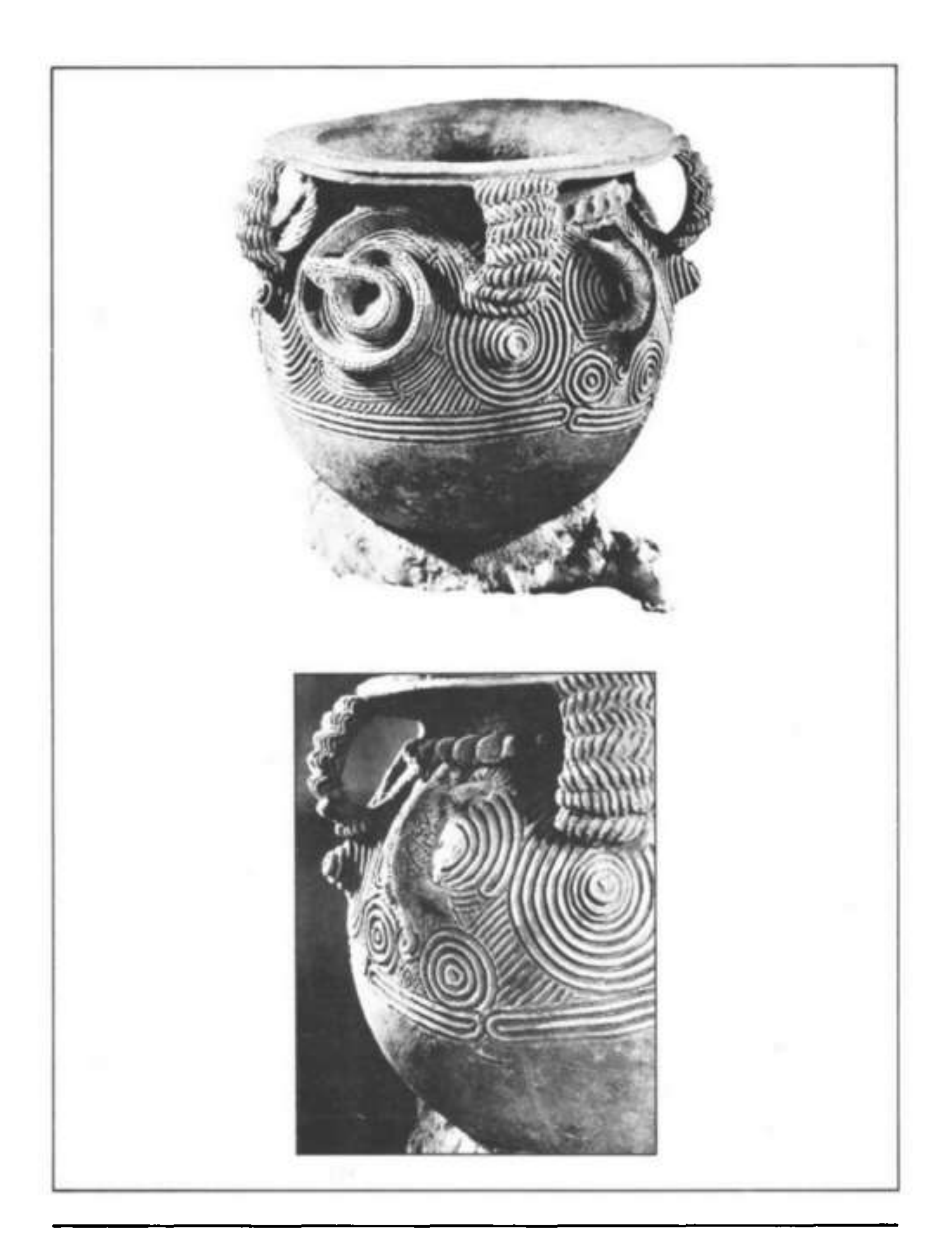
١. مذبح من البرونز
٢. إناء للطقوس الدينية



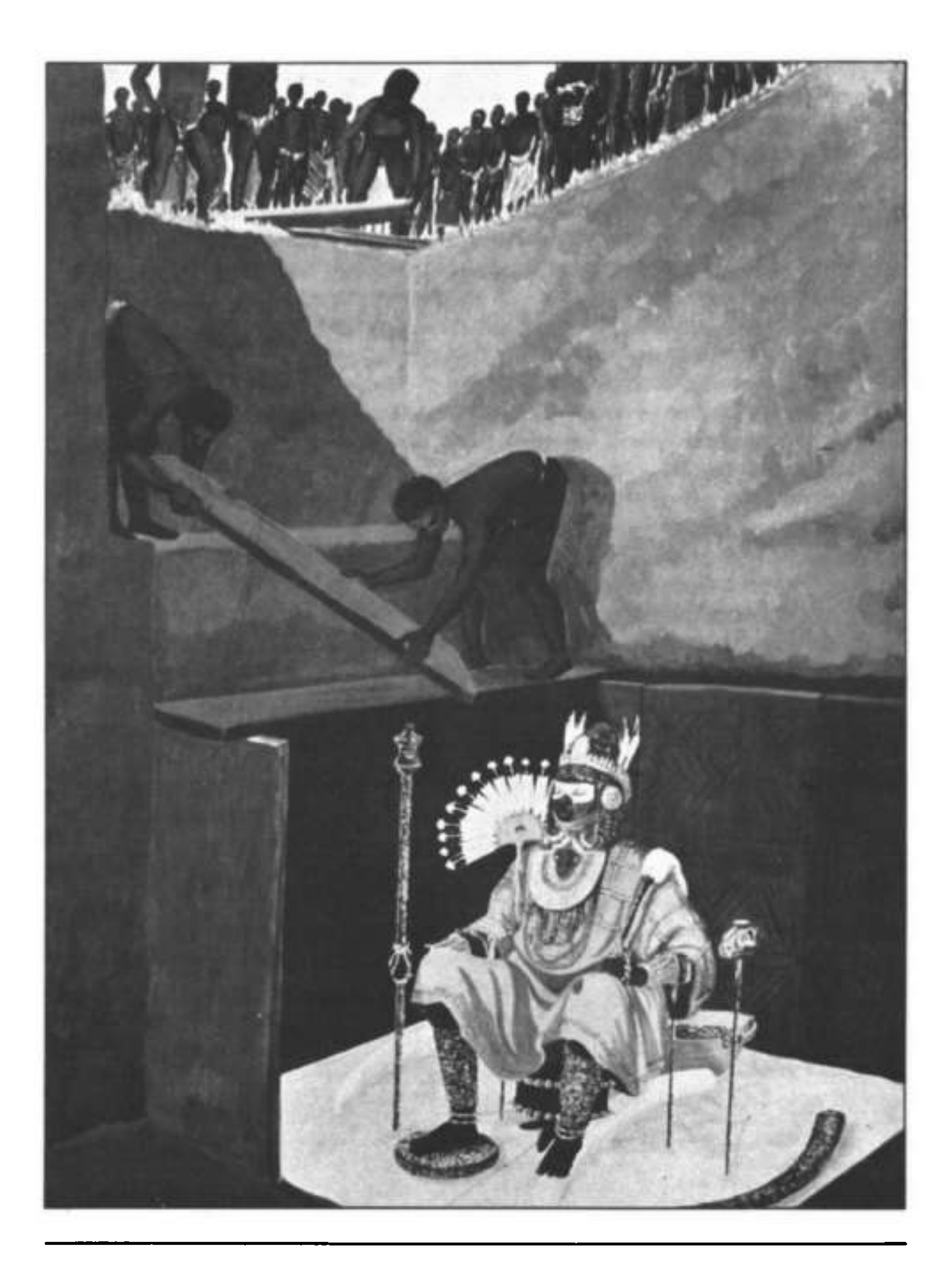
• اناء كبير من البرونز
- من أعلى
- منظر جانبي



١. اسورة ثقيلة معقودة، من البرونز
٢. اناء من الفخار ، مظر عام



• اناء من الفخار
- منظر عام
- مقطع جانبي



• تصور أثري لعملية دفن حاكم
في إيغبو أوكوو

يتعلّق الأمر بالفحم الخشبي ، إلى الحرص الشديد لأنه من الممكن جدًا أن يكون عمر عينة الفحم الخشبي في حفرية ما أقدم بكثير من تاريخ دفنه في بئر أو في أي نوع آخر من الحفريات . زد على ذلك أنه وقع التشكيك بصورة جدية في مدى صحة التواريخ المحدّدة بطريقة الكربون ١٤ (٣٠) في منطقة خط الاستواء .

والجدير بالملاحظة أن أحد التواريخ الخمسة المسندة إلى آثار إيغبو – أوكوو هو ١٤٤٥ ± ٧٠ . وهذا يتناسب جيدًا مع ١٤٩٥ ± ٩٥ ، وهو التاريخ المسند إلى الآثار المكتشفة على بعد ٢٤ كيلومترًا إلى الشرق ، ومن بينها نواقيس مسبوكة من البرونز المصبوب بأسلوب شبيه بأسلوب ايغبو – أوكوو . فهذه الدولة تشكّل إذًا لغزًا كبيرًا يتطلّب الحل إما بتحسين تقنية التأريخ بالكربون ١٤ ، وإما بمراجعة عامة للفرضيات الحالية المتصلة بتطور دول هذه المنطقة (٣١) .

البرونزيات النوبية

وإلى الشمال ، على نهر النيجر ، بين بوزا وملتقى نهر البينوية ، تمّ اكتشاف برونزيات في عدة مواضع . وتسمى « برونزيات تسويديه » ، نسبة إلى مؤسس مملكة نوبيه في القرن السادس عشر ، وحسب الرواية فإن هذه البرونزيات قد جاء بها تسويديه عندما قدم من ايداه ، عاصمة ايغالا . وتفيد الرواية كذلك أن تسويديه قد يكون جاء ومعه حدّادون (٣٢) علّموا أهل نوبيه تقنية الشمع المذاب .

وقد عُثر على تماثيل صغيرة عديدة في تادا وجبا وغوراب . ولكل مركز من هذه المراكز أسلوبه الخاص به ، إلاّ أننا نجد تشابهًا يشهد بتأثير أتى من ايفيه أو من البنين مثلما كتب ف. ويليت حيث يقول : « ليس ثمّة في تاريخ صهر البرونز عبر وادي النيجر ، مجرد خيط أو خيطين يتعيّن تسليكهما . بل يتعلّق الأمر بقطعة نسيج لا بدّ من وقت طويل لتخليص خيوط سداها ولحمتها (٣٣) » .

ويشير ثورستان شو ، في دراسة حديثة (٣٤) ، الى اتجاهات بحث للعثور على مصدر النحاس المستعمل في كامل مجال النيجر الأدنى . وسيتعيّن ، حسب رأيه ، توجيه اهتمام أكبر في المستقبل إلى دراسة علاقات

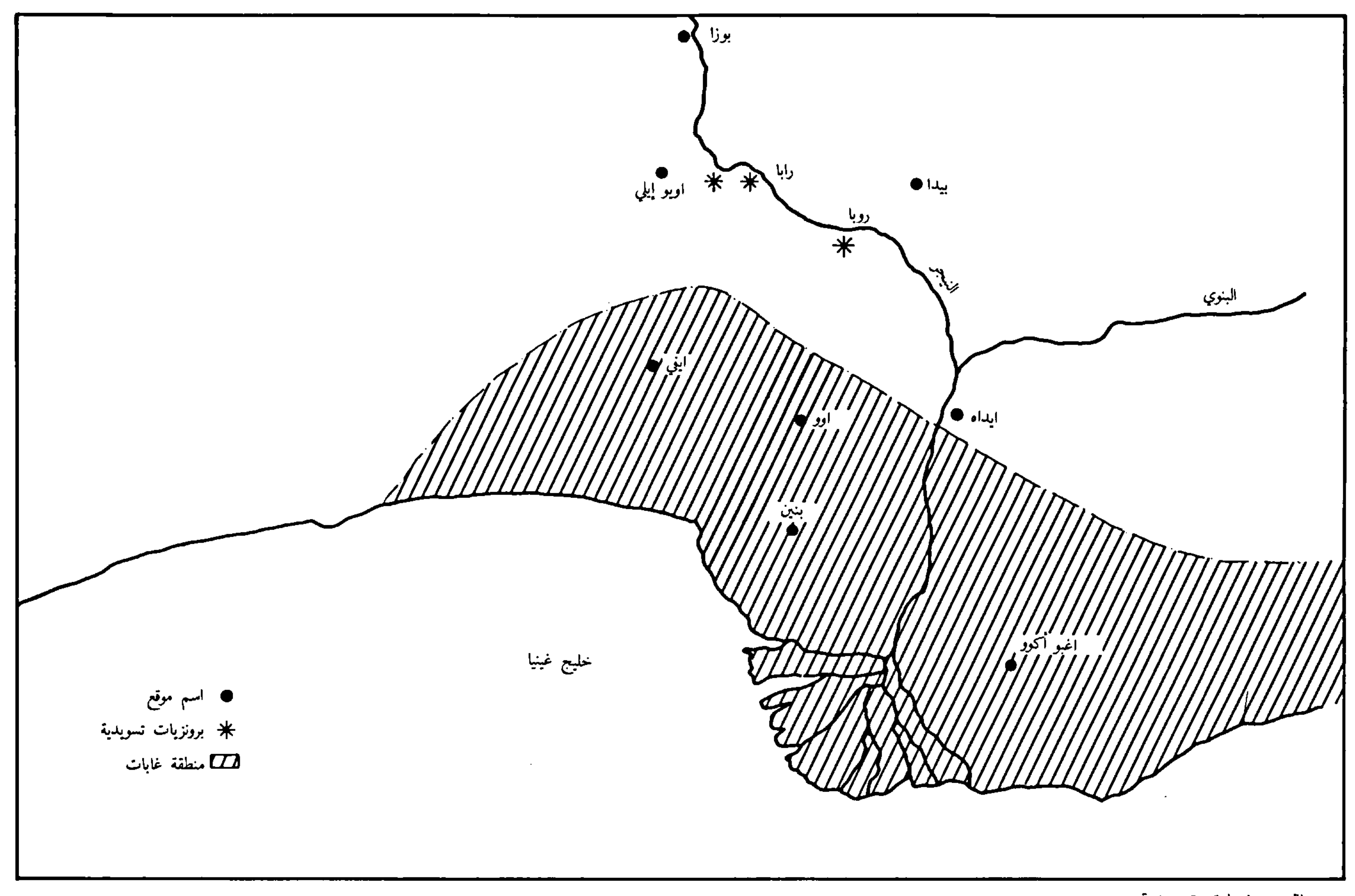
(٣٠) ب. أوزان ، « ويست أفريكان أركيولوجيكال نيوز ليتر » (رسالة أخبار آثار افريقيا الغربية) ، عدد ١١ ، ١٩٦٩ .

(٣١) لقد قدّمت عدة تواريخ بالكربون : ١٠٧٥ ± ١٣٠ (من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر) ؛ ١١٠٠ ± ١١٠ (من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر) ؛ ١١١٠ ± ١٤٥ (من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر) . ويجدر في الوقت الحاضر إعادة النظر في تواريخ هذه المنطقة برمتها ؛ ويستنتج أيضًا من كل الدراسات التي سبق إعدادها أن دلتا النيجر كانت لها صلات وثيقة جدًا بالنوبية في الشمال ومن ورائها بسفانا السودان الأوسط التي كان يعبرها النحاس القادم من تاكيدّة ليصل إلى إيفيه – بنين والى إيغبو – أوكوو . ومن المحتمل أن عهد تيارات التبادل بين السفانا والغابة يرجع إلى أزمنة ممعنة في القدم .

(٣٢) الملك تسويديه شخصية أسطورية ؛ وتقول رواية أنه قدم نوبيه في قارب من البرونز . وأنه يبدو كشخصية تأليفية . ويحدّد ميلاده بسنة ١٤٦٣ تقريبًا ؛ وقد اقتيد أسيرًا إلى ايداه سنة ١٤٩٣ وفرّ من هذه المدينة سنة ١٥٢٣ لينصّب ملكًا على نوبيه سنة ١٥٣١ وتوفي سنة ١٥٩١ . وهكذا تكون هذه الشخصية قد عمّرت ١٢٨ عامًا .

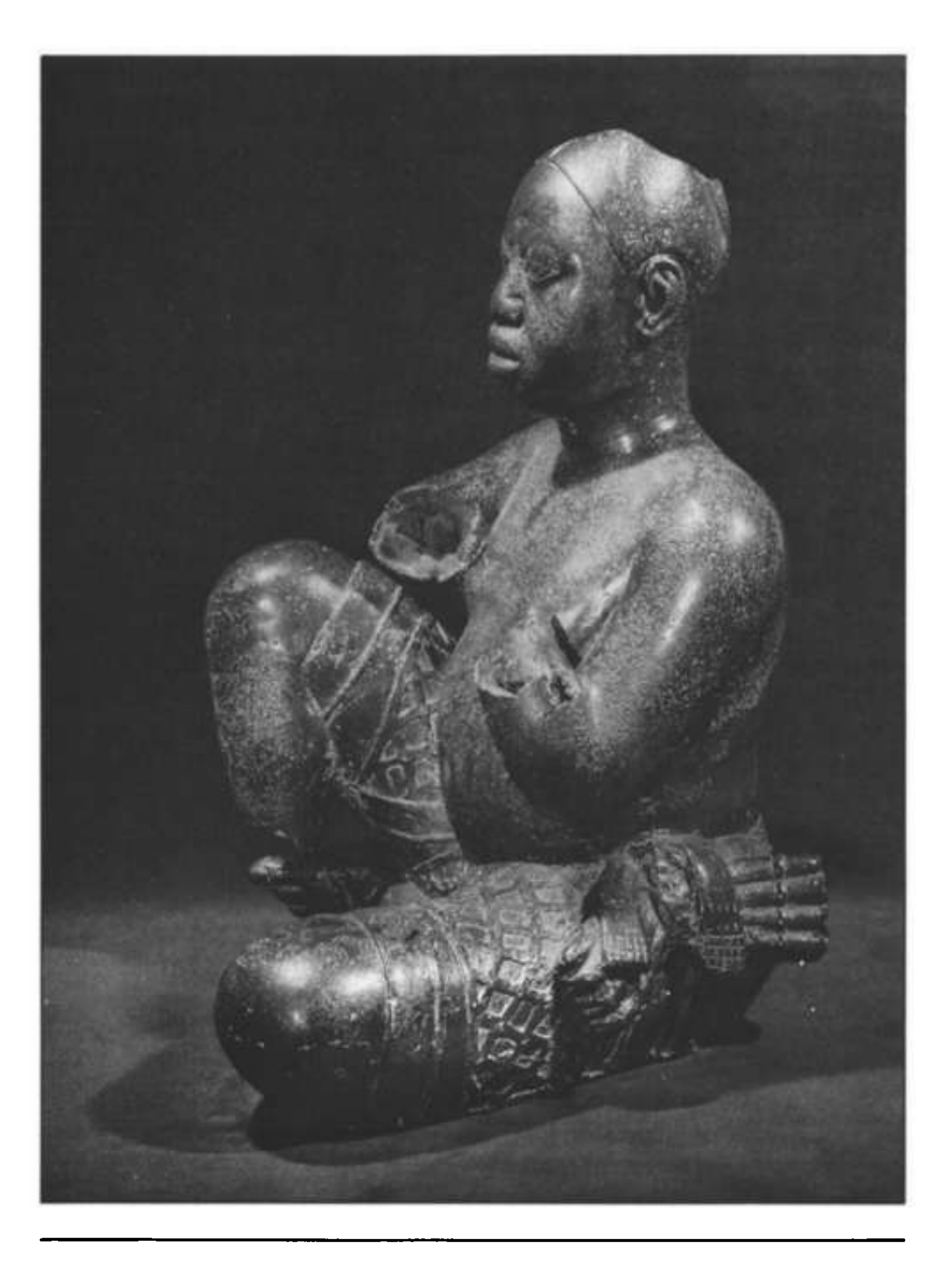
(٣٣) إن الفترة التي نحن بصددها أسطورية طبعًا حسبما كتبه ف. ويليت ، وهو يقول : « من الممكن أن يكون تسويديه عاش في أواخر هذه الفترة فحسب ، أو ربما في بدايتها الأولى ، وانما « مدّد » في عمره لسدّ « الفراغ » الذي يفصله عن الملك التاريخي » ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٣٤) ث. شو ، ١٩٧٣ .



• مواقع برونزيات تسويدية

(المصدر: ت. شاو في «ملاحظة حول تجارة برونزيات تسويدية»، WAJA ، مجلّد ٣، ١٩٧٣، ص ٢٣٤).



• تمثال من البرونز
لشخص تسويدي جالس

الشمال بالجنوب بين المنطقة والعالم العربي الإسلامي ؛ فربما بدأت الحركة التجارية قبل القرن العاشر ، وقد انتقل مقر الحكم من ايفيه ليستقرّ في أويو القديمة من أجل السيطرة أصلاً على هذه الطريق التجارية الرابطة بين الجنوب والشمال. وهكذا فإن البرونزيات التي عُثر عليها في جبا (تادرا) توجد في منطقة الاتصال ، على نهر النيجر.

والخلاصة أنه يجب القيام بالعديد من البحوث سواء لرسم شبكة تاريخية أو للتعريف تعريفًا أفضل بمختلف مدارس البرونز. وحيث أن هذه المنطقة لا تنتج النحاس ، فإن أقرب مصدر لإنتاج هذا المعدن هو منجم تاكيدّة ، ويبقى المجال فسيحًا لمواصلة البحث في ملف العلاقات بين النيجر ونهر البينويه والسودان.

الايجو والايويه

لقد سبق أن تحدّثنا عن نشأة دول عند الايجو ، تقع في دلتا النيجر. ولأوكريكا وبوني ونِمبه روايات شفوية تحمل على الظن بأن هذه الدول تأسّست قبل القرن السادس عشر. وقد تكون نِمبه مثلاً أُنشئت في منتصف القرن الخامس عشر تقريبًا على أيدي من نجوا بأنفسهم من نزاع داخلي. وصارت « دولة مدينة » تضمّ مؤسسات ذات ثقافة واحدة في منطقة تبلغ مساحتها حوالى خمسة عشر كيلومترًا من كل جهة. واستوعبت فيما بعد جماعة من الايتسيكيري أُدخلت فيها عبادة أوجيديغا أو آدا ، وأصبحت سدنة الدولة. وقد أعقب هذه الهجرة عن قرب تأسيس بنين لمملكة ايتسيكيري ، وسنلاحظ أن أصول عبادة آدا في نِمبه قد تبدو ، في آخر المطاف ، مرتبطة بالأودا ، وهي لفظة معناها السيف ، كانت ترمز إلى سلطة ملك بنين.

وهجرة الإيجو هذه في القسم الشرقي من الدلتا جعلتهم على صلة بالايبيبيو ، والأوغوني والندوكي ، وهي مجموعات عرقية صغيرة كانت تميل ، في ظروف مؤاتية ، إلى تقليد الايجو في إقامة هيكل الدولة. وأبرز دولة من الدول الجديدة هي كالابار القديمة ، الواقعة على نهر الكروس ، والتي أسّسها فرع ايفيك من الايبيبيو. بيد أنه يبدو أن إنشاءها لا يعود إلاّ إلى القرن السابع عشر. وقبل ذلك ، كانت ضفاف نهر الكروس قد احتلّها الايجيغام والايكوا والايفوت. وهي شعوب شبه بانتو قدمت من الكامرون الجنوبي. وعلى غرار الايبو ، حافظت على مجتمع سلالي إلى أن استوعبها الايفيك.

الخاتمة

في أواخر القرن الخامس عشر ، عندما بلغ البرتغاليون هذا الساحل ، كانت أويو وبنين أهم الدول ؛ وكانت توجد أيضًا مدن مستقلة محكمة الهياكل ، تضم أيضًا سلالات ذات نظام حكم أقل تطوّرًا. وكانت بنين وأويو في الطريق إلى أن تصبحا مملكتين عظيمتين توسعيتين. وكان تدرّج نشأة الدول قد زاد في سرعة معدّل التفاعلات الثقافية بين الشعوب ، مشجّعًا انتشار المؤسسات ، والممارسات وأدوات

الاحتفالات ، وكذلك انتشار الطقوس الدينية وربما التكنولوجيا. فتقنية القولبة بالشمع المذاب ، مثلاً ، التي كانت سرًا محفوظًا بعناية قصوى ومقرونًا بالملوكية الإلهية ، قد انتشر مع ذلك انتشارًا واسعًا. وأخذت العلاقات الاقتصادية تتسم بتعقد وكثافة جديدين ؛ وخلق وجود الدول مزيدًا من الحاجة إلى التخصّص الاقتصادي ، وكان قصر الملك بحاجاته إلى التموين والخدمات المتخصّصة عاملاً حاسمًا في هذا التطوّر. زد على ذلك أن الدول كانت مجهّزة تجهيزًا أحسن لتنظيم تجارة خارجية ، وتزويد الأسواق ، وتنظيم جمع المنتجات ونقلها ، وضمان أمن التجار الذين يسافرون أسفارًا طويلة. وكانت دول الايجو التجارية تبعث بقوارب جذعية كبيرة إلى المناطق النائية داخل الأراضي لمقايضة الملح بالمواد الغذائية التي لم تكن تنتجها بنفسها. وكان بإمكان ملك بنين أن ينظّم تجارة في العاج ، والفلفل والعبيد على نطاق واسع. وكانت أقمشة ايجيبو موجودة في أسواق منطقة شاسعة. وكانت أويو ، بفضل موقعها بين دول الغابة ودول السفانا ، تسيطر على جانب كبير من التجارة بين المنطقتين. وهكذا عندما ظهر البرتغاليون على الساحل في آخر القرن الخامس عشر ، وجدوا في إيجيبو ، وبنين ، وعند الايجو ، دولاً قائمة بكيفية محكمة ، مع اقتصاد يستجيب لحاجات التجارة الدولية. وان الكيفية التي تمّ بها اجتياز تحدّي الاتصالات التجارية ، والثقافية والسياسية بالدول الأوروبية ، لتشكّل أحد المواضيع الرئيسية لتاريخ شعوب هذه المنطقة كافة خلال القرون الأربعة التالية.

الفصل الخامس عشر

مصر في العالم الإسلامي
(من القرن الثاني عشر حتى بداية القرن السادس عشر)

بقلم جان كلود غارسان

أهمية مصر في الحياة السياسية والاقتصادية في ذلك العصر

قد تبدو الفترة التي تقع بين نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن السادس عشر، للناظر إليها نظرة سطحية، وكأنها أقل فترات التاريخ المصري اتساما «بالطابع الافريقي»، فالنظام الذي قام في القاهرة عام ١٧١١ أعقب الخلافة الفاطمية التي نشأت في المغرب، وأصبح وادي النيل محور سلطانها في نهاية المطاف، عندئذ، صارت مصر القوة الأساسية لامبراطورية أيوبية ثم أمبراطورية مملوكية امتدّت حتى الفرات وممرات جبال طوروس في هضبة الأناضول والتي كان مسرح عملياتها الرئيسية خارجًا عن نطاق افريقيا. وبالمقارنة بعهود أخرى، لم تنفصل مصر بنفس القدر عن باقي القارة الافريقية حتى عندما كانت تعدّ إقليمًا يدخل ضمن مجموعة أموية أو عباسية أو عثمانية. كل هذا صحيح. لكن هذه الفترة التي تأكّد خلالها ثقل القوة المصرية في منطقة الشرق الأوسط هي أيضًا الفترة التي ساقت خلالها الدروب الصحراوية إلى القاهرة أمراء «كانم»، و«مالي»، و«صونغي»، في طريقهم إلى الأماكن الإسلامية المقدّسة في الحجاز في حين سلكها التجار المصريون متجهين إلى داخل افريقيا. ومن المؤكّد أن هذه القرون من تاريخ مصر أثّرت على تطوّر جزء كبير من افريقيا، هو ذلك الجزء الذي تأثّر بالإسلام. وفي مصر الأيوبية والمملوكية، اكتمل شكل الإسلام السني الذي استمدّ منه أغلب مسلمي افريقيا مبادئ السلوك وأطر التفكير بدرجات متفاوتة. ولم يكن ذلك المركز العريق للإسلام وهو المغرب أقل من ذلك تأثرًا بهذا التاريخ. فزوال الخلافة الشيعية عن وادي النيل، قرّب نوعًا ما بين المغرب، والمشرق الإسلامي – الملاذ التقليدي للثقافة والدين وأسهم في الدور التوحيدي الذي ظهر به الإسلام في افريقيا. وها هي القاهرة إذن تصبح المدرسة الكبرى لهذا الإسلام، فتحظى التطورات السياسية والثقافية التي تشهدها ضفاف النيل باهتمام جزء كبير من افريقيا: الحبشة والسودان الأوسط وغرب السودان.

النهضة المصرية بعد سقوط الفاطميين

صلاح الدين وظهور مجال سياسي جديد

إن البلاد التي شكّلت القاعدة الإقليمية للسلطة الأيوبية ثم السلطنة المملوكية ، مع اختلاف بسيط في بعض المناطق ، وجدت نفسها موحّدة تحت لواء صلاح الدين ابن أيوب ، الذي يسميه الغربيون «سالادان Saladin » في الحرب ضد الحملة الصليبية . ومعروف أنه لا الخليفة العباسي في بغداد – «وكان آنذاك تحت سيطرة الأمراء السلاجقة الأتراك الذين قدموا إلى العراق حديثًا من سهول آسيا لخدمة الخلافة ، وكانوا منقسمين على أنفسهم – ولا الخليفة الفاطمي في القاهرة – المكبوح من قِبل رؤساء الجند والمهدّد بإعادة الغزو العباسي في سوريا من السلاجقة – استطاع أو رغب في التصدي لاستقرار الغربيين في فلسطين وأعالي الفرات قرب نهاية القرن الحادي عشر ، أو لبقائهم في هذه المنطقة طوال القرن الثاني عشر ، بين الخلافتين . أما ردّ الفعل عند المسلمين فكان بطيئًا ، إذ لم يَعْوا إلاّ قليلاً ، في البداية ، طبيعة هذا الاستيطان لأن روح «الجهاد» كانت قد خبت في الإسلام . وكان الهجوم الذي قاده الأمراء الذين يحكمون الموصل قد أدّى إلى إعادة توحيد مناطق أعالي الفرات المستعادة ، مع أراضي سوريا الداخلية (من حلب إلى دمشق) تحت قيادة واحد منهم ، هو التركي نور الدين . لكن خلفاء مصر لم يساندوا هذه الجهود التي كان يبذلها منافسوهم إلاّ مساندة متقطّعة . ولا شك أن الحرب ضد المملكة اللاتينية في القدس كانت ستطول لولا أن التنافس في مصر ذاتها على السلطة الحقيقية (الوزارة) . والذي كان يضع قادة الجيش الفاطمي في مواجهة بعضهم البعض حمل المتنافسين على طلب التدخل المسلّح من قبل دمشق والقدس . وتجنّبًا لاستقرار القوات القادمة من القدس في مصر نهائيًا ، قَبِلَ الخليفة نفسه أن يتولّى الوزارة الفاطمية قائد الجيش «شيركوه» الذي أرسلته دمشق وهو أمير من أصل كردي ، لكن ذلك الأمير مات فجأة ، وسرعان ما حلّ محله ابن أخيه صلاح الدين (١١٦٩ م) . بعد ذلك بعامين ، أعلن هذا الوزير ، وهو آخر وزير للفاطميين في مصر ، سقوط الخلافة الشيعية ، وأُعيدت إلى الشرق وحدة الولاء للعباسيين ، تحت إمرة نور الدين ، في مواجهة الدول الصليبية : هكذا بدأ المجال السياسي للأمبراطورية الإسلامية الجديدة في الظهور.

وفي الواقع لم يكن خضوع أمير مصر نظريًا لأمير دمشق ليمنع تنافس السلطتين في نطاق التبعية العباسية : بل ان صلاح الدين الذي تنبأ بهذا الصراع حاول أن يبحث لنفسه عن ملاذ في اتجاه الجنوب ، في بلاد النوبة أولاً ، التي عدل عن غزوها ، ثم في بلاد اليمن التي احتلّها بسرعة عام ١١٧٤ م ، والتي أصبحت فيما بعد مركزًا متقدّمًا للازدهار المصري على شاطئ المحيط الهندي ، لكن نور الدين مات في نفس عام ١١٧٤ م ، وترك ورثة لا يصلحون كثيرًا لمواصلة ما قام به . بعد ذلك ببضعة شهور ، كان صلاح الدين في دمشق . وفي عام ١١٨٢ م ، امتدّ سلطانه حتى بلغ حلب . وفي عام ١١٨٦ م ، ضُمّت إلى المملكة آخر أراضي الفرات التي كانت لم تخضع لها بعد . وفي العام التالي ، قضى انتصار «حِطّين» وإعادة فتح القدس على المملكة الصليبية . كانت الوحدة الحقيقية قد تحقّقت . لكن مصر كانت ، هذه المرة ، مركز الأمبراطورية الجديدة . وعلى الرغم من أنها لم تخض الحرب ضد الصليبيين إلاّ قليلاً حتى ذلك الحين إلاّ أنها أصبحت القوة الرئيسية لمقاومة الغرب وهدفًا للحملات في المستقبل.

أيديولوجية السلطة الجديدة

لعبت هذه الظروف مع شخصية صلاح الدين، الذي كانت نهضة الإسلام تُعتبر في رأيه خلاصة المثل السياسية، دورًا كبيرًا في إعادة بناء مصر. فالأمر كان يتعلّق فعلاً «بإعادة بناء» مصر الإسلامية، التي بدأت بعد سقوط الفاطميين، ولم يكن المذهب الشيعي منتشرًا بدرجة كبيرة بين مسلمي مصر، ربما باستثناء الصعيد، حيث كان زواله بطيئًا. ولما كان هذا المذهب يُعتبر في آن واحد انشقاقًا سياسيًا وخيانة للإسلام الحق، فقد أُلصقت به، بدرجة كبيرة مسؤولية الوهن الذي كان فيه العالم الإسلامي في مواجهته لهجمات الغرب. كان لا بدّ من ترسيخ إسلام الجماعة، أي الإسلام السني، في النظام السياسي والاجتماعي في المجتمع وفي النفوس. وكان الخلفاء العباسيون البعيدون الذين استرجعوا في نطاق المناطق العراقية – وهو نطاق ضيق بلا شك – استقلالاً سياسيًا حقيقيًا نظرًا لضعف حماتهم السلاجقة، قد أصبحوا منذ ذلك الحين موضع احترام أكيد. وأصبح الحج إلى مكة أسهل وأيسر، بعد أن كان يعرقله وجود مملكة صليبية في القدس. وزادت حماية الحجاج من التعديات التي يمكن أن يتعرّضوا لها من قبل بعض السلطات المحلية المصرية، أو سلطات الحجاز التي وقعت تحت التأثير المتزايد لمصر. هكذا امتدّت شهرة صلاح الدين حتى بلغت أقاصي الغرب من افريقيا المسلمة.

وفي مصر ذاتها، لم تدّخر السلطة الجديدة جهدًا لتكوين طبقة من الرجال المتفقّهين في العلوم الدينية، والقانونية، والأدبية، الذين أصبحوا سندًا قويًا للدولة السنية. واكتمل نظام التعلم في المدرسة المأخوذ عن المشرق السلجوقي بشكل نهائي، فالمدارس كانت تُعتبر أفضل مكان لإعداد هؤلاء الرجال الأمناء المخلصين للإسلام وفق المذهب السني الذي أُريد غرسه[1]. وكثيرًا ما تمّ اللجوء إلى بعض الفقهاء والمعلّمين القادمين من الأوساط الاسلامية المجاهدة، في الشام أو المشرق، لكي يعطوها دفعة أولى. وشيئًا فشيئًا، زادت أهمية الكوادر المصرية البحتة، وظهر وسط اجتماعي لعب دور الوسيط بين الحكام والشعب. كذلك وفد المتصوّفون من المشرق، ومن المغرب أيضًا (خاصة إلى صعيد مصر حيث الأغلبية مالكية المذهب) وعاشوا إما في جماعات في الخانقاه (الزوايا) أو فرادي في الرباط (في صعيد مصر)، وأخذوا على عاتقهم بعث حياة روحية أكثر استقامة بين السكان المسلمين، أو ببساطة منحهم التعليم الديني الذي كانوا يفتقرون إليه في كثير من الأحيان، لا سيّما في الريف. وفي عام ١٢٤٤ م، استقرّ المتصوّف المغربي أبو الحسن الشاذلي في الإسكندرية، وانقطع لإضافة جهوده إلى الجهود التي بُذلت من قبل في بناء مصر السنية. كان ذلك هو الالهام الذي أعطى القوة الدافعة للمجهود السياسي الأيوبي الذي اعتبر كمقاومة لأعداء الإسلام في الداخل والخارج. ولقد أدّى ذلك الإلهام إلى تكوين آليات ثقافية واجتماعية متينة، كُتب لها البقاء أطول من النظام الذي ساعدها على الاستقرار.

السلام الأيوبي

جرى بناء مصر السنية الذي بدأ بالانطلاقة المناهضة للحروب الصليبية، في جو من الهدوء السياسي بصفة عامة في ظل السلام والازدهار الاقتصادي اللذين ساعد عليهما توقف القتال، لكن الضربة القاضية المتمثّلة في القضاء على مملكة بيت المقدس، واقتصار وجود الصليبيين على بضعة مواقع حصينة

(١) كان يوجد بالفعل عدد قليل من المدارس قبل قدوم صلاح الدين، في الاسكندرية وفي مصر القديمة (الفسطاط). أنظر رسالة الدكتوراه الحديثة الخاصة بـ ج. ليزيه، ١٩٧٧.

بطول الشاطئ (١١٨٧) أثارت ردّ فعل عنيفًا من جانب أمراء أوروبا (الحملة الصليبية الثالثة) كان من الصعب على صلاح الدين احتواء آثاره. وإذ لم يتمكّن الصليبيون من استرداد بيت المقدس ، فقد ثبتوا أقدامهم مرة أخرى على الشاطئ الممتد بين سوريا وفلسطين. وقبل صلاح الدين هذا الأمر الواقع قبل موته (١١٩٣). لكن ضيق الأراضي الساحلية التي سيطر عليها الغربيون ، وموقعها الإستراتيجي السيّئ، بدّدا الخوف من تواجدهم. بل ان وجودهم ، لا كرجال حرب فحسب ، وإنّما كتجار أيضًا ، كان من شأنه أن يساعد على الرخاء الاقتصادي في الدولة الأيوبية ، لذا ، جاهد من أعقبوا صلاح الدين لتأمين السلم ، وإن كان ذلك لم يتم بغير تذمّر الأوساط المسلمة على حين وضح تمامًا أن وعي الغربيين لا سيّما الذين استقرّوا في الشرق بالمزايا الناتجة عن بقاء الأوضاع على حالها قد تغلّب على الروح الصليبية التي هبطت حدّتها. ومع ذلك فقد وقع مزيد من الاعتداءات ، من بينها إقامة نقطة وثوب في دمياط ، فيما بين ١٢١٨ و ١٢٢١ (الحملة الصليبية الخامسة) التي استهدفت ، هذه المرة ، تقويض قلب القوة التي تقف حائلاً أمام مشروعات الغرب. لكن على الطرف الآخر كانت السلطات الإسلامية على استعداد لتقديم التنازلات ، بل حتى إرجاع بيت المقدس ذاتها للصليبيين بشرط أن تظل مدينة مفتوحة (١٢٢٥). وبفضل هذه السياسة ، شهدت مناطق الشام التابعة للأمبراطورية الأيوبية فترة رخاء رائعة[٢] ، نظرًا لصلتها بالوكالات التجارية المسيحية الواقعة على الساحل.

ولقد استفادت مصر أيضًا من السلام ، وأضافت إلى الثروة التي كانت تجنيها من إنتاجها الزراعي التقليدي (ومن زراعة قصب السكر التي انتشرت فيها آنذاك) أرباحًا ناتجة عن تجارة أقل اضطرابًا مع الغربيين. وكانت الدولة الأيوبية ، شأنها شأن سالفتها الدولة الفاطمية ، في حاجة إلى هذه التجارة ، إذ كانت تنقصها بعض المنتجات الهامة كالحديد ، وأخشاب البناء ، والقار ، وهي منتجات لا غنى عنها لبناء الأساطيل الحربية. فكانت تطلبها من تجار البندقية ، وبيزا ، وجنوة ، الذين كانوا يوردونها على الرغم من الأمر الديني الذي يحرّم بيع هذه المنتجات الاستراتيجية التي كانت ستستخدَم ضد الصليبيين[٣] . والسبب في ذلك أن مصر كانت تقدّم ، مقابل هذه المنتجات ، الشب الذي يُستخدم في صناعة النسيج في الغرب ، وكذلك منتجات الشرق الأقصى الثمينة. وفي هذا المجال بالذات ، جنت الدولة الأيوبية ثمار الجهود التي بذلها الخلفاء الفاطميون لكي يعيدوا إلى طرق البحر الأحمر ، ووادي النيل التجارة القديمة جدًا في المحيط الهندي ، تلك التجارة التي صنعت لمصر ثروتها في العهدين الاغريقي والروماني. وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، وجد تجار التوابل في مصر مسارًا لطريقهم سلكوه على مدى ثلاثة قرون. كانت البضائع الشرقية الثمينة تفرغ على شواطئ البحر الأحمر في مرسي عيذاب ، ثم تنقلها القوافل إلى النيل عند قوص (شمالي الأقصر بقليل) ، التي أصبحت عاصمة لصعيد مصر. ومن قوص ، كانت تنقل عن طريق النهر إلى الاسكندرية ، وفي الاسكندرية كان تجار الغرب ينتظرونها ، لأن القاهرة كانت محرّمة عليهم من أيام صلاح الدين ، ومن باب أولى ، كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى البحر الأحمر. أي أن مصر كانت تسيطر سيطرة تامة على هذه التجارة ولا تخشى شيئًا في منطقة البحر الأحمر ، فحتى عام ١٢٣١ كان حاكم اليمن أميرًا أيوبيًا. وكان المتخصّصون في تجارة الشرق الكبيرة ، المسمون بتجار «الكاريم» أو «الكريمية» والذين لم نجد تفسيرًا كافيًا لاسمهم أو لأصلهم حتى الآن

(٢) في مطلع القرن الثالث عشر أصاب الوهن الروح الصليبية ، وبينما استمرّ أتباع الديانتين في مقاتلة بعضهم بعضًا ، راحت المصالح التجارية تفرض نفسها أكثر وأكثر من الحكام.

(٣) وعن سيطرة الغربيين على المجال التجاري في البحر المتوسط ، أنظر ما كتبه ج. ديفيس في نهاية الفصل ٢٦.

– على علاقة وثيقة باليمن ، فقد ورد ذكرهم في خطابات تجار مصر من اليهود قرب نهاية العصر الفاطمي . ثم جاء ذكرهم فجأة في الوثائق الإسلامية ، منذ بداية العهد الأيوبي . ولم تعد هذه التجارة التي كانت تسيّر البضائع والرجال بطول النيل ، في الاتجاهين ، بالنفع على الذين يستفيدون منها ماديًا وعلى مكوس الدولة فحسب ، بل ساعدت أيضًا على الرخاء ، وعلى الوحدة التي سادت بين سكان وادي النيل .

الدولة ، تنظيمها ، والطبقة العسكرية في السلطة (دولة خلفاء صلاح الدين)

على الرغم من أن تاريخ التطور السياسي لمصر الأيوبية لم يكتب بعد إلاّ أنه يمكن القول بأن إدارة البلاد وحكمها لم تقطعا صلتها بالتقاليد الفاطمية . فعلى الرغم من الوجهة الإسلامية الواضحة التي اتّخذها البناء السياسي ، ظلّ مسيحيو مصر أو الأقباط – وكان عددهم كبيرًا آنذاك – يتولّون جزءًا كبيرًا من الأعمال الإدارية ، كما كان الحال في عهد الخلفاء الشيعيين ، لأنهم ورثوا أسلوبًا بيروقراطيًا ظلّ باقيًا على الرغم من تغيير السلطة . قد كانت الحكومة الأيوبية بمكاتبها الوزارية (الدواوين) استمرارًا للحكومة الفاطمية ، إذ كان مؤسّس الأسرة الأيوبية آخر وزير لخلفاء القاهرة . كما حمل السلاطين الأيوبيين والمماليك لقب «ملك» الذي يُطلق عليهم في كثير من الأحيان ، وهو اللقب القديم لهؤلاء الوزراء[٤] .

لكن صلاح الدين كان أيضًا أميرًا كرديًا وُلد في أسرة كانت في خدمة السلاجقة ، اعتمد على جيشه (شأنه في ذلك شأن من أعقبوه) لإنجاز مشروعاته السياسية ، واستقرار سلطانه وحلّ ذلك الجيش بطريقة طبيعية محل الطبقة العسكرية الفاطمية التي كانت ترتزق ابتداءً من القرن الثاني للخلافة وفقًا لنظام «الإقطاع» وهو نظام يقضي بتخصيص مدخول جباية منطقة ما أو عدة مناطق لكل أمير – تحت الإشراف الدقيق والمتابعة – وذلك وفقًا لأهمية الأمير ، وعدد الرجال الذين يستخدمهم . وفيما عدا بعض الحالات القليلة ، كان هذا النظام متبعًا في الشرق كله . لكن المصريين غالبًا ما كانوا يعتبرون هذا الجيش المكوّن من الأكراد والأتراك جيشًا أجنبيًا . وفي الواقع ، كانت بنية السلطة السياسية هي التي تتجاوز الإطار الجغرافي لمصر وتخضع لمفاهيم لم تعرفها ضفاف النيل حتى ذلك الحين . وكان لصلاح الدين مفهوم أسري للتنظيم السياسي ، شأنه في ذلك شأن أمراء إيرانيين أو أتراك آخرين وضعوا قوة رجالهم في خدمة الخلافة العباسية ، وانتهى بهم الأمر إلى ممارسة السلطة . وفقًا لهذا المفهوم ، كان الرئيس يعهد بالإدارة العليا في بعض المقاطعات أو المدن إلى مختلف أعضاء الجماعة الأسرية ومن ثم ، تحوّلت الأمبراطورية إلى اتحاد فيدرالي يضم عددًا من الإمارات المستقلة التي تتولّى حكمها أسرة اشتهرت بخدمة الإسلام . ولم يكن مستبعدًا في هذه الأسرة أن ينتقل أمير من عاصمة إلى أخرى ، إذا تطلّبت المصلحة العليا ذلك . ولقد أصبحت مصر عامة ، نظرًا لأهميتها ، البلد الذي يحتفظ به لنفسه من يلعب دور رئيس الجماعة أو يطمح إليه .

لكن اختيار جماعة أسرية متغيرة (باستثناء حلب ، حيث تعاقب الأمراء أبًا عن جد) للدفاع عن

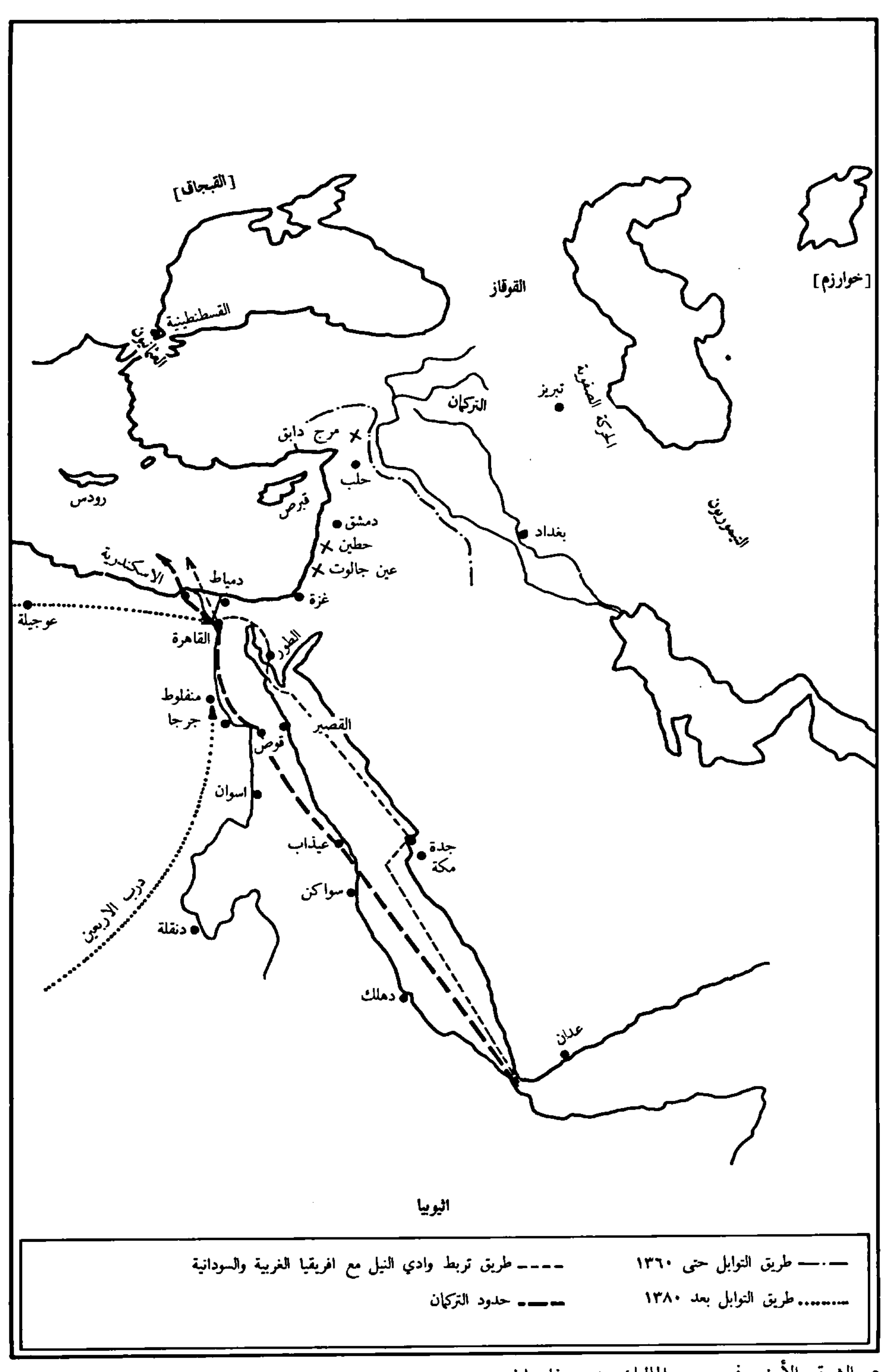
(٤) أنظر ج. ويت ، ١٩٣٧ .

المسلمين وحكمهم ، كان يمكن أن يوسع على المستوى العرقي الانفصال الذي يباعد بين الحاكم والمحكوم داخل كل إمارة، خاصة أن توزيع الاختصاصات غير المحدّد، أثار بين الأمراء منافسة وصراعات مسلحة استدعت تدخّل أطراف ثالثة ، خاصة المسيحيين من شاطئ سوريا وفلسطين الذين اندمجوا بهذه الطريقة ضمن اللعبة السياسية للشرق الأوسط وفي عام ١١٩٣ ، ترك صلاح الدين مصر لابنه الملك العزيز. لكن ، ما لبث شقيق صلاح الدين ، الملك العادل الذي كان يرأس منطقة الفرات آنذاك – أن أظهر أكبر قدر من السيطرة عند الاحتكام إليه في النزاع بين الأقارب وأكبر قدر من الطموح وبعد موت الملك العزيز (١١٩٨) ، انتهى به الأمر إلى الاستقرار في القاهرة (١٢٠٠) وفرض إدارته الحازمة على الأمراء الأيوبيين إلى أن توفي في دمشق عام ١٢١٨ ، بينما كان جنود الحملة الصليبية الخامسة يرمون بسفنهم في دمياط . في ظلّ هذه الظروف ، خلفه ابنه الملك الكامل في القاهرة بلا صعوبة ، وحاول استئناف السياسة التي اتبعها والده مع أقربائه . لكن نجاحه فيها كان أقل من نجاح أبيه بكثير ، خاصة بسبب موقفه المتسامح من الغربيين. وعندما توفي عام ١٢٣٧ ، لم يكن قد توصّل بعد إلى إعادة الوحدة الأسرية التي كانت قائمة أيام صلاح الدين والملك العادل. ورأى في وقت ما ، كل الأمراء الأيوبيين يتحالفون ضده ، باستثناء أحد أبنائه هو الملك الصالح الذي أبعد إلى منطقة الفرات نظرًا لطموحه المبكر. وبعد سلسلة من الأحداث التي يصعب تصديقها ، خلف الملك الصالح أباه عام ١٢٤٠ ، لكنه استخلص من مغامراته الدرس الآتي : إذا أراد أمير أن يفرض نفسه في منافسات سياسية بهذه الخشونة فلا بدّ أن يكون في خدمته جيش مخلص (وهو ما اجتهد أيوبيون آخرون لكي يكون لهم) يتكوّن من رجال يتبعونه هو في كافة الأمور ، رجال يشتريهم ، ويتولى هو تدريبهم ، ويرتبط مصيرهم بنجاحه أي مماليك أو عبيد من العنصر الأبيض ، وفي هذه الحالة بالذات من الأتراك. وفي ثكنات جزيرة الروضة بالقاهرة لم يلبث فيلق المماليك البحرية (من الكلمة العربية « بحر » التي تُستخدم في مصر للدلالة على النيل)[٥] أن أصبح السند الرئيسي لآخر أمير كبير من الأسرة الكردية . التي أدّت مبادؤها الخاصة بانتقال السلطة إلى نشأة جماعة قوية لم يعرفها حتى ذلك الحين إلاّ تاريخ المشرق الإسلامي .

المماليك الترك

يمثّل النظام المملوكي استقرار هذه الطبقة العسكرية القوية التي اختارت السلاطين من بين أفرادها ، على رأس المجتمع الإسلامي في مصر وعلى الرغم من كثرة الحديث عن « الأسر » عند ذكر هذا النظام فإنه لم يعر أي اهتمام لهذا النوع من الاستمرارية ؛ اللهم إلاّ في بعض الحالات التي تنطوي على فائدة سياسية مباشرة فالجماعة المسلحة التي كانت في خدمة الأمير الأيوبي تكتفي بذاتها ، فلها قادتها بطبيعة الأمور وهي تكوّن، مع الجماعات المنافسة لها ، الطبقة السياسية الوحيدة التي يؤدّي توازن القوى فيها إلى إبراز من يتولّى السلطة . ومن ثم ، كان الفصل التام بين الحكام والمحكومين الذين أصبحت الدولة بالنسبة لهم دولة « المماليك الترك » أولاً (الذين سماهم مؤرّخو الغرب « بالبحرية » ، وهي كلمة لا تُطلق إذا شئنا الدقة ، إلاّ على الفيلق الذي كوّنه الملك الصالح) ، ثم دولة « المماليك الشراكسة » ابتداءً من عام ١٣٨٢ .

(٥) من الواضح أن هذا هو الأصل الحقيقي لكلمة Bahrides (بالعربية بحرية) ، ولا ينبغي الأخذ بالرأي القائل بأن كلمة بحر تعني ، كما هو الحال في العربية الفصحى ، القادمين من المنطقة الواقعة وراء البحر .



• الشرق الأدنى في عصر المماليك (ج. غارسان)

(ملاحظة : وضع القوى الآسيوية المبين يطابق الوضع في النصف الثاني من القرن الخامس عشر)

أصل سلطتهم : النضال ضد المغول والغرب الصليبي

نتج استيلاء الطبقة العسكرية على السلطة عن ظهور أخطار جديدة رهيبة ألا وهي تقدّم المغول نحو الغرب تقدّمًا لم يظهر في أول الأمر إلاّ في شكل نتائج غير متوقّعة. فبينما وصلت الموجة الكبيرة الأولى من الغزاة إلى المجر في أربعينات القرن الثالث عشر وأقامت في سهول نهر الفولجا الأدنى خانيّة القبجاق، فإنها لم تمس، في المشرق الإسلامي، سوى بلاد فارس (سلطنة «خوارزم») وما وراءها. وفرّت منها جماعات مسلحة حاولت أن تبقى على قيد الحياة. بل ان الملك الصالح ظن أنه يمكن أن يجد في تلك الجماعات القوة العسكرية التي يريدها لنفسه ليؤكّد تفوّقه على باقي الأيوبيين. لكنه، سرعان ما فضّل على الخوارزميين (لصعوبة السيطرة عليهم) العبيد البيض من الجنس التركي، الذين استقبلت الأسواق أعدادًا كبيرة منهم دفعت بها مستقرات القبجاق كي تُباع رقيقًا. ومن هؤلاء الرجال تكون فيلق المماليك البحرية[٦]. أما الخوارزميون فقد أثارت الفتك التي قاموا بها في بلاد الشام وفلسطين، ومن بينها مذبحة مسيحيي القدس (١٢٤٤) ردود فعل من الغرب. ففي عام ١٢٤٩، وصلت إلى دمياط جيوش الحملة الصليبية السادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا متهمة مصر، مرة أخرى بأنها المسؤول الأول عن الأحداث في الشرق.

ولم يلبث الموقف أن ازداد خطورة لأن الملك الصالح مات بينما كان الأمير توران شاه الذي يجب أن يخلفه موجودًا في منطقة الفرات. وكان الذي أنقذ مصر من الغزو هو فيلق المماليك البحرية بمحاربته لويس التاسع وايقاعه في الأسر. وعندما وصل السلطان الجديد كان النصر قد تحقّق، وبدا المماليك وكأنهم القوة الرئيسية للدولة. وقُتل توران شاه (في مايو ١٢٥٠) عندما تعجّل فرض نفسه عليهم، فكان آخر الأيوبيين في مصر. هكذا عادت السلطة إلى المماليك. ولكي يمنعوا رد فعل باقي الأيوبيين، رفعوا شجرة الدر زوجة الملك الصالح لفترة ما إلى السلطة شريكة لواحد منهم هو عز الدين أيبك. ولم يجنبهم هذا الحرب مع أمراء الأسرة الأيوبية. أو المؤامرات التي نجح هؤلاء في إثارتها بينهم. وكان يمكن ألاّ يبقى المماليك في الحكم، لولا أن جاءت موجة ثانية من المغول أثبتت أنهم وحدهم القادرون على الذود عن الإسلام... ففي عام ١٢٥٨، استولى المغول على بغداد. وأُعدم الخليفة العباسي بناء على أمر أصدره هولاكو، حفيد جنكيزخان. وسرعان ما اختلت الإمارات الأيوبية، ووصل الغزاة إلى غزة ولم يؤخّر دخولهم إلى مصر[٧] إلاّ أسباب تتعلّق بسياسة المغول الداخلية فاغتنم السلطان «قطز» الفرصة، وهزم القوات الباقية، في «عين جالوت»، بالقرب من «نابلس» (في سبتمبر ١٢٦٠) فاضطر المغول إلى عبور الفرات مرة أخرى. واستطاع النظام المملوكي أن يبقى.

نشأت سلطة المماليك الأتراك اذن من الخدمات التي قدّموها للإسلام، الإسلام الذي لم يستطع سادتهم، الأمراء الأيوبيون، أن ينقذوه من الخطر المسيحي والمغولي. وخلف الخطر المغولي والصدمة التي أصابت العالم الإسلامي المضطرب نتيجة لانتهاء الخلافة نهاية مأساوية آثارًا لا تمّحى على تكوين السلطنة المملوكية وسياستها. لم تكن الدولة المملوكية إلاّ استمرارًا لتنظيم سياسي وعسكري قائم، ظهر أثناء مقاومة

(٦) لم يكن استيلاء طبقة من العسكريين على السلطة في مصر ظاهرة معزولة عما سواها أنظر «السلاجقة في بغداد». فمن القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وحتى عصر تيمورلنك، كانت آسيا تمارس ضغطًا شديدًا على الشرق الأدنى.

(٧) يتعلّق الأمر أساسًا بموت الخان الكبير منكي، شقيق هولاكو، الذي حدث بعد استيلاء المغول على حلب ودمشق. ونظرًا لاعتبارات أملتها الظروف، عاد هولاكو إلى بلاد فارس، ولم يترك في الشام إلاّ جزءًا من جيشه.

العدوان الخارجي ، وأكسبته الحياة العبقرية العسكرية والسياسية التي تميّز بها أحد أمراء فيلق المماليك «البحرية» ، بيبرس الذي استولى على السلطة بالقوة عام ١٢٦٠ . كان وصول المغول قد غيّر الموقف في الشرق تغييرًا عميقًا ، وانتهز أمراء الغرب فرصة اختلاف الديانات التي يمارسها القادمون الجدد وفكّروا في إمكانية تكوين تحالف ضد الإسلام مع هؤلاء الحلفاء غير المنتظرين الّذين صفّوا الخلافة. كانت الإقطاعيات المسيحية على شواطئ الشام وفلسطين تمثّل اذن خطرًا جديدًا. فعلى الرغم من أن أغلبها ظلّ على الحياد أثناء الغزو المغولي إلاّ أنه كان يمكن استخدامها كنقطة ارتكاز لهجمات لاحقة. فكان لا بدّ إذن من تدميرها. وكان الخطر المغولي مروعًا ، بالمقارنة بالقوات التي كان يمكن أن يقابله بها المماليك. وكانت فرصة هؤلاء هي انقسام المغول على أنفسهم. كان هولاكو وأحفاده الايلخانية من بلاد الفرس – الذين أقاموا عاصمتهم في «تبريز» في نزاع مع خانات قبجاق الذين كانوا يسمحون للدولة المملوكية بأن تأخذ العبيد الأتراك من عندهم والذين تحوّلوا إلى الإسلام. وكانت الأناضول هي سبب النزاع ، وكما حدث في باقي أنحاء الشرق ، دخلت قبائل من التركمان بلاد الأناضول خلال القرن الحادي عشر ، وبفضل سلبية البيزنطيين الراضين عن ذلك الوضع إلى حد ما ، استقرّت فيها تحت إدارة الأمراء السلاجقة المنشقين (ويدعون «بالسلاجقة الروم» أي المستقرّين في الأراضي البيزنطية القديمة وذلك في مقابل «السلاجقة العظام» في العراق). وفي عام ١٢٤٣ أخضعت الموجة المغولية الأولى –موجة مغول القبجاق– هذه السلطنة التي كانت مزدهرة يومًا ما ، ولكن عندما وُزِّعت الأدوار داخل الأمبراطورية الأسيوية الكبرى ، حصل مغول فارس على حق الإشراف على بلاد الأناضول التركمانية. نشأت عن ذلك الوضع خلافات عديدة أنقذت الدولة المملوكية عدة مرات.

إن أفضل ما يفسّر سياسة السلطان الجديد الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) هو أخذ هذا الواقع الذي يهيمن عليه الوجود المغولي في الاعتبار. فقد استفاد بيبرس من فترات وقف القتال التي أتاحتها للمسلمين الحرب بين الخانات المتنافسين ، والاضطرابات الداخلية التي كانت تحدث عندما يخلف أمير مغولي أميرًا آخر ، فأخضع أخطر نقاط الارتكاز المسيحية في سوريا وفلسطين (من ١٢٦٥ حتى ١٢٦٨ وفي عام ١٢٧٠ عندما تحوّل تهديد جديد من قبل الغرب في آخر لحظة إلى تونس) ، وقاد إلى الأناضول ، حيث كانت القبائل التركمانية لا تتحمّل سيطرة المغول ، حملة أكّدت الدور الذي أرادت السلطة الجديدة أن تلعبه لحماية جميع المسلمين (١٢٧٧). وواصل العمل الذي بدأه بيبرس كبار السلاطين الذين جاءوا من بعده مثل الملك المنصور قلاوون (١٢٧٩ – ١٢٩٠) ، والملك الناصر محمد بن قلاوون (١٣١٠ – ١٣٤١). لكن محاولات المغول تكرّرت. ففي عام ١٢٨٢ وصلوا إلى حمص ؛ وفي عام ١٣٠٠ إلى دمشق ؛ ومرة أخرى في عام ١٣١٠ عبروا الفرات الذي أصبح حدًا لدولتهم. أما الاستيلاء على آخر موقع صليبي على الشاطئ الفلسطيني (قلعة سان جان في عكا عام ١٢٩١) ، فكان ردًا على مشروعات تحالف جديدة بين المغول وملوك الغرب. ويبدو أن زوال هذا الخطر ، واعتناق الخانات في بلاد فارس للإسلام (١٢٩٥) أظهر أن المسلمين لم يعودوا مهدّدين في وجودهم. لكن المحاباة التي خصّ بها الايلخانيون المذهب الشيعي (١٣١٠) ، على الرغم من عدم استمرارها ، بدأت تضع في مواجهة الشرق الأوسط ، ذي الغالبية السنية ، مجموعة ايرانية مغولية شيعية النزعة لا يمكن إلاّ أن تثير التوجس. لم يكن الخطر مطلقًا ، لكنه استمرّ قائمًا لا يزول ، ولم يحقّق السلام عام ١٣٢٣ إلاّ اضمحلال الدولة الإيلخانية ، هكذا تغلّبت الدولة المملوكية على الأخطار التي أدّت إلى نشأتها. وامتدّت هيمنتها إلى حدود بلاد الأناضول المحرّرة من المغول ، حيث انتهت الفورة التركمانية إلى مجابهة بين عدة إمارات. واستأنفت إمارة العثمانيين في الشمال ، والتي لم يكن لها شأن كبير بعد ، تقاليدها القديمة وعلاقاتها التي تجمع بين

الصراع والعلاقة المبهمة مع ما تبقّى من بيزنطية. عندئذ، ظهرت الدولة المملوكية بحق بوصفها القوة العظمى للإسلام.

القوة المملوكية وافريقيا

إن هذه القوة التي استحوذ عليها المماليك بمشقة فائقة بمواجهتهم للتهديدات القادمة من أوروبا وآسيا لا يدهشنا أن نراها تؤكّد ذاتها في افريقيا. فالسبل التي أدّت إلى رخاء المماليك تنتمي لافريقيا خاصة، فتجارة الشرق الأقصى الكبرى تمر دومًا بالبحر الأحمر ووادي النيل: وكان على اليمن أن تعترف بالهيمنة المصرية التي أرادت أن تفرض نفسها على المحطات الصغيرة الواقعة على طرق التجارة بتحالفها مع أمراء دهلك[٨] مثلاً أو مطالبتها بالسيادة على مصوع وسواكن. أراد العهد المغولي أن يعيد هذه التجارة المربحة إلى الخليج الفارسي. وبالفعل، سلكت التوابل، لفترة ما، الطرق المغولية. لكن تجار البندقية، وجنوة، وبرشلونة، اضطروا للتسليم بالأمر البديهي وهو أنه ابتداءً من أربعينيات القرن الرابع عشر، أصبح طريق البحر الأحمر الذي يغذّي الموانئ المصرية والوكالات التجارية التي عادت إليها الحياة في المشرق، هو الطريق الذي لا ينافس. فكانت التوابل تتّخذ طريق النهر الأفريقي الكبير. واستمدّ منها تجار الكاريمي ثرواتهم وامتدّ نشاطهم إلى غرب افريقيا. حيث يسجّل المؤرّخون أن واحدًا من أكبر ملوك هذه التجارة الدولية لقي حتفه عام ١٣٣٤ في تمبكتو[٩].

لا يمكن فصل هذه العلاقات الافريقية عن العلاقات السياسية والثقافية جميعًا. فمنذ عام ١٢٦١ على الأقل، عندما استقرّ بيبرس في الحكم، سلك الأمراء الأفارقة وحجاج آخرون من رعاياهم طريق الحجاز مارين بالقاهرة. وأكّدت زياراتهم الملحوظة للجمهور المستنير وجود ممالك إسلامية في افريقيا وكتب ابن فضل الله العمري في ذلك الوقت دائرة معارفه الجغرافية التي يُعتبر جزؤها الخاص بافريقيا مصدرًا رئيسيًا للمؤرّخين في يومنا الحالي[١٠]، أما شعب القاهرة، فلاحظ أكثر ما لاحظ دلائل الجود والكرم: كإنشاء حاكم «كانم» لمدرسة مالكية في الفسطاط، والذهب الذي وزّعه منسا موسى أثناء حجه عام ١٣٢٤. وساهم ذهب مالي في سكّ النقود المصرية. لذا، قابل السلاطين أمراء افريقيا بالترحاب اللائق وإن لم يخلُ موقفهم من الرغبة في بسط النفوذ السياسي. كانوا يتوقّعون أن يتغلغل هذا النفوذ كما تغلغلت منسوجات مصر الثمينة والمراسم الرسمية للبلاط، والكتب التي كان يجدها الزوار في العاصمة الكبيرة.

هكذا كان للقوة المصرية إشعاع إفريقي، بفضل عظمة الأمبراطورية المملوكية وازدهارها، بطبيعة الحال. لكن هذه القوة تأكّدت إراديًا وبطريقة أعنف من ذلك في المناطق القريبة من مصر. ففي عام ١٢٧٥، ضمّت مصر شمال مملكة النوبة المسيحية، ونصبت في «دنقلة» أمراء تابعين لها وثبّتتهم فيها تدريجيًا. علاوة على ذلك، وجدت الدولة المصرية في البدو مساعدين فعّالين أثناء تقدّمها. فأسهم بنو كنز، أسلاف الكنوز الحاليين – الذين استقرّوا فيما بعد بين أسوان والحدود السودانية – إسهامًا فعّالاً في

---

(٨) أنظر ج. ويت، ١٩٥٢، ص ٨٩ – ٩٥.

(٩) لا يتفق العلماء على معنى لفظ كاريمي، فهل السبب راجع إلى خطأ في القراءة أم أن اللفظ كان يقصد به تجار دولة الكانم (الكايمي)؟ فإن صحّ هذا الافتراض الأخير فإن دولة الكانم تكون قد لعبت دورًا في تطور التجارة في الشرق، ظلّ مغفلاً حتى ذلك الحين. وانظر أيضًا الفصل ٢٦ من هذا المجلد.

(١٠) أنظر العمري، طبعة ١٨٩٤، أو الترجمة الفرنسية، ١٩٢٧.

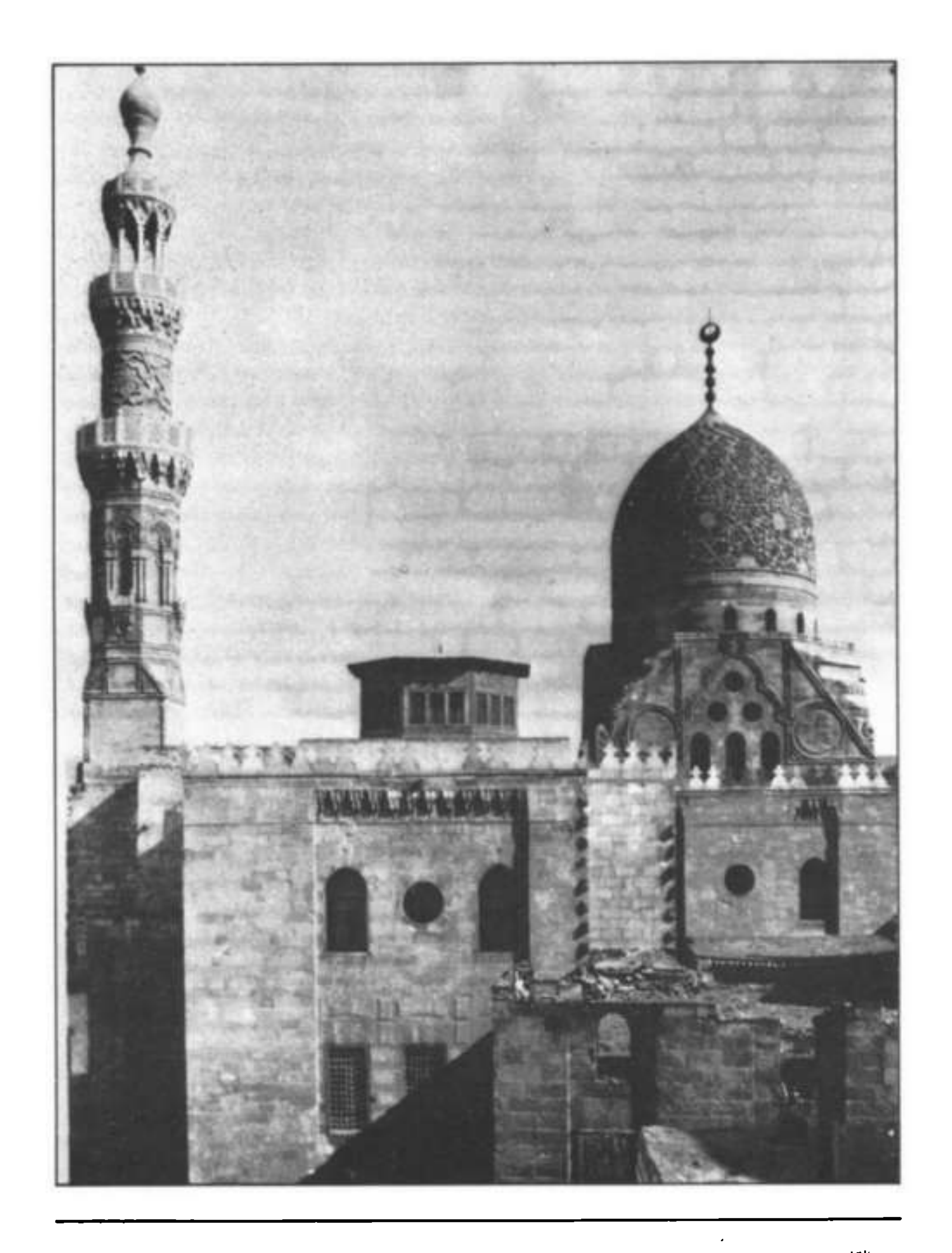
القضاء على مملكة دنقلة المسيحية التي أصبحوا أمراء لها بعد اعتناق الإسلام رسميًا (١٣١٧).[١١] وكانت قبائل «جهينة»، ومجموعات أخرى من عرب الجنوب مثل آل «بلي» و«جزام» و«طيّ»، قد قدمت من منطقة أسيوط ومنفلوط، وتقدّمت بأعداد كبيرة نحو الجنوب في اتجاه دارفور وافريقيا الوسطى. هكذا انفتح باب النوبة. ويبدو أن السلطة المصرية التي منعت تحرّكات البدو هذه بقدر الإمكان حتى عهد الملك الناصر محمد، رأت أنها قد تستفيد منها، فرحيل الجماعات المشاغبة يخلص مصر منها مؤقتًا. وهؤلاء الرجال أنفسهم كانوا يتحوّلون إلى رعايا بعيدين في الجنوب الكبير، وكانت الدوائر الحاكمة في القاهرة تظل على اتصال بهم. فمنذ عام ١٣٢٠، أصبحت منفلوط التي كانت تغذّي ضرائبها (الإقطاعية) صندوق السلطان الخاص، مركزًا لبيع العبيد. لم تكن هذه سوى بداية فحسب. أما مصر المملوكية، ففرضت نفسها باضطراد على أنظار مسلمي افريقيا بالنموذج الحضاري الذي تقدّمه لهم.

الإسلام في مصر

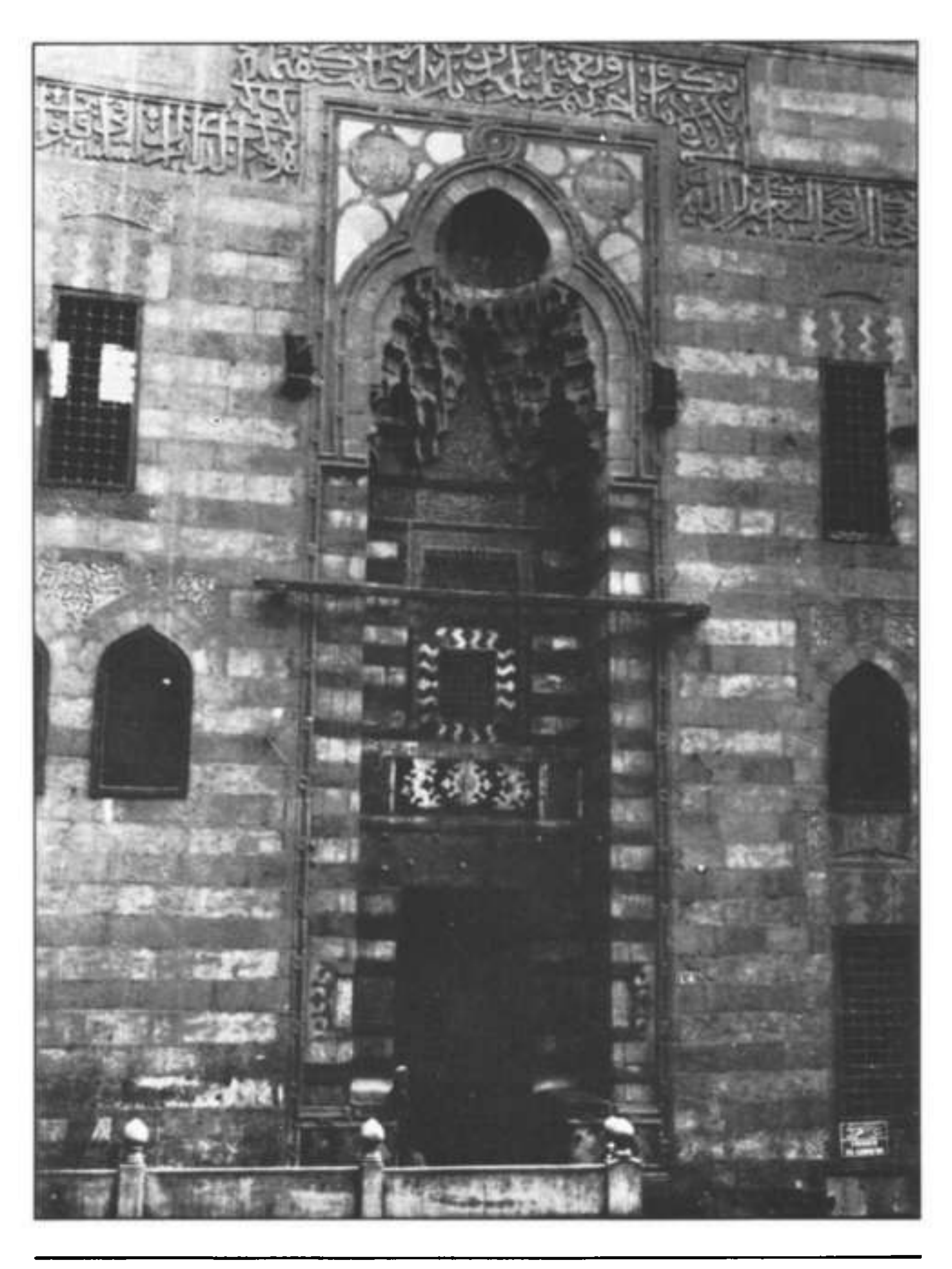
لم يكن في وسع القوة الدافعة العميقة للدولة المملوكية الاّ أن تكون امتدادًا للدولة الأيوبية، فقد كان الأمر لا يزال متعلّقًا بالذود عن الإسلام المعرض للهجوم. لكن العدو الداخلي لم يعد له وجود. انتشر التعليم السني في مصر، وأنشئت المدارس في القاهرة والاسكندرية، وقوص، بل وفي المواقع الصغيرة في الريف المصري. كانت هذه المدارس مبنية إما كمظهر للنفوذ تخدم مجد الأمراء وكبار التجار الذين أقاموها، أو كأماكن متواضعة بموارد لا تكاد تكفي لدفع أجور المعلّمين ورعاية الطلاب. كانت هذه المدارس تسهم في تكوين تلك الطبقة من رجال المعرفة والدين التي أرادها صلاح الدين. وهكذا ظهر وسط سني ذو خصوصية مصرية شارك فيه الريف بصفوته في حياة العاصمة. كان التديّن العميق المطابق بإخلاص لروح الغزالي يحرّك الحياة الروحية للعاصمة وتكوّنت الطرق الشاذلية. وبتعليم الحديث والسنة بعث التاريخ من خلال السير أو دوائر المعرفة «للادفوي»، أو «النويري»، أو «ابن عبد الظاهر»، أو «ابن الفرات» (إذا قصرنا حديثنا على المصريين). وظلّت الدوائر تستعين بالسوريين أمثال «بني فضل الله العمري» في المناصب الكبرى. لكن مؤلّفات القلقشندي قرب نهاية القرن الرابع عشر تدل على أن الأوساط المصرية كانت على استعداد لاستئناف التقليد الكبير لكتاب دواوين الخلافة العباسية. هكذا أوجد الإسلام السني قاعدته المصرية. والحق أن الطبقة العسكرية المملوكية وهي وريثة أخرى للنظام الأيوبي، لم تجد دائمًا عند هؤلاء الفقهاء والمعلّمين ورجال الدين في مصر الموافقة التامة التي كانت تتمناها في ذودها المجيد عن الإسلام. وكان يخيّل للمصريين الذين لم يحدث أن أصابتهم الهجمات المغولية مباشرة، على عكس السوريين) أن حماية المسلمين لا تبرّر ترف الأمراء والذي كان مصدره تلك الأموال التي تفرضها الطبقة العسكرية على البلاد. وكان الفقهاء يشعرون إلى حد ما أنهم ممثلون لشعب مصر في مواجهته للمماليك الغرباء، وللإدارة المالية التي لا يزال يتولّى معظمها المسيحيون. كان الأمراء الذين برزوا من صفوف الجيش أفظاظًا تغلب عليهم الوقاحة، لم يتلقّوا في المجال الديني إلاّ أعدادًا بدائيًا ويتكلّمون التركية بأسهل مما يتكلّمون العربية، فقد كانت الحرب حرفتهم. لكن عامة الناس كانوا متأثّرين بمفاخر الانتصارات الإسلامية وجمال الأبنية التي أنشأها بيبرس أو قلاوون أو الملك الناصر محمد.

---

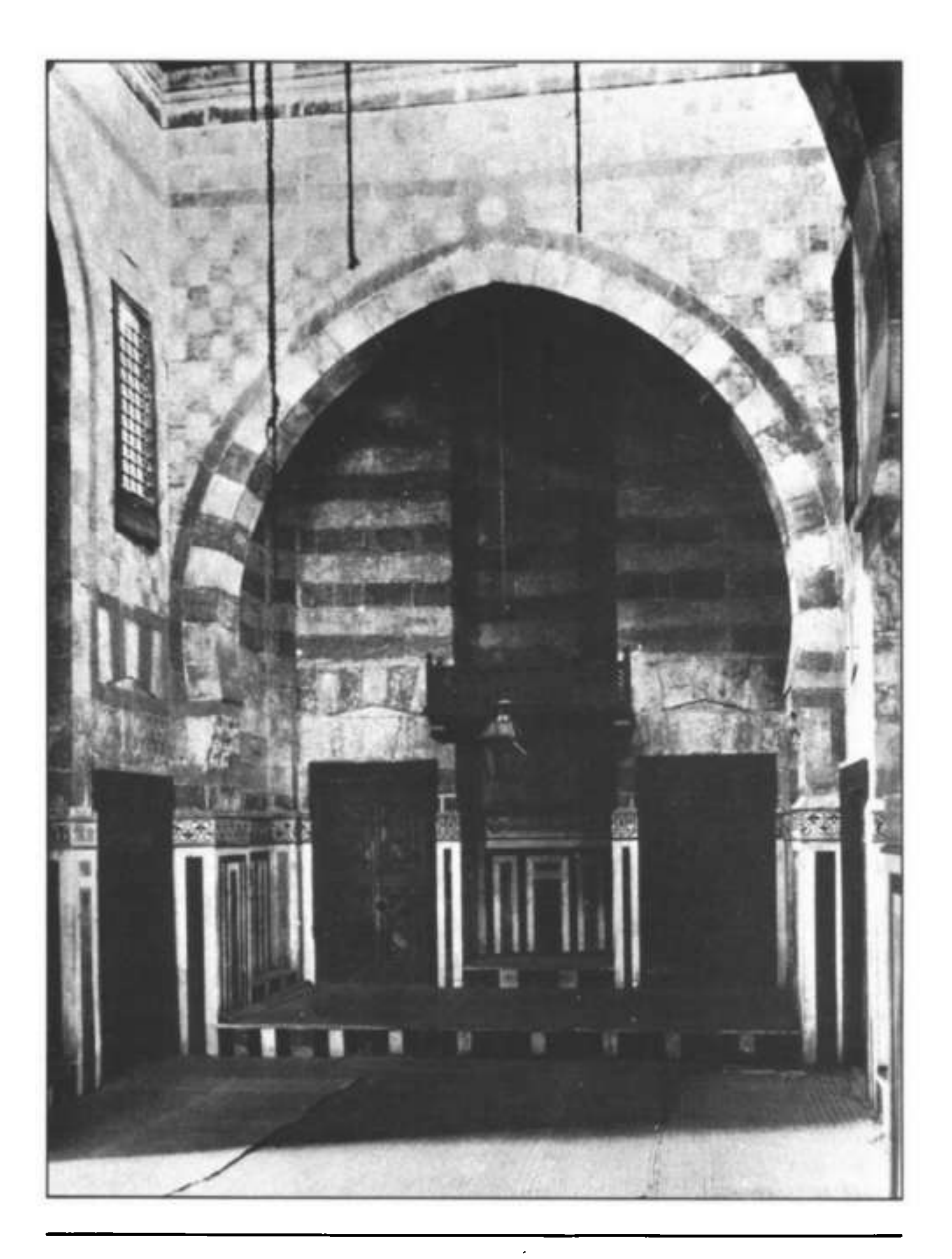
(١١) حملت كنيسة دنقلة (دنقلة العجوز) بعد تحويلها إلى مسجد، نقشًا يسجّل تاريخ هذا التحويل على وجه التحديد وهو ٢٩ مايو/أيار ١٣١٧ (الموافق ١٦ ربيع الأول عام ٧١٧ هـ). أنظر الفصل ١٦، ص ٤٠٣ – ٤٠٤ من أجل تفاصيل هذا الانتقال.



• القاهرة :
قبر قايتباي (١٤٧٢ - ١٤٧٤)
العمارة المملوكية



• الباب الكبير
لمسجد قنصوة الغوري
(بني في ١٥٠٤)



• القاهرة :
منظر داخلي لمسجد جواهر اللالا
(حبشي الأصل) ١٤٣٠

كانت أبهة السلاطين الموروثة عن أبهة الفاطميين تمس الأفئدة. وكذلك فإن الطقوس المشكوك في صحتها الدينية، لكن الملفتة للنظر، التي أتت بها طرق غريبة من أقصى الشرق بحماية الأمرا، كانت هذه الطقوس تستهوي أفئدة البسطاء. هكذا التقى إسلام العامة، وإسلام الطبقة العسكرية، باستثناء بعض الحالات القليلة، مما دعم وحدة البناء السياسي المملوكي. أولم يكن الشيء الهام هو التماسك الاجتماعي الذي يتأكّد به مجد الإسلام؟ كان هذا المجد قد تأكّد في مصر أكثر مما تأكّد في أي مكان آخر، لأن القاهرة أصبحت مقرًا لإقامة الخلافة العباسية التي عادت إلى الحكم. وكان بيبرس قد استقبل واحدًا من أسرة الخلافة هرب من المذبحة وجاء يطلب العون لاسترداد عاصمته. لكنه لم يحصل إلاّ على عون رمزي، ومات أثناء القتال، وكما حدث في القرن الحادي عشر في بغداد وقت أن كان يمارس السلطة أحد السلاطين على رأس الطبقة العسكرية لحساب الخليفة، تلقّى بيبرس من الخليفة العباسي الولاية الرسمية التي تعطي الشرعية لسلطنته. ثم كان الاعتراف بانتماء هارب آخر إلى السلالة العباسية والخلافة، لكن بعد أن تخلّى عن محاولة غير مجدية، مما جعل خليفة المسلمين يستقرّ في القاهرة (١٢٦٢)، حيث أُقيمت شعائر الصلاة باسمه. وسرعان ما نشأ الخلاف بين الخليفة والسلطان. كان الفقهاء ميّالين إلى أن يروا في الخليفة الأمير الشرعي الوحيد، لكن الخليفة العباسي عاش بلا سند، وتحت الإقامة الجبرية، وهكذا كان أيضًا خلفائه. لكن السلاطين لم يجرؤوا على التخلّص من هؤلاء الخلفاء الرمزيين الباعثين رغم ذلك على الضيق بهم، لأن وجودهم كان يذكّر الناس بأن السلطنة ليست سوى حكومة الأمر الواقع في الإسلام. كان وجود الخليفة في القاهرة يخدم مجد السلطان خارج مصر، خاص بالنسبة لمسلمي افريقيا. وأصبحت القاهرة، حيث اكتملت مجموعة «ألف ليلة وليلة»، هي بغداد الجديدة. ومن المؤكد أن هذه المدينة لم تكن عاصمة لمصر أو الأمبراطورية المملوكية فحسب، فمن سوريا، ومن كافة البلاد الإسلامية أيضًا، كانت تنتقل إلى مدارسها ثقافة، كان إسهام الأوساط المصرية فيها لا يزال في بدايته، وهو إسهام أقل ثراء بلا شك مما كان في العصور الكلاسيكية، وبوحي ثابت من السنة لكنه حريص على عدم ضياع تراث الماضي، وتصنيفه، واستيعاب ما تسمح به الروح الجديدة في الإسلام المجاهد، والاحتفاظ به في مجملات ضخمة من أفضل أمثلتها المؤلّفات التاريخية لابن خلدون الذي وصل إلى مصر عام ١٣٨٢. لكن التدريس النابغ لهذا الأرستقراطي المحافظ الذي تولّى منصب كبير القضاء المالكيين في مصر عدة مرات لم يكن سوى واحدًا من الدروس التي كانت تُلقّن آنذاك في مدارس القاهرة.

النظام السياسي المملوكي

ازدهر المجتمع الإسلامي تحت حماية المماليك الأتراك في داخل هذه المجموعة المتجدّدة على الدوام، المكوّنة من بضع عشرات الآلاف من الرجال الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن الأمبراطورية، كانت تدور اللعبة السياسية بمعنى الكلمة. قدم المماليك الأتراك خاصة من قبجاق، فقد كان تجار جنوة يأتون بهم من شواطئ البحر الأسود إلى الاسكندرية، كما كان بعض كبار التجار في المشرق الإسلامي يستقدمونهم عن طريق البر. لكن، كان يوجد بينهم هاربون لاجئون من كل أصل، منهم بعض المغول. كان تماسك هذا الوسط يقوم على استمرارية التعليم، كالتدريبات البدنية والعسكرية، ولكن أيضًا على بعض المبادئ التعليمية لكي يتحوّل هؤلاء العبيد الشبان إلى مسلمين وربما اعتقوا ذات يوم وأصبح لهم شأن كبير. واستند الإنفاق على الطبقة العسكرية دائمًا على التوزيع المتغيّر للخراج من الاقطاعيات التي تنقسم إليها البلاد فكان للسلطان حق في جزء من هذا الخراج زاده الملك الناصر محمد ليدعم سلطاته. وكان

الباقي يُمنح للأمراء، كل حسب رتبته. وكانت هذه الموارد تسهم بطريقة غير مباشرة في تطوير المدن، فقد كان المماليك يقيمون أساسًا في مدن الريف وفي العاصمة. ففي القاهرة، كانت مساكن الأمراء التي تكدّست فيها المؤن والنقود والأشياء القيمة من إنتاج الحرفيين، تضم رجالهم، المستعدّين لتلبية دعوة السلطان المقيم في قلعة صلاح الدين المشرفة على المدينة، وكان نظام الحكم يحقّق عملية انتقاء للأكفّاء لا رحمة فيها(١٧). وقد خرج كل من بيبرس وقلاوون من صفوف المماليك البحرية. وتأسيًا بالسابقة الأيوبية، حصلوا على مماليك خاصين بهم. ومنذ ذلك الحين، أصبح الهم الأول لأي أمير يصل إلى الحكم أن يكوّن لنفسه قوة تمكّنه من تحقيق سلطته فعلاً ولم يكن الجميع ينجحون في ذلك لأنه كان يمكن الإطاحة بهم قبل حصولهم على عدد كاف من الرجال. ولكن عندما ينجحون، كان الاستقرار السياسي يتحقّق وتتكوّن مجموعة جديدة من المماليك المنتسبين إلى السلطان الذي جمعهم، وتلتف حول مولاها حتى إذا مات السلطان، انتظروا أن تؤدي روابط الزمالة والكفاءة الشخصية إلى إفراز سلطان جديد من بينهم. لذلك كان كل سلطان يكوّن مجموعة جديدة عازمة على البقاء في المناصب الكبرى للدولة. وعلى مدى جيل كامل يخشى السلطان التالي بأسها على سلطاته.

في مثل هذا السياق، نفهم لماذا لم يكن استمرار الأسرة الحاكمة سوى شيء ظاهري، على الرغم من رغبة عديد من السلاطين، وعلى الرغم من أن عبارة «أسرة قلاوون» تستخدم في كثير من الأحيان للدلالة على سيطرة المماليك الأتراك بالفعل – كان قلاوون (١٢٧٩ – ١٢٩٠) أسعد حظًا من بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧)، حيث استولى من بعده على السلطة، وتمكّن من نقل الولاية إلى ابنه الملك الأشرف خليل (١٢٩٠ – ١٢٩٣) قاهر قلعة سان جان في عكا، لكن الابن لم يحتفظ بها قط. وعهد بها مرتين إلى أخيه محمد، لأن الأمراء الذين استولوا عليها أخيرًا لم يشعروا مرة تلو المرة أنهم مستعدّون بعد لفرض أنفسهم على منافسيهم. أما الفترة الثالثة والطويلة لولاية محمد (١٣١٠ – ١٣٤١) فترجع إلى جهوده الذاتية. وبعد وفاته، لم يمارس أبناؤه وأحفاده الاثنا عشر (١٣٤١ – ١٣٨٢) السلطة حقًا – إلاّ لبضعة شهور، نظرًا لصغر سنهم عندما عهد إليهم بهذه المهمة، لذلك حكم آنذاك أمراء كبار هم «قوصون»، و«طاز»، و«شيخو» الذين ظلّ مجدهم حيًا في معمار مدينة القاهرة، بفضل الأبنية التي تدل على بأسهم والتي لا نجد بالمقارنة معها سوى بناية سلطانية كبيرة هي الجامع الرائع الذي شيّده السلطان الناصر حسن (١٣٥٦ – ١٣٦٢). لم يكتب بعد تاريخ هذه الفترة، لكن هل كان احترام هؤلاء الرجال للأسرة الحاكمة هو السبب في عدم وصول أحدهم إلى السلطة، أم أنهم لم يصلوا إليها لتفكّك النظام. ولأن القوة اللازمة لنجاحهم لم تكن كافية. وعندما أصبح الأمير برقوق سلطانًا عام ١٣٨٢ استهلّ عهدًا ظل – بعد فترة توقف قصيرة – حتى نهاية القرن (١٣٩٩)، وأعاد التقاليد المملوكية الكبرى. لكن برقوق كان شركسيًا دعم قوته رباط من نوع جديد يرجع لأسباب عرقية.

مصر في نهاية القرن الخامس عشر – الاتصالات الافريقية (المماليك الشراكسة)

لا نعرف جيدًا تطوّر السلطنة المملوكية في عهدها الثاني، ذلك العهد الذي انسحب على القرن الخامس عشر أساسًا، وما زال الكثير من هذا التطوّر موضع تكهّنات وتخمين. فيُقال عادة إن عام ١٣٨٢ هو الحد الفاصل بين العهدين، حين استقرّت سلطة المماليك الشراكسة، ومن المؤكّد أن

---

(١٢) أحمد درّاج، ١٩٦١.

المعاصرين أحسّوا أن الحياة السياسية باتت تخضع لقواعد مختلفة. لكن التغيير كان أعمق من ذلك، وكان قد بدأ بالفعل قبل ذلك التاريخ، ومن ناحية أخرى، فقد اتّخذ النظام المملوكي، شكلاً جديدًا، وظهرت مصر أخرى مختلفة عن مصر العصر الوسيط بعد أن انفرجت الأزمة الخطيرة التي حلّت بالسلطنة في بداية القرن الخامس عشر.

تغييرات عميقة

تغيرت طريقة استجلاب المماليك إذن. لم تعد خانات قبجاق التي بدأت تتدهور في النصف الثاني من القرن الرابع عشر تزوّد مصر بعدد كبير منهم، وأصبحوا يجيئون من منطقة القوقاز بصفة خاصة. وهؤلاء الشراكسة الذين كانوا موجودين في الجيش المملوكي من قبل، فرضوا أنفسهم على الآخرين بفضل شعورهم بالتضامن العرقي والأسري. وأدى استبعادهم للأجناس الأخرى إلى مزيد من تقلّص الطبقة السياسية الحقيقية، أي المجموعة التي يمكن أن يختار السلاطين من بينها. وأصبحت حقوق العرق هي الطريق الموصلة إلى ذلك المنصب، شأنها شأن التدريب العسكري الشاق[١٣]. لكن بعض الحاجات الملحة لم تكن أقل دفعًا إلى شراء بعض المماليك ذوي الأصل المختلف أكثر من مرة لكنهم لم يشتركوا في اللعبة السياسية المخصّصة للشراكسة. ولأنهم كانوا جنودًا وهبوا أنفسهم للحياة العسكرية فقط، أخذ هؤلاء الجنود الجدد يقيسون تضامنهم بما يحصلون عليه من أجر. وإذا كان تكوين الطبقة العسكرية وبنيتها قد تغيرا، فإن الموارد التقليدية المستمدّة من خراج الإقطاع تغيرت أيضًا وقلت، إلى جانب أن الأوبئة بدأت تحلّ بمصر كما حلّت بأوروبا – مثل الطاعون الأسود عام ١٣٤٩ ووباء عام ١٣٧٥، وكثر ظهورها خلال القرن الخامس عشر. وألقت هذه الأوبئة عبئًا كبيرًا على المماليك (لم يكن هناك بد من استبدالهم على نحو أسرع)، لكن سكان المدن والفلاّحين المصريين كانوا يتحمّلون هم أيضًا عبئًا أكبر. هكذا انخفض بالضرورة إنتاج الأرض وبالتالي خراج الاقطاع.

تُضاف إلى هذه التغييرات المستمرة الناتجة عن مواقف كان لا بدّ للسلطة المملوكية أن تتكيّف معها، نتائج السياسة التي كان يتبعها السلاطين المماليك في صعيد مصر والتي كانت آثارها لا تقل خطورة. كانت القبائل البدوية التي سُمح لها بالاستقرار في تلك المنطقة وتوجيه حملاتها إلى الجنوب، وإلى افريقيا الوسطى (كانت قبيلة جذام تغير آنذاك على «البورنو») قد أصبحت ذات نفوذ وقوة. وبعد سنوات عشر من الاضطرابات والقمع بلا جدوى تلت موت الملك الناصر محمد، كان لا بدّ من التسليم بوجودها[١٤]. بل ان هذه القبائل أجبرت بني كنز المستقرين في النوبة على التراجع إلى أسوان ومن ثم، أصبح الطريق من عيذاب إلى قوص طريقًا غير مأمون فلم يستخدم ابتداءً من عام ١٣٦٠. وحلّت «القصير» مؤقتًا محل عيذاب، بوصفها الميناء التي تفرغ فيها التوابل. لكن في بلد لجأ أمراؤه كثيرًا إلى تعويض انخفاض مواردهم بالاغتصاب التعسّفي، كان التجار يفضّلون تأخير تفريغ شحنات سفنهم الثمينة لأطول وقت ممكن أي في أبعد مكان ممكن في اتجاه الشمال، على شاطئ شبه جزيرة سيناء، في الطور،

---

(١٣) يرجع اسم هؤلاء المماليك الشراكسة إلى أسلوب الممارسة السياسية والعسكرية للسلطان المنصور قلاوون، الذي أسكن كتيبة من مماليكه في الأبراج، ومن هنا جاء الاسم الذي أُطلق عليهم وهو اسم المماليك البرجية.

(١٤) في عام ١٣٩١ كتب ملك بورنو للسلطان برقوق رسالة شكا فيها من سوء مسلك قبيلة جذام، وقبائل عربية أخرى كانت تغير على شعبه، وتبيع رعاياه لتجار من مصر وسوريا وبلاد أخرى: أنظر: القلقشندي أحمد بن عبد الله: «صبح الأعشى في صناعة الانشاء»، ١٤ جزء، القاهرة، الجزء الأول، ص ٣٠٦، والجزء الثامن، الصفحات ١١٦ – ١١٨.

التي بدأ استخدامها من عام ١٣٨٠. وهكذا لم تعد التوابل إذن تنقل بوساطة نهر النيل، وتغير استخدام الناس للأراضي المصرية نتيجة لذلك.

وعندما وصل برقوق للحكم، لم تكن هذه التحوّلات العديدة قد تُرجمت بعد إلاّ إلى اضطراب في مسار الدولة، وفقدان للسلطة، ومشاغبات الأمراء المصابين بالفقر. فتميّز عهد الملك الظاهر برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٩) بالسمات الآتية: تحديد إطار الأقاليم بمزيد من الدقّة، استقرار البربر الهوارة في صعيد مصر بعد أن ظلّوا محصورين في غرب الدلتا، وذلك لموازنة تأثير القبائل العربية، والمزيد من استقرار السلطة وبدا حكم برقوق وكأنه امتداد لحكم كبار السلاطين الأتراك ومكمل لهم. وعادت حركة الإنشاءات السلطانية في القاهرة.

أزمة بداية القرن الخامس عشر

اندلعت الأزمة الحقيقية بعد موت السلطان. وكانت أزمة خارجية وداخلية في آن واحد، كادت تودي بالسلطنة المملوكية. في الخارج، كانت هيمنة المماليك مهدّدة في الأناضول. حيث كانت احدى الامارات التركمانية، وهي إمارة العثمانيين، قد اكتسبت بعدًا جديدًا نتيجة للحرب التي شنّتها على المسيحيين حتى منطقة البلقان (اهتمّت أوروبا بنجدة القسطنطينية منذ عام ١٣٦٦). وكانت تطالب بحقها في وراثة سلطنة السلاجقة في أرض الروم، وتحاول أن تخضع الإمارات الأخرى شيئًا فشيئًا. كما كانت القوات العثمانية قد تدخّلت لتوها في المناطق التي يحميها المماليك، وهنا ظهر فجأة خطر آخر أكثر إثارة للقلق. ففي آسيا الوسطى، أخذ تيمورلنك أحد ضباط الأمراء المغول، على عاتقه بعث الأمبراطورية الكبرى، ولكن باسم الإسلام الذي طهّره السيف. وعاود المغول تقدّمهم المروع نحو الغرب، وفي عام ١٤٠٠، هاجم تيمورلنك المماليك. ولم يلبث أن وصل إلى دمشق وأصبح من السهل عليه دخول مصر، لكن كان عليه أيضًا أن يعيد سيطرة المغول على الأناضول. ففضّل الانتهاء من هذه المهمة الثانية أولاً، فسحق العثمانيين عام ١٤٠٢. واضطرته مشكلات أخرى إلى العودة إلى آسيا. فنجت مصر مرة أخرى من الغزو، ووجدت سلطنة المماليك الفرصة مواتية لاستعادة تأثيرها على المشرق. وتحطّمت الانطلاقة العثمانية لفترة طويلة، وعادت الإمارات التركمانية في الأناضول (وكذلك إمارات أخرى نشأت مؤخّرًا في العراق) إلى منافساتها التقليدية. لكن، ما هو النفوذ الذي كان يمكن أن تطمع فيه السلطنة المملوكية؟ لقد انسحب المغول من تلقاء أنفسهم من أراضيها المخربة وأصبح الأمراء التركمانيون مدينين للغزاة باستقلالهم الذي استعادوه. نجت الأمبراطورية المملوكية إذن من الغزو بمعجزة، لكن لم تستطع أن تلعب أي دور، وكتب لعجزها أن يستمر بسبب الأحوال السيئة التي تقوّضها من الداخل.

وبعد موت السلطان اعترض مماليك برقوق، بطبيعة الحال، على نقل السلطة إلى ابنه فرج. لكن ربما لأن التضامن السياسي الذي أوجده التدريب المشترك داخل الثكنات فيما مضى لم يعد من القوة بحيث يسمح لأحد الأمراء بفرض نفسه، أو لأن الأمراء لم يتمكّنوا من ذلك. كما كان الحال قبل برقوق فقد تمزّقت الطبقة العسكرية في صراعات دامية طويلة لا طائل منها. وبلغ اضطراب النفوس حدًا جعل أولى الأمر يعهدون بالسلطنة لفترة ما إلى الخليفة العباسي، عندما فقد فرج سلطانه وحياته عام ١٤١١، وبدا النظام مترنّحًا. وأكثر من هذا، كانت المصائب التي حلّت بمصر سببًا في عدم التوصّل إلى حلّ للأزمة السياسية لفترة طويلة: مثل انخفاض فيضان النيل والمجاعة التي بدأت منذ عام ١٤٠٣، ثم الطاعون في ١٤٠٥ الذي أنقص عدد السكان وخرب المدن وشلّ حركة الدولة. وفي الصعيد، فرض البدو أنفسهم،

عربًا كانوا أم من البربر ، فكانت البلاد قد سلمت لهم فيما يبدو – بلا إشراف من القاهرة – خلال هذا العقد ، وشهدت مصر أزمة قلّما عرفت لها مثيلاً في تاريخها وبقي على الدولة المملوكية أن تتغيّر أو تزول.

مصر في مواجهة الخطر المسيحي : الصراع ضد البرتغاليين

إعادة البناء : مصر جديدة

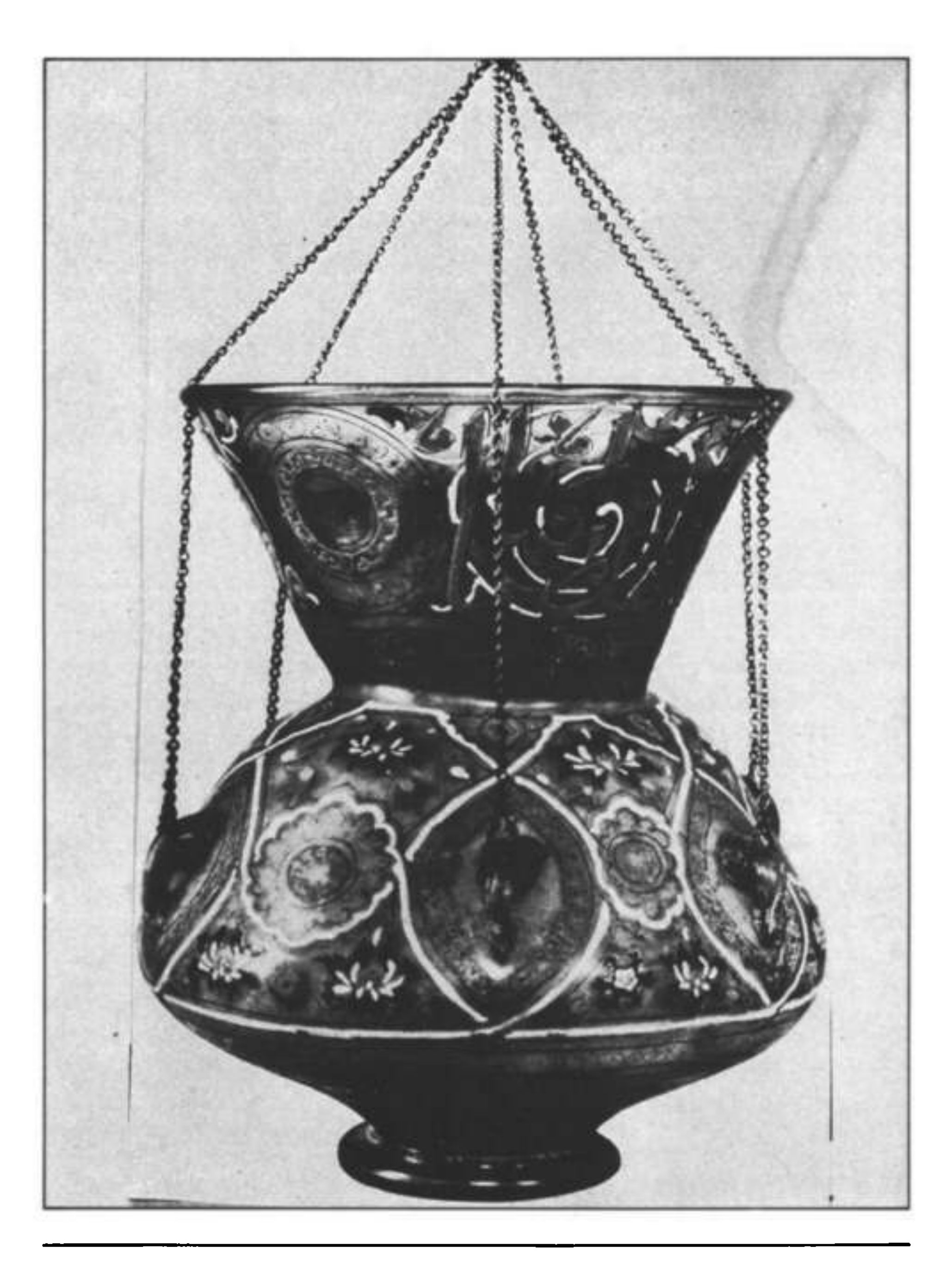
في هذه الظروف القاسية ، أخذ واحد من مماليك برقوق وهو شيخو الذي أصبح الملك المؤيّد فيما بعد (١٤١٢ – ١٤٢١) – يتحرّك في كافة المجالات ، وبأنشط صورة. وجاء بعده مملوك آخر من مماليك برقوق ، هو الملك الأشرف برسباي (١٤٢٢ – ١٤٣٨) فأكمل إعادة النظام. وسارت الإدارة بشكل أكثر انتظامًا عن ذي قبل ، وأصبح صعيد مصر مرة أخرى – بعد أن انفصلت عنه منطقة أسوان الخربة – تحت إشراف كوادر المماليك ، بفضل تعاون البربر الهوارة الذين أقاموا سلطانهم في جرجا حينما اختفت سلطة القاهرة. لكن الشيء الأساسي بالنسبة للسلطة كان إيجاد وسيلة لتعويض النقص في موارد السلطنة الناتج عن الأزمة (توالت الأوبئة حتى نهاية حكم برسباي ، ثم عادت إلى الظهور في نهاية القرن). وكان هناك مجال لا تخشى مصر فيه المنافسة ، خاصة أثناء حرب المغول ، ألا وهو تجارة التوابل. كانت البضائع الآتية من عدن تمر بمصر بأقصر الطرق من الطور إلى الاسكندرية أو رشيد أو دمياط أو تتجه إلى الموانئ السورية. وأخذ برسباي (١٤٢٥ – ١٤٢٧) على عاتقه أن يخص السلطنة بأرباح هذه التجارة. ولكن لا يفقد شيء من البضائع ، كانت تجمع في جدة ، ميناء الحجاز الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من الأمبراطورية (بل إن المعاصرين كانوا يقولون من مصر) ، حيث تحصل عليها الرسوم. أما البيع لتجار الغرب فكانت تتولاه الجهات الرسمية. وكان هذا يعني ، بطبيعة الحال ، الإضرار بمصالح أمراء اليمن الذين يسيطرون على عدن ، ومصالح التجارة الخاصة (من المشتغلين بها «الكاريمية» الذين اختفوا تدريجيًا) ، ومصالح تجار الغرب الذين كانوا يضطرون إلى الشراء بالسعر الذي يحدّده السلطان (خاصة تجار البندقية الذين كانوا يختصون بثلثي المشتريات من مصر ، خلال القرن الخامس عشر). كانت ردود الفعل عنيفة ، لكن السلطان صمد. كان عليه أيضًا أن يحمي هذه التجارة التي أصبحت من شؤون الدولة ، خاصة في البحر المتوسط ، حيث كان قراصنة جنوة وقطالونيا يمارسون نشاطهم على الشواطئ. وثار شك حول مساندة قبرص – وهي مملكة مسيحية – لهؤلاء القراصنة فأغير عليها وأسر ملكها (١٤٢٥ – ١٤٢٦). وفيما بعد ، جرت محاولات مماثلة ، وإن كانت أقل توفيقًا ، ضد رودس (١٤٤٠ – ١٤٤٤). وأعطى هذا الاحتكار لبرسباي وخلفائه الموارد التي يحتاجونها ، وللمجتمع المصري قاعدة اقتصادية مختلفة ، يمكن ملاحظتها من خلال مؤشّرات عدة.

وهكذا اكتسب السلطان قوة جديدة أمام الأمراء الذين اقتصرت مواردهم على العائد المتناقص للإقطاعات. لم تعد تعكّر صفو هذه القوة أية معارضة خطيرة ، باستثناء بعض الحالات الخاصة. وكان المجنّدون الجدد هم المصدر الوحيد للمشكلات التي تنشأ في الطبقة العسكرية. إذ كانت نزعة الجماعة الشركسية إلى التفرّد قد حوّلت هؤلاء المجنّدين إلى مرتزقة يتدرّبون بتعجّل ، جشعين ، ودائمي المطالب. هكذا تغيّر طابع السلطنة. لم يعد الأمراء رجالاً في شرخ الصبا ، يساندهم رجالهم مساندة فعّالة ، ويستولون على السلطة ، التي يستطيعون من خلالها ممارسة قدراتهم وطموحاتهم. بل كانوا ، على عكس

ذلك ، رجالاً ناضجين بل متقدّمين في السن ، يضطلعون بمهام تثقل عليهم أحيانًا ، ويسلكون مسلك الساسة أكثر مما يسلكون مسلك العسكريين. أراد هؤلاء الرجال أيضًا أن يكونوا مسلمين أتقياء ، مما قلّل التعارض بين الطبقة العسكرية ورجال الدين والعلماء. ولم تعد شرعية هؤلاء السلاطين موضع نقاش. وبالتالي لم يعد هناك أهمية لوجود الخلفاء العباسيين الذي أصبح لا يكاد يلاحظ. وفي هذه الفترة ، زاد عدد المسلمين كثيرًا في مصر بالنسبة لعدد المسيحيين ، ففي السنوات الصعبة المتمثّلة في الربع الأول من ذلك القرن ، كان العامة يميلون إلى اعتبار الأقليات مسؤولة عن آلامهم ، ومن ثم اعتنق الكثيرون الإسلام. لقد أصبحت مصر إسلامية بصورة أكثر تجانسًا في مواجهة ضغط الغرب الذي ظهر متمثّلاً في غارات شنّها القراصنة على الشواطئ (أولم يجر الحديث عن تحالف سري بين مسيحيي الغرب ونجاشي الحبشة لضرب الإسلام مرة أخرى) ، وفي وجود التجار الذين أتوا بحرية إلى القاهرة بعملاتهم الذهبية وأقمشتهم القيمة. باختصار ، يبدو أن تجديد السلطنة عن طريق استغلال أرباح التجارة الدولية استغلالاً تامًا قد أعطى المجتمع المملوكي في مصر قوة جديدة واستقرارًا وسلامًا لم يعرفها من قبل ، إلاّ أنه جعله ضعيفًا أمام الغرب – فهذا الضعف الذي كان يرى بالكاد نشأ من تبعيته في نطاق علاقات التبادل التي تربطه به.

لكن الرحّالة الغربيين الذين خاطروا وخرجوا من فنادق المدن الساحلية ، والتي تعتبر ذكرياتهم ثروة قيّمة للمؤرّخ لم يكونوا هم الأكثر عددًا في القاهرة : فالذين كانوا يأتون من افريقيا الغربية كانوا يكوّنون جالية متنقلة ، عرضة للإصابة بالأوبئة ، تستقر في الأحياء الخارجية لفترة قد تقصر أو تطول ، وأحيانًا نهائيًا ، وهي في طريقها إلى الحجاز. ويبدو أن عدد هؤلاء الحجاج الأفارقة قد زاد بصفة خاصة في منتصف القرن الخامس عشر ، وأصبح لهم «أمير حج» ، شأنهم شأن الوفود الرسمية للبلاد الأخرى المتجهة إلى الأماكن المقدّسة. هكذا أثمر المذهب السني لعلماء القاهرة والحجاز المذكورين في «تاريخ الفتاش» و«تاريخ السودان»[١٥] ، وأوجد في أفريقيا ، كما سبق أن أوجد في مصر ، دعامة اجتماعية يحسب حسابها منذئذ في الحياة السياسية للممالك الافريقية. دليل ذلك بعثات حج الأمراء الذين يمنحهم الخليفة العباسي الشرعية كما حدث للأسكيا محمد عام ١٤٩٦. أما السلاطين المماليك الذين كانوا يفرضون رسومًا عالية على الحجاج ، فقد أصبحوا حساسين للمعدن الثمين الذي يأتي به هؤلاء الحجاج. وأصبح الاتصال بافريقيا يتم أيضًا عن طريق الصعيد ، إذ أصبح الأمراء البدو ملاّكًا للأراضي ، وتجارًا كبارًا ، ومسلمين صالحين كذلك ، وزادت سيطرتهم على البلاد ، وأثروا بفضل التبادل الذي احتلّ فيه كل من تربية الخيول وبيع العبيد في القاهرة[١٦] مركزًا هامًا. لم تعد التوابل تمر اذن بمصر العليا التي أصبحت منذ ذلك الحين عالمًا مختلفًا عن الدلتا : فقد ظلّ المسيحيون فيها أكثر عددًا واستمرّ إيقاع الحياة فيها أكثر بطئًا. وبالفعل ، ازدهرت الثروة لمصر التي يحكمها الشراكسة في الدلتا خاصة ، حيث اتضح التناقض بين الحياة النشطة التي تبعثها التجارة في المدن وفقر الريف. وتعدّدت فيها الأبنية ذات الأسلوب الجديد ، وفي هذا الصدد فإن سلطنة الملك الأشرف قايتباي التي استمرّت طويلاً (١٤٦٨ – ١٤٩٦) وأضفت على القاهرة الطابع الذي احتفظت به حتى أيامنا هذه ، تمثّل ذروة هذا الجهد : لقد كانت النتيجة الرائعة لجهود الشراكسة.

(١٥) محمود الكعتي (قبل ١٥٩٣) ترجمة فرنسية ، ١٩١٣ – ١٩١٤ ، السعدي (١٦٥٦) ترجمة فرنسية ، ١٩٦٤.
(١٦) أنظر م. الكعتي ، ترجمة فرنسية و. هوداس و م. ديلافوس ، ١٩١٣ ، باريس. وكذلك العمري ، ترجمة ج. ديمومبين ، ١٩٢٧.



• قنديل مصري
من الزجاج المطلي بالميناء
(عصر المماليك)

ولا شك أن سنوات ١٤٨٠ تعد منعطفًا في تاريخ السلطنة وتاريخ مصر على السواء إذ بدأت الصعوبات الخارجية تهدّد هذه النهضة التي استمرّت فترة طويلة. وعلى الرغم من الظروف القاسية التي مرت به ، كان القرن الخامس عشر المصري فترة لا ينقصها المظهر المتميّز ولا الأصالة بل كان فترة ظلّ إشعاع مصر خلالها باقيًا ، في تنظيم دولتها وازدهار ثقافتها. ومرت مدرسة التاريخ المصري آنذاك بأجمل فترات ازدهارها ابتداءً من المقريزي الذي شهد بداية ذلك القرن القائمة ، والعيني ، وابن حجر العسقلاني ، وابن التغري بردى ، والسخاوي ، وهم من المصريين وأبناء المماليك المختلطين بالمصريين ، وانتهاءً بكتاب الحوليات الذين كتبوا عن الصعوبات القادمة ، ومن بينهم ابن اياس ، والسيوطي الذي كان يفتخر بامتداد شهرته حتى تكرور.

سياق دولي جديد

ظلّ توازن القوى في الشرق في صالح الشراكسة فترة طويلة. فقد تخلّى التيموريون (خلفاء تيمورلنك) – وهم أمراء مسالمون يحبون الفنون ويسكنون ايران وآسيا الوسطى – تخلّوا حقًا عن الميل للحرب. وعندما عادت الجماعات التركمانية إلى الانقسام السياسي تمكّنت الدولة المملوكية التي أُعيد تنظيمها من العودة إلى سياستها التقليدية سياسة التدخّل في الأناضول ، بدون أن تتعرّض لأي خطر كبير ، وعاد السلاطين من جديد إلى فرض حمايتهم على حكام معيّنين. وكان لا بدّ من مراقبة هذا العالم التركماني المضطرب. ورأى التيموريون حدود دولتهم تتراجع أمام ضغط التركمانيين في العراق ، ولم يكف السلاطين عن إظهار يقظتهم للصراعات المتعدّدة ، ووعوا – فيما يبدو – حدود قوتهم التي كشفت عنها بعض الأحداث الصغيرة. ولرغبتها في السيطرة على التطور السياسي لهؤلاء القادمين الجدد إلى الإسلام ، الذين شعر المماليك بشيء من التعاطف معهم ، لعبت سلطنة القاهرة دورها كقوة عظمى. لكنها ، في سعيها إلى بعض النتائج غير المؤكّدة داخل المجتمع التركماني المتنقّل والباحث عن الوحدة ، فإنها جرت على مصر ، وبالتالي على شمال افريقيا ، سيطرة جماعة عرقية لم تكن تبحث أصلاً عن مساحة بمثل هذا الاتساع لتستقر فيها.

ولم يعد العثمانيون ، المهزومون والمنقسمون ، بناء قواهم في بادئ الأمر إلاّ بكثير من الحذر. ولم تستأنف الاندفاعة العثمانية إلاّ في عهد محمد الثاني (١٤٥١ – ١٤٨١) واحتفلت القاهرة بسقوط القسطنطينية (١٤٥٣) ، لكن هذا السقوط أعطى الدولة التي كانت في حالة توسّع ، رونق بطل الإسلام ، وكان ذلك مثارًا للضيق. هذا في الأثناء التي كان التركمانيون الذين تحت حماية المماليك في الأناضول يجعلون فيها من قضيتهم قضية خاسرة بالتحالف مع الغرب هربًا من ابتلاع العثمانيين لهم. ووقع الصدام الحتمي بين المماليك والعثمانيين في عهد قايتباي : فكانت مواجهة أولى (١٤٦٨ – ١٤٧٢) غير مباشرة (انتهت بنجاح نتيجة لتدخل التركمانيين العراقيين الذين اضطر العثمانيون إلى تجميع قواهم ضدهم) ، تلتها حرب معلنة بين السلطنتين (١٤٨٣ – ١٤٩١). وهكذا توقّف تقدّم العثمانيين مرة أخرى ، نتيجة لانتصار المماليك الذي تمّ إحرازه لصعوبة بالغة على حساب الاستقرار الداخلي للدولة. فنقل العثمانيون كل جهودهم إلى البحر المتوسط ، في حرب مقدّسة ضد الغربيين (الذين تعلّموا منهم استخدام الأسلحة النارية). لكن العالم التركماني ظلّ مضطربًا ، فقد كان في حالة غليان بسبب حركة

الشيعة الصفويين التي جمعت الإيرانيين والتركمانيين في دولة ايرانية شيعية المذهب رسميًا لأول مرة هدّدت منافسيها العثمانيين السنيين. ولكي يستغلوا هذا الموقف الذي كاد أن يصبح خطيرًا بنفس قدر كونه مواتيًا، كان على السلاطين المماليك إثبات بعد نظرهم وبصفة خاصة امتلاك قوة تبيّن فجأة افتقارهم إليها، بعد أن هزّتها الحرب.

عندئذ، هدّد انتشار البرتغاليين في المحيط الهندي – الذي أثّر على تجارة البندقية وعلى موارد الدولة المملوكية التي تعتمد عليها في آن واحد – الأسس الاقتصادية التي شيد عليها البناء السياسي للشراكسة. لقد أصبح وجود البرتغاليين محسوسًا بعد رحلة فاسكو دي غاما عام ١٤٩٨. كانوا يشترون التوابل، ويضربون حصارًا حول البحر الأحمر، ويلتفّون في الوقت ذاته حول أفريقيا والإسلام، أوضحت الضربات التي وجّهوها إلى القوة المملوكية وحدة المصير بين هذه الأخيرة وبين القارة الافريقية. وكانت محاولة للردّ، قام بها آخر السلاطين الشراكسة الكبار الملك الأشرف قنصوة الغوري (١٥٠١ – ١٥١٦). وساعده العثمانيون على تكوين أسطول، ساعين بذلك إلى لعب دورهم كحام لحمى الإسلام، ونتيجة للخطر الذي كان يتهدّد بلاد الحجاز. لكن بعد هزيمة الأسطول المصري في ديو، على ساحل الهند الغربي (١٥٠٩)، لم تجد أمبراطورية المماليك أفضل من أن تسيطر على البحر الأحمر سيطرة تامة. وكان يمكن أن يحوّل هذا العجز دون أي موقف استفزازي في الشرق، حيث كان الموقف يتطوّر سريعًا.

وبالفعل، وضع الصفويون الذين يشجعهم الغرب، العثمانيين في موقف صعب. وعندما أراد سليم، السلطان العثماني الجديد، أن يردّ عليهم، في فورة قوة لم يجد إلى جواره المماليك الذي كان يساعدهم في منطقة البحر الأحمر: ففي القاهرة، كانت ردود فعل السياسة التركمانية القديمة قد تغلّبت على وضوح البصيرة لذا، خاض سليم المعركة وحده والتي (بفضل الأسلحة النارية العثمانية) قصرت انتشار المذهب الشيعي على ايران نهائيًا (١٥١٤). ثم أراد أن يضع حدًا للأثر الضار الناتج عن رغبة المماليك في عدم التخلّي عن سياستهم في العالم التركماني، على الرغم من عجزهم عن حماية الإسلام. وتقرّر مصير أمبراطورية المماليك شمالي حلب في معركة واحدة (مرج دابق، ٢٤ أغسطس ١٥١٦)، حيث تغلّبت فيها الأسلحة النارية على الفرسان الشراكسة الذين كانوا يحتقرون هذه الأسلحة. وكان موت السلطان المملوكي العجوز أثناء القتال، وتدبير المؤامرات داخل الطبقة العسكرية، ومكانة حامي الإسلام السني الجديد، ولا مبالاة المصريين، كل هذه العوامل حوّلت ما كان في بادئ الأمر تصفية حساب محدودة إلى نصر كامل ميسور.

خاتمة

عندما امتدّت سيطرة العثمانيين إلى مصر عام ١٥١٧، انهارت سلطة سياسية بأكملها: كانت هذه السلطة قد أصبحت ملكًا لطبقة سياسية محدودة لا تتجدّد على نحو كاف وفقدت أسباب وجودها والشرعية التي كان يضفيها عليها دفاعها الفعّال عن الإسلام. وأقيم حاكم عثماني في القاهرة، وتأكّدت سلطة أمير بدوي في جرجا. وأضفى على الفارق بين مصر الساحلية ومصر الداخلية وهو الفارق الذي استمر طابعًا رسميًا. لكن الأبنية الاجتماعية لم تتغيّر في شيء، وظلّت باقية مدة طويلة. هكذا استمرّ المجتمع المملوكي بعد زوال دولته كأثر لمشروع سياسي وثقافي كان له مبرّر وجوده، واحتلّ مكانًا مرموقًا في تاريخ الإسلام وافريقيا.

الفصل السادس عشر

النوبة من نهاية القرن الثاني عشر حتى فتح الفونج في بداية القرن السادس عشر

بقلم ل. كروباتشيك

أفول وزوال الدول المسيحية في النوبة

في تاريخ العالم أمثلة قليلة لاتفاقيات دولية تمّ الحفاظ عليها طويلاً مثلما حدث بالنسبة للبقط الذي اعتُبر على مدى ستة قرون الأساس القانوني للعلاقات السلمية بين مصر المسلمة والنوبة المسيحية[1]. فعلى الرغم من الضربات الصغيرة المفاجئة وعمليات الانتقام العرضية، فقد احترمت الهدنة وتمّ الوفاء بالالتزامات المتبادلة بما في ذلك عمليات التوريد المتفق عليها، وجرى ذلك بطريقة لم تترك من الناحية المبدئية، مجالاً للشك في سريان هذه الاتفاقيات. لقد كان البقط بكل التعديلات التي أُدخلت عليه وعمليات التجميد المؤقتة، صيغة مريحة للترابط الاقتصادي.

وفي عهد الفاطميين، يبدو أن العلاقات بين مصر والنوبة حقّقت على خير وجه الهدف المرجو وهو حسن الجوار ونوع من التعاون. وكان هذا الهدف يخدم مصالح الفاطميين الذين كانوا في حاجة إلى عبيد لجيوشهم وإلى السلام على حدودهم الجنوبية، ويخدم في الوقت نفسه مصالح النوبة التي بلغت ذروة قوتها السياسية وتطوّرها الثقافي. وقد تميّزت فترتا الأيوبيين (١١٧١ – ١٢٥٠) والمماليك (١٢٥٠ – ١٥١٧) اللتان تتفقان مع الفترة موضوع هذا الفصل، بتدهور تدريجي في علاقات مصر بالنوبة. وظهر أن العنصر الشمالي، بأوسع معانيه، كان هو العامل الحاسم في نهاية المطاف في انهيار النوبة. ونستطيع أن نميّز عمليتين متوافقتين: فمن جانب ضغط الحكام المصريين على السلطة النوبية الآفلة، ومن جانب آخر التسلل المتزايد للعرب البدو وتأثيرهم الهدّام على البنية الاجتماعية للنوبة.

(١) فيما يتعلّق بالجوانب القانونية للبقط، أنظر «دائرة المعارف الإسلامية»، الطبعة الثانية، مجلد ١، ص ٩٩٦.

وتنبع كل معلوماتنا تقريبًا عن التاريخ السياسي للنوبة المسيحية عن مصادر مكتوبة بالعربية ذات أصل مصري[٢] . أما المصادر المحلية الخاصة بنهاية العصر المسيحي فنادرة وقليلة الدلالة . ومع ذلك فقد تدعّمت قيمة الشواهد الأثرية في الستينات بفضل برامج الإنقاذ التي جعل إنشاء السدّ العالي بأسوان ، القيام بها أمرًا ضروريًا . وأدّت الحملة التي نُظّمت في النوبة السفلى إلى القيام بفحص مدقق لمواقع لم تكن لتلفت النظر في ظروف أخرى ، بصفتها آثارًا محلية متواضعة ، أدّت أيضًا إلى الحصول على نتائج دفعت إلى الأمام تفسير تاريخ النوبة بدرجة كبيرة بالتركيز على تطوراته الداخلية[٣] .

ووفق المصادر العربية ، ظلّت الجغرافية السياسية للنوبة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مشابهة لتلك التي وصفتها وثائق أقدم ، فقد كان من الممكن تمييز مملكتين متاخمتين للنهر : المقرّه (ماكورية باليونانية القبطية) والتي كانت عاصمتها في دنقلة (دنجلة القديمة) وعلوة (الوديا) . وكانت الحدود الفاصلة بين هاتين المملكتين توجد بين الشلالين الخامس والسادس . وكان الموقع المتقدّم لعلوة في أقصى الشمال يُطلق عليه غالبًا « الأبواب » (حاليًا كبوشيه) . وكانت ولاية العرش في المملكتين محكومة في الأساس بمبدأ خط النسب الأموي ، الذي ينص على حق الوراثة لصالح ابن أخت العاهل السابق . وإلى حد كبير ، كانت المؤسسات الاجتماعية والسياسية للنوبة ذات طابع عرقي في الأساس ويبدو أن هذا أمر أُسيء فهمه بصفة عامة من قبل المصادر المتوافرة لدينا والتفسيرات التي قدّمت لها .

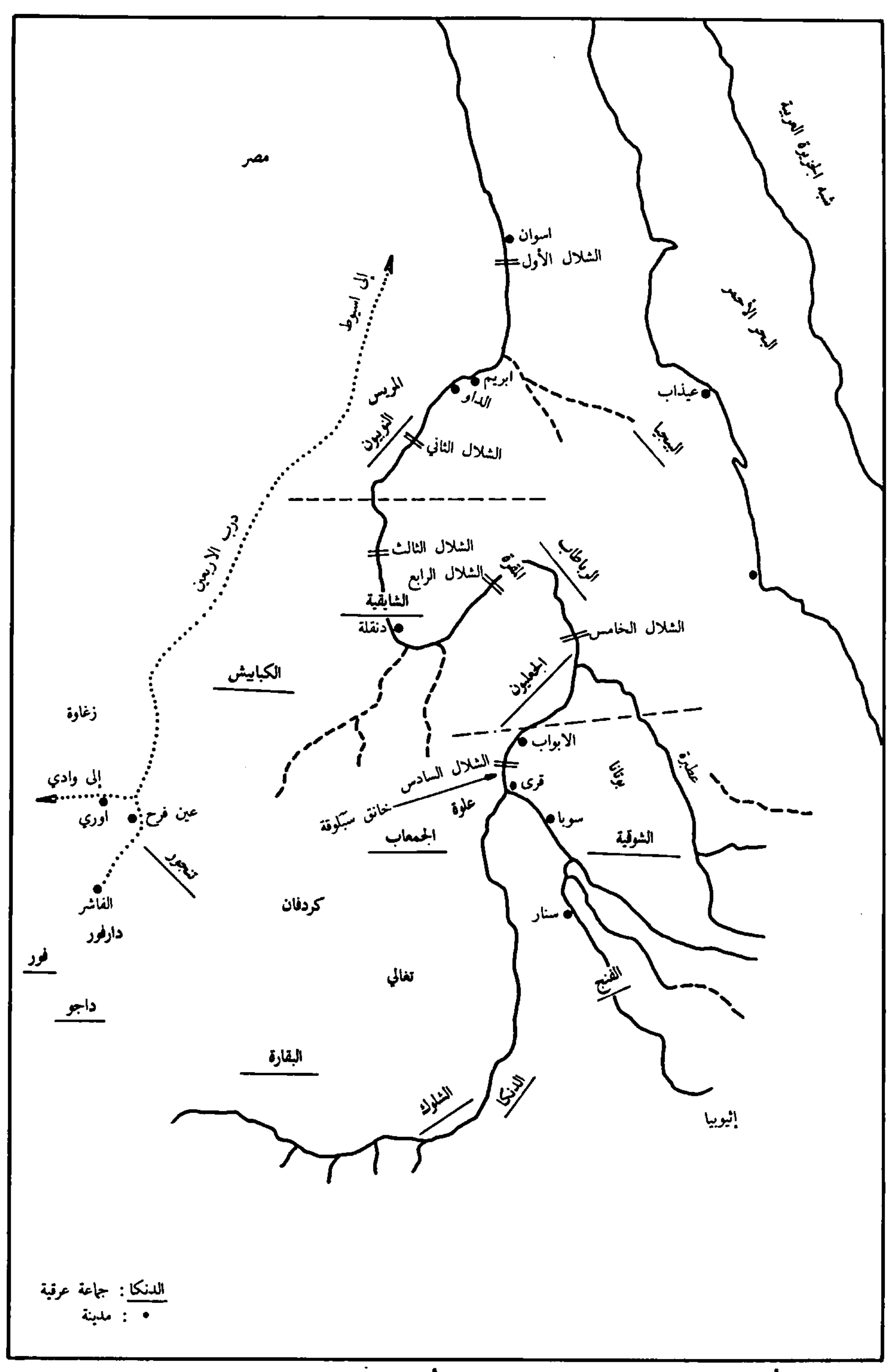
المقرة

كما أشرنا من قبل ، فإن لدينا مبرّرات كافية للاعتقاد بأن العلاقات بين الحكام الفاطميين في مصر وبين حكام النوبة كانت ودّية إلى حد ما . ويوجد قدر كاف من الدلائل ، ذات الأصل الوثائقي أو المادي ، التي تبيّن أن التجارة بين مصر والنوبة كانت مزدهرة في ذلك العصر . ولنأخذ مثالاً واحدًا على ذلك ، إذ تكشف دراسة الفخاريات التي تمّ القيام بها ، عن تبادل الأشخاص وكذلك عن تأثير الفنون الفاطمية على الأشياء المصنوعة في النوبة . وكانت التوريدات المتبادلة الناتجة عن نظام البقط ، الذي يحتمل أنه اتخذ شكله التقليدي في هذه الفترة ، رمزًا للمزايا المتبادلة للأمن والتجارة . ولم يكن اختلاف الدين ليبدو كعقبة أساسية . وتذكر المصادر العربية العلاقات الطيبة بين بطريركية الاسكندرية وبين ملك النوبة الذي كان حاميًا لها ، كما تذكر الجزاء العادل للوشايات المعادية للنوبة والمتعلّقة بإجراءات مزعومة معادية للمسلمين ، وكذلك الاستقبال وكرم الوفادة الحارين اللذين لقيهما سليمان ملك النوبة السابق ، في القاهرة في ١٠٧٩ .

ويمكن تفسير الروح الطيبة للفاطميين تجاه جيرانهم في الجنوب بشعورهم بعزلة النظام الشيعي في العالم الإسلامي ، وعلى الجانب النوبي ، يبدو أن هذه الروح الطيبة قوبلت بالمعونة المباشرة . فالواقع أن الهجمات النوبية على الديار المصرية في القرن العاشر قد تواكبت مع حملة الفتح الفاطمي على نفس الديار ، ولم تُستأنف إلاّ بعد أن أطاح الأيوبيون بنظام الحكم الصديق . وأظهر النوبيون أيضًا أنهم متعاونون للغاية

(٢) إن المصادر العربية المستخدمة هنا هي عمليًا نفسها التي استغلّها وحلّلها ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ .

(٣) أنظر بصفة خاصة ب. ل. شيني ، «مجلة تاريخ افريقيا» ، مجلد ٦ ، عدد ٣ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦٣ – ٢٧٣ ؛ و. ي. آدامز ، في *SNR* ، مجلّد ٤٨ ، ١٩٦٧ ، ص ١–٣٢ ، وفي *JEA* ، ١٩٦٦ ، مجلّد ٥٢ ، ص ١٤٧–١٦٢ .



• النوبة من أواخر القرن الثاني عشر الى غزو الفونج في أوائل القرن السادس عشر (ل. كروباتشيك)

عندما أعادوا إلى المصريين العبيد الآبقين والهاربين السياسيين. ومن جديد، فإن أحكام البقط في هذا الصدد تعكس مواثيق العصر الفاطمي.

لقد كانت القوات السوداء ذات الأصل السوداني عنصرًا أساسيًا في القوة العسكرية للفاطميين، وكان هؤلاء يجيئون في الجزء الأكبر منهم من المقرّة وعلوة. وبعد أن لعب هؤلاء دورًا أساسيًا يرجع بصفة خاصة إلى المحاباة التي أبدتها تجاههم أم الخليفة المستنصر، وهي من جنس أسود، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ردّهم منافسوهم الترك والبربر بأعداد كبيرة تجاه صعيد مصر حيث دخلوا بعد ذلك من جديد في منازعات سياسية مع أعدائهم السياسيين. ومع ذلك ظلّت القوات السوداء، من أنصار النظام الفاطمي، وأبدت في السنوات الأخيرة مقاومة ضارية لتولّي الأيوبيين الحكم.

وقد تكشف أن القوات العربية التي كان لا بدّ وأن تصبح في أعقاب ذلك مصدرًا جادًا للمتاعب قوات لا تلين وتمرّدت في أحوال كثيرة. ووفق كل الظواهر، فقد استطاع البعض منهم الهرب من عمليات القمع بالنزول نحو الجنوب بدون أن تتّخذ أعدادهم أو مسلكهم اللاحق أبعادًا تنذر بالخطر. وفي موقفهم تجاه العرب، اشتهر الفاطميون بحلّهم العبقري لمشكلة بني هلال، الذين أرسلوهم إلى الغرب، لشمال افريقيا. وعلى الحدود الجنوبية، كان عليهم أن يقمعوا بني كنز المتطلعين للاستقلال وقامت حملة تأديبية في ١١٠٢ – ١١٠٣، وسلم ملك النوبة «كَنْز الدولة» المتمرّد الذي لجأ إلى المقرة، وأعاده إلى المصريين. ثم عسكرت القوات في أسوان لحماية الحدود التي لم يضطرب سلامها رغم ذلك، بطريقة تستحق الاهتمام حتى تمت الإطاحة بالفاطميين. ومن جانب آخر، لم تجد الحوليات العربية شيئًا يستحق أن تورده عن العلاقات المصرية النوبية خلال السبعين عامًا الأخيرة من الحكم الفاطمي، ويمكن الاعتقاد بأن ذلك يؤكّد وجود وضع يتسم بالتعايش والتبادل السلميين.

فقد استمرّت التجارة بلا عوائق. وبمقتضى البقط، كان من المعتاد التصريح بتنقّل التجار المسلمين وتوفير الحماية لهم في حين أن الإقامة لم يكن يُسمح بها عادةً إلاّ على أطراف الحدود الشمالية. وبمرور الوقت، ومثلما حدث في السودان الغربي، فتحت التجارة الطريق لنشر الإسلام – فقد جمع التجار، وهم في حالة حركة دائمة معلومات عن البلاد انتقلت بعد ذلك إلى من كان يعنيهم الأمر. وبفضل حماسهم كأفراد قام التجار بجهد من أجل نشر الإسلام يزيد كثيرًا عما فعله الدعاة الرسميون الذين كلّفهم الفاطميون بنشر العقيدة الشيعية. وفي منطقة النيل، اقتصر مجال عمل هؤلاء على عيذاب، في حين قام التجار بغالبية الجهود التبشيرية على نحو تلقائي متحفّظ.

وعلى النقيض من ذلك، بدأ تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة في عهد الأيوبيين في ١١٧٢ بهجوم نوبي رده الجيش الأيوبي بقيادة توران شاه شقيق صلاح الدين، وذلك بهجوم مضاد توج بالاستيلاء على قصر ابريم واحتلالها مؤقتًا. ولقد قيل أن المبادرة بإعلان الحرب التي قام بها النوبيون ربما كانت نتيجة لتحالف قائم بين الفاطميين – والنوبيين[٤]. وبعد ذلك بوقت قليل، ضرب الجيش الأيوبي بني كَنْز العرب المتمرّدين وأجبرهم على الانسحاب من أسوان تجاه المريس، الجانب الشمالي من المقره – وهناك شواهد كثيرة على انتشار العروبة والإسلام تدريجيًا في هذه المنطقة بين القرنين التاسع والثاني عشر. وببساطة يعد وجود بني كنز (وكانوا هم أنفسهم من أصل عربي – نوبي) بين النوبيين وتزاوجهم معهم دليلاً هامًا على هذه العملية المزدوجة.

وتطوّر انتقال القبائل العربية القادمة من مصر نحو الجنوب على نطاق لم يسبق له مثيل، وكان الضغط

(٤) ب. ل. شيني، ١٩٧١، ص ٤٦.

الشديد الذي تمّت ممارسته على القبائل العربية البدوية وشبه البدوية ، في عهد الأيوبيين وبصورة أكبر في عهد المماليك ، سببًا في مصادمات خطيرة . وقد شهدت السنوات ١٣٠٢ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٣ ، ١٣٧٨ ، ١٣٩٥ ، أهم حملات تأديبية للقوات المملوكية ضد المتمرّدين « العربان » أو البدو ، كما أصبح من المعتاد تسميتهم . وكان اللجوء إلى السودان هو الطريق الوحيد للهروب من مطاردة بلا رحمة . كما أن مخاطر أخرى كالمجاعة وأوبئة الطاعون دفعتهم في نفس الاتجاه . كما اقترب البدو النهابون بأعداد متزايدة عبر الصحراء إلى النوبة الواقعة على ضفة النهر ، وكانوا عناصر مدمّرة ، تتقدّم عبر المناطق المأهولة ، وقاموا بعمليات السلب وأثاروا المعارك مع المؤسسات المحلية والسلطة القائمة ، وتقاتلوا في الوقت نفسه مع بعضهم البعض . لقد كانوا يعتبرون خطرًا جديًّا في مصر كما في النوبة .

وفي هذا الإطار يجب النظر إلى تاريخ العلاقات بين النوبة وبين مصر المماليك . لقد بدت المقرة ، التي تعرّضت لعمليات أضرار بأموالها ، وفقدت تدريجيًا تلاحمها الداخلي ، عاجزة أكثر فأكثر عن القيام بدورها كجار متعاون يكفل السلام على الحدود الجنوبية ، وكثف المماليك بدورهم سياسة تهدف إلى تحويل المقرة إلى مملكة تابعة . وقد سهل تدخّلاتهم ، الانقسام داخل الأسرة الحاكمة ، الذي اكتسب فيما بعد بعدًا جديدًا مع اعتناق بعض أعضائها الإسلام .

ويبدو معقولاً افتراض أن انتهاج السلطان بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) لسياسة التدخّل النشيط في الشؤون النوبية ، كان سببه إلى حد كبير اعتبارات أمن مصر . كما قيل أن الكمية الكبيرة من الغنائم التي جلبتها الحملات على النوبة والحملات التي وُجِّهت ضد العربان في صعيد مصر ، يمكن أن تشير إلى وجود دافع اقتصادي وراء هذه الحملات المتكرّرة[٥] . وقد ذكر كتّاب الحوليات المعاصرون انفتاحًا دبلوماسيًا كان من نتيجته أن طالب السلطان باستئناف التوريدات التي ينص عليها البقط – والتي توقّفت منذ تاريخ غير محدود . وعلى النقيض من ذلك ، استأنف داوود ملك النوبة عددًا من الهجمات على الأراضي المصرية تُوِّجت في ١٤٧٢ بالاستيلاء على عيذاب ، وهي ميناء على البحر الأحمر له أهمية فائقة بالنسبة للتجارة المصرية . ولقد قيل إن هدف هذا العمل كان مساعدة الصليبيين لكن لا شيء يؤكّد هذا الادّعاء ، إن الدوافع الأكثر احتمالاً هي الإمكانية المباشرة للحصول على الغنائم والانتقام من سيطرة المماليك على سواكن قبل ذلك ببضع سنوات . ومع ذلك فإن تزامن حملات المماليك ضد سوريا والنوبة أمر يستحق الملاحظة .

وفي ١٢٧٦ أرسل بيبرس حملة تأديبية هامة هزمت داوود ، وأعطت عرش المقرة إلى ابن عمه ومنافسه ، والذي تذكره المصادر باسم شاكاندا أو ماشكاد . وللإعراب عن عرفانه للمماليك قبل شاكاندا ، مقسمًا بقسم مسيحي مغلظ ، عددًا معينًا من الالتزامات ، استبدلت عمليًا البقط التقليدي بحاله تبعية حقيقية[٦] فقد وعد شاكاندا ، الذي سمى نفسه نائبًا ، أي ممثلاً للسلطان ، بدفع جزية سنوية تمثّل نصف دخل البلاد وعددًا من الماشية من السودان . ووضعت مريس (أو على الأرجح دخولها) تحت إشراف السلطان المباشر . وكان على النوبيين الذين لم يقرّروا اعتناق الإسلام دفع ضريبة سنوية على الفرد (جزية) وكان يتوجّب تسليم العرب البدو الباحثين عن ملجأ في النوبة . وزيادة على ذلك فإن سياسة شاكاندا كان يتعيّن أن تخضع لموافقة السلطان عليها .

(٥) أنظر ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ١١٤ .

(٦) أورد ي. ف. حسن ، (١٩٦٧ ، ص ١٠٩) النص الكامل للاتفاق ، كما كتبه النويري ، وحفظ في «كتاب السلوك» للمقريزي ، أنظر أيضًا ج. س. تريمنجهام ، ١٩٤٩ ، ص ٦٩ .

وبالإضافة إلى الشروط السياسية والاقتصادية المهينة في الاتفاق ، كان على النوبة أن تتحمّل عملية هائلة لمواردها البشرية ، حتى لو كان رقم الـ ١٠٠٠٠ أسير الذين نُقلوا كما أوردت المصادر التاريخية إلى مصر كعبيد ، رقمًا مبالغًا فيه بالتأكيد. ومما له دلالته من الناحية السياسية أن هؤلاء الأسرى كانوا يضمون بينهم رهائن أخذوا من الأسرة المالكة والملك السابق داوود الذي سلّمه عاهل الأبواب ، عندما سعى إليه طالبًا اللجوء. وتشهد المراسلات بين بيبرس و«يكونو أملك» على قلق العاهل الأثيوبي على مصير الملك الأسير.

وبعد أن تحوّلت المقرة إلى دولة تابعة لدولة قوية لم تستطع أن تعيد نظامها الداخلي ، ومن ثم نظمت بعض الحملات التأديبية ضدها. وفي نهاية المطاف كان لا بدّ أن يتضح أن السياسة الفظّة للتدّخلات المتكرّرة ليست بعيدة النظر إذا ما أُريد للنوبة أن تواصل القيام بدور الدولة التي تصدّ غارات البدو السلابين. فقد نهب المماليك البلاد وفرغوها من سكانها ، وبذا ضعفت قدرات دولة النهر على مقاومة البدو إلى حد العجز الكامل. واستفاد من هذا عرب كثيرون وانضمّوا إلى جيوش المماليك بحثًا عن الغنائم وعن حياة أيسر خارج مصر. وقد قدر ابن الفرات عددهم بـ ٤٠٠٠٠ في ١٢٨٩ ، ويتضّمن هذا الرقم بالتأكيد الرجال وباقي القبيلة في الوقت نفسه[7] . وقد ساند بنو كَنْز حملات المماليك منذ البداية.

لقد كان الملك شمامون عدوًا لدودًا للمماليك. ورغم أنه هُزم مرتين ، فقد هاجم الحامية المملوكية التي تركت في دنقله وقُتل قائدها والخونة في الوقت نفسه. وفي ١٢٩٠ كتب إلى السلطان قلاوون طالبًا عفوه وعارضًا أن يدفع بقطًا أكبر. ووافق السلطان على هذا الوضع ، لأنه على ما يبدو كان من جانب آخر مشغولاً بمحاربة البقايا الأخيرة للصليبيين.

وعندئذٍ أصبحت النوبة بمنأى عن الحملات العسكرية خلال عقد بأكمله. وفي ١٣٠٥ أرسلت حملة أخرى من القاهرة بطلب من الملك «أَمّي» الذي طلب العون في أعقاب اضطرابات داخلية ، وبعد ذلك رفض كرنباس ، خليفة أَمّي ، دفع الجزية المتفق عليها أو عجز عن دفعها فأرسلت حملة تأديبية وأرسل معها مطالب جديد بالعرش ليحلّ محل الملك العاصي. ولأول مرة كان هذا المُطالب بالعرش المعيّن مسلمًا ، ابن أخ الملك داوود ، الذي تسميه المصادر التاريخية سيف الدين عبد الله بارشامبو (أو سانبو). وردّ كرنباس على ذلك مقترحًا مرشّحًا مسلمًا آخر هو كَنْز الدولة (أي زعيم بني كنز) شجاع الدين ، والذي كان أحق في رأيه بالخلافة حيث أنه كان ابن اخته.

وميز اعتلاء سانبو العرش في دنقلة بداية الاعتناق الرسمي للإسلام في المقرة واحتفل بهذا الحدث بوضع لوحة باللغة العربية تعلن تحويل الكاتدرائية القديمة ذات الطابقين الموجودة في دنقلة إلى مسجد افتتحه سيف الدين عبد الله الناصر في ١٦ ربيع أول ٧١٧ (٢٩ مايو ١٣١٧). ومع ذلك فقد كانت مدة حكم هذا العاهل المفروض ، قصيرة. فقد استطاع كنز الدولة أن يكفل لنفسه تأييدًا شعبيًا بين النوبيين وبين القبائل العربية ومن ثم استطاع أن يحارب خصمه ، القريب البعيد المرسل من القاهرة ، ويقتله.

وخشي السلطان من قيام تحالف أكثر اتّساعًا حول حاكم من أصل نوبي وعربي في الوقت نفسه ، فلجأ إلى تقديم حاكم جديد مفروض ، وبعد الوفاة المبكرة للحاكم الأخير وضعت حملة أخرى في ١٣٢٣ - ١٣٢٤ على العرش الملك كرنباس الذي كان اعتنق الإسلام خلال أسره المؤقت في

(٧) ابن الفرات ، طبعة بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٤٢ ، مجلد ٨ ، ص ٨٣ ، ذكره ي. ف. حسن ، ١٩٦٧.

القاهرة[٨]. ومع ذلك فقد طرد كَنْز الدولة عمه واستعاد السلطة. ولا نعرف بصورة واضحة لماذا لم يتدخّل المماليك من جديد.

وبالمثل فإن باقي تاريخ الأسرة الحاكمة قليل الوضوح. ويتّضح مما أوردته المصادر من أحداث ١٣٦٥ – ١٣٦٦ أن الصراع الداخلي على السلطة استمرّ مع تدخّل عربي كبير حيث لعب بنو كَنْز دورًا هامًا وكذلك حلفاؤهم بنو عكرمه وبنو جعد، الذين سيطروا على دنقلة. والتجأ الملك إلى قصر الضو في مريس، في حين تركت دنقلة خرابًا. وأنجزت القوات المملوكية، التي استدعاها رسل نوبيون أرسلوا للقاهرة، مهمتها بقتل العرب وأخذ الأسرى في المناطق الشمالية وإخضاع بني كَنْز وبني عكرمه – واحتفظ ملوك النوبة بمقرّهم في الضو في حين أسلم الجزء الأعظم من المقرة للفوضى وأصبح محرومًا من السلطة المركزية. وتتعلّق آخر إشارة مكتوبة إلى ملك نوبي، ويرجع تاريخها إلى ١٣٩٧، بطلب العون ضد الاضطرابات الداخلية.

ومن ثم فإن الأيام الأخيرة للمملكة النوبية يغلّفها الضباب. والمصادر المصرية تصمت عنها تمامًا. ولا تتعلّق الشواهد الأخرى الآتية من السودان، من الروايات الشفوية ومن علم الأنساب، إلاّ بتطور نظم عرقية جديدة من قطاع شاطئ النهر والقطاعات المجاورة له، ولا تعير أي اهتمام لاختفاء الذين كانوا حكام البلاد. وتبين الأحداث التي بقيت آثارها، أن النوبة لم تضمّ أبدًا، ذلك أن الغزوات المصرية لا يمكن اعتبارها محاولة نظامية للتدمير أو الاستعمار. ومع ذلك فقد نجم عنها فقدان المقرة جزءًا كبيرًا من حيويتها وفعاليتها باعتبارها دولة منظّمة، وقد كتب مؤرّخ سوداني حديث وهو يشير إلى إسلام واستعراب الأسرة الملكية يقول: «لقد وقعت المملكة النوبية ضحية قلب للنظام من الداخل أكثر منها ضحية عملية تدمير[٩]، ويتحدّث مؤلّفون آخرون عن «غرق النوبة[١٠] المسيحية وامتصاص قوتها بوساطة المهاجرين».

لقد كان تبادل المصاهرة أداة هامة للتعريب. وبحكم النظام الأموي النوبي كان أبناء الآباء العرب والأمهات النوبيات يكتسبون الحق في الخلافة ووراثة جزء من الأرض ومن الأموال الأخرى. وقد رأينا تطبيق هذه القاعدة في حالة الارتقاء السياسي لبني كَنْز، وكان اعتناق السكان التدريجي للإسلام مظهرًا آخرًا لهذه العملية المعقّدة التي تطوّرت في وسط وضع فوضوي بشكل ظاهر. وهو الوضع الذي أعقب اختفاء سلطة الحكومة المركزية.

وقد أتاح مجموع الشواهد الناتج عن الأعمال الحديثة المتعلّقة بالآثار، بحث مراحل الصراع في هذه العملية عبر بعض الحقائق المحدّدة التي ثبت قيامها[١١]. فقد اصطحب تزايد انعدام الأمن ابتداءً من نحو منتصف القرن الثاني عشر، بتطوّر العمارة الدفاعية والمنشآت المخصّصة لضمان حماية أكبر لتركزات السكان المسيحيين. ويكشف فحص مواقع السكنى عن تعميم العناصر التي تفسّر نفسها على خير وجه، باعتبارها نظمًا تستهدف حماية الممتلكات والمؤن من النهابين، في حين أنه من المحتمل أن السكان كانوا يفضّلون الهرب. ولم تكن الأسوار الدفاعية وأبراج المراقبة كثيرة إلاّ في النوبة العليا في المواقع المسيحية المتأخّرة

(٨) أنظر ي. ف. حسن، ١٩٦٧. يعتمد هذا المؤلف على حجج ابن خلدون والعيني ومما يثير الاهتمام أن عمودًا أساسيًا أثريًا يونانيًا مكتوب عليه باللغة العربية القديمة وجد في دير القديس سيمون في أسوان كان يمدح الملك المسيحي العظيم كدنباس، رئيس القياصرة، أنظر أيضًا ف. ل. جريفت، ١٩٢٨، ص ١٨.

(٩) ي. ف. حسن، ١٩٦٧، ص ٩٠.

(١٠) ب. م. هولت، ١٩٧٠، ص ٣٢٨.

(١١) أنظر و. ي. آدامز، ١٩٦٦، في *JEA*، مجلّد ٥٢، ص ١٤٩.

للغاية ، أمام الشلال الثاني . وقد توجد آثار كثيرة للمجتمعات المسيحية المتأخّرة على الجزر . وبين الاتّجاه الدفاعي لهذه المؤسسات الجزرية والموجه ضد اليابسة ، وكذلك اتجاه أبراج المراقبة إلى الجنوب في منطقة الشلال أن العدو كان متوقّعًا مجيئه من ناحية الصحراء ، وربما من الجنوب ، وأنه لم يكن معتادًا للموانع المائية[١٢] .

ومن ثم يبدو معقولاً أن نستنتج أن الخطر الرئيسي كان يتمثّل في « قبائل الصحراء النهابة » ، خاصة العرب ، لكن ربما يتمثّل أيضًا في البربر الزغاوة ، وغيرهم . وهكذا فمن جانب ، تصوّر لنا المصادر المعاصرة الموضوعة من وجهة نظر مصرية القرى المحروقة ، والنواعير المدمّرة ، والسكان المسوقين إلى العبودية بوساطة جيوش الغزو القادمة من الشمال . وهناك أيضًا ذكر لسياسة الأرض المحروقة التي اتّبعها النوبيون أنفسهم عند انسحابهم . ومن جانب آخر ، نرى في ضوء علم الآثار الأهمية الكبرى لخطر آخر ، أكثر دوامًا وأشدّ حدّة يتجسّد في ذلك العامل المتمثّل في تسلّل العرب ، الذي أسهم أكثر من غيره في تدمير التنظيم الاجتماعي والسياسي القديم وبدء مسيرة تغيير ثقافي واسع المدى .

علوة

إن تاريخ علوة أشدّ غموضًا من تاريخ الأيام الأخيرة للمسيحية المنظّمة في المقرة وتنبع الصورة المعتادة عن مملكة مزدهرة ، أساسًا من روايات ابن سُلَيم (٩٧٥) وأبو صالح (بداية القرن الثالث عشر) ، والتي أكملتها المعلومات التي تمّ الحصول عليها من التجار المسلمين. لقد كانت علوة سوقًا جيدة لشراء العبيد . ويبيّن وصف أبي صالح وجود مملكة في أوج ازدهارها بها نحو أربعمائة كنيسة منها كاتدرائية كبيرة في سوبة .

ولقد أصبح ما يُذكر عنها نادرًا لأقصى حد في عهد المماليك . والشخصية الوحيدة التي أُشير إليها كثيرًا هي آدور عاهل الأبواب ، الذي سلّم مرات كثيرة ملوكًا نوبيين هاربين في محاولة منه لاسترضاء سلاطين المماليك وفي ١٢٨٧ ، أرسل السلطان سفيرًا ، بناءً على دعوة من آدور ، في بعثة استعلامية لها علاقة بشكاوى مقدمة ضد ملك دنقلة . وفي ١٢٩٠ وكما لاحظ نفس المؤلّف من العصور الوسطى[١٣] . طلبت معونة السلطان ضد عدو خارجي من المحتمل جدًا أنه جاء من الجنوب .

ومن المحتمل أن انهيار علوة شابه انهيار المقرة . فقد تسلّل مهاجرون عرب إلى مناطق الحدود ثم توغّلوا إلى قلب البلاد ، وعقدوا مصاهرات مع السكان المحليين وسيطروا على المراعي ، وبذا تسبّبوا في تآكل النسيج الاجتماعي وقوّضوا السلطة المركزية وقد شكّلت هجمات السود من الجنوب تهديدًا آخر وضغطًا على إمكانيات البلاد وعلى مواردها البشرية ، التي ربما كانت قد تناقصت بالفعل بتأثير تجارة العبيد . وبدأت الكنيسة بدورها تركد في إطار العزلة وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر أتاح التحلّل العام ،

---

(١٢) كتب و . ي . آدامز (١٩٦٦ ، ص ١٥٠) يقول « كلما أوغلنا نحو الجنوب قابلنا التحصينات وزاد قدم الفترة التي ترجع إليها في تاريخ الفترة المسيحية » ومع ذلك فهو يقر بأن هذا القول قائم على أساس ملاحظة شخصية غير منظمة للمواقع المسيحية في بطن الحجر وفي النوبة العليا .

(١٣) ابن عبد الظاهر ، « القرن الثاني عشر » ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ – ١٤٥ ، ذكره ي . ف . حسن ، ١٩٦٧ ، ص ١٣ .

الفرصة للعرب لكي يستقرّوا في قلب البلاد قرب سوبة – وكانت مدينة اربجي ، التي أسّست في ١٤٧٥ ، هي أقصى نقاط التوسّع العربي جنوبًا في الجزيرة.

وحتى وقت قريب ، كان سقوط علوة يرجع عادة إلى عام ١٥٠٤ ، وهو عام قيام سلطنة الفونج ومركزها سنار. ومع ذلك فليس من الضروري أن الحدثين وقعا في الوقت نفسه وليس هناك مبرّر كاف لنبذ الرواية القديمة التي تقول أن سوبة استولى عليها العرب – الذين يعملون لحساب أنفسهم ربما في تاريخ أقدم[١٤] . وتصف الروايات الشفوية هذه العملية بأنها كانت من تنظيم وتحت قيادة زعيم هو عبد الله الملقّب بالجمّاع لأنه جمع القوم) ، من فرع القواسمة من عرب رفاعة. وقد وجّه الهجوم دفعًا لطغيان مزعوم (ظلم) من قبل ملوك علوة ، التي أطلق عليها اسم عنج. وتمّ الاستيلاء على سوبة وربما تدمّرت ، وتشتّت سكانها. وكفل نسل عبد الله ، «آل عبد الله» لأنفسهم ، السيطرة على القبائل البدوية والنوبية المستعربة في منطقة ممتدة حول ملتقى النيلين والى أبعد من ذلك شمالاً. وأقيمت عاصمة هؤلاء السادة الجدد في «قربى» (قرب خانق سَبَلوقة) مما كفل لها موقعًا مسيطرًا على النيل الرئيسي.

ولم يستمر تفوّق العرب بلا منازع لمدة طويلة. ففي بداية القرن السادس عشر ظهرت في الجزيرة فجأة موجة أخرى من القادمين الجدد ، من المهاجرين الذين نزلوا عبر النيل الأزرق. وكانوا من البدو الرعاة الوثنيين ، يسمون الفونج ، ولقد كان أصلهم البعيد محل افتراضات متباينة بدرجة تبدأ من جعل الفونج ، والشلك شيئًا واحدًا ، كما تمضي إلى البحث عن مهدهم بعيدًا حتى مناطق من بورنو أو من أثيوبيا الشمالية[١٥] . وتفسر إقامة العلاقات بين العرب والفونج ، روايتان متباينتان بصدد أحداث ١٥٠٤. تتحدّث الرواية الأولى ، وهي محفوظة في مراجعة تاريخية تمّت في القرن التاسع عشر «لحولية الفونج» ، عن تحالف زعيم الفونج عماره دونقس مع عبد الله جماع ضد سوبة ، في حين تذكر الثانية التي نعرفها عن طريق جيمس بروس ، معركة بين الجانبين وقعت قرب اربجي. ولا شكّ أن الجانبين تنازعا حقوق الرعي في الجزيرة الجنوبية وكذلك التفوّق السياسي.

وظفر الفونج بالنصر والهيمنة ، في حين وجد زعماء آل عبد الله في حالة تبعية. وامتدّت هيمنة الفونج بالاشتراك مع عرب آل عبد الله على جزء كبير من السودان النيلي وبدأت فترة جديدة في تاريخ البلاد. ويسرت درجة الاستقرار السياسي التي تمّ بلوغها آنذاك ، الاستمرار في زيادة مكانة العرب ونشر الإسلام على نحو فعّال.

(١٤) أنظر: ب.م. هولت، ١٩٦٠، في *BSOAS*، المجلّد ٢٣، ١٩٦٩، ص ١–١٧؛ أنظر أيضًا هـ.ن. تشيتك، «كوش ٢»، ١٩٦٣، ص ٢٦٤ – ٢٧٢. وحسب هذا – المؤلف الأخير فإنه عقب سقوط علوة، لجأ قائد مسيحي إلى قيري التي يبدو أنها كانت مكانًا حصينًا أشارت إليه حوليات عبد الله.

(١٥) إن أقدم مصدر حجه لصالح «نظرية الشلك» يتمثّل في جيمس بروس الذي زار – سنار في ١٧٧٢. وقد اقترح أ. ج. أركيل بصفة خاصة «نظرية برونو» حول هذه المشكلة ، وللحصول على تحليل مفصل ، أنظر ب. م. هولت ، في *JAH*، ١٩٦٣ ، ص ٣٩–٥٥.

انتصار الإسلام

اختفاء المسيحية

لم يكن تحوّل النوبة إلى الإسلام عملية واضحة تطوّرت في البلاد، متقدّمة بطريقة مستمرّة من الشمال إلى الجنوب. فقد بدأ نشر الإسلام قبل الفترة التي ندرسها بكثير، واستمرّ بسرعة غير متساوية في مناطق مختلفة ولم ينته تقريبًا إلاّ في ظل الفونج. وكانت وسائل نشر الإسلام كثيرة: نشاط التجار المسلمين الذين كانوا قد قبلوا في البلاد منذ قرون، وتسلّل العرب، وكذلك الضغط المباشر وفيما بعد الانتهازية كما تبيّنه، إلى جانب أشياء أخرى، معاهدة شكنده وتحوّل البيت المالك في دنقلة إلى الإسلام.

ولم تختفِ العقيدة المسيحية مرة واحدة مع اختفاء نظام الحكم في النوبة، بل استمرّت لفترة أطول كثيرًا. فقد بيّن اكتشاف قبر أسقف، به لفافات ورق مكتوبة بالقبطية والعربية، وهو اكتشاف تمّ في قصر ابريم في بداية الستينات، بأن أصحاب المناصب الكبيرة في الكنيسة كانوا ما يزالون يمارسون عملهم هناك في ١٣٧٢. ومن المحتمل أن المجتمع المسيحي استمر أيضًا خلال أجيال كثيرة تالية. وفي عشرينات القرن السادس عشر، سمع كاهن برتغالي اسمه فرانسسكو الفاريز، كان قد زار أثيوبيا، من مرافقه واسمه جان السوري، أن هناك بلد «النوبيين» وأنه «زار هذا البلد، وكانت توجد به ١٥٠ كنيسة، تضم صلبانًا خشبية وصورًا مرسومة لمريم العذراء، وصورًا أخرى مرسومة على الجدران، وأنها جميعًا قديمة وأن سكان هذه البلدة ليسوا مسيحيين وليسوا مسلمين ولا يهود، وأنهم يعيشون في شوق إلى أن يكونوا مسيحيين. وتوجد هذه الكنائس جميعها في القصور القديمة المنتشرة في كل أنحاء البلاد، وهناك كنائس بقدر ما يوجد من قصور»[١٦]. ويتحدّث الفاريز أيضًا عن بعثة مسيحية أُرسلت من هذه البلد إلى البلاط الأثيوبي لتطلب إيفاد كهنة ورهبان لتعليمهم، وان «الكاهن جان» الأثيوبي لم يستطع ذلك بسبب تبعيته لبطريرك الاسكندرية. وكان من المتفق عليه بصفة عامة أن البلد المعني هو علوة، لكن هذا الرأي أصبح مؤخرًا موضع شك لصالح منطقة دنقلة. ويظلّ السؤال مطروحًا، ويبدو البحث الأثري واعدًا باكتشافات جديدة تبيّن أن المجتمعات المسيحية المحلية استمرّت طويلاً في النوبة.

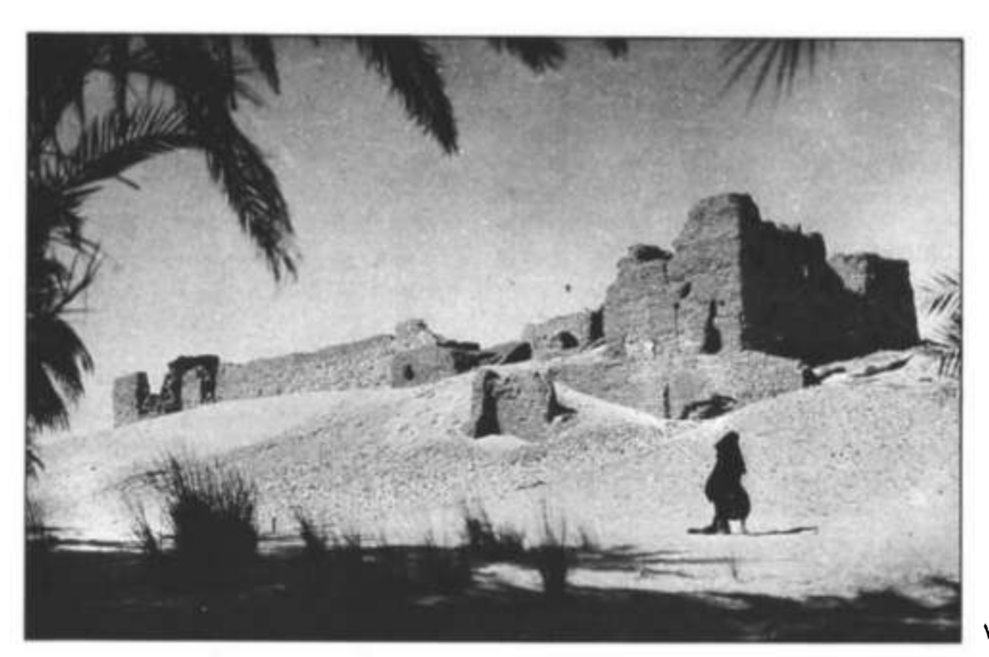
وفيما يتعلّق بتاريخ تقدّم انتشار الإسلام، فإن غالبية الشواهد (وهي مع ذلك محل جدل) تأتي من المنطقة الشمالية. ومن المرجح أن الأقليات المسلمة عاشت لفترات طويلة في سلام مع جيرانها المسيحيين، الذين اقتسموا معها الثقافة المادية. وقد أوحى عدم وجود قبور عربية بعد منتصف القرن الحادي عشر، إلى افتراض محتمل بأن المسلمين كانوا قد اضطهدوا من قبل المسيحيين، وهو افتراض يبدو أنه تأكّد بوجود شاهد على تحوّل أحد المسلمين إلى المسيحية[١٧]. ومع ذلك فإن هذا الشاهد غير كاف لإعطاء تأكيد أكثر تحديدًا.

إن المعلومات اللاحقة عن العنف ضد المسيحيين الذي صاحب عمليات الغزو تكشف عن أعمال عرضية أكثر منها مدبرة، ومنبعثة عن كراهية دينية منتشرة على نطاق كبير، وهذا ينطبق على الإجراءات التي ناقشها كتاب الحوليات تفصيلاً مثل تحويل كنيسة إلى مسجد، وأسر المطران وتعذيبه، وقتل الخنازير

---

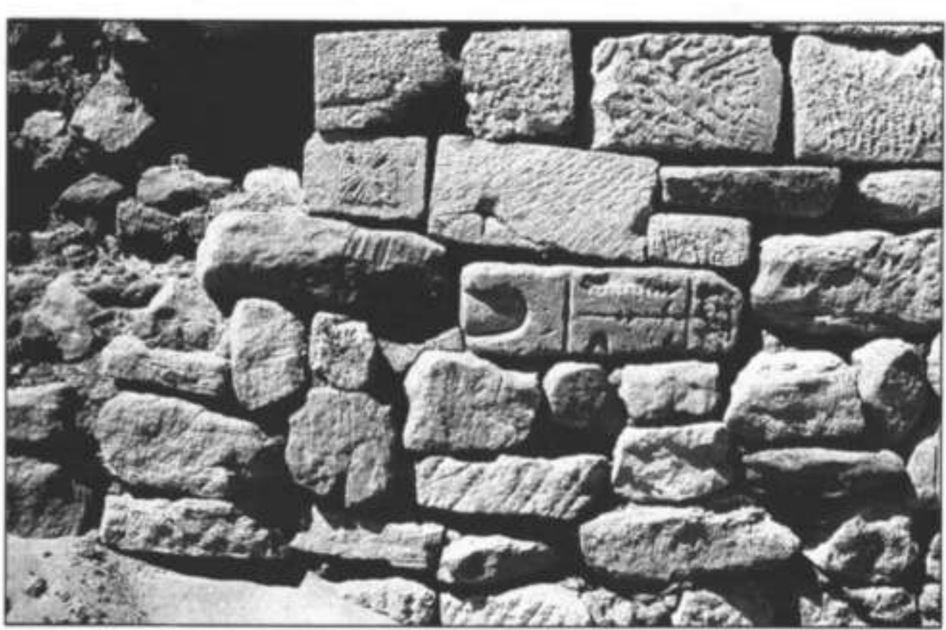
(١٦) أنظر س. الدرلي، ١٨٨١، ص ٣٥١ – ٣٥٢.

(١٧) أنظر مثلاً و. ي. آدامز، «كوش»، مجلد ١٣، ١٩٦٥، ص ١٧٢.



١

٢



١. الكنيسة والدير في فاراس (بالنوبة)
تحيط بها التحصينات العربية. منظر من الشرق
٢. سور المدينة للقلعة العربية في فاراس.
أعيد بناؤه بالأحجار القديمة.

بعد فتح الأيوبيين لقصر ابريم. وان الآثار المسيحية في النوبة لا تحمل بصفة عامة كثيرًا من آثار العنف والتدمير، على الرغم من أن البعض منها نهبه العربان على الأرجح، كما أن المصادر لا تبيّن أن المسيحية نفسها كانت موضع هجوم. وكما كتب و.ي. آدامز فقد «وقع سكان النوبة المسيحيين بين القوى الإسلامية، المصرية والبدوية، التي أبدت تجاه بعضها البعض كراهية تماثل تلك التي أبدتها تجاه النوبيين. وإذا كانت المسيحية النوبية قد دُمِّرت في نهاية المطاف رغم هذا، فإن ذلك حدث كأمر عارض وليس كأمر مبيّت»[١٨].

ومع ذلك فقد كانت هناك أسباب داخلية هامة لضعف المسيحية النوبية. فقد كانت هذه حسب رأي شائع، دينًا للصفوة في الأساس، ليس له جذور عميقة بين جماهير السكان. كما ارتبطت العبادة، إلى حد كبير، بإكليروس قبط وثقافة أجنبية، دون وجود قديسين أو شهداء نوبيين. وكانت كل شواهد القبور تقريبًا مكتوبة باليونانية أو القبطية، وحسب قول تريمنجهام فإن الكنيسة النوبية «لم تصبح محلية – أبدًا بالمعنى الذي أصبح به الإسلام محليًا اليوم»[١٩]. ورغم كل شيء فإن الرسوم الجدارية للكنائس التي اكتُشفت تبيّن أحيانًا الوجوه السوداء للمطارنة النوبيين من أبناء البلاد. ولا يجب أن نتجاهل النقوش الدينية باللغة النوبية، رغم أن تقوى الإكليروس لم يكن دليلاً على مشاعر الفلاّحين. ويتضح بقاء معتقدات أكثر قدمًا أي من عصر ما قبل المسيحية في رواية ابن سُلَيم (القرن العاشر) كما يتضح من بقائها في الإسلام السوداني الشعبي المعاصر.

لقد كانت الكنيسة النوبية مرتبطة بالدولة وبثقافة حضرية مركّبة، لكنها كانت معزولة إلى حد كبير عن المسيحية الخارجية من خلال جيرانها المسلمين. ومع ذلك لا يتعيّن علينا أن نبالغ في تأكيد هذه النقطة[٢٠]. ويبدو واضحًا في الفن النوبي وجود علاقات مع بيزنطة، بل حتى مع الصليبيين. وإلى جانب نظرية الطبيعة الواحدة للمسيح، وهي النظرية السائدة والعلاقة مع البطريركية القبطية، توجد أيضًا شواهد على وجود شعائر مِلْكية (كاثوليكية) حتى في الفترات الأحدث[٢١]. ومع ذلك، اتجهت العزلة إلى التزايد نحو منتصف القرن الثالث عشر، وقطعت العلاقات مع بطريركية الاسكندرية، ومن المرجّح أنها لم تعد ترسل الكهنة الأقباط. ومع ذلك، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، شوهد حجاج نوبيون في المصلى الخاص بهم في كنيسة القبر المقدس بمدينة القدس، وبعد ذلك في أداء الطقوس الدينية في الجليل.

وهكذا، ففي ظل وضع لا يسهل تحديده، لا بدّ أن تكون العوامل الخارجية، خاصة الهجرة الجماعية غير المواتية لبقاء الدول المسيحية مستقلة، هي العوامل الحاسمة في التغيير. ومع اضمحلال الكنيسة باعتبارها قوة اجتماعية، بدأ التحوّل إلى الإسلام، الذي جعله القادمون الجدد الأقوياء علامة جديدة على المكانة، يعم تدريجيًا بين السكان عندما أصبح عنصرًا في عملية استعادة المركز الاجتماعي.

---

(١٨) أنظر و. ي. آدامز، في *JEA*، مجلد ٥٢، ١٩٦٦، ص ١٥١.

(١٩) أنظر: ج. س. تريمنجهام، ١٩٤٩، ص ٧٦.

(٢٠) تتضح العلاقات مع بيزنطة، بصفة خاصة من الحفائر البولندية في فَرَس. كذلك توجد آثار لعلاقات مع فارس. للحصول على تفاصيل حول هذه المسائل أنظر: ك. ميشالوفسكي، ١٩٦٧، «النشرة الافريقية»، مجلد ٣، ١٩٦٥، ص ٢٦.

(٢١) كما أكّدت حفائر فَرَس أيضًا. عن المسيحية النوبية، أنظر د. و. كيلهفنر، «الأفريكاني»، مجلد ١، عدد ١. يونيو/حزيران ١٩٦٧، ص ١ – ١٣.

استعراب النوبيين

تمّ في الفترة التي نصفها هنا، الجانب الأكبر من هجرة القبائل العربية إلى النوبة وفي داخلها، وكذلك عمليات الاندماج النشطة لسكان النوبة لتكوين مجموعات جديدة. ويتضح في الوضع الذي نجم عن ذلك، كما يظهر بعد الفترة المظلمة التي تلت اختفاء الدولة النوبية، وجود خليط من الأجناس على نطاق كبير، مع الغلبة النهائية للانتماء للغة والحضارة العربية. ومع ذلك فقد سار استعراب السكان جنبًا إلى جنب مع عملية أفرَقة كبيرة أيضًا للمهاجرين، وهي عملية واضحة حاليًا في الخصائص العرقية وكذلك في الملامح الثقافية للعرب السودانيين، الذين تكيّفوا تكيّفًا أفضل مع بيئة بلدهم الجديد.

إن المصادر التي تتوافر لدينا لدراسة تاريخية للحركات الخاصة، التي أدّت إلى تكوين سكان النوبة الشمالية، ليست قابلة للاستخدام إلاّ بتحفّظ كبير. فهي مكوّنة أساسًا من أساطير وروايات الأنساب، لم تتّخذ شكلها الراهن إلاّ مؤخرًا. وقد تمّ الحفاظ على هذه الأنساب وهي المعروفة بهذا الإسم «أنساب» أو «نسبة» عن طريق النقل الشفوي أو في شكل مكتوب في بعض الأحوال، باعتبارها ممتلكات ذات قيمة كبرى[٢٢]. ويمكن إرجاع أصل بعض هذه الأنساب إلى فترات بعيدة للغاية من الماضي. ان المؤلّف الأكثر شهرة لعدد كبير من «الأنساب» هو السمرقندي، وهو شخصية أسطورية نوعًا ما عاش في القرن السادس عشر، وجمع كتابًا للأنساب المتعلّقة بالفونج. وكان هذا الكتاب يهدف إلى إقناع السلطان العثماني بشرعية وصحة النسب والتسلسل العربي والإسلامي للنوبيين، وإقناعه أيضًا بعدم وضع خطط معادية ضدهم. وقد جعل هذا الهدف نفسه – وهو بيان الانتساب إلى جدود عرب نبلاء – كثيرًا من الأنساب موضع شك ولا يستحق الثقة كثيرًا، خاصة في الأجزاء الأكثر قدمًا منها. وبصفة عامة فإن جماعات السكان، التي لم تكن تهتم كثيرًا بدرجة القرابة عن طريق الدم، كانت عن طريق الأنساب تفخر بأن تنسب نفسها للقبائل العربية القديمة واتحاداتها، وبأن لها أصلاً في جنوب الجزيرة العربية (قحطان)، كما فعلت قبائل جهينة التاريخية، أو شمال الجزيرة العربية (عدنان) كالجعليين الذين زعموا أنهم من نسل العباس عم النبي محمد وأنهم أقرباء للأسرة العباسية. كما أخفى الفونج بدورهم أصولهم خلف أصل أموي مزعوم. كما ظهر ادّعاء متبجج عند بعض العشائر وأسر العلماء الإسلاميين الذين قدّموا أنفسهم باعتبارهم أشرافًا، أي من نسل النبي ومن أقربائه المباشرين. ولسوء الحظ فإن المعلومات الإضافية والتصحيحات التي نجدها عند الكتّاب العرب للعصور الوسطى، جزئية وأقل إقناعًا من تلك «الأنساب» التي وُضعت بعناية.

إن وصف تحرّكات المجموعات العرقية الكثيرة يخرج عن إطار هذه الدراسة. إن تسلّلها الذي استمرّ عبر القرون بطريقة سلمية على نحو خاص، قد تطوّر ابتداءً من القرن الثاني عشر ليصبح ظاهرة جماعية. وفي أعقاب ذلك اختفى كلية عدد كبير من أسماء المجموعات العرقية المذكورة كثيرًا في مصادر العصور الوسطى، في حين ظهرت وحدات جديدة. ومع ذلك يجب ألاّ يغيب أبدًا عن الأنظار الطبيعة المائعة للمجموعات العرقية عبر فترة طويلة. فالطرق التي سلكها العرب في مسيرتهم الطويلة، إما ومعهم قطعانهم الضخمة أو ممن كانوا يعانون الاملاق، هي طرق قابلة للتحديد جزئيًا بفضل الآثار التي وصلت إلينا.

وهكذا فإن اللاحقة «آب» التي تظهر عادةً في الأسماء العرقية في شرق النيل، مستعارة من «أسرة»

(٢٢) إن أكثر المجموعات ثراء هي مجموعة «نسبة» التي جمعها ونشرها ماك مايكل، ١٩٢٢.

في عشيرة تو – بيداوي (بجاوي) ومن ثم تدل على المرور عبر بلاد البجة. ومن الأرجح أن هذه المنطقة كانت الأولى التي تتعرّض للهجرة العربية، عبر البحر الأحمر وقدومًا من مصر في آن واحد. وكان البلد قليل الاستعداد لإقامة عدد كبير من السكان الرعاة، ولم تنته العلاقات بين البجة وبين العرب التي اتّخذت حتى شكل الزواج المتبادل، باندماج كامل. واتجهت القبائل العربية إلى مناطق أبعد، إلى سهول البطانة غير المستوية تمامًا ونحو النيل الأوسط حيث قابلت قبائل أخرى كانت قد نزلت من النوبة واستقرّ كثير منها في نهاية المطاف في الجزيرة.

واتّجهت مجموعات كثيرة من العرب نحو الجنوب عن طريق وادي النيل، وقد تكشف أن البعض منهم اشترك طواعية في حملات المماليك، واتخذ تسللهم اللاحق إلى منطقة السهوب جنوبي دنقلة عدة اتجاهات. فقد اتجهت بعض المجموعات صوب الغرب. ولا بدّ أن وادي الملك ووادي المقدم كانا يمثّلان الطرق السهلة. وللدخول إلى دارفور، كانت هناك إمكانية أخرى تتمثّل في درب الأربعين (طريق «الأربعين يومًا») الذي يبدأ من الواحات المصرية في الصحراء الغربية.

وتزعم غالبية المجموعات النوبية التي تتحدّث العربية أنها تشكّل في أنسابها الخاصة بكل منها، جزءًا من احدى المجموعتين: الجعليين أو جهينة.

وتضم مجموعة الجعليين في الأساس السكان المستقرين في الوادي الأوسط للنيل وكردفان، وبصفة خاصة الجوابرة والبديرية والشايقية والبطاحين والجمعاب والجماعية والجوامعة، غير الجعليين بالمعنى الدقيق للكلمة، الذين يعيشون بين عطبرة وخانق سبلوقة. وكان جدهم الذي أخذوا اسمهم عنه هو ابراهيم جعل، وهو عباسي ربما عاش في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر. وهناك رواية شعبية تفسر لقبه «جعل» تتعلّق بكرم ضيافته الذي جعله يقول للجائعين: «جعلناكم منا»[٢٣]. ولا يمكن اعتبار «الأنساب» التي حفظت على كل حال جديرة بالثقة على نحو كاف إلاّ ابتداءً من القرن السادس عشر.

وكان الجعليون في مجموعهم نوبيين استعربوا، وهم في الواقع نتاج لعملية تهجين بين العرب والنوبيين مع نسبة قليلة من الدم العربي، رغم ادّعائهم نسبًا عربيًا خالصًا. وموطنهم هو منطقة النيل الأوسط جنوب الشلال الرابع، حيث تأصلوا بين أراضي تقع تحت سيطرة دولتين مسيحيتين. وتشير أسماء جمعاب وجماعية وجوامعة إلى الارتباط، وهي مستمدّة من جذر الفعل العربي «جمع»[٢٤]، والذي يعبّر عن تهجين واختلاط المهاجرين العرب الذين واصلوا الاندماج مع السكان المحليين وهو الأمر الذي تتجاهله «الأنساب» تمامًا.

وفي بداية القرن السادس عشر، هاجرت بعض الجماعات الجعلية إلى مدى أبعد غربًا في كردفان، حيث انصهروا في السلالات النوبية مع الاحتفاظ باسمهم والوعي بهويتهم الجعلية. وكان زواج زعمائهم ببنات الأعيان المحليين موضوعًا عاديًا في الأساطير الشعبية المتعلّقة بقيام الحكومات في هذه المنطقة. وقد ادّعى حكام تقلي في جبال النوبة، وفي دارفور، والوادي وبورنو وكذلك حكام المسبعات وكردفان، أن أجدادهم من الجعليين.

ولجهينة حق أقوى في اعتبار أنفسهم عربًا، وكانوا على خلاف الجعليين يفضّلون حياة البداوة، والتي كانت مراعي مملكة علوة الآفلة تقدّم ظروفًا مواتية لها. وقد ضلّل الحماس واضعي الأنساب وجعلها تصنّف بين صفوف جهينة كل مجموعات البدو أو غير الجعليين. ويضم هؤلاء إذا أخذناهم بالمعنى الواسع لهذه

---

(٢٣) أنظر ماك مايكل، ١٩٢٢، مجلد ٢، ص ٢٨ و١٢٨.

(٢٤) باللغة السواحيلية «أوجا».

الكلمة ، عرب البطانة (الشكرية ورفاعة) وعرب الجزيرة (كنانة ، والمسلمية) بل تضم أبعد من ذلك في كردفان البدو مربي الجمال (الكبابيش ، ودار حامد ، والحمر) والبقارة مربي الماشية. ويدّعي الجميع لأنفسهم جدًا مشتركًا هو عبد الله الجهيني.

والراجح أن دخول العرب إلى كردفان استمر خلال فترة أطول. وتوجد بالفعل في القرن الرابع عشر شواهد على التسلل إلى الغرب فيما وراء دارفور إلى سهوب السفانا في تشاد. وكان عرب جذام هم رواد هذه الدفعة وقد ضاع اسمهم في زوايا النسيان فيما بعد ويبدو أن الكبابيش كانوا يضمون عدة عناصر عبّرت عن وحدتها باختراع جد خيالي وهب اسمه لهم وهو كبش بن حمد الأفزر. وكلمة كبش لها دلالتها عند الرعاة. وأصبح شقيق كبش هو جد قبيلة فزارة ، التي سقط اسمها في زوايا النسيان بعد الفترة المهدية رغم كثرة ذكره في المصادر الأقدم.

ويغطي الاسم العام للبقارة (من بقرة) قبائل مربي الماشية التي يمتدّ موطنها الحالي إلى جنوب الطريق الرئيسي المار من شرق السودان إلى غربه. وهذه المنطقة ليست ملائمة من الناحية المناخية للغنم أو الجمال ، مما جعل البقارة تتخلى عن تربيتها من أجل تربية الأبقار. ومع ذلك فهم يركبونها ويعاملونها بصفة عامة كما اعتادوا أن يعاملوا الابل. ومن الراجح أنهم نظرًا لوصولهم متأخرين ، وجدوا مراعي الشمال مشغولة فعلاً وكان عليهم أن يبحثوا عن أسلوب جديد للحياة. ومثل الكبابيش استوعبوا بعض عشائر جذام القديمة ، ويدل لونهم الأسود القاتم على حدوث تهجين واضح مع السكان المحليين من أصول زنجية.

إن الطريق الذي وصل منه البقارة ليس واضحًا. فيزعم البعض منهم أن جدودهم جاءوا من تونس ومن فزان. وتشهد روايات محلية كثيرة وجود حركات هجرة تجارية وثقافية عبر هذا الطريق اتّجهت نحو دارفور.

ويبدو أن أصل البقارة خليط من جذام الذين جاءوا من النيل ومجموعات أخرى وصلت عبر فزان وتشاد. وتورد رواية شائعة أن جدودهم قد مضوا نحو الغرب ربما منذ عشرة أجيال ، ثم اتجهوا إلى الشرق ليصلوا إلى موطنهم الحالي. وربما كان ادّعاء الروابط مع بني هلال دليلاً على وجود اتصالات ثقافية مستمرة مع أفريقيا الشمالية أو حتى وجود مجموعات هلالية صغيرة بين العرب الذين رحلوا عن جنوب مصر متجهين صوب النوبه[٢٥].

وبالإضافة إلى العرب ، كانت موجات القادمين الجدد التي وصلت إلى السودان النيلي تضم البربر والبربر المستعربين ، والذين كانوا مع ذلك أقل عددًا هنا عنهم في المناطق الواقعة إلى مدى أبعد غربًا. وتورد المصادر تقارير عن تحرّكات حدثت في مصر في القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر للهوارة الذين قد استعربوا جزئيًا. وتوجد جماعات صغيرة للهوارة في كردفان وفي دارفور. ولا بدّ أن حركات الهجرة التي يفترض مجيئها من المغرب قد ضمّت أيضًا بربرًا مستعربين بالإضافة إلى الهلاليين والعرب الآخرين.

التغييرات الثقافية والاجتماعية

كانت النوبة على الدوام منطقة هامة بسبب موقعها بين الحضارات المتقدّمة للبحر المتوسط وبين تلك الخاصة بافريقيا الاستوائية. ومن جديد جعل اختفاء الحكم المركزي وتغيير الدين ، في وسط عملية

(٢٥) أنظر ي. ف. حسن، ١٩٦٧، ص ١٦٩ – ١٧١.

اختلاط وامتزاج تمت على نطاق واسع لمجموعات عرقية ولغوية، من هذا البلد الذي يكوّن شمال السودان حاليًا، مفترق طرق لتأثيرات متعدّدة ثم امتصاصها وتشكيلها لتصبح الأجزاء المكوّنة لمجموع فريد وجديد. وكان المجتمع الذي ظهر حينذاك يعكس فعلاً وجه تشابه مع الخصائص العرقية والثقافية الحالية، التي جعلت من السودان كيانًا عربيًا – افريقيًا فريدًا، «مصغرًا» للجزء الشمالي من أفريقيا[٢٦].

ولا بدّ أن أول نتيجة ترتّبت على انهيار سلطة الدولة كانت تدهور حالة الأمن وانتشار الفقر. وبالإضافة إلى الأسباب التاريخية التي ذكرناها فعلاً والتي أدّت إلى انخفاض مستوى المعيشة، طرح البحث الحديث فرضًا عن تدهور المناخ، الأمر الذي اتضح في هذه الفترة في انخفاض مستوى النيل[٢٧].

وتبرز المصادر القديمة الخاصة بالوضع المادي للنوبيين خلافات كبيرة في الرأي بين شهود العيان حسب أصلهم والجانب الذي اتّخذوه. فمثلاً يتحدّث تقرير لمبعوث أيوبي في القرن الثاني عشر عن بلد فقير لا يزرع سوى الذرة والنخيل، وله أمير يبعث على الضحك؛ في حين يتحدّث أبو صالح الأرمني بإعجاب، في نفس الفترة تقريبًا، عن ثقافة حضرية متكاملة. وقد أكّد البحث الحديث المتعلّق بالآثار هذا الرأي الأخير وزاد بدرجة كبيرة إمكانياتنا على تقييم الإنتاج الفني النوبي، خاصة النقوش الجدارية للكنائس والخزف، وفي حين يكشف الرسم عن إلهام بيزنطي، فإن صناعة الخزف التزمت التقاليد المحلية. ومع الإسلام فقط حدث تحوّل هام.

وفي انتظار بحوث جديدة تتعلّق بالآثار، لا نملك أي عنصر يتعلّق بوضع النوبة بمعنى الكلمة (المقرة ومريس) خلال الفترة المظلمة الواقعة بين تدمير دنقلة وإقامة حاميات عثمانية في بداية القرن السادس عشر. وقد وضع و.ي. آدامز مؤخرًا فرضًا مؤداه أن النوبة المتوسطة (بين المحرّقة والشلال الثالث) ربما هجرها سكانها المسيحيون نحو نهاية القرن الثالث عشر، نظرًا لكونها منطقة فقيرة. وبعد ثلاثة قرون من البداوة في منطقة الأمطار الواقعة إلى مدى أبعد جنوبًا، عاد هؤلاء السكان إلى موطنهم السابق بعد أن تحوّلوا إلى الإسلام. وربما يفسر ذلك شذوذ الفوارق بين اللهجات النوبية التي يتحدّث بها المحس في النوبة الوسطى وتلك التي يتحدّث بها في الشمال الكنور ويتحدّث بها الدناقلة في الجنوب. وهاتان اللهجتان الأخيرتان قريبتان بصورة وثيقة ويختلفان كلاهما عن اللهجة المحسية التي وجدت نفسها محصورة بينهما. وحسب رأي و.ي. آدامز، فإن السكان الذين أسلموا وأصبحوا يتحدّثون اللغة الكَنْزية كانوا قد تسلّلوا إلى المنطقة الواقعة إلى جنوب الشلال الثالث التي هجرت إلى حد كبير ابتداءً من الفترات الأخيرة لتدهور المملكة وبذا فرضوا لغتهم، في حين أن المحس احتفظوا في بداوتهم المؤقتة المفترضة بلغة أقرب إلى النوبة القديمة. ومع ذلك، فإن هذا الفرض ليس مقبولاً بالإجماع[٢٨].

وبطريقة عامة يبدو محتملاً أن جزءًا كبيرًا من سكان الحضر القدامى قد أصبحوا بدوًا أو شبه بدو خلال الفترة المظلمة نتيجة لانكماش الرقعة القابلة للزراعة. ويرى ابن خلدون الذي عاصر أفول النوبة المسيحية، أن تطوّر البلاد يتفق تمامًا مع تصوّره السوسيولوجي حيث الحياة الحضرية هي المرحلة الأخيرة

(٢٦) حول هذا الموضوع، أنظر بصفة خاصة م. عبدالرحيم، في *JMAS*، مجلّد ٥٨، عدد ٢، ١٩٧٠، ص ٢٣٣ – ٢٤٩.

(٢٧) أنظر ج. دي هايتزلين، وو. بيشوب، وج. د. كلارك، ١٩٥٧، ص ٣٢٠.

(٢٨) أنظر و. ي. آدامز، في *JEA*، مجلد ٥٢، ١٩٦٦، ص ١٥٣–١٥٥ وبالنسبة لرأي ب. ل. شيني، أنظر ي. ف. حسن، ١٩٧١، ص ٤٤.

في الحضارة ونقطة البداية للتدهور ، على النقيض من شجاعة وحيوية البدو . كما يبدو أن ذلك أكّد رأيه عن الموت السريع للأمة المغلوبة .

وبعد أن وصف ابن خلدون الطريقة التي أثارت بها القبائل العربية ، وبصفة خاصة جهينة التحلّل في المملكة وخلقت حالة من الفوضى العامة ، كتب يقول : « لم يبقَ أي أثر للسلطة المركزية (الملك) في أراضيهم نتيجة للتغيير الذي أُدخل عليهم تحت تأثير انتشار البداوة العربية عن طريق المصاهرة والتحالفات (٢٩) . ورغم واقعية هذا الوصف فإنه يعدّ إفراطًا في تبسيط وضع معقّد اعتبار أن النوبة كانت مسرحًا لتحوّل عام إلى البداوة .

لقد كان التأثير الثقافي للعرب وللإسلام مصدرًا لعدد معين من التجديدات المترابطة ترابطًا وثيقًا . ولقد ذكرنا البعض منها بالفعل ، خاصة الانتقال من التنظيم حسب النسب الأموي إلى التنظيم حسب النسب الأبوبي والبحث العام عن هوية عربية . لقد شمل التغيير اللغوي الذي تمثّل في الانتقال إلى اللغة العربية ، كل المنطقة فيما عدا النوبة فقط بالمعنى الدقيق للكلمة ، أي من أسوان حتى ما يجاوز دنقلة قليلاً إلى الجنوب ، لكن ثنائية اللغة انتشرت على نطاق واسع حتى في هذه المنطقة . ومن جانب آخر ، فإن لغة الحديث العربية في كل المنطقة الواقعة بين بورنو والنيل تعكس تأثيرات افريقية ملحوظة .

ولم تُطبَّق القواعد الإسلامية (الشريعة) إلاّ على نحو تدريجي وفي عهد الفونج وما بعدهم . وتغير وضع النساء مع استبعادهن من الحياة العامة . وظهرت عادات جديدة تتعلّق بالزواج أو الاحتفالات الأخرى المميزة لأحداث الحياة العائلية أو المناسبات الاجتماعية والدينية .

واختفت الفنون المرئية والعمارة الخاصين بالعصر المسيحي . فالمهاجرون البدو ، وذلك يتفق تمامًا مع رأي ابن خلدون ، لم يهتمّوا كثيرًا بالفنون الجميلة ولم يحملوا معهم شيئًا من الذوق الرقيق والتقنيات الراقية لزملائهم في الدين في البلدان المركزية . ومن هذه الناحية ، لم يكن السودان إلاّ قطاعًا هامشيًا مهملاً . ومن جانب آخر ، فإن تقاليد تذوّق الجمال الافريقية المحلية لم تختف واستمرَّ تأثيرها محسوسًا في الفنون الثانوية وفي الصناعة الحرفية .

ويذكر ابن خلدون أيضًا أن اعتناق الإسلام أعفى النوبيين من واجب دفع الجزية . ونحن نجهل إلى أي مدى طبّق هذا البند من اتفاقية شكنده . ولا جدال أن الأشخاص الذين دانوا بالإسلام أصبحوا بمنأى عن العبودية . ففي الماضي كانت الغزوات والتوريدات التي تتم بمقتضى البقط بل والهدايا في المناسبات وبيع العبيد إلى التجار المسلمين ، تحل بالسكان النوبيين في فترات نقص الأسرى . وفي ضوء الوضع الجديد واتساع « دار الإسلام » كان لا بدّ من البحث عن ميادين لصيد العبيد وشرائهم تقع على مدى أبعد جنوبًا وغربًا . ومن جانب آخر ، ربما لم يحدث إلاّ تغيير قليل في استخدام اليد العاملة المنزلية من الأرقاء ، التي بقيت ذات أهمية ثانوية في الحياة الاقتصادية وليس هناك أي شواهد على حدوث أي تغيير في التكنولوجيا البسيطة للعمل الزراعي .

وعلى وجه التأكيد كان اختفاء الحكم المركزي وإفقار السكان وسيطرة البداوة ، أعراضًا لتراجع اجتماعي مؤقت . فقد تدعّمت الأبنية العشائرية على حساب إمكانية نمو مؤسسات للدولة ذات طبيعة إقطاعية . وفي المقابل فإن النظم الجديدة الاجتماعية والثقافية التي اكتسبها السكان الجدد وطوّروها خلال وبعد الفترة المظلمة ، أهّلتهم على نحو أفضل لتقدّم تاريخي جديد في منطقة الاتصال بين المدارات الثقافية العربية والافريقية .

(٢٩) ابن خلدون ، ١٩٥٦ – ١٩٦١ ، مجلد ٥ ، ص ٩٢٢ – ٩٢٣ ، ذكره ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ .

النوبة وافريقيا

توصّل المؤرّخون المعاصرون للسودان النيلي ، وكانوا على حق في ذلك ، إلى اقتناع ثابت بأنه في الماضي أُعطيت أهمية كبيرة للعامل الشمالي (أو العربي) على حساب التطورات الداخلية الذاتية والصلات مع الثقافات الزنجية – الافريقية على حد سواء[٣٠] . فالتأثيرات في اتّجاه المنطقة السودانية والقادمة منها ، وذلك باعتبارها حالة خاصة ، كانت قد أصبحت منذ عهد طويل مجال بحوث نظرية مجرّدة وفيرة .

إن الطبيعة الخاصة للشواهد المتاحة سبب واضح لاختلال التوازن هذا . ان المصادر الأدبية العربية تشكّل المجموع الأهم ، في حين أن العمل المتعلّق بالآثار بدأ خطواته الأولى فحسب . ومع ذلك فإن علم الآثار المرتبط بدراسة الروايات الشفوية وبالدراسة المقارنة للمؤسسات ، قد حقّق نتائج هامة ، خاصة على المحور السوداني الممتد من الشرق إلى الغرب . ومن جانب آخر ، هناك خطر سوء الفهم القائم على أساس المطابقة الخاطئة بين الأسماء المحلية والعرقية المتشابهة في الظاهر والقائم على أنماط أخرى من التفسير غير السليم للشواهد العامة .

وفيما يتعلّق بمصر ، فإنه من الصواب أن نؤكّد مرة أخرى الدرجة المرتفعة للاستقلال الثقافي الخلّاق للنوبة بالنسبة للمجتمعات القبطية المماثلة . طبعًا العلاقات كانت وثيقة خلال فترة طويلة . وفي فترات الاضطهاد ، مضى الرهبان الأقباط يبحثون عن ملجأ لهم في النوبة[٣١] . وبالمقابل ، هناك شواهد كافية على التأثير النوبي في صعيد مصر . وقد وُجدت الوثائق النوبية الأكثر أهمية في أديرة قبطية ، في حين أن الاكتشافات التي تمّت في مصر تشمل أيضًا قطعًا كثيرة من الأواني الخزفية النوبية المعروفة باسم خزف دنقلة . ويكفي الإشارة إلى أنه توجد شواهد أدبية وأثرية كثيرة عن الصلات التجارية بين البلدين المتجاورين .

وفي الشرق أدّت نشاطات النوبة أيضًا إلى قيام صلات مع مصر والعرب . ونحن نعرف أشياء قليلة عن سياسة النوبة تجاه البجة الذين لم يتورّعوا في الأغلب عن القيام بغارات متقطّعة على المناطق المأهولة على شاطئ النهر . وحسب رواية ابن خلدون ، فإن البعض منهم اعتنق المسيحية . وما زال مجموع مشكلة الوجود النوبي في الصحراء الشرقية أمرًا يتطلّب التوضيح .

وبفضل الكتّاب العرب ، فإننا على علم أفضل بأحوال التجارة في البحر الأحمر ، التي كانت مزدهرة للغاية خلال الفترة التي تعنينا ، منذ أن جعل منه الفاطميون الطريق الرئيسي للتجارة مع الهند . وظلّ هكذا حتى حدثت الثغرة البرتغالية في بداية القرن السادس عشر . وكانت الموانئ الأساسية على الساحل السوداني هي عيذاب وسواكن ، وكلاهما أنشأه التجار المسلمون . وكانت التجارة بين هذه الموانئ وبين وادي النيل موجودة كلية في أيدي العرب . ويبدو أن البجة الذين كانت هذه التجارة تمر بأراضيهم ، كانوا متعاونين ولكن ليس بصفة كلية . وكان حسن نيتهم وأمن طرق القوافل ، تكفلها المعاهدات ، وفي بعض الحالات ، تخصيص جزء من العوائد للزعماء المحليين . وفي منطقة عيذاب ، اتجه هذا الجزء إلى

---

(٣٠) ب . ي . هـ . هير ، «المجتمع السوداني» ، ١٩٦٩ ، ص ٣٩ – ٥٨ ، لقد كانت الحاجة إلى مراجعة الدراسات السودانية من الدوافع الأساسية لتنظيم أول مؤتمر دولي عُقد تحت رعاية وحدة بحوث السودان بالخرطوم ، في فبراير ١٩٦٨ ، أنظر ي . ف . حسن ، ١٩٧١ .

(٣١) يتضح وجود الرهبان الأقباط فيما يتضح ، من شواهد القبور التي وُجدت في غزالي . أنظر ب . ل . شيني ، و هـ . ن . تشيتك ، ١٩٦١ .

التزايد ، من عصر الفاطميين حتى القرن الرابع عشر حين زار ابن بطوطة هذا الميناء المزدهر[٣٢] .

وكان ميناء عيذاب يخدم أساسًا التجارة مع مصر. وكذلك استخدمه الحجاج الذاهبون إلى مكة ، خاصة أثناء وجود الصليبيين في فلسطين ، والذين كانوا يشكّلون خطرًا على طريق سيناء. وشهد النصف الثاني من القرن الرابع عشر تدهورًا كبيرًا في التجارة الشرقية المارة بعيذاب ، بسبب ازدهار جدة على الساحل الأسيوي. ومن المؤكّد أن الاضطراب الدائم في المنطقة الداخلية للبلاد قد لعب دورًا في هذا. وفي عام ١٤٢٠ ، وجّه السلطان برسباي ضربة قاضية للميناء بإجراءات القمع ضد العرب المحليين والبجة المستعربين[٣٣] .

وبسبب موقعها الجغرافي ، ربما كانت سواكن منفذًا تجاريًا أهم بالنسبة للنوبة منها بالنسبة إلى جارها الشمالي. ان طبيعة المصادر المكتوبة التي لدينا لا توفّر لنا معلومات إلاّ عن العلاقة مع مصر. وفي ١٢٦٤ – ١٢٦٥ عاقب السلطان بيبرس ، حاكم سواكن العربي ، بحملة عسكرية ، لكنه وافق بعد ذلك على أن يعيّنه ممثلاً للمماليك. وخلال فترة معيّنة ، تجسّد خضوع حاكم سواكن في توريد ٨٠ عبدًا و ٨٠٠ جملاً و ٣٠ قنطارًا من العاج سنويًا ، وكلها سلع سودانية مميزة كانت مطلوبة دومًا[٣٤] . وفي منتصف القرن الخامس عشر ، استولى جيش المماليك من جديد على سواكن وخضعت لسلطانهم بشكل مباشر على نحو أكبر.

ورغم أن ذلك قد يبدو غريبًا فإن معلوماتنا عن علاقات النوبة مع أثيوبيا المسيحية قليلة بدرجة كبيرة. فقد ورد ذكر بعض الصلات المنفردة ، مثل البعثة النوبية التي أرسلت دون نجاح إلى البلاط الأثيوبي ، والتي تحدّث عنها الفاريز. ورغم نقص الشواهد ، يمكن أن نفترض أن العلاقات السياسية بين المسيحيين في النوبة وإثيوبيا كانت أوثق مما أمكن إثباته حتى الآن. ومن المحتمل أن تتكشّف شواهد جديدة على الجانب الأثيوبي.

ومن الجانب الجنوبي فإن الصورة غامضة بالمثل. بل إنه لا يمكن أن نحدّد بالتأكيد إلى أين كانت تمتدّ حدود علوة. وفي الوقت الحالي فإن المواقع الأبعد جنوبًا لنفس الثقافة شوهدت قرب واد مدني ، لكن اتساع نطاقها إلى أبعد من ذلك كثيرًا أمر محتمل ومن الممكن أيضًا أن نفترض أن المناطق الواقعة في هذا الاتجاه كانت تورد العبيد عادة. وقد ميّز المؤلّفون العرب الذين كتبوا عن علوة بين النوبيين وبين السود الآخرين. وهناك اسم عرقي ذكر مرات كثيرة هو كورسي ، أو كيرسا أو كارسا[٣٥] ، وقيل إنهم كانوا يعيشون عراة. وفي مصدر آخر ، كانوا يلبسون جلود الحيوان وانهم كانوا يقومون بالحصاد بالاستعانة بالارواح المحلية. وقد ذكر سكان سود آخرون ربما كانوا عراة يعيشون وراء علوة باسم تاكوتا أو باكوتا[٣٦] .

ونعلم من ابن الظاهر أنه في نحو ١٢٩٠ هاجم عدو بلاد العنج ، أي علوة . ويفترض ي.ف. حسن

---

(٣٢) ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ٧٣.

(٣٣) أورد ليون الأفريقي ، نحو عام ١٥٢٦ ، رواية متأخرة متعلقة بتدمير عيذاب. أنظر أ. إيبولار ، ص ٤٨٤ – ٤٨٥. ونلاحظ أن عيذاب ذكرت فيها نتيجة لخطأ في النطق كالتالي زبيد أو زابيد. أنظر أيضًا حول هذه المسألة ، ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ٨١ – ٨٢.

(٣٤) ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ٨٥ ، وقد اعتمد على كلام النويري.

(٣٥) ذكره ابن سليم ، ابن حوقل ، ابن الظاهر ، وقد أشار أ. ج. أركل ، (١٩٦١ ، ص ١٩٥) إلى أن هؤلاء ربما كانوا من سكان دارفور أو سكان مابا الوادي المماثلين لهم.

(٣٦) ذكره ابن الفقيه والمسعودي ، أنظر ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ٧ ، ويشير أ. ج. أركل ، من جانبه (١٩٦١ ، ص ١٨٩ – ١٩٠) أن اسمهم ربما بقي في اسم «جبل الكون» في كردفان أو في اسم «جوكون» في نيجيريا.

ان هذا الهجوم لا بدّ وأنه جاء من الجنوب ، ربما كانوا جدود الفونج ، في حين يقترح أ.ج. أركل أن الغزاة أتوا من كانم أو من دارفور [٣٧] . فالهجمات القادمة من الجنوب لم تكن نادرة بالتأكيد وأخيرًا قبل أن الفونج تقدّموا في الجزيرة ابتداءً من الجنوب هابطين بامتداد النيل الأزرق. وإجمالاً فإنه ما يغري أن نتصوّر أنه ربما وجدت علاقة معيّنة بين انهيار النوبة المسيحية ، وبين ما يبدو أنه رد فعل مسلسل مترتّب على تحرّكات السكان في كل المنطقة المجاورة ، ربما مع دفع أهل النيل نحو الجنوب متجهين من النيل الأعلى إلى البحيرات الاستوائية [٣٨] .

وإلى الغرب ، فإن تحديد الصلات والتأثيرات المتبادلة أسهل ، كثيرًا. ومع نقص الحس النقدي الذي عزا بصفة عامة انتشار صناعة صهر الحديد إلى مروى القديمة ، اعتبرت النوبة مركزًا لإشعاع المسيحية نحو مناطق بعيدة للغاية مثل افريقيا الغربية. وقد أثار هذا بعض التحفّظات إن لم يكن تشكّكًا كاملاً. وقد جمع و. مونيريه دوفيلا ، روايات مسيحية كثيرة عن افريقيا الغربية [٣٩] ، كما تبنى علماء معاصرون فكرة انتشار المسيحية على نطاق واسع ابتداءً من النوبة [٤٠] . وبالمثل كانت الأصوات المتشكّكة كثيرة ، وأبرزت احتمال سوء الفهم فيما يتعلّق بالتأثير الإسلامي [٤١] . أو وجود طرق أخرى ممكنة للمسيحية عبر الصحراء ، مثلاً عن طريق جوران.

والواقع أن مشكلة تأثير النوبة المسيحية على الغرب الافريقي أوضح قليلاً من مشكلة إشعاع ثقافة مروى ، التي طرحها بقوة أ.ج. أركل. ولا جدال في أن النوبة أوصلت إلى مرحلة النضج حضارة راقية مساوية لحضارات امبراطوريات السودان الغربي. ويمكن اعتبارها نموذجًا يغري بالاحتذاء. ولا يمكن ببساطة أن تطرح جانبًا الروايات الكثيرة لسكان غرب افريقيا المتعلّقة بأصلهم الشرقي. وقد كتب شيني بصدد هذا يقول: «أمام مثل هذا الحشد من المواد التي تشير دومًا إلى وجود صلات مع الشرق، فإنه ليس من المحتمل أن يكون ذلك خيالاً أو أسطورة ، ومن المحتمل أنها تشمل عناصر من الحقيقة ، وأنها تدل على الأقل على وجود تأثيرات ثقافية معينة قادمة من الشرق» [٤٢] . ولعلمه بأن الرواية الشفوية لا ترجع إلى ما يزيد عن نحو خمسة قرون إلاّ فيما ندر ، أشار شيني إلى أن هذه التأثيرات لا بدّ أن تعزى إلى النوبة في العصر الوسيط أكثر مما تعزى إلى مروى.

ويقدّم الكتّاب العرب قليلاً من المعلومات حول هذه النقطة. فيتحدّث ابن حوقل (القرن العاشر) عن شعبين غربيين هما «الجبليون» رعايا دنقلة ، وعن «الأحاديون» الذين يخضعون لعلوة. وكانوا يعيشون في بلد يُدعى أمقل ، يركبون الإبل ويحملون أسلحة ويلبسون أحذية تشبه أحذية المغاربة الذين يشبهونهم. وليس من السهل تفسير هذه المعلومات المحرّفة جزئيًا على وجه التأكيد [٤٣] .

---

(٣٧) أنظر ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ١٣٧ ، وأ. ج. أركل ، ١٩٦١ ، ص ١٩٩.

(٣٨) أنظر المقال المثير لـم. بوزنانسكي ، في ي. ف. حسن ، ١٩٦٧ ، ص ٥١ – ٦١.

(٣٩) و. مونيريه دوفيلار ، ١٩٣٨.

(٤٠) للحصول على تفاصيل أكثر أنظر ي. هوفمان ، «سايكلوم» ، مجلد ١٩ ، عدد ٢ ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٩ – ١٤٢. وقد تمّ استئناف بحث موضوع الإسهام المشترك البيزنطي والفارسي الكسروي والنوبي في إضفاء طابع مسيحي على افريقيا ، بواسطة ث. بابادوبلوس ، ١٩٦٦ ، وسار في ذلك على مسار لِـفروبينوس ، أنظر العرض الذي قدّمه د. ف. ماك كول ، (١٩٦٨) ، في AHS ، مجلد ١ ، عدد ٢ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥٥ – ٢٧٧.

(٤١) أنظر س. هـ. بيكر ، «الإسلام» ، مجلد ٤ ، ١٩١٣ ، ص ٣٠٣ – ٣١٢.

(٤٢) أنظر مقال ب. ل. شيني ، وي. ف. حسن ١٩٧١ ، ص ٤٨.

(٤٣) أنظر ابن حوقل ، ج. هـ. كرامرز ، ١٩٣٨ – ١٩٣٩ ، ص ٥٨.

وحاليًا تشمل الشواهد المادية على التأثير النوبي تجاه الغرب ، نقشًا أثريًا باللغة النوبية القديمة ، وبصفة خاصة هياكل من الطوب الأحمر في زينكور وأبو سفيان ، على الطريق المار من الشرق إلى الغرب عبر كردفان الشمالية . ويشبه خزف زينكور خزف سوبة . وهذان الموقعان ما زالا ينتظران القيام بما يزيد عن مجرد عملية كشف بسيطة أو عمليات جمع من على السطح[٤٤] . وتوجد هياكل من الطوب الأحمر من نفس الطراز أبعد من ذلك عبر دارفور وتشاد (موقع عين جالاكا) ونحو بورنو ، وكان أبعد هذه المواقع غربًا هو نجورو في شمال نيجيريا . وفي دارفور تضم المواقع القصر الملكي في أوري ، على نحو ٩٠٠ كيلومتر من دنقلة . ويشير أركل إلى أنه ربما كانت أوري[٤٥] . في عين فرح ، شمال دارفور، من الأماكن التي زارها مبعوث السلطان قلاوون عام ١٢٨٧ بناءً على طلب آدور ، وقد حفظت أسماؤها في النص العربي في شكل حروف ساكنة فحسب ، وهناك توجد أطلال مباني بالطوب الأحمر التي حدّدت بعد تردّد باعتبارها ديرًا وكنائس ، تضم قطع خزفية ذات أصل نوبي ترجع إلى فترة تمتدّ من القرن الثامن حتى الحادي عشر ، ومزيّنة برموز مسيحية . ويرجع تاريخ المباني إلى نفس الفترة وحتى القرن الثالث عشر دون تأكيد نهائي لهذا التاريخ[٤٦] . وفي هذه السلسلة من المواقع المتشابهة ، فإن برنين كازارجازو في بورنو هو الوحيد الذي يمكن تحديد تاريخه بدقّة معيّنة ، فهو يرجع إلى القرن الخامس عشر أو القرن السادس عشر .

وقد وُجد خزف يحمل التأثير النوبي ويرجع تاريخه إلى عام +١٠٠٠ في مواقع تشادية في كورو تورو وبوشيانجا على بعد ما يزيد عن ١٤٥٠ كيلومترًا من النيل[٤٧] . وليس من الممكن بعد تحديد ما إذا كان هذا يبين وجود تجارة مع النوبة أو أنه يتعلّق بمؤسسة محلية . وكذلك يجب ملاحظة أن الموقعين قد قدّما شواهد على وجود صناعة تعدينية ، الأمر الذي يطرح من جديد قضية انتقال هذه التقنية بدءًا من وادي النيل .

ويظل نطاق علاقات النوبة مع كانم – بورنو وربما مع السودان الغربي ، غير مؤكّد في انتظار إجراء بحوث أثرية على نحو نظامي . والمنطقة الرئيسية التي يتعيّن دراستها هي دارفور ، التي ما زال تاريخها الرسمي قبل سيطرة كايرا الفور ابتداءً من عام ١٦٤٠ ، اسطوريًا وتخمينيًا بدرجة كبيرة ، وبصفة عامة ليس هناك اتفاق إلاّ على الانتقال السلمي من الداجو في الجنوب إلى التنجور في الشمال ، وأخيرًا إلى الفور[٤٨] . وقد أثارت قضية أصل المجموعتين الأوليين وتاريخ هيمنة كل منهما كثيرًا من التكهنات[٤٩] .

(٤٤) أنظر ي. بن، في *SNR* ، مجلّد ١٤١، ١٩٣١، ص ١٧٩ – ١٨٤، وب. ك. شو ، في *SNR* ، مجلّد ١٩، ١٩٣٦، ص ٣٢٤–٣٢٦.

(٤٥) أ. ج. أركل، ١٩٦١، ص ١٩٨.

(٤٦) حول عين فرحات أنظر أ. ج. أركل ، «كوش» ، مجلد ٧ ، ١٩٦٠ ، ص ١١٥ – ١١٩ ؛ ر. ل. دو نيفيل ، وأ. أ. هوتون ، ١٩٦٥ ، ص ١٩٥ – ٢٠٤ . وقد ركزت هذه الدراسة الأخيرة على الطابع الإسلامي للمباني المشيّدة فوق آثار أقدم عهدًا.

(٤٧) ر. موني ، ١٩٦٣ ، ص ٣٩ – ٤٥ .

(٤٨) للحصول على موجز مختصر لمعارفنا عن هذه المسألة ، أنظر هـ. ج. بلفور – بول ، ١٩٥٥ ، وحول التطورات أنظر ج. د. لامبن، ١٩٥٠ ، ص ١٧٧ – ٢٠٩ وكذلك أعمال أ. ج. اركل ، ذكرناها من قبل وبصفة خاصة الهامش (٥٠) أدناه.

(٤٩) حول آثار المسيحية لدى التونجور ، أنظر هـ. أ. مايكل ، ١٩٢٢ ، لقد أورد ج. نانتيجال ، وهـ. كاربو ، الرواية الخاصة بأصلهم الهلالي ، وبالمقابل أورد هـ. بارث ، رواية أخرى تبيّن أنهم جاءوا من النيل ، في حين حاول س. هـ. بيكر ، التوفيق بين الاثنين. وتوجد تكهّنات أخرى كثيرة في كتابات هـ. ر. بالمر.

ومن المحتمل أن قوتها قد تزامنت خلال فترة معينة من الزمن ، وذلك بسبب اختلاف مواقعها. وأن الأنساب والروايات المتوافرة لدينا عن موضوعهم زائفة بشكل واضح حسب النظام المعروف جيدًا لبحث الأسلاف العربية.

وقد قام أ.ج. أركل بمعظم الجهود لإعادة صياغة تاريخ دارفور. وفي حين أن فرضه الأول يرجع بتاريخ هيمنة تونجور إلى ١٣٥٠ – ١٥٣٥ ، فإن تحديد التأثير المسيحي في عين فرح جعله يعدله. فهو يضع حكم التونجور تحت الحماية النوبية ، ويجعل ذروته تقع بين القرنين الثامن والعاشر (٥٠) . فهل يمكن اعتبار المعلومات التي يقدّمها ابن حوقل تأييدًا لهذه المقولة؟ الأكثر من هذا ، أن أركل رأى أن اسم تونجور مشتق من المقرة ، كما يعتقد بوجود صلة مع اسم أحمد المعقور وهو «الحكيم الأجنبي» الذي ورد في أساطير دارفور. وهو يعتقد أن دارفور قد غزاها نحو ١٢٤٠ الملك دونمه الكبير ، ملك كانم ، الذي امتدّت سلطته حتى النيل في مريس ، عند أقرب نقطة من طريق الصحراء المسمى درب الأربعين. ويفترض الفرض نفسه تأثيرًا قويًا لبورنو على دارفور خلال الـ ٤٠٠ سنة التالية وبصفة خاصة في ظل حكم ادريس (٥١) .

ويوجد دليل داخلي واضح على تشابه المؤسسات التي تقابلها في كافة الدول الإسلامية الجديدة في سهوب السفانا النيلية التشادية ، والذي ربما يفسر باعتباره علامة على تأثير ثقافي للبورنو ، ولكنه ليس بالضرورة علامة على تفوق سياسي. ويبدو أنه يمكن تبين هذا التأثير إلى جانب أشياء أخرى في التقسيمات الرباعية في الإدارة ، وفي بعض الملامح المعمارية ، وفي مركز الملكات الأمهات في الحكم. ومع ذلك فإن هذه السمة الأخيرة نجدها أيضًا في النوبة.

وحسب رأي أركل ، كانت أوري ، في شمال دارفور ، مركزًا لسيطرة التونجور ، وفيما بعد الكانمي. وربما كانت مركزًا هامًا للوكالة التجارية البعيدة المدى عند تقاطع درب الأربعين وطريق السفانا المار من الشرق للغرب ، المسمى بالعربية طريق السودان. وخلال الفترة التي نبحثها ، يمكننا افتراض أن التجارة عبر هذا الطريق قد شهدت فترات ازدهار وفترات ركود ، لكنه لا يبدو محتملاً أنه استخدم للحج إلى مكة قبل القرن السادس عشر.

ولا تشمل المصادر المكتوبة أي دليل مناقض. فقد كانت طرق المرور المعروفة للحجاج ابتداءً من غرب السودان من جنوبه ، بما في ذلك الرحلات الشهيرة لحكام مالي ، والصنغي وبورنو ، تتجه نحو شاطئ افريقيا الشمالية ، ومن هناك تمرّ بمصر عادة ، وبعيذاب. ولا يبدو أن الطريق البري الداخلي على امتداد النطاق المأهول من السودان ، قد اتّخذه الحجاج – إلاّ مؤخرًا بعد التغيرات الهامة التي حدثت في القرن السادس عشر. وفي حين أنه من جانب كان للغزو المراكشي للصنغي واختلال الأمن المتزايد تأثير ايجابي على طرق غرب الصحراء ، فإن ظروفًا مواتية من جانب آخر نشأت في السودان الغربي نتيجة اختفاء المؤسسة المسيحية في وادي النيل ، وصعود السلطة الإسلامية في سنار ودارفور وواداي. ومع ذلك لم تزد حركة الحجاج على طريق السودان إلاّ ببطء ، وكان لا بدّ من مرور وقت كبير حتى تأخذ أبعادًا

(٥٠) أ. ج. أركل ، في SNR ، ١٩٣٦ ، ص ٣٠١ – ٣١١ ؛ ١٩٣٧ ، ص ٩١ – ١٠٥ ، ١٩٤٦ ، ص ١٨٥ – ٢٠٢ (عن الرأي الأول). ثم قدّم فكرة أخرى أنه إلى جانب دارفور وعاصمتها أوري ، فإن مملكة تونجو الأسطورية «الوثنية» في الوادي ، وعاصمتها وارا ، كانت في الحقيقة احدى مقاطعات المقرة. SNR ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤ – ٤٧ ، وأخيرًا «كوش» ، ١٩٦٣ ، ص ٣١٥ – ٣١٩.

(٥١) أنظر أيضًا الفصل ١٠ أعلاه.

كبيرة[٥٢].

وفيما يتعلّق بدارفور، من المفترض عامة أن الإسلام ظهر فيها كدين للبلاط في ظل التونجور، لكنه لم يصبح شائعًا إلاّ في ظلّ الكايرافور.

وخلال هذه الفترة، تأثّر مجموع المنطقة النيلية التشادية بدرجة كبيرة بتغلغل السكان العرب. ولا يمكن فهم التطوّرات الثقافية والتجارية والسياسية اللاحقة دون أن نضع في الاعتبار التأثيرات المتزايدة دومًا لوجودهم على السكان السودانيين. وفي ١٣٩١ تلقّى السلطان برقوق في القاهرة خطابًا من ملك بورنو يشكو فيه من سوء سلوك قبائل جذام والعرب الآخرين الذين كانوا يهاجمون شعبه ويبيعون رعاياه دون تمييز لتجار العبيد في مصر وسوريا وغيرهما. وهذه الوثيقة التي أوردها القلقشندي[٥٣] تعتبر إلى جانب أشياء أخرى شهادة فريدة على العلاقات القائمة في هذا الجزء من العالم، في الميدان السياسي وكذلك في الميدان التجاري.

ومثلما حدث في وادي النيل، عدل الوجود العربي، وإن كان بدرجة أقل، الخريطة العرقية للمجال النيلي التشادي وجعل الظروف مواتية لتقدّم انتشار الإسلام وتطوّر دول سودانية جديدة باتساع السلسلة صوب الشرق، وفي ظلّ الغياب الكامل لمصادر مكتوبة أقدم، انعكست هذه البدايات الجديدة في تجميع معقّد لمادة أسطورية ثرية للغاية ووفيرة في المنطقة. ان عملية نظامية لاستكشاف الآثار القديمة، أمر ضروري لأقصى حد لكشف ستره.

(٥٢) أنظر ي. النقر، ي. ف. حسن، طبعة ١٩٧١، ص ٩٨ – ١٠٩.

(٥٣) القلقشندي، طبعة القاهرة، ١٩١٣ – ١٩١٩، مجلد ١، ص ٣٠٦ ومجلد ٨، ص ١١٦ – ١١٨.

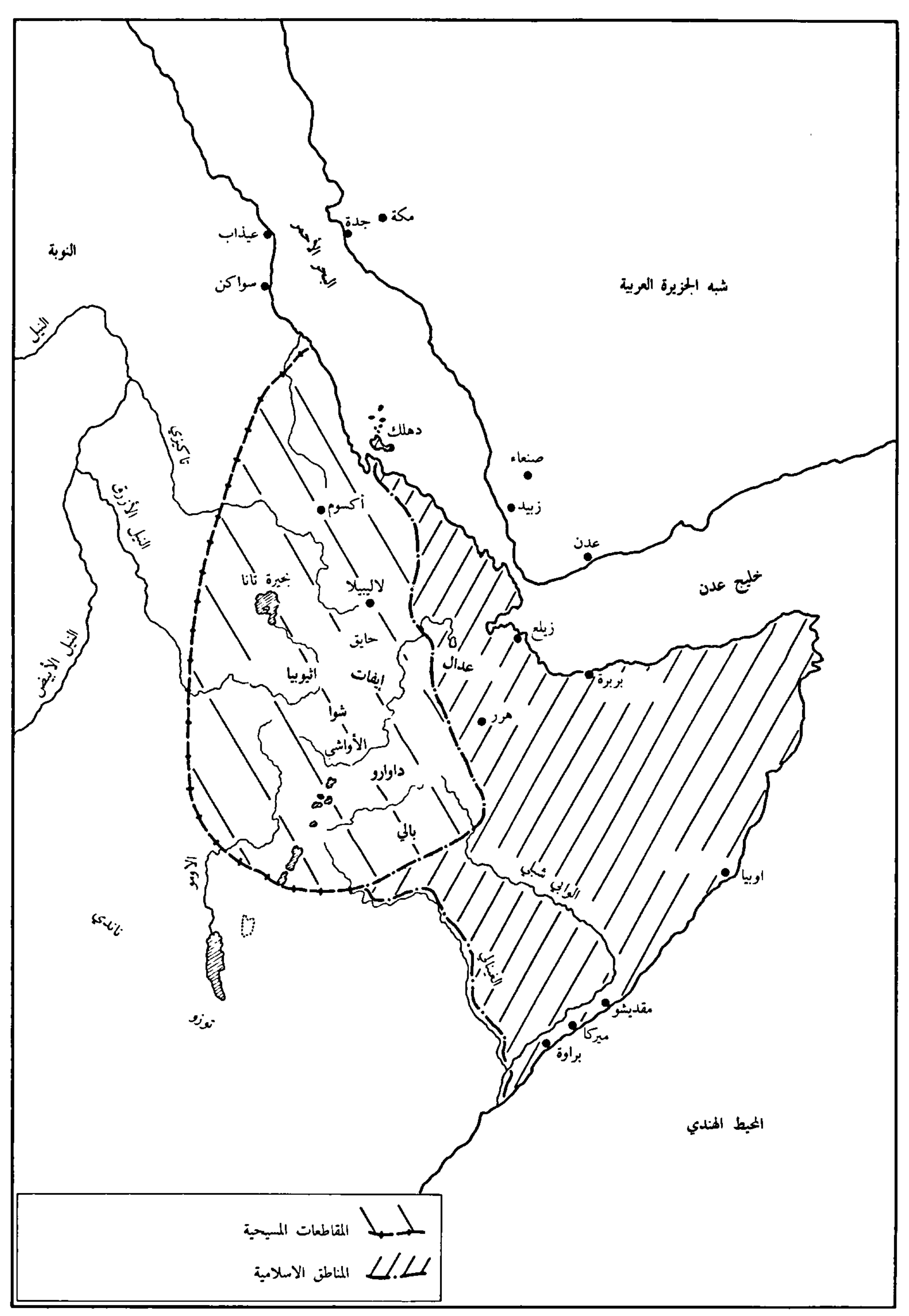
الفصل السابع عشر

القرن الافريقي – « السليمانيون » (المنتسبون إلى الملك سليمان الحكيم) في إثيوبيا ودول القرن الأفريقي

بقلم ت. تامرات

الجغرافيا السياسية للقرن الافريقي من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر

منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر، بدت الجغرافيا السياسية للقرن الأفريقي معقّدة تعقيدًا بالغًا. فقد كانت المملكة المسيحية التي انتقلت لتوها، عام ١٢٧٠، من أيدي الزاغويه إلى أيدي الأسرة « السليمانية » (التي تنتسب إلى الملك سليمان الحكيم) هي أشهر دول المنطقة في جبال شمال إثيوبيا. وكانت حدود هذه المملكة تمتدّ آنذاك تقريبًا: في الجنوب، إلى مقاطعات شوا الشمالية؛ وفي الغرب، إلى المنطقة التي تقع شرقي بحيرة تانا والمجرى الأعلى للنيل الأزرق؛ وفي الشرق، إلى حافة الهضبة الاثيوبية. لكن، فيما عدا هذه الدولة المسيحية، كان يوجد في المنطقة عدد من الكيانات السياسية المختلفة في مداها وأهميتها. ففي الشمال الغربي مباشرة لمملكة الزاغويه القديمة، فيما وراء نهر « تكازي » (نهر عطبرة حاليًا) كوّن الفلاشة (ويدعون أيضًا بيهود إثيوبيا)، فيما يبدو، دولة مستقلة قاومت باستمرار محاولات الغزو المسيحية. ويبدو أن مملكة غوجام التي تتحدّث عنها الروايات وجدت في القطاع الجبلي، جنوبي بحيرة تانا مباشرة. لكن هناك شيئًا أهم من ذلك: هناك ما يحمل على الظن – حسب الروايات التاريخية الخاصة بالمنطقة – بأن دولة قوية هي « مملكة داموت »، كانت تسيطر على أراض واسعة جنوب خانق النيل الأزرق. ولا نعرف شيئًا تقريبًا من هذه المملكة الأفريقية الموغلة في القدم، ولكن الروايات التي تذكرها تشير بوضوح إلى أن ملوكها كانوا يهيمون حقًا على هضبة شوا كلها. قبل ظهور الإمارات المسيحية والإسلامية في المنطقة بوقت طويل.



• إثيوبيا والقرن الافريقي

وقد وجدت أيضًا ، في المنطقة ، إمارات إسلامية قائمة بطول الساحل الممتد من أرخبيل جزر الدهلك ، في البحر الأحمر ، إلى مدينة براوة الصومالية المطلة على المحيط الهندي. ويجد هذا الموقع الجغرافي تفسيرًا له ، فيما يبدو ، في أهمية الساحل الاستراتيجية ، بالنسبة للتبادل بين الهضبة الغنية للحبشة الوسطى والجنوبية ، وساحل افريقيا الشرقية ، ومناطق الخليج العربي والبحر الأحمر.

ومنذ نهاية القرن الثالث عشر ، ظهرت مع هذه المبادلات جاليات إسلامية قوية انتهى بها الأمر إلى تكوين امارات وكيانات مختلفة للدولة حسنة التنظيم ، كان أهمها ، في الداخل : شوا ، وإيفات ، وداوارو ، وهديا وفِتجار وبالي ، وعدال[1] . وعلى الرغم من أن المنشآت الرئيسية على الساحل – دهلك ، وزيلع وبربرة ، ومقديشو ، وميركا ، وبراوة – تشبّعت فيما يبدو بالثقافة الإسلامية أكثر من مثيلاتها في الداخل ، فإن هذه الجاليات التي تسكن داخل البلاد هي التي دأبت بكل المثابرة وكذلك بالتوفيق – على خلق أمبراطورية إسلامية حقيقية في القرن الشرقي لأفريقيا ، في المناطق التي يتكوّن منها الصومال حاليًا.

الشعوب واللغات

كان المؤرّخ الإيطالي المعروف كونتي روسيني على حق عندما صوّر الحبشة على أنها «متحف للشعوب» . وهذا التشبيه الذي يعكس قدم صورة الحبشة العرقية واللغوية وتعقيدها البالغ يصدق أيضًا ، على القرن الأفريقي في مجموعه. ففيما عدا المجموعات «الكنغولية – الكردفانية» و«الغويزانية» ، توجد عائلتان رئيسيتان من اللغات الافريقية وهما العائلة ، «الأفرو – آسيوية» والعائلة «النيلية – الصحراوية» ممثلتان على نطاق واسع في المنطقة. وتأتي المجموعة الأفرو – آسيوية في المقدمة ، من حيث الانتشار والأهمية ، ما دام ثلاثة من فروعها الستة مستخدمة : وهي السامية والكوشية والأوموتية ، وكل منها مصدر للهجات متنوّعة للغاية[2] . ومن الواضح أن الغالبية العظمى من سكان القرن الأفريقي كانت طوال الفترة التي ندرسها في هذا الفصل تتكلّم الكوشية ، التي انقسمت عادة إلى كوشية الشمال (بيجا) ، وكوشية الوسط (آجيو) وكوشية الشرق[3] . وفي المنطقة التي يتكوّن منها شمال إريتريا اليوم ، كان البيجا يمثّلون الجماعة التي تسكن أقصى شمال المنطقة. ونجد ، جنوبي بلاد البيجا أناسًا يستخدمون لهجات مختلفة من الأجيو ويعيشون في الأراضي المرتفعة في وسط إريتريا وجنوبها (بيلين/بوغوس) ، وبعض مناطق تيغرية ، وبلاد الزاغويه في واغ ولستة ، وبلاد الفلاشة ، غربي نهر تاكازيه ، وفي مناطق غوجام الجبلية جنوبي الزاغويه وجنوب – شرقي بحيرة تانا. ومن الممكن أن تكون قد وُجدت في أمهرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، بعض المناطق المحصورة التي تتكلّم الأجيو. لكن ، داخل القرن ، كان يسكن أغلب

(١) إذا كان العمري (ترجمة فرنسية ، م. غودوفروى ، ١٩٢٧ ، ص ٢) يغفل ذكر عدال ، فهو يذكر مع ذلك سبعة «ممالك إسلامية في الحبشة» : إيفات وداوارو ، وعربابني ، أو عربايني ، وهادية ، وشارخة ، وبالي ، ودارا. فيما بعد أبقى المقريزي على هذه القائمة على ترتيب عناصرها ولم يدخل عليها أي تغيير. وذكر بلادها تحت اسم «ممالك بلاد زيلع» ، (طبعة ١٨٩٥) ، ص ٥.

(٢) لم يتفق المتخصّصون على تصنيف اللغات الأفريقية بعد.

(٣) م. ل. بندر ، ١٩٧٦.

الأراضي أناس يتكلّمون اللغات واللهجات المختلفة التي تتكوّن منها «الكوشية الشرقية» بقسميها الرئيسيين «البورجي – سيدامو» و«كوشية السهول». وكان «البورجي – سدامو» موزّعًا بالضرورة فيما يبدو على المنطقة المقسمة اليوم بين شوا الجنوبية، الآروسي، وبالي وأجزاء من هضبة هرر. أما «كوشية السهول»، فكان يتكلّمها سكان الأراضي المنخفضة، الجافة، الحارة الواقعة في الشمال بين سفح هضبة الحبشة والبحر الأحمر، وهي المنطقة الداخلية التي كان يسكنها الصوماليون عادة، وبضعة مناطق من إثيوبيا المعاصرة جنوبي وجنوب – شرق بحيرة شامو. ومن الأرجح أن تكون الشعوب التي تتكلّم لغة الغلا والتي انتشرت في القرن السادس عشر قد انطلقت من المناطق المحيطة بهذه البحيرة. أما الأومونية التي عُرفت، حتى عهد قريب، باسم «الكوشية الغربية»[٤]، فلعلّها كانت لغة سكان جنوب – غربي الحبشة، بين الجزء الجنوبي من خانق النيل الأزرق وحوض الأومو. وإذا كانت غالبية اللغات المتباينة التي تبعث من «الحامية» قد تركّزت حاليًا في مساحة ضيقة إلى حد ما من حوض الأومو فإن وجود «الشيناسا» و«الماو» وهما قريبتان منها، في جنوب – غربي غوجام والوليغا على التوالي، يدل، فيما يبدو، على أن «الأومونية» انتشرت انتشارًا أوسع في جنوب غربي الحبشة كله، قبل انتشار، الغلا في القرن السادس عشر.

والسامية هي الفرع الثالث من الأفرو – آسيوية الموجودة في الحبشة والقرن الأفريقي. ومن القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر كانت أغلب الشعوب التي سيطرت سياسيًا وثقافيًا على هذه المنطقة تتكلّم «السامية». وكانت اللغات السامية، الحبشية التي عُرفت بهذا الاسم الجماعي اللغات «السامية– الحبشية»، لغات متعدّدة ومتنوّعة وساد، فيما مضى، اعتقاد بأنها أُدخلت شمال الحبشة، بعد عام ٧٠٠ عن طريق مهاجرين قدموا من جنوب شبه الجزيرة العربية، لكن هذا الاعتقاد لم يعد مقبولاً. فهناك دراسات أحدث عهدًا تجعلنا نعتقد أن تاريخها يرجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير، ويظن اليوم أن الفرعين، الشمالي والجنوبي من اللغات «السامية – الحبشية» انفصلا قبل قيام اكسوم بثلاثة قرون على الأقل واتضح أن التوزيع الحالي لهذه اللغات كان قد بدأ يرتسم منذ نهاية القرن الثالث عشر. وقد كانت الغيز، احدى اللغات «السامية – الحبشية» الشمالية الثلاث، هي اللغة، الأدبية للكنيسة الحبشية منذ القرن الرابع، ولهذا السبب، بقيت حتى أيامنا هذه، واحتفظت بأشكالها الأصلية كما هي لم تمس. أما اللغتان الأخريان التغرية والتغريغنا، فكانتا وما زالتا لغتي المقاطعات التي كانت فيما مضى أهم مقاطعات أمبراطورية أكسوم، أي إريتريا وتغري. وباستثناء بعض المجتمعات التي تتكلّم التغرية التي استقرّت على الساحل وفي شمال إريتريا، انتقلت القطاعات الأخرى التي سكنها مستخدمو التغرية والتغريغنا أيام أمبراطورية أكسوم، كما هي بدون أن تمس تقريبًا، إلى مملكة الحبشة المسيحية، وذلك في القرن الثالث عشر. وفي مقابل ذلك، شهدت مجموعة اللغات واللهجات العديدة المكوّنة للغات «السامية – الحبشية» الجنوبية تطوّرًا تاريخيًا أكثر تعقيدًا لا تزال تفاصيله غير معروفة على نحو جيد. وتتجه محاولات تصنيف اللغات «السامية – الحبشية» الجنوبية إلى تمييز فرعين رئيسيين منها أطلق عليهما على التوالي اسم الفرع «الخارجي» والفرع «العرضي»[٥]. ويبدو أن، مستخدمي السامية – الحبشية الجنوبية «الخارجية» (الغفات، والغوراجية، في وسط البلاد، وشمالها وغربها) كانوا رأس حربة في انتشار السامية في وسط الحبشة، وخلال الفترة التي نحن بصددها، كانوا قد توصّلوا إلى احتلال قطاع جغرافي يكاد يكون متصلاً

(٤) أسهم هارولد فلمنج إسهامًا بارزًا عندما أثبت أن الأوموتية التي كانت تصنف في السابق على أنها «كوشية – غربية» تكوّن عائلة أفرو – آسيوية مستقلة، ١٩٦٤.

(٥) م. ل. بندر، ١٩٧٦.

بين مجرى الأواش الأعلى وخانق النيل الأزرق، فيما يكون شوا الغربية اليوم. ونحن نجهل بداية تاريخهم، لكن من الواضح، أنهم كانوا مستقرين في هذه المنطقة قبل تأسيس الكنيسة المسيحية في أكسوم وقبل أن يتسع نطاق الدين الجديد في اتجاه الجنوب. ويُقال إن بعض المجموعات ظلّت في حرب مع الحبشة المسيحية حتى القرن الرابع عشر والخامس عشر، بل والسادس عشر. وأقدم الحالات التي ذكرت عن مستخدمي «السامية - الحبشية» الجنوبية، «العرضية» (الأمهرية، والأرغوبة، والغوراجية الشرقية، الهررية) تجعلنا نعتقد أن الأمهريين أنفسهم لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية تمامًا بعد في بداية القرن التاسع، ومع هذا، أخذوا يندمجون، منذ ذلك الحين، في هذه المملكة المسيحية التي انتهى بهم الأمر إلى السيطرة عليها في نهاية القرن الثالث عشر عندما جاءت الأسرة المسماة بالسليمانية. والحديث عن بداية الفروع الأخرى «للسامية - الحبشية» الجنوبية «العرضية» (الأرغوبة، والغوارجية الشرقية، والهررية) أصعب من ذلك بكثير. ويبدو أن من كانوا يستخدمون هذه الفروع كانوا موزّعين على جنوب وجنوب - شرق منطقة أمهرة، ومن الممكن جدًا أن يكونوا قد كوّنوا العناصر الأولى للمجتمعات الإسلامية التي انتشرت ونمت على الأرجح في شوا، والإيفات[٦]، والفِتجار، والداوارو أيضًا. ويجدر بنا أن نلاحظ، في هذا الصدد أن مدينة هرر القديمة المحصنة وضواحيها - حيث يتكلّم الناس الهررية والأرغوبة اليوم - كانت بالذات المراكز السياسية الجديدة التي أنشأها أمراء والَسْمَة المسلمون الذين، نفوا من إيفات - ولسوف نرى ذلك في هذا الفصل - عندما ضمّ المسيحيون أملاكهم القديمة، في نهاية القرن الرابع عشر. وكان الناس يتكلّمون العربية أيضًا، إلى جانب فروع «السامية - الحبشية» هذه الموزّعة على هذا النحو داخل الحبشة، من بداية إلى نهاية الممر الطويل الذي يربط مرتفعات إريتريا بحوض الأواش الأعلى: فقد كانت العربية هي اللغة الدينية والتجارية المستخدمة في كافة مدن البحر الأحمر، والخليج والمحيط الهندي، بطول الطرق التجارية الكبرى وفي الأسواق الكبيرة في الداخل؛ وقد تمّ العثور بالفعل في عدة مناطق على شواهد مقابر تحمل كتابة باللغة العربية.

الإمارات الإسلامية الساحلية

فيما عدا مملكة إثيوبيا المسيحية وبعض من أقوى الإمارات الإسلامية لا نعرف شيئًا تقريبًا عن الدول العديدة التي وُجدت بلا شك في المنطقة، في نهاية القرن الثالث عشر.

ففي تاريخ المنطقة لا تظهر الدول الافريقية القديمة - الفَلاشة، وغوجام، وداموت -، كما لا تظهر الشعوب الكثيرة التي اعتنقت الإسلام وكان يمتلئ بها الساحل والمناطق الداخلية من القرن، إلاّ إذا كان جيرانها الأقوى منها، مسلمين كانوا أم مسيحيين، قد أخضعوها سياسيًا. وبما أن الهدف من هذا الفصل هو إبراز تفاعل هذه الكيانات السياسية المختلفة، بقدر الإمكان، فيجدر بنا أن نشير، منذ الآن، إلى أن المعلومات التي توجد في متناول أيدينا لكي نعيد صياغة التاريخ السياسي والثقافي لشعوب القرن الأفريقي لا تخص إلاّ إثيوبيا وأقوى الدول الإسلامية، مثل سلطنة إيفات، وداوارو، وعدال، ودهلك. وبصفة عامة، أهملت دراسة التاريخ المحلي لهذه الدول القديمة إهمالاً شديدًا ولا بدّ من القيام بأبحاث

(٦) أ. تشيروللي، مجلد ١، ١٩٤١، ص ٣٢ - ٣٤.

لغوية وأثرية عديدة قبل أن نتمكّن من الحديث عن الحركة الثقافية والسياسية لهذه الشعوب ، بمزيد من اليقين.

إذن، إذا كان يصعب علينا، على ضوء معلوماتنا الحالية، أن نحدّد الخطوط الرئيسية والخواص البنيوية لتطوّر جزء كبير من شعوب القرن، خلال هذه الفترة، فإن استغلال بعض المصادر العربية يمكننا من أن نرسم لوحة سريعة لمختلف الإمارات الإسلامية الواقعة على الساحل، تلك التي نشأت مع التجارة والتبادل وكان التجار العرب يعرفونها إلى حد ما ويتردّدون عليها.

تقع جزر دهلك في أقصى شمال القرن الأفريقي ، وتسيطر على قناة مصوع ، وتُعتبر من الناحية العملية ، هي وجزر فرسان التي تقع على ساحل شبه الجزيرة العربية ، جسرًا بين اليمن وشاطئ إريتريا، ونقطة توقّف هامة بالنسبة للحركة البحرية على امتداد البحر الأحمر . وكانت هذه الجزر قد لعبت هذا الدور في الأزمنة القديمة واحتلّ المسلمون أكبرها – دهلك الكبير – في وقت مبكر ، في القرن السابع ، وجعلوا منها منفى وسجنًا في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، قبل أن تسقط بين أيدي أسرة زبيد اليمنية في القرن التاسع [٧] .

انتهز الأرخبيل فرصة الخلافات الداخلية في العالم الإسلامي ، في القرن الثالث عشر ، واستطاع أن يستعيد استقلاله، وأقام إمارة اتجهت إلى التجارة والقرصنة ونجحت في وضع حد لتهديدات مماليك مصر بالدبلوماسية النشطة وسياسة فعّالة من التحالف الانتهازي مع أولئك المماليك أنفسهم ، ضد نزعات الهيمنة التي كان يبديها حكام اليمن أو إثيوبيا. وآتت سياسة ملوك دهلك ثمارها ، حيث كان الأرخبيل لا يزال مستقلاً فيما يبدو حتى بداية القرن السادس عشر ، عندما وصل إليه البرتغاليون[٨] .

وبفضل ابن بطوطة[٩] ، الذي مرّ بطول الساحل الشرقي لأفريقيا بأكمله من شواطئ البحر الأحمر المصرية إلى كيلوه ، لدينا – بالنسبة للقرن الرابع عشر – بعض التفاصيل الخاصة بالمنطقة التي تقع بين زيلع ومقديشو. وتبدو لنا زيلع كمدينة تسكنها جالية سوداء، البربرة، ومن المؤكّد أنهم من جنس البرابر الذي يتحدّث عنهم ياقوت[١٠] ، أي الصوماليون. وكانت المدينة نشطة للغاية في مجال التجارة، وتربية الابل والخراف وصيد الأسماك وكان الجو العام الذي يسودها حقًّا هو جو تجمع كبير يواجه مشكلات التحضر والنظافة.

أما مقديشو فكانت عاصمة تجارية كبرى. وكانت تربية الأغنام تمكّن سكانها من صنع «الأقمشة التي يُطلق عليها اسم المدينة ، وهي أقمشة لا نظير لها. ومن مقديشو كانت تصدر إلى مصر وبلاد أخرى»[٢٢] . وكانت الزراعة تسمح بإنتاج الموز والمانجو ، والخضر وكذلك الأرز ، وهو أساس التغذية. وكانت تتردّد على ميناء المدينة سفن كثيرة تلتفّ حولها بمجرّد وصولها ، أساطيل «السنابك» – وهي مراكب صغيرة – كانت تُستخدم بلا شك في الصيد ونقل البضائع إلى ضواحي المدينة. وصوّرت المدينة على أنها جماعة متحضرة للغاية نمت فيها إلى حد كبير روح الكرم والضيافة التي يتميز بها الوسط التجاري

(٧) أنظر ، «دائرة المعارف الإسلامية» ، مجلد ٢ ، ١٩٦٥ ، ص ٩٢ – ٩٣.

(٨) أنظر ج. ويت ، ١٩٥٢ ، ص ٨٩ – ٩٥.

(٩) أنظر خاصة ابن بطوطة ، ترجمة فرنسية ، س. ديفريمري وب. ر. سانجينتي، ١٨٥٣ – ١٨٥٨ ، مجلّد ١١ ، ص ١٧٩ – ١٨١ ؛ وترجمة ر. موني وآخرين ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢ – ٢٦.

(١٠) ياقوت ، طبعة وستنفيلد، ١٨٦٦ – ١٨٧٣ ، مجلد ١ ، ص ١٠٠ ، مجلد ٢ ، ص ٩٦٦ ، ومجلد ٤ . ص ٦٠٢.

(١١) ابن بطوطة ، ترجمة ر. موني وآخرين ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣.

وتسيطر عليها أرستقراطية كبيرة مكوّنة من كبار التجار والفقهاء وموظفي السلطان ، وكان السلطان نفسه ، وهو «شيخ» ، حسب تعبير ابن بطوطة ، على رأس تنظيم متين نشأ بلا شك عن ضرورة تأمين التبادل على أفضل وجه. ولدينا قليل من المعلومات عن التطور السياسي للأسرة الحاكمة وعن الطبقة السياسية خلال هذه الفترة ، لكن كل شيء يشير إلى أن البلاط المحيط بسلطان المدينة كان يضمّ وزراء مختلفين لهم وظائف إدارية محدّدة.

في هذا العالم المتعدّد الأجناس ، كانت اللغة العربية تعيش جنبًا إلى جنب مع لغة البلاد التي لا يحدثنا عنها المؤلّف ، لكنها تشهد على قوة الأبنية الثقافية الافريقية ، على الرغم من أن تعلم القرآن قد تقدّم للغاية ، مع تقدّم نشر الإسلام. ويؤكّد ابن بطوطة بشدة على أن عدد الطلبة كان كبيرًا ، وأن المذهب الشافعي كان المذهب الغالب بين السكان.

ويمكّننا الجغرافيون العرب أيضًا من الحصول على بعض المعلومات الخاصة بثلاث مدن تجارية أخرى تقع على الساحل الصومالي للقرن الأفريقي : بربرة : وميركا ، وبراوة. وفي الواقع ، كانت بربرة مشهورة في الأزمنة القديمة بكونها ميناءً هامًا. ويصف كل من كتاب الأسفار في بحر إريتريا لهانون وبطليموس وكوزماس انديكوبليوتس المدينة ومنطقتها الداخلية وصفًا جيدًا جدًا. ومن المؤكّد أن أهمية هذه المدينة لم تقل بالنسبة للفترة التي نحن بصددها ، لأن اسمها أُطلق لفترة طويلة على خليج عدن وكان الجغرافيون العرب أنفسهم يسمونه ، على حد سواء ، «بحر أو خليج بربرة» ويرى هؤلاء الجغرافيون أنفسهم أن البرابر الذين يسكنون هذا البلد (وكان أغلبهم يرون أنهم يختلفون عن البربر) يتميّزون بوضوح عن السواحيليين والأحباش. ولدينا كل الأسباب التي تجعلنا نعتقد أنهم كانوا فعلاً من الصوماليين[١٢]. وعلى الصعيد السياسي أيضًا ، يبدو أن بربرة ارتبطت في تطوّرها بالمجتمعات الإسلامية الأخرى في المنطقة ، وخاصة بزيلع ، وهي قريبة منها نسبيًا ، وسلطنة عدال ، وذلك فيما بين القرنين التاسع والعاشر والقرن الرابع عشر.

كانت مدينتنا ميركا وبراوة تقعان في الطرف الآخر للقرن الأفريقي ، وتنتميان فيما يبدو إلى امبراطورية مقديشو التجارية وأسطولها الصغير ، مما يفسّر جزئيًا وجود تبادل تجاري اقليمي لا يُستهان به كأننا اذن بصدد شبكة من التبادل كثيفة نسبيًا تربط مقديشو بالمينائين اللذين يقلاّن عنها أهمية بكثير بالنسبة للتجارة بين الأقاليم ألا وهما براوة وميركا.

وكانت هذه المجتمعات الإسلامية المختلفة تمثّل قطعًا أساسية بحق فيما يسميه أندريه ميكيل «لوحة الشطرنج التجارية» وكانت تستمد أهميتها من داخل البلاد وهي مناطق واسعة ، غنية ونشطة.

الدول المسيحية والإسلامية في مواجهة المجتمعات ذات الديانات الافريقية التقليدية

منذ القرن العاشر ، كان تقدّم الطرق التجارية من خليج عدن نحو المناطق الداخلية من القرن الافريقي هو أحد العناصر الأساسية في تاريخ شعوب المنطقة كافة. وحتى عندما كانت تلك الطرق موضع خلاف

(١٢) يجب أن نوضح أن كلمة صومالي لم تظهر لأول مرة إلاّ في بداية القرن الخامس عشر في نشيد إثيوبي يرجع إلى عهد النجاشي اسحق. أنظر «دائرة المعارف الإسلامية» (الطبعة الجديدة الانجليزية) الجزء الأول ، ص ١١٧٢ – ١١٧٣.

بين القوى الرئيسية التي كانت تتنازع السيطرة عليها في المنطقة ، فإنها أسهمت ، بلا أدنى شك ، في ألوان شتى من التأثيرات المتبادلة بين السكان المحليين ، وهم مختلفون من حيث الانتماء الثقافي ، واللغوي ، والديني. ولعبت المجموعات التي قدمت من كل أنحاء البلاد تقريبًا دورًا ما في التطور الاقتصادي والسياسي الناتج عن فتح هذه الطرق ، خاصة أثناء حركات التوسّع والغزو الممتدّة التي قامت بها الدول المسيحية والإسلامية الرئيسية ، خلال الفترة التي نحن بصددها هنا. ومنذ منتصف القرن الثالث عشر ، لم تعد مملكة زاغويه المسيحية ، في إثيوبيا الشمالية ، تعتبر سلطنة دهلك مخرجها الوحيد إلى البحر الأحمر ، وأخذت تسلك طريق زيلع مارة بأقاليمها الجنوبية. ويمكن اعتبار هذا التغيير الأساسي في أهمية زيلع الاقتصادية عاملاً حاسمًا لم يجعل من إيفات الدولة الإسلامية المسيطرة بين الخليج وهضبة شوا فحسب ، بل وزحزح تدريجيًا في اتجاه الجنوب ، المركز السياسي لإثيوبيا المسيحية ، مما أدّى إلى مجيء الأسرة «السليمانية» (المنتسبة إلى الملك سليمان الحكيم).

كان يكونو أملك ، مؤسس الأسرة «السليمانية» الجديدة ، أحد القادة الأمهريين المحليين. ولا نعرف بشكل مؤكّد إلاّ الشيء القليل عن أصله ونشأته ، ولكن الروايات تجمع على أن ترى فيه الرجل الذي قضى على أسرة الزاغويه ، عام ١٢٧٠. هذا ويسيطر الجدل الذي لا ينتهي بين الحكام الزاغويه والحكام «السليمانيين» (المنتسبين إلى الملك سليمان الحكيم) على حوليات هذه الفترة : فلقد رتّب جزء كبير من تاريخ يكونو أملك بحيث يجعل من توليته تولية شرعية ، تبدو وكأنها عودة لأسرة اكسوم «السليمانية» القديمة. وحجب هذا المفهوم إلى حد ما الأسباب العملية التي تفسر بشكل أفضل نجاح يكونو أملك وأنصاره. كانت المستوطنات المسيحية في الأقاليم الواقعة في أقصى جنوب مملكة الزاغويه قد دخلت ، منذ فترة طويلة في شبكة واسعة من العلاقات التجارية مع الامارات الإسلامية الممتدة بين خليج عدن وهضبة شوا. وكانت منطقة المجرى الأعلى والأوسط للأواش منطقة حدود استمر فيها التفاعل بين المسيحيين والمسلمين والمجتمعات التي تدين بالديانات التقليدية ثلاث قرون على الأقل.

ويبدو أن المنطقة كانت جزءًا من ممتلكات «ملك داموت» الشهير الذي تحدّث عنه ابن خلدون[١٣] ، والذي تنسب إليه الروايات المسيحية دورًا أساسيًا في القرن الثالث عشر. وكان «ملك داموت» المعروف باسم موتيلامي في الروايات المسيحية ملكًا وثنيًا ، يتوقّف وجود المستعمرات المسيحية والإسلامية التي أقيمت على هضبة شوا ، شمالي الأواش الأعلى ، دائمًا على رضاه. وكانت هذه اللوحة عن العلاقات بين المجتمعات ذات المعتقدات التقليدية وجيرانها المسيحيين والمسلمين قد بدأت ترتسم وتتجسّد فيما بين القرنين العاشر والحادي عشر على الأكثر. وكان المسيحيون القادمون من شمال الحبشة والتجار المسلمون القادمون من خليج عدن قد استقرّوا بمجتمعاتهم في هذا القطاع. وفي القرن الثاني عشر ، عندما شهدت إثيوبيا المسيحية نهضة جديدة في عهد الزاغويه ، بدا أن المسيحيين قد اكتسبوا مزيدًا من الثقة والأمان ، ولعلّهم دعوا الزاغويه إلى التدخّل من أجلهم. ومن المحتمل جدًا أن تكون روايات الزاغويه تتحدّث عن هذا الموقف عندما ذكرت حملة مسلّحة ضد داموت[١٤] انتهت إلى الفشل حيث لم تخضع داموت لوصاية ملك الزاغويه ؛ بل مات هذا الأخير وعدد كبير من المسيحيين الذين قادهم في حملته ضد داموت خلال المعركة. ومع ذلك ، تدعّمت هيمنة الزاغويه على المجتمعات المسيحية ، فيما يبدو ، واعتبر مسيحيو المنطقة أنفسهم من رعايا ملوك الزاغويه ، منذ ذلك الحين.

---

(١٣) ابن خلدون ، ترجمة فرنسية ، م. ج. سلان ، ١٨٥٢ ؛ ب. كازانوفا ، مجلد ٢ ، ١٩٢٧ ، ص ١٠٨.
(١٤) س. كونتي – روسيني ، ١٩٠٣ ، ص ٢٢ – ٢٦.

وتعدّدت العلاقات مع الأقاليم المسيحية في أمهرة وآنغوت وتيغري شمالاً. وكان كثير من المسيحيين المستقرين في شوا يقومون بالتجارة البعيدة المدى بين شوا في الجنوب والتيغري في الشمال. ووفقًا لمصدر، قديم عن القرن الثالث عشر، كان هؤلاء التجار يذهبون إلى تيغري ليعودوا بالملح، الذي كانوا يبادلونه بالخيول والبغال[١٥] في شوا. ويبدو إذن أن المسيحيين، وهم قليلون نسبيًا، الذين استقرّوا آنذاك فيما أصبح اليوم شوا الشمالية. كانوا قد استقطعوا لأنفسهم جزءًا هامًا من التجارة الداخلية على هضبة إثيوبيا، شمالي الأواش الأعلى. وكانوا يمارسون أيضًا الزراعة المختلطة. وتقدّم الروايات القديمة جدًا بعضًا منهم على أنهم مزارعون ناجحون، لهم أسر كبيرة العدد بما في ذلك بعض العبيد. وكانوا مبعثرين في مساحات شاسعة، ومنتظمين في شكل مقاطعات صغيرة كانت كلها في الأصل على ما يبدو تابعة لملوك داموت. وكانت هذه المستعمرات المبعثرة تحس إحساسًا قويًا بهويتها المشتركة وترابطها. وعندما بلغت سيادة الزاغويه الذروة في لَستة كانوا يكوّنون فيما يبدو مع جيرانهم الأمهريين مقاطعة مسيحية من الأكثر أهمية في الأراضي التي أصبحت الويللو حاليًا.

وكانت الأسر المسلمة التي استقرّت على السفوح الشرقية لهضبة شوا تعيش جنبًا إلى جنب مع هؤلاء المسيحيين. وبما أن هاتين الجماعتين الدينيتين قد أخضعتا في أول الأمر لملوك يدينون بالديانات التقليدية الافريقية الخاصة بالمنطقة، فمن المحتمل ألا تكون منشآت كل منهما قد تحدّدت في الأصل بحدود إقليمية مرسومة بدقة. وكان المسلمون يحسون إحساسًا قويًا بهويتهم، شأنهم في ذلك شأن المسيحيين ويشتركون معًا في الروايات التي تنسب لعرب من مكة تأسيس مجتمعاتهم[١٦]. ومع هذا كانوا يشكّلون في القرن الثالث عشر، عددًا من الكيانات السياسية المستقلة المتنافسة التي تسعى إلى التحرّر من وصاية زعيم داموت تدريجيًا. وكان أحدها وهو «سلطنة شوا» – يشتمل في الواقع على عدة امارات متنافسة تسيطر عليها مجموعات أسرية صغيرة تنحدر من أصل عربي واحد. وربما كانت المنطقة التي عُرفت باسم فِتجار فيما بعد جزءًا من هذه الكيانات المترابطة ترابطًا وثيقًا. وكانت إيفات هي المجتمع الإسلامي الهام الآخر، مجتمع اكتسب شهرته في القرن الثالث عشر على وجه الخصوص. ودعم كل واحدة من هذه المستعمرات. منذ إنشائها عدد متزايد من حالات اعتناق الإسلام المحلية. وإذا حلّلنا أسماء الملوك تحليلاً لغويًا، ورجعنا إلى ما نقله العمري فيما بعد[١٧]، وجدنا أن الجزء الأكبر من السكان، في شوا على الأقل، كان يتكلّم «السامية – الحبشية»، سواء كانوا من المسلمين أم من المجتمعات المسيحية المجاورة. وكان هؤلاء المسلمون يستمتعون بحياة مريحة نسبيًا شأنهم شأن جيرانهم المسيحيين، حياة تقوم لا على النشاط الزراعي المشترك فحسب بل على التجارة مع البلاد البعيدة أيضًا، أكثر مما كان يحدث عند المسيحيين بكثير. وكان للمسلمين بعض المزايا في هذا المجال، لأن طرق القوافل بين خليج عدن وشوا كانت تمر بمناطق ساد فيها الإسلام، منذ القرن الثالث عشر، لذا، كانوا يسيطرون على التجارة الدولية. لكن، لكي ينقلوا تجارتهم إلى مكان أبعد في اتجاه الداخل، حتى وسط مملكة الزاغويه، كان عليهم، بلا شكّ، أن يتعاونوا مع مسيحيي شوا وأمهرة الذين لعبوا فيما يبدو دور الوسطاء، وأقاموا المحطات على المرتفعات المسيحية، في طريق الذهاب والعودة. ومن الواضح أن هذا الترابط أوجد تضامنًا في المصالح لا ريب فيه بين المجتمعات المسيحية والمسلمة في المنطقة وبفضل الأهمية المتزايدة لميناء زيلع على الخليج،

---

(١٥) ت. تمرات، ١٩٧٢، ص ٨٢، هامش ١.

(١٦) أ. تشيرولي، ١٩٤١، ص ١٥ – ١٦؛ ١٩٣١، ص ٤٣.

(١٧) العمري، ترجمة فرنسية، م. غودوفروى ١٩٢٧، ص ١ – ٢.

وهو المنفذ التجاري الرئيسي لوسط اثيوبيا، ازداد هذا الترابط وثوقًا وفائدة. وعلى الرغم من وعي كل مجموعة من المجموعتين بهويتها، كانت روح التسامح المتبادل تسود بينهما. لذا يحتمل ألاّ يكون قد نشأ صراع ديني ذو أهمية في مناطق الحدود هذه، خلال تلك الفترة البعيدة.

وعشية تولي يكونو أملك السلطة كان كل شيء يشير، فيما يبدو، إلى أهمية الدور الذي لعبته المجتمعات المسيحية في أمهرة وشوا، وهو دور الوسطاء التجاريين بين القطاعات الإسلامية وباقي مملكة الزاغويه في الشمال. وكان تعاونهم الاقتصادي مع التجار يدعم تأثيرهم على بلاط الزاغويه وباقي الأراضي المسيحية على السواء. والانطباع السائد هو أن يكونو أملك عقد تحالفًا متينًا مع مسيحيي شوا ومسلميها، قبل أن يصبح فعلاً العاهل الجديد لاثيوبيا المسيحية. وأقرب الروايات الخاصة به إلى الصدق تؤكد الدور الذي لعبه «محاربوه» القادمون من عدة مناطق تقع شمالي شوا[١٨]، وهذا أمر له دلالته. فضلاً عن أنه صرح، في خطاب وجّهه إلى بيبرس، سلطان مصر (١٢٦٠ – ١٢٧٧) بأن في جيشه عديدًا من الفرسان المسلمين. وفي إحدى اللوحات النادرة جدًا التي تصوّر الملك الجديد، نراه جالسًا على عرش مرتفع، يحيط به حسب تفسير اللوحة «المسلمون والعبيد»[١٩]. ويشير كل هذا، فيما يبدو، إلى أن وضع يكونو أملك الاقتصادي، والسياسي، والعسكري، القوي للغاية[٢٠] هو الذي مكنه من تنحية الزاغويه أكثر مما فعلت شرعية مزاعمه الخاصة بإعادة «الأسرة السليمانية» التي حكمت أكسوم فيما مضى. وكانت النتيجة الرئيسية لنجاحه هي نقل مركز اثيوبيا المسيحية إلى الجنوب، وتثبيته في أمهرة وشوا. ومنذ ذلك الحين، أمكن للمملكة أن تشارك بطريقة مباشرة في التنمية السريعة للتجارة بين الخليج وداخل إثيوبيا.

مملكة إثيوبيا في عهد «السليمانيين»

كانت الفترة الأولى من سيطرة «السليمانيين» فترة صعبة للغاية، اضطرت الأسرة الجديدة خلالها أن تدعم سلطتها، سواء داخل المملكة المسيحية أم بالنسبة لعلاقاتها بالشعوب المجاورة. وواجهت مشكلتين شائكتين بصفة خاصة هما: من ناحية، إرساء قواعد متماسكة لتولي العرش، ومن ناحية أخرى رسم سياسة فعّالة للعلاقات الإسلامية – المسيحية سواء داخل اثيوبيا أم في باقي القرن الأفريقي. وحلّت مشكلة وراثة العرش بإنشاء مؤسسة جديدة في جبل جشِن، عُرفت منذ ذلك الحين باسم «جبل الملوك». وكان الذكور الذين ينحدرون من يكونو أملك، باستثناء الملك الحاكم وذريته المباشرة، يحتجزون فوق مرتفعات الجبل التي لا يمكن الوصول إليها، والتي يحرس منحدراتها وممراتها عدة مئات من المحاربين الموثوق في ولائهم. وكان هؤلاء الأفراد يعاملون معاملة تليق بأفراد الأسرة الحاكمة، ويحظون بألوان شتى من المتع

(١٨) ج. بيروشون، ١٨٩٣، *Revue Semitique*، المجلد الأول، ص ٣٦٨؛ س. كونتي روسيني، ١٩٢٢، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

(١٩) و. رايت، ١٨٧٧؛ المفضل، ترجمة فرنسية، بلوستيه، ١٩٧٣ – ١٩٧٤.

(٢٠) لمس ماركو بولو هذه القوة جيدًا، كما لمسها الجغرافيون ورسامو الخرائط في دول أوروبا المحاذية للبحر المتوسط في هذه الفترة. عندما وصف ماركو بولو (ترجمة ل. هامبيس، باريس، ١٩٥٥، ص ٢٩٢ – ٢٩٣) الحرب بين يكونو أملك والإمارات الإسلامية، لاحظ أن «الأحباش مشهورون بأنهم أفضل المحاربين في المقاطعة كلها». كرّرت خرائط البحر الأبيض المتوسط كلها هذه المعلومات المختلفة ووسّعت نطاقها. أنظر ي. ك. فال، ١٩٧٨، ص ٣٠٠ – ٣١٠.

في حدود جبل جشن. وكانوا معزولين عن العالم الخارجي، ومحرومين فعلاً من أية علاقة سياسية أو اجتماعية حقة بباقي المملكة، لذا كان أغلبهم ينكبّ على الدراسات الدينية التي امتازوا فيها، كما تميّزوا بكتابة الشعر بلغة الجيز وتلحين الموسيقى الكنسية. وعندما كان الملك الحاكم يموت بدون أن يترك وريثًا بين أقربائه المباشرين كانوا يختارون أحد أمراء جبل جشن، ليعتلي العرش. هكذا كان «جبل الملوك» يمثّل أداة دستورية بارعة أسهمت في الحفاظ على استقرار المملكة المسيحية واستمرارها، طوال الفترة التي نتحدّث عنها في هذا الفصل.

لكن عقد علاقات حسنة مع المستعمرات والكيانات الإسلامية التي كانت تزداد قوة، في المنطقة الواقعة بين خليج عدن ووادي الأواش كان مهمة أشق بكثير. وكانت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين قد بلغت درجة من التوازن الاضطراري خلال الخمسين سنة الأولى من هيمنة «السليمانيين»؛ ولم يحدث إلاّ في العهد الحاسم لامديه سيون (١٣١٤ – ١٣٤٤) – حفيد يكونو أملك – أنْ بسطت المملكة المسيحية، تدريجيًا، سيطرتها العسكرية على هذه المنطقة، وظلّت هذه السيطرة باقية طوال الفترة التي نحن بصددها. وشهدت إثيوبيا المسيحية خلافات داخلية خطيرة، في الفترة التي اعتلى خلالها امديه سيون العرش. وقد كانت أراضيها تقتصر على ممتلكات الزاغويه القديمة وبعض المناطق قليلة الأهمية انضمت في عهد قريب في منطقة شوا. وكانت غيبة الأمان تسود دائمًا في كافة الجهات: سواء في السلطات الإسلامية في الشرق والجنوب الشرقي، أم في المجتمعات اليهودية (الفلاشة) والوثنية التي تمتدّ من شمال الغرب إلى جنوب الغرب والجنوب. وقد أخذ أمديه سيون على عاتقه – وهو ملك محارب أساسًا – أن يتصدى شخصيًا دون إبطاء، وبطريقة منهجية، لكل من هذه المشكلات. ونحن لا نعرف بالضبط تواريخ حملاته الأولى، لكن هذا الملك يقول لنا بنفسه في عقد تنازل عن بعض الأراضي، إنه قاد حملات ضد حكام داموت وهدية من عام ١٣١٦ إلى عام ١٣١٧، وحملة ضد غوجام بعد ذلك بقليل. وفي هذه الفترة تقريبًا أيضًا، ضمت لأول مرة، فيما يبدو، المنطقة التي تقع شمالي بحيرة تانا، وكان الفلاشة هم الأكثر شهرة من بين سكانها. وانتهت كل حملة من هذه الحملات بالنصر، وضمّت القطاعات المذكورة إلى المملكة المسيحية فأعطى غزو هذه المقاطعات الداخلية لأمديه سيون احتياطيًا كبيرًا من الرجال لجيشه، وضمن له السيطرة القوية على النقاط التي تنتهي عندها التجارة القادمة من خليج عدن. هكذا وجد الملك في مركز قوة مكّنه من أن يفرض نفسه على مجموع المجتمعات الإسلامية الواقعة بين الخليج ووادي الأواش. وبالإضافة إلى إيفات التي أصبحت أهم إمارة إسلامية منذ عهد عمر ولاسمه، كانت مراكز التجمعات السكانية الإسلامية في داوارو، وشارخة، وبالي، تعيش أساسًا على التجارة مع البلاد البعيدة في المنطقة، تلك البلاد التي كان أمديه سيون قد استولى عليها لتوه.

وبدأت تتّضح آثار هذه التبعية الاقتصادية الجديدة للملك. ويبدو أن هذه التبعية أشاعت جوًّا من الضيق ومعادات الغازي في أغلب الأوساط الإسلامية.

ومن بين هذه المجتمعات، كانت إيفات قد اكتسبت تفوّقًا سياسيًا وعسكريًا أيام حكم عمر ولاسمة الذي كان معاصرًا ليكونو أملك. وقبل ١٣٣٢ ببضعة أعوام، شكا أمديه سيون من أن حق الدين، حفيد عمر، يقيّد حرية الانتقال لرعاياه المسيحيين وقيل إن المسلمين أسروا واحدًا منهم وباعوه كعبد. واتخذ الجيش المسيحي هذا الحادث ذريعة لكي يغزو إيفات وملحقاتها. ونهبت المدينة ومات السلطان في المعركة. وعلى الرغم من أن ابنه دردير واصل القتال بشجاعة، بمساعدة الرعاة المسلمين، في السهول التي تقع شرقي إيفات، فقد انهارت مقاومة المدينة. وحول أمديه سيون إيفات إلى دولة تابعة، لأول مرة في تاريخها، واحتلّت الحاميات العسكرية المواقع الرئيسية في أراضيها. ومنذ ذلك الحين، سارعت الامارات

الإسلامية الكبرى ، هي الأخرى ، إلى المسالمة مع أمديه سيون ، ويُقال إن اثنتين منها ، على الأقل هما – داوارو وشارخة عقدتا معاهدة صداقة معه . واتخذ النصر العسكري الذي أحرزه ضد حق الدين معناه الكامل ، وبفضل غزوه السابق للامارات ذات الديانات التقليدية – لهادية ، وداموت ، وغوجام – وجد الملك أمديه سيون نفسه ، بعد أقل من عشر سنوات له في الحكم ، على رأس مملكة مسيحية ضمّت أراضي واسعة. ولسوف نبحث فيما بعد ، باختصار ، البنية الإدارية التي طبّقها لكي يحكم هذه الأمبراطورية الشاسعة بطريقة فعّالة ، ويبقيها تحت سلطته القوية . لكن ، يجب أن نلاحظ هنا أن حركات التمّرد على سلطة أمديه سيون كانت كثيرة ، ليس فقط في المقاطعات التي ضمت إلى مملكته منذ عهد قريب وإنما أيضًا في مناطق أخرى أدمجت في المملكة بطريقة أفضل نسبيًا. وعلى سبيل المثال ، في عام ١٣٢٠ تقريبًا، اضطر سيون إل قمع حركة تمّرد محلية قام بها المسيحيون، في شمال مقاطعة تيغري أمديه. وبعد ذلك بقليل يبدو أن الملك قام بحملة امتدّت هذه المرة حتى ساحل إريتريا[٢١] . لكن أخطر حركات التمّرد التي اضطر الملك أن يواجهها انفجرت عام ١٣٣٢ ، إذ تمّردت عدة مناطق متباعدة جدًا في آن واحد ، وأدّى هذا إلى الغزوات الملكية الشهيرة ، في نفس ذلك العام. فالعمليات العسكرية والأراضي التي ضمّت عام ١٣٣٢ تتوفّر عنها الوثائق[٢٢] . ولنذكر فقط أنها أدّت أساسًا إلى إخضاع الامارات الإسلامية الكبرى ، إمارات إيفات وداوارو ، وشارخه ، وبالي ، وحوّلتها إلى دول تابعة بصورة مشدّدة، وتدعّمت قوة مواقع المسيحيين العسكرية على كافة الجبهات. ومنذ تلك الفترة ذاع صيت مآثر أمديه سيون ، على نطاق واسع ، في الشرق الأوسط ، ويتحدّث عنه المؤرّخ العربي العمري الذي عاصره قائلاً : «يُقال ان تحت يده تسعًا وتسعين ملكًا ، وأنه يكمل المائة ! »[٢٣]. ولاشك أن الأمر يتعلّق هنا بأرقام من الخيال إلاّ أن العمري كان يقصد صراحة ، عندما تحدّث عن الدول التابعة لأمديه سيون ، ما أسماه «ممالك الحبشة الإسلامية السبع » ، ومن بينها إيفات ، وداوارو وشارخه ، وبالي .

الدول الإسلامية وإثيوبيا

مع هذا ، لم تكن الامبراطورية الواسعة التي بناها أمديه سيون على هذا النحو وحكمها خلفاؤه حتى القرن السادس عشر ، مع بعض الإضافات الإقليمية القليلة ، لم تكن دولة موحّدة. بل يمكن أن نرى فيها ، على أفضل تقدير ، اتحادًا غير متين لعدد كبير من الإمارات المتباينة على المستوى الديني والعرقي ، واللغوي ، والتي يتوقّف تماسكها ، بصفة خاصة ، على تفوّق السلطة المركزية.

كان كل تابع لا يخفى رغبته في الاستقلال ، في كل مرة تتراخى فيها سلطة البلاط قليلاً. وطوال الجزء الأكبر من الفترة التي ندرسها هنا كانت أغلب هذه الامارات تُدار بمعرفة أمرائها وورثتهم تحت السلطة العليا للأباطرة المسيحيين. والعمري أيضًا هو أفضل من وصف العلاقات التي كانت تربط الملوك المسيحيين بالإمارات التابعة التي ضمت لهم مؤخرًا ، في هذه الفترة : «على الرغم من أن السلطة كانت تنتقل بالوراثة إلى حكام هذه الممالك ، لم يكن لأي منهم سلطة خاصة إلاّ إذا ولاّه عاهل أمهرة .

(٢١) ب. تورايف، ١٩٠٥، ص ٥٣ ؛ وت. تمرات ، المرجع السابق ، ١٩٧٢ ، ص ٩٥ – ٩٦.
(٢٢) ج. بيروشون ، في *JA* ، مجلد ١٤ ، ١٨٨٩ ، ص ٢٧١ – ٣٦٣ و ٣٨١ – ٤٩٣.
(٢٣) العمري ، ترجمة فرنسية ، م. غودوفروى ، ١٩٢٧ ، ص ٢٥ – ٢٦.

فعندما كان يموت أحد هؤلاء الملوك، مخلّفًا ذكورًا في أسرته، كان هؤلاء الذكور يذهبون جميعًا إلى عاهل البلاد، ويستخدمون كل الوسائل الممكنة لكي يكسبوا وده، لأنه هو الذي... له السلطة العليا عليهم، وهم أمامه مجرد نواب صغار»[٢٤].

عندما كتب العمري هذه السطور، لم يكن يفكّر إلاّ في الدول الإسلامية التابعة، لكن هذا الوصف يعكس التنظيم الرئيسي الذي تميّزت به الامبراطورية المسيحية كلها آنذاك. وقد ظلّ الجيش الذي حافظ عليه الأباطرة المسيحيون باستمرار، بوصفه رمزًا لقوتهم، شيئًا ضروريًا يضمن خضوع الأراضي التابعة خضوعًا دائمًا. وكثيرًا ما كانت تتولى بعض الوحدات التابعة للأمبراطور حراسة المواقع في هذه المقاطعات، خاصة في الفترات الأولى التي تلت الغزو. وكانت كوادر هذه القوات مكوّنة من سلم من كبار الموظفين ذوي الألقاب الذين يتصرّفون بدون أن يرجعوا إلى الأمراء المحليين من ورثة العرش، ويرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالبلاط الأمبراطوري. وكقاعدة عامة، كان جنود الحاميات الذين يحتلّون الأراضي التي غزوها مؤخرًا يختارون من مناطق أخرى، من بين سكان يختلفون في الجنس واللغة: هكذا كان يقلّ إلى أقصى حد احتمال تضارب الولاء. وكانت هذه المواقع العسكرية تحرص على قمع أقلّ تمرّد محلي مباشرة، ودفع الجزية السنوية بانتظام للأمبراطور، وتأمين المرور في الطرق التجارية الكبرى، وأخيرًا، على احترام إرادة الأمبراطور في كل مجال. وفي حالة الاضطرابات المحلية التي تعجز الحامية عن إخمادها، كان الضابط الذي يرأس الموقع يرجع إلى الامبراطور، فيرسل إليه على عجل تعزيزات من القوات المرابطة في الأراضي المجاورة وإذا كان الأمر خطيرًا جدًا، كما حدث عام ١٣٣٢ كان الملك يقود بنفسه حملة ضد المتمرّدين. وقد ظلّت الخطوط الرئيسية لهذا النظام احدى الخواص المميزة للفترة «السليمانية» حتى بداية القرن السادس عشر. وكانت الأمبراطورية قد أصبحت غير متجانسة وصعبة الحكم لدرجة أن الملوك لم يحولوا دون تفسّخها إلاّ بإبقائهم البلاط في حالة تأهّب مستمر تمكّنه من الانتقال، في أي لحظة، إلى حيث تدعوه خطورة الأحداث. ويفسر هذا أكثر من أي سبب اخر، تنقّلات البلاط المستمرة وعدم وجود أي مركز حضري هام طوال هذه الفترة.

البنية السياسية للامبراطورية الاثيوبية

حكم الملوك «السليمانيون» أراضيهم الشاسعة من هذه المعسكرات المتنقلة. وعلى الرغم من طابعه المتنقل، ظل البلاط الامبراطوري مركز الحياة السياسية والاقتصادية لرعايا المملكة جميعًا، وكان أشبه ببوتقة تذوب فيها الفوارق الثقافية واللغوية. وقد عرضنا بنية البلاط وتنظيمه الداخلي بالتفصيل، في مقام آخر[٢٥]. ويكفي أن نقول هنا أن الدور الذي لعبه هذا البلاط «المتنقل» كان مطابقًا في كل نقطة لدور العاصمة الثابتة. فكان حشد من الناس القادمين من كافة أرجاء الامبراطورية يتبعون هذا البلاط في تنقّلاته. وكان الجيش الوفير والحرس الملكي الملحقان به بصفة دائمة، يختاران من بين سكان ممالك التاج

(٢٤) العمري، ترجمة فرنسية، م. غودوفروى، ١٩٢٧، ص ١٩. الاستشهاد القصير في الفقرة الأخيرة مأخوذ من صفحة ٢٥.

(٢٥) ت. تمرات، ١٩٧٢، ص ١٠٣ – ١٠٦؛ ٢٦٩ – ٢٧٥.

كلها، كما كان على الضباط أن يرافقوا العاهل في كل تنقّلاته. وقد كان البلاط يضم، علاوة على ذلك، آلاف الأشخاص من حاشية الأمبراطور وآل بيته، وكذلك من الخدم الذين يرافقون كبار موظفي الامبراطورية، وهم كثيرون. وكان بعض القساوسة المعينين خصيصًا للبلاط يتبعونه في رحلاته، لكي يخدموا الكنائس الملكية العديدة، ويلبّوا الحاجات الروحية للملك وحاجات حاشيته. وأينما كان يستقر، كان المعسكر الملكي يتحوّل إلى حد ما إلى مركز لتبادل المؤن والبضائع. لذا، كان التجار، والحرفيون، مسلمين كانوا أم مسيحيين، يتجمّعون فيه لكي يعرضوا بضاعتهم وخدماتهم. وفي موسم الجفاف، عندما يكون التنقّل ميسورًا، كان يتوافد على البلاط – علاوة على من سبق ذكرهم – عديد من الرعايا القادمين من المقاطعات. وكان الأمراء التابعون والحكام المحليون يأتون بجزيتهم، بينما يلتمس كثيرون غيرهم قضاء الملك ومستشاريه بالنسبة لبعض المنازعات التي يصعب حلّها. هكذا كان من السهل أن تجد عدد الأشخاص الذين يعيشون في المعسكر الأمبراطوري مساويًا لسكان احدى المدن المتوسطة. وكان معسكر الملك يلعب دورًا توحيديًا هامًا، كما يفعل أي تجمّع حضري تقليدي، فيقرب بين آلاف الأفراد الذين تفصل بينهم اللغة والجنس والدين. وبطريقة ما، كان هذا البلاط المتنقّل يؤدّي وظيفة أكثر فاعلية بكثير من تلك التي كان يمكن أن يؤدّيها بلاط مستقر. ففي حالة المدينة الثابتة، يسير تحرّك الريف في اتجاه واحد هو اتجاه المدينة. وعلى عكس ذلك. كان هذا البلاط المتنقّل يستقبل سكان الريف، وعلاوة على ذلك يعقد – نظرًا لتنقّله الدائم من طرف الامبراطورية إلى طرفها الآخر – علاقات أكثر ديناميكية بكثير مع كل منطقة يمرّ بها وهكذا امتدّ دوره التوحيدي إلى أراضي أوسع.

ومما لا شك فيه أن هذا التبادل المستمر بين البلاط والبلاد أسهم في التقارب الثقافي والاندماج السياسي لآلاف الاثيوبيين الذين اتّصلوا به على اختلاف أصولهم. ويصدق هذا بصفة خاصة على أسرى الحرب الكثيرين الّذين عاد بهم الإثيوبيون من الأراضي التي غزوها حديثًا. وقد ألحق كثيرون منهم بالجيش المسيحي، وعيّن الآخرون لخدمة البيت الملكي أو كبار الموظّفين الذين لا يحصى عددهم. ويبدو، من ناحية أخرى، أن أفراد الأسر التي كان لها حق وراثة الإمارات التابعة، عاشوا في البلاط، إما بوصفهم رهائن حقيقيين وإما بوصفهم أتباعًا يقومون بزيارة طويلة لمولاهم. ومع مرور الوقت، تعلّق كثير من هؤلاء الأشخاص تعلّقًا شخصيًا عميقًا بالامبراطور وأسرته واستعدّوا لشغل الوظائف الرئيسية في الدوائر العليا للحكم، سواء في البلاط الامبراطوري، أو في المقاطعات. ولكن، لأن إقامة البلاط الامبراطوري في منطقة واحدة كانت لفترة قصيرة نسبيًا، ظلّت الاتصالات التي يجريها مع السكان المحليين اتصالات سطحية عابرة بل وكانت تتّخذ طابعًا قمعيًا. وبالفعل، يبدو أن عمليات المصادرة بالجملة كانت تثقل على المنطقة التي يزورها البلاط، إذ كان عليها أن تؤمّن تموين البلاط وخدمته. وفي نهاية المطاف، لم تكن زيارة الملك وحاشيته الكبيرة، بلا شك أحب الزيارات بالنسبة لأغلب المحليين. ونتيجة لذلك. كان الدور التوحيدي الذي يقوم به البلاط المتنقّل تقل فاعليته بدرجة خطيرة. وفي الواقع، كانت السلطة الوحيدة التي استطاع الأباطرة أن يمارسوها على أراضيهم التابعة، تقوم على الحكم غير المباشر. فعلى الرغم من تعيين حشد من الموظّفين ذوي الألقاب الذين يدورون في فلك الملك، أو البلاط أو يتدرّجون بين مختلف المناصب في المقاطعات، لم يخرج أي نظام إداري امبراطوري مركزي أبدًا إلى حيز الوجود، وظلّت العادات المحلية تحكم حياة السكان اليومية في مختلف المقاطعات والإمارات قبل كل شيء. وكان الملوك وحاشيتهم الثقيلة يضطرون إلى زيارة مختلف مناطق الامبراطورية، بانتظام، لكي يخفّفوا جزئيًا من هذه الخصوصية المحلية.

لقد أدّت غزوات أمديه سيون إلى زيادة عدد العاملين في البلاط والجيش. وجعلت كذلك من الملك

وخلفائه سادة بالغي الثراء. ويرجع جزء كبير من هذا الثراء إلى الجزية المنتظمة التي كانوا يجبونها من كل المناطق التابعة لهم. فقد كان كل تابع يمتنع عن دفع الجزية يتهم بالخيانة العظمى، وهو ما يؤدّي به إلى الغضب عليه، أو الاعتقال بل والإعدام. ولا تلقى حوليات هذه الفترة شيئًا من الضوء على الأسس الاقتصادية للامبراطورية، لكن الامتيازات العقارية العديدة التي منحها الملوك «السليمانيون»، تشير فيما يبدو إلى أن سرًا من أسرار قوتهم كان يكمن في منحهم بعض الاقطاعيات للرعايا الكثيرين الذين يخلصون لهم، مكافأة لهم على خدماتهم. وبعد غزو الأراضي الإسلامية الواقعة عند حدود البلاد الشرقية بدا أن وضع يد الأباطرة على التجارة قد ضمن لهم عائدًا مجزيًا للغاية. وكان الملوك قد ضمنوا السيطرة العسكرية التامة على المناطق الداخلية، حيث تزود المسلمون دائمًا بالعبيد «الأحباش» الذين كانوا يُباعون بثمن غال جدًا في الشرق الأدنى. وعلاوة على ذلك. كانت بعض البلاد التي تمّ غزوها مؤخرًا تقدّم الذهب والعاج، وكثيرًا ما كانا يذكران على أنهما أهم سلعتين للتبادل في المنطقة.

من ناحية أخرى، كانت الأراضي الخصبة على الهضبة الاثيوبية تمدّ المدن الساحلية التي تقع على جانبي البحر الأحمر بالغلال والفواكه الطازجة التي تحتاج إليها بشدة. وكانت هذه العمليات التجارية التي تتم في المنطقة كلها تدر الربح للأباطرة بطريقتين. أولاهما أنهم، كانوا يفرضون على البضائع المتبادلة نوعًا من رسوم الاستيراد أو التصدير.وثانيتهما أنهم بادروا بسرعة إلى المشاركة في التجارة بصورة مباشرة مع البلاد البعيدة، واضعين رؤوس أموالهم في قوافل زاخرة بالبضائع تسافر تحت قيادة وكلاء التاج. لكن النجاح الذي أحرزه المسيحيون في المقاطعات الداخلية لم يؤد، في الواقع، على المدى الطويل، إلاّ إلى إنعاش القوة الإسلامية وإعادة تنظيمها في المنطقة الواقعة بين زيلع وحدود امارات إيفات، وداوارو، وبالي. وقاد هذه النهضة التي شهدتها المجتمعات الإسلامية، مرة أخرى، فرع منشق من أسرة عمر ولاسمة، نقل مقر قيادته إلى هضبة هرر. ومن هناك، نسج هؤلاء القادة شبكة فريدة من الأحلاف الإسلامية، عبر المنطقة الواسعة التي تمتدّ من جزر دهلك في البحر الأحمر، إلى الساحل الصومالي المطل على المحيط الهندي، ومع كل البلاد العربية المجاورة. وقد تمّ وصف هذا التطور بالتفصيل في مقام آخر. ويكفي أن نقول هنا ان نار المعارضة الإسلامية للسيطرة المسيحية ظلّت كامنة تحت الرماد في هذه المنطقة، حتى القرن السادس عشر، أي الفترة التي اندلع فيها الجهاد الذي نادى به الإمام أحمد بن إبراهيم (عام ١٥٢٧ – ١٥٤٣ تقريبًا) الذي أُطلق عليه أيضًا اسم غراغن.

نهضة الكنيسة الإثيوبية

فيما عدا الغزوات والتوسّع الإقليمي الذي استعرضناه باختصار، كانت احدى النتائج الملحوظة لارتقاء الدولة المسيحية في عهد الأباطرة «السليمانيين» نهضة الكنيسة الأثيوبية التي جدّدت لنشر المسيحية في إثيوبيا الداخلية. فعندما جاءت الأسرة «السليمانية» عام ١٢٧٠، لم تكن الكنيسة قد استقرت استقرارًا راسخًا إلاّ في المقاطعات القديمة التي تقع في وسط إريتريا وجنوبها – تيغري، رواغ، ولاستا وأنغوت وأمهرة – وفي جزء من مرتفعات شوا التي تفصل بين حوض الآباي وحوض الأواش. وبصفة عامة، كان وضع الكنيسة في هذه الفترة يزداد ضعفًا ويفتقر إلى الثبات كلما اتجهنا إلى الجنوب. وقد كانت المراكز الكبرى للتربية المسيحية لا تزال في نيغري ولاستا، مهد الزاغويه ومقر المطارنة المصريين. لذا كان



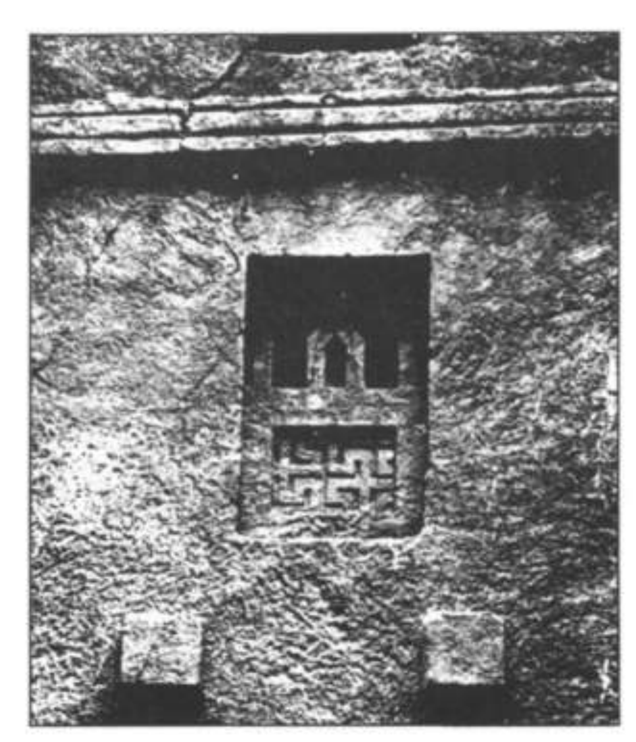
١

٢



١. لاليبيلا : كنيسة القديس جورج.
منظر عام من الجوّ للكنيسة بعد أن تمّ الكشف عنها.
٢. لاليبيلا : كنيسة القديس جورج.
الجزء الأعلى من الكنيسة أثناء الكشف.

٣. لاليبلا :
كنيسة القديس جورج :
مسقط رأسي



٤. لاليبلا :
شباك كنيسة
مخلّص العالم

المرء لا يستطيع أن يدرس اللاهوت أو أن يُرسَم كاهنًا إلاّ إذا قضى سنوات طويلة في هذه المناطق من مملكة الزاغويه. ويبدو أن عدد الأفراد الذين كانوا يستطيعون ذلك – من أولئك الذين ينتمون أصلاً إلى المناطق البعيدة الواقعة في جنوب البلاد كان قليلاً. ووجود الكنيسة في شوا الشمالية لم يكن سببه السلطة الروحية للإكليروس المحلي بقدر ما كان سببه ارتباط بضع من الأسر المسيحية بالكنيسة ارتباطًا وثيقًا. وكانت هذه الأسر موزّعة على المنطقة كلها توزيعًا غير متساو. وحتى في أمهرة التي تقع أبعد من ذلك في اتجاه الشمال، لا تحدثنا الروايات عن تأسيس دير كبير في الجزيرة الصغيرة في بحيرة حايق إلاّ قبل تولّي أسرة «السليمانيين» مباشرة أسّسه راهب من لاستا هو ايسوسي موا، له شخصية فريدة، ويدين بتعليمه الديني لدير دبري دامو القديم، في تيغري. وعندما تولّت الأسرة الجديدة الحكم، وانتقل مركز المملكة إلى الجنوب، بدأت أمهرة وشوا الشمالية تتزوّدان بعدد كبير من المدارس الدينية التي سرعان ما ازدهرت وأصبحت مراكزًا لانتشار الدين المسيحي في كافة الاتجاهات. وكان المحرّكان القويان لهذا الانتشار هما: أولاً، اليقظة التي شهدتها الكنيسة نفسها في الداخل، ويبدو أنها بدأت منذ عهد الزاغويه، وثانيًا، التزام الأباطرة «السليمانيين» التزامًا خاصًا بتدعيم الكنيسة في كل ممتلكاتهم. طبعًا، كان أغلب ملوك الزاغويه قد التزموا بذلك أيضًا تجاه الكنيسة، لكن خلفاءهم «السليمانيين» كانوا يملكون سلطة أوسع وموارد أكثر بكثير بحيث تمكّنهم من مساندة جهود الاكليروس الإثيوبي.

لقد كانت كل الأديرة الجديدة – تقريبًا – التي أنشئت شيئًا فشيئًا في أمهرة وشوا، ابتداءً من الربع الأخير للقرن الثالث عشر، على صلة مباشرة إلى حد ما بمدرسة إيسوس – موا، التي تقع في جزيرة بحيرة حايق. وكان مؤسسو هذه الأديرة قد تعلّموا على أيدي إيسوس – موا، أو أتمّوا دراستهم الأولى تحت إشراف أحد تلاميذه. وخلال الخمسين سنة الأولى من حكم «السليمانيين»، وقبل أن يقوم أمديه سيون بغزواته الكبيرة، كانت أمهرة وشوا الشمالية وحدهما هما اللتان توفّران الأمان اللازم لإقامة الأديرة.

ومنذ البداية، تشبّعت الكنيسة الإثيوبية تشبّعًا عميقًا بالتقاليد المتبعة في أديرة الصحارى المصرية ووادي النيل، وعندما كوّنوا جماعاتهم، التزم أتباع إيسوس – موا التزامًا دقيقًا بقوانين الناسكين القدماء، القديس أنطوان والقديس باخوم. ويتضح من دراسة الروايات التاريخية لهذه الأديرة أن التبشير لم يكن يحرّك مؤسسيها بقدر ما كان يحرّكهم السعي إلى خلاصهم الشخصي. وفي كل الأحيان تقريبًا، كان المؤسس يقرّر فقط «اعتزال العالم»، ويذهب للعيش في منسك منعزل، بعيدًا عن قريته: فغالبًا ما كان يختار مغارة طبيعية في سفح جبل غير مأهول وإذا كانت أغلب أديرة اثيوبيا تقع في أماكن لا يمكن الوصول إليها، فلعلّ ذلك يرجع إلى هذه الأصول التاريخية. ففي مرحلة أولى، كان المؤسّس يعيش بمفرده أو بصحبة بعض التلاميذ الشبان. وفي السنوات الأولى، كان هؤلاء النساك يعيشون حياة تقشف قاسية، يهبونها كلية للصلاة أو التأمّل؛ كانوا يصومون صومًا قاسيًا، بل ويخضعون أجسادهم للتعذيب. وكانوا يعيشون في البداية على الثمار البرية، ثم أخذوا يقلبون الأراضي المجاورة لصومعتهم ليزرعوا فيها بعض الخضر ونباتات أخرى. واتّصلوا تدريجيًا بسكان المنطقة. وسرعان ما أعجب هؤلاء بالحماس الديني للجماعة، ونقلوا إلى المناطق المجاورة سمعة القداسة التي يتمتّع بها مؤسّس الدير ورفاقه. وبدأ المنسك يستقبل بعض الأتقياء، وبعض الفضوليين أيضًا. وانتهى الأمر ببعض الزوار إلى الانضمام إلى المنسك بدورهم، بينما اكتفى آخرون بعقد الروابط الروحية مع المؤسّس، والتماس بركته ودعواته، وتقديم الهبات للجماعة. ومع مرور الوقت، اتسع نطاق التأثير الروحي لهؤلاء الرهبان، وكان يمكن أن يمتد، بقدر ما تسمح الظروف الجغرافية الى آل بيت حاكم المقاطعة، بل وإلى البلاط الأمبراطوري «السليماني».

لقد كان كل من الأسر الكبيرة، وكبار الموظفين المحليين وربما الامبراطور، يمنحون الجماعة الأراضي، والماشية والمنافع الأخرى. وكانت الجماعة تبني، بقدر تحسن الأحوال، كنيسة أجدر بالاحترام، تحيط بها أكواخ عديدة تضم مساكن الرهبان والمدارس، والمرافق المشتركة الأخرى. وبالإضافة إلى الأتقياء الذين كانوا ينضمّون إلى الجماعة بأعداد متزايدة، لأسباب روحية بحتة، كان البائسون والمسنون والأيتام يجيئون إلى الدير بحثًا عن المأكل والملبس. فيذيع صيت قداسة الدير ورهبانه، وينتشر إلى بعيد. وكان الناس يأتون إليه بمرضى الروح والجسد، آملين أن يشفيهم أولياء الله بمعجزة من عنده، وهكذا يبدأ الحج المنتظم. علاوة على ذلك كانت لأغلب الأديرة الكبيرة سلطة روحية على أديرة خاصة للراهبات تبعد عنها عدة كيلومترات في بعض الأحيان. وسرعان ما يتحوّل الدير إلى قرية حقيقية يقيم بها بصفة دائمة مئات السكان وعليه تأمين حياة كل هؤلاء الناس. وتخلّت كل جماعة عن بساطتها الأصلية، وسنّت قوانين معقّدة تسترشد بها في حياتها. وكانت مهمة الرهبان المنتخبين بطريقة ديمقراطية، على اختلاف مراتبهم، هي السهر على احترام القوانين، وإدارة الممتلكات الدنيوية للجماعة التي كانت تزداد ثراء باستمرار.

وترجع الشهرة الروحية لهذه الأديرة إلى عنصر آخر أيضًا، ألا وهو دورها التربوي. فقد كان كل دير يرعى عددًا من المعلمين المقيمين به والذين يدرسون كما تقضي التقاليد القراءة، والكتابة، والموسيقى المقدّسة (وهي متقدّمة جدًا في كنيسة إثيوبيا)، وشعر لغة الجيز وقواعدها، وتاريخ الكنيسة وتفسير الكتب المقدّسة[٢٦]. وكان أساتذة الخط والتصوير الديني موضع تقدير خاص: كانت الأديرة الكبرى تتنافس فيما بينها لكي تجتذب أفضل المتخصّصين في هذه العلوم، وتغمرهم بالمال والتكريم. وحرصًا على خلق جو ثقافي مشجع وإبقاء التنافس الدائم داخل جماعة العلماء، كان الطلبة الفقراء الذين يبشرون بمستقبل طيب يتلقّون مساعدة مادية، فكانوا يستطيعون الانخراط في الحياة الدينية عند انتهاء دراستهم، إما بالانخراط في سلك الرهبان الذين ينتمون إلى جماعتهم، وإما بتحوّلهم إلى قساوسة متزوّجين وإما بأدائهم وظائف كنسية أخرى. لكن البرنامج الدراسي القاسي الخاص بهذه المؤسسات لم يكن مقصورًا على الذين سيصبحون من رجال الدين. فلقد كانت مدارس الأديرة، في الواقع، وحتى العصر الحديث هي معاهد التعليم الوحيدة في البلاد، وكان تعليمها إعدادًا جوهريًا بالنسبة لقادة البلاد في المستقبل. وإلى جانب الامتيازات التي تمنحها النشأة والثروة كان تفوق الفرد في الدراسات العليا الدينية أفضل ضمان لوصوله إلى مراتب الصفوة المسيحية. ولقد رأينا أن أفراد الأسرة «السليمانية» الذين تحدّد إقامتهم في جبل جشن كانوا يجدون تحت تصرّفهم مؤسسات تعليمية من نفس ذلك النوع، وكان أغلب كبار موظفي البلاط أو المقاطعات من خريجي هذه المدارس الملحقة بالأديرة.

وقد كان لهذا الموقع الرئيسي الذي احتلته الكنيسة في مجال التعليم الفضل قبل أي عامل آخر في أن تشبّعت البنية السياسية لاثيوبيا المسيحية كلها بتأثيرها على مرّ العصور.

لقد كان هذا النشاط الديني، والثقافي، والتربوي موجودًا في الأديرة القديمة في شمال البلاد، منذ عهد مملكة أكسوم المسيحية. لكن، كان لا بدّ من انتظار الربع الأخير من القرن الثالث عشر والربع الأول من القرن الرابع عشر لكي ينتشر في مناطق عديدة من أمهرة وشوا الشمالية. في هذه الفترة الأولى نمت الجماعات التي أسّسها أتباع ايسوس – موا بانتظام، وكانت أكبرها دبري اسبو (سميت فيما بعد دبري ليبانوس) التي أسّسها الأب تِكلي – هيمانوت في شوا (بين ١٢١٥ – ١٣١٣ تقريبًا)، ودبري كول، في

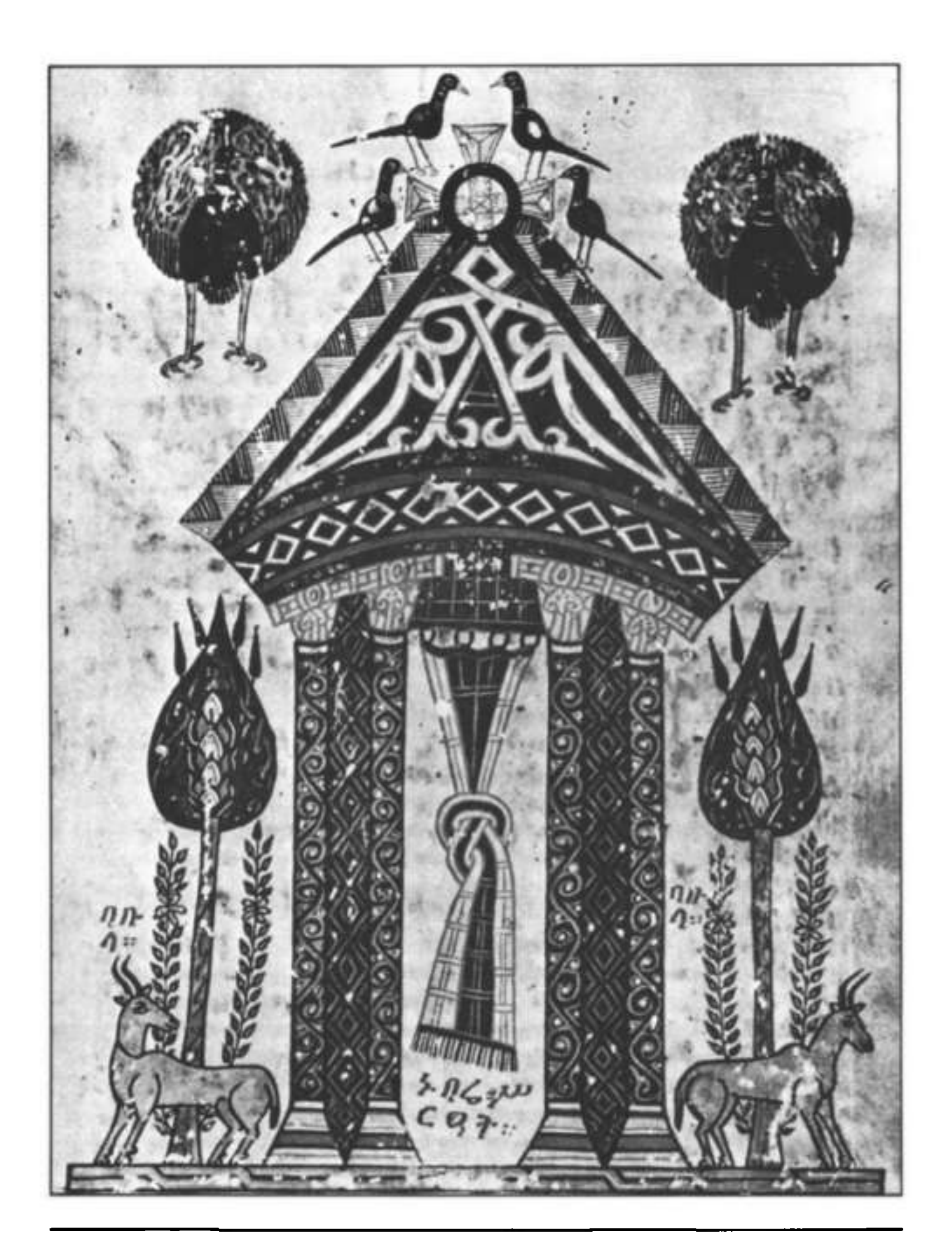
(٢٦) أفضل دراسة حديثة عن تاريخ التربية التي كانت تتولاها الكنيسة الاثيوبية هي دراسة س. هيلي سيلاسي، ١٩٧٢، ص ١٦٢ – ١٧٥.

أمهرة ، التي بادر إلى تكوينها الأب أنوريوس وبيسيلوتي – ميكائيل ويجب أن نضيف إليهما دير داغا الذي بني على جزيرة وسط بحيرة تانا ، وتنسبه الروايات إلى تلميذ آخر لإيسوس – موا ، هو هيروت أملك . وتقول روايات تاريخ القديسين الخاصة بمدارس الأديرة هذه إن التلاميذ كانوا يتوغّلون داخل البلاد ، بعد تخرّجهم ، ليكوّنوا فيها جماعات خاصة بهم . فاكتست المنطقة كلها – خاصة شوا – بالأديرة ، وأخذ في الازدياد عدد القساوسة الذين تلقّوا تعليمًا متينًا . وفي أقصى شمال الحبشة ، شهدت الأديرة نهضة مماثلة تحت قيادة قديس متعدّد القدرات هو الأب أوستاتيوس ، وصل حماسه التبشيري إلى المناطق المسيحية في بوغوس ، وماريا ، وهماسن ، وسيراي ، وبضعة أجزاء من كوناما ، فيما أصبح إريتريا اليوم[٢٧] . وكان هذا التوسّع في الداخل من جانب الكنيسة مفيدًا حقًا ، لأنه جاء في الوقت الذي ضمّ فيه أمديه سيون أراضي عديدة لم تكن مسيحية . وبعد موافقة الامبراطور ، راح أبونا يعقوب (وهو «المطران» المصري) الذي كان يرأس أسقفية اثيوبيا ينظّم جماعات الأديرة الرئيسية ، فيما يبدو ، ويحدّد الأبرشيات التي سيكون كل دير مسؤولاً عن التبشير فيها ، وعن حياة سكانها الروحية .

لقد رأينا من قبل أن أمديه سيون كان يقيم الحاميات في المناطق التي غزاها منذ وقت قريب . وعزّز الامبراطور ومطرانه المصري حركة التوسع هذه باستدعاء رهبان الأديرة ، وإرسالهم للعيش في هذه الاراضي الجديدة ، وسط القوات المسيحية . وهكذا تعدّدت الكنائس والأديرة تدريجيًا عند الفلاشة ، وفي غوجام وداموت ، وحتى في مقاطعات ايفات ، وداوارو ، وبالي الإسلامية . وكانوا يغمرون بالامتيازات العقارية ، وكان السكان مجبرون بأمر الامبراطور المسيحي ، على حمايتهم وتسهيل إقامتهم لشعائر دينهم . وكثيرًا ما يذكر عدم التزام السكان بهذه الحماية على أنه السبب الرئيسي للحملات التأديبية التي كان يقوم بها الجيش الامبراطوري . وإذا كانت هذه الحماية السياسية والعسكرية قد عجّلت في البداية بتكوين الجماعات المسيحية في الأمبراطورية «السليمانية» من أقصاها إلى أقصاها ، فإن الروابط الوثيقة للغاية التي حافظت عليها الكنيسة دائمًا مع السلطة السياسية أصبحت على المدى البعيد عبئًا كبيرًا عليها من نواحٍ كثيرة . وقد كانت الشعوب التابعة تعتبرها ذراعًا من أذرعة الامبراطورية التوسعية الطاغية ، لذا ، لم تستأثر أبدًا بقلوب الشعوب المهزومة أو أرواحها . وعلى الرغم من حماية الدولة الامبراطورية لها حماية قوية ظلّت الكنيسة تصطدم بالمعارضة من قبل القادة الدينيين التقليديين لهذه الشعوب ، وارتبط مصيرها بلا فكاك بمصير الامبراطورية[٢٨] . ولما كانت تخضع خضوعًا اقتصاديًا كاملاً لنظام الإقطاع الإثيوبي ، لم تستطع أبدًا التوصّل إلى الاستقلال الروحي والمعنوي الحقيقي : ففيما عدا المقاطعات الشمالية القديمة ومراكز الإشعاع المسيحي الرئيسية التي أنشئت في الأراضي التي تمّ غزوها ، ظلّ تأثيرها ضعيفًا حقًا . واتّضحت الحقيقة المرة عندما انهارت الامبراطورية تحت ضغط الجهاد في العشرين سنة الأولى من القرن السادس عشر .

لم يؤد توسّع الكنيسة الملحوظ خلال هذه الفترة إلى أي تغيير في بُناها الأساسية ، فظلّت تخضع للسلطة الروحية لبطريرك الاسكندرية ، الذي كان يعين المطارنة المصريين على رأس سلم رجال الكنيسة في الامبراطورية . وكانت الرفعة التي اكتسبتها جماعتان كبيرتان من جماعات الأديرة ، لهما «دار» تكلي – هيمانوت و «دار» أوستاتيوس حدثًا هامًا بصفة خاصة . وقد كانت قواعد «داز» تكلي هيمنوت قواعد أرسخ نظرًا لارتباطه الوثيق ببلاط الملك ؛ فضلاً عن أن داره – الأم ، دير دبري ليبانوس ، في شوا كان

(٢٧) نجد مزيدًا من التفاصيل الخاصة بحركات توسع الكنيسة في ت. تمرات ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٦ – ٢٠٥ .
(٢٨) ت. تمرات ، في JES ، المجلد العاشر ، ١٩٧٢ .



• مخطوط إثيوبي من القرن الخامس عشر
موضحًا شجرة الحياة (دير كِبران)



• مخطوط إثيوبي من القرن الخامس عشر
موضحًا صلب المسيح (دير كِبران)



• مخطوط إثيوبي من القرن الخامس عشر
موضحًا الملاك يبشّر مريم العذراء
(دير يحيي جرجس)

يجعل أغلب الجماعات الدينية في الامبراطورية تدين له بالطاعة. أما «دار» أوستاتيوس، فبدأ كأقلية مناضلة، في السنوات الأولى من القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أنه أسس جماعات أخرى في تيغري وبلاد الفلاشة وغوجام، وشوا، خلال القرن الخامس عشر، ظلّت مراكز إشعاعه الرئيسية وهي الأديرة التي بناها أتباع أوستاتيوس القدامى، في إريتريا – ومن بينها دبري بيزن الذي لعب دورًا أساسيًا فيما بعد. لكن، يجب أن نؤكّد أن كنيسة إثيوبيا ظلّت لامركزية إلى حد كبير شأنها في ذلك شأن الامبراطورية المسيحية نفسها. وحتى إذا كانت الأديرة الكبيرة قد مالت إلى أن ترتّب نفسها حسب أهميتها التاريخية والروحية، فإن كلاً منها كان مستقلاً تقريبًا، ويكاد يكون مستقلاً عن الأديرة الأخرى كلها. وينسحب هذا أيضًا إلى حد ما حتى على الأديرة التي تتبع جماعة واحدة. وحاول كل من المطارنة المصريين والامبراطور جاهدين، الحد من هذه اللامركزية، وتأكيد سلطتهم المباشرة على الأديرة، بمنح بعض الامتيازات الاقتصادية واستخدام حق سياسة الرهبان المطلق، ذلك الحق الذي كان يمارسه المطران. وبلغوا غايتهم في عديد من الكنائس غير القانونية التي يخدمها قساوسة متزوّجون وظلّ هؤلاء القساوسة عرضة لتأثير السلطة العلمانية، حتى على المستوى المحلي، في حين كانت الأديرة الكبرى تدافع دفاعًا قويًا عن استقلالها، وتمنع تكوين سلم من المراتب على المستوى الوطني. وكان يوجد بالطبع، في البلاط الملكي ودوائر المطرانية، عدد من كبار رجال الدين الذين تعطيهم وظائفهم، كمستشارين روحيين للأباطرة ومطارنتهم المصريين، سلطة أكيدة. وخلال الجزء الأكبر من الفترة التي نحن بصددها، كان الملوك يختارون صاحب أعلى رتبة من رجال الدين وأرفعهم مكانة، «العقابي – سيات»، من بين رهبان دير حايق. وابتداءً من بداية القرن السادس عشر، وصل آباء دبريه ليبانوس، الذين حصلوا بعد ذلك على لقب «إيشيغي» إلى هذا المنصب الرفيع. لكن السلطة القوية التي كان يمارسها رجال الكنيسة في الامبراطورية كلها ترجع بصفة خاصة إلى وضعهم الرسمي في البلاط الملكي، لا إلى انتمائهم إلى سلم من المراتب القومية، وإن كانت لهذه الأخيرة سلطات روحية مسلّم بها.

إن هذا الفصل يغطّي أخصب الفترات في تاريخ الكنيسة الاثيوبية؛ فعلى الرغم من أنها لم تنجح في الاستقرار بصفة نهائية راسخة في كافة الأراضي التي ضمّت إلى الأمبراطورية في عهد قريب، إلا أنها استطاعت، بشكل واضح، أن تحتل مكانة قوية في مناطق عديدة كان تأثيرها عليها لا يزال ضعيفًا أو منعدمًا، حتى نهاية القرن الثالث عشر. وعلى الرغم من منافساتها الكثيرة، لعبت جماعتا تكلي – هيمانوت وأوستاتيوس دورًا ملحوظًا في حركة الانتشار هذه. لكن النهضة الروحية والحضارية داخل الكنيسة الاثيوبية كانت أهم بكثير. ودرس كل من جويدي وتشيرولّلي الأدب الاثيوبي في هذه الفترة دراسة ممتازة[٢٩]. ومن ناحية أخرى، يمكن أن نكوّن فكرة عن تطوّر الفنون خلال هذه القرون بالرجوع إلى المخطوطات المزخرفة، ولوحات الكنائس ونقوشها الجدارية، والصلبان وعصي الأساقفة الجميلة الكثيرة المزيّنة زينة غنية، تلك التي احتفظت بها بعناية وغيرة، مراكز الأديرة في إثيوبيا في العصور الوسطى[٣٠] عبر القرون. وقد تابع الأباطرة عن قرب هذه النهضة الثقافية وشجّعوها، وكان بعضهم من كبار رجال المعرفة. وكان الامبراطور زيرا – يعقوب (١٤٣٤ – ١٤٦٨) الذي أسهم شخصيًا في هذا الإنتاج الأدبي أبرزهم جميعًا، ويُقال انه ألّف عدة أبحاث في اللاهوت[٣١]. من ناحية أخرى تشهد

(٢٩) أ. جويدي، ١٩٣٢، وأ. تشيرولّلي ١٩٥٦.

(٣٠) توجد دراسة تفصيلية عن الفن الاثيوبي خلال هذه الفترة في ج. لورواه، ١٩٦٣، ص ٦١ – ٧٦؛ أنظر أيضًا س. شوجنكي في *JES*، المجلد الثامن، رقم ٢، ١٩٧٠، ص ٢١ – ٦٥.

(٣١) ت. تمرات، ١٩٧٢، ص ٢٤٣، هامش ٤.

الروايات المقدسة العديدة، الخاصة بهذه الفترة على النشاط الديني الهائل الذي كان سائدًا بين جماعات الأديرة، التي عمد بعضها، فيما يبدو إلى تنقيح تراث الاكليروس، والطقوس والشعائر والمذاهب تنقيحًا كاملاً. واتّسمت هذه الفترة بالجدل المذهبي الكثير والخلافات حول الطقوس، وهي موضوعات أدّت عند بحثها إلى التشكيك في سلطة بطريرك الاسكندرية بشكل جاد. وكانت روح الاستقلال الإثيوبية قد تأكّدت شيئًا فشيئًا، وقلّت الثقة التي وُضعت في المطارنة المصريين لدرجة وجود حركة قوية في الربع الأخير من القرن الخامس عشر سعت إلى الانفصال كلية عن بطريركية الاسكندرية[٣٢] إلاّ أنها فشلت.

الصراع بين المسيحيين والمسلمين
دخول البرتغاليين مسرح الأحداث

كانت الروابط التقليدية مع بطريركية الاسكندرية ذات قيمة لا تُقدَّر بالنسبة للامبراطورية المسيحية. وإن كانت هذه الطاعة تبقي الكنيسة الإثيوبية تحت الوصاية الدائمة لرجال الدين الأقباط في مصر، فإن هذه العلاقات كانت تُعتبر السبيل الوحيد للاتصال بالمراكز المسيحية القديمة في الأراضي المقدّسة ومع باقي البلاد المسيحية، وهو ما فهمه الأباطرة ومستشاروهم الرئيسيون على الدوام. لذلك لم يسمحوا للخلافات المؤقّتة التي نشأت على مرّ القرون بين المطارنة المصريين والإكليروس الإثيوبي أن تؤدّي إلى الانفصال النهائي. وكانت الهوة الدينية التي تفصل اثيوبيا عن الشعوب المجاورة التي تعيش على جانبي البحر الأحمر وخليج عدن، تمثّل دائمًا مشكلة خطيرة بالنسبة للأباطرة، على مستوى السياسة الخارجية. إذ كانت تحدوهم، من ناحية، رغبة طبيعية في الاستفادة من كونهم مسيحيين لعقد علاقات وأحلافًا عسكرية مع أوروبا المسيحية، بل والمشاركة في الحروب الصليبية الأخيرة، ومن ناحية أخرى، كانوا مهتمين برسم سياسة أكثر واقعية للتعايش السلمي مع جيرانهم المسلمين. وكانت مصر المملوكية، أعظم وأقوى دولة في شرق افريقيا والمسيطرة سيطرة تامة على الطرق الدولية الموصلة إلى البحر المتوسط، تمسك بمفتاح هذه الاختيارات السياسية المتضاربة. لذا اتّبع الأباطرة «السليمانيون» منذ أن اعتلوا العرش، دبلوماسية حذرة للغاية مع القاهرة والبلاد العربية المجاورة، خاصة اليمن التي كانت لهم معها علاقات تجارية منتظمة. وكانوا يقدمون دائمًا «عبيدًا من الجنسين وكذلك الذهب وهدايا أخرى» للسلاطين المماليك، في كل مرة يطلبون فيها إرسال مطران مصري جديد[٣٣]. وكانوا يكتبون للسلاطين يرجونهم أن يسهّلوا مرور الحجّاج الإثيوبيين الذاهبين إلى الأراضي المقدسة، ويؤمّنوا سلامتهم عند العودة.

لكن هذا الحذر لم يتفق دائمًا مع الإحساس الجديد بالقوة الذي استولى على إثيوبيا المسيحية، بعد ضم امديه سيون لبعض الأراضي الإسلامية الواسعة فضلاً عن أننا نلمس بوضوح، طوال الفترة التي تلت حكم امديه سيون، النزعة العدوانية المتزايدة التي أبداها الأباطرة في علاقتهم بالمماليك. ولأن السلاطين

(٣٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠، هامش ٤، وص ٢٤٥ – ٢٤٧.
(٣٣) أ. كترمير، ١٨١١، المجلد الثاني، ص ٢٦٨ – ٢٧١.

المصريين زعموا دائمًا أنهم يحمون مصالح الإسلام في إثيوبيا ، فإن امديه سيون ومن أعقبوه طالبوا القاهرة ، مقابل ذلك ، أن تكفل حرية العبادة والحقوق المدنية الأخرى للأقباط المسيحيين ، وأن يتّخذ المماليك إجراءات حازمة لكي يكفّ السكان عن اضطهاد أقباط مصر. ويتضح من الروايات الحبشية والقبطية أن هذا الصراع أخذ يزداد خطورة منذ أن حكم سيفي – أرعاد (١٣٤٤ – ١٣٧٠) ، ابن امديه سيون الذي خلفه مباشرة. ووفقًا لما يروي رحّالة ايطالي جاب إثيوبيا في القرن الخامس عشر ان هذا الملك قاد جيشاً حتى وادي النيل ، لكي يقدّم المعونة العسكرية لملك قبرص ، بيار دي لوزينيان ، الذي حاصر الاسكندرية عام ١٣٦٥ [٣٤] . ويقول المقريزي ان داوود الأول (١٣٨٠ – ١٤١٢) ، ابن سيفي أرعاد ، غزا أراضي أسوان ، وهزم العرب ، ونهب أراضي الإسلام [٣٥] . لكنه يصف الامبراطور اسحق (١٤١٣ – ١٤٣٠) على وجه الخصوص ، بأنه عدو الإسلام اللدود : ويقول هذا المؤلّف أن اسحق كان يريد التوصّل إلى تحالف قوي مع أوروبا المسيحية لوضع حد للسيادة الإسلامية على الشرق الأدنى [٣٦] . ويروي كاتب عربي آخر من القرن الخامس عشر هو ابن تغري بردى (١٤٠٩ – ١٤٧٠) ، بمزيد من التفاصيل ، قصة الوفد الذي أرسله اسحق سرًا إلى أوروبا ، وقبضت السلطات المصرية في الاسكندرية على أعضائه وهم في طريق العودة. وشنق رئيس الوفد علنًا في القاهرة – وكان فارسيًا استقرّ في الحبشة – ووجد بين البضائع التي استولى عليها المصريون « عدد كبير من الملابس العسكرية ، مطرّز عليها صليب واسم الهاتي بحروف من الذهب ، وكانت هذه الملابس مرسلة إلى الجيش الاثيوبي » [٣٧] . بعد ذلك بقليل عادت العلاقات لطبيعتها مرة أخرى. لكن. عندما علم زيرا يعقوب (١٤٣٤ – ١٤٦٨) عن اضطهادات جديدة ضد الأقباط تمثّلت في هدم كنيسة « المغطس » القبطية الشهيرة ، أرسل خطاب احتجاج شديد اللهجة إلى السلطان جقمق (١٤٣٨ – ١٤٥٣). وأرسل إليه هذا الأخير ردًا ساخرًا. فأمر زيرا يعقوب بإلقاء القبض على الدبلوماسي المصري حامل الرسالة ، وأبقاه أربع سنوات في الأسر [٣٨] . ويتناقض هذا الاعتداد الزائد بالنفس الذي أبداه أباطرة الحبشة في القرن الخامس عشر تناقضًا غريبًا مع نبرة المجاملة الفياضة التي نلمسها عند مؤسّس الأسرة « السليمانية » يكونو أملك (١٢٧٠ – ١٢٨٥) الذي وصف نفسه في خطابه إلى بيبرس سلطان مصر ، أنه « أكثر خدم السلطان تواضعًا » [٣٩] . ولم يكن ذلك إلاّ انعكاسًا للتطوّرات الهائلة التي طرأت منذ نهاية القرن الثالث عشر.

وترتّب على هذه التطوّرات عدد من النتائج على المستوى الدولي ، بالنسبة لإثيوبيا المسيحية ، فقد ظلّ عدد الرهبان الإثيوبيون الذين يحجّون إلى الأراضي المقدّسة في زيادة مطردة رغم الصعاب الشخصية الخطيرة التي كانوا يلقونها. وتشير شهادة منفردة تتعلّق بالفترة الواقعة بين القرن الرابع عشر وبداية القرن السادس عشر ، إلى وجود سلسلة من الجماعات الاثيوبية الصغيرة في بعض الأديرة المصرية في وادي

(٣٤) س. شيفر ، ١٨٩٢ ، ص ١٤٨. عن الخلافات الأخرى بين سيفي أرعاد ومصر ، أنظر ج. بيروشون ، في *Revue Semitique* ، المجلد الأول ، ١٨٩٣ ، ص ١٧٧ – ١٨٢ ؛ وأ. أ. و. بادج ، ١٩٢٨ ، المجلد الأول ، ص ١٧٧ – ١٧٩.

(٣٥) المقريزي ، الترجمة الفرنسية لـ أ. كترمير ، ١٨١١ ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

(٣٦) المقريزي ، نشر وترجمة ف. ت. رينك ، ١٧٩٠ ، ص ٩.

(٣٧) ابن تغري بردي ، (١٣٨٢ – ١٤٦٩) ترجمة فرنسية ، أ. كترمير ، ١٨١١ ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ ، وترجمة انجليزية ، و. بوبر ، ١٩٥٧ – ١٩٦٠ ، ص ٥٩ – ٦١.

(٣٨) السخاوي ، ١٨٩٦ ، ص ٧١ – ٧٢ و ١٢٤ – ١٢٥.

(٣٩) مفضل ، نشر وترجمة فرنسية أ. بلوشيه ، في *Patrologia Orientalis* ، المجلد ١٤ ، ص ٣٨٤ – ٣٨٧.

النيل ، وجبل سيناء ، ونواح مختلفة من الأراضي المقدسة وأرمينيا ، وجزيرتي قبرص ورودس ، وعدة مدن ايطالية كالبندقية ، وفلورنسا وروما . وكان هؤلاء الإثيوبيون، أينما حلّوا ، يتفاخرون أمام إخوتهم في الدين بغزوات امديه سيون وخلفائه ، وتوسّع امبراطوريتهم . ولعلّ هؤلاء الرحالة بالغوا في حديثهم عن قوة أباطرة إثيوبيا الهائلة ، وثرواتهم الطائلة ، ومواردهم التي لا ينضب لها معين. لكن في بداية هذه الفترة بالذات ، بدأ الخلط بين « بريسترجون » (الملك الشرقي المسيحي) الأسطوري وملوك إثيوبيا المسيحيين. علاوة على أن بعض خبراء الاستراتيجية فكّروا جدّيًا ، فيما يبدو ، في حمل إثيوبيا المسيحية على الاشتراك في الحروب الصليبية الأخيرة وبدا أن هذه الخطة قابلة للتنفيذ ليس فقط لأنه تردّد أن ملوك إثيوبيا كانوا ينتهجون بالفعل سياسة عدوانية مع مصر ، وإنما أيضًا لأن المماليك كانوا يحاولون علنًا أن يقطعوا كل صلة بين الحبشة وأوروبا . «كان [مسيحيو إثيوبيا] ... سيتّصلون بنا عن طيب خاطر ، نحن اللاتينيين» ، هذا ما كتبه في القرن الرابع عشر رحّالة زار المنطقة «لكن سلطان بابيليون (مصر) لا يدع أي لاتيني يمر ليذهب إلى بلادهم ، خوفًا من أن يتحد معهم ويحاربه»[٤٠] . ومع هذا ، كان الإثيوبيون ، كلما رأوا أن قوتهم ورخاءهم في ازدياد ، يؤكّدون رغبتهم في عقد صلات أوثق مع بقية العالم المسيحي لذلك ، فعلى الرغم من المصير التعس الذي لقيه الوفد الذي أرسله اسحق ، فيما بين ١٤٢٧ و ١٤٢٩ ، اقتدى زيرا يعقوب ، أخو اسحق وخلفه ، بما فعله أخوه وأرسل عام ١٤٥٠ وفدًا جديدًا إلى أوروبا ونجح الوفد أكثر من سابقه ، وزار اعضاؤه روما ، ونابولي ، على الأقل. ولا شكّ أنهم عادوا إلى الحبشة سالمين ، وبصحبتهم حرفيون أوروبيون كثيرون[٤١] .

وفي نهاية الأمر ، كان الإثيوبيون يكافحون كفاحًا بلا أمل ، فلم تكن لديهم أية وسيلة عملية لوضع حد فعلي لعزلتهم . فبالإضافة إلى سيطرة مصر المملوكية المطلقة على الطرق الدولية المؤدّية إلى البحر المتوسط ، كانت تملك وسائل هائلة للضغط على بطريركية الاسكندرية . والإجراءات القاسية التي يمكن اتّخاذها ضد البطريرك كانت كفيلة ، وبسهولة لزعزعة الأسس الدينية والسياسية لإثيوبيا المسيحية . وجرى كثير من هذه المحاولات طوال تاريخ العلاقات بين مصر وإثيوبيا ، لكن الإثيوبيون كانوا يضطرون دائمًا إلى التخلّي عن مواقفهم المتطرّفة ، كلما أوشكت الأمور على التفجر . وفي القرن الخامس عشر ، سبّبت السياسة المغترّة التي اتّبعها ملوك الحبشة مع المماليك كثيرًا من الضيق والإحراج لبطاركة القاهرة . وقد تحدّثنا عن ذلك الرسول المصري الذي أوفده السلطان جقمق إلى بلاط زيرا يعقوب ، والذي أمر هذا الأخير بالقبض عليه وإلقائه في السجن مدة طويلة . وانتقم السلطان باستدعاء البطريرك ، وأمر بضربه ولعلّه أجبره على أن يطلب من زيرا يعقوب الإفراج عن الرسول الأسير . علاوة على ذلك ، يبدو أن السلطان أمر البطريرك (عام ١٤٤٨) ، بعد عودة هذا الرسول ، بالامتناع عن التعامل مع إثيوبيا بدون اذن صريح منه[٤٢] . وظهرت آثار هذه العقوبة الدينية في إثيوبيا لفترة تزيد على الثلاثين عامًا . ولم يحل أحد محل آخر مطارنة زيرا يعقوب المصريين الذي توفي قبل عام ١٤٥٨ . وكان لا بدّ من انتظار عام ١٤٨٠ – ١٤٨١ لتنصيب مطران جديد في عهد اسكندر (١٤٧٨ – ١٤٩٤) ، حفيد زيرا يعقوب ، بعد أن تقدّم الإثيوبيون بالالتماسات المعتادة إلى سلطان القاهرة مصحوبة بالهدايا التي جرت عليها العادة .

---

(٤٠) أ. تشيرولي ، المجلد الأول ، ١٨٤٣ ، ص ١٣٣ .

(٤١) ف. تشيروني ، ١٩٠٢ ، المجلد ٢٧ ، ص ٣ – ٩٣ ، والمجلد ٢٨ ، ١٩٠٣ ، ص ١٥٤ – ٢٠٢ ؛ س.م. ويت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٨٦ – ٢٩٨ .

(٤٢) السخاوي ، القاهرة ، ١٨٩٦ ، ص ٢١٠ .

ويمكن تقدير ضعف الحبشة العميق في هذه المنطقة والسعادة الغامرة لسكانها عندما انفرجت الأزمة في النهاية، بقراءة الحولية الملكية التي تصف ما فعله وصول المطران الجديد، «... حيث زاد عدد القساوسة، وأُصلحت الكنائس، وعمّ الفرح المملكة كلها»[٤٣].

لقد كان وضع إثيوبيا البعيدة جدًا عن أوروبا، والمندمجة اندماجًا قويًا في الشرق الأدنى، يمنعها من أي فرصة لعقد صلات منتظمة وذات مغزى مع المسيحية في الغرب.

أفول إثيوبيا

في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الخامس عشر، بدأت بعض علامات الأفول تظهر على التفوّق الذي انفردت به الامبراطورية المسيحية دائمًا في توازن القوى داخل إثيوبيا والقرن الافريقي. وكان عهد زيرا يعقوب ذروة السيطرة المسيحية على كل الأراضي التي غزاها أسلافه[٤٤]، في المائة والخمسين سنة السابقة. ففي داخل المملكة المسيحية ذاتها عمل هذا الامبراطور بنجاح على التصالح مع جماعة دير اوستاتيوس. وكان الخصام بين هذه الجماعة وباقي الكنيسة الإثيوبية، والذي استمرّ حوالى قرن، له آثار سياسية واقليمية خطيرة. وقد جاهد الملك ليعيد تنظيم الكنيسة الإثيوبية برمّتها، لكي تقوم على أفضل وجه بمهمتها التبشيرية في أنحاء المملكة التي أُعلن فيها إلغاء ومنع كل العادات والممارسات الدينية التقليدية. وكان زيرا يعقوب نفسه عالمًا في اللاهوت، فوضع حدًا بتمكّنه العلمي للخلافات المذهبية التي أشاعت الانقسام في الكنيسة، ولاحق بلا رحمة كل الرهبان المنشقين. بل أراد أن يضع حدًا لتنقّلات البلاط الملكي المستمرة، بإنشاء عاصمة جديدة في دبريه برهان بإقليم الشوا، حيث أنشأ إدارة مركزية للغاية. وفيما يتعلّق بالدفاع عن الأمبراطورية، صدّ زيرا يعقوب الهجمات المستمرّة التي شنّتها مملكة عدال على مقاطعاته الشرقية، وسحق التمرّد الذي أثاره تابعه المسلم سلطان هادية، ودعم سلطته العسكرية على أبعد الممتلكات التابعة له، وذلك بإعادة تنظيم حاميات الحدود التي ألحق بها قوات لها ولاء لا يتزعزع. وعلى هضبة إريتريا الحالية، كان زيرا يعقوب قد كوّن مستعمرة من جنود المايا الذين جمعهم من قبيلة في شوا اشتهرت بمحاربيها. وأمر بحفر ميناء في جيرا، على البحر الأحمر بالقرب من موقع مصوع الحالي[٤٥]. ولم يكف زيرا يعقوب عن التصدّي لهذه المشكلات الكبيرة، وواجهها بنجاح في أغلب الأحيان. وكان عهده بحق ذروة التقدّم الثقافي والسياسي، والعسكري لإثيوبيا في نهاية العصور الوسطى. لكنه لم ينجح بغير مصاعب جمة في أعماله العديدة التي كانت تصطدم، من كل جانب بمقاومة منظّمة. وتدلّ المؤلّفات الأمبراطورية، والحوليات، وبعض السير المقدّسة التي تتناول هذه الفترة على أن نشاط الملك الذي لا يكلّ أثار اضطرابًا سياسيًا كبيرًا، بل ان بعض المؤامرات دُبِّرت للإطاحة به. وتبيّن هذه النصوص أيضًا أن زيرا يعقوب استخدم الوسائل العنيفة لكي يسحق كل معارضة من هذا القبيل. وهناك روايات عديدة عن كبار رجال الإكليروس والموظّفين الذين حكم عليهم بالأسر في المنفى البعيد. والواقع أن أول عمل

(٤٣) ج. بيروشون، في *JA*، المجلد الثاني، ١٨٩٤، ص ٣٤٠.

(٤٤) يدرس ت. تمرات، ١٩٧٢، ص ٢٢٠ – ٢٤٧ حياة زيرا يعقوب السياسية دراسة متعمقة.

(٤٥) كونتي روسيني، بمجموعة رقم ٥، المجلد ١٢، ١٩٠٣، ص ١٨١ – ١٨٣؛ ج. كولمودين، رقم ٥. في *AEO*. المجلد الخامس، أجزاء ١ – ٣، ١٩١٢ – ١٩١٤.

رسمي قام به ابن زيرا يعقوب وخلفه، بايدي – مريم (١٤٦٨ – ١٤٧٨) كان العفو عن عدد كبير من المسجونين السياسيين، والتخفيف من قبضة السلطة المركزية التي أراد والده الراحل أن يرسيها في عاصمته الجديدة دبريه برهان. لكن، سرعان ما أثار ارتخاء القبضة الحديدية التي حكم بها زيرا يعقوب انفجارًا جديدًا لحركات التمرّد على عدة جبهات. وعلى الرغم من أن الملك الشاب قام ببذل جهود ملحوظة لاحتوائها، لم يتساو أبدًا مع ما أبداه أبوه من سلطة رهيبة. فتلت حكم بايدي – مريم القصير حركات انشقاق داخلية خطيرة. وترك بايدي – مريم، عند وفاته، ولدين قاصرين، لم يكن أي منهما في سن تسمح له بتولّي المسؤوليات الامبراطورية. وترتّب على ذلك نزاع على الخلافة بين أنصار الأميرين الشابين امتدّ إلى عدة سنوات، وأضعف قوة الامبراطورية المسيحية[٤٦].

وجاءت أول هزيمة خطيرة مُني بها الجيش المسيحي على جبهة عدالي، في عهد بايدي – مريم. ويمكن أن نقول إن أفول القوة المسيحية في إثيوبيا والقرن الافريقي على السواء ظلّ يتفاقم، منذ ذلك الحين، إلى أن كان الانهيار النهائي الذي أدّى إليه جهاد الإمام أحمد بن ابراهيم.

---

(٤٦) ت. تامرات، *Canier*...١٩٧٤، رقم ١٩١. ص ٥٢٦ – ٥٣٣.

الفصل الثامن عشر

تطوّر الحضارة السواحيلية

بقلم ف. ف. ماتفييف

تعدّ الفترة الممتدّة من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر، فترة هامة على نحو خاص بالنسبة لتاريخ الساحل الشرقي لافريقيا والجزر المجاورة له. فذلك هو العصر الذي تكون فيه في هذه المناطق مجتمع عرقي يتفق على خير وجه مع الاسم العام للسكان في هذه المنطقة وهو «السواحيليون». كما أنه هو ذلك العصر الذي شهد بشكل مؤكّد، وجود عدد من الدول التي جاء ذكرها بدءًا من القرن العاشر.

ولنضف إلى هذا حقيقة هامة هي أن هذه الفترة كانت فترة لم يتعرّض فيها التطوّر التاريخي والثقافي لتأثير مشوش لأي عامل خارجي، على حين حطم دخول الغزاة البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر، عملية التطوّر هذه وغير – على نحو محسوس – ظروفها وطابعها.

ومن جانب آخر فنظرًا إلى أن هذه الفترة اتّسمت بانطلاقة منتظمة في المجال الثقافي، فإنه يحق لنا اعتبار أن الحضارة السواحيلية قد شهدت حينذاك أوج ازدهارها، خاصة بالقياس إلى الانحطاط الذي أعقبها.

في القرن الثاني عشر لم يكن السواحيليون يشكّلون مجتمعًا متجانسًا لا على المستوى العرقي ولا على المستوى الاجتماعي: فقد انضمّت إلى الأساس العرقي المحلي المكوَّن من سكان يتحدّثون بلغة البانتو، عناصر قادمة من داخل القارة أو مهاجرين قادمين من الساحل الشمالي لبحر العرب والمحيط الهندي وبينهم العرب، والفرس، والهنود. وعلى المستوى الاجتماعي: تشكّلت جمهرة من الرجال الأحرار انبثقت عنها طبقة حاكمة مغلقة. وبقي البناء الشكلي للمجتمع قائمًا على المؤسسات العرقية، لكن اختلطت به عناصر التمايز حسب الطبقات. ورغم أن أعضاء الطبقة الحاكمة كانوا يعتبرون متساوين مع الآخرين، فإنهم لم يكونوا كذلك لأنهم كانوا أثرياء وأكسبهم أداء الوظائف التقليدية نفوذًا خاصًا.

وإلى جانب الطبقة الحاكمة كانت توجد أيضًا طبقة ثرية لكن ليس لها سبيل إلى السلطة والنفوذ الذي تتيحه التقاليد، فقد كانت ثروتها مرتبطة بالتجارة. أما فيما يتعلّق بجمهرة السواحيليين، فقد كانت تتكوّن من أعضاء عاديين في الجماعة.

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك بلا شك العبيد في المجتمع السواحيلي في بداية القرن الثاني عشر، كما يمكن أن نفترضه من قراءة أعمال المؤلّفين العرب الذين وصفوا عملية تصديرهم، لكن دورهم في هذا المجتمع لا يظهر على نحو واضح، إذ ربّما كانوا فحسب محل تجارة فيما بين الأقاليم. وفي نهاية القرن الخامس عشر كان للعبيد، على وجه الاحتمال، وظيفة ذات طابع اقتصادي حسب رواية برتغالي مجهول وصفهم بأنهم كانوا يقومون بمهام زراعية في كيلوه[١].

وتعكس الحضارة السواحيلية عملية التمايز الاجتماعي هذه، فنجد ثقافة تقليدية هي ثقافة الشعب، وثقافة أخرى هي ثقافة الطبقة الحاكمة. لكن معلوماتنا عن هذه الحضارة ناقصة نتيجة لنقص المصادر.

الاقتصاد والمبادلات التجارية

تقوم الحضارة السواحيلية على ثلاثة أنشطة اقتصادية أساسية، هي الزراعة وصيد الأسماك والمنتجات الأخرى من البحر والتجارة.

الزراعة وصيد الأسماك

تشكّل الزراعة التي تعمل في مجالها جماهير الشعب، مع صيد الأسماك جوهر مصادر العيش في هذا المجتمع. وقد أجرى المسعودي، وهو مؤلّف من القرن العاشر، التعداد التالي لما يُزرع في البلاد: الموز، الذرة البيضاء، الانيام (البطاطا أو الكالاري) والنعناع وجوز الهند[٢]. وتتحدّث مصادر أخرى عن قصب السكر والتمر الهندي. وفي القرن الخامس عشر ذكر شخص برتغالي مجهول بصدد كيلوه قيسواني، جوز الهند والبرتقال السكري والليمون والخضر المختلفة والثوم المعمر والأعشاب العطرية والتنبول (نبات فلفلي) وأنواع مختلفة من البازلاء والذرة (الأرجح أنها الذرة البيضاء أو السورغو). كما تحدّث عن تربية الماشية (المواشي الكبيرة ذوات القرون، والخراف، والماعز) وعن زراعة القطن. وتدل هذه المعلومات واكتشاف المغازل المصنوعة من الطين المحروق على وجود أنشطة الغزل والنسيج. ومن وجهة النظر الزراعية كان لجوز الهند أهمية كبيرة للغاية.

ولم يكن صيد الأسماك أقل أهمية من الزراعة. وقد جاء ذكر هذا النشاط على لسان المؤلّفين العرب الذين أشاروا كثيرًا إلى استهلاك السكان المحليين للأسماك وثمار البحر والرخويات.

ولم يكن المحيط يقدّم مواد المعيشة فحسب. إذ تعلمنا المصادر العربية بصيد وبيع اللؤلؤ والأصداف ودرق سلاحف البحر والكهرمان. وفيما يتعلّق بالأسماك فإنها لم تكن تستهلك محليًا فحسب، بل كانت تُباع أيضًا الأمر الذي يفترض أن هذا الصيد كان وفيرًا[٣]. ونعرف أيضًا أن الأصداف كانت تستخدم

(١) ج.س.ب. فريمان – جرينفيل، ١٩٦٢.

(٢) ف.ف. ماتفييف، ١٩٧١، ص ٢٦–٢٧، أنظر أيضًا المسعودي، ترجمة فرنسية ج. بربييه دو مينارد، وم. م. بافيه دو كورتي، ١٨٦١، مجلّد ١، ص ٣٣٤ ومجلّد ٣، ص ٧، ١١، ٢٩.

(٣) ف.ف. ماتفييف، المرجع المذكور، ول.ي. كوبل، ١٩٦٥.

لصنع الصحاف والملاعق والقلائد. وبصفة عامة ذكرت المصادر العربية وجود هذه الأنشطة بطول الساحل دون ايضاح آخر. ومع ذلك فإن الإدريسي في وصفه لعدد من المدن، جعل من الصيد النشاط الرئيسي لمالندي.

وقد ارتبط هذا النمط من النشاط على نحو وثيق، بتطور فن الملاحة في شكليه. من جانب فن بناء السفن، ومن جانب آخر تطور تقنيات الملاحة وبصفة خاصة علم الفلك. وتبين دراسة المعلومات الفلكية لذلك العصر، أن ذلك التطور لم يكن ممكنًا بدون الملاحة في المحيط الهندي. ومن ثم فهناك مجال للاعتقاد بأن الملاّحين الأفارقة أسهموا في تشكيل هذا العلم[٤].

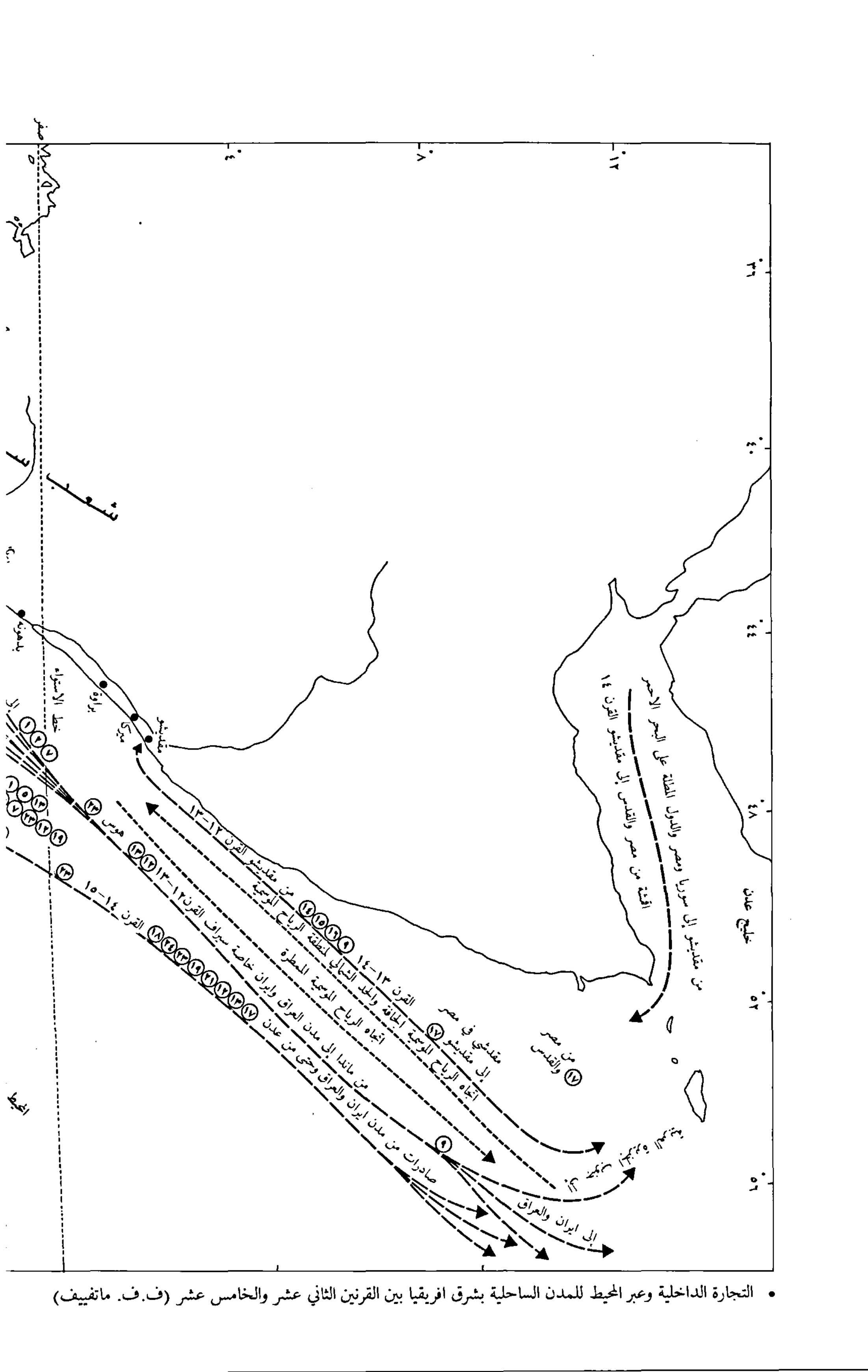
وفيما يتعلّق ببناء السفن، يمكن أن نفترض أنه لم يقتصر على صنع «المتومبوي» (قوارب منحوتة من جذع شجرة بالفأس) و «المتيبي» (زورق مصنوع من تجميع الخشب بالحبال). وقد شاهد المؤلّف البرتغالي المجهول في ميناء كيلوه، سفنًا كبيرة كثيرة، تشبه أحجامها بشكل ظاهر حجم كارافيل، حمولتها ٥٠ طنًا، لكنه لسوء الحظ لم يحدّد انتماءها. وبشكل غير مباشر يمكن أن يستدل على وجود سفن من أنواع مختلفة من وجود تشكيلة من المصطلحات الخاصة بالسفن في اللغة السواحلية، الأمر الذي يدل على احتمال وجود تمييز نوعي بينها، ووجود عدد كبير من طرز السفن حتى بداية القرن العشرين. وإذا كان ذلك الفرض حقيقيًا، فإنه يلغي المقولة التي تزعم أن سكان افريقيا الشرقية لم يعكفوا على التجارة البحرية في المحيط الهندي.

التجارة وتطوّر الحياة الحضرية

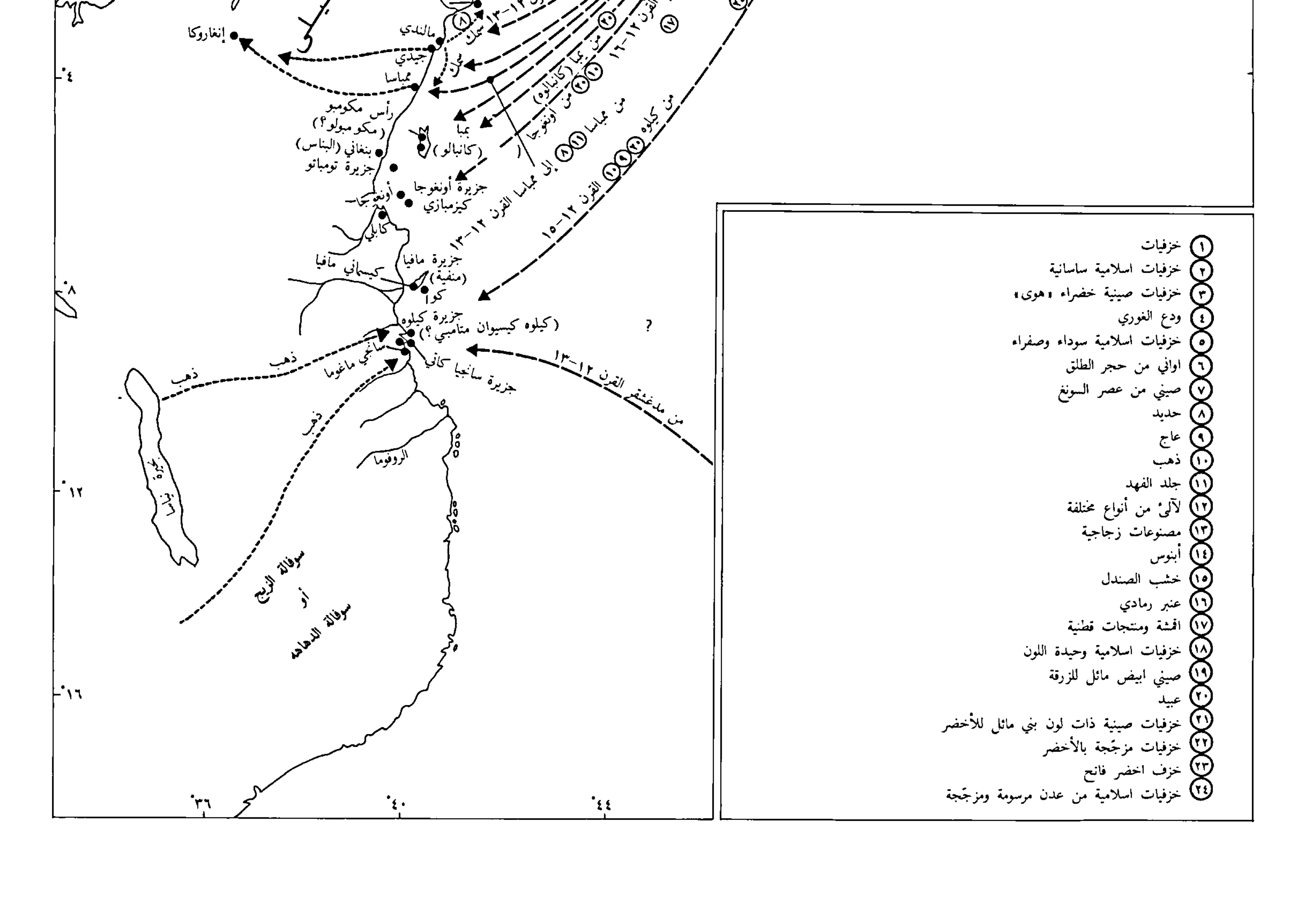
عاش السواحليون من أفراد الشعب في أكواخ من الخشب والطين مغطاة بسعف النخيل أو الأعشاب. وكانت تجمّعات هذه الأكواخ تشكّل القرى والمدن. ومن المحتمل أن تكون المصادر العربية قد أشارت إلى هذه الفئة من السكان، وذلك عندما تصف صيد الفهود والذئاب واستخراج خام الحديد لبيع المعدن واستئناس الحيوانات المفترسة بسحرها (مثلاً الأسود والفهود المسحورة التي لا تهاجم الإنسان)، وأيضًا الكلاب الصهباء المستخدمة في صيد الذئاب والأسود، وطبلة ضخمة شبيهة بالبرميل تحدث ضجة مروعة، ويتّجهون إليها في عبادتهم[٥].

ولم يقتصر الساحل على هذا النمط من الحضارة، إذ تطلعنا المصادر العربية أيضًا على جانبها الآخر، الخاص بحضارة المدن، الأكثر تقدّمًا والمرتبطة بتطوّر التجارة البحرية. وقد لاحظ المؤلّفون العرب هذه الفوارق في الدرجة، فقد أشار أبو القاسم الأندلسي إلى أنه من بين السكان المماثلين لسكان افريقيا الشرقية، فإن سكان المدن وحدهم «يمتّعون أنفسهم بدراسة الفلسفة»[٦]. وأغلب الظن أن هذه المدن كانت مكوّنة من الأكواخ أساسًا، لكن لا بدّ أنها كانت تضم أيضًا مباني من الحجر، وفيها يعيش أعضاء المجتمع السواحلي من ذوي النفوذ والأغنياء. وكانت هذه المدن بصفة خاصة مراكز تجارية تتدفّق عليها البضائع المحلية وترسو فيها السفن الأجنبية. كذلك كانت هذه المدن مراكز لإشعاع الإسلام.

(٤) ف.م. ميسيوجن، ١٩٧٢، ص ١٦٥ - ١٧٧.
(٥) ماتفييف، وكوبيل، المرجع السابق، ص ٣٠٥.
(٦) المرجع السابق، ص ١٩٤.



• التجارة الداخلية وعبر المحيط للمدن الساحلية بشرق افريقيا بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر (ف.ف. ماتفييف)



إنغاروكا
مالندي
جيدي
ممباسا
رأس مكومبو
(مكومبولو؟)
بنغاني (البناس)
جزيرة تومباتو
بمبا
(كانبالو)
جزيرة أونغوجا
كيزمبازي
أونغوجا
كابلي
جزيرة مافيا
(منفية)
كيساني مافيا
كوا
جزيرة كيلوه
(كيلوه كيسيوان متامبي؟)
سانجي ماغوما
جزيرة سانجيا كاتي
ذهب
ذهب
ذهب
الروفوما
بحيرة نياسا
سوفالة الزنج
أو
من بمبا (كانبالو)
القرن ١٢-١٦
من أونغوجا
من ممباسا
إلى ممباسا القرن ١٢-١٣
من كيلوه
القرن ١٢-١٥
من مدغشقر القرن ١٢-١٣
?
٤°
٨°
١٢°
١٦°
٣٦°
٤٠°
٤٤°
① خزفيات
② خزفيات اسلامية ساسانية
③ خزفيات صينية خضراء «هوى»
④ ودع الغوري
⑤ خزفيات اسلامية سوداء وصفراء
⑥ اواني من حجر الطلق
⑦ صيني من عصر السونغ
⑧ حديد
⑨ عاج
⑩ ذهب
⑪ جلد الفهد
⑫ لآلئ من أنواع مختلفة
⑬ مصنوعات زجاجية
⑭ أبنوس
⑮ خشب الصندل
⑯ عنبر رمادي
⑰ اقمشة ومنتجات قطنية
⑱ خزفيات اسلامية وحيدة اللون
⑲ صيني ابيض مائل للزرقة
⑳ عبيد
㉑ خزفيات صينية ذات لون بني مائل للأخضر
㉒ خزفيات مزجّجة بالأخضر
㉓ خزف اخضر فاتح
㉔ خزفيات اسلامية من عدن مرسومة ومزجّجة

لقد كانت التجارة مربحة للغاية. وكانت تقوم على اختلاف تقدير قيمة السلع: فقد كانت السلع المستوردة والتي لم تكن تنتج محليًا وتمثّل قبل كل شيء سلع الرفاهية، تنال في نظر المشترين قيمة أكبر مما لها حقيقة، ومن جانب آخر فإن وفرة المواد الثمينة كالذهب أو العاج، والتأكّد من القدرة على الحصول عليها إلى ما لا نهاية قد جعل قيمتها تتضاءل بالإضافة إلى أن الوضع الجغرافي المتميز – فمن الناحية العملية يشكّل الساحل الافريقي الشرقي كله جزءًا من منطقة الرياح الموسمية – قد شجّع الملاحة في المحيط الهندي وضمن إمكانية وجود هذه التجارة.

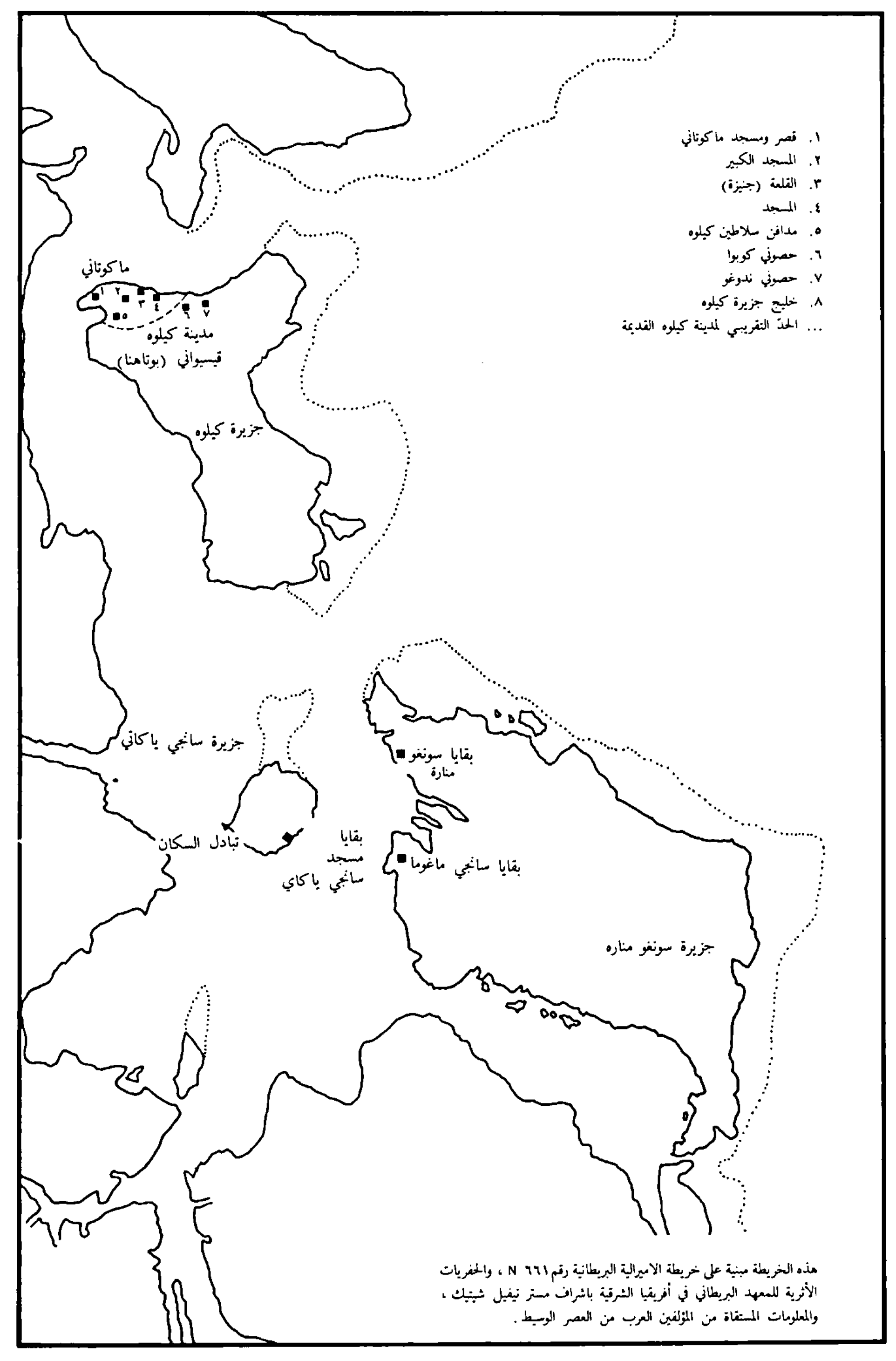
وفي القرن الثاني عشر يبدو أن السبل التجارية لأفريقيا الشرقية كانت تمرّ بأرخبيل جزر لامو وزنزبار. وتبين الحفريات الأثرية التي أُجريت في هذه المنطقة الأخيرة أن المركز التجاري الرئيسي في هذه المنطقة كان يتمثّل في مدينة ماندا الموجودة في الجزيرة التي تحمل هذا الإسم[٧]. وأمكن أن نستخلص من هذه البحوث نتيجة مؤداها أن هذه المدينة كانت مزدهرة في القرنين التاسع والعاشر، وأنها ظلّت نشيطة في القرن الثاني عشر بل حتى القرن الثالث عشر، وبعد ذلك أصبحت كيلوه، كما تشير كل الدلائل، تقوم بالجزء الرئيسي من التجارة. ويشهد على ثراء ومجد هذه المدينة أهمية الأشياء المستوردة التي اكتشفت: الخزف من الطراز الإسلامي الساساني، والخزف الأخضر الباهت من هوى، والخزف ذي الرسوم المزججة. وفيما يتعلّق بالخزف المزجج أو غير المزجج، كانت غالبيته تشبه ذلك الذي اكتشف في حفائر سيراف.

ويدل اكتشاف نفايات خام الحديد على وجود مسابك له. ومع ذلك يبدو لي أنه من الصعب أن يكوِّن الإنسان فكرة عن أهمية هذه المسابك اعتمادًا على شواهد علم الآثار فقط. وربما كانت المعلومات التي أوردها الإدريسي عن مدينة مالندي «كان الحديد هو المورد الرئيسي لها والمادة الأساسية لتجارتها»[٨] تنطبق على كل هذه المنطقة، ومن هناك كان الحديد يُنقل حتى ماندا، التي كانت ثروتها تجيء من العاج، السلعة الأساسية لصادراتها.

كذلك وصف الإدريسي مدنًا أخرى على الساحل وفي الجزر وسمى المدن التالية: ميركا وبراوة، ومالندي، وممباسا، وبانجاني (الباناس)، أونغوجا (الاسم القديم لزنزبار). وقد تكون كيلوه هي المدينة التي وضعها بعد بانجاني، وذلك وفق تحقيق جديد يبدو مقنعًا (باسم بوتاخنا)[٩]. ويتيح ذكر هذه المدينة افتراض أنها كانت توجد بالفعل منذ زمن معين، لكنها لم تكن قد أصبحت بعد أحد المراكز التجارية الكبرى على الساحل. كذلك تحوي مصادر عربية أقدم، ذكرًا لمدينة سوفالة التي كان يصدّر منها الذهب. ويمكن عن طريق مقارنة المعلومات تحديد موقع هذا المكان في منطقة كيلوه.

وتقدّم البحوث الأثرية التي أُجريت في كيلوه قيسواني[١٠]، لوحة لحياة تجارية نشيطة إلى حد ما. فقد وجد فيها عدد كبير من أصداف الودع (الغوري التي كانت تُستخدم كنقود للتبادل)، والقاشاني المستورد، ذي الزخارف الصفراء المزجّجة التي تعكس اللون الأسمر الفاتح أو المزجّجة بطلاء أخضر

(٧) هـ. ن. شيتيك، ١٩٦٧، ص ٤ – ١٩.
(٨) ماتفييف، المرجع السابق، ص ٣٠٤.
(٩) م. آ. تولماشيفا، ١٩٦٩، ص ٢٧٦.
(١٠) استمد وصف الحفائر الأثرية التي أجريت في افريقيا الشرقية وكذلك الخاصة بالمعمار السواحلي التي ستعقبها من الأعمال التالية:
– ج. س. كيركمان، ١٩٥٤.
– هـ. ن. شيتيك، ١٩٦٦، ص ١–٣٦؛ ١٩٦٧، ص ١–٣١؛ ١٩٦١، ص ١–٣١ و ١٩٧٤، مجلّد ٢.



• جزيرة ومدينة كيلوة (ف.ف. ماتفييف)

داكن، ومواد زجاجية، وكمية ضئيلة من الحلى المصنوعة من الزجاج والعقيق الأحمر أو الكوارتز، والأوعية المنزلية المصنوعة من حجر طلق مدغشقر. وكان الذهب هو سلعة التصدير الأساسية. وفي منتصف القرن الثاني عشر بدأ استجلاب الصيني السونغ من الصين والصيني الأخضر الباهت بكميات أقل.

وفي جيدي، كانت سلعة الاستيراد الأكثر تمايزًا تتكوّن من الخزف الإسلامي «الأسود والأصفر»، والفخار ذي النقوش المزجّجة الصفراء والخضراء، وأنواع مختلفة من الخزف الأخضر الباهت. ولم يرد ذكر لجيدي في المصادر العربية. كذلك فإنه على الرغم من أن الإدريسي لم يذكر مدينة مقديشو، فإنها لا بدّ أن تكون قد وجدت آنذاك. أما فيما يتعلّق بمالندي وممباسا، فكانتا مركزين تجاريين أقل أهمية. ومنهما كان يصدّر الحديد وجلود الفهود، أما السمك فكان يصدّر من مالندي.

وفي بداية القرن الثالث عشر، قال ياقوت عن مقديشو انها من أشهر مدن افريقيا الشرقية، وأوضح أن سكانها كانوا عربًا، مسلمين يعيشون في جماعة. وفي ذلك العصر كانت مقديشو تصدّر خشب الأبنوس والصندل والكهرمان الرمادي والعاج. كذلك لاحظ هذا المؤلّف الطابع المركّب لسكان هذه المدينة. كما ذكر بالإضافة إلى هذا وجود مدينتي الميتامبي والمكومبولو على جزيرة بمبا. «وكان لكل من هاتين المدينتين سلطانها المستقل عن جاره. وكانت على الجزيرة كثير من القرى والمدن الصغيرة. وكان السلاطين يؤكّدون أنهم عربًا وأن جدودهم أصلاً من الكوفة التي انتقلوا منها إلى هذه الجزيرة»[١١]. ونجد عند ياقوت ذكر كيلوه للمرة الأولى بهذا الاسم، كما كان هو أول من تحدّث عن مدينة مافيا التي يحدّد موضعها لا على جزيرة وإنّما على الساحل، وكان هو أيضًا أول من تحدّث عن جزيرة تومباتو في كلامه عن زنزبار (لا نجويا – أونغوجا). ووفقًا لروايته كانت زنزبار دولة مستقلة، وكانت مدينة أونغوجا مركزًا تجاريًا ترتاده السفن، أما سكان تومباتو فيصفهم بأنهم مسلمون.

وفي ذلك العصر كانت كيلوه واقعة تحت سلطان أسرة تسمى أسرة «الشيرازي»، ويبدو أن جزيرة مافيا كانت تابعة لها أيضًا. بيد أنه في منتصف القرن الثالث عشر، نشهد صراعًا بين كيلوه وبين جماعة الـ «شانغ» الذي يمكن أن نرى فيها، على وجه الاحتمال، سكان جزيرة سانجي – يا – كاتي. ويمكن أن نفترض أن الهدف من هذا الصراع كان يتمثّل في السيطرة على الطرق التجارية التي تمرّ بهذه المنطقة. وكما تبين حوليات كيلوه، فإن هذه المدينة الأخيرة هي التي أحرزت النصر في النهاية[١٢]، وهو نصر ترتّب عليه غالبًا ازدهار التجارة والحضارة السواحلية التي ترجع إلى بداية القرن الرابع عشر، وتتواكب مع وصول أسرة جديدة، هي أسرة أبو المواهب إلى السلطة في كيلوه.

وفي ذلك العصر (القرن الثالث عشر) ظلّت جيدي تتاجر في نفس السلع، كما سبق أن فعلت مع المدن الإيرانية، خاصة مع مدينة سيراف (وكان الأمر نفسه ينطبق على ماندا).

وزاد حجم السلع التي استوردتها كيلوه زيادة محسوسة، إذ نحصي كمية كبيرة من الخزف ذي الزخارف المزجّجة، وعادة ما كان خزفًا أخضر داكنًا ذي نقوش متنوّعة وكان النوع الأصفر ذو الانعكاس الأخضر منه نادرًا، والبورسلين الوارد من الصين من عصر سونغ والذي نجد من بينه الأخضر الباهت، وأشياء زجاجية، خاصة القناني والقوارير المزيّنة أحيانًا بنقوش بارزة، والتي كانت تُستخدم على ما يبدو في حفظ العطور والكحل.

(١١) ف. وستنفيلد، «ياقوت»، القرن الثالث عشر، ترجمة ألمانية، مجلّد ٤، ١٨٦٩، ص ٧٥–٧٦، ومجلّد ٥، ص ٣٠٢ و ٦٩٩.

(١٢) «حوليات كيلوه»، ترجمة انجليزية، ج.س.ب. فريمان – جرنفيل، ١٩٦٢أ، ص ٣٤–٤٩، و ١٩٦٢ب.

١

٢



١. طبق من الصيني مثبّت
في مقبرة في سيو بجزيرة ياتى
٢. أطباق من الصيني مثبتة
في قبلة مسجد الجمعة بجزيرة مافيا

وتنتمي الأشياء الزجاجية التي اكتُشفت في جيدي من حيث الشكل والزخرف إلى تلك التي وُجدت في حفائر كيلوه. وهي تتعلّق في غالبيتها بقناني وقوارير جاءت من العراق وإيران. وينطبق هذا على غالبية الأشياء التي وُجدت في جيدي. لقد كان استجلاب الأواني المصنوعة من حجر طلق مدغشقر والحلى الزجاجية، خاصة ثلاثة أنواع من الخرز على شكل «وشاح ملفوف» يزداد أكثر فأكثر، وبدرجة أقل استيراد الخرز من طراز «العصية».

ويبدو أن التجارة بلغت أعلى مستوى لها في القرن الرابع عشر. وبالنسبة لهذه الفترة، فإن أهم مصدر لدينا باللغة العربية هو مؤلّف ابن بطوطة الذي زار افريقيا الشرقية في ١٣٢٢. والوصف الذي قدّمه عن مقديشو هو وصف مركز تجاري كبير(١٣)، وشرح فيه أن كل تاجر أجنبي يجد من بين سكان المدينة وكيلاً يهتمّ بشؤونه. وكان ياقوت قد ذكر فعلاً هذه العادة دون أن يتوسّع فيها تفصيلاً. وبالإضافة إلى السلع التي وصفها ياقوت، كانت مقديشو تتاجر أيضًا في «المَقْدَشي» أي «نسيج مقديشو».ولم يكن لهذه المدينة نفس الشبكات التجارية التي كانت للمدن الواقعة في الجنوب. وهكذا كان المقدشي يصل حتى مصر، في حين كانت ترد من مصر ومن القدس أنواع أخرى من المنسوجات. ولم تكن المدن الأخرى ترتبط بعلاقات لا مع مصر ولا مع سوريا.

وفي القرن الرابع عشر فقدتماندا شيئًا من أهميتها، في حين ظلّت أهمية مالندي وممباسا والمدن الأخرى قليلة الشأن. وحسب نتائج الحفريات التي أجراها شيتيك، لم تظهر مدينة باتي على الجزيرة التي تحمل نفس الاسم إلاّ في ذلك العصر(١٤).

المبادلات: المراكز، المنتجات، الحجم

في القرن الرابع عشر أصبحت جيدي تستورد أشياء جديدة: فالخزف ذو الزخارف المزجّجة الأصفر والأسود، وان استمرّ حتى نصف القرن الرابع عشر، أخلى مكانه شيئًا فشيئًا للخزف المزجّج باللون الأخضر والأزرق، ذي الطلاء اللامع للغاية. ويبدو أن هذا الخزف كان يأتي من ايران. كذلك نجد طرزًا مختلفة من الأخضر الباهت ومن البورسلين الأبيض، وكذلك أنواع شتى من الحلى، خرز من خزف أحمر بأشكال مستديرة أو مستطيلة، ومن الزجاج «على شكل عصية» أو «وشاح ملفوف» ومن القاشاني، وأنواع أخرى.

كانت معظم التجارة تتم في كيلوه. واستمر حجم الخزف المستورد في التزايد وكان هناك قليل من الفخار الإسلامي، يتكوّن أساسًا من أواني رديئة النوع ذات رسوم سوداء ومطلية باللون الأصفر الكابي، والتي يفترض أنها كانت مصنوعة في عدن التي تستورد منها. وقد شاهدنا خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر، ظهور الخزف الإسلامي الأحادي اللون المزجّج باللون الأخضر الفاتح على الجسم، وهي عبارة عن أواني شبه كروية سميكة لها حافة بارزة بسيطة مدوّرة.

وزاد استيراد البورسلين من الصين، خاصة الأخضر الباهت، مع ميل إلى الزرقة. وقد وُجدت كمية كبيرة من البورسلين الأخضر الباهت «على شكل زهرة اللوتس». وقد وُجدت كمية أخرى كبيرة

(١٣) ابن بطوطة، ترجمة، س. ديفريميري، وب. ر. سانجينتي، ١٨٥٥، مجلّد ٢، ص ١٧٦ وما بعدها.
(١٤) هـ. ن. شيتيك، ١٩٦٧، ص ٢٧ – ٢٩.

من الخزف الصيني ذي اللون الأخضر البني أو الأسود تقريبًا وبه رسوم محزّزة تحت الطلاء الأصفر. كذلك تزايدت كمية الحلى الزجاجية، ومن حيث النسبة زاد الخرز على شكل «عصية» عن تلك التي من طراز «الوشاح الملفوف». كما رأينا ظهور الخرز التي صيغت على شكل «عصية» ولها لون الكوبالت الأزرق. وتوقّف استيراد الأواني المصنوعة من حجر الطلق، وإن كانت الأشياء المصنوعة من الزجاج ظلّت شائعة ومن نفس طرازها السابق.

وفي القرن الخامس عشر، نجد في جيدي نفس الأشياء المستوردة التي كانت موجودة في القرن السابق، أي الأواني الخزفية الخضراء والبيضاء والمغطاة بطلاء لامع جميل. كما نجد للمرة الأولى بورسلين صيني أبيض وأزرق ترجع رسومها الزخرفية إلى عصر منغ في القرن الخامس عشر. واستمرّ استيراد الحلى (الخرز) المصنوعة من الزجاج والمشابهة لتلك التي كانت موجودة في القرن السابق، في حين انخفض استيراد الأواني الزجاجية. وبصفة عامة يُعتبر القرن الخامس عشر في كيلوه عصر تدهور نسبي بسبب الصراعات الداخلية الناجمة عن التنافس على السلطة بين مختلف الأحزاب داخل الطبقة العليا من المجتمع. ومع هذا، ظلّ تطوّر الاستيراد كما هو: وكان الخزف الإسلامي، أحادي اللون الذي تحسّن نوعه قليلاً، هو الأكثر انتشارًا. وكان لونه يتراوح بين الأخضر الضارب للزرقة والأخضر، ونجد أن البورسلين الصيني يزيد مرتين عن القاشاني الإسلامي، وفيما يتعلّق بالبورسلين فإنه كان ينقسم بالتساوي تقريبًا بين الأخضر الباهت وبين البورسلين الأبيض والأزرق. كما نجد عددًا كبيرًا من الأوعية المصنوعة من الزجاج، خاصة القناني. أما فيما يتعلّق بالخرز الزجاجية، فقد كانت كلها تقريبًا على شكل «عصية» ذات لون أحمر.

وكما جاء فيما سبق، فإن سلع التصدير كانت على وجه الخصوص العاج والذهب يُضاف إليهما العبيد (وقد وصف ابن بطوطة غزوة لاختطاف العبيد)، وقرن الخرتيت والكهرمان الرمادي، والحلي والأصداف، وأيضًا جلود الفهود في المناطق الشمالية.

ولنذكر أيضًا سلعة هامة كانت موضعًا للاستيراد رغم أنها كانت تنتج محليًا أيضًا، وهي الأقمشة القطنية التي كانت على ما يبدو تمثّل جزءًا هامًا من مجموع المبادلات. فنحن نعرف أنه في القرن الخامس عشر، كانت كميات هائلة من الأقمشة القطنية تصل إلى ممباسا وكيلوه، حيث يُعاد إرسالها إلى سوفاله[١٥]. ويمكن أن نحكم على الدور الهام الذي يعزى إلى هذه السلعة في الأصل، من حوليات كيلوه، والتي نعرف منها أن جزيرة كيلوه نفسها كانت قد اشتريت مقابل قدر من النسيج يعادل طوله طول محيطها.

وقد شجّعت التجارة البحرية، التي وصلت الساحل الشرقي لأفريقيا بالجزر وربطت بينهما من جانب وبين البلاد الواقعة على الشواطئ الشمالية للمحيط الهندي من جانب آخر، الاتصالات بين سكان هذه المناطق وجعلتهم يثرون. وكانت هذه العلاقات التجارية تشكّل جزءًا من عملية عالمية، وتكون في واقع الأمر فرعًا من الطريق التجاري الكبير الذي يربط الشرق بالغرب. وعلى هذا الطريق لم تكن الموانئ الافريقية الشرقية تمثّل نقاطًا نهائية، فقد كان الطريق مستمرًّا إلى مدغشقر. ولا جدال في أنه كانت هناك علاقات بين الساحل وبين الأقاليم المحتوية على الذهب في الداخل قرب بحيرة نياسا، فمن هناك كان يأتي الذهب الذي ينقل إلى كيلوه.

وابتداءً من القرن الرابع عشر، خضعت بعض المناطق التي تحتوي على الذهب في سوفالة لسلطة

(١٥) ج. ستراندس، ١٨٩٩، ص ٩٧-١٠٠.

سلاطين كيلوه، الذين كانوا يعينون حكامها. وتشهد الاكتشافات الأثرية لأشياء وُجدت في منطقة الساحل أو في بلاد غير افريقية، على قدم هذه الصلات. وكانت ج. كاتون – طومسون قد لاحظت بالفعل أن الخرز ذات اللون الأصفر الليموني التي وُجدت في حفائر زيمبابوي، كانت تشبه تلك الحلى الزجاجية التي عُثر عليها في مناطق كثيرة من الهند نحو القرن الثامن[١٦]. وربما كان للزجاج الأخضر الفاتح والأخضر الذي وُجد أيضًا في زيمبابوي نفس الأصل: فهو يشبه كثيرًا الزجاج الهندي والماليزي.

كذلك، فإن دراسة الأواني الخزفية التي وُجدت في جيدي (طبقة ١ و ٢) وتشابهها مع أنواع الأواني الخزفية التي وُجدت في زيمبابوي، مكّنت ج. س. كيركمان أن يستنتج وجود علاقات بين الساحل وبين ملاك مناجم الذهب داخل القارة[١٧].

ولا شك أن المناطق الحاوية للذهب قرب الزمبيزي وفي أراضي زامبيا كانت هي الأولى التي أُقيمت معها علاقات تجارية، وهو الأمر الذي يدل عليه اكتشاف أصداف الودع (الغوري) التي كانت تُبادل بالذهب والعاج في غوكوميرا وكولومو.

وفي أراضي كينيا الحالية، في منطقة أنغاروكا، أدّت الحفريات في قرية تجارية إلى اكتشاف أصداف الودع (الغوري) والحلى الزجاجية (القرنين الخامس عشر والسادس عشر) من نفس النمط الذي وُجد في كيلوه وفي مدن الساحل الأخرى.

وأخيرًا هناك شاهد مباشر على وجود قوافل تتاجر مع مناطق الداخل: يتعلّق بما أخبرنا به الإدريسي ويرجع إلى القرن الثاني عشر، والذي جاء فيه أنه «نظرًا لأنه ليس لديهم دواب فإنهم كانوا ينقلون حمولاتهم بأنفسهم. فقد كانوا يحملون بضائعهم على رؤوسهم أو على ظهورهم حتى يبلغوا مدينتي ممباسا ومالدي. وهناك يبيعون ويشترون»[١٨].

وكانت أصداف الودع (الغوري) هي أول ما لعب دور نقود التبادل في هذه العلاقات التجارية. فنجدها في كل الحفائر، وكما سبق أن قلنا لا على الساحل فقط وإنما أيضًا داخل القارة. ويبدو أن هذا الدور لعبته أيضًا الخرز الزجاجية ولعبه فيما بعد البورسلين الصيني. وظهرت نقود جديدة، عبارة عن قطع معدنية، في المناطق التي كانت فيها التجارة أشد كثافة. ويبدو أن مراكز صناعة النقود كانت في كيلوه وفي مقديشو. ووفق البحوث التي أجراها ج. ن. شيتيك، فإن النقود ظهرت في كيلوه مع وصول الأسرة المسماة بأسرة «الشيرازي» إلى السلطة والتي يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثاني عشر[١٩]. وكانت قطع النقود هذه من البرونز ومن الفضة. ويحمل المثال الوحيد من النقود الذي غثر عليها في مقديشو، على عكس قطع النقود التي وُجدت في كيلوه، تاريخًا هو ١٣٢٢[٢٠]. ولم يتم العثور على النقود في كل مكان على الساحل. وقد لاحظ ج. س. ب. فريمان – جرينفيل[٢١] عدم وجودها في الجزء الساحلي الواقع بين مناراني وكيلوه ماسوكو، وعزاه إلى عدم وجود حفريات أثرية في هذه المنطقة. وسواء كان هذا هو السبب، أو أن النقود لم تسك هناك ومن ثم لم تتداول في هذه المنطقة، فإن هذا لا يني أننا نجد

(١٦) ج. كاتون – تومسون، ١٩٣١، ص ٨١.
(١٧) ج. س. كيركمان، ١٩٥٤ أ، ص ٧٢ – ٧٣ و ٧٨ – ٧٩.
(١٨) الادريسي، ترجمة روسية في ماتفييف، وكوبال، ١٩٦٥، ص ٣٠٥.
(١٩) هـ. ن. شيتيك، في *JAH* مجلّد ٦، عدد ٣، ١٩٦٥، ص ٢٧٥ – ٢٩٤.
(٢٠) هـ. ن. شيتيك. ١٩٧٢، ص ١٣١.
(٢١) ج. س. ب. فريمان – جرينفيل، «حوليات المسكوكات»، ١٩٥٧، في *NC* ص ١٥١ – ١٧٩، وفي *JAH*. ص ٣١–٤٣، ١٩٦٠.

النقود في كثير من المراكز التجارية الكبيرة ، في كيلوه قيسواني وقيسواني مافيا وفي كيواه في جزيرة جواني وفي جزر زنزبار وبمبا ، كما نجد بضعة نماذج لها في كينيا . ويتيح لنا وجود قطع النقد أن نفترض أن التجارة المحلية قد تطوّرت بصورة ملموسة في الساحل وفي الجزر المجاورة له ، لأن احتياجات التجارة نفسها قد جعلت اتّباع هذا الأسلوب في الدفع أمرًا ضروريًا . فلا بدّ أن كانت له قيمة للتبادل أكبر من الودع الغوري ، ويبدو أن هذا يبين كبر حجم العمليات التجارية . وقد أكّدت هذا الافتراض حقيقة أن الذهب كان السلعة الرئيسية في كيلوه ، وهو سلعة قيمتها الذاتية مرتفعة للغاية . ومن جانب آخر ، فإن وفرة الذهب الذي يُعتبر سلعة ، كان لا بدّ وأن تشكّل عقبة أمام تحويله إلى وسيلة للدفع . ولا بدّ أن المناطق التي وُجدت فيها قطع النقد تتّفق بالأحرى مع مناطق التجارة المحلية . ومن ناحية أخرى فإن عدم وجود ما يشير إلى المكان والتاريخ والقيمة على القطع النقدية الخاصة بكيلوه ، يمكن تفسيره بالتقاليد المحلية ، التي كانت تُعتمد أثناء الدفع بأصداف الودع (الغوري) على عدد الوحدات المقدّمة أولاً وقبل كل شيء .

لقد كانت التجارة ، وهي أكبر مصدر للربح ، هي سبب ثروة مدن شرق افريقيا وأساس التطور الاجتماعي والثقافي للمجتمع السواحيلي . وقد أتاحت التجارة بحكم طبيعتها ذاتها ، للسواحيليين الاتصال بحضارات مختلفة والاقتباس منها ، ونعني بذلك الحضارات العربية والفارسية والهندية . وفيما يتعلّق بالصين فعلى الرغم من الكمية الضخمة من الأشياء التي كانت ترد منها . والتي اكتشفت في الحفائر ، فإنها لم تشترك بصورة مباشرة في التجارة مع افريقيا قبل القرن الخامس عشر . ونتيجة لبحوث حديثة ، يؤكّد ف . أ . فيلجوس ، وهو أحد المتخصّصين الأكفّاء في مجال المصادر الصينية المكتوبة ، أنه بين القرنين الخامس والحادي عشر ، لم تكن سفن البضائع الصينية تدخل الخليج الفارسي ، بل حتى لم تكن تتجاوز جنوبًا وغربًا جزر سومطرة وجاوة ، ومن باب أولى لم تصل إلى الساحل الشرقي لافريقيا[٢٢] . ويرجع تاريخ أول معلومات مؤكّدة عن وصول أسطول بحري صيني إلى الساحل الشرقي لافريقيا إلى ١٤١٧ – ١٤١٩ و ١٤٢١ – ١٤٢٢ ، وكان هذا الأسطول بقيادة تشنغ – هو .

الحضارة السواحيلية (من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر)

كان التطوّر الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لافريقيا الشرقية معتمدًا على هذه الثروة وعلى هذه الصلات . فمن جانب تحوّلت القرى الصغيرة إلى مدن كبيرة . ومن جانب آخر شاهدنا داخل المجتمع السواحيلي تكوين مجموعة ذات نفوذ تنافست في الصراع من أجل السلطة مع طبقة النبلاء التقليدية ، التي كان سلطانها ونفوذها مرتبطين بأداء الوظائف الاجتماعية التقليدية . واحتاجت هذه المجموعة الجديدة ذات النفوذ ، لدعم وجودها وتطلّعها إلى تقوية مركزها ، إلى ايديولوجية جديدة ، وجدتها في الإسلام ، الذي عرفته عن طريق اتصالها بالعرب والفرس . وبحكم المبدأ الذي يقول انه في حالة الضرورة يستطيع مجتمع ما أن يطوّع لاحتياجاته واقعًا أجنبيًا موجودًا بالفعل ، بدلاً من أن يخلق لنفسه واقعًا جديدًا مماثلاً ، فإن الظروف التاريخية أتاحت الفرصة إذن لانتشار الإسلام في شرق افريقيا . والظروف الملموسة لهذا الانتشار ليست معروفة ، ومع ذلك يمكن أن نؤكّد أن الإسلام لم يفرض هناك بالقوة كما كان الحال خلال الفتح

(٢٢) ف. أ. فيلجوس ، ١٩٦٩ ، ص ١٢٧ – ١٧٦ .

العربي. ولا شك انه لم تكن هناك أيضًا جهود خاصة للتبشير بالإسلام. ومن ثم يمكن الاعتقاد بأن اعتناق الإسلام تمّ طواعية، وعبر عن الحاجة العميقة للمجتمع لتبنّي ايديولوجية جديدة. ويحتمل أن يكون دخول الإسلام قد بدأ في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن. وفي القرن العاشر ذكر المسعودي وجود مسلمين يتحدّثون لغة افريقية في جزيرة كانبالو. ويحدّد في هذا العصر عادةً، انتشار الإسلام في جزر الساحل الشرقي لافريقيا. وفي القرن الثالث عشر بدأ الإسلام ينتشر أيضًا على الساحل نفسه. ومن البديهي، أن الأمر كان يتعلّق بإسلام مختلف عن الإسلام في البلاد العربية. ويحتمل كما أوضح ج. س. تريمنجهام بالنسبة لفترة أحدث، أن الأمر الذي كان مهمًّا في البدء هو ببساطة أن يُعتبر الإنسان مسلمًا. وقد تعايش هذا الدين مع العبادات التقليدية[٢٣]. وهذه الحقيقة في حد ذاتها هامة للغاية لأنها تبين ضعف واختفاء بعض الروابط الاجتماعية التقليدية وظهور روابط جديدة. ومن جانب آخر، يمكن الاعتقاد بأن الإسلام كان أيضًا علامة هامة للتمايز بالنسبة للافريقيين الآخرين، غير المسلمين. وكان الإسلام يؤثّر أساسًا على المظاهر الخارجية للحياة، لكن نفوذه أصبح مع الوقت أكثر عمقًا، في حين تزايد عدد من اتّبعوه. وتزايد عدد المساجد هو الدليل الخارجي الملموس على حدوث هذه التغيّرات.

تقدّم الإسلام وانتشاره

لا شك أن بداية هذا التوسّع تعود إلى العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر، في حين أن ازدهاره حدث في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وهكذا وصف ابن بطوطة مقديشو في ١٣٣١ – ١٣٣٢ بأنها مدينة إسلامية الطابع بدرجة كبيرة للغاية. كما يقول من جانب آخر أن «السجية الأكثر انتشارًا بين سكان كيلوه هي الإيمان والتقوى» في حين أن سلطانهم كان يكافئ الرجال الأتقياء وذوي النسب الأصيل[٢٤]. وقد شهد هذا العصر وجود المساجد في مقديشو، وجيدي، وكاول، وكيلوه، وسانجي ماغوما، الخ.

ويبدو أن اعتناق الإسلام كان يمثّل الانتقال إلى مرحلة جديدة، ترتبط حتمًا باكتساب أشكال جديدة للسلوك، وقواعد جديدة للحياة. ويتمثّل المظهر المحسوس لهذا الوضع في اتّخاذ الأزياء الإسلامية والأسماء والألقاب الإسلامية. ولهذه النقطة الأخيرة أهمية خاصة بالنسبة إلى الوعي بالروابط الاجتماعية الجديدة. ولا شك أن هذه العملية تمت تدريجيًا ومرّت بمرحلة تعايش بين الألقاب القديمة (الافريقية) وبين الألقاب الجديدة (الإسلامية)، مثلاً بين لقب سلطان ولقب مفالمي، وانتهت باختفاء الألقاب القديمة. ويمكن أيضًا أن نفترض أن تعاليم الإسلام ونواهيه كانت في الممارسة بعيدة عن أن تكون مطبقة بصورة كاملة، حيث أن العادات والشعائر المرتبطة بالعبادات التقليدية ظلّت قائمة.

وكما أوضحنا، يبدو أن «التجار الأثرياء» كانوا أول من اعتنقوا الإسلام تلاهم النبلاء القدامى وأخيرًا بعض الطبقات الشعبية والأعضاء العاديون في المجتمع الذين كانوا يريدون بهذا أن يضعوا أنفسهم في مستوى اخوانهم في الدين الأثرياء.

وترتّب على ظهور وانتشار الإسلام تبنّي هذه المنطقة من افريقيا للأشكال الحضارية التي يمكن

(٢٣) ج. س. تريمنجهام، ١٩٦٤، ص ٢٤–٢٨ و ٤٦–٤٧.
(٢٤) ابن بطوطة، ترجمة فرنسية، س. ديفريميري و ب.ر. سانجينتي، ١٨٥٥، مجلّد ٢، ص ١٩٤.



• المبنيان الملتصقان للمسجد الكبير بمدينة كيلوه

استيعابها. وطبقًا لرواية ابن بطوطة الذي ذكر وجود قضاة في مقديشو وكيلوه[٢٥]، فإنه يمكن أن نستنتج أن المجتمع السواحيلي تبني عناصر من النظام القضائي الإسلامي (لكن لا شك أنه لم يتم تبنّي النظام في مجموعه).

كما يفسر دخول الإسلام وانتشاره في مناخ من الأنشطة التجارية الكثيفة، كثيرًا من الاستعارات التي تمّت من اللغة العربية، خاصة في مجال التجارة والدين والقانون. فمن أجل حاجات التجارة والدين، والحسابات التي يتعيّن مسكها، والشعائر التي يتعيّن مراعاتها، ومن أجل تقنين حقوق وامتيازات مختلف طبقات المجتمع السواحيلي، كان لا بدّ وأن تعتمد اللغة السواحيلية أسلوبًا للكتابة قائمًا على طريقة الكتابة العربية. وكما أوضح ف. م. ميسيوجن، فإنه يجب معرفة اللغة السواحيلية للتمكّن من قراءة هذه الكتابة، مما يفترض أنه لم يكن في الإمكان ابتداعها الاّ بواسطة السواحيليين أنفسهم. ويرجع هذا الابتداع في رأيه إلى فترة تقع بين القرنين العاشر والثالث عشر[٢٦].

إنشاء المدن والعمارة

لم يترتّب على انتشار الإسلام ظهور المساجد في البلاد السواحيلية فحسب، وإنما ترتّب عليه أيضًا تطوّر البناء بالحجر.

وقد أمكن بفضل الحفائر التي أجراها ج. س. كيركمان و ج. ن. شيتيك، رسم صورة عامة لتطوّر العمارة على ساحل افريقيا الشرقية والجزر التي تجاوره. وترجع بداياتها الأولى إلى القرن الثاني عشر في جيدي وزنزبار وكيلوه. وقد تميّزت هذه الفترة الأولى بتقنية للبناء تتمثّل في تثبيت بلاطات حجر المرجان بلاصق من الطفلة أو الطمى الأحمر. والأثر الوحيد الذي يرجع إلى هذا العصر هو المسجد الكبير في كيلوه الذي أعيد بناؤه عدة مرات، والذي لم يبقَ شيء من الجزء الأصلي فيه. وهو الأثر الوحيد الذي جاء ذكره في المصادر المكتوبة. وهناك أثر آخر من القرن الثاني عشر هو نقش كان في مسجد كيزيما كازي في زنزبار، ويزيّن حاليًا مسجدًا من القرن الثامن عشر، ويحمل تاريخ عام ١١٠٧.

وبالنسبة للقرن الثالث عشر، نعرف ثلاثة مساجد في كيسماني مافيا، والجانب الشمالي من المسجد الكبير في كيلوه، ومسجدًا صغيرًا في جزيرة سانجي – يا – كاتي، ومئذنتان قرب مقديشو، يرجع تاريخ احداهما إلى عام ١٢٣٨، وجامع فخر الدين الذي يحمل على محرابه تاريخ عام ١٢٦٩.

وفي هذا العصر، تغيّرت قليلاً تقنيات البناء: فقد كانت البلاطات الكبيرة من حجر المرجان، وهي على شكل مكعبات يبلغ طول ضلعها من ٢٥ إلى ٣٠ سم تثبت بمونة الجير وكان نحت هذه البلاطات بدائيًا إلى حدّ ما، أما الجير فكان ينتج عن حرق حجر المرجان[٢٧].

وفي القرن الرابع عشر شهدت كيلوه التي كانت مركزًا رئيسيًا للتجارة، فترة انطلاقة تجارية كبيرة وازدهار معماري[٢٨]. ووقع فيها تطوّر جديد في تقنيات البناء يتمثّل في استخدام أحجار غير منحوتة

(٢٥) المرجع السابق، ص ١٨٣ – ١٨٤.
(٢٦) ف.م. ميسيوجن ١٩٧١، ص ١٠٠–١١٥.
(٢٧) استمدت هذه المعلومات من مقال هـ. ن. شيتيك، في *JAH*، مجلّد ٤، ١٩٦٣، ص ١٧٩–١٩٠.
(٢٨) بالنسبة لكل ما يتعلّق بالهندسة المعارية، وتقنيات البناء ونتائج الحفريات الأثرية في كيلوه، أنظر بصفة خاصة العمل المرموق لِ هـ. ن. شيتيك، ١٩٧٤.



١

٢



١. باب القلعة في كيلوه - قيسيواني. منظر عام
٢. تفصيل باب القلعة في كيلوه - قيسيواني

١

٢



١. بقايا مسجد نبخاني في جزيرة سونغومنارة
٢. محراب المسجد الكبير في جيدي.

ذات أحجام متماثلة تقريبًا وتثبيتها بالملاط. ومن ثم فقد أفضى هذا إلى مزيد من تبسيط عملية البناء وجعلها أكثر سهولة، رغم أن ذلك أدى إلى أن جودة المباني كانت دون تلك التي وُجدت في القرن السابق. فلم تنحت بعناية سوى الأحجار اللازمة لبناء المحراب وأطر الأبواب والنوافذ. ونشاهد ظهور عناصر جديدة تتعلّق بفن العمارة: قباب كروية أو مُدَبّبة، وأسقف على شكل نصف اسطواني، وأعمدة حجرية، ونقوش زخرفية. لكن يبدو أن هذه الإنجازات كانت مقصورة على كيلوه، في حين استمرّ في الأنحاء الأخرى بناء الأسقف المسطحة.

والأثر الأكثر لفتًا للنظر والخاص بهذه الفترة هو القصر الحصن أو المركز التجاري لهوسوني كوبوا. وذكر اسم السلطان الحسن ابن سليمان الثاني (١٣١٠ – ١٣٣٣) عليه، جعل ج. ن. شيتيك يحدّد القرن الرابع عشر تاريخًا لهذا الأثر الذي أصبح بعد ذلك نموذجًا لبناء دور الأغنياء في ذلك القرن. والواقع أن هذا العصر هو الذي شهد ظهور تلك الدور التي كانت واجهتها كقاعدة عامة تتجه نحو الشمال أو الشرق وتطل على فناء يقع أمامها. وكانت الدار تضمّ عدة غرف طويلة وضيقة، للأولى منها – وهي على ما يبدو غرفة الانتظار – منفذ على الفناء بوساطة باب مفتوح في الجانب الطويل منها. وكانت الغرف الأخرى موازية للأولى. وكانت هذه الحجرات متباينة العدد، ولكن القاعدة العامة هي أن توجد حجرة رئيسية بعد المدخل يليها حجرة للنوم. وكانت توجد في ركن خلفي يقع على يمين المنزل المراحيض والحمامات وإلى جانبها المنشآت المخصّصة للوضوء. وحيث أنه لم تكن توجد نوافذ إلاّ في الواجهة التي تطل على الفناء، فإن الحجرات الداخلية كانت غارقة في الظلمة. ونجد هذا الطراز من الدور في جيدي، وقيسماني مافيا، وكاولي، وكيلوه، وتتكوّن مجموعة هوسوني كوبوا في الجزء الأكبر منها من مساكن من هذا الطراز، ويبدو أن الباقي كان يشغله مسبح. وهذا الأثر الذي لا يزال فريدًا في عمارة افريقيا الشرقية يعدّ تحفة حقيقية وإن كان استخدامه لم يتّضح تمامًا بعد.

وهناك أثر آخر من القرن الرابع عشر هو المسجد الكبير في كيلوه، الذي أُعيد بناؤه في هذا العصر.

فخلال القرن الرابع عشر، امتلأت كيلوه بالمنازل الحجرية وغدت مدينة كبيرة، ويعكس ذلك دون جدال ثراءها المتزايد. واستمرّ تكاثر البناء خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر وصاحبه ارتقاء التقنيات. فقد كان الملاط المخلوط بالأحجار الصغيرة يصب في قوالب، وهو أسلوب استخدم حتى في بناء القباب، أما فيما يتعلّق بالأعمدة، التي كانت حتى ذلك الحين من قطعة واحدة من الحجر، فقد أصبحت تبنى من الأحجار والملاط. لقد احتفظت المنازل في الأساس بطرازها السابق، لكن بدأت تظهر منازل ذات طابقين أو ثلاثة. وهناك تفصيل مميز للعصر يتمثّل في استخدام أطباق أو آنية مطليَة من البورسلين المستورد، من الصين أو من بلاد فارس، تثبت في جسم البناء، وذلك لتزيين الحنيات والقباب. ويُعتبر المنزل ذو المسجد الذي يوجد في ماكوتاني نموذجًا لعمارة ذلك العصر في كيلوه.

أما المسجد الكبير في كيلوه – وهو احدى روائع العمارة السواحلية في افريقيا الشرقية – فقد اكتمل كلية بعد إعادة بنائه في عهد السلطان سليمان ابن محمد الملك العادل (١٤١٢ – ١٤٤٢). وهي الفترة التي اكتسب فيها جكله الحالي.

وقد أُبديت على هذه العمارة آراء متباينة، فيستمد ج. س. ب. فريمان – جرينفيل مثلاً، من التشابه الذي نلحظه بين تخطيط بعض المباني في كيلوه (خاصة قصر القرن الثامن عشر) وبين تخطيط المنازل العادية المبنية باللبن[٢٩]، حجة يُستخلص منها الأصل المحلي الافريقي للمباني المبنية بالحجارة. وفيما

(٢٩) ج. س. ب. فريمان – جرينفيل، ١٩٦٢، ص ٩٢.

يتعلّق بعالميّ الآثار ج. س. كيركمان وج. ن. شيتيك فإنهما يعتقدان أن العرب والفرس هم أصل هذا التطور، ومع ذلك فقد أبرزا أن تفاصيل مختلفة تظهر في هذه الإنشاءات لا تتفق مع القواعد التي فرضها الإسلام في هذا المجال، والتي نجدها مطبّقة في البلاد العربية. وهكذا فقد لاحظ ج. س. كيركمان وجود وحدات زخرفية على شكل رؤوس الحراب في مسجد جيدي، وهي نقوش مستحيلة الوجود في الجزيرة العربية أو ايران. أما فيما يتعلّق بـج. ن. شيتيك، فقد كتب أنه «في النظام المادي وفي العمارة بصفة خاصة، طور سكان الساحل حضارة خاصة بهم من عدة نواح، وهي حضارة يمكن أن نعرفها بأنها حضارة سواحيلية قديمة»[٣٠]. ويقترب هذا الرأي من رأي ساتون وجارلاك: «العمارة السواحيلية بهيكلها وبأسلوبها في البناء الديني والمدني، وبتقنيات البناء لديها، وقوالبها من الأحجار المنحوتة وبنقوشها الزخرفية، قد حافظت خلال قرون على التقاليد الأصلية التي كانت تميزها عن تلك العمارة الخاصة بالجزيرة العربية وبلاد فارس والبلاد الإسلامية الأخرى»[٣١]. ومع ذلك فقد حرص ب. س. جارلاك على أن يبرز الأصل غير الافريقي لهذه العمارة، وطابعها «غير الخلاّق» حيث يقول «إن الأمر يتعلّق بالأحرى ببنائين «أسطوات» أكثر منهم معماريون»[٣٢]. ورغم أنه لا يتوافر لنا مؤلّف ب. س. جارلاك، فإننا نود لفت النظر إلى أن هذا الطابع «غير الخلاّق» على حد تعبيره، يمكن أن يعكس جهدًا واعيًا من قبل هذه العمارة لتبني نماذج معيّنة، فإذا تأمّلنا مثلاً تطوّر تقنيات البناء، تبيّنا تطويعهم الرشيد للمواد المحلية التي استطاعوا استخدامها بأفضل طريقة ممكنة.

ووفق المصادر البرتغالية، كانت شوارع كيلوه ضيّقة تحفّ بها دور من لبن، يغطيها سعف النخيل المستخدم كسقف لها وتبرز حوافه مغطية الشارع. وبالمثل كانت الشوارع ضيقة في الأحياء المكوّنة من منازل مبنية بالحجارة. وكانت هناك مقاعد حجرية تحاذي جدران هذه المنازل.

والبناء الأكثر أهمية في المدينة هو القصر، وهو بناء كان يضم على الأرجح طابقين بل ثلاث طوابق في بعض أجزائه. وكانت أبواب المباني من الخشب وبها عناصر زخرفية أخرى تمّ تنفيذها في خشب مشغول بدقة. وهذا الطراز من الزخرفة لا يزال منتشرًا للغاية في وقتنا الحاضر في مواضع كثيرة من الساحل، خاصة في باغامويو وزنزبار. وقد أكّد ديوارت باربوسا[٣٣] المستوى الرفيع الذي بلغه هذا النوع من الفن، الأمر الذي يدع مجالاً للاعتقاد بأن أصوله ترجع إلى قرون سابقة. وكما نعرف فإن البرتغاليين قد دُهشوا دهشة بالغة من شكل المدن التي لا تقل مبانيها عن تلك الموجودة في البرتغال، كذلك دُهشوا كثيرًا من ثراء سكانها، واناقة ملابسهم المصنوعة من الحرير ومن الأقمشة القطنية المطرّزة بالذهب. وكانت النساء يلبسن في معاصمهن وفي عراقيبهن سلاسل وأساور من الذهب والفضة وفي آذانهن أقراط مرصّعة بالحجارة الكريمة.

إن اكتشاف مسارج (أو قناديل) من الفخار في الحفائر يفترض وجود درجة عالية من الحضارة. وعلى ما يبدو، فإن هذه المسارج كانت تستخدم في إضاءة الأجزاء المظلمة من المنازل، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه كان يتم فيها الانكباب على أعمال مثل القراءة والكتابة ومسك الحسابات... الخ، كما عُرف الشمع أيضًا. وكان أثاث المنازل يتكوّن من سجاجيد وحصر، وأحيانًا مقاعد وأسرّة فاخرة مطعّمة بالعاج والصدف والفضة أو الذهب. وكانت توجد في منازل الأثرياء أدوات منزلية مستوردة: فخار

(٣٠) هـ. ن. شيتيك، ١٩٧١، ص ١٣٧.
(٣١) ج.ي.ج. ساتون، وب.س. جارلاك، في *TNR*، ١٩٦٧، عدد ٦٧، ص ٦٠.
(٣٢) المرجع نفسه ص ٦٠.
(٣٣) ديوارت باربوسا، ترجمة انجليزية وتحرير م.ل. دامس، ١٩١٨، مجلّد ١، ص ١٧-٣١.

وبورسلين من ايران والعراق والصين ، وكذلك من مصر وسوريا . وكانت الأواني الفخارية المحلية تُستخدم لطهو الطعام ويستخدمها السكان العاديون بصفة عامة . وطوال الفترة التي تمتدّ من القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر ، كانت صناعة الفخار هذه تنقسم إلى طرازين أساسيين بتشكيلات كثيرة (بالنسبة للشكل أو الزخرفة) : أواني ذات قاعدة مستديرة أو مدبّبة توضع على النار ، وصحاف غير عميقة واسعة تذكّر بشكل الأطباق المسطّحة أو المجوّفة والتي لا بدّ أنها كانت تُستخدم للأكل.

بُنى السلطة

بالإضافة إلى كونها أماكن للتبادل التجاري ومراكز لنشر الإسلام ، كانت المدن السواحلية لافريقيا الشرقية غالبًا وحدات إدارية أيضًا ، وعواصم لدول صغيرة تحكمها أسر محلية مسلمة . وتظل كيلوه أفضل مثال ، إذ كانت مدينة مشهورة تمامًا كمركز إداري ومقر لأسرة حاكمة ، وذلك بفضل كتاب « الحوليات » المكتوب عنها والذي وصلتنا منه صيغتان[٣٤] . وحسب هذا المصدر ، كانت هذه الأسرة الحاكمة فارسية وليست إفريقية وجاءت من شيراز . ولقد عرفت كل من افريقيا الشرقية تقريبًا أساطير مشابهة.لكن يمكن أن نتساءل عن الأصل الحقيقي للطبقة الحاكمة في المدن السواحلية والتي كانت تشكّل مجموعة اجتماعية ثرية إسلامية الطابع . ويتوقّف على الإجابة على هذا السؤال إلى حد كبير ، الحكم الذي يمكن أن نصدره على الحضارة السواحلية من حيث ما إذا كنا نعتبرها حضارة إفريقية أو على النقيض حضارة تستمد أصلها من خارج افريقيا.

من الأسطورة إلى الواقع التاريخي

في الوقت الحالي تتوزّع الآراء بين نظريتين مختلفتين. الأولى ترى أن الحضارة التي تطوّرت على ساحل افريقيا الشرقية هي من صنع الفرس والعرب ، فهؤلاء هم الذين بنوا المدن وأدخلوا الإسلام ونشروا ثقافتهم التي كانت في مستوى أعلى من مستوى ثقافة الأفارقة ، أو على الأقل كانوا هم أصل هذا التطور ، وهم الذين أعطوا الدفعة الأولى. وبهذا يعزى إلى السكان المحليين دور سلبي . وقد أحاط القادمون الجدد أنفسهم بعدد كبير من الزوجات والخدم الافريقيين... الخ ، وبذا تمّ استيعابهم في المحيط المحلي بدرجات متفاوتة. وهكذا فإن عطاءهم الثقافي تدهور تدريجيًا بدلاً من أن ينمو ويتطوّر . ولولا إسهامات الخارج ، لظلّ التاريخ الافريقي كله يواصل السير في دائرة مغلقة.

إن هذه النظرية التي صاغها ج. ستراندس[٣٥] في نهاية القرن التاسع عشر ، مبنية على فلسفة التاريخ عند هيجل والتي بمقتضاها تنقسم شعوب العالم أجمع بين الذين يصنعون التاريخ أو يؤثّرون عليه ، وهم القادرون على الإبداع ، وبين الذين يوجدون خارج التاريخ ، سلبيون عاجزون عن الإبداع ،

(٣٤) أنظر ج.س.ب. فريمان – جرينفيل ، ١٩٦٢ أ و ١٩٦٢ب.
(٣٥) ج. ستراندس ، ١٨٩٩ . ترجمة انجليزية قام بها ج. ف. وولورك . ١٩٦١.

ومقضي عليهم أن ينتظروا بسلبية أن تقودهم الشعوب النشيطة. وفي أيامنا هذه ما زلنا نجد تطبيقًا مختلف الدرجات لهذا المفهوم الخاطئ عند مؤرّخين مثل ج. جراي[٣٦]، وج. ماتيو[٣٧]، ور. أوليفر[٣٨] وبصفة خاصة ج. س. ب. فريمان - جرينفيل[٣٩]، أو عند علماء الآثار مثل ج. س. كيركمان[٤٠]، وذلك إذا ما اقتصرنا على التاريخ الرسمي لافريقيا الشرقية.

ولا يزال المفهوم الآخر الذي طوّره عند الغربيين عالم الآثار شيتيك[٤١] وطوّره في الاتحاد السوفييتي ف. م. ميسيوجن[٤٢]، لا يزال محل دراسات تكميلية. ومن جانب آخر فهو يقترب من وجهات النظر التي أعرب عنها مؤرّخون أفارقة مثل ج. كي. زيربو[٤٣] والشيخ أنتا ديوب[٤٤]. ويقوم على افتراض مشاركة نشيطة وقيادية للافريقيين في صنع تاريخهم. وهو يؤكّد استنادًا إلى بحوث موضوعية جادة أن للأسر الحاكمة للإمارات الحضرية أصول افريقية لا جدال فيها.

نظام نقل السلطة

لقد ركّز ف. م. ميسيوجن مثلاً بحوثه على حوليات مدينة باتي، الأمر الذي أتاح له أن يثبت أنه كانت توجد في هذه المدينة، قبل مجيء أسرة نبخاني الحاكمة، دولة تحكمها عشيرة ارستقراطية قديمة اسمها واباتي، وأنه يعود إلى هذه الطبقة الارستقراطية امتياز السلطة الملكية ولقب مفالمي. وبحكم القواعد القانونية التي تكرّسها التقاليد، وتنظيم لقب وعمل المفالمي، كان على الأسرة الحاكمة في باتي أن تحافظ على نظام للتقسيم إلى مجموعات حسب درجة القرابة، باعتبار ذلك ضرورة للبقاء. وفي هذا النظام كان الباتي الذين يحملون لقب المفالمي وينتقل فيما بينهم، هم الذين ينتمون إلى نفس السن (نفس الجيل) - «ندوجو»... وفي ظل هذه الظروف، كان لقب المفالمي قابلاً للانتقال لا من فرد إلى فرد، ولكن من جيل إلى جيل آخر، أي إلى كل مجموعة «ندوجو». ونظرًا لأن الواباتي كانت طبقة ارستقراطية مغلقة، فقد كان لا بدّ وأن تكون مجموعة الـ«ندوجو» ضيقة إلى حد ما لكنها يمكن أن تضم بضعة أفراد. ولهذا السبب لم يكن لقب «مفالمي» يعطى مدى الحياة بل ينتقل من رجل من مجموعة «ندوجو» إلى من يليه بحيث ما يبلغ كل واحد سن الرشد.

وكانت الإشارة الشكلية التي تبين أن رجلاً بلغ سن الرشد هي حفل الزواج. وكان الرجال يتّخذون زوجات لهم من نساء نفس المجموعة، التي تشكّل أيضًا وبسبب طابعها المغلق، جزءًا من مجموعة ندوجو

(٣٦) ج. جراي، ١٩٦٢، ص ٦٢٢.

(٣٧) ج. ماتيو، ١٩٥٣، ص ٢١٢ - ٢١٨، و ١٩٥٦، ص ٥٠-٥٥.

(٣٨) ر. أوليفر، وج. ماتيو (تحرير) ١٩٦٣، ور. أوليفر، ١٩٦٢، ص ٣٠٥-٣٢١.

(٣٩) أنظر بصفة خاصة ج.س.ب. فريمان - جرينفيل، ١٩٦٢ (١)، في *JEASC* «يوميات لجنة شرق افريقيا السواحيلي»، المجلّد ٢٨، الجزء ٢، ١٩٥٨، ص ٧-٢٥.

(٤٠) ج. س. كيركمان، ١٩٥٤ و ١٩٦٤.

(٤١) هـ. ن. شيتيك، ١٩٧٤.

(٤٢) ف.م. ميسيوجن، ١٩٦٦.

(٤٣) ج. كي زيربو، ١٩٧٢، ص ١٠ - ١٢ و ١٩٠ - ١٩٢.

(٤٤) شيخ أ. ديوب، ١٩٥٥، ص ١٩.

ومن نفس الجيل. وكان انتقال لقب «مفالمي» يتمّ خلال الاحتفال الذي يتمّ فيه الزواج.

وبمقتضى التقاليد، كان لقب «مفالمي» الذي يضفي السلطة العليا – مُلكًا لجميع الواباتي. ومن ثم كان كل الرجال ينتهون إلى أن يحملوا هذا اللقب خلال فترة من الزمن ويقومون بالوظائف التي ترتبط به، أما النساء فكن جميعًا يعتبرن أمينات على هذه السلطة.

وهكذا حصل سليمان مؤسّس أسرة نبخاني على لقب ملك باتي بحكم التقاليد لأنه تزوّج من امرأة من الباتافيوني (واباتي). ولقد خلع عليه لقب ملك لا لأن زوجته كانت ابنة ملك ذلك العصر (فذلك ظرف طارئ) وإنما لأنها كانت تنتمي إلى مجموعة «ندوجو» من الجيل التالي(٤٥).

ومع ذلك لا يمكن أن نستخلص من بقاء قاعدة الندوجو هذه، أن المجتمع السواحيلي ظلّ في مرحلة قبلية؛ حيث أن «قاعدة «ندوجو» تعني في أصلها، أن الواباتي الذين كانوا في عصر معين، يحوزون التفوّق الاقتصادي على الآخرين، فقد احتفظوا لاستخدامهم الخاص بعنصر من عناصر نظام صلات القرابة وحرموا الآخرين في الوقت نفسه من حق الوصول إلى السلطة العليا»(٤٢).

وبالتالي فإن مجيء سليمان مؤسّس أسرة نبخاني وكونه وصل إلى السلطة عن طريق الزواج، دليل على قدم الانقسام الاجتماعي لسكان الساحل إلى طبقات.

ومع ذلك فإن سليمان لم يكن ينتمي إلى مجموعة ملوك باتي، وهو لم يرتبط بها إلاّ عن طريق زوجته، التي حصل عن طريقها على لقب ملك. ويستتبع ذلك أن لقب «مفالمي» كان معرّضًا لخطر الافلات من مجموعة الملوك، حيث أن اللقب كان لا بد بحكم قاعدة «ندوجو» أن ينتقل إلى أشقاء الزوج، سواء تزوج هؤلاء من نساء الواباتي أم لا. وعندئذ فإن زوجة الملك التي تنتمي فعلاً إلى الواباتي كانت تصبح أمينة على الحق المجرّد في لقب الملك، الذي يقوم الزوج بمهامه الفعلية. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن لأصل الزوج أهمية، إلاّ بالقدر الذي يدخل به في هذا النظام الأصيل، الخاص بالساحل الافريقي، وهو نظام افريقي أصلاً.

وقد اجتهدنا في تطبيق مبادئ البحث هذه على دراسة حوليات كيلوه، وأتاح لنا ذلك أن نتبيّن أن قاعدة «ندوجو»، حسب كل الظواهر، كانت تحكم أيضًا أسلوب نقل السلطة في هذه المدينة. وتتضح هذه الملاحظة من قراءة مقطع من الباب الأول منها حيث ورد ذكر محمد بن علي، الذي تولى الحكم أولاً ثم، خلفه في البدء شقيق ثالث هو باسخات بن علي، ثم خلفه ابن هذا الأخير، علي (ابن باسخات) وقد أشير إلى أن هذا استولى على السلطة على حساب أعمامه سليمان، والحسن وداوود. وتلك إشارة واضحة إلى قاعدة الخلافة التي انتهكت، والتي بموجبها كان يجب أنّ تنتقل السلطة ليس إلى علي بن باسخات وإنما إلى أعمامه.

ويمكن أن نجد إشارة مشابهة في الفصل الثالث من الحوليات حيث ترد ايضاحات للحقوق الخاصة بلقب السلطان حسن بن سليمان الماتون وشقيقه داوود. فهذا الأخير اعتبر نفسه وهو يقوم بوظيفة السلطان، ممثّلاً لأخيه الغائب وكان عليه أن يخضع له فور عودته. ومما يزيد من أهمية هذه الملاحظة أن هذين الأخوين كانا جزءًا من أسرة «أبو المواهب»، التي قيل إنها تستمد أصلها من اليمن والتي يعزى إليها انطلاق الحضارة في كيلوه.

ونلاحظ أيضًا باهتمام أن حوليات كيلوه (في نسختها السواحيلية) تمامًا مثل حوليات باتي، تسجّل أن أول سلطان فارسي للمدينة تزوّج ابنة الزعيم المحلي.

(٤٥) ف. م. ميسيوجن، ١٩٦٦، ص ٦١.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٦٣.

ويمكن أن نستخلص من اعتماد قاعدة ندوجو كأسلوب لنقل السلطة، أن تنظيم الدولة في المدن الافريقية كان له أصله المحلي، حيث أنه كان مستمدًا من مؤسسة اجتماعية افريقية محضة.

ولم يكن أسلوب الوصول إلى السلطة القائم على الزواج من ابنة زعيم محلي ظاهرة فريدة في كيلوه وباتي، إذ يذكر ج. س. ب. فريمان – جرينفيل في مؤلفه عددًا كبيرًا من الحالات المماثلة. ومن ثم يبدو أنه في مقدورنا أن نفترض أن الوضع الذي تمّ وصفه في باتي وضع يمكن أن يعمّم على طول الساحل، وذلك في ظل الإسلام وأخلاقياته وقواعده.

الإسلام وإيديولوجية السلطة

كان تأثير الإسلام هذا يتفق مع الدور المتزايد للطبقات الاجتماعية السواحيلية التي أثرت من التجارة. فيبدو أن وضعها أصبح مزدهرًا بدرجة جعلت الارستقراطية القديمة تفكّر عن قصد في دعم مركزها عن طريق مصاهرة المسلمين الأثرياء، وعمل هؤلاء بدورهم على إرجاع أصولهم إلى العرب بل إلى أسر عربية أو فارسية مشهورة في تاريخ البلاد الإسلامية، وذلك ليجعلوا أنفسهم أندادًا للأرستقراطية المحلية. «وهكذا حلّت محل الأساطير السواحيلية القديمة التي تروي وصول مجموعات من المسلمين متباينة العدد إلى مدن افريقيا الشرقية في القرنين السابع والثامن ثم في القرنين التاسع والعاشر، حلّت روايات تصف وصول مؤسسي الأسر التي كانت في السلطة في كثير من المدن السواحيلية، قادمين من الجزيرة العربية أو من بلاد فارس، وتأسيس هذه المدن على أيدي العرب والفرس»[٤٧].

إن الأساطير من هذا النوع تمثّل ظاهرة بعيدة عن أن تكون منفردة. إذ نجد عددًا كبيرًا منها في «كتاب الزنوج»[٤٨]. بل إننا نجدها في عصور أخرى وأماكن أخرى، في افريقيا وفي خارج افريقيا. ولا شك أنه بمقتضى أسطورة من هذا النوع تؤكّد الأسرة الحاكمة باثيوبيا حتى فترة قريبة جدًا أنها من نسل الملك سليمان وملكة سبأ. وفي السودان الشرقي، ترجع شعوب افريقية بأصولها إلى قبائل عربية يظن أنها ظهرت في افريقيا. ويُنسب إنشاء دولة كانم إلى سيف، أول ملك لها، الذي تجعل منه الروايات الملك اليمني سيف بن ذي يزن. وقد أرجعت أسرة كيتا التي حكمت مالي أصلها إلى صحابة النبي محمد. بل ما زالت تعيش في نيجيريا أسطورة تقول إن أجداد اليوروبا هم الكنعانيون الذين جاءوا من سوريا ومن فلسطين. وكما نرى، فإن هذه الأساطير تنسب دومًا أصول شعوب بأسرها وتأسيس الدول وإقامة الأسر الحاكمة، إلى جانب من الجنس الأبيض وفدوا – فيما يبدو – إلى افريقيا في عصور غابرة، ولا تنسب هذه الحقائق أبدًا إلى عوامل وأحداث افريقية محضة. ومن الواضح تمامًا أن الأمر يتعلّق بظاهرة ذات طابع عام ميزت في حالات معيّنة مجتمعات كانت تتحوّل من مجتمعات لا طبقية إلى مجتمعات طبقية.

وهناك دليل آخر غير مباشر على هذه الظاهرة يقدّمه لنا باحثون مثل أ. هـ. ج. برنز[٤٩] الذي ذكر أمثلة لمجموعات أخذت تدّعي لنفسها أصلاً عربيًا أو شيرازيًا، في حين أن أصلها الافريقي ليس فيه أي شك.

(٤٧) المرجع السابق، ص ٦٧.
(٤٨) أنظر الترجمة الايطالية، تشيرولي، ١٩٥٧.
(٤٩) أ. هـ. ج. برنز، ١٩٦١، ص ١١–١٢.

الخلاصة

وختامًا لكل ما قيل، يبدو أن حضارة افريقيا الشرقية، الحضارة السواحيلية، كانت ثمرة للتجارة وأن تطوّرها وازدهارها اعتمدا على توسّع التجارة. لكن يجب القول فورًا إن مثل هذا الاعتماد كان أيضًا سببًا للضعف، لأن هذه الحضارة لم ترتبط بتنمية قوى الإنتاج. فعندما ندرس مستوى نشاط السكان نرى أن المجتمع السواحيلي ظلّ عند نفس مرحلة تطور قوى الإنتاج التي عرفها دون شك قبل التوسّع في أنشطته التجارية. ويمكن أن نجد دليلاً على هذا في ندرة الأدوات المصنوعة من الحديد أو المعادن الأخرى التي اكتشفت في الحفائر. لقد كانت كل السلع تقريبًا، سواء المنتجة أو التي تمّ الحصول عليها بوساطة المجتمع السواحيلي مخصّصة لا للاستهلاك الداخلي وإنما للبيع ومن أجل التصدير سواء كانت متعلّقة بمنتجات الصيد أو المعادن مثل الذهب والحديد. بيد أن التجارة وحدها لم تكن كافية لضمان أساس لهذه الحضارة ولازدهارها. ذلك أنه عندما كان الوصول للطرق التجارية يصبح متعذّرًا وتصبح المبادلات التجارية مقطوعة، فإن ذلك كان كافيًا، إلى جانب تدمير التجارة، للقضاء على العناصر الأساسية لهذه الحضارة. وكان هذا بالذات، وهو أمر معروف، المصير الذي انتهت إليه مدن افريقيا الشرقية.

وقد نسب انهيار الحضارة السواحيلية إلى أسباب كثيرة. ان غزو الزيمبا وانخفاض سقوط المطر الذي أدّى إلى اختلال التوازن المائي، يمثّلان الظروف التي أوقفت في رأي البعض – نشاط مدن الساحل. وقد تكون هذه العوامل قد أسهمت في إضعاف الحضارة السواحيلية. ومع ذلك يبدو لنا أن الدور الرئيسي يرجع إلى دمار التجارة البحرية الذي تسبّب فيه البرتغاليون. فقد كانت السفن البرتغالية المسلّحة جيدًا والمصمّمة من أجل الحرب البحرية والمزوّدة بالمدفعية، تمثّل قوة مرهوبة الجانب. وكانت الحملة التي قادها روي لورنسو رافاسكو، والاستيلاء على ٢٠ سفينة محمّلة بالبضائع، وتدمير قوارب كثيرة يضمّها أسطول زنزبار من السفن الصغيرة، ونهب وتدمير مدن ساحل افريقيا الشرقي خاصة كيلوه، ضربات لم تستطع التجارة البحرية تحملها وهلكت أيضًا تحت وطأتها الحضارة السواحيلية للعصر الوسيط.

الفصل التاسع عشر

بين الساحل والبحيرات الكبرى

بقلم كريستوفر إهريت

يبدو أن خاصية المسارات السابقة المتعلّقة بتطوّر التاريخ داخل افريقيا الشرقية، في بداية القرن الثاني عشر، تتمثّل في الصلة المدهشة بين علم البيئة وكل ما يتعلّق بالعرقية. فالمجتمعات المتكلّمة بلغة البانتو، التي لا تزال قليلة العدد نسبيًا على الرغم من هجرات البانتو المهمة إلى افريقيا الشرقية، خلال الألف سنة الأولى من العصر الحالي، تكاد تكون متمركزة كليًا في المناطق الممطرة أكثر من غيرها والمتميّزة بنزول كميات من الأمطار تتراوح بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ مليمتر في السنة على أقل تقدير[١]. ويمكن أن يستنتج من ذلك أنه على الرغم من أن أغلبية بانتو افريقيا الشرقية قد مارسوا زراعة الحبوب، كما مارسوا غالبًا تربية مختلف أصناف الماشية خلال الألف سنة الأولى[٢]، فقد كانت مجتمعاتهم لا تزال تعير الأولوية إلى التقاليد الزراعية القائمة على زراعة الجذور والدرنات، وهي زراعة أدخلها المهاجرون الأوائل من جماعتهم. وعلى النقيض من ذلك كانت الزراعة المختلطة الافريقية الشرقية، في السهول والأراضي العالية بالمناطق الداخلية من كينيا وتانزانيا، هي السائدة بجمعها بين زراعات الحبوب وتربية الماشية على نطاق واسع. وقد كانت أغلبية المجتمعات المتواجدة في كامل الدائرة الشمالية من هذه المنطقة المتكوّنة من أراض هي عمومًا أكثر جفافًا من غيرها، تتكلّم بلغات نيلية، بينما كان الكوشيون الجنوبيون متفوّقين عدديًا في مناطق الجنوب[٣].

---

(١) لقد استعملت في هذه الدراسة بالأخص المعطيات والاستنتاجات الواردة في المؤلفات الأساسية التالية: د. نورس، ود. و. فيليبسون، ١٩٧٤ (١)، و ١٩٧٤ (٢)؛ ت. هينبوش، ١٩٧٣.

(٢) ك. إهريت، ١٩٧٤ (١).

(٣) ك. إهريت، ١٩٧٤ (٢)، الفصل ٢.

المنطقة الداخلية وراء الساحل الافريقي الشرقي مباشرة

يمكن تعريف ثلاث مجموعات رئيسية من البانتو في المنطقة الداخلية الممتدة على طول الساحل الافريقي الشرقي ، وهي التي تتحدّث باللغات : السباكي والسوتا والروفو.

وكانت لغة السباكي تشتمل على ثلاث لهجات مستعملة في منطقة ضيقة ممتدة على طول ساحل كينيا في شكل لسان غائر. وكانت لهجة الأسلاف ، وهي الميجيكندا ، يتكلّم بها جنوبي نهر التانا ، في المناطق الواقعة خلف مومباسا مباشرة وجنوبها ؛ ومن ثم إلى طرف تانزانيا الشمالي الشرقي. وغير بعيد عن مصب التانا ، وربما في منطقة اللامو الداخلية ، يمكن تحديد موقع المجتمع الذي كان يتكلّم بلغة البوكومو الأول وهي من لهجات السباكي[٤] . وكانت اللهجة الثالثة ، باللغة السواحلية الأولى ، قد ظهرت قبل ذلك في المراكز التجارية القائمة على الساحل نفسه[٥].

وعندما ننتقل من الشريط الساحلي إلى داخل كينيا الشرقية المتميّزة بمناخ أكثر جفافًا ، نجد جماعات السباكي تترك المكان لشعوب أخرى كانت تمارس أساليب معاش مختلفة تمامًا. ففي شمال التانا ، يوجد رعاة يتكلّمون صيغة قديمة من صيغ اللغة الصومالية. وعلى طول هذا النهر وفي جنوبه ، يمكن تحديد مواقع نيليين جنوبيين ، كان اقتصادهم رعويًا هو الآخر[٦] . وتتميّز ثقافة السباكي بخاصية ملحوظة ، وهي أن نظام الترتيب بحسب الأعمار الذي يُصادَف عن شعوب الميجيكندا والبوكومو ربما نتج عن مبادلات ثقافية بين البانتو وهذه الشعوب المستقرّة في المناطق الداخلية. وكان يعتقد عمومًا أن هذا النظام نشأ من الغلا ، وأنه انتشر في القرن السابع عشر ؛ إلاّ أنه من المؤكّد أن تكون أفكار سكان المناطق النيلية الجنوبية ، هي مصدر العناصر الأولى لنظام الترتيب بحسب الأعمار. لذلك يجدر إرجاع التأثيرات التي أفضت إلى هذا النظام إلى ما قبل سنة ١٦٠٠ م.

وقد تعايش رعاة المناطق الداخلية والبانتو المستقرّون في الساحل ، مع أقوام كانوا لا يزالون يمارسون جمع الثمار والصيد ؛ واستمر هذا الوضع ، مع بعض الاختلافات ، إلى عهدنا هذا. ويمكن أن يعتبر قوم البوني ، الموجودون اليوم في شمال التانا ، والمتكلّمون بلهجة متميّزة تمامًا تنتمي إلى مجموعة اللغات الصومالية ، من متعاطي الصيد وجمع الثمار ، وأنهم تبنّوا اللغة الصومالية منذ ما لا يقل عن ألف سنة من أقوام الرعاة التي كانت سائدة في المنطقة ومستمرّين في الوقت نفسه في ضمان معاشهم بطريقتهم الخاصة[٧] . وفي داخل بلاد اللامو ، تدل المفردات اللغوية التي كان يستعملها الداهالو ، وهم قوم كانوا يمارسون الصيد وجمع الثمار ويتكلّمون الكوشية الجنوبية ، بما تتضمّنه من استعارات ، على العلاقات التي كانت قائمة بينهم وبين الشعبين البوكومو والسواحيلي اللذين كانا يسيطران على المنطقة ، وهي علاقات استمرّت بدون انقطاع ولم تؤثّر على كيان الداهالو ، طيلة حقبة زمنية امتدّت عدة قرون ويرجع عهدها إلى حوالي العام الألف من العصر الحالي على أقل تقدير.

أما السوتا الذين يؤلّفون مجموعة البانتو الثانية ، فقد عاشوا جنوبي تجمّعات السباكي الأولى في المناطق

---

(٤) المرجع السابق ، الجدول ٢ – ١ ، ان الكلمات المستعارة منسوبة هناك الى لغة النيكا (ميجيكندا) لكنها آتية من لغة البوكومو الأول.

(٥) أنظر ، بخصوص هذه المسألة ، الفصل ١٨ أعلاه.

(٦) ك. إهريت ، ١٩٧٤ (٢) ، مجلّد ٢ ، الفصلان الثاني والرابع.

(٧) أنظر : هـ. فليمينغ ، ١٩٦٤.

الداخلية وراء الساحل الشمالي الشرقي من تانزانيا المعاصرة ، في المنطقة الواقعة تقريبًا بين نهر وامي ونهر بنغاني الأسفل. وكان السوتا الأول الموجودون سنة ١١٠٠ م من العصر الحالي ، قد جلبوا نباتات أندونيسية الأصل لإكمال زراعاتهم الافريقية التقليدية. وكانت هذه الزراعات الآسيوية الجديدة تتضمّن الأنيام (أو البطاطا) والقلقاس والموز. ويمكن أن نفترض أن هذا التطور الزراعي قد اقترن بتطوّر مماثل عند جماعات السباكي المعاصرة لهم. بيد أنه ليس من الواضح أن زراعة الموز كانت تمارس على النحو المكثّف الذي يصادف عند الشمبا المستقرّين في الأراضي العالية ، وهم قوم من سلالة السوتا الأوائل أحدث عهدًا من غيرهم. وخلال القرون الخمسة التالية ، توزّع تجمّع السوتا الأصلي شيئًا فشيئًا إلى ثلاث فرق من المجموعات ، وظهرت لهجة الشمبا شمالي شرقي منطقة السوتا بين المهاجرين الذين كانوا يتقدّمون في محيط الأوزمبارا الجبلي. وعند حوالى + ١٥٠٠ ، استُعملت لغة الزيغولا – نغولو الأولى، من قبل مجتمعات السوتا الذين انتشروا ، في أعالي نهر وامي في اتجاه جبال النغولو ، فيما كانت تستعمل ، في قلب مستقرّات السوتا الأولى ، صيغة قديمة من اللغة المعروفة اليوم باسم بونداي.

وكما هو الشأن في كينيا ، ينتهي ساحل شمال شرقي تانزانيا الكثير الأمطار إلى منطقة داخلية تزداد جفافًا أكثر فأكثر. ومنذ عهد السوتا الأوائل ، وبوجه الاحتمال من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ م ؛ كانت مجتمعات السوتا الجيران القريبين من الكوشيين الجنوبيين الذين كانوا يتكلّمون بلغة من لغات المبوغوان. ولما كان من المحتمل أن قوم المبوغوان قد مارسوا الرعي أولاً ثم زراعة الحبوب بعد ذلك ، فإنه يبدو من الطبيعي أن تحدّد مواقعهم في القواطع الشرقية من بلاد السوتا المعاصرة ، فيما بين سفانا المامباي والسهل الساحلي.

وقد عاش البانتوروفو في حوض نهر وامي ، جنوبي السوتا. وكانوا ، في القرن الثاني عشر ، يؤلّفون مجموعتين من المجتمعات لكل منها نظام زراعي متميّز. ويمكن أن نعتبر أن مجتمعات الروفو الشرقية ، التي يتفرّع عنها شعوب الكوتو ، والكويليه ، والدويه ، والزارامو ، والكامي ، واللوغولو المعاصرون ، قد تمركزت في المناطق المنخفضة فيما وراء الساحل ، وهي أكثر المناطق رطوبة. ولا بدّ ، بالتالي ، أنها مارست هذه الزراعة المختلطة الإفريقية الأندونيسية ، هذه التركيبة من الزراعات التي نسبت ، فيما أبعد من ذلك شمالاً ، إلى جيرانهم البانتو. ولا بدّ أن روفو الغرب ، الذين نشأت من كلامهم لغتا الكاغولو والغوغو العصريتان ، قد تحوّلوا عن هذا الإطار خلال توسّعهم نحو الشرق ، في اتجاه منابع نهر وامي العليا. وكانوا يختلفون في طرق تغذيتهم، معتمدين في المقام الأول على زراعة الحبوب وتربية الماشية. ويحتمل أيضًا أن يكونوا قد اختلفوا في طرق زراعتهم ، تبعًا لعلاقاتهم بالجماعات الكوشية الجنوبية الموجودة من قبل في هذه المنطقة.

غير أن هذه الفرضية في حاجة إلى التحقيق. أما الكوشيون الذين كانت تربطهم علاقات بمجتمعات الروفو الغربية الأولى ، فيبدو أنهم شكّلوا الامتداد الجنوبي لشعب المبوغوان ، التي هي ذاتها مجاورة للسوتا الأصليين.

من بحيرة نياسا إلى بحيرة فيكتوريا

في بداية القرن الثاني عشر ، كانت منطقة ثانية مهمة من مناطق استيطان البانتو تمتدّ على طول الشريط الجنوبي لافريقيا الشرقية ، على مقربة من الطرف الشمالي لبحيرة نياسا. ويمكن تحديد موقع مجتمع النجومبيه الأول ، في المنطقة الجبلية المحيطة بحد البحيرة الشمالي الشرقي. ولغة النجومبيه هي أصل اللغات الحديثة : الكينغا ، والهيهيه ، والبينا والسانغو. وكان مجتمع آخر يستعمل صيغة من صيغ لغة النياكيوزا مقيمًا غرب بلاد النجومبيه ، وعلى الأرجح بنفس المنطقة التي يقيم بها النياكيوزا المعاصرون. وفي شمال غربي اقليمهم ، على طول الممر الجبلي الموجود بين بحيرتي تانجانيقا ونياسا ، كان شعبان آخران من شعوب البانتو يتكلّمان لهجات عديدة مختلفة ، منبثقة من لغة واحدة مشتركة بين سكان الممر. وبالقرب من النجومبيه القدامى ومن النياكيوزا كان يوجد النيبها الأول ، فيما كان يعيش إلى الغرب من هؤلاء اللابوا الأول. وفي الطرف الجنوبي الشرقي من هذه المنطقة التي كان يسكنها البانتو ، كان الواسونجيا الأول والبوغورو الاوّلون يشكّلون ، على التوالي ، جيران النجومبيه الجنوبيين والشرقيين ، فيما كانت الجماعات المتكلّمة باللغات التي انبثقت منها لغات الياو ، والماكونديه ، والمويرا ، موزّعة على طول نهر الروفوما وإلى الشرق منه وحتى ربما إلى السهل الساحلي للمحيط الهندي[٨] .

وفي طرف بحيرة نياسا الشمالي ، كان مجمل المنطقة في آن واحد منطلق تحرّكات توسّعية هامة قام بها البانتو ، وهي فترة شهدت ، (فيما بين ١١٠٠ و ١٦٠٠ م) هجرات داخلية ضخمة. وفي الشطر الغربي من الممر ، عرفت مجتمعات اللابوا في أواسط هذه الفترة تقريبًا ، عهد توسّع سمح للغة اللابوا بالانتشار فيما وراء مناطقها الحالية بكثير ، وأدّى إلى تفرّع اللابوا إلى لهجاتها الثلاث العصرية ، ألا وهي النياموانغا ، والمامبويه ، والفيبا. وتسمح لنا الدلالات التي جاءت بها بقايا عديدة ، بأن نستنتج أن توسّع الشعوب المتكلّمة بلغة اللابوا يعود جزئيًا إلى أن هذه الشعوب استوعبت ، في منطقة ما بين البحيرات ، شعبًا من السودان الأوسط[٩] . إلاّ أن أهم الهجرات كانت تلك التي قام بها سونجيا الشرق الذين استقرّوا على كامل امتداد الأراضي المنخفضة الجافة التي تسقط عليها سنويًا كميات من الأمطار تقل عن الألف مليمتر ، وهي تلك الأراضي الممتدّة في شكل لسان بين نهر روفيجي ومنطقة الروفوما الأكثر رطوبة. ومن نسلهم تفرّعت شعوب الماتومبي ، والنداجيريكو ، والنجيندو ، والبونغا. وتدل قابليتهم للاستقرار بأراض تصلح بالكاد لزراعة محاصيل البانتو القديمة وغير مناسبة لتربية الماشية ، على أن السونجيا الشرقيين الأول قد كانوا يولون الحبوب وغيرها من محاصيل البذور الأولوية في زراعتهم التي كانوا يمارسونها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ويبدو أن سرعة تقدّمهم وكثافتهم السكانية الحالية الضعيفة للغاية توحيان بأنه لم يسبقهم في أغلب الأراضي المنخفضة الواقعة جنوب نهر روفيجي ، سوى جماعات في طور الصيد وجني الأثمار.

وبالمقابل فإن أهم التحرّكات السكانية الداخلية تقع في منطقة النجومبيه. وقد دخل الكينغا الأوائل

(٨) إن النسب المئوية من التشابهات الظاهرة في المفردات الأساسية للغات السونجيا ، كما حسبناها بالاستناد الى القائمة التي استعملها د. نورسيه و د. و. فيليبسون ، ١٩٧٤ (١) تبلغ ٧٠ بالمائة تقريبًا. وتسمح مقارنة بالتواريخ التي تبناها هذان المؤلفان بارجاع عهد بداية التمايز الذي ظهر في لغة السونجيا الى ما يقرب من ألف سنة خلت. أما في لغات الياو والماكونديه ، والبوغورو فان نسبة تماثل هذه اللغات فيمَا بينها أو بينها وبين السونجيا ، أقل : وقد يستنتج من ذلك أن التمايز كان ، على ما يظهر ، واضحًا منذ ذلك التاريخ.

(٩) لادراك مختلف المؤشرات والبراهين اللغوية الدالة على هذا الادماج ، راجع ك. إهريت ، ١٩٧٣ .

من ناحية الجنوب إلى أقاليم كانت سابقًا ملكًا للسونجيا ، فيما ذابت طائفة هامة من النجومبيه في صلب مجتمع النيبها الأول. وفيما بعد ، تكوّنت في القرن السادس عشر ، من النازحين الكينغا سلالتا الأمراء النياكيوزا الرئيسيتان ، وعائلة النغونديه الحاكمة الناطقة بلغة النياكيوزا(١٠) .

وفي أواخر هذه الفترة أيضًا بدأت منطقة الممر ، هي الأخرى ، تستقبل مهاجرين بانتو قادمين من أماكن أخرى ، وبخاصة من الغرب ومن الجنوب الغربي. وكان مجموع بانتو المنطقة قد حافظوا زمنًا طويلاً على بعض مبادئ سلطة الرؤساء ، إلاّ أن الوحدات السياسية المحلية كانت صغيرة للغاية وغير مستقرّة نسبيًا. ومن الممكن أن الأمراء النياكيوزا الذين وصفهم تشارسلي(١١) ، كانوا النموذج الأصلي للرؤساء الأولين في منطقة الممر. وما يبدو أن النازحين القادمين من الغرب ومن الجنوب الغربي قد حقّقوه غالبًا ، إنما هو تحطيم أنظمة العلاقات القائمة سابقًا بين المجتمعات ، معجّلين بذلك بتكوين إمارات أكبر حجمًا كان الرؤساء النازحون يحتلّون فيها المناصب الرئيسية. وهكذا أُنشئت ، في القرن السادس عشر ، سلطة النياموانغا ، لكن العوامل المتأتية من الغرب ومن الجنوب الغربي لم تكتسِ كامل أهميتها عمومًا إلاّ بداية من القرن السابع عشر(١٢) .

في حوالى عام +١٠٠٠ ، كانت توجد منطقة ثالثة من مناطق استيطان البانتو المتواصل على طول ضفاف بحيرة فيكتوريا. وفي القرن الثاني عشر ، كانت مجتمعات البانتو المستقرّة جنوب شرقي البحيرة ، مقيمة بهذه المنطقة على الأرجح انطلاقًا من مارا ، في الجنوب ، حتى خليج كافيروندو ، شمالاً. وعلى شواطئ هذا الخليج الشمالية ، كانت توجد مجموعة متناثرة من المجتمعات الناطقة بلغة البانتو الخاصة بأهل شمال شرقي فيكتوريا الأول ، مشكّلة في الشمال الغربي ، قوسًا محاذيًا لحد البوسوغا الشرقي. وكان البانتو الموجودون جنوب شرقي جبل الغون ، وهم فرع منفصل عن المجموعة السابقة ، يقطنون منطقة تقع جنوبي هذا الجبل أو جنوبي شرقه. وكان اقليم البانتو في شمال شرقي بحيرة فيكتوريا يمتزج ، على طول شاطئ البحيرة الشمالي ، بالمناطق البحيرية التي يتكلّم سكانها بلغة البانتو.

وكانت المجتمعات القائمة شرق بحيرة فيكتوريا مختلفة اختلافًا محسوسًا عن المجتمعات البحيرية ، على الرغم من مجاورتها للبانتو البحيريين في الشمال ، وكان هذا الاختلاف يعكس قرونًا عدة من التفاعل والتثاقف بين شعوب البانتو وغير البانتو على طول الضفاف الشرقية لبحيرة فيكتوريا. وفي بداية القرن الثاني عشر ، كان بانتو فيكتوريا الشرقية يمارسون ، في مجموعهم ، ختان الصبيان ، كما كانت شعوب جنوب شرق البحيرة ، تمارس ختان الفتيات كذلك ، وذلك طبقًا للمعطيات الاثنوغرافية القائمة. وكانت هاتان العادتان مجهولتين تمامًا لدى البانتو البحيريين ، في حين كانتا شائعتين شيوعًا كليًا بين الأقوام الكوشيين والنيليين الجنوبيين المجاورين لبانتو فيكتوريا الشرقية. وعلاوة على ذلك يبدو أن كافة هذه المجتمعات كانت قد انتظمت في شكل وحدات محلية صغيرة أُقيمت على مبدأ يراعي الانتساب إلى عشيرة أو إلى سلالة. وكانت السلطة مفتقدة تمامًا لديها ، على غرار جيرانها من غير البانتو ، بينما كان تعيين شيوخ أو ملوك عادة متبعة في المجتمعات البحيرية المعاصرة. ويمكن أن يُعتبر هذا الشكل من القيادة مبدأ من أقدم المبادئ التي يستند إليها تنظيم البانتو(١٣) .

---

(١٠) راجع في هذا الموضوع ، م. ويلسون ، ١٩٥٨ ، الفصل الأول.

(١١) س. ر. تشارسلي ، ١٩٦٩ .

(١٢) ب. بروك ، ١٩٦٨ .

(١٣) ج. فانسينا ، ١٩٧١ .

وبالنسبة إلى مجتمعات جنوب شرقي فيكتوريا التي تحدّها البحيرة من جانب ، لا بدّ أن النيليين والكوشيين الذين يحدّونهم من الجانب الآخر قد شكّلوا عاملاً مستمرًا في تاريخ ثقافة هذه المجتمعات من بداية القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر. وشكّل تزايد السكان باستيعاب النيليين الجنوبيين السابقين ، تطوّرًا ملحوظًا بوجه خاص عند الشعوب المتكلّمة بلهجة المارا المتفرّعة من اللغة التي كانت مستعملة في المنطقة الجنوبية الشرقية من بحيرة فيكتوريا. وقد أفضت هذه الطريقة في النهاية – وبخاصة لدى أسلاف الكوريا ، والزناكيا والايكوما المعاصرين ، ولدى غيرهم كذلك – إلى إلحاق نظام نيلي جنوبي ، يعتمد الترتيب بحسب الأعمار ، فوق التنظيم الاجتماعي والسياسي القديم القائم على الانتساب إلى العشيرة ، الذي تتميّز به مناطق جنوب شرقي فيكتوريا. ومع اندماج البانتو ونيليي الجنوب في مجتمع واحد ، حصل انصهار أفكار التنظيم الاجتماعي المستوحاة من كلا المصدرين ، وإن كانت المارا هي اللغة السائدة في هذا المزيج[١٤] . وفي مجموعة موزوما المتفرّعة عن مجتمعات جنوب شرق بحيرة فيكتوريا ، يمكن التأكّد من الاتصالات النيلية الجنوبية بكل وضوح[١٥] ، إلاّ أنه ليس بديهيًا بعد أن هذه الاتصالات كان لها نفس التأثير في التطوّر الثقافي. بيد أنه فيما يخص فرع الغوزيي التابع لمجموعة المارا الفرعية ، لم يكن الذين أثّروا فيهم أبرز تأثيرهم ، النيليون الجنوبيون ، بل هم بالأحرى كوشيو الهضاب الجنوبية. ويبدو أن أول مجتمع متكلّم بلغة الغوزيي قد نما بإدماج أقوام من سكان الهضاب ، ولذلك لم يتبنّ أبدًا نظام الترتيب بحسب الأعمار الخاص بنيليي الجنوب ، مثلما فعلت مجتمعات المارا الأخرى[١٦] . وحتى بعد سنة ١٦٠٠ م ، وخلال فترات العلاقات المتينة بين الغوزيي والكيبسيجي ، وكلاهما نيلي جنوبي ، كان اكتساب الهوية الغوزية يؤدّي إلى المحافظة على النموذج المحلي لتنظيم المجتمع ، الذي استقرّ قبل سنة ١٦٠٠ م.

وخلال نفس هذه الفترة ، (من بداية القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر) دخلت مجتمعات شمال شرق بحيرة فيكتوريا ، في نظام اتصالات ثقافية أكثر تنوّعًا. ويبدو أن النازحين البانتو البحيريين قد أثّروا بدرجات مختلفة ، على العادات الاجتماعية والتصنيفات العرقية. ويمكن مثلاً ، أن يعزى أفول الختان وبعض الأنظمة غير الدورية للترتيب بحسب الأعمار عند اللويا ، إلى الحركة الدورية لمجتمعات ليست لها هذه المفاهيم ، خارج مناطق الألسن البحيرية. وفيما بين ١١٠٠ و ١٦٠٠ ، حلّ كذلك تدريجيًا بمنحدرات جبل الغون الغربية ، محل جانب من شعب اسمه ايتونغا ، كان يقطن سابقًا ، أقوام من الشمال الشرقي لغتهم الجيزو ، يُضاف إليهم السيان الذين كانوا يؤلّفون مجتمعًا ثانيًا للبانتو ويتعايشون بجوار مهاجرين قادمين من البوسوغا أو من البوغندا الحديثتين. وبالمقابل تدل المعطيات اللغوية على أن المهاجرين من شمال شرقي بحيرة فيكتوريا قد انتشروا بأعداد ضخمة بين قوم البوسوغا ، وفي غضون الفترات نفسها. ويمكن التأكيد بأن فترة الكينتو تمثّل ، في تاريخ البوسوغا والبوغندا الشفاهي ، استيطانًا هامًا ، ربما يعود عهده إلى القرن الرابع عشر ، وهو استيطان أقوام قدموا من شمال شرقي بحيرة فيكتوريا[١٧] ، وهو ما يفسّر المعطيات اللغوية. ويبدو أنه لا يمكننا التشكيك في الرواية القائلة بأن تحرّكات الكينتو أدخلت الموز إلى كل من البوغندا والبوسوغا ، إذا أدركنا أن ذلك الأمر لا يتعلّق بإدخال

(١٤) ك. إهريت ، ١٩٧١ ، الفصل الخامس.
(١٥) المرجع نفسه ، ملحق د ٤.
(١٦) ك. إهريت ، ١٩٧٤ (٢) ، مجلّد ٦ ، الفصل الثاني.
(١٧) د. و. كوهين ، ١٩٧٢.

الموز للمرة الأولى، وانما بالأحرى إدخال زراعته واستعماله بكيفية مكثّفة، كما كانا يمارسان في ذلك العهد في منطقة جبل «الغون».

غير أن الاتصالات النيلية قد سادت بين مجتمعات المناطق الشمالية والشرقية التي كانت تؤلّف شبكة القطاع الشمالي الشرقي من بحيرة فيكتوريا. ومما ساهم في إعطاء الماشية أهمية متزايدة ضمن قائمة موارد عيش الجيزو الأصليين، نقطة التقاء الأفكار الواردة من الايتونغا المقيمين في الألغون الغربي ومن النيليين الجنوبيين المستقرّين في كيتوكي، الذين عاشوا جنوب جبل الغون طيلة معظم هذه الحقبة. وفي القرن السادس عشر وما بعد ذلك، أفضى اللقاء بين المتكلّمين بلغة اللويّا والناطقين بلسان الكالنجين من نيليي الجنوب أسفل هضبة الناندي إلى نشأة مجتمعات لغتها البانتو، حافظت على مبادئ تنظيم اجتماعي قائم على أساس العشيرة، وهي مبادئ أكثر قدمًا أُضيفت إليها أنظمة الترتيبات الطبقية المعتمدة على تصنيف الأعمار، التي يرجع أصلها إلى الكالنجيين. وتمثّل تطوّر آخر، متأخر جدًا زمنيًا، في تسرّب مهاجرين من اللوو في القرن السادس عشر، إلى الطرف الجنوبي من هذه المنطقة، على مقربة من خليج كافيروندو. ولئن كان اللوو لهم في الفترات الأولى أهمية محدودة جدًا، فإنهم سرعان ما سيضطلعون بأدوار مهمة للغاية في القرون التالية.

في المناطق الداخلية من كينيا وتانزانيا

في الوقت الذي كانت فيه أغلب مجتمعات البانتو قد استقرّت، داخل كينيا وتانزانيا، في مناطق تتجاوز كميات الأمطار التي كانت تنزل بها ألف مليمتر في السنة، كان البعض من هذه المجتمعات قد أخذ، في القرن الحادي عشر، يتأقلم مع مناخات أكثر جفافًا، مثلما كان شأن روفو الغرب الذين سبق ذكرهم، وربما أيضًا مجموعة مجتمعات كانت تستعمل لغة التاكاما الأصلية التي يتكلّمها سكان تانزانيا الغربية. وتتفق الجغرافيا اللغوية المتعلّقة بلغات التاكاما العصرية – النياتورو، والنيرامبا، والنياموبزي – سوكوما، والكيمبو – بأيسر ما يكون مع الفرضية القائلة بوجود وطن للتاكاما الأول على الضفة الغربية لنهر الومبيري، وهي منطقة تبلغ فيها كميات الأمطار سنويًا ما بين ٦٠٠ و ١٠٠٠ مليمتر. ولئن كان من الممكن، في بعض أجزاء هذا الإقليم، زراعة البعض من أقدم المحصولات الافريقية، فإنه يبدو من الصعب أن تكون هذه المناطق قد استطاعت أن تضمن محاصيل منتظمة، ولذلك لا بدّ أن التاكاما الأول قد اتّجهوا بجهودهم إلى الحبوب التي توفّر لهم القوت بكيفية أكثر انتظامًا.

أما بقية المناطق الداخلية من كينيا وتانزانيا، فقد سادت فيها في القرن الثاني عشر، مجتمعات نيلية وكوشية جنوبية مختلفة، اختلطت في الوقت نفسه بعض تجمّعات البانتو المنعزلة. وكانت تربية الماشية تستهوي النيليين والكوشيين على حد سواء، إلاّ أنه قد يكون من الخطأ اعتبارهم رعاة يحتقرون الأعمال الزراعية. وفي الواقع، إذا أخذنا في الاعتبار الممارسات المفضّلة لدى مجتمعات مماثلة لكنها أحدث، فإنه يحتمل أن تكون زراعة الحبوب قد وفّرت، في أغلب الأحيان، أهم جانب من القوت. غير أنه لا يُستبعد أن تكون تربية الماشية قد حلّت محل الزراعة كليًا أو بصفة شبه كلية، في بعض المناطق المحدودة، التي تكون فيها كمية الأمطار منخفضة جدًا أو سيئة التوزيع، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى سفانا الماساي وقطاعات كبيرة من كينيا الشمالية الشرقية.

ويكمن أشد تناقض مع الوضع الحالي في أهمية السكان الكوشيين الجنوبيين وانتشارهم ، وكان أكثرهم عددًا بكثير شعوب الأخدود الشرقي. وكانت مجتمعات الأخدود الشرقي ، التي بلغت أوج أهميتها في الألفية الأولى من العصر الحالي ، سائدة في منطقة شاسعة ممتدة جنوبًا من الكيليمنجاور وجبال باريه إلى بلاد دودوما في تانزانيا الحالية. وكانت تربي الماشية ، والضأن والماعز ؛ وتزرع الدخن ، باعتباره زراعتهم الرئيسية مع الذرة البيضاء ، وكذلك الايلوزين كلما سمحت الأمطار بذلك. وحوالى سنة ١١٠٠ ، كان التجانس بين أراضي الأخدود الشرقي قد ضاع بسبب توسع شعبي الدادوغ والأونغامو ، وكلاهما من الشعوب النيلية.

وفي وسط إقليم الماساي ، استطاع مجتمع صغير من مجتمعات الأخدود الشرقي ، وهو مجتمع الأزاكس[١٨] ، أن يحافظ على استقراره ، رغم هيمنة الدادوغ على هذه المنطقة ، بفضل الصيد والجني اللذين كان لا يزال يمارسها. وقد كان باستطاعة متعاطي الصيد والجني ، مع اختلاف نوع اقتصادهم اختلافًا جذريًا ، أن يتعايشوا ، على الصعيد الاجتماعي ، مع سكان الأخدود الشرقي الذين كانوا هم السائدين ، وذلك حتى بعد أن تبنوا لغة الأخدود الشرقي. وعندما استوعب الداودغ رعاة الأخدود الشرقي ، أو طردوهم ، ظلّ كيان الأزاكس قائمًا بوصفه وحدة اجتماعية مستقلّة ، كما ظلّ هؤلاء القوم يستعملون لغتهم الأصلية وهي الكوشية.

وفي جنوب منطقة الماساي الأوسط ، استمرّ مجتمعات مهان من مجتمعات الأخدود الشرقي في ممارسة تربية الماشية وزراعة الحبوب مثلما كان يفعل أسلافهم في الألفية الأولى من العصر الحالي. وكان يوجد ضمن احداهما الكرادزا ، المنحدرون مباشرة من مجتمع الأخدود الشرقي القديم الذي كان يهيمن على منطقة الماساي ويتكلّم لغة قريبة من الأزاكس.

وكان إقليمهم يشتمل على أجزاء من قطاعات الماساي الجنوبية ، والمبوابوا والدودوما في تانزانيا[١٩]. وكان سكان الأخدود الشرقي الآخرون ، الممكن على سبيل الاحتمال تسميتهم بالايرينغا – الكوشيين الجنوبيين ، يملكون إقليمًا شاسعًا شيئًا ما ، لكن يبدو أنهم كانوا الجيران الجنوبيين للكوادزا وأنهم توغّلوا في الجنوب بما يكفي من المسافة والعدد للتأثير إلى حد بعيد في النجومبيه الأصليين الذين كانوا يعيشون حوالى سنة ١١٠٠ ، وكذلك لتشكيل عنصر مهم في تكوين الهيهيه والبينا ، والسانغو ، خلال القرون التي تلت.

وبعد سنة ١١٠٠ ، ظلّ جدب بلدان الكوادزا والايرنغا يعرقل توسّع البانتو طيلة قرون عدة. وفي الوقت نفسه ، عوّضت مجتمعات من البانتو ، كان عددها يزداد أكثر فأكثر ، طرقها الزراعية السالفة ، بزراعة مختلطة من نفس نوع الزراعة التي كان يمارسها الايرنغا والكوادزا ، وذلك إما في أثر استيعابها أقوامًا كوشية. جنوبية موجودة قبلها ، وإما نتيجة لتبادلات تجارية وثقافية. ونتبيّن من ضمن تجمعات البانتو هذه ، مجتمعات النجومبيه المستقرّة بمناطق الجنوب الجبلية من تانزانيا ، والروفو الغربيين الموجودين في قطاع كيلوزا ، وكذلك مختلف مجتمعات التاكاما التي كانت توجد مواقعها غرب مواقع الكوادزا. وفي القرن السادس عشر ، أخذت تحرّكات هامة من المستوطنين البانتو تظهر انطلاقًا من هذه المناطق الثلاث المختلفة. ولم تتقهقر مجتمعات الأخدود الشرقي ، في الأراضي العالية الجنوبية ، تحت تأثير الدفعة الأولى من النازحين النجومبيه الذين كانوا يتكلّمون بلهجة البينا–هيهيه السلفية فحسب ، بل كذلك تحت تأثير مهاجرين روفو قدموا من الغرب ، وإن كان يبدو أن هذا التحرّك لم يتم قبل سنة ١٦٠٠.

(١٨) عرف الأزاكس ، في التآليف والدراسات السابقة ، باسم الأرامانيك وقد أطلق عليهم إهريت اسم الآزاكس.
(١٩) ك. إهريت ، ١٩٧٤ (٢) ، مجلد ٤ ، الفصل الثاني.

وفي منطقة الدودوما ، بدأ الكوادزا يحسّون بضيق الخناق عليهم من ثلاث جهات في آن واحد. وتمكّن لسان الغوغو ، الذي أدخله النازحون الروفو الشرقيون من أن يفرض نفسه في النهاية ، إلاّ أن ما تبقّى من مفردات الغوغو[٢٠] ، يشير ، كما تشير إلى ذلك الروايات التاريخية ، إلى عمليات التنامي في عدد السكان ، من الأوهيهية نحو الجنوب ، ومن بلاد التاكاما نحو الغرب ، وهي عمليات كافية ، في النهاية ، لغمر من سبقهم من الكوادزا. غير أن هذه التطوّرات كانت لا تزال في بدايتها ، وسيبقى الكوادزا عاملاً مهمّا في تاريخ تانزانيا الوسطى.

ولم يكن انتشار النازحين التاكاما في أراضي الدودوما سوى شكل بالغ الأهمية من أشكال توسّع التاكاما في تانزانيا الغربية ، حيث بدأ منذ ١٠٠٠ م. وكانت بداية هذا التفرّق قد أفضت ، خلال القرون الأولى من الألف الحالية ، إلى توزّع التاكاما الأول إلى ثلاثة مجتمعات. وكان مجتمع الوامبيريه قد ظهر بين المستوطنين التاكاما في الهضاب القاحلة شرق نهر الوامبيري ، وكان يتكلّم بلغة تاكاما التي تُعتبر سلف لغتي الايرامبا أو النياتورو العصريتين ، ويُحتمل أن تكون المجتمعات المتكلّمة بلغة الكيمبو السلفية قد بدأت تتكوّن جنوب أعالي نهر الوامبيري بالضبط. فيما كان النياموبزي – السوكوما يقيمون بمكان ما ، شمال غرب حوض الوامبيري[٢١] . ويؤدّي وجود تنوّع في اللهجات أكبر في الأوزوكوما الحالية مما في النياموبزي ، إلى افتراض أن البلاد التي نشأت فيها لغة النياموبزي – السوكوما الأولى تقع في منطقة الاوزوكوما[٢٢] . ويدل العدد الكبير من الكلمات المستعارة من الكوشية الجنوبية ، والتي نجدها في كلام النياموبزي – السوكوما ، على أن المجتمع النياموبزي – السوكوما الأولى قد نشأ جزئيًا عن اختلاط مستعملي التاكاما بعناصر كوشية جنوبية كانت تقيم سابقًا جنوب بحيرة فيكتوريا[٢٣] . ومن جهة أخرى توجد آثار قليلة لتأثير كوشي جنوبي في مستعملي لغات الوامبيري الأولية ولغة الكيمبو القديمة ، ولذلك يبدو أن المستوطنين الومبيري والميمبو قد ولجوا أقاليم لم يكن قد استوطنها سابقًا إلاّ عدد قليل من ممارسي الجني والصيد. وهكذا يبدو أن الهاتسا الذين عاشوا قريبًا من بحيرة ايازي يمثّلون العناصر الأخيرة التي لم تتمثّل من هذه المجتمعات الأولى. وقد يكون جيرانهم ، السانداويه ، ينتمون إلى الصنف نفسه ومع ذلك يبدو أنهم أفلتوا من عملية التمثّل بتفرّغهم للحياة الزراعية.

وتبرز الحقبة ما بين ١١٠٠ و ١٦٠٠ م ، توسّعًا وتميّزًا كانت تختص بهما شعوب التاكاما باستمرار. وفي وقت باكر جدًا ، شرع الوامبيري في الانقسام بين الشمال والجنوب ، مما سينشأ عنه على التوالي مجتمعا الايرامبا والنياتورو. بيد أن أكثر التوسّعات أهمية كانت توسّعات المجتمعات النياموبزي – السوكوما ، إلى أن انتشرت الأقوام المتكلّمة بهذه اللغة ، حوالى سنة ١٦٠٠ ، في اتجاه جنوب شواطئ بحيرة فيكتوريا ، وبلغت تقريبًا المنطقة التي يقطنها الأوكيمبو الحاليون. وربما بدأ النازحون الأكيمبو هم الآخرون ، حوالى ١٦٠٠ ، يتسلّلون نحو الجنوب والجنوب الغربي في اتجاه الأقاليم التي يحتلونها اليوم. وقد تنقّل عدد من المستوطنين التاكاما نحو الشرق ، في نطاق هذه المراحل الأخيرة مع توسّع التاكاما واندمجوا مع مستوطنين بانتو آخرين في منطقة الدودوما.

---

(٢٠) راجع ب. ريغبي ، ١٩٦٩ ، وعلى الأخص الفصلين ٢ و٣.

(٢١) راجع ، بخصوص هذا التوزيع الثلاثي للتاكاما وطرقه ، د. نورسيه ، ود. و. فيليبسون. ١٩٧٤ (٢).

(٢٢) اننا مدينون بهذا التوضيح لِـ د. نورسيه ، (مراسلة شخصية ، ١٩٧٤).

(٢٣) لعل الأمر يتعلق على الأرجح بكوشيين جنوبيين من النيانزا : راجع ك. إهريت ، ١٩٧٤ (٢) ، مجلد ٦ ، الفصل ٢.

المناطق الجبلية : الكيليمنجارو وكينيا

لقد عاش ، في شمال منطقة الماساي الأوسط على منحدرات جبل كيليمنجارو ، مجتمع أو عدة مجتمعات كوشية جنوبية من مجتمعات الأخدود الشرقي ، في القرن الثاني عشر ، بينما يمكن تحديد موقع مجموعة أو مجموعتين من مجموعات هذا الأخدود الشرقي ذاته ، في روابي التايتا[٢٤] . ويبدو أن نقطة التقاء هذه المجتمعات المنتمية إلى الأخدود الشرقي تكمن في استعمالها الري والسماد العضوي في ممارسة زراعة مركّزة أساسًا على الحبوب . وقد وفّر هذا الإصلاحان الدعائم الأساسية لحدث عظيم في التاريخ الزراعي لافريقيا الشرقية : ألا وهو نمو زراعة جبلية كثيفة يشكّل الموز فيها الإنتاج الأساسي. ولقد حقّقت المجتمعات المتكلّمة للغة البانتو، التي كانت تتمثّل في صلبها مجتمعات كوشية جنوبية، والتي أدخلت زراعة الموز الأندونيسي نجاحًا نتج عن مزج تقاليد البانتو في ميدان الزراعة، بطرق الزراعة الكوشية. ولا يعلم علم اليقين أين ولا متى ظهرت التقاليد الجبلية الجديدة ، غير أنها كانت ضربت بجذورها منذ بداية الألف الثانية للعصر الحالي ، في مجتمع البانتو الصغير بجبال الكيليمنجارو وجبل كينيا ، وجبال باريه . وقد فسح انتشار التقاليد الجبلية فيما بعد المجال لبداية عهد استيطان الشامبا في سلسلة جبال الاوزمبارا ، حوالى + ١٥٠٠ . ومن الممكن أن تكون مجتمعات الأخدود الشرقي الجبلية قد تعوّدت على البعض من الزراعات التقليدية الجبلية ، لكن من المرجّح أيضًا أنها لم تتبناها حقًّا إلاّ عندما استوعبها البانتو أثناء توسّعهم في الأراضي العالية.

وفي القرن الثاني عشر ، حصرت مجموعات المنطقة الجبلية من الأخدود الشرقي في الأراضي العالية من جراء تقدّم الأونغامو في سهول كابوتيه ، شمال الكيليمنجارو ، جنوبًا حتى سفوح الجبل بالذات ، وربما أيضًا عند مشارف سلسلة جبال باريه[٢٥] . وكان الأونغامو يتكلّمون لغة قريبة جدًا من لغة الماساي الأول التي كانت مستعملة حوالى جبل كينيا ، وكانت من القرب إلى درجة أن اللغتين كانتا ، في ذلك العهد ، في متناول فهم مستعمليها على حد سواء. وتدل استعارات مفردات لغة الأونغامو من المصادر التي تشترك فيها مع لغة الماساي ، على أن الأونغامو كانوا لا يمارسون تربية الماشية فحسب بل يمارسون كذلك زراعة الايلوزين والذرة البيضاء. ومع ذلك إذا كانت سيطرة الأونغامو على السهول قد حصرت أقوام الأخدود الشرقي في منطقة الجبال ، فإن الضغط المباشر الذي كان مسلّطًا على أراضي الأخدود جاء من مجتمعات بانتو صغيرة دُفعت هي أيضًا إلى الأراضي العالية.

ومن المرجح جدًا أن يكون الشاغا الأول قد استقرّوا في مطلع القرن الثاني عشر على منحدرات الكيليمنجارو الجنوبية الشرقية ، ولو أنه من الممكن أيضًا أن تكون قد وجدت منطقة استيطان أولية على مقربة منها ، في جبال باريه الشمالية. وكان هؤلاء النازحون قد تمكّنوا من التحكّم في ممارسة الزراعة الجبلية ، وكانوا يعطون الموز المكانة الأولى ضمن هذا النوع من الزراعات. ونؤكّد هنا أن الإنتاجية الضخمة التي كانت تتسم بها تقاليد الأراضي العالية قد شكّلت العامل الحاسم في سرعة توسّع الشاغا أثناء القرون الخمسة التالية ، التي استوعبوا خلالها الأونغامو ومجتمعات الأخدود الشرقي . وأفضت المراحل

---

(٢٤) لقد كنا نصف هذه المجتمعات ، في دراسة سابقة ، بمجرد «الأخدود» (راجع ك. إهريت ، ١٩٧٤ (٢) ، مجلد ٤ ، الفصل ٢ ، والجدولين ٤–٦ و ٤–٧. وتبين لنا من تحقيق حول قائمات الألفاظ لم ينشر بعد ، أنها تنتمي الى الأخدود الشرقي.

(٢٥) راجع ك. إهريت ، ١٩٧٤ (٢) ، الجدول ٨–٢.

الأولى من انتشار الشاغا إلى نشأة أربع مجموعات من مجتمعات الشاغا.

وقد استقرّت ثلاث منها في مرتفعات الكيليمنجارو وهي مجموعة الشاغا الغربيين، على السفح الجنوبي من الجبل، ومجموعة شاغا الوسط، غير بعيد عن «الموشي» الحالي، ومجموعة الرومبو، على السفح الشرقي. ومن جهة أخرى، فقد ظهر الغوينو الأوّلون في الباريه الشمالي حيث توجد بعض آثار لسكان كانوا يقطنون الأخدود الشرقي الأمامي. وقد ساعد تقدّم استيطان الشاغا باستمرار حتى + ١٥٠٠ على توزّع الشاغا رومبو إلى عدة مجتمعات منعزلة على السفح الشرقي من الجبل، فما كان عدد من النازحين الشاغا الغربيين ينتقلون، أثناء الحقبة نفسها، من الكيليمنجارو إلى المنحدرات المشجّرة في الأجزاء العليا من جبل الميرو المجاور. وفي القرن السادس عشر، لم تحافظ مجتمعات الأخدود الشرقي على سيطرتها إلاّ في الجنوب الغربي، بعيدًا عن الكيليمنجارو، مثلما تشهد به استعارات مفردات لهجة السيها الخاصة بالشاغا الغربيين[٢٦]. وكان الأونغامو لا يزالون كثيري العدد على سفوح الكيليمنجارو الشرقية؛ غير أنه لم يعد لهم تأثير خارج هذه المنطقة على ما يبدو.

ويظهر أن تاريخ تلال التايتا فما بين ١١٠٠ و١٦٠٠، قد طغت عليه بعض مشاكل التوافق بين سكان الأخدود الشرقي والبانتو، أكثر مما طغت على تاريخ الكيليمنجارو، ولقد سبقت مجتمعات الأخدود الشرقي التايتا الأول في هذه المنطقة، وظلّت تشكّل عنصرًا مهمًا في تركيب السكان حتى بعد انقسامهم إلى مجتمعين منفصلين، الداويدا والساغالا، أثناء القرون الأولى من الألف الثانية من العصر الحالي. إلاّ أن استيعاب مجتمعات البانتو النامية في تلال التايتا لسكان الأخدود الشرقي نهائيًا لا يمكن أن يكون قد تمّ يقينًا إلاّ في خلال عصور أكثر حداثة. وعند الساغالا على وجه الخصوص، كان ثمّة عامل إضافي من عوامل الانقسام، ألا وهو تسلّل نازحين بانتو آخرين قدموا من مناطق لغة الساباكي في الساحل وفي جبال باريه. وقد برز هذا العنصر الساحلي عند الساغالا بشكل قوي جدًا إلى درجة أن لغتهم استوعبت عدة مفردات مستعارة من الساباكي، والأغرب من ذلك أنها اعترتها تغييرات صوتية يوجد لها أثر في لغات الساباكي التي لها بها صلة قرابة بعيدة، لكن هذا الأثر لا يوجد في لغة الداويدا الأقرب منها كثيرًا. ولم يبدأ هذا العامل الساحلي عمله في جبال التايتا إلاّ في عهد أفول تأثير الأخدود الشرقي، ولا يبدو أن هذا العهد يرجع إلى ما قبل القرن السادس عشر. وتظهر أبعاد هذا العامل السياسية والاجتماعية بصورة أوضح، أثناء الحقب اللاحقة التي تخرج دراستها عن نطاق هذا المجلّد.

والمرجّح أن تحرّك مجموعات الساباكي إلى تلال التايتا قد شكّل أحد نتائج مجموعة النزوحات التي تبلورت حولها هوية الآكامبا العرقية، شمال تلال التايتا، في الأوكامباني، خلال القرن السادس عشر[٢٧]. غير أن النازحين من الجنوب اختلطوا، في الأوكامباني، بسكان كان لهم أسلاف من جبل كينيا ولغة اسمها الثاجيكو.

وكان أسلاف الثاجيكو قد ألّفوا مجموعة صغيرة من مجتمعات البانتو على منحدرات جبل كينيا الجنوبية، حوالى سنة ١١٠٠ م. وكانوا، على غرار مجتمع الشاغا الأصليين[٢٨]، محصورين بين كوشيي الجنوب، الذين يتكلّمون هنا، الكيرنياغا، وأقوام آخرين من الرعاة، هم في هذه الحالة نيليون جنوبيون، استقرّوا بالسهول إلى أسفل الجبل. وكان الماساي الأول يعيشون غالبًا في الشمال الغربي فيما وراء

(٢٦) أنظر د. نورسيه، ود. و. فيليبسون، ١٩٧٤ (١).
(٢٧) أنظر ك. جاكسون، ١٩٧٢.
(٢٨) أنظر ك. إهريت، ١٩٧٤ (٢)، مجلد ٧، الفصل ٢.

غابات جبل كينيا ، إلاّ أنه لا يبدو ، في الوقت الحاضر ، أن الأقوام الذين يتكلّمون لغة الماساي قد كان لهم تأثير في مجتمعات الثاجيكو قبل ١٦٠٠ م.

وفيما بين ١١٠٠ و ١٦٠٠م، وسّعت مجتمعات الثاجيكو مساحة أراضيها باقتطاع أجزاء من الغابة وبالامتداد في اتجاه جنوبي الجبل. وفي خلال الحقبة نفسها ، انقسمت لغة الثاجيكو الأول الأصلية إلى عدة لهجات هي ، من وجوه شتى ، أسلاف لغات الكيكويو – إمبو ، والشوكا ، والميرو. وظهرت لهجة رابعة عند النازحين الثاجيكو الذين كانوا يبتعدون عن جبل كينيا في اتجاه الأوكامباني الأوسط والشمالي.

وقد بدأت الانقسامات العرقية الظاهرة عند الثاجيكو الحاليين تتجسّد في القرن السادس عشر. ولعلّ السبب في التوسّعات الكبيرة التي جدّت في القرون التالية يرجع إلى اثنين من هذه المجتمعات كانا بعد سائرين في طريق الازدهار ، وهما مجتمع الكيكويو ، في الثغرة الفاصلة بين جبل كينيا وسلسلة جبال النيانداروا ، ومجتمع الميرو ، شرقي جبل كينيا ، في الطرف الآخر من أراضي الثاجيكو. وفي الوقت نفسه، كان النازحون الساباكي يتفاعلون مع الثاجيكو المقيمين في الأوكامباني ، منشئين بذلك مجتمعًا يتكلّم الثاجيكو ، لكن ثقافته أقرب من أوجه كثيرة لثقافة التايتا أو بانتو الساحل منها لثقافة بانتو جبل كينيا. ونجد صورًا من ذلك في اتّخاذ الكامبا القوس والسهام سلاحًا شائعًا لهم بدلاً من الرمح ، وكذلك في غياب التصنيفات السياسية والاجتماعية القائمة على أساس السن ، وهو المبدأ الذي كان يكتسي أهمية قصوى في جبل كينيا. وقد بقيت المجتمعات الكوشية الجنوبية شرقي الجبل ، ويحتمل أن البعض منها كان متجاورًا مع مجموعات من الكيكويو ، فيما كانت جماعات من ممارسي الصيد وجني الثمار تسيطر على المنحدرات المشجّرة من سلسلة جبال النياندارو جنوب الكيكويو. ولم يقدّم بعد أي تفسير مرضٍ لتواجد أقوام سابقين للبانتو في الأوكامباني ، غير أنه يبدو أن بعض النيليين الجنوبيين ، الذين ربما كانت تربطهم قرابة متينة جدًا بنيليي السهول الجافة في الشمال الشرقي من كينيا ، قد وجدوا في الأوكامباني الشرقي وهو ما يثبته بقاء بعض المفردات المستعارة من لغة النيليين الجنوبيين مستعملة في لهجة الكيتوي العصرية من لغة الكامبا.

وإلى الغرب من محور يجمع بين كينيا والكيليمنجارو ، تمتدّ داخل كينيا وتانزانيا المنطقة الكبيرة الوحيدة التي لم يؤثّر فيها الاتجاه العام إلى إقرار البانتويه في خلال الحقبة الممتدّة من ١١٠٠ إلى ١٦٠٠ م. وقد سيطرت على هذه المنطقة ، إلى سنة ١٥٠٠ وما بعدها ، مجتمعات نيلية جنوبية ، خاصة منها الكالنجين والدادوغ. وحوالى عام + ١٠٠٠ ، سيطر الكالنجين الأصليون والكيتوكي ، وهم نيليون جنوبيون كانت تربطهم بهم قرابة متينة جدًا ، على الاقليم الممتدّ من مشارف جبل الألغون الجنوبية شرقًا إلى سهول الأوازينجيشو. وقد انتشر الكالنجين أثناء القرنين أو القرون الثلاثة التالية ، في كامل عرض هضبة الأوازينجيشو ، متوغّلين نحو الشرق والجنوب الشرقي إلى مناطق الأخدود بكينيا الوسطى والجنوبية. إلاّ أن التوسّعات المستمرة التي قام بها الكالنجين خلال القرون اللاحقة ، لم تفض إلاّ إلى تقوية الانقسامات اللغوية والعرقية التي بدأت تظهر في مختلف مناطق بلاد الكالنجين.

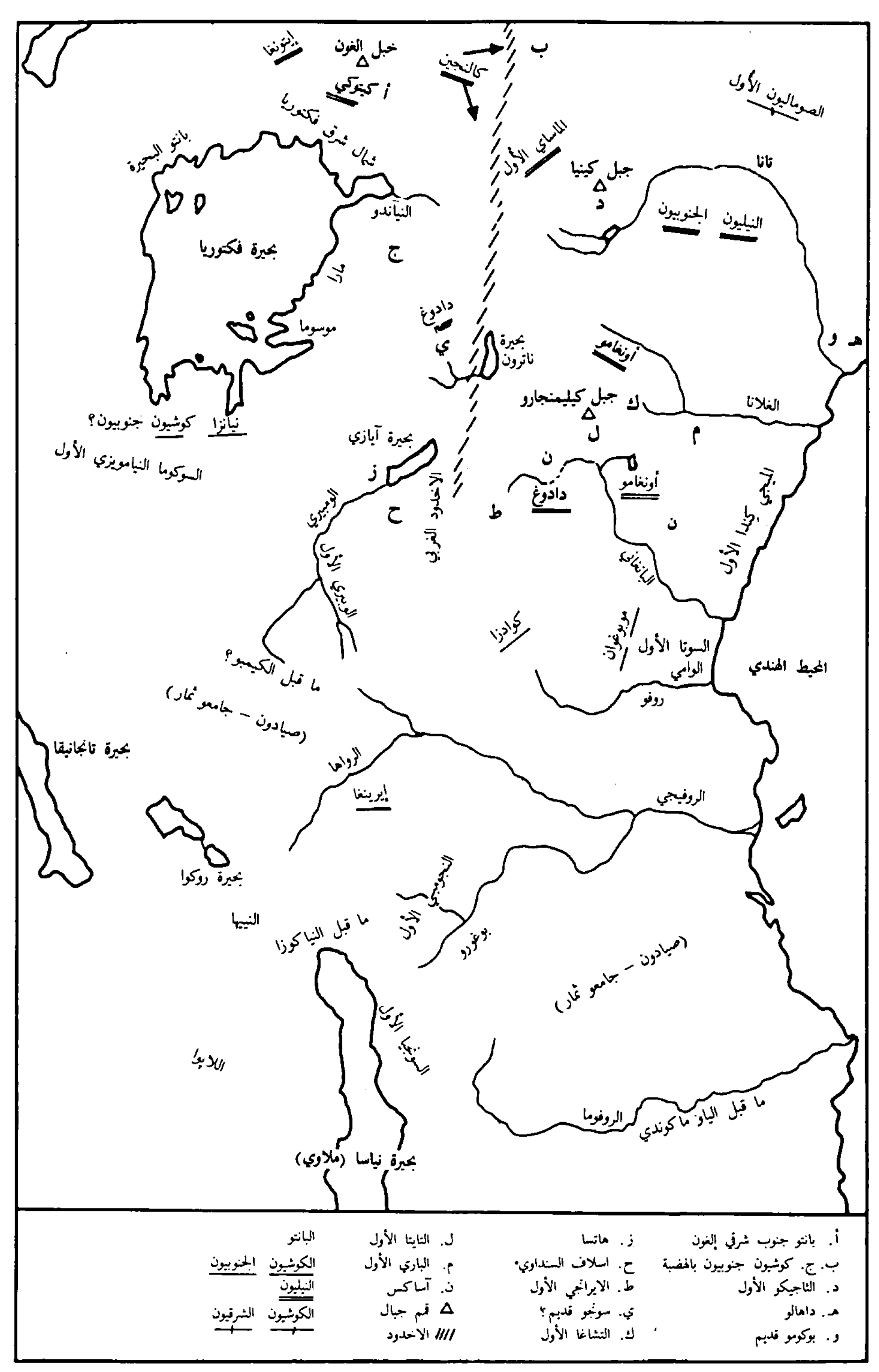
وفي جنوب شرقي جبل ألغون ، اختلف مجتمع الألغون – كالنجين الأوائل عن الصورة العامة للكالنجين عن طريق استيعاب بانتو الألغون الجنوبي الشرقي. وهكذا ، حلّت العشائر الإقليمية ، مثلما حصل عند بانتو شمال شرقي بحيرة فيكتوريا ، محل التصنيفات الاجتماعية الدورية القائمة على أساس السن ، باعتبارها مبادئ جوهرية في تنظيم مجتمع كالنجين الألغون. وللأسباب نفسها ، بدأ الألغون – كالنجين يتطوّرون نحو زراعة مرتكزة على الموز ، وأخذوا ، بفضل هذه الميزة ينتشرون حوالى منحدرات جبل الألغون المشجّرة.

وفي شرقي الجبل، وقع السكان البوكوت الأوائل، حوالى عام + ١٥٠٠ تحت السيطرة الثقافية لجيرانهم في الشمال، وهم الايتونغا، فيما كان مجتمع الناندیان الأصليين قد تشكّل على طول الطرف الغربي من هضبة الأوازينجيشو، جنوبي البوكوت بالضبط. وخلال المراحل الأولى من نمو الناندين اندمج معهم كوشيون جنوبيون من سكان الهضبة. ومن المحتمل أن احدى المساهمات الكوشية في حضارة سليليهم وأخلافهم، الكالنجين، قد تمثّلت في انتشار الزراعة بالري عند السكان الكييو والماراكوت، الذين يتكلّمون الناندیان، والذين يستقرّون حاليًا بمنحدرات الالغبو ثم ان اتجاه توسّع الناندیان قد اتّجه في عام + ١٥٠٠ تقريبًا، نحو الجنوب، أي نحو الغابات والسهول الموجودة في البلاد التي يرويها نهر النياندو. ويبدو أن مجتمعي الناندي والكيبسيجي الحاليين إنما ينحدران من هؤلاء المستوطنين الناندیان.

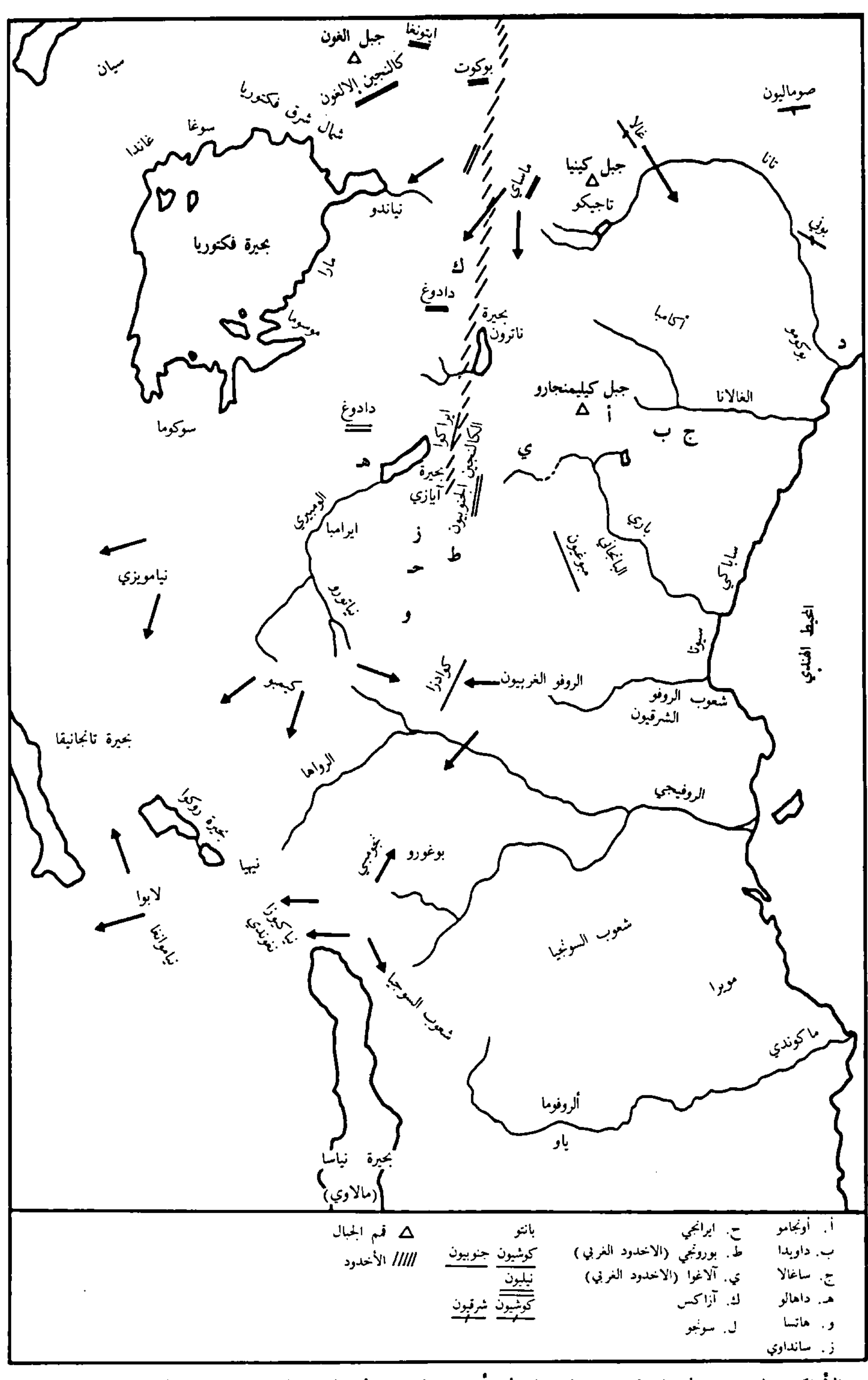
بيد أن التوسّع العرقي الذي تفجّر أكثر من أي توسّع آخر ونتجت عنه أبعد النتائج في المنطقة في تلك الحقبة، كان توسّع الكالنجين الجنوبيين. وكانت مجتمعات كالنجين الجنوب الأصلية تتحرّك في السجف الجنوبي البعيد من توسّعات الكالنجين الأولى. وسرعان ما توسّعوا، جنوبي كينيا الوسطى، نحو الجنوب، على طول السهول إلى الشرق من الحائط الجبلي للأخدود، أول الأمر، ثم إلى شرق مرتفعات الكوندوا، مرورًا بسهوب الماساي. وكان النازحون من كالنجين الجنوب قد استقرّوا، في عام + ١٥٠٠ تقريبًا، في الجنوب إلى حدود بلاد البانتو الروفو الغربيين. واستسلم الدادوغ أمام تقدّم الكالنجين، في منطقة الماساي الوسطى الشمالية، بعد أن كانوا هم المسيطرين على المنطقة. وتمّ، في الماساي الجنوبي، استيعاب الكوادزا أو إبعادهم بدورهم تحت ضغط كالنجين الجنوب. وفي تانزانيا الشمالية، شكّل حائط الأخدود حاجزًا دون توسّعهم، لأن الدادوغ ظلّوا يسيطرون على مناطق اللويتا والنغورونغورو الجبلية، وكذلك على السهول الغربية من السيرينجيتي ومارا، فيما يعتقد على الأقل. وأغلب الظن أنه لم يوضع حد لهيمنة الدادوغ على هذه المناطق إلاّ في القرن السابع عشر، لا على أيدي الكالنجين بل على أيدي الغزاة الماساي.

وفي مرتفعات كوندوا ومبولو لم تؤثّر توسّعات كالنجين الجنوب نحو الشرق، في الكوشيين الجنوبيين بالأخدود الغربي، وكذلك في الايرانجي الأصليين الذين كانوا يؤلّفون أحد مجتمعات البانتو. ولا نعلم غير القليل عن تاريخ شعوب المنطقة فيما بين ١١٠٠ و١٦٠٠ م فيما عدا فئة من سكان الأخدود الغربي الكوشيين، وهي الايراكو. ذلك أنّ توغّل المستوطنين الايراكو في اتجاه الشمال، بمحاذاة حائط الأخدود إلى حد منطقة النزاع بين الدادوغ وكالنجين الجنوب، تدل عليه دلالة واضحة المفردات المستعارة من لغة الايراكو عند السونجو[٢٩]. وكان السونجو، وهم شعب لغته البانتو يتميزون بخاصية فريدة، تتمثّل في أنهم مجموعة كانت متجهة أساسًا إلى الزراعة ومنعزلة وسط الرعاة الدادوغ والكالنجين الجنوبيين، في أراضٍ صغيرة محصورة، كان الري ممكنًا فيها. ويمكن تخيّل المستوطنين الايراكو متنقّلين بحثًا عن ملاجئ مماثلة على طول طرف الأخدود ليعيشوا فيها عيشة مشابهة. وطبقًا لروايات السونجو يمكن أن نحدّد موقعهم، قبل ١٦٠٠ م على أطراف الأخدود تحت مرتفعات اللويتا[٣٠]. وكانت مجموعات الايراكو المنعزلة مجاورة للسونجو من ناحية الجنوب على ما يبدو، ولعلّها كانت تعيش في مواقع شبيهة بالمواقع التي تحتلّها اليوم مجموعات السونجو الحالية، فوق بحيرة ناترون، وعلى الارجح في موقع أنغاروكا الأثري الشهير.

(٢٩) انظر ك. إهريت، ١٩٧٤ (٢)، مجلد ٤، الفصل ٢.
(٣٠) اننا مدينون بهذه الايضاحات لرسالة شخصية من أ. جاكوبس، ١٩٧٦.



• المواقع التقريبية المحتملة لشعوب الداخل في أفريقيا الشرقية في القرن الثاني عشر (ك. إهريت).



• الأماكن التقريبية المحتملة لشعوب الداخل في أفريقيا الشرقية في القرن السادس عشر (ك. إهريت).

وفي الطرف الآخر من إقليم الكالنجين في منطقتي البارونغو وهضبة لايكيبيا ، كان الماساي الأول ينقسمون تدريجيًا ، أثناء هذه الحقبة إلى ثلاثة مجتمعات متميزة هي السامبورو ، والتياموس ، والماساي. ومنذ القرن السادس عشر ، بدأ الماساي وهم أبعد هذه المجتمعات في اتجاه الجنوب ، في شن غارات على اقليم الكالنجين السابق على طول الأخدود في كينيا الوسطى. وحوالي سنة ١٦٠٠ ، كانوا قد انتشروا وهم يتقدّمون نحو الجنوب ، على طول الأخدود إلى حدود تانزانيا الشمالية. ومن ثم أخذوا يهدّدون ، سيطرة الدادوغ وكالنجين في الجنوب.

تحرّكات السكان والتبادلات الثقافية

ومن هذه الصورة المعقّدة للأحداث ، يتكرّر ظهور التحرّكات السكانية بوصفها القوة الدافعة للتغيرات التاريخية التي جدّت داخل كينيا وتانزانيا. بيد أنه من المرجح أن النازحين لم يلجوا قط ، فيما بين ١١٠٠ و١٦٠٠ م ، أراض مقفرة تمامًا. لذلك ، كان التاريخ الذي شاركوا في صنعه تاريخ مجتمعات متصارعة بعضها مع بعض ، كما كان تاريخ مبادلات الأفكار التي نتجت عن ذلك في خلال نشأة مجموعات اجتماعية وسياسية جديدة. وثمة عامل أساسي في تفسير التوسّع ذي الصبغة الخاصة الذي عرفته الأقاليم التي كان سكانها يتكلّمون لغة البانتو ، ألا وهو التطور السريع في استعداد أقوام عدة من البانتو الأول لممارسة الزراعة. وقد كان للاستعدادات التي أظهرها النازحون البانتو للانتقال من استهلاك محاصيل الدرنات والجذور (كالبطاطا) إلى استهلاك الدخن والذرة البيضاء ، اللذين عرفها جيرانهم الكوشيون والنيليون ، أن مكنتهم من الاستقرار بين السكان الأصليين في مناطق شاسعة من تانزانيا الوسطى والغربية ، ثم من استيعابهم تدريجيًا. وكان العامل الذي ساعد على توسّع البانتو في مناطق جبلية عدة من أفريقيا الشمالية الشرقية ، هو قدرتهم على شكل مختلف تمامًا من أشكال التكيّف ، ألا وهو ممارسة الزراعة في الجبل.

وتمثّلت احدى النتائج الجانبية الهامة لقدرة البانتو على التكيّف الزراعي في فتح أراض جديدة لم يكن يحتلّها إلى ذلك الحين سوى مجتمعات كان لا يزال عيشها رهن الجني والصيد. ويحتمل أن أسلوب الحياة الزراعية لم يكن قد أقر ، في مناطق أخرى من غرب تانزانيا أيضًا ، مثل الأقاليم الواقعة شرقي نهر الوامبيري مباشرة ، إلاّ عند قيام مستوطنات التاكاما ، في أثناء الحقبة ما بين ١١٠٠ و١٦٠٠ م ، وهي مستوطنات كانت تمارس فيها زراعة الحبوب. وفي الشمال ، سمحت تقاليد الزراعة الجبلية باستعمال مناطق غابات كانت سابقًا متروكة لممارسي الصيد وجني الثمار ؛ في حين يمكن أن يكون الشاغا لم يضمنوا كثيرًا توسّعهم في مناطق الكيليمنجارو الجبلية ، باحتلالهم مباشرة أراضي سابقيهم بقدر ما ضمنوه باقتطاع جزء من الغابة ، إلى جوار وإلى منسوب أعلى من منافسيهم ، ثم باستيعابهم تدريجيًا.

وإلى جانب هذه التحويلات الثقافية والعرقية الكبرى ، يحتمل أن تكون قد حصلت مبادلات محدودة بين الشعوب من حين إلى آخر في كامل افريقيا الشرقية ، إلاّ أن منطقة واحدة وُجدت فيها ، جنبًا إلى جنب ، فوائض أنواع مختلفة من الإنتاج بلغت من الحجم درجة عجّلت بظهور أسواق حقيقية. وهذه المنطقة هي منطقة جبال كينيا والكيليمنجارو ، حيث كان السكان الجبليون الذين يمارسون زراعة كثيفة ، يعيشون جنبًا إلى جنب مع رعاة يعنون بتربية الماشية بكثافة أيضًا. وكان الفلاّحون والرعاة يتعايشون علاوة

على ذلك ، مع مجموعاتٍ بقيت في مرحلة الصيد والجني[٣١] . وكان الرعاة ينتجون فائضًا من الجلود الخام ، لذلك كان في وسعهم صنع الملابس الجلدية التي كان يرغبها المزارعون الجبليون. وكان سكان المناطق الجبلية ، من ناحيتهم ، يمتلكون الخشب الذي يُستخدَم في صنع أهم الأواني الخشبية الكبيرة كخلايا النحل ومساقي الحيوان ، وكانوا يمارسون ، ضمن نشاطاتهم الفلاّحية ، زراعة القرعيات التي تصنع منها الأواني التي كانت مجتمعات السهول تُقبل عليها إقبالاً شديدًا. وكان سكان الجبال يقومون في فترات السنة التي يقلّ فيها الغذاء بعرض فوائض محاصيلهم على سكان سهول مجاورة لكنها أقل مطرًا من مواطنهم ، مقابل الحصول منهم على ماشيتهم. وأخيرًا ، ربما كان باستطاعة ممارسي الصيد والجني ، بين الحين والآخر ، عرض ما كانت توفّره لهم نشاطاتهم القوتية من فائض من إنتاج العسل والجلود.

ويشكّل توزّع المعادن بكيفية غير متساوية عاملاً آخر. وحتى في غضون القرن السادس عشر ، اندمج الغوينو ، أهالي الباريه الشمالي ، في النظام التجاري الذي كان قائمًا بين السهل والجبل ، نتيجة دورهم بوصفهم منتجين للحديد والآلات الحديدية ومزودين رئيسيين بهذين الصنفين من الإنتاج[٣٢] ، بينما يظهر أن الثاجيكو قد لعبوا دورًا مماثلاً في المناطق المجاورة لجبل كينيا. لكن فيما يخص بقية مناطق كينيا وتانزانيا الداخلية ، سوف لا تشكّل الأسواق ظاهرة ثابتة من ظواهر الحياة الاقتصادية ، إلاّ بعد سنة ١٦٠٠ م بكثير. ومع ذلك فإنها لن تصبح كذلك إلاّ بدافع تأثيرات خارجية أكثر منها محلية.

(٣١) يشكل قدم الألفاظ الدالة على «السوق» في المنطقة علامة مهمة على أقدمية الأسواق ذاتها. وهذه الألفاظ موجودة في لغة ما قبل الثاجيكو ، ولغة الشاغا القديمة ، إن لم يكن في لغة ما قبل الشاغا.

(٣٢) أنظر أ. ن. كيمّامبو ١٩٦٩.

الفصل العشرون

منطقة البحيرات

بقلم ب. أ. أوغوت

يتعيّن على المؤرّخ الذي يأخذ على عاتقه تشخيص تاريخ منطقة البحيرات في افريقيا الشرقية خلال الحقبة الممتدة من بداية القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر، أن يواجه مشكلات كبيرة عديدة.

أولها أن الروايات الشفاهية والمعطيات اللغوية المتعلّقة بهذه الحقبة نادرة، والمعطيات الأثرية غير كافية. فكثيرًا ما تذكر الروايات الشفاهية، مثلاً، شخصيات أسطورية بارزة ذات طابع أبوي تقدّمها بحسب الحالات، على أنها آلهة، أو أجداد القوم جميعًا، أو مؤسّسو عشائر أو مبتدعو بعض الزراعات القوتية (من موز، ودخن، وغيرهما) أو تربية الماشية. وقد نتجت عن حكاية بطولات هذه الشخصيات الأسطورية تقاليد شعبية يصعب تحديد قيمتها التاريخية. لذلك، فليس من المستغرب أن يرى مؤرّخون من أمثال ك. ك. ريجلي، أن أساطير الشويزي، مثلاً، لا تعطي أي معلومات ذات قيمة عن التاريخ القديم المتعلّق بمنطقة البحيرات. فقد قال هذا الكاتب إن التسليم بأن أرواح الشويزي التي تشير إليها الأساطير والممارسات الدينية تمثّل ملوكًا حكموا فعلاً، في القرن الخامس عشر، منطقة البحيرات، يساوي الاعتقاد بأن أودين وفراير قد كانا ملكين على السويد، في سالف الأزمنة، مثلما يدّعيه «الانغلنغا ساغا»[1].

وثانية تلك المشكلات الكبيرة، أن على المؤرّخين المهتمين بهذه المنطقة أن يواجهوا مشكلة التحيّز الخطيرة المتصلة بموضوع العلاقات بين السكان الزراعيين والسكان الرعاة.

ولقد وصف الرعاة، في الكثير من الكتب والمقالات التاريخية، بأنهم غزاة متحضرون أعادوا النظام إلى المناطق التي كانت تسودها الفوضى من قبل. أما الفلاّحون، فيفترض أنهم على عكس ذلك، قد ألّفوا أغلبية صامتة منصاعة، لم تكن أبدًا مصدر أي تقدّم ولم تؤسّس أية دولة. وثمة مثال جيد للغاية من أمثلة الحكم المسبق ينطبق على رواندا: فيرفض كاغاميه، مثلاً، أن يصدّق أن هذه الدولة ربما أخذت

(١) ك. ك. ريجلي، ١٩٧٣، ص ٢١٩ – ٢٣٥؛ ١٩٥٨.

عن الفلاّحين مؤسسة ما ، أو أن بعض « الهوتو » قد يكونون مارسوا سلطة على رعاة نبلاء « حاميين »[٢] . ونأمل أن نبيّن ، في هذا الفصل ، أن نشأة الدول بين المزارعين في هذه المنطقة سابقة لقدوم معظم جموع الرعاة ، كما أن كلتا المجموعتين تعايشتا سلميًا حقبة طويلة إلى أن بدأت الحركة الكبيرة المتمثّلة في تكوين الدول في القرن الخامس عشر ، وهي الحركة التي نتج عنها ، إلى حد بعيد ، نشوء رتب اجتماعية أو طبقات في المنطقة . ومن المهم في هذا الشأن ، التأكيد على أن لفظتي « رعاة » و « مزارعين » ليس لهما هنا مدلول عرقي ، بل انهما تدلاّن على نمطي عيش . وتفيد روايات منطقة البحيرات أن الراعي كان يتحوّل مزارعًا في حالة فقدان قطيعه وعدم قدرته على تعويضه ، بينما كان المزارع يعمل راعيًا عندما يقتني ماشية[٣] . وكانت هذه التغيرات في نمط العيش تتواصل باستمرار في المنطقة ، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات .

ويواجه المؤرّخ الذي يهتم بالمنطقة المعنية مشكلة أخرى وهي المتعلّقة بتحديد الأزمنة التاريخية.فقد قام إخصائيون عديدون ، خلال العشرين سنة الأخيرة ، بالعديد من الدراسات حول تحديد الأزمنة التاريخية عند البانتو والنيليين ، بالاعتماد في آن واحد على مبدأ الأجيال ، وعلى الصلات المتبادلة المعتمدة كمراجع وكذلك على عمليات الكسوف والخسوف الوارد ذكرها في الروايات الشفوية . بيد أن قراءة بمزيد من الانتباه لهذه التآليف الضخمة تبين مع ذلك أن لا وجود لاتفاق عام بشأن التسلسل التاريخي لهذه الدولة أو تلك ولا بخصوص الإطار الزمني المتعلّق بتطوّر منطقة البحيرات بأكملها . من ذلك ، مثلاً ، أن د . ب . هينيغيه[٤] قد شكّك مؤخرًا في صحة تسلسل نسب البيتو في بلاد البونيورو . وتكتسي مشكلة تحديد الأزمنة التاريخية أهمية جوهرية أيضًا في رواندا . فقد أرجع كاغاميه تأسيس دولة رواندا إلى القرن العاشر في مؤلّفه الذي عنوانه « مفهوم الجيل مطبّقًا على التسلسل السلالي وعلى تاريخ رواندا من القرنين العاشر والحادي عشر إلى اليوم ١٩٥٩ » ، حيث بدأ النسب الملكي طبقًا لروايته من ٩٥٩ ، إلاّ أن السبعة الأولين من الملوك الوارد ذكرهم ضمن القائمة التي أعدّها ليسوا ، حسبما ذهب إليه بعض المؤلّفين مثل ج . فانسينا[٥] ، بشخصيات تاريخية (ربما باستثناء جيهانغا) . ففانسينا يرى أن دولة رواندا قد أسّست في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . وحتى إذا نحن توصّلنا إلى حلّ مسألة التسلسل التاريخي لمختلف الدول ، فإنه يبقى علينا أن ندمج هذه التسلسلات التاريخية الخاصة برواندا وجيزاكا ، وبونيورو ، وكيزيبا ، ومبورورو ، وبونغاندا ، وبوزوغا ، ونكوريه ، وكاراغويه ، وايهانجي ايهانجيرو ، وكياموتوارا ، وبوزينزا ، وسوكوما ، كي نتمكّن من ضبط تسلسل عام للأحداث التاريخية يغطي كامل الحقبة التي تهمّنا . غير أن هذه المهمة من أشق الأعمال .

ويرجع آخر ما يلقاه المؤرّخ من المشكلات إلى أن جلّ التواريخ التي نُشرت ، إلى عهد قريب ، قد كان مركّزًا على دراسة الملوك وبلاطاتهم[٦] : فقد كانت هذه التواريخ تتناول بالبحث نشأة الدول المركّزة في منطقة البحيرات ونموها ، معتمدة كأساس لها في ذلك الروايات الشفوية الخاصة بالبلاطات . وهذه

---

(٢) أ . كاغاميه ، ١٩٥٥ ، ص ١١٢ .

(٣) س . ر . كاروجيريه ، ١٩٧١ .

(٤) د . ب . هينيغيه ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧ – ٤٦ .

(٥) ج . أ . فانسينا ، ١٩٦٢ .

(٦) أ . كاغاميه ، ١٩٥٩ ، ويعطي تسلسل النسب الملكي كالآتي : جيهانغا الأول (٩٥٩ – ٩٩٢) . وغاهيمَا الأول (٩٩٢–١٠٢٥) وموزيندى (١٠٢٥–١٠٥٨) ، روميزا (١٠٥٨–١٠٩١) ، نياروميه (١٠٩١–١١٢٤) ، وروكوجيه (١١٢٤–١١٥٧) ، وروباندا (١١٥٧– ١١٨٠) .

الحالة تنطبق ، إلى حد بعيد ، مثلاً ، على مؤلّفات باجيس ، ولاكجير ، وكاغاميه ، المخصّصة لرواندا . فمثل هذه التآليف التاريخية ذات بعد محدود بالضرورة ، وبخاصة فيما يتعلّق بقطاعات المجتمع الأخرى .
وبعد أن أشرنا إلى المشاكل الرئيسية ، سننتقل إلى تاريخ هذه المنطقة . وسنقسمه ، تيسيرًا للأمور ، إلى أربعة أقسام: القسم الخاص بتجمع كيتارا، والقسم الخاص بتجمّع كينتو ، والقسم الخاص بتجمّع روهيندا ، والقسم الخاص بتجمّع رواندا. وكلمة «تجمّع» مستعملة للإشارة في الآن نفسه إلى التعدّد العرقي الذي تتّسم به طبيعة المنطقة وإلى تلاقي التقاليد الثقافية التي يتكوّن منها تاريخها. لكن التجمّعات الأربعة مترابطة ، بعضها ببعض ومتحدة في إطار تاريخ المنطقة العام في آن واحد.

تجمّع كيتارا

لقد كان تاريخ تجمّع كيتارا، الذي يغطي جغرافيًا الجزء الأكبر من أقاليم البونيورو الحالية ومن بلاد التورو ، وكذلك الأجزاء المجاورة من اقطار الأنكويه ، والموبنديه وبوغندا ، موضوع دراسة أعدّتها مؤخرًا ك. أ. بوكانان[٧] . ولا شك أن الأمر يتعلّق هنا بأقدم نظام دولة في منطقة البحيرات ، يتصوّر تاريخه عامة تبعًا لوصول ثلاثة جموع من الغزاة ، هم الباتمبوزي ، والباتشويزي ، والبابيتو. ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التصوّر التاريخي الذي يعكس ، إلى حد بعيد تقسيم تاريخ تجمّع كيتارا إلى ثلاث مراحل ، يترك جانبًا ، بصورة معبّرة جدًا ، البانتو الذين تسود لغاتهم المنطقة. فهل ينبغي أن يُستنتج من ذلك أن هذه الأغلبية من المتكلّمين بالبانتو قد اكتفت بمراقبة التاريخ بدون أن تساهم فيه أبدًا؟
لا بدّ للإجابة على هذا السؤال ، من أن نتذكّر أن وصول أغلبية البانتو قد سبق وصول الجموع الثلاثة من الغزاة. وتضع ك. أ. بوكانان كمبدأ أن البعض من أقدم الهجرات المعروفة نحو تجمّع كيتارا يرجع عهدها إلى ما بين ٧٢٢ و ١٢٠٠ م. ولا شك أن العشائر الأولى التي استقرّت في هذه المنطقة كانت أصلاً من السودان الأوسط ، وأنها كانت بالتالي قادمة من الشمال أو من الشمال الغربي[٨] . ولئن اختلف الإخصائيون بشأن التاريخ القديم لسكان السودان الأوسط ، فإن المعطيات اللغوية توحي بأن وجودهم في المنطقة كان سابقًا لقدوم البانتو الأول. وإذا كان الأمر كذلك فهذا معناه، مع الأخذ في الاعتبار المعطيات الأثرية ، أنهم كانوا مستقرّين قبل القرن الرابع من العصر الحالي[٩] . ويبدو أن العشائر الأولى التي لغتها البانتو قدمت من غرب بحيرة موبوتو (بحيرة البيرت) وتفرّقت عبر كامل المنطقة جنوب النيل. وكانت ، حسب التقاليد الشفوية ، منصرفة أساسًا إلى الفلاحة – زراعة الإيلوزين والذرة البيضاء – لكن البعض منها كان يملك الماشية.
ونظرًا إلى أن الفخار المتميّز بقاعدة مجوّفة ، والذي قرن بوجود أقوام لغتهم البانتو[١٠] ، غير موجود في أقدم طبقات كيبيرو (الذي يرجع عهدها إلى القرن العاشر تقريبًا) ، فإن بوكانان تعتقد أن هجرات البانتو

(٧) ك. أ. بوكانان ، ١٩٧٤ .
(٨) ك. إهريت ، ١٩٧٤ ، ص ٨.
(٩) ك. إهريت ، ١٩٦٧ ، ص ٣؛ وج. أ. سوتون ، ١٩٧٢ ، ص ١١ – ٢٣.
(١٠) س. بيرس ، وم. بوسنانسكي ، في *UJ* . مجلد ٢٧ ، ١٩٦٣ ، ص ٨٥ – ٩٤؛ س. شابمان ، ١٩٦٧ في «أزانيا» ، مجلد ٢ ، ص ١٦٥ – ١٩١.

الأولى إلى منطقة البحيرات قد حدثت في القرنين العاشر والحادي عشر. وساهم البعض من هذه العشائر البانتو فيما بعد في تكوين دول زراعية صغيرة، ترجع بوكانان عهده إلى زمن باتمبوزي في تاريخ كيتارا، وتقدّر أنه حصل فيما بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر [١١]. وإذا كانت محقّة فيما ذهبت إليه، فإن هذا يُعتبر بمثابة جواب عن السؤال الذي طرحناه فيما سبق بشأن دور الأقوام التي لغتها البانتو في تاريخ المنطقة: وفعلاً، قد لا نكون حينئذ، على الأقل في الحالة الخاصة بالباتمبوزي، إزاء أقوام رعاة مهاجرين، بل أمام أقدم مجموعات البانتو في المنطقة.

وتشكّل رسالة بوكانان أول دراسة جادة لفترة ما قبل الباتشويزي. وكان المؤرّخون وغيرهم من الإخصائيين يسمون، إلى ذلك الحين، عهد الباتمبوزي «عهد حكم الآلهة». ويعتبرون هؤلاء القوم أسطوريين أكثر منهم تاريخيين. ويبلغ عدد «الأباكاما أبا تمبوزي» أو «الملوك الرواد»، حسب روايات الكينيورو [١٢]، تسعة عشر ملكًا، بينما تذكر منهم روايات النكوريه أربعة فقط لا يطلق عليهم أي اسم جماعي. وقد كان البعض من هؤلاء الملوك مثل هانجي، وكازوبا، ونياموهانغا، الخ... يمثّلون أرواح أسلاف كان الباتشويزي يقيمون الطقوس إجلالاً لها. ولم تتمكّن بوكانان من تبديد الظلمة الكثيفة التي كانت تحيط بالباتمبوزي إلاّ بتقليلها من الاهتمام بتقاليد البلاط واتّباعها نهجًا آخر يخصّص مكانًا أهم لتاريخ العشائر. ويتمثّل أحد الكيانات السياسية الأكثر قدمًا، الذي حقّقت هويته، في مشيخة بوغنغايزي، التي أسّستها عشيرة الباغابو، وهي عشيرة تصنّفها الروايات ضمن الباتمبوزي، وكان مؤسّسها هانجي. ويمثّل الباياغا – الذين كانوا يسمون في الأصل البازيهيه – عشيرة أخرى سابقة للباتشويزي كانت بلا شك قد نزحت من وادي السمليكي حوالى الفترة نفسها. وتقرنهم رواياتهم بوصول الماشية (لم يكن الأمر يتعلّق على الارجح بحيوانات طويلة القرون) إلى المنطقة وبموقع ملاّحات كيبيرو، على بحيرة موبوتو. وثمة عشيرة أخرى هي عشيرة البازيتا، يبدو أنه كان لتفوّقها أساس اقتصادي، وهي احدى العشائر الأكثر عددًا في منطقة البحيرات، والبازيتا ملحقون بزيتا، مؤسّس احدى عشائر البوجيزو، وبعشيرة أبنديغا (كبش) الموجودة في بوغندا وبوسوغا، وبالباسواغا الموجودين في باكونجو وبالبياباشيتا الموجودين في كيباليه، وهم يحتلّون مكانًا معتبرًا في روايات دول النكوريه، والكيزيبا والبوهايا، حيث يقرنون بشكل من أشكال المشيخات أقدم من غيره ويسبقون الباهندا.

ويبدو أن استيلاءهم على الحكم وتفرّقهم عبر منطقة شاسعة جدًا ناتجان، حسب رواياتهم، عن معرفتهم بصناعة الحديد. ويُستفاد من التقاليد أن كلمة «مباليه» أو «كباليه» وهي اسم مكان يصادف في بلاد الموانجيه، والبوجيزو (في أوغندا)، وفي شمال غرب تانزانيا وغرب كينيا، مرتبطة في الروايات التقليدية بمستقرات البازيتا.

وكان يوجد حوالي سنة + ١٢٥٠، عدد من مشيخات البانتو الصغيرة، شرقي جبال الروينزوري، تستمد أصلها من أصل باتمبوزي البوغنغايزي، أو هي أُنشئت على غراره. من ذلك مثلاً أنه كانت توجد، حسب ف. لوابجيرا، مجتمعات عدة أخرى لغتها البانتو، في العهد الذي كان يعيش فيه ملك كيزيبا الأول (١٢٣٦ – ١٢٦٣ م) [١٣]، وكانت هذه المجتمعات منظمة في شكل كيانات سياسية

---

(١١) ج. نياكاتورا، ١٩٤٧، يقترح جدول تسلسل الأنساب الذي وضعه، تاريخي ٨٦٩ – ٨٩٦ للباتمبوزي الأول، وتاريخي ١٣٠١–١٣٢٨ للأخير وهو إيسازا.

(١٢) ج. نياكاتورا، ١٩٤٧، ص ٦ – ٦٥.

(١٣) ف. لوابجيرا، ١٩٤٩، ص ٦٥.

أصغر، كمجتمعات الأنساب والعشائر.

ويقيم تاريخ عشيرة البارنزي صلة بين الباتمبوزي، وسلالة الباتشويزي، التالية لها في الحكم ضمن تجمّع كيتارا. وقد كان بوكوكو مؤسّس العشيرة، حسبما جاء في روايات الكينيورو الشفوية، موظفًا من عامة الناس في بلاط إيسازا (١٣٠١ – ١٣٢٨ م. تقريبًا)، آخر الملوك الروّاد. والمفروض أنه خلف إيسازا، كما أنه معتبر في الوقت نفسه جد نداهورا (١٣٤٤ – ١٣٧١ تقريبًا)، العاهل العظيم لعهد الباتشويزي. وكانت العشيرة في حد ذاتها متّخذة لنفسها طوطمين هما الجرادة والزبادة (القط الوحشي)، وكانت منطقة بوزنغورا في الغرب هي منشؤها على الأرجح. ويلعب هذان الطوطمان، كما سنرى فيما بعد، دورًا هامًا في تاريخ بوسوغا باعتبارهما اسمين لمجموعات يرجع عهدها إلى زمن ما قبل الكينتو وبالتالي ما قبل الباتشويزي، هاجرت إلى الشرق عبر السفانا إلى أن بلغت شواطئ بحيرة فكتوريا.

ويسمح بوكوكو الذي كان مزارعًا، مثلما بيّنا ذلك، بإقامة صلة قرابة بين الملوك الروّاد والباتشويزي. وكان أب نداهورا بالتبنّي، حسب روايات البونيورو والنكوريه[١٤]، فاخوريا، عضوًا في عشيرة الباكوبي، ومن ثم الاسم الآخر الذي كان يُطلق على نداهورا، وهو كاروبومبي (من «موبومبي»، أي فاخوري). وربما كان الغرض من هذه الروايات التقليدية إقرار شرعية وضع بوكوكو، الرجل العامي الذي اكتسب شهرة كبيرة. بيد أن أمثال هذه الروايات شائعة جدًا في البلاد وهي تدل على أن نشأة الدول المركزية في منطقة البحيرات ونموها لم يكونا فقط من نتاج ارستقراطيات رعوية قدمت من الخارج. بل قد يعطينا تأثير عوامل داخلية مختلفة بما فيها بعض المبادرات المحلية نظرية أكثر إقناعًا. وعندما اعتلى باكوكو عرش إيسازا، اصطدم بمعارضة رؤساء عديدين لم يكونوا على استعداد للخضوع لسلطة رجل من عامة الشعب. وقد سحق باكوكو هذا التمرّد، إلاّ أن السخط عمّ ومكّن نداهورا من الاستيلاء على التاج ومن تأسيس أسرة الباتشويزي الحاكمة.

وتتفق روايات البونيورو والنكوريه على القول بأن هذه الأسرة المالكة قد اشتملت على ملكين، هما نداهورا ووامارا، ووصي على العرش، هو موريندوا (الذي كان يتولّى الوصاية على العرش أثناء قيام أخيه نداهورا بحملاته الحربية). وعلى الرغم من هذا الإجماع حول أسماء الملوك، ومن وجود تآليف ضخمة بشأن أسرة الباتشويزي الحاكمة، فإن المؤرّخين لم يتّفقوا بعد بخصوص القيمة التي ينبغي إضفاؤها على التآليف المذكورة. فهذا هو هنتينغفورد يشير إلى أن الباتشويزي ربما كانوا من أصل «حامي» وأن لهم صلة قرابة بالسيداما الموجودين جنوب غربي اثيوبيا[١٥]. فيما يعتقد أوليفر أن الباتشويزي وُجدوا تاريخيًا: فهو يرى أنه «يبدو، على العموم، أن مملكة غاندا في تشوا كانت بلا شك هي مملكة التشويزي، وأن البلاد التي احتلّها البيتو كانت بعد تشكّل... كيانًا سياسيًا وحيدًا خاضعًا لسيطرة الرعاة الهيما تحت رعاية ملوك عشيرة التشويزي»[١٦]. وكان كراتسولارا قد أكّد، في زمن متقدّم، كحقيقة لا ريب فيها، أن الباتشويزي والباهيما كانوا يؤلّفون شعبًا واحدًا لا غير وأن المجموعتين كانتا من قوم اللوو[١٧]. ويقبل بوسنانسكي، في ضوء المعطيات الأثرية، أن الرعاة الباتشويزي وُجدوا تاريخيًا، وارتباطهم المتبادل بثقافة البيغو، التي يحدّد فترتها التاريخية فيما بين ١٣٥٠ و ١٥٠٠ م. بل يذهب إلى

---

(١٤) ج. نياكاتورا، ١٩٤٧.

(١٥) ج. و. هنتينغفورد، ١٩٦٣، ص ٨٦.

(١٦) ر. أوليفر، ١٩٦٣، مجلد ١، ص ١٨١ – ١٨٢.

(١٧) ف. كراتسولارا، ١٩٥١، مجلد ٢، ص ٩٤ – ٩٧، ١٠٢ – ١٠٣.

أبعد من ذلك فيجعل من بيغو عاصمة مملكة رعاة كانت تقع في بوغندا الغربية فيما بين ١٣٥٠ و ١٥٠٠[١٨].

وفي حين يقبل جميع هؤلاء المؤلّفين تاريخية الباتشويزي لاّ يزال ريجلاي هو الوحيد تقريبًا الذي يصر على أن الأمر لا يعدو أن يتعلّق «ببانتيون (مجمع آلهة) مألوف، يضم مجموعة من الآلهة الملقّبة، المفردة، المتصوّرة كمجموعة قرابة رائعة، والمقرونة غالبًا بأكثر الظواهر الطبيعية والقوى بروزًا»[١٩].

ونحن نقبل، في هذا الفصل، تاريخية الباتشويزي. لذا سنعرض الأحداث الرئيسية التي جدّت في تجمّع كيتارا من ١٣٥٠ إلى ١٥٠٠ م معتبرينها مظهرًا من تاريخ افريقيا الشرقية لا من ميثولوجيتها وأساطيرها.

وتوجد نظريتان كبيرتان بخصوص هذه الأحداث. فبعض المؤرّخين من أمثال أوليفر يؤكّدون أن امبراطورية الباتشويزي أسّست في اثر غارة شنّها الرعاة الباهيما، لكنهم لا يتّفقون على المنشأ الصحيح لهؤلاء الباهيما: فقد كان يعتقد في سالف الزمان أنهم جاءوا من الشمال الشرقي، ربما من جنوب اثيوبيا، إلاّ أن العديدين من ممثلي هذه المدرسة صرّحوا مؤخرًا بأنهم قد يكونون قدموا على الأرجح من الجنوب.

وفي دراسة للتأثير الثقافي الذي مارسه الكوشيون الجنوبيون في منطقة البحيرات كتب ك. إهريت ما يلي: «إن استمرار الكوشيين الجنوبيين إلى زمن متأخّر في القيام بدور هام بصفتهم رعاة في الشطر الجنوبي من منطقة البحيرات، يحمل على إبداء فرضية مثيرة، وهي أن ثقافة الرعاة التوتسي والهيما في العصر الحديث التي لها أهمية خاصة في هذه المنطقة ذاتها، قد تستمدّ منشأها من منشأ الكوشيين الجنوبيين، ولذلك فقد يكونون قدموا على الأرجح من الشرق لا من الشمال»[٢٠]. ويعتبر تسلّل الباهيما إلى المنطقة قد حصل في القرن الثالث عشر وفي بداية القرن الرابع عشر، وتبع ذلك فترة عدم استقرار شكّل خلالها الباهيما وحلفاؤهم من بين السكان الأوائل، تدريجيًا، ارستقراطية بالنسبة إلى السكان الفلاّحين، وأقاموا، في بداية القرن الرابع عشر، دولة قليلة التماسك. أما النظرية الأخرى، التي تجد قبولاً متزايدًا فهي تزعم أن الباتشويزي كانوا قادة محليين فرضوا أنفسهم تبعًا لتغيرات اقتصادية وديموغرافية كانت جارية في منطقة البحيرات. ومن الثابت أن أمبراطورية كيتارا أسّسها نداهورا (١٣٤٤ – ١٣٧١ م تقريبًا)، وهو ملك محارب كبير، بسط سلطانه، انطلاقًا من مشيخة بوغنغازي الصغيرة على منطقة شاسعة تضمّ البونيورو، وغربي بوغندا، وتورو، وشمال الكيجيزي، وجزر السيسيه، والانكوليه، والكيزيبا، والكاراغويه، وقسمًا من شمال شرقي رواندا وقسمًا من كينيا الغربية. ولما لم يكن يملك من الموارد العسكرية والإدارية ولا من وسائل الاتصال السريعة ما يلزم لإقامة دولة مركّزة في منطقة هي على هذا القدر من الاتساع فقد كان يعتمد على نواب له يبعث بهم إلى مختلف الأقاليم. وكانت أهم الثروات الاقتصادية لهذه الامبراطورية ذات التنظيم السقيم تتمثّل على ما يبدو، في الملح والماشية والحديد.

وقد وقع الملك نداهورا، الذي غالبًا ما كان يقود جيشه الخاص، أسيرًا أثناء غزوة للايهانجيرو، في بوكويا، نتيجة هلع انتاب قواته من جراء كسوف شمسي. وعندما أُطلق سراحه، فضّل الهجرة إلى الغرب على العودة إلى موانجيه، عاصمته، كملكًا فاقدًا لاعتباره. ولا نعرف مصيره فيما بعد.

وخلفه ابنه وامارا (١٣٧١ – ١٣٩٨ تقريبًا) الذي نقل عاصمته لأسباب تتصل بالأمن من موانجيه

(١٨) م. بوسنانسكي، ١٩٦٦، في *UJ*، المجلد ٣٠، ص ٤ – ٥.
(١٩) ك. ك. ريجلي، ١٩٧٣، في «افريكا»، المجلد ٤٣، ص ٢٢٦.
(٢٠) ك. إهريت، ١٩٧٤ (٣)، ص ١١.

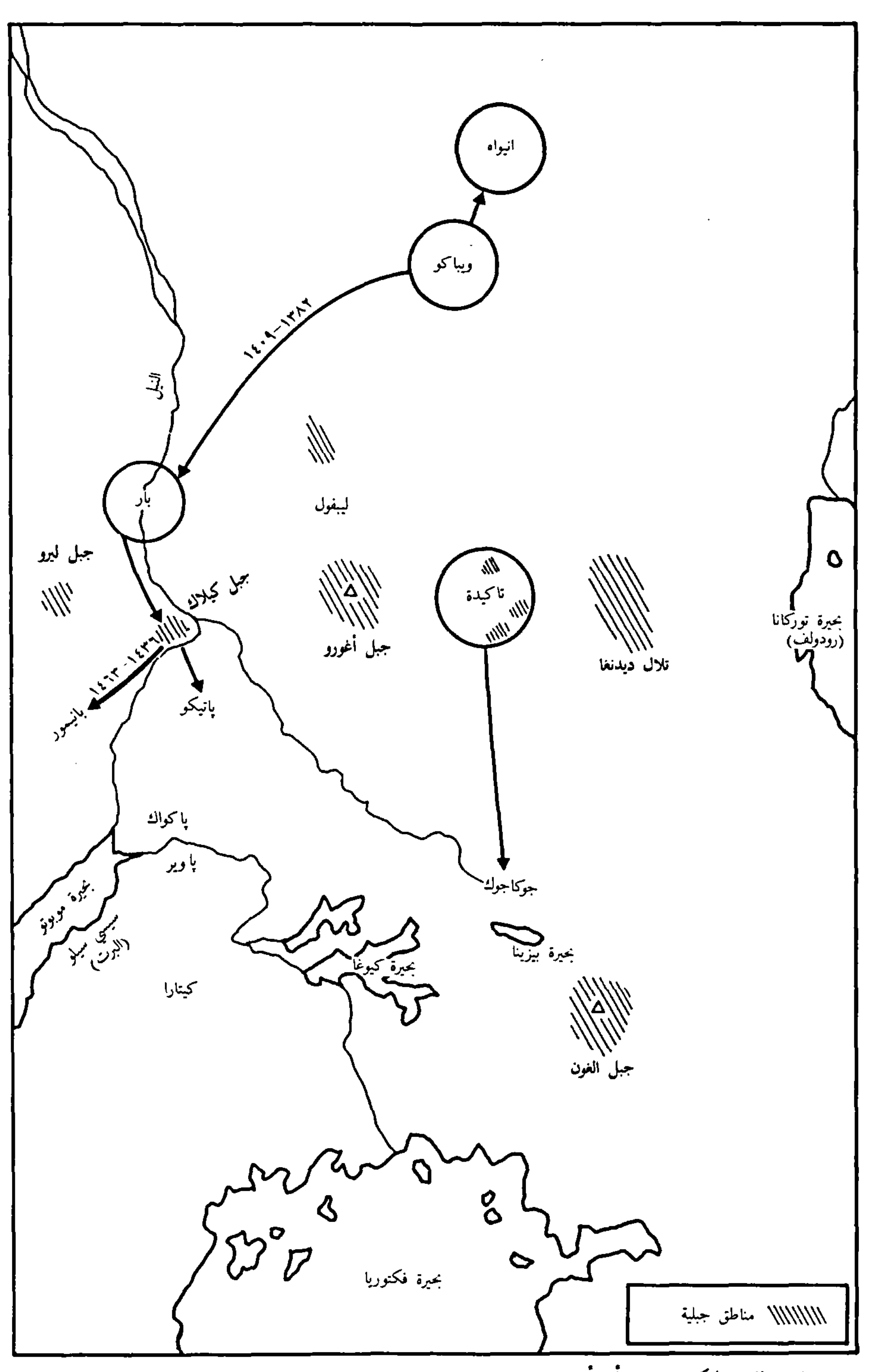
إلى بويرا. وكان عهد وامارا مضطربًا هو الآخر ، بل كان أكثر اضطرابًا من عهد أبيه ، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى توافد جموع عديدة من النازحين ، كان يوجد من بينهم قوم الجو – أوما ، (البهيا) الذي يرجع أصل معظمهم إلى منطقة جبال أغورو ، والعشائر المتكلّمة بلغة البانتو التي قدمت من الشرق والتي تقرن « بتجمّع كينتو » الذي سنعرض له فيما بعد ، والغزاة الذين قدموا من الجنوب والذين كانوا بلا شك يمثّلون عناصر متقدّمة من عشيرة الباشمبو ، وختامًا اللوو الذين بدأوا يتسلّلون إلى كيتارا انطلاقًا من شمال النيل. ولم يتوصّل الأخصائيون بعد إلى أن يثبتوا إثبات اليقين إن كان أصل الجو – أوما من اللوو أو من الباهيما ، ولو أنه يبدو أن الأبحاث الأخيرة التي قام بها ج. ب. ويبستر وفريقه في ماكيريريه ترجح الفرضية الثانية[٢١] . ومهما يكن من أمر ، فإن النقطة التي يجدر بنا تأكيدها هي الآتية : ان الباتشويزي ، حسب التصوّر التاريخي الذي نورد لمحة منه هنا ، لم يكن أصلهم من الباهيما ولا من اللوو ، بل كانوا يؤلّفون ارستقراطية أصلها من البانتو ظهرت في المنطقة الغربية من أوغندا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وفي اثر قدوم الرعاة الباهيما (سواء من الشمال فحسب ، أو من الشمال والجنوب معًا) واللوو في عهد آخر ملوك الباتشويزي ، أصبحت هذه الامبراطورية القليلة التماسك متعدّدة الأعراق ومتعدّدة اللغات. فتفاقمت عندئذ توتّرات داخلية ناتجة عن مشاكل كانت وليدة الإدماج السياسي ، وأدّت بها إلى الانهيار. وكان الملك وامارا قد حاول الحصول على مساندة القادمين الجدد بإسناد مناصب سياسية هامة إليهم : وهكذا كلّف ميراميرا ، من عشيرة الباشمبو ، وروغو وكينيونيي ، من عشيرة الباليزا بتمثيله في المناطق المجاورة لبحيرة مازيورو وهي المناطق التي أصبحت فيما بعد تسمى الكيتاغويندا ، والبوزيمبا ، والبوهويجو. وقد عهد إلى روهيندا (من قوم الموهيما) بالعناية بالقطعان الملكية ؛ وأصبح نونو (من عشيرة البازيتا) قائدًا مساعدًا لكاراغويه ، وكاغورو (من اللوو) قائدًا أعلى للجيوش ؛ وختامًا أبرم وامارا تحالفًا بالدم مع كانتو زعيم عشائر البانتو القادمة من الشرق. بيد أن المجتمعات النازحة اعتبرت هذه التدابير بمثابة علامات ضعف ، وسلكت بعد قليل مسلك الرعايا الصعاب المراس. ونتج عن مجاعة كبرى حلّت بالقوم آنذاك وتبعها وباء ألمّ بالماشية في كامل الأمبراطورية ، أن عم الغضب. فانتهز كاغورو ، القائد الأعلى لجيوش وامارا ، هذه الفرصة لينظّم انقلابًا سياسيًا ضد الباتشويزي ، الذين ذُبحوا بدون شفقة وأُلقي بجثثهم في الماء. وهكذا أُبيدت ارستقراطية الباتشويزي ، التي لا شك أنها لم تكن كثيرة العدد أو « اختفت » مثلما جاء في الروايات الشفوية. وبذلك كانت نهاية أمبراطورية الباتشويزي ، التي حلّ محلها تجمّعان من الدول ، هما تجمّع دول اللوو – لابيتو بمناطق بونيورو كيتارا ، وكيتاغويندا ، وكيزيبا ، وفيما أبعد من ذلك جنوبًا ، تجمّع دول الباهيندا (باهيما) بمناطق كاراغويه ، ونكوريه ، وكياموتوارا ، والايهانجيرو وربما جيزاكا.

أدى إذًا سقوط أمبراطورية الباتشويزي إلى صراع مستميت بين اللوو والباهيما (البابيتو والباهيندا) ، الذين كانوا يتنازعون السلطة السياسية في المنطقة ، وينبغي أن يدرس تاريخ الدول التي تعاقبت في المنطقة على امتداد القرون الثلاثة التالية في سيق هذا الصراع من أجل الهيمنة السياسية.

وفيما يخص أولاً دول اللوو ، فمن المهم التأكيد جيدًا على أن التطور التاريخي لأوغندا الغربية لا يمكن – حسب رأينا – أن يفسر ، ببساطة ، بنظرية تعتبر الموجات المتعاقبة من الرعاة الذين غزوا هذه الأقطار ، بمثابة الأشعة الناقلة للحضارة[٢٢] . لقد قدم اللوو الأولون إلى كيتارا في عهد ملك وامارا ، مثلما

(٢١) ج. ب. ويبستر ، ١٩٧٨.

(٢٢) أنظر ر. أوليفر ، ١٩٦٣ ، ص ١٨٠ ؛ ب. أ. أوغوت ، ١٩٦٧ ، ص ٤٦–٤٧ ؛ م. بوسنانسكي ، ١٩٦٦ ، في *UJ* ، مجلد ٣٠ ، ص ٥.



• هجرات اللوو المبكرة (ب. أ. أوغوت).

بينّا ذلك آنفًا ، لكنهم كانوا قد بدأوا يتفرّقون ، قبل هذا العهد انطلاقًا من موطنهم الأصلي الواقع على الأرجح جنوب السودان. فقد بقي اللوو الشماليون على ما يبدو ، في هذه المنطقة ، فيما كان اللوو الوسطيون والجنوبيون يتوجّهون جنوبًا نحو جبال الأغورو. وتحمل دراسة للهجات اللوو ، من حيث تطوّر النطق ، على الاعتقاد بأن هذا الانفصال قد حصل فيما بين ٦٧٠ و ١٠٧٠ م[٢٣]. وتبيّن الروايات الشفوية أن توسّع الأقوام التي لغتها اللوو وتشتتها تدريجيًا قد تواصلا أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وهذه التواريخ تؤيّدها معطيات لغوية يمكن أن نستنتج منها أن اللوو الوسطيين الأصليين والجنوبيين قد انفصلوا فيما بين ١١٧٠ و ١٤٧٠ م ، تقريبًا[٢٤]. وفي نهاية القرن الرابع عشر ، كانت قد تكوّنت أربعة مجتمعات لوو : كان أحدها يعيش قرب جبال الاغورو ، وآخر على طول مجرى نهر النيل من شمال بحيرة موبوتو إلى مثلّث باكواك ، وثالث بين نيموليه وشامبيه (بآر) ، بينما كان أسلاف الجوكا – جوك مستقرّين في مكان ما جنوبي جبال الاغورو. وتزعم روايات اللوو أن هؤلاء القوم (اللوو) وجدوا جماعات عديدة من غير اللوو في منطقة جبال الاغورو : واستقرّوا خاصة بين قوم المورو ، وأصبح الزواج المختلط يتكرّر بكثرة ، وتولّدت عن هؤلاء السكان ذوي الدم المختلط مجموعتا الجوكا – جوك[٢٥] ، والباوير – باكواك اللتان استقرّتا في مكان آخر. والتحق قوم الجو – أوما (باهيما) بعد ذلك ، فيما بين ١٣٢٠ و ١٣٦٠ م ، تقريبًا ، بالأقوام المتكلّمين بلغة اللوو الذين كانوا قد بقوا في مناطق جبال الأغورو. وكان اللوو ، في ذلك العهد يمارسون أساسًا الصيد والزراعة ، ويبدو أن الرعاة الباهيما هم الذين علّموهم ممارسة تربية الماشية. وأصاب وباء حيواني الماشية في المنطقة فأدّى ذلك بعدد من هؤلاء الرعاة إلى الهجرة فيما بعد. وقد عبروا النيل للالتحاق بامبراطورية الباتشويزي في عهد الملك وامارا ، مثلما رأينا سابقًا. أما الذين بقوا منهم في نفس المكان ، فقد أدمجتهم الأقوام المتكلّمة باللوو في صلبها ، وكانت هذه الأقوام قد أنشأت ، بقيادة الملك أويني[٢٦] (١٤٠٩ – ١٤٣٦) ، دولة تكيدي ، وهي من أقدم دول اللوو. وتقول روايات اللوو إن أويني تزوّج نياتوورو ، وهي فتاة من عشيرة الباهيما ، (موهيما) ، أنجبت له ابنًا هو روكيدي. وعندما كبر الابن ، قطع صلته بأبيه وهاجر مع أتباعه إلى باكواك. وبعد انقلاب كاغورو ، دعاه النازحون اللوو الذين كانوا قد استقرّوا قبل ذلك في المنطقة إلى تولي الزعامة في كيتارا. واتّخذ هو وأنصاره لأنفسهم اسم بابيتو ، وأسّس سلالة البابيتو الجديدة الحاكمة في كيتارا (١٤٣٦ – ١٤٦٣ تقريبًا) ، كما سنذكره فيما سيأتي. وتبيّن هذه الروايات المتصلة بتاريخ تاكيدي أنه كان من العسير للغاية معرفة من كان من اللوو ومن كان من الباهيما ، نظرًا إلى تهجين السكان. ولا شك أن هذا السبب هو الذي جعل كراتسولارا ، مثلاً ، يطلق اسم اللوو على هؤلاء الباهيما المتكلّمين باللوو.

وفيما وراء ذلك شمالاً ، كان اقليم البآر يشهد اندماجًا عرقيًا مماثلاً بين اللوو والمادي. ومن هذه البوتقة التاريخية ، برز الباتيكو ، والنيمور ، والباديبيه ، والأتياك أو الكوونغ ، والكوك ، والباغايا ، الخ... ، وقد لعبت هذه الأقوام دورًا هامًا في تاريخ الجزء الشمالي من المنطقة. ونحن نعرف مثلاً أن الباتيكو هاجروا ، بقيادة لابونغو وهو من منطقة الباري – بآر ، إلى مثلث باكواك ، في اتجاه النيل. ورافق البعض

(٢٣) ب. بلاونت ، و ر. ت. كرلاي ، ١٩٧٠ ، في *JAL* ، مجلد ٩ ، ص ١–١٨. لا أجهل طبعًا ، أن الكثيرين من علماء اللغويات يرفضون اليوم الجلوتو كرونولوجيا (علم تحديد الأزمنة في اللغات).

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) ب. أ. أوغوت ، ١٩٦٧. كان الجوكا – جوك يعيشون في غرب كينيا في نهاية القرن الخامس عشر.

(٢٦) أنظر ك. بوكانان ، ١٩٧٣ ، ص ١٨١.

منهم روكيدي إلى كيتارا ، وكان من ضمنهم أعضاء عشيرة أخرى اسمها الأنيواجي (أنيواه). ونعلم أيضًا أن الباكوونغا (وهم أساسًا من السودان الأوسط) ، وكذلك الباكوا والباغايا (وهما عشيرتان أصلهما من لوو الشمال) ، قد هاجروا إلى الجنوب والتحقوا بامبراطورية كيتارا. ويبدو أن ذلك قد حصل ، حسب رأي بوكانان ، قبل روكيدي بجيل على أقل تقدير [٢٧] . لذا ينبغي التخلي عن الفكرة القائلة باحتلال جيش من اللوو أمبراطورية كيتارا. وقد تابعت جماعات صغيرة امتدادها نحو الشمال (السودان) ، ونحو الغرب (الزائير) ، ونحو الشرق (اثيوبيا) ونحو الجنوب (كيتارا وبوكيدي ، وكينيا الغربية).

وتبيّن روايات البونيورو ، والكيزيبا ، والنكوريه ، والكاراغويه ، بوضوح أنه كان أسهل على البابيتو والباهيندا أن يطيحوا بوامارا من أن يسيطروا على أمبراطوريته. وقد اختلق القادة الجدد أسطورة اختفاء الباتشويزي ونشروها وحاولوا أيضًا إقرار شرعية حكمهم بادّعاء أواصر قرابة لهم بهؤلاء ، إلاّ أن هذه الدعاية لم تفلح لسوء الحظ ، في إقناع رعاياهم. وحاول كل من القادة الذين نصبهم الباتشويزي السيطرة على قطاعه : فقد توصّلت عشيرة الباريزا الملكية ، مثلاً ، إلى إنشاء مشيخات مستقلة في بازيمبا وفي بوهويجو [٢٨] . وحافظت عشيرة اللوو الملكية في باوير ، على استقلالها السياسي ، إلى جانب بقائها في فلك البونيورو – كيتارا. وقد وجب فرض سلطة اللوو والباهيما في كل مكان آخر بالقوة والحيلة معًا.

وفي الكيزيبا ، مثلاً ، تواصل الصراع طيلة ما يزيد على جيل قبل أن ينجح كيبي (١٤١٧ – ١٤٤٤ تقريبًا) وهو صياد من اللوو ، في فرض سيطرة اللوو. وقد حصل ، بفضل مناورات سياسية وتوزيعات سخية للحوم الطرائد ، على تأييد عشائر عديدة هامة كالباغايا ، وهي العشيرة الملكية القديمة من عشائر الباتمبوزي ، والبازيتا والبارنزي [٢٩] ، ودام الصراع مدة أطول من ذلك في البونيورو – كيتارا. وعجز كاغورو على الرغم من نجاح انقلابه السياسي ، عن توحيد اللوو ، فضلاً عن توحيد الدولة بأكملها. على أنه تصرّف بحيث بقيت رموز ملكية كالطبول مثلاً في مكانها ، وفعلاً وجدها البابيتو. وقبل كاغورو بعد مدة ، أن يستجيب لطلب اللوو وأن يأتي برفقة أنصاره البابيتو. ولاحظ في مناطق عدة من البلاد أن السكان كانوا يناصبون النظام الجديد العداء : ففي بويرا ، مثلاً ، كان العداء حادًا إلى درجة أن روكيدي اضطر إلى نقل عاصمته إلى بوغنغايزي ، في قلب دولة الباتمبوزي القديمة. كما شقّ عليه الإقناع بشرعية حكمه وإنشاء دولة مترابطة انطلاقًا من مجتمع متعدّد العرقية. ولم يستقرّ الوضع إلاّ بعد سنة ١٥٠٠ م ، عندما بدأ توسّع البونيورو في اتجاه دول الباهيندا ونحو رواندا [٣٠] .

وكان الباتشويزي ، كما رأينا سابقًا قد عيّنوا ميراميرا ، من عشيرة الراشمبو ، وأعضاء من عشيرة الباليزا ، للاضطلاع بقيادة المنطقة التي تحيط ببحيرة مازيورو. وبعد موت وامارا ، قام صراع من أجل السيادة : وعندئذ تمكّن أخوان من البابيتو هما واكوليه ونياروا ، من قتل ميراميرا وإنشاء دولة كيتاغويندا ، بمساعدة عشيرة باهيما الباشيكاتوا [٣١] .

(٢٧) المرجع السابق.
(٢٨) ك. ك. نغانوا، ١٩٤٨، ص ٦ – ٧ و ب. ك. كانيا مونيو، ١٩٥١، في *UJ* ، ص ١٩١ – ١٩٢.
(٢٩) ف. لوابجيرا، ١٩٤٩.
(٣٠) راجع بخصوص سياسة البونيورو – كيتارا التوسعية ب. أ. أوغوت، «تاريخ أفريقيا العام»، المجلد الخامس، الفصل ٢٦ (لم يصدر بعد).
(٣١) راجع أ. ويلر، ١٩٧١.

تجمّع روهيندا

كان هذا التجمّع مُركّزًا جغرافيًا في إقليم كيجيزي الحالي، وأنكوليه، واقليم بوكويا في تانزانيا، وجزء من بوروندي ومن رواندا. وكانت أهم الدول التي لعبت دورًا أثناء الحقبة المعنية هي النكورية، ودول البوهايا في كاراغويه، والايهانجيرو، وكيانجا، وبوزينزا، وكياموتوارا، وكذلك بعض أجزاء من مملكة رواندا المقبلة، مثل الندوروا. وعلى الرغم من وجود حدود سياسية وحواجز لغوية، كانت للمنطقة وحدة تاريخية نشأت منذ ذلك العهد. وهكذا يبدو أن تأثير الرعاة الباهيما/باتوتسي كان له أكبر وقع في هذه المنطقة. وكانت عشائر قديمة مختلفة مثل البازيتا، والباغاهيه، والباسيجي، والبازيغابا، والباكيمبيري، والباشمبو، والبايتيرا، والباتسيابا، والباجييسيرا، والبايشيكاتوا، والبونغورا، والبابااندا، متشتّتة عبر المنطقة كلها، وهو أمر يكتسي أهمية خاصة في هذه المنطقة التي كانت فيها العشائر – وبالخصوص أكبرها – أميل إلى تمثيل مشيخات ذات سكان مختلطين، منها إلى مجموعات قرابة متكوّنة من زيجات خارجية[٣٢]. واندمج عدد كبير من الباهيما ضمن عشائر من البانتو. ومما يؤكّد هذا التجانس أن أغلبية سكان المنطقة الحاليين يتكلّمون الروكيغا، أو الروهورورو، أو الرونيانكوريه أو الرونيامبو – وهي لهجات متقاربة كلها تقاربًا متينًا – أو كذلك الرونيا رواندا. وثمة عامل آخر من عوامل التماسك التاريخي، وهو أن معظم مجموعات المنطقة تحمّلت تأثيرات توسّع دولة رواندا – لكن هذا تاريخ يخرج عن حدود هذا الفصل.

ويبدو أن الروايات تشير إلى أن مناطق الغابات كانت، في بداية الحقبة التي تعنينا، أكثر انتشارًا مما هي عليه اليوم بكثير، وأنه كان يحتلّها الباتوا، وهم جماعة كانوا يعيشون من الجني وصيد الطرائد الضخمة (الفيلة، والجواميس، الخ...)[٣٣]. فبدأ الفلاّحون البانتو عندئذ يدخلون المنطقة تدريجيًا، انطلاقًا من الجنوب ومن الغرب خاصة، وقاموا بقطع الأشجار واستقرّوا في قطاعات كانوا يمارسون فيها زراعة الدخن والذرة البيضاء. وكانوا علاوة على ذلك، يمارسون الصيد والحدادة – من ذلك، مثلاً، أن البارونغو كانوا يتفرّدون أساسًا لهذين الصنفين من النشاط قبل حلول الباهيما بمنطقة بوزينزا بزمن طويل[٣٤]. وتعلمنا روايات عشيرة البازينغا أيضًا أن سلفهم كازينغا كان حدادًا وساحرًا من كاراغويه، طرده أخوه موهايا، فوجد له ملجأ في الندوروا قبل قدوم الباتوتسي[٣٥].

وقد تنظّمت المجموعات التي لغتها البانتو في البداية حسب نظام العائلة الموسعة: أي أن أرباب العائلات، الذين كانوا يشكّلون السلطة العليا، كانوا يجتمعون للسهر على راحة السكان وإقامة القضاء بينهم. لكن كلما كان عدد النازحين يزداد، كان نظام العشائر ينمو. على أنه يجدر، مع ذلك، التأكيد على أن العشائر، في هذه المنطقة، لم تكن بالضرورة متآلفة من أناس منحدرين من نفس الأسلاف: فقد كانت عادة المؤاخاة بالدم، مثلاً، تشجّع القادمين الجدد على الارتباط بعائلات عريقة. وسعت بعض الجماعات من النازحين إلى الحصول على حماية عشائر قوية بالانضمام إليها وبتبنّي لغتها وعاداتها. والحقيقة أن الانتقال من عشيرة إلى أخرى كان، على ما يظهر، ممارسة مقبولة عامة.

---

(٣٢) ف. جيرو، ١٩٧٧، ص ٢٤.
(٣٣) راجع ز. رواندوسيا، ١٩٧٢.
(٣٤) أ. ك. كاتوكيه، ١٩٧٥، ص ١٤.
(٣٥) ف. جيرو، ١٩٧٢، ص ٢٨.

وهكذا أصبحت العشائر تنظيمات سياسية تملك حدودًا إقليمية. وكان رئيس العشيرة هو رئيس المنطقة في الوقت نفسه، وكانت المنطقة تُعرف باسم العائلة المسيطرة: فكان اقليم البوسيجي يحتلّ قسمًا كبيرًا منه قوم الباسيجي، وكان اقليم البوغاهيه يحتلّه الباغاهيه، الخ... وكان للعشائر الكبيرة (البازيغابا، والباجيبسيرا، والباسيجي، والباهندا، وغيرهم) ملك أو قائد (موامي) يجمع بين السلطة السياسية والدينية، ويتحمّل مسؤولية السهر على راحة السكان وصيانة الماشية والمحصولات. وكان أيضًا، في أغلب الأحيان «صانع المطر»[٣٦]. وتفيدنا الروايات مثلاً، بأن الباغاهيه الذين كانوا مستقرين في إقليم الندورا، حول بحيرة بونيوني، والباسيجي الذين كانوا مقيمين في إقليم البوسيجي (وهي منطقة تشكّل اليوم جزءًا من رواندا)، والباباندا الذين كانوا موجودين في اقليم كينكيزي، قد كانوا جميعًا «صانعي مطر». ويبدو أن البعض من هذه العشائر البانتو كانت قد أنشأت، في بداية القرن الخامس عشر، تقريبًا، سلالات حاكمة مستقرة جيدًا. وهكذا نعرف أن أعضاء من عشيرة الباسيتا كانوا يحكمون في النكوريه، والكاراغويه، وفي دول أخرى تابعة لقوم البوهايا، قبل أن يمسك الباهيندا بزمام الحكم. وتذكر تقاليد رواندا التاريخية جماعة من المزارعين اسمهم بارنجييه. ويعتبرون من أقدم سكان المنطقة، وقد كانوا مستقرين خاصة حول ندوغا، في المنطقة التي تمتدّ عليها اليوم رواندا الغربية. وكانوا يستعملون معزقات كبيرة من حديد، بدائية إلى حد ما[٣٧]. والمفروض أن الباباندا أبادوهم قبل مجيء الباتوتسي[٣٨]، بزمن طويل؛ ولحسن الحظ نعلم الآن أنه لا يزال يصادف البعض منهم في الشمال الغربي من تانزانيا وفي أوغندا الغربية، من بوفومبيرا إلى تورو. ويظهر إذًا أن هذا المجتمع القديم المتكلّم بلغة البانتو، والذي كان يمارس تشغيل الحديد، قد كان موزّعًا قبل قدوم الرعاة في قطاعات مختلفة جدًا من رواندا ومن جنوبي غرب أوغندا، حيث كانت العائلات الحاكمة من هذه المجموعة بوجه عام.

وثمة عشيرة أخرى من المزارعين هي ربما من أقدم سكان رواندا وجنوبي غرب أوغندا، وهي عشيرة البونغورا الذين كانوا، حسب قول دهرتفالت، لا يزالون كثيري العدد في إقليم روهنجيري (شمال غرب رواندا) في سنة ١٩٦٠[٣٩]. بيد أنه للأسف لم يعثر عند البونغورا على أي رواية متعلّقة بهجرة أو بنشأة دولة – وهو أمر يبدو كأنه علامة على قدم عهد استقرارهم بالمنطقة.

ويبدو أن البازيغابا كانوا هم الآخرون من جماعات المزارعين الأقدم من غيرهم استقرارًا بالمنطقة. ونعلم أنهم أنشأوا، في شرق رواندا تمامًا، دولة اسمها موباري، كان لها ملك (كابايجا) وطبال ملكي (سيرا) في الوقت الذي ظهر البانييجينيا في التاريخ لأول مرة[٤٠]. لكن يوجد منهم كذلك عدد كبير في منطقة الانكوليه وفي قطاع روجومبورا بدولة كيجيزي. وقد كان لهم طوطم يختلف من منطقة إلى أخرى في كل من هذه المناطق الثلاث: فكان الفهد في رواندا، والظبي في روجمبورا وبقرة مخطّطة في الانكوليه. ويبدو من المرجح جدًا، مثلما أكّده الأستاذ دينون اعتبارًا لهذا التوزيع وهذا التنوّع، «أن دولة متعدّدة العشائر (الموباري على الأرجح) قد شكّلت نقطة الانطلاق لتشتّت شعبي طويل الأمد، حيث حافظ النازحون على اسم بازيغابا بمفهوم سياسي بادئ الأمر، ثم للدلالة على صنف اجتماعي، كما

(٣٦) ينحدر «صانعو المطر» في معظمهم من الرؤساء المحليين لعشائر البانتو، حسبما يذهب اليه باجيس من رواندا (أورده ف. جيرو، ١٩٧٢، ص ٣٠).

(٣٧) ج. ك. ريني، ١٩٧٢، في *TJH*، المجلد الثاني، الفصل الثاني، ص ١٨ – ١٩.

(٣٨) ف. جيرو، ١٩٧٢، ص ٢٧.

(٣٩) م. دهرتفالت، ١٩٧١، ص ٢٧، الجدول ٨.

(٤٠) م. بووالس، ١٩٦٧، ص ٢٠٨.

حافظوا على الشعارات الطوطمية الخاصة بعشائر دولة البازيغابا الأصلية»[٤١].

وكانت عشائر أخرى من البانتو، مثل البانيانجيه، والبازيتا، والبانوما، والبايتيرا تضطلع بدور هام في أواخر القرن الخامس عشر. وقد بدأ الباهيندا في ذلك العهد، يبسطون سلطانهم على النكوريه.

ولإعطاء فكرة عن النظام السياسي الذي تطوّر في القسم الغربي من المنطقة البحرية، سأذكر ختامًا عشيرة البايشيكاتوا، التي كان طوطمها يتمثّل في «الانسينينيه». ويوجد أعضاء من هذه العشيرة في رواندا (قد يكون الباهوندوغو الذين حكموا في البوجيسيرا من نسلهم) وفي كيجيزي (حيث يؤلّفون أقدم سكان روجمبورا)، وفي تورو والأنكوليه. وتفيدنا روايات بوغندا أيضًا أن عشيرة الأنسينينيه قدمت إلى بوغندا من الغرب، مع كيميرا، كما سنرى ذلك في غير هذا المكان. فيظهر إذًا أن البايشيكاتوا هم عشيرة قديمة جدًا من عشائر غرب أوغندا كانت تمتدّ من بوزنغورا إلى رواندا الجنوبية. ولقد اقتصرنا حتى الآن على الحديث عن المزارعين المتكلّمين بلغة البانتو، وعلينا الآن أن نهتم بالرعاة. ويتعيّن بادئ ذي بدء أن نكرّر أن أصل الرعاة في هذه المنطقة محل جدل، فقد افترض البعض بأنهم كانوا قادمين من الشمال، لكن، كما أكّد ريني، «لا يجب استبعاد وجود أصل محلي للنشاط الرعوي، ربما كان في كارغويه أو في المناطق المجاورة»[٤٢]. ثم ان الفكرة الواسعة الانتشار القائلة بأن الرعاة حلّوا بهذه المنطقة بوصفهم غزاة وأخضعوا، منذ البداية، الأهالي المزارعين، لسلطة أرستقراطيات رعوية، يتعيّن مراجعتها في هذه الحالة، مثلما سبق لنا أن فعلنا في حالة كيتارا. ومن الممكن ذكر حالات عدة من التعايش السلمي بين الرعاة والمزارعين[٤٣]: وفي حقيقة الأمر، كانت عشائر المزارعين على وجه الخصوص هي المزوّدة للمنطقة بالأسر المالكة، كما بيّنا ذلك، إلى أن ظهرت، في القرن الخامس عشر، عدة دول رعوية سنتحدّث عنها فيما بعد.

وتُعتبر مجموعة كمجموعة الباريبسا، مثلاً، من أقدم العشائر الرعوية في المنطقة. وتذكر رواياتهم أنهم هاجروا من الشمال – ربما من بونيورو – نحو الكاراغويه في الجنوب، ثم صعدوا ثانية نحو الشمال عبر ما يُسمى اليوم الكيجيزي والأنكوليه الغربي. وعندما بلغ أفراد العشيرة المبورورو، تفرّقوا في جميع الاتجاهات. وكانت توجد من ضمنهم عائلة مكوّنة من ثلاثة إخوة – هم كاتايزي، وكينيونيبي، وروغو – وأخت – هي ايرميرا – وقد قاد نسر هذه العائلة إلى بلاط الملك وامارا، آخر ملوك الباتشويزي. وفارق كاتايزي عائلته في أثناء الطريق ليستقرّ في البوهويجو، حيث تزوّج نساء من أهل البلد، وتحوّل فلاحًا، وأسّس عشيرة الباتايزي الفرعية. ووصل الأخوان الباقيان وأختهما، في النهاية، إلى بلاط الباتشويزي. فاتّخذ الملك من ايريميرا زوجة له، وعيّن روغو على رأس البوزيمبا، وأصبح كينيونيبي مُمثّل وامارا في البوهويجو. ووهب الملك كل واحد منهما طبلاً ملكيًا ومائة رأس من الماشية[٤٤].

وتدل هذه الرواية على أن الرعاة لم يبدأوا كلهم حكامًا، كما تدل الحالة الخاصة بالباتايزي على أن البعض لم يستحوذوا عليه قط.

وبين المجموعات الرعوية التي هاجرت فيما بعد، هناك ثلاث عشائر لعبت دورًا حاسمًا في تأسيس عشائر جديدة في النكوريه، والكاراغويه، والايهانجيرو، والكيزيبا: وهي الباشمبو، والباسيتا،

(٤١) د. دينون، ١٩٧٢، ص ٦.
(٤٢) ج. ك. ريني، ١٩٧٢، في *TJH*، المجلد الثاني، الفصل الثاني، ص ٢٣.
(٤٣) س. ر. كاروجيريه، ١٩٧١، ص ١٢٢ – ١٢٣.
(٤٤) ب. ك. كانيامونيو، ١٩٥١، في *UJ*، ١٥، ٢، ص ١٩١ – ١٩٢.

والباهيندا. وتقول الرواية إن الباشمبو قدموا من الشمال، واستقرّوا في الندورو وفي المناطق المجاورة، شمال شرق رواندا، ثم تفرّقوا في اتجاه الشمال وفي اتجاه الشرق، في كل من الأنكوليه والكيجيزي الشرقي[٤٥]. ولعلّ الأمر كان يتعلّق بعشائر من الباهيا دخلت دولة الباتشويزي قبل عهد الباتشويزي أو في أثنائه.

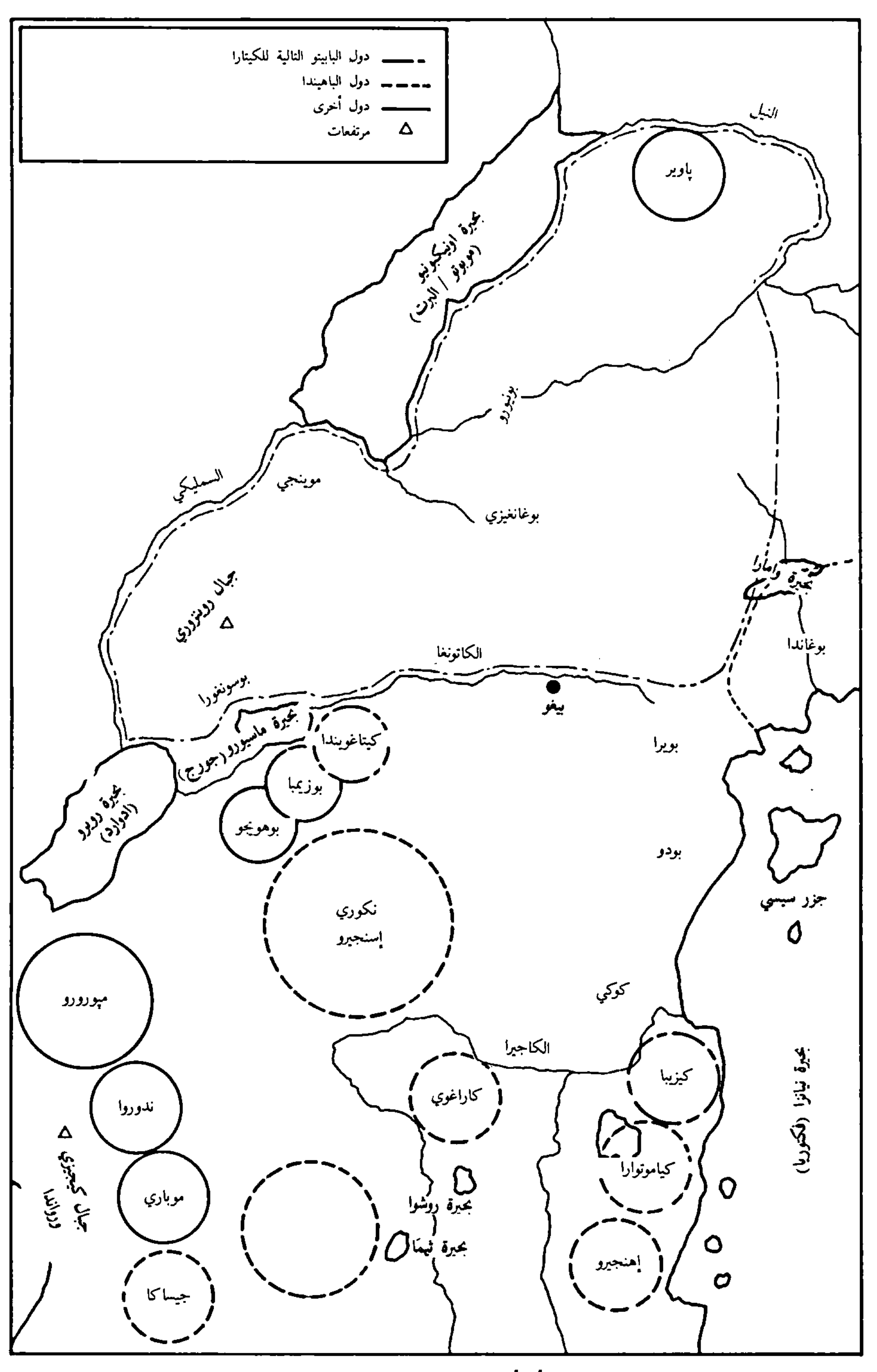
وتوجّه الباسيتا، على ما يظهر، وجهة مقابلة لوجهة الباشمبو: إذ يبدو أنهم توجّهوا نحو الشمال انطلاقًا من مركز واقع في الكاراغويه أو في المناطق المجاورة. وفي عهد الباتشويزي، حكم الباسيتا الكاراغويه والنكوريه، حيث لعب النونو والكارارا، على التوالي، دور ممثلين للباتشويزي.

وبذلك نأتي إلى المجموعة الأخيرة: مجموعة الباهيندا. إن أصلهم فيه خلاف كثير فروايات النكوريه تذكر أن الباهيندا ربما كانوا منحدرين من سلالة الباتشويزي وأن روهيندا، مؤسّس سلسلة من السلالات الحاكمة في الكاراغويه، والكياموتوارا، والنكوريه، والايهانجيرو، ربما كان ابن وامارا، آخر ملوك الباتشويزي[٤٦]. وعلى النقيض من ذلك، يرى دو هوش أنهم كانوا نيليين وهو يعتقد أن اللوو، عندما غزوا البونيورو، هزموا الباتشويزي: فانسحب هؤلاء عندئذ نحو الشمال إلى اقليمي البويرا والنكوريه – اللذين كانا محميين من غارات اللوو بواسطة تحصينات بيغو – لكن الباهيندا (وهم مجموعة متحدّرة من اللوو) التفوا حولهم مرورًا بالكاراغويه، وهزموا في النهاية الملك وامارا في النكوريه، وأسّسوا سلالات حاكمة جديدة في النكوريه، والكاراغويه، والايهانجيرو، والكياموتوارا. وقد دحض كاروجيريه[٤٧] هذه النظرية بكيفية مقنعة. ومن ناحية أخرى، أكّد دينون أخيرًا أن «روهيندا كان من قوم موجيبيسيرا من الجيساكا، وبسط سلطان هذه الدولة على مناطق جديدة أو انفصل عنها»[٤٨]. ويدعم دينون هذه الفرضية بالتأكيد على أن الباجيبيسيرا والباهيندا لهم نفس الطوطم (قرد)؛ وان البافومبيرا والباتورو يسمون النكوريه «بوجيبيسيرا» – بمعنى مملكة الباجيبيسيرا –؛ وان تفسير غياب عشيرة الباجيبيسيرا بصورة كلية في النكوريه، في حين استقرّ أعضاء من العشيرة في كل المناطق المجاورة، يحمل على التسليم بأن باهيندا هو الاسم المحلي للباجيبيسيرا؛ وختامًا كان امتداد سلطان الباجيبيسيرا كافيًا – حسب ما نعرف – لجعل هذه النظرية مقبولة. وقد سيطروا على الانكوليه الغربي والكيجيزي الشرقي إلى أواخر القرن السابع عشر، وكانت غاراتهم نحو الشمال تمتدّ إلى البوزنغورا والموانجيه.

بيد أن دينون إنما برهن فقط على أنه كان بالمنطقة مجموعة رعوية مهيمنة وأن الأمر ربما كان يتعلّق بالباجيبيسيرا. لكن لا يبدو أنه قد أثبت التطابق بين هوية الباجيبيسيرا وهوية الباهيندا، وذلك على الأخص لأنه لم يقم الدليل على وجود علاقة بين روهيندا والباجيبيسيرا.

ويبدو أن روايات البونيورو – كما أوردها نياكاتورا – تخبرنا بكيفية مرضية عن أصل روهيندا: فهي تذكر أنه كان راعيًا غنيًا (موهيما) عاش في عهد الملك وامارا[٤٩]، وأصبح شخصية بارزة في بلاط الباتشويزي، وعيّن رئيسًا على القطعان الملكية. وعندما دبّر كاغورو انقلابه السياسي، نقل روهيندا قسمًا من القطعان الملكية إلى الكاراغويه. وتقول روايات الكاراغويه إن إدخال الماشية الطويلة القرون إلى الكاراغويه إنما يرجع الفضل فيه إليه وإلى أتباعه.

(٤٥) يقال إن النساء الباشمبو تزوجن من الباتشويزي. راجع ف. جيرو، ١٩٧٢، و ل. دو هوش، ١٩٦٦.
(٤٦) س. ر. كاروجيريه، ١٩٧١، ص ١٢٦ – ١٢٧.
(٤٧) المرجع السابق. ص ١٢٦.
(٤٨) د. دينون، ١٩٧٢، ص ١٠.
(٤٩) ج. نياكاتورا، ١٩٤٧، ص ٦٥ – ٦٦ و ٢٩٠. أنظر أيضًا لواميرا «تاريخ الكاراغويه، ايهانجيرو، نياميتوارا، الخ». مخطوطة لم تنشر، ص ١–٣.



• الباتشويزي والمهاجرون باتجاههم (ب. أ. أوغوت).

وكانت عشائر الباسيتا والبانيانغويه قد تلقت ، في ذلك العهد ، من الباتشويزي ، طبولاً ، كرموز للسلطة ، وكانت تحكم في هذه المنطقة الجنوبية : فكان الكاراغويه يحكمه نونو (من الباسيتا) ، بينما كان نكومبيا وكارارا (كلاهما من البانيانجيه) يحكمان على التوالي الايهانجيرو والنكوريه.

وقلة هم ملوك هذه الحقبة الذين تُعرف تواريخهم معرفة ثابتة مثلما هو الشأن بالنسبة إلى روهيندا. وتزعم السلالات التي تحكم الدول الأربع (البوزينزا ، والكياموتوارا ، والكاراغويه ، والنكوريه) أنها منحدرة من أبنائه. وبالتوفيق بين الحسابات المركّزة على سلاسل النسب الأربع ، نحصل بالنسبة إلى روهيندا على هذين التاريخين : ١٤٠٥ – ١٤٤٧ م تقريبًا. وتذكر روايات الكيزيبا أيضًا روهيندا فيما يخص جيل السنوات الممتدّة من ١٤١٧ إلى ١٤٤٤ م ، تقريبًا.

وعندما حلّ روهيندا بالكاراغويه ، استعمل الثروات الكبيرة التي كانت لديه في شكل مواش لتنحية نونو من الحكم. ثم عكف على إقامة قاعدة عمليات صلبة في الكاراغويه قبل أن يتوجّه إلى الشمال نحو النكوريه ، حيث تمكّن من السيطرة على المنطقة بإبرام اتفاق سياسي مع عشيرة البانيانغويه التي كانت ذات أهمية وتأثير. وفي مقابل خضوع أعضاء هذه العشيرة لسلطته ، حصلوا منه على وعد قاطع بأنهم لن يكونوا عرضة للاضطهاد وأنهم يستطيعون الحفاظ على أملاكهم. وأجهد روهيندا نفسه ، مثلما فعل روكيدي ، ليقنع رعاياه ، عن طريق دعاية معدّة بمهارة ، بأنه سليل الباتشويزي.

وترك ابنه نكوبا على رأس النكوريه وصرف اهتمامه إلى الكياموتوارا والايهانجيرو. وفي الكياموتوارا ، قتل كاشاريه ، ممثل وامارا ، ونصّب مكانه واحدًا آخر من أبنائه هو نياروبامبا. أما في الايهانجيرو ، فقد استعان ، على الأرجح ، بخلفاء محليين لتسمم ايهانجيرو وهو ممثل آخر لوامارا ، من عشيرة الأبايانغو ، وأرسل أصغر أبنائه ، الذي كان يسمى هو الآخر روهيندا ، ليحكم البلد. وذهب في نهاية المطاف ، إلى البوزينزا ، حيث خلع نشاشاميه ونصّب مكانه واحدًا آخر من أبنائه[٥٠]. وهكذا فقد استحوذ روهيندا بسرعة ، بعد أن ثبّت قدمه في الكاراغويه ، على كل المناطق المجاورة وأحلّ أبناءه محل ممثلي الباتشويزي على رأسها. وعندما مات في البوزينزا ، كان بصدد إنشاء دولة باهيندا في الجنوب ، مماثلة لدولة البابيتو في الشمال أو لدولة رواندا التي أقامها البانييجينيا ، الذين أصلهم من البوغنزا. وبعد موته ، تجزّأت منطقة النفوذ الشاسعة هذه ، وبعد أن كان أبناؤه مفوّضين عنه ، أصبحوا ملوكًا مستقلّين بالمناطق التي أوكل أمرها إليهم ، وأسّسوا السلالات الحاكمة في الكاراغويه ، والايهانجيرو ، والكياموتوارا ، والبوزينزا ، وقد كانت هذه الدول الباهيندا ، التي خلفت دولة الكيتارا ، صغيرة الحجم ، وظلّت كذلك زمنًا طويلاً.

ويتجلّى بوضوح من هذا العرض ، ان «اختفاء» الباتشويزي تلته نشأة سلسلة من الدول في منطقة البحيرات وهي : الجيساكا ، ودول الباهيندا ، ورواندا والندوروا التابعة للباشمبو ، ودول البابيتو وبوغندا التي لم نتحدّث عنها بعد. وكانت تربية الماشية تحتلّ مكانًا أساسيًا في أغلب هذه الدول باستثناء بوغندا احتمالاً. فقد كان روهيندا سائق قطعان ، وكان الباجييسيرا ، والبانييجينيا ، والباشمبو رعاة ، وسرعان ما اكتسب البابيتو ، وهم في الأصل صيادون وفلاّحون ، الخاصيات المميزة للحكام الرعويين.

(٥٠) س. ر. كاروجيريه ، ١٩٧١ ، ص ١٣٠ – ١٣١ و١٣٧ – ١٤٢.

تجمّع رواندا

سنعتمد هنا، في دراستنا تاريخ أصول رواندا، الإطار الذي وضعه فانسينا[٥١] مع التنقيحات الهامة التي أدخلها عليه ج. ك. ريني[٥٢]. ونحن نعلم ما لأعمال كاغاميه[٥٣]، والآباء البيض من تأثير بليغ، إلاّ أن هذه الأعمال تنطوي على عيبين جسيمين، هما: (أ) أن هذه الأعمال، بحكم تمحورها حول البلاطات الملكية، لا تفيدنا شيئًا كثيرًا عن ردود فعل المجتمعات التي كانت في طريق الإدماج في صلب دولة رواندا؛ (ب) أن تعلّق المؤلّفين المذكورين بالنظرية «الحامية» التي عفا عليها الزمن، يحد بصرامة من موضوعية أعمالهم هذه.

وباختصار، يؤكّد كاغاميه والآباء البيض أن المجال الإقليمي لرواندا الحالية كانت تقطنه سابقًا، مجموعة غير متجانسة من العائلات والعشائر البانتو، غير محكمة التنظيم سياسيًا. وحلّ آنذاك بالمنطقة جمع متجانس من الرعاة «التوتسي الحاميين» أصلهم من الشمال، وأدخلوا فيها تربية الماشية، وصناعة الحديد، وتصوّر المَلَكية ومراتب اجتماعية بحسب الطبقات، وزراعات جديدة مختلفة. وقد أقاموا، بقيادة رئيسهم جيهانغا، ابتداءً من القرن العاشر، سلالات حاكمية عديدة من «التوتسي»، اندمجت في النهاية لتكون دولة رواندا. واتّسع مجال دولة «التوتسي» هذه تدريجيًا بوسائل شتى (الدبلوماسية، والغزوات، والقوة الاقتصادية المبنية على سيطرة التوتسي على الماشية)، إلى مجموع المناطق التي تحتلّها رواندا الحديثة. وقد تمّ تمثّل السكان الذين وقع غزوهم، بفضل نظام تبعية، حيث منح البانتو («هوتو») حق استعمال الماشية في مقابل خدماتهم وولائهم. وقد نشأ في ظلّهم أيضًا أساس نظام الطبقات الرواندي، أو ما سماه عالم الاجتماع ماكيه[٥٤] «بداية عدم التكافؤ في رواندا».

ولتقديم صورة متوازنة لتاريخ رواندا القديم، لا بدّ من عرض تاريخ الدول والمجتمعات التي كانت موجودة في عهد ما قبل النييجينيا.

وتفيد الروايات، أن السكان الأوائل كانوا، بشكل قاطع تقريبًا، من قوم الباتوا، الذين كانوا يعيشون في الغابة مما يصيبون من الصيد والجني. كما كانوا يمارسون، علاوة على ذلك، صناعة الخزف والسلال. وفيما بعد، عندما بدأ المزارعون يقدمون ويقتطعون الأشجار لإنشاء مستوطنات مستقرّة، أقبل الصيادون يعرضون عليهم الجلود واللحوم في مقابل الحصول منهم على الملح والمصنوعات الحديدية.

وكان المزارعون المتكلّمون بلغة البانتو يمارسون زراعة الذرة البيضاء، وتربية الماشية والنحل، وأنشطة أخرى تتمثّل في الصيد والصناعة الحرفية الريفية. وكانوا يرتدون الملابس المصنوعة من جلود الماعز والقلف، ويعيشون في شكل تنظيم قائم على السلالات وعلى الطبقات تحت سلطة رؤساء سلالات[٥٥].

وفي القرن الخامس عشر، كان قسم كبير من البانتو منظّمين في شكل دويلات تشتمل كل واحدة منها على سلالات عديدة خاضعة لسلالة مسيطرة، ويسيّرها «موامي» (رئيس أو ملك)، وهو في الوقت نفسه رئيس للمنطقة وكاهن مكلّف بصنع المطر[٥٦]. وهكذا كان الوضع شبيهًا بذلك الذي وصفناه في

(٥١) ج. فانسينا، ١٩٦٢.
(٥٢) ج. ك. ريني، ١٩٧٢، في *TJH*، المجلد ٢، عدد ٢.
(٥٣) أ. كاغاميه، ١٩٥٤ و ١٩٥٩ و ١٩٦١ و ١٩٦٣.
(٥٤) ج. ماكيه، ١٩٦١.
(٥٥) م. دهرتفالت، ١٩٦٢، ص ٤١ – ٤٤؛ وج. فانسينا، ١٩٦٢، ص ٧٨.
(٥٦) ج. فانسينا، ١٩٦٢، ص ٧٧ – ٧٨.

معرض حديثنا عن تجمّع الروهيندا. وتشير بعض الشهادات إلى أن البعض من هذه السلالات، مثل سلالة الرويونغو التابعة لعشيرة السينغا وسلالة الهيكا التابعة لعشيرة الزيغابا كانت تملك ماشية قبل استقرار عشيرة النييجينيا في رواندا.

وكانت عدة دول هامة قد تكوّنت قبل مجيء عشيرة النييجينيا. وكانت كل واحدة منها موضوعة تحت سيطرة عشيرة مهيمنة، لكن ينبغي أن نكرّر هنا أن أسماء العشائر كانت، في ذلك العهد، تمثّل أسماء سياسية أكثر منها أسماء لمجموعات متكوّنة من زيجات خارجية ومنحدرة من سلف يُطلق عليها اسمه.

ومن المتفق عليه أن سبع عشائر كانت لها دول في عهد ما قبل النييجينيا هي دول السينغا، والزيغابا، والجيسيرا، والباندا، والسيابا، والأونجيرا، والاينّنغويه[٥٧]، وتعتبر الدول الثلاث الأولى (السينغا، والزيغابا، والجيسيرا) بمثابة «أباسانغوا بوتاكا»، بمعنى «الذين كانوا هناك قبل أي كان»، أو أصحاب الأرض الأصليين في رواندا[٥٨]. أما كيف كانت طبيعة هذه الدول، وكيف أدمجت في رواندا، فسنجيب عن أول هذين السؤالين، لكن السؤال الثاني يخرج في أغلب الحالات عن نطاق دراستنا.

وتقول روايات التوتسي أن أقدم دولة في رواندا أنشأتها على الأرجح سلالات الرنجيه التابعة لعشيرة السينغا. وكانت تضمّ أكبر جزء من أراضي رواندا الحديثة، باستثناء المنطقة الشرقية منها، لكنها كانت ذات تنظيم واه إلى حد ما، ولم يحفظ التاريخ اسمها. بيد أن الروايات تبيّن مع ذلك بوضوح أن الرنجي كانوا قد أعدّوا نظامًا معقّدًا للملكية طقوسية. وفي نهاية القرن السادس عشر، أدمجت في مؤسسات رواندا هيئة من الإخصائيين في الطقوس اسمهم تيجيه كانوا يزعمون أنهم من سلالة نيابوتيجيه. وكان نيابوتيجيه يعتبر سليل روبونغا، الاخصائي في طقوس الرنجيه التي استعار منها جيهانغا، مؤسّس عشائر التوتسي في رواندا، فكرة الطبل الملكي وأصول طقوس الرنجيه الملكية[٥٩]. وفي أواسط القرن السابع عشر، كانت كل دول الرنجيه قد استوعبتها دولة رواندا المتوسّعة.

وكانت توجد، في أقصى شرق رواندا، دولة الموباري وهي من عشيرة الزيغابا، وكانت على ما يبدو، تحتلّ منطقة شاسعة. وقد ورد ذكر عشيرة النييجينيا لأول مرة في تاريخ رواندا، في الوقت الذي وهبها فيه الزيغابا رابية غاسابو[٦٠] وسمحوا لها بأن يكون لها رئيسها الذاتي، لكن على شرط أن تضع نفسها تحت سلطتهم العليا. وكانت الزيجات بين أعضاء المجموعتين كثيرة في ذلك العهد. غير أن دولة الموباري فقدت استقلالها في نهاية القرن السادس عشر، عندما خطف الملك الرواندي يوكي الثاني غاهيما من الزيغابا طبلهم الملكي «سيرا».

واستطاعت السلالة الحاكمة، على الرغم من فقدانها استقلالها السياسي هذا، أن تستمر إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عندما قتل كيجيري الثالث نداباراسا (١٧٦٥ – ١٧٩٢) ملكهم واضعًا بذلك نهاية للسلالة. فهاجرت عندئذ جموع صغيرة من قوم الزيغابا إلى أجزاء مختلفة من جنوب غرب أوغندا، حيث لعبوا كما رأينا، دورًا قياديًا.

وكان الجيسيرا، الذين تربطهم صلة قرابة متينة بالزيغابا، يحكمون دولة الجيساكا القوية جنوبي شرق رواندا، ولا شك أنهم كانوا يحكمون أيضًا البوجيسيرا. وتمكّنت دولة الجيساكا من الحفاظ على استقلالها

(٥٧) أ. كاغاميه، ١٩٥٥.
(٥٨) أ. كاغاميه، ١٩٥٤، ص ٥٦.
(٥٩) أ. كاغاميه، ١٩٥٥، ص ١٣.
(٦٠) أ. كاغاميه، ١٩٥٤، ص ٥٣ – ٥٤.

إلى القرن التاسع عشر: وفي النهاية تفكّكت وألحقها الموامي رووجيرا (١٨٣٠ - ١٨٦٠) بملكه، إلاّ أن الجيسيرا استمرّوا إلى القرن العشرين في إدارة دويلتين كانتا انفصلتا عن الجيساكا وهما: دويلة البوسوجو التي يبدو أنها أسّست في بداية القرن السابع عشر، جنوبي غرب رواندا، ودويلة البوشيرو في الشمال الغربي[٦١].

وكانت توجد، في الشمال الأوسط من رواندا، دولة أخرى، هي دولة البوسيجي، التي كان يحكمها شيخ «صانع للمطر» ولم تدمج في رواندا إلاّ في بداية القرن العشرين[٦٢].

ويمكن لنا أن نذكر عدة دويلات أخرى، لكننا قدمنا، بلا شك، ما يكفي من الأحداث لبيان أن سلطة رواندا لم تفرض نفسها على أقوام لم يكونوا أصلاً متجمّعين في شكل دول. فقد ظلّت دولة الجيساكا، مثلاً، زمناً طويلاً منظّمة تنظيمًا حسنًا كالذي كان لرواندا في بداية تاريخها، وكان للدول ذات الأحجام والقوة المتفاوتة مؤسّسات ملكية، وكذلك طقوس غايتها التأثير في الأراضي وفي الأمطار. وقد تبنّت دولة رواندا الجديدة، طيلة توسّعها خلال القرون الثلاثة التالية، البعض من هذه المؤسّسات السياسية والدينية. والحقيقة أنه إذا كانت طقوس بلاط رواندا ناجعة على الصعيد السياسي، فمردّ ذلك إلى حد بعيد لكونها قد جمعت بين طقوس زراعية ورعوية، ولأنه عهد بوظائف طقوسية مهمة إلى عدد من المزارعين ألفوا أنفسهم بذلك مرتبطين بالنظام.

وقد تزايد عدد الرعاة بسرعة في هذه الدول بداية من القرن الخامس عشر تقريبًا. ولم يكونوا في الأصل، يؤلّفون طبقة مسيطرة، بل ومن الممكن أنهم لعبوا دور «زبائن» للمزارعين في العديد من المناطق. وقد أدلى ج. فانسينا بما يكفي من البراهين ليثبت أن الرعاة والمزارعين كانوا في حالة تعايش سلمي في مناطق الشمال الشرقي، والشمال الغربي، والغرب من رواندا. وبعد بداية القرن السادس عشر، توسّع نظام التبعية الذي طبع العلاقات بين المجموعتين، عندما وجب على كل منهما الاندماج في دولة رواندية جديدة.

ولئن كان تفسير الماضي بالحاضر أمرًا خطرًا دومًا، فإنه يسلّم عمومًا بأن ما لا يقل عن تسع من العشائر الكبرى في رواندا هي من التوتسي، وإنها كانت، بالتالي، عشائر رعاة أصلاً. وقد وضعت هذه العشائر - السندي، والنياكاراما، والايغا، والشامبو، والسيتا، والها، والشنغو، والكونو، والهوندوغو -، نظرية وطنية تقرّر انحدار التوتسي جميعًا من جيهانغا، المؤسّس الأسطوري.

ولم يكن هؤلاء الرعاة يتنقّلون في شكل جموع كبيرة ومتجانسة، بل قدموا بعكس ذلك في شكل جماعات صغيرة، إلى أن بلغ عددهم في أواخر القرن الخامس عشر، حدًّا كافيًا ليتنظّموا في شكل تنظيمات سلالية قوية في الجنوب، حيث دخلوا، في ظرف وجيز في نزاع مع المزارعين. غير أنه لم يكن لدى أية سلالة من هذه السلالات ما يكفي من القوة، في القرن الخامس عشر، لتشكّل دولة مستقلّة، باستثناء مجموعتين، هما الهوندوغو والنييجينيا. وكان الأولون قد استقرّوا حول بحيرة موجيسيرا، في الجنوب، وأقاموا تنظيمًا سياسيًا مكّنهم من صدّ الجيسيرا نحو جيساكا، في الشرق. أما الآخرون، وهم النييجينيا فهم الذين كوّنوا السلالة الحاكمة في رواندا. وكانوا قد أقبلوا من الموباري، في الشرق، واستقرّوا كما رأينا في غاسابو، برواندا الوسطى قرب بحيرة موهازي. ونجحوا في نهاية القرن الخامس

(٦١) أ. داريانوف، ١٩٥٢.

(٦٢) م. بووالس، ١٩٦٧، ص ٢٢٣.

عشر، في إنشاء دولة مركزية كانت مؤسساتها تجمع بين الرعاة والمزارعين. وتمثّل نشأة دولة رواندية مستقلة، وتوطّدها، وتوسّعها، مواضيع تخرج عن نطاق الحقبة التي نحن بصددها هنا(٦٣).

منطقة بوغندا، وبوسوغا، وجبل ألغون

يقول د. و. كوهين إن عدة عشائر ناطقة بالبانتو غادرت منطقة جبل ألغون – بحيرة فكتوريا فيما بين عامي ١١٠٠ و١٤٠٠. وسبب هذه الهجرة الكبيرة ليس واضحًا. وقد ذهب كيوانوكا إلى أن «تقدّم اللوو نحو الجنوب الشرقي كان له بعض التأثير في هذه التنقّلات السكانية»(٦٤)، لكن هذه التحرّكات بدأت في الحقيقة – كما تبين ذلك روايات اللوو بوضوح – قبل هجرة اللوو الأولى إلى المنطقة بقرن على أقل تقدير.

ولا شك أن هؤلاء المهاجرين البانتو قد لعبوا دورًا مهمًا في التطوّر السياسي لوطنهم الجديد بداية من القرن الثاني عشر. وكانوا يضمون خاصة مجموعة عشائر كينتو التي يرى كوهين أنها استقرّت، على الأرجح، جنوب بحيرة كيوجا وأنشأت دويلات عديدة، مثل بوغندا على الشاطئ الشمالي لبحيرة فيكتوريا(٦٥).

ولا نعلم إن كان كينتو قد وُجد حقًا. بيد أنه يبدو جليًا أن هذه الشخصية مرتبطة بمجموعة عشائر لغتها البانتو كان لها طوطمان هما الفهد والأسد. وتقول روايات بوغندا إن أهم الأماكن التي توقف بها كينتو نونو، ويوفي، وبوكيسا، ومانجيرا، وماغونغا، وبوتوالا، الخ... توافق أجزاء البلاد التي احتلتها عشائر الفهد. كما أن منطقتي الكانيانيا واللوادا، اللتين تعدّان اليوم من أهم أقاليم عشيرة الأسد في بوغندا، تعتبران عادة أماكن توقف بها كينتو. وكان الساحل الشمالي من بحيرة فيكتوريا، قبل أن تحلّ به مجموعة عشائر الأسد والفهد، تقطنه عشائر من البانتو مختلفة مثل عشائر أم قرفة والزبادة (القط الوحشي)، والقرد كولوبيه، والطائر، والمناقعية، والظبي. وكانت هذه العشائر تسمى في بوغندا، «بانانساغوا»، أي «الذين وُجدوا في المكان». وعلى الصعيد السياسي، كان يسيرها رؤساء مستقلّون بعضهم عن بعض غير أن عشيرة الظبي كانت قد أنشأت في منطقة البوسوغا الجنوبية الحالية مقاطعة بوغولو المتعدّدة العشائر التي كان يقودها «الايغولو». وكانت حياة هذا المجتمع مركّزة حول صناعة خزفية كبيرة ومزار مقدّس هام تسيطر عليهما معًا سلالة الابايسيه ايغولو المهيمنة.

وكانت هذه العشيرة قد هاجرت نحو الشمال الشرقي على طول ساحل بحيرة فيكتوريا الشمالي. وتمّ أول لقاء لها بعشائر الأسد والفهد في البوغولو.

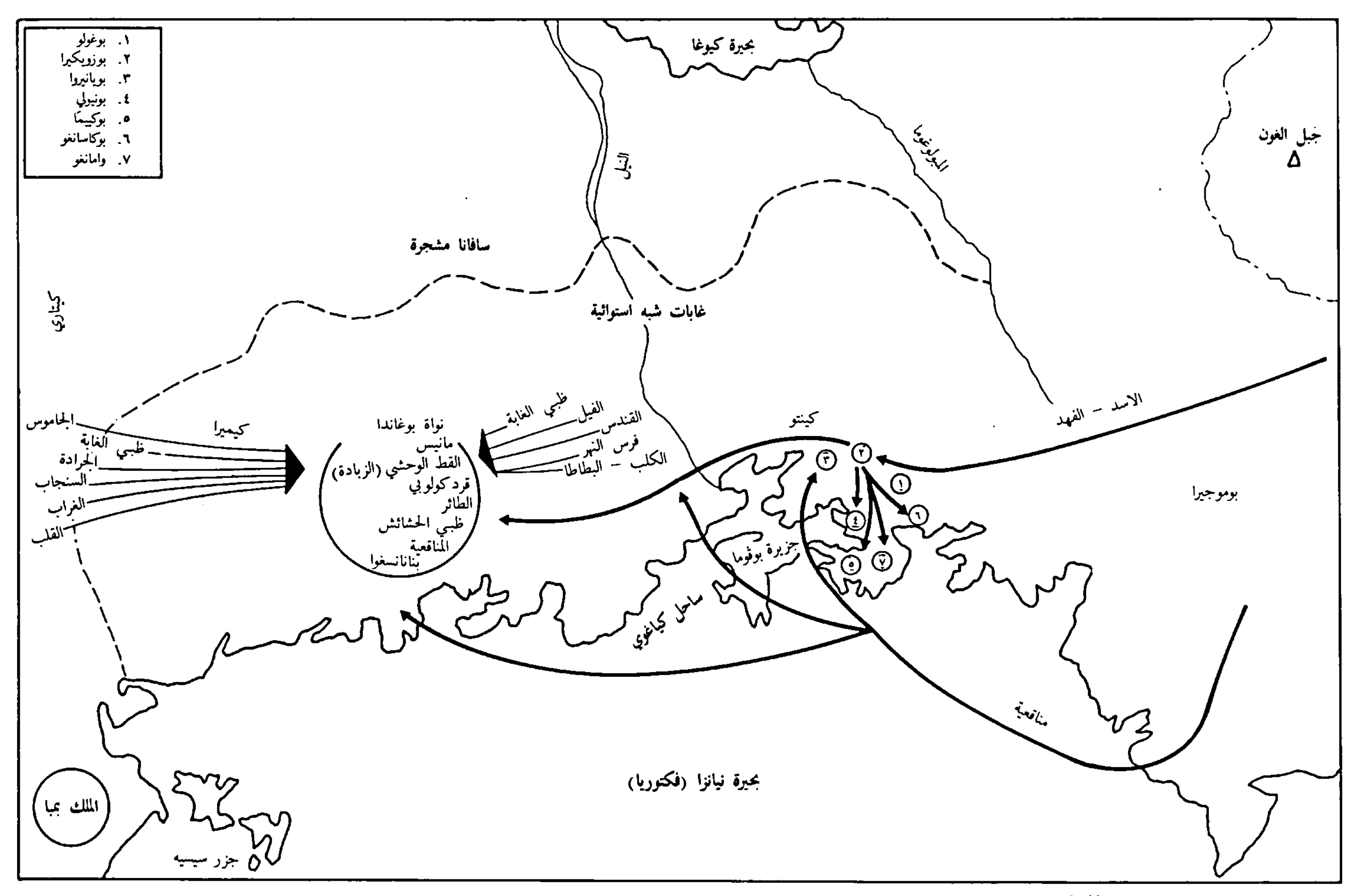
وقد كانت عشيرة المناقعية هي الأخرى في عداد «البانانساغوا» الذين التقوا بمجموعة كينتو في منطقة بوغولو. وتذكر الروايات التي جمعها كوهين في كل من البوسوغا، وبوغندا، وفي جزر بحيرة فيكتوريا،

---

(٦٣) يستفاد من التسلسل التاريخي الذي أورده ج. ك. ريني، في *TJH*. مجلد ٢. وهي رواية مراجعة من التسلسل التاريخي الذي وضعه ج. فانسينا، أن ثلاثة ملوك فقط ينتمون الى الحقبة التي تهمنا هنا، وهم نداهيرو روبانجيه (١٤٢٤–١٤٥١) وندوبا ف. نداهيرو (١٤٥١–١٤٧٨) وسامينيه ندوبا (١٤٧٨–١٥٠٥).

(٦٤) س. كيوانوكا، ١٩٧١، ص ٣٣.

(٦٥) د. و. كوهين، ١٩٧٢، ص ٧٠ والصفحات التالية.



• من كينتو الى كيميرا (ب. أ. أوغوت).

أنهم كانوا قادمين من مكان اسمه بومو جيرا يقع بين كيسومو وجبل الألغون ، حيث كانوا يقومون بدور مهم بصفتهم صيادي سمك وصانعي حديد. ولا نعلم بالضبط متى ولماذا بارحوا موطنهم الأصلي. وقد عبروا بحيرة فيكتوريا ، انطلاقًا من بوموجيرا ، وقصد البعض منهم البوسوغا الجنوبية وقصد آخرون جزر البوفوما وذهب آخرون أيضًا إلى البوساغا – بوساغاري على ساحل الكياغويه الذي توجّه منه رئيس عشيرة اسمه موبيرو نحو المانجيرا داخل الأراضي التي وُجد فيها كينتو.

وكان أعضاء العشيرة هؤلاء الذين قصدوا البوسوغا الجنوبية يقودهم والومبيه وقد التقوا بمجموعة كينتو في بوغولو. ويبدو أن شخصية كينتو الحقيقية أو الرمزية ظهرت ، في ذلك الأوان ، في صورة القائد لمجموعة الأسد والفهد. وقد تزوّج نامبوبي ، ابنة والومبيه ، وهكذا بدأ الارتباط الهام بين عشائر الأسد – الفهد وعشيرة المناقعية.

وواضح أن قدوم هذه الجموع من المهاجرين كان يقلق «الايغولو» ، وتقول الروايات الشفوية إنه هو الذي نصح كينتو وعائلات الأسد والفهد – ربما باستخدام عرّاف أو كاهن – بأن ينصرفوا.

فقرّر كينتو وأنصاره التوجّه نحو الغرب : وبلغوا منطقة البوسويكيرا التي لا تزال إلى اليوم تعتبر ، حسب روايات البوسوغا ، بمثابة «مكان وصول» كينتو ونامبوبي في أثناء رحلتهما انطلاقًا من غولو ، أي «السماء». ويبدو أن ما يسمى في الرواية التي تحكي «قصة أصل» بوغندا بالغولو أو «السماء» التي تركها كينتو خلفه ، هو تمثيل رمزي لبوغولو ومزارها المقدّس. وقد تبعهم في وقت قصير في البوسويكيرا ، أقاربهم بالنسب ، وهم عشيرة المناقعية التي كان يقودها والومبيه.

غير أنه لم يمضِ زمن طويل حتى نشب صراع بين عشائر الأسد والفهد وعشيرة المناقعية بخصوص اقتسام الأراضي ، مما دفع بمجموعة والومبيه الى الاستقرار إلى الغرب من ذلك بقليل ، في بويانيروا.

وتخبرنا روايات الأبيزي ماغاندا وهم من بوزوغا أن والومبيه كان أهم معبود لديهم لا تزال العشيرة تحافظ على مزاره المقدس بعناية.

وتذكر روايات البوزوغا أن بلدة بوسويكيرا كانت مركز نشاطات كينتو في بوسوغا ، وأن مجموعتي الأبايسيثيسو مبوا والابايسيكيما الحاكمتين اللتين أسّستا مشيخات البونيولي ، والبوكاسنغو ، والبوكيما على شواطئ البحيرة ، منحدرتان من ذرية كينتو.

وقد هاجر كينتو من بوسوغا نحو الغرب إلى المنطقة التي ستصبح فيما بعد نواة بوغندا. وتقول الروايات الشفوية أنه فيما عدا عشائر الفهد والأسد فإن العشائر الآتي ذكرها قد رافقت كينتو أو تبعته نحو الغرب : وهي عشائر الفيل والقضاعة ، والغزال وفرس النهر والكلب ، والانيام (البطاطا). وقد التقت أيضًا بقسم من عشيرة المناقعية ، يقوده موبيرو ، وكان هذا القسم قد وصل قبلهم إلى المنطقة ، وكان معاديًا لكينتو ولأتباعه. ولكن كان بمبا ، ملك البودو ، يشكّل خطرًا أشد. وإلى جانب محافظة بوغولو التي سبق أن تحدّثنا عنها ، كانت محافظة بمبا الواقعة في البودو التنظيم السياسي البانتو الوحيد المتعدّد العشائر في عهد ما قبل كينتو في المناطق التي تشتمل عليها بوسوغا وبوغندا الحديثتين. وبعد مدة قصيرة شبّ نزاع بين كينتو الذي كان قد تحالف مع احدى العشائر الموجودة من قبل – هي عشيرة القرد كولوبيه – وبين الملك بمبا : فقتل بمبا وشرع كينتو (أو خلفه) عندئذ في إقامة نواة الدولة التي ستصبح فيما بعد بوغندا.

وقد كان لهذا التشخيص لتواريخ بوغندا وبوسوغا ، وأوغندا الشرقية وكينيا الغربية ، بالنسبة إلى الحقبة التي نحن بصددها ، أن أتاح لنا أيضًا أن نتبيّن ، مثلما سبق أن أبرزنا مرارًا في هذا الفصل ، أن المزارعين الناطقين بلسان البانتو كانوا قد أنشأوا دويلات عديدة في منطقة البحيرات قبل أن تبدأ مجموعات الرعاة في القيام بدور سياسي هام. ويبدو أن نشاطات الرعاة قد حافظت ، من عام ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ ، على

طابع هامشي في المنطقة التي تعنينا بصفة خاصة. كما أن دويلات البوسوغا كانت في البداية إلى حد ما، دول غابات يرتكز اقتصادها على الزراعة أكثر من ارتكازه على مزيج من الزراعة وتربية الماشية، وهو مزج ينشأ عنه نظام طبقات ونوع من التقسيم الاجتماعي. وحتى من وجهة نظر ديموغرافية، نعلم أن «البانانسا غوا» (وهم أهالي بوغندا الأصليون) كانوا مزارعين. وكانت عشائر كينتو عشائر مزارعين هي الأخرى. وأصبح كيميرا، وأتباعه القادمون من الغرب الذين سنستعرض تاريخهم، مزارعين قبل كل شيء.

وقد لاحظ كل من كوهين وبوكانان[٦٦]، أن البعض من عشائر مجموعة كينتو توجّهت على ما يبدو، نحو الغرب وولجت الكيتارا. وبما أن حلول مجموعات كينتو بوسط ما يسمى اليوم بوغندا يبدو، حسبما يذهب اليه كوهين[٦٧]، قد سبق مباشرة بداية ملك الباتشويزي في أوغندا الغربية، فإنه يصبح من المعقول تمامًا أن تكون المجموعة المهاجرة نحو الغرب قد وصلت إلى الكيتارا في خلال عهد الملك وامارا، مثلما بينّا ذلك آنفًا. وكانت شخصية تُعرف باسم كانتو قد تولّت حينذاك زعامة المهاجرين القادمين من الشرق. وذكرنا أن الملك وامارا كان قد أبرم مع كانتو حلفًا دمويًا في نطاق سياسته الخاصة بإدماج النازحين. غير أن المجموعة التي قدمت من الشرق كانت (على ما يبدو) تشكّل خطرًا مقلقًا بشكل خاص لوامارا: فقتل قائدها كانتو، وعرّضت هذه الحادثة استقرار الأمبراطورية لخطر جسيم، حسبما تذكره روايات البونيورو[٦٨]. ولما أحسّت مجموعات مختلفة من العشائر بالخطر، بدأت تلتجئ إلى الغابات الاستوائية التي تحاذي في الشمال، بحيرة فيكتوريا: وتجرنا هذه الهجرة من الغرب إلى الشرق نحو بوغندا إلى التصدي لاحدى المشكلات التاريخية الخاصة بمنطقة البحيرات والتي لم تحل: ألا وهي المشكلة المتعلّقة بتجمّع الكيميرا.

وكثيرًا ما تقرن شخصية كيميرا (١٣٤٤ – ١٣٧٤ تقريبًا) بمنطقة الكيتارا، وهو علاوة على ذلك – وهذا مهم أكثر – يُعتبر مؤسس سلالة جديدة حاكمة في مشيخة بوغندا الصغيرة[٦٩]. وإنما الذي ينازع فيه هو أساسًا هوية عشيرته: فبعضهم يرى أن هذه العشيرة هي عشيرة الظبي، بحيث قد يكون أصلها من اللوو. وتشير رواية أخرى إلى أن أصلها يرجع إلى عشيرة الجرادة التي ينتسب إليها الباهيما. ويؤكّد كيوانوكا، مثلاً، معتمدًا على تأليف كاغوا الذي عنوانه تاريخ عشيرة الجرادة، أن كيميرا كان بلا شك أحد أفراد سلالة الباسونغا المستقرّة في كيسوزي[٧٠]، وهو على أية حال، يؤيّد رأي غورجو القائل بأن «كيميرا يبدو قد جاء إلى بوغندا قبل ظهور ملوك البابيتو الأوائل في البونيورو»[٧١]. وليس المهم، في الحقيقة هوية كيميرا الشخصية، بل المهم هو معنى الروايات المتعلّقة به أو بما سميناه بتجمّع كيميرا.

ويبدو أن هذه الروايات تتصل بهجرات مجموعات مختلفة فرّت من أمبراطورية الباتشويزي لتلتجئ إلى الغابات الاستوائية منذ عهد نداهورا وحتى سقوط هذه الأمبراطورية. ولا شك أن هؤلاء المهاجرين كانوا، في البداية، يبتغون التخلّص مما كان يسود المنطقة من اختلال أمن ناتج عن نشاطات نداهورا العسكرية.

---

(٦٦) ك. أ. بوكانان، ١٩٧٣.

(٦٧) د. كوهين، في ج. ب. وبستر (لم يصدر بعد).

(٦٨) ج. نياكاتورا، ١٩٤٧.

(٦٩) س. م. كيوانوكا، ١٩٧١، ص ٣٦ – ٤١.

(٧٠) المرجع السابق، ص ٤٠؛ أ. كاغوا، ١٩٠٥؛ ج. ل. غورجو، ١٩٢٠.

(٧١) س. م. كيوانوكا، ١٩٧١، ص ٤١.

ويبدو أن كيميرا نفسه قد غادر الكيتارا في ذلك العهد. وبعد موت كانتو، وسقوط أمبراطورية الباتشويزي في اثره، هاجر عدد كبير من اللاجئين من الكيتارا إلى بوغندا. كما قصد البعض منهم النكوريه أو دولاً أخرى مستقرّة سياسيًا.

ولا تذكر لنا الروايات الشفوية شيئًا عن مسارات هؤلاء اللاجئين. ومن الممكن جدًا أن تكون المجموعات الأولى منهم، كتلك التي كان كيميرا في عدادها، قد أسّست مجتمعات أو حتى دولاً في أثناء ترحالها، مثلما كانت تفعل عائلات الأسد والفهد في البوسوغا. وعلاوة على ذلك كانت هذه المجموعات من اللاجئين تضم عشائر عدة وتتكلّم بلغات مختلفة: ولا شك أنه كان يوجد ضمنها أهال أصليون من البانتو من الكيتارا، ورعاة من الباهيما، وصيادون ومزارعون من اللوو، وأفراد من عشائر البانتو أصلها من تجمّع كينتو. وتذكر روايات بوغندا أن تجمّع كيميرا كان يشتمل على العشائر الآتية: عشيرة الجاموس، وعشيرة الظبي، وعشيرة الجرادة، وعشيرة السنجاب، وعشيرة الغراب، وعشيرة القلب. وهكذا، فإن من يجمع روايات عشيرة الظبي في بوغندا، مثلما فعل كراتسولارا، يستنتج أن كيميرا وأنصاره كانوا من اللوو؛ لكنه إذا اقتصر على دراسة عشيرة الجرادة، شأن كاغوا ومترجمه كيوانوكا، استنتج أنهم كانوا من الباهيما. ومن جهة أخرى، فإن الاستناد إلى تاريخ قيام سيطرة البابيتو على البونيورو – كيتارا، لاستبعاد احتمال انحدار كيميرا من أصل اللوو، يحسن معه أن نتذكّر أن مجموعات كثيرة من اللوو قد سبقت البابيتو في البونيورو، وهو ما أشرنا إليه آنفًا.

وكان بالطبع لهذه الأقوام الفارة من أنظمة شتى ايديولوجيات مناهضة للباتشويزي، والبابيتو، والباهيما. فلا يستغرب إذًا أن تكون الروايات التي تقرن بوغندا باحدى المجموعات الثلاث قد حذفت، حتى عندما تكون البراهين الدالة على هذا الاقتران واضحة. وهكذا فإن مقارنة بين روايات الباتشويزي الشفوية في كل من البونيورو والنكوريه، وروايات بوغندا التي قلما تذكر الباتشويزي، تبرز أوجه شبه عديدة لا سبيل للمؤرّخين الى اهمالها. ويقال في البونيورو، وفي النكوريه، إن بواب ايسازا، ملك الكيتارا كان بوكولو، من عشيرة البلانزي، وورد اسم بوكولو أيضًا في روايات عشيرة القضاعة من جزر السيسيه (وهي نفس عشيرة البالانزي). وكانت ابنة بوكولو – وهي أم الملك نداهورا – تسمى في كل من البونيورو، والنكوريه، نيينا مويرو: ونظير ذلك في كيغاندا هو نامودو، وهو اسم كثيرًا ما يُذكر في أساطير السيسيه. وفي الغرب، نعلم أن حفيد بوكولو كان يسمى موكاسا. وتقول روايات النكوريه إن موغاشا فقد في بحيرة فيكتوريا، وتذكر روايات البونيورو أن الملك وامارا فُقد في البحيرة، وأنه هو الذي كان أمر بتهيئة بحيرة وامالا، بينما يُقال في بوغندا أن هذه المهمة إنما أنجزها وامالا، الذي هو من سلالة بوكولو. وعلاوة على ذلك فمثلما تؤلّه أرواح الباتشويزي، في منطقة تجمّع كيتارا، كذلك يؤلّه الباغندا أرواح سليلي بوكولو، أمثال نتنديه وموكاسا. أفليس ممكنًا إذًا أن يكون سليلو بوكولو في بوغندا هم من الباتشويزي؟

ولنعد الآن إلى عشائر النازحين التي تكوّن تجمّع كيميرا. فإن كانت هذه العشائر قد غادرت البونيورو في فترات مختلفة، فقد كان من الطبيعي أن تصل إلى بوغندا في أزمنة مختلفة أيضًا. غير أن هؤلاء اللاجئين جميعًا، مهما كان تاريخ مجيئهم يعتبرون أنفسهم اليوم في عداد مجموعة كيميرا؛ ويرجع ذلك، إلى حد كبير لرغبة كل واحد منهم في الانتساب إلى قائد مظفر. وقد أسّس كيميرا، فعلاً، سلالة حاكمة جديدة ودولة اندمجت فيها العشائر الخمس والثلاثون المختلفة المناشئ التي كانت قد استقرّت في المنطقة.

وكانت كل العشائر تتمنّى إشراكها في الملوكية: ومن ثم نشأت العادة المتمثّلة في أن كل عشيرة من

هذه العشائر كانت تقدّم للكابا زوجات من نسائها ، على أمل أن تتاح لكل عشيرة فرصة أن يكون خليفته منها[١٢] .

وفي بداية القرن السادس عشر ، كانت الحقبة من تاريخ بوغندا ، المتميّزة أساسًا بقدوم مهاجرين واستقرارهم قد انتهت . أما توطيد المملكة الجديدة وتوسّعها ، فإنهما يرجعان إلى حقبة لاحقة .

(٧٢) المرجع السابق ، ص ٩١ – ١٠٠ .

الفصل الحادي والعشرون

أحواض الزمبيزي والليمبوبو بين ١١٠٠ و ١٥٠٠ م.

بقلم برايان م. فاغان

حول عام ألف، حضارات ومجتمعات عصر الحديد

في نهاية الألف سنة الأولى من عصرنا، كان السكان من عصر الحديد يحتلّون الجزء الأكبر من السفانا المشجّرة التي تمتدّ بين نهري الزمبيري والليمبوبو وتصل شرقًا إلى المحيط الهندي، وشمالاً إلى ما نعرفه اليوم بزامبيا وملاوي[1]. وكان بقايا السكان القناصة من نهاية العصر الحجري الحديث ما زالوا يعيشون في جيوب أكثر عزلة من السفانا المشجّرة، وكانوا يتّصلون بصفة متقطّعة بجيرانهم المزارعين، ويسكنون ملاجئ تحت الصخور أو معسكرات صغيرة في أراضي مكشوفة، وُجد فيها، مع أدواتهم في الوقت نفسه، فخار يرجع إلى عصر الحديد. وكان السكان الذين يمارسون القنص وجمع الثمار، وهم أسلاف جماعات «السان»، يشغلون، من ناحية أخرى، جزءًا كبيرًا من منطقة كالاهاري جنوبي السفانا المشجّرة وغربها، واحتفظوا بهذه الأراضي حتى العصر الحديث. وكان أغلب أقوام عصر الحديد، في هذه المنطقة الواسعة من جنوب افريقيا الوسطى، من الفلاّحين الذين يمارسون زراعة مواد الإعاشة حيث كان غذاؤهم يستند إلى تربية الماشية الكبيرة والصغيرة المرتبطة بزراعة حبوب كالدخن والذرة البيضاء. وكان القنص وجمع الثمار جزءًا هامًا من نشاطهم الاقتصادي، لأن الزراعة المتنقّلة لم تكن تمارس إلاّ بأشكال بسيطة، تقتصر في أغلب الظن على اختيار مدقّق لبعض أنواع الأراضي بأحكام. وعلى الرغم من أن هناك ما يدل على وجود استيطان في جنوب افريقيا الوسطى في عصر الحديد، منذ عام + ٢٠٠، وعلى الرغم من أن هذا الاستيطان المبدئي قد تمّ في فترة قصيرة نسبيًا، فإن السكان الأوائل من المزارعين كانوا

(١) أنظر ب. م. فاغان، ١٩٦٧، المجلد ١؛ ب. م. فاغان، ود. و. فيليبسون، وس. ج. هـ. دانييلز، ١٩٦٩، المجلد ٢.

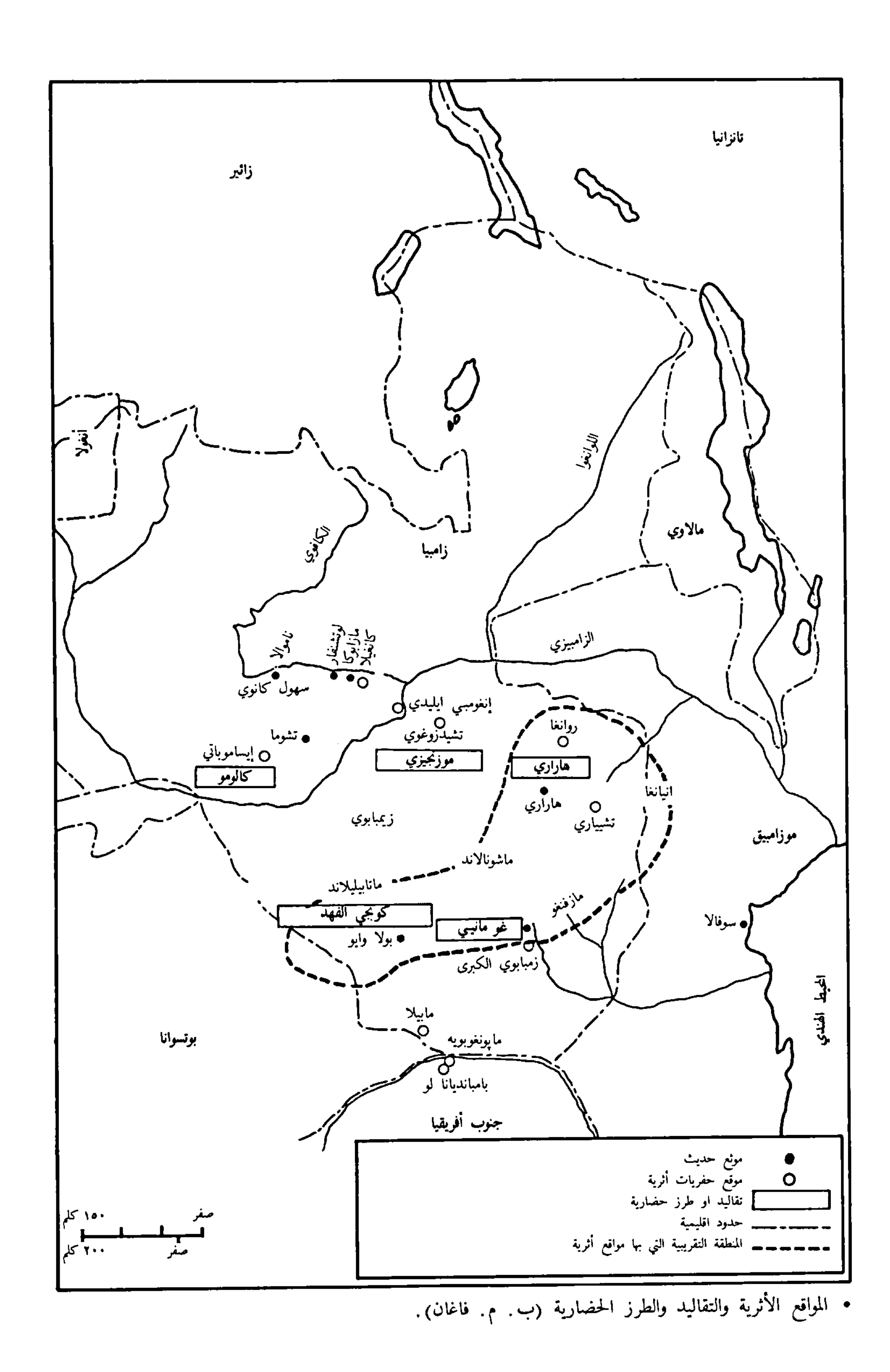
مبعثرين على نطاق واسع عبر المناطق التي لا تنتشر فيها ذبابة التسي – تسي ، وكان متوسط الكثافة السكانية منخفضًا للغاية. وكان توزيع ذبابة التسي – تسي متأثرًا بتوزيع مناطق الزراعة المتنقّلة الذي يؤثّر بدوره على توزيع السكان. وطوال الألف سنة الأولى هذه ، زاد عدد السكان المزارعين زيادة بطيئة ، لأن الأراضي الجديدة كانت تُزرع بقدر تحسّن طرق قطع الأشجار وبقدر تحسّن طرق العمل الزراعي. وكان استصلاح الأراضي في المناطق الجديدة ينتج جزئيًا عن الالتجاء إلى طرق الزراعة غير المستقرّة. فبالقياس إلى الأرقام الحديثة – كان يستغل أقل من ٥٠ ٪ من المساحات التي قُطعت أشجارها. وعلى مستوى التكنولوجيا ، كان مزارع عصر الحديد لا يعرف إلاّ صناعة بدائية للغاية لتعدين الحديد. وكان الناس يعرفون صهر النحاس ليصنعوا منه الحلي ، والأسلاك فيما بعد. وكان الفخار البسيط ، وإن كان مُتقن الصنع ، شائع الاستخدام. وشأنها شأن كافة المجتمعات التي تمارس زراعة مواد الإعاشة ، تكيّفت مجتمعات جنوب أفريقيا الوسطى تمامًا مع السفانا المشجّرة الموجودة في كل مكان تقريبًا ، وعرفت جيدًا أراضيها ، ومناخها ، ونباتها ، وكيفية استخدام المواد المحلية لبناء مساكنها ولكافة الاستخدامات المنزلية أو الاقتصادية. وقد كانت كل جماعة مستقلّة في الأساسيات ، وتتزوّد بما يلزمها من مواد أكثر تخصّصًا من القرى المجاورة ، بفضل التجارة المحلية.

وقد درس عدد من علماء الآثار القديمة بالتفصيل ، إلى حد ما ، الحضارات الأولى لعصر الحديد في جنوب افريقيا الوسطى ، وانصبّ عملهم أساسًا على طرز الفخار ، وتحديد تاريخه بالكربون المشع [٢]. فقد بلغت أواني المزارعين الأوائل البسيطة المحززة والمشرّطة حدًّا من التنوّع – من طرف هذه المنطقة الجنوبية من افريقيا الوسطى الى طرفها الآخر – بحيث اقترح عدد من «التنويعات الاقليمية» والتقاليد «والثقافات» لتصنيفها. وليس لنا أن نشغل أنفسنا بتفاصيل هذه المجتمعات المختلفة ، يكفي أن نقول إن هذه التقاليد الثقافية وهذا الإعمار من عصر الحديد القديم ، قد استمرّا خلال الألف سنة الثانية من عصرنا ولفترة طويلة ، في مناطق مختلفة من جنوب افريقيا الوسطى ، في شكل قرى من أكواخ الطين المسقوف بالقش ، وصناعة تعدين حديد بسيطة ، وتقنيات زراعية قائمة على الفأس وتنظيم سياسي اقتصادي قائم كلية على القرية. وكان سكان بداية عصر الحديد الأسلاف المباشرين للحضارات التي نمت وتطوّرت في القرون التالية.

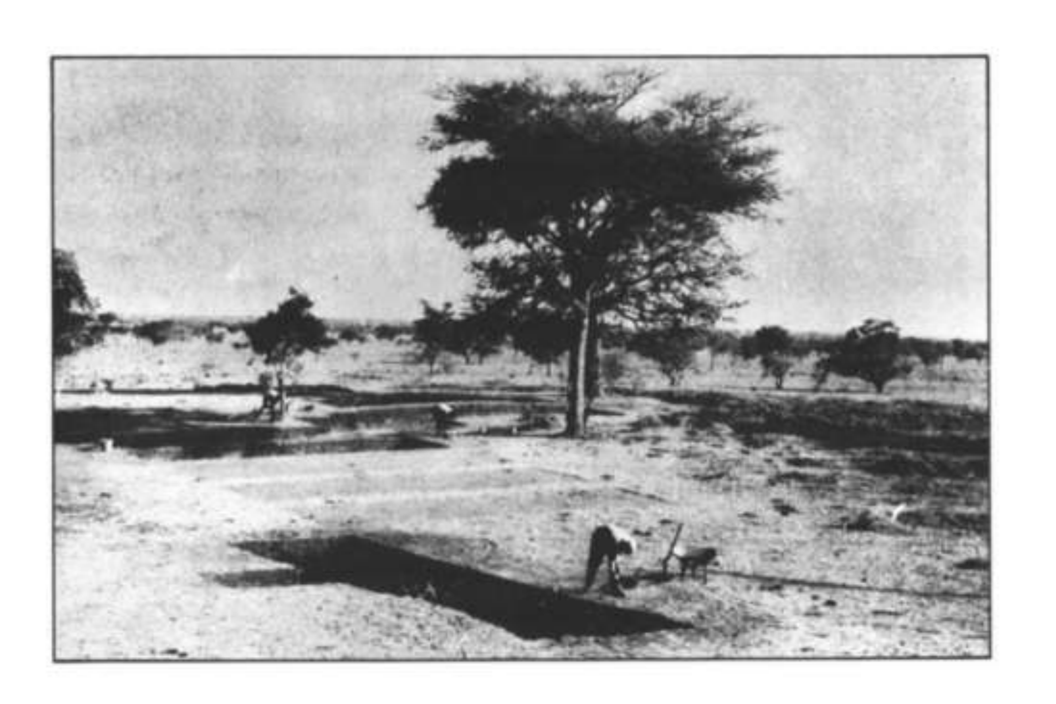
وبعد مرور ألف سنة تقريبًا على وصول مزارعي بداية عصر الحديد إلى موقع الزمبيزي وُلدت تقاليد حضارية جديدة ، على جانبي هذا النهر ، وكان مركز احداها هضبة باتوكا بصفة خاصة ، حيث وُجدت بدلاً من السفانا المشجّرة مناطق الحشائش المفتوحة التي تقدّم مراعي جيدة للماشية. وقد احتلّت هذه الأراضي المرتفعة الخالية من ذبابة التسي – تسي ، والتي تروي ريًا جيدًا طوال السنة تقريبًا ، شعوب عصر الحديد القديم منذ بداية القرن الرابع. وقرب نهاية الألف سنة الأولى ، احتلّ منشآتها فلاّحون لهم «حضارة كالومو» ، الذين كان أسلوب حياتهم مماثلاً لأسلوبها للغاية فيما عدا أن الأخيرين كانوا يولون اهتمامًا كبيرًا لتربية الماشية. وبعكس قطع فخار القرون الأولى المحزّزة والمشرّطة كان الفخار الجديد بسيطًا ، تزيّنه فقط بعض النقوش البارزة الدائرية الأفقية ، وهي إمّا مطبوعة بدقة أو محزّزة. وغالبًا ما كانت الأواني تتّخذ شكل الجراب. وأُجريت حفريات موسّعة في موقع ايزامو باتي خاصة ، بالقرب من مدينة كالومو الحديثة. وتقع ايزامو باتي ، مثل أغلب مواقع عصر الحديد على هضبة باتوكا ، على تل كبير ، مكوّن من بقايا فترات أشغالها المتتابعة التي تراكمت على مدى قرون عدة . وقد كان هذا التل موقعًا

---

(٢) أنظر خاصة د. و. فيليبسون ، في *JAH* ، المجلد ١٥ ، ١٩٧٤ ، ص ١ – ٢٦.



• المواقع الأثرية والتقاليد والطرز الحضارية (ب. م. فاغان).



• ربوة إيساموباتي (زامبيا) أثناء الحفر.

لبعض التجمّعات السكنية الصغيرة ، طوال مائتي سنة على الأقل بعد القرن السابع ، ولكن القرى أصبحت بعد ذلك أكبر بكثير . وفي عام ألف ميلادية تقريبًا ، كانت حضارة كالومو في قمة حيويتها في هذا الموقع . وكانت أحدث القرى التي أجريت فيها حفريات في إيساموباتي قرية هجرت في القرن الثالث عشر ، مكوّنة من سلسلة من أكواخ الطين والشجر التي تحيط بحظيرة مسوّرة مركزية للماشية ، في قمة التل . كان السكان يمارسون أساسًا تربية الماشية وزراعة الحبوب ، وذلك على أساس تعدين الحديد بطريقة بدائية إلى حد ما لصنع الأدوات الزراعية ، وسنان السهام ، وغيرها من الأدوات المفيدة . ونجد في كل قرية من قرى « حضارة كالومو » – وقد لوحظ هذا في المجرى الأوسط والأعلى لوادي الزمبيزي وعلى هضبة باتوكا على حد سواء ، أثرًا للمقايضة المحلية أو البعيدة المدى . وعثر ، في عدة قرى ، على شرائط وكرات نحاسية أتت فيما يبدو من مناطق تبعد عدة مئات من الكيلومترات كان يصهر فيها هذا المعدن ابتداءً من خام يعثر عليه بمستوى الأرض . واكتشاف حفنة من كرات الزجاج المجلوبة من الشاطئ الشرقي وقطع من ودع (الغوري) ، في بعض مواقع ومقابر « حضارة كالومو » أمر أكثر دلالة فذلك يدل على وجود مقايضة وتبادل بعيد المدى في هذه المناطق النائية من افريقيا الوسطى . لكن عدد هذه العمليات كان ضئيلاً جدًا ، بلا شك ، بحيث لم يؤثّر على البنية الاجتماعية لمجتمع عصر الحديد القديم .

وعلى الأغلب ، ترجع أصول « حضارة كالومو » ، إلى حضارات عصر الحديد القديم في المجرى الأعلى لنهر الزمبيزي ، وتشبه تكنولوجيا سكان كالومو واستراتيجيتهم الاقتصادية ، إلى حد كبير جدًا ، تكنولوجيا فلاّحي عصر الحديد القديم واستراتيجيتهم الاقتصادية ، مما يدل على بقاء حضارة عصر الحديد على هضبة باتوكا لفترة طويلة . ومن المحتمل أن يكون سكان عصر الحديد قد انتشروا انتشارًا سريعًا في منطقة واسعة نتيجة لتقسيم القرى والضغط للحصول على الأراضي الزراعية والمراعي[٣] . ولا بدّ أن هذا التأقلم كان ناجحًا ، ما دامت « ثقافة كالومو » قد بقيت ، فما يبدو ، حتى عام ١٤٥٠ في بضعة مناطق قريبة من شوما ووادي الزمبيزي . ولأسباب ظلّت غامضة لم تبلغ « ثقافة كالومو » ، شمال هضبة باتوكا وشمالها الغربي . وتوجد في منطقة مازابوكا ولوشنفار سلسلة أخرى من المواقع التي لم تبلغ أهميتها أبدًا أهمية تلال كالومو . وقد وجد هذا الطراز الذي أخذ اسمه من موقع كانجيلا ، بالقرب من مازابوكا أحسن تعبير عنه في موقع سيبانزي على حدود سهول نهر كافوي حيث تداخل لفترة ما مع حضارة ايلىلا تونغا الحديثة ، تلك التي ازدهرت عدة قرون على هضبة باتوكا في مجموعها . وازاء بعض التشابه في الطراز بين فخار كالومو وكانجيلا رأى بعض الأخصائيين أن هذه الطرز الخاصة بالأواني الفخارية يجب أن تنسب إلى شعوب تتكلّم لغة الايلىلا تونغا . ومعروف أن هذه الشعوب واحدة من أقدم المجموعات اللغوية في شمال الزمبيزي . اذن ، يمكن أن تكون شعوب الايلىلا تونغا هذه قد استقرّت في أراضيها الحالية منذ ألف سنة على الأقل . وفي مقاطعة ناموالا ، في الطرف الشمالي الغربي من سهول كافوي ، توجد سلسلة أخرى من التلال الأثرية الهامة للغاية تضمّ فخارًا يرجع إلى فترة من عصر الحديد الأحدث ، لم تُعرف معرفة جيدة بعد ، وهو قريب فيما يبدو من فخار الكالومو والكانجيلا . وفي انتظار نتائج مزيد من الأبحاث ، يمكن أن نفترض على الأقل أن هذه الطرز الفخارية تدل على أن الأيلىلا تونغا احتلّوا جنوب زامبيا في فترة قديمة للغاية .

ويتّسم تاريخ زامبيا اللاحق لهذه الفترة ، باتّساع الحركات السكانية والمناورات السياسية في القرون الخمسة الماضية التي أدّت إلى ورود التقاليد الحضارية القادمة من زائير ، والتي غطّت على ملامح

(٣) انظر د. و. فيليبسون ، في *JAH* ، المجلد ٩ ، رقم ٢ ، ١٩٦٩ ، ص ١٩١ – ٢١٢ .

الحضارات السابقة لعصر الحديد وامتصتها. ولكن، في زامبيا الشمالية والغربية والشرقية، ظلّت شعوب حضارة عصر الحديد القديم مستمرّة بعد بداية الألف سنة الثانية بكثير. وتعرّف دافيد فيليبسون على طرازين رئيسيين بالنسبة للخزف يظن أنهما ظهرا في زامبيا في بداية الألف سنة الثانية. ويغطي طراز اللوانغوا المناطق الوسطى، الشمالية والشرقية من البلاد، وينتشر حتى ملاوي، بينما يغطي طراز لونغويبونغو زامبيا الغربية. وكان الاثنان ما يزالان موجودين حتى فترة قريبة. ونحن لا نعرف إلاّ القليل عن أصولهما، على الرغم من أنهما يتمايزان بسهولة، في أشكالهما الحديثة، عن طراز عصر الحديد القديم.

التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر

في جنوب الزامبيزي، كانت حضارات عصر الحديد القديم، التي كانت موجودة في الألف سنة الأولى، قد استُبدلت في مناطق مختلفة بمجتمعات جديدة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ويُعرف أشهرها باسم تقليد (أو طراز) كوبجي الفهد وتمتدّ من وادي الليمبوبو في اتجاه الشمال حتى منطقة بولاوايو، ويتجه إلى منطقة تقسيم المياه بين الليمبوبو والزمبيزي[٤]. وقرى كوبجي الفهد أصغر من القرى الزراعية الأقدم منها، ويحتمل أن يكون هذا نتيجة لتغييرات بيئية من فعل الإنسان. وعلى عكس مواقع عصر الحديد القديم، احتلّ عدد كبير من هذه المواقع عدة مرات، ويبدو أن حجم قطعان الماشية قد زاد. ويدل وجود بعض التماثيل الصغيرة التي تمثّل الثيران، وكذلك عظام بعض الأبقار في المقابر على الظن بأن أهمية الماشية فاقت أهميتها في القرون السابقة. وتدل كوبجي الفهد على انقطاع واضح للغاية عن تقاليد عصر الحديد القديم، ويبدو من المؤكّد تقريبًا أن أصحابها كانوا من المهاجرين، وليست لهم روابط ثقافية مباشرة مع من سبقوهم في هذه المنطقة. ولم يترك سكان كوبجي الفهد أي أثر في شمال الزمبيزي. وقد قيل بأنهم غزوا أراضي بلادهم انطلاقًا من مراعي بوتسوانا وأنغولا، وهي مناطق لم يصل إليها علماء الآثار بعد، لكن هذا مجرد افتراض. وكان أول من سكنوا كوبجي الفهد، شأنهم في ذلك شأن من سبقوهم، يعيشون على زراعة مواد الاعاشة، أي على زراعة الدخن والذرة البيضاء، وكانوا في الوقت نفسه، يمارسون القنص وجمع الثمار. وكانوا يمارسون مثل جيرانهم في كالومو صناعة تعدين للحديد بسيطة للغاية؛ وكانت بضع كرات من الزجاج وبعض أصداف القواقع المستوردة، قد وصلت إلى قراهم المبعثرة. وفي نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر، زاد عدد السكان الذين أخذوا يزرعون ما يسمى بحزام الذهب في ماتابيليلاند وأنشأوا قرى شغلوها لفترات أطول. ويمكن أن يكون هذا التغيير قد اتفق مع بداية استغلال المناجم وتشغيل الذهب، اللذين قد يرجع أقدم تاريخ لهما، في جنوب الزمبيزي إلى حوالى القرن الثاني عشر. وكانت بعض مواقع كوبجي الفهد، مثل موقع بمبنديانالو في وادي الليمبوبو، تبلغ أبعادًا ضخمة بحظيرتها المركزية المسوّرة. وفي موقع اخر، تل مابيلا، الذي يبعد ١١١ كيلو مترًا عن الموقع الأخير، تمّ تشكيل تل يبلغ ارتفاعه ٩٢ مترًا إلى مصاطب من الأحجار المرصوصة بشكل غير دقيق. ويبدو أن أبعاد هذا العمل كانت من الاتساع بحيث تطلّبت بالتأكيد جهدًا هائلاً من الجماعة كلها. ومن جهة أخرى، بُنيت مجموعة من الأكواخ أكبر من باقي أكواخ القرية، على أعلى

(٤) أنظر خريطة المواقع والتقاليد الأثرية القديمة؛ ت. ن. هوفمان، ١٩٧٤ ب.

مصطبة ، وكانت من المتانة بحيث يمكن أن نقول إنها كانت مخصّصة للشخصيات الهامة التي تحتلّ موقعًا متميّزًا في المجتمع ، مما يتميّز عن الحضارات الأقدم ، حيث لا نجد أي أثر لتدرّج هرمي للأوضاع الاجتماعية أو تمايز بينها. كذلك كانت الكرات الزجاجية والأشياء الأخرى المستوردة شائعة أيضًا ، بما يوحي بتزايد وتيرة التبادل البعيد زيادة محسوسة. وفي فترة متأخّرة تعطي حضارة كوبجي الفهد انطباعًا واضحًا بأن اقتصادها قد تنوّع ، وبأن السيطرة عليه أصبحت أفضل ، وبأنه قام على استغلال المناجم ، وصناعة التعدين والتبادل التجاري ، وكذلك زراعة مواد الإعاشة. بينما تركّزت السلطة السياسية والثروة بين أيدي عدد قليل نسبيًا من الأشخاص الذين يعيشون في المراكز العمرانية الكبرى في المنشآت الرئيسية. ويشهد على ذلك موقع مابونغوبويه الشهير ، حيث كانت مجموعة صغيرة من القادة الأثرياء قد استقرّت عند قمة تل منخفض طويل يشرف على وادي الليمبوبو ، في القرن الخامس عشر. وقد وجدت في هذا التل ، كمية كبيرة من بقايا قرية كثيرة السكان[٥] ووجد بعض الخرز من الذهب ، كما وُجدت بعض الصفائح الذهبية في مقابر تقع فوق التل ، ووُجدت في الوقت نفسه كرات زجاجية عديدة وأشياء أخرى مستوردة. ومن الواضح أن مناجم النحاس الكثيرة في وادي الليمبوبو كانت مصدرًا كبيرًا للثروة بالنسبة للسادة في مابونغوبويه ، الذي ظلّ مقر إقامتهم المرتفع مكانًا مقدّسًا حتى أيامنا هذه. هل كانت تدير مابونغوبويه مجموعة أقلية تمارس سلطتها السياسية والدينية على الفلاّحين المحليين؟ ما هي طبيعة العلاقات بين موقع الليمبوبو وزيمبابوي الكبرى في الشمال الشرقي؟ كلها أسئلة ما زالت موضع جدل ونقاش. ولم نعرف جيدًا بعد الاتجاهات الكبرى التي أدّت إلى فلاحة الأراضي الأثقل تدريجيًا ، وبناء مساكن أوسع وأبقى ، ونحن نفتقر ، في الواقع ، حتى لافتراضات ولو مؤقّتة تفسّر هذه الظواهر.

وتوجد كذلك آثار مجتمعات زراعية جديدة في مناطق أخرى جنوبي الزمبيزي. وفي شمال الشرق، كان طراز موزنجيزي مزدهرًا بالقرب من الحدود الجنوبية لوادي الزمبيزي وعلى الهضبة في الشمال ، بينما عثر على طراز هراري في منطقة سالزبوري. ويتعلّق الأمر في الحالتين بمجتمعات من الفلاّحين تعكس المميزات الاجتماعية والثقافية المتقدّمة التي كانت لمجتمع كوبجي الفهد بعد القرن الثاني عشر. وطراز الخزف في المجموعتين أقرب إلى خزف نهاية عصر الحديد منه إلى بدايته. وربما انتمى الفلاّحون الذين كانوا يمارسون زراعة مواد الإعاشة في منطقة انياجا في الشرق إلى هذه التقاليد نفسها وحافظوا على الحضارة البسيطة لزراعة المنحدرات حتى العصر الحديث.

وقد استمرّت كل من هذه التقاليد الحضارية التي نشأت كما هو واضح عن نزعة جديدة ظهرت في نهاية الألف سنة الأولى ، ربما نتيجة لتحرّكات سكانية أو تجديدًا تكنولوجيًا من الخارج ، استمرّت حتى عهد قريب ، وإن كانت قد أصابتها تغيّرات عميقة. وكان تقليد كوبجي الفهد قد انقسم إلى فرعين: شمالي وجنوبي ، وظلّ الفرع الثاني قائمًا حتى القرن التاسع عشر. وابتداءً من بعض المعطيات الافتراضية جدًا – وإن كانت معقولة – جرت محاولات لتحديد ارتباطات بين هذه التقاليد والطرز الأثرية وبين بعض مجموعات اللغات التي تعيش حتى الآن بين الزمبيزي والليمبوبو. ولغات الشونا هي أهم أسرة لغوية هنا ، وهي تشتمل على ست مجموعات لهجات على الأقل (كالانغا ، كارانغا ، نداو ، مانيكا ، زيزورو ، كوري كوري). ونجد بين اللغات الأخرى النديبيلية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، والتونغا ، والهلنغوي ، والفندا ، ولا ينتمي أي منها إلى المنطقة أصلاً. والشونا نفسها ليست لها أية صلة مباشرة بالبانتو في جنوب الشرق. ويظن أن عديدًا من التقاليد الحضارية التي وصفناها سلفًا على علاقة وثيقة بهذه

(٥) ب. م. فاغان، ١٩٦٤، ص ٣٣٧ – ٣٦٢.

المجموعة من مجموعات لهجات الشونا أو تلك. ويرتبط سكان كوبجي الفهد بالكالانغا، ويرتبط الهراري بالزيزورو. وعلى الرغم من أنه لم يتم الكشف عن الحلقات التي تمكن من ربط الكالانغا، والكوري كوري، والنداو، والمانيكا ببعض المواقع الأثرية القديمة أو الطرز الفخارية، فإن الروايات الشفوية تحمل على الظن بأن أغلب الثقافات التي وصفناها توًا، والتي ولدت في عصر الحديد المتأخّر بين الزمبيزي والليمبوبو يمكن أن تربط بمن يتكلّمون الشونا. ومن بين هذه الشعوب التي تتكلّم الشونا، خرج إلى حيز الوجود، بعد القرن الثاني عشر، تطوّر سياسي واقتصادي بالغ الأهمية.

أصول ثقافة زيمبابوي الكبرى

تشتهر آثار «زيمبابوي الكبرى» الذائعة الصيت التي توجد بالقرب من مدينة ماسفنغو (فورت – فكتوريا سابقًا) الحديثة وهي واحد من أبرز مظاهر هذا التطوّر، بروعة معمارها والنظريات الغريبة التي تحيط بأصلها في آن واحد[٦]. ويرى كل من البحّاثة الجادين اليوم أن «زيمبابوي الكبرى» هي مشروع افريقي أساسًا بني بمواد محلية، وفقًا لمبادئ معمارية طبقت على مدى قرون عدة. في حين لم تفسر[٧] بعد الأسباب النهائية التي أدّت إلى ظهور نمط التنظيم الاقتصادي، والسياسي، والديني الذي كان أصلاً لهذا الموقع الأثري ولمواقع أخرى تشبهه تقع بين الزمبيزي والليمبوبو.

الاكتشافات الأثرية القديمة وأقدم استيطان

تقتصر الآثار المتبقية من استيطان زيمبابوي، في عصر الحديد القديم، على الطبقات السفلى من التسلسل الثقافي الطويل الذي اكتشف على ما سمي تل الأكروبول الذي يشرف على الأرض المسوّرة الكبرى، وهي أبرز إنشاءات «زيمبابوي الكبرى» قاطبة، وعلى بقايا قطع فخارية مبعثرة في الوادي، أسفل التل. وقد أرجع تاريخ الأكروبول الذي يوافق عصر الحديد القديم إلى ما قبل القرن الرابع. ولا يستطيع أحد أن يقول إن موقع زيمبابوي، في عصر الحديد القديم، كان هامًا حقًا. وربما كانت الوديان التي تفصل بين هذه التلال، وفيرة الأمطار، على حد قول بيتر جارلاك، «أراضي صيد جيدة ومنطقة مفتوحة، ذات أراضي خفيفة سهلة الحرث». وكان لا بدّ من انتظار القرن العاشر او الحادي عشر – ما زال هذا التاريخ غير أكيد – لكي تقيم في زيمبابوي شعوب الجزء المتأخر من عصر الحديد. ولا نعرف إلاّ القليل من هذه الشعوب، لأنه لم يكتشف سوى عدد صغير جدًا من المواقع التي كانت تحتلّها، فيما عدا موقع غوماني في «زيمبابوي الكبرى» ذاتها. وفخار هذه المواقع لا يشبه قط فخار عصر الحديد القديم، ولقد قورن بأوان من كوبجي الفهد على الرغم من بعض الفروق البارزة. إن طراز غومانن هذا، غير معروف جيدًا، ولسوف يظلّ كذلك إلى أن تُكتشف مواقع أخرى من نوعه وتُجرى فيها الحفريات. وكان

(٦) أنظر ر. سامرز، ١٩٦٣، فيما يتعلق بنقد هذه النظريات ونظرة عامة اليها.
(٧) بالنسبة لهذا الموضوع، أنظر ب. جارلاك، ١٩٧٣

شاغلو هذا الموقع قد استقرّوا في زيمبابوي قبل أن تُبنى أسوارها الحجرية الكبيرة ، وكانوا ينتمون إلى تقليد ثقافي آخر ، يُعتقد أنه يرجع إلى عصر الحديد المتأخّر ، وقريب إلى حد ما من تقليد كوبجي الفهد الذي تتشابه بعض خواصه المميّزة مع خواص غوماني . لكن أيًا كان الوصف الدقيق الذي يُقدَّم عن الغوماني ، فإن ثقافة هذا الشعب قد تطوّرت بشكل واضح ، منذ القرن الثاني عشر . فالفخار أفضل إتقانًا ، وبدأت تصنع التماثيل الآدمية الصغيرة من الطين ، ويستورد الكثير من خرز الزجاج والأشياء الأخرى . وأصبح البناء بالبانكو والأشجار أكثر متانة ، وبدأت تتكاثر الحلي النحاسية ، والبرونزية ، والذهبية ، وانتشر بناء الجدران الحجرية في « زيمبابوي الكبرى » . وحدث أيضًا تطوّر مواز ، جزئيًا على الأقل ، في بعض مواقع كوبجي الفهد ، مثل موقع مابيلا سالف الذكر . ومنذ عام ١٣٠٠ أرسيت قواعد دولة قوية ذات نفوذ مركزها في «زيمبابوي الكبرى» ، تغطي منطقة هامة من ماشونالاند الوسطى والجنوبية . ولا مجال للشك في أن أصل هذه الدولة قد شارك في عدة تقاليد ثقافية مع تقليد كوبجي الفهد ، وان هذا التماثل الأساسي ربما امتدّ إلى استخدام لغة مشتركة هي الشونا . ولنستشهد مرة أخرى ببيتر جارلاك « امتدادًا من أواخر القرن الثاني عشر ، أثّر تنوّع الثروة وتوسّعها وتراكمها ، كما أثّر التخصّص الاجتماعي والاقتصادي والوظيفي المتزايد الذي صاحبهم ، على هاتين الثقافتين ، بحيث أمكن في نهاية المطاف أن تبنى وأن تستخدم منشآت كاملة ، لأهداف محدودة من قبل بعض المجموعات أو التجمّعات السكانية ، باعتبارها مناطق محدّدة داخل الموقع »[8] . وربما كانت «زيمبابوي الكبرى» واحدة من هذه المنشآت .

قبل أن نصف «زيمبابوي الكبرى» ، يجدر بنا أن نفحص عن قرب أكثر بعض الافتراضات المقدّمة لتفسير تكوين دولة « زيمبابوي الكبرى» . لقد اقترحت نظريتان كبيرتان ، الأولى للمؤرّخ دونالد ابراهام[9] ، تعتبر أن الشونا مهاجرون ينتمون إلى نهاية الألف سنة الأولى من عصرنا ، وأنهم لم يدخلوا تقنيات استغلال المناجم وتجديدات تقنية أخرى فحسب ، وإنما أتوا بعبادة الأسلاف الخاصة بهم ، ومن ثم فقد أنشأوا المعابد ، التي بُني أهمها على تل اسمه مانوا ، وسموها « دزيمبا دزيمبابوي » (البيوت الحجرية) . ويقول ابراهام إن قادة الشونا عرفوا بمناورات سياسية ماهرة ، كيف يمارسون نفوذًا مسيطرًا على اتحاد فيدرالي متراخي الروابط وعلى الزعماء التابعين لهم ، الذين كانوا يدفعون لهم جزية من العاج وتراب الذهب . وكان التجار العرب ، على الساحل الشرقي لافريقيا ، قد عقدوا صلات مع هذا التحالف القوي ، واستخدموها لتنمية تجارة الذهب والعاج ، لكن سلطة الدولة المركزية كانت بين أيدي الزعماء والكهنة الذين يسيطرون على عبادة المواري والطقوس المعقّدة لتقديم الأضحية للأسلاف المرتبطة بها ، ويلعبون دور الوسيط بين المواري والشعب . وتستند هذه النظرية ، ويُقال إنها دينية ، إلى أبحاث مكرّسة لروايات الشونا الشفوية التي لم تنشر تفاصيلها بعد . ووفقًا لنظرية أخرى ، ترجع نشأة دولة كارانغا ، بصفة خاصة ، إلى زيادة التبادل التجاري . فقد كانت حبات الزجاج ، وأشياء أخرى مستوردة بكمية كبيرة تُستخدم في زيمبابوي في القرن الرابع عشر . كما كان يستخدم كل من الزجاج السوري ، والخزف الايراني ، والخزف الأخضر الصيني ، وكلها أدلّة تشهد على زيادة محسوسة في التجارة . وكانت الأشياء الذهبية والنحاسية كثيرة أيضًا في « زيمبابوي الكبرى» ، لأن استغلال خام هذه المعادن كان قد عُمِّم في جنوب الزمبيزي . وفي نفس هذه الفترة تقريبًا ، ازدهرت مدينة كيلوه العربية الساحلية ازدهارًا مفاجئًا ، وربما ارتبط هذا التقدّم بالتوسّع في تجارة الذهب والعاج مع منطقة سوفاله ، على شاطئ موزمبيق ، التي

(٨) ب . جارلاك ، المرجع السابق .
(٩) د . ب . ابراهام ، في JAH ، المجلد ٢ ، عدد ٢ ، ١٩٦١ ، ص ٢١١ – ٢٢٦ .

كانت لعدّة قرون مخزنًا ساحليًا لتجارة الذهب مع افريقيا الوسطى الجنوبية. ولا شك أنه يهمنا أن نلاحظ أن الرحّالة العربي ابن بطوطة، عندما زار كيلوة عام ١٣٣١، ذكر تجارة الذهب في سوفالة التي تبدأ في «يوفي من بلاد الليميين» وهي نقطة تقع داخل البلاد، يمكن الوصول إليها بعد شهر من الرحيل من سوفالة[١٠].

وتستند هذه النظرية الخاصة بالتوسّع التجاري على انطلاق التصدير والاستيراد، مع الافتراض بأن الرئيس هو أغنى الناس، في مجتمع يعتمد على «النسب الأسري»، وفيه حد أدنى من التمايز الاجتماعي إلى طبقات. لكن جزء من هذه الثروة يُوزَّع من جديد على باقي المجتمع عن طريق الاحتفالات، والزواج، والجنازات، الخ... وكلما زاد التبادل التجاري زادت الثروة المتراكمة التي لم يُعاد توزيعها على المجتمع. ومن هنا جاء التركز المتزايد للثروة والسلطة السياسية بين أيدي البعض، وهو وضع قد يصبح ضارًا على المدى البعيد. وفي نهاية المطاف، كان يستطيع حاكم ثري أن يستأجر بعض الناس لينفّذوا الأشغال العامة، أو يجبر الشعب بقرار سياسي فقط، على العمل للدولة وفقًا لنظام السخرة الذي كان متبعًا فيما مضى، كما كان الحال عند اللوزي، في زامبيا مثلاً. اذن، في حالة «زيمبابوي الكبرى»، يمكن أن يكون ثراء الزعماء المتزايد قد ساعد على تزايد إعادة توزيع الثروة، وتركيز السكان في مركز تجاري هام، وتنظيم الأيدي العاملة التي قامت ببناء الأسوار الضخمة للمنطقة المسوّرة الكبرى والأكربول. وتستند نظرية التجارة إلى حد كبير إلى الفكرة القائلة بأن إنشاء الدولة يرجع إلى تقدّم تجارة الشاطئ الشرقي وإلى افتراض أن السلطة الاقتصادية متطابقة مع السلطة السياسية، وهو افتراض قد يكون صحيحًا، لكن جزئيًا فقط. وهو يفترض أيضًا أن بناء الأسوار الحجرية تطلب أيدي عاملة كثيرة وربما لم يحدث هذا، حسب بعض الدراسات التي أُجريت في أماكن أخرى.

السلطة السياسية والاقتصادية وتكوين دولة زيمبابوي الكبرى

لا تضع النظريتان في اعتبارهما كثيرًا حقائق زراعة مواد الإعاشة، وتعقد المراكز التي تتّخذ فيها القرارات وتسيطر، على الأقل بالمعنى الواسع للكلمة، على التوجيه الشامل للتطوّر الاجتماعي.

نشأت دولة «زيمبابوي الكبرى» قبل الرواية الشفوية التي وصلتنا بكثير. وكا معطياتنا مستمدّة من المواقع الأثرية القديمة أو من معلومات لغوية عامة للغاية. وقد أثبت علماء الآثار أن السكان الذين يتكلّمون الشونا يمكن أن يكونوا أصل التقاليد الخاصة بالعصر الحديدي المتأخر في المنطقة الواقعة بين الزمبيزي والليمبوبو. وابتداءً من القرن الثالث عشر، بدأت تقاليد كل من كويجي الفهد الغومانجي تبدي مزيدًا من التنوّع الذي يرجع في آن واحد إلى اتّساع نطاق التبادل التجاري ومزيد من مركزية السلطة السياسية. وفي بعض المناطق، ساعدت زيادة الكثافة السكانية التي لم يسبق لها مثيل على تحسين طرق الزراعة المتنقّلة غالبًا باتّباع تقنيات أكثر تقدّمًا لقطع الغابات وحرقها، مما يمكن من تباعد الفترات التي تظل الارض خلالها بلا زرع. مع ذلك، حتى ولو كان السكان قد تركّزوا بطريقة ما في «زيمبابوي

---

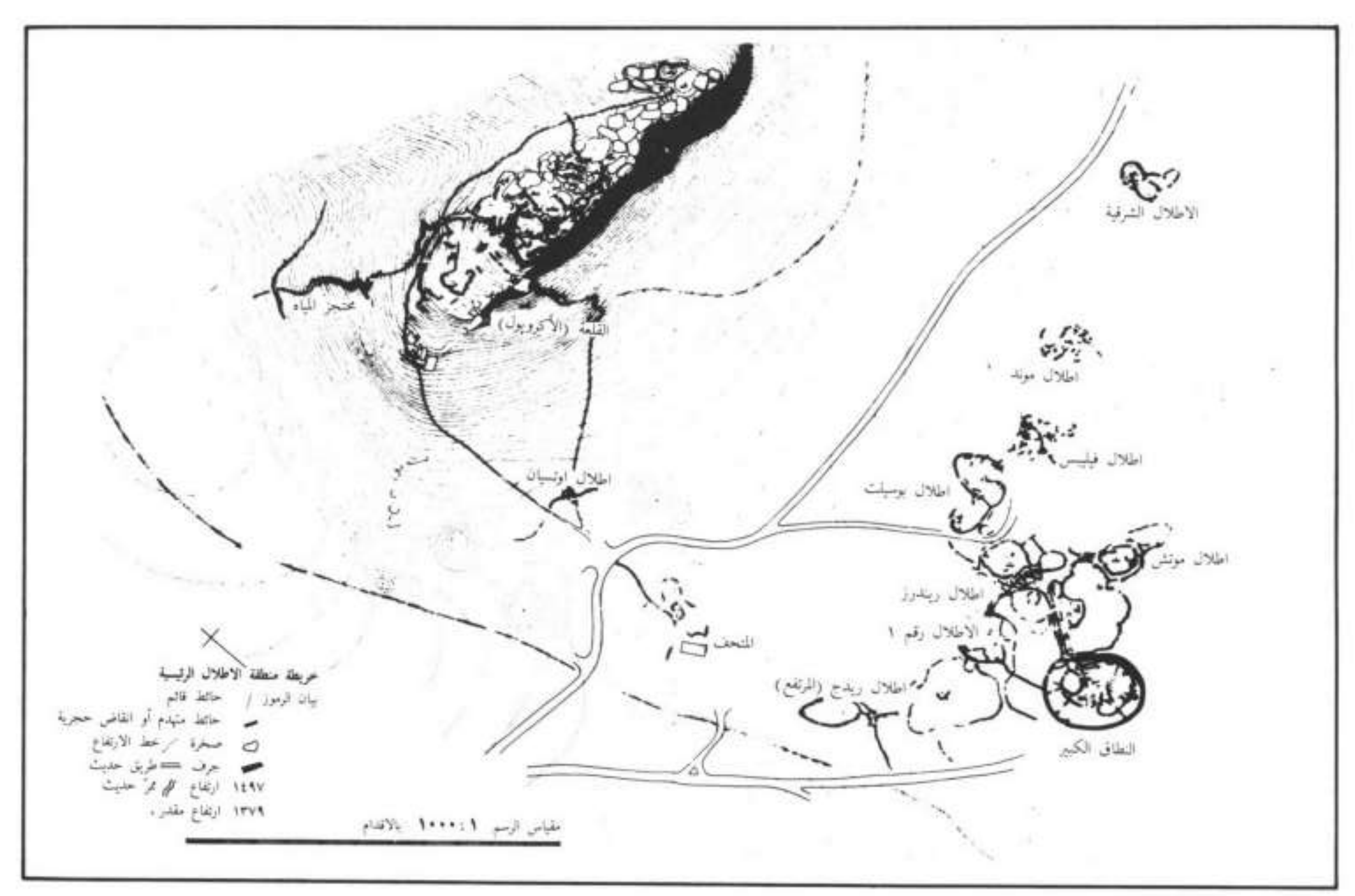
(١٠) ابن بطوطة، الترجمة الانجليزية، ١٩٥٨ – ١٩٦٢. لم تتأكّد بعد هوية هذا الموقع. ويمكن أن نذكر بالنسبة لملف العلاقات بين كيلوه وزيمبابوي، قطعة من النقود اكتشفت في زيمبابوي، وترجع الى عصر الحسن بن سليمان (١٣٢٠ – ١٣٣٣ تقريبًا).

الكبرى» وفي مراكز أخرى ، فإن أغلبهم كانوا موزّعين أساسًا على قرى أصغر تُقام وتُنقل وفقًا لمتطلّبات الزراعة المعاشية وتربية الماشية. وعندما كان مركز مثل «زيمبابوي الكبرى» يجتذب قدرًا أكبر من سكان الريف ، كانت زيادة الكثافة السكانية تترك ، بلا شك ، آثارًا هامة بعيدة المدى تتعلّق بخصوبة الأرض ، والمبالغة في الرعي ، وإتلاف البيئة.

كانت مجتمعات العصر الحديدي التي تعيش على زراعة مواد الإعاشة مكتفية بذاتها اجمالاً ، على الرغم من أن بعض المواد الأولية ، مثل خام الحديد أو شجر الأكواخ ، كانت تأتي من مصادر محلية ولكن بعيدة نسبيًا. وفيما عدا بعض الدوافع الدينية أو الاقتصادية ، لم تكن هذه المجتمعات مدفوعة قط إلى ممارسة التجارة البعيدة ، ومن الصعب تبيّن دوافع اقتصادية في مجتمع قروي يكتفي بذاته أساسًا. والإحساس بهذه الدوافع شيء ، وتوحيد سكان الريف المبعثرين ، وضمهم تحت لواء ديني ، أو سياسي ، أو تجاري واحد ، شيء آخر. وإذا صحّ أن الطلب على المواد الأولية الذي شجعته التجارة مع ساحل افريقيا الشرقية قد أدّى بوضوح إلى مبادرات اقتصادية جديدة ، فإن هذه التجارة في حد ذاتها كانت لا تستطيع أن تجمع السكان تحت سلطة سياسية أو دينية واحدة. ولكي يحدث تطوّر كهذا ، كان يجب ، ليس فقط أن يتقن عدد صغير من الأسر الأمور السياسية أو الدينية ، وإنما أيضًا أن يختار المجتمع في مجموعه ، بوعي أو بغير وعي ، تنظيمًا اجتماعيًا وسياسيًا أكثر تدرّجًا من الناحية الهرمية ، حتى لو لم يع المعنيون بالأمر ذلك في حينه ، لا يمكن إرجاع أصل دولة «زمبابوي الكبرى» أو ، أمر أي مملكة افريقية أخرى إلى الدافع الديني أو التجاري وحده. لكن هذين العاملين ، بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة لا تمكّننا الحفريات من معرفتها إلاّ بصعوبة ، لعبا دورًا عندما تجاوز الأفق السياسي والاقتصادي لأعضاء مجتمعات العصر الحديدي حدود القرية.

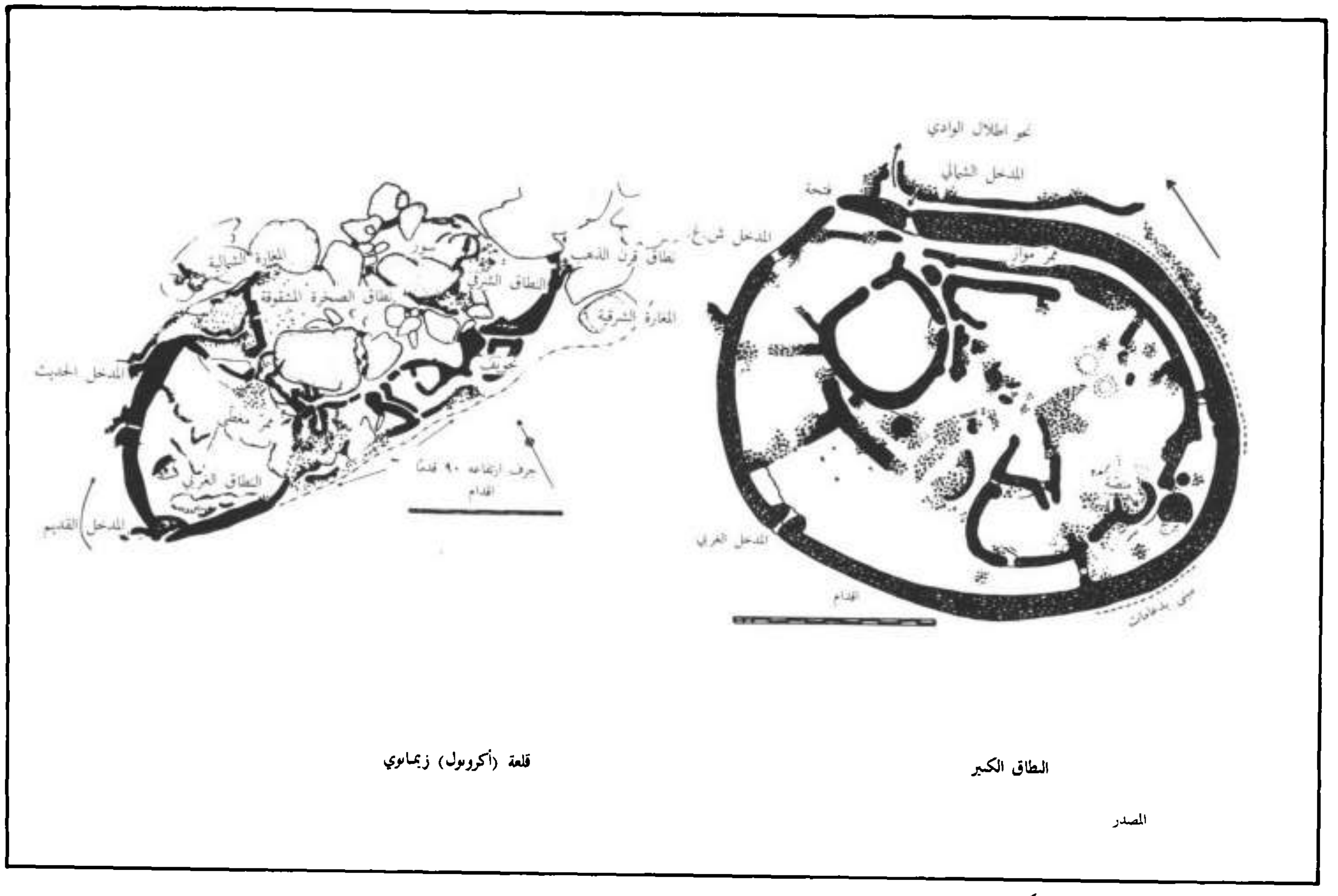
وأيًا كانت الأسباب العميقة لانطلاقة «زيمبابوي الكبرى» ، فإن الأمر يتعلّق بالتأكيد بأثر معماري هائل[11] . فالموقع يشرف عليه الأكربول ، وهو تل طويل من الجرانيت تغطيه صخور ضخمة. وعلى مرّ الأجيال ، ربط السكان هذه الكتل بجدران كونت ، وبالتالي ، ممرات ضيقة ومساحات مسورة صغيرة ، أكبرها مساحة في الطرف الغربي والتي كان يحيط بها سور حجري سميك بلا دعائم ، وكشفت دراسة طبقاته عن فترات أشغاله الطويلة في الفترات المتأخرة من العصر الحديدي. وأمكن ، من خلال هذا التسلسل الزمني ، تقسيم تاريخ زيمبابوي إلى ثلاث مراحل على الأقل ، بدأت أكثر فترات الأشغال كثافة في القرن الحادي عشر تقريبًا ، لكن لم يبن أي سور حجري قبل القرن الثالث عشر عندما استُبدِلَت الأكواخ الصغيرة من البانكو والأشجار التي ترجع إلى أزمنة قديمة بمساكن أوسع من الطين. ويرجع السور المحيط بالمساحة المسوّرة الغربية ، إلى نفس الفترة ، وهي التي ظهر فيها مزيد من الأشياء المستوردة بين المخلّفات. وفي القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ، ارتفعت أول مبان في الوادي ، أسفل الأكروبول. أما المساحة المسورة الكبرى ، بكتل أسوارها الخالية من الدعائم ، فبُنيت تدريجيًا خلال القرن التالي ويبلغ متوسط ارتفاع هذا السور الخارجي ٧,٣٠ مترًا ، وسمكه عند القاعدة ٥,٥٠ مترًا وعند القمة من ١,٣٠ مترًا إلى ٣,٦٠ مترًا. أما قلب السور فمن الدبش ، تحدّه من الجانبين مباني أفقية من الآجر بلا دعائم. وهو مزيّن بنقوش زخرفية بارزة متعرّجة على مسافة طولها ٥٢ مترًا. ويوجد في الداخل ، سور آخر ناقص ، استبدل بلا شك بالسور الموجود اليوم ، وهو يكوّن ، بين السورين ، ممرًا ضيّقًا يفضي إلى برج مخروطي الشكل مبني بناءً جيدًا ، ويشرف على المساحة المسورة الكبرى ، ولا نعرف الغرض منه. أما

(١١) أنظر ن. هوفمان ، في *JAH* ، المجلد ٣ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٥٣ – ٣٦٦.

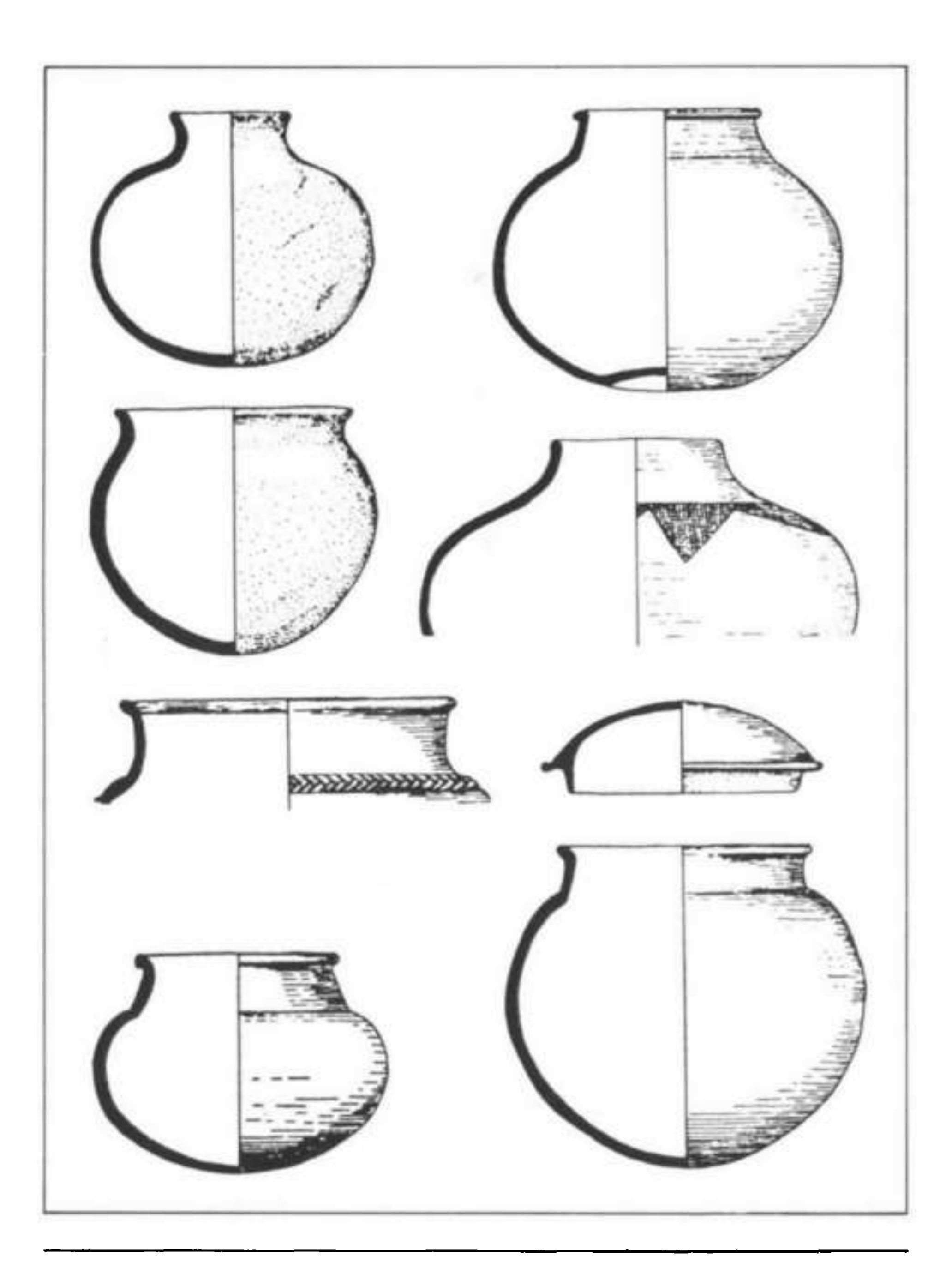


• اطلال زيمبابوي الكبرى. خريطة موقع الأطلال الرئيسي.

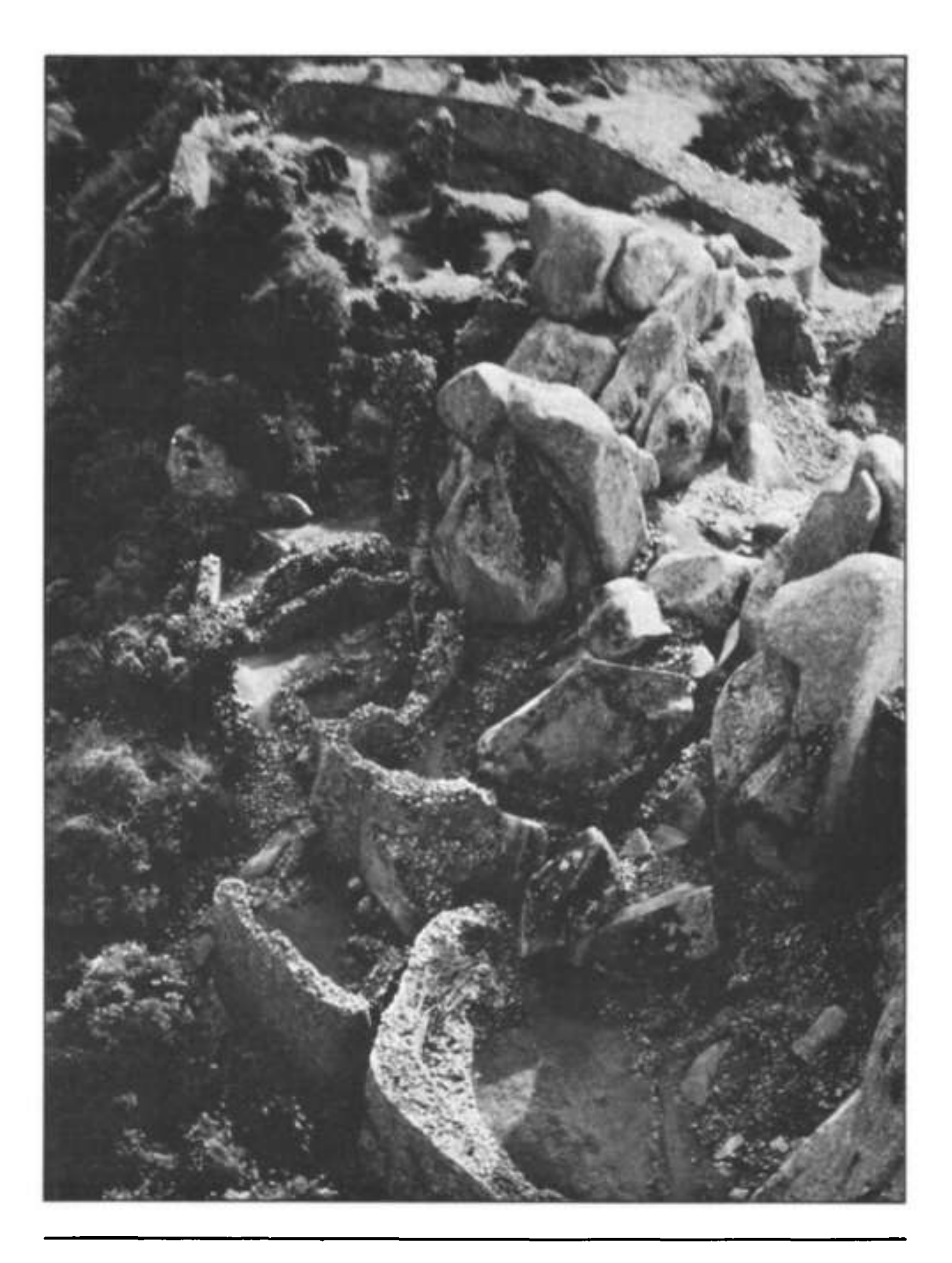
المصدر: Zimbabwe, A Rhodesian Mystery, R. Summers, Nelson, 1963



• زيمبابوي الكبرى. القلعة والنطاق الكبير.



• أواني فخارية وجدت في المستويات
المتأخرة على تل الأكروبوليس
في زيمبابوي الكبرى. المصدر: پيتر جارلاك.



• منظر داخلي للحائط البيضاوي
بعد الحائط الخارجي
وقرب البرج المخروطي لزيمبابوي الكبرى.

المساحة المسورة الكبرى ذاتها ، فمقسّمة إلى سلسلة من المساحات الصغيرة التي توجد فيها أساسات مساكن كبيرة إلى حد ما ، من الشجر والبانكو. ويمكن أن نفترض أن هذا البناء المدهش ، ذو الأهمية السياسية الكبرى ، كان مقرًا لإقامة ملوك زيمبابوي.

كانت المخلفات الأثرية في المساحة المسورة الكبرى ، وكذلك الطبقات العليا من الأكروبول تشتمل على عديد من الحلي الذهبية والنحاسية ، والأواني ، والتماثيل الدقيقة المصنوعة من حجر الطلق ، ونقل الباحثون الأوائل عن الكنوز كل هذا من مكانه. كما اكتُشفت أيضًا كميات كبيرة من الخرز الزجاجي المستورد ، وقطع الخزف ، والزجاج الصيني ، والفارسي ، والسوري الأصل ، التي ترجع إلى القرن الرابع عشر. ومن الواضح أن التجارة الساحلية في افريقيا الشرقية كانت قد دخلت إلى أعماق البلاد ، منذ هذه الفترة. وكانت «زيمبابوي الكبرى» قد أصبحت مركزًا تجاريًا هامًّا ، وكان حكامها يتمتّعون ، فيما يبدو ، بوضع احتكاري يحسدون عليه بالنسبة لهذه التجارة. فقد كان من المفيد في كل الأحوال بالنسبة للتاجر الأجنبي أو وكيله ، أن يعمل تحت مظلة القادة السياسيين في الداخل لكي يؤمّن سلامته ويحصل على أقصى ربح. أيًا كان الأمر ، فحيث أن عمال المناجم ، وناتج عملهم – كانوا تحت سيطرة «زيمبابوي الكبرى» السياسية ومرتبطين بالعاهل عن طريق الدين والجزية التي يجب أن يدفعوها ، فإنه لم يكن أمامهم مجال للاختيار. لكن من الصعب أن نقدّر إلى أي مدى لعب العرب ، سادة التجارة الساحلية ، دورًا سياسيًا هامًا في شؤون زيمبابوي ، أو أثّروا على معمار هذه الدولة الافريقية أو تقنياتها[12] . وهناك مدرسة معينة تنسب إلى العرب دورًا رئيسيًا فيما يتعلّق بمفهوم المساحة المسوّرة الكبرى ، وتقارن البرج المخروطي الشكل بمساجد افريقيا الشرقية ، وتلاحظ أن مباني الدبش الأفقية التي عُثر عليها في زيمبابوي تختلف عن الأبنية العادية – وهي من البانكو والشجر في قرى الشونا. لكن معمار زيمبابوي هو في الواقع النهاية المنطقية للمساحات المسوّرة الواسعة ، والأحياء المخصّصة للزعماء المبنية من القش والشجر والبانكو في الدول الافريقية الأخرى ، مع فارق واحد هو أن الحجر استُخدم هذه المرة لأنه أبقى ولأن الجرانيت الذي ينقسم بطريقة طبيعية إلى طبقات يتراوح سمكها بين ٥٠ و ١٠٠ سم كان موجودًا بغزارة في أماكن كثيرة من زيمبابوي. واستطاع البناة أن يجدوا بكميات لا حدّ لها كتلاً ما كان عليهم إلاّ أن يقطعوها ، مستفيدين في ذلك اما بتفكّكها الطبيعي ، وإما بالتعجيل بهذه العملية بالنار والماء. وفيما عدا البرج المخروطي الشكل ، وهو بناية خارجة عن المألوف الغرض منها غير معروف ، لا نجد في معمار زيمبابوي شيئًا غريبًا على الممارسة الافريقية ، فنحن نجد ، بالفعل ، جدرانًا بلا سقف وأسطحًا ، وأعمالاً من الحجر المزخرف ، في عديد من المواقع الأخرى المعاصرة لزيمبابوي أو التي جاءت بعدها. ويتأثّر الزائر بضخامة هذه الآثار التي تثير كثيرًا من الأساطير حول أصولها. ويستحيل عمليًا أن نكشف تأثيرًا عربيًا أكيدًا على بناء زيمبابوي أو على مجموع ثقافتها. ومن المؤكّد أننا نخطئ لو أننا رأينا في قادة هذه الدولة ألعوبة بأيدي العرب ، يسيّرها هؤلاء الأجانب لمصلحتهم فحسب – وليس من المعقول أيضًا على الرغم من وجود من يؤكّد غير ذلك ، أن تكون قد وجدت أكثر من حفنة من العرب ، أو عملائهم أقامت فعلاً في حدود منطقة نفوذ زيمبابوي. وكان التبادل بين المسافات البعيدة متقطّعًا في أحسن الأحوال ومتمثّلاً في زيارات منتظمة ، وربما موسمية ، أكثر منه نشاطًا تجاريًا دائمًا.

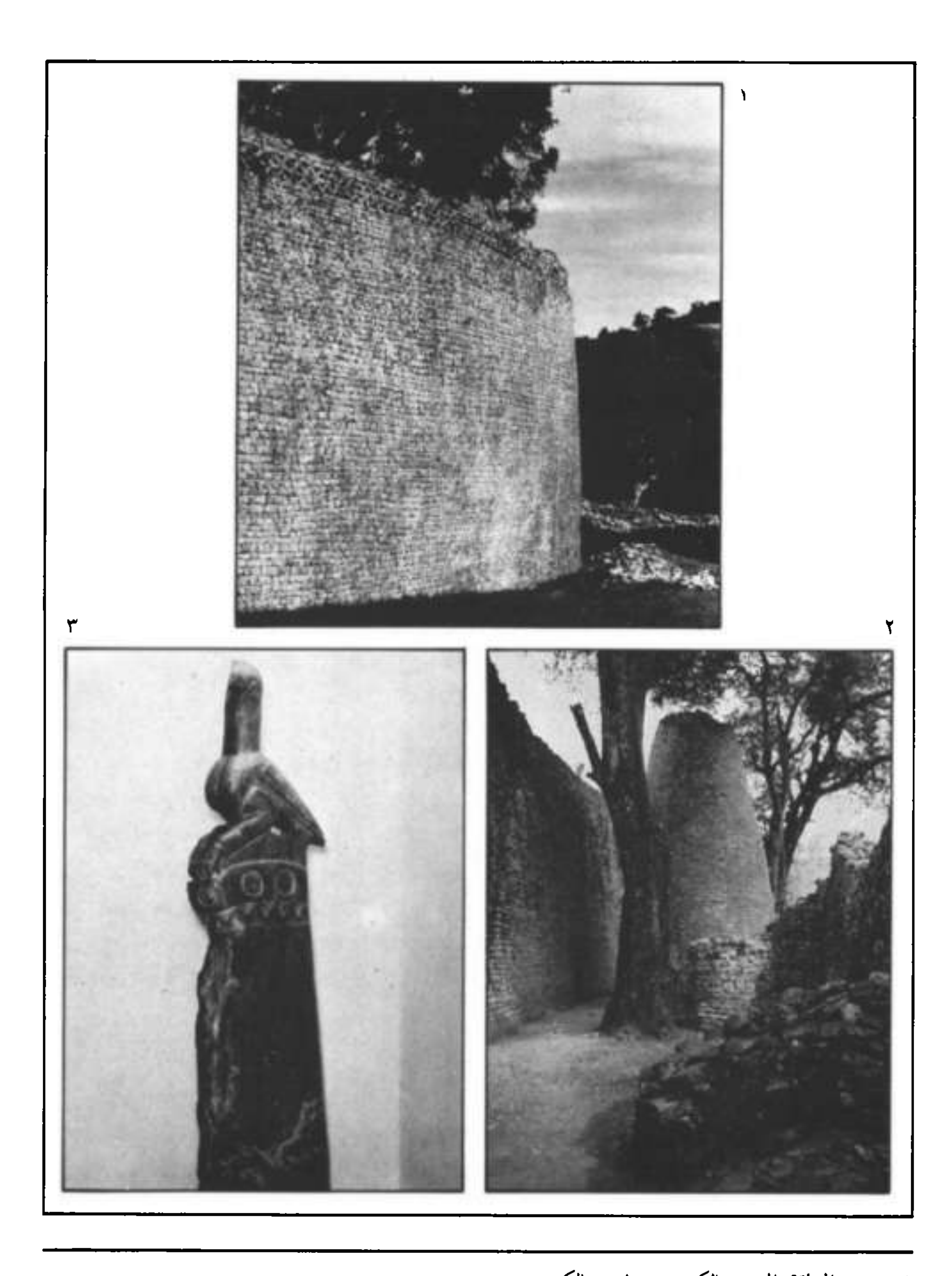
---

(١٢) عن العلاقات التجارية بين أفريقيا الشرقية والشرق ، أنظر مؤلفات هـ. ن. شيتيك ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ ، وأيضًا هـ. ن. شيتيك و ر. روتبرغ ، ١٩٧٥.

توسّع دولة «زيمبابوي الكبرى» وهيمنتها في المنطقة

يرجع الطابع المتفرّد «لزيمبابوي الكبرى» إلى ضخامتها فقط – فهي الأكبر من بين ما يقرب من أكثر من مائة وخمسين من الأطلال – تضمها المنطقة الجرانيتية التي تكوّن خط تقسيم المياه بين الزمبيزي والليمبوبو. وتوجد بالقرب من زيمبابوي وفي الماشونا لاند أطلال أخرى تشتمل على عدد من المساحات المسوّرة يتراوح بين الواحدة إلى الخمس مساحات، تحيط بكل منها جزئيًا على الأقل أسوار حرّة، وتحتوي على أكواخ من البانكو والشجر. وطراز هذه المباني المنتظمة الصفوف هو طراز «زيمبابوي الكبرى». وكانت الآثار التي تمّ التنقيب فيها تحتوي على أشياء ذهبية، وأساور من أسلاك النحاس، وحبات من خرز الزجاج ومواقد الجمر، ودواليب المغازل المميّزة لثقافة زيمبابوي. وتشهد أطلال روانغا وشبادزي على أن الماشية كانت تلعب دورًا هامًا. وسمحت خمسة من الآثار التي اكتُشفت بالتوصّل إلى تسلسل زمني يوضح أنها بُنيت وشُغلت جميعًا بين بداية القرن الرابع عشر ونهاية القرن الخامس عشر، بل إن بعضها يرجع فيما يبدو إلى القرن السادس عشر. وكل هذه المواقع صغيرة الأبعاد، لأن سكانها كانوا قليلين. وكانت تُقام عادة بالقرب من التلال التي يكثر فيها الحجر. وهي تبدو من الصغر بحيث لا يمكن أن نقول أنها كيانات كان يمكن أن تبقى اقتصاديًا. ويحتمل أن تكون قد بُنيت بواسطة أيدي عاملة خارجية جاءت من القرى المجاورة التي كانت تعيش على الزراعة المتنقّلة التي تمارسها في السفانا. وأكّد بيتر جارلاك على حقيقة أنه لم يوجد أي موقع من المواقع الخالية من الأسوار يضم أشياء من طراز تلك التي وُجدت في الأطلال. وكتب يقول إن «المؤسسات التي قدّمت هذه الأيدي العاملة عرفت بلا شك، حضارة مادية، لا علاقة لها، ظاهريًا بحضارة الأطلال، وإن كان لا يوجد في هذه الأطلال ما يدل على وجود جماعات لها حضارة أخرى». وأكّد بعد ذلك، أن العون المقدّم كان يتّخذ شكل جزية عرضية، وما يزال هذا الافتراض أبعد ما يكون عن التأكيد. وفي أطلال نونغوزا، وُجد كوخ فريد، فسيح للغاية، يشتمل على ثلاث قاعات. كان يمكن أن تستقبل القاعة الأولى عددًا كبيرًا من الأشخاص، وكان في الثانية مقعد وحيد، أما الثالثة فكانت «قاعة متميّزة تمامًا، احتوت بالتأكيد على أشياء ذات قيمة خاصة... وبالذات على شيء كان بلا شك عمودًا حجريًا من كتلة واحدة وُضعت على قاعدة ذات حليات محفورة». وربما كانت هذه البناية الغريبة مكانًا تحكم منه سلطة دينية مهابة كانت سببًا في وجود هذا المكان المنعزل، واللبنة الأولى لوحدة دولة «زيمبابوي الكبرى». ويستخلص منها إحساس بوجود سلطة سياسية ودينية قوية للغاية لا تنازع كانت تستند في سيطرتها على سكان الريف المبعثرين على نوع من الإيمان الموحّد بقدرات الموارد الإلهية أو أي قدرة دينية أخرى، تلك القدرات التي تمتدّ إلى كل أسرة. ولم يكن التبادل التجاري البعيد مهما انتظم، بقادر على أن يصبح بهذه الفعالية، لأنه لم يكن يؤثّر إلاّ على قلّة من السكان.

لم تعيّن حدود دولة «زيمبابوي الكبرى» جيدًا بعد، وان كانت مركّزة في الماشونا لاند. وتوجد بعض الأطلال الشبيهة بآثار «زيمبابوي الكبرى» فيما أصبح اليوم ماتابيلي لاند، حيث تسلّل أناس من زيمبابوي إلى أراضي كويجي الفهد. وكان لا بد من انتظار تدهور «زيمبابوي الكبرى» في القرن الخامس عشر، لكي تكتسب ماشونا لاند نوعًا من التفوّق في مجال المبادرات السياسية والتجارية، لكن هذا يتجاوز حدود هذا الفصل.



١. سور المنطقة المسورة الكبرى بزيمبابوي الكبرى.
٢. البرج المخروطي في زيمبابوي.
٣. تمثال لطائر في نهاية كتلة من حجر الطلق
وجدت في آثار فيليب في وادي زيمبابوي الكبرى.

العلاقة التجارية بالشاطئ الشرقي

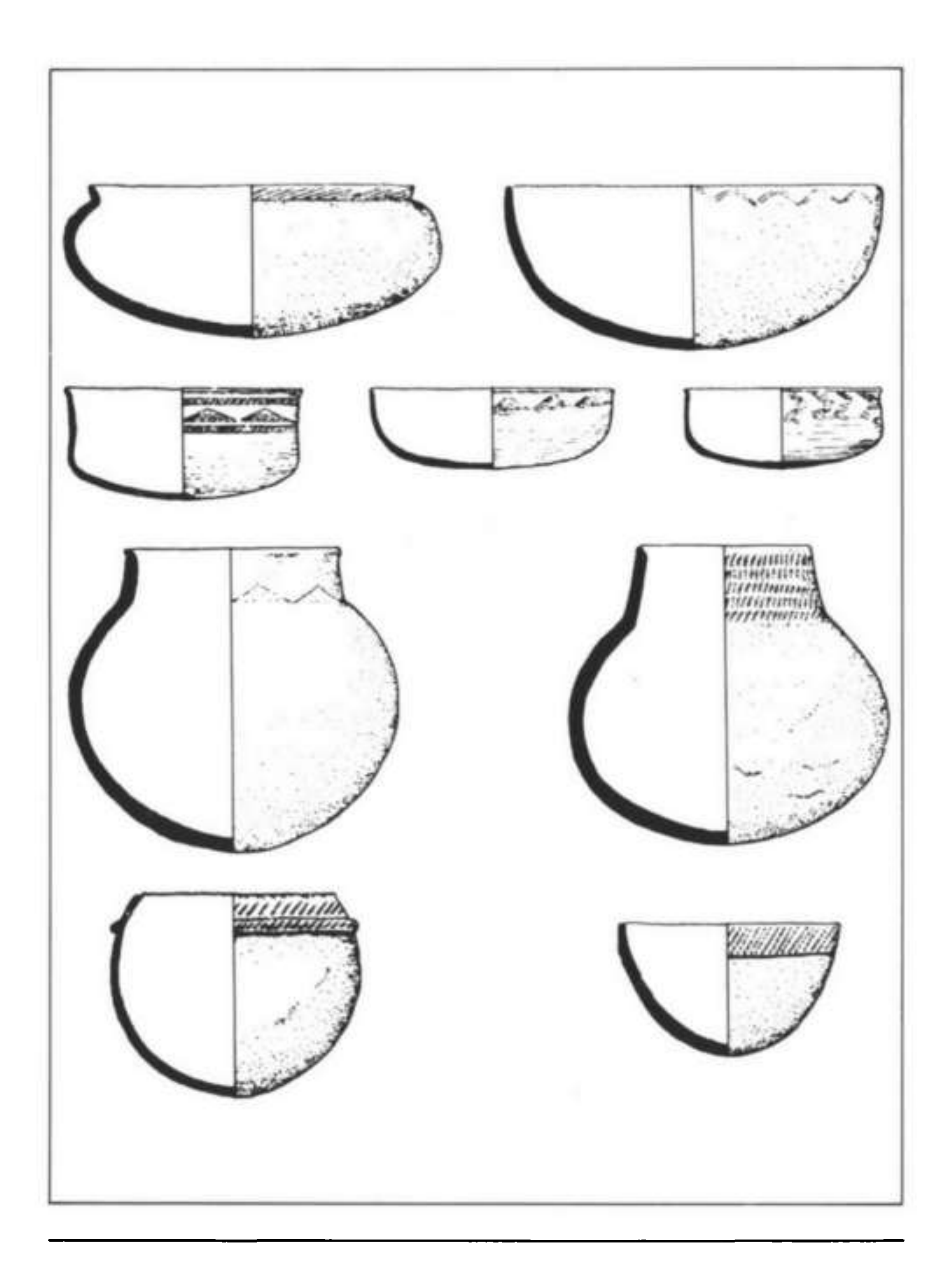
كان تأثير «زيمبابوي الكبرى» والقرى التابعة لها محسوسًا لمسافة بعيدة فيما وراء الحدود المباشرة والضيقة نسبيًا لهذه الدولة نفسها. وكان رخاء كيلوة، على شاطئ افريقيا الشرقية يتوقّف بصورة وثيقة على تقلّبات تجارة الذهب مع سوفالة. ومنذ القرن العاشر، ذكر المسعودي الجغرافي العربي، كيلوة وتجارة الذهب في كتاباته[١٣]. بعد ذلك بأربعة قرون، وصف ابن بطوطة كيلوة بأنها واحدة من أجمل مدن الدنيا، ومدينة يقوم رخاؤها على تجارة الذهب مع الجنوب[١٤]. ومن المؤكّد أن ثراء سادة «زيمبابوي الكبرى» ازداد ثم تدهور حاله مع التجارة الساحلية. فقد شهدت كيلوة ذاتها بعض التقلّبات التجارية، بلغت قمة ازدهارها في القرن الخامس عشر، عندما أُعيد بناء مسجدها الكبير الشهير بقبابه وعقود غطائه المتقنة. لكن، بعد ذلك بقرن واحد فقدت كل من كيلوة، وساحل افريقيا الشرقي و«زيمبابوي الكبرى» بريقها. وعندما وصل البرتغاليون إلى سوفالة كانت التجارة الساحلية متدهورة. وعلى الرغم من عزلتها، كانت «زيمبابوي الكبرى» باتصالاتها التجارية، والذهب الذي تسيطر عليه قد أسهمت، ليس فقط في ازدهار شاطئ افريقيا الشرقية ونموه الاقتصادي، وإنما أيضًا في ازدهار المناطق البعيدة، ونموها الاقتصادي.

لا نعرف جيدًا آليات التجارة الساحلية، لأن قليلاً من المواقع التجارية الداخلية كان موضع حفريات، أو أفلت من الاهتمام التخريبي للباحثين الأول عن الكنوز. ومع ذلك، شهد شمال ماشونا لاند ووادي الزمبيزي، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر نشاطًا تجاريًا كبيرًا كانت آثاره مادة لاكتشافات أثرية مرموقة. وكانت هذه المنطقة مسكونة منذ العصر الحديدي القديم، الذي استمرّ فيها حتى نهاية الألف سنة الأولى من العصر الحالي، وبين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، استوطن شمال الماشونا لاند صنّاع الفخار الموزنجيزي، وقد كان هؤلاء الصنّاع يمارسون زراعة مواد الإعاشة، وكانت اتصالاتهم التجارية تقتصر على الحد الأدنى ويظن أنهم كانوا يتكلّمون الشونا. وكانت حضارتهم أبعد من أن تستطيع منافسة ثراء جيرانهم الجنوبيين في «زيمبابوي الكبرى» مع أنه وجد عدد أكبر من السلع التجارية المصدر في مستوطنات موزنجيزي المتأخرة. لكن هذا لا ينطبق على الطرف الشمالي – الغربي من ماشونا لاند والجزء الأسفل من وادي الزمبيزي المتوسط، حيث وُجدت مستوطنات كبيرة، وحيث كان لتشغيل النحاس وتجارته أهمية بالغة للغاية. وموقع شدزوغويه، في مقاطعة أورونغوي الخصبة، كان يشغل مساحة قدرها أربعة وعشرون هكتارًا تقريبًا، فيها مراعي غزيرة. وتشهد عظام الماشية والفرائس الكثيرة على المكانة التي كانت تحتلّها تربية الماشية والصيد. لكن صناعة تعدين النحاس والحديد كانت هامة جدًا، لأن خام هذين المعدنين كان وفيرًا حول هذه المنطقة. كان النحاس يُصب في شكل سبائك متساوية لها وزنان ثابتان. وكانت الأساور المصنوعة من أسلاك الشبه وهي السبيكة التي تُصنع من النحاس والقصدير تُستخدم استخدامًا شائعًا. وكان الناس يستخدمون أيضًا المنسوجات ويصنعون فخارًا من نوع ممتاز للغاية لا نظير لدقّته، ورقّة زخارفه الموجودة على الأواني والأكواب المجوّفة[١٥].

(١٣) المسعودي، ترجمة فرنسية، س.أ. باربييه دو مينار وم. م. بافيه دو كورتي، ١٨٦١ – ١٨٧٧.

(١٤) ابن بطوطة، ترجمة هـ. أ. ر. جيب، ١٩٦٢، مجلد ٢، ص ٣٧٩ والصفحات التالية. أنظر أيضًا «دائرة المعارف الاسلامية»، الطبعة الجديدة (فرنسية)، مجلّد ٥، ص ١٠٦ – ١٠٧.

(١٥) أنظر ب. جارلاك، في *SAAB*، المجلد ٢٥، رقم ٩٧، ١٩٧٠، ص ٢٥ – ٤٤.



• أواني فخارية
وجدت في شدزوغويه، زيمبابوي
المصدر. پيتر جارلاك.

علم الآثار وحدود تأثير زيمبابوي الكبرى

كان سكان شدزوغويه على علاقة ليس فقط مع زيمبابوي الكبرى ، وإنما أيضًا بوادي الزمبيزي . فلقد عُثر على سبائكهم النحاسية الجميلة جدًا وفخارهم الرقيق للغاية أيضًا في موقع أنغومبي ايليدي المنعزل ، حيث كشفت جزئيًا بعض الاكتشافات الرائعة التي تمّت عام ١٩٦٠ عن نظام معقّد للتجارة البعيدة والتبادل المحلي. ويوجد موقع أنغومبي ايليدي ، عند قمة تل منخفض ، يقوم وسط سهل فيضان الزمبيزي ، بعيدًا إلى حدّ ما عن الضفة الشمالية للنهر. وقد اكتشف هذا الموقع الذي يرجع إلى العصر الحديدي أثناء بناء خزانات مياه كبيرة وأصبح الآن موقعًا لمحطة ضخ. وقد وُجدت احدى عشرة مقبرة غنية بالزخارف عند قمة انغومبي ايليدي ، وتمّ الكشف عنها في الوقت المناسب ، لحسن الحظ ، قبل بناء الخزانات – كانت الهياكل العظمية ممدّدة في تقابل إلى جوار بعضها ، تحيط بها مجموعة مدهشة من الأشياء المحلية أو المستوردة. وكان أحد هذه الهياكل غنيًا بالزينات ، ويلبس عقدًا من القواقع البحرية – من النوع المخروطي التي توجد في افريقيا الشرقية ، وترتبط تقليديًا بالزعامة ، وكانت تحيط بالعنق والخصر عقود من الذهب ، والحديد ، والنحاس ، وحبات من الخرز المستوردة. وقد وُجدت في هذه المقبرة أيضًا « عند مستوى الخصر » قوقعة أخرى من النوع المخروطي وتعويذتان من الخشب يمكن أن تكون لها صلة بالعالم الإسلامي. واستقرّت عند رؤوس عديد من الهياكل أو أقدامها سبائك نحاسية لها شكل الصليب[١٦] ، وصنج حديدية ، وفؤوس الطقوس وأدوات سحب الأسلاك. وكانت تحيط بأطرافها أساور من أسلاك النحاس ، ولا شك أنها صُنعت بالأدوات التي وُجدت بالقرب من الهياكل. وحافظت الأحماض النحاسية لهذه الأساور على عدة طبقات من نسيج القطن أو اللحاء المأخوذة بلا شك من ملابس أصحابها كما وُجدت في الطبقات العليا من انغومبي ايليدي ، كميات كبيرة من أنوال الغزل ؛ اذن ، كان جزء من الأقمشة على الأقل يصنع محليًا.

والشيء الجدير بالملاحظة ، فيما يتعلّق بهذه المقابر ، هو أن كل الأشياء التي وُجدت فيها تقريبًا ، باستثناء الفخار ، يتمثّل في سلع أو مواد مصدرها التجارة البعيدة. ولم يكن يوجد أي منجم هام لخام النحاس ، أو الذهب ، أو الحديد في هذا الجزء من وادي الزمبيزي ، وإن كان من السهل الحصول على الملح وأنياب الفيلة ، وهي سلع تجارية أساسيًا ، وكان الملح مخصّصًا للاستهلاك المحلي أولاً. وكانت سبائك النحاس صورة طبق الأصل من سبائك شدزوغويه ، والفخار الجميل الشكل الذي اكتُشف في المقابر هو نفس الذي وُجد في موقع مقاطعة اورونغويه. لكن خرز الزجاج كان أكثر في أنغومبي ايليدي. وللأول وهلة ، لا شيء يبرّر فيما يبدو ، القول باشتراك انغومبي ايليدي في التبادل البعيد المدى ، لأنه لا يوجد في هذا الموقع منجم محلي لخام المعادن. وربما وجدنا تفسير ذلك في كثرة مناجم الملح عند نهير لوزيتي ، لأن قوالب الملح كانت سلعة قيمة للغاية في العصر الحديدي وكانت مادة لمقايضة محلية هامة. ولأنهم يملكون مناجم الملح ، يحتمل أن يكون سكان انغومبي ايليدي قد اتّصلوا بمجتمعات أخرى تعيش على الهضاب شمالي الزمبيزي وجنوبه ، وتملك معادن ثمينة يمكن أن تستبدلها بالملح ، وهي معادن يستطيع سكان انغومبي ايليدي بدورهم استبدالها بسلع الترف التي تأتي بها تجارة افريقيا الشرقية . ودور الوسيط هذا الذي يعزى لسكان أنغومبي ايليدي هو مجرّد افتراض ، لأنه يمكن أيضًا ، بطبيعة الحال ، أن تكون

(١٦) أنظر الصورة في الصفحة التالية.



• سبائك نحاسية على شكل صليب
من إنغومبي إيليدي (زامبيا)
(بعد القرن الحادي عشر).

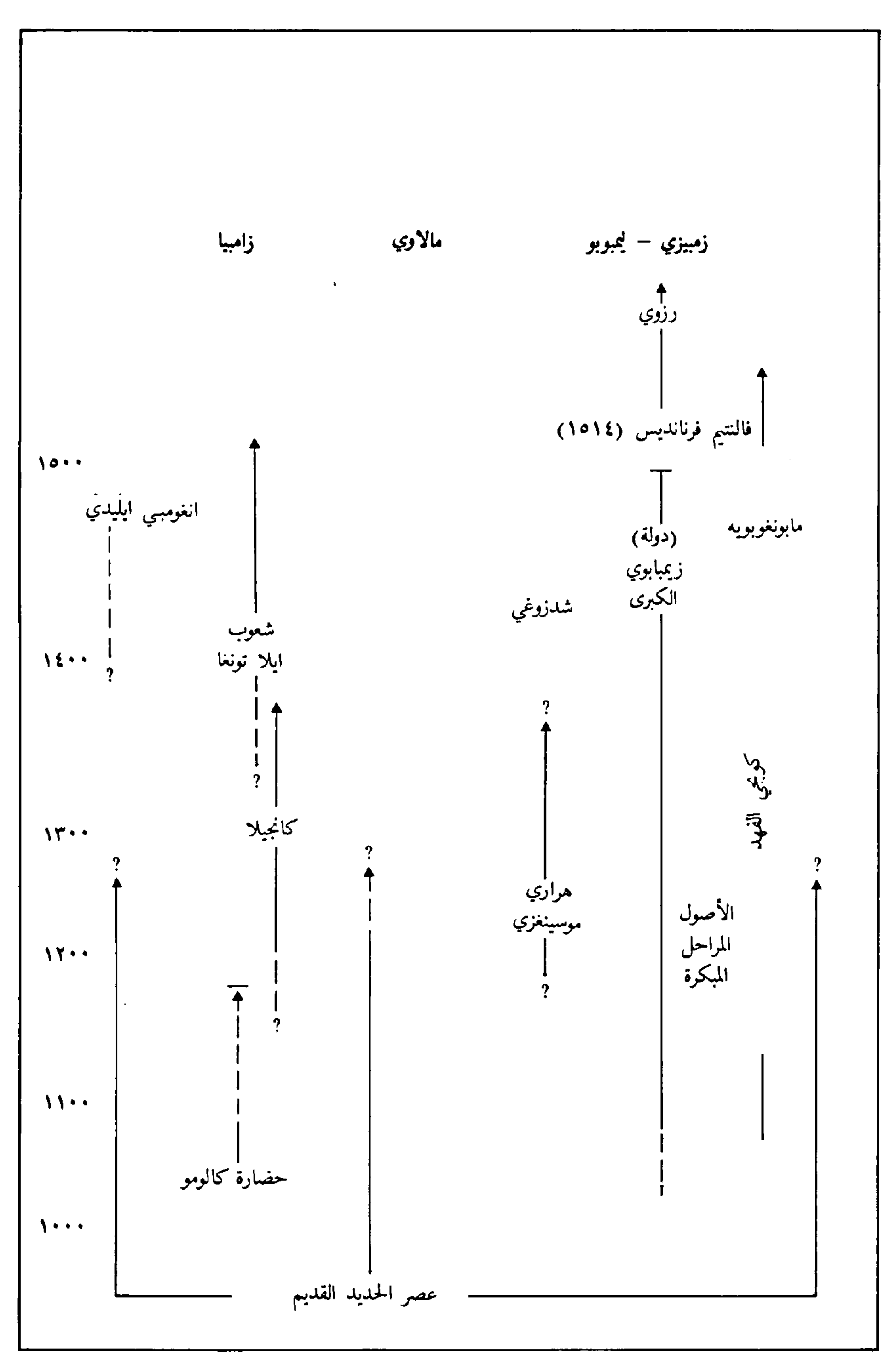
سلع الترف المستوردة، أن يكون النحاس والذهب والحديد، قد أحضروا في آن واحد من زيمبابوي وأورنغويه عن طريق المقايضة، في هذه الحالة، يكون ملح لوزيتي قد دفع ثمنًا لهذا التبادل.

ويخيّم على تاريخ مقابر انغومبي ايليدي قدر كبير من عدم التأكيد، لأنه اتضح أن تحديد تاريخ الهياكل بالكربون المشع أمرٍ صعب. ومعروف أن بناية هامة من البانكو والشجر كانت قد أُقيمت عند قمة القرية، لكن أساساتها هُدمت من أجل بناء الخزان قبل بدء الحفريات. وقد وُجدت المقابر التي تحتوي على أشياء ذهبية تحت أساسات هذا الكوخ الذي ربما هُدّم عمدًا في إطار بعض الطقوس الجنائزية. وتنتمي الهياكل العظمية إلى الفترة الأخيرة في حياة انغومبي ايليدي، تلك القرية التي ربما احتلّت بصفة متقطّعة منذ القرن السابع. وفي نهاية الألف سنة الأولى، هجر هذا الموقع الفلاّحون الذين كانوا يمارسون زراعة مواد الإعاشة والذين كانوا قد استقرّوا فيه وكانوا على علاقة بمزارعي هضبة باتوكا في الشمال. ولم تكن قرية انغومبي ايليدي في البداية مركزًا تجاريًا، طبعًا، لكنها احتلّت مرة أخرى عام ١٤٠٠ ميلادية تقريبًا لفترة قصيرة إلى حد ما، وبعد ذلك، وضعت المقابر وأشياؤها الذهبية في حفر الرماد الناعم عند قمة التل. وإلى هذه الفترة الأخيرة من فترات احتلال القرية يمكن أن تنسب الأشياء المستوردة، الذهب، والنحاس والفخار الرقيق التي وُجدت في انغومبي ايليدي. لقد كانت «زيمبابوي الكبرى» آنذاك في قمة سلطانها وازدهارها، وكان العرب قد استطاعوا أن يسيطروا سيطرة تامة على تجارة الساحل الشرقي. لكن حتى لو كانت انغومبي ايليدي قرية تجارية حقًا، فإن الثروة والأرباح الناتجة عن هذه المقايضة كانت مركّزة بالتأكيد بين أيدي بضعة أشخاص، هم أولئك الذين وُجدوا مدفونين عند قمة التل. وعُثر عند الحدود الجنوبية لهذا الموقع، على ٣١ مقبرة أخرى معاصرة لمقابر الهياكل العظمية المغطاة بالذهب التي أُخرجت عند قمته. ويلبس بعض هذه الهياكل التي دُفنت بعجلة حليًا متواضعة: بضع حبات من خرز الزجاج أو قواقع الماء العذب، أو سوار نحاس. فلا شك اذن، فيما يبدو، في أنه وُجد في أنغومبي ايليدي، نوع من الطبقات الاجتماعية.

ومن المحتمل أن قرية انغومبي ايليدي كانت تمثّل الحدّ الشمالي للنشاط التجاري الذي كان يربط وادي الليمبوبو ووادي الزمبيزي، وهو حدّ يعكس الطابع المنقلب للتجارة الساحلية، وتعقد العلاقات السياسية بين دولة «زيمبابوي الكبرى» وجيرانها. ولقد استحال حتى الآن ربط هذه المقابر التي تحتوي على أشياء ذهبية، في أنغومبي ايليدي بمجموعة تاريخية معروفة، فيما عدا بعض المراجع التي ذُكرت في الوثائق البرتغالية في القرن السادس عشر وتثير الفضول. ففي عام ١٥١٤، قام فالنتيم فرنانديس برحلة استكشافية داخل منطقة سوفالة، حيث زار بعض الزعماء، ووصف تنظيم تجارة الذهب وقال إنه سمع عن نهر كبير في شمال مملكة مونوموتابا، حيث يستبدل شعب «الموبارا» النحاس بالقماش، ويعبرون النهر في المراكب ليتاجروا مع العرب. ويسلّم عادةً بفكرة وجود علاقة بين انغومبي ايليدي وهؤلاء الموبارا في القرن السادس عشر.

بداية القرن الخامس عشر: تحوّلات وتغييرات

عندما أصبحت دولة «زيمبابوي الكبرى» في ذروة سلطانها وازدهارها، دخلت افريقيا الوسطى الجنوبية مجال التوثيق التاريخي والروايات الشفوية. ففي نهاية القرن الخامس عشر تقريبًا، بدأ الناس



• التقاليد والفترات الآثارية القديمة (ب. فاغان)

يهجرون «زيمبابوي الكبرى»، ونسوها، إذا جاز التعبير. وانتقلت القوى المرتبطة بالسلطة الاقتصادية والسياسية إلى الجنوب والغرب بقيادة عشيرة رزوي القوية. وتتحدّث الروايات الشفوية عن ظهور نظام وراثة العرش، وكان «موويني موتابا» (سيد النهب) موتوتا. وقد وسّع ابنه موتوبي أراضي المويني موتابا نحو الشمال، ونقل عاصمتها إلى الشمال بعيدًا عن «زيمبابوي الكبرى». بعد ذلك، وحوالى عام ١٤٩٠ تقريبًا، انقسمت الأجزاء الجنوبية من المملكة في عهد تشنغاميري، وكوّنت دولة قوية منفصلة ولم يعد المويني موتابا نفسه سيدًا إلاّ لشريط من الأراضي التي تسير بجوار الزمبيزي، وتمتدّ حتى المحيط الهندي. وانتهى الأمر بوقوع أراضيه تحت نفوذ البرتغاليين في القرن السادس عشر والسابع عشر. لكن هذه الأحداث السياسية لا تكفي لتفسير الآتي: لماذا هجر فجأة موقع هام مثل «زيمبابوي الكبرى». لقد كانت بعض الممارسات الدينية والأنشطة الاقتصادية المماثلة متبعة في أماكن أخرى. وكان السكان ما زالوا يعيشون على زراعة مواد الإعاشة القائمة على الزراعة المتنقّلة. ربما كان هذا هو سبب هجر «زيمبابوي الكبرى»، فمن الممكن أن تكون المناطق الريفية المحيطة قد عجزت حتى عن إعاشة سلسلة من القرى الصغيرة المبعثرة، وبالأحرى عن إعاشة البنية الفوقية المعقّدة لسكان غير زراعيين يقيمون في «زيمبابوي الكبرى» ذاتها. إن تكثيف الزراعة لا يمكن أن يتحقّق إلاّ عن طريق ريّ الأرض أو إخصابها صناعيًا. وما من واحدة من هذه الطرق كانت متبعة في السافانا المشجرّة التي كانت تحيط بزيمبابوي ومنذ أن استنفذت الأرض الزراعية، لم يعد هناك إلاّ شيء واحد يمكن فعله: الرحيل في اتجاه أراضي أخرى مشجّرة، وفتح المجالات التي تسمح بإعاشة السكان الموجودين. وعندما كانت تقصر الفترات التي تترك خلالها الأرض بلا زرع، ويُسمح للماشية الكبيرة والصغيرة بالرعي في مراع لم يتجدّد فيها الزرع بعد، كانت الدورات الزراعية الحيوية تنقطع، وكانت النتائج الحتمية لذلك هي تدهور البيئة، والمبالغة في الرعي، وانتقال السكان على نطاق واسع نحو مناطق جديدة – وبما أن هذا حدث في المناطق المحيطة «بزيمبابوي الكبرى»، كان على المويني موتابا، أن يرحل، مهما كانت قدسية مقر إقامته، أو جلال الأسوار الحجرية التي تحيط بمساحاته المسورة. ويبدو من المحتمل جدًا أن يكون اختلال التوازن السياسي في نهاية القرن الخامس عشر قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بوجود قيود تتعلّق بالبيئة وتهدّد دائمًا الأبنية السياسية أو الدينية المعقّدة والقائمة على زراعة مواد الإعاشة وسكان الريف المبعثرين.

منذ عام ١٥٠٠، شهدت افريقيا الوسطى الجنوبية تحوّلات سياسية واقتصادية رئيسية. وكان قدر من الوحدة السياسية والطبقات الاجتماعية قد ظهر بين الزمبيزي والليمبوبو، دعمه تكثيف التجارة البعيدة المدى وطلبات الأسواق البعيدة من جهة وكذلك التطوّر الداخلي للمجتمعات الافريقية ذاتها، تركيز الثروة بين أيدي البعض، مركزية السلطة السياسية في مستوى أعلى من مستوى القرية، إنشاء جهاز للدولة تتركّز سلطته الدينية والدنيوية في شخص زعيم يُنسب إليه أصل إلهي. وقد لوحظت هذه التغييرات، وهي ذات طابع افريقي بحت، في عديد من الدول القوية في افريقيا الوسطى ومناطق أخرى من القارة. لكن بقاء هذه الدول كان يتطلّب الإبقاء على شبكات تجارية قوية، ونظام لزراعة مواد الإعاشة يكفي لغذاء السكان. وكانت هذه الظروف، منذ البداية، متغيّرات حاسمة بالنسبة لنمو وازدهار دولة «زيمبابوي الكبرى» ودولة رزوي التي تلتها. وفيما وراء نهضة وانحطاط عديد من المشيخات الصغيرة أو الكبيرة، قام نسيج الحياة في العصر الحديدي، دائمًا، على الزراعة المعيشية والزارع، الذي قام بدوره المتنوّع من زراعة وتربية الماشية الكبيرة والصغيرة، وهو نسيج تقدّم لنا الحفريات الأثرية معلومات دقيقة عنه.

الفصل الثاني والعشرون

افريقيا الاستوائية وأنغولا
الهجرات وظهور الدول الأولى

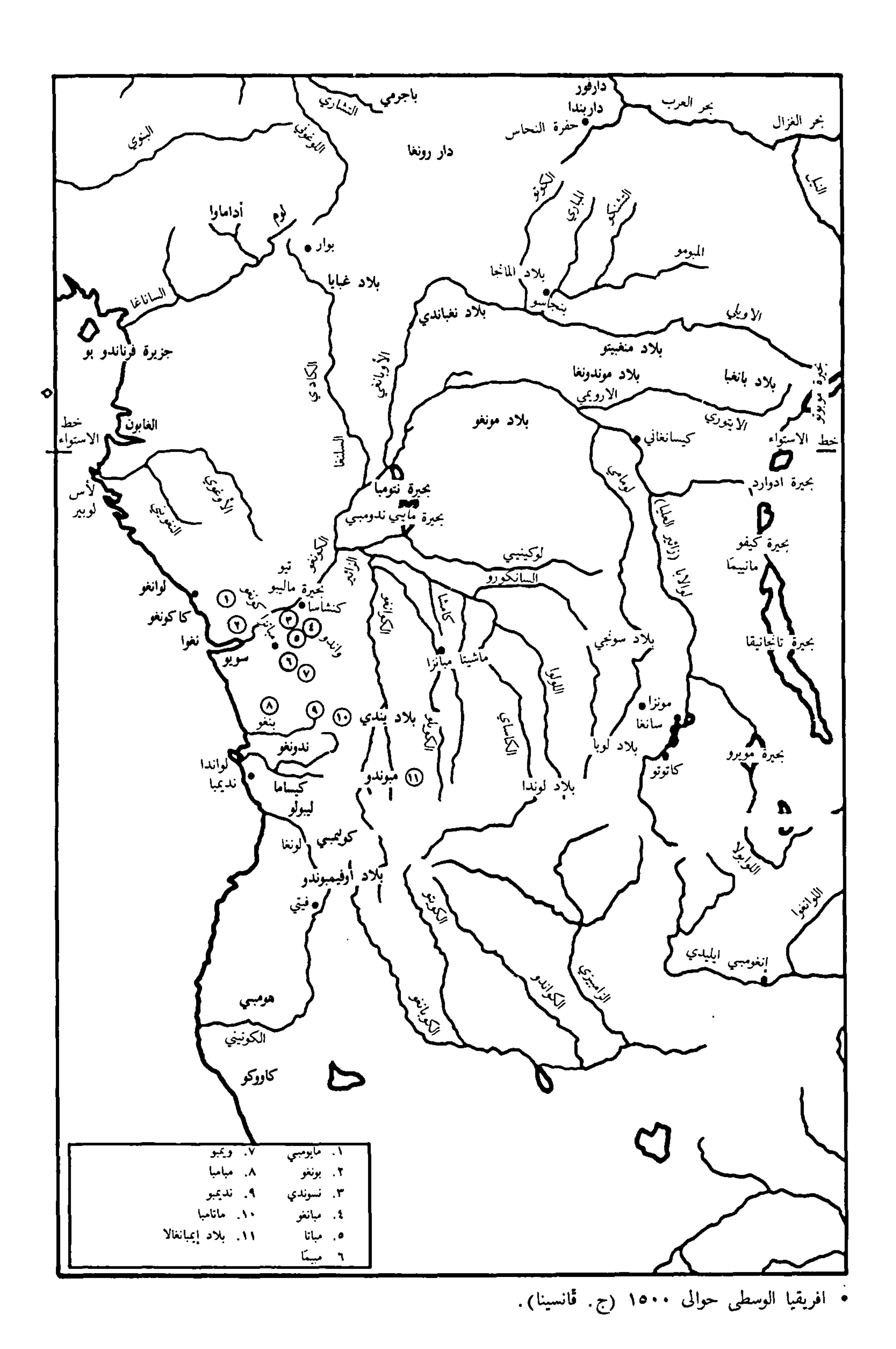
بقلم جان فانسينا

حالة معلوماتنا

إعادة بناء ماضي هذه المنطقة الشاسعة من القارة من ١١٠٠ إلى ١٥٠٠ ، تشكّل بالنسبة إلى المؤرّخ مخاطرة هو في غنى عنها. ولم يتوفّر لنا حتى هذا اليوم إلاّ القليل من المصادر المعاصرة ، إذ يرجع تاريخ أول مخطوطة إلى سنة ١٤٩٢ فقط فضلاً عن أن الحفريات التي أُجريت في شابا ، والزائير السفلى ، وفي غيرها من المناطق الافريقية لا تعطي إلى الآن إطارًا زمنيًا على درجة من الاكتمال ، فهي لا تعدو أن تكون في بدايتها. أما المصادر المكتوبة ، وهي متأخرة زمنيًا عن الأولى ، فلا تتحدّث إلاّ عن مملكة كونغو. وهي وفيرة بالنسبة إلى ما بعد ١٥٠٠. وسنلجأ إلى عدّة روايات متأخرة (١٥٨٧ ، ١٦٢٤ ، الخ...) كلما تناولت الحقبة السابقة لسنة ١٥٠٠ أو على وجه التدقيق سنة ١٤٨٣.

ومن بين المصادر غير المعاصرة ، نجد روايات شفوية بالنسبة إلى الكونغو دُوِّنت نحو سنة ١٦٢٤ أولاً ، وأخرى خاصة بالممالك الساحلية وسجلها ، من جملة من سجّلها ، دابر وكافازي فيما بين ١٦٤١ و١٦٦٧ أي بعد قرنين أو ثلاثة من الأحداث التي تتناولها. وبالنسبة إلى المناطق الأخرى ، فإن الروايات لم تجمع إلاّ نحو نهاية القرن الماضي. وقد أخذت الروايات الشفوية تجمع بشكل منظّم منذ استقلال البلدان الافريقية (١٩٦٠) واتضح أنها تشكّل مصدرًا أساسيًا ينير التاريخ والثقافة في الوقت نفسه.

وقد يكون استعمال المعطيات اللغوية حاسمًا بالنسبة إلى هذه الحقبة كما كان بالنسبة إلى سابقتها حتى وإن كانت هذه الحقبة تقع من الناحية التاريخية ، مثلما نعتقد ، بعد نهاية حقبة هجرات البانتو ، وهو موقف لا يتبناه البعض بالمرة. ومهما يكن من أمر ، فالجميع متّفقون على القول بأن الحقبة تبدأ بكل تأكيد بعد نهاية مجتمع البانتو الأول وهو المجتمع الذي يمكننا إعادة بناء ملامحه الكبرى بفضل معجمه اللغوي. إن دراسة التمييز بين اللغات ونظام تكوين الدول لا تزال في بدايتها ولكنها تنبئ بأنه سيكون لها شأن



• افريقيا الوسطى حوالى ١٥٠٠ (ج. ڤانسينا).

عظيم. وفيما يتعلّق باللغات المستعملة في السفانا الشمالية المنتمية إلى مجموعة أداماوا الشرقية لغرينبرغ وإلى لغة السودان الأوسط، فإن علم اللغويات التاريخية لم يطبق عليها بدقة.

تبقى المعطيات العرقية التي يصعب اثباتها إذ يجب، قبل كل شيء، تمهيد الطريق بنقد صارم للوصول، على الأقل، إلى الوضع الذي كان سائدًا قبيل الاستعمار ثم تطبيق منهجية غاية في الدقة مثلما تثبت ذلك محاولات الانثروبولوجيا التاريخية منذ نهاية القرن الماضي. بيد أن دراسة عرقية معمّقة تردف بدراسة الاستعارات والانتشار اللغوي من شأنها أن تلقي الضوء على أوجه كثيرة من التاريخ. وكما هو الأمر بالنسبة إلى اللغات يجب ألا نكتفي فحسب بوصف اثنوغرافي مفصل لاستكمال ما لا يوجد حتى الآن، بل يجب أيضًا أن نحاول الحصول على معطيات موضوعية قدر الإمكان.

ويظل التسلسل الزمني يشكّل أكبر عائق أمام كل هذه المعطيات المتأخّرة زمنيًا، والتي لم تؤرّخ بواسطة الكربون ١٤ أو عن طريق الوثائق المكتوبة. فلا الوثيقة اللغوية ولا الوثيقة الاثنوغرافية تقدّم تسلسلاً زمنيًا مهما كان ولو نسبيًا. وطالما لم نقارن النتائج الحاصلة بالمعطيات الأثرية فإننا لن نتوصّل إلى التأريخ. إن الروايات الشفوية تعطي تسلسلاً زمنيًا نسبيًا ولكنها لا تصلح إلاّ للحقبات التي تلت حقبة الأساطير الأصلية. إذن فكل تسلسل زمني بالنسبة إلى هذه الحقبة، باستثناء السواحل، يظلّ مشكوكًا فيه. ولا سبيل لتلافي ذلك إلاّ بالحفريات المكثّفة مع تأريخها على مجموعات بواسطة الكربون ١٤.

وفي هذه الحالة، فإن المنهج الوحيد الممكن هو إعادة بناء التاريخ انطلاقًا من المعطيات الأثرية واللغوية للفترة السابقة، ولهذه الحقبة التي ندرسها، مع ما توفّر لدينا من معطيات بعد ١٥٠٠. ونكون هكذا أمام لوحة نُسجت بخيوط تربط القديم بالمتأخر وبالتالي أمام صور كلّها افتراضات تحتاج إلى تثبيت.

السكان

طالما أن انتشار لغات البانتو بإمكانه أن يترجم عن هجرات كبيرة، فإن هذه الهجرات قد انتهت قبل ١١٠٠ بكثير. صحيح أن أصل مجموعة السكان الناطقة بلسان البانتو يوجد، حسب الأستاذ أوليفر، الذي اتّبع في ذلك نظرية عالم اللغويات الأستاذ غوثري، في شابا والمنطقة المتاخمة لها في شمال شرقي زامبيا، ومن المحتمل أنها امتدّت حتى المحيط الأطلسي من جهة الغرب. ومن رأى أوليفر أنه ظهر ثمة نمط عيش «بانتو» قوامه الفلاحة التي تعتمد أساسًا زراعة الحبوب والاستعمال المكثّف للحديد. ونتيجة لهذه التطوّرات، تضاعف عدد السكان واتّجهوا، عبر الأنهار وعبر الساحل، صعودًا إلى الغابة حيث كان ما زال يعيش سكان مبعثرون من الصيادين وصيادي الأسماك إلى حوالي سنة ١٠٠٠، في مستوى قبل زراعي[1]. وعلى الأرجح أن هذه الظاهرة التوسعية انطلاقًا من الجنوب قد انتهت نحو سنة ١٥٠٠. بيد أننا نلاحظ وجود مجموعات كبرى من الصيادين الأقزام ومن الزرّاع الناطقين بغير البانتو. ونحيل بالنسبة إلى هذا التوسّع البانتو على دراسة ب. فاغان المفيدة، ونجد في أنغولا أيضًا مجموعات من الصيادين، ربما كانوا من أقوام السان الذين لم يدفعوا نحو الجنوب[2].

---

(١) ر. أوليفر، في *JAH*، المجلد السابع، ١٩٦٦، ص ٣٦١ – ٣٧٦؛ م. غوثري، في *JAL*، المجلد الأول، عدد ١، ١٩٦٢، ص ٩ – ٢١.

(٢) أنظر من أجل توسع البانتو ب. فاغان، مجلد ٣، الفصل السادس.

إن هذه النظرية مرفوضة من قبل العديد من علماء اللغويات الذين يقولون في هذه المادة ، حسب الأستاذ غرينبرغ ، بأن أصل لغات البانتو يوجد بالمنطقة الواقعة بين نهري بنويه وكروس . ويرى الأستاذ غرينبرغ أن الناطقين بلسان البانتو قد انتقلوا تدريجيًا نحو الجنوب مستعمرين بالخصوص المنطقة الواقعة بين نهري ساناغا وأوغويه قبل سنة ١٠٠٠ بمدة طويلة ، وربما في الواقع قبل عصرنا الحالي . وقد حصل تنقّل مواز في نفس الحقبة على طول نهر أوبنغي – مبومو ثم حدث نوع من الانفجار اللغوي انطلاقًا من نواة ثانوية تقع بمنطقة لغات الكونغو ، إما في شابا وإما في منطقة البحيرات الكبرى ، إذ أن فرعًا من أوائل السكان الناطقين بلغة البانتو قد يكونون ساروا نحو الشرق على حافة الغابة الكثيفة قبل أن يتّجهوا نحو منبع أوبنغي ومبومو . ولكن حتى التشتّت انطلاقًا من النواة الثانوية انتهى قبل سنة ألف بكثير ، إذ نجد السواحيلية ضمن اللغات المتفرّعة إضافة إلى أن أول كلمة بانتو في هذه اللغة قد سجّلت قبل سنة ٨٦٨ من قبل الجاحظ . وفي رأينا ان الدراسات اللغوية الأحدث تفسّر الواقع بشكل أفضل ونحن نقبل بأن الهجرات في المناطق التي نعالجها قد انتهت خلال الألف الأولى من العصر الحالي[٣] .

ولا يستبعد أيضًا أن تكون صدمات السكان الناطقين باللغات الشرقية لمجموعة أداماوا الشرقية قد فكّكت أوصال كتلة السودان الأوسط قبل سنة ١١٠٠ بكثير . ولكن هناك لغات أخرى ، شمال شرقي الغابة وشمال منعطف النهر الكبير ، كما في حوض أوبنغي ، استمرّت في التصادم وفي إزالة بعضها البعض بما في ذلك لغات بانتو وذلك دون حصول حركات سكانية كبرى حسب المرجح . ولم تستطع اللغات السودانية الوسطى أن تستوعب سكانًا يتكلّمون لغات بانتو ، والعكس صحيح . وكانت أقدم اللغات بهذه المنطقة المنتمية للكتلة الشرقية لأداماوا – الشرقية ، قد هرأتها اللغات الأخرى واستعاد الأقزام خاصة اللغة السودانية الوسطى مما يبعث على الاعتقاد بأن الأطراف المتقابلة كانت تتساوى على الجبهة الثقافية – واننا سنجد مكاسب وخسائر طفيفة لكل من الجانبين ، طوال فترة زمنية ، امتدّت قرونًا . وفي غير ذلك من الجهات كانت لغة البانتو قد نجحت أو كادت في الحلول محل لغات السكان الأصليين . ولكن علينا أن نتصوّر خلال هذه التدرّجات أن المهاجرين الناطقين بالبانتو كانوا قد أخذوا عن السكان الأصليين عناصر ثقافية عديدة وأدمجوها في حضارتهم . وقد أمكن أن يحدث كل ذلك دون التسبّب في موجات كبيرة من الهجرة وهي التي كانت استثناء في تاريخ المنطقة .

ومن المرجّح أيضًا أن أولى التشكيلات العرقية الاقليمية كانت في موضعها قبل سنة ١٥٠٠ بكثير والحالة المعروفة أكثر من غيرها تخصّ سلالة ايمبانغالا المكوّنة من عناصر من لوندا ، ولوبا واوفيمبوندو وامبوندو[٤] .

ويلاحظ تأثير الاتصالات خاصة في المنخفض الأوسط حيث كان تقسيم ثلاثي للعمل يربط بين الفلاحين والصيادين (خاصة الأقزام) وصيادي الأسماك . وكان صيادو الأسماك مختلطين اختلاطًا شديدًا بالفلاّحين وكانوا يبيعونهم السمك والأواني الخزفية مقابل اللحوم والخضراوات . ولكنهم كانوا أيضًا على اتصال مستمر مع صيادي أجزاء الأنهار المجاورة عن طريق الشبكة المائية . وتفسّر صورة هذه الشبكة في المنخفض ، كيف أن لغات مونغو ظلّت على هذه الدرجة من التماثل بكامل هذا المنخفض .

وفي الغابة ، في بلاد مانييا ، كانت الطبيعة الجبلية والنباتات المتميّزة بكثافتها تجعل الاتصالات صعبة

(٣) ج. غرينبرغ ، ١٩٦٣ ، ص ٣٠ – ٣٨ ؛ ب. هاينى؛ هـ. هوف، و ر. فوسن ، ١٩٧٧، ص ٥٧–٧٢؛ أ. كوباز ، ج. ايفرار ، وج. فانسينا ، في *AL* ، مجلد ٦ ، ١٩٧٥ ، ص١٥٢ ؛ د. و. فيليبسون ، ١٩٧٧ .

(٤) ج. ك. ميلر ، ١٩٧١ .

ونجد مع ذلك في هذا القطاع مجموعتين كبيرتين: قوم ليغا وقوم كومو الذين تمكّنوا من المحافظة على وحدتهم الثقافية(٥).

وفيما يخص الأثر الذي تركه السكان الأصليون فهو بالطبع أكثر الآثار بروزًا بمناطق الغابة في الشمال الشرقي، بمنطقة زائير – أوبنغي – مبومو. بل يمكن الاعتقاد بأن مختلف المجموعات قد كانت تغذي صراعات لغوية لكي تعبّر بجلاء عن رغبتها في الاحتفاظ بذاتيتها. وقد ذهب عالم اللغويات إهريت إلى أكثر من ذلك. فهو يرى أن سودانيي المنطقة الوسطى كانوا لا يحتلّون الشمال الشرقي فحسب بل يحتلّون كامل البلاد الواقعة شرقي لوالابا، وكانوا بعد مقسّمين إلى مجموعات سكان منفصلين عن بعضهم البعض قبل مجيء السكان الناطقين بالبانتو. وتركوا فقط بصمة على لغات المنطقة ولكنهم قد يكونون نقلوا عقليتهم التفرّدية إلى أولئك الذين نقلوا عنهم لغتهم. ولا يزال من السابق لأوانه الحكم على صلاحية هذه النظرية وتقييم نتائجها(٦). وتندرج علامة سودانيي المنطقة الوسطى وغيرهم بكل وضوح على خارطة السفانا الشمالية وتفسّر تواجد جزائر «عرقية»، على أن لا نغفل أبدًا أن الخارطة الحالية تمثل الوضع الناجم عن الهجرات الكبرى التي هزّت هذه المنطقة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر. وهكذا، فإن هجرة قبائل باندا، التي أصلها من دارباندا الكائنة بالضبط جنوب بحر العرب في السودان، عصفت بمجموعتي سابنغا وكرايش بكامل شرق هذه المنطقة ووسطها. ولم تعد هذه السابنغا سوى مجموعات ضائعة في كتلة باندا دمج معظمها نحو سنة ١٩٠٠. ومملكة نزاكارا هي الوحيدة التي كانت، ضمن كامل المجموعة، على جانب من القوة لكي تضمن البقاء لنفسها. بيد أن قبائل الباندا هاجرت إثر الغارات المتزايدة الكثافة التي كان يشنّها تجار العبيد القادمون أول الأمر من دارفور ثم مباشرة من النيل. وفي الوقت ذاته اضطرب غرب جمهورية افريقيا الوسطى الحالية بمفعول هجرة جماعية لقبائل غبايا تسبّبت فيها غارات العبيد الهاوسا التي بدأت من أداماوا.

تاريخ هذه المنطقة وحضارتها

الزراعة

تسمح المعطيات البيئية والأثرية المعروفة بأن نؤكّد أن الزراعة كانت تمارس في كل مكان منذ ما قبل سنة ١١٠٠ باستثناء جنوب أنغولا القريب جدًا من صحراء كالاهاري وبعض قطاعات الغابات. وكانت زراعة الحبوب تشتمل بالخصوص على الدخن الأحمر وبعض أنواع الدخن الأخرى (ساع – سنغا). ومن بين النباتات الدرنية، كانت هناك أنواع عديدة من الانيام (البطاطا) الافريقي سائدة ولم يكن التارو الآسيوي (كوكو يام) شائعًا، حسب المرجح، في هذه الربوع بينما كان شجر الموز وقصب السكر، وهما من نفس المصدر، من الفصائل النباتية الرائجة خاصة في الغابة ولكن أيضًا في السفانا. تُضاف إلى ذلك زراعة الفاصوليا والفواندزيا (الفول السوداني) كخضار. وكان الصيد البري وصيد السمك وجمع أنواع

(٥) م. غوثري، ١٩٥٣؛ ج. فانسينا، ١٩٦٦، ص ٩٣ – ١٠٣ و١٠٥ – ١١٤.

(٦) ك. إهريت، في *TJH*، مجلد ٤، ١٩٧٤، ص ١ – ٧١.

من الديدان مصدرًا للبروتينات الضرورية. ومن الحيوانات الداجنة كانت الطيور والماعز والكلاب في كل مكان. وفي جنوب الغابة كانت توجد الخراف وكذلك الحيوانات ذات القرون والخنازير، على الأقل بمنطقة النهر السفلى. وكانت طرق الزراعة تختلف بكل تأكيد في الغابة وعنها في السفانا حيث كانت تزرع الحبوب في حين يُزرع الموز والأنيام في الغابة، ونعثر حتى على مناطق مفضّلة لزراعة النخيل. ولكن يجب أن ندرك أن الغابة كانت تقطعها مناطق سفانا طبيعية على طول الساحل، بين نهر غابون ومجرى نهر زائير الداخلي، وداخل منعطف نهر زائير، ويرجح أن زراعة الحبوب كانت تمارس هناك أيضًا. وكانت الرطوبة المرتفعة جدًا قرب خط الاستواء تمثّل العائق الوحيد أمام هذه الزراعة. ويتعلّق الأمر هنا بقضية يرتبط حلّها بالتنقيبات الأثرية والدراسات النباتية. وكان الإنسان يتمتّع، في مناطق هذه السفانا المتداخلة وكذلك على حافة الغابة، بمزايا بيئتين تتكاملان كثيرًا. وكانت الأخطار التي تحدق بالمحصولات أقل بصفة خاصة في هذه المناطق التي يصح أن ينتظر المرء فيها نموًا سكانيًا بدأ مع إدخال الفلاحة وأدوات العمل الحديدية. وقد أدّى هذا النمو إلى تحرّكات سكانية باتجاه أماكن أقل كثافة سكانية حتى قبل حلول عام ١٠٠٠.

ولنشر إلى أن الغابة لم تكن وحدها تتمتّع بإمكانية إتاحة بيئة مزدوجة. ففي السفانا المشجّرة كانت أشرطة الغابات خاصة على طول الأنهار تلعب نفس الدور بالضبط، خاصة في سهول أوبنغي وكازاي ولوالابا. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الثروة السمكية على طول هذه الأنهار كما على طول نهر شاري، تساعد على نمو السكان وتجمّعهم. وبالإضافة إلى ذلك ساعد توافر البروتين في الغذاء على ازدياد معدّل الخصوبة وبالتالي معدّل زيادة السكان.

الصناعة الحرفية والتجارة

بلغت التقنيات الحرفية التقليدية في كل مكان، منذ سنة ١١٠٠، المميزات التي ستحتفظ بها إلى نهاية القرن التاسع عشر: صناعة حديدية متطوّرة بشكل جيد، خزافة، صناعة السلال والقفاف، صناعة سعف النخيل، صناعة المكاييل، استخراج الملح من النباتات والملح المتحجّر والملح من البحر أو الملاحات. وقد أثبتت الحفريات التي أجريت في بوار، في جمهورية افريقيا الوسطى، أو في سانغا، وجود صناعة حديدية. ولا يُستبعد أن تكون مناجم الحديد في مونزا (شابا) قد استغلّت في فترة مبكرة جدًا وأن يكون ذلك مرتبطًا بتوسّع مملكة لوبا[٧].

وقد رافق هذه التقنيات ميلاد تجارة اقليمية. وتفيد المعلومات الأولى بأن استعمال الصلبان النحاسية الصغيرة كعملة ظهر في حزام النحاس في حوالي سنة ١٠٠٠، ومنها راج في المنطقة الواقعة بين الزمبيزي ولوالابا قبل ١٤٥٠ – ١٥٠٠. ووجد البرتغاليون نقودًا تُستعمل كوحدة للمحاسبة في الكونغو سنة ١٤٨٣ (تسمى نزيمبو). وفي نحو سنة ١٥٠٠ كانت هناك مربعات من سعف النخيل متداولة كوحدة قيمة في

(٧) ب. فيدال، «بحوث أوبنغية»، الجزء الأول، ١٩٦٩؛ ن. دافيد، و ب. فيدال، أرخا موقعًا آخر من مواقع عصر الحديد في ملتقى نهري نانا وموديه بجمهورية افريقيا الوسطى، «نيامي أكوما»، المجلد الحادي عشر؛ ١٩٧٧، ص ٣–٤؛ ب. دوماريه، ف. فان نوتن، ود. كوهين، في JAH، المجلد الثامن عشر، عدد ٤، ١٩٧٧، ص ٤٨١–٥٠٥؛ ت. ك. ريف، أطروحة دكتوراه، ١٩٧٥.

الدورة التجارية في كل السفانا الجنوبية المتجهة نحو المحيط الأطلسي. وفي القرن التالي لعب ملح كيزاما الحجري دور العملة[٨]. وكان الناقلون أول الأمر، هم في الأغلب الصيادون، منتجو الأسماك والأواني الخزفية التي يمكن أن نجدها على طول مجاري الأنهار العديدة الصالحة للملاحة بالمنطقة. وربما كان هناك منتجون تجار متخصّصون في النحاس في شابا وفي زامبيا العليا. كما كانت هناك دون شك تجارة في الحديد والملح متجهة نحو مناطق لا يُعرف فيها غير الملح المستخرج من ماء النباتات. وأخيرًا، اعتاد الصيادون المحليون في الغابة، دون شك مقايضة فرائسهم برؤوس السهام الحديدية والموز والملح.

المجتمع وتنظيم السلطة

كان المجتمع، مع تعاظم عدد السكان منذ فترة توسّع التقنيات التقليدية والتجارة وازدهارها قائمًا على نظام الانتساب إلى الأب. وكان السكان الناطقون بالبانتو متجمّعين، في الأول، ضمن قرى شديدة الالتحام. ومن الممكن جدًا أن النزوع إلى نظام الانتساب إلى الأم داخل العشيرة كان قويًا وانتشر قبل عصرنا الحاضر من السفانا الجنوبية. وفعلاً لا نجد حزام الانتساب إلى الأم لافريقيا الوسطى ابتداءً من ناميبيا حتى الزمبيزي، ومن أغوويه حتى بحيرة تنجانيقا فحسب، ولكن موردوك وغيره يزعمون أن شعوب الغابة غربي لوالابا كانت جميعها تعتمد الانتساب إلى الأم تمامًا مثلما هو الشأن بالنسبة لقبائل لوبا في شابا. وربما استمرّ الوضع على هذا الشكل حتى حوالى سنة ١٠٠٠. وعلى كل حال كان سكان الغابة يتبعون في القرن الخامس عشر نظام الانتساب إلى الأب. ولكن لوبا كازاي وربما لوبا شابا أيضًا كانت لا تزال تعيش آنذاك على أساس الانتساب إلى الأم. وسوف لا يتبدّل نظام الوراثة إلاّ بعد سنة ١٥٠٠[٩].

وفعلاً فإن نظام الانتساب إلى الأم عند البانتو يسلم، حسبما يبدو، بالمبدأ القائل بأن للرجال سلطة أكبر على النساء، وهو ما كان يؤدي في الكثير من الأحيان إلى إقامات خاصة بالرجال كان من نتيجتها تشتّت العشائر. وهكذا ضعفت علاقة الانتساب إلى الأمهات بينما كان هيكل القرية قد تدعّم إذ كان لا بدّ من الحفاظ على المجموعة وعلى النظام. وكانت سلطة القرية هذه تقوم على مبادئ إقليمية، وبالتالي سياسية. وكان للسكان الناطقين بالبانتو من البداية، في هذا المستوى، رؤساء سياسيون.

وكان السكان المنتسبون إلى الأب الناطقون بغير البانتو المشتتون في جمهورية افريقيا الوسطى يعيشون داخل قرى صغيرة ويقودهم رجال من سلالة نبيلة لا يتبيّن المرء منهم قادة حقيقيين. وقد حلّت محل القرى هنا مجموعة كبيرة من الدساكر. وكانت تسود المجتمع فعلاً مساواة كبيرة. ولكن في جهات أخرى، على طول نهر أوبنغي أو نهر شاري، كانت لسكان الغابة القائم نسبهم على الأب، تجمّعات كبيرة من الدساكر. وكانت السلالات أقوى بكثير وكان يبرز فيها رؤساء[١٠].

وكان أسياد الأرض، في كل السفانا الجنوبية وعلى أطراف الغابة، في الجنوب كما في الشمال، من الأشخاص المتميّزين. وكانت لهم، بفضل علاقتهم المتميزة مع الأرض بواسطة الأرواح التي كانوا هم

(٨) د. بيرمنغهام، ١٩٧٠؛ م. س. بيسون، في *WA*، المجلد السادس، عدد ٣، ١٩٧٥.

(٩) ج. ب. موردوك، ١٩٥٩، ص ٢٨٧؛ ج. فانسينا، ١٩٧٨، ص ١٠٥ – ١١٠. توحي المعطيات أن قبائل لوبا (التي ينتمي اليها قوم كاني) كانت تعيش في ظل الانتساب الى الأم.

(١٠) ب. كالك، في *RO*. ص ٤٥ – ٥٤؛ ج. فانسينا، ١٩٦٦.

كهنتها ، سلطة سياسية حقيقية . ويبدو أنهم فرضوا سلطانهم على مجموعة من القرى تكون ناحية تشكّل إقليمًا حقيقيًا ، وكانت تلك هي نواة الممالك.

إن المنهج الذي أدّى إلى الاعتراف بسادة الأرض كقادة سياسيين مرتبط بتطور السلالات . وكان ارتفاع عائدات السلالة يدعم في الوقت نفسه سلطة رئيسها . وهكذا تحوّل الشيخ أو الأب الأكبر إلى سيد الأرض وفيما بعد إلى مؤسس دولة بإدماج سلالات أخرى أو بفرض سلطته بقوة السلاح.

وعلى مستوى القرية ، كان وجود إنتاج فائض يمكّن رئيس السلالة من عدم الاشتغال بيديه . وكان تزايد الأيدي العاملة الناجم عن ارتفاع عدد السكان قد حرّر رؤساء العائلات من العمل فشكّلوا بذلك مجلسًا حول الشيخ أو الأب ، فتولّدت عن ذلك الدولة.

نشأت الدولة اذن عن طريق تقوية سلطة رئيس سلالة فرض نفسه على سلالات أخرى . والدولة اقليم يشتمل على عدد من القرى المعترفة بالسلطة السياسية لأحد الشيوخ . ويحيط بهذا الشيخ أعوان وموظفون يشكّلون مجلسًا من حوله . وكان الملك ، القائد السياسي ، لا يزال محتفظًا خلال الفترات الأولى بمعظم صلاحياته كزعيم ديني ، ومن هنا يبرز الطابع « المقدس » المعترف له به . ولكن ، بعد تجاوز هذا المستوى ، عندما تعدّد المستشارون والقضاة والأعيان والحراس حول الشيخ الذي هو في الطريق إلى أن يصبح ملكًا ، استوجب الأمر إعداد نظام لإعادة توزيع الفائض ، انطلاقًا من المنتجين تلبية لاحتياجات الدولة . وقد يحيط بهؤلاء الملوك والشيوخ والمستشارين أتباع كثيرون بفضل الكرم وخاصة بتوزيعهم الخمر أو الجعة . ومن أجل ذلك ستصبح طقوس « الشراب الملكي » فيما بعد العنوان بالذات لتفوّق النظام الملكي في دول كثيرة . وكان الأمر يستدعي أكثر من الفائض العادي . ولكن بما أن التكنولوجيا لم تتغيّر والأرض متوفّرة كان لا بد من أيدي عاملة أخرى ، ويرجح أن يكون قد نشأ عن ذلك نظام الرقيق المنزلي . وكان العبد خادمًا ينتج وفق تعليمات سيده ويضيف إلى جانب ذلك وحدة إلى قوة العمل الفلاحي المتكوّنة خاصة من النساء . وكان العبيد الأوائل دون شك أسرى حرب . وربما أصبح تواتر المعارك أكبر كلما تحوّلت الولايات إلى دول إذ عليها ، تحقيقًا لهذه الغاية ، ابتلاع ولايات أخرى أو سلالات أبوية أخرى لكي تكبر . وهناك مصدر آخر ممكن وهو الإحجام عن إعدام المجرمين فيصبحون عبيدًا[١١] .

وهناك حالات لم تتشكّل فيها الدولة على الرغم من الظروف الاجتماعية والبيئية الملائمة . فرأينا عندئذ نظمًا سياسية مخالفة تبرز ، كان بعضها يضع المساواة فوق كل اعتبار ويرفض المضي إلى أبعد من ذلك ، وعمل البعض الآخر على حماية جزء من هذه الروح من المساواة بتكوين كونفدراليات من السلالات قائمة على جمعيات طقوسية بدون رئيس . وأكبر مثال مشهود به على هذا « الاختيار » هو دون شك مثال سلالة نغباندي التي وفّرت سلالات من الملوك لغيرها من الأقوام لكن دون أن تتحوّل هي ذاتها إلى دولة . وحالة أخرى أكثر شيوعًا هي حالة سلالة غبايا التي كانت تعيش على اتصال بأعراق كقوم « مبوم » المنظّمة في شكل دول ولكنها ترفض اقتفاء الأثر . وقد ساعدت سلالة سارا نفسها على تكوين دولة باجيرمي ولكن مجتمعها نما في إطار السلالات.

وكانت توجد في كامل المنطقة بعض الخصائص الدينية المشتركة، حسب المرجح، بين الفلاحين: وجود السحر وطقوس الإخصاب التي يمارسها سيد الأرض وأهمية الأرواح المحليّة وأرواح الأسلاف والعرّافون والمداوون وكانوا محل اعتبار كبير. وكل ذلك ثابت حتى في عالم البانتو الأول بفضل مجموعة من

(١١) ي. دو جونغ ، وج. فانهوف، ١٩٤٩ ؛ س. ميرس، وي. كوبيتوف ، الجزء الأول، ١٩٧٧ ، للمقارنة بـ س. مياسو ١٩٧٥ .

العلاقات الاجتماعية التي أُعيد تجميعها. وكان لكافة أشكال السلطة طابعها المقدس انطلاقًا من تلك التي يمارسها رب العائلة إلى تلك التي يمسك بها ملك أو جمعية. وليس من الغريب أن نرى كافة الممالك وقد اصطبغت بطابع مقدّس أو إذا كانت النظرة للأشياء المقدّسة متشابهة ما دامت الأصول الدينية كذلك. وقد أُطلق على هذا التماثل بشيء من التسرّع اسم «ملكية مقدّسة» وأُريد ايجاد أصل وحيد لها. ولكن ذلك يعني تجاهل ملامح هامة مختلفة من مملكة إلى أخرى حيث أن هذه الممالك قد نشأت عن تطوّر مستقل، لأننا نلاحظ بحق أن ذلك هو حال ممالك لوبا أو دول الساحل الأطلسي لكي نقتصر على هذه الحالات المعروفة أكثر من غيرها.

وإذا كنا قد توسّعنا في وصف تكوين تجمّعات سياسية أكبر فذلك بالذات لأن الدول تكوّنت آخر الأمر في هذه الحقبة التي نحن بصددها.

السفانا الشمالية: السكان

يرجع عهد الروايات الشفوية عند أقوام نغباندي، القاطنة حاليًا بمنعطف نهر أوبنغي والمنظّمة في إطار سلالات قائمة على الانتساب إلى الأب – تعتبر في الواقع بمثابة ولايات اقطاعية – يرجع إلى حقبة ما قبل ١٥٠٠. وتؤكّد أساطيرها، إذا ما أولناها، أنها قدّمت من منطقة متاخمة لدار بندا بالسودان الحالي، وهي منطقة كانت تسكنها أقوام بندا في القرن التاسع عشر. وكان يحد هذه البلاد شمالاً بحر العرب، وهو أحد روافد بحر الغزال، وكانت قريبة من مناجم حفرة النحاس التي لا يُعرف منذ متى بدأ استغلالها والتي لم يقع ذكرها. ومنذ حوالي سنة ١٣٠٠ توافدت مجموعات من العرب الرحل البقارة إلى شمال هذا النهر وربما كانت هي التي طردت قبائل نغباندي. وتتحدّث الأساطير عن بيض مسلّحين بالأقواس والسهام والرماح والسكاكين والقذافات وحتى بالبنادق ويسمون ازونديا وعبارة. وقد يكون النزاع قد حدث في القرن الخامس عشر. كما حدثت هجرة مكثّفة طوال قرنين قد تكون دفعت بقبائل نغباندي على مقربة من بنغاسو. والتقت هذه القبائل في أواخر هجرتها بشعوب تتكلّم البانتو شمال مبومو، فيما بين بلاد شينكو ومباري[١٢].

ويبدو واضحًا أن موقع أقوام زنديه قد تحدّد نحو سنة ١٥٠٠ بين كوتو ودار رونغا، وأن غرب جمهورية افريقيا الوسطى كانت تسكنه أقوام منجا نغباكا وشرقها أقوام البانتو. وكان سكان الوسط السوداني قد انقسموا إلى شقين على الأقل يضم أحدهما أقوام سارا وما أصبح يسمى باجيرمي فيما بعد، ويوجد الآخر بأعالي النيل وبالغابة الشمالية الشرقية. وقد تكون بعض المجموعات من سكان الوسط السوداني مثل قبائل كرايش أو يولو قد استقرّت حينئذ في داربندا وقرب بلاد قبائل نغباندي الأصلية.

وفي القرن السادس عشر أسّست احدى سلالات نغباندي مملكة نزاكارا التي كان رعاياها يتكلّمون لغة زنديه بينما أنشأت سلالات أخرى ولايات اقطاعية كبيرة قائمة على نظام السلالات[١٣]. ويظهر تحليل المعطيات اللغوية لمنطقة ويليه الغابية أن حالة نغباندي ما هي إلاّ الحالة المعروفة أكثر من غيرها من حالات

(١٢) ب. تانغيه، ١٩٢٩، ص ٢ – ٣٧؛ هـ. بورسنس، في *AMRCB*، ١٩٥٨، المجلد الرابع، ص ٤٣ – ٤٤. ولكن الروايات الشفوية عند مجموعة نغباندي لا ترجع في الواقع الاّ لبلاد شينكو ومباري.

(١٣) ي. دو دامبيار، ١٩٦٧، ص ١٥٦ – ١٨١.

التطور البطيء التي حملت شعوبًا من الغرب إلى الشرق ومن الشمال نحو الجنوب. وقد أبرز لاروشيت[١٤] التعقّد الاستيطاني لهذه المنطقة حتى وإن كان يقلّل من قيمة الحركات الثقافية والتاريخية التي شهدتها هذه المنطقة.

وقد يكون من الخطأ نسبة كل هذه التوسعات والتداخلات اللغوية إلى موجات مشهودة من الهجرة. وقد أثبت كوسترمنس في حالة بانغبا أن التاريخ الترحالي لهذه القبائل يتمثّل في حركة من الترحال البطيء جدًا، وأن هذه الحالة ربما كانت سائدة أكثر من موجات الهجرة الواسعة التي لم يثبت حدوثها مباشرة في أي مكان[١٥]. ولعبت ظواهر لغوية من تبادل التأثير الثقافي دورًا في ذلك بكل تأكيد، من ذلك مثلاً أن الأقزام جميعهم استبدلوا لغتهم بلغة سكان وسط السودان. وقد تمكّن دراسات متعمّقة ذات طابع لغوي وثقافي وتاريخي مباشر من استجلاء الأمور ولو جزئيًا بينما قد تتيح البحوث الأثرية فرصة تأريخ بعض المراحل الثقافية. وفي انتظار تلك البحوث وجب الاكتفاء بالقليل الذي ورد هنا.

وكان دو كالون بوفي، الذي عمل بهذه المنطقة قبل سنة ١٩١٤، يزعم بأن العصر الحديدي لم يكم قد حلَّ قبل سنة ١٥٠٠، وأنه كان لا يزال يعثر في زمانه على بلطة من خام الحديد المصقول (الهيماتيت) غائرة في جذع شجرة قديمة جدًا. وترتبط هذه الأحجار المصقولة، من أحجار صقل وكؤوس، بالعصر الحجري الحديث الأولي الذي ربما له صلات بصناعات شبيهة في افريقيا الوسطى والى حد ما الكامرون الأوسط. وقد أمكن لعالم الآثار فان نوتن أن يثبت بأننا هنا أمام حالة استمرار الاستعمال الحجري إلى جانب الحديد، حيث كانت تُصنع الأدوات من خامات الحديد المحتوية على نسبة عالية جدًا من الحديد. وكان صهر الحجارة وتحويل الحديد الخام إلى أدوات لا يعطيان أداة أرفع قيمة في حالات كثيرة، على الأقل بالنسبة للجهد الضروري المبذول لتحقيق التحويل. وهكذا أمكن للأداة الحجرية المحتوية على نسبة عالية من الحديد أن تظل باقية لوقت طويل[١٦]. وعلاوة على ذلك لا يعني ظهور تقنية الحديد نهاية استعمال الحجارة مباشرة.

الغابة الاستوائية الكبرى

لم تكن الغابة هي الحاجز الذي تصوّره عدد كبير من المؤلّفين بين السفانا الشمالية والجنوبية ولكنها كانت مصفاة. وكانت تشقها طريقان على الأقل: الطريق الساحلية وطريق أنهار كاداي سانغا وأوبنغي وكنغو/زائير إلى بحيرة ماليبو (ستانلي بول). وكانت الملاحة البحرية تمارس منذ ما قبل سنة ١٠٠٠ مثلما يدل عل ذلك تواجد البوبي بفرناندو بو. ويمكن أن نستخلص من ذلك أن تلوين المنحوتات الخشبية الذي كانت تمارسه الشعوب حول خليج بنين، انطلاقًا من اليوروبا وحتى لوانغا، هو مؤشّر على أن هذه التأثيرات كانت تنقل من جهة إلى جهة مجاورة عن طريق البحر[١٧]. وكان الساحل بأكمله مأهولاً ،

---

(١٤) ج. لاروشيت، في *KO*، ١٩٥٨، المجلد الرابع والعشرين، عدد ٣.

(١٥) ج. كوسترمنس، ١٩٥٣.

(١٦) أ. دو كالون بوفي، ١٩٢١، ص ١٣٥؛ ب. دو ماريت، ف. فان نوتن، ود. كوهين، ١٩٧٧، في *JAH*، المجلد الثامن عشر، عدد ٤، ص ٤٨٦ – ٤٩٨.

(١٧) ف. أولبرخت، ١٩٤١، سجل الظاهرة ولكنه نسبها خطأ الى الحقبة اللاحقة لمجيء البرتغاليين.

عند مجيء البرتغاليين، بصيادي السمك. وفيما يخص النظام النهري، يمثّل التقاء أنهار أوبنغي/سانغا/زائير مساحة غابات شاسعة ومغمورة بالمياه لا يستطيع العيش فيها سوى صيادو السمك. ونجد هنا أيضًا بقايا تأثيرات نَقَلها حسب المرجح، صيادو السمك أثناء عبورهم الغابة.

تنقّلات عبر الغابة

ومن أشهر هذه الآثار المتنقّلة، نشير إلى الأجراس البسيطة التي ليس لها مقرعة والتي يرجح أنها عبرت الغابة قبل سنة ١٠٠٠ من الشمال إلى الجنوب ثم إلى الجرس المزدوج من نفس النمط الذي تبعها منذ ما قبل عام ١٤٥٠، ونجده في إيفيه خلال الحقبة الكلاسيكية، وفي زيمبابوي حوالى ١٤٥٠. وهذه الأشياء المنقولة تفترض معرفة بصناعة الحديد، تسمح بصناعة الألواح الحديدية وباللحام. وتصلح الأجراس المزدوجة لنقل نبرات اللغة المتداولة، وتشير في الغابة وفي الجنوب، إلى تواجد لغات ذات رنين (لغات البانتو). وبالإضافة إلى ذلك كانت وظائف هذه الأدوات متشابهة، من نيجيريا إلى زامبيا، على أن الجرس المزدوج كان دائمًا، ومن بين عدة أشياء أخرى رمز القائد السياسي. وانتقلت خناجر القذف أيضًا من الشمال إلى الجنوب حيث أخبر عنها بعض المراقبين نحو ١٥٨٧. كما تمّ العثور، فيما بين بنين وماليبو على الأقل، على أدوات أخرى مثل «كراسي للبكرات» وبعض أنواع الخناجر ونوع من الدف المشقوق لإرسال إشارات ولكن دون إمكان تحديد مصدرها إن كان من الشمال أو من الجنوب. وأهمية انتشار هذه الأدوات تكمن في أنها تثبت أن الغابة وكذلك السافانا في الجنوب لم تكن معزولة تمامًا عن بقية القارة. وكذلك أمكن لبعض الآراء أن تأتي مع الأدوات وتعبر الغابة في الاتجاهين[١٨].

وكان أهم حدث في الغابة حتى بالنسبة إلى تلك الحقبة، هو دخول وشيوع فكرة «الرئيس السياسي» المتميّز عن «رئيس الرابطة العائلية» وتعبّر لغات مونغو عن حق الدم بعبارة مبيفو، وحق المستوطن الأول، سيد الأرض، بعبارة أوكوفو؛ ولقد تطوّرت لدى المونغو السلالات حيث الرئيس له سلطات قوية أو «الاقطاعيات» منذ فترة طويلة. ثم أصبح المبيفو أو «السيد» ملكًا كلما ضاعف مداخيله وأحاط نفسه «بموال» وهم أشخاص يطعمهم.

التنظيم الاجتماعي في الغابة وفي المناطق المكشوفة

وحدث من جهة أخرى قبل سنة ١٥٠٠ توسع بطيء ولكنه ذو بال لأشخاص يتكلّمون لغات من فصيلة مونغو جنوب سنكورو وكازاي. وتوغّلت بعض المجموعات بعيدًا عن ضفتي لوانغا، فيما بين لوانغا وكازاي وعلى ضفتي كمتشا. وفيما يتعلّق بالانزلاق من الشمال نحو الجنوب، من لوكيني إلى سنكورو ثم الى الجنوب حتى لولوا، فإن المعطيات ما تزال روايات شفوية محقّقة بواسطة تحليل لغوي. وقد أمكن هنا إعادة بناء نمط العيش داخل المشيخات الصغيرة أو «نكومو». ويساعد الشيخ في مهمته قائد عسكري لا

(١٨) ج. فانسينا، في *JAH*، ١٩٦٩، مجلد ١٠، عدد ٢؛ د. كوردل، «*Ba-Shiru*»، المجلد الخامس، عدد ١، ١٩٧٣.



• جرس حديدي مزدوج من مانغبيتو (زائير).

غير. وكثيرًا ما نرى قرى تسيّرها مجالس كبار السن يعاونون الشيخ. وربما كان يوجد في مستوى القرية ناطقان على أساس واحد لكل من جانبي الشارع الرئيسي. وكانت العلاقات مع الأقزام ذات مظاهر متباينة. ويبدو أن بعض المجموعات قد عاشت متكافلة بينما تحارب الفلاحون والأقزام في حالات أخرى. ويلاحظ فيما يتعلّق بالهيكل الاجتماعي شبه تطابق المفهوم بين السن والسلطة وتداول واضح بين الأجيال. وقد شرعت مجموعات جنوبية، بالمقارنة مع المونغو عمومًا، في إعداد النظم المتصلة برابطة الزواج وهو ما يفترض تقلّص أهمية السلالة الأولى بصفتها مجموعة ذات كيان مترابط وتدعم الوحدة الاقليمية. وعلى الصعيد الاقتصادي لعلّ أهم ما يسجّل هو فلاحة الذرة البيضاء في السفانا المحصورة داخل الغابات، وبالتالي في منطقة الغابات، والسيطرة على الحديد من قبل أهل الغابة. بيد أن السونجي يسلمون بأن أقوام كوبا الخارجة من الغابة هي التي علّمتهم صهر الحديد، وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا فإن الأدلّة الاثنوغرافية تظهر أن تقنية الحديد كانت موجودة فعلاً في بيئة الغابات. وكان بالإمكان الحصول، بفضل إحراق أخشاب صلبة جدًا، على درجات عالية من الحرارة، بل أنهم توصّلوا إلى إيجاد الوسيلة لصناعة الفولاذ[١٩].

ولا يعرف شيء كثير عن تاريخ الغابة من الغابون إلى جمهورية الكونغو مرورًا بالكامرون. وكانت تحوّلات سكانية قد بدأت من شمال سانغا نحو جنوب الكامرون. وما سمي بهجرة باهوين ليس في الواقع إلاّ تحرّكًا بطيئًا جدًا انطلق قبل سنة ١٥٠٠[٢٠]. كما تطوّرت بهذه المنطقة قبل سنة ١٥٠٠ الهياكل السياسية من نمط «نكومو». وأخيرًا، نعرف أن جانبًا كبيرًا من الغابة شمال شرقي الغابون لم يكن في الأغلب عامرًا واذا كان مأهولاً فليس بفلاحين ذلك أن الغابة ظلّت بدائية إلى عهد غير بعيد.

وحدثت، إلى الشرق من زائير الأعلى، في بلاد مانيما، تحرّكات سكانية لم يتيسّر بعد تحديد تاريخها. ويتعلّق الأمر هنا أيضًا بتحرّكات لمجموعات صغيرة جدًا ولكنها سريعة الحركة وكانت لها معرفة بشؤون الفلاحة وتواصل ممارسة صيد السمك واستوعبت سكانًا من الصيادين الأقزام.

وكان الجزء الجنوبي من بلاد مانيما دون شك، موطن أجداد السكان ليغا قبل سنة ١٥٠٠. ومن الممكن أن هؤلاء كانوا قد أنشأوا جمعيات اجتماعية – سياسية تسمى «بوامي». و«البوامي» سلم رتب معقّد كان الذين يحتلّون فيه الرتب العليا يشكّلون سلطة سياسية ومعنوية على المنطقة المشتركة في هذا «البوامي». ويعتقد أن بعض المجموعات من سكان ما بين البحيرات الغربية القاطنين على الحافة الغربية لمنخفض غرابن من بحيرتي كيفو وتنجانيقا قد تكون صاغت انطلاقًا من هذه «البوامي»، فكرة إنشاء مشيخة ومملكة. وأعطت الغابة من جديد دفعًا أصليًا لإعداد الهياكل السياسية. كما أمكن لجمعيات شبيهة في الغابة أن تكون وراء تطوّر «ولايات اقطاعية» منتخبة نجدها في الجنوب لدى السونجي. وإذا كان الاتصال قد انطلق فعلاً من الشمال نحو الجنوب فإن هذا التطوّر قد يرجع أيضًا إلى ما قبل ١٥٠٠[٢١].

---

(١٩) ج. فانسينا، ١٩٧٨، ص ٩٠ – ١٠٣ ومواضع أخرى.

(٢٠) ب. لابورتيه – تولرا، ١٩٧٧، ص ٧٩ – ٤١٤.

(٢١) د. بيابوك، «ثقافة ليغا»، ١٩٧٣، ص ١١ – ١٢ ومواضع متفرقة بالنسبة «للبوامي». وهذه الأمثلة تقيم الدليل على أن الغابة كانت في حالات كثيرة مصدرًا ومركزًا لنشر الثقافة.

السفانا في شابا

نتبيّن جليًا في السفانا الواقعة جنوب الحوض الاختلاف بين الرواية الشرقية والرواية الغربية للساحل الأطلسي. بل إن الأولى تتفرّع إلى رواية لوبا ورواية كازاي العليا وشاب–العليا. وتذكر الروايات قصة ميلاد أمبراطوريتي لوبا ولوندا. ولكن ما هي قيمتها التاريخية؟ فهي بالنسبة إلى البعض إما خيال محض أو أنها تعكس وتبرّر هياكل ترجع إلى القرن التاسع عشر. ويعتقد الأستاذ هويش أن الأمر يتعلّق فعلاً بأساطير ولكن بأساطير تكوّنت أثناء فترة ميلاد الأمبراطوريات[٢٢]. وفي الواقع فإن ذلك كله ليس إلاّ أحكامًا لا تنطلق من تحليل لهذه الروايات التي تظل في حاجة إلى دراسة كوثائق.

والموقع الرئيسي الذي يقوم شاهدًا على ظهور تقنيات تعدين الحديد بشكل مبكر هو موقع سانغا. ولكن يجب انتظار نتائج الأبحاث الجارية حاليًا لكي يتسنى إعطاء تسلسل زمني لذلك. إلاّ أنه يمكن الزعم، أنه انطلاقًا من القرن الحادي عشر، توجد آثار لتفرقة اجتماعية كبيرة، وهي تمثّل علامة غير مباشرة تؤكّد تكاثر عدد المشيخات. ونشأت في وقت مبكر جدًا شبكة تجارية تمتدّ من بحيرات لوالابا إلى المجرى الوسيط لنهر زمبيزي، واستُعملت الصلبان النحاسية الصغيرة كعملة. وظهرت هذه الصلبان أول الأمر على الحدود الحالية بين زامبيا وزائير، في حزام النحاس، فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر، أي أن ظهورها بهذه المنطقة جاء بعد العصر الحديدي الحديث بقليل. وبالنظر إلى ارتباط موقع انغومبي إيليدي، بتجارة الساحل الشرقي فإنه ليس ثمة شك في أن هذه الشبكة الاقليمية ارتبطت بشبكة المحيط الهندي منذ قبل سنة ١٥٠٠[٢٣].

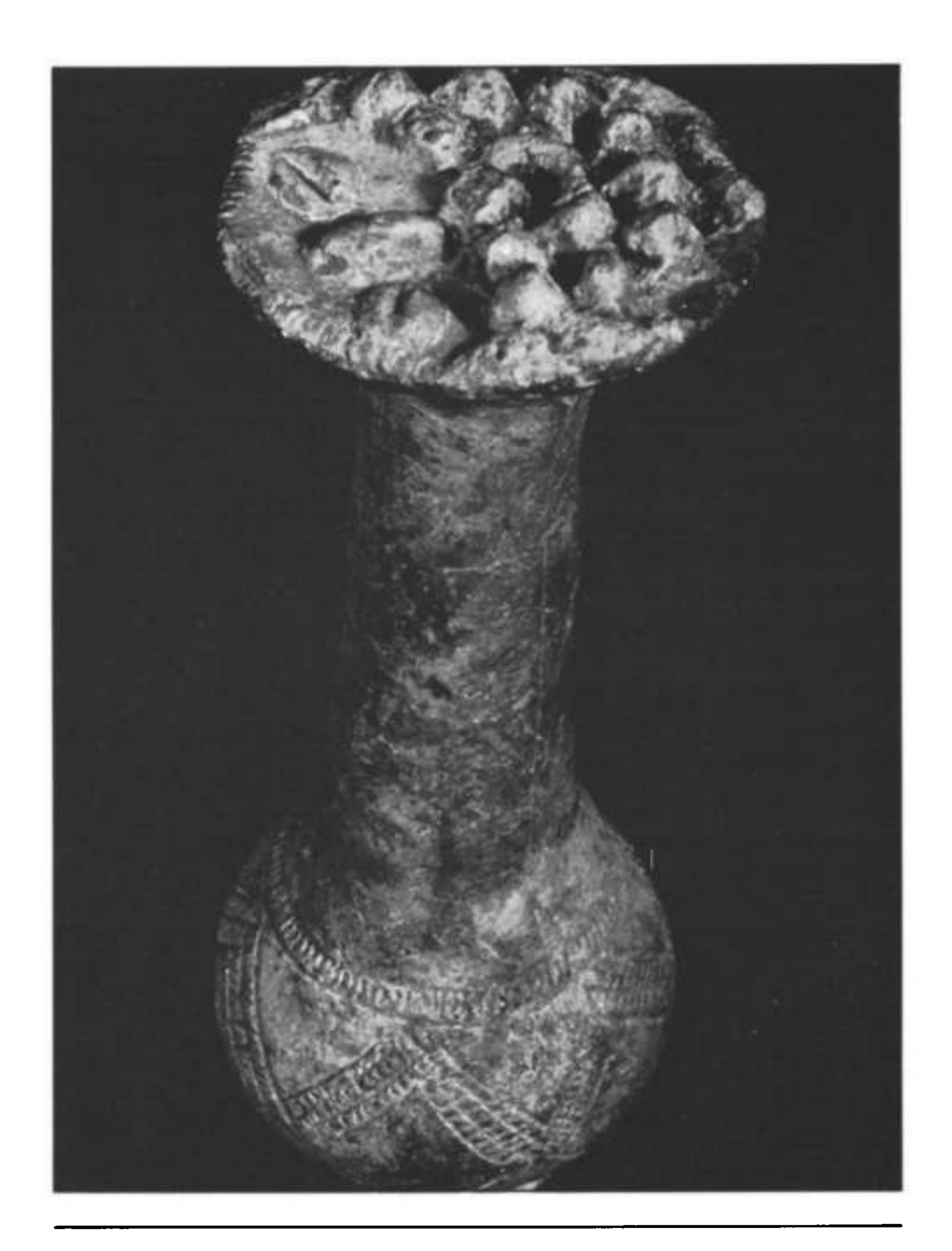
وتتحدّث الروايات الشفوية عن مشايخ «لوبا» وجدوا في مالاوي وفي زامبيا الشمالية والوسطى والشرقية في تواريخ مختلفة، علمًا بأن التواريخ المقترحة بالنسبة لمالاوي هي الأقدم. وعن طريق هذه الروايات أيضًا نعرف تكوين دول لوبا ولوندا، كما نعرف انطلاقًا من أعمال ميلر أن احدى دول لوندا كانت توجد منذ قبل سنة ١٤٥٠[٢٤]. وليس مستبعدًا أن تكون بعض المجموعات الصغيرة من الحرفيين قد هاجرت إلى تلك المناطق: فقد أمكن للتجارة الاقليمية أن تساعد على هذا التوسّع.

ممالك لوبا ولوندا

المصادر الشفوية ومعرفة البلاد

تفرّدت ممالك لوبا ولوندا بذاتها، في السفانا الجنوبية، في وقت مبكر جدًا وقد نمت هذه الكيانات الدولية قرب بحيرات لوالابا. وشهدت شابا، المنطقة المنجمية والفلاحية الغنية، في وقت مبكر ميلاد

(٢٢) ل. دو هويش، ١٩٧٢.
(٢٣) د. و. فيليبسون، ١٩٧٧، ب. دوماريت، ف. فان نوتن، ود. كوهين، في *JAH*، ١٩٧٧، المجلّد الثامن عشر، عدد ٤، ص ٤٨٧ – ٤٨٩. تواريخ بالكربون المشع. أنظر أعلاه، الفصل ٢١، مساهمة ب. فاغان.
(٢٤) ج. ك. ميلر، ١٩٧٦.



• قنينة على شكل إنساني (العصر الكيسالي)



• قبر كيكولو
وتظهر بوضوح قطعة نحاسية صغيرة
من شكل الصليب فوق القفص الصدري
(قبر كابامبياني من القرن ١٤ - ١٦).



١



٢

١. في موقع كانغا (القرن الثاني عشر)
٢. تمثال «نتادي كونغو» من الحجر
من مبوما ، الزائير الأدنى

مشيخات ستفرز، كلما تهيكلت، ممالك. وقد أمكن للتجارة التي أصبحت ميسورة، في هذه المنطقة من السفانا، أن تكون دافعًا لميلاد الدول.

وكانت اللوبا واللوندا هي الأولى التي وضعت أسس الدول. وتأتي معلوماتنا في معظمها من الروايات الشفوية، وهي وفيرة بشكل خاص فيما يتعلّق باللوبا واللوندا. إلاّ أننا لا نملك حتى الآن ديوان روايات بيد أن جمعها لا يزال متواصلاً.

وتفيد الروايات بأن مملكة لوبا أسّسها شخص يُدعى كونغولو أقام عاصمته قرب كالونغو. وقد توفّر الأسطورة اللوبية الأصل، على ضوء روايات أخرى، معلومات قيمة حول الثقافة إن لم يكن حول تاريخ اللوبا. وتجعل التقديرات، بشيء من الغموض، ظهور دولة لوبا قبل سنة ١٥٠٠. وقد نجمت هذه الدولة عن اندماج عدة عشائر تحت سلطة رئيس وحيد. ولئن لم نكن نعرف جيدًا التنظيم السياسي للمملكة، فمن الثابت أن السكان كانوا منظّمين في شكل سلالات أبوية وكل سلالة لها قراها الخاصة وكان مشايخها يملكون عبيدًا. وكان «الكيلوتو» أو شيخ السلالة يعترف بسلطة الملك. وكان الملك محاطًا بموظفين، اثنان منهم على الأقل كانوا معروفين: حارس الرموز ويُدعى «انابنزا» والقائد العسكري أو «تويت». وكان النظام الملكي عند اللوبا قائمًا على مبدأ «البولوبويه» أو القداسة. وكانت هذه القدسية تكمن في الدم الحاكم[٢٥] وهي ما تسميها اللوبا «مبيفو».

وساعدت موارد الملح والمعادن المتوفّرة في منطقة شابا على التجارة واختلاط السكان وبروز تجمّعات سكانية كبرى. ومن هذه الناحية هناك استمرار للتطوّرات التي حدثت في خلال الألف الأولى. وساعد دخول نظم القرابة القائمة على الانتساب إلى الأب، وهي النظم التي ألحت بالإضافة إلى ذلك وبشكل قوي على نقاوة الدم، على قيام ولايات اقطاعية حكامها من أبناء السلالات القائمة على سلطة الأب وعلى تماسك اقليمي ميسور. وكان مبدأ القدسية «البولوبويه»، عند اللوبا قائمًا دائمًا على الدم الحاكم.

المؤسسات السياسية

يختلف المبدأ الايديولوجي للمملكة عند اللوبا كثيرًا هنا عن المبادئ السياسية السونجية. فأقوام سونجي كانت تمارس الملكية الاختيارية القائمة على ثراء السلالات، وأحيانًا حتى الملكية المحدّدة الأمد وهي ملكية تحت إشراف مجلس جمعية سرية تدعى «البوكينشي». وكانت الجمعيات السرية تشكّل جهاز الحكومة ذاته عند قبائل اللوبا الشرقيين المنتسبين إلى الأم. وجغرافيًا، فإن كل هذا قريب جدًا من عالم غابة ليغا ولعلّه يدفعنا إلى إقامة رابطة بين «البوامي» وهذه الأشكال من الحكم، وهي رابطة مغايرة كثيرًا للروابط (الثقافية) التي كانت قائمة بين السونجي واللوبا الوسطيين. ولم يكن ابتداع «البولوبوية» قد تمّ إلاّ عند هؤلاء فقط، وربما في منطقة بحيرات لوالابا. وكانت هناك فضلاً عن ذلك عدّة ممالك لوبا. ونعرف، بالإضافة إلى كيكوندا (منطقة البحيرات) ولاية كالونديويه الاقطاعية[٢٦].

(٢٥) ج. فانسينا، ١٩٦٥، ص ٦١ – ٨٧؛ أ. روبرتس. ١٩٧٦، ص ٣٦ – ٤١، ولكن ت. ك. ريف، في *HA*، ١٩٧٧، عدد ٤، ينكر تأثير اللوبا في اللوندا ولكن ج. هوفر، (بيان شخصي) وندوا سولول يرفضان حججه؛ هـ. و. لانغ ورئي، ١٩٧٢، ص ٢١ – ٢٧ و ٢٨ – ٣٠.

(٢٦) أ. ويلسن، في *JAH*، ١٩٧٢، المجلّد الثالث عشر، عدد ٤، لا يعتقد أن دولة لوبا متّسعة جدًا قبل حوالى ١٨٠٠. ولكن ج. يودر، يفنّد هذا جزئيًا، ١٩٧٧، ص ٦٧–٩٧ و ١٢٠–١٥٣؛ بالنسبة لكوابا أنظر ج. يودر، المرجع المذكور.

وفيما يخص اللوندا ، يمكن التسليم ، حتى يثبت عكس ذلك ، بأن كامل المنطقة الممتدّة من كوانغو العليا إلى كازاي العليا الجنوبية والمناطق المتاخمة لزامبيا كانت تتبع نفس نظام القرابة الأبدية[٢٧] ، هذا النظام المعقّد الذي « يتحوّل » الخلف فيه إلى نفس سلفه فيأخذ اسمه وعلاقات قرابته ومهامه وصلاحياته. ولا يعترف هذا النظام بمرور الزمن ليضمن تماسكًا بدون أية ثغرة واستمرارية متأكّدة للمجتمع بأسره. وكان هذا النظام يسمح هكذا بتخليد علاقات حكم ناشئة عن تحالفات زواج ، وغزوات ، وعمليات اندماج ، واتفاقات « أخوية » ثنائية بين الرؤساء. وبعد سنة ١٥٠٠ ، سيصبح هذا النظام أداة قوية لتشييد امبراطورية حقيقية تجمع بين عدة ممالك تحت نفوذ اللوندا.

لنلاحظ أن هذه المنطقة الواقعة بين كازاي وكوانغو تفتقر إلى الموارد الطبيعية ، وأغلب الظن أنها كانت تؤوي عددًا ضئيلاً من السكان بينما كان يجري في الشرق ، بين اللوالابا واللوابولا ، استغلال ملاحات ومناجم النحاس. ونحو الجنوب كانت سهول الزمبيزي العليا توفّر من الموارد الطبيعية أكثر مما كانت توفّره بلاد اللوندا ولكن دون ما كان يوفّره جنوب شابا. ومع ذلك ستتطوّر في هذه المنطقة دولة مركّبة : هي دولة لوزي. ويمكن أن نقبل الفرض بأن تأسيسها كان مستوحى جزئيًا من اللوندا ولكننا لا نعرف تاريخ تطوّرها[٢٨].

انغولا

لقد شهد حوض نهر لوي وهو أحد روافد كوانغو الأعلى ، وهي منطقة ملاحات ، في وقت مبكر جدًا تطوّر عدد من المشيخات وذلك قبل سنة ١٥٠٠ بكثير. وكانت تحكمها سلالة بنديه. وفي هذا أيضًا يرى ميلر نموًا منتظمًا في حجم المشيخات[٢٩].

وأخيرًا ، وبعد سنة ١٥٠٠ بقليل على أقصى تقدير ، كنا نجد جنوب نهر ليبولو ، على الهضبة ، دولة كولبيه التي ربما كانت احدى دول اوفيمبوندو الأولى. وكانت هذه الدولة منظّمة بشكل مغاير وتميّزها عن غيرها جمعية سرية لتعليم المبادئ العسكرية هي « كيلومبو ». وفي ليبولو أو في كولبيه شرع في بناء القبور الحجرية التي لا تزال آثارها قائمة تنتظر التنقيب. أما دول أوفيمبوندو الأخرى فربما كانت تعرف هي أيضًا نظام الـ« كيلومبو » الذي نجده في روايات إنشاء دولة هومبيه وهي دولة ما زال تاريخ تأسيسها مجهولاً وحدّد موقعها بجنوب أنغولا. ومن ناحية أخرى ربما أدخل « الكيلومبو » إلى بلاد هومبيه عن طريق الايمبانغالا الذين لم يشكّلوا عرقًا خاصًا إلاّ في القرن السادس عشر فقط. ويتكلّم الأوفيمبوندو إحدى لغات بانتو الجنوب الغربي. وتقول بعض المجموعات مثل الهوامبو بأن منشأها الأصلي يوجد بالحافة الجنوبية للهضبة وخاصة بمنطقة تدعى فيتي حيث مكّنت الحفريات من تحديد تواريخ تعود إلى ٧١٠ ±

ص ٥٦–٥٧ وقارن مع ج. ويدرت، ١٩٣٨ وس. وترس ، ١٩٤٩ ؛ أنظر أيضًا أطروحة دكتوراه ، ن. ج. فارلي عن الـ« بن ايكي » ، نيويورك ، ١٩٧٨ ؛ ت.ك. ريف ، ١٩٧٥ هو كاتب أحدث مؤلّف.

(٢٧) ج. ك. ميلر ، ١٩٧١ ، ص ٤٥ – ٦٨ ، و ٨١ – ٨٢ ، و ١٦٦ – ١٦٨.

(٢٨) م. ماينغا ، ١٩٧٣ ، ص ١٦ – ٢١ ؛ ج. برينس ، ١٩٧٨.

(٢٩) ج. ك. ميلر ، ١٩٧١ ، ص ٥٥ – ٨٨ ؛ ب. هاينتز ، « بايدوما » ، ١٩٧٠ ، المجلّد السادس عشر ؛ و « انثروبوس » ، عدد ٧٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٧٥٤ – ٧٦٢ (تنتقد هذه الفقرة الأخيرة بعض آراء ميلر).

١٠٠ و ١٢٥٠ + ٦٥. ويرجع التاريخ الأخير دون شك إلى مجموعة الأوفيمبوندو، لكن الاحتمال قائم أيضًا بالنسبة للتاريخ الأول. ولا بدّ من استئناف الحفريات. وربما كان تشكيل البعض من دول الأوفيمبوندو الأربع عشرة قد بدأ فعلاً قبل القرن السادس عشر وأن اللغة وتواجد الماشية ونظام القرابة تربط هذه الحضارة بالحضارات الناطقة بلغة البانتو في أنغولا الجنوبية وفي ناميبيا.

وتتجمّع هذه الدول الأخيرة في إطار ثلاثة فروع رئيسية هي فرع نيانيكا – هومبيه وفرع امبو وفرع أوفاهيريرو. ولم يكن الفرع الأول، الذي كان، ثقافيًا، شديد التجانس مع الاوفيمبوندو منظّمًا في شكل دول هامة باستثناء الهومبيه. وكانت المشيخات الصغيرة كثيرة. ويوجد الفرعان الآخران أيضًا في ناميبيا. وكان الامبو يمارسون الفلاحة ولكن نشاطهم الرئيسي كان محوره امتلاك المواشي ذات القرون الطويلة. وكان تنظيمهم السياسي في القرن التاسع عشر يتمثّل في اثنتي عشرة دولة ثلاث منها كانت تملك قوة عسكرية كبيرة. وكان المشايخ يحكمون انطلاقًا من عواصم محصّنة، وكانت كل المهام متوارثة حسب الانتماء إلى سلالة الأم. وكانت السلطة هنا تتميّز بامتلاك الشعلة المقدّسة وبهيكل اقتصادي أساسه ملكية الماشية. وكان الأوفاهيريرو رحّالاً مثل جيرانهم من الخوى في ناميبيا، وتعتمد في حياتها على قطعانها من الأبقار والأغنام وعلى الحصاد والصيد. ولم تكن، على غرار الخوى، تستعمل الحديد قبل القرن التاسع عشر إلاّ أنها كانت تتكلّم لغة البانتو، وكانت ازدواجية نسبها تميّزها أيضًا عن الخوى. وأخيرًا، كانت أنغولا الجنوبية وناميبيا الشمالية والوسطى تضمّ أيضًا مجموعات من الصيادين «سان» وصيادين زنوجًا، هم التوا، الذين نلاحظ من بينهم وجود البوغداما («زنوج الجبل») الذين كانوا حدادي ناميبيا. وكان هؤلاء التوا يتكلّمون لغات خوى – سان(٣٠).

هكذا كان الوضع حوالى سنة ١٨٥٠. فماذا عن تاريخ هذه الشعوب؟ ان النيانيكا – هومبه يزعمون بأنهم السكان الأصليون، والأمبو والأوفاهيريرو يقولون بأنهم ينحدرون من الشرق. ويمكن أن نقبل بأنهم قدموا من الزمبيزي وتدرّجوا بمواشيهم (ذات القرون) التي حصلوا عليها هناك نحو الغرب عبر الكوبانغو. أما الأغنام فقد اقتناها الأوفاهيريرو من الخوى. ومهما يكن من أمر، فإن رسوم الأغنام بالكهوف، تظهر الخوى بشكل جلي. وقد استوعب الأمبو الكثير من عناصر توا وهم لا يخجلون من ذلك، على عكس النيانيكا – هومبيه، الذين استوعبوا صيادين توا وصيادين آخرين مجهولي النسب، ولكنهم يخجلون من إعلان ذلك. وقد تكون الأوفاهيريرو ضمّت أيضًا العديد من التوا، لأن بلاد كاوكوفيلا التي احتلّها الأوفاهيريرو الجنوبيون ربما على امتداد قرنين تسمى في الحقيقة «أوتوا»، (بلاد التوا).

وفي فترة ما، اذن، كان صيادون زنوج ينتمون إلى ثقافة سان يحتلون الساحل حتى خط العرض الجنوبي ١٣° ويلتفّون حول الهضبة الوسطى من جهة الجنوب للالتحاق بمجموعات سان في الشرق. وكانوا، إلى الجنوب، يحتلّون كامل الساحل الشمالي لناميبيا؛ وفي الداخل كانوا يجاورون السان والخوى؛ وتعلّمت بعض هذه المجموعات فن صهر الحديد. ويمكن الافتراض بأنه، في نحو ذلك الوقت، كان سكان الجنوب الغربي الناطقين بلغة البانتو يحتلون الهضبة الوسطى في أنغولا وبعض النقاط في الجنوب وحتى في الغرب بينما كانوا، في الشرق، يعيشون في سهول أنغولا الشرقية تاركين إلى أقوام سان المناطق الواقعة ما بين الأنهار. وإلى الشمال في اتجاه منابع كويتو وكواندو، حيث كانت تنزل كميات كبيرة من الأمطار، كانت تعيش مجموعات سكانية زراعية من العصر الحديدي تنتمي لغويًا إلى مجموعة لوندا – غانغيلا – كوكويه. وكان الاوفاهيريرو والامبو لا تزال تعيش في الأودية.

(٣٠) أنظر س. ايسترمان، ١٩٦٠ وهـ. فيدير، ١٩٣٨؛ وس.هـ.ل. هان، وهـ. فيدير، ول. فوربيه، ١٩٦٦.

سفانا الجنوب الغربي

وجد البرتغاليون مملكتين كبيرتين على الساحل هما مملكة كونغو ومملكة لوانغو وأخرى في الداخل هي مملكة تيو أو مملكة «ماكوكو العظيم». وتشهد الروايات الشفوية بأن المملكتين الأوليين تكوّنتا بالاحتواء البطيء لدول أصغر وبأن الأسرة المالكة في كونغو تنحدر من شمال النهر غير بعيد عن أسرة لوانغو. ويمكن أن نقدّر بأن هذه الممالك نشأت فيما بين القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر. بيد أن دابر يرجع أصل هذه الممالك كافة إلى المناطق الكائنة شمال بحيرة ماليبو أي في بلاد أقوام تيو. وهو أمر غير مستبعد، وليس ذلك لوجود رواية تتعلّق بشخص أو بمكان «نغونو» يربط بين تيو ولوانغو وكونغو إذ يحتمل أن هذه الرواية إنما وُضعت لتفسير هذا الارتباط، وإنما لأن وراثة الحكم عند التيو والكونغو متعدّدة لا أحادية وهو الأمر الفريد في افريقيا بل ربما في العالم أجمع. وبإمكان أي منحدر من سلالة أحد الملوك السابقين أن يطمح (نظريًا) في العرش على قدم المساواة مع أي كان من الآخرين. ونسجّل أيضًا أن مهد الكونغو يقع بالتحديد غربي مانيانغا ذات النظام الباتيكي (تيو).

وإذا كان هذا الأصل المشترك صحيحًا، فإن أولى الدول في شمال بحيرة ماليبو وشمالها الغربي ربما وُجدت قبل القرن الرابع عشر وربما حتى نحو سنة ١٠٠٠. وبإمكان الحفريات وحدها داخل المقابر الأولى المعروفة لأسر كونغو وفيلي وتيو، وكذلك الحفريات في مبانزا كونغو (سان سالفادور) أن تحدّد تاريخًا وإطارًا أفضل لذلك. ولا نبعد عن المعقول كثيرًا إذا قلنا إن حضارات هذه المنطقة قد اكتسبت طابعًا خاصًا في الشمال أول الأمر، على أطراف الغابة أو في غابة مايومبه. وقد تأقلمت هذه الحضارات مع السفانا وحتى مع السهب في حالة هضاب باتيكه العليا. ويظهر توسّعها، بما في ذلك انتشار لغاتها، من جديد «تضخّمًا» حول مركزين أصليين أحدهما لسلالة كونغو والآخر لسلالة تيو (باتيكه). وانتشرت سلالة كونغو جنوب النهر وسلالة فيلي لوانغو على طول الساحل باتجاه الشمال والشمال الشرقي إلى نهر نغونيبه، رافد أوغويه، بينما انتشرت سلالة تيو، والتي أصلها أطراف الغابة قرب خط الاستواء بالذات واستقرّت في كل الهضاب العليا نحو الجنوب وفي أراض مشجّرة في الغابون ونحو منطقة شلالات النهر.

وتتحدّث روايات كونغو، عندما سجّلت لأول مرة سنة ١٦٢٤، عن فترة احتلال تدرّجي لبلاد جنوب النهر وهي البلاد المتكوّنة من مشيخات أمبوندو (أو ندمبو). وقد غزا الكونغو هذه المناطق إلى حد أنه ضمّ من بينها بلاد ماتمبا وبلاد ندونغو، على الأقل لتدفع الجزية بشكل غير منتظم لأن المملكة ذاتها تقف حدودها حسب المرجّح في لوجي ولكنها كانت تشمل الساحل نحو لواندا وكذلك الجزيرة والأرض الواقعة قبالتها بين نهري كوانزا وبنغو. وبالنسبة إلى المناطق الأخرى فإننا لا نملك مثل هذا القدر من التفاصيل المتعلّقة سواء بالفتوحات أو بتكوين الدولة على الرغم من وجود قائمة بالولايات الاقطاعية المدمجة لتكون مقاطعات لوانغو الوسطى. ونستشف من ذلك تطوّرًا سياسيًا منتظمًا إلى حد ما لم تكن مراحله ثابتة قبل وجود الولايات الاقطاعية الكبرى مثل نغوا وكاكونغو ونواة لوانغو وبنغو ونسوندي ومباتا. ويمكن الافتراض بأن هذا السيناريو هو بالذات الذي كان سائدًا في الغابة الاستوائية: قرى كبرى قائمة على نظام الانتساب إلى الأم ولها رؤساء ومستشارون (واحد لكل سلالة) وتكوين مشيخات نتيجة تزاوج بين القرى وربما نتيجة غزوات أو تفوّق روحي (جن وسحر، الخ...) ثم ثروة متنوّعة ساعدت على نمو بعض المشيخات وتسبّبت في تدهور أخرى خلال فترة تأسيس ممالك صغرى مثل التي ورد ذكرها.

ونجد في كل مكان عبادة الجن: (جن الأرض) وعبادة الأجداد المعتبرين في مقام الآلهة. ويبدو أن

التجارة قد تطوّرت في وقت مبكر في هذا القطاع أيضًا الذي كانت فيه العملة متداولة عند مجيء البرتغاليين سنة ١٤٨٣. وكانت توجد أرستقراطية وعبيد مسخّرون للأشغال الزراعية. وقريبًا ستمكّن الحفريات التي شرع فيها بكينشاسا وبجزيرة مبامو من تحديد تواريخ مضبوطة.

مملكو كونغو قبل ١٥٠٠ : مؤسساتها [٣١]

يستحق الكونغو وصفًا أطول لا لأنه كان أوسع دولة أو أقوى من غيره من الدول ولكن لأنه معروف. حسب الروايات، أكثر من سواه. وقد أسّسه لوكيني نيمي الذي انطلق من بونغو إلى مايومبي عبر النهر وغزا مشيخة الأمبوندو في بلاد ميانزا كونغو و«شارك» القوم حكمهم ومن ثم اختلط الغزاة بالسكان الأصليين «النبلاء مع النبلاء، وعامة الناس مع عامة الناس».

ونسوق فيما يلي مقطعًا من «وصف مملكة الكونغو والبلاد المجاورة» لبيغافيتا ولوبس (١٥٩١). «تنقسم المملكة إلى ستة مقاطعات هي : بامبا وسونيو وسوندي وبانغو وبانلا ومبما. ويحكم بامبا، وهي أوسع هذه المقاطعات وأثراها، دوم سيباستياو ماني ممبا ابن عم الملك دوم الفارو المتوفي حديثًا. وتقع هذه المقاطعة على طول الساحل انطلاقًا من نهر أمبريزي، باتجاه الجنوب، وحتى نهر كوانزا. ويتبعها عدد من الأسياد الاقطاعيين وأبرزهم : دوم أنطونيو ماني بمبا شقيق دوم سيبا ستياو ونائب الحاكم، وماني لمبا، وماني داندي، وماني بانغو، وماني لواندا الذي يوجد على رأس جزيرة لواندا، وماني كوريمبا، وماني كوانزا، وماني كازاني. ويمارس كافة هؤلاء الأسياد الاقطاعيين سلطانهم على الجزء الساحلي من البلاد. ونذكر في الداخل، من جهة أنغولا، أقوام أمبوندو التي تخضع أيضًا لماني بامبا : وهي تتألّف من الأنغازي (نغازي)، وشينغنغو (كونجنغو)، وموتولو، وكابوندا وغيرها، ذات سلالة أقل رفعة. ولنلاحظ أن كلمة ماني تعني «السيد» وأن الجزء الثاني من الأسماء يدل على البلد، على الولاية الاقطاعية. من ذلك مثلاً أن ماني بامبا تعني «سيد منطقة بامبا» وماني كوريمبا «سيد كوريمبا» علمًا بأن كوريمبا هي جزء من بامبا وهكذا الأمر بالنسبة إلى الأسياد الآخرين». ويمضي المؤلّفان : «وكما قلنا فإن بامبا هي أبرز مقاطعات الكونغو. فهي مفتاح المملكة ودرعها وسيفها ودفاعها وقلعتها أمام العدو...سكانها شجعان، مستعدّون دائمًا لحمل السلاح، وصد الأعداء القادمين من أنغولا... ويمكن (في بامبا) عند الضرورة جمع جيش من أربعمائة ألف محارب».

وينيرنا هذا المقطع بما يكفي عن التقسيمات الإدارية. ومما لا شك فيه أن العدد الذي كان بإمكان بامبا جمعه لتجنيد جيش مبالغ فيه، إلاّ أنه يشير إلى أن البلاد كانت آهلة جدًا بالسكان ولها هيكل إداري قوي. ويقيم الماني أو الحاكم في بنزا، وهو الاسم الذي يُطلق على مقر إقامة القائد[٣٢].

(٣١) أنظر و. ج. ل. راندلس، ١٩٦٨، بشأن البيبليوغرافيا الأكثر استيفاء حتى اليوم والوصف الأدق.
(٣٢) و. دابر، ١٦٦٧، ص ٢١٩؛ ج. فانسينا، ١٩٧٣، ص ٣٣٩ و٣٤٥؛ و. ج. ل. راندلس، ١٩٦٨، ص ١٧–٢٥؛ ب. مارتان، ١٩٧٢، ص ٣–١١.

حكومات وتنظيم المقاطعات

كان ملك الكونغو يتمتّع بسلطة واسعة لكن دون أن يكون نفوذه مطلقًا. وهو الذي كان يعيّن حكام المقاطعات باستثناء حاكم مباتا «المنتخب من الشعب وأعيان عائلة نزاكو بإقرار ملكي». أما في مقاطعة سويو فكان منصب الحاكم وراثيًا.

ويظهر على ما يبدو أن ملك الكونغو كان يحكم قبل سنة ١٥٠٠ مملكة أكثر اتساعًا. وكان مستمرًّا في فرض السيادة على مقاطعات كيزاما ونغوا وكاكونغو ولوانغو وعلى مشيخات وممالك تيكيه وعلى السوكو.

وكان حكام المقاطعات مكلّفين بجمع الضرائب والخراج ودفعها إلى الملك. ويتألّف الخراج من نزيمبو (أصداف تُستعمل كنقود) ومربعات رافية (مستعملة أيضًا كنقود) والذرة البيضاء ونبيذ النخيل والثمار والماشية والعاج وجلود الحيوانات (الفهد، الأسد).

وكما نرى، كانت الضرائب والخراج تشمل عدة أقسام: جزء نقدي وجزء في شكل مؤن وآخر في صيغة مواد تجارية وجزء رمزي (فراء فهد أو أسد).

وكان ملك الكونغو لا يزال نحو ١٥٣٠، يتمسّك بالسيادة على كيزاما ونغوا وكاكونغو ولوانغو وعلى مشيخات وممالك تيكيه وعلى كونغو ريامولازا (باتجاه الكوانغو) وعلى السوكو ولكن ذلك كان حسب المرجح أمرًا صوريًا. وكان قلب المملكة يتكوّن، إلى نحو سنة ١٤٨٣، من ست مقاطعات: سويو بين النهر والمحيط، ومبامبا جنوب سويو ونسوندي بالشمال الشرقي، ومبانغو جنوب نسوندي، ومباتا في الشرق، ومبنبا مع العاصمة في الوسط. وبالإضافة إلى ذلك كانت بعض المشيخات الشاسعة مثل الومبو وربما الوندو تتبع الملك مباشرة.

وكان الملك محاطًا بهيئة إدارية مركزية قابلة للعزل هي أيضًا. وكانت تضمّ في العاصمة رئيس القصر كنائب للملك وقاض أعلى وقابضًا للجباية مع خزنته ورئيسًا للشرطة وإدارة للرسل وعضوًا يحمل لقب «بونزو» وظيفته مجهولة، ويذكّرنا هذا بأن المخطوطات لا تعطينا سوى المهام اليسيرة الفهم من قبل الأوروبيين الذين يسجّلونها. ولم يكن السيد «كابونغا»، المنحدر ممن كان سيد الأرض في العاصمة قبل نيمي لوكيني والذي كان يضطلع بمهام الكاهن الأكبر، عضوًا في هذه الهيئة. وغالبًا ما كان حكام الأقاليم من الأقرباء المباشرين للملك الذي كان يعهد بالنسوندي والبانغو إلى أبنائه المفضّلين. وهكذا كان هؤلاء يتمتعون بقاعدة قوة للتنازع على العرش بعد وفاة الملك. وكان الحكام سيعيّنون بدورهم صغار الأسياد الذين يشرفون من ناحيتهم على «النكولونتو» أي رؤساء القرى الذين يتوارثون هذه المهام.

وكانت قبور الأجداد توجد بالقرب من العاصمة وتحظى بإجلال كبير. كما أن السلطة كانت مقدّسة ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الشخص على الرغم من تسميته بلقب «نزامبي مبونغو» (أي «الروح العليا»). ولم يكن الملك كغيره من عامة الناس فبزناه بأخته يصبح «بدون أسرة» وبالتالي الوحيد القادر على أن يحكم جميع الأسر بالعدل. وبفضل هذا الصنيع والمُسارة يكتسب نفوذًا رهيبًا على قوى السحر وهو نفوذ مماثل للنفوذ الذي يكتسبه السحرة. وكانت شاراته التي تشتمل فيما تشتمل بالخصوص على قبّعة وطبل وسوار نحاسي أو عاجي وجراب الجباية وعرش في شكل مقعد مربع، ترمز كلها إلى مكانته كأول سيد للمملكة وكصاحب النفوذ الأعلى الذي يميّزه عن غيره. وكانت هناك أيضًا مراسيم معقّدة تؤكّد رفعة الملك ووحدانيته.

إننا نعرف عاصمة الكونغو معرفة جيدة من خلال روايات الكتّاب البرتغاليين الذين كثيرًا ما

وصفوها. كما أننا نعرف الحياة في القصر خلال القرن الخامس عشر، إلاّ أن موقع العاصمة لم تجر فيه بعد حفريات مكثّفة.

«ومع أن عاصمة مملكة الكونغو يشملها بصورة من الصور قطر بيمبا، وبما أن المدينة وإقليمها الذي قد يناهز محيطه عشرين ميلاً يحكمها الملك بنفسه، فإنه بإمكاننا اعتبارهما يشكّلان اقليمًا خاصًا... وفي اصطلاح أهل البلاد كانت (المدينة) تحمل اسم «بنزا» الذي يعني بصفة عامة «القصر أو مقر إقامة الملك أو الحاكم»[٣٣]. وكانت العاصمة أيضًا، بحكم موقعها في قلب المملكة تقريبًا، قلعة حصينة «يمكن منها إرسال النجدات إلى أية منطقة أخرى في وقت سريع جدًا» كما أن بنزا التي أطلق عليها البرتغاليون فيما بعد اسم سان سلفادور كانت مدينة حسنة البناء محاطة بأسوار من الحجارة وكانت أيضًا مركزًا تجاريًا كبيرًا وملتقى لأهم الطرق التجارية المنطلقة من الساحل ومن داخل البلاد.

بيد أنه، نظريًا، كان يتعيّن على هيئة ناخبين اختيار الخلف والمستشار. وكانت هذه الهيئة تتألف إما من تسعة أعضاء أو من إثني عشر عضوًا. وكان للقائد «كابونغا» فيها حق الرفض بينما كان حاكم «مباتا»، الذي لا يجوز انتخابه ملكًا، عضوًا فيها وجوبًا. وكذا كان قائد «سويو». والراجح أن بقية الناخبين لا ينتمون إلى الأسرة المالكة. وفي أغلب الأحيان كانوا يكتفون بمبايعة من يبدو، من أبناء المتوفي، مالكًا لأكبر سلطة عند وفاة أبيه. وأثناء مدة الملك كان مجلس الدولة هذا، الذي يمكن أن يضم أعضاء من السلك الإداري، يختصّ بحق الرقابة على الملك، لا سيّما في شؤون الحرب وتعيين الحكام وعزلهم وشؤون التجارة (كان لهم أن يبتوا في غلق الطرق وفتحها).

وان دفع «أجور» للموظّفين يشهد بممارسة الدولة للاتجار بالمحصول ومراقبته، فقد كانت الدولة تراقب إنتاج «النزيمبو» أي الصدف. والمفروض أن الدولة عاشت دهرًا طويلاً اتّسم بنمو التجارة، ويبدو أن المنتجات المتبادلة كانت، إما أدوات ضرورية كالأدوات المصنوعة من الحديد، والأواني الفخارية، والملح البحري، والحصائر، والسلال، وأدوات كمالية تشتمل على الحلي النحاسية والعاجية، وقطع من نخيل رافية، والأنسجة المصنوعة من ألياف المنطقة الساحلية. ولئن كان هناك عبيد فإن تجارة العبيد كانت محدودة قبل سنة ١٤٨٣. وفي مجال الحرف التقليدية، يلاحظ أن التخصّص الذي يشغل صاحبه كامل الوقت لم يكن موجودًا وأن أرفع الاختصاصات شأنًا، وهما صهر الحديد ونسج الضفائر من نخيل رافية، كانا وقفًا على الأشراف.

وكانت الطرق الرئيسية تؤدّي إلى العاصمة، فقد كانت هناك طريق ترد عبرها أصداف لواندا إلى العاصمة، وأخرى تحمل الملح البحري ومنتجات منطقة زائير السفلى (السمك، والأواني الفخارية، والسلال) وطريق أخرى تقل منتجات بحيرة ماليبو (نخيل رافية، منتجات مختلفة ولا سيما الأواني الفخارية) وأخرى تحمل نحاس مبامبا. وربما النحاس والرصاص، من شمال شلالات النهر، وأخيرًا طريق أخرى تحمل منتجات ماتمبا.

إن القيام بحفريات في سان سلفادور، وفي كينشاسا وفي عواصم الأقاليم وفي جزيرة لواندا وفي أماكن أخرى حيث يمكن أن يذهب الظن إلى وجود آثار موقع للسوق أمر أساسي لتكوين فكرة أكثر دقة عن الحياة الاقتصادية للمملكة قبل سنة ١٤٨٣.

---

(٣٣) ف. بيغافيتا، ود. لوبيس، ١٩٦٥، ص ٧٨ – ٧٩.

المجتمع

لا نعرف البنية الاجتماعية في ذلك العهد معرفة جيدة. فحتى مبدأ سيادة النسب الأمومي ليس بثابت ثبوتًا واضحًا، مع أنه يمكن أن نفترض وجوده. ولسنا متيقنين إلاّ من الخلافة الملكية لأن اسم الملك الأول كان يتمثّل في اسم يربطه بأبيه وفي اسم آخر يربطه بجده للأم. ولكن هذه الأسماء هي أسماء عشائر ما زالت معروفة مثلما هو الشأن بالنسبة إلى عشيرة مباتا، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأنه كانت توجد جماعات تنحدر من نسب أحادي أكثر مما كان يوجد، حسبما يبدو، من عشائر ذات نسب أمومي. ونعرف فقط أن القرى التي يقودها «نكولونتو» كانت صغيرة وتختلف عن المراكز التي كان يحكمها أسياد اقطاعيون. وتسنّى لعواصم الأقاليم أن تكتسب سمة المدينة وهذا هو الاسم الذي تعطيه النصوص لكل من مبانزاكنغو ومقر حاكم سويو، وفيما بعد، لكينشاسا. أما في ما يتعلّق بالتصنيف الاجتماعي فهو واضح. فقد كانت هناك الطبقات الثلاث: الأرستقراطية والأحرار والرقيق، وكانت الأرستقراطية تشكّل فئة متميّزة إذ أن أعضاءها لا يتزوّجون بالعوام. وفي داخل طبقتي الأحرار، كانت الزيجات بمثابة وسائل تحالف بين الأسر ويبدو أنه مورست زيجات تفضيلية. ومن الطبقة الأرستقراطية برزت أسرة كيتومي وهم سادة الأرض الذين كانوا، في مستوى المقاطعة، مثيلاً لأسرة كابونغا في العاصمة، وربما كانوا يشكّلون فيها طبقة أرستقراطية ترتبط، على وجه التدقيق، بطبقة السادة الآخرين، من خلال زيجات تفضيلية من نمط الزيجات التي جمعت الأسرة المالكة وأسر مباتا وكابونغا.

استنتاجات عامة

لن تتسنّى معرفة العصر الممتد من سنة ١١٠٠ إلى ١٥٠٠ معرفة أفضل إلاّ متى وقع القيام بحفريات مكثّفة ومتى تقدّمت البحوث اللغوية والاثنوغرافية تقدّمًا كبيرًا.

والانطباع العام الحاصل مما نعتقد أننا نعرفه يؤدّي إلى ملاحظتين: أهمية الغابة الموجودة في كل مكان والتي تمثّل عاملاً بيئياً قويًا، ونشوء أنظمة دول في وقت مبكر جدًا. وكان الأمر الثاني منتظرًا، فقد كان متوقّعًا أن يتم تكوين الممالك بعد انتهاء موجات الهجرة وما تحدثه من اضطرابات وبعد إدخال صناعة الحديد.

وحتى اليوم أُهمل دور الغابات بشكل عام ولم يفطن أحد إلى أن الغابة ذات السفانا المتداخلة، مثلها مثل أشرطة الغابات المتاخمة، توفّر محيطًا ثريًا بصورة مضاعفة شأنه في ذلك شأن المحيط الذي توفّره أشرطة الغابات بالجنوب والشمال. ويمكن بصفة عامة أن نعزو جميع التكوينات الأولى للدول إلى محيط من هذا النوع، عدا مركز لوبا وهو أقدمها، ويقع هو الآخر في تشكّل ملائم جدًا بفضل بحيراته وأراضيه المنخفضة التي لا بدّ أنها كانت مغطاة جزئيًا بالغابات وبفضل هضاب السفانا التي يحتويها.

ونلاحظ في الختام أنه لم تتم الاستفادة، بعد، من جميع المصادر، فالدراسة المنهجية للروايات والأساطير المتعلّقة بالأصل والبحوث اللغوية لا تزال في بدايتها وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأعمال المتعلّقة بالآثار. وتنفتح آفاق كبيرة أمام البحث التاريخي لهذه المنطقة التي ظن الناس طويلاً أنها خالية من الوثائق.

الفصل الثالث والعشرون

جنوب القارة الإفريقية : الشعوب والتشكيلات الاجتماعية

بقلم ل. د. نغكونغكو بالتعاون مع ج. فانسينا

نِتاج المؤرّخين وقضية المصادر

يثير تاريخ جنوب القارة الافريقية الكثير من المشاكل. ولذلك نظّمت اليونسكو، المشرفة على إنجاز المؤلّف الحالي، ندوة للخبراء حول تواريخ جنوب القارة الافريقية، في غابوروني سنة ١٩٧٧. والوضع السياسي السائد بهذه المنطقة لا يساعد إلاّ قليلاً على البحث التاريخي. وبسبب التمييز العنصري لم يحظ تاريخ سكان جنوب نهر ليمبوبو السود، بمثل ما حظي به تاريخ شعوب القارة الافريقية الأخرى من دراسة.

وفي المجلّد الثامن، ستعالج قضية التمييز العنصري في إطار تاريخ افريقيا المعاصر، ولكننا مضطرون هنا لإبراز تأثيراتها الضارة على دراسة تاريخ المنطقة.

«إن الميل إلى تركيز الأعمال على ماضي الأقلية البيضاء المهيمنة قد دعمته المواقف الجامدة لجامعات جنوب افريقيا ودور النشر بها بشكل عام، التي لا تعترف بقيمة المصادر غير المكتوبة في مجال التشخيصات التاريخية»[1]. وبالإضافة إلى ذلك فقد رفض المؤرّخون البيض في جنوب افريقيا، الاستعانة بالعلوم كعلم الآثار والانثروبولوجيا وعلم اللغويات. ولكن الأخطر من ذلك، هو أن المؤرّخين الرسميين في بلاد التمييز العنصري يختارون من الأرشيف ما يهم ماضي البيض، متعمّدين إغفال الوثائق المتعلّقة بالسكان الأفارقة. ولتلخيص ظروف دراسة تاريخ هذه المنطقة الرازحة تحت كلكل التمييز العنصري، نشير إلى أن «الارشيف البرتغالي الثري الذي أسهم كثيرًا في فهم تاريخ مجتمعات عديدة

(١) اليونسكو، «تاريخ افريقيا العام»، ل. د. نغكونغكو، دراسات ووثائق رقم ٤، ١٩٨٠، ص ١٧.

بشرق افريقيا – وخاصة على طول السواحل – والذي أثار تاريخ مجتمعات زيمبابوي وأنغولا والموزمبيق قبل العهد الاستعماري، قد وقع تجاهله بشكل آلي من قبل مؤرّخي جنوب افريقيا»[٢]. وهكذا لا يرفض هؤلاء المؤرّخون الروايات الشفوية ويعتبرونها مصدرًا لا قيمة له فحسب، ولكن تراهم يعمدون، كلما تعلّق الأمر بوثائق مكتوبة، إلى «الانتقاء بشكل محير» ومناف للقواعد العلمية.

وان ما أفرزته أربعة أجيال من المؤرّخين في جنوب افريقيا من أدب تاريخي، إنما يندرج في إطار معاد لتاريخ السكان الأفارقة. ولم يكن من السهل دائمًا جمع الوثائق لكتابة هذا التاريخ العام لافريقيا. ولكننا في الحالة الراهنة، ترانا نقف شهودًا على سياسة مبيّتة تستهدف تجاهل الوثائق الموجودة، إن لم يكن القضاء عليها. وان النفي (النشيط) لثقافة افريقيا وتاريخها، يشكّل سلاحًا خطيرًا في أيدي المدافعين عن التمييز العنصري.

بيد أن الآفاق تتغيّر في محيط جنوب افريقيا. فاستقلال زمبابوي سنة ١٩٨٠، يفتح مجالاً واسعًا أمام البحث. وكذلك أنغولا والموزمبيق فقد أتاحتا، مع الاستقلال، آفاقًا جديدة أمام البحث الذي أخذ ينهض في الدول المجاورة مثل مالاوي، وزامبيا، وبوتسوانا، وسوازيلاند، وليسوتو حيث تتعدّد الندوات والملتقيات، ويبذل مجهود حقيقي لإدماج الروايات الشفوية.

حالة معارفنا

هناك مشكلتان تطغيان على تاريخ جنوب القارة الافريقية. تخص الأولى تحديد موقع السكان في الزمان، وبالتالي حركات الهجرة أو انتقال السكان، بينما تتعلّق الثانية بالإحاطة بطبيعة السلطة وضرورة تحديد هياكلها. وهو ما يدعونا إلى الرجوع إلى أصل الممالك والدول.

ويجدر القول، بالدرجة الأولى، إن أحدث البحوث أقرّت قدم استيطان أقوام خوى – خوى بالمنطقة. وقد زعم بعضهم أن السكان بمنطقة رأس الرجاء، كانوا يتعاطون تربية الأغنام بشكل واسع. وفي موقع ليدنبرغ، في الترانسفال الشرقي، تمّ العثور على رؤوس رائعة من الخزف (القرن الخامس من العصر الحالي) وأقيمت أدلّة لا تقبل الردّ على وجود زراعة. ففي هذه الفترة يقع العصر الحديدي الأول الذي ينتهي نحو سنة ١١٠٠. وحدّد انسكيب، بواسطة التأريخ بالكربون ١٤، أقدم تاريخ لظهور الحديد بين نهري الزمبيزي وليمبوبو فيما بين السنوات ٢٠ ± من العصر الحالي. وانتشرت ثقافة عصر الحديد القديم في كامل جنوب القارة الافريقية واكتشفت خزفيات في نواح عديدة.

وبدأ، نحو سنة ١١٠٠، عصر حديدي ثان، أو عصر الحديد الوسيط، وثيق الارتباط بهجرات الشعوب الناطقة بلغة البانتو.

وقد حدّد الخبراء في غابورون الموقف من هذه المسألة، ورفضوا قبول التصور القديم لهجرات البانتو. ودرس فريق من البحّاثين والأستاذ إهريت (مستعملين مجموعة معدّلة من ٩٠ كلمة تمّ تبنّيها خصيصًا انطلاقًا من المائة كلمة الكونية لموريس سوادش)، العلاقات بين مجموعتين من لغات المنطقة الوسطى لافريقيا الجنوبية. وكانت احدى هاتين المجموعتين تضم لهجات شونا، الشديدة الاختلاف، السائدة فيما

(٢) المرجع السابق، ص ١٨.

بين نهري ليمبوبو والزمبيزي ، بينما اشتملت الأخرى على لهجات سوتو ، ونغوني ، وتسونغا ، وشوبي ، وفندا . على أن هذه المجموعة الثانية عُرفت باسم لغة البانتو بالجنوب الشرقي . ويقول إهريت « إن السكان الأوائل الناطقين بلغة شونا قد يكونون استقرّوا في ما يسمى حاليًا زيمبابوي ، بينما من المحتمل أن تكون أولى أقوام البانتو الجنوبية الشرقية قد استوطنت إلى الجنوب من ذلك ، في شمال الترانسغال »(٣) .

وكان النصف الأول من الألف الثانية للعصر الحالي ، فترة حاسمة في تاريخ جنوب القارة الإفريقية . فبعد ١١٠٠ ، انتشرت أنماط جديدة من العيش وأصبحت أقوام خوى – خوى(٤) ، مربية للمواشي ووسّعت كثيرًا من الأراضي التي تقيم عليها . وازدادت أيضًا أهمية المواشي بشكل مشهود لدى الشعوب الأخرى التي كانت تتكلّم حسبما يبدو لغات البانتو . ويجب البحث ، خلال هذه الحقبة أو قبلها ، عن أصل التقاليد الكبرى التي ستصبح من مميزات الشعوب « الناطقة بلغة البانتو » التي تعيش بالمنطقة وهي شعوب سوتو – تسوانا ونغوني(٥) ، ولن تتبلور بعض هذه التقاليد ، التي ورثتها أبرز المجموعات العرقية المعروفة في القرن التاسع عشر مباشرة ، عن أجدادها ، إلاّ نحو سنة ١٥٠٠ . وقد أثّرت هذه التغييرات بشكل عميق في عيش مجموعات صيادي الأسماك المستقرة على السواحل والرعاة المستوطنين قرب ساحل رأس الرجاء والصيادين(٦) . ولكن لا تزال تنقصنا معطيات حول هذه الحقبة الحاسمة . فالشهادات المكتوبة نادرة جدًا ولا تتعلّق إلاّ بالسنوات الأخيرة من الحقبة ؛ وعمومًا لم تؤرّخ بعد نماذج فن الكهوف التي لا زال تأويلها مشكلة صعبة الحل . وتفتقر الرواية الشفوية إلى شواهد زمنية كلما كانت راجعة إلى هذه الحقبة . وحتى الآن لم يتمّ استغلال المعطيات اللغوية بما يكفي . ويتعيّن خاصة السعي إلى إعادة بناء معجم للغتي نغوني وسوتو القديمتين . ولعلّه من المفيد جدًا دراسة الاستعارات اللفظية المتبادلة بين لغات البانتو ولغة خويزان(٧) . فأعمال الأنثروبولوجيا المقارنة المتجهة نحو مشاكل اقليمية وتتم من منظور زمني لم تزل في بدايتها(٨) .

وتعترضنا مشاكل جدّية كلما تعلّق الأمر بربط الصلة بين معلومات متأتية من عدة مصادر ، بما في

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ . كثيرًا ما نرجع الى الدراسات والوثائق التي أعدّها الخبراء في غابورون . وفعلاً فقد جمعت اليونسكو من ٧ الى ١١ مارس / آذار ١٩٧٧ في هذه المدينة من مدن بوتسوانا أفضل المتخصصين في مسائل الاستيطان بجنوب القارة الافريقية .

(٤) « خوى – خوى » هو الاسم الذي يطلقه على أنفسهم أولئك الذين غالبًا ما نسميهم بالهوتنتوت . ولهذه العبارة الاخيرة طابعًا تحقيريًا .

(٥) سوتو – تسوانا ونغوني هما اسمان لمجموعات عرقية يرجع عهدهما الى القرن التاسع عشر . وقد تم اعتمادهما عالميًا لتعيين المجموعتين الثقافيتين بافريقيا الجنوبية « الناطقتين بلغة البانتو » واللتين تعيشان جنوب وغربي قبائل فندا وتسونغا . أنظر : م . ولسن ، ١٩٦٩ ، ص ٧٥ – ٧٦ ، و ١٣١ – ١٣٣ ؛ م . لوغاسيك ، ١٩٦٩ ، ص ٩٤ – ٩٧ ؛ س . ماركس ، ١٩٦٩ ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

(٦) نقصد بعبارة « صيادين » شعوب جنوب القارة الافريقية التي كانت تسمى قديمًا « بوشمين » (أي رجال الغابة » أو « سان » . وتعني هذه العبارة الأخيرة « زبون » ، و « لص » ، و « متسكع » في لغة خوى – خوى ولا تطلقها أي مجموعة من مجموعات الصيادين على نفسها . أنظر : ر . ايلفيك ، ١٩٧٧ ، ص ١٩ – ٢٠ و ٢٣ – ٢٨ .

(٧) كلمة « خويزان » مستعملة للاشارة الى اللغات غير البانتو في جنوب القارة الافريقية . أنظر : أ . كويهلر ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٩ – ٣١٣ . وسنلجأ أيضًا الى هذه الكلمة في مفهوم بيولوجي نظرًا الى أن البيولوجيين يستعملون مع الاسف ، كلمة « خويزان » لاطلاقها على سكان مرتبطين ببعضهم بعضًا بيولوجيًا في جنوب القارة الافريقية ، (ص ٩٨ – ١١٢) ، أنظر : ج . هيارنو ، ١٩٧٤ .

(٨) أ . كوبر ، في *Africa* ، رقم ٤٥ ، ١٩٧٥ .

ذلك المكتشفات الأثرية. وقد جرت العادة بالمقابلة بين تقليد (طراز) مشترك في مجال الخزفيات والصلات ذات الطابع اللغوي أو العرقي أحيانًا حتى عندما تكون المؤشرات ضعيفة جدًا. وسيعتمد الفصل الحالي أساسًا على نتائج الحفريات الأثرية، ولكن هذه الحفريات لن تقرن بالمجموعات الثقافية واللغوية إلاّ إذا ما بررت المعطيات المتوفرة ذلك. وستمكّن هذه الصرامة من عدم التعرّض للنقد الذي وجّه بحق لجانب كبير من الأعمال السابقة. ففي العديد من المقالات والدراسات التي أُفردت بها شعوب مختلفة، كثيرًا ما قُدّمت الاستنتاجات على أنها نظريات علمية لا بل دليل إثبات في بعض الأحيان.

وسنبحث على التوالي لغات البانتو بالمنطقة الجنوبية وتطوّرها شمال وجنوب دراكنز برغ وتوسّع أقوام خوى – خوى.

تطوّر لغات البانتو بالمنطقة الجنوبية

تنتسب لغات البانتو بافريقيا الجنوبية إلى المجموعات التالية: فندا وسوتو وتسونغا نغوني واينهمباني[٩]. وقديمًا اعتبر بعض المؤلّفين أن هذه اللغات والشونا تمثّل فرعًا من البانتو، لكن البحوث التي أُنجزت فيما بعد أظهرت أن هذا التصوّر كان خاطئًا. وأظهرت طريقة الإحصاء اللفظي أن الشونا والفندا والتسونغا والاينهمباني والسوتو – نغوني تشكّل بعض فروع البانتو الشرقي التي تضاهيها في الأهمية. وهذا يعني أن سكان افريقيا الجنوبية «الناطقين بالبانتو» ينتمون، في غالبيتهم الكبرى، إلى مجموعة لغوية واحدة يجب ألاّ نميّزها فقط عن لغة شونا، بل كذلك عن لغة الفندا بالمنطقة الشمالية من الترانسفال والتسونغا والاينهمباني بجنوب الموزمبيق وبسهل الترانسفال. ووجد إهريت ومساعدوه أن الصلة الأقوى هي بين الفندا والشونا (٥٥ ٪) ثم بين التسونغا والشونا (٤١ ٪) تتبعها شوبي (٣٨ ٪) وسوتو (٣٧ ٪) ونغوني (٣٥ ٪).

ولما كان الشونا والبانتو بالجنوب الشرقي يكوّنون مجموعات فرعية، متميّزة على المستوى اللغوي، فإنه من الواضح في رأيهم أن هناك مركزين لنشر لغة البانتو باتجاه مناطق الجنوب الشرقي الشاسعة. ويرى إهريت وفريقه في الصلة بين الشونا واللغات الأخرى لمجموعة البانتو بالجنوب الشرقي، دليلاً على أن لغة البانتو الأول، ولغة السوتو – تسوانا الأول، قد انتشرت بسرعة انطلاقًا من منطقتها الأصلية حيث تستعمل لغات سوتو – شوبي تسونغا، التي لا تزال إلى الآن محصورة في سهل ليمبوبو السفلي. وبالمقابل انتشرت لغة نغوني ولغة سوتو – تسوانا بشكل واسع على سفحي جبل دراكنزبرغ[١٠].

إن التمييز اللغوي بين مجموعة سوتو ومجموعة نغوني أحدث بكثير من الفروع الأخرى. وقد حصل تقريبًا بالمنطقة التي يعيش بها الآن من يتكلّمون هذه اللغة، أي بجنوب افريقيا بالذات، بعد أن استقرّت المجموعات السكانية التي تتكلّم البانتو بهذا المكان بوقت طويل. وكما سنرى، فإن طرائق المقام المميّزة لأقوام تسوانا وغيرها كأقوام سوتو ونغوني، كانت قد تبلورت بعد نحو سنة ١٥٠٠. ومن المنطقي أن نفترض أن الفصل بين اللغات كان قد حدث فعلاً وهو ما قد يعطينا سنة ١٦٠٠ كأقصى تاريخ تقريبي.

(٩) ش. م. دوك، ١٩٦٧.

(١٠) ك. إهريت، في *TJH*، رقم ٣، ١٩٧٣.

ويتوافق هذا مع الروايات الشفوية النادرة جدًا التي تحدّثت أساسًا عن سلالات ترجع إلى القرن السادس عشر وإلى فترات سابقة.

ولا يمكن إقامة صلة مباشرة بين المعطيات الأثرية وظهور السكان الناطقين بلسان البانتو. وكان علماء الآثار في مجموعهم، حتى وقت غير بعيد، يجمعون بين هؤلاء السكان والمجموعات الممارسة للفلاحة وصناعة الحديد، بحيث حدّدوا وصولهم بالقرون الأولى من العصر الحالي. ولكن انسكيب وفيليبسون قد وازيا حديثًا بين توسّع العصر الحديدي الحديث الذي، بدأ نحو سنة الألف من العصر الحالي، وانتشار لغات البانتو في جنوب القارة الافريقية. واقتصروا على التنبيه إلى أن توسّع لغات البانتو وانتشار الصناعة الخزفية في العصر الحديدي الحديث كلاهما يمثّل منعرجًا ثقافيًا هامًا وآخر تغيير كبير من هذا النوع نعرفه حتى الآن. وبالتالي فإن وصول السكان الناطقين بلغة البانتو لا يمكن ربطه بأي فترة أثرية لاحقة(١١).

وليس ثابتًا أن قبائل البانتو جلبت معها حيثما حلّت تقنية زراعية وأدوات زراعية أكثر تطوّرًا. ومما يجب تأكيده هنا هو أن تقنيات فلاّحية ربما أسهمت في تنمية الإنتاج وساعدت على ظهور أشكال جديدة لاستقرار السكان. ولم يكن مجيء قبائل البانتو هو «الحدث» كما حاولت أن تقدّمه أعمال البحاثة سابقًا.

ولا بدّ من الإقرار بالتفاعل الذي حصل، خلال فترة طويلة، بين لغات شونا وفندا وتسونغا بالمنطقة الواقعة بين نهري الزمبيزي وليمبوبو. وهو ما قد يفسّر قضية العدد الكبير من الكلمات المتقاربة الأصل بين لغات نغوني – سوتو والتشابه الكبير في الممارسات الاجتماعية (النسب إلى الأب، الختان، تعدّد الزوجات)(١٢). وترجع ممارسة نفس العادات وكذلك نفس أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي إلى عشرة طويلة. ولنشر أيضاً إلى كون كل المجموعات الأخرى لها طواطم تتوافق مع الأنساب والعشائر في حين أنه ليست للنغوني مثل هذه الطواطم.

والمؤرّخون متفقون على حركات هجرة البانتو في افريقيا الجنوبية. ولكن يجب التسليم بداهة بأنه لم يكن هناك غزو ولكن تسلّل في شكل فرق صغيرة. ولم يتم فحص الروايات الشفوية بما يكفي، ولا نقدها بشكل محكم إذ بإمكانها أن توفّر أخبارًا ترجع إلى القرن السادس عشر وحتى إلى ما قبله. وعلى عالم الآثار ألاّ يهمل هذه المعطيات.

إلى الشمال من أوكههلمبا

قد يقع العصر الحديدي الثاني أو العصر الحديدي الوسيط فيما بين نحو ١١٠٠ و ١٦٠٠(١٣). وتمثّل هذا العصر الحديدي الوسيط قرى اكتشفت بمنطقة أوليفانتسبورت في ملفيل كوبيس وفي بلاتبرغ. وتضمّ هذه القرى ما بين ١٠ و ٢٠ كوخًا مرتّبة وفق تصميم دائري ويحيط بها سياج. وكانت أرضية هذه المساكن

(١١) ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩، ص ١٢٤ – ١٢٨ و١٥٣؛ د. و. فليبسون، ١٩٧٧، ص ١٩٧ – ٢٠٩، وخاصة ص ٢٠٦. بغض النظر عن هذا الافتراض المزعج، فان هذين المؤلفين هما أحدث المؤلفات التي خصصت للآثار بمنطقتنا وأكثرها اكتمالاً.

(١٢) ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩؛ ش. إهريت، ١٩٧٣؛ د. و فليبسون، ١٩٧٧.

(١٣) ر. ج. ماسون، في *SAJS*، رقم ٦، ١٩٧٣.

من التراب المدكوك. وقد عُثر في هذه الأنقاض على أسنان أبقار وخرفان وماعز وأدوات حديدية «حبوب من الذرة البيضاء المتفحمة ومحفوظة في حالة جيدة».

إن هذه الثقافات المؤرّخة بالعصر الحديدي الوسيط تنتمي بلا شك إلى مجموعات لغتها البانتو (١١٠٠ – ١٦٠٠) وتنتمي بشكل مؤكّد تقريبًا – حسب رأي ماسون – إلى شعوب سوتو – تسوانا. وكان يعثر في هذه القرى على بعض الأكواخ ذات الجدران الحجرية. وباستثناء حالة طراز كويجي الفهد، فإنه لم يتسنَّ العثور حتى الآن على موقع يبرز فيه الانتقال بوضوح من أول مرحلة من مراحل العصر الحديدي القديم إلى آخر مرحلة.

ومن المحتمل اذن أن يضطر علماء الآثار إلى التخلّي عن هذا التمييز الهام على الأقل في شكله الحالي. فالمكان الوحيد الذي يمكن فيه ملاحظة هذا الانتقال هو أيلاند، بوسط الترانسفال، حيث تمّ استغلال الملح كامل الفترة المعنية. وقد حلّ محل خزف العصر الحديدي القديم. في القرنين الحادي عشر أو الثاني عشر، خزف من طراز مابونغو بويه (من طراز كويجي الفهد) ثم، في مرحلة لاحقة، خزف فالابروا[١٤]. وغير بعيد عن ذلك نجد نفس التطوّر في موقع سلفر ليفس (تزانين).

وكانت توجد في فالابروا، وهي احدى المركزين الكبيرين لإنتاج النحاس في الترانسفال في تلك الفترة، صناعة خزفية ونمط عيش مغايرين كثيرًا. ويقع هذا المكان على بعد ٨٠ كيلومترًا من دراكنز برغ (ترانسفال) وهو قريب من نهر أوليفنتس (رافد ليمبوبو) الذي سماه فاسكو دي غاما سنة ١٤٩٨ «نهر النحاس». وكانت بعض المناجم تستغل هناك منذ القرن الثامن على الأقل، ولكن أقدم موقع اكتُشف قد مكّن من الرجوع إلى حقبة تقع بين سنة ٩٦٠ وسنة ١١٣٠ من العصر الحالي. ولم يكن لأسلوب الصناعة الخزفية هناك أي نظير في بداية العصر الحديدي، ولكنه مطابق عمليًا لأسلوب صناعة الخزف لسكان فالابروا الحاليين. وكان لهذه الطرز الخزفية، قبل بداية الفترة المعنية بعدة قرون الطابع الذي لا تزال تحتفظ به إلى اليوم. ونجدها أيضًا لدى قبائل لوبيدو إلى الشمال من ذلك بنحو ٩٠ كيلومترًا[١٥]. ويقوم ذلك دليلاً على أن صناعة الخزف ليست مقياس التغيير الثقافي. ومنذ بضعة قرون، تغيّر مجتمع اللوبيدو بشكل ملحوظ عن مجتمع فالابروا، وخاصة في الميدان السياسي (وهو شهير بملكات المطر).

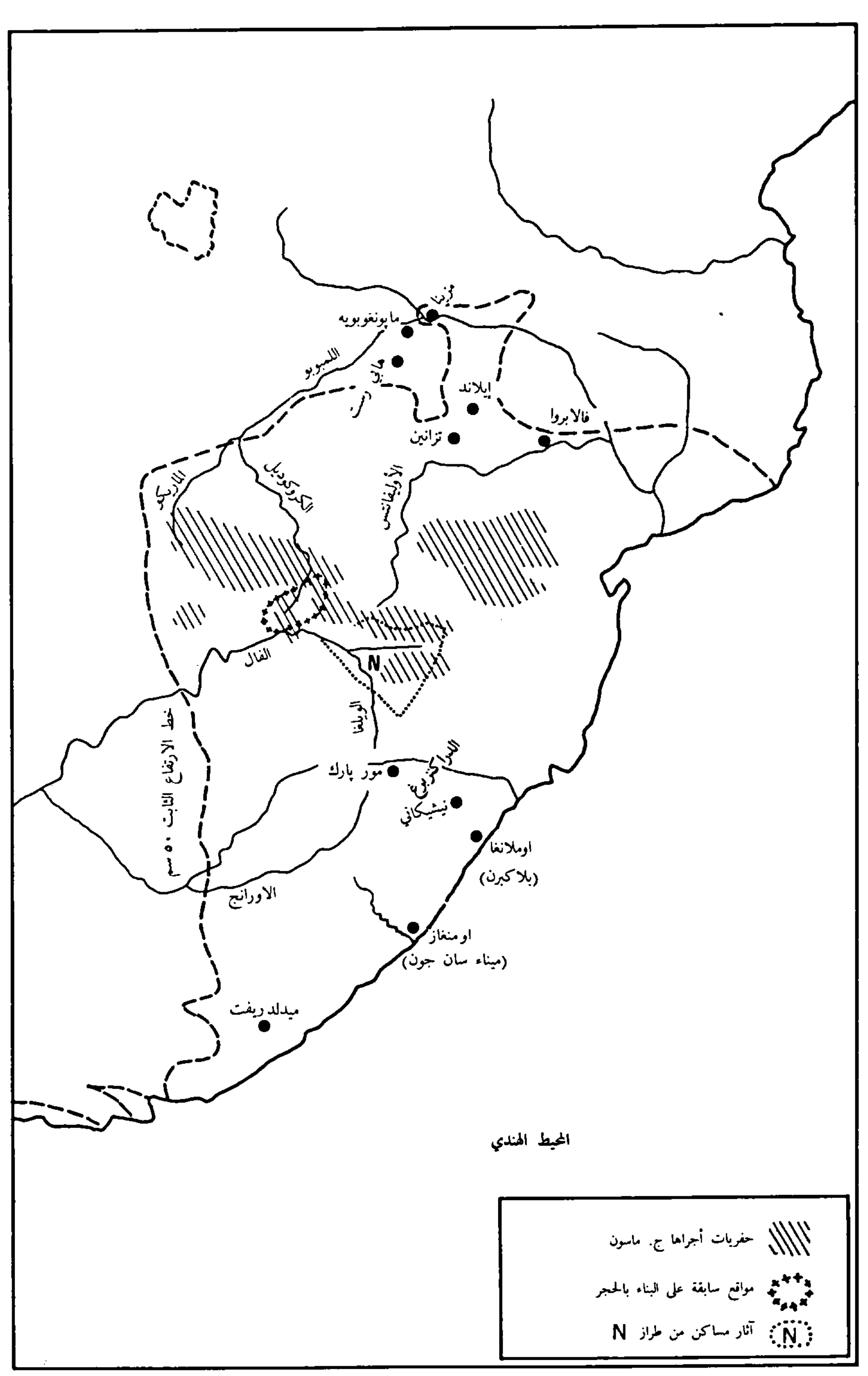
وتوجد فالابروا ذاتها اليوم في المدار الثقافي لسلالة سوتو الشمالية ولكنها كانت في سنة ١٧٠٠ جزءًا من مملكة فندا تمامًا كلوبيدو. وهناك ما يبعث على الاعتقاد بأن سكان هذه المدينة كانوا يتكلّمون، في القرن السابع عشر على الأقل إن لم يكن فيما بعد، لغة قريبة من الفندا لا من لغة السوتو. وحدثت تغييرات هامة منذ ذلك التاريخ[١٦]، ولكن دون أن تنعكس على طرز صناعة الخزف.

وفي المنطقة، ضمن الاستمرارية عمال المناجم والتجار الذين كانوا يقومون أيضًا بدور الخزّافين و«الأهالي» الذين تتحدّث عنهم الروايات الشفوية. وكانت هذه تسميهم «سالنغ الشوكان» وتزعم أنهم يختلفون – ربما لأنهم قد يكونون ينتمون إلى ثقافة تسونغا – عن غزاتهم وأنهم من رتبة تقلّ كثيرًا عن رتبة الغزاة، الذين لهم صلة بتقاليد فندا السياسية. ومن ناحية أخرى فمن المحتمل جدًا أن يكون هناك أساس حقيقي وراء القصص التي بدأت بالانتشار حديثًا بالمنطقة بخصوص اتصالات بصيادين لا

(١٤) ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩، ص ١٣٢؛ د. و. فيليبسون، ١٩٧٧، ص ٢٠٤؛ م. أ. كلابويك، في *SAAB*، رقم ٢٩، ١٩٧٤.

(١٥) ن. فان ديرمرويه، ور. ت. ك. سكولي، في *WA*، رقم ٣، ١٩٧١.

(١٦) ر. ت. ك. سكولي، ١٩٧٨. يحتوي هذا المؤلف على معلومات حول التطور ابتداءً من سنة ١٧٠٠.



• المواقع الأثرية في أفريقيا الجنوبية (ج. ڤانسينا)

يتكلّمون البانتو. ويبدو إذن أن مستوطنات زراعية قد تكون نشأت، فيا بين ١١٠٠ و ١٥٠٠، بسهول الترانسفال وتتاجر فيا بينها وتتبادل إنتاجها الحرفي. وكانت مناجم فالابروا مصدرًا لمنتجات حديدية لمنطقة مداها لا يقلّ عن ٣٠ كلم، ومصدرًا للنحاس لمدى أبعد من ذلك كثيرًا. ويرجح أن جانبًا من هذا النحاس قد يكون بلغ منطقة ليمبوبو السفلى وربما الساحل، عن طريق البر. وكانت تزانين تزوّد المنطقة بالملح بينما كان النحاس المستخرَج في ميزينا يقايض بلا ريب، في منطقة شاسعة تقع إلى الشمال من ذلك. ويفترض سكولي أن المجتمع قد يكون أخذ شكل دولة بفضل نمو الصناعة الحديدية في فالابروا والتجارة التي نشأت عن ذلك. وقد وجب على المشيخات القائمة في كامل سهل الترانسفال، والتي كانت صغيرة الحجم في البداية، أن تواجه مرة أخرى جماعات الصيادين الرحل والمشيخات المجاورة. ولكن إدارة الفندا أخضعت، بعد نهاية الفترة المعنية أو ربما في القرن السابع عشر، كافة هذه المشيخات وجمعتها في مملكة واحدة[١٧].

وقد عُثر، في المثلث الذي حدوده روستنبرغ وكلير كسدورب وجوهانزبرغ، شمال الفال، على آثار مجموعة من القرى المنتمية إلى نفس التقاليد، يرجع تاريخها إلى ما بين ١٠٦٠ و ١٦١٠. وقد قام ماسون ببعض هذه الحفريات[١٨]. وكانت توجد فوق الأرضيات المغطاة بالجص للبيوت الدائرية الشكل مصطبات مجصصة أيضًا بينما كانت الجدران مبنية من مواد قابلة للتلف: أسيجة خشبية ربما أو، نظرًا لندرة الخشب بمنطقة الفلد – العليا، غاب أو قش مغطى بالطين. وكانت زراعة الذرة البيضاء سائدة وكذلك تربية المواشي بما في ذلك الأغنام والماعز. وكانت المنازل مبنية حول مجال بيضوي أو دائري مساحته هكتار تقريبًا وكان بدون شك مربطًا للماشية. وكانت القرى صغيرة إذ لم تكن تشتمل إلاّ على عشرة أو عشرين كوخًا، بالمواقع الثلاثة المدروسة على الأقل. ويمثّل هذا النوع من القرى أهمية كبيرة جدًا لأنه سبق البناء بالحجارة الذي انتشر، حسب المؤشرات المتوفّرة حاليًا، بشكل واسع بمنطقة الفلد – العليا بالترانسفال، في القرن السابع عشر[١٩]. وبما أن الحفريات لم تشمل إلاّ أربعة فقط من بين المئات من المراكز السكنية التي تمّ إحصاؤها بوسط الترانسفال وجنوبه، فإنه من الممكن جدًا أن تمكن البحوث القادمة من الكشف عن جدران حجرية يرجع تاريخها إلى ما قبل ١٥٠٠. ومما يزيد في درجة هذا الاحتمال أن نمطًا من البناءات الحجرية («نمط « N »)، اكتشف بولاية أورانج الحرة، يرجع على الأقل إلى ١٤٠٠ – ١٤٥٠.

وقد اكتشفت مواقع من نمط « N »، شمال وجنوب منطقة فال العليا، إلى حد نهر ويلجي غربًا والى حد دراكنزبرغ في الجنوب والشرق. ويتعلّق الأمر بمنطقة تتميّز بكمية كبيرة من الأمطار وبخصوبة المراعي. ويدل ترتيب مخازن الحبوب وحظائر الماشية، والمساكن في حرم مسور يشمل مجمل المبنى على وجود اقتصاد مختلط من الزراعة وتربية المواشي. وبعد ١٦٠٠ تحوّل النمط « N » إلى أنماط أخرى من المباني انتشرت في كامل منطقة ولاية أورانج الحرة الواقعة شمال ليسوتو الحالية. وظهر مثال آخر لهذه الأنماط نحو ١٦٠٠ على أقصى تقدير وهو يكتسي بوضوح طابع تسوانا[٢٠].

---

(١٧) ر. ت. ك. سكولي، في *NA*، رقم ١٣، ١٩٧٨، ص ٢٥. أنظر أيضًا ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩، ص ١٣٥.

(١٨) ر. ج. ماسون، ١٩٦٢؛ وآخرين في *SAJS* رقم ٦٩، ١٩٧٣.

(١٩) د. و. فيليبسون، ١٩٧٧، ص ١٩٨ الى ٢٠٠. أطلق على الخزف الذي اكتشف بهذه المواقع اسم «ويتكومست» ويبدو أنه قريب جدًا من خزف بويسبورت، بمنطقة روستنبرغ.

(٢٠) ت. م. أو سي. ماغس، ١٩٧٦؛ وفي *WA*، رقم ٧، المجلد ٣، ١٩٧٦.

وستحدّد البحوث المستقبلية وحدها ما إذا كانت المراكز المبنية من المواد غير الحجرية التي اكتُشفت داخل مثّلث روستنبرغ – كليركسدورب – جوهانسبرغ ، وربما أيضًا موقع لم يؤرّخ في ليدنبرغ إلى الشرق من ذلك ، قد سبقت بالفعل المراكز الحجرية من نمط « N » أم هي خاصة بالترانسفال . وإلى الشمال من فال ، وفي المنطقة الواقعة بين نهري ماريكو وكروكوديل وهي اقليم مرتبط بتشتت بعض مجموعات سوتو منذ القرن السادس عشر على الأقل[٢١] ، نعثر على المواقع السابقة لمرحلة البناء الحجري وعلى المواقع التي تتطابق مع المراكز من نمط « N » أو من أنماط حجرية قريبة .

وعلى الرغم من إغراء المعطيات المتوفّرة حاليًا ، فان انسكيب ربما قد تعجّل الأمر عندما حاول أن يقارب بين المراكز السابقة لعصر البناء بالحجارة والمراكز الحجرية المسايرة لطريقة عيش أقوام سوتو ، وبشكل غير مباشر ، لمجموعة سوتو اللغوية . كما أن المحاولات التي قام بها ماسون قبل ذلك لربط بعض أنماط الخزف في هذه القرى خلال الفترة ١١٠٠ – ١٥٠٠ ، ببعض مجموعات تسوانا ، لم يقل الزمان بعد فيها كلمته[٢٢] .

لكن الحجج المؤيّدة لهذا الافتراض قوية ، فالمستوطنات الحجرية من نمط « N » هي مصدر المجموعات اللاحقة التي تميّز احداها بشكل بارز قبائل تسوانا (مساكن ذات قسمين) . ولنا من جهة أخرى أن نبحث عن العلاقة بين انتشار الاتجاهات المعمارية الجديدة والروايات الشفوية التي تحكي تطوّر العائلات المالكة على الأقل بعد ١٥٠٠ – ١٦٠٠ . وقد استعمل القادة في المنطقة التي تناظر زيمبابوي الحالية ، الحجارة في البناء خلال الفترة تحت الدراسة . وترتبط الأنقاض الحجرية بهذه المنطقة أو بالموزمبيق بتوسّع المجموعات الحاكمة . وربما ظهرت هنا فكرة استعمال الحجر في بناء الجدران . ولعلّها وُجدت بمنطقة جوهانسبرغ حيث المراعي طيبة ولكن الخشب نادر . ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكّد أن القادة ، عندما تبنّوا هذه المادة ، أكّدوا مقاييس للأبهة و« الموضة » كانت سبب انتشار هذا النوع الجديد من المسكن .

وتظهر الآثار التي عُثر عليها شمال منطقة دراكنزبرغ حدوث تغييرات جلية مدهشة بعد ١١٠٠ . فقد نما دور المواشي في الاقتصاد كثيرًا بالمقارنة مع الفترات السابقة . كما تضاعفت درجة التنظيم المحلي تبعًا للارتفاع الكبير في أحجام المراكز السكنية خلال الفترة المعنية . وتتفق المعطيات المتوفّرة تمامًا مع الانطباع العام الذي نقلته الروايات الشفهية القائلة بأن دولاً بدأت تتكوّن في القرن السادس عشر . وعندما نقارن هذا الوضع بغيره في الفلد (فالابروا) أو في بوتسوانا ، نرى التغيير الحاصل قرب منطقة فال أوضح مما هو في أي مكان آخر . ويبدو أن تطوّر أنماط السكن وصناعة الخزف قد تأثّر بشكل واضح . فكيف نفسّر ذلك ؟

من المحتمل جدًا أن حل اللغز موجود في بوتسوانا حيث مكّنت البحوث التي قام بها دنبو من الكشف عن ١٥٠ موقعًا يرجع تاريخها إلى ما بين ٨٠٠ و ١٣٠٠ . وتظهر الحفريات التي أُجريت في موقعين تحوّلاً محليًا تدريجيًا لطراز زهيزو من خزف غوكومار (العصر الحديدي القديم) إلى طراز توتسوه . ومعظم المواقع في بوتسوانا الوسطى (إلى الشمال من ماهالابي) تدل دلالة واضحة على أن تربية المواشي كانت تُمارس بشكل مكثّف . ويبلغ سمك[٢٣] بعض طبقات السماد الحيواني ، مترًا كاملاً . وكان السكان يكسبون جانبًا

(٢١) ر. ر. انسكيب ، ١٩٧٩ ، ص ١٣٨ (يعطي تعميمات مبالغ فيها).أنظر م. لوغاسيك ، ١٩٦٩ ، ص ١٠٠ و ١٠٣ .
(٢٢) أنظر ملاحظات ب. فاغان ، ١٩٦٩ ، ص ٦٠ الى ٦٢ ؛ ر. ج. ماسون ، ١٩٦٢ .
(٢٣) ج. ر. دنبو ، في *NA* ، رقم ١٤ ، ١٩٧٩ .

من معاشهم من تربية الماشية في محيط ملائم جدًا لهذا النشاط بفضل مراعي الفلد الطيبة وأوراق «الموباني» المغذّية. ويبدو أن الماشية تكاثرت في ذلك المكان وليس في الناتال مثلما كان هوفمان يعتقد ذلك. وبعد سنة ١٠٠ من العصر الحالي لم تعد مواقع بوتسوانا توفّر إلاّ مؤشّرات قليلة عن المبادلات التجارية مع ساحل افريقيا الشرقية. وهو أمر ليس بغريب بما أن زيمبابوي بدأت آنذاك تستقطب التجارة على نحو ما قامت به فيما بعد منطقة مابونغو بويه الواقعة إلى الشرق من ذلك. وبعد نحو ١٣٠٠، تناقص عدد المواقع المكتشفة بسرعة ربما لأن المناخ قد يكون أصبح أكثر جدبًا (صحراء كالاهاري ليست بعيدة جدًا) أو أن تحرّك منطقة انتشار ذبابة التسي – تسي قد يكون دفع بالسكان إلى الاستقرار في مكان آخر بمواشيهم.

ولكم نميل إلى ربط هذا الانخفاض في عدد السكان بالنمو الديمغرافي الذي يبدو أنه حصل في الترانسفال الغربي وبآثار التربية المكثّفة للمواشي التي عُثر عليها بهذه المنطقة. ومن المحتمل أن بعض المجموعات التي كرّست جانبًا من نشاطها لتربية الماشية قد استقرّت بحيواناتها بالمنطقة القريبة من الفال حيث الطبيعة أكثر ملاءمة، كما يحتمل أن وجود المواشي قد دفعت بمجموعات أخرى إلى الالتحاق بالأولى. وقد يكون إدخال نظام «اللوبولا» (مهر يُدفع من الماشية)، وعقود الموالي (بالنسبة للماشية) من الأمور التي سهّلت المسألة إضافة إلى كونها في مصلحة كبار مربي المواشي. وستطبع اللوبولا، ونظام الموالي، ودفع الجزية من الحيوان ثقافتي سوتو وتسوانا بطابع مميز فيما بعد. واقترن عبور منطقة فال بتعاطي اقتصاد يقوم على تربية الماشية والزراعة، وبإدخال حلب الحيوانات. وربما كان السكان الأصليون يربّون الحيوانات من أجل لحومها فقط وليس لإنتاج الحليب.

وبالمقابل لهذا الافتراض، يمكن أن نقول بأنه لم يتسنَّ حتى الآن إقامة رابطة بين خزف تاوتسويه والأواني المصنوعة على ضفاف نهر فال، خلال العصر الحديدي الحديث. ولكن لم تخصّص أي دراسة لهذه المقارنة. وأحدث الطرز التي مورست على طول نهر فال يجب أن لا تكون بالضرورة مماثلة لطرز المهاجرين[٢٤] القديمة. وقد يكون قد نشأ طراز جديد عن الاتصال بين الطراز المحلي والطراز المستورد.

ونعتقد أن الأمور سارت فعلاً على هذا المنهاج. وحدث فيما بعد تغيير في المحيط الطبيعي أو البشري (تطوّر التنظيم السياسي في زيمبابوي) في بوتسوانا الوسطى تسبّب في الهجرة نحو الفال وفي ظهور أنماط من العيش واللغات المميّزة لقبائل سوتو – تسوانا. وكما سنرى، فمن المرجح أن شعوبًا أخرى انفردت كليًا أو جزئيًا بتربية المواشي، قد تنقّلت أكثر نحو الجنوب ونحو الشرق حيث كان لها تأثير في سكان جنوب شرقي افريقيا وجنوب غربيها.

إلى الجنوب من أوكههلمبا

ثلاثة مواقع تشهد، حتى الآن، فحسب بوجود حقبة من العصر الحديدي الحديث جنوبي دراكنزبرغ. ويحتل هذا الإقليم الآن سكان ينطقون بلسان نغوني، يرتكز نمط عيشهم على تربية الأبقار بشكل أكثر مما كان سائدًا لدى أقوام سوتو – تسوانا، وقد كانت مستوطناتها أصغر وأقلّ بعثرة، وتختلف

(٢٤) فيما يتعلق بالابتكار في ميدان الخزف، راجع ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩، ص ١٣٢ – ١٣٣، والجدول ٩ (مفيد ولكنه يحتاج الى التمحيص).

ثقافتهم أيضًا في نواح أخرى عن ثقافة سوتو – تسوانا.

وقد اكتُشفت حفريات أُجريت في بلاكبورن، قرب بحيرة أوملنغا الواقعة على بعد ١٥ كلم شمال دوربان، عن قرية تشتمل على نحو اثني عشر منزلاً، من بينها اثنان كشف عنهما تمامًا[٢٥]. وكانت أرضية هذه المنازل دائرية يبلغ قطرها نحو ٥,٥ أمتار وكان لها حسبما يبدو شكل خلية نحل وتقوم على ركيزة أو عدة ركائز وسطى. وكانت الجدران مكوّنة من أغصان الشجر والكل مغطى بالقش. وكانت هذه المنازل تشبه كثيرًا اذن بناءات نغوني وخوى – خوى. ويتوافق حجم القرية أيضًا مع ما نعلمه عن قبائل نغوني وخوى – خوى. وعثر، بالإضافة إلى ذلك، على بقايا من الحديد في نفس الموقع. وكان يوجد ضمن بقايا الطعام عظام الطرائد وأصداف وحسكات أسماك. وتوحي هذه المكتشفات بأن الأمر يتعلّق إما بقرية من قرى أجداد الخوى – خوى أو حتى صيادي الساحل أو بموطن من مواطن قبائل نغوني. ولعلّ تحريم أكل السمك على أقوام نغوني وسوتو – تسوانا يجعل نتائج الحفريات تعني إما أن هذا التحريم لم يظهر إلاّ بعد القرن الحادي عشر أو أن القرية كانت تأوي بين أحضانها صيادي السواحل الناطقين بلغة خوى – خوى. وطراز الخزف المعروف تحت علامة « NC2 »، يشبه بدرجة ضعيفة طراز تمبو (نغوني). والأهم من ذلك هو أنه تمّ العثور على نفس أنواع الأواني في جزء كبير من المنطقة القريبة من الفال، وربما وجدت اذن رابطة بين سكان هاتين المنطقتين. وتشكّل كل هذه المؤشرات بكل تأكيد موضوع تأمّل وتفكير، ولكن يظل من الصعب إعطاء تفسير لها لا سيما أنه لم يقع الكشف عن أي موقع آخر وهذا ما يجعل انسكيب محقًا اذن في رفضه الدخول في مضاربات في هذا الصدد[٢٦].

ويرجع تاريخ موقع مور بارك، قرب استكورت، إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر. وهو يقع على مرتفع جبلي ويحيط به حائط يضم لا المنازل فحسب ولكن أيضًا مناطق مفتوحة ومصاطب، مما يؤكد بجلاء أن الأمر يتعلّق بمركز دفاعي هام. وتشير أطلال المنازل على ما يبدو إلى أن الأرضيات كانت مستطيلة. وإذا ما صحّ هذا، فإن الأمر يتعلّق بحالة فريدة في مجمل جنوب القارة الإفريقية. وكان الأهالي يستعملون الحديد ويمارسون زراعة الذرة البيضاء، والصيد وتربية المواشي. ولم يتسنَّ بعد ربط الأواني الخزفية التي عُثر عليها، بشكل قطعي، بأي نمط من الأنماط المعروفة. وبغض النظر عن الشكل المستطيل الذي اتّخذته أرضيات المنازل، فإن الموقع قد يتّفق بشكل أفضل من الآثار المكتشفة في موقع بحيرة أوملنغا مع النشاطات التي تُنسب لأجداد أقوام نغوني[٢٧].

وقد اكتُشفت مجموعة أخيرة من المواقع سنة ١٩٧٨ قرب مصب نهر أومنغازي، في الترنسكاي. وهي تتفق مع نشاطات كانت تُمارس في مرحلة العصر الحديدي وكذلك الحديدي القديم والحديث. كما عُثر على رواسب حديد منصهر وأرضية كوخ من الطين المدكوك مع الشقف شبيهة بأرضيات منطقة الفلد العليا. ولم يسجّل أي تأريخ بالكربون، ذلك أن تاريخ هذه الفترة قد استنتج استنتاجًا من أنواع الشقوف الخزفية التي عُثر عليها. ولو تسنّى إعطاء تاريخ قديم لأرضية الكوخ وللرواسب الحديدية لتغير بعمق تصوّرنا للروابط بين المجتمعات المستقرّة شمال دراكنزبرغ وجنوبيه، وتصوّرنا للعهد الذي استقرّ فيه أسلاف قبائل نغوني المفترضين بعيدًا لهذا الحد في الجنوب[٢٨].

---

(٢٥) و. ديفيس، في *SAAB*، رقم ٢٦، ١٩٧١.

(٢٦) ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩، ص ١٤٥.

(٢٧) أو. ديفس، في *ANM*، رقم ٢٢، ١٩٧٤.

(٢٨) ماتيالا، في *NA*، رقم ٤، ١٩٧٩.

وحاليًا، فإن أقدم معلومات متوفّرة لدينا عن قبائل نغوني مصدرها الناجون من نوتية السفن التي غرقت في القرن السادس عشر في عرض سواحل الناتال ومقاطعة رأس الرجاء[٢٩]. وتفيد بعض الروايات الشفوية أن الترنسكاي كانت تقطنه قبائل خوزا المنظّمة في إطار مشيخات صغيرة غير مستقرّة في القرن الخامس عشر على أقصى حد. وكانت عائلات القادة قد عاشت، قبل ذلك ولعدة أجيال قرب ضفاف المزيمفابو الأعلى، وبالتحديد غير بعيد عن نهر ديديزي، غير المعروف حاليًا. وفي سنة ١٩٥٩، زعم ويلسون، انطلاقًا من مقارنة للشواهد، أن هذه العائلات عاشت هناك منذ سنة ١٣٠٠[٣٠]، على الأقل. ولكن الأمر هنا يتعلّق بتقدير عام جدًا أكثر مما يتعلّق بتاريخ محدّد. ومن المؤكّد أن قبائل نغوني كانت تحتلّ سنة ١٥٠٠ تقريبًا كامل الإقليم الذي كانت تعيش فيه سنة ١٨٠٠، على الرغم من أنها امتزجت في المناطق الغربية بأقوام خوى – خوى واستوعبتها تدريجيًا.

وقد تركت أقوام خوى – خوى بصمات عميقة على لغات نغوني الشرقية والغربية. ويقول لنهام إن تاريخ هذا التأثير قد لا يبدأ إلاّ انطلاقًا من الوقت الذي أخذت فيه لغات خوزا وزولو تتمايز[٣١]. وقد يتوافق هذا مع فترة متأخّرة لأن بحّارًا قذفت به الأمواج على الساحل بعد غرق سفينته، زعم قبيل سنة ١٦٠٠، أن هاتين اللغتين لم تكونا سوى لهجتين للغة واحدة. وكان هذا البحّار قد جال عمليًا بكامل المنطقة الساحلية[٣٢].

وقد تركت لغة الخوى – خوى أثرًا بارزًا جدًا في لغتي الزولو وخوزا، فعدد الكلمات من أصل خوى – خوى فيهما هو على التوالي بنسبة ١٤ ٪ و ٢٠ ٪. وسبب هذا التأثير تغييراً في النظام الصوتي عند الخوزا وهو ما يعني أن هذا التأثير كان يعمل عمله عندما بدأت لغة خوزا تتميّز عن لغة نغوني الشرقية. ولا بدّ أن الخوى – خوى كانوا يحتلّون اقليمًا داخلاً في عمق الناتال بالشكل الذي سمح لهم بالتأثير في لغات نغوني الشرقية[٣٣].

وبدأت أقوام نغوني تكرّس جزءًا من نشاطها لتربية المواشي. وإذا كانت فضّلت هذا النشاط على الفلاحة فذلك بكل تأكيد بسبب تأثير الخوى – خوى. ولكن مواشيها لم يكن مصدرها الخوى – خوى، نظرًا لأن هؤلاء كانوا يربّون عمومًا مواشي جنوبية افريقية، بينما كانت حيوانات النغوني تنتسب إلى سلالة سانغا التي كانت شائعة أيضًا بشمال دراكنزبرغ. وقد خلّفت قبائل خوى – خوى أثرًا عميقًا في ميدان تربية الماشية. وتشير الاستعارات اللفظية إلى أنها علّمت شعوبًا أخرى كيف تحلب الحيوانات. وعنها تعلّم قادة خوزا بردعة الثيران[٣٤]. كما أثّرت الخوى – خوى في الخوزا من الناحية الدينية، ورأى

---

(٢٩) م. ويلسون، ١٩٦٩، يعطي ملخصًا ص ٧٨ الى ٨٥.

(٣٠) م. ويلسون، ١٩٦٩، ص ٨٦ الى ٩٥. يرجع المؤلف الى خلاصة مقاله المنشور في «دراسات افريقية»، ١٩٥٩، رقم ١٨، مجلد ٤، ص ١٦٧ الى ١٧٩، بيد أنه لم يذكر التاريخ، ونقرأ في هذا المقال (ص ١٧٨) ما يلي «خلال الفترة التي غطتها شجرات النسب أي منذ ١٣٠٠، ولكن ربما قبل ذلك بقرون». لقد استعمل تاريخ ١٦٨٦ الذي اقترن بحكم توغو (رئيس قبيلة خوزا) في معظم الحسابات (كما في م. ويلسون، «شعب نغوني»، ص ٩٥). ولكن هذا التاريخ غير ثابت، راجع ج. ب. بايرس، ١٩٧٣، وكذلك ج. هارينك، ١٩٦٩، ص ١٥٤ و ١٥٥، وهامش ٣٠.

(٣١) ل. و. لنهام، ١٩٦٤.

(٣٢) م. ويلسون، ١٩٦٩، ص ٢٠ الى ٨١ (غرق السفينة «سانتو البرتو» في مارس/آذار ١٥٩٣).

(٣٣) ل. و. لنهام، ١٩٦٤؛ ج. هارينك، ١٩٦٩، ص ١٥٠ الى ١٥٣.

(٣٤) م. ويلسون، ١٩٦٩، ص ٩٦، ١٠٣ – ١٠٥ و ١٠٧ – ١٠٩.

لنهام في ذلك دليلاً على أن قبائل الخوى – خوى كانت تعيش فوق أراضي قبائل نغوني حيث يقوم شاهدًا على حضورها ، في التخوم الغربية ، استمرار بقاء بعض أسماء أماكن خوى – خوى . ولعلّ تأثير الخوى – خوى يظهر أيضًا في السكن وفي الممارسة المتمثّلة في قطع احدى سُلامى الخنصر دون شك .

وعلى صعيد التكوين الجسماني ، فإن النغوني الحاليين ، هجناء بين الجنس «الأسود» وجنس «الخوى – خوى» [٣٥] . والتهجين بارز لدى الخوزا الذين تأتي ٦٠ ٪ من مورثاتهم ، حسبما يبدو من الخوى – خوى . ولكن الشأن مماثل بالنسبة لأقوام تسوانا . وبالنسبة إلى النغوني الشرقيين فإن النسب المئوية تظل أقل ارتفاعًا مع أنها كبيرة جدًا . وليس في ذلك غرابة في حالة النغوني الغربيين ، أو حتى التسوانا ، نظرًا لكون اتصالاتهم بالصيادين وبالخوى – خوى معروفة جيدًا ، ولكن المدهش هو ما نلاحظه من علامات تهجين في غاية الوضوح في حالة النغوني الشرقيين.

وإذا أضفنا عناصر لغوية (تذكّر بتأثير الخوى – خوى) إلى المؤشرات البيولوجية (التي يمكن أن تنسب إما إلى الصيادين أو الخوى – خوى) وجب أن نستنتج أن عددًا كبيرًا من الخوى – خوى كانوا يعيشون ، في وقت ما ، بالناتال أو أن النغوني والخوى – خوى كانوا على اتصال وثيق بعضهم ببعض ، حتى قبل أن تستقر النغوني في الناتال ، وهو أمر قليل الاحتمال إذ ، في هذه الحالة ، كان من الواجب أن تكون نسبة الكلمات خوى – خوى أعلى في لغات نغوني الشرقية والغربية . ويبدو إذن أن الخوى – خوى لعبت دورًا أهم من الذي اعترف به المؤرّخون حتى الآن . وكما سنرى ، فإن هذا التأثير لم يكن يقتصر على النغوني ، بل امتدّ إلى جزء كبير من افريقيا الجنوبية ومن ناميبيا .

الخوى – الخوى

في سنة ١٤٨٨ ، اكتشف بارتولوميو دياز رأس الرجاء الصالح . وقد زار خليج موسيل حيث شاهد أفارقة واتصل بهم . وفي نهاية ١٤٩٧ ، خلال احدى رحلات فاسكو دي غاما ، حصل اتصال بالأفارقة في خليج سانت هيلينا (شمال رأس الرجاء) وكذلك في خليج موسيل. وفي سنة ١٥١٠ ، قُتل نائبُ ملكِ الهند ، د. فرنسيس دي المايدا ، ومعه ستون جنديًا برتغاليًا في خليج تابل، وذلك خلال الصدام بين البرتغاليين والخوى – خوى [٣٦] .

ونستنتج من هذا أن الخوى – خوى كانوا على قدر كبير من التنظيم مكّنهم من القضاء على الطابور البرتغالي الذي كانَ يمتلك مدافع . وبعد قرن ونصف القرن من ذلك سيدخل الخوى – خوى في مواجهة مع الهولنديين (١٦٥٢) الذين صمّموا على الاستيطان برأس الرجاء . وكان ذلك ايذانًا ببدء معركة إبادة طويلة الأمد.

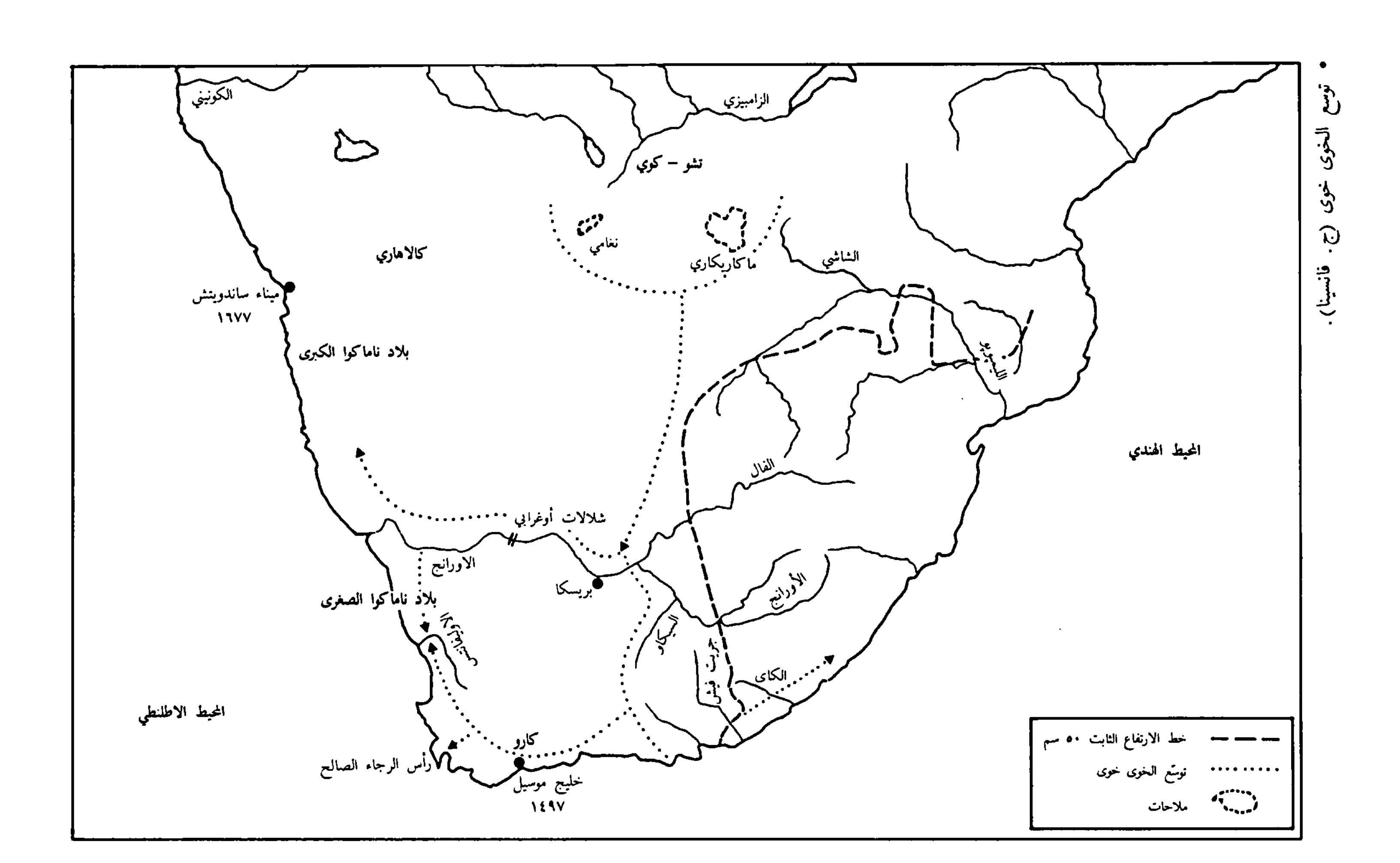
ومنذ وقت قريب ، أصبح واضحًا تمام الوضوح أن الخوى – خوى ينتمون ، لغويًا ، إلى مجموعة تشو – كويه ، من عائلة لغات خوازان . وتشتمل هذه الأخيرة أيضًا على عدة لغات يتكلّمها صيادون من بوتسوانا الشمالية بل على لغة مستعملة بالساحل الجنوبي من أنغولا [٣٧] . وفي الواقع ، كانت لغة خوى –

---

(٣٥) ج. هيرنو ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٧ الى ١١٠.

(٣٦) أ. أكسلسن ، ١٩٧٣.

(٣٧) أ. أو. ج. ويستفال ، في *Africa* ، عدد ٣ ، ١٩٦٣ ، أو. كوهلر ، رقم ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٥ – ٣٣٧ وخاصة ص ٣٠٥ – ٣٠٩ (نظرية الحاميين) ، ص ٣٢٢ – ٣٣٠ (عن تشو – كويه التي يسميها «خوى»).



• توسع الخوي خوي (ج. فانسينا).

خوى، المنقسمة إلى لهجتين أو ثلاث، مستعملة في إقليم سيمتد، فيما بعد، من شمال ناميبيا إلى رأس الرجاء وحتى إلى نهر فيش، إلى الشرق من ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، أمكن لهذه اللغة في وقت من الأوقات، أن تنتشر بشكل واسع بالناتال أيضًا كما يدل على ذلك تأثيرها في لغة نغوني. ولاحظ الفيك أن الخوى – خوى كانت نتيجة لذلك احدى اللغات الأكثر استعمالاً في افريقيا وأن التجانس اللساني لهذه المجموعة كان يدل حسبما يبدو، على حدوث انتشار حديث نسبيًا وسريع، انطلاقًا من مهد أقوام تشو – كويه. وكان الخوى – خوى يربّون الأبقار والأغنام ذات الأليات السمينة، وكانوا يركبون ماشيتهم، ويستعينون بثيرانهم لنقل متاعهم وأعمدة منازلهم. وكان هذا يمكنهم من حركية كبيرة، وهي صفة تتفق تمامًا مع سرعة انتشار لغتهم. وعلى الرغم من وجود فوارق بارزة بينهم وبين الصيادين، فإن مميزاتهم الجسمية تتفق أيضًا مع مجموعة الخوازان[٣٨]. ومعظم هذه الاختلافات يجب أن تنسب إلى مفعول تغذية مختلفة (الحليب). ولكن بعض الاختلافات الأخرى، كالصفات المتعلّقة بتركيب مصل الدم، أصعب تفسيرًا. وعلى الرغم من الاختلافات حول هذه النقاط التفصيلية، يعترف كل الانثروبولوجيين الآن بأن الخوى – خوى والصيادين ينتمون إلى نفس التكوين الجسدي مما يؤكّد النتائج المستخلصة من علم اللغويات. وينتمي الخوى – خوى إلى عائلة السكان الصيادين بافريقيا الجنوبية، وليس لهم علاقة بأي جزء آخر من القارة.

وكان الخوى – خوى يوجدون جنوب مقاطعة رأس الرجاء سنة ١٤٨٨ ولكنهم لم يكونوا قد استقرّوا هنالك قبل ذلك بمدة طويلة، كما يتّضح من انخفاض كثافتهم السكانية في منطقة رأس الرجاء في القرن السابع عشر، وكذلك عدم تواجدهم في المراعي الممتازة قرب سلسلة الجبال بمقاطعة رأس الرجاء الوسطى في ذلك التاريخ. ونظرًا أيضًا للتجانس اللغوي على مسافات بمثل هذا التباعد، ارتأى إلفيك أن الخوى – خوى لم يصلوا إلى رأس الرجاء قبل ١٤٨٨ بكثير على الرغم من أن قطع المسافة بين بوتسوانا ورأس الرجاء استغرق قرنًا[٣٩] على الأقل قبل ذلك التاريخ.

وقد اقتنى أجداد الخوى – خوى المواشي بكميات وفيرة في شمال بوتسوانا ويرجح أنهم استغلّوا السلالة الافريقية الجنوبية. وتعلّموا تشغيل المعادن لا صهرها، وتخلّصوا جزئيًا من طريقة عيشهم القائمة على الصيد وجني الثمار. وإننا نميل إلى القول بأن بعض المواقع التي اكتشفها دنبو في بوتسوانا هي بقايا لمراكز إقامة الخوى – خوى القدامى ولم تكن مجرّد مضارب تركتها الشعوب «الناطقة بالبانتو». وعلى الرغم من الشكوك التي تحيط بالبقايا البشرية في بمباديانالو، قرب ليمبوبو، فإن هذه الأخيرة تشير أيضًا إلى سكان كانوا يقومون على الأقل جزئيًا، بتربية الماشية ويشبهون بدنيًا ما كان عليه الخوى – خوى في القرن الحادي عشر[٤٠]. ويمكننا انخفاض عدد السكان في بوتسوانا، بعد سنة ١٣٠٠، من تحديد تاريخ لا لتوسّع

(٣٨) ر. إلفيك، ١٩٧٧، ص ٨ – ١٠؛ ج. هيرنو، ١٩٧٤، ص ١٠٠ و١٠٣ – ١٠٧، خاصة ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٣٩) ر. إلفيك، ١٩٧٧، ص ١٢ – ١٣. لا وجود لرسوم صخرية تمثل الماشية غربي رأس الرجاء أو في ناميبيا. وعلى أي حال، لم يعثر أبدًا على أكثر من خمسة رسوم صخرية تمثل أغنامًا، في حين أن هذه الحيوانات كانت تربى بهذه المناطق منذ بداية عصرنا الحالي. وسيمكن بفضل دراسات أكثر توسعًا تحديد تاريخ وصول الخوى – خوى الى اقصى الجنوب. بيد أن البوير لم يجدوا هذه المنطقة، في القرن السابع عشر، خالية من السكان.

(٤٠) ج. ر. دنبو، في *NA*، ١٩٧٩، رقم ١٤؛ ر. إلفيك، ص ١١ فيما يتعلق ببمبا ديانالو، أنظر ب. فاغان، ١٩٦٩، ص ٥٢ – ٥٣.

المجموعات البشرية الناطقة فقط ، حسب الأرجح ، بالبانتو والتي انتقلت إلى ضفاف نهر الفال ، ولكن أيضًا لبداية توسّع الخوى – خوى.

وانطلاقًا من اعالي الفلد ، توجّه الخوى – خوى نحو الجنوب الشرقي محاذين مجرى الأنهار كلما أمكن ذلك[٤١] . ولما بلغوا ملتقى نهري الفال وأورانج سلك بعضهم مجرى نهر الأورانج إلى أن وصلوا نماكوالند وناميبيا حيث بلغوا سندويش هاربر قبل سنة ١٦٧٧ . واتّجه الآخرون نحو الجنوب ، محاذين المجاري المائية ، وعبروا نهر سنوبيرغ ثم انقسموا إلى فريقين : توجّه الأول نحو الشرق ونحو داخل البلاد ، انطلاقًا من الساحل وحتى الناتال ، بينما تحوّل الثاني نحو الغرب وبلغ المراعي الرائعة بمنطقة رأس الرجاء. وقد انفصل البعض عن هذا الفريق الأخير وساروا مع الساحل باتجاه الشمال إلى حد نهر أوليفنتس قبل الالتحام في النهاية ببعض أشقائهم في نماكوالند[٤٢] .

وقبل التسليم بهذا الافتراض يجب أن نبحث نقطة متعارضة معه وهي الآثار المكتشفة في ميدلدريفت. يوجد هذا الموقع الأثري المكشوف قرب مجرى نهر كايس كاما ويرجع عهده إلى القرن الحادي عشر[٤٣] . لقد كانت تربي هناك حيوانات مستأنسة ولكن الأدوات المستعملة لا تنتمي إلى العصر الحديدي. ولم يعثر إلاّ على بعض الأجزاء من الخزف وعلى أدوات حجرية. واذا اعتبرنا موقع ميدلدريفت أحد موقع الخوى – خوى ، فإن الافتراض الوارد أعلاه يجب أن يسقط نظرًا إلى أن ذلك من شأنه أن يرجع توسّع الخوى – خوى إلى فترة قديمة جدًا وربما أيضًا لأن المستوى التكنولوجي الذي تدل عليه هذه الآثار بدائي جدًا. ولكن ليس لنا أن ننسبها إلى الخوى – خوى ، لمجرّد كونها لا تتفق مع الفكرة التي نحملها على ثقافة السكان «الناطقين بالبانتو». ويمكن إذن أن نعتبر ، إلى أن يأتي ما يخالف ذلك ، أن صيادين اقتنوا ، في ميدلدريفت ، ماشية مثل ما فعلت تمامًا شعوب أخرى قبلهم بألف سنة في منطقة ساحل رأس الرجاء حيث أتقنوا أساليب تربية الأغنام. وقد استوعب الخوى – خوى سكان ميدلدريفت أو طردوهم.

وقد طبع توسّع الخوى – خوى بعمق حياة كامل سكان جنوب القارة الافريقية وتحدّثنا عن تأثيرهم في السكان الناطقين بالبانتو ، شرقي رأس الرجاء وفي الناتال. وكثيرًا ما يُقال إن النغوني لم تعثر في الناتال على أحد من الخوى – خوى ، وصدّت تدريجيًا أو استوعبت كل الذين التقت بهم شرقي رأس الرجاء. ولكن مجمل المعلومات المتوفّرة تدحض هذا الافتراض. وقد اعترضت سبيل الخوى – خوى مراكز للمزارعين مبعثرة شرقي كاي ولكنهم أخضعوها وأصبحوا القوة المسيطرة في الترنسكاي وربما في بعض أجزاء الناتال. وكان لا بدّ من مرور قرن وربما قرنين لكي تبلغ الجماعات الفلاّحية في الهضاب الواقعة بين دراكنزبرغ والبحر ، كثافة سكانية كافية لقلب الموازين العددية لمصلحتها ، وبالتالي اتجاهات التمّثل والهيمنة. وذلك ما جعل الخوزا تأخذ عن الخوى – خوى كثيرًا من المميزات وهو ما لا يتضارب مع ظهور هيمنة الخوزا في القرن السادس عشر.

وفي الغرب ، أثّر الخوى – خوى في أقوام هيريرو بشكل مغاير ولكن بنفس القدر. وبدون أن تأخذ هذه الأقوام عن الخوى – خوى لغتهم ، أخذت عنهم نمط عيشهم الرعوي وربما جانبًا من تنظيمهم

---

(٤١) ر. إلفيك ، ١٩٧٧ ، ص ١٨ – ١٩ . يعتمد سلوك أقوام كورانا على طول مجرى نهر ريات وعلى المعلومات الأثرية المتوفرة في ذلك المكان على الرغم من أن الفترة متأخرة عن سنة ١٥٠٠. أنظر ر. ر. انسكيب ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٥ – ١٤٦.

(٤٢) ر. إلفيك ، ١٩٧٧ ، ص ١٤ الى ٢١.

(٤٣) ر. م. ديريكورت ، في *FHP* ، رقم ٥ ، ١٩٧٢.

العشائري. ويبدو أن هذه الشعوب التي تتكلّم لغات بانتو الغربية التقت بالخوى – خوى في غرب بوتسوانا من حيث هاجرت هي الأخرى إلى ناميبيا ولكن إلى ما وراء الخوى – خوى شمالاً. ولئن لم يكن ممكنًا تحديد زمن وقوع ذلك، فإنه لا مجال لاستبعاد تاريخ سابق لسنة ١٥٠٠ (٤٤).

وكان الخوى – خوى منقسمين، سياسيًا، إلى مجموعات من العشائر. وكانوا يكوّنون أحيانًا، عندما يزيد عدد الماشية، كيانات سياسية أكبر يسيّرها قادة وراثيون. وهكذا، كانت الروابط القائمة على الجزية بين مختلف الكيانات متواترة على الأقل في القرن السابع عشر، بما أن الخوى – خوى كافة من رأس الرجاء إلى الكاي، كانوا مرتبطين بنظام واحد للجزية. ولكن التنظيم السياسي كان يقوم على الثروة الشخصية بينما لم يكن نظام الإرث ونظام الزواج يسمح إلاّ بانتقال جزء من ثروة العائلة للمنحدرين منها. وبالتالي وعلى الرغم من الفوارق البيّنة بين الأغنياء والفقراء فإن ملكية الثروة يمكن أن تنقلب بأن يفقد الأغنياء ثروتهم أو العكس في ظرف جيل واحد. وكان يحدث أن الأشخاص الأكثر فقرًا يتخلّون عن هذا النمط من العيش ليعودوا إلى حياة الصيد والجني على غرار ما فعله «الستراند لوبرز» في رأس الرجاء. وكان أيضًا بإمكان أفراد عشيرة فقيرة أن يتوحّدوا لمهاجمة عشيرة مجاورة والاستيلاء على بعض ماشيتها لتحسين وضعهم. وطالما أن الماشية في ازدياد فإن النظام السياسي كان يتدعّم. ولكن ما إن ينزل عدد رؤوس الحيوانات، بسبب نقص الأمطار أو بسبب الأوبئة الحيوانية أو تفاقم السرقات من قبل العناصر الفقيرة، حتى تصبح التوترات أقوى من المصالح المشتركة، وتتعدّد النزاعات ويتعرّض أغنى الرؤساء للسرقات أكثر من سواهم، مما يحدّ من ثروتهم ومن نفوذهم داخل مجموعات عشائرهم. وهكذا، إذا كان من السهل أن ندرك كيف أن الخوى – خوى تمكّنوا، في البداية، من فرض أنفسهم على الفلاحين، الذين كانوا أقل حركية وتنظيمًا، فإن التقلّبات المناخية وما يجتاح الحيوانات من أوبئة، إضافة إلى الحيف الاجتماعي القوي بين الخوى – خوى أنفسهم كانت كلها عوامل ساعدت المزارعين، على الأقل شرقي الكاي (٤٥).

وكان لتواجد الخوى – خوى تأثيرات أهم من ذلك في الصيادين والرعاة من سكان البلد الأصليين، وفي صيادي المنطقة الساحلية، لأن كل هذه المجموعات كانت تعيش على نفس الموارد ويشتدّ بينها التنافس أكثر مما هو بين الفلاحين والمربين. وكان السكان الأصليون، وجميعهم رحل وصيادون يتعاطون مبدئيًا فيما بين ١١٠٠ و١٥٠٠ نشاطات مختلفة. وقد أصبحوا جميعًا أو يكادون مستقرين على طول الساحل وكانوا يعيشون من نتاج البحر (٤٦). وكانوا يربون قطعان الأغنام ذات الأليات السمينة، على طول سواحل رأس الرجاء الغربية وعلى ضفاف الأورانج الدنيا، فيما بين شلالات أوغرابيس وبرياسكا، بينما كان آخرون يعيشون داخل البلاد أساسًا من الصيد وجني الفلدكوس (ثمار الغابة). وعلى الأرجح أن أكثر مناطق الكارو جفافًا، صحراء كالاهاري الرملية وأكثر المرتفعات الجبلية بردًا، لم تكن عامرة في تلك الفترة. وشرع بعض الصيادين، في بعض نواحي الشرق، ربما في ميدلدريفت في تربية الماشية.

(٤٤) د. بيرمنغهام، وس. ماركس، ١٩٧٧، ص ٦٠٧. ان المعروف من روايات «هيربرو» قد لخّصه هـ. فيدر، ١٩٣٨ (ترجمه من الألمانية ج. س. هال)، ص ١٣١ – ١٥٣. ومن رأيه أن الروايات الشفوية تشير الى هجرة من بوتسوانا الشمالية، واقترح ١٥٥٠ كتاريخ تقريبي (ص ١٥١–١٥٣).

(٤٥) بالنسبة الى الهيكل الاجتماعي والسياسي، راجع ر. إلفيك، ١٩٧٧، ص ٢٣ – ٦٨؛ ج. هارينك، ١٩٦٩، ص ١٤٧ و١٤٨.

(٤٦) ر. ر. انسكيب، ١٩٧٩، ص ١١٤ – ١١٧.

ومع مجيء الخوى – خوى فقد رعاة الأغنام ومربو المواشي الكبرى ، إن كان عدد منهم ، حيواناتهم وعادوا إلى الصيد أو أصبحوا موالي لدى الخوى – خوى. وعمرت المجموعات التي تعيش على «سورفيلد» وعلى السواحل فترة كافية لتعليم الخوى – خوى الأكثر فقرًا كيف يصبحون «ستراند لوبرز» ، ولكن الأمر انتهى بها هي الأخرى للخضوع إلى هيمنة الخوى – خوى. وفي الداخل كان المربون والصيادون يتنافسون ويمتزجون بدرجات مختلفة. ولم يكن الصيادون في نظر الخوازن سوى لصوص (سان) ، ومن الأكيد أن الصيادين كانوا يعتبرون المربين كدخلاء يسعون إلى إبعادهم عن أفضل المصادر المائية وعن ميادين صيدهم. وبصفة عامة ، كانت عشائر الخوى – خوى تمتاز ، بفضل نظامها الاجتماعي الأقوى ، على أولئك الذين لا يشكّلون سوى عصابات صغيرة. ولكن كلما أصبحت البيئة أكثر جفاءً استعاد الصيادون شيئًا من التوازن ، طالما أن العديد من المربين كانوا مجبرين على اللجوء أكثر إلى الصيد ، حتى أن بعضهم اندمج في جماعات الصيادين. ومع ذلك كان نمط عيش الخوى – خوى يفرض نفسه تدريجيًا. وأصبحت لغة الخوى – خوى ، في القرن السابع عشر لغة الاتصال في كامل الجزء الغربي من مقاطعة رأس الرجاء وهو عنوان لنوع من الهيمنة الثقافية. ويبدو واضحًا أن توسّع الخوى – خوى مهما كان الشكل الحقيقي الذي اتّخذه – قد غيّر حياة كافة جماعات الصيادين الأصليين. ولم يعد هناك منذ القرن التاسع عشر ، صيادون «في حالة من النقاوة الكاملة لا في شمال صحراء كالاهاري ولا في جنوبها».

الخاتمة

إن أبرز حدث في الفترة تحت الدراسة في هذا الفصل هو ، توسّع الخوى – خوى في جنوب القارة الإفريقية – وكان هذا التوسّع ناجمًا ، حسب المرجح ، عن تدهور أحوال المناخ في منطقة كالاهاري الموجودة في بوتسوانا أو انتقال مناطق ذبابة التسي – تسي أو العملين معًا.

ومهما يكن من أمر ، فإن سكان بوتسوانا الوسطى هجروا ، سنة ١٣٣٠ ، هذه المناطق التي تكوّن فيها نوع من الاقتصاد الرعوي الأصيل. ولم يكن هؤلاء المربّون كافة من الخوى – خوى. فبعضهم كان يتكلّم البانتو ، وهجروا البلاد أيضًا مع مواشيهم.

وفي بلاد زيمبابوي وفي أعالي الفلد ، جنوبي ليمبوبو ، استوعبت الماشية في الاقتصاد الزراعي. واستولى المهاجرون ، من بين أجداد السوتو – تسوانا على الأقل على الحكم وبدأوا بإنشاء مشيخات شمال دراكنزبرغ. ولا نعلم حتى الآن ما إذا كان بعض هؤلاء المهاجرين قد توغّل أكثر من ذلك نحو الجنوب. ولكن عدد المهاجرين قد ظلّ محدودًا. ومهما يكن ، فإن أجداد النغوني قد طوّروا اقتصادًا يقوم أكثر على تربية الماشية متجاوزين في ذلك ما قام به السوتو – تسوانا. ويتعلّق الأمر هنا بابتكار تبنّوه بعد مشاهدة نمط عيش هؤلاء الخوى – خوى الذين غزوا اقليمهم.

ولا تزال المعطيات التاريخية ناقصة للغاية. وحتى إذا ما أيّدت البحوث المستقبلية الأفتراضات التي تقدّمنا بها ، فإننا لم نفسّر حتى الآن تطوّر اقتصاد رعوي قام في بوتسوانا الشمالية بالذات ، ربما فيما بين ٨٠٠ و ١٣٠٠. كما أننا لا نعرف إلى من ننسب هذا التطوّر الذي لا يمكن أن يكون – حسب الأرجح – من عمل السكان الناطقين بلغة البانتو. ذلك أنه توجد في جنوب القارة الافريقية الكثير من

العبارات المستعملة في مجال تربية الماشية التي ليس مصدرها لغة البانتو الشرقية. فقد تكون من أصل خوازان، وهناك مؤرّخ ذهب إلى حد ربطها بلغات وسط السودان[٤٧] . بيد أن الحجج التي وقع التذرّع بها حتى الآن لدعم هذه النظرية تبقى هزيلة جدًا، إذ يجب لإثباتها أن نفترض أن سكانًا يتكلّمون لغة وسط السودان قد قاموا بتوسّع كبير من نقطة في شمال شرقي زائير قادهم حتى بوتسوانا وزيمبابوي وأن هذا التوسّع قد سبق مثيله الذي قامت به الشعوب الناطقة بلغات البانتو. ويبدو لنا من المحتمل أن هذه العبارات الخاصة بتربية الماشية هي من أصل تشو – كويه وأن أجداد الخوى – خوى هم الذين حسّنوا، طوال خمسة قرون، نمط العيش الرعوي – فقد تبنّوا تربية المواشي لكنهم لم يكونوا يرغبون في التخلّي عن تقاليد الترحال والصيد التي كانت تقاليدهم الأصلية.

وما يزال الكثير من العقبات يحول دون الإحاطة بالوقائع التاريخية لجنوب القارة الإفريقية. فدراسة نزوح قبائل البانتو تشتمل على العديد من النقط الغامضة واذا كانت قبائل نغوني وسوتو قد تجمّعت في فترة ما، فمتى وأين انفصلت؟ وما هي الطرقات التي سلكتها في هجرتها نحو الجنوب؟ ومتى عبرت نهر ليمبوبو؟[٤٨]

وهناك عقبة أخرى ناشئة من كون معظم المعطيات الأثرية جنوبي الليمبوبو قد وقع الحصول عليها في ولاية أورانج الحرة وهي تتصل بالسوتو – تسوانا. ولا بدّ من القيام ببحوث تكميلية في جنوب الموزمبيق، وناميبيا، وسوازيلاند، وليسوتو، وبوتسوانا حتى يتسنّى تجميع وتركيب معارفنا.

(٤٧) ك. إهريت، في *TJH* ، رقم ٣، ١٩٧٣؛ وفي *Ufahamu* ، رقم ٣، ١٩٧٢.
(٤٨) اليونسكو، «تاريخ افريقيا العام»، دراسات ووثائق، رقم ٤، ص ٢٣.

الفصل الرابع والعشرون

مدغشقر والجزر المجاورة،
من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر

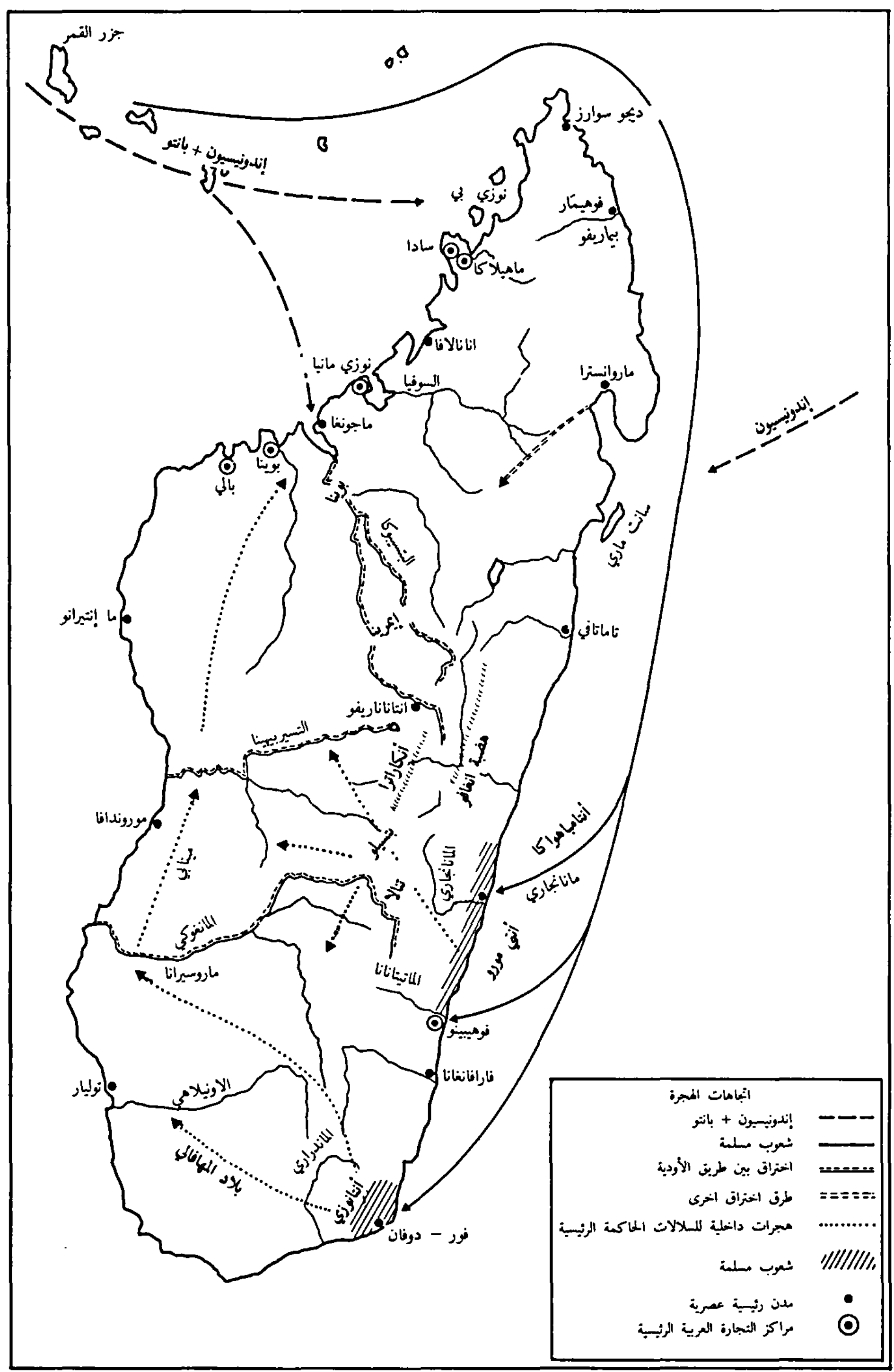
بقلم ف. ايزوافيلوماندروزو

كانت المكوّنات الأساسية لسكان مدغشقر قد استكملت في آخر القرن الثاني عشر، ولو أن موجات أخرى من الهجرة قد تعاقبت فيما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر. ويندرج استيطان مدغشقر في النطاق الواسع للعلاقات بين جنوب شرق آسيا وافريقيا عبر المحيط الهندي. وقد فرضت أهمية هذه المسألة نفسها على أصحاب فكرة هذا التاريخ العام، ونظّمت اللجنة العلمية لكتابة تاريخ افريقيا العام اجتماعًا للخبراء في بورلويس (بجزيرة موريشيوس)، باشراف منظمة اليونسكو أيضًا، من ١٥ الى ١٩ تموز/ يوليو ١٩٧٤، حول موضوع «العلاقات التاريخية عبر المحيط الهندي»[١].

وكانت مسألة استيطان مدغشقر موضوع الفصل ٢٥ من المجلّد الثالث. ولا تزال مشاكل جمة معلّقة الى الآن، من ذلك مثلاً أن تحديد المساهمة الافريقية والعربية والهندية والأندونيسية في الاستيطان والثقافة تثير الكثير من المجادلات بين الباحثين[٢].

وسوف لا ينصرف الاهتمام في هذا الفصل الى تقديم خلاصة نهائية حول حضارة مدغشقر وتاريخها فيما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، بقدر ما سيركّز على محاولة فهم المزيج العرقي والثقافي البطيء المعقّد الذي أضفى على الجزيرة الكبيرة، في بداية القرن السادس عشر، هوية خاصة. ويبدو من الثابت تمامًا أن مدغشقر استقبلت من جديد، بعد القرن الثاني عشر، عربًا وأندونيسيين وأفارقة. وبهذا الشأن تذكر الروايات الشفاهية التي يتناقلها سكان الميرينا والبتسيليو، الحروب التي خاضها ملوك، على رأس

(١) اليونسكو، «تاريخ افريقيا العام»، دراسات ووثائق، رقم ٣، ١٩٨٠.
(٢) أنظر المجلد الثالث، الفصل ٢٥؛ أنظر أيضًا ر. كنت، ١٩٧٠. لقد حاول هذا المؤلف، معتمدًا على علم اللغويات، فهم الاسهام الافريقي على الصعيد السياسي والثقافي على حد سواء.



• مدغشقر : اتّجاهات الهجرة والاستيطان. المصدر : ف. إيزوافيلوماندروزو ، بمعاونة ت. راجاونا وباستخدام أطلس مدغشقر. س. أياش وأطلس شعوب مدغشقر (ف. رامياندرازوا).

ملاحظات : وصلت آخر موجات الأندونيسيين بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ وكانت القاعدة الرئيسية للشعوب المسلمة (سواحيلي وعرب) في جزر القمر ومنها داروا حول الجزيرة عن طريق الشمال.

القادمين الجدد، ضد أقوام يعرفون بلفظة «فازيمبا»، قبل أن يهزموهم ويدحروهم الى الداخل[٣]. وتشتمل هذه الروايات حتى على قوائم نسب يمكن أن يرجع تاريخها الى القرن الرابع عشر، بل القرن الثالث عشر.

بيد أن علماء كثيرين يرون أن الهجرات الأندونيسية الجديدة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قد لا تخص سوى الميرينا؛ ومع ذلك، فثمة شكوك كثيرة في وجود الـ «فازيمبا»، أعدائهم، حسب الروايات. ذلك أن «فازيمبا» تعني في نظر البعض، «الأجداد» وليست بالتالي تعريفًا لشعب، وقد تستعمل اللفظة للدلالة بكيفية غامضة على اقوام زنوج، بلا ريب، حلوا بالهضاب العالية قبل الاندونيسيين[٤].

ولدينا أيضًا مصدر حول استيطان الجزيرة، هو «السورابي»[٥] التي يحافظ عليها الأنتيمورو من سكان الجنوب الشرقي بعناية كبيرة، ويتحدّث هذا المصدر عن حلول عرب قدموا من مكة وعن استيطانهم بالجزيرة.

ويظهر أن أحدث الهجرات قد لعبت دورًا حاسمًا في تكوين مجموعات سياسية غاية في احكام النظام، ولو أنها وجدت السكان مستقرين وقد تجمّعوا فعلاً في نطاق ممالك. لكن الى اي عهد يرجع وصول الموجات الأخيرة من النازحين؟

يجدر القيام بدراسة نقدية لمختلف الروايات المكتوبة والشفوية، لا سيّما عندما يكون مصدرها الأسر المالكة التي لها ميل طبيعي تمامًا الى اثبات أقدمية قيامها.

ومنذ القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، تحدّثت المصادر البرتغالية عن شعوب الجزيرة وممالكها. وكانت الممالك في عزّ ازدهارها عندما بلغ البرتغاليون الجزيرة، إلاّ أن المشكلة تتعلّق بمعرفة تاريخ قيام هذه الممالك. فهل يرجع عهدها الى ما قبل القرن الثاني عشر؟ وكيف تكوّنت؟ تتواجه عدّة نظريات، ولنقل على الفور أن حالة المعلومات ونقص البحوث في هذا الميدان لا تسمح بابداء رأي نهائي.

فهل الزنوج، وهم أول من استقرّ هناك على وجه الاحتمال، هم الذين وضعوا أسس الممالك، أم ان النازحين القادمين من اندونيسيا هم مؤسّسوها؟ وبما أن العنصر الاسلامي قد لعب دورًا كبيرًا منذ زمن مبكر جدًا وشهد امتداد التأثير العربي وعمقه. فان بعض العلماء لم يستبعدوا، كما سنرى ذلك، النظرية القائلة بوجود أصل عربي أو اسلامي للممالك.

---

(٣) فيما يخص الايميرينا، أنظر ر. ب. كاليه، ١٩٠٨. تشكل «التنتارا» واحدًا من أهم مصنّفات الروايات الشفاهية لبلاد الميرينا. وهذه المعلومات التي استقاها ر. ب. كاليه فيما بين ١٨٦٨ – ١٨٨٣ تشكل اشارات ثمينة حول الميرينا. وقد قام أ. ديليفريه، بدراسة نقدية حول التنتارا. وفيما يهم بلاد البتسيليو، أنظر ج. راينيهيفينا، ١٩٧٥؛ راجع كذلك ب. راتسيمبارافياهيفا، ١٩٧١، ص ١٤٦.

(٤) لقد اعتمدت المناقشات حول الـ «فازيمبا» في منطلقها على براهين ذات طابع لغوي؛ أنظر ج. فراند، ١٩٠٨. ويبدو أن السكان القدامى الذين تدل عليهم هذه العبارة لم يعرفوا بعض التقنيات (تشغيل المعادن وتربية الماشية الكبيرة)؛ راجع ب. بواتو، ١٩٥٨. وفيما يتعلق بأحدث دراسة حول استيطان الجزيرة، أنظر ش. رافواجاناهاري، اليونسكو، «تاريخ افريقيا العام»، دراسات ووثائق، رقم ٣، ١٩٨٠.

(٥) «السورابي» هي مخطوطات كتبت في لغة الانتيمورو بحروف عربية. وهي روايات «الكاتيبو» (وهم كتبة وحفاظ تقاليد). وهذه المخطوطات محفوظة في مكتبات بفرنسا والنرويج وانكلترا، راجع ل. مونته، في *BSOAS*، ١٩٧٧، ص ٩٦ – ١٠٩.

في أصل الممالك بمدغشقر

لا يوجد شعب اسمه «فازيمبا»، ومن المحتمل أن الروايات التي تذكر وجود «الفازيمبا» تشهد بأسبقية بعض الأقوام التي يعسر تحديد هويتها. وقد استعملت الروايات المتعلّقة بال «فازيمبا» منطلقًا لتأكيد انعدام وجود مؤسسات ملكية قبل وصول موجات المهاجرين الأخيرة؛ وفي بلاد البتسيليو أيضًا، تنحو الروايات نفس المنحى: بمعنى أن السكان الاصليين لم يكن لهم ملك، وانما كانوا يختارون قائدًا لهم في حالات الحرب، ليس الاّ.

الروايات الشفوية والنظريات

يُعتبر ب. أوتينو أن الأقوام القادمين من أندونيسيا يتميّزون عن بعضهم البعض بسمات ثقافية وليس بتفاوت في ترتيب قدومهم زمنيًا. ونميّز حسب هذا المؤلّف، بين مهاجرين حاملين لثقافة شعبية «تعود بنا الى التقاليد الماليزية البولينيزية»، ومهاجرين منحدرين من ثقافة «أرستقراطية مميّزة للهندوسية الأندونيسية التي تفصل ما بين الدولة الملوكية»؛ وتذكر أعياد أُسر الايميرينا المالكة من جهة أخرى بما يوجد في مناطق من أرخبيل أندونيسيا شملتها الهندوسية. والحقيقة أن روايات كثيرة تلحّ على الطابع الحديث لهذه الموجة من المهاجرين وتميّزها عن غيرها. ويرجع ب. اوتينو قدوم هذه الارستقراطية الى القرن الثاني عشر[٦]. وتتميّز ارستقراطية الايميرينا، حسب هذه النظرية، بثقافتها الهندوسية.

أما ج. لومبارد، فهو يشدّد من ناحيته على أن «تكوين وحدات سياسية كبيرة في الجنوب وفي الغرب أيضًا انما هو ناتج عن قدوم جماعات مستعربة»[٧]. وهذه النظرية القائلة برجوع المؤسسات الملكية أو الملوكية الى أصل «عربي» لها حظوة لدى مؤلّفين كثيرين يلحون جميعًا على الابتكارات التي جاء بها المسلمون في مجتمعات الجنوب الشرقي حيث كان التجمّع العشائري هو وحده المعروف.

ولنلاحظ أنه ربما وجدت مراكز اشعاع كثيرة، وأننا، على كل حال، أمام ترابط وثيق على الصعيد البيولوجي والثقافي والسياسي على حدّ سواء. وعلى سبيل المثال، نلقى التأثير الاسلامي في المؤسسات السياسية موجودًا في بلاد الميرينا، فيما لا ندرك جيدًا متى وجدت علاقات بين اندريانا والمهاجرين المستقرين بالجنوب الشرقي. ويلفت ج. ب. دومينيشيني النظر، وهو محق في ذلك[٨]، الى أنه ينبغي ألاّ نغفل المساهمات الافريقية، كما يلفت النظر الى أن ما وقع من ربط نشوء الممالك بقدوم المسلمين انما كان من باب الخطأ الواضح، وأنه ينبغي تحليل المؤسسات القائمة في كل منطقة.

وتأتي ثلاث فقط من الأربع عشرة «سامبي» الملكية من الجنوب الشرقي. وبالاعتماد على الحكايات المتعلّقة بابتداع «السامبي» الأخريات وعلى طبيعة هذه «الرقيات» (السحرية) بالذات، يستنتج المؤلف أن «مؤسسة «السامبي» سابقة على انتشار الثقافة والديانة الاسلامية في مدغشقر، ولو أن هذه المؤسسة تأثرت فيمَا بعد بهذا الانتشار».

---

(٦) ب. أوتينو، ١٩٧٤.
(٧) ج. لومبارد، ١٩٧٣.
(٨) ج. ب. دومينيشيني، ١٩٧١.

وفي الغرب، يرجع ب. أوتينو الى ما قبل قدوم الماروزيرانا ظهور الممالك الأولى «القليلة الاتساع اقليميًا والخالية من نظام محدّد بوضوح للخلافة السياسية». ويربط هذه المملكات «السابقة للساكالافا» بالمهاجرين الأوائل من «البانتو ذوي النسب الأمومي» وهم أقوام كانوا يعيشون من الزراعة، فيما ترتبط ممالك الساكالافا بجماعات من مربي الأنعام (وهم بانتو ذوي نسب أبوي)[٩].

ان هذه الدراسات المختلفة لتبعث على الحذر، وانها لتحثنا بصورة خاصة على البحث عن مقوّمات ثقافية بمحاولة ابراز مختلف المساهمات وكيفية تجميعها. وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن ظهور الممالك جاء بعد القرن الثاني عشر، وربما وجدت قبل هذا التاريخ عشائر مهيكلة بكيفية محكمة جدًا، مشكلة بذلك الخلايا الأساسية للممالك. وسوف لا تكون المملكة غير تجمع هذه العشائر في كيانات كبيرة قائمة على ترتيب هرمي متماسك.

والحق أن رامينيا، مؤسّس مملكة الجنوب الشرقي ذات الطابع الاسلامي وسلالته كان لهم اشعاع كبير. وقد يكون أصل مؤسّس هذه المملكة من جنوب غرب الهند حسبما يذهب اليه ب. أوتينو. وينسب فاجرانغ – في دراسته للأسر المالكة بالغرب التي تجمع بينها أواصر القربى (الماروزيرانا والأندريفولا) – هذه الأسر الى أصل مشترك هندي عربي، متبنيًا جانبًا من نظرية غرانديدييه التي ينتقدها كنت[١٠]. وروايات هذه الأسر المالكة تربطها بغرباء نزلوا في زمن متأخّر بالجزء الجنوبي من الجزيرة، وهاجروا فيما بعد الى الغرب.

وأعسر من ذلك تخليص تشابك خيوط الهجرات الداخلية؛ ويستنتج أن القادمين الجدد قد تنقّلوا، بعد نزولهم بالجزيرة، تنقلات أخرى. وحتى اذا كانت الكيانات العرقية بقيت قائمة، فقد كان الامتزاج واضحًا، وتقوم وحدة الجزيرة ثقافيًا شاهدًا على ذلك.

قدوم الميرينا واحتلال الايميرينا: ميلاد مملكة ميرينا

يحتل الهضاب العالية اليوم الميرينا والسيهاناكا، والبتسيليو، والبيزانوزانو، وتنسب بعض الروايات الشفوية هذه الشعوب الى أصل واحد، على الرغم من أن الميرينا يشكّلون في داخلها أرستقراطية كان جدّها، أندريانتومازا، قد قاد الحملة التي آلت الى الانزال بخليج أنتونجيل. ومن ثم سيبلغ القادمون الجدد رويدًا رويدًا الأراضي العالية[١١]. وسواء قدموا رأسًا من جنوب شرقي آسيا الى مدغشقر أو على مراحل مرورًا بالقارة الافريقية وبجزر القمر، فإنه يبدو أن نقطة النزول كانت خليج أنتونجيل.

ويمكن تحديد قدوم أواخر المهاجرين القادمين من آسيا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. ومن المحتمل أن يكون القادمون الجدد، الذين ربما حلّوا على أفواج متتالية، قد انتشروا في الجزيرة، في نهاية تلك الفترة، عبر طريق محفوف بمواقع هي اليوم معروفة ومدروسة. ومن ماروانسترا، بلغوا داخل البلاد متوقّفين بمنابع الفاراهينا، على الحافة الغربية من هضبة الانغافو. وقد كانت كل من فوهيدرازانا في شمال تاماتافي، وأمباتومازينا فوهيدرازانا في نورامنغا بعض مراحل هذه المسيرة[١٢].

(٩) ب. أوتينو، ١٩٧٤.
(١٠) راجع أ. فاجرانغ، ١٩٧١؛ ب. أوتينو، ١٩٧٤.
(١١) أ. راميليسون، ١٩٥١.
(١٢) أ. ميل، ١٩٧٠.

وتؤيّد قصص الرحالين العرب في القرن الثالث عشر وحتى قصص الأوروبيين في بداية القرن السادس عشر، فرضية وصول مهاجرين أندونيسيين الى الساحل الشرقي، في زمن متأخر[١٣].

وتذكر روايات البتسيليو هي الأخرى نفس المسار من الساحل الى منابع ماهاتازياترا، الذي سلكه مهاجرون يقودهم اياريفو، مؤسّس السلالات الحاكمة المحلية. ويتعلّق الأمر بتوغّل بطيء وليس في شيء غزوًا مكثفًا، ويدل تحليل الروايات على ذلك بوضوح من كل الوجوه.

وفعلاً، لم يتّجه القادمون الجدد، فور استقرارهم، لمحاربة المحتلين الأوائل. وتبدأ قصص التنتارا ني أندريانا بذكر التعايش الطويل في ايميرينا بين المجموعتين. وتقول الروايات الشفوية إن القادمين الجدد لم يشنوا الحرب على مضيفيهم الاّ بعد مرور عهدين من الملك (عهد أندريانا يونغا وأندريامانيلو). ففي بلاد شاسعة جدًا، يحتمل أنها كانت مغطاة في جانب كبير منها بالغابة وقليلة السكان، يمكن لمجموعات بشرية متفرّقة أن تعيش زمنًا طويلاً نسبيًا في معزل بعضها عن بعض، بدون منافسة، طالما لم تبد احداها مطامح إقليمية وسياسية محدّدة. ومع ذلك فقد أُقيمت الاتصالات تدريجيًا وعُقدت أحلاف بالتصاهر بين القادمين الجدد والأهالي الأصليين. وحتى اذا كانت الروايات الشفوية تميّز تمييزًا واضحًا بين الميرينا والبتسيليو والسيهاناكا، وبين الـ «فازيمبا» في قصص أخرى، فان المرور من سلالة ملوك يقال لهم «فازيمبا» الى سلالة ملوك الميرينا يتم بدون قطيعة. وهكذا، ألا يظهر هؤلاء بمظهر الورثة والخلفاء الشرعيين للملوك الأوائل؟ ليس مستبعدًا إذن أن يكون القادمون الجدد قد وجدوا اطار دولة، اندرجوا ضمنه ثم اصطفوه لأنفسهم وجدّدوه فيما بعد. وكانت النزاعات التي نشبت في وقت لاحق بين التامبون تاني (سادة الأرض) والقادمين الجدد حادّة. وتتحدّث رواية ذكرها كاليه[١٤]، عن طموحات الميرينا السياسية، اذ كانوا يضيقون ذرعًا باقتسام الأراضي الخصبة مع المحتلين الأولين، أسياد الأرض أو التامبون تاني. وقد يكون المنتصر، وهو الملك أندريامانيلو، تغلّب على أهل البلاد بفضل تفوّق سلاح جنوده الحديدي، حيث كان «سادة الأرض» يجهلون استعمال هذا المعدن. وهنا يتبادر الى الذهن سؤال خطير، وهو: متى وكيف أُدخل الحديد الى الجزيرة؟[١٥]. لقد أُدخل الحديد الى مدغشقر حسب النظرية المسلّم بها، قبل نهاية الألف الأولى من العصر الحالي. والمشكلة هي أننا نرى هؤلاء النازحين الأخيرين ينسبون الى أنفسهم هذا الاختراع العظيم.

وبخصوص الفازيمبا، فاني أميل الى قبول النظرية البارعة التي يقترحها هيبير: فهو يرى أن «الفازيمبا» قد يكونون مجرّد سكان في الداخل أقام معهم القادمون الأخيرون (الميرينا) وكذلك الساكالافا أحلافًا تعتمد المازحات (زيفا) وتفترض امتيازات ليس أقلها غرابة تحمل الشتيمة (ما زالت كلمة «شتم» الى اليوم تقال «مانازيمبا»)[١٦]. وهكذا اذًا، قد تعني كلمة فازيمبا مجموعة من الأقوام الزنوج

(١٣) أ. رالايميهواترا، في *BAM*، مجلد ٤٩، عدد ١، ١٩٧١، ص ٢٩ – ٣٣؛ أنظر المؤلف نفسه في *BLPHGAM*، عدد ١، ١٩٧١.

(١٤) أنظر ر. ب. كاليه، ١٩٠٨.

(١٥) راجع المجلد الثالث، الفصل ٢٥.

(١٦) والفرضية مغرية. ففي افريقيا الغربية تلعب القرابة القائمة على أساس المزاح دورًا مهمًّا، اذ أنها تخفف من التوتر الاجتماعي في كثير من الحالات. وللماندانغ والفولاني، في السنغال ومالي وغينيا وساحل العاج، أعياد خاصة يتبادل فيها أقارب المزاح هدايا وشتائم في جوّ زال منه الحاجز الذي يفصل بين الأغنياء والفقراء، وبين الكبار والصغار (ملاحظة من المشرف على المجلد)؛ ج. ك. هيبير، في *BM*، مارس / آذار ١٩٥٨، ص ١٧٥ – ٢١٧؛ أبريل / نيسان ١٩٥٨، ص ٢٦٨–٢٣٦.

والأندونيسيين المهجنين الذين حلّوا قبل الميرينا بالهضاب العالية.

وتذكر روايات الميرينا والبتسيليو الشفوية في معظمها، فرار المهزومين في اتجاه الغرب الى منطقة الميناب ية. وقد استقرّ هؤلاء في بلاد الساكالافا، بعد أن طردهم ملوك الأراضي العالية، وظلّت ذكرى هذا الانتقال حيّة في ذاكرة أحفادهم.

وعندما يسأل البعض من الميكيا عن أصلهم، وهم قوم يعيشون في غابة بيفندريانا الجنوبية (منطقة توليار)، فانهم يؤكّدون انحدارهم من الفازيمبا الذين ردّهم ملوك الميرينا على أعقابهم[١٧]. الاّ أنه لا يمكن لنا أن نقبل بدون نقاش فرضية حصول فرار معمّم شمل جميع الأهالي الأصليين، الذين قد لا يشهد بقدم وجودهم سوى قبور هي في الآن نفسه محل خشية واجلال[١٨]. بل ان وجود عشيرة الأنتيهيروكا، من سلالة «فازيمبا»، في قلب الايميرينا بالذات، في غرب شمال غرب أنتاناناريفو، يساعد على تفنيد فرضية ابعاد كامل للسكان الأولين. ولئن غادر البعض منهم الايميرينا أو البتسيليو أو الميناب ية — وقد يكون الزافيزورو، وهم من سكان الغرب القدامى، هاجروا نحو الشرق بعد غزو ساكالافا — فان الأغلبية بقيت. وكان فعلاً في صالح المهاجرين الأخيرين أن يتفاهموا مع الجماعات التي تعتبر بمثابة أسياد الأرض (تامبون تاني) بحكم أسبقيتها. وتعدّدت الأحلاف الزواجية واستقام التعايش السلمي تدريجيًا بين المنتصرين والمهزومين. وبذلك ضمن الأولون لأنفسهم التفاف السكان القدامى حولهم والحظوة لدى آلهة الأرض[١٩]. بينما كان الآخرون يأملون بخضوعهم أن يعاملوا معاملة أقل قسوة. وفي الغرب «أدّى التحالف بين المهاجرين وجماعة التامبون تاني في منطقة الأندرامبة الى ظهور أول شخصية تاريخية في سلالة الأندريامبولا مينا الحاكمة»[٢٠]. وهكذا ولدت مملكة، هي مملكة الميناب ية، التي أنشأها الأندرامبة والتي أقيمت فيها طقوس دينية يتوجّه خلالها شخص مختص يطلق عليه اسم مبيتوكا[٢١]، بأدعية الى أجداد الملك.

وهكذا أصبح القادمون الجدد، من ميرينا وبتسيليو وغيرهم، تدريجيًا أسياد البلاد ونظموا ممالك. وستتعزّز هذه الممالك أيضًا بمساهمة المسلمين الاقتصادية والثقافية، علمًا بأن المسلمين كانوا، منذ ما قبل القرن التاسع، يتردّدون على جزر القمر ومدغشقر. وأصبح التأثير العربي أو الاسلامي قويًا جدًا في الجزيرة الكبيرة والجزر المحيطة بها، في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر بالخصوص، وهو اشعاع سياسي واقتصادي وثقافي في الآن نفسه.

(١٧) تحقيق سبتمبر / أيلول ١٩٧٤، الذي نظمه مركز توليّار الجامعي. وتمدنا تحقيقات أنجزت قبل هذا التحقيق أو بعده بعناصر أخرى للاجابة عن أصل هؤلاء الأقوام. ويظهر الميكيا بمظهر لاجئين فروا اما من سلطة أسرة ماروزيرانا المالكة، واما من سلطة المستعمرين. أنظر ج. دينا، وج. م. هورنير، في *OSA*، رقم ٣–٤، ١٩٧٠، ص ٢٦٩ الى ٢٨٦.

(١٨) تذكر رواية من روايات بتسيليو أوردها هـ. دوبوا، أنه لا يوجد أي أثر «لفازيمبا» في العائلات الملكية وفي عائلات رعاياها. وقد انسحب «الفازيمبا» جميعًا الى الغرب. أنظر هـ. دوبوا، ١٩٣٨.

(١٩) ج. ك. هيبير. في *BM*، ١٩٥٨. يقارن هيبير بين لفظة فازيمبا وكلمة «زيزا» التي تعني القريب بالممازحة. ويصوغ فرضية تحالف من «نوع فيزيفانا» بين «أسياد الأرض» والقادمين الجدد.

(٢٠) راجع ج. لومبارد، ١٩٧٣.

(٢١) المرجع السابق.

دخول الاسلام في مدغشقر وجزر القمر

مع ازدهار الوكالات التجارية بساحل افريقيا الشرقية[٢٢] ، وتفتّح الثقافة البحرية السواحيلية ، تردّدت جماعات من المسلمين القادمين من هذا الساحل الشرقي من افريقيا ، على جزر القمر ومدغشقر. وأقيمت آنذاك مبادلات مسترسلة بين ضفتي قنال الموزمبيق ، وكانت هذه العلاقات على أحسن ما يرام ، ناهيك أن «جاليات» من السكان المسلمين قد استقرت في أرخبيل القمر وفي بعض المناطق من مدغشقر. وحافظ القمريون وهم يحتلون جزرًا بمثابة مراحل بين الوكالات التجارية السواحيلية القائمة على ساحل افريقيا الشرقي وبين مدغشقر، محافظة أحسن على التقاليد الثقافية لبلادهم الأصلية. أما في مدغشقر ذاتها فلا بدّ من التنبّه إلى وجود فوارق جزئية. فالجنوب الشرقي، وهو أبعد المناطق عن مراكز اشعاع الحضارة السواحيلية، قد أدمج تدريجيًا ضمن المجموعة الملغاشية مع احتفاظه ببعض السمات المتميّزة. وبالمقابل، في الشمال الغربي، استمرّ سليلو الجماعات التي اتخذت الطابع الاسلامي ، الذين بقوا على صلة وثيقة باخوانهم في الدين، تجار جزر القمر ووكالات افريقيا ، يحافظون الى الآن على أصالة حقيقية تضفيها عليهم أنسابهم ، وشيمهم، وتقاليدهم بصفتهم من مرتادي البحار.

وتتحدّث روايات قمرية وملغاشية عن أجداد من أصل عربي ، أكرهوا ، على الهجرة من بلادهم بسبب معتقداتهم الدينية. وفي هذا السياق ، يذكر «سورابي» الأنتيمورو قدوم راليتافاراترا، حوالى القرن الخامس عشر، وهو جد الأنتيمورو – أناكارا[٢٣] وحافظ لأشياء مقدّسة ، موروثة عن النبي موسى وعائلته ، وكان سلطان مكة ، علي توارث ، يطمع في الاستحواذ عليها. فبحث عن ملجأ في مكان آخر، ومعه حوالى ثلاثين مسلمًا من أتباعه المخلصين ، وعثر ، بعد مغامرات عدّة ، على « الأرض الموعودة » على ضفاف نهر ماتيتانانا. كما تذكر روايات محفوظة عند الأنتمبو هواكا والأنتانوزي (سكان الجنوب الشرقي الملغاشي) قدوم سلف مشترك من مكة، هو رامينيا[٢٤]. وتشير رواية قمرية أن مسلمين «سنّيين» وصلوا الى جزيرة أنجوان حوالى القرن الرابع عشر، ويبدو أنهم كانوا قد هجروا بلاد فارس هربًا من هيمنة الزيديين[٢٥]. وتعكس هذه القصص بوضوح تعلّق ارادة هذه الأطراف وتلك ، بالانتساب الى أشهر مراكز الاسلام ، بغية التمكّن من فرض نفسها وابراز أصالتها العربية والاسلامية ، في آن واحد ، بشكل أحسن[٢٦].

ولئن كانت الروايات الشفوية تلح على الأسباب الدينية في تفسيرها لرحيل جماعات من العرب ، فسرعان ما كان لجاذبية جزر القمر ومدغشقر تأثير قوي جدًا. وتكاثر عدد النازحين المهتمين بتجارة العالم السواحيلي. بيد أن دراسة الرحلات البحرية العربية في غرب المحيط الهندي ، ومعرفة وكالات افريقيا الشرقية ، ووجود تقاليد ثقافية في جزر القمر وفي شمال غرب مدغشقر ، قريبة جدًا من تقاليد العالم

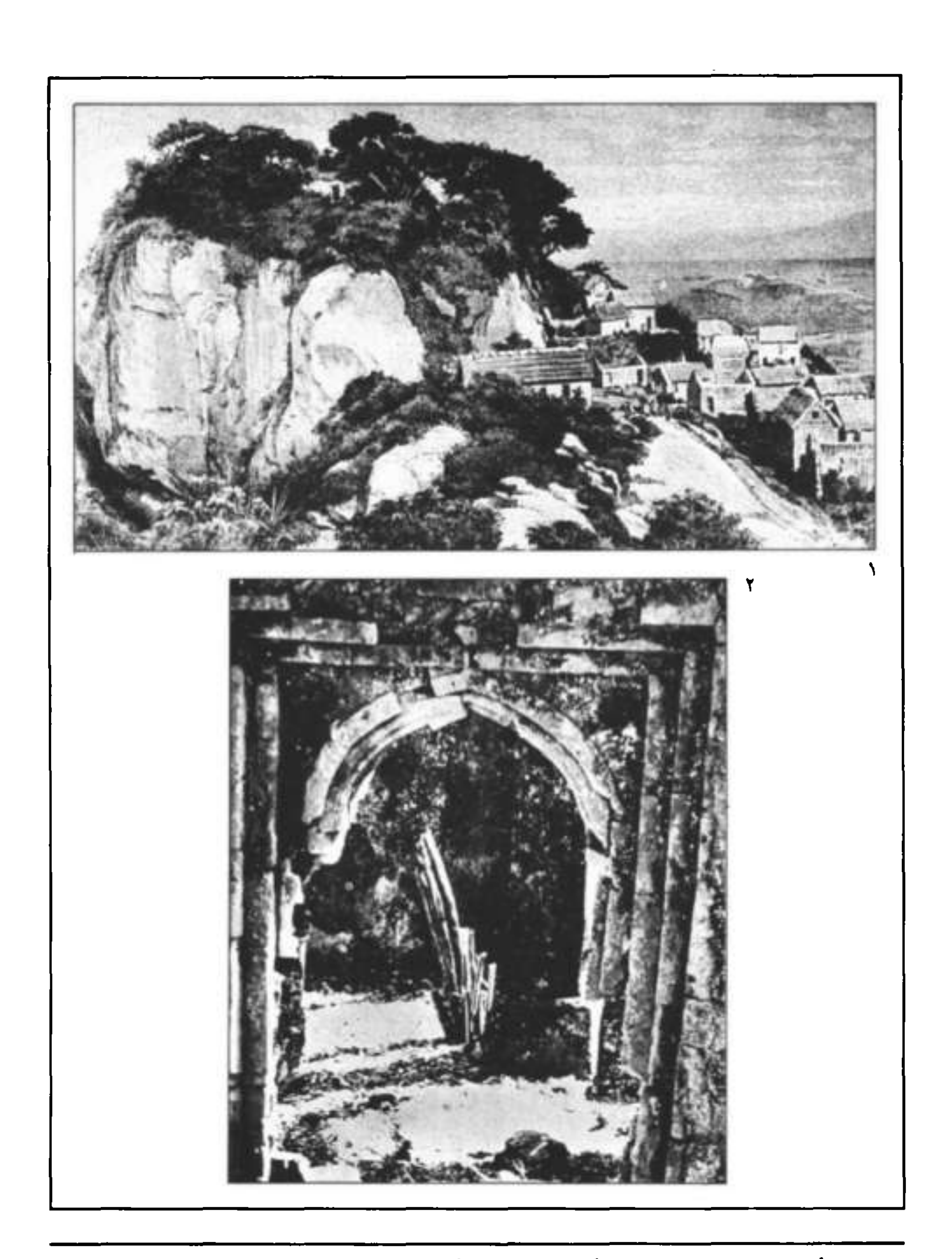
(٢٢) يرى هـ. ن. شيتيك، أن انتشار الاسلام في هذه الرقعة الساحلية الممتدة من مقديشو إلى سوفاله انّما بدأ حوالى القرن العاشر فقط مع استقرار المسلمين في بمبوزنجبار، وقد بقيت عدة مدن وثنية حتى القرن الثاني عشر. هـ. ن. شيتيك، ١٩٧٦، ص ٢١–٣٨ في *Zamani* (طبعة جديدة مع هوامش بقلم ب. أ. أوغوت)، ١٩٧٤، ص ٩٨–١١٤.

(٢٣) أنتيمورو – أناكارا : طبقة نبيلة من الأنتيمورو ، صلاحياتها دينية.

(٢٤) أ. دو فلاكور ، ١٦٦١.

(٢٥) ك. روبينو ، ١٩٦٧.

(٢٦) يلاحظ هذا الميل الى الانتساب الى أصل عربي عند جل السلالات الحاكمة التي أسلمت في افريقيا الشرقية والسودان.



١. منظر لأنتونغونا (في القرن ١٥ – ١٨) مأخوذ عن نقش من أواخر القرن التاسع عشر. والفلا المحاطة بأشجار الفيكس بأعلى التل كانت مقر الأمير. والمدخل منحوت في التحصينات الصخرية.
٢. أنتسو هيريبوري على خليج بُوينا : ويبين الطراز المعماري لهذا المدخل من حجر المرجان المصقول لقبر أنتالاوتسي التشابه الحضاري مع ساحل افريقيا الشرقية.

السواحيلي، وما تمّ اكتشافه في مواقع بشمال شرق الجزيرة وجنوب شرقها من آثار تشهد شهادة ساطعة على وجود علاقات تجارية بين هذا البلد والموانئ الافريقية، تفرض كلّها وجوب طرح مشكلة هجرات هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام طرحًا مغايرًا.

«محطة» العالم السواحيلي

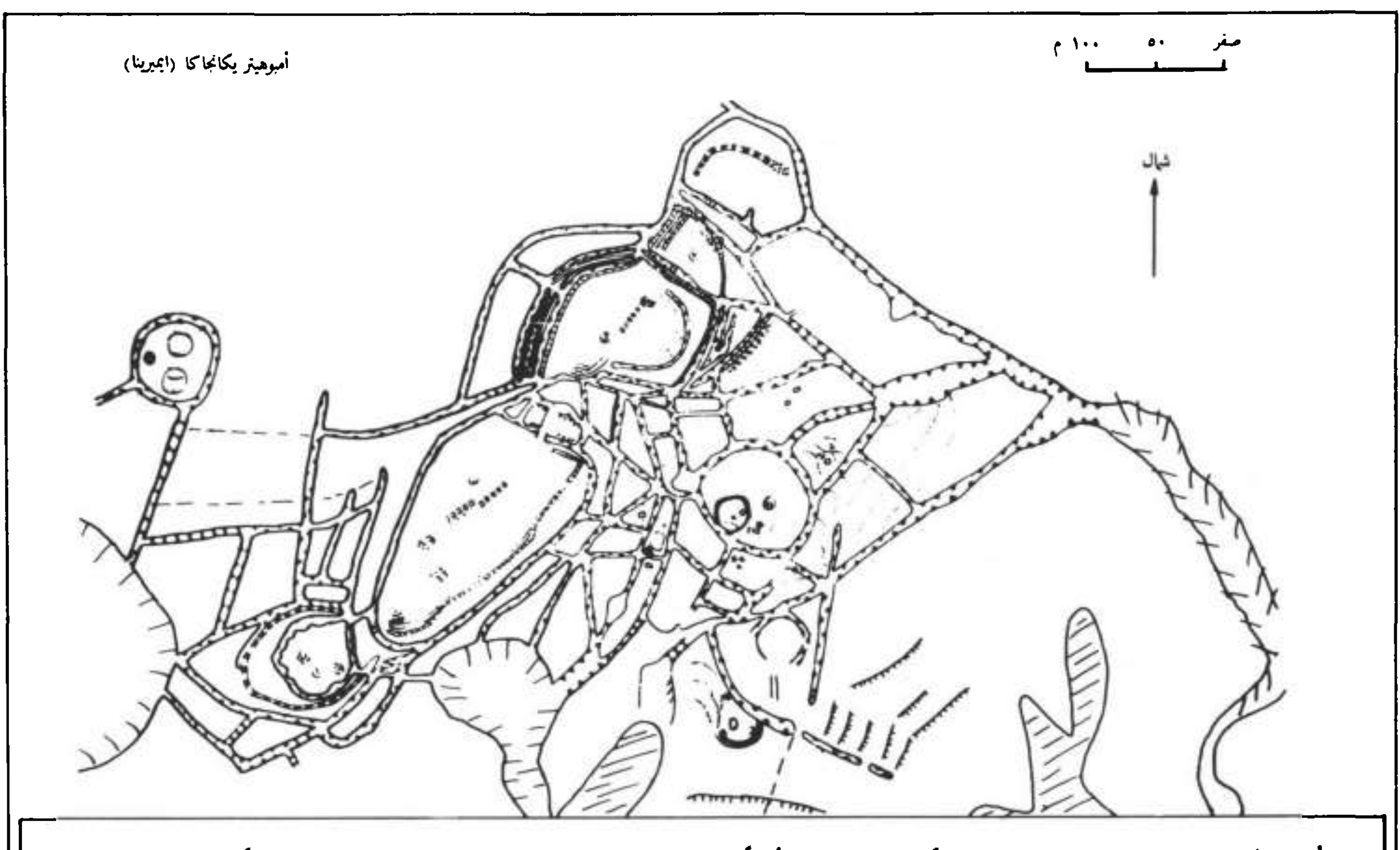
لقد عرفت المدن والجزر الموزّعة على الساحل الافريقي الممتد من مقديشو إلى سوفاله حركة تجارية حتى من قبل استقرار جاليات اسلامية[٢٧]. وهذه الموانئ المتجهة نحو البحر أكثر من اتجاهها نحو الداخل، والتي أخذ ازدهارها يبرز للعيان بداية من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كانت تبسط تأثيرها على ما أبعد من الساحل بكثير. وقد لعبت الوكالات التجارية دور محطات بين الجزيرة العربية – بل بين الهند – من ناحية، ومدغشقر وجزر القمر من ناحية أخرى. زد على ذلك أن العديد من النازحين المسلمين الذين كانوا يقدمون الى هذه البلاد، كانوا مشبعين كثيرًا بالثقافة السواحيلية وكان دورهم أساسيًا في نشر الاسلام في الجزيرة.

غير أن ثمّة ما يحمل على الاعتقاد، رغم نقص المعلومات في المراجع الكتابية، بأن التأثير الافريقي كان كبيرًا. فقد أثبت علم الآثار أن مدن الساحل لم يؤسّسها العرب وانما أسّسها الأفارقة، حقيقة. كما أنه يتعيّن تخفيف الأحكام عند الحديث عن التأثير الاسلامي، اذ قد لا يكون الأمر بالضرورة متعلّقًا بالعرب. وليس ثمة أي داعٍ الى رفض التسليم بأن علاقات قديمة قد وجدت بين سكان الجزيرة الزنوج وسكان القارة.

الوكالات التجارية

تتشابه وكالات الشمال الغربي الملغاشي ووكالات القمر مع مدن الساحل الشرقي الافريقي، سواء في ملامحها أو في نمط عيش سكانها. والأطلال المتبقية من القلاع المحصّنة، وآثار الجوامع، والدور العتيقة التي لا تزال موجودة في أنجوان بأبوابها المزدانة بزخارفها، لتشهد كلّها بحياة طبعها الاسلام بعمق، كما تشهد بالحضارة العربية في المحطات التجارية في موتسامودو، وأواني، ودوموني، وسيما[٢٨]. وقد خلف البرتغاليون على الرغم من آرائهم المسبقة، أوصافًا مهمة لحياة موانئ شمال غرب مدغشقر في بداية القرن السادس عشر. من ذلك أنهم كتبوا، في حديثهم عن محطة نوزي لانغاني، إحدى المحطات التجارية الأكثر أهمية: «ان سكانها (سكان لولانغانه) يتألفون من مسلمين هم أكثر تمدنًا وأكثر ثراءً من الذين يقطنون كل النقط الأخرى من الساحل، لأن مساجدهم وجل منازلهم كانت مبنية من الحجر الجيري ولها سطوح على طريقة كيلوه وومبماسا»[٢٩]. وقد اكتشفت في موقع ماهيلاكا[٣٠]، بقايا من تحصينات، شبيهة بتحصينات الساحل الشرقي من افريقيا. وقامت بالخلجان العميقة التي تكثر في

(٢٧) هـ. ن. شيتيك، ١٩٧٤.
(٢٨) ب. فيرين، ١٩٦٧، في *BAM*، الجزء ٤٥.
(٢٩) أورده ش. بواريبه، في *BAM*، ١٩٥٤، ص ٧١ – ٨٧.
(٣٠) ل. ميو، في *BAM*،١٩١٢، المجلد العاشر، ص ٢٨٣ – ٢٨٨؛ ب. فيرين، في *Taloha*؛ رقم ٥، عدد خاص، ١٩٧٣.



• أمبوهيتريكانجاكا (ايميرينا). شبكة التحصينات المعقّدة (خندق مزدوج أحيانًا من جدران من الحجر الجاف) لموقع مرتفع من القرن ١٥ تقريبًا.

الشاطئ الشمالي من الجزيرة، مثل خلجان أمبازيندافا، وماهاجمبا، وبوينا، سلسلة من المستوطنات التجارية (ماهيلاكا، وسادا، ونوزي، ولانغاني، ونوزي بوينا...) لها علاقات متينة بجزر القمر وبافريقيا وتساهم في الثقافة البحرية السواحيلية.

وكانت المراكب التي ترسو على السواحل الملغاشية تشحن أرزًا وتحفًا من حجر الطلق (أوانٍ صالحة للاستعمال الجنائزي: أطباق ذات قاعدة، ومراجل ثلاثية القوائم) كان المركز الرئيسي لصنعها يوجد في ايهارانا (على الساحل الشمالي الغربي من مدغشقر)[٣١]؛ فيما كانت المحطات التجارية الملغاشية تستلم لآلئ هندية، ومنسوجات، وخزفيات صينية – كالصحون والصحاف – التي كثيرًا ما كانت توجد ضمن الأمتعة الجنائزية. وكانت موانئ الشمال الغربي تقوم باعادة توزيع المواد المستوردة. وقد مكّنت الحفريات التي أُجريت في ريزوكي وأزامبالاهي من الكشف عن تحف تتميّز بها مواقع سواحيلية[٣٢]. وعلى الرغم من المنافسة الأوروبية بداية من القرن السادس عشر، ظلّت الجاليات الاسلامية تمارس نشاطاتها المربحة جدًا.

تعمير جزر القمر وجماعة الـ «أنتالاوتسيه»

لئن كان يرجّح أن جزر القمر وبخاصة جزيرة أنجوان قد استقبلت نازحين أندونيسيين وبانتو، فان هؤلاء قد اكتسحتهم موجات متعاقبة من النازحين الداخلين في الاسلام، أصلهم من ساحل افريقيا الشرقي. وحسب تدرّج كلاسيكي، كان القادمون الأواخر يفرضون أنفسهم بالقوة، مدّعين المحافظة على الايمان الصحيح في بلد «كان فيه المؤمنون، بحكم بعدهم عن منابع الاسلام، يميلون الى اهمال شعائرهم الدينية»[٣٣]. وكان القادمون الجدد، الى جانب سعيهم الى بسط هيمنتهم السياسية على السكان الأوائل قد أعطوا للحياة عنفوانًا جديدًا[٣٤].

وتؤلّف جاليات المسلمين في شمال غرب مدغشقر جماعة الأنتالاوتسيه، وهي جماعة مسيطرة اقتصاديًا، على هيئة «بورجوازية» تجارية قوية منظمة في شكل دول – مدن يسوسها قادة هم في الآن نفسه رجال سياسة ودين[٣٥].

الحضارة الملغاشية من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر

لنقل بادئ ذي بدء اننا لا نعلم شيئًا كثيرًا عن العهد المسمّى «فازيمبا»، باستثناء ما تذكره عنه روايات أولئك الذين صدّوا السكان الأوائل وأرسوا أسس الممالك.

---

(٣١) أ. فرنييه؛ وج. ميو، ١٩٧١.
(٣٢) ب. فيرين، في اليونسكو، «تاريخ أفريقيا العام»، دراسات ووثائق رقم ٣، ١٩٨٠.
(٣٣) ك. ل. روبينو، ١٩٦٧.
(٣٤) ببناء مساجد مثلاً. مثلما هو شأن «الشيرازي» حسان بن محمد الذي شيّد جامع «سيما» في القرن الخامس عشر.
(٣٥) دول – مدن، مطابقة لتلك القائمة في الساحل الافريقي الشرقي ورموز للثقافة البحرية السوحيلية، راجع م. مولا. في اليونسكو، «تاريخ افريقيا العام»، دراسات ووثائق، رقم ٣، ١٩٨٠.



• طبق معاد تجميعه وجد في ميلانغانا
في ڤاكينيسيسا أوني.
والرسوم على الخزف مطابقة لمنتجات إيمرينا
في القرن ١٥.

ويجب انتظار الكثير من علم الآثار، فالأشغال لا تزال في بدايتها ، وقد أصبحت حملات الحفريات تتواصل بكيفية شاملة تحت اشراف كل من متحف أنتاناناريفو ومركز الفن وعلم الآثار التابع لجامعة هذه المدينة ، وتجري أشغال مهمة في منطقة الأندروي(٣٦) . وبامكان القارئ الرجوع الى المجلّد الثالث الذي تناول بالبحث أول استيطان للجزيرة والثقافة التي ألفاها موجودة فيها النازحون اليها بعد القرن الثاني عشر.

وفيما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، وكلما حلّ بالجزيرة قادمون جدد، اندمجوا في المجموعات الموجودة أو نظّموا أنفسهم على نمط تنظيم الأهالي الأصليين الكلاسيكي ، وقد تمّ الامتزاج بين الأعراق الافريقية والآسيوية بتدرّج لا ندركه بوضوح ، بيد أن الوثائق المكتوبة تظهر لنا المسلمين السواحيليين وقد استقرّوا في جزر القمر وفي الجزيرة (مدغشقر) وحافظوا على اتصالهم بالساحل السواحيلي.

الحضارة المادية

يُستنتج من الأبحاث الميدانية التي قام بها علماء الآثار ، أن الزراعة سابقة للفترة التي نحن بصددها. وبعد القرن الثاني عشر ، انتشرت زراعة الأرز ، والانيام (البطاطا) ، والموز والكاكاو في كامل الجزيرة. وترجع الحيوانات المنزلية كالماشية والطيور الى أصول افريقيا. وقد يكون من باب المجازفة السعي الى الكشف عن تقسيم اجتماعي متطوّر جدًا في ذلك العهد(٣٧) . وكلما ازداد سكان الجزيرة ، تعدّدت القرى وتنظّمت العشائر. وكان صيد السمك مهمًا جدًا ، وكان القارب المركب به لوح توازن يساعد سكان الجزر هؤلاء على التحكّم الى حدّ بعيد في البحر. وكانت زراعة الأرز مهمة وتوفّر أساس التغذية.

ويبدو أن الحضارة المادية التي كانت تتميّز بها مناطق الجنوب والغرب وجزء من الشمال كان يطغي عليها الطابع الافريقي. ويرى ش. رافواجانا هاري أن زراعة الأرز المغمور بالماء تقنية أندونيسية في حين أن تربية الثور ذي السنام وزراعة الأنيام تشكلان اسهامًا افريقيًا بحتًا(٣٨) . ويذهب هذا المؤلّف الى اعتبار أن موجات النزوح الأخيرة في القرن الرابع عشر، هي التي أدخلت أنماطًا سياسية وطقوسية سمحت ، بداية من القرن الخامس عشر ، بتكوين الممالك الملغاشية الأولى ، في الجنوب الشرقي أولاً ، ثم بشكل مواز ، في الجنوب ، والغرب والأراضي العالية.

ويمكن أن نفترض أن التنظيمات الأساسية كانت قائمة في القرن الخامس عشر ، وهي عبارة عن عائلات متجمعة في شكل عشائر ، وهذه العشائر متجمعة في شكل قرى متفاوتة الاستقلال.

ولقد كشفت الحفريات الأثرية عن كثير من الخزفيات ، الاّ انه لا يمكن الآن الخروج باستنتاجات مقبولة ، وغاية ما في الأمر أنه يمكن تحديد طرز خزفية لها صلة بالأسلوب الأندونيسي ، وأخرى لها صلة بالأسلوب الافريقي ، وينبغي انتظار تحديد الكثير من التواريخ بواسطة الكربون ١٤ لسد الفجوات(٣٩) .

---

(٣٦) غ. هيورتبيزيه؛ وب. فيرين ، في *JSA* ، الجزء ٥٤ ، ١٩٧٤؛ راجع ج. ب. دومينيشيني ، في *Ambario* ، رقم ١ - ٢ ، ١٩٧٨؛ وت. رايت ، ١٩٧٧.

(٣٧) ب. بواتو ، ١٩٧٤.

(٣٨) راجع ش. رافوجانا هاري، اليونسكو، «تاريخ أفريقيا العام»، دراسات ووثائق، رقم ٣ ، ١٩٨٠ ، ص ٩١-٩٢.

(٣٩) راجع ب. فيرين ، اليونسكو ، «تاريخ افريقيا العام» ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧.

الملوكية ومؤسساتها

من العشيرة الى المملكة

يبدو أن العشائر ، التي تنظّمت حول شيوخ أو رؤساء عائلات ، قد برزت في زمن باكر جدًا. وتدلّ عبارات «فوكو» ، و«تروكي» ، و«فيرازانا» على العشيرة بخاصياتها الرئيسية : المظهر الجماعي (فوكو = جماعة)؛ وينتسب الأفراد الذين تتكوّن منهم الى نسب واحد (فيرازانا = نسب، تروكي = ثدي (أمومي)). وتشكّل العشيرة الخلية الأساسية للمملكة مثلما أن العشيرة تعتمد على القرى أو على الزمام. وقد شدّدت أغلب الروايات الشفوية على الصراعات التي نشبت بين العشائر في مرحلة انشاء الممالك. وكان الأمر والنهي داخل العشيرة لكبار السن الذين كان الناطق باسمهم رئيس القوم وأكبرهم سنًا.
وتمثّل الثقافة ، والطقوس الدينية ، رباط اضافي زيادة عن الوحدة اللغوية.

الممالك الأولى وتطوّرها

لئن كان يبدو أن الأصل العربي للأمراء الذين حلّوا في جزر القمر محل «الفاني» (القادة المسلمين الأولين الذين خلّفوا «البيجا» المنتمين الى زمن ما قبل الاسلام) لا يثير مشكلة ، فان أصل السلالات الغازية الملغاشية يطرح بعض المشاكل. وتذكر روايات عدة أواصر القرابة التي كانت تجمع بين السلالات الحاكمة في الغرب والجنوب (ماروزيرانا ، وساكالافا ، وماهافالي ، وزافيمانارا الأندروي...) والسلالات الحاكمة في الجنوب الشرقي (شأن الزافيرامينيا بمنطقة الأنوزي). وتظهر هذه المنطقة التي استوطنتها جماعات مستعربة ، بمظهر المهد لعدد كبير من السلالات الحاكمة الملغاشية. وتحتفظ الروايات الشفوية بذكرى هجرات من الشرق نحو الغرب ، انطلاقًا من بلاد الأنتيمورو من ناحية (هجرة الزافيرامباتانالا) ومن الأنوزي من ناحية أخرى (هجرة الماروزيرانانا)، ويحاذي الطريق الذي سيسلكه ملوك المينابية مستقبلاً نهر ايتومامبي ، ويمرّ بشمال الأونيلاهي ، ويعبر الفيهيرينانا والمانغوكي ، لينتهي عند بانجي[٤٠].
وبالتالي فان محاولة التعرّف على ما قد يكون ، في اطار المؤسسات الملوكية. ارثًا افريقيا أو اندونيسيا صرفًا – بقدر ما قد تكون هذه المؤسسات الملوكية متولّدة جزئيًا عن قوى الدفع الخاصة بالمجتمعات الأولى – قد يساعد على تحديد أدق للدور الذي لعبه المستعربون أو المسلمون في تأسيس الممالك الملغاشية. وهكذا فان دراسة المظاهر الافريقية للثقافة الملغاشية تقود بعض المؤرخين الى العثور في القارة على أصول بعض الأنظمة الأساسية ، مثل تقديس رفات الملوك المتوفين (عبادة الدادي في بلاد الساكالافا)[٤١].
وقد قارن ر. كنت بين امبراطورية مونوموتابا الشهيرة ومملكة الماروزيرانانا ، دون أن يجزم مع ذلك بانتساب هؤلاء الآخرين الى أصل افريقي. وبعد نقد صارم «لأسطورة الملوك البيض» الآسيويي الأصل ، التي يدافع عنها أ. غرانديديه ، يقدّم كنت نظرية انتساب الأندريانا ميرينا الى أصل مهجن جدًا. وهو يرى أن هؤلاء ربما ينحدرون من «التامبون تاني» ، ومن مهاجرين من أصل مجهول وربما من زافيرامينيا مستعربين. وتمثل المؤسسات السياسية تكافلاً بين المساهمة الزنجية ، والمساهمة الآسيوية والمساهمة الاسلامية المتأتية من نازحين جدد مجهولين لعلّهم زافيرامينيا مستعربون. وتعكس المؤسسات السياسية تأثيرات عدة؛

(٤٠) ج. لومبارد ، ١٩٧٣.
(٤١) ر. كنت ، ١٩٧٠.

ويتّفق المؤلّفون اليوم على ضرورة ابراز دور العرب المهمّ في تاريخ الجزيرة السياسي والاجتماعي ، ابرازًا جليًا . وتثبت النصوص بوضوح أن تصورات جديدة أدخلت ، في القرن الرابع عشر ، على مجال السلطة السياسية ، وخاصة على تقسيم المملكة الى «وحدات اقليمية متجانسة». وقد رأينا بأنفسنا الأهمية التي توليها الروايات لسلالات زافيرامينيا الحاكمة ذات الأصل العربي الهندي ، وكذلك أهمية جماعات أخرى من قوم تيمورو ، كان بعض عناصرها قد قدموا مباشرة من مكة – وهم الانتانبانسياك (أهل رمال مكة)[٤٢] .

وفيما يخص هذه المسألة ، ما زال عمل كبير ينتظر الانجاز لمعرفة أساس الحكم في مدغشقر معرفة احسن ، والمؤكّد أن هذه الملوكية قويت ، في القرن الخامس عشر ، متميزة بتأثير اسلامي بارز جدًا .

الدين

هو تكافل بين العناصر الافريقية والعناصر الأندونيسية دون استبعاد تأثير الاسلام الذي بقي سائدًا خاصة في جزر القمر . ويصعب غالبًا تحديد نصيب مختلف الجماعات النازحة ، والمهم هو اندماج كل هذه التأثيرات الأمر الذي يضفي طابعًا فريدًا على مدغشقر .

البانتيون

يعود المكان الأول ، في البانتيون (مجمع الآلهة) الملغاشي ، الى الآلهة الرئيسية وأصلها من اندونيسيا : «زاناهاري» أو اندريانا ناهاري ، في المناطق الساحلية ، واندريانا نيترا (الرب المعطر) في الداخل . وهي أقوى آلهة ينسب اليها خلق الكون ، وانشاء المجتمع ، والعادات . وهي أول آلهة كان يتوسّل اليها بالدعاء في الصلوات ، الاّ أن هذه الآلهة كانت تعد بعيدة بعدًا متناهيًا ، لذا كان البشر يستعينون ، لادراكها ، بتوسيط معبودات ثانوية أو جن : كجن المياه ، وجن الغابة . كما كانوا يتوسّلون الى أرواح الأجداد ، ويذكرون في صلواتهم «الفازيمبا» ، أسياد الأرض . وكانت الغابات والصخور والأشجار الكبيرة من الأمكنة التي يباح فيها التعبّد .

القرابين

كانت تقدّم الذبائح للآلهة ، وكثيرًا ما كان يقدّم الجاموس أضحية ، لكن التضحية بالبقر كانت أكثر انتشارًا ، اذ كانت تمارس في كل مكان وبمناسبة مختلف أحداث الحياة[٤٣] .

---

(٤٢) أ. دوفلاكور ، ١٦٦١ .

(٤٣) من أين جاءت التضحية بالبقر ؟ يعتقد أن البقر أدخلها الزنوج الى الجزيرة وهي ممارسة قد يعود عهدها الى ماضٍ سحيق .

السحر

ينبغي الاشارة الى مكانة الساحر في المعتقدات ، فقد كان مهابًا في المجتمع . ويتعذّر التقرير بأن الساحر آسيوي الأصل أو افريقي ، فالاسم الذي يُطلق عليه ، وهو اينباموزاري ، اسيوي ، غير أن الساحر موجود في افريقيا بنفس الخاصيات المميّزة للساحر في مدغشقر .

الجنائز

تمارس في مدغشقر الجنائز المزدوجة على غرار ما هو في أندونيسيا ، والذين يحملون الميت عند البتسيليو يرقصون كمن بهم مس ، ويتقدّمون نحو القبر بخطوات متعرّجة.
كل هذه العناصر التي يمكن تحليلها اليوم يرجع عهدها احتمالاً الى تلك الحقبة التكوينية المتراوحة بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر .

الخاتمة

ما زال ثمّة عمل كثير ينبغي انجازه لفهم هذه الحقبة من تاريخ الجزيرة الكبيرة فهما أفضل ، وهي حقبة أساسية بالنسبة لتكوّن الشعب الملغاشي الذي يحظى بوحدة لغوية لا جدال فيها ومع ذلك فما زالت هناك بعض المشاكل .
ونحن في غاية الامتنان لمنظمة اليونسكو التي كان لها الفضل ، بتنظيمها اجتماع الخبراء في جزر موريشيوس ، في تجديد الاهتمام بالمشكل العام «للعلاقات التاريخية عبر المحيط الهندي» . ومدغشقر معنية بهذه العلاقات الى درجة أن ثقافتها وتاريخها لن يتوضّحا الاّ اذا أصبحت معارفنا بهذه العلاقات دقيقة . وستساعد الحفريات الأثرية واستقراء الروايات الشفوية بمزيد من التنوّع والشمولية على الصعيد الاقليمي ، على فهم تنوّع العناصر المكوّنة للثقافة الملغاشية .
والدراسة الحالية تشوبها حتمًا نقائص عديدة . وما تزال هنالك جوانب مبهمة . وهذا يفرض بالتأكيد نزع بعض «الفادي» (المحرمات) المتعلّقة خاصة بقبور «الفازيمبا» الشهيرة .
ان مدغشقر تقدّم حالة من الترابط والتكامل تتعدّى دراستها الاهتمام الذي يمكن أن يثيره تاريخ افريقيا ، فقد كانت الجزيرة العربية ، والهند وافريقيا ، واندونيسيا ، على موعد في هذه الجزيرة التي تقدّم للعالم مثالاً واضحًا من الامتزاج البيولوجي والثقافي ذي الثمار الرائعة الجمال .

الفصل الخامس والعشرون

العلاقات بين مختلف المناطق : المبادلات بين المناطق

بقلم ج . ت . نياني

مقدّمة

كانت افريقيا بين ١١٠٠ و ١٥٠٠ طرفًا متميّزًا في العلاقات ما بين قارات العالم القديم . فقد كانت تربط بين القارة الافريقية وأوروبا وآسيا ، عبر البحر المتوسط وعبر المحيط الهندي ، حركة تجارية كثيفة تتم في أغلب الأحيان بواسطة المسلمين. ولما كان الأمر متصلاً بالعلاقات الداخلية ، ينبغي أن نؤكّد على أن أنماطًا مختلفة من الحركات التجارية المنظّمة معروفة لدينا منذ عهود ما قبل التاريخ . وكما سنرى في هذا الفصل ، فإن البحث يمدّنا شيئًا فشيئًا ، بمعلومات تزداد دقة يومًا بعد يوم عن مدى عمليات التبادل بين الجهات في صلب القارة بصورة خاصة . ولا يمكننا في الحالة التي عليها معارفنا اليوم ، أن نعالج تاريخ العلاقات بين مختلف مناطق افريقيا ، بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر ، معالجة عميقة شاملة .

ويبدو أن افريقيا ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت في أوج ازدهارها على الصعيدين الاقتصادي والتجاري ، إلاّ أن صلتها مع الغرب ، وقد تجسّدت في تجارة العبيد ، قد عاقت انطلاقة كان يمكنها – لو تعلّقت التجارة بسلع حقيقية – أن تعطي لتاريخ القارة مسارًا آخر مختلفًا تمام الاختلاف .

فقد عبرت القارة في جميع الاتجاهات تيارات تبادل ثقافية بعيدة المدى ، اختلطت أحيانًا بالتيارات التجارية ، فلم تكن توجد مناطق منعزلة ، لأن الغابات والصحارى ، على حد سواء ، لم تكن حاجزًا يستحيل اختراقه . وفي أيامنا هذه ، تفتح الحفريات الأثرية ، والدراسات اللغوية ، والروايات الشفوية ، آفاقًا واسعة للبحث التاريخي . فهي قد أضاءت لنا ، مسألة الهجرات وانتقال التقنية والعلاقات بين جهات متباعدة جدًا الواحدة عن الأخرى .

وكان دور المسلمين في تلك الحقبة ، سواء فيما تعلّق بنشر الأفكار أو بالتجارة ، دورًا ذا أهمية خاصة . وحسبنا أن نفكّر في رحلات ابن بطوطة إلى الصين ، وافريقيا الشرقية ، وافريقيا الغربية . وإن

المؤلّفات الجغرافية ، وكتب الرحّالة ، والمؤرّخين المسلمين ، تمثّل إسهامًا قيّمًا في معرفة البلدان والشعوب في تلك الحقبة التي تهمنا.

الصحراء والساحل : مجال حظي بالبحث أكثر من غيره في دراسة العلاقات الخارجية

حتى منتصف القرن العشرين ، حاول بعض المؤرّخين الأوروبيين تفسير تأخّر افريقيا حاليًا في ميدان التكنولوجيا ، بوجود الصحراء ، وبأنها قد تكون عزلت افريقيا السوداء عن عالم البحر المتوسط . والحقيقة أن الصحراء حتى وإن أصبحت قاحلة ، لم تمثّل البتة حاجزًا. وفضلاً عن ذلك ، فلم تكن الصحراء خالية من السكان ، إذ كان كثير من الشعوب يعيشون فيها حياة البداوة والترحال ، ويقيمون علاقات وثيقة جدًا مع سكان حواضر الشمال والجنوب. ولقد ظلّت الصحراء بين ١١٠٠ و ١٥٠٠ ، منطقة عبور ممتازة. ولا شكّ أنه ينبغي أن نعتبر أن العصر الذهبي للحركة التجارية عبر الصحراء ، كان في تلك الحقبة بالذات. فمنذ القرن العاشر من العصر الحالي ، تطوّرت تجارة ذهب غرب افريقيا ، مع شمال افريقيا ، تطوّرًا منتظمًا. وقد كان بعضهم محقًا عندما شبّه الصحراء ببحر ، ضفافه السهل السوداني والأطراف الجنوبية من افريقيا الشمالية . أما في السودان فإن عددًا من المدن الواقعة في منطقة السهل مثل تيتشيت ، وولاته ، وتومبكتو ، وتيريكّا ، وغاو ، كانت محط رحال القوافل القادمة من تامدلت وسجلماسة ، وتلمسان ، وورقلة ، وغدامس. وكان الجمل هو الوحيد الذي يستطيع عبور الصحراء ، يقطعها في شهرين ، إن لم نقل ثلاثة. ومن هنا كانت أهمية المراعي الكبرى المخصّصة لعلف الجمال وتربيتها ، شمال الصحراء وجنوبها ، كذلك أيضًا النزاعات الحادة التي كانت تنشب أحيانًا بين البدو للسيطرة على تلك المراعي.

لم تكن المنطقة المعنية بالحركة التجارية عبر الصحراء ، شمالها وجنوبها ، تقتصر على «الموانى» التي سبق الحديث عنها ، ولكنها كانت تتعلّق بمناطق أوسع كثيرًا في افريقيا الشمالية والسهل : فليست أهمية توات وغراره والجريد التونسي ، وواحات ليبيا أقل شأنًا ، في الحركة التجارية عبر الصحراء ، من «الموانى» نفسها. فمن السهل إلى السفانا المشجّرة ، كانت بعض الدروب والمسالك النهرية تكمل شبكة الطرقات العابرة للصحراء. كان ذلك ، بالتأكيد ، حال جمهورية السنغال الحالية ، فنحن نعرف جيدًا النظام الذي يكوّنه حوض نهر النيجر الأعلى[1] . وتجعلنا آخر الأبحاث في فولتا العليا ، وغانا ، ونيجيريا ، نعتقد أن العلاقات التجارية كانت قد تطوّرت بين افريقيا الواقعة جنوب الصحراء والمغرب . ويقع مجال تلك الحركة المعنية في منطقة السفانا ، وكثير من المعطيات الأثرية تسمح لنا اليوم أن نفكّر بأنه كان مجالاً

(١) يعتقد علماء الآثار البولونيون والهولنديون أنهم توصلوا الى دليل مهم يدل على تحرك الأشخاص والممتلكات من وادي النيجر الأعلى ، حيث شيدت نياني ، الى بلاد دوغون. إن الأمر يتعلق ، والحالة هذه ، ببعض الخزفيات ذات طابع ، هو من الخصوصية ، بحيث لا يشك في انتقاله من أحد الموقعين الى الآخر ؛ بقي أن نعرف في أي اتجاه تم ذلك : أمن الجنوب الى الشمال أو من الشمال الى الجنوب.

يكثر التردّد عليه[٢] . أما في شمال نيجيريا الحالية ، فإن تيار الحركة التجارية كان يلتقي ، دون شك ، بذلك التيار الآخر الآتي من التشاد ، والذي سنتحدّث عنه فيما بعد.

كان الرحّل ، سادة الصحراء ، يحقّقون أرباحًا طائلة من الحركة التجارية عبر الصحراء ، لأن أصحاب القوافل كانوا يجلبون لهم الحبوب والأقمشة مقابل اللحم والملح والماء ، فعلى هذا الأساس كان هناك ضرب من التكامل بين البدوي والحضري. ففي الصحراء الشاسعة ، تحتاج القافلة إلى أدلاّء ، وكانوا يتوفّرون من بين الرحّل الذين يعرفون المسالك النافذة ، ويأخذون على ذلك المبالغ الطائلة. وكان عبور الصحراء يتطلّب إعدادًا دقيقًا. فقد كانت الجمال تعلف طوال أسابيع عديدة. فابن بطوطة ، وهو في طريقه إلى السودان ، يقول عندما وصل إلى سجلماسة ، ملتقى جميع من ينطلقون من المغرب الأقصى نحو الجنوب : « اشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر »[٣] . وكانت القافلة توضع تحت إمرة قائد يحكم في الجميع كما لو كان ربّان سفينة ، وعندما تنطلق القافلة ، لم يكن لأحد أن يتخلّف أو يتقدّم على الآخرين ، فضلاً عن أن يحيد عن المجموعة ، وذلك خشية أن يضلّ في الصحراء الشاسعة.

وكان بعض البدو مثل مسوفة قد تخصّصوا في معرفة المسالك الصحراوية ، فكانوا يوفّرون للقوافل الأدلاّء والرسل. ولنتتبع القافلة التي أوصلت ابن بطوطة إلى نياني (مالي) ، عاصمة امبراطورية المانسا : فبعد ٢٥ يومًا من السير ، وصلت القافلة إلى تغازة ، وهي ملاّحة صحراوية عظيمة ، فاستراح الرجال والدواب واسترجعوا قواهم. ثم استأنفت القافلة سيرها نحو ولاتة بعد عشرة أيام. وقبل أن تصل اليها بعشرة أيام ، ترسل القافلة بمبعوث إلى تلك المدينة فيحمل الرسائل إلى أصحابها « لِيَكتروا لهم الدّور ويخرجوا للقائهم بالماء على مسيرة أربع »[٤] . وكان المبعوث – حسب ابن بطوطة – ينقد مبلغًا عظيمًا هو ١٠٠ مثقال. وكانت القافلة تهلك عندما لا يصل المبعوث إلى ولاته ؛ إلاّ أن ذلك كان نادرًا لأن أهل مسوفة كانوا يعرفون الصحراء معرفة جيدة. وقد اكتشف تيودور مونود في موريتانيا سنة ١٩٦٤ ، كمية عظيمة من الودع ، ومن قضبان النحاس ، وبقايا من الأقمشة ، ويبدو أن الأمر يتعلّق ببضائع قافلة هلكت في الصحراء[٥] .

وبلغ ابن بطوطة مدينة ولاته بعد شهرين من السفر ، وهي أول مدينة من امبراطورية مالي ، وكان فيها رجل ينوب عن السلطان ، وأجريت على القافلة ، في تلك المرحلة ، الإجراءات الجمركية. وكانت ولاته أيضًا مدينة تجارية يلتقي فيها تجار من الأفارقة الزنوج ومن البربر المستعربين. وذلك ما يفسّر طول إقامة ابن بطوطة بتلك المدينة أي ٥١ يومًا. ثم انه انطلق من ولاته إلى مالي ، (نياني) ، عاصمة المانسا ، فبلغها بعد ٢٤ يومًا. وكانت السبل آمنة ، فقد كان الرجل يسافر بمفرده داخل الأمبراطورية دون أن يخشى اللصوص أو قطّاع الطرق.

وقد قدّر رحالة مسالك العالم القديم ذلك الأمن أيما تقدير. فما دام يحكم السودان سلطة قوية ،

(٢) أنظر م. بوسنانسكي ، ١٩٧٤ ، وأ. أ. بواهان ، ١٩٧٤ . فالأكان قد جاءوا من تلك المنطقة الواقعة بين البنوى ، وبحيرة التشاد ، بما يثبت بكل وضوح أن حركة المد والجزر بين الشمال والجنوب بغاباته ليست أسطورة من الأساطير ، واذا ساءلنا علم اللغويات وأصل أسماء المواقع الجغرافية ، توصلنا الى اعادة بناء مسالك الهجرات والمحاور التجارية. أنظر بشأن هذه المسألة ، ت. شاو ، ١٩٧٠ ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٠ – ٢٨٧ .

(٣) ابن بطولة ، ترجمة فرنسية ، ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٥) حدد التأريخ بالكربون ١٤ ذلك بسنة ١١٦٥ ± ١١٠ .

فإن البدو كانوا يكتفون بالإفادة مما يقدّمونه من خدمة إلى مجهّزي القوافل ؛ ولكن ، عندما كانت السلطة تضعف وتجر إلى خراب العمران ، آنذاك فقط كان البدوي يترك صحراءه ، ويحوم حول المدن.

تجارة الذهب

في القرن العاشر ، كان ملك غانا ، في نظر ابن حوقل ، «أغنى ملوك الأرض قاطبة ، فقد كان يملك أموالاً طائلة ، وخزائن من ذهب مما أمكن استخراجه منذ أقدم العصور لأسلافه ولنفسه». فمن التقاليد القديمة في بلاد السودان كَنْز الذهب. وفضلاً عن ذلك كان لملك غانا احتكار قطع الذهب المكتشف في المناجم : «وان عثروا في مناجم البلاد على قطع الذهب ، اختصّ به الملك ، وترك لأتباعه التبر. ولولا هذا الإجراء لتوفّر الذهب توفّرًا عظيمًا ولانتقصت قيمته... ويروي بعضهم أن للملك قطعة من الذهب في مثل الحجارة العظيمة»[٦].

على أن السود لم يكشفوا للتجار المسلمين عن مواقع المناجم وكيفية استخراج الذهب منها. ولئن لم يكذب مانسا موسى الأول أهل القاهرة عندما أجابهم عما طرحوه عليه من أسئلة بخصوص مملكته العجيبة ، وقدّم لهم التفسير الصحيح لكيفية استغلال مناجم الذهب في وسط العديد من الروايات الأخرى وبذلك ، فإنه لم يفدهم بشيء يُذكر. ولعلّ هذا ما يفسّر لنا دوام اشتهار ملك مالي بالثراء العجيب.

وبعد مرور أكثر من جيل بقليل على تلك الحجّة ، ظهر المانسا في ذلك الأطلس الشهير الذي صُنع في ميورقة لملك فرنسا شارل الخامس ، حاملاً في يده قطعة الذهب الكبيرة. ولم يكن الميورقيون ليحصلوا على تلك المعلومات إلاّ من المسلمين. ومن الثابت اليوم أنه ، بالإضافة إلى مناجم الذهب المعروفة مثل غلام وبوري وبمبوك ، كان ذهب المناطق المتاخمة للغابة ومناطق الغابات (ساحل العاج الحالية ، وغانا ونيجيريا) يغذّي تجارة الشمال في ذلك العهد. ونعلم أيضًا أن حركة المتاجرة بذهب مالي كانت ذات حجم كبير في القرون الوسطى ، ولكنه من باب المجازفة أن نقدّم تقديرات عن كميات الذهب المصدّرة. إلاّ أن الذي ينظر في كرم سلاطين مالي ، يحق له أن يذهب إلى ان كمية الذهب المكدّسة كانت عظيمة. أما في السودان فإن الذهب كان يُعدّ بمثابة المعدن «المقدّس» إن لم يكن ذا قوة سحرية عجيبة ، فقد كان الملك في الفكر التقليدي هو الوحيد القادر على إخضاع «جني» الذهب. وكان نفس هذا التصوّر سائدًا في مناطق الغابات جنوبًا ، حيث كانت للمشيخات ثروات طائلة من الذهب.

الملح وسائر البضائع

يحتلّ الملح ضمن التجارة عبر الصحراء ، وكذلك في التجارة بين مناطق افريقية أخرى سنتحدّث عنها فيما بعد ، مكانة مرموقة ، وكان هم مختلف الحكام الذين تعاقبوا على افريقيا الغربية تخفيض سعر

(٦) ابن حوقل ، باريس ١٩٧٥ ، في ج. كوك ، ص ٧٤ ، يقول ابن خلدون بشأن هذه القطعة الذهبية التي توارثها المانسا ، إن أحد سلاطين نياني باعها الى تجار مصريين بثمن بخس. ابن خلدون ، ١٩٧٥ ، في ج. كوك ، ص ٣٤٠ - ٣٤٧.

الملح دائماً[٧] . وكان رجال الجمارك يراقبون دخول حمولات الملح إلى الامبراطورية أو خروجها منها مراقبة صارمة. وكانت مناجم تغازة تزوّد أسواق السودان الغربي بالملح ، وكانت مناطق نهر السنغال تحصل على ملح المنجم من « أولي » ، إلاّ أن انتشار توزيع ذلك الملح قلّما كان يتجاوز داخل منعطف نهر النيجر.

وكانت الرسوم المفروضة على الملح تمثّل نصيبًا لا بأس به من مداخيل المملكة، ولم يتغيّر الوضع في القرن الرابع عشر إلاّ قليلاً. فهذا ابن بطوطة، وقد زار تغازة يخبرنا عن الحال بكثير من الدقة فيقول : « يطل السودان من بلادهم (إلى تغازة) فيحملون منها الملح، ويُباع الحمل منه بايوالاتن (ولاته)، بثمانية مثاقيل إلى عشرة، وبمدينة مالي بعشرين مثقالاً إلى ثلاثين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً».

« وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ، ويتعاملون به » ، « وقرية تغازة على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر»[٨] .

وكان ثمن الملح باهظًا في السودان ، وكان يضاعف أربع مرات في ولاته ونياني . ولعلّ ساكني الغابات كانوا يشترونه بثمن أغلى. وكان الملح الصخري ، الذي يُقطع قطعًا صغيرة بمثابة « الأقراص » ، يُستعمل كعملة في الأسواق الموسمية ومع صغار التجار. وكذلك جوز الكولا الآتية من الغابة ، فقد كان يُستعمل بمثابة « العملة » في الأسواق القروية.

وقد بدأ بعضهم يفكّر في أن شعوب منطقة الغابات ، كانوا يحصلون على الملح بطرق أخرى ، مثلاً بحرق نباتات نسبة الملح بها مرتفعة. وكان الملح يرد من الساحل ، إلاّ أن الكميات كانت ضئيلة[٩] .

« كان الملح مفقودًا داخل بلاد السودان ، وكان بعضهم يحتال الحيل ويوصله إلى أناس يبادلونه كومة من الملح بكومة مماثلة من الذهب »[١٠] . وهذا الخبر الذي أورده ذلك المؤلّف العربي لا يخلو من أساس صحيح وإن كان فيه جانب من المبالغة ؛ فإنه يمكننا تمامًا أن نتصوّر الونغارا أو الهوسا يساومون زبائنهم في بلاد الغابات حيث كانوا يذهبون لشراء الكولا والذهب والعبيد.

وكان النحاس هو الآخر مادة تجارة كبرى في غرب افريقيا وفي مناطق أخرى من القارة. والأبحاث الجارية في هذه السنوات الأخيرة بصدد التعريف بمسارات تجارة النحاس القديمة في غربي افريقيا[١١] .

وكان امتلاك منجم من مناجم النحاس في القرن الرابع عشر ، يكتسي قيمة اقتصادية بالغة. وقد بيّن مانسا مالي ذلك في وضوح ، في تلك « المقابلة » التي تفضل بها على أهل بلاط القاهرة. فقد صرّح : « إن لنا في مدينة اسمها تجدا (تاكيدة) ، منجمًا من النحاس الأحمر ، يصدّر إلى مدينة نياني في صورة قضبان ، ونكسب منه دخلاً ممتازًا ، لا مثيل له. إذ أننا نرسل بذلك النحاس إلى بلاد السودان الوثني ، فنبيعه فيها بزنة المثقال ذهبًا ، أي مائة مثقال بثلثيها ذهبًا »[١٢] .

وهذا العمري تدقيق كبير ، فالمثقال السوداني يزن حوالي ٤,٢٥ غرام. وإذا صح أن النحاس كان

---

(٧) راجع ، ج. ديفيس ، ١٩٧٢ ، في *RHES* ، عدد ١ – ٣ ، ص ٥٠ وما بعدها ، وص ٦١ وما بعدها.
(٨) ابن بطوطة ، ١٩٧٥ ، من ج. كوك ، ص ٢٨٨ – ٢٩٠.
(٩) راجع ، أو. دابر ، ١٦٨٦ ، ص. ٢٨٠.
(١٠) العمري ، في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢٨٢.
(١١) راجع « تاريخ افريقيا العام » ، المجلد الثالث ، الفصل ١٤ (في طريقه الى النشر) يقول الباحثون اليوم بقدم انتاج النحاس والمبادلة به ، خاصة في المنطقة الساحلية. ولنذكر بقيمة المكتشفات التي تمت هذه المدة الأخيرة في منطقة العير والمتعلقة بقدم انتاج النحاس وربما المتاجرة به. أنظر كذلك ، ب. غولتكر وس. برنوس ، و د. كلاينمان ، ١٩٧٦.
(١٢) العمري ، ورد ذكره سابقًا.

يُباع هكذا بزنة ثلثيه ذهبًا تقريبًا ، فلا شكّ أن مالي كانت تتعاطى تجارة مربحة جدًا مع «شعوب الغابات» ، لأن المانسا عندما كان يتحدّث عن «السودان الوثني» ، فإنما يعنيها بالذات.

ويشعر المطالع لرحلة ابن بطوطة ،الذي أقام بنياني أشهرًا طويلة ، أن مدن السهل ومدن الصحراء كانت منظّمة على نحو يجعلها تصلح محطات تلجأ إليها القوافل في مراحلها ومراكز تجارية. وكان ذلك بالذات شأن مدن من قبيل تغازة تاكيدة(١٣).

كانت تلك المدينة مركزًا تجاريًا للنحاس. ويخبرنا الرحّالة أن النحاس كان يُصاغ في شكل قضبان غليظة وأخرى رقيقة ؛ وأن الأولى كانت تُباع بمثقال واحد ذهبًا لكل ٤٠٠ قضيب ، وأن الثانية كانت تُباع بمثقال لكل ٦٠٠ أو ٧٠٠ قضيب. وكانت قضبان النحاس في تلك المنطقة ، تُستخدم بمثابة العملة لشراء الخشب ، واللحم ، والذرة البيضاء ، والزبدة ، والقمح. ويخبرنا الرحّالة عن أهل تاكيدة قائلاً «لا شغل لأهل تاكيدة سوى التجارة. يسافرون كل عام إلى مصر ، ويجلبون من كل ما فيها من فاخر الثياب وسواها. ولأهلها رفاهية وسعة حال (فلهم عدد كبير من العبيد من الجنسين) ، ولا يبيعون الإماء المتعلّمات إلاّ نادرًا وبالثمن الكثير.

ولم يحصل ابن بطوطة على أمة متعلّمة إلاّ بعد جهد جهيد ؛ فالذين كانوا يملكون إماء متعلّمات ، رفضوا بيعهن(١٤) . «ثم إن صاحبها الذي ارتضى بيعها ، ندم عقب ذلك ورغب في الإقالة... فكاد أن يجن أو يهلك أسفًا» حسب ابن بطوطة. لكنه ، لسوء الحظ ، لا يخبرنا البتة فيما كان يتمثّل تعليم أولئك الإماء اللائي كان الإقبال عليهن إلى ذلك الحد. فلعلهن كن مطلوبات لحذقهن صنع الأطعمة أو لجمالهن الباهر. وانطلق ابن بطوطة من تاكيدة ، قاصدًا توات ، في قافلة عظيمة فيها حوالى ٦٠٠ أمة. وهذه الجزئية على جانب كبير من الأهمية ، لأنها تبيّن لنا كم كان يمكن للقافلة نقله من العبيد ، من بلاد السودان إلى بلاد المغرب ، كما تبيّن لنا أن الغرض من تجارة العبيد كان توفير الخدم ، وأحيانًا من المتخصّصين في بعض الأنشطة ، للأرستقراطية العربية – البربرية. كما أن الملوك السودانيين كانوا يستوردون العبيد خاصة من القاهرة ، ليجعلوا منهم حرسًا خاصًا لهم. فعندما كان المانسا يجلس على عرشه في الساحة العامة ، «كان يقف من ورائه حوالى ثلاثين «مملوكًا» تركيًا ، (أو من أجناس أخرى) ممن اشترى له من القاهرة. وكان أحدهم يحمل في يده مخفة من حرير تعلوها قبة وطائر من الذهب يمثّل صقرًا»(١٥). وكان الأمر يتعلّق بالنسبة إلى الجانبين ، الملوك من جهة ، والأرستقراطية من جهة أخرى ، بأن يكون لهم أعوان موهوبون مخلصون.

ولعلّ بعض المؤلّفين أرادوا أن يجعلوا لحركة «المتاجرة بالعبيد في اتجاه البلدان العربية قيمًا مبالغًا فيها. لكن تلك الحركة ، بالنسبة إلى الحقبة التي تهمنا ، لم تكن تمثّل نزيفًا بشريًا ، لأن الذي كان يهم العرب خاصة في السودان ، هو الذهب ، وكانت الحاجة إليه لصك النقود قد أصبحت ماسة جدًا في حوض البحر المتوسط. وقد حاول ريمون موني أن يقدّر عدد العبيد السود الذين يصدَّرون نحو الشمال(١٦) ، فقدّرهم بحوالى ٢٠٠٠٠ سنويًا أي ٢٠٠٠٠٠٠ كل قرن. إلاّ أن حاجة العرب – البرابرة إلى اليد

(١٣) ابن بطوطة ، في ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩٥.

(١٤) ابن بطوطة ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ ، أنظر بشأن النحاس في تاكيدّة ، س. برنوس ، و ب. غولتكر ، ١٩٧٦ ، ص ٧ – ٦٨.

(١٥) العمري ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩.

(١٦) ر. موني ، ١٩٦١.

العاملة ، لم تكن أبدًا ماسة حتى يكون الطلب بمثل تلك الضخامة . وينبغي ههنا أن نذكر بتلك المعاهدة الشهيرة التي وقعت بين الملوك المصريين وملوك بلاد النوبة المسماة بمعاهدة البقط : وكانت تنص على أن يقدّم ملك النوبة لملك القاهرة سنويًا ، ٤٤٢ عبدًا يتوزّعون كما يلي : ٣٦٥ عبدًا للخزينة العامة ، و ٤٠ لمحافظ القاهرة ، و ٢٠ لنائبه في أسوان ، و ٥ لقاضي أسوان ، و ١٢ لأعيان المدينة الاثني عشر . وهذه الأتاوة التي كان يطلبها سلطان القاهرة ، تدل بما فيه الكفاية على أن احتياجات البلاط لم تكن ضخمة .

ولئن كانت حركة المتاجرة بالعبيد عبر الصحراء مستمرّة من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر ، فإنها لم تتجاوز البتة حدًا معينًا ؛ على أن الملوك كانوا يشنون الحروب في الجنوب ، لتزويد تلك السوق بالعبيد ، مفضّلين ذلك على استخلاصهم من بين ما هو موجود في ممالكهم .

وكان البربر – العرب يبحثون عن العاج ، فضلاً عن الذهب ، ذلك أن ناب الفيل الافريقي كان الطلب عليه شديدًا ، في شبه الجزيرة العربية وفي بلاد الهند ، لأنه كان أقل صلابة من سواه ، وأكثر طواعية في النقش من أنياب أفيال آسيا التي كانت صلبة للغاية[١٧] . كما كان السودان يبيع جلود الحيوانات ، وجلد بقر الوحش ، والحبوب ، للواحات الصحراوية .

وفي القرن الرابع عشر ، عندما كانت مملكة مالي في أوجها ، كان المسار الذي يَتردّد عليه أكبر عدد من الناس ، أكثر من سواه ، هو ذلك الذي سلكه ابن بطوطة ، إلاّ أنه كان ثمّة مسار آخر ينطلق من تومبكتو ويفضي إلى القيروان عبر ورقلة ، وهو الذي غالبًا ما كان يسلكه حجيج مالي .

أما المدن المغربية ، شأنها في ذلك شأن غدامس ومصر ، فقد كانت تحكمها سلالات من التجار الأثرياء و « مُجهِّزون » بأتم معنى الكلمة ، « يَكْتَرون » القوافل . نذكر منهم على سبيل المثال الأخوة المقري بتلمسان ، وكانوا قد تقاسموا العمل تقاسمًا محكمًا . فوضعوا أنفسهم تحت حماية ملوك مالي ، ونجحوا في إنشاء شبكة تجارية ممتدّة الأطراف . فكان اثنان منهم مستقرّين في تلمسان ، وواحد في سجلماسة ، واثنان آخران في بلاد السودان[١٨] . « فكان الذي في تلمسان يرسل للذي في الصحراء بما يشير عليه من البضائع ، وكان الذي في الصحراء يرسل إليه بالجلود ، والعاج وجوز الكولا ، والتبر . أما الذي في سجلماسة ، فكان يخبرهم وكأنه مؤشر الميزان ، بهبوط الأسعار أو ارتفاعها ، ويكتب لهم عن وضع التجار وأحداث البلاد . وهكذا تضاعفت أموالهم وعظم شأنهم » . وكان الأخوة المقري يشكّلون شركة حقيقية في تلمسان ، تملك فرعًا لها في سجلماسة وآخر بولاته . وكانت للشركة شبكة تمدّها بالمعلومات وأعوان يقومون بالاتصالات . ولعلّ التجار من الماندانغ ، والهوسا نظّموا شركاتهم على نفس المنوال ، في علاقاتهم مع المراكز التجارية الواقعة في منطقة السفانا والغابات[١٩] .

ولعلّ بعض الجماعات اليهودية قد لعبت دورًا كبيرًا في هذه الحركة التجارية . فقد بيّنت أبحاث ت . ليفيكي ، ذلك الدور المبكر الذي لعبه اليهود في توات منذ القرنين الثامن والتاسع[٢٠] . فهل ينبغي أن نصدّق « تاريخ الفتاش » الذي يشير إلى وجود مزارعين يهود في منطقة تندرمه على ضفاف النيجر ؟ إن

(١٧) ث . شو ، ١٩٧٠ ، المجلد الثاني ، ص ٢٧٢ – ٢٨٥ .

(١٨) ابن الخطيب ، في ج . كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٣٢٤ – ٣٢٦ .

(١٩) يمكن لعالم الاجتماع اليوم أن يلاحظ لدى المالنكة والـ هال – بولار ، والهوسا والسوننكة ، وجود تجمعات أو مؤسسات عائلية . فبين داكار ولاغوس ، وباماكو ، وأبيدجان ، وأكرا ، وكومازي ، وكانو ، يتوزع عدد من الاخوة وأبناء العم الذين يتحكمون في تجارة الكولا والأقمشة وغيرها .

(٢٠) راجع ، ش . دو لا رونسيير ، ١٩٢٥ ، المجلد الأول ، ص ١٤٣ – ١٥٩ .

الإشارات عديدة في جميع الحالات. ففي القرن السادس عشر تحدّث الرحّالة البرتغالي فالنتيم فرنانديس[٢١] هو الآخر، عن وجود «يهود» في ولاته على جانب كبير من الثراء، إلاّ أنهم مضطهدون.

وفي القرن الخامس عشر، ومع هجمة «الريكونكويستا» (إعادة الفتح المسيحي لاسبانيا)، أصبح للمسيحيين موطن قدم ببلاد المغرب. فقد انجذب كثير من التجار الإيطاليين إلى بلاد السودان التي صارت ثرواتها من الذهب في عداد الأساطير. فهذا بندتو داي، الرحالة والكاتب الفلورنسي، يزعم أنه رحل حتى وصل إلى تومبكتو سنة ١٤٦٩ – ١٤٧٠[٢٢]، إلاّ أن الجنوى أنطونيو مالفانتي هو الذي ذاع صيته برسالته الشهيرة التي أرسلها من توات حتى محله التجاري في جنوة.

وقد زار مالفانتي توات، وجمع معلومات على جانب كبير من الأهمية، بشأن السودان القريب من النيجر، وتوات بصفتها ملتقى طرق تجارية[٢٣]. على أن أوروبا ستتصل بالسودان اتصالاً مباشرًا في القرن الخامس عشر عن طريق المحيط الأطلسي، بواسطة البحارة البرتغاليين.

ويخبرنا ابن خلدون أنه كانت تنطلق من السودان كل سنة، قافلة تتكوّن من ١٢٠٠٠ جمل، قاصدة مصر[٢٤]. وأصبح عبور الصحراء في خط مستقيم في اتجاه مصر، صعبًا بسبب العواصف الرملية التي كانت تهب على خط مائل بين نهري النيجر والنيل، وهو ما يفسّر ندرة القوافل التي تنطلق مباشرة نحو مصر. أما بالنسبة إلى الخطوط العادية، بين النيجر وبلاد المغرب، فإن القافلة كانت تُعدّ حوالى ١٠٠٠ جمل.

انتشار الأفكار والتقنيات

كان عدد العرب – البرابرة الذين استقرّوا، بفضل التجارة عبر الصحراء، في ولاته، ونياني، وتومبكتو، وغاو، وغيرها كبيرًا. وكان معظم تلك المدن يشتمل على حي للعرب[٢٥]، وقد عُقدت فيها الزيجات، منشئة بذلك صلات رحم، يحلو للنسابين السودانيين تفصيلها.

ويتناقش المؤرّخون فيما إذا كانت الصلة مع العرب–البرابرة قد أدخلت إلى السودان النسب الأبوي. ذلك أن التعاقب على العرش، في عهد مملكة غانا، كان يتم على نحو جانبي، لا في خط مستقيم. فكان الوريث دومًا ابن أخت الملك. وقد تعوّدت مملكة مالي في القرن الرابع عشر، على التعاقب في خط مباشر (من الأب إلى الابن) بصعوبة[٢٦]. ولم يكن التأثير الإسلامي في هذه الحالة بالذات، تأثيرًا حاسمًا. فإذا عدنا إلى مناطق الغابات جنوبًا، وجدنا نوعين من الانتساب، ومن الصعب الحديث عن تأثير الإسلام في الكونغو في ذلك العصر.

إن دخول افريقيا السوداء الإسلام في ذلك العهد لم يتم عنوة. بل تمّ بطريقة سلمية بواسطة عمل

(٢١) ف. فرنانديس، ترجمة ث. مونود، وآخرين، ١٩٥١، ص ٨٥، ت. ليفيكي، ١٩٦٠، ص ١٧–١٨؛ س. مونتاي، في *Hespéris*، مجلد ٣٨، ١٩٥١، ص ٢٦٥ – ٢٩٨.

(٢٢) س. دو لا رونسيير، ١٩٢٥، المجلد الأول، ص ١٤٣ – ١٥٩.

(٢٣) ر. موني، ورد ذكره سابقًا، ص ٥٠ – ٥٢، شيخ أ. ديوب، ١٩٦٠.

(٢٤) ابن خلدون، من ج. كول، ١٩٧٥، ص ٣٤٩.

(٢٥) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص ٣١٢ – ٣٢٣.

(٢٦) أنظر الفصل السادس.

التجار العرب – البربر ، والّونغارا والهوسا . واذا استثنينا تلك المرحلة الحربية زمن المرابطين ، فقد كانت الحروب التي شُنَّت لنشر الإسلام قليلة . ان ذلك الدين قد أخذ بعين الاعتبار عديدًا من الممارسات القديمة المتأصّلة في المجتمعات التقليدية ، إلاّ أن ابن بطوطة يقف مندهشًا ، أمام ورع المسلمين السود ، و« مواظبتهم على الصلوات ، والتزامهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . . . ». وأهل ونغارا ، كانوا دومًا على طريق الترحال ، ينتقلون من قرية إلى قرية ، شيّدوا المساجد في بعض المراكز التجارية ، المنتشرة على طول طريق الكولا . وكان بإمكانهم ، بفضل تسامح السود التقليدي ، أن يؤدّوا صلواتهم حتى في القرى الوثنية .

وفي المدينة ، أصبحت اللغة العربية لغة المثقفين ورجال البلاط ؛ فقد كان المانسا موسى الأول فيما يروي العمري ، يتقن اللغة العربية . بل ويمكن القول أنه هو الذي أدخل الثقافة الإسلامية إلى مالي(٢٧) . ونشأ أدب افريقي بلغة عربية ، إلاّ أن انتشاره تمّ في القرن السادس عشر ، وفي منعطف النيجر في عهد الأسكيا . وعلى المستوى الجامعي ، كانت المبادلات بين المدن السودانية ومدن المغرب ، بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ، مبادلات مستمرة . لكن القاهرة مارست على السودانيين ، في القرن الرابع عشر ، جاذبية حقة ، فقد كانت – لوقوعها على طريق الحج – تأوي عددًا كبيرًا من السود(٢٨) .

وكان ملوك السودان يحيطون أنفسهم بالفقهاء والمستشارين العرب ، وكانوا في معظمهم على المذهب المالكي . لكن ابن بطوطة يشير إلى أنه لاحظ ، في ديافونو من مملكة مالي في القرن الرابع عشر ، وجود خوارج من البيض(٢٩) .

إن دور المسلمين الثقافي والاقتصادي ، كان ملحوظًا في جنوب الصحراء . فقد كان ركب المانسا موسى الأول ، ابان عودته من الحج يضم في من يضم بعض المثقفين ومهندسًا معماريًا ، وهو الذي بنى له قاعة الاستقبال الشهيرة التي استقبل فيها المانسا سليمان ، أخوه وخليفته ، ابن بطوطة سنة ١٣٥٣(٣٠) .

العلاقات بين التشاد والبحر المتوسط

إن أعمال المؤرّخين قد ميّزت السودان الغربي بصورة خاصة في العلاقات بين افريقيا الواقعة جنوب الصحراء والبحر المتوسط . وسبب ذلك ، أن المصادر عن هذا الجزء من القارة ، كثيرة . فعديد من الرحالة العرب ، ومن بينهم ابن حوقل وابن بطوطة ، قد زاروا بلاد السودان متّبعين المسالك الغربية .

على أن السودان الأوسط ، وبلدان حوض بحيرة التشاد ، هي الأخرى ، قد أقامت علاقات متينة جدًّا مع بلاد المغرب ، وليبيا ، ومصر . وقد احتضنت هذه المنطقة ، هي الأخرى ، بالنسبة إلى الحقبة

(٢٧) يبدو أن الانشقاق الذي أدى الى الفصل بين مالنكة وبمبارا ، قد بدأ في عهد المانسا موسى الأول فقد رفض البمبارا اعتناق الاسلام فأنشأوا تجمعًا سريًا يدعى « كوما » ، وذلك ردًّا على السياسة الامبراطورية . فالبمباره (بان – ما – نا) هم « الذين رفضوا المانسا » .

(٢٨) ابن خلدون ، في ج . كول ، ١٩٧٥ (كان المؤرخ العربي الشهير يلتقط الأخبار عامة من مثقف مالي يسكن القاهرة) .

(٢٩) ابن بطوطة ، المرجع السابق ، ص ٣١١ .

(٣٠) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .

المعنية في هذه الدراسة ، مجموعات سياسية كبيرة من قبيل مملكة كانم – برنو ، وكانت مدن الهوسا الثرية الواقعة بين بحيرة التشاد ونهر النيجر ، تنشط فيها حركة تجارية مزدهرة[٣١] .

وكانت مملكة كانم في القرن الرابع عشر ممتدّة حتى فزان ، شمالاً ، وحتى وداي ، شرقًا . وكان ملوك كانم ينتهجون سياسة انفتاح نحو الشمال ، فتراهم يرسلون السفارات إلى الملوك محمّلة بالهدايا الثمينة[٣٢] .

وكانت تنطلق من التشاد في اتجاه الشمال ، طرق رئيسية عديدة : أولها طريق كانم – مصر ، وهي تمتدّ من بحيرة التشاد نحو فزان بعد أن تكون قد عبرت كوار وملاحاتها ، ثم تخترق زويله في فزان ، ثم الواحات الليبية (سكنه) ، حتى تصل إلى القاهرة محاذية الساحل من بعيد . وكانت الثانية تنطلق من البحيرة فتمرّ ببلمه ، ثم تتجه نحو الشرق فتعبر التبستي ، حيث كانت تستخرج الحجارة الكريمة في القرن الخامس عشر ، ثم أنها كانت تصل إلى أسوان ، فالقاهرة . أما الثالثة فكانت تنطلق من كانم وتصل إلى غات ، وغدامس ومنها كانت تتفرّع إلى فرعين ، واحد يتجه نحو تونس ، وآخر نحو طرابلس .

ولم تكن هذه الطرق دون المسالك الغربية من حيث تردّدهم عليها ، لكن ازدهار مدن الهوسا وبرنو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، هو الذي جعلها تشهد أعظم صور الازدهار . ولكن لما استقرّت مجموعات من العرب بدارفور لممارسة تجارة العبيد ، تدهورت العلاقات التجارية .

كانت أهم الثروات التي تصدر من تلك المناطق الواقعة بين النيجر ، والتشاد ، وحول بحيرة التشاد ، تتمثّل في الجلود والعبيد وأنياب الفيلة . وكان الهوسا منشطي تجارة السودان الأوسط ؛ فقد لعبوا دور الوساطة بين السفانا والغابة شأنهم في ذلك شأن الماندانغ ، غربًا . وليس من المستبعد أن يكون الهوسا قد أقاموا منذ وقت مبكر جدًا ، علاقات تجارية مع الممالك والحواضر الواقعة في دلتا النيجر ، مثل أويو وإيفي ، وبنين ، وربما إيغبو إيكور . ويعتقد الباحثون أكثر فأكثر ، أن قسمًا لا يُستهان به من النحاس المستعمل في ايفي كما في ايغبوإيكوو ، كان يأتي من « الساحل » (تاكيدة) . ويؤكّد ثورستان شو ، الذي قام بأولى التنقيبات الأثرية في إيغبوإيكوو ، النظرية القائلة بوجود حركة اقتصادية كثيفة بين الدلتا والسفانا[٣٣] . وكان الهوسا ، في جميع الحالات ، مشاركين في التجارة البعيدة المدى في تلك المناطق . فقد كانت زارية ، وهي أبعد المدن جنوبًا ، رأس جسر نحو مناطق الغابات .

السفانا والغابة

منذ زمن غير بعيد ، كانت الغابات تصوّر على أنها وسط معاد لكل استقرار بشري ، وقد صوّرت الغابات الاستوائية ، وهي غابات على جانب كبير من الكثافة ، في صورة حاجز يشبه الصحراء ، إن لم

(٣١) أنظر الفصلين العاشر والحادي عشر.

(٣٢) كان للماي أبي عمر عثمان بن ادريس ، سلطان برنو ، مراسلة مع السلطان برقوق خلال سنة ١٣٩١ . أنظر الفصل العاشر.

(٣٣) ث. شو ، ١٩٧٠ ، ص ٢٧٩ – ٢٨٤ ؛ ١٩٧٣ في *WAJA*، ص ٢٣٣ – ٢٣٨ . ان كثرة عدد الأدوات النحاسية التي عثر عليها في إيغبو إيكوو. تثير مشكلة عندما يعرف المرء أن لا وجود لمنجم نحاس في تلك الأرجاء. وأقرب منجم هو منجم تاكيده.

نقل أكثر عداء منها. أما الآن فنحن نعرف أن الغابات لم تقف حائلاً لا أمام الشعوب المهاجرة ولا أمام الأفكار والتقنيات.

افريقيا الغربية

كان جغرافيون عرب ، ومن ضمنهم ابن سعيد وابن خلدون ، يعتقدون أن مجال الصحراء يبدأ جنوب السفانا [٣٤]. ذلك أن شعوب السفانا التي كان بإمكانها أن تخبر العرب عن حقيقة الوضع ، فضّلت الصمت بشأن هذه المنطقة التي كانت ترد منها كمية لا يُستهان بها من الذهب الذي يتعامل به في المدن السودانية. فقد أشار المانسا موسى الأول في القاهرة بوضوح ، إلى أنه كان يستخلص من النحاس الذي يستغلّه ، ربحًا وفيرًا. وقد كان النحاس المالي ، يتعامل به في مناطق الغابات مقابل الذهب والعاج والكولا ، وكذلك العبيد. وقد بدأت هذه التجارة بين الأمبراطوريات السودانية والغابات في الجنوب ، تصبح موضوعًا لدراسات على جانب كبير من الجدية. وقد تبيّن أن عددًا من المسالك التجارية قد اخترقت الغابات في جميع الاتجاهات. وتدل الأبحاث الأثرية ، واللغوية ، والدراسات الانثروبولوجية يومًا بعد يوم، أن السفانا والغابات كانت في الماضي، مناطق متكاملة. وتطلق شعوب الغابات على الماندانغ لفظ جيولا (ساحل العاج) أو ونغارا (غانا)، وكلاهما معناه تاجر. فقد كانت توجد على طول طرق الكولا قرى يعمّرها الجيولا أو الهوسا إن جزئيًا وإن كليًا. ومن المرجح أن الماندانغ كانوا قد عقدوا صلة مع شعوب الغابات قبل القرن الرابع عشر ، وكانت مملكتا كونغ وبيغو ، الواقعتان في منطقة السافانا المشجرّة ، مركزين متقدمين لأسواق الكولا والذهب في مناطق الغابات [٣٥]. والغابات غير مسترسلة عند خليج غينيا ، ففي غانا ونيجيريا نجد فرجات من الشمال حتى المحيط الأطلسي ، ولذلك كان الاتصال مع السودان ، في تلك المنطقة أيسر وأكثر تواصلاً. وكان التجار من هوسا وونغارا في ذلك العهد ، قد بلغوا بلاد أسنتي وبلاد يوروبا مرورًا ببونومانسو.

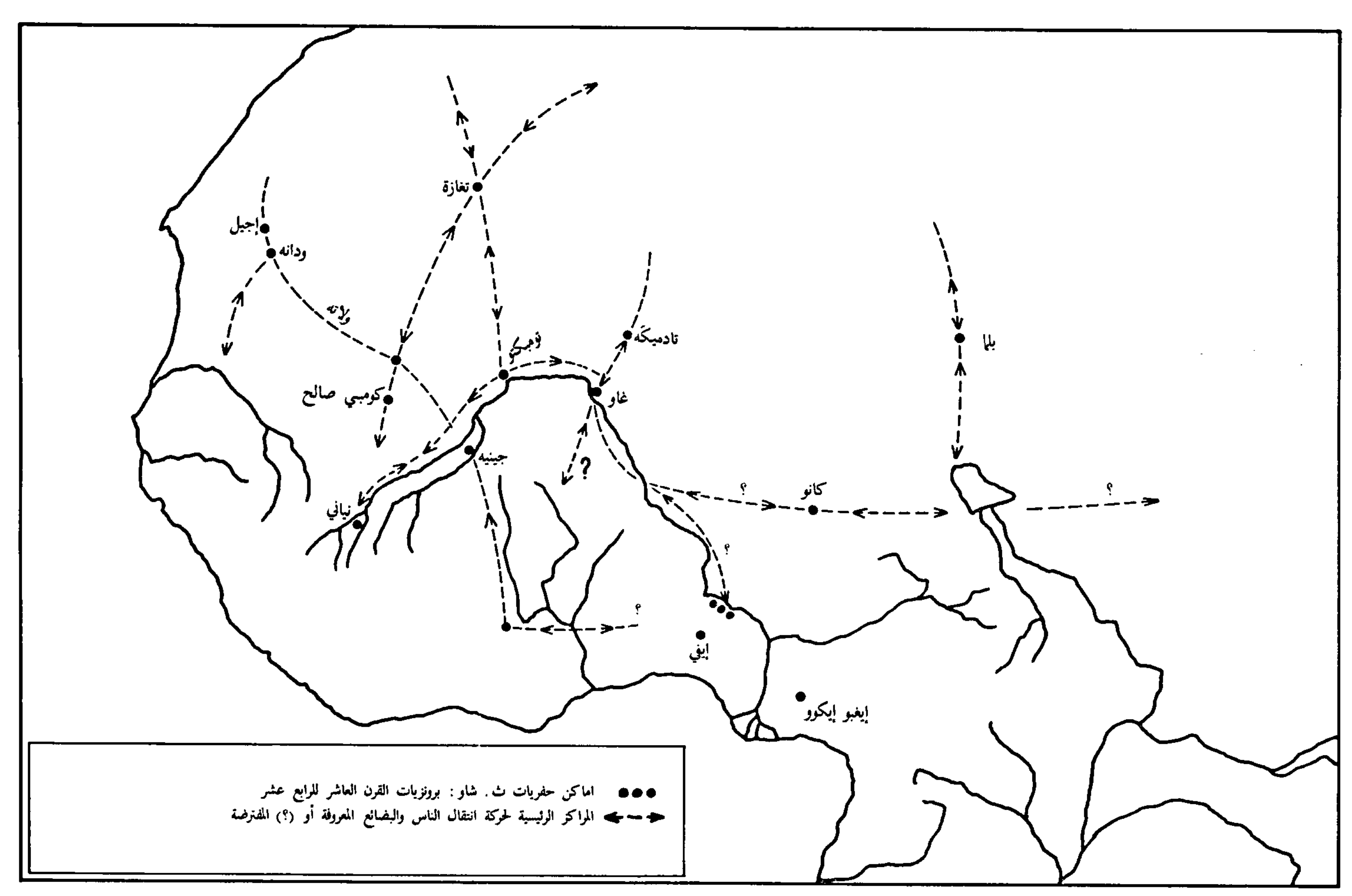
ولا يمكننا في هذا المقام تقدير حجم البضائع الواردة من السفانا، كما لا يمكن تقدير تلك التي ترسلها الغابات نحو بلاد السودان. لكننا نعرف أنه حتى عهد ليس بالبعيد كان الماندانغ والهوسا يبيعون في الأسواق والقرى الواقعة في الغابات ، الجواهر والملح والعنبر وقصاع النحاس وسمك جيني وموبتي المجفّف أو المدخن.

وليست غابة غرب افريقيا بالغابة الكثيفة ، فاختراقها أيسر. وكان الونغارا يقطعونها في قوافلهم على ظهور الحمير. لكن الونغارا والهوسا كانوا في معظم الحالات مستقرّين في القرى الكبرى ، عند تخوم الغابات. وكانت بينهم وبين أعماق الجنوب ، شعوب وسيطة تختصّ بتجارة الكولا.

---

(٣٤) ابن خلدون ، ترجمة ف. مونتاي ، ١٩٦٧ – ١٩٦٨.

(٣٥) يعود عهد مدينة كونغ ، حسب بعض الروايات الشفوية ، الى عهد سونجاتا. الا أن التنقيبات الأثرية الجارية في ذلك الموقع لم تدعم هذا الزعم. وتدل الأبحاث المشتركة التي قامت بها جامعتا أبيدجان وأكرا ، حول الشعوب المشتركة بين الدولتين على قدم العلاقات بين السفانا والغابات. أما أعمال شو فهي تسير في نفس الاتجاه. ان هذا المختص في برونزيات إيغبو إيكوو ، يعتقد أن حركة المتاجرة بالنحاس بين السفانا والغابات ، قد تعود الى القرنين التاسع والعاشر ، أنظر ، ث. شو ، ١٩٧٠ ، ص ٢٦٨ – ٢٧٠.



• حركة الناس والتقنيات في غرب افريقيا (ج. ديفيس).

وقد لعبت تلك الثمرة ، وما زالت تلعب ، دورًا كبيرًا في الحياة الاجتماعية في غرب افريقيا . فأنت تجد الكولا حتى في الكونغو حيث أشار إليها بيغافيتا . وكانت تلك التجارة تحرّك عددًا من المجموعات العرقية . ولئن فاتتنا معرفة تفاصيل هذه التجارة ، بالنسبة إلى الفترة التي تهمّنا ، فإن الوضع على ما وصفه ج . زونون غنوبو ، يعطي الكثير من المؤشّرات . وهو يقول إن بلاد الكولا كانت تنقسم إلى قطاعات حسب جودة الثمرة . « في الشمال تقع منطقة السفانا المشجّرة ، التي تقلّ فيها الكولا ، وفي الجنوب ، تقع قطاعات غبالو ، وبوغويي ، ويوكولو ، ونكدي وندري ، المشهورة بجودة كولتها . وكانت هذه البلاد ملتقى المسالك الشمالية الجنوبية ، ومسالك البيتي الداخلية . وكان حاجز الغورو يمنع قيام علاقات مباشرة بين الجيولا والزيبوو . فلم يكن أولئك التجار من المالنكة يبلغون إلاّ أسواق الغورو حيث كانوا يتزوّدون بكولا الجنوب . وكان الموردون الغورو ينزلون لملاقاة النسوة زيبوو ، اللائي كن يذهبن لجمع الكولا من مناطق الأثنيات الجنوبية من بيتي وغورو » [٣٦] .

واذن فنحن في جميع الحالات إزاء تجارة قديمة جدًا بين السفانا والغابات . ولقد كان الماندانغ مشتغلين بالبحث عن الذهب أكثر من انشغالهم بالكولا ، والبحث عن تلك السلعة هو الذي جرّهم إلى أن ينشئوا في منطقة السفانا المشجّرة ، محطات عند كل مرحلة ستصبح فيما بعد مراكز تجارية كبرى [٣٧] .

وكان الذهب وافرًا في المناطق الجنوبية ، وتكشف لنا الأبحاث تدريجيًا عن مسالك الذهب في تلك المناطق [٣٨] .

وهكذا ، فإن الغابات لم تقم حاجزًا وإنما لعبت دور مصفاة عبرت منها التيارات الاقتصادية والأفكار والتقنيات . كما أننا ندرك ، بفضل دراسة الروايات الشفوية ، أن أصل عدد كبير من شعوب الغابات من منطقة السفانا ، وأن تيارات المبادلة تعود إلى عهد موغل في القدم ، ولنشر إلى أن عددًا كبيرًا من شعوب السفانا تعترف بتفوّق شعوب الغابات في ما يتعلّق بميدان الصيدلة ، والفنون الباطنية للغة الطبول ، أو على الأقل بأن معرفتهم لها أكثر عمقًا .

ولقد حصل في كثير من الحالات أن اقتطع الفلاّحون من الأجزاء الشمالية للغابات الاستوائية . كما أنها قد تراجعت على جبهات عديدة في غينيا وفي ساحل العاج وفي ليبيريا وفي غانا . ففي نيجيريا كانت توجد مسالك واسعة ، تنطلق من النوبي وتصل إلى الدلتا ، حيث فتح الأهالي بواسطة عمليات قطع الأشجار ، فرجات في نقاط عديدة حيث ازدهرت مدن اليوروبا .

افريقيا الشرقية والوسطى

ما يزال عدد كبير من الأسئلة مطروحًا على بساط البحث . فنحن نتساءل ، على سبيل المثال ، كيف كانت تجمع المنتجات التي تصدرها المناطق الساحلية نحو العالم الإسلامي وآسيا ، وكيف كان يتم طوال

(٣٦) ج . زونون غنوبو ، ١٩٧٦ ، ص ٧٩ .

(٣٧) كانت بيغو ، لوقوعها شمال غربي جمهورية غانا الحالية ، منذ القرن الرابع عشر ، مركزًا تجاريًا هامًا عند تخوم الغابات . وكانت منذ القرن الثاني عشر ، متّصلة بجيني وأعلى النهر . وكانت تعيش بها جالية من المالنكة . وكان بها أيضًا تجار من الهوسا .

(٣٨) ان ما لدينا حتى الآن من معلومات يرجع الى عهود متأخرة ، فالمالك لدى الأكان وكذلك لدى الباولى لا تعود الى أبعد من القرن السابع عشر .

تلك القرون ، تنظيم تجارة العاج ، وتجارة جلود الحيوانات المتوحشة والتي نعرف ما لها من قيمة بالنسبة إلى القرون السابقة واللاحقة للحقبة التي ندرسها هنا والتي لا تزال معرفتنا لها قليلة. فهل كانت توجد شبكات مترابطة لنقل تلك المنتجات ، ومن هم الوسطاء الذين كانت تمر عبرهم؟ وما هي المنتجات التي كانت ، في مقابل ذلك تصل إلى داخل القارة انطلاقًا من الساحل الشرقي؟ وبالمقارنة مع غرب افريقيا ، حيث تتوفّر معلومات عن مثل تلك الواردات ، يمكن أن نتساءل عن الجزء من الأقمشة التي تقوم الوكالات التجارية الساحلية باستيرادها الذي كان يوزّع في الداخل[٣٩] .

كما يمكن البحث عن كمية الودع الذي كان ينزل سنويًا على الساحل ، وما هي وجهته[٤٠] . فالباحثون لم يعثروا حتى الآن ، خارج زيمبابوي ، إلاّ على آثار قليلة للمصنوعات الكمالية التي كانت تنزل في موانئ المحيط الهندي ، فهل يدل هذا النقص على أنها لم تكن تُباع أو تُمنح لشعوب داخل القارة ، أو على أن الأبحاث لم تمكّنا حتى الآن من العثور على آثار تلك المنتجات؟

بالنسبة إلى الداخل أخذت بعض التيارات التجارية ، على الأقل ، من إثيوبيا إلى نهر الزمبيزي ، تبدو في جلاء ووضوح. تلك مثلاً حال تجارة الملح . فقد سبق أن رأينا أهمية أنواع شتى من الملاحات بالنسبة إلى التجارة عبر الصحراء. فمن إيدجيل إلى بلمة ومن تاوديني الى العير [٤١] ، كانت أشكال مختلفة من الإنتاج تتنافس على تزويد افريقيا بالملح . فإذا تجاوزنا هذه الأمثلة التي اشبعت درسًا وأصبحت مشهورة ، تساءلنا كم كان عدد نقاط استخراج الملح ، سواء بجمع التزهر السطحي أو باستغلال ملاحات داخلية صغيرة، قد تكون لعبت دورًا أكثر غموضًا أو دوامًا مما سبق؟ وكان ملح دنكل يعد منذ القرنين الثالث والرابع من بين الصادرات الأكسومية[٤٢] . ومن المستبعد جدًا أن يكون الأمر قد تغيّر طوال القرون اللاحقة. وحتى لو لم يبلغ إنتاج الملح ، على الأرجح ، عددًا كبيرًا من الأطنان[٤٣] قط ، فمن المحتمل أن تلك المادة كانت توزّع على الأقل في المناطق القريبة ، طوال القرون التي نحن بصددها.

ولعله يحسن كذلك أن ندرس الصور القديمة المحتملة لاستغلال الملح على ساحل بلاد الصومال الجنوبي وشمال كينيا حتى جزيرة باتي. فهنالك كانت توجد حسب ف. ل. غروتانيلي[٤٤] عديد من ترسبات الملح البحري الذي كانت النساء والأطفال يعملن على جمعه ، وكذلك عديد من مستودعات الملح الصخري بكميات ضخمة ، يبدو أنها كانت مادة للتعامل التجاري.

والوثائق المكتوبة لا تشير إلى مثل تلك الظواهر إلاّ نادرًا مع أنها جوهرية. وان صادف أن أشارت إليها ، فلا يمكن أن نستخلص منها أية فائدة : فهذا فاسكو دي غاما في قصة رحلته الأولى يشرح مثلاً كيف أن الأفارقة الذين اتصل بهم رجاله في جنوب القارة ، كانوا يحملون أوان من الكرنيب (القرع) مملوءة من ماء البحر حتى يحصلوا على الملح بطريقة التبخّر. ويشير عدد كبير من القرائن إلى أن مثل تلك الطرق في إنتاج الملح كانت موجودة منذ القديم على ساحل المحيط الأطلسي ، على الأقل بداية من خليج

---

(٣٩) أنظر ب. فيرين ، ١٩٧٥ ، ص ٧٧.

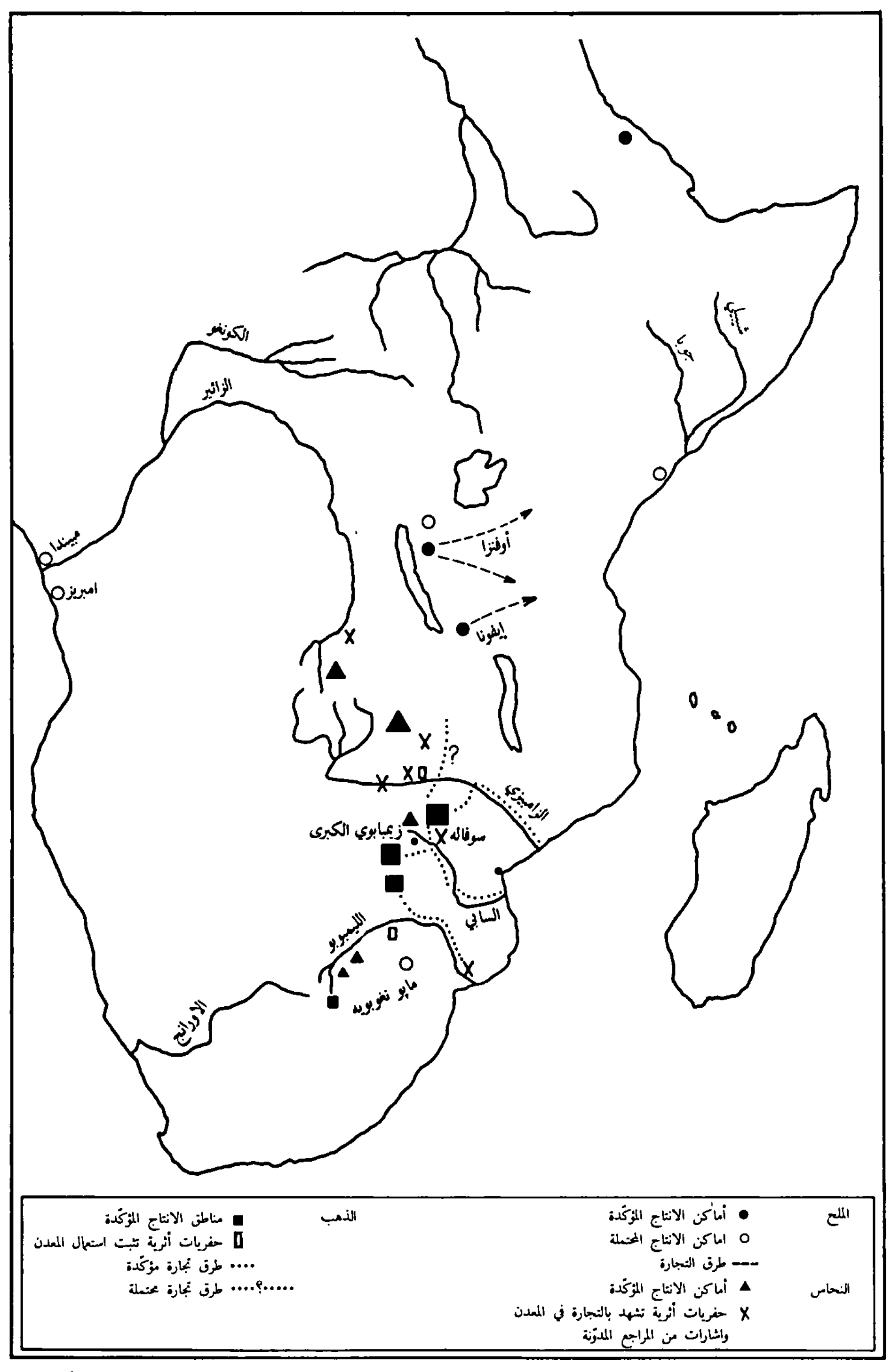
(٤٠) لقد عثر حتى الآن على آثار تدل على تغلغل هذا الودع في زامبيا وجنوب الزائير.

(٤١) أنظر بشأن ملح العير : س. برنوس ، و ب. غولتكر ، ١٩٧٦ ، ص ٥٣ – ٦٥ ؛ س. برنوس، ب. غولتكر ، ود. كلاينان ، ١٩٧٦ ؛ هـ. ج. هوغو ، و م. بروغمان ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٤٢) ج. جرستر ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٧ – ٢١٠.

(٤٣) لم يكن ذلك الانتاج يقدّر بأكثر من ١٠ أطنان سنويًا بالنسبة الى السنوات ١٩٦٤ – ١٩٦٦ ، أنظر م. ولد – مريم ، ١٩٧٠.

(٤٤) ف. ل. غروتانيلي ، ١٩٦٥ ، ص ٩٢.



• وسط وشرق وجنوب افريقيا، القرن الحادي عشر للخامس عشر. المنتجات المغذية للتجارة بعيدة المدى نسبيًا (ج. ديفيس).

غينيا ، لكن لم تدعم أية دراسة منظمة هذه القرينة ذات التاريخ المضبوط التي أفادنا بها فاسكو دي غاما . وكذلك الشأن عندما كان يشرح في نفس السياق كيف أن الرجال يحملون رماحًا من الحديد وخناجر مقابضها من العاج ، فهذه المعلومات ذات دلالة بالغة بالنسبة إلى تاريخ نقل الحديد والعاج ، وهي معلومات لم تستغل قط . هذه على الأقل حالة خاصة جدًا ، يكون فيها الركون إلى الروايات الشفوية المتعلّقة بالمبادلات التجارية أمرًا ضروريًا . وفعلاً فإن الروايات الشفوية غالبًا ما تسمح بقفزة ترجعنا قرونًا إلى الوراء.

إن معرفتنا لاستغلال الملاحات الواقعة جنوب تانزانيا الحالية ، أفضل(٤٥) . فعيون أوفنزا المالحة ، التي لا تزال مستغلّة إلى الآن ، جنوب شرقي البلاد تمتدّ على أكثر من خمسة عشر كيلومترًا. وقد دلّت أولى الحفريات الأثرية أنه قد وجد في أوفنزا نشاط كبير يتمثّل في إعداد الملح وتسويقه ، قبل ١٥٠٠ . فقد وجدوا أوان كان يتم فيها التبخير بواسطة غليان الماء لإنتاج الملح . وقد مكن التأريخ بالكربون ١٤ من القول بأن إنتاج الملح بدأ تقريبًا في القرنين الخامس والسادس وأنه تواصل بعد ذلك. أما في ايفونا ، الواقعة في نفس المنطقة ، فإن استغلال الملح فيها أمر ثابت في القرنين الثالث عشر والخامس عشر. والباحثون مجمعون على القول بأن ذلك الملح كان يصدر نحو مناطق بعيدة ، وأنه ربما كان سببًا في قيام نشاط تجاري منظّم ومبادلات . كما ينبغي أيضًا القيام بأبحاث مماثلة شمال ما ذكرنا عند الملاحات التي هي دونها قيمة ، في ساجا مثلاً ، على بعد ٢٣٠ كيلومترًا شمال إيفونا وفي أوغندا ، في كيبرو ، وكذلك في زامبيا بالنسبة إلى عيون بزانغا المالحة ، التي يبدو أن استغلالها قديم . ولقد تمّت في بوروندي، في منطقة كوموزو(٤٦) ، مؤخرًا تجربة على جانب كبير من الأهمية ، فقد صنع ملح نباتي من نباتات الملاحات المعروفة جيدًا بين حفظة الروايات الشفوية ، حسب تقنيات يحفظونها في الذاكرة. ولا أخالنا نبعد عن الصواب اذا قلنا إن إنتاج مثل ذلك الملح النباتي – وقد حظره المستعمرون الأوروبيون – كان بالنسبة إلى عدد كبير من مناطق شرقي أفريقيا ، زمنًا طويلاً ، مصدرًا هامًا من مصادر الصوديوم.

وفي مملكة الكونغو ، كان الملح احتكارًا ملكيًا. ولعلّه يحسن البحث والتنقيب عند ملاحات مبندا ، قريبًا من مصب نهري الزائير وأمبريز ، شمال أنغولا.

وسنعرف مع تقدّم البحث كيف أثّرت المبادلات ، على مسافات متوسطة أو طويلة ، علاوة عن الهبات والمبادلات المحلية ، على حركة انتقال الماشية الثمينة في شرق افريقيا. ولعله يكون من المفيد أيضًا القيام بأبحاث في تلك المناطق بشأن حركة الحجارة الكريمة التي كانت تقوم حولها تجارة مزدهرة(٤٧) .

كما قد يحسن أيضًا التساؤل عن «العملات» على اختلاف أنواعها ، التي مكّنت من تسهيل المبادلات ، والمفروض أنها كانت كثيفة وواسعة الانتشار. ولعلّ مثال الأصداف ، وكان إنتاجها في الكونغو ، من الاحتكارات الملكية عند وصول البرتغاليين ، ليس مثالاً فريدًا من نوعه.

ولم تعرقل الغابات ، وقد اشتهرت دهرًا بأنها غير قابلة للاختراق وتمثّل حاجزًا لا يمكن تجاوزه ، العلاقات بين السفانا الشمالية والجنوبية فضلاً عن وجود منفرجات واسعة أحدثتها التحوّلات المناخية وعمل الإنسان.

---

(٤٥) ب. م. فاغان، وج. أ. يلن، ١٩٦٨ ؛ ج. أ. ج. سوتون ، وأ. د. روبرتس ، ١٩٦٨.

(٤٦) ل. ندوريسمبا ، وآخرون ، ١٩٨١.

(٤٧) مثال من أمثلة البحث بالنسبة الى غربي افريقيا ، في ت. ليفيكي ، AB ، ١٩٦٧ ، ومن الأمثلة الأخرى الدالة على قيمة الحلى من حيث هي محرك للتجارة ، ب. فيرين ، ١٩٧٥ ، ص ٧٣.

ولقد بيّن ج. فانسينا ، عندما درس الأجراس وهي مما يختص به ملوك السفانا ، أنها قد عبرت الغابات الاستوائية من الشمال إلى الجنوب. وهكذا يمكنك أن تجد أجراسًا في ايفيه ، وبعد ذلك بمدة طويلة ، بعد سنة ١٤٠٠ في زيمبابوي[٤٨] . وتلك هي الأجراس التي كان يستعملها المختصون في نقل الرسائل ، فتراهم يحاكون بها أصوات الكلام البشري. كما دلّت بعض الأبحاث الأخرى على أن الخناجر التي تصلح للرماية قد نقلت إلى شعوب الجنوب انطلاقًا من الشمال عبر الغابات الاستوائية الكبرى. واذن فقد أمكن للتقنيات والأشياء والأفكار أن تعبر الغابات من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال. ولقد تمّت هجرات الشعوب في جميع الاتجاهات من دون أن توقف الغابات تلك الحركات.

ومهما يكن من أمر ، فإن الأنهار قد شكّلت في مناطق الغابات الكبرى ، محاور مستمرة للنقل. وحتى إذا كان كل قطاع من النهر تراقبه مجموعات عرقية متجانسة ومسيطرة ، فإن تلك المجاري قد أسهمت بفضل الصيادين بنصيب وافر في نشر التقنيات والأفكار.

ومن جهة المحيط الأطلسي ، ابتداءً من مصب نهر الكونغو/زائير حتى أنغولا ، فإن أهالي السواحل قد مارسوا الملاحة الساحلية (المساحلة) – ويعتقد الاختصاصيون أن بعض التأثيرات قد انتقلت عن طريق البحر: وهكذا ، على سبيل المثال ، فإن التماثيل الصغيرة المتعدّدة الألوان والتي نصادفها حسب فانسينا في مجال يمتدّ من نيجيريا إلى أنغولا ، تشهد بانتشار التقنيات عن طريق البحر. ولا يمكن أن نستبعد الفكرة القائلة بأن تلك العلاقات البحرية كانت في الماضي أكثر كثافة مما نتصوّره اليوم. ولا يسعنا إلاّ أن نأسف ، ونحن بإزاء ذلك العدد الجم من المناقشات النظرية عن الاقتصاد والمجتمع القديمين في افريقيا ، لقلّة الأعمال المنّسقة التي تمّت إلى الآن وخصّصت للبحث عن أشكال الإنتاج القديمة وتقنياتها وقيمتها وكيفية تسويقها ، على الرغم من أنه قد قامت الأدلة على أن كل بحث من الأبحاث تنتج عنه نتائج هامة. وما أكثر ما سيسقط من الآراء المسبقة عن «جمود» المجتمعات الافريقية في مواجهة التطوّر والتحديث لو أننا – بدلاً من أن نتخذ ، أساسًا للمقارنة ، قرون الاتصال مع الأوروبيين ، حيث سحقت افريقيا بسبب المضاعفات الاجتماعية – الاقتصادية المتولّدة عن تجارة العبيد ، – فكرنا أن نستكشف الحقبة موضع الدراسة هنا استكشافًا جدّيًا. ومن المفارقة أننا لا نعرف شيئًا يُذكر عن نظمها السياسية ولا أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها. والمجال المفتوح أمام الباحثين هو في هذا الصدد مجال شاسع ، إلاّ أنه اليوم يكاد يخلو إلاّ من مجموعة صغيرة من علماء الآثار.

على أن افريقيا تلك ، هي التي يجب معرفتها عبر هياكلها الاجتماعية – السياسية لتشييد مجتمع جديد ضارب بعروقه في صميم قيمه الحضارية.

النحاس والذهب قاعدتا المبادلات جنوب القارة

نعلم اليوم علم اليقين أن استغلال النحاس قد بدأ في عديد من مناطق افريقيا الجنوبية خلال القرون الأولى بعد الميلاد[٤٩] . وتقع أهم نقاط استغلاله في منطقة شابا شمال غربي زامبيا الحالية ، وفي السهل

(٤٨) أنظر ، الفصل الثاني والعشرون ، ص ٥٥٩ و ٥٦٠.

(٤٩) أنظر المجلد الثاني ، الفصل الخامس والعشرون ، ص ٦٤٠ – ٦٤١ والفصل السابع والعشرون ، ص ٦٩٩ وما بعدها ، والمجلد الثالث ، الفصل الثالث والعشرون ، (سيصدر قريبًا) والفصل الثاني والعشرون أعلاه.

الأوسط من زيمبابوي ، وبدرجة أقل في أعالي الليمبوبو . والمكتشفات الأثرية وعمليات التأريخ التي حصلنا عليها في السنوات الأخيرة لا تدع أدنى مجال للشك في أن قضبان النحاس الطويلة والصلبان الصغيرة المصنوعة من النحاس أو من سبائك النحاس ، كان يتاجر بها على مدى بعيد.

وأول اسم أطلقه البرتغاليون على نهر الليمبوبو عندما بدأوا اكتشافه ، كان «نهر النحاس». وكانت حاجتهم إلى أن يعثروا ، بأي ثمن ، على مناجم نحاس تمكّنهم من التحرّر من تبعيتهم المرهقة لمنتجي ذلك المعدن من الأوروبيين ، وكبر حجم صادراتهم النحاسية ، منذ أواخر القرن الخامس عشر نحو افريقيا حيث كان الطلب عليها شديدًا ، ليفسر بما فيه الكفاية ذلك الانجذاب الذي كانت تمارسه عليهم آفاق اكتشاف مناجم نحاسية في جنوب افريقيا.

وقد كان النحاس بالنسبة إلى الأفارقة أيضًا ومنذ أقدم العصور ، والشهادات كثيرة في هذا الباب ، معدنًا مستحبًّا جدًا[٥٠] . أولاً لأنه يصلح للزينة. فمنذ القديم أشار صاحب «مختصر العجائب»[٥١] ، إلى أن النسوة من السود كن يحملن «في معاصمهن وآذانهن ، حلقات من النحاس» وانهن كن يزين شعورهن «بحلقات من النحاس وبالأصداف» ، ولا شك أنه ينبغي أن ينصرف تفكيرنا إلى الحلى النحاسية عندما يكتب ابن بطوطة[٥٢] عن الوثنيين الذين يحضرون أحيانًا في بلاد المانسا قائلاً «وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطًا كبارًا وتكون فتحة القرط منها نصف شبر». ولعلّ الإكثار من استعمال النحاس وسبائكه تعبيرًا عن تميّز الشخصيات السياسية في عدد كبير من مناطق القارة هو كذلك عادة قديمة. وهذه الأحداث بمفردها تدعم ما لنا من يقين بوجود متاجرة بعيدة المدى بهذا المعدن «شبه النفيس»[٥٣] . ولا يمكننا أن نستبعد أن الصليب النحاسي ربما كان قد لعب في افريقيا الجنوبية ، دور العملة الذي ربما لعبته قضبان النحاس الرقيقة التي كانت تنتج في تاكيدة ، وتحدّث عنها ابن بطوطة[٥٤] .

ولعلّ ثروات شابا المنجمية جنوبي الغابات الاستوائية ، في منطقة السفانا المشجّرة ، قد جذبت عديدًا من السكان ؛ ولا شك أن هذا كان منطلق تطوّر تقنية صنع المعادن الحديدية وغير الحديدية. ونتيجة لذلك ، فإنه قد ازدهرت بها تجارة على المسافات البعيدة. فقد تطوّرت ممالك لوبا وامبراطورية لواندا ، في تلك الرقعة من منطقة شابا ، قبل سنة ١٥٠٠ . والدراسات المتعلّقة باللغات ، وهجرات الشعوب وبتحليل أساطير أصل التكوين ، ونظام القرابة[٥٥] ، تسمح لنا بإدراك المشاكل الاجتماعية الثقافية لتلك المنطقة. ويتجلّى لنا ، يومًا بعد يوم ، ان الناس قد تنقّلوا في جميع الجهات في الغابات تمامًا كما في السفانا .

كما يبدو على ضوء تلك الأبحاث أن منطقة شابا كانت قطبًا ثقافيًا انطلقت منه تيارات مبادلات واسعة المدى ، وتأثير لوبا تأثير نحس به حتى في مناطق الزمبيزي[٥٦] .

ومنذ القرن العاشر ، يحدّثنا المسعودي عن المكانة التي يحتلها الذهب في جنوب افريقيا قائلاً : «تقع

---

(٥٠) منذ القرن التاسع ، كان النحاس المصنع ، يمثل عنصرًا مهما في التجارة الاسلامية نحو العالم الأسود.
(٥١) أ. بن وصيف شاه (د. ت).
(٥٢) ابن بطوطة ، ج. كوك، ١٩٧٥ . ٣١٣.
(٥٣) من أمثلة اكتشاف النحاس في القبور في شكل حلى : أنظر ج. أ. فوغل ، ١٩٧١ ، ص ٩٩.
(٥٤) ج. كوك، ١٩٧٥ ، ص ٧١٨.
(٥٥) أنظر الفصل الثاني والعشرون.
(٥٦) أ. ولسون ، ١٩٧٦ . ما زال كثير من المؤلفين ينظرون الى الروايات الشفوية التى تروي في تلك المناطق (بلاد لوبا – لندا) بوصفها موضوعات إنشاء أدبية أو مبالغات أسطورية القصد منها اضفاء الشرعية على أمر واقع في القرن الرابع عشر. ولعله يكون من الأصح أن نعمد الى القيام بتحليل عميق.

حدود بحر زنجبار في بلاد سفالة وبلاد واق الواق ، وهو صقع ينتج له من الذهب الإنتاج الوفير»[٥٧] . وهذا النص كاف للتدليل على أن المسلمين كانوا منذ القرن العاشر يعرفون ذهب جنوب القارة وأنه كان مستغلاً وربما كان يصدّر أيضًا في ذلك الوقت.

ومرة أخرى ، يدعم علم الآثار ، المصادر المكتوبة ويوضحها . ولئن أمكنت مناقشة التأويلات التي استخلصها المؤلّف ، فمن الصعب أن ننازع بشأن صحة تلك المعلومات الأولية التي قدّمها ر . سمرز ، عن استغلال ذهب هضبة شونا[٥٨] كميًا وزمنيًا . والفحص المنظّم للآثار المتبقية في مناطق الاستغلال ، وعمليات السبر ، والتأريخ ، خوّلت للمؤلّف أن يضع خرائط دقيقة . ولعلّ للاستغلال أن يكون بدأ تقريبًا في القرن السابع ، جنوبي نهر الزمبيزي مباشرة ، أي في وادي مازوي ، ثم أنه بلغ بين القرنين التاسع والحادي عشر الهضبة بأكملها ، ولم يصل إلى منطقة الليمبوبو إلاّ في القرن الخامس عشر . وأكثر ما كان يصدر نحو الساحل كان يتم ، حسب سمرز ، عن طريق وادي سابي ، في اتجاه سفالة ، لكن المحورين الآخرين لهذه الحركة كانا يمرّان عبر الزمبيزي والليمبوبو . ويعتقد و . ج . ل . رندلز ، وهو الذي يتبع إلى حد كبير استنتاجات سمرز ، وكثير من المؤرّخين الآخرين من بلدان أخرى ، ان ازدهار زيمبابوي، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، سببه انحصار الحركة التجارية نحو سابي في أيدي قلة من الأثرياء وان التحوّلات العميقة التي قد تكون طرأت على الملاحة على نهر سابي بعد القرن الخامس عشر قد تفسّر انحطاط الحركة عبر زيمبابوي وتضعضع سوفالة[٥٩] .

فلا ينبغي إذن أن نقتصر ، كما هي الحال في أغلب الأحيان ، على ربط استغلال الذهب والمتاجرة به بزيمبابوي وحدها . وكما هو الشان في غرب افريقيا ، حيث تضيء لنا معرفة المنافسات القائمة للسيطرة على إنتاج الذهب وتصديره ، أكثر من نقطة تاريخية بين القرنين العاشر والخامس عشر ، فعلى الأرجح أن ذهب الجنوب قد وصل إلى المواقع التي كان المسلمون يشترونه منها ، من طرق شتى ، وذلك رغم المجهودات الكبرى التي بذلها حكام زيمبابوي ، خاصة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لمحاولة احتكار المتاجرة به .

ومهما يكن من أمر ، حتى لو تقبلنا في تحفظ تقدير ر . سمرز ، لإنتاج الذهب بحوالى ٩ أو ١٠ أطنان سنويًا منذ القرن الحادي عشر ، فلا بدّ من القول بأن ذهب الجنوب قد وصل إلى الشمال في زمن أسبق مما يقدّر المؤرّخون عامة ، لاشتغالهم المفرط بمصير كيلوه وسك المعدن النفيس . ولعلّ ذلك الذهب قد لعب منذ القرن الحادي عشر دورًا عظيمًا في التجارة الافريقية .

إن الملاحة الساحلية التي كان يزاولها المسلمون حتى سفاله قد وجدت منذ تلك الآونة ، ولم تنقطع البتة إلاّ بعد مجيء البرتغاليين ، حتى عندما كانت المنافسات بين المدن الساحلية تجعلها ، ربما ، أكثر عسرًا . وكانت تلك المساحلة ، التي تصل إلى عدن ، مولّدة لتيارات تصدير منتجات داخل القارة نحو العالم الإسلامي والعالم الهندي والعالم الصيني ، وأدّت لإنشاء أحواض لبناء السفن لا نكاد نعرف عنها اليوم شيئًا يُذكر .

ولئن أمكننا أن نناقش ، بالنسبة إلى القرن الحادي عشر ، المدى الذي بلغته تجارة الذهب ، فلا أحد يشك في أهميته من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر . ومعدل التقديرات التي قدرت ، زمن

(٥٧) المسعودي ، ترجمة فرنسية ، ش . بلا ، ١٩٦٥ ، المجلد الثاني ، ص ٣٢٢ – ٣٢٣ .
(٥٨) ر . سمرز ، ١٩٦٩ .
(٥٩) و . ج . ل . رندلز ، ١٩٧٥ ، ص ١٤ وما بعدها .

وصول البرتغاليين إلى سوفالة ، تخول لنا حقًا القول بأن آلافًا من أطنان الذهب كانت تنطلق سنويًا طوال تلك القرون ، من الجنوب نحو الشمال. والحفريات التي أُجريت في الحي المحصن في زيمبابوي الذي أُطلقت عليه تسمية في غير محلها هي «الأكروبول» ، قد سمحت بالعثور على المواضع التي كان يُصهر فيها الذهب ، ولعله كان يخضع إلى ضرب من التنقية قبل تصديره.

وإذن فقد كان للذهب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، دور فعّال في حركة السلع المصدّرة من هضبة شونا ، وفي حركة المنتجات المبيعة مقايضة للأرستقراطية المهيمنة في زيمبابوي.

على أن معظم المؤرّخين يتّفقون اليوم على عدم اعتبار الذهب مصدر ثروة زيمبابوي ، وأنه قد يكون من الأصح اعتبار أن أساس هذه الثروة سببه ازدهار عظيم لتربية الماشية في هضبة تكسوها الحشائش ولا توجد فيها ذبابة التسي – تسي ، خاصة أن ذلك الجفاف الكبير الذي سُجّل حوالى سنة ١٢٠٠ ، قد دفع الرعاة إلى الانتقال بأعداد غفيرة إلى أكثر المرتفعات مناسبة للعيش. ولعلّ حكام زيمبابوي وهم الملوك مقدّمو القرابين لشعوب من الرعاة ، قد بنوا سلطانهم وثروتهم بادئ ذي بدء على الماشية ، وذلك قبل قرن أو قرنين من تنميتها تنمية عظيمة باحكامهم لسيطرتهم على تجارة الذهب. هذا اذا لم يقتض الأمر أن نفرق ، بناء على تمييز قديم ، إلاّ أنه ما زال يعتد به أحيانًا ، بين «عمال المناجم» و«مربي الماشية» و«البنائين» ، فلعلّ الأولين قد استغلوا الذهب والنحاس ومعادن أخرى منذ ما قبل سنة ١١٠٠ أما البناؤون فلعلهم هم الذين شيّدوا تلك الصروح الصخرية في زيمبابوي. ونحن نجهل أعراقهم ولغتهم ، على أنه ليس ثمة ما يمنع من القول بأن أولئك «البنائين» وأولئك «العاملين بالمناجم» هم الأجداد المباشرون للشعبين الذين يعيشان على مرتفع زيمبابوي وهما شعبا السوتو والشونا[٦٠].

ومن سوء الحظ أن المعلومات التي لدينا عن جميع هذه المسائل لا تزال معلومات ناقصة لا تفي بالحاجة. ووجود دولتي روديسيا وجنوب افريقيا العنصريتين قد عطّل البحث ، ولعلّ قيام دولة زيمبابوي المستقلّة يفتح آفاقًا جديدة.

فنحن نعرف عصور ما قبل التاريخ بالنسبة إلى تلك المناطق بفضل أعمال البحّاثة الانجلوسكسونيين ، ولكن كل شيء مبهم منذ بداية الحقبة التاريخية ، وتراهم يفعلون كل ما من شأنه أن ينكر نسبة الثقافات المزدهرة التي تطوّرت هنالك قبل سنة ١٥٠٠ إلى السود.

على أن العناصر التي نلتقطها هنا وهنالك تدل على أن تلك الحضارات قد تداخلت وتمازجت وأنها تمثّل وحدة لا نزاع فيها. فقد كان وادي الزمبيزي شرقًا ، مسلكًا من المسالك التي دخلت منها التأثيرات الشمالية ، ومنها عبرت تأثيرات البانتو. وفي الممالك التي ازدهرت في مناطق السفانا جنوبًا ، لعب تشغيل المعادن والمتاجرة فيها دورًا أساسيًا.

وفي جنوب الزمبيزي يمكن أن نميّز بين بؤرتين ثقافيتين : هما هضبة زيمبابوي وفي أقصى الجنوب هضبة لُغْفِلد[٦١].

ولقد برز بوضوح منذ سنوات مظهر آخر من مظاهر الحركة التجارية بين المناطق الافريقية. وقد كان ب. فيرين هو أول من أكّد على العلاقات المطردة بين مدغشقر ، وجزر القمر والساحل الشرقي من القارة : أفلم يكن هو الذي ألمح إلى أنه إن كانت الجزر قد وصلها عدد كبير من التأثيرات من القارة ، فإن بعض المنتجات ، مثل الأدوات المصنوعة من حجر الطلق في مدغشقر أمكنها تمامًا أن تنتشر على

---

(٦٠) ر. سمرز ، ١٩٦٠ ، ص ٢٦٦ – ٢٩٢ ؛ ١٩٦٣.

(٦١) أنظر الفصل الحادي والعشرون من هذا المجلد.

الساحل حتى كيلوه[٦٢] . وإذا دعمت الأبحاث في المستقبل تخمينات ب. فيرين وأطروحاته ، فلعلّه ينبغي آنذاك ، أن نراجع كل ما يُقال بشأن الحدود الجنوبية لمناطق الملاحة الافريقية والعربية في المحيط الهندي ، مراجعة جدية. وان عودة البحوث الأثرية في مدغشقر منذ ١٩٧٧ عودة نشطة ، قد توفّر في المستقبل – إن نحن حكمنا على النتائج الأولى المعلن عنها – عناصر ذات أهمية بالنسبة إلى معرفتنا لتلك المناطق.

(٦٢) ب. فيرين ، ١٩٧٥ ، ص ٧٢ – ٧٣ ، أنظر ج. ب. دومينيشيني ، ١٩٧٩.

الفصل السادس والعشرون

إفريقيا
من خلال العلاقات بين القارات

بقلم ج. ديفيس بالتعاون مع ش. لبيب

إفريقيا كما يتصوّرها سائر العالم

من العسير فيما يخصّ هذه الحقبة التي تمتدّ أربعة قرون، أن نعرف كيف كان الأفارقة، داخل القارة، ينظرون إلى أنفسهم، من خلال معاييرهم الثقافية المتغيرة ومن خلال استمرارهم آلافًا من السنين على حد السواء. ورغم ذلك ينبغي ألاّ نعدل عن مقصدنا لأن هذا البحث العسير عمل أساسي. فقد أخذنا نحيط بما غيرته التأثيرات المتبادلة للثقافات المتوالية، من جهة إدراك الحيز الفضائي في افريقيا. على أنه يظل من المثير أن نعرف تصوّر التاجر الافريقي لمحيطه في القرن الخامس عشر. ويمكننا من الآن القول بأن تجار تكرور في مالي، وبالذات تجار ونغارا، كانت لهم فكرة جغرافية عن العالم الإسلامي إن لم نقل عن العالم المعروف في ذلك العهد. فقد كان تجار ونغارا[1] متعلّمين أو على الأقل كان من بينهم عدد كبير من المتعلّمين، من الذين لهم معرفة دقيقة بمحيطهم، فترى تجار ونغارا، يطلقون على الشمال اسم «ساحلي» (السهل) أو خوخو دوغو (أي بلاد الملح)، وكان التجار من عرب وبربر يفدون عليهم من

(١) ونغارا: تُكتب هذه الكلمة لدى المؤلّفين الذين لغتهم العربية بصيغ كثيرة، فهي ونكارة، ونغارا ونجارة وونغراته وحتى أنجرة (المسعودي في القرن العاشر). وفي بعض الأحيان تراهم لا يفرّقون بين ونغرة وقنغرة الذين إليهم تُنسب بقايا أثرية قديمة، في منطقة الساحل في غير كثير من التدقيق. وليس لونغارا من ذكر حقيقي في المصادر العربية إلاّ في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وينسبون إليهم استغلال التبر وتسويقه في النيجر الأعلى. وفي القرن الرابع عشر، غالبًا ما كان اسمهم يُذكر مرفوقًا باسم جينيه، وتمتدّ المنطقة التي يجوبونها بعيدًا نحو الشرق إذا ما صح قول ابن خلدون مثلاً. وفيما بعد صاروا ينزعون إلى تعويض هذه الكلمة بعبارة جيوله وهي التي يُعرف بها إلى الآن التجار المتكلّمون بالماندانغ من منطقة السفانا حتى غانا.

المناطق الشمالية بجمال محملة بقوالب الملح. وكان يطلق على الجنوب اسم «ورودوغو» (بلاد الكولا) أو «تو – كورو» (الغابة)، وذلك أنه كان يرد عليهم جوز الكولا النفيس من الجنوب، وهو منطقة غابات يعسر اقتحامها وكانت تمتدّ من الشرق إلى الغرب «البلاد الجبلية» (غبي – كان)، وهو المجال الذي تحرّك فيه التاجر الونغاري، وهو يجوب المسالك مشيًا على الأقدام أو على ظهر حمار أو فرس.

ولما كان الملوك يحجون، فإن كثيرًا من السودانيين منذ القرن الثالث عشر، كانت لهم معرفة دقيقة ببلاد المغرب ومصر، وحتى بجزيرة العرب. ولا يمكن أن نعتمد على أي تقدير بالأرقام، لكن النصوص تحمل على الاعتقاد بأن وجود سفراء سود في القاهرة في نهاية القرن الخامس عشر يجعلنا نفترض تواجدًا كبيرًا للسودانيين بتلك المدينة.

ومن جهة المحيط الهندي، فلا بدّ أن «الزنج» و«السواحليين» كانت لهم معرفة تامة بالعالم العربي المشرقي وبالهند وربما أيضًا بالصين القصيّة.

وعلى الأرجح أن تجارًا سودًا من بلاد السودان أو من افريقيا الشرقية كانوا يخرجون للمتاجرة في المدن والبلاد العربية.

وفي مدارس تومبكتو (تنبكتو)، كانت تدرس الجغرافيا، وما من شك في أن كتب الجغرافيا الأساسية كانت هي نفس الكتب التي تدرس في القاهرة. فقد كان لملك من الملوك مثل مانسا كنكو موسى، على حد قول العمري، فكرة واضحة عن اتساع بلاد السود والحيز الذي كانت تشغله مالي فيها.

ولنا الآن دراية أفضل بالكيفية التي كانت الثقافات المحيطة تُعرف بها وخاصة «تنظر بها» إلى القارة الافريقية. والحديث عن الثقافات المحيطة معناه أننا ندرج ضمن تسمية واحدة العالم الإسلامي سواء منه الأفريقي أو غير الافريقي في الوقت نفسه – وسنرى ما لهذا التدقيق من وزن – والعالم الآسيوي، والعالم البيزنطي والعالم الغربي.

كان المسلمون يعرفون افريقيا إلاّ أن تقاليدهم الثقافية، المتوارثة جيلاً بعد جيل، ما تزال تعكس، في القرن الرابع عشر، أفكارًا قديمة، ومعلومات ناقصة. إن هذه النظرة المدرسية تتعارض، كما سنرى فيما بعد مع عملية اكتشاف القارة وهي عملية حقّقت في القرن الرابع عشر، تقدّمًا ملحوظًا، بعد أن كانت نشيطة منذ القرن الحادي عشر. فحتى العلاّمة ابن خلدون يقر بأنه يعوّل، فيما يخص مناطق بأسرها على بطليموس والادريسي[٢]. فهو يتحدّث عن المناطق الاستوائية، فيقول معترفًا بحيرته: «ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه بسبب الحر والجدب المميز للإقليمين الأول والثاني من العالم»[٣]، إلاّ أن مؤرّخنا العظيم يلاحظ قائلاً «وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة. فكيف يتمّ البرهان على ذلك؟». وبعد أن يقيم حجج الأطراف يقول «فإن خط الاستواء والذي وراءه، وان كان فيه عمران فهو قليل»[٤].

وإذا أردنا أن نفهم الموقف الفكري الذي وقفته الثقافات النابعة من الديانات التوحيدية، بشأن

(٢) ابن خلدون، ترجمة فرنسية ف. مونتاي، ١٩٦٧ – ١٩٦٨، ص ١٠٠ (النص الأصلي، المقدمة، ص ٨٣، ٨٧).

(٣) ينقسم العالم، فيما يُروى عن بطليموس وعن علماء المسلمين إلى سبعة أقسام – أو أقاليم – من الجنوب (الجهة الاستوائية) إلى الشمال (الجهات الشمالية). والقسمان الأولان المذكوران هنا يوافقان، إجمالاً، بالنسبة إلى افريقيا، المناطق الاستوائية والمدارية الشمالية.

(٤) ابن خلدون، ورد ذكره سابقًا، ص ١٠٣ – ١٠٤.

افريقيا والبحار التي تحوطها ، يحسن بنا أن نتذكّر طائفتين من الأفكار ماثلة لدى جميع المؤلّفين من يهود ومسيحيين ومسلمين طوال القرون التي تهمنا . وتنبع الأولى من الاعتقاد بأن الأرض تحيط بها جميعها مياه بحر محيط . يقول ابن خلدون « فانحسر الماء عن بعض جوانبها (الأرض) لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري »[٥] . وافريقيا ، وهي أكثر القارات المعروفة وقوعًا في الطرف الجنوبي من الكرة الأرضية ، تحيط بها ، في معظمها ، بحار واسعة جدًا ولم يتم استكشافها بعد[٦] . فالمناطق الاستوائية التي تصطلي بحر الشمس برًا وبحرًا ، تكوّن بالنسبة إلى ورثة الحضارة الهلينستية ، سواء أكانوا من العرب أم من الغربيين حدًّا للعالم الذي يقدر الإنسان على احتماله . على أن العمران هو ، بالنسبة إلى جميع أولئك ، ورثة الثقافات التي نشأت على ضفاف البحر المتوسط « مندرج بين الاقليم الثالث والسادس »[٧] والجنوب خلاء كله وكذلك الشمال . أما المحيط الأطلسي والجزر التي فيه فمعرفتنا بها ليست أفضل من ذلك في ما خلفه لنا الباحثون من مسلمين ومسيحيين من كتب تعليمية تقليدية[٨]. وتمثّل الجزائر الخالدات – الكناري – في المحيط الأطلسي الحد الغربي مما هو معروف من العالم ، وهي في نظر عدد كبير من المؤلّفين العرب المتقدّمين عن القرن الرابع عشر ، غير آهلة بالسكان ، وقد زارها ذو القرنين (الاسكندر الأكبر) في قديم الزمان دون أن يتمكّن من الملاحة غربيها «أما لعمق أغوارها أو لما ينعقد فيها من الضباب الكثيف أو خشية التيه والهلاك »[٩] .

أما الرحّالة المسلمون الذين سافروا إلى افريقيا الغربية منذ القرن العاشر على الأقل[١٠] برًا أو بحرًا على امتداد السواحل الشرقية ثم توغّلوا تدريجيًا جنوب مدار السرطان فإنهم قد باشروها على نحو آخر . وما لنا من معلومات ترجع إلى القرن الرابع عشر عن طريق ابن بطوطة والعمري أساسًا[١١] يبيّن أن المعاينات الثرية تفنّد المعلومات المكرّرة المستمدّة من الثقافة التي تعتمد الكتب . وقد قدّم المحيط الهندي ، من جهة أخرى للعالم الإسلامي جملة المعلومات الآسيوية فيما يتعلّق بالملاحة وعلم الفلك .

أما بالنسبة إلى بعض المؤلّفين الذين اهتمّوا خاصة بافريقيا الغربية ، فإن ما أحاطت به الحضارات الإفريقية نفسها من أسرار حرصًا منها على استقلالها ، والكوابح التي وضعتها السلطة أمام دخول التجار

---

(٥) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٩٠ وما بعدها .

(٦) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ١١١ – ١١٢ : « فالأول منها (الأقاليم) مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء يحدّه من جهة الجنوب وليس هنالك إلاّ القفار والرمال (...) إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط » .

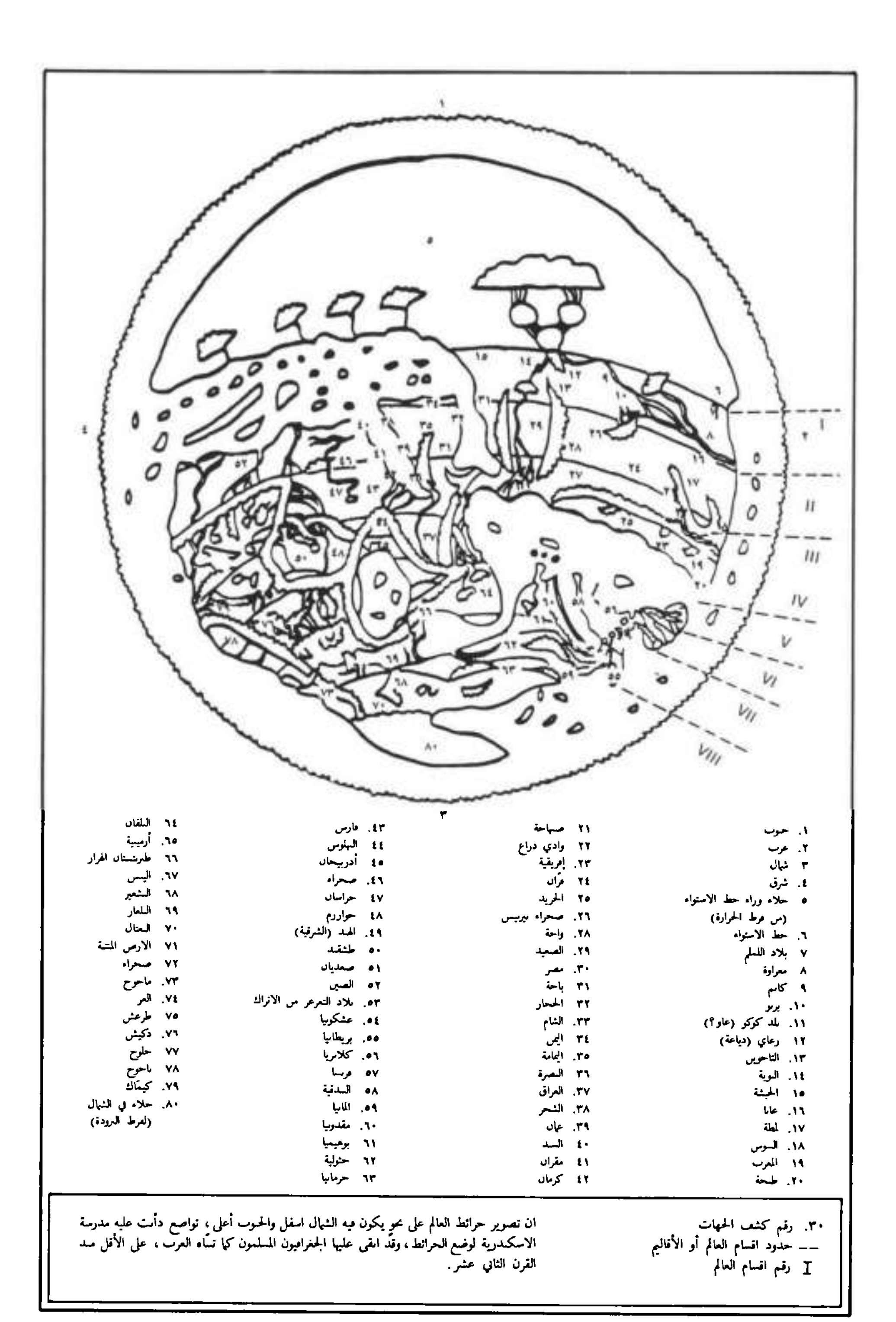
(٧) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ١٠١ – ١١٧. ويتحدّث ابن خلدون عن القسم الغربي من افريقيا التي يتردّد عليها تجار المغرب الأقصى قائلاً : « وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يُقال لهم « لملم » كفار يكتوون في وجوههم وأصداغهم... وليس وراءهم في الجنوب عمران يُعتبر إلاّ أناس أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق... وليسوا في عداد البشر (ص ١٦٦) : والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال ، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك » .

(٨) بشأن جزر الكناري ، أنظر مثلاً : الإدريسي ، ترجمة ج . كوك ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٧ ؛ وابن سعيد ، ترجمة ج . كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠٢ – ٢١٢ .

(٩) ابن سعيد ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٠) هذا إذا استثنينا تلك الرحلة التي ربما قام بها ابن فاطمة على امتداد السواحل الافريقية ، والتي يذكرها ابن سعيد (ج . كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٢) ورحلات أخرى سنتعرّض لها فيما بعد .

(١١) ينبغي ألاّ نستهين بالأبحاث العظيمة التي أنجزها المسعودي في القرن العاشر ، والبكري في القرن الحادي عشر ، والإدريسي في القرن الثاني عشر . وتدلّنا دراسة قيمة قام بها ت . ليفيكي ، عن الإدريسي مدى ما امتاز به مبدع على رأس مجموعة كبيرة من الباحثين من جد . ت . ليفيكي ، ١٩٦٧ ، ص ٤١ – ٥٥ .



• خريطة العالم، حسب الادريسي وابن خلدون

وناشري الدين الإسلامي من غير مراقبة إلى منطقة الساحل الافريقي ومنطقة السفانا كل ذلك يبقى عديدًا من المسائل التي نود دراستها أو حلّها قائمة برمتها. وثمة على الأقل، من ضفاف البحر المتوسط إلى منعطف مجرى نهر النيجر والى منابع نهري إلسنغال والنيجر، وإلى التشاد وشمال نيجيريا الحالية، مجال ممتد يمكن للرحالة العرب زيارته والتأمّل فيه ووصفه. أما ما ظلّ مجهولاً لديهم وهو إجمالاً مجال الغابات، فيحتوي على طائفة من أكثر الخصائص مخالفة «للمألوف في حوض البحر المتوسط» من الصحارى والفيافي. فمنطقة الغابات وخصائصها المناخية الفريدة جدًا هي بالذات المجال الذي سيكتشفه الأوروبيون، الذين يجهلون تمامًا أو يكادون داخل القارة. وما تزال افريقيا إلى اليوم تعاني من نتائج تغاير المجالات التي اكتشفها هؤلاء وأولئك.

وكان الاهتمام في الغرب المسيحي بافريقيا من حيث هي اهتمامًا ضعيفًا[١٢]. فقد كان التجار ينظرون إليها نظرة نفعية، وكان همهم اختراق أسرارها فيما وراء «الستار الإسلامي». فتفحص بعضهم في اهتمام ما بذله واضعوا الخرائط من جهد لتجميع المعلومات المستقاة من العرب والتي وصلتهم عبر اسبانيا في صورة خرائط متناسقة لصورة افريقيا فيها شمال مدار السرطان، شكل يكاد يكون مقبولاً.

وقد جسّد الميورقيون[١٣]، ورثة العلم العربي عن طريق اليهود الوافدين من اسبانيا جملة المعارف المكتسبة آنذاك في أشهر الخرائط البحرية الكبرى الأولى. وفي سنة ١٣٣٩، كشفت خريطة انجيلينو دلسرت الشهيرة للمسيحيين وجود «ملك ملي، له من الذهب ثروة طائلة. وفي آخر القرن ذاته، تدلّنا خرائط الكراسك الدقيقة في وضوح على أن مفتاح الجنوب، موجود بالنسبة إلى أصحابها، في تلمسان وأنهم بدأوا يعرفون المسالك المؤدّية إلى بلاد السود[١٤].

لقد صاحب هذا المجهود التأليفي محاولات للتوغّل في بلاد السود عن طريق المسالك التجارية الصحراوية، وما من شك في أنها محاولات كثيرة وأن النسيان قد طواها إلى الأبد. وما رحلة مالفانتي الجنوي إلى توات سنة ١٤٤٧ إلاّ من قبيل تلك السلسلة في «عمليات الاستكشاف» التي كانت لها نتائج طفيفة جدًا[١٥]. أما المصريون من جهتهم، فقد نجحوا منذ نهاية القرن الثاني عشر في منع كل تسلّل مسيحي جنوب القاهرة أو من البحر الأحمر. فقد اهتمّ المسيحيون زمنًا طويلاً بالمسلمين الذين يعيشون في افريقيا أكثر مما اهتمّوا بالقارة في حد ذاتها.

وكان الأمر كذلك إلى أن تمكن الأوروبيون لأول مرة بفضل التوسع البرتغالي من الاتصال بعدد كبير من السود من غير المسلمين. وإن تأسيس كلية ميرامار في جزر الباليار سنة ١٢٧٦، وتأسيس مركز

---

(١٢) أنظر: ف. دو مديروس، ١٩٧٣. وسينشر العمل كاملاً في القريب. وينبغي أن نعد في جملة الطرائف المثيرة – التي تسمى في اللاتينية ميرابيليا – ذكر دانتي للصليب الجنوبي أو اشارات بيترارك إلى جزر الكناري (ر. هنيج، ١٩٥٣، ص ٣٦٩ وما بعدها). وكذلك تلميح، رامون لول، في آخر القرن الثالث عشر، إلى «غانة» في رواية شهيرة والى ما يحيط المدينة من زنوج وثنيين كثيرين يتميّزون بالخفّة والمرح والشدّة في الإنصاف. فهل يجب أن يحمل محمل العمل الأدبي شأنه في ذلك شأن عديد من التفاصيل الشبيهة بها لدى مؤلّفين آخرين؟

(١٣) أنظر: ج. فيرنيه، ١٩٥٦.

(١٤) ليس من الممكن هنا بطبيعة الحال، إلاّ رسم الخطوط الكبرى البارزة من هذه المسألة بايجاز شديد. وقد نشر حولها عدد كبير من الأبحاث. وهي جديرة بأن تسترعي في المستقبل انتباه الباحثين لأننا أبعد ما نكون عن استكمال جميع الملاحظات الممكن استخراجها من تلك الوثائق.

(١٥) ك. دو رونسيير، المجلد الأول، ١٩٢٥، ص ١١٤ وما بعدها. إن رواية النص كما نشرها جديرة بأن تُراجع مراجعة متأنية بالاعتماد على المخطوط. وعن التأويل الذي أول به ذلك السفر، أنظر: ج. هيرس، ١٩٧١، ص ٦٦ وما بعدها.

للدراسات عن اللغة العربية والإسلام في افريقيا الشمالية في آخر القرن الثالث عشر ، يدل على رغبة وأمل في تنصير المسلمين ، بدت عند الدومينيكان والفرنسيسكان. وكنتيجة غير مباشرة اكتسبت معرفتهم لأفريقيا بعض الملامح الجديدة.

وقد ظلّت تدخّلات البابا لا تطال القارة نفسها ، فقد كانت ما تزال ترمي في بعض الحالات في آخر القرن الحادي عشر إلى المحافظة على آخر البقايا المسيحية في «إفريقية» التي كانت في طريق الاضمحلال. وكانت ترمي في بعض الحالات الأخرى عن طريق المساعي الديبلوماسية لدى الملوك المسلمين إلى ضمان بقاء الكنائس التي أُنشئت في المغرب الأقصى للمجموعات المسيحية ، من تجار ومرتزقة ، ممن استقرّوا في بلاد المغرب ، وأحياناً كانت تلك المساعي تتخذ صبغة أقل تكتّماً ، فتمثّل تدخّلات مباشرة في حياة بلاد المغرب[١٦] . وسيعطي مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا معرفة افريقيا طابعاً حاسماً. فقد اعتقد هؤلاء المنقّبون عن المعادن النفيسة والمعادون للمسلمين أنهم قد وجدوا في «برسترجون» (الملك الشرقي المسيحي) — وهو من معارف الصليبيين القديمة ، وهم الذين بدأ باقي أوروبا في ذلك الوقت بالضبط ينساهم — «حليفاً من الخلف» افريقيًا ضد الإسلام.

أما آسيا فلئن عرفت الساحل الشرقي من افريقيا قبل التوسّع الحاسم الذي حصل قبل القرن الخامس عشر بعهد طويل ، فإنها لا تولي ، طبقاً لما لدينا من وثائق مكتوبة ، للقارة الافريقية ، سوى اهتمام محدود[١٧] .

مجال يتّسع من العلاقات الديبلوماسية المتوسطية إلى المبادلات الإفريقية — الأوروبية

كان المؤرّخون في قديم الزمان لا يهتمّون إلاّ بالعلاقات الديبلوماسية والحربية بين الجزء الإسلامي من افريقيا والغرب. ومن فضول القول هنا ، أن نعود إلى وقائع معروفة جدًا. إلاّ أنه يمكن أن نلاحظ بكل بساطة ، أنه إذا ما أبدى المسلمون مقاومة يعوزها التنسيق أمام هجمات المسيحيين ، فإن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا هم أيضًا قادرين على العمل عملاً منسقًا موحّدًا. لقد كانت الدول الإسلامية من الغرب إلى الشرق ، في ظل السلالات المختلفة التي حكمت مجالات إقليمية مختلفة الاتساع في اسبانيا والمغرب الأقصى وتلمسان وافريقية ومصر ، غالبًا ما تتصرّف ، بعد زوال دولة الموحّدين ، تصرّف الغرماء إزاء بعضهم بعضًا. ولم يعد الإسلام ، تلك القوة الموحّدة الروحية والثقافية العظيمة ، يشكّل قوة سياسية وعسكرية قادرة على محو تضارب المصالح بين الأمراء. كما أن المصالح الاقتصادية للدول المسيحية من قشتالة إلى ايطاليا كانت متضاربة بشكل واضح وذلك رغم انتمائها جميعًا إلى إيديولوجية مشتركة.

ولم يكن تاريخ حوض البحر المتوسط الديبلوماسي والعسكري والسياسي، في ظاهرة خلال تلك

(١٦) من ذلك مثلاً عندما طلب إنوسنت الرابع سنة ١٢٥١ إنشاء مواقع آمنة للمسيحيين على ساحل المغرب الأقصى ، أو عندما توجه نيقولا الرابع سنة ١٢٩٠ برسالة باباوية إلى جميع مسيحيي افريقيا الشمالية ، أو سنة ١٤١٩ عندما توجّه البابا مارتين الخامس إلى السلطة المسيحية في المغرب الأقصى.

(١٧) ج. ج. ل. دويفنداك ، ١٩٤٩ ؛ ت. فيلزي ، ١٩٦٢ ؛ تشو يي ليانج ، ١٩٧٢.

القرون، منطقيًا كثيرًا. فقد كانت جنوة تساند دائمًا مملكة غرناطة ضد قشتالة، ولم تكن غرناطة رغم استغاثاتها تلقى من المغرب أو من مصر سوى دعم لا يعتد به. وان تنافس البلدان الواقعة على جانبي مضيق جبل طارق، بشأن مراقبة ذلك الممر المائي، مفتاح الملاحة نحو الأطلسي[١٨]، هو الذي يفسر لنا التقلبات المتعاكسة لسياسة بني مرين وأصحاب غرناطة. كما توضح مصالح مصر التي تتعامل مع قشتالة وأراغون أسباب ضعف دعمها لغرناطة. وقد دخل بنو مرين في صراع ضد جيرانهم في تلمسان، وكان همّ الحفصيين زحزحة أصحاب تلمسان نحو الغرب وكبح جماح كل توسّع مريني كبير. وتظل العلاقات الصعبة المتضاربة بين أهل البندقية وأهل جنوة فيما بينهم، وبين الاثنين معًا وبين المماليك والعثمانيين من جانب آخر، تظل غير مفهومة بالنسبة إلى من يكتفي بظاهر العلاقات الديبلوماسية. أما الحقيقة فموجودة على مستويات أخرى ولها مدى آخر.

كان المسلمون، بالإضافة إلى سيطرتهم على المبادلات بين آسيا وأوروبا بمجرد سيطرتهم المحكمة على مجالهم السياسي الاقتصادي، قد ربطوا اقتصاد «السهل» الافريقي بالمبادلات العالمية ربطًا متينًا. وقد استخرجت افريقيا الشمالية مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من المناطق الجنوبية وحتى مشارف الغابة موارد ضخمة وخاصة من الذهب بصورة بطيئة في ما بين القرن السابع والقرن العاشر وبسرعة أكبر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. فقد بدأت المسالك الجنوبية أو «المائلة» منذ ذلك الحين تلتقي بمحاور التجارة الإسلامية الكبرى[١٩]. وقد تعلّق ذلك بغرب افريقيا في عهد مملكة مالي ومملكة غانا، وكذلك العير والتشاد ودارفور والنيل الأوسط[٢٠]. وكانت النتائج بالغة الأهمية في منطقة «الساحل»[٣١]. فقد تكوّنت منذ القرن الثاني عشر، في الشمال عند نهاية كل شبكة كبرى من المسالك الجنوبية، مملكة تنافس جاراتها. وتفاقمت المنافسة الاقتصادية بين الأمراء، وغالبًا ما كان ذلك من دون أي نفع يجنيه الأهالي اللهم إلاّ كما حصل في مدينة تلمسان مثلاً، حيث ظهرت بها بورجوازية تجارية. ومنذ القرن الثاني عشر، انتهزت الممالك المسيحية تلك المنافسة وما نتج عنها من ضعف سياسي وعسكري، وهكذا ارتبط المجال الإسلامي وتوابعه الجنوبية بمنطقة أوسع كانت في أوج ازدهارها الاقتصادي هي الغرب المتوسطي، ثم أوروبا بأكملها. وقد ظهرت أبرز آثار هذه «الثورة»[٢٢] بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. وقد أحكمت مالي والصنغي مراقبة الصادرات وفرض الجمارك على الواردات[٢٣]. بل ان تنويع مسالك التصدير، وتنويع الزبائن الذي سعى فيه المانسا ملوك مالي، وملوك بلاد غاو، قد أسهم إسهامًا غير قليل في تطوير العلاقات على جميع المستويات بين «الساحل» ومن يتعامل معه من أطراف متنافسة في شمال القارة. وقد بدأت كثرة السفارات والمراسلات تكشف لنا عن الديبلوماسية النشيطة اللبقة التي سلكها الملوك السود في بحثهم عن الخلاص من النتائج الوخيمة التي تنتج عن احتكار منتجاتهم بيد مشتر

(١٨) تكرّس معاهدة ١٢٨٥ بين قشتالة وبني مرين تغيّرًا عميقًا في ميزان القوى. فقد تخلّى بنو مرين آنذاك عن التراب الاسباني وعن تواجدهم في البحار معًا، وفي مقابل ذلك حصلوا – وهو أمر ذو دلالة ثقافية بالغة بالنسبة إلينا – على شحنة من الكتب نقلت من قرطبة إلى فاس (ش. أ. دوفورك، ١٩٦٦، ص ٢٠٦).

(١٩) لقد انتفع الفاطميون فالأمويون بالأندلس، فالمرابطون فالموحّدون تباعًا بفوائد السيطرة على أعظم النقاط التي تصل إليها المسالك الجنوبية. أنظر ج. ديفيس، ١٩٧٠ و١٩٧٢.

(٢٠) ما زلنا نفتقر إلى كثير من الدراسات للكشف عن تاريخ تنقّل الأشخاص والممتلكات في المناطق المعنية بالأمر.

(٢١) قد سبق لنا تحليل هذا الرأي. أنظر ج. ديفيس، ١٩٧٢.

(٢٢) ر. س. لوبيز، باريس، ١٩٧٤، ص ٢٥٢.

(٢٣) أنظر ج. ديفيس، ١٩٧٢.

واحد[٢٤]. وكان لهذا الوضع الجديد آثار عميقة متنامية على العلاقات بين افريقيا الشمالية وافريقيا المدارية، ولكن أيضًا على الوضع الداخلي في الممالك الإسلامية شمالاً. فما عرفته سلالات المرينيين والوطاسيين والسعديين في المغرب الأقصى من ضروب النجاح والإخفاق، مثلاً، إنما يعود في قسم كبير منه إلى تأزّم العلاقات مع الجنوب أو تحسّنها.

وكان الضغط العسكري والتجاري المسيحي يتفاقم يومًا بعد يوم. وما عدد المعاهدات[٢٥]، وتكرّرها إلاّ دليل على تصلّب تجار الشمال وملوكهم، وعلى المرونة التي اتسم بها رد فعل المغاربة. كما يدل تعدّد الوكالات التجارية[٢٦] المنعزلة عن إطارها المغربي بدرجات متفاوتة والمتنافسة فيما بينها دائمًا ما كانت أوروبا توليه من قيمة لتجارة افريقيا. وقد أصبحت افريقيا حتى منطقة الغابات، منذ ذلك الحين جزءًا من مجال اقتصادي يستغل فيه الشمال الجنوب[٢٧].

ومصر هي البلد الوحيد الذي استطاع تنظيم مراقبة الحركة التجارية الأوروبية في موانئه على نحو تمكّنت معه السلالات الحاكمة المتعاقبة بها أن تستفيد بمنافع مختلفة من تلك الحركة[٢٨].

ولم يكن الأوروبيون، وهم يتنافسون فيما بينهم منافسة شديدة، يطبقون في متاجرتهم مع افريقيا نفس الطرق. فقد كان جميعهم يسعى إلى الحصول على أفضل ميزان للحسابات، لكن إمكاناتهم الاقتصادية والاستراتيجية كانت متنوّعة جدًا. وظلّت البندقية حتى آخر القرن الخامس عشر وفية لتصوّر للتجارة بدأ يتأرجح أمام نشأة أشكال أكثر حداثة. فكانت البندقية تشتري توابل آسيا من مصر وسوريا وتبيعها بثمن مرتفع جدًا. ولم يكن همها أن تستورد كميات كبرى لثقتها بأنه يمكنها احتكار البيع إزاء سوق يستحيل إشباعها: فكان يمكنها أن تبيع بأكثر الأسعار شططًا. ومن هذه الزاوية، فإن مصر وشرق البحر المتوسط هي البلاد التي كانت تهمها أكثر من غيرها[٢٩]. وتفاقمت الصعوبات في القرن الخامس عشر، وهنا لم تجد البندقية مانعًا من إمداد طرابلس وتونس بالمصنوعات الزجاجية والأغطية والنحاس والمرجان، لكي تحصل مقابل ذلك على الذهب. كما احتفظت البندقية أيضًا، بفضل احتكارها لمادة السكر القادم من الشرق وقبرص أو من جزيرة كريت، بإمكانات واسعة للإثراء. وقد ظلّت مصر والحوض الشرقي من البحر المتوسط مدة طويلة بوصفها النقاط التي تنتهي إليها التجارة مع آسيا والشرق الأوسط أكثر أهمية بالنسبة إلى البندقية من افريقيا ذاتها[٣٠].

وكان أهل جنوه، في القرن الرابع عشر، يمدّون تلك المناطق الشرقية نفسها بالقمح[٣١] والعبيد،

---

(٢٤) المرجع السابق، وأنظر كذلك م. أبيتبول، ١٩٧٥، ص ٣٧٠.

(٢٥) أنظر الرسم رقم ١.

(٢٦) أنظر الرسم رقم ٢.

(٢٧) ج. ديفيس، ١٩٧٢، ص ٣٦٩.

(٢٨) أنظر ك. كاهن، ١٩٦٥.

(٢٩) أنظر بشأن النتائج المترتبة عن هذا الاختيار بالنسبة إلى أهل البندقية، ر. رومانو، وأ. تينتي، وف. توتشي، ١٩٧٠، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٣٠) تضايق أهل البندقية هم أيضًا من التوسّع العثماني فأعطوا للمتاجرة مع طرابلس بداية من القرن الخامس عشر أهمية ما زلنا في الطور الأول من إدراكنا لها: وكانوا يحصلون منها خاصة على الذهب.

(٣١) كانت مراقبة تصدير القمح من البحر الأسود، التي قام بها البيزنطيون قديمًا، مستخدمينها وسيلة ضغط على الفاطميين بمصر، من نصيب الجنويين، وكانوا قد جعلوا منها احدى أوراقهم الرابحة في مواجهتهم المماليك. ومن المهم أن ندرس إن كانت وجدت أساليب أخرى من «ديبلوماسية الحبوب» في المغرب مثلاً، والتي لعلها تشكّل نفس وسائل

وكانت علاقاتهم مع انجلترا توفّر لهم الأغطية الصوفية من النوع الرديء نسبيًا إلاّ أنها كانت تُباع بثمن مناسب[٣٢] . فلم يكونوا يحصلون على أرباح ضخمة في كل عملية ، وكانوا يستكثرون من فرص البيع[٣٣] مكوّنين هكذا ، إجمالاً ، حجمًا من المبادلات لا بأس به من حيث القيمة . وكان الجنويون ، شأنهم في ذلك شأن القاطالونيون ولكن على مدى أوسع وقبلهم بزمن طويل يؤجّرون سفنهم للمسلمين ، لنقل الأشخاص والممتلكات ، بين مصر واسبانيا . وكانت بلاد المغرب ، والحوض الشرقي من البحر المتوسط ، تكتسي بعد بالنسبة إليهم أهمية بالغة . وعندما طردتهم الفتوحات العثمانية من الحوض الشرقي ، اعتمدوا منذ ذلك الحين اعتمادًا تامًّا على المتاجرة مع أفريقيا الشمالية . فلكي ينافسوا أهل البندقية في مبيعاتهم من السكر ، كانوا يطبقون أسعارًا أكثر انخفاضًا منهم بكثير وطوّروا ، لأول مرة في التاريخ ، تجارة هذه المادة تعتمد على الكم. لكنهم منذ ذلك الحين أصبحوا في حاجة إلى السيطرة، سيطرة مباشرة أو غير مباشرة ، على المناطق المنتجة للسكر . وفي بداية الأمر كان الإسبان من مسلمين ومسيحيين هم الذين يوفّرون المحاصيل الكبيرة[٣٤] . وتقرّبت منهم جنوه بطبيعة الحال . ثم ان الجنويين اشتركوا مع البرتغاليين اشتراكًا قويًا في سياستهم القائمة على الاستكشاف ، وعلى زراعة قصب السكر في جزر المحيط الأطلسي التي كان يحتلّها البرتغاليون ، وعلى تسويق السكر من جزيرة مديرا أو من جزر الكناري . وقد أدّت سياسة الجنويين هذه بطبيعة الحال إلى ظهور الايطاليين فجأة في مضيق جبل طارق وفي المحيط الأطلسي ، وإلى مشاركتهم المباشرة أو غير المباشرة في الاستكشافات[٣٥] ، وإلى الأبحاث الكثيفة التي كانت جارية ، خاصة في البرتغال ، في مجال بناء السفن.

إن هذه الأحداث جديرة بالإبراز لأنها تفسر جميع الآليات المقبلة للتوسّع البرتغالي في المحيط الأطلسي وتؤذن بنتائج ذلك التوسّع بالنسبة إلى افريقيا . فالقاطالونيون[٣٦] ، وكانوا آخر من طرق هذا الباب ، لم يبلغوا من القوة ما بلغه منافسوهم الكبار ، الايطاليون ، فضاعفوا من العمليات التجارية الصغرى ذات المردود القليل . أما الموانئ والبلدان الغربية الأخرى فقد أرهقها النسج على هذا المنوال.

وليس هذا أهم ما في الأمر ، فبغض النظر عن العاج[٣٧] وبعض أكياس الكولا ، وحبوب فلفل

الضغط على البلدان ذات المحاصيل غير المنتظمة . إن دراسة حركة انتقال الحبوب في افريقيا تظل بالنسبة إلى تلك القرون عملاً ينبغي القيام به برمته . وتوجد بعض الإشارات النادرة ، عن داخل القارة ، لدى مؤلّفي القرن الرابع عشر . فقد أبحرت من وهران سنة ١٤٧٧ سفينة تحمل ٦٤٠ طنًا من الحبوب متجهة نحو جنوه ؛ أما المغرب الأقصى الأطلسي ، فكان هو الآخر يصدّر القمح إلى البرتغاليين في القرن الخامس عشر.

(٣٢) لقد توغّلت المنسوجات الأوروبية بعيدًا نحو الجنوب ونعرف ذلك عن ابن بطوطة في وصفه لملابس المانسا في مالي (ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٥).

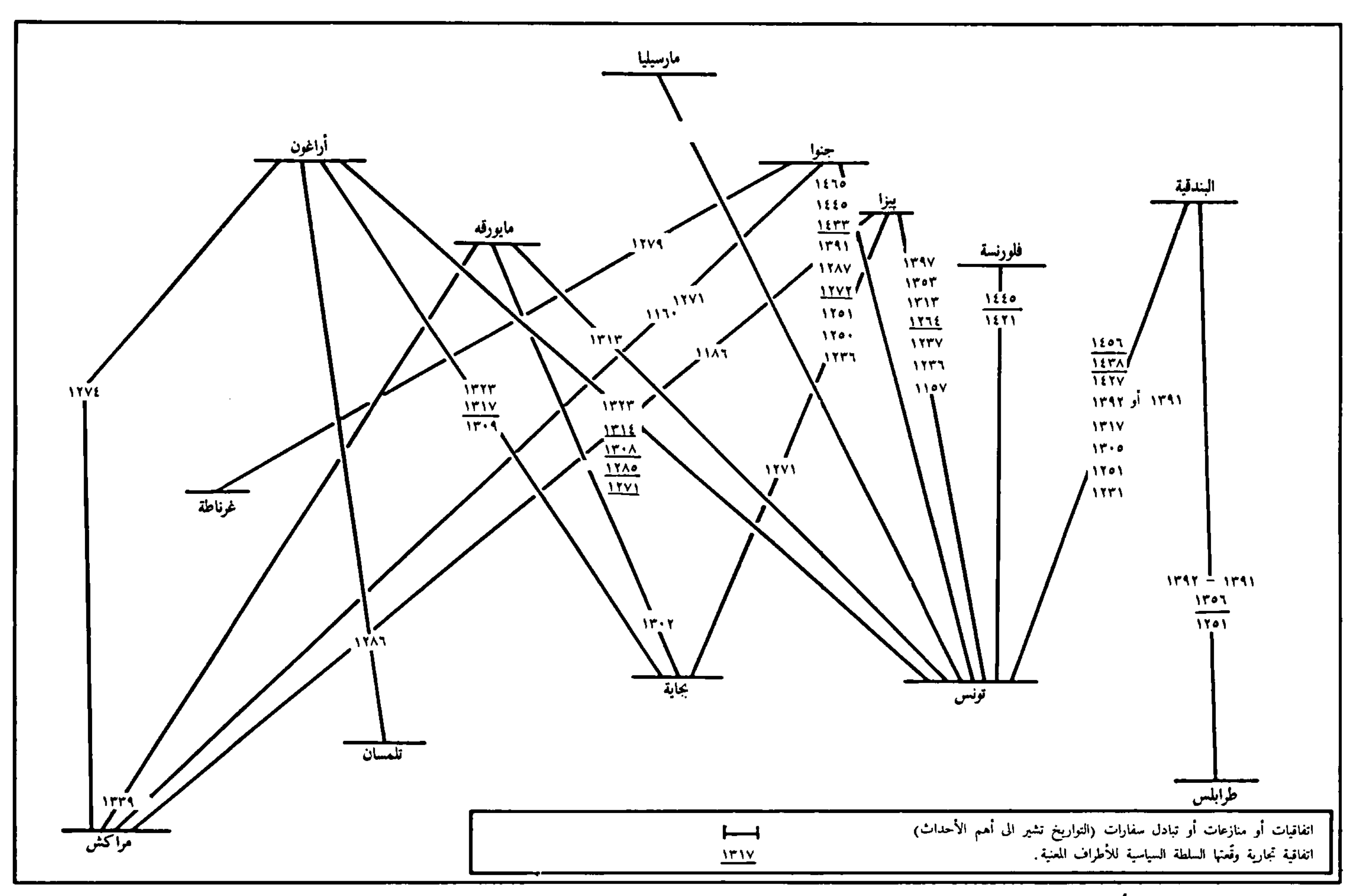
(٣٣) نسجل سنة ١٤٤٥ من بين البضائع التي حجزها أهل غرناطة على الجنويين ٩٠ كيلو جرامًا من « الودع » (وهو نقد صدفي كان رائجًا في الهند وافريقيا السوداء). أنظر بشأن هذه المسائل ، ج. هيرس ، ١٩٥٧ ص ١٢٠.

(٣٤) لقد كان سقوط مملكة غرناطة سنة ١٤٩٢ ، من هذه الزاوية خيبة كبرى للجنويين ولكنها خيبة مؤقتة ، فما يتعلّق بسياسة بيع السكر . ولا شك أنها أسهمت في تكثيف إنتاجه في جزر المحيط الأطلسي ، أنظر ج. هيرس ، ١٩٥٧ ، ص ٨٩ وما بعدها وص ١٧٠.

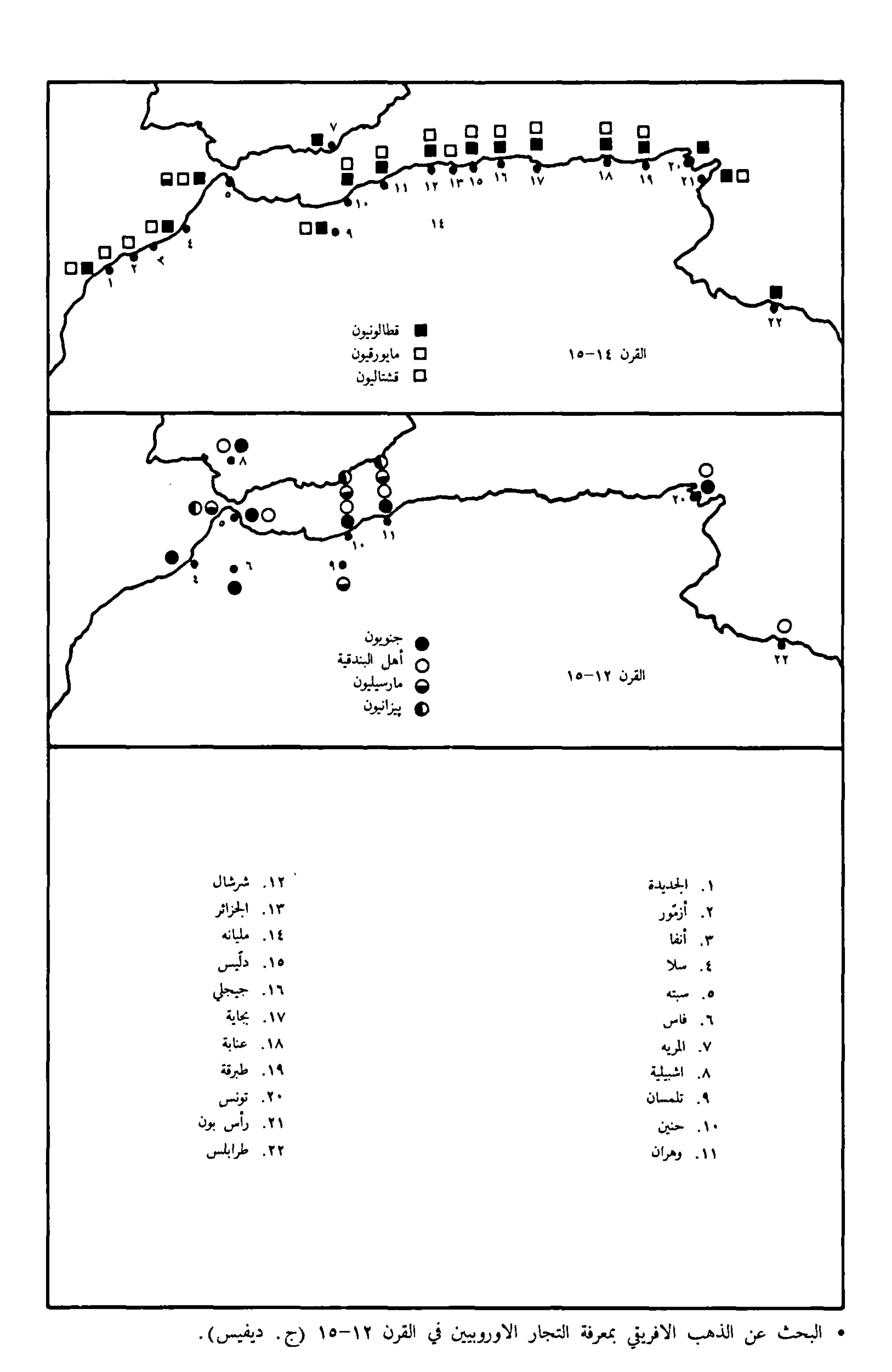
(٣٥) ش. فرلندن ، ١٩٥٩ ، ص ٣٣٨ – ٤٠٧ ؛ ١٩٦٦ ، ص ٢٤.

(٣٦) بشأن التجارة القاطالونية ، أنظر ش. أ. دوفورك ، ١٩٦٦.

(٣٧) بيَّن ف. ل. جروتانلي ، (المجلّد ٣٠ ، رقم ٤ ، ١٩٧٥ ، ص ٤٧٥ – ٥٠٥) ان استيراد أوروبا للتحف الافريقية المصنوعة من العاج أمر سابق على التوسع البرتغالي . وهذه الظاهرة التي قلّ وندر أن درست على جداراتها بلفت انتباه الباحثين تخوّل لنا القول بأن تأثير الفن الافريقي في أوروبا ربما حصل قبل القرن الخامس عشر.



• العلاقات التجارية بين الأماكن المطلة على البحر المتوسط الغربي (ج. ديفيس)



• البحث عن الذهب الافريقي بمعرفة التجار الاوروبيين في القرن ١٢–١٥ (ج. ديفيس).

الملاكيت وغيرها من المنتجات الكمالية ، فقد أصبحت افريقيا حاضرة بصورة أجلى في اقتصاد البحر المتوسط بذهبها وبما انتزع منها من رقيق . وفي كلتا الحالتين فإن البحث الشامل في هذه المسائل ما زال أمرًا بعيدًا وحسبنا أن نبدأ بذكر بعض النتائج التي أصبحت معروفة .

لقد أسهم ذهب افريقيا بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر ، خاصة في سك نقود الفاطميين والأمويين والمرابطين والموحدين ثم الحفصيين[٣٨] . وكان الذهب يتدفّق دومًا نحو شمال القارة الافريقية ، مع بعض التقلّبات التي لا نعرفها تمام المعرفة ، وذلك حتى آخر القرن الخامس عشر . وكان لا يزال يوفّر للسلوك الذين يسيطرون على حركة سيره بدرجات متفاوتة المادة التي يسكون منها النقود ، وينتهجون سياسة البحث عن الشهرة ويحيون حياة الترف في البلاطات التي حدّثنا عنها الكتّاب العرب . إلاّ أن أحداثًا جديدة قد غيّرت الوضع شيئًا فشيئًا لصالح الأوروبيين .

فمنذ آخر القرن العاشر ، وهو أمر أصبح معروفًا اليوم ، بدأ مسيحيو اسبانيا يحصلون على الذهب من الجنوب[٣٩] ، ولكن الوسائل كانت آنذاك ما تزال بدائية .

وابتداءً من القرن الثالث عشر ، تغيّرت الحال وتراكمت الأرباح[٤٠] . ففي تلك الآونة اشتهرت تجارة تونس ، اجمالاً ، بأنها توفّر للمسيحيين من ٢٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ دينار سنويًا ، وكانت تجارة بجاية توفّر لهم من ١٢٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ دينار . وحصلت ميورقة سنة ١٣٠٢ وفي السنوات التي تلتها على ٢٠٠٠ دينار ذهبًا[٤١] ، وذلك رصيد تجارتها مع بجاية . وفي سنة ١٣٧٧ دخل إلى جنوه ما قيمته ٦٨٠٠٠ جنيه ذهبًا ورد معظمها عبر اسبانيا المسيحية أو مملكة غرناطة[٤٢] . وبعد ذلك بخمس وسبعين سنة كانت جنوه تحقّق من نفس تلك المسالك التجارية حوالى ٤٥٠٠٠ دوكا[٤٣] سنويًا . وكانت القيمة الإجمالية للصادرات القاطالونية نحو مجموع بلاد المغرب – لا الأرباح وحدها – تقدّر في القرن الخامس عشر بحوالى ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف دينار سنويًا[٤٤] . وقد تكون المداخيل السنوية التي تحصل عليها برشلونة حوالي ١٢٠٠٠٠ دينار[٤٥] . ولكن التقديرات تعوزنا ، للأسف ، فيما يخص متاجرة البندقية وجنوه مع المشرق التي لا شك أنها كانت هي أيضًا ، مصدر كميات ضخمة من الأرباح . فليس من الغريب اذن أن تظهر ، في تلك الظروف في الموانئ المسيحية الكبرى الواقعة على ضفاف البحر المتوسط ، وفي بعض المدن الكبرى مثل ميلانو ، وفلورنسا ، طبقة نشيطة من التجار . ولما كان الربح يستدعي الربح ، فإن عظمة هؤلاء «الرأسماليين» ، مضروبة في تنظيم الشركات ، ستمكنهم من أن يبادروا وعلى نطاق واسع ببناء السفن[٤٦] وتجهيز أساطيل ذات حمولة يتنامى حجمها يومًا بعد يوم .

---

(٣٨) إن الأبحاث المنشورة في هذا المجال كثيرة جدًا . تابع منها خاصة «مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق» ، منشورات الجمعية الملكية الانجليزية للمسكوكات ، والجمعية الأمريكية للمسكوكات ، نيويورك .

(٣٩) ب . بوناسية ، جزء ١ ، ١٩٧٥ ، المجلد الأول ، ص ٣٧٢ وما بعدها .

(٤٠) ب . فيلار ، ١٩٧٤ ، ص ٤٢ .

(٤١) ش . أ . دوفورك ، ١٩٦٦ ، ص ٤٢٩ .

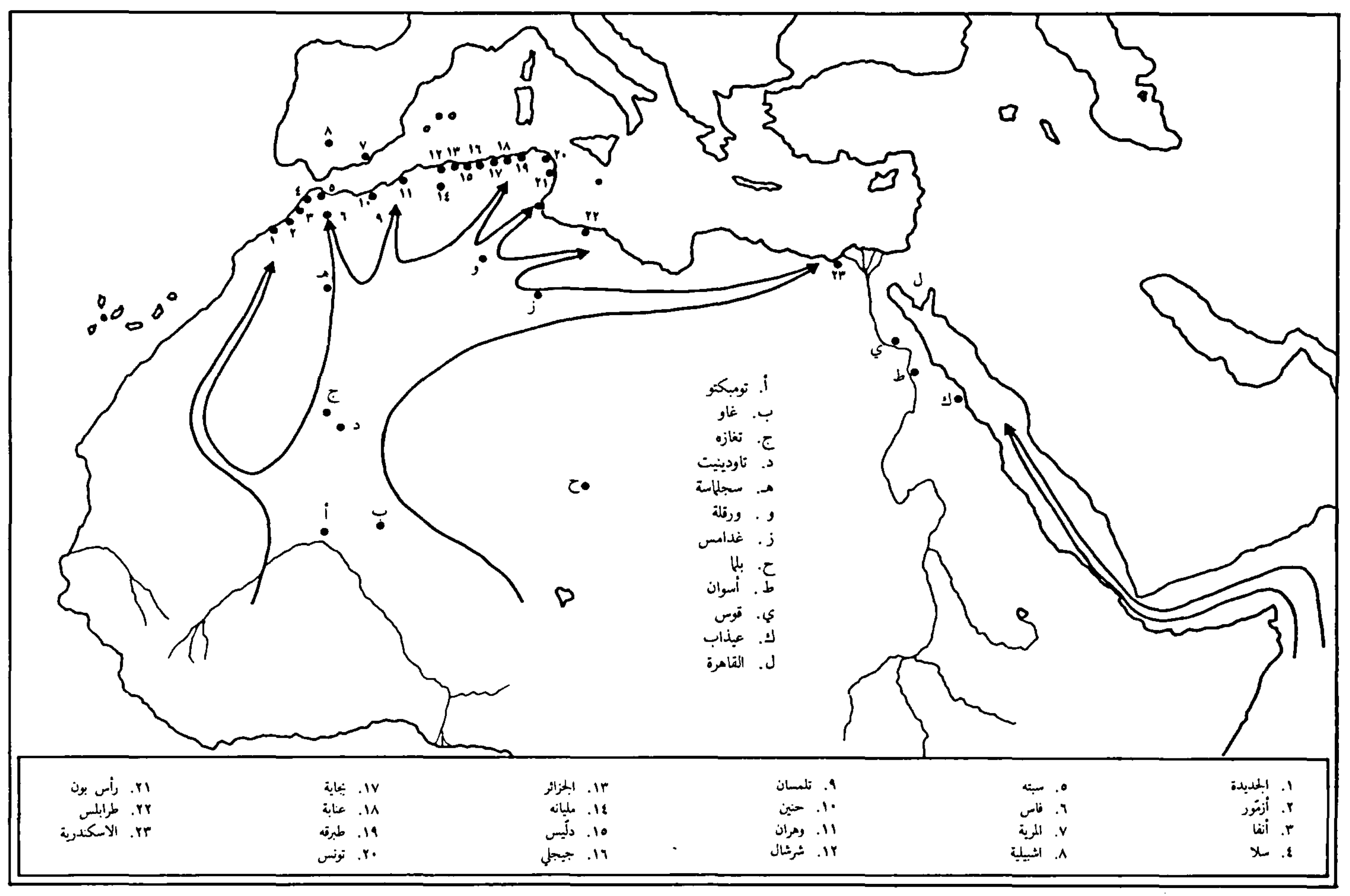
(٤٢) ج . هيرس ، ١٩٧١ ، ص ١٧٧ .

(٤٣) ج . هيرس ، ١٩٥٧ ، ص ١٠١ ، و ر . أربيه ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦٣ .

(٤٤) ش . أ . دوفورك ، ١٩٦٦ ، ص ٥٥٥ – ٥٥٦ : افريقيا حوالى ١٢٥٠٠٠ ؛ المغرب الأوسط من ٣٠ إلى ٧٠٠٠٠ ؛ المغرب الأقصى حوالى ٢٠٠٠٠٠ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

(٤٦) ان بناء السفن ذلك قد أصبح عسيرًا على المسلمين لنقص الخشب منذ أن حُرموا من الثروات الغابية الواقعة في جزر البحر المتوسط وفي اسبانيا .



• تدفّق الذهب الافريقي على الاقتصاد الإسلامي بافريقيا الشمالية (ج. ديفيس)

وفي الوقت نفسه عاد بطبيعة الحال سك النقود الذهبية ، والذي كان قد توقّف قرونًا في الغرب ، بعد منتصف القرن الثالث عشر[٤٧] ، عاد بدون شك ، بفضل ذهب افريقيا الوارد من الموانئ الإسلامية ويحتاج الأمر إلى دراسة دور الذهب الافريقي في هذه العودة. وإن دراسة تلك العملات دراسة علمية واقتصادية جارية اليوم : ولا شك أنها ستمكّن من التقدّم في معرفة المسائل التي سبق أن أشرنا إليها. ومهما يكن من أمر ، وحتى مع اعتبار الموارد الذهبية المشرقية القادمة من افريقيا الجنوبية عن طريق مصر ، فإن الواردات من الذهب ظلّت لا تني بحاجة الغرب[٤٨] وكان في أوج نموه الاقتصادي[٤٩] .

إن التعطش إلى الذهب ، كما هو معلوم ، سيسهم إسهامًا كبيرًا في دفع الأوروبيين إلى غزو العالم والسيطرة عليه اقتصاديًا. وان تطلّع ساكني حوض البحر المتوسط من المسيحيين إلى ذهب افريقيا يفسر تفسيرًا أوضح في مثل هذا السياق ، الذي دفع بما لفانتي وعديدين غيره إلى استكشاف مسالك الذهب داخل القارة الافريقية.

إن الأرباح التجارية التي لم يكن الملوك أنفسهم يترفّعون عنها[٥٠] لم تكن الوسيلة الوحيدة التي يحصل بها الغربيون على ذهب افريقيا. فالأتاوات التي كان يفرضها المنتصرون المسيحيون على المهزومين ، مقابل حمايتهم حماية وهمية ، كانت تدرّ هي الأخرى أرباحًا طائلة ، ولكن على الملوك أنفسهم هذه المرة[٥١] .

وفي القرن الثاني عشر كان ملوك تونس يدفعون إلى صقلية ٣٣ ٠٠٠ دينارًا بيزنطيًا[٥٢] ، وقد حاول الآراغونيون عبثًا بعد ١٢٨٢ أن يفرضوا على صاحب تونس مواصلة دفع تلك الغرامة[٥٣] . وكان التحالف البحري مع القاطالونيين الذي طلبه بنو مرين سنة ١٢٧٤ لفترة مؤقتة ، يكلّفهم حوالى ٤٠ ٠٠٠ دينار[٥٤] . وفي سنة ١٣٠٩ كلفتهم مساندة الاراغونيين اياهم ٧ ٠٠٠ دينار آخر. واذا أردنا أن نقدّر عظم هذه الهدايا ، فعلينا أن نذكر بأن سفارة من غرناطة عادت من القاهرة في القرن الرابع عشر ، تحمل معها هبة تقدّر بـ ٢ ٠٠٠ دينار مصري لأمير بني نصر[٥٥] . وقد ثبت مؤخرًا أن أهل غرناطة الذين كان

---

(٤٧) كانت لجنوه عملة مستقرة من سنة ١٣٣٠ حتى آخر القرن الرابع عشر. وفي سنة ١٤٤٣ وبعد فترة متأزّمة أصلحت تلك المدينة نظامها النقدي بالنسبة إلى الذهب ، وتبعتها في ذلك سائر المدن الايطالية وخاصة البندقية وفلورنسا ، أما ميورقه فكانت منذ ١٣١٠ تسك ريالاً ذهبيًا زنته ٣,٨٥٠ غرامًا. أما قشتالة ، مملكة ألفونس العاشر ، فتبنت لسك وحدتها الذهبية المسماة بالـ«دوبل» وزن دينار الموحدين (وقدره ٤,٦٠٠ غرامًا).

(٤٨) يقدر ش. أ. دوفورك ، مقدار الذهب الذي كان يدخل أراغون سنويًا من افريقيا بـ ٧٠ كلغ ، أما ج. هيرس ، فيقدر ما كان يدخل منه جنوة بـ ٢٠٠ كلغ سنويًا.

(٤٩) حول مستوى الذهب المتداول في المجال الاقتصادي ونسبته من الحاجات الحقيقية أنظر ب. فيلار ، ١٩٧٤ ، ص ٣٢ – ٣٣.

(٥٠) كان الملوك المسيحيون يحصلون أحيانًا ، عند إبرام الاتفاقيات مع نظائرهم من المسلمين على أن يدفع لهم قسم من المكوس الجمركية التي يدفعها تجارهم في افريقيا. في سنة ١٢٢٩ – ١٢٣٠ حصل ملك أراغون على هذا النحو ، من تلمسان ، على ٥٠٠ دينار ، وفي ١٣٠٣ التزمت بجاية بأن تدفع له ربع تلك المكوس ، أي حوالى ١٥٠٠ دينارًا سنويًا ، كما أن افريقيا في بداية القرن الرابع عشر ردّت إلى أراغون ٥٠ ٪ من تلك المكوس.

(٥١) أنظر بشأن النتائج النقدية المترتّبة على هذه العلاقات : ب. فيلار ، ١٩٧٤ ، ص ٤٢ – ٤٣

(٥٢) ج. ايفيه ، ١٩٠٣ ، ص ١٣٥.

(٥٣) في القرن الرابع عشر ، صارت افريقيا تدفع من جديد مقادير من المال ، إلاّ أنها قليلة وغير منتظمة تقدّر بحوالى ٢٠٠٠ دينار.

(٥٤) ش. أ. دوفورك ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٩.

(٥٥) ر. آربيه ، ١٩٧٣ ، ص ١١٩.

يصير اليهم قسم من ذهب افريقيا كانوا يدفعون إلى صاحب قشتالة، بين ١٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ دينار[٥٦] قشتالي سنويًا، دون اعتبار ما يفرض من غرامات عند الانتصارات العسكرية القشتالية. ووعدت بجاية – دون أن تنجز – بأن تدفع إلى أراغون سنويًا بين سنة ١٣١٤ وسنة ١٣٢٥، ١٠٠٠ دينار ودفعت ٨٠٠٠ دينار سنة ١٣٢٩. ودفعت تلمسان لملك أراغون نفسه، فيما بين ١٢٧٥ و ١٢٩٥ بين ٢٠٠٠ و ٦٠٠٠ دينار سنويًا. ومن نافلة القول أن هذه المدفوعات هي دومًا رهينة موازين القوى الحقيقية بين المسلمين والمسيحيين. وثمة طرق أخرى كشفت عن كفاءتها، من ذلك استئجار الأساطيل[٥٧] أو الجيوش[٥٨]. ويقدر ش. أ. دوفورك المداخيل المتأتية للتاج الاراغوني منذ نهاية القرن الثالث عشر بحوالي ١٥٠٠٠ دينارًا، أي أن نسبتها كانت أكثر من ١٠٪ من مداخيل تلك المملكة[٥٩].

ومن المشروع اذن، انطلاقًا من هذه المعلومات، وفي انتظار عمليات جرد أتم وأكمل، أن نذهب إلى أن قسمًا لا يُستهان به من ذهب افريقيا قد مرّ عبر مسالك التجارة الأوروبية. ولئن كانت تلك الكميات لا تمثّل إلاّ قسطًا ضئيلاً من عدد أطنان الذهب المستوردة سنويًا – من ٤ إلى ٨ أطنان – من غرب افريقيا وجنوبها نحو شمال القارة، ولئن كانت تلك الكميات ضئيلة جدًا بالقياس إلى احتياجات الاقتصاد الأوروبي الحقيقية، فإن ذلك لا يمنع أنها تمثّل إسهامًا هامًا. على أن الضغط الأوروبي في الوكالات التجارية يدل دلالة واضحة على أن كل طرف كان واعيًا بنسبة الأرباح التي يمكن الحصول عليها منها. ولقد وافق الضغط الاقتصادي عودة المجموعات الدينية إلى التمركز في المغرب الأقصى خاصة[٦٠]. وكانت الهياكل التقليدية للكنيسة الافريقية قد انتهت إلى الاضمحلال من إفريقية[٦١] وأن المحاولات الضعيفة التي بدأتها روما في القرن الخامس عشر مع إثيوبيا لم تتمخض عن أي نتيجة.

فلا غرابة إذن أن نرى الممالك الإسلامية الافريقية الشمالية، تقبل مثل ذلك الوضع إلاّ متى نسينا أنها قد وجدت فيه مصلحتها الذاتية. فالرسوم الجمركية المفروضة على المستوردات الأوروبية هي على العموم بنسبة ١٠٪، إلاّ إذا حظيت بامتياز بمقتضى معاهدة من المعاهدات. وكانت تجارة قاطالونيا

(٥٦) المرجع السابق، ص ٢١٤. كانت الغرامات في القرن الخامس عشر أرفق، ربما بسبب ندرة الذهب في خزينة غرناطة.

(٥٧) في ١٣٠٤ استأجر المغرب الأقصى أسطولاً أراغونيًا بـ ٣٠٠٠٠ دينار. ومنذ سنة ١٣٠٢ وحتى ١٣٠٩، اقترح جاك الاراغوني على بني مرين أن يؤجر لهم سفنًا مجهّزة ومسلّحة مقابل ٥٠٠ دينار شهريًا عن كل وحدة بحرية، وقد فعل نفس الشيء مع الحفصيين سنة ١٣٠٩ فكان الربح الصافي الشهري يقدّر بحوالى ٢٥٠ دينارًا، وقد حسب ش. أ. دوفورك (١٩٦٥، ص ٥٤١) أن تكاليف بناء السفينة تغطي بعد ٤ أو ٥ أشهر من استغلالها على هذه الوتيرة. وفي ١٣١٣، استأجرت تلمسان ست سفن حربية (وهي سفن شراعية وذات مجاذيف) مدة سنة مقابل ٣٥٠٠٠ دينار، وفي سنة ١٣٧٧ جهّز بطرس الرابع الاراغوني غرناطة بسفن قاذفات مقابل ٩٠٠ دينار شهريًا (ر. آريبه، ١٩٧٣، ص ٢٦٩).

(٥٨) كان القاطالونيون منذ أواسط القرن الثالث عشر يوفّرون للحفصيين جنودًا مسيحيين. وكان قسم من أجر المرتزقة يُدفع إلى ملك اراغون، فكان يحصل هكذا على فائدة تُقدّر بحوالى ٤٠٠٠ دينارًا سنويًا (ش. أ. دوفورك، ١٩٦٦، ص ١٠٣). وقد كان بتلمسان نظام شبيه بهذا (ش.أ. دوفورك، ص ١٤٩ وما بعدها) وكذلك بالمغرب، حيث كان الثمن الذي يدفع سنة ١٣٠٤، ١٠٠٠٠ دينار ذهبًا.

(٥٩) ش. أ. دوفورك، ص ٥٦٠ وما بعدها.

(٦٠) ل. جادين، ١٩٦٥، ص ٣٣ – ٦٩. ظهرت طائفة «الرهبان السائلين» في المغرب الأقصى وعيّن بعض الأساقفة في فاس ومراكش، لخدمة المرتزقة المسيحيين.

(٦١) المصدر السابق، وكذلك ع. المحجوبي، ١٩٦٦، ص ٨٥ – ١٠٣.

بمفردها تدخل إلى خزائن بني مرين ٦٠٠٠ دينار سنويًا ومقاديرها هامة أيضًا لمدينة تلمسان. أما في القرن الخامس عشر، فإن الجمارك الحفصية بمدينة تونس كانت تحصل على ١٥٠٠٠٠ دينار سنويًا[٦٢]. وقد ظلّت العملية مربحة بالنسبة إلى تلك الممالك، وإن افتقرت بلدانها لصالح أوروبا عندما تدفع رواتب الجيوش اللازمة لسلامة المسالك جنوب تلمسان خاصة، ولسلامة نظام تحصيل الجمارك. وقد ندّد أرجح الملوك المغاربة عقلاً بذلك الاختلال المتفاقم الذي جرَّ إليه الاستعمار التجاري الأوروبي اقتصادهم، إلاّ أن الأغلبية قد استسلمت إلى التيار الغالب.

ومنذ القرن السابع كان أحد الأشكال المعتادة للعلاقات الحربية بين المسلمين والمسيحيين، يتمثّل في الهجوم على أرض العدو والاستيلاء على عدد من العبيد، يُباع بعضهم، ويُستخدم ما بقي منهم لقضاء شتى المهام. وكانت هذه «الصفقة» في القرنين العاشر والحادي عشر، ملائمة لمسلمي اسبانيا خاصة، ثم انقلبت الأدوار بداية من القرن الثاني عشر، بالتدرّج مع تصاعد الضغط الحربي والبحري من المسيحيين على المسلمين. وأعطى هذا الوضع للمسيحيين فائضًا متزايدًا من العبيد، للاستخدام أو للبيع، ولم يكن من بينهم عبيد مغاربة فحسب وإنّما أيضًا سود من شمال افريقيا أو حتى من جنوبها[٦٣].

ان استيراد عبيد سودانيين أو من بلاد النوبة أمر لا شك فيه بالنسبة إلى جميع بلدان افريقيا الشمالية والظاهرة معروفة جدًا في مصر. والدراسات عنها أقل في الوقت الراهن بالنسبة إلى غرب افريقيا[٦٤]. وقد مرّت أقدم الاتصالات بين المسيحيين والسود، دون شك، عبر العالم الإسلامي. ويكشف علم الأيقنة[٦٥] مثلاً عن المنزلة التي كان يحتلها «المغاربة السود» في الجيوش الأندلسية التي كان يواجهها المسيحيون، ألا ترى أن ابن عبدون في رسالته عن الحسبة في القرن الثاني عشر، يقول، إن أولئك السود كانوا باشبيلية في عهد المرابطين وأنهم كانوا يُعرفون بالبطش[٦٦].

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر صار معظم تلك التجارة المؤسفة إلى أيدي تجار مسيحيين وقد برع القاطالونيون في ذلك[٦٧]. فمنذ ١٢١٣ باع تاجر جنوى إلى أحد زملائه امرأة سوداء، وكانت أَمَة مسيحية. وفي القرن الخامس عشر، تكشف المصادر، فيما يخص الحوض الغربي من البحر

(٦٢) ش. أ. دوفورك، ١٩٦٦، ص ٥٦٣ وما بعدها.

(٦٣) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تكشف المصادر عن وجود سود بجزيرة صقلية، وفي سنة ١١٤٥ كان في كتانيا ٢٣ عبدًا، وفي ١٢٤٣ في باليرمو رجل مسيحي أسود إلاّ أنه عبد. ومن بين المسلمين الذين أهداهم الملك النورمندي إلى دير ميريال حوالى ٣٠ اسمًا ربما دلّت على أن أصحابها من السود (في القرن الثاني عشر). (ان هذه المعلومات التي لم يُنشر بعضها بعد مأخوذة عن باحثين شبان من جامعة باريس – ٨).

(٦٤) أنظر مثلاً: في ج. كوك، ١٩٧٥: اليعقوبي، سنة ٨٩١ (ص ٤٩) والاصطخري، ٩٥١، (ص ٦٥) والمقدسي، ٩٤٦ – ٩٨٨ (ص ٦٨) والبيروني، ٩٧٣ – ١٠٥٠ (ص ٨٠) والبكري، ١٠٦٨، (ص ٨٢) والزهري، ١١٥٤ – ١١٦١ (ص ١١٥ وما بعدها) والادريسي، ١١٥٤ (ص ١٢٧ وما بعدها) وابن عذارى المراكشي، القرن الرابع عشر (ص ٢٢٠) والعمري، ١٣٠١ – ١٣٤٩ (ص ١٢٧ وما بعدها) وابن بطوطة، ١٣٥٦، (ص ٢٨٩ وما بعدها) ابن خلدون، ١٣٧٥ – ١٣٨٢ (ص ٣٢٩ وما بعدها) والمقريزي، ١٣٦٤ – ١٤٤٢ (ص ٣٨٠ وما بعدها) والمغيلي، ١٤٩٣ – ١٤٩٦ (ص ٣٩٩ وما بعدها) ور. موني، ١٩٦١، ص ٣٣٦ – ٣٤٣ و٣٧٧ – ٣٧٩.

(٦٥) أنظر خاصة أ. شتيغر، ١٩٤١ وي. ج. لوفيللو، ١٩٤٩.

(٦٦) ابن عبدون، ترجمة فرنسية أ. ليني – بروفنسال، ١٩٤٧، الفقرة ٢٠٤.

(٦٧) منذ القرن الرابع عشر جلب تجار اسبانيا الشمالية عبيدًا سودًا إلى منطقة روسيون (ش. فرلندن، ١٩٦٦، ص ٣٣٥ – ٣٣٦).

المتوسط [٦٨] وبدرجة أقل فيما يخص البندقية، عن الواردات من اليد العاملة السوداء، من جهة، وعن الدور الرئيسي الذي تلعبه منطقة خليج سرت في هذه التجارة على الأقل فيما بين ١٤٤٠ و ١٤٧٠ [٦٩] من جهة أخرى.

والحدث الثاني الجديد والأساسي هو ظهور «السود» الغينيين [٧٠] في أسواق حوض البحر المتوسط، ومنذ ذلك الحين بدأت تلوح بين الأوروبيين منافسة ضارية. فمنذ سنة ١٤٧٢، بدأ الكورتيز (مجلس النواب) البرتغالي يطالب بمراقبة عمليات إعادة تصدير العبيد مراقبة صارمة، وكانت المتاجرة بهم بدأت حوالى منتصف القرن ١٥، وكانت في صورتها الأولى عبارة عن غزوات على سواحل موريتانيا (القديمة)، وكان من المفروض أن تُستخدم تلك اليد العاملة في المقام الأول للتنمية الزراعية في البرتغال وفي الجزر التي تحت سيطرته. إلاّ أن هذه المطالبة لم تأخذ في الحسبان روح المبادرة التي يتسم بها الايطاليون والقاطالونيون. وقد لاحظ بارتولوميو مركيوني وأصله من مدينة فلورنسا، والمستقر بالبرتغال، بين سنة ١٤٨٦ و١٤٨٨، ازدياد معدل المتاجرة بالعبيد على الساحل [٧١]. ونمت عمليات التوريد، وكان الجنويون يسيطرون بفضل أموالهم وأسطولهم البحري، على قسم لا يُستهان به من الشؤون التجارية البرتغالية. وكان القاطالونيون يعيدون تصدير تلك اليد العاملة ويبيعونها من جديد. وكانت سوق العبيد في بلنسية تزوّد بعدد كبير منهم منذ سنة ١٤٩٤، وقد بيع فيها بين ١٤٩٥ و١٤٩٦، ٨٠٠ منهم جانب كبير من القادمين عن طريق البرتغال [٧٢]. وكان بعض أولئك العبيد من أصل سنغالي [٧٣].

وكانت نتائج ذلك الفيض الدافق على جانب كبير من الخطورة أولها انهيار الأسعار. فكان العبيد السود هم الذين يُباعون بأبخس الأثمان، وكان مصيرهم أتعس مصير. وتفشّت بين الناس عادة اعتبار تلك اليد العاملة المتميزة بالقوة والثبات صالحة على نحو خاص للأعمال الفلاّحية الشاقة وسرعان ما ستظهر النتيجة. إن بعض الطبقات الاجتماعية في مجتمعات حوض البحر المتوسط ستسلك إزاء هؤلاء السود البؤساء سلوكًا يتميّز بالاحتقار والكبرياء، لم تكن تشاطرها إياه في ذلك الوقت بالذات أوروبا الشمالية [٧٤].

وفي القرن الخامس عشر أصبح الازدهار الاقتصادي الذي شهدته افريقيا في القرن الرابع عشر مهدّدًا بسبب الأحداث الخطيرة التي جدّت في أطراف القارة الافريقية، وكان الصراع حول السيطرة على

(٦٨) المرجع السابق، ص ٣٣٥ – ٣٤٣ و١٩٧٧، ص ٢٠٠ وما بعدها.

(٦٩) المرجع نفسه، ص ٣٤٠. كان ٦٨٣ من العبيد في نابولي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر من السود كما أن عدد السود كان كبيرًا في صقلية.

(٧٠) أول ذكر لهم في برشلونة في ١٤٨٩ (ش. فرلندن، ١٩٦٦، ص ٣٣٨).

(٧١) وصل إلى لشبونة من ١٥ يونيو/حزيران ١٤٨٦ إلى ٣١ ديسمبر/كانون الأول ١٤٩٣، ٣٥٨٩ عبدًا، وكان ١٦٤٨ منهم على الأقل لحساب تجار من فلورنسا، ش. فرلندن، ١٩٦٣، ص ٢٩؛ أنظر أيضًا ف. راو، ١٩٧٥، ص ٥٣٥ – ٥٤٣.

(٧٢) انظر ف. كورتيز، ١٩٦٤. بيع في بلنسية في سنة ١٤٨٩، ٦٢ عبدًا من جزر الكناري، وبيع ٩٠ في ابيزا في جزر الباليار، كما بيع ٢١ في بلنسية في سنة ١٤٩٣، و١٣٠ في سنة ١٤٩٤، و٩٩ في سنة ١٤٩٦، والـ٢٦ الباقون في سنة ١٤٩٧. أنظر بشأن بيع الغوانشيز، ش. فرلندن، ١٩٥٥، ص ٣٥٧ – ٥٥٠، ٥٦١، ٥٦٢ – ٥٦٧، ١٠٢٨. أما السود الأفارقة فقد بيع منهم في سنة ١٤٨٤ أكثر من ٢٠٠؛ وفي سنة ١٤٩٠ حوالى ٥٠؛ وفي سنة ١٤٩١ حوالى ٣٥٠؛ وفي سنة ١٤٩٢ حوالى ١٨٠؛ وفي سنة ١٤٩٣ حوالى ١٨٠؛ وفي سنة ١٤٩٤ حوالى ١٥٠؛ وفي سنة ١٤٩٥ حوالى ٦٥٠؛ وفي سنة ١٤٩٦ حوالى ١٥٠؛ وفي سنة ١٤٩٧ حوالى ١١٠؛ ثم توقفت الواردات حتى سنة ١٥٠٢.

(٧٣) المرجع السابق، ص ٥٦ وما بعدها. وكانوا في أغلب الأحيان من الصغار بين ٩ و ١٢ و ١٥ عامًا.

(٧٤) نأمل توضيح هذه الأسطر بنشر دراسة مطوّلة عن أيقونات السود في الغرب، في وقت قريب.

المحيط الهندي والتوسّع العثماني ، يشكّلان احدى عوامل الإخلال بذلك التوازن القديم ، وكان التوسّع الأوروبي في اتجاه المحيط الأطلسي يشكّل عاملاً آخر ، عواقبه أخطر بالنسبة إلى افريقيا ، وهو المتسبّب ، في توقف فجائي عنيف استمرّ قرونًا عديدة للازدهار الذي نشأ في القرن الرابع عشر.

إفريقيا وآسيا والمحيط الهندي

رأينا في المجلّدات السابقة ، كيف أن العلاقات بالمنتجات الآسيوية الغنية قد أدّت إلى فتح محاور تجارية كبرى بريّة أو بحرية كانت تفضي جميعها إلى غربي آسيا. وكان المسلمون يسيطرون على تلك المحاور منذ القرن السابع. إلاّ أن المنافسة ظلّت حادة بين الطريق المفضية إلى أقصى الخليج العربي الفارسي ، والتي تغذّي تجارة بلاد ما بين النهرين وسوريا ، وتلك المفضية إلى البحر الأحمر والتي ستؤدّي عبر النيل إلى نمو موانئ الدلتا. ولم يتوقف التناوب بين هذين الطريقين وموانئ النهاية بهما قط. أما بالنسبة إلى الحقبة موضوع دراستنا ، فإن مختلف أنواع الاضطرابات التي شهدتها آسيا وانهيار الدويلات الإسلامية في بلاد ما بين النهرين ستفسح المجال أمام مصر التي كانت تشهد منذ عهد الفاطميين وحتى عهد المماليك[٧٥] أزهى عهودها من حيث سيطرتها على التجارة الشرقية. وكان البحر المتوسط قد ترك فعلاً للمسيحيين بعد ١١٠٠. إلاّ أن ما بذلوه من مجهودات عسكرية وتجارية لبلوغ الطريق الكبرى للتجارة العالمية عبر مصر والتي تفضي إلى البحر الأحمر ظلّت عديمة الجدوى.

على أن المصريين وملوكهم المتعاقبين لم تسنح لهم فرصة الاتصال مباشرة بالتجارة الكبرى في المحيط الهندي إلاّ قليلاً. فقد كان عليهم في معظم الحالات أن يصلوا إليها عبر واسطة هي السلالات المتعاقبة على عدن ، وكانت ملتقى هذه التجارة الكبرى.

ومنذ القرن الثاني عشر على أدنى تقدير ، كان المختصون في هذه التجارة الكبرى وهم الكاريمي[٧٦]. يتاجرون بالتوابل والحجارة الكريمة والذهب والنحاس ، بين آسيا وافريقيا من جهة ، وبين عدن ومصر من جهة أخرى. وما انفكّ ثراؤهم يزداد مدة ثلاثة قرون. – وحتى عصر الفتوحات العثمانية – كانوا هم والتجار المسلمون الذين يقلّدونهم ينعمون بالثراء الواسع الذي استفادت منه الموانئ المصرية الواقعة على حوض البحر المتوسط ، والتي كان الغربيون يفدون إليها لشراء تلك البضائع النادرة والنفيسة.

وفي عهد الأيوبيين (١١٧١ – ١٢٥٠) أصبح عيذاب واحدًا من أعظم موانئ العالم من حيث عدد المتردّدين عليه ، وقد مرّ به ابن جبير في طريقه إلى الحج سنة ١١٨٣ ، وعدل عن إحصاء القوافل به لكثرتها[٧٧] ، على أن توحيد البحر الأحمر تحت راية سياسية وبحرية واحدة لم يدم طويلاً قط. فلا

---

(٧٥) شوقي لبيب ، ١٩٦٥.

(٧٦) لقد حاول بعضهم أن يوجد شبهًا بين اسم كاريمي ، واسم كانم التشادي ، وقد دلّت الأبحاث على صحة هذا التقريب. أنظر بشأن هذه المسألة مقال كاريمي ، في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية. في لغة تمول ، تدل كلمة كريا على «شؤون اقتصادية» وليس من المحال أن نجد تقاربًا مفيدًا. أنظر كذلك س. د. غويتاين ، ١٩٦٦ ، وخاصة الفصلين السابع عشر والثامن عشر.

(٧٧) أنظر بشأن تطور هذا المرفأ ، ج. ك. غرسان ، ١٩٧٢ ، في *AI* ، المجلد السادس ، ص ١٨٩ – ٢٠٩ ، وانظر كذلك هـ. ج. ب. بول ، ١٩٥٥.

الأيوبيون ولا من خلفهم في الحكم، قد حققوه فعلاً. وكان التجار همزة الوصل الحقيقية وخاصة منهم الكاريمي الذين اتخذوا من عدن قاعدة لهم ينقلون ويشترون ويبيعون منتجات آسيا وافريقيا وحوض البحر المتوسط. وكان الكاريمي هم الذين يقومون بدور الوسطاء الديبلوماسيين عندما تنشب بعض الخلافات بين سلاطين مصر والسلالات الحاكمة في عدن. وهم الذين يتفاوضون بشأن الاتفاقيات التي تعقد بين الأمراء الآسيويين والمصريين. وكانت السلطات المصرية تمنح هؤلاء الأعوان الضروريين جوازات مرور تضمن لهم سلامة ممتلكاتهم وأشخاصهم وحرية استيراد المنتجات الغربية من مصر، فضمنوا هكذا تدفق التوابل وكذلك العبيد، نحو مستودعات نهر النيل. وامتدت الهيمنة الاقتصادية المصرية في ظل المماليك إلى موانئ الساحل الغربي من البحر الأحمر، في سواكن ومصوع وعصب.

وكانت عدن أيضًا أهم نقطة تعبر منها بالضرورة تجارة أخرى نمت بدرجة دون الأولى أهمية أو لم تكن معروفة، وكانت تدر أرباحًا أقل منها ألا وهي تجارة الساحل الشرقي من أفريقيا(٧٨).

ولعلّه ينبغي القول بأن ما لدينا من أدلة عديدة عما كان يوليه أفراد الأسرة الفاطمية المالكة ودور التجارة المصرية لهذه المتاجرة مع افريقيا من اهتمام، ليس بعيدًا عن احتياج مصر في القرن الثاني عشر الى الذهب، في الوقت الذي نضبت فيه مناجم وادي العلاقي وأصبح من العسير أو من المستحيل فيه الحصول على الذهب من افريقيا الغربية(٧٩).

وحسب رواية الإدريسي، كان يوجد نشاط تجاري كبير، على الساحل الشرقي بافريقيا في القرن الثاني عشر. وكان الحديد يصدر منه بأرباح كبيرة وخاصة نحو الهند التي تحتاج منتجاتها الشهيرة من الصلب استيراد كمية كبيرة من المواد الأولية. كما أن ابن الوردي كتب حوالي سنة ١٢٤٠ عن البلاد التي تحيط بسوفاله أنها «بلاد عظيمة الأكناف، بها جبال تحتوي على مناجم الحديد يستغلّها الأهالي. ويفد عليها الهنود ليبتاعوا ذلك المعدن بثمن باهظ». وقد أكّد القرنان الثالث عشر والرابع عشر ازدهار هذه التجارة الساحلية. وكان العاج، الذي يُجمع من الداخل، ويلقى إقبالاً شديدًا في الأسواق الإسلامية والصينية والهندية، وجلود الحيوانات يكونان مع الحديد والذهب أهم الصادرات. ولا شك أنه ينبغي أن نضيف إلى ذلك الخشب عندما ستنجز دراسات شبيهة بتلك التي أنجزت بالنسبة إلى حوض البحر

(٧٨) أنظر بشأن هذه المسألة، المجلدين الثاني والثالث من «تاريخ افريقيا العام». وفي انتظار نشر أعمال أخرى عن هذه المسألة نترقب صدورها بفارغ الصبر نلاحظ أن س. د. غويتاين (١٩٦٦، ص ٣٣٥) قد أشار إلى وجود علاقات تجارية مع افريقيا لا تمر بعدن. أنظر كذلك ولنفس المؤلف، كتابه الصادر سنة ١٩٦٧، في مواضع مختلفة. إن المعلومات التي مصدرها العالم العربي والعالم الصيني ستضيف إلى هذه النقاط معلومات مكملة لها على غاية من الأهمية، أنظر أيضًا ب. ويتلي، ١٩٥٩.

(٧٩) لم تعالج هذه المسألة المتعلقة باستيراد ذهب الجنوب الافريقي بكل ما ينبغي من العناية بسبب انعدام التنسيق بين المختصين. على أنه حسبنا أن نجمع أهم المنشورات، حتى نفهم أن استغلال المناجم قد بدأ سنة ١٠٠٠، ربما تصديره أيضًا، أنظر خاصة ر. سمرز، ١٩٦٩، الذي يبدو واثقًا جدًا من أمر قدم إنتاج الذهب، وكذلك ت. ن. هوفمان، ١٩٧٤، ص ٢٣٨ – ٢٤٢، مع قائمة بيبليوغرافية هامة، والمقال الأخير يبرز أن استغلال الذهب استغلالاً واسعًا بدأ في القرن الحادي عشر. وفي الطرف الآخر من الحلقة يجب أن نطالع المقالات ذات الصبغة العلمية البارزة التي كتبها أ. ايرنكروينس، ١٩٥٩، ص ١٢٨ – ١٦١، و١٩٦٣، ص ٢٤٣ – ٢٧٧ حتى نقدر مدى انتشار السكة الفاطمية ونوعيتها حق قدرها. إن ذلك الانتشار وتلك النوعية يفترضان أن الفاطميين قد تزوّدوا بكميات كبيرة من الذهب، لم تكن مصر ولا بلاد النوبة، ولا غرب افريقيا توفره لهم آنذاك. ومن الإنصاف أن نلاحظ أن عدد الاختصاصيين الذين يقولون بقدم حركة انتقال الذهب هذه نحو مصر، ليس كبيرًا حتى الآن.

المتوسط[٨٠] . وتمكننا من معرفة المنزلة التي كانت تحتلّها افريقيا في هذه التجارة الدولية الهامة التي تلعب فيها آسيا دورًا من الدرجة الأولى.

وكان لذهب الجنوب المصدر من سوفاله، والذي تشرف كيلوه على الاتجار به، الصدارة في تلك التجارة. ويقدر ر. سمرز[٨١] إنتاج جنوب افريقيا طيلة هذه القرون بـ ١٠ أطنان سنويًا لأن الانخفاض في الإنتاج بدأ في القرن الخامس عشر. وحتى إن نحن أخذنا بأرقام دون ذلك، وجب علينا القول بأن ذلك الذهب قد لعب دون شك دورًا ما زال لم يدرس بمَا فيه الكفاية، ومساويًا لدور ذهب غربي افريقيا، في الاقتصاد العالمي. وكانت المراكب تحمل، إلى ذلك الساحل منتجات شتى تؤكّد المصادر أهميتها، ومن ضمنها الودع (الغوري)[٨٢] ، والنباتات الجديدة التي سرعان ما تأقلمت مع المناخ الافريقي[٨٣] ، والملابس والحلي المصنوعة من الزجاج وكانت تُباع للأفارقة بثمن مرتفع جدًا[٨٤] .

وكانت هذه التجارة تتمثّل في ملاحة ساحلية تقوم بها سفن ذات أشكال وحمولات متنوّعة، ولعلّ كيلوه كانت محطتها الأخيرة الطبيعية. أما المناطق الواقعة أكثر إلى الجنوب، حتى قنال الموزمبيق، والمتميّزة بأنظمة مناخية مختلفة جدًا عن تلك المناخات التي في شمال المحيط الهندي، فإن التجار المسلمين لم يستكشفوها، ولم يستغلّوها بشكل منتظم حتى القرن الخامس عشر. على أن الجنوب ظلّ محاطًا بكثير من الغرائب أولاً لأنه أقرب إلى الشرق منه إلى الجنوب حسب بطليموس، ثم لوجود بلاد محاطة بالغموض هي بلاد «واق الواق»، تنتظر المسافرين المقدامين مخبئة لهم كثيرًا من الوعد والعيد. وهنا أيضًا كان الأمر غامضًا يتعلّق «بنهاية العالم» الغامضة تمامًا (أنظر الخريطة).

وفي كل سنة، كانت تنطلق من ممباسا ومن مالندي، سفن إسلامية متجهة نحو آسيا، مستعينة برياح الصيف الموسمية. وأسهمت تلك السفن إسهامًا كبيرًا في تنمية تقنيات الملاحة التي تحسّنت بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر تحسّنًا كبيرًا. وتمثّل الملاحة القائمة على الاستدلال بمواقع النجوم التي يرجع الفضل في قسم وافر منها إلى المخترعات والملاحظات الصينية، وإلى استعمال البوصلة، التي لا شك في أن العرب وساكني ضفاف البحر المتوسط قد اقتبسوها في الوقت نفسه عن الصينيين، وعلوم الرياح والتيارات، وتغيّر الحيوانات والنباتات البحرية، وإقامة خرائط للمسالك كان الربابنة يدوّنون عليها

---

(٨٠) م. لومبارد، ١٩٧٢، ص ١٥٣ – ١٧٦.

(٨١) ر. سمرز، ١٩٦٩، ص ١٩٥.

(٨٢) يتحدّث ابن بطوطة (١٩٦٦، ص ٣٠ – ٣١؛ ١٩٦٩، ص ١٢١ – ١٢٢). حديثًا مستفيضًا عن تجارة ذلك الصدف على الساحل الشرقي من جزر المالديف. والمراجع عن الودع (الغوري) وافرة بالنسبة إلى غربي افريقيا. أنظر مثلاً، عن المحيط الهندي ب. بليو، ١٩٣٣، ص ٤١٦ – ٤١٨.

(٨٣) أنظر كذلك ابن بطوطة وحديثًا ما أصدره هـ. ن. شيتيك ور. ج. روتبرغ، ١٩٧٤. وانظر أيضًا اليونسكو، ١٩٨٠، «تاريخ افريقيا العام»، دراسات ووثائق، رقم ٣.

(٨٤) كان التجار السواحيليون يشترون المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية من كيلوه وسوفالة مقابل ما لديهم من ذهب. وفي القرن الثالث عشر كانت الرسوم الجمركية المحصّلة في كيلوه تأتي بنسبة ٦٠ ٪ من المنسوجات القطنية الواردة إليها. ويبدو بالنسبة إلى هذا القسم الشرقي من افريقيا وكذلك الغربي منه أن الحلى النحاسية كانت مستحسنة لديهم على الأقل استحسانهم للحلى الذهبية، على أن آخر الدراسات (رندلس وسمرز) تلح على الحذر الذي كان يبديه المسلمون في جمعهم لذهب الجنوب، فهذان المؤلفان يشيران إلى أن ذلك الاقتصاد ذا النسق البطيء يتناقض، حتى وان كانت نتيجته النهائية الحصول على كميات كبيرة من الذهب، مع ذلك البحث المحموم عن الذهب عندما استقرّ البرتغاليون في جنوب القارة.

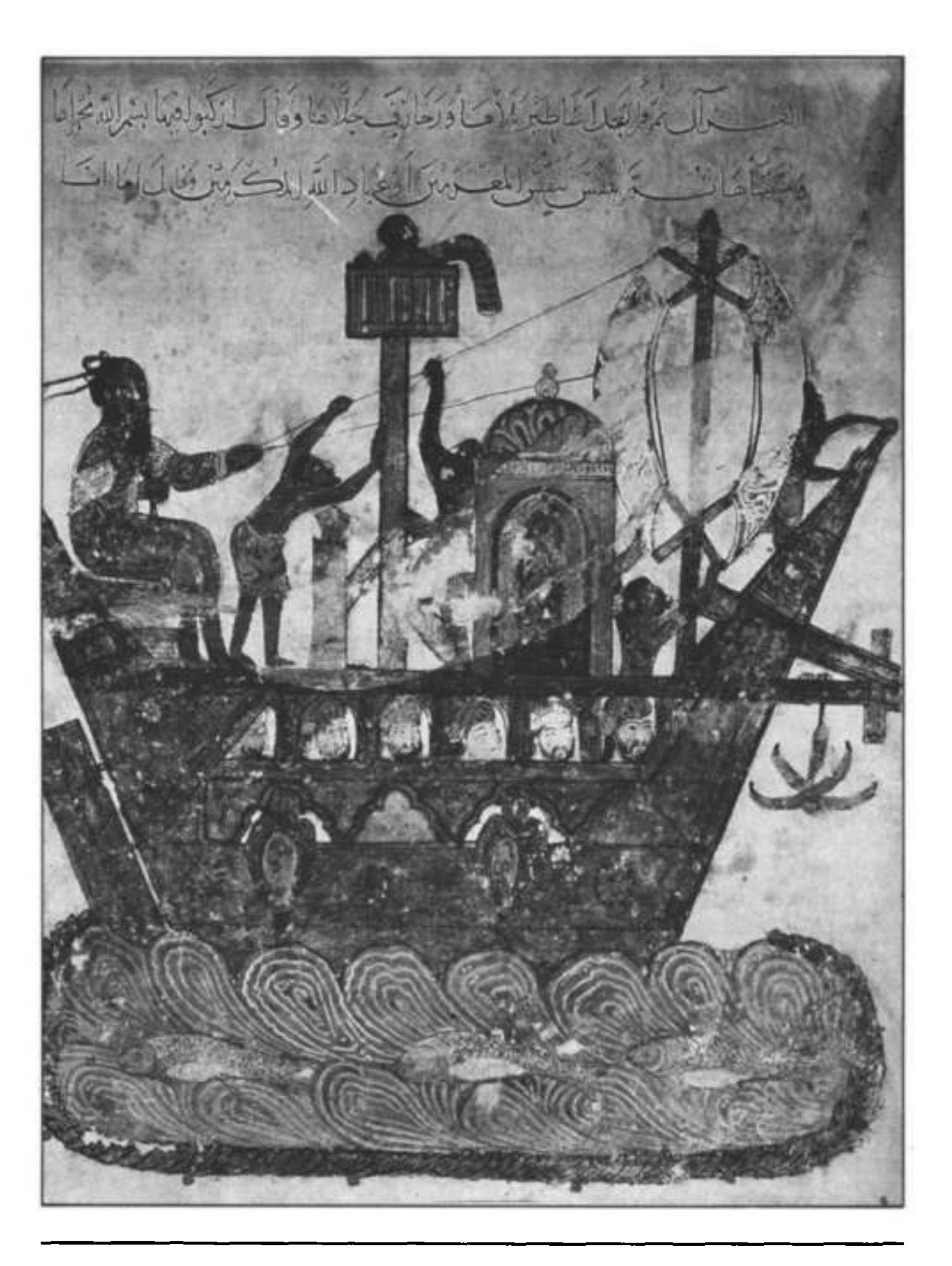
ملاحظاتهم ، كل هذه تمثّل رصيدًا علميًا وتقنيًا ثمينًا ، سيستغلّه البرتغاليون حال وصولهم إلى ممباسا(٨٥) .
وحصيلة الأمر ، أن هذه التجارة ، التي كانت بطبيعة الحال قليلة الفائدة بالنسبة إلى الأفارقة داخل القارة ، قد أثرى منها جميع الوسطاء ، من أفارقة وغير أفارقة ممن استقرّوا بالمراكز الساحلية(٨٦) . وعلى متن السفن التي تقوم بالملاحة الساحلية ، وعلى تلك التي تغدو وتروح بين آسيا وافريقيا ، كان الأفارقة يعملون بحارة اذا ما صدقنا بعض الصور التي تزيّن بعض المخطوطات ، وغادر آخرون افريقيا وأنشأوا مستعمرات في جنوب شبه الجزيرة العربية وحتى الساحل الغربي من الهند ما تزال أهميتها التاريخية في أول أطوار دراستها(٨٧) .

لقد أظهرت أكثر من خمسين مدينة ، من رأس غردفوي إلى سوفاله، حيوية الظاهرة العمرانية حتى من قبل قدوم العرب ، في المنطقة السواحيلية. فمنذ القرن الثاني عشر وكما يدل على ذلك بكل وضوح علم الآثار ودراسة المصادر بتدقيق ، فإن مجموعات محدودة من المهاجرين قدموا من العالم الإسلامي إلى تلك المدن والى الجزر الواقعة عل الساحل من دون أن يكون هناك مشروع استيطاني واحد ومنظم. وإن ربط تلك المدن بالتجارة الكبرى النامية في المحيط الهندي، سواء مرّ بعدن أو استعمل الخط المباشر الرابط بين افريقيا وآسيا بفضل الرياح الموسمية قد ساعد في تلك المدن الساحلية على نمو ارستقراطية تجارية غنية مسلمة عمومًا ، كانت أحيانًا تنازع السلطة أصحابها التقليديين. وكما هو الشأن بالنسبة إلى غربي افريقيا ، فإن تلك المدن ، كانت بوتقة عرقية وثقافية تغيرت ملامحها بتأثير الإسلام حيث امتزجت العربية بالسواحيلية. وقد أسهمت المدن الساحلية الأخرى بالازدهار في مواضع أخرى بعيدًا في الجنوب في أن تجعل مسألة البحث عن أصول أولئك السكان الشديدي الاختلاط ، في أغلب الأحيان ، مسألة معقّدة لا حلّ لها(٨٨) .

وكانت الطبقات الحاكمة تنعم هنالك بازدهار يثبته علم الآثار. فالمساجد الجميلة ، والقصور المشيّدة من الحجر ، والمصنوعات الزجاجية الفاخرة المستوردة من الخليج الفارسي ، وأواني الخزف الواردة عبر المحيط ومن الصين، إنّما تدل دلالة واضحة على ذلك الازدهار. وكان الملوك والطبقات الميسورة يكدّسون في قصورهم الأواني الخزفية النفيسة الواردة من سلطان آباد ومن نيسابور والخزف الصيني ذا اللون الأخضر الباهت الذي يرجع إلى عهد السُنغ ، وأطباقًا رائعة مزخرفة بزخارف من عهد المينغ ، وجواهر وأحجارًا كريمة من الهند، وتماثيل صغيرة مصنوعة من الذهب أو العاج وحلي مصنوعة من اليشب والنحاس وسجاجيد من الشرق الأوسط أيضًا.

ولا شك أنه ينبغي ألاّ نستخلص من هذه الأمثلة المتميزة أن جميع السكان في تلك المدن كانوا أثرياء. ولا شك في أن تلك المدن قد كوّنت أقطاب جاذبية ، بما كانت تسمح به من استيراد لبعض التقنيات ولظهور نمط من أنماط الحياة يتباين ونمط حياة الأفارقة في الداخل كما وصفه المسعودي في القرن العاشر.

(٨٥) تعدّدت الدراسات حول هذه النقطة. أنظر على سبيل المثال ل. براداس ، ١٩٦٧ ، وج. ر. تبتس ، ١٩٦٩ .
(٨٦) منذ القرن الثالث عشر ، سكت كيلوه النقود.
(٨٧) أنظر اليونسكو ، تاريخ أفريقيا العام، دراسات ووثائق ، رقم ٣.
(٨٨) إن الروايات المتعلّقة بتأسيس تلك المدن لم تشوّه لتنسبها إلى أصول آسيوية إلاّ في عهد متأخر جدًا بدأ في القرن الخامس عشر على أبعد تقدير. إن الأسطورة الشيرازية ، التي ما تزال منتشرة إلى يومنا هذا ، هي من عهد أقرب إلينا بكثير في صيغتها الجامدة. أنظر أعلاه الفصل ١٨ ، وانظر بشأن هذه المسألة ، من بين أعمال كثيرة أخرى صدرت وفي انتظار أعمال أخرى هي بصدد الإنجاز: م. هرشبرغ ، ١٩٣١ ، ف. ل. غروتانلي ، ١٩٥٥ .



• مخطوط عربي من القرن الثالث عشر
يثبت وجود أفريقيين على السفن
التي تجوب المحيط الهندي.

ولا شك أيضًا في أنها أسهمت في انتزاع من كانوا يهرعون إليها جماعات في غير روية ، من جذورهم وفي إفقارهم. والدراسة التي قام بها شتك[٨٩] ، منذ عهد قريب ، تدل بوضوح عما كانت عليه حال واحدة من بين أزهى تلك المدن ألا وهي كيلوه ، التي قال عنها ابن بطوطة إنها من أبهى مدن الدنيا ، والتي تصف بعض المصادر الصينية منازلها المتكوّنة من أربعة إلى خمسة طوابق ، في القرن الخامس عشر[٩٠] .

ذلك أن الصينيين قد زاروا ذلك الساحل الافريقي في القرن الخامس عشر بأعداد كبيرة. ولئن يكن قد سجل قدوم بعض الأفارقة إلى الصين[٩١] منذ القرنين السادس والسابع ؛ وإن كانت مثّلت بعض الرسوم التي ترجع إلى عهد التانغ زنوجًا من افريقيا في المغارات البوذية ؛ ولئن تكن احدى مؤلّفات القرن الثالث عشر قد أشارت إلى بلاد السواحيلي ؛ فاللقى الأثرية وحدها – ولا شيء يثبت أنها قد وصلت اثر علاقات مباشرة قديمة بين الصينيين والأفارقة هي العلامات التي تشهد منذ القرن الثامن ، آثار «وجود صيني» في افريقيا الشرقية[٩٢] . وقد تغيّر كل شيء في القرن الخامس عشر ، فمنذ سنة ١٤٠٢ كانت احدى الخرائط الكورية تقدّم عن افريقيا صورة «لا بطليموسية» قريبة من الواقع ، وفي سنة ١٤٧٠ تجد في أخبار المينغ وصفًا دقيقًا لحمار وحشي ، وفي سنة ١٤٤٤ رسمًا صينيًا يمثّل زرافة. وفضلاً عن تجارة العبيد فإن المصادر الصينية تشير إلى ثلاثة مواد هامة تصدر من شرقي افريقيا ، هي الذهب والعنبر وخشب الصندل الأصفر والعاج.

وقام أسطول صيني متكوّن من سفن عظيمة بالنسبة إلى ذلك العهد[٩٣] ، يقوده مسلم من يوتان يدعى تشنغ هو بين ١٤٠٥ و١٤٣٣ بسبع رحلات في المحيط الهندي وأرسى على الساحل الافريقي مرتين : الأولى بين ١٤١٧ – ١٤١٩ والثانية بين ١٤٣١ و١٤٣٣. وفي خلال رحلته الأولى وصل إلى مالندي حاملاً معه إلى افريقيا وفدًا أُرسل سنة ١٤١٥ ليهدي زرافة إلى البلاط الامبراطوري في بكين[٩٤] . وقد ورد ذكر مدينتي براوة ومقديشو في أخبار الرحلة الثانية. وتعتبر تلك الرحلتان تتويجًا للمبادرات الصينية البحرية ، التي توقفت فجأة لأسباب صينية داخلية. على أن بعض المنتجات الصينية كالخزفيات[٩٥] والحرير ظلّت متوفّرة في أسواق شرقي افريقيا بعد تلك الحملات كما كانت من قبل. وذلك بفضل الأسفار البحرية العربية والفارسية والغوجراتية بين الصين وجنوب شرقي آسيا وشرقي افريقيا. وقد اكتشف ماتيو في جزيرة صنغو منارا المرجانية ، قريبًا من كيلوه ، خزفيات مزجّجة ، أصلها من سيام ، بالإضافة إلى كميات ضخمة من الخزف الصيني من آخر عهد السونغ حتى بداية عهد المينغ (حوالى ١١٢٧ – ١٤٧٠ م). كما أن وانغ تا يوان قد ألّف في الصين بين ١٤٤٠ و١٤٤٩ مؤلّفًا يتحدّث فيه عن جزر القمر وعن مدغشقر.

---

(٨٩) هـ. ن. شيتيك ، ور. أ. رتبرغ ، ١٩٧٥.

(٩٠) أنظر بشأن مدينة أخرى هي شنغوايا ، ف. ل. غروتانلي ، ١٩٥٥ ب.

(٩١) شن يي كنغ ، تقييدات واستفهامات ، ١٩٧٢ ، أنظر كذلك ف. فيرت ، ١٩٠٩ – ١٩١٠ ؛ و. ركهيل ، ١٩١٥ ؛ ك. أ. فريب ، ١٩٤٠ ؛ لو يونغ بنغ ، ١٩٥٥ ؛ ت. فيليزي ، ١٩٦٢ أ وب.

(٩٢) تشو يي ليانغ ، ١٩٧٢.

(٩٣) كانت حمولة السفن تبلغ ١٥٠٠ طنًا بينما كانت أولى المراكب البرتغالية في المحيط الهندي لا تحمل أكثر من ٣٠٠ طن.

(٩٤) أنظر ج. ج. ل. دويفيندداك ، ١٩٣٨.

(٩٥) أنظر ج. س. ب. فريمان – جرينفيل ، ١٩٥٥ ؛ ج. س. كركمان ، ١٩٦٦ ؛ هـ. ن. شيتيك ، ١٩٧٥.

وحوالي ١٤٥٠ ، قام بين الساحل الشرقي من افريقيا وشمال غربي مدغشقر (وكان مرتبطًا بكيلوه بحركة تجارية منتظمة) ومصر وشبه الجزيرة العربية وآسيا ، نظام مستقر من المبادلات التجارية ، أسهم في ازدهار الوكالات التجارية وفي الآن نفسه في ازدهار مجموع المحيط الهندي.

ومنذ ١٤٨٧ ، عرف بدرو دي كوفليام – وكان خرج في مأمورية سرية لحساب ملك البرتغال في شرقي البحر المتوسط – أهمية الحركة التجارية مع الساحل الشرقي حتى سوفالة. وفي ٢٤ من شهر يوليو/تموز ١٤٨٨ ، تجاوز بارتولوميو دياز أقصى نقطة من جنوب افريقيا وأيقن أن شكل القدرة في تلك النقطة ليس ذلك الشكل المنسوب إليها منذ بطليموس. وفي سنة ١٤٩٧ – ١٤٩٨ أرسى أسطول فاسكو دي غاما ٣٢ يومًا على الساحل الشرقي الجنوبي لإصلاح بعض العطب. فلاحظ الملاّحون استعمال الحديد للنبال والرماح وإنتاج الملح بتبخير ماء البحر ، وأن الخناجر لها مقابض من العاج وأن من بين بعض النسوة – وكن أكثر من الرجال – من يحملن حلقة في شفاههن. وفي الثاني من مارس/آذار ١٤٩٨ ، صادف فاسكو دي غاما في الموزمبيق أول الأفارقة الناطقين بالعربية وتعجّب من فخامة ملابسهم. وفي ٧ ابريل/نيسان خصّ سلطان ممباسا البرتغاليين باستقبال رائع ، وبعد ١٧ يومًا ، سافروا نحو الهند يقودهم ابن ماجد ، واضع إحدى الخرائط [٩٦]. وفي شهر سبتمبر/أيلول ١٤٩٩ ، عاد إلى البرتغال من بقي حيًا من تلك الرحلة الأولى ، وعندها بدأ عهد جديد كل الجدة بالنسبة إلى تاريخ المحيط الهندي والساحل الشرقي من افريقيا. وقد سبقتها تقلّبات كبرى على الساحل الأطلسي.

السيطرة على المجال الأطلسي ونتائجه بالنسبة الى إفريقيا

«البحر المتوسط الأطلسي»

غالبًا ما كانت تُطلق هذه التسمية في القرن السادس عشر على المنطقة الشرقية من ذلك المحيط الذي تحدّه السواحل الغربية لشبه جزيرة ايبيريا ، وأفريقيا ، وماديرا وجزر الآسور وجزر الكناري.

وتبيّن المصادر العربية أن المؤلّفين الذين قاموا بمجرّد دور الناقل للمعرفة الموجودة كانوا جاهلين لتلك المنطقة من العالم جهلهم لافريقيا القارية ، فحتى جزر الكناري تظل مجهولة لديهم إلى حدّ بعيد [٩٧]. وبعكس ذلك ، فإن التجار والملاّحين كانوا نشيطين في تلك المنطقة من العالم أيضًا [٩٨].

(٩٦) نشر النص العربي لتلك الخريطة على يد ج. فرّان ، ١٩٢٣ – أنظر بشأن الدراسات التي تناولته أعلاه ، الهامش ٨٥.

(٩٧) أنظر دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الجديدة ، الجزء الأول ، ص ٩٦٢ – ٩٦٣ ، عن المحيط الأطلسي. وتكفي نصوص الادريسي (ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٣) وابن خلدون (ف. مونتاي ، ١٩٦٧ – ١٩٦٨ ، ص ١١٥) لتقدير رداءة المعلومات المنقولة. وينبغي أن نشير هنا إلى أن البحر الواقع غربي افريقيا يمثّل من حيث معرفة العرب به ، تباينًا كبيرًا مع حسن معرفتهم بالمحيط الهندي وسواحله.

(٩٨) ربما بلغ «مغامرو لشبونة» في القرن الثاني عشر ، جزر الكناري (ر. موني ، ١٩٦٠ ، ص ٩١ ، و١٩٦٥ ، ص ٦١). وفي القرن الثالث عشر ، تبين رحلة ابن فاطمة ، كما رواها ابن سعيد (ج. كوك ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٢) أن المسلمين

ويمكن أن نجازف ونقول أن السفن الإسلامية قد كانت السفن الأولى التي ربطت السواحل بالجزر، ولكن لم تبق لنا آثار مكتوبة عن مرورها[٩٩]. ولا يمكن أن نشك في قيمة البحر بالنسبة إلى سكان الساحل. فابن سعيد يروي أن سمك التونة كان قوت أهل المغرب والأندلس، يقطعونه شطرين عرضًا، ثم يعلّقونه لتجفيفه. ومنذ القرن الحادي عشر يذكر البكري إنتاج العنبر في افريقيا السوداء على الساحل، وفي القرن الثاني عشر، يتحدّث الإدريسي[١٠٠] عن تجارة الملح بين أوليل والسنغال. ومن المحتمل أن المجال المستكشف ليس عظيمًا جدًا لأنهم لم يتعدّوا كثيرًا الشواطئ[١٠١] والتعوّد على البحر بوصفه الوسط الذي يتحرّك فيه الإنسان ومنه يتغذّى مما لا نزاع فيه إلى حدّ أن المسافرين البرتغاليين الأوائل لاحظوا على الساحل الغربي من افريقيا وجود آكلي الأسماك الذين كان الصيادون في الداخل يزدرونهم ويحتقرونهم.

ولم تقم سيطرة الأوروبيين على مجال البحر المتوسط الأطلسي، على تفوّق تقني، وينبغي أن نبحث عن الأسباب العميقة في مواطن أخرى. ففي القرن الثاني عشر كان للأسطول الحربي الموحدي من الشهرة ما دعا صلاح الدين الأيوبي إلى طلب معونته ضد البحرية المسيحية في الجانب الشرقي من البحر المتوسط. وفي آخر القرن الثالث عشر أصبحت القوة البحرية المرينية أثرًا بعد عين على أثر معارك كبرى خاضتها للسيطرة على مضيق جبل طارق. أما الحدث الحاسم أكثر من غيره فهو سيطرة المسيحيين منذ ذلك الحين تقريبًا على جميع المناطق المهمة لإنتاج خشب بناء السفن في غربي البحر المتوسط[١٠٢].

ومن جهة أخرى فإن تكديس رؤوس الأموال الضرورية لبناء السفن كان، في الموانئ المسيحية، بيد التجار وشركائهم وقلّما كان بأيدي أصحاب السلطة السياسية. وكانت سياسة بناء السفن مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالتوسّع الاقتصادي الذي تضاعف بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر. ولقد ازدهر الاقتصاد ازدهارًا عظيمًا في شمال المحيط الأطلسي، بداية من سنة ١٢٧٧. وكانت سفن الجنويين، ثم أهل البندقية، تربط عبر محطات البايار واشبيلية ولشبونة وماديرا وبايون ايطاليا التجارية بالفلاندر وانكلترا الصناعيتين. هذه هي القوة الاقتصادية التي ستلعب الدور الحاسم[١٠٣]. ولم يواجه المسلمون التحدي الأوروبي المتعاظم بسبب ضعف الممالك المغربية، باستثناء ذلك الوميض الخاطف الذي مثله السعديون والحفصيون، ولأن البحر على العموم لم يكن ضروريًا لنجاح المشروعات الاقتصادية الإسلامية.

كانوا يبتغون استكشاف الساحل الافريقي. ولم يكن ذلك التوسع خاليًا من كل بحث عن المنفعة، لأنه لم يكن بحثًا علميًا. وقصة ابن فاطمة تكشف عنه. وقد وصل ملاحنا إلى منطقة يصعب تحديدها في جنوب المغرب الأقصى، ووجد فيها صحراء رملية إلاّ أنها تصلح لزراعة قصب السكر. وفي القرن الرابع عشر كذلك، حاول وزير من المرية فيما روى العمري، استكشاف الساحل الافريقي (وردت في ج. كوك، المرجع السابق، ص ٢٨١).

(٩٩) تبدو لنا بعض المبالغة في معالجة هذه المسألة كما فعل المؤلف الصيني هوي لن-لي، (١٩٦٠، ١٩٦١، صفحات ١١٤ – ١٢٦)، اعتمادًا على بعض المصادر الصينية، والتعريفات التي اقترحها للمناطق المذكورة تفتقر إلى حجج علمية أثبت.

(١٠٠) ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٨٣ و١٢٨ و٢١٢.

(١٠١) فضلاً عن أنه ينبغي الإشارة إلى أن ج. هيرس، (١٩٦٦، ص ٢٣٠) يشيد بالنسبة إلى شمال المحيط الأطلسي، بقيمة الاكتشافات التي قام بها الصيادون على قطاعات كاملة مما سيصبح في المستقبل الطرق العابرة للمحيط الأطلسي، ويستشهد مثلاً بصيادي لشبونة وكانوا قد وصلوا فعلاً في القرن السادس عشر، إلى خليج هدسون.

(١٠٢) م. لومبارد، ١٩٧٢، ص ١٥٣ – ١٧٦.

(١٠٣) كان حجم التجارة التي تمر بتلك الطريق البحرية في القرن الخامس عشر، يمثل ٤٠ ضعفًا لحجم المبادلات البرية القديمة بين ايطاليا وفلاندر عبر شمبانيا.

وكانت القوافل تحمل من الذهب أكثر مما ستحمله في المستقبل سفن الكرافيل[١٠٤] . ولم يكن تحدو التجار وأصحاب السلطة المغاربة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أية مصلحة اقتصادية واضحة تحملهم على التنافس مع المسيحيين على البحر وما يتطلّبه ذلك من توظيفات مالية طائلة. وهذا ما يفسر الجهد اللامتكافئ للسيطرة على البحر المتوسط الأطلسي ، فقد تطلّب الأمر حوالى قرن من الاستثمارات[١٠٥] والجهود والمثابرة ، والمساعي الفاشلة ، حتى أمكن غزو البحر المتوسط الأطلسي ، في آخر القرن الرابع عشر ، بينما كانت الصعوبات التقنية لا وزن لها بالمقارنة مع الصعوبات التي كانت تنتظر المستكشفين جنوب رأس بوجادور. وهذا ما يفسر الدور المهيمن لايطاليا في هذه المرحلة من مراحل التوسّع[١٠٦] ولم يكن العالم البرتغالي يحتوي في صلبه طوال هذه الفترة الأولى على قاعدة من التجار وأرباب البنوك القادرين على استثمار المبالغ الضرورية[١٠٧] . وتظل معظم الرحلات الأوروبية الاستكشافية ، في تلك المنطقة مجهولة بالنسبة إلينا إلى أبد الآبدين. فالمؤرّخون يبعثون من حين لآخر ، وعلى وجه الصدفة رحلة من تلك الرحلات الاستكشافية[١٠٨] ، إلاّ أنهم أخذوا يستعملون شيئًا فشيئًا ، كلمة «إعادة اكتشاف» عندما يتعلّق الأمر بأول حملة أوروبية لا شك في صحة وقوعها ونتج عنها احتلال نقطة في اقليم ما[١٠٩] . أما الأسباب التي عجلت باستقرار المسيحيين في البحر المتوسط الأطلسي فقد أصبحت في أيامنا هذه من الأمور الواضحة. وربما لعب البحث عن الذهب دورًا ما[١١٠] . ولكن من الواضح أن أمل الحصول على إنتاج ضخم من المواد الضرورية كالقمح ، والعنب وقصب السكر ، من جزر المحيط الأطلسي كان العامل الحاسم. وقد أصبحت جزيرة ماديرا[١١١] وجزر الكناري ، وجزر الأسور لفترة ما ، في انتظار ذلك التوسّع جنوبي رأس بوجادور ، أراضي منتجة للسكر. وما زال الدور الفعّال لتجارة السكر لم يُدرس حتى الآن دراسة كافية. ومنذ القرن الثالث عشر ، كان المغرب الأقصى يصدّر السكر نحو الفلاندر ، وكذلك نحو البندقية. وظلّ نمو المزروعات المغربية الذي شهد انفجارًا حقيقيًا في ظلّ السعديين ، مستمرًا منذ القرن التاسع. ولكن مجهودات الإنتاج والاستثمارات وتنظيم عمليات البيع حتى عهد السعديين كانت غير كافية لإحلال المغرب الأقصى منزلة كبيرة في تجارة السكر القائمة على التنافس. وقد تحقّقت الجهود التي بُذلت في المغرب الأقصى في زمن متأخر إلى حد ما ، أي في وقت أدّت فيه الاستثمارات الضخمة في جزر الأطلنطي تحت ضغط تجار جنوه إلى ازدياد في عرض السكر. وسبق ذلك التوسّع مع فارق بعض العقود من السنين ، التوسّع الذي حدث في القرن السادس

(١٠٤) أنظر ف. مغاليايس غودنيو ، ١٩٦٩.

(١٠٥) ج. هيرس ، ١٩٦٦ ، ص ٢٧٣ – ٢٩٣.

(١٠٦) ف مغاليايس غودنيو ، ١٩٦٢ ، ف. راو ، ١٩٦٧ ، ص ٤٤٧ – ٤٥٦.

(١٠٧) ش. فرلندن ، ١٩٥٨ ، ص ٤٦٧ – ٤٩٧ ، و١٩٦١.

(١٠٨) أ. كرتساو ، ١٩٧٣ ، ص ١٩.

(١٠٩) أ. كرتساو ، ١٩٧١ ، و١٩٧٢ ؛ ك. فال يورو ، ١٩٧٨. يبيّن المؤلف الثاني استنادًا إلى كثير من الحجج القيمة ترجيح أن يكون عدد كبير من الملاحين الآخرين ، مسلمين ومسيحيين قد تجاوزوا رأس بوجادور قبل البرتغاليين.

(١١٠) هناك إجابات متناقضة لدى ف. مغاليايس غودنيو ، ١٩٥٢ ، ص ٣١١ وما بعدها ، ولدى ج. هيرس ، ١٩٥٧ و١٩٧١ ، بشأن حملة الأخوان فيفالدي. ومن الثابت أن البرتغاليين كانوا في حاجة إلى الذهب ، ومن ١٣٨٧ إلى ١٤١٦ كان ارتفاع قيمة الذهب يقدّر بـ١٢ ٪. ولم يعودوا إلى سك النقود في البرتغال على منوال المسلمين إلاّ سنة ١٤٣٦ وحتى ١٤٥٦.

(١١١) منذ ١٤٥٥ لاحظ كادا موستو الازدهار الكبير الذي حققته مزروعات قصب السكر ، ففي ١٥٠٨ كانت ماديرا تنتج ٧٠٠٠٠ ربعًا (ربع قنطار) من السكر.

عشر بالنسبة إلى السكر الأميركي.

ويرتبط تصدير اليد العاملة الأفريقية مباشرة بذلك المجهود. فقد سبق الغوانش بجزر الكناري، سود أفريقيا منذ القرن الرابع عشر[١١٢] إلى السير على طريق العبودية المقترنة بالسكر وبالزراعة من أجل الربح.

جنوب رأس بوجادور: مجال أطلسي آخر وتطوّر آخر

استغلال مجال بحري

كان المحيط الأطلسي برياحه التجارية وضد إعصاراته يطرح، كما بيّن ذلك ر. موني[١١٣]، مشاكل تقنية أبعد مدى بكثير من سابقاتها. ففيما بين ١٢٩١ و ١٤٣٤، سجّلت من جانب المسيحيين على الأقل عديد من الخيبات أثناء المحاولات البحرية لاستكشاف المناطق الواقعة جنوب رأس بوجادور. ويمكن أن نطعن في صحة نظرية ر. موني، عن استحالة عودة السفن التي قد تكون تمادت في الإبحار جنوبي بوجادور[١١٤]، إلاّ أن الأحداث تبيّن أن نجاح الرحلات في القرن الخامس عشر تطلب كثيرًا من الجهود، والاستثمارات والتضحيات الجسيمة بالرجال والعتاد. والتجارب التي أجريت في البحر المتوسط الأطلسي، قد ساعدت على تبيّن الحلول. ولم تكن حلولاً كافية. فاستوجب الأمر القيام بأبحاث علمية وتقنية، في البحر المتوسط الغربي، انطلاقًا من الإنجازات العربية في عديد من الحالات، قصد السيطرة على تلك الظروف الجديدة[١١٥]. وقد كانت الاحتياجات المالية أعظم بكثير مما كانت في الحالات السابقة[١١٦] وقد أضيفت إليها ضرورة سيطرتهم على الملاحة القائمة على الاهتداء بمواقع النجوم أو على الأقل باستعمال البوصلة المغناطيسية والخرائط البحرية[١١٧] بالإضافة إلى ضرورة بناء سفن صغيرة، طيّعة[١١٨]. وحمولة الكارافيل هي دون حمولة سفن البندقية التجارية بمقدار النصف أو الثلثين. وهي تتلاءم تلاؤمًا حسنًا مع رياح الأطلسي ويمكنها أن تقطع الأنهار صعودًا، إلاّ أنها لم تكن مفيدة إلاّ في حقبة وجيزة من الوقت لم تكن تُطرح فيها مسألة الحمولة إلاّ قليلاً. أما في القرن السادس عشر فإن «الغاليون» هو الذي سيحلّ محلها في المتاجرة مع آسيا.

---

(١١٢) أنظر ف. مغاليايس غودنيو، ١٩٥٢، ص ٣١١ – ٣٤٥. ففي آخر القرن الخامس عشر، بيع عبيد من الغوانش في اشبيلية (ف. بيريز – أمبد، ١٩٦٩، ص ٨٩). أما بعد ١٤٩٦، فقد حدث تدفق حقيقي. أنظر شهادة ابن خلدون على قيام المسيحيين في سالي ببيع العبيد. ترجمة فرنسية ف. مونتاي، ١٩٦٧ – ١٩٦٨، ص ١١٥.

(١١٣) ر. موني، ١٩٦٠.

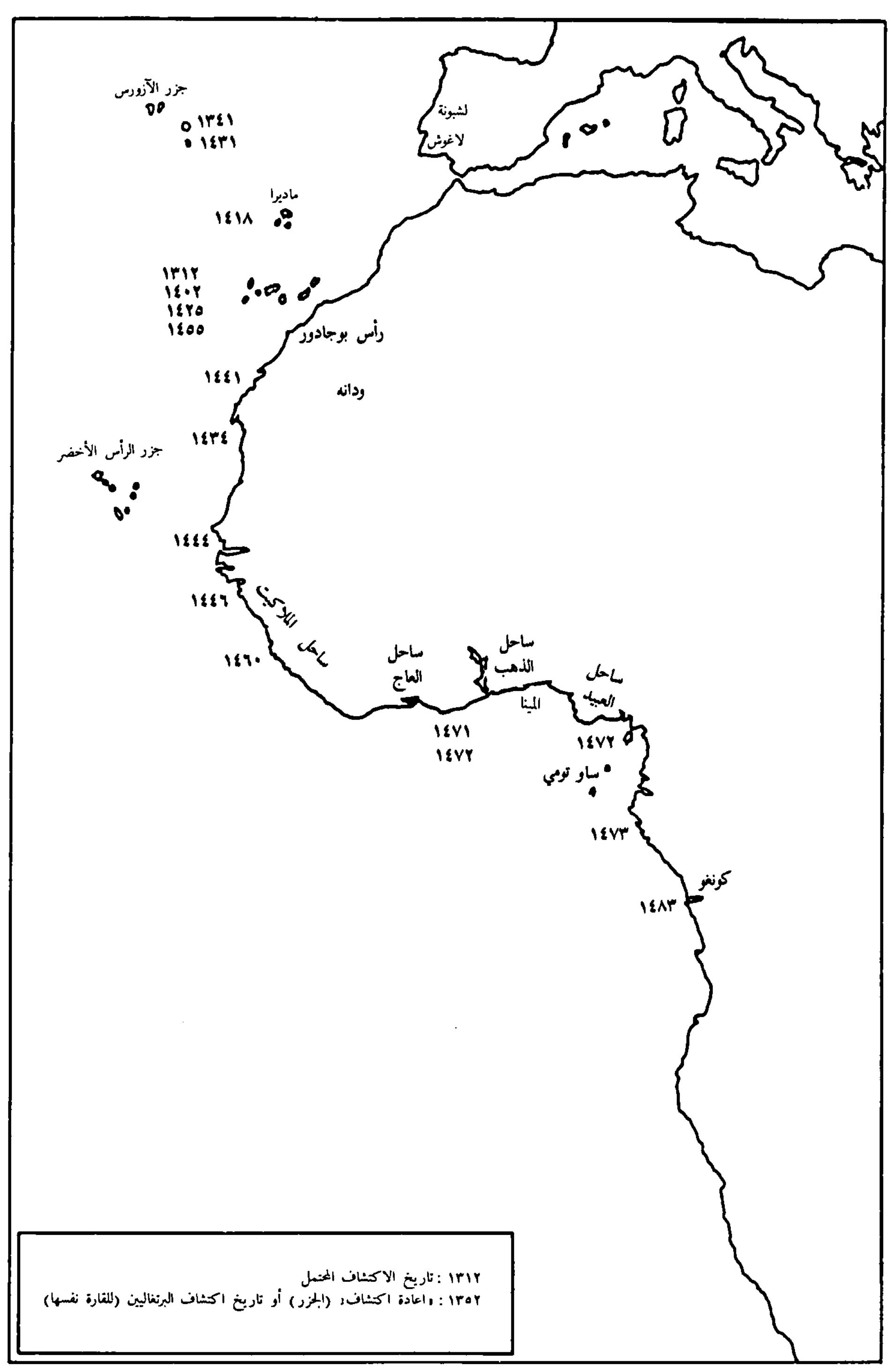
(١١٤) أنظر ر. لونيس، ١٩٧٦.

(١١٥) أنظر على سبيل المثال: ج. بوجوان، ١٩٦٩، و أ. تيكسيرا داموتا، وكذلك أ. بول، ١٩٦٩.

(١١٦) ج. هيرس، ١٩٦٦.

(١١٧) كانت الخرائط البحرية تستعمل عمليًا في البحر المتوسط منذ ١٣١٧، إلاّ أنها لم تشمل المحيط الأطلسي إلاّ في القرن الخامس عشر. وأول خريطة مرضية بالنسبة إلى غربي افريقيا ومحيطها يرجع تاريخها إلى ١٤٧٠ على وجه التقريب، وأول خريطة تشير إلى جزر الرأس الأخضر، وساوتومي، يرجع تاريخها إلى ١٤٨٣. أنظر س. وم. دو لا رونسيير، ١٩٦٧.

(١١٨) ب. جيل، ١٩٧١، ص ١٩٣ – ٢٠١.



• إحاطة البرتغاليين بافريقيا في القرن الخامس عشر (ج. ديفيس).

وما أن اجتمعت جملة الظروف الضرورية للنجاح حتى بدأ الاستكشاف المنظّم يتطوّر تطوّرًا سريعًا جدًا. وقد تعلّق ذلك الاستكشاف أساسًا بأوروبا، ولكنه أيضًا، ومن بعض الأوجه، كان ذا تأثير خطير في حياة افريقيا. فقد حالفها سوء الحظ في القرن الخامس عشر.

لقد تمّ اكتشاف كل افريقيا لأول مرة في محيطها الخارجي غير أنها لم تشد إليها اهتمام مكتشفيها إلاّ قليلاً. فسرعان ما قصر البرتغاليون افريقيا على دور واحد، هو توفير الرجال، بعد أن خاب أملهم إذ لم يستمدّوا منها إلاّ قليلاً من الذهب، لأن النصيب الأوفر منه ظلّ بيد مسلمي شمال القارة وشرقيها. وهكذا وبمجرّد أن خرجت القارة عن عزلتها التي دامت ما يناهز ألف سنة إلى المحيط الغربي، بدأ تصدير قسم لا يُستهان به من سكان أفريقيا نحو أمريكا. وقد حجبت أمريكا وما كانت تلوح به من آفاق اقتصادية لا حد لها، وكذلك آسيا، التي تمّ الوصول إليها بالالتفاف حول بلاد الإسلام والتي ستوفّر الأحجار الكريمة والمنسوجات والخزفيات، القارة السوداء عن اهتمامات البيض.

قبل أن نتابع ما وصلنا إليه، ينبغي أن نولي عناية خاصة لنص من نصوص العمري أثار، مثل عدد من النصوص الأخرى، كثيرًا من الجدل، في غير كبير دقة أحيانًا.

فقد روى العمري[119] أن مانسا كانكو موسى كان يتحدّث عن سلفه على رأس مملكة مالي قائلاً: «كان لا يرى استحالة عبور المحيط وكان يريد الوصول إلى أقصاه وشغفه ذلك. فأعد ٢٠٠ مركب مملوءة ذهبًا وماءً ومؤونة تكفيها سنوات عديدة. ثم انه قال للمسؤولين عن تلك المراكب: لا تعودوا إليّ إلاّ بعد أن تبلغوا أقصى المحيط أو بعد أن تستنفذوا ما معكم من زاد وماء. وانطلقوا. وطالت غيبتهم ومضت أحقاب ولم يعد أي منهم. وأخيرًا عاد مركب واحد، فسألنا الربان عما رأى وعلم... فأجابنا قائلاً: لقد مضى على سفرنا زمن طويل حتى ظهر أمامنا فجأة في عرض البحر نهر تياره قوي الاندفاع، وكنت في المركب الأخير، وقدّمت المراكب الأخرى، وعندما بلغت ذلك الموضع لم تقدر على العودة وغابت عن الأنظار. فلم نر ما حدث لهم. أما أنا فعدت من ذلك الموضع ولم أتوغل في النهر. وأنكر عليه السلطان ذلك وجهّز في الحال ٢٠٠٠ مركب ألف له ولرجاله، وألف للماء والمؤونة، ثم انه قلّدني في الأمر مكانه وركب إلى المحيط، في رفقائه وانطلق، وكان ذلك آخر عهدي به وبرفقائه».

لقد حاول بعضهم أن يقيم من هذا النص المفيد جدًا البرهان على احتمال اكتشاف الماليين لأمريكا قبل كولومبس[120] وأحيانًا على سيطرتهم على البحر سيطرة قادت السود من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي[121]. وإذا سلكنا هذا السبيل سبيل «المباراة» فإن حظنا في الوصول إلى نتائج سليمة ثابتة يصبح ضئيلاً جدًا. وقد تصدى ر. موني، لهذه التأويلات، وردّد في أكثر من مرة أن حالة غربي أفريقيا من

(١١٩) ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٢٧٤ – ٢٧٥، أنظر بشأن هذا النص قائمة بيبليوغرافية قديمة لدى ر. هنيغ، ١٩٥٣، المجلد الثالث، ص ١٦١ – ١٦٥.

(١٢٠) ل. فيتر، ١٩٢٢، م. حميد الله، ١٩٥٨، ص ١٧٣ – ١٨٣، قد اقتبس من م. د. و. جفريز، حجة مفادها أنه في الحالة الراهنة التي عليها معارفنا، لا شيء يمكننا من الجزم بأن «النهر» المتحدث عنه في النص هو نهر الأمازون. لأن القول بذلك معناه نسيان أمرين اثنين: أولها، أنه كان ينبغي قبل الوصول إلى ذلك «النهر» في البحر، مصادفة تيارات بحرية عديدة كان أقواها يتجه نحو الكاريبي وليس نحو البرازيل، وثانيها أنه لو صحّ ذلك لكانت مياه نهر الأمازون المتدفقة دفعت بالسفن بعيدًا إلى حيث أتت ولما جذبتها نحو ساحل البرازيل الحالية. على أن التيارات في حالة إمكان استعمالها تمكن في خط عرض داكار من العبور من الشرق نحو الغرب في اتجاه امريكا، إلاّ أنها تمنع من العودة، فهل هذا هو مغزى القصة التي رواها العمري؟ أنظر أيضًا ر. رايلي، ١٩٧١.

(١٢١) ج. هـ. هتون، *Man*، ١٩٤٧، مجلد ١٠، ص ٣٤.

حيث الظروف التقنية كانت تجعل مثل تلك الرحلة مستحيلة أو غير ذات نتيجة معروفة أو لا يكتب لها البقاء طويلاً لما يتمخّض عنها من نتائج[١٢٢].

ويبدو لنا من المهم أن نتجاوز وجهات النظر هذه وأن نقترح بعض العناصر التكميلية للتأمل. ويجب بادئ ذي بدء أن نضع، حدًّا لذلك «الجدال التقني». فالملاحة موجودة لا ريب على سواحل افريقيا قاطبة منذ زمن بعيد، ولا شيء يخول لنا القول بأن الأفارقة قد فكّروا أقل من غيرهم، في التقنيات التي تمكن من التغلب على الصعوبات الحقيقية الضخمة التي كان يواجههم بها البحر. فالصيد البحري، والمساحلة وما وصفه لنا الملاّحون الأوروبيون الأوائل من نشاط على امتداد السواحل، أمور لا تدع مجالاً للشك بشأن هذه النقطة. فقد سيطر الأفارقة على مجال بحري ما، سواء بالنسبة إلى الغرب أو بالنسبة إلى الشرق. بقي أن البحر لم يلعب ضمن اقتصاد الممالك الافريقية وتنظيمها السياسي، دورًا من الطراز الأول: ذلك أن افريقيا كانت تعيش داخل كيانها، وجميع مراكز اتخاذ القرار الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية، كانت بعيدة عن السواحل[١٢٣].

وانه لما يثير الاهتمام أن نرى مانسا يهتم بالمحيط الأطلسي. ويجب أن نلاحظ هنا أولاً أن التثاقف الإسلامي ربّما لم يكن قد فعل فعله في الأوساط المالية الحاكمة: فإرث بطليموس وما كان يؤدّي إليه من أثر معطل، لم يكن له أي أثر في ذهن المانسا: فالمحيط مجال للاكتشاف شأنه في ذلك شأن الصحراء أو الغابة[١٢٤]. ثم، إذا أخذنا بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه ولايات مالي الساحلية وأخذنا بعين الاعتبار ما بذله الماليون من جهد لتنويع العلاقات الاقتصادية بين «الساحل» والمتعاملين معه واذا اعتبرنا عدد «عمليات السّبر» التي قام بها المسلمون والأوروبيون في القرن الثالث عشر، وبداية القرن الرابع عشر، لرأينا أنه ليس من المستبعد أن يعمد أحد السلاطين إلى محاولة معرفة ذلك المحيط الذي أصبح غير مجهول بالنسبة إلى سائر الناس، وربّما - والأمر غير بعيد - للسيطرة عليه. ولهجة الحكاية نفسها تدل على أن مانسا موسى كان يقدّر فيمَا يخصّه أن تلك العملية غير واقعية - وربّما لمجرّد أنها قد فشلت. فرحلته للحج، وما صاحبها من تصدير لكميات وافرة من الذهب، لم تكن، من الناحية الاقتصادية وما تمخّض عنها من نتائج، أقل إغراقًا في الخيال من محاولة سلفه. وإذا وضعنا تلك المحاولة في إطارها المنطقي، فإنها تكون جديرة بأن تؤخذ مأخذ الجد وأن تدرس أسبابها ونتائجها البشرية الممكنة مثل نزول محتمل على سواحل امريكا الجنوبية[١٢٥]. وأما نتائجها الاقتصادية فقد كانت، بطبيعة الحال منعدمة[١٢٦].

---

(١٢٢) ر. موني، ١٩٧١، ص ٣٦٩ - ٣٨٤.

(١٢٣) على أنه ينبغي أن نؤكّد بقوة الدور الذي منحته مالي لـ«ولاياتها البحرية وهي: الكازامنس وغامبيا، وربما أيضًا وعلى الأرجح سيراليون، ويتجلّى ذلك الاهتمام على نحو أوضح من خلال الأعمال الأخيرة التي قام بها مؤرّخون أفارقة شبان على وجه الخصوص.

(١٢٤) ينبغي لنا إذا نحن رمنا التقدّم بالحوار في هذا المجال أن نجمع جمعًا منظمًا، ما يتعلّق بالمحيط من روايات في وسط الماندانغ. وحسب ما نعلم، لم يشرع بعد في أي عمل من هذا القبيل. ومن الطريف أن نستشهد هنا بالجواب الذي ينسبه زراره (ترجمة فرنسية لـ. بوردون ور. ريكار، ١٩٦٠ ص ٦٩ - ٧٠) إلى الذين أمرهم هنري الأصغر باستكشاف المناطق الواقعة جنوب رأس بوجادور حين قالوا: كيف لنا أن نجتاز حدودًا حدّدها آباؤنا، وما الفائدة التي سيجنيها الأمير من ضياع أرواحنا وأجسامنا في آن واحد لأنه من البديهي أننا سنلقي بأنفسنا إلى التهلكة؟ وجلي أن ليس وراء ذلك الرأس بشر، ولا أماكن معمورة، والتيارات فيها من القوة ما لا تكتب معه العودة أبدًا لأية سفينة قد تتجاوز الرأس.

(١٢٥) عن محاولات لم يُكتب لها النجاح ولم تكن على أسس سليمة في هذا المضمار، أنظر م. د. و. جيفريز، ١٩٥٣.

التوسّع وخيبة الأمل والاستغلال

بعد أن ضمن البرتغاليون سيطرتهم على بعض الوكالات التجارية الواقعة على سواحل المغرب الأقصى، وهي التي كانوا يحصلون منها على الأنسجة، والخيل، والذهب، تجاوزوا سنة ١٤٣٤ رأس بوجادور واستغرقتهم السيطرة على تقنيات العودة عن طريق جزر الأسور تسع سنوات. وفي سنة ١٤٤٣، أصبحت عمليات الاستكشاف على امتداد السواحل الافريقية ممكنة، وخلال ٥٤ سنة، بلغوا جنوب القارة. وفي ظرف ٦٠ سنة، أصبحوا يرتادون المحيط الهندي بانتظام. وفي تلك السنوات الخمسين – أي النصف الثاني من القرن الخامس عشر – تواكبت نسبيًا على افريقيا الكلمات الثلاث، التوسّع، وخيبة الأمل، والاستغلال.

وكان التوسّع في بداية الأمر قائمًا على العنف والنهب، إلاّ أنه اتّخذ بعد ١٤٥٠ صبغة أكثر تنظيمًا، فقد حلّ التبادل محل الغارات. فكانت أرغين والميناء، تمثّل بدرجات مختلفة، مرافئ التجارة البرتغالية على ساحل افريقيا. ومن هنالك كانت تنطلق، بكميات صغيرة، منتجات رائجة جدًا في أوروبا، كالجلود، والعنبر والصمغ. إلاّ أن البضائع التي كان الطلب عليها أكثر من غيرها، فإنها ستكون من حيث الحجم مخيّبة للآمال، بالمقارنة مع التجارب الأولى. فقد كان التوسع يتم في أول الامر تحت مراقبة السلطة الملكية ولفائدتها جزئيًا. وعندما بدا حملاً ثقيلاً جدًّا، بدأ عهد جديد هو عهد الايجار الذي أوكل إلى الأفراد[١٢٧]. إلاّ أن التاج البرتغالي لم يتخلَّ تمامًا عن سياسة الإشراف المستمر رغم أنه لم يكن يملك وسائل تطبيقها، وبالأخص لم يكن يملك وسائل الدفاع عن الاحتكار البرتغالي الوهمي ضد سائر البلدان الأوروبية[١٢٨].

وتوالت الخيبات من كل نوع. وكانت الأولى متعلّقة بطبيعة التجارة التي كانوا يقومون بها كل سنة بواسطة عدد محدود من السفن الصغيرة. وذلك أن الأرباح الضخمة لم تكن مضمونة بتلك الطريقة. كما أن محاولات التوغّل داخل القارة قد انتهت كلها بالفشل. ففي سنة ١٤٨١، كان جواو الثاني ملك البرتغال يبحث عن ممر مائي يوصل إلى الذهب، فأمر دون جدوى بتفجير جنادل فيلو، على نهر السنغال. وفي سنة ١٤٨٣، كانت خيبة أخرى ذلك أن مجرى نهر الزائير وكان عرضه يجعل المرء يأمل في أنه يمكن من منفذ واسع إلى الداخل، سدته جنادل يلادا التي يستحيل اجتيازها. وفي سنة ١٤٨٧، تمت محاولة إقامة وكالة تجارية في واداني للحصول على جانب من الذهب، ومعلوم أنه يمر من هنالك في طريقه من تومبكتو نحو المغرب فلقيت عداءً جماعيًا. أما التجارة في الكانتور في غامبيا فكان يراقبها الماليون مراقبة شديدة ولم تكن ذات عائد كبير. وإذا ذهبنا أبعد نحو الجنوب، حتى ساحل الحبوب كان الاستقبال يتميّز بكثير من التحفّظ، وكانت عمليات رسو السفن غير مؤاتية جدًا.

---

(١٢٦) أنظر المجلد الخامس من «تاريخ افريقيا العام» من أجل دراسة تلك المسألة التي يدور حولها جدل شديد، والمتعلق بوجود ذرة افريقية قبل عهد كريستوفر كولومبس، وبإدخال البحارة العرب أو السود الذين ربما اكتشفوا امريكا قبل كولومبس نوعًا من الذرة الأمريكية.

(١٢٧) ظلّت أرغين دومًا تحت المراقبة الملكية الصارمة. أما في جنوب غامبيا فقد أبرمت في عديد من المرات عقود مع مجهزين أفراد. وقد تركت لهم الأرباح التي يحصلون عليها، مقابل رسم معين واستكشاف لقسم معين من الساحل كل عام.

(١٢٨) أشهر مثال في القرن الخامس عشر، هو رحلة اوستاش دولافوس وأصحابه (١٤٧٩ – ١٤٨٠) إلى ساحل الذهب. وقد دارت عليهم فيها الدوائر: فقبض عليهم وهدّدوا بالشنق لأنهم ذهبوا إلى «الميناء» من دون اذن ملكي (أنظر أ. دو لا فوس، نشر ر. فوش – دلبسك، ١٨٩٧).

وقد شغل البحث عن ذهب افريقيا اهتمام الأوروبيين دهرًا طويلاً[١٢٩] . ولم ينجح البرتغاليون ، كما صرنا نعرف اليوم ، في تحويل القسم الأساسي من إنتاج الذهب نحو السواحل[١٣٠] . كما أن الكميات المتحصل عليها لم تتجاوز بل ربما لم تبلغ طنًا واحدًا سنويًا بالنسبة إلى مجموع السواحل الواقعة على المحيط الأطلسي[١٣١] . وبالمقارنة مع حاجيات الاقتصاد الأوروبي المتنامي على نسق سريع ، كانت خيبة الأمل عظيمة ، فبعد مرور السنوات الأولى ظلّت السواحل الواقعة على حوض المتوسط ، تتزوّد بالذهب الافريقي الذي يصل إليها بواسطة القوافل.

لقد ناب حب الفلفل الملاكيت وحب الفلفل الأسود البنيني عن الذهب لفترة ما[١٣٢] . لكن لئن ظلّ الفلفل الملاكيت رائجًا في نظر التجار الدوليين ، في آخر القرن الخامس عشر ، فإن الفلفل الإفريقي الأسود أصبح لا أمل له في المنافسة مع ظهور الفلفل الآسيوي. وفي الجملة كانت المبادلات من الناحية الاقتصادية رديئة مع قارة كان من يسمع حكايات القرون الماضية ينتظر منها العجب العجاب. كانت كميات ضئيلة نسبيًا من الفضة ، وكانت نادرة جنوب الصحراء ومن الأقمشة[١٣٣] المنسوجة في المغرب الأقصى ومن الخيل والنحاس ، تمكّن من تسديد ثمن المشتريات.

ولم تكن خيبة الأمل أقل حدّة على أصعدة أخرى غير الصعيد الاقتصادي. ذلك أنه لم يقع أبدًا ، سواء في افريقيا أو جنوبها ، اكتشاف تلك المملكة الشهيرة ، مملكة «برستدجون» الذي كان البرتغاليون والأسبان يحلمون منذ القرن الرابع عشر باتّخاذه حليفًا ضد المسلمين ، على أن راهبًا فرنسيسكيًا مجهول الهوية قد غرس بكل اعتزاز مملكة الخلاص في الأرض الافريقية في منتصف القرن[١٣٤] ، وقد ظنّ دييغو كاو سنة ١٤٨٣ ، أنه وجد منفذًا إليها عن طريق مصب نهر الكونغو. ولم تكن افريقيا السوداء تبدو مسيحية في أي موضع منها ولا مستعدّة لمحاربة الإسلام.

وكانت خيبة الأمل المباشرة المتولّدة عن معاينة مناخ غريب ، أكثر خصوبة بالنسبة إلى المستقبل لأنها ستشحذ حس الملاحظة لدى البحارة والتجار[١٣٥] .

وكانت الأمطار الصيفية التي لا تنقطع في منطقة البنين وأول من لاحظها كادا موستو ، على نقيض جفاف المناطق الواقعة وراء ذلك نحو الشمال[١٣٦] تحدّد فصلاً ، يتوقّف فيه ظاهريًا كل نشاط فلاحي ،

(١٢٩) أنظر أعلاه. في سنة ١٤٤٧ ، ربما تكون الحملة التي انطلقت بقيادة مالفانتي إلى توات ، قد موّلها البنك الجنوي للسنتوريوني. وكان حريصًا في ذلك الوقت بالذات على فتح مسلك يجري نحو التوابل الآسيوية عن طريق روسيا وآسيا.

(١٣٠) أنظر ، ف. مغاليايس غودنيو ، ١٩٦٩ ، وج. ديفيس ، ١٩٧٢.

(١٣١) ينبغي التذكير هنا بأن ر. موني (١٩٦٠) يقدر حجم تجارة الذهب السنوية بين غرب افريقيا وشمالها بحوالى ٤ أطنان على الأقل.

(١٣٢) أنظر عن فلفل الملاكيت ، ر. موني ، ١٩٦١ ، ص ٢٤٩ ، وبشأن حب الفلفل الأسود ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٠.

(١٣٣) ف فرنانديس ، ترجمة ب. دوسنيفال ، وت. منود ، ١٩٣٨ ، ص ٩٧. كانت الفضة في افريقيا أغلى من الذهب وكانوا يستوردنها من البلدان المسيحية وقد كان المغرب نفسه – لأسباب اقتصادية على الصعيد العالمي بما فيه آسيا – في ذلك الوقت ، سوقًا تروج فيها الفضة. وكانت الأقمشة تُصنع رغم أن الرحالة الأوائل قد سجّلوا باهتمام أن سكان افريقيا يسيرون عراة أو شبه عراة.

(١٣٤) الناشر ، م. خيمنز دو لا اسبادا ، ١٨٧٧ ، الترجمة الانكليزية ، ١٩١٢.

(١٣٥) أنظر س. دافو ، ١٩٦٩.

(١٣٦) أ. أرغين : «كانت الأمطار لا تنزل إلاّ مدة ثلاثة أشهر من السنة هي أغسطس / آب وسبتمبر / أيلول وأكتوبر / تشرين الأول.

أنه صيف أوروبا، أي موسم الحصاد وقطاف العنب[١٣٧]. ويكشف نظام الرياح الذي كان لا بدّ من مراقبته من أجل إتقان الملاحة، عن أنه يعمل على نحو محير يتمثّل في هبوب الرياح التجارية الشمالية الشرقية، والرياح التجارية الجنوبية الشرقية، ثم في هدوئها[١٣٨]. إن التساوي النسبي في درجات الحرارة ليس أقل من ذلك إثارة للحيرة والاستغراب. وإن ما نجده عند فالنتيم فرنانديس مثلاً من حديث عن أخلاق الأهالي ومعاينة المراسم الدينية التقليدية في بعض القلق وأحياناً في لهو، تمثّل أولى الملاحظات الاثنولوجية[١٣٩] دون أن تظهر كلمة «فتيش» التي سيكون لها رواج ليس له من مبرّر[١٤٠].

كان يمكن لتلك الملاحظات أن تؤدي إلى اكتشافات مثمرة[١٤١]. وقد حدث ذلك في ميدان الملاحة. إلاّ أن البحر في هذا المقام كان أكثر حظًا من اليابسة. فقد كان البرتغاليون يأملون في بداية الأمر أن يؤقلموا نباتات أوروبا من قمح وكروم، وكذلك البشر. إلاّ أن الوسط الجغرافي قد رفض تلك التطعيمات الفلاحية المتوقّعة، كما أن المناخ بثّ الخوف في قلوب الرجال[١٤٢] وقد بدأت الثورة ضد الإرث الثقافي البطليموسي[١٤٣]. إلاّ أن الرجل الافريقي لم يشهد تبدّد الأفكار المسبقة التي كان ذلك الإرث يحملها.

ولما تبيّن لهم بسرعة أن نقل الفلاحة الأوروبية أمر متعذّر، ظلّت أمامهم إمكانية أخرى هي أن ينشؤوا في أراض بكر مثل أراضي ساوتومي التي احتلوها سنة ١٤٧٢ مزارع لقصب السكر، لأن سوق السكر ما فتئت تتوسّع. ونشأت فكرة «تحويل اليد العاملة الضرورية» نشأة طبيعية تمامًا من فكرة ذلك المشروع وتمّ

---

(١٣٧) على أن كا دا موستو يلاحظ أنهم كانوا يزرعون البذور قبل نزول المطر وأنهم يجنون المحاصيل بعدها. لعمري زراعة غريبة بالنسبة إلى رجل من حوض البحر المتوسط.

(١٣٨) وأصبح من الضروري حساب مواعيد الملاحة طبقًا لمواعيد تلك الرياح، وقد سجل د. باشيكو بيريرا، منذ بداية القرن السادس عشر أن أشهر السنة التي ينبغي على السفن التي تتوجّه نحو الهند أن تكون فيها مستعدة تمامًا للإبحار، أشهر ثلاثة لا غير، هي يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط ومارس/آذار. وأن أفضلها هو فبراير/شباط فهل نحن في حاجة إلى التذكير في هذا المقام بأن فصل الشتاء في البحر المتوسط هو الفصل الذي قلما تتم فيه الملاحة.

(١٣٩— ف. فرنانديس، ١٩٥١، الجزء الثاني، ص ٧١، ٧٢، ٧٤، ٨٣، ١٠١. وصف فرنانديس «الأصنام» التي يعبدها الأفارقة ضمن عدد كبير من ملاحظات أخرى أكثر أهمية.

(١٤٠) أنظر بشأن «فتيش» ر. آرفايلر، ١٩٦٣، (صانع الفتيش) ص ٢٢٩ — ٢٣٠. ان النعت Feitico «فايتيشو» في البرتغالية ومعناه الأصلي اصطناعي، لا يستعمل بنفس المعاني التي تدل عليها الكلمة الفرنسية Factice (مزيف) والتي لنا عليها شواهد ترجع إلى بداية القرن الثالث عشر. وعن الكلمة « Feitico » نشأت مجموعة من الكلمات دخلت إلى الفرنسية تدريجيًا. أما «صانع الفتيش» فنشأت عن الترجمة الفرنسية في ١٦٠٥ لكتاب رحلة بطرس ماريز، الذي نُشر باللغة الهولندية قبل ذلك بثلاث سنوات. ولعلّ كلمة فيتيش لم تظهر في اللغة الفرنسية إلاّ سنة ١٦٦٩. ولعله يحسن القيام بدراسة لهذه الكلمة في البرتغالية والقشتالية.

(١٤١) إن الأسباب النفعية هي أولى الأسباب التي جعلت الغرب يخرج عندها عن تفكيره المركّز حول عرقيته الأوروبية: ان ملاحظة الفروق الجغرافية أدّت إلى البحث عن الأسباب. إلاّ أن مسار البحث العلمي سيتبع بخطى وئيدة جدًا تلك الحصيلة الخصبة من الملاحظات الأولى.

(١٤٢) لاحظ د. باشيكو بيريرا، أن المناخ على ساحل البنين منحرف جدًا طوال كامل السنة، وأنه لا يحتمل خاصة في أغسطس/آب وسبتمبر/أيلول، لأن الأمطار تتهاطل فيها دون انقطاع. «إن جميع تلك الأنهار ضارة بالصحة ومسبّبة للحمى التي تؤذينا نحن البيض ايذاءً شديدًا...».

(١٤٣) د. باشيكو بيريرا، إن الساحل الافريقي من البنين إلى الكونغو بتمامه وكماله مشجر جدًا وعامر جدًا بالناس، وان ذلك البلد قريب من خط الاستواء الذي قال عنه القدماء انه غير آهل بالسكان وقد دلتنا التجربة على العكس.

أيضًا نقل السود الذين أُسروا في الجزر الأخرى المنتجة للسكر الواقعة في البحر المتوسط الأطلسي(١٤٤). وقد بدأ هذا التهجير بعد مضي قرابة ثلاثين سنة على العهد الذي أصبحت فيه تجارة العبيد على السواحل الأفريقية ظاهرة لها معدل سنوي منتظم(١٤٥).

فمنذ ١٤٤٠، كانت عمليات الأسر التي تتم حسبما يتفق، على سواحل موريتانيا الحالية قد أفضت إلى تبادل تجاري، يبرّره زورارا تبريرًا قد يبدو صلفًا لولا أنه يكشف في المقام الأول عن التناقضات العميقة بين الأوروبيين: «ينبغي أن نشير هنا إلى أن أولئك السود من الموريتانيين هم تمامًا كغيرهم من الموريتانيين، إلاّ أنهم عبيد لهم بمقتضى عرف قديم أظن مصدره لعنة نوح بعد الطوفان لابنه حام... ولكن لهم، رغم سواد جلدتهم روحًا، مثل غيرهم من البشر، فضلاً عن أن أولئك السود ينحدرون من سلالة ليست من الموريتانيين ولكن من الوثنيين، حتى أن هدايتهم إلى طريق الخلاص هي أيسر مما تكون مع سواهم(١٤٦). ولما كان الربح يساعد الضمير(١٤٧)، لم تكن مبادلة موريتاني أبيض بعدد من السود، ثم استرقاق السود استرقاقًا مباشرًا لتقض ضمائر عدد كبير منهم(١٤٨). وفي سنة ١٤٤٤، انتظمت جمعية في لاغوش بالبرتغال لاستغلال تجارة العبيد. وفي تلك السنة نفسها، تمّ اقتسام ٢٤٠ عبدًا في لاغوش بين هنري الملاح وكنيسة لاغوش وفرنسيسكي – رأس سان فنسان والتجار.

وفي سنة ١٤٤٨، تركّزت في أرغان «تجارة نظامية» تقوم على مبادلة البضائع بالبشر. ولعلّ أرغان قد وفّرت على هذا النحو وحتى القرن الخامس عشر مئات العبيد سنويًا. أما جنوب أرغان فلم تكن العملية دون ذلك من حيث العائد، فمن الرأس الأخضر كان ينطلق بعد ١٤٦٠، حوالى ١٠٠٠ من العبيد قاصدين سين سلوم أما إذا بعدنا أكثر نحو الجنوب فإن التقديرات غير متيسرة بالنسبة إلى القرن الخامس عشر(١٤٩).

ويقدّر ش. فرلندن(١٥٠) عدد الوافدين إلى البرتغال بحوالى ٨٨٠ ينزلون في لاغوش ولاكازا دوس اسكرافوس (دار العبيد) الملكية في لشبونة. ومنذ ١٤٧٤، اعترفت قشتالة للبرتغال باحتكار هذه التجارة إلاّ أنها كانت تشتري العبيد من لشبونة.

وفي آخر القرن، كان توافد العبيد على البرتغال في أعداد ضخمة أمرًا ثابتًا، رغم أنه لا يمكن في هذا الشأن تقديم أرقام مضبوطة(١٥١).

---

(١٤٤) ش. فرلندن، ١٩٥٥، ص ٦٣٠ – ٦٣١.

(١٤٥) المرجع نفسه، ص ٦١٧؛ ١٩٦٧ ص ٣٦٥ – ٣٧٧.

(١٤٦) أ. زورارا، ١٩٤٩، ص ٩٠.

(١٤٧) أليست البراءة البابوية التي أرسلها نيقولا الخامس إلى ألفونس الخامس، ملك البرتغال، يوم ٨ يناير / كانون الثاني ١٤٥٤، تسمح له باستعباد «جميع الموريين (المغاربة أو المسلمين) وسائر أعداء المسيح»، ولم يستثن «الغينيين»، أنظر ش. فرلندن، ١٩٥٥، ص ٦١٨.

(١٤٨) من الفوائد الإضافية أن السود المعتنقين للمسيحية يذهبون إلى بلدانهم فينشرون دينهم، أما قبل ذلك فإنهم يكونون قد قدّموا جميع المعلومات عن تلك القارة الافريقية المجهولة جدًا حيث الذهب وافر...

(١٤٩) دفع برتولومبو ماركيوني الفلورنسي الذي اشترى حق المتاجرة بالعبيد على ساحل العبيد بين سنتي ١٤٨٦ – ١٤٨٨، ٤٥٠٠٠ دوكا كرسوم سنويًا.

(١٥٠) ش. فرلندن، ١٩٥٥، ص ٦١٧ وما بعدها؛ أنظر كذلك ص ٣٥٨ – ٣٦٢.

(١٥١) إن أفضل المؤلفين إلمامًا بالأخبار المتعلّقة بهذه النقطة (ب. كورتين، ١٩٦٩، ص ١٧ – ٢١، يقدر عدد العبيد الذين انتزعوا من افريقيا في القرن الخامس عشر بحوالي ١٧٥٠٠٠ وينبغي أن نضيف إلى هذا الرقم تلك الأرقام

ولما استقرّ تنظيم نظام التبادل في آخر القرن الخامس عشر، استقرّ معه الثمن الذي كان يُباع به العبد والذي كان يتذبذب كثيرًا في السنوات الأولى[١٥٢] تقريبًا في كل مكان في مستوى واحد. فكان يُباع الستة من العبيد مقابل فرس واحد في حالة البيع بالجملة. وكان الفرس يمثّل في داخل القارة بضاعة ممتازة للتبادل. وفيما بعد، حلّ النحاس محل الفرس أحيانًا، وخاصة في المناطق الاستوائية[١٥٣]، وتظل المتاجرة بالعبيد الأفريقيين على السواحل الافريقية للأسف مدة قرون، العملية التجارية الأكثر ربحًا بكثير للأوروبيين.

وجملة القول، أن الأوروبيين في القرن الخامس عشر قد غيروا كثيرًا من وضع مختلف الأرخبيلات الواقعة في الأطلسي الافريقي. إلاّ أنهم قلّما توغّلوا إلى داخل القارة مبتعدين عن السواحل. كما أنهم لم يقلبوا بصورة دائمة، أنظمة المبادلة القديمة ولا التوازنات السياسية الرئيسية. ويبدو أن محاولاتهم الاتصال بمانسا مالي بواسطة سفارة سنة ١٤٨١ و١٤٩٥، لم يترتّب عنها أي شيء. ومن العسير أن ننسب إليهم تأثيرًا ما في تحرّكات الفولبي نحو الجنوب وكانت بدأت حوالى ١٤٨٠ – ١٤٩٠. أما علاقاتهم مع ملك الكونغو، كنووو، فرغم أنها أقوى إلاّ أنها ظلّت غامضة ولم تكن لها من نتائج حاسمة في تلك الآونة. ففي ١٤٨٣ طلب الملك أن ترسل إليه بعثة تبشيرية ردًّا على سفارة برتغالية. فحصل عليها سنة ١٤٩١، فكان من ضمنها فرنسيسكيون عمّدوه يوم ٣ مايو / أيار من السنة نفسها، ونجارون، ومربّو ماشية، وبنّاؤون حتى يساهموا في تعليم حرفهم. ومنذ ١٤٩٣ أو ١٤٩٤ بدأت تظهر صعوبات خطيرة: فقد فضّل الملك أن يرتّد بدل التخلّي عن تعدّد الزوجات. ولم يكن إدخال المسيحية أحسن حظًا، في ذلك الوقت على سواحل خليج بنين، في منطقة السنغال وغامبيا[١٥٤]. وإذا استثنينا المغرب الأقصى، وكان يمثّل حالة خاصة[١٥٥]، فإن الجزر وحدها، هي التي أنشئ بها تنظيم مسيحي رسميّ. وعلى سبيل المثال عيّن أسقف لجزر الكناري في تلك الأيام.

وعلى العكس من ذلك، فإن الآثار غير المباشرة للحضور الأوروبي على السواحل الافريقية سرعان ما ستظهر، حتى وإن كانت مجالاً جغرافيًا محدودًا نسبيًا.

وفي السنغال وغامبيا، وجد البرتغاليون توازنًا مزدوجًا مستقرًّا فيما يبدو منذ زمن بعيد. ذلك أن

الواردة في كتاب ش. فرلندن، ١٩٧٧). كما ينبغي مراجعة عدد كبير من المؤلفات التي هي بصدد النشر والتي ألفها باحثون برتغاليون وأسبان. انظر مثلاً، ف. كورتيز-الونسو، ١٩٦٣، ١٩٧٢، ص ١٢٣ – ١٥١، وكذلك ١٩٦٤، وأ. فرنكو سلفًا، ١٩٧٩، وانظر كذلك أ. تيكسيرا داموتا، ١٩٨١.

(١٥٢) يبيّن كا دا موستو أنهم قد أبدلوا في الشمال، في بداية الأمر ١٥ عبدًا بفرس واحد. أما في السينيغمبيا فقد كانت النسبة تتراوح بين ١٠ و٢٠. أما في سين سالوم في آخر القرن الخامس عشر فقد كانت تتراوح بين ١٥ و٦ مقابل فرس واحد.

(١٥٣) حول هذه المسألة المهمة، والتي هي فضلاً عن ذلك لا تتعلّق إلاّ بالسواحل من القارة، يعدّ الأستاذ د. ماك كال دراسة مفردة.

(١٥٤) بدأت مجهودات الفرنسيسكان تظهر في غينيا بيساو منذ ١٤٦٩. ففي ١٤٨٩ حاولوا تنصير أحد رؤساء سيرير، إلاّ أن مرافقيه البرتغاليين، اغتالوه على أثر عودته من أوروبا. وفي سنة ١٤٨٤، استقرّ الدومينيكان في البنين.

(١٥٥) بمقتضى معاهدة بين المغرب الأقصى ومختلف الشركاء الأوروبيين تمّ منذ ١٢٥٥ السماح بإقامة أفراد ومنظمات مسيحية على أرض المغرب. وقد حاولت جماعة رهبان «السائلين» جهدها تنصير الأهالي ولكن دون جدوى، واستقرّ بعض الأساقفة بفاس ومراكش، وحصلت الوكالات التجارية الساحلية ومجموعات المرتزقة من المسيحيين على الاذن بفتح بعض الكنائس، أنظر بشأن هذه المسائل ل. يادين، ١٩٦٥، ص ٣٣ – ٦٨.

سلاطين مالي ، بضربهم ستارًا حديديًا من الحماية ، أشار إليه الرحّالة البرتغاليون ، قد ضمنوا هيمنتهم على الكازامنس ، وحتى شمال غامبيا مدة ما ، تاركين المنطقة الواقعة بين السنغال وغامبيا بيد الجولوف الأقوياء . ثم أن دخول الحديد الأوروبي – وإن كان بكميات ضئيلة – قد غيَّر هذا التوازن . وأوضح منه ما ستقوم به التجارة البرتغالية للمرة الأولى في السينيغمبيا ، من تفكيك للعلاقات السياسية والاجتماعية على المستوى الاقليمي ، ذلك النموذج الذي سيتكرّر بعد سنة ١٥٠٠ على ساحل البنين وبصفة خاصة في الكونغو . فالراجح أن بوربا الجولوف توصّل منذ قرون عديدة إلى الحصول على اعتراف بسلطانه من
الكونغو . فالراجح أن بوربا الجولوف توصّل منذ قرون عديدة إلى الحصول على اعتراف بسلطانه من
الكاجور والباول . فمنذ ١٤٥٥ طلب البوربا الخيل من الوافدين الجدد . وفي ١٤٨٤ ، أصبحت هذه التجارة أكثر انتظامًا[١٥٦] ، فصرف حكام الجولوف اهتمامهم عن التجارة الداخلية وشاركوا في التجارة الساحلية . ولكن التفوّق الجغرافي ، في هذا المجال ، كان بشكل واضح ، في صالح الكاجور والباول وهذا ما سيبيّنه المستقبل .

ولكن سرعان ما سيتجلّى أن النتائج الاجتماعية المنبثقة عن هذا الوضع الجديد ، هي على الأقل في مثل أهمية المضاعفات السياسية . ويتضمّن مجتمع السنغال وغامبيا الذي وصفه مؤلّفو عصر الاستكشاف أنماطًا مضبوطة من الأنشطة فيها الشعراء والنسّاجون والحدادون والاسكافيون ، ولكن لا وجود للتجار . ولانعدام التجار ، كان الملك هو الذي ينظّم التبادل مع الوافدين الجدد . وكان ذلك التبادل يوفّر له من الوسائل ما يدعم سلطته في وقت بدأت فيه بالذات ولأسباب عديدة ، بعض حركات المعارضة .

كان الفرس والحديد ، حتى وان تكرّر القرار الرسمي المنافق بمنع تصديره نحو البلاد غير المسيحية ، يستوجبان وجود « عملة التبادل » أي العبيد . ولئن بيّنت لنا المصادر أن « العبودية » كانت موجودة في مجتمعات النصف الثاني من القرن الخامس عشر لعدة أسباب بدأ المؤرّخون يستخلصونها شيئًا فشيئًا ، من حروب ، وديون ومجاعات ، فإن بنية ذلك المجتمع لم تكن عبودية ، وإن وضع أولئك الموالي التابعين ظلّ في السينيغمبيا على الأرجح خاصًا وشخصيًا بالدرجة الأولى . ومن البديهي أن الحال تتغيّر تغيّرًا سريعًا عندما يتعلّق الأمر بـ « الحصول على العبيد » لتسديد ثمن بعض المستوردات . وان السلطة الملكية والارستقراطية قد وجدت فيه مصلحتها الشخصية إلاّ أنها وجدت فيه أيضًا فقدانًا للاحترام اجتماعيًا وأخلاقيًا . ولا بدّ أن العلاقات الاجتماعية والعلاقات مع الجيران ، قد تكدّرت في مدة قصيرة إلى حد بعيد .

فقد كانت لا تزال توجد في السنغال وغامبيا ، مراكز مقاومة عنيفة للإسلام . وذلك أنه لم يسلم من القيادات إلاّ عدد قليل جدًا ، باستثناء بلاد التكرور القديمة . كما أن الإسلام بدأ ينتشر في أوساط الجولوف وبين الأوساط الشعبية بوصفه عنصرًا يمكن اعتماده لمعارضة السلطة التقليدية . ومنذ ذلك العهد ، أخذ الملوك يتركون الحبل على الغارب ، كما فعل بنو وطاس في المغرب ، فتركوا الأوروبيين يتدخّلون في الشؤون الداخلية بين مملكة وأخرى ، وبين شريحة اجتماعية وأخرى .

---

(١٥٦) أنظر ج. بولاغ ، ١٩٦٨ .

الفصل السابع والعشرون

خاتمة

بقلم ج. ت. نياني

ينتهي هذا المجلّد من تاريخ افريقيا العام مع بداية تفوق الأوروبيين وتوسّعهم. فالقرنان الخامس عشر والسادس عشر يمثّلان منعطفًا لا في تاريخ القرة السوداء فقط، وانما أيضًا في التاريخ العام للمعمورة. فقد بدأ معها عهد جديد بأتم معنى الكلمة، بالنسبة الى البشرية: «فالكارافيل» المرنة، وأشرعتها التي يسهل التحكّم فيها، والبارود، والبوصلة قد جعلت أوروبا سيدة البحار ومتحكمة في النظام الاقتصادي العالمي برمّته.

وأخذت موانئ حوض البحر المتوسط، بحيرة العالم القديم، تغطّ، الواحدة تلو الأخرى، في سبات عميق وذلك على الرغم من الجهد الجبّار الذي بذله التجار الايطاليون وخاصة منهم، الجنويون. فقد حاول هؤلاء طوال القرن الخامس عشر، أن يجدوا منفذًا الى ذهب السودان عن طريق التجار المغاربة.

فقد أمكن للوكيل التجاري الشهير أنطونيو مالفنتي، سنة ١٤٤٧ أن يصل الى «توات»، وقد عاد الى جنوه، بعد اقامته في تلك الجهة، بمعلومات نفيسة عن بلاد السودان البعيدة وعن تجارة الذهب.

لكن، كما هو معلوم، فان الاسبان والبرتغاليين هم الذين توصّلوا الى اكتشاف الطرق البحرية التي تؤدّي الى الأمريكتين والسودان والهند. ومن الجدير بالملاحظة أن الملوك البرتغاليين والاسبان لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم الاّ بفضل مساعدة الملاّحين الايطاليين.

ومع تحقيق الدوران حول القارة، أخلى المسلمون المجال لمسيحيي اسبانيا والبرتغال، بعد أن كان لهم التفوّق في هذا المضمار. وليس من باب الصدفة أن يكون الذين قاموا بتلك الاكتشافات البحرية، من البرتغاليين والاسبان، لأنهم قد ورثوا من العلوم العربية، بعد احتكاك طويل في زمني الحرب والسلم، كما سبق أن بيّن ذلك الاستاذ محمد طالبي في الفصل الثالث بشأن اشعاع الحضارة المغربية: أثرها في الحضارة الأوروبية.

وخلال الحقبة الممتدة بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر، نهضت افريقيا بدور من الطراز الأول في الاقتصاد العالمي. إلاّ أن اكتشاف كريستوفر كولومبس لأمريكا سنة ١٤٩٢، قد كشف

للأوروبيين عن مصادر أخرى للذهب والفضة ؛ وما لبثت شهرة مناجم البيرو والمكسيك أن غطّت على مناجم البوري والبمبوك ، والنفلام والموريني موتابا في توفير المعادن الثمينة.

لقد اتّسم تاريخ افريقيا بالنسبة الى الحقبة التي ندرسها بسمات ثلاث كبرى :

على الصعيدين الديني والسياسي

نذكر أولاً تطوّر الممالك ، والامبراطوريات والمدن. فقد فرض الاسلام نفسه بواسطة تعريب تدريجي لأفريقيا الشمالية بأكملها. أما في جنوب الصحراء ، فقد أصبح دينًا رسميًا للعديد من الممالك والامبراطوريات ، لكن افريقيا السوداء لم تتعرّب. فقد كان الاسلام بها حدثًا سياسيًا أكثر مما كان حدثًا دينيًا ، على أنه قد سهّل العلاقات التجارية في كل مكان. أما في السودان ، فان كثافة المبادلات التجارية قد أدّت الى تطوّر اجتماعي سريع : فظهرت طبقة اجتماعية جديدة ، هي طبقة التجار والمثقفين الزنوج. أما جنوب الصحراء ، فان الاسلام قد تكيّف فيه مع الظروف ، أو على وجه الدقة ، فانه لم يكن الاّ قشرة رقيقة من الطلاء لا تغطّي سوى البلاط والتجار الذين لهم علاقات مع البربر المستعربين. أما الدين التقليدي ، القائم على عبادة الأسلاف ، فقد ظلّ هو هو عند الشعوب التي يحكمها أمراء أسلموا ، كما عند الشعوب التي ظلّت وفيّة للدين التقليدي. فالشبه بين مراسم البلاط في كومبي ونياني ، وفي الياتنغا ، له دلالته الخاصة. فالرعايا في حضرة الملك يعفّرون أنفسهم بالتراب ويزحفون على الأرض قبل أن يتوجّهوا اليه بالخطاب. وفي كل مكان تراهم يعدّون الملك مسؤولاً عن سعادة المملكة ورخائها. وهذا هو أساس ذلك الاحترام الذي يبديه له رعاياه. ولذلك انساق بعض الاخصائيين بكل سهولة الى الحديث عن «الملكية المقدّسة» و «الملكية الإلهية». وفي النهاية ينبغي أن نؤكّد روح التسامح التي أبداها الملوك السود ، الذين يسروا أسباب استقرار البربر المستعربين في المدن ، الاّ أن اعتناقهم للدين الجديد لم ينتج عنه تخليهم عن الممارسات الدينية المتوارثة. بل لقد تولّد عنه ، في بعض الأحيان ، مزيج جديد. فأنت تجد في التراث التقليدي السوداني عديدًا من تأثيرات الدين الاسلامي ، وقد قدّم قصصه وأبطاله في صور تختلف عن الأصل التقليدي القديم.

وكذلك الشأن بالنسبة الى المسيحية والتراث التقليدي الافريقي في إثيوبيا. لكن الدينين السماويين ، من اسلام ومسيحية ، ظلاّ طيلة قرون في حالة حرب ، على أن التجارة لم تتخلّ أبدًا عما لها من حقوق رغم ذلك التوتّر القائم بين المسلمين والمسيحيين في القرن الافريقي.

«منذ القرن العاشر كان تقدّم الطرق التجارية من خليج عدن نحو المناطق الداخلية من القرن الافريقي هو أحد العناصر الأساسية في تاريخ شعوب المنطقة كافة. وحتى عندما كانت تلك الطرق موضع خلاف بين القوى الرئيسية التي كانت تتنازع السيطرة عليها في المنطقة ، فانها أسهمت ، بلا أدنى شك ، في ألوان شتى من التأثيرات المتبادلة بين السكان المحليين ، وهم مختلفون من حيث الانتماء الثقافي ، واللغوي ، والديني... ومنذ منتصف القرن الثالث عشر لم تعد مملكة زاغويه المسيحية ، في اثيوبيا الشمالية ، تعتبر سلطنة دهلك مخرجها الوحيد الى البحر الأحمر ، وأخذت تسلك طريق زيلع مارة بأقاليمها الجنوبية» [1].

(١) أنظر حول هذا الموضوع ، الفصل ١٧ أعلاه ، ص ٤٣٠.

وهكذا فان المعارضات الدينية وما كان ينشأ عنها من الحروب المتقطعة ، لم تكن لتحول دون امتزاج الشعوب . كما أن المبادلات الثقافية والاقتصادية لم تنقطع . أما على الصعيد السياسي ، فقد كان معظم العشائر ، والمجموعات العرقية منظمة تنظيمًا محكمًا يمكنها من مقاومة محاولات الاستيعاب : فحتى عندما كانت احدى المجموعات تظهر على غيرها وتفرض قانونها الخاص ، فان الأمر لم يكن يتعلّق بالالتحام حول العشيرة المنتصرة ، وإنما بتكوين اتحاد من العشائر يحتفظ فيه كل منها ان قليلاً وان كثيرًا ، بشخصيته وذلك حسب درجة تنظيمه . والأمر مثير للانتباه ، اذ ليست ممالك بني مرين ، والحفصيين والسعديين في بلاد المغرب ، سوى ممالك تكوّنت من تكتّلات من القبائل اجتمعت حول قبيلة السلطان . والأمر كذلك في مالي ، فان عشائر الماندانغ قد جمعت حولها سائر العشائر ، وكذلك الشأن في موسّى وفي رواندا وبين المويني موتابا .

أما في الشمال والشمال الشرقي من القارة الأفريقية ، فان بلاد المغرب ومصر تتميّزان عن سائر العالم الاسلامي . فبعد تلك الحقبة القصيرة التي توحّد فيها المغرب في ظلّ الموحّدين ، بدأت تتّضح معالم ثلاث دول هي المغرب الأقصى في أقصى الغرب ، وتونس والجزائر ، وقد تكوّنت ملامح شخصية كل من تلك الكيانات بعد انهيار وحدتها السياسية العابرة . ومن الجدير بالملاحظة هنا أن عملية تعميم التعريب قد تمّت على نحو بطيء جدًا . فالأقوام حقيقة سياسية اجتماعية ، وعلى الحاكم ان يعمل حسابًا للشيوخ أو رؤساء القبائل أو العشائر . أما بين خليج قابس الذي يحدّ افريقية أو البلاد التونسية ووادي النيل ، فيقع الإقليم الليبي ، وهو منطقة تبعية يتقاسمها حسب الظروف ، حكّام تونس وحكّام القاهرة . وكان هؤلاء ، وخاصة منهم سلالة المماليك ، قد جعلوا مصر متفوّقة على العالم الاسلامي ، فكانت القاهرة عاصمة سياسية لها كلمتها المسموعة سواء في الغرب أو الشرق .

لقد كان الاسلام لحمة بين بلاد المغرب ومصر والمشرق الاسلامي ، ولكن لم يعد ممكنًا لأي من تلك المناطق أن تدّعي فرض نفسها على الآخرين أو اعادة بناء الوحدة الاسلامية التي كانت في العهد السابق . ففي آخر الحقبة التي ندرسها ، كان الاسلام يتراجع تراجعًا واضحًا على المستوى السياسي : فقد انتقل المسيحيون الى طور الهجوم في ايطاليا ، وفي شبه جزيرة ايبيريا . وقد سقطت غرناطة آخر مملكة عربية في اسبانيا . وعبر المسيحيون البحر المتوسط ، ونزلوا ببلاد المغرب ، وقد كانت حملة سان لويس الصليبية مثالاً مجسدًا لذلك . أما البرتغاليون ، الذين كانوا في طليعة تلك الهجمة المسيحية ، فقد استقروا في سبتة في نهاية القرن الخامس عشر ، وكانوا يريدون ، حسبما يبدو ، أن يجعلوا من المغرب الأقصى رأس جسر يتوغّلون منه في افريقيا .

وفي نهاية القرن الخامس عشر ، تفوّق ملوك شبه جزيرة ايبيريا على المسلمين برًا وبحرًا ، وأخذوا ينشدون السبل الموصلة الى بلاد السودان الغنية بالذهب .

ومما يسترعي الانتباه ، حالة بلاد النوبة التي اجتثت المسيحية منها بعد صراع طويل[٢] . يقول الاستاذ كروباتشيك : «فالرأي الشائع أنها (أي المسيحية) كانت دينًا للصفوة في الأساس ليس له جذور عميقة بين جماهير السكان . كما ارتبطت العبادة الى حدّ كبير باكليروس قبط وثقافة أجنبية دون وجود قدّيسين أو شهداء نوبيين ،... ورغم كل شيء فان الرسوم الجدارية للكنائس التي اكتشفت تبيّن أحيانًا ، الوجوه السوداء للمطارنة النوبيين من أبناء البلاد»... «ويتّضح بقاء معتقدات أكثر قدمًا أي من عصر ما قبل

(٢) أنظر بهذا الشأن ، الفصل ١٦ ، وهو يلقي أيضًا أضواء جديدة على التغيرات الثقافية والاجتماعية الحاصلة في تلك الحقبة نفسها في بلاد النوبة .

المسيحية في رواية ابن سُلَيم (القرن العاشر) كما يتّضح من بقائها في الاسلام السوداني الشعبي المعاصر».
الاّ أن التعريب لم يتمّ باللين، فما من شك أن الغزاة قد قمعوا ثورات عديدة، والحقيقة ان السود قد غمرتهم أمواج من المهاجرين العرب.
«توصّل المؤرّخون المعاصرون للسودان النيلي، وكانوا على حقّ في ذلك، الى اقتناع ثابت بأنه في الماضي أُعطيت أهمية كبرى للعامل الشمالي (أو العربي) على حساب التطورات الداخلية الذاتية والصلات مع الثقافات الزنجية الافريقية على حدّ سواء. فالتأثيرات في اتجاه المنطقة السودانية والقادمة منها، وذلك باعتبارها حالة خاصة، كانت قد أصبحت منذ عهد طويل مجال بحوث نظرية مجرّدة وفيرة».
وتُشير أحدث الأبحاث الى ان السودان النيلي قد كان دومًا معبرًا ومنطقة اتصالات بين عديد من العشائر او المجموعات العرقية الزنجية. وتكشف الحفريات، من سنة الى اخرى، عن عناصر الثقافة الزنجية في الحضارة السودانية.
وفي الصحاري، كانت توجد العشائر: فقد كان لكل عشيرة في الصحراء مجالها الاقليمي الخاص الذي ترتحل عبره، ذلك ان ما فرضته عليهم الطبيعة من حركية مفرطة، لم يمكّن من اقامة دول مركزية. وكذلك الشأن بالنسبة الى الغابات الاستوائية حيث يمكّن الأقزام في ظروف صعبة للغاية أن يظلّوا على قيد الحياة نازلين هنا وهناك، وهم في بحث دائب عن الطريدة. وكذلك كانت حال الخوي – خوي والسان، وجميع تلك الشعوب التي أبعدها السودانيون أو البانتو، اما الى الصحاري أو الى الغابات، حيث أنهم كانوا أحسن تسليحًا، ولأنهم كانوا يعرفون استعمال الحديد ويجيدون الرماية بالرمح. ولنقل في ختام هذه الملاحظات العامة المختصرة عن التطور السياسي، إنه قد تمّ في افريقيا بأسرها قبل سنة ١٦٠٠ بلوغ الطور القبلي أو تجاوزه، وانه قد تمّ تشييد مدن وممالك وامبراطوريات قادرة على البقاء في كل مكان سمحت فيه الظروف بذلك. وهكذا فان تشكيلات متميّزة، مطعّمة باضافات خارجية، كانت تتدعّم، فقد عرفت أساليب في الحكم عديدة. وثمة في ماضي افريقيا جملة من التجارب السياسية لم يكد يشرع في دراستها بعد.
ويتمثّل التدرّج السياسي في تطوّر يبدأ من العشيرة، الى التجمعات العشائرية في ممالك، الى تجمّع الممالك في امبراطوريات. ومنذ الآن يمكن للمرء ان يعمد الى دراسة المؤسسات السياسية، وذلك بالنسبة الى عديد من جهات القارة الافريقية.
وفي الطرف الجنوبي من القارة، جنوبي خط يمتد من ناميبيا الى مصب نهر الليمبوبو، من الثابت أن عددًا من الممالك والامبراطوريات قد نشأت منذ ما قبل القرن الثاني عشر. وما تزال الأبحاث الأثرية قائمة هنالك، الاّ ان وجود «دولة جنوب افريقيا» يمثّل عقبة تحول دون البحث التاريخي. وما لدينا من معلومات عن مناطق الغابات في افريقيا الوسطى وعن سفانا الجنوب، معلومات ضئيلة، مع ان علم الآثار يلقي بعض الضوء على الجانب المادي من حضارة تلك المنطقة. ويسمح لنا تحليل الاستاذ فنسينا المتخصّص في تقاليد البانتو، من ان نقول ان الدولة، أي ذلك الكيان السياسي الذي له هيكل خاص، كانت بالنسبة الى تلك الحقبة، وفي تلك المناطق التي نحن بصدد الحديث عنها، حقيقة قديمة جدًا.
وقد كتب الاستاذ فانسينا: «مهما يكن من أمر، فلا بدّ ان الدول ظاهرة قديمة، اذ ليس من باب الصدفة ان مقابر سانغا وكاتوتو الكبرى تقع بالذات عند بحيرات اللوالابا، أي بالتحديد في منطقة تقع في قلب امبراطورية لوبا جنوبًا، وهي الامبراطورية التي لعلّها انبثقت منها في حقبة متأخّرة. ويستنتج م. فنسينا ان تاريخها يرجع دون شك الى ما قبل سنة ١٠٠٠ م، ذلك ان تجمعات في مثل كثافة التجمعات التي بقيت لنا آثارها في سانغا، لم تعد تحكمها مجرّد علاقات بين – عشائرية. وفضلاً عن ذلك

فان قدم الدول التي من نوع لوبا قد يمدّنا بمعلومات عن مدى امتداد اللغات التي تنتسب الى فصيلة واحدة والتي كانت تغطّي كامل منطقة الكاساي الشرقي ومعظم منطقة شابا وشمال شرقي زامبيا، وحزام النحاس وجزءًا من الشمال الغربي.

وما يجب معرفته أيضًا هو أن رعايا بريطانيين، قد أنشأوا، في بداية القرن الحالي، «الشركة الروديسية المحدودة للآثار القديمة» أو «شركة الآثار القديمة». وقد نهبت تلك الشركة الشهيرة في بضعة عقود من الزمن المقابر الملكية التي يرجع عهدها الى حضارة زيمبابوي – ومابونغوبوي؛ وسلبت من عدد كبير من تلك المقابر كنوزها تمامًا. ويبدو ان لحضارة افريقيا الجنوبية كثيرًا من أوجه الشبه مع حضارة زيمبابوي. فهي مثلها، حضارة منجمية ذات أبنية حجرية، كما هو شأن بناية منيكمي في الموزمبيق، أما في الترانسفال القديم فإن حضارة سوتو وشونا قد خلقت لنا صروحًا حجرية ضخمة. وقد دلّت آخر الأبحاث ان حضارة المابونغوبوي، قد صاغت مزيجًا من حضارة البانتو وحضارة الشعوب التي هي أقدم منها، من قبيل الخوي – خوي. وقد شاع الحديد قبل القرن العاشر بكثير، ولنا ما يحملنا على الاعتقاد بأن قبور تل مابونغوبوي وما يحيط بها تنتمي الى حضارة قد ازدهرت على الأقل بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، ان لم نقل من زمن أسبق، وذلك قبل أن تدخل في طور احتضار بطيء طويل، بتأثير من عوامل عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي أدّت اليه تجارة العبيد.

وثمّة شيء من الفساد في تفكير بعض الباحثين الذين ينزعون الى اعتبار دخول الحديد الى افريقيا الجنوبية انما قد حصل بين القرنين التاسع والعاشر لا غير، والحال ان العلاقات بين وادي النيل (مروي، نبتا)، ومنطقة البحيرات وسفانا الليمبوبو، كانت علاقات متّصلة، اذ لم تقم أي عقبة ذات شأن أمام تنقّل الرجال، وبالتالي أمام علاقات التبادل فيما بين المناطق، وذلك على الصعيد الثقافي والصعيد التجاري البحت على حدّ سواء. على انه قد يستنتج من أحدث الأبحاث ان تشغيل الحديد كان معروفًا في افريقيا الجنوبية ربما قبل الميلاد، وهو ما قد يطيح بكثير من النظريات.

ان كثيرًا من النقاط المتعلّقة بنشأة ممالك تلك المنطقة وبتطوّرها في تلك الحقبة تظل غامضة الى الآن. ولئن كان الباحثون يتساءلون حتى الآن بشأن زيمبابوي، فلم يعد ذلك لمعرفة ما إذا كان البيض أو السود هم الذين شيّدوا تلك الصروح العملاقة، فمن الثابت ان تلك المباني من عمل الشونا. لكن ما هي المؤسسات السياسية التي أُقيمت في تلك المملكة؟ كيف كانت بنيتها الاجتماعية؟ وكيف كانت المبادلات التجارية تجري بين زيمبابوي والمدن الساحلية؟ تلك لعمري اسئلة ما تزال بدون إجابة.

على الصعيد الاقتصادي والثقافي

إن ما يشدّ الاهتمام، هو كثافة العلاقات فيما بين الأقاليم وفيما بين القارات تحت تأثير التجار العرب والفرس، والبربر، والصينيين، والماندانغ، والهوسا. ففي الجنوب كانت شعوب الشونا وسائر ساكني السفانا تحت الاستوائية ينشطون حركة تجارية مزدهرة نحو المحيط الأطلسي، وكذلك في اتجاه المحيط الهندي، عبر الكونغو ومنطقة البحيرات والمويني – موتابا.

وكان الملوك السود على دراية تامة بما للمعادن كالذهب والنحاس والحديد من دور سياسي، فكان استغلالها يخضع لاشرافهم. وهذه النقطة جوهرية، لأن كثيرًا من الدراسات والمقالات عن افريقيا تجعل القارئ يستخلص ان هذه القارة كانت معين ذهب يغرف منه العرب، والبربر، والفرس كما لو كان الملوك

هنالك لمجرّد خدمة الأجانب. ان ما يتجلّى من تلك الدراسات لهو النفي المطلق لوجود دول منظمة. وليس من باب الصدفة ان الملوك الأفارقة قد منعوا عن الرحّالة العرب في ذلك العهد دخول المناطق التي فيها مناجم الذهب.

كان كل طرف يحقّق ربحًا من تجارة قائمة على مبدأ المساواة. وليس من باب الصدفة كذلك ان أعظم الملوك في السودان كان يتسمّى باسم «كايامغان» أي «ملك الذهب»، وفي الجنوب كان نظيره في البلاد الغنية بالذهب والنحاس والحديد، يطلق على نفسه اسم «مويني موتابا» أي سيد المعادن. وكان هؤلاء الملوك وشعوبهم يدركون تمام الادراك ان ازدهار المملكة وشهرتها يقومان على المعادن النفيسة. وكان الملوك يقدّرون منزلة المعادن حقّ قدرها في علاقاتهم مع الخارج. فقد كان «الكايامغان» ينفرد بحق تملّك خام الذهب، وكان يراقب خروج المعدن النفيس مراقبة صارمة. ولا شك ان الأمر كان كذلك في زيمبابوي وفي مويني – موتابا. وهو أمر ينبغي الالحاح عليه لأن بعض الدراسات التي وضعها مستفرقون (الأجانب المتخصّصون في الدراسات الأفريقية) توهم بأن الأفارقة وملوكهم كانوا يسلمون كنوزهم الى أول من يحل بينهم من التجار وأنه لم تكن لهم اي دراسة بالمصلحة العامة!

وقد عرف الملوك كيف يستعملون ما يمارسه الذهب من جاذبية، حتى يضمنوا تعلّق بعض الأجانب بخدمتهم؛ من ذلك مثلاً أن مانسا – موسى الأول اجتذب الى عاصمته المهندسين المعماريين والأدباء وأهل الدين، وأجرى عليهم جرايات تدفع لهم ذهبًا. ولا بدّ ان ملوك زيمبابوي قد دفعوا ثمن الأواني الخزفية الصينية وبعض الكماليات الأخرى التي كانت شائعة جدًا في البلاط، ذهبًا. وبفضل الذهب والنحاس والعاج، سيجعل الملوك الأفارقة المنتجات والمواد الأساسية التي هي من أهم الضروريات كالملح (وكانوا يشترونه عند الضرورة بوزنه ذهبًا) تتدفّق نحو بلدانهم، وكذلك الأواني الخزفية الصينية، والديباج والحرير والأسلحة الجميلة وكل ما من شأنه أن يزيد في رونق البلاط.

وقد لعبت افريقيا الشمالية والسواحل الشرقية من القارة دور وسيط من الاهمية بمكان. فعبر افريقيا الشمالية كانت تمرّ منتجات أوروبا وبضائعها، والمعادن الثمينة التي كانت تمنح الحياة للعلاقات التجارية في العالم الواقع على حوض البحر المتوسط. أفلا تفسّر الامتيازات التي يمنحها مثل هذا الموقع حدّة الصراع بين المدن التجارية المغربية للسيطرة على المسالك التي كانت تمرّ عبرها خيرات بلاد السودان؟ لقد أدرك ابن خلدون هذه الظاهرة تمام الادراك في كتابه عن تاريخ البربر. ولعلّ ذلك هو السبب الذي من أجله قام بذلك البحث الطويل الدقيق لمعرفة تاريخ بلاد السود التي كانت ترتبط بها تجارة ونشاط المدن المغربية والمصرية الى حدّ بعيد.

ان الساحل الشرقي من القارة، من القرن الافريقي حتى سوفاله، ينفتح انفتاحًا كليًا على المحيط الهندي الذي يربط افريقيا ربطًا مباشرًا بالعالم الشرقي وبالشرق الأقصى. ولئن مكّنت التجارة البحرية من تشييد مدن تجارية على الساحل، فان ملوك الممالك الواقعة داخل القارة ولا سيّمًا «ملوك المعادن» قد شيّدوا هم أيضًا مدنًا وصروحًا توصف الآن بأنها من عمل الجبابرة، لشدّة ما هي مهيبة في أحجامها وهندستها المعمارية التي لا يشتم منها أي تأثير خارجي.

وقد قامت التجارة، بالنسبة الى الحقبة موضوع الدراسة على تبادل المنسوجات والأسلحة ومنتجات شتى، تصدر من أعماق السفانا والغابات، وتباع حتى في الصين القصية وفي إندونيسيا. وهذا يدلّ على أهمية المحيط الذي تسبح في مياهه مدغشقر، فقد حقّقت تلك الجزيرة الكبيرة، شأنها في ذلك شأن المدن الساحلية، مزيجًا من الثقافات الشرقية والافريقية على جميع المستويات اللغوية والاقتصادية. فمع التجارة أدخلت الى افريقيا نباتات جديدة وخاصة من آسيا، مثل القطن الذي أدخله العرب الى السودان منذ ما

قبل القرن العاشر.

ولم تبلغ الأنشطة الثقافية والمبادلات فيما بين المناطق قط من قبل ما بلغته في ذلك العهد : فقد كانت تجارة الكتب مزدهرة في غاو وفي تومبكتو. أما في السودان بأكمله، من الأطلسي الى البحر الأحمر، فقد نشأ أدب زنجي – اسلامي، وقد نما في ممالك الحبشة وبورنو، والسونغي والتكرور ومالي أدب أصيل يحتلّ فيه الفقه والتاريخ منزلة عظمى؛ وكانت للمدن الواقعة جنوب الصحراء، علاقات ثقافية مع مدن الشمال عن طريق الحج أو التجارة.

وفيما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر، انتشرت الشعوب التي تتكلّم لغة البانتو في وسط افريقيا بأكمله، حاملة معها تقنية زراعية أكثر كفاءة بفضل ما لها من أدوات حديدية. أما في اتجاه الجنوب، فان تأثير ثقافة البانتو كان لا ينفك يتدعّم. وفي الوقت الذي التفّ فيه فاسكو دي غاما حول رأس الرجاء الصالح، سنة ١٤٩٨، كان الطرف الجنوبي من القارة منذ زمن بعيد موطنًا لحضارات باهرة ازدهرت فيها الفلاحة وتربية الماشية. الاّ أن بعض العلماء لم يتورّعوا، تبريرًا لاستقرار الأوروبيين المبكر في الجزء الجنوبي من القارة، عن التأكيد بان تلك المنطقة كانت خالية من السكان أو تكاد! وهو ضرب من الدفاع عن النفس مريح الاّ انه لم يصمد أمام اختبار الأبحاث التاريخية. والحقيقة أنه منذ القرن السابع عشر، أخذ الهولنديون، وعلى أثرهم البريطانيون، يدفعون بالأفارقة نحو المناطق القاحلة. ثم كان في القرن التاسع عشر، ذلك الاندفاع نحو المناطق المنجمية في زيمبابوي والترانسفال التي كان يستغلها قبل ذلك بخمسة قرون عظام ملوك المويني – موتابا، والمابونغوبوي، والمانيكني بالموزمبيق.

لكن مهما تكن قيمة المعادن بالنسبة الى تلك المنطقة بأكملها، فان الزراعة تكون القاعدة الأساسية لاقتصاد ممالك جنوب الصحراء، وقد كان الانتاج يقوم على الاستغلال العائلي للأراضي. على انه كانت توجد هنا وهنالك مجموعات من السكان المسخرين يعملون لحساب الملوك. اما في افريقيا السوداء، فان النظام الشائع كان القنانة أكثر من سواها، وكان العرف هو الذي يضبط مقادير الأتاوات والحقوق. وقد كان بالواحات الواقعة جنوب بلاد المغرب عبيد وفلاحون يخدمون الأرض لصالح كبار الأسياد أو الملوك. ولقد طوّرت المزارع في الجزر القريبة من سواحل شرقي افريقيا لكن لم يكن المرء يجد في أي مكان، بالنسبة الى الحقبة المعنية بالأمر، قطعانًا من العبيد يستغلون استغلالاً منظمًا.

ولئن كانت تربية الماشية من اختصاص بعض المجتمعات، فانها كانت في الجهات الرطبة التي تكثر فيها الأعشاب، نشاطًا يرتبط ارتباطًا حميمًا بالزراعة، وكانت منطقة بلاد السودان والساحل مجال تنقّل الرعاة؛ وكانت بعض المجموعات المتوغّلة نحو الجنوب تنزع الى الاستقرار، وذلك مثلاً شأن الفولبي (الفولاني)، في ماسينا وفي فونا – جالون.

وكانت الحرف في افريقيا السوداء مقصورة على أشخاص ينتمون الى طبقة مغلقة، أما فيما عدا ذلك، كما في بلاد المغرب أو في مصر، فان الجماعات الحرفية منظمة في نقابات بأتم معنى الكلمة. الاّ أن انعدام الوثائق المكتوبة لا يسمح لنا بالحديث عن تنظيم الحرف في افريقيا الجنوبية، رغم ان صناعة المعادن فيها قد بلغت مستوًى راقيًا. وان دراسة دقيقة للروايات الشفوية يمكن ان توفّر للدارس معلومات نفيسة عن تنظيم العمل في تلك الجهات.

وعلى العموم، فان نمط الانتاج الأبوي كان هو السائد تقريبًا في كل مكان. ولم يكن رئيس العشيرة ولا شيخ القبيلة ولا الملك ولا الامبراطور، طاغية، وانما نتاجًا لعرف كان يهدف الى حماية الأفراد من تعدّيات الرؤساء أو الملوك وتعسفاتهم. وقد كانت ثورات القبائل في بلاد المغرب ضد عمال السلطان لجمع الضرائب، أمرًا كثير الحدوث في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وثمة ظاهرة على درجة كبيرة من الاهمية وهي وجود طبقة من التجار، هي نواة للبورجوازية. فقد سهّل هؤلاء التجار، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، أسباب التواصل بين المناطق وبين الشعوب. وقد تمّ تأكيد هذا الأمر في عدد كبير من فصول هذا الكتاب. وفي هذه الحقبة بالذات اتضحت نزعة بعض الشعوب من قبيل الماندانغ والهوسا الى ممارسة التجارة.

ولو سمح لنا بأن نعقد مقارنة، لقلنا ان الممالك والامبراطوريات في كل مكان من العالم القديم، من افريقيا الى الصين مرورًا بالجزيرة العربية وأوروبا من الأطلس الى البوسفور، كانت قد بلغت درجة راقية من التطور: والمغامرة الأوروبية التي بدأت في القرن الخامس عشر، كان يمكن ان تبادر اليها افريقيا أو الصين، التي كانت تعرف البوصلة والبارود منذ عهد قديم. أفلم يحاول أحد أباطرة مالي أن يعرف أين ينتهي المحيط الأطلسي أو «البحر المحيط»؟.

لكن عجلة التاريخ كانت قد دفعت بأوروبا الى المقدّمة. وستكون الهيمنة لمدة خمسة قرون لذلك الطرف المتقدّم من آسيا الا وهو أوروبا الغربية.

في الدينامية التاريخية الافريقية

بعد هذه الملاحظات، لا بدّ أن نتبيّن ان أعظم خاصية من خاصيات القارة الافريقية بالنسبة الى الحقبة المدروسة انما هي ديناميتها التاريخية الخاصة. ولا سبيل الى تفسير تطوّر الحضارات التي ازدهرت آنذاك على سطح القارة بمجرّد تأثير من الاسلام، كما فعل بعضهم الى حدّ الآن. فقد سبق ان رأينا كيف ان الحضارات المزدهرة من حضارة بنين والكونغو/ الزائير ومابونغوبوي وزمبابوي، تقوم برهانًا ناصعًا يدحض مثل تلك النظرية. فحتى البلدان التي انتشر فيها الاسلام، كانت تستمد قوّتها الأدبية من الرصيد التقليدي الافريقي الذي كان ذا فاعلية كبيرة أكثر من أي وقت مضى، أكثر مما تستمدها من الاسلام. ولم يمنع سكان افريقيا الشمالية اسلامهم وتعرّبهم من أن يظلّوا رغم ذلك محتفظين بشخصيتهم الثقافية الخاصة. وذلك مثلاً ما وقع للبربر، فقد عرفوا كيف يحتفظون بلغتهم وبسمات عديدة من ثقافتهم، مع تشبّعهم بالاسلام.

وعدم الاستقرار السياسي الذي لاحظناه هنا وهنالك مردّه الى أسباب داخلية، وكانت الحلول التي قدّمت لحلّ المشاكل تعكس النزعات الدفينة التي ينزع اليها السكان المحليون. وأبرز مثال على ذلك هو دخول الاسلام الى افريقيا الغربية: فقد كانت حركة المرابطين أساسًا حركة بربرية – زنجية، وقد أفضى تطوّرها على سبيل المثال، بالنسبة الى السودان، الى تفكّك امبراطورية غانا القديمة. وقد تبعته سلسلة من الحروب بين الولايات أفضت الى اعادة بناء الامبراطورية في كنف المانتكة (الماندانغ)، وكان ملوكها قد أسلموا منذ القرن الحادي عشر. واتّسعت الامبراطورية الجديدة، أو امبراطورية مالي بأن انضمت اليها مقاطعات جديدة، ووسعت من مدى نفوذها الى ما وراء منطقة نفوذ غانا. ففي اطار مُذهّب بطلاء اسلامي، يمثّل ذلك الأمر بداية عهد جديد، تتبعه نشأة مدن جديدة ومجتمعات جديدة ستسيطر عليها في المستقبل القريب ارستقراطية من التجار والمثقفين السود. ويمكن أن نسوق مزيدًا من الأمثلة التي تبيّن الدينامية الداخلية في المجتمعات الافريقية. والمسيحية الإثيوبية هي الأخرى مثال بارز، فقد صاغت اثيوبيا لانعزالها عن سائر العالم المسيحي، كنيستها الخاصة، صياغة أدمجت فيها قيمها القديمة.

وعلى الصعيد النظري، ما تزال المجادلات قائمة بشأن تحديد نمط الانتاج الذي كان سائدًا في افريقيا

ما قبل الاستعمار. لكن كيف يتسنّى لنا تحديد نمط الانتاج لبلدان نجهل تاريخها حتى في خطوطه الرئيسية؟ ينبغي ، بادئ ذي بدء ، أن نعيد تشخيص الماضي ، أي أن نبيّن كيفية عمل المؤسسات ، وأن نقدّم المكونات التي يتألف منها المجتمع ؛ وهذا ما يقتضي منا مواصلة القيام بمزيد من الأبحاث[٣] .

لقد قلنا آنفًا ، اذا كان للذهب والنحاس والعاج منزلة كبرى في المبادلات بين افريقيا المدارية وسائر العالم ، بالنسبة الى «الكياماغان» ، والمانسا و «سيد المعادن» ، فان الأساس الذي كان يقوم عليه الاقتصاد هو الزراعة ، لأن الفلاحين والحرفيين كانوا يمثّلون الأغلبية الغالبة من السكان.

وقد كان التجار والأعيان يكوّنون في البلاط وفي المدن ، ارستقراطية ضئيلة العدد بالمقارنة مع جمهور الفلاحين والقائمين على تربية الماشية. أما الظاهرة الأساسية التي ينبغي ملاحظتها بالنسبة الى افريقيا السوداء ، فهي ان الملكية الفردية للأرض لم تكن قاعدة التطور الاجتماعي والاقتصادي ، كما كان الشأن في أوروبا. فقد كانت الأرض تعتبر في افريقيا السوداء ، قبل ان يطغي الاقتصاد النقدي ، ملكًا للمجموعة غير قابل للتقسيم. فقد كان للملوك أو الأباطرة «أبعاديات بشرية» أي أراضٍ تفلحها مجموعات مستعبدة ؛ لكن متى نظرنا الى الأمر بتدقيق أكثر ، تبيّن لنا أنه كان نظام قنانة لا استعباد. فقد كانت الشعوب أو الأعراق المستعبدة في امبراطورية مالي ثم من بعدها امبراطورية غاو ، على سبيل المثال ، مضطرة الى دفع جزية محدّدة ومفروضة على كل أسرة. وقد بيّن ذلك الاستاذ سكني مودي سيسوكو أحسن بيان[٤] .

«... والأسباب الزراعية لم تتطوّر كثيرًا منذ ذلك الوقت ، فالفأس («الكاونو» عند السونغي) والأسمدة الحيوانية وممارسة البستنة في الوادي، والزراعة المتنقلة في السفانا... الخ زالت كما كانت منذ قرون. وعلى العكس كان وادي النيجر آهلاً الى درجة الكثافة ، بالسكان الذين يعملون في الزراعة وصيد الأسماك ، وتربية الماشية. وكانت هناك مزارع واسعة يمتلكها الأمراء وعلماء الدين في المدن الكبرى ويتولّى استثمارها عبيد مقيمون في القرى الزراعية. وكان الأسكيا نفسه ، من كبار ملاك الأراضي ، وكانت حقوله موزّعة في أنحاء الوادي ويقوم بزراعتها طوائف من العبيد تحت رقابة مشرفين يطلق عليهم اسم «فنفا». وكان يستقطع من قيمة المحاصيل جعل يرسل الى «غاو» ، وكذلك كان الحال لعبيد الخواص».

على أن العبيد ، في بعض المناطق ، نهضوا بدور أساسي في الاقتصاد وكذلك في ممارسة السلطة – من ذلك ما وقع في بلاد السودان الغربية ، بين النيجر والتشاد. ففي مدن الهوسا ، كان قسم من الجيش يتكوّن من العبيد. وقد ميّز أ. سلفو هو أيضًا بين عبيد التاج وعبيد الكوخ. وكان عبيد التاج يُختارون من بين أشد الخدم والمساعدين ، اخلاصًا للملوك.

كان صغار العبيد ممن أسر أهلهم أو بيعوا أو حتى قتلوا أثناء معركة من المعارك ينشأون في البلاط بين أمراء البلاد ، وكانوا في النهاية لا يعرفون لهم أبًا غير ذلك السلطان الذي في ظلّه ترعرعوا. ولم يكونوا يباعون أو يمتهنون وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يشغلون مناصب سامية في الأجهزة العسكرية والادارية للبلاد.

وليس هذا الأمر جديدًا ، اذ غالبًا ما كان الملك ، حرصًا منه على الوقوف ضد تأثير الارستقراطية ، يعهد بالوظائف السامية الى عبيد ، هم بطبيعة الحال مخلصون لشخص الملك وليس لهم طموح سياسي.

---

(٣) ينبغي خاصة أن نحذر من الوقوع في التعميات المستعجلة والحال أن الخطوط العامة لتاريخ بعض الجهات من القارة الافريقية ما زالت لم تتضح بما فيه الكفاية.

(٤) أنظر في هذا الشأن ، الفصل الثامن ، ص ١٩٩.

وثمة حالات شهيرة لعبيد ذوي سلطان في تاريخ المغرب وتاريخ مصر وتاريخ مالي.

وعلى وجه العموم، فان نسبة العبيد لم تكن يومًا بأرفع عددًا من نسبة الفلاحين، وكان الرجال الأحرار يستغلون الأرض لحسابهم الخاص. وكان على الرجال الأحرار وعلى المستعبدين، تأدية خدمات للملك أو السيد المحلي.

وفي الحالة الراهنة للبحث فإن، ما يمكننا قوله منذ الآن هو التالي:

(١) لئن كانت دعامة الاقتصاد هي الزراعة وتربية الماشية، فان الملكية الخاصة، لم تعمّ في أي مكان، فقد كان الحق الأساسي في الملكية للمجموعة. وقد بدأ ضرب من التراكم الرأسمالي مع طبقة التجار، الاّ أنه لم يفض الى ظهور بورجوازية حقيقية.

(٢) لم تكن افريقيا قارة مفتقرة الى السكان، وهذا على جانب كبير من الخطورة، فقد كتب أحد مشاهير المؤرخين «ان الحضارة بنت العدد». فلولا هذا «العدد»، لما أمكن لأباطرة غانا أن يشيدوا قصور كومبي الفخمة، ولما أمكن للمغاربة أن يشيدوا المساجد الرائعة بفاس والقيروان ومخازن سجلماسة العظيمة. ولولا ذلك «العدد» لما أمكن لأباطرة الجنوب وملوكه أن يشيدوا «زيمبابوي الكبرى». واذن فقد كانت القارة آهلة جدًا بالسكان، خاصة افريقيا الواقعة جنوب الصحراء: اذ كانت القرى الفلاحية والمراكز التجارية والمدن تعدّ بالمئات في وادي السنغال، وفي دلتا النيجر الداخلي، وحول بحيرة التشاد. والحفريات الأثرية الأولى التي أُجريت في تلك المناطق تمكّننا من أن نجزم بشأن هذه المسألة. فإن الصروح الضخمة لم تكن من عمل «قطعان من العبيد»، بل إن تلك الأعمال الكبرى قد أنجزت بفضل تقوّي الرعايا وتصوّرهم للملكية، حتى أن كل واحد منهم كان يعتبر نفسه ابنًا للملك. أما تفسير بنائها بالقهر المسلّط على «قطعان العبيد»، فيبدو يومًا بعد يوم تفسيرًا لا تقوم حجته تمامًا، كما لا يمكن أن نفسّر بناء الكاتدرائيات الغوطية والبازيليكات الرومانية بأنها من صنع عبيد عملوا تحت السياط. فقد كان للايمان فعله الكبير في قلوب الناس وأرواحهم. ولدينا بعض المعلومات عن شعوب بعض المناطق؛ فقد كان في مالي – حسب محمود الكعتي – ٤٠٠ مدينة أو تجمّع كبير؛ وكانت القرى الفلاحية تمتد امتدادًا مسترسلاً على طول مجاري المياه. كما ان الانتاج الفلاحي كان انتاجًا كبيرًا جدًا: وقد كشف الاستاذ سكني مودي سيسوكو، المذكور سابقًا، حجم انتاج الأرز، مثلاً عند السونغو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر: فقد كان «الفنفا» الواحد أي الوكيل المدير لأعمال مجموعة من الأتباع قادرًا على أن يوفّر للملك أكثر من ١٠٠٠ «سونو» (أو كيس). وكانت السونوات غرائر من الجلد سعة كل منها ٧٠ كلغ تقريبًا. وكانت خزائن مؤونة الملك الغذائية ضخمة جدًا، ويمكن أن تكون لنا فكرة اذا علمنا أنه كان لملك غاو جيش دائم (١٠٠٠٠٠ رجل)، وحاميات قرب المدن التجارية الكبرى، وحاشية وافرة العدد، وأن الملك كان يطعم كل هؤلاء، وينفق عليهم من موارده الزراعية وحدها تقريبًا. ان تقدير عدد السكان أمر صعب، الاّ ان ضخامة عدد المدن التجارية الآهلة جدًا، والأعمال الكبرى من قبيل صروح زيمبابوي، تجعل المرء يفترض أن عدد السكان كان كثيفًا. واذا اعتبرنا القارة بأجمعها، في ذلك العهد المتميّز بالتوسّع التجاري، يمكن القول إن المدن كانت تأوي ١٠ بالمائة من عدد سكان القارة الاجمالي.

وكانت افريقيا أبعد ما تكون عن الافتقار الى السكان، الاّ أنهم كانوا موزّعين من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، توزيعًا غير متكافئ (لوجود صحاري وغابات كثيفة). ولا شكّ ان افريقيا، في ذلك العهد قد أصابتها الأوبئة وعرفت عهودًا من الجفاف أو من الفيضانات الكبرى. لكن ما لدينا من الوثائق قلّما يتحدّث عن المجاعات. كما ان الرحّالة العرب كثيرًا ما أكّدوا على وفرة الطعام بها؛ فهذا ابن بطوطة، جوالة القرن الرابع عشر معجب بما في السواحل الافريقية وبلاد السودان من الخيرات. ويمكن

أن نقدّر عدد السكان بالنسبة الى مجموع القارة بـ ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة[٥] . وهذا أدنى حدّ ممكن .

(٣) لقد تاجرت افريقيا قبل سنة ١٦٠٠ بالعبيد ، الاّ أن تلك التجارة ظلّت محدودة من حيث العدد. فليس ثمة أي وجه من وجوه المقارنة بينها وبين تجارة العبيد التي فرضها الأوروبيون على العالم الأسود منذ سنة ١٥٠٠ . فقد كان هؤلاء في بداية الأمر يقيمون علاقات تجارية حسنة مع الملوك السودانيين والغينيين والكونغوليين ، الاّ أن الهولنديين والانجليز والفرنسيين طردوا البرتغاليين حوالى سنة ١٥٥٠ . وأنشأ كل منهم الوكالات التجارية والحصون على السواحل الأفريقية ، حتى يستفيد أكثر ما يمكن من تجارة العبيد.

ولكن نعرف تاريخ الحقبة الممتدة من القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر معرفة أفضل ، ينبغي أن يعتمد البحث أكثر فأكثر على علم الآثار ، وعلى علم اللغويات والأنثروبولوجيا (علم الانسان) وعلى الروايات الشفوية التي تعطي المعلومات من الداخل. فالروايات تمكّن من المقارنة مع النصوص المكتوبة ، من جهة ، كما يمكن من جهة أخرى أن تدل علماء الآثار على مكان البحث – كما حصل في كومبي ونياني. كما ينبغي مواصلة البحث عن المخطوطات ، ويبدو أن عدد الوثائق المكتوبة عن تلك الحقبة أكثر مما كان يظن . ونعيد ونكرّر فنقول إنه من الضروري أن نعمد الى جمع منظّم للروايات الشفوية بالنسبة الى افريقيا السوداء. فمثال بلاد الصومال مثال ينبغي تدبّره. فقد قاموا فيه بعمليات جمع منظم ، من أناشيد الأطفال الى الأغاني الشعبية ، الى التعابير السحرية وغيرها ، ولم يهمل أي شيء. ويسرّنا هنا الاستشهاد بعمل لم ينشر بعد للمأسوف عليه موسى جلال ، عضو اللجنة العلمية الدولية لكتابة تاريخ عام لأفريقيا ، بعنوان « النجوم ، والفصول والطقس » .

ان دراسة النجوم ومجموعاتها « خديغو » (بالصومالية) تبدو في شكل قصائد قصيرة ، وكذلك دراسة السماء نفسها والمجموعات والنجوم التي نشاهدها في بعض الأوقات من السنة ، والتي تستعمل معلمًا يستدلّ به في اقامة التقاويم. ان دراسة تلك النجوم التي تظهر في أوقات معلومة ، هي الخديغي في اللغة الصومالية ؛ ومن الملاحظ أن دراسة علم الفلك أمر متصل اتصالاً حميمًا بحياة الشعب ، فقد قرأت بشغف نادر ، النسخة الخطية التي تفضّل موسى جلال باعارتي اياها ، وقد زادتني يقينًا أن الروايات الشفوية ما زالت تخبئ كثيرًا من المفاجآت الممتعة.

فقد جمع المؤلّف في ذلك الكتاب مبادئ علم الفلك الصومالي. وتكشف لنا دراسته ان الفلاحين والرعاة كانت لهم معرفة متقدّمة جدًا بهيئة الكون. وأنت واجد فيه وصفًا لكل المجموعات والكواكب ، في صورة أناشيد قصيرة. لقد كانت تقاويم الزراعة ورحلات البدو قائمة على معارف ثابتة هي ثمرة تجارب قرون طويلة. وفي اعتقادنا أن دراسة موسى جلال ستثير حالما تنشر ، كثيرًا من الاهتمام لدى الأفارقة ، مما سيجعلهم ينكبّون على دراسة ذلك العلم الموسوم بالتقليدي. ان مباشرتنا الطويلة للروايات الشفوية تخوّل لنا القول إن ما يجب القيام به في هذا المجال الذي لا نرى منه في أغلب الأحيان سوى الجانب التاريخي أو الأدبي ما يزال كثيرًا. فشعوب الدوغون في مالي وغيرهم ، قد تعمّقت في البحث عن السماء والمجموعات النجمية ، وبعض الشعوب الأخرى قد أولت اهتمامًا خاصًا لدراسة التربة والنباتات. والروايات الشفوية توفّر لنا مادة لأصناف عديدة من الأبحاث. وينبغي أن لا تكون مقصورة على المؤرخين وحدهم أو على المهتمين بالأدب ، فللعلماء أيضًا أن يهتموا بها من أكثر من وجه ؛ وكذلك الحقوقيون ، ودارسو الأنظمة السياسية يهمهم أن يدرسوا المؤسسات القديمة في أفريقيا السوداء.

(٥) لاحظ أن البلدان التي وفرت أكبر عدد من العبيد هي الآن من ضمن أكثفها سكانًا ، وهي سواحل خليج غينيا ، (من ساحل العاج إلى نيجيريا) ومصب نهر الكونغو/زائير وأنغولا ، وهلم جرًا.

لكن لنعترف بأن التوغّل في عالم الروايات الشفوية أمر عسير ، فـ « العارفون » يعيشون في عالم قليل الانفتاح إن لم نقل في عالم مغلق. وعلى الدول الأفريقية أن توفّر أفضل الظروف لتشرك حاملي تراثنا اشراكاً كليًّا في ازدهار مجتمعنا الذي هو في حالة تغيّر.

ان القرى النائية في جهات ما زالت لم يكسر عنها نطاق العزلة ، لتخبئ عددًا كبيرًا من « العارفين » ومن « حكماء القرى ». ولم يضع بعد أي شيء ، وكل شيء ما زال في حاجة الى من يقوم به. وهذا في خاتمة المطاف من مسئوليات الحكومات الأفريقية أكثر مما هو من مسئوليات الباحثين الأفراد ، اذ عليها أن تحدّد سياسة في مجال البحث وأن توفّر الامكانات للخبراء الأفارقة من جهة ، وأن تهيّئ الشعوب للمشاركة في عمل جماهيري ، في عمل يحس فيه كل فرد بأنه معنى بالأمر. إن معرفة الأرض المحلية ، والثقافة المحلية ، ضرورية بالنسبة الى من يريد أن يعمل في صالح سكان الأرياف.

وقبل أن نختم الحديث عن التقاليد ، لنقل إن التقاليد الفنية الأفريقية تضرب بجذورها أصلاً في تلك الحقبة التي شهدت نشأة الشعوب والدول التي منها خرجت أفريقيا الحديثة وشهدت تطوّرها.

ان الفن الاسلامي في بلاد المغرب ومصر قد قدم في تلك الحقبة بعض الروائع الفنية من قبيل مساجد فاس وتونس ، وتلمسان ومصر ، في القرنين الرابع عشر ، والخامس عشر. ولئن كانت التحف الفنية المتعلّقة بافريقيا الواقعة جنوب الصحراء في ذلك العهد ، نادرة ، فمردّ ذلك جزئيًا فيما يتعلّق بالنحت مثلاً ، الى أن الفنانين قد عملوا خاصة على الخشب ، والى جهلنا في الجزء الآخر ، فأنت تجد في البرتغال ، وفرنسا ، وايطاليا ، وبريطانيا العظمى ، في متاحف باريس ، ولندن ، وبروكسل ، وبرلين ، ولشبونة ، وفي الڤاتيكان ، روائع فنية ليس للأفارقة بها مجرّد علم.

وفي مقابل ذلك ، فان حضارة ايفي – بنين قد خلّفت لنا تلك البرونزيات الشهيرة والرؤوس المصنوعة من الشبهان والتي يعرفها العالم بأسره. ان فنّ ايفي – بنين لهو فن ذو نزعة طبيعية على درجة من الصفاء يجعل بعض « المستفرقين » ينكرون نسبته الى الأفارقة. ولكننا نعلم في أيامنا هذه أن حالة ايفي ليست منعزلة ؛ فتماثيل الايغبو – ايكوو ونوبي البرونزية ، تقوم برهانًا على أن تقنية صهر البرونز كانت منتشرة جدًا ، والدليل على ذلك ، ما اكتشف حديثًا من تماثيل برونزية صغيرة في غينيا – بيساو. وهكذا فان مسألة انتشار هذه التقنية مطروح على مستوى أوسع كثيرًا.

فماذا ستكشف لنا حفريات زيمبابوي وافريقيا الجنوبية على الصعيد الفني؟ ان أعظم الآمال ممكنة على أي حال.

أعضاء اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام

التواريخ الواردة بعد (اسم البلد) هي تواريخ بدء العضوية

الاستاذ/ج. ف. اجايي (نيجيريا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلّد السادس

الاستاذ/ف. البوكويرك موراو (البرازيل)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ/أ. أ. بواهن (غانا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلّد السابع

سعادة السيد / بوبوهما (النيجر)، ١٩٧١ - ١٩٧٨

سعادة السيدة / م. بول (زامبيا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ / د. تشانيوا (زيمبابوي)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ / ف. د. كورتن (الولايات المتحدة الامريكية)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ / ج. ديفيس (فرنسا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ / م. ديفوريلا (انجولا)، ١٩٧٨ - ١٩٧٩

الاستاذ / هـ. جعيط (تونس)، ١٩٧٥ - ١٩٧٩

الاستاذ / الشيخ انتا ديوب (السنغال)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

الاستاذ / ج. د. فيدج (المملكة المتحدة)، ١٩٧١ - ١٩٧٩

سعادة السيد / م. الفاسي (المغرب)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
المشرف على المجلّد الثالث

الاستاذ / خ.ل. فرانكو (كوبا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
السيد / م. جلال (الصومال)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الاستاذ الدكتور / ف. ل. جروتانلّي (ايطاليا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الاستاذ / أ. هابرلاند (جمهورية المانيا الاتحادية)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الدكتور / اكليلو هبتي (اثيوبيا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
سعادة السيد / أ. هامبات با (مالي)، ١٩٧١ – ١٩٧٨
الدكتور / أ. س. الحرير (ليبيا)، ١٩٧٨ – ١٩٧٩
الدكتور / أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الدكتور / أ. جونز (ليبيريا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
القس / أ. كاغامي (رواندا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الاستاذ / أ. م. كيمانبو (تانزانيا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الاستاذ / ج. كي – زيربو (فولتا العليا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
المشرف على المجلّد الأول

الاستاذ / د. لايا (النيجر)، ١٩٧٩
الدكتور / أ. ليتنف (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الدكتور / ج. مختار (مصر)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
المشرف على المجلّد الثاني

الاستاذ / ف موتيبوا (اوغندا)، ١٩٧٥ – ١٩٧٩
الاستاذ / ج. ت. نياني (السنغال)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
المشرف على المجلّد الرابع

الاستاذ / ل.ل. نغكونغكو (بوتسوانا)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
الاستاذ / ت. أوبينجا (جمهورية الكونغو الشعبية)، ١٩٧٥ – ١٩٧٩
الاستاذ / ب. أ. أوغوت (كينيا) ١٩٧١ – ١٩٧٩
المشرف على المجلّد الخامس

الاستاذ / ش. رافواجانا هاري (مدغشقر)، ١٩٧١ – ١٩٧٩
السيد / و. رودني (غيانا)، ١٩٧٩، (متوفى)
الاستاذ / م. شبيكة (السودان)، ١٩٧١، (متوفى)
الاستاذ / ي. أ. طالب (سنغافوره)، ١٩٧٥ – ١٩٧٩
الاستاذ / أ. تكسيرا دا موتا (البرتغال)، ١٩٧٨، (متوفى)
المونسنيور / ت. تشيبانجو (زائير)، ١٩٧١ – ١٩٧٩

الاستاذ / ج. فانسينا (بلجيكا)، ١٩٧١ - ١٩٧٩
معالي الدكتور / أ. ولیامز (ترينيداد وتوباجو)، ١٩٧٦ - ١٩٧٨
الاستاذ / ع. أ. مزروعي (كينيا)
المشرف على المجلّد الثامن، ليس عضوًا في اللجنة

سكرتارية اللجنة العلمية الدولية
السيد / موريس جليلي، قسم دراسة الثقافات، اليونسكو، ١ شارع ميوليس، ٧٥٠١٥ باريس

نبذات مختصرة عن مؤلّفي المجلّد الرابع

المقدمة :

ج. ت. **نياني** (السنغال) : أخصائي في عالم الماندن ، له عدّة مؤلّفات عن افريقيا الغربية في فترة الامبراطوريات الكبرى من القرن الحادي عشر حتى القرن السادس عشر ، وهو مدير سابق لمؤسسة ل. س. سنغور في داكار. يشتغل حاليًا بالبحوث.

الفصل الثاني :

ع. **السعيدي** (تونس) أخصائي في تاريخ الموحّدين ، وله عدّة مؤلّفات عن تاريخ المغرب ولا سيّما تونس. يدرّس التاريخ بكلية الآداب وبالمدرسة العليا بجامعة تونس.

الفصل الثالث :

م. **طالبي** (تونس) : اخصائي في الدراسات الاسلامية ، له عدّة مؤلّفات ومقالات عن مختلف الجوانب المتعلّقة بالدين الاسلامي وبالثقافة الاسلامية ، وهو استاذ بكلية الآداب بجامعة تونس.

الفصل الرابع :

أ. **هربك** (تشيكوسلوفاكيا) : أخصائي في المصادر العربية لتاريخ افريقيا ، ولا سيّما افريقيا الغربية ، واخصائي في الدراسات الاسلامية ، وله عدّة كتب ومقالات في هذه الميادين. وهو باحث بالمعهد الشرقي في براغ.

الفصل الخامس

هـ. ر. **ادريس** (فرنسا) : اخصائي في اللغة العربية والأدب العربي ، اضطلع بتدريس تاريخ المغرب العربي. انتقل الى رحمة الله.

الفصل السادس :
ج. ت. نياني (السنغال)

الفصل السابع :
م. **لي – تال** (مالي) : اخصائي في تاريخ مالي ، له عدّة كتب عن امبراطورية مالي ، وهو أستاذ بمدرسة المعلمين العليا في باماكو ومشتغل بالبحوث.

الفصل الثامن :
س. م. **سيسوكو** (السنغال) : اخصائي في تاريخ تومبكتو في العصور الوسطى ، وله عدّة أعمال منشورة عن تاريخ افريقيا الغربية. وهو محاضر بكلية الآداب في داكار.

الفصل التاسع :
م. **ايزارد** (فرنسا) : اخصائي في تاريخ حوض الڤولتا ، وخاصة ممالك الموسى ، وله عدّة أعمال منشورة عن تاريخ فترة ما قبل الاستعمار وفترة الاستعمار والفترة الحديثة في هذه المنطقة. وهو اخصائي بحوث بالمركز الوطني للبحوث العلمية في باريس.

الفصل العاشر :
د. **لانجي** (جمهورية المانيا الاتحادية) : اخصائي في تاريخ فترة ما قبل الاستعمار في السودان الأوسط ، وله عدّة كتب منشورة عن هذه الفترة. وهو يقوم بالتدريس في جامعة نيامي.

الفصل الحادي عشر :
م. **أدامو** (نيجيريا) : اخصائي في تاريخ الهوسا وله عدّة أعمال منشورة عن هذا الموضوع. وهو مدير مركز الدراسات الثقافية النيجيرية بجامعة أحمدو بللو في زاريا.

أ. **ساليفو** (النيجر) : أخصائي في تاريخ الهوسا وله عدّة أعمال منشورة عن تاريخ النيجر ونيجيريا ، وهو يشتغل بالتدريس في النيجر.

الفصل الثاني عشر :
إ. **بيرسون** (فرنسا) : أخصائي في تاريخ افريقيا وخاصة عالم الماندن ، وله عدّة أعمال منشورة عن تاريخ افريقيا. وهو استاذ بجامعة باريس – ١ ، بانتيون – السوربون.

الفصل الثالث عشر :
ب. **كيبريه** (ساحل العاج) : أخصائي في التاريخ الحديث والمعاصر لساحل العاج ، وله عدّة مقالات منشورة عن التراث الشفهي. وهو يتولّى التدريس بمدرسة المعلمين العليا في أبيدجان.

الفصل الرابع عشر:
أ. ف. رايدر (المملكة المتحدة): أخصائي في تاريخ افريقيا الغربية، وله عدّة أعمال منشورة عن هذه المنطقة في فترة ما قبل الاستعمار وفترة الاستعمار وهو أستاذ بجامعة بريستول.

الفصل الخامس عشر:
ج. ك. غارسان (فرنسا): اخصائي في تاريخ مصر الاسلامية. وله عدّة اعمال منشورة عن تاريخ مصر المملوكية ومصر العليا الاسلامية. وهو يدرّس في جامعة بروفانس، في إكس – آن – بروفانس.

الفصل السادس عشر:
ل. كروباتشيك (تشيكوسلوفاكيا): أخصائي في تاريخ السودان الاجتماعي والسياسي والديني، وله عدّة أعمال منشورة عن دار فور. وهو يدرّس بقسم الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة شارل في براغ.

الفصل السابع عشر:
ت. تامرات (أثيوبيا): أخصائي في تاريخ اثيوبيا في العصور الوسطى، وله عدّة أعمال منشورة عن تلك الفترة. وهو يتولّى التدريس في جامعة أديس أبابا.

الفصل الثامن عشر:
ف. ماتفييف (الاتحاد السوفييتي): مؤرّخ واثنولوجي له عدّة أعمال منشورة عن المصادر العربية لتاريخ افريقيا. وهو أخصائي بحوث بمعهد الاثنوغرافيا بأكاديمية العلوم السوفييتية في لينِنغراد.

الفصل التاسع عشر:
ك. إهريت (الولايات المتحدة الأمريكية): لغوي ومؤرّخ متخصّص في منطقة شرق افريقيا، وله عدّة كتب ومقالات منشورة عن تاريخ افريقيا الشرقية قبل الاستعمار وفي ظلّ الاستعمار. وهو يشتغل بالتدريس في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس.

الفصل العشرون:
ب. أ. أوغوت (كينيا): أخصائي في تاريخ افريقيا، وخاصة افريقيا الشرقية، وله عدّة كتب ومقالات منشورة عن تاريخ افريقيا الشرقية وآثارها. وهو استاذ وباحث ومدير سابق لمعهد لويس ليكي الدولي التذكاري لدراسات ما قبل التاريخ في افريقيا، في نيروبي.

الفصل الحادي والعشرون:
ب. م. فاغان (المملكة المتحدة): أخصائي في الانثروبولوجيا والآثار، وله كتب عديدة منشورة عن ثقافات العصر الحديدي والعصر الحجري في افريقيا الشرقية والجنوبية. وهو استاذ في الانثروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا.

الفصل الثاني والعشرون :

ج. **فانسينا** (بلجيكا) : أخصائي في التراث الشفهي ، وله عدّة كتب منشورة عن تاريخ افريقيا الاستوائية والوسطى. وهو استاذ بجامعة ويسكونسين بالولايات المتحدة الأمريكية.

الفصل الثالث والعشرون :

ل. **نغكونغكو** (بوتسوانا) : أخصائي في تاريخ افريقيا الجنوبية قبل الاستعمار ، وله عدّة أعمال منشورة عن تاريخ بوتسوانا في فترة ما قبل الاستعمار. وهو يشتغل بالتدريس في جامعة بوتسوانا وليسوتو وسوازيلاند في غابوروني.

الفصل الرابع والعشرون :

ف. **ايزوافيلوماندروزو** (السيدة) (مدغشقر) : أخصائية في تاريخ مدغشقر ، ولها عدّة أعمال منشورة عن تاريخ مدغشقر من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر. وهي تشتغل بالتدريس في جامعة أنتاناناريفو.

الفصل الخامس والعشرون :

ج. **ت. نياني** (السنغال)

الفصل السادس والعشرون :

ج. **ديفيس** (فرنسا) : أخصائي في تاريخ شمال غرب افريقيا في الفترة من القرن السادس حتى القرن السادس عشر ، وأثري ، وله عدّة كتب ومقالات منشورة عن تاريخ افريقيا. وهو أستاذ تاريخ افريقيا بجامعة باريس – ١ ، بانثيون – السوربون.

ش. **لبيب** (مصر) : أخصائي في تاريخ افريقيا في العصور الوسطى ، وله عدّة أعمال منشورة عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لتلك الفترة. وهو يشتغل بالتدريس في جامعة يوتاه (الولايات المتحدة الأمريكية) وجامعة كييل بجمهورية ألمانيا الاتحادية.

الفصل السابع والعشرون :

ج. **ت. نياني** (السنغال).

ببليوغرافيا

تمهيد

وضعت الببليوغرافيا الحالية استجابة لاحتياجات الأخصائيين في بلدان عديدة ، وهي لا تشمل سوى الأعمال المُشار اليها في المجلّد الرابع . وقد رتبت هذه الأعمال ترتيبًا ألفبائيًا حسب اسم المؤلّف – اذا كان معروفًا – أو حسب عنوان العمل نفسه اذا كان اسم المؤلف غير معروف. أما الأعمال التي تمثل جزءًا من سلاسل عامة فقد أدرجت كلّها تحت أسماء مؤلّفيها تفاديًا لما قد ينشأ من صعوبة بسبب تنوّع نظم التصنيف ، وذلك مع اضافة عنوان السلسلة المعنية الى البيانات الخاصة بالعمل المقصود. وعلى خلاف ما هو متبع في بعض الببليوغرافيات الأخرى فان أول تاريخ مبيّن لكل عمل هو تاريخ النشر لأول مرة كلّما كان ذلك ممكنًا (أو تاريخ انجاز العمل نفسه في حالة المخطوطات العربية) ، وذلك حتى يمكن التمييز بوضوح أكبر بين الأعمال القديمة وبين الطبعات أو الترجمات الحديثة . هذا ولم تدرج الأسماء الأولى الاّ بالنسبة للمؤلّفين العرب وحدهم ، مع تمييزهم بالأسماء العربية التي اشتهروا بها و/أو التي وردت في النص ، وان كانت قد أدرجت في بعض المواضع إحالات الى صيغ مختلفة للأسماء العربية والى الأسماء الشائعة .

Abréviations et liste des périodiques

AA *African Affairs,* Londres OUP
AB *Africaná Bulletin,* Varsovie, Université Varsovie

AEA *Anuario de Estudios Atlanticos,* Madrid
AEDA *Archivo Espanol de Arqueologia,* Madrid
AEO *Archives d'études orientales*
AESC *Annales-économie, Sociétés, Civilisations,* Paris
AFRCD *Afrique française : renseignements coloniaux et documents,* Paris : Comité de l'Afrique française et Comité du Maroc
Africa—(L) *Africa,* Londres
Africa—(R) *Africa,* Rome
Africana Linguistica *Africana Linguistica,* Tervuren : Musée royal de l'Afrique centrale
Africanist *The Africanist,* Washington DC : Howard University, Association of African Studies
Afrika Museum Groesbeck, Pays-Bas
AHES *Annales d'histoire économique et sociale,* Paris
AHS *African Historical Studies (International Journal of African Historical Studies), Boston University* :African Studies Center
AI *Annales islamologiques,* Le Caire
AIEOA *Annales de l'Institut d'études orientales d'Alger,* Alger
AJ *Antiquaries Journal, Journal of the London Society of Antiquaries,* Londres OUP
AL *Annales Lateraniensis,* Vatican
ALS *African Language Studies,* Londres, School of Oriental and African Studies
al-Andalus *al-Andalus. Revista de las Escúelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada,* Madrid
AM *Africana Marburgensia,* Marburg

Ambario *Ambario,* Tananarive
ANM *Annals of the Natal Museum,* Natal
Annales du Midi *Annales du Midi : revue de la France méridionale,* Toulouse
Anthropos *Anthropos : Revue internationale d'ethnologie et de linguistique,* Fribourg
Antiquity *Antiquity,* Gloucester
Arabica *Arabica : Revue d'études arabes,* Leyde : Brill
Archiv Orientalni *Archiv Orientalni, Oriental Archives : Journal of African and Asian Studies,* Prague
Arnoldia *Arnoldia,* Salisbury : National Museums of Rhodesia
ARSP *Archiv für Rechts-und-Sozialphilosophie,* Berlin, Leipzig
AS *African Studies,* Johannesburg : Witwatersrand University Press
ASAM *Annals of the South African Museum,* Cape Town
ASp *Afrika Spektrum deutsche Zeitschrift für moderne Afrikforschung,* Pfaffenhofen : Afrika Verlag
ASPN *Archivio Storico per la Province Napoletane,* Naples
A-T *Africa — Tervuren,* Tervuren
AU *Afrika und Übersee,* Université de Hambourg
AUA *Annales de l'université d'Abidjan,* Abidjan
AUM *Annales de l'université de Madagascar (Série lettres et sciences humaines),* Tananarive
Awraķ *Awraķ* (textes arabes et espagnols) Madrid : 1978 — Instituto Hispano-Arabe de Cultura
Azania *Azania,* Nairobi : British Institute of History and Archaeology in East Africa
BA *Baessler Archiv,* Berlin : Museum für Völkerkunde
BAM *Bulletin de l'Académie Malgache,* Madagascar
BARSOM *Bulletin de l'Académie royale des sciences d'outre-mer,* Bruxelles
Ba-Shiru *Ba-Shiru,* Madison : Wisconsin University, Department of African Languages and Literature
BCEHSAOF *Bulletin du Comité d'études historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale française, Dakar*
BCGP *Bolletino Culturale da Guiné Portuguesa,* Bissau
BEO *Bulletin d'études orientales,* Damas : Institut français
BHSN *Bulletin of the Historical Society of Nigeria,* Ibadan
BIBLB *Boletim Internacional de Bibliografia Luso-Brasileira,* Lisbonne, Fondação Calouste Gulbenkian
BIE *Bulletin de l'Institut d'Égypte,* Le Caire
(B)IFAN *(Bulletin de l')Institut fondamental d'Afrique noire* (anciennement : (Bulletin de l')Institut français d'Afrique noire), Dakar
BLPHGAM *Bulletin de liaison des professeurs d'histoire et de géographie d'Afrique et de Madagascar,* Mejec-Yaoundé
BM *Bulletin de Madagascar,* Tananarive
BNR *Botswana Notes and Records,* Gaborone
Boston University Papers in African History Boston University, African Studies Center

BPH *Bulletin Philosophique et Historique,* Paris : Comité des travaux historiques et scientifiques, section d'histoire et de philologie
BRAH *Boletin de la Real Academia de la Historia,* Madrid
BSACH *Bulletin of the Society for African Church History,* University of Aberdeen, Department of Religious Studies
BSOAS *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* Londres
CA *Current Anthropology,* Chicago
CEA *Cahiers d'études africaines,* La Haye : Mouton
China Review *China Review,* Hong Kong
CHM *Cahiers d'histoire mondiale,* Paris : Librairie des Méridiens
CJAS *Canadian Journal of African Studies (Revue canadienne des études africaines),* Ottawa : Carleton University, Department of Geography, Canadian Association of African Studies
CNRS Centre national de la recherche scientifique, Paris
COM *Cahiers d'outre-mer,* Bordeaux : Institut de la France d'outre-mer
CRTSASOM *Comptes rendus trimestriels des séances de l'Académie des sciences d'outre-mer,* Paris
CSIC Consejo superior de investigaciones cientificas : Madrid
CSSH *Comparative Studies in Society and History,* Cambridge : CUP
CUP Cambridge University Press, Londres jusqu'en 1978, Cambridge ensuite
Der Islam *Der Islam : Zeitschrif für Geschichte und Kultur des Islamischen Orients,* Berlin
EAPH East African Publishing House
EAZ *Ethnographisch-Archäologische Zeitung,* Berlin
EcHR *Economic History Review,* Londres, New York : CUP
EHR *English Historical Review,* Londres : Longman
EM *Études maliennes,* Bamako
EP *Etnografia Polska,* Wroclaw : Polska Akademia Nauk, Instytut Historii Kultury Materialny
Éthiopiques *Éthiopiques, Revue socialiste de culture négro-africaine,* Dakar : Fondation Léopold Sedar Senghor
Ethnos *Ethnos,* Stockholm : Musée ethnographique de Suède
EV *Études Voltaïques, Mémoires,* Ouagadougou
FEQ *Far Eastern Quarterly* (devenu *Journal of Asian Studies*), Ann Arbor, Michigan
FHP *Fort Hare Papers,* Fort Hare University
Garcia da Orta *Garcia da Orta,* Lisbonne : Junta de Investigações do Ultramar
GJ *Geographical Journal,* Londres
GNQ *Ghana Notes and Queries,* Legon
Godo-Godo *Godo-Godo : Bulletin de l'Institut d'histoire d'art et d'archéologie africaines,* Université d'Abidjan
HAJM *History in Africa : a Journal of Method,* Waltham, Mass
Hespéris *Hespéris,* Rabat : Institut des hautes études marocaines
HJAS *Harvard Journal of Asiatic Studies,* Harvard
H-T *Hespéris-Tamuda,* Rabat, Université Mohammed V, faculté des Lettres et des Sciences humaines
IAI International African Institute, Londres
IFAN *voir BIFAN*
IJAHS *International Journal of African Historical Studies* (anciennement : *African Historical Studies*), Boston University African Studies Center
HALC International Institute of African Languages and Cultures
IRCB Institut royal colonial belge
JA *Journal asiatique,* Paris
JAH *Journal of African History,* Londres, New York : OUP
JAI *Journal of the Anthropological Institute,* Londres
JAL *Journal of African Languages,* Londres
JAOS *Journal of the American Oriental Society,* New Haven
JAS *Journal of the African Society,* Londres
JATBA *Journal d'agriculture traditionnelle et de botanique appliquée,* Paris : Museum National d'Histoire Naturelle
JEA *Journal of Egyptian Archaeology,* Londres
JES *Journal of Ethiopian Studies,* Addis Abeba
JESHO *Journal of Economic and Social History of the Orient,* Londres
JHSN *Journal of the Historical Society of Nigeria,* Ibadan
JMAS *Journal of Modern African Studies,* Londres, CUP
JMBRAS *Journal of the Malayan Branch of the Royal Asiatic Society,* Singapour
JNH *Journal of Negro History,* Washington DC : Association for the Study of Afro-American Life and History

JRAI *Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland,* Londres
JRAS *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland,* Londres
JRASB *Journal of the Royal Asiatic Society of Bengal,* Calcutta
JSA *Journal de la Société des africanistes,* Paris
JSAIMM *Journal of the South African Institute of Mining and Metallurgy,* Johannesburg
JSS *Journal of Semitic Studies,* Manchester : Manchester University, Department of Near Eastern Studies
KO *Kongo Overzee,* Anvers
KS *Kano Studies,* Kano, Nigeria
Kush *Kush, a Journal of the Sudan Antiquities Services,* Khartoum
L'Homme *L'Homme : Cahier d'ethnologie, de géographie et de linguistique,* Paris
MA *Moyen Age, Paris*
Man *Man,* Londres
MIO *Mitteilungen des Instituts für Orientforschung,* Berlin : Akademie der Wissenschafte
MNMMR *Memoirs of the National Museums and Monuments of Rhodesia,* Salisbury
MSOS *Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen an die Friedrich Wilhelm Universität zu Berlin*
Muslim Digest *Muslim Digest,* Durban
MZ *Materialy Zachodnio-Pomorskie,* Varsovie
NA *Notes africaines.* Dakar : IFAN
NAk *Nyame Akuma.* Calgary : University of Calgary, Department of Archaeology
Nature *Nature,* Londres, New York
NC *Numismatic Chronicle,* Londres : Numismatic Society
NED *Notes et études documentaires,* Paris : Direction de la Documentation
OA *Oriental Art, Londres*
OCP *Orientalia Christiana Periodica,* Rome
Odu *Odu : Journal of West African Studies* (anciennement : *Journal of African Studies,* Ife ; précédé par le *Journal of Yoruba and Related Studies,* Ibadan), Ife : University of Ife
OL *Oceanic Linguistics,* Carbondale : Southern Illinois University, Department of Anthropology
OSA *Omaly sy anio,* Tananarive : Université de Madagascar
OUP Oxford University Press
PA *Présence africaine,* Dakar et Paris
Paideuma *Paideuma, Mitteslungen zur Kulturkunde,* Francfort-sur-Main
PAPS *Proceedings of the American Philosophical Society,* New York
RASGBI Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland
RBCAD *Research Bulletin of the Centre of Arabic Documentation,* Ibadan
RDM *Revue des deux mondes,* Paris
REAA *Revista Espanola de Anthropologia Americana,* Madrid : Universidad
RES *Revue d'ethnographie et de sociologie,* Paris
RGM *Revue de géographie du Maroc,* Université de Rabat, Faculté de géographie
RH *Revue historique,* Paris : PUF
RHC *Revista de Historia Canarias,* Las Palmas
RHCF *Revue de l'histoire des colonies françaises* (devenue *Revue française d'histoire d'outre-mer*), Paris
RHCM *Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb,* Alger, Société Historique Algérienne
RHES *Revue d'histoire économique et sociale,* Paris
RHSP *Revista de Historia,* São Paulo
RIBLA *Revue de l'Institut des belles lettres arabes,* Tunis
RNADA *Rhodesian Native Affairs, Department Annual,* Salisbury
ROMM *Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée,* Aix-en-Provence
RRAL *Rendiconti della Reale dell' Accademia dei Lincei,* Classe de Scienze Morale, Storiche e Filologiche
RS *Revue sémitique,* Paris
RSACNM *Recueil de la Société archéologique de Constantine, notes et mémoires,* Constantine
RSE *Rassegna di Studi Etiopici,* Rome
RSO *Revista degli Studi Orientali,* Rome : Scuola Orientale dell'Universita
SAAB *South African Archaeological Bulletin,* Cape Town
Saeculum *Saeculum,* Fribourg
SAJS *South African Journal of Science,* Johannesburg
Sankofa *Sankofa,* Legon (Ghana)
Savanna *Savanna : a Journal of the Environmental and Social Sciences,* Zaria : Ahmadu Bello University
Scientia *Scientia, Rivista di Scienza,* Milan

SHG *Studia Historica Gandensia,* Gand
SI *Studia Islamica,* Paris
SM *Studi Maghrebini,* Naples
SNED Société nationale d'édition et de diffusion, Alger
SNR *Sudan Notes and Records,* Khartoum
SOAS London University, School of Oriental and African Studies, Londres
South Africa *South Africa,* Pretoria
SS *Sudan Society,* Khartoum : Khartoum University
Swahili *Swahili,* Nairobi : East African Swahili Committee
SWJA *South Western Journal of Anthropology* (devenu : *Journal of Anthropological Research*) Albuquerque, University of New Mexico
Taloha *Taloha, Revue du Musée d'art et d'archéologie,* Tananarive
Tamuda *Tamuda,* Rabat
Tantara *Tantara,* Tananarive : Société d'histoire de Madagascar
THSG *Transactions of the Historical Society of Ghana* (anciennement *Transactions of the Gold Coast and Togoland Historical Society*), Legon
Times *The Times,* Londres
TJH *Transafrican Journal of History,* Nairobi : East African Literature Bureau
TNR *Tanzania Notes and Records* (anciennement *Tanganyika & Records*), Dar es Salaam
TNYAS *Transactions of the New York Academy of Sciences, New york*
Toung Pao *Toung Pao, Revue internationale de sinologie,* Leyde : Brill
UCLA University of California Los Angeles
Ufahamu *Ufahamu, Journal of the African Activist Association,* Los Angeles
UJ *Uganda Journal,* Kampala
Universitas *Universitas,* Legon : University of Ghana
WA *World Archaeology,* Henley-on-Thames
WAAN *West African Archaeological Newsletter,* Ibadan
WAJA *West African Journal of Archaeology,* Ibadan
Zaïre *Zaïre,* Kinshasa
ZDMG *Zeitung der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft,* Leipzig.

ببليوغرافيا

'Abd al-'Azīz b. Muḥammad b. Ibrahīm al-sinhāddjī al-fishtālī (xvi[e] s.) *Manāhil al-Safā' fi akkbār al-Mulūk al-Shurafā* ; 1964 ed. 'Abd Allāh Gannun (Tetouan)

'Abd al-Bāsit b. Khalīl, al-Malati (15[e] s.) *al-Rauḍ, al-Bāsim* ; 1936 ed. et trad. française R. Brunschvig, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord au XV[e] siècle* (Paris : Larose).

'Abd al-Raḥīm, M. (1970) « Arabism, Africanism and self-indentification in the Sudan », *JMAS*,8, 2, pp. 233-49.

'Abd al-Rahmān b 'Abd Allāh am-Sa'di : voir al-Sa'di.

'Abd al-Wāhid al-Marrākushī (1224) *al-Mu'djib fi talkkis Akhbār al-Maghrib*, 1963 ed. M. S. al-Iryan (Le Caire) ; 1847, 1881, trad. angl. R. Dozy, *The history of the Almohads* (Leyde, Brill) ; 1893 trad. française E. Fagnan (Alger); 1955 trad. espagnole A. Huici Miranda (Tetouan : Editors Marroqui).

Abitbol, M. (1979) *Tombouctou et les Arma : de la conquête marocaine du Soudan nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'empire peul du Macina en 1833* (Paris : Maisonneuve et Larose).

Abraham D. P. (1961) « Maramuca : an exercise in the combined use of Portuguese records and oral tradition », *JAH*, 2, 2, pp. 211-25.

Abū 'Abd Allāh Muḥammad al-Wazīr al-Andalusī (xvi[e] s.) *al-Ḥulal al-sundusīya fi'l akhbār al-tunisīya* ; 1870 ed. et trad., *A history of Africa, especially of Tunis*, 4 vols (Tunis).

Abubakar, S. (1980) « Peoples of the upper Benue basin and the Bauchi plateau before 1800 », in O. Ikime (ed.) *Groundwork of Nigerian History* (Ibadan/Londres, Heinemann), pp. 165-86.

Abu 'l-Fidā (xiv[e] s.) *al-Mukhtaṣar ta'rikk al-bashar*, 1869-70 ed., 2 vols (Istanboul, éd. 1907 (Le Caire).

Abu'l-Maḥāsin b. Taghrībirdī (xv[e] s.) *al-Nudjūm al-Zāhira fi Mulūk Miṣr wa'l Ḳāhira* ; trad. angl. W. Popper, *History of Egypt* (1382-1469 *AD*)(Berkeley : University of California Press ; Publications in Semitic Philology, 13-14, 17-19, 22-3).

Abun-Nasr, J. M. (1971, 1975) *A history of the Magrib* (Londres, CUP).

Abu 'Ubayd al-Bakrī : voir al-Bakrī

Actes du Colloque de Bondoukou (1974), Colloque interuniversitaire Ghana — Côte-d'Ivoire : « Les populations communes de la Côte-d'Ivoire et du Ghana (Bonduku, Université d'Abidjan).

Adams, J. (1904) *Légendes historiques du pays de Nioro* (Paris : Challamel).

Adams, W. Y. (1965) « Sudan Antiquites Service excavations at Meinarti, 1963-1964 », *Kush*, 3, pp. 148-76.

Adams, W. Y. (1966) « Post-Pharaonic Nubia in the light of archaeology, 3 », *JEA*, 52, pp. 147-62.
Adams, W. Y. (1967) « Continuity and change in Nubian cultural history », *SNR*, 48, pp. 1-32.
Adamu, M. (1976) « The spread of Hausa culture in West Africa », *Savanna*, 5, 1, pp. 3-13.
Adamu, M. (1978) *The Hausa factor in West African history* (Zaria : Ahmadu Bello University Press et OUP).
Adamu, M. (1979) « Distribution of trading centres in the central Sudan in the eighteenth and nineteenth centuries », in Y. B. Usman (éd.), *Studies in the history of the Sokoto caliphate : the Sokoto Seminar Papers* (Zaria : Ahmadu Bello University Department of History for the Sokoto Caliphate Bureau), pp. 59-104.
Adamu, M. (à paraître) *The Hausa kingdom of Yawuri* (Zaria : Ahmadu Bello University Press).
Adamu, M. (à paraître) *History : essays in honour of Professor Abdullahi Smith* (Zaria : Ahmadu Bello University Press).
Adeleye, R. A. (1971) « Hausaland and bornu, 1600-1800 », in J.F.A. Ajayi et M. Crowder (eds), *History of West Africa* (Londres, Longman), vol. I, pp. 485-530.
Adetugbo, A. (1973) « The Yoruba language in Yoruba history », in S.O. Biobaku (éd.), *Sources of Yoruba history* (Oxford : Clarendon Press), pp. 175-204.
Ahmad b. Mādjid al-Nadjdī : voir Ibn Mādjid al-Dīn Aḥmad.
Ahmad, A. A. R. (1973) *La femme au temps des mamlouks en Égypte (Le Caire, Institut français d'archéologie orientale ; Textes arabes et études islamiques, 5).*
Ahmed Ibn Fartua : voir Ibn Furtūwa, Aḥmad.
Ajayi, J.F.A. et Crowder, M. (eds) (1971, 1974) *History of West Africa,* 2 vols (Londres : Longman).
Alagoa, E. J. (1972) *A history of the Niger delta : en historical interpretation of Ijo oral tradition,* 1970 p. 343 (Ibadan : University Press).
Albatenius : voir al-Battānī.
Alberuni : voir al-Bīrūnī.
Alfonso X, el Sabio, King of Castile and Leon (s. d.) *Libros de acedrex dados e tables ;* éd. 1941 Arnald Steiger, *Das Schachzabelbuch König Alfons des Weisen* (Genève Droz).
Alkali, M. B. (1969) « A Hausa community in crisis : Kebbi in the nineteenth century » (thèse non publiée, Ahamdu Bello University, Zaria).
Allan, W. (1965) The African husbandman (Edinbourgh : Olivier et Boyd ; New York : Barnes et Noble).
Alvares d'Almada, A. (1594) *Tratado Breve dos Rios de Guiné ;* 1946 éd. portugaise L. Silveira (Lisbonne), 1842 trad. franç. V. de Santaren.
Alvares d'Almada, A. (XVIe s.) *Asia ;* éd. 1934 (Londres, Hakluyt society).
Alvares, F. (XVIe s.) éd. 1881, trad. angl. Lord Stanley of Alderley, *Narrative of the Portuguese embassy to Abyssinia during the years 1520-1527* (Londres, Hakluyt Society).
Arianoff, A. d' (1952) *histoire des Bagesera, souverains du Gisaka* (Bruxelles, Institut royal colonial belge ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, 24, 3).
Arié, R. (1973) *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492)* (Paris : de Boccard).
Arkell, A. J. (1936-46) « Darfur antiquities », *SNR,* 19, 1, pp. 301-11 ; 20, 1, pp. 91-105 ; 27, 3, pp. 185-202.
Arkell, A. J (1950) « Gold Coast copies of fifth to seventh century bronze lamps », *Antiquity,* 24, 93, pp. 38-40.
Arkell, A. J. (1951-2) « The history of Darfur : 1200-1700 A.D. » *SNR,* 32, pp. 37-70 et 207-38 ; 33, pp. 129-55, 244-75.
Arkell, A. J. (1959) « The medieval history of Darfur in its relation to other cultures and to the Nilotic Sudan », *SNR,* 40, pp. 44-7.
Arkell, A. J. (1960) « A Christian church and monastery at Ain Farah Dafur », *Kush,* 7, pp. 115-19.
Arkell, A. J. (1961) *A history of the Sudan from the carliest times to 1821* (Londres, Athlone Press).
Arkell, A. J. (1963) « The influence of Christian Nubia in the Chad area between AD 800-1200 », *Kush,* 11, pp. 315-19.
Arnet, E. J. (1910) « A Hausa chronicle : *(Daura Makas Sariki)* », *JAS,* 9, 34, pp. 161-7.
Arveiller, R. (1963) *Contribution à l'étude des termes de voyage en français 1505-1722* (Paris : d'Artrey).
Ashtor, E. (1971) *Les métaux précieux et la balance des paiements du Proche-Orient à la basse époque* (Paris : SEVPEN).
'Ashūr, Saīd'Abd al-Fattāh (1965) *al-'Asr mamālīkī fi misr war al-sham : The Mameluke period in Egypt and Syria* (Le Caire).
Asin Palacios, M. (1941) *Huellas del Islam : Sto Tomás de Aquino* (Madrid : Espasa-Calpe).
Al-Athīr : voir Ibn al-Athīr, 'Izz al-Dīn
Avempace : voir Ibn Badjdja.

Averroës : voir Ibn Rushd.
Axelson, E. (1973a) *Congo to Cape : early Portuguese explorers* (Londres : Faber).
Axelson, E. (1973b) *Portuguese in south-east Africa, 1488-1600* (Johannesburg : Struik).
Ayalon, D. (1953-4) « Studies on the structure of the Mamluk army », *BSOAS*, 15, 2, pp. 203-28, 3, pp. 448-76, 16, 1, pp. 57-90.

Badawi, A. R. (1972) *Histoire de la philosophie en Islam*, 2 vols (Paris : Vrin).
Baikie, W.B. (1856) *Narrative of an exploring voyage up the rivers Krora and Binue* (Londres : Murray).
al-Bakrī (Abū 'Ubayd al-Bakrī, 'Abd Allāh b. 'Abd al-'Azīz b. Muḥ b. Ayyub) (IIe s.) *Kitāb al-Masālik wa 'l Mamālik*, éd. 1911, 1913, trad. franç, MacG. de Slane, *Description de l'Afrique septentrionale* (Alger) Jourdan ; Paris : Geuthner) ; 1965 réimpression (Paris : Maisonneuve et Larose) ; 1968 éd.'Abd al-Raḥmān (Beyrouth).
Balfour-Paul, H. G. (1955) *History and antiquities of Darfur* (Khartoum Sudan Antiquities Service ; Museum pamphlet 3).
Balogun, S. A. (1980) « History of Islam up to 1800 » in O. Ikime (ed.) (1980), q.v.
Barbosa, D. (1812) ; 1918, 1921, éd et trad. angl. *The book of Duarte Barbosa : an account of the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants*, 2 vols (Londres, Hakluyt Society).
Barbour, N. (1974) « The Emperor Frederick II, king of Jerusalem and Sicily, and his relations with the Muslims », in J. M. Barral (ed.), *Orientalia hispanica* (Leyde, Brill). Vol. I, pp. 77-95.
Barges, J. J. L. (1859) *Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom* (Paris : Duprat).
Barges, J. J. L. (1877) *Complément à l'histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen* (Paris : Leroux).
Barradas, L.A. (1967) *O sul de Moçambique no roteito de Sofala do piloto Ahmad ibn-Madjid* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antiga, 20).
Barros, J. de (1552) *Decadas de Asia*, Vol. 1 ; 1937 trad. angl. partielle in G. R. Crone, q.v.
Barth, H. (1857, 1858) éd. allemande *Sammlung und Bearbeitung*, (including Centralafrikanischer Vokabularien), 3 part in 2 (Gotha : Perthes) ; éd. angl. *Travels and discoveries in North and Central Africa ; being a journal of an exploration undertaken under the auspices of HBM's government in the years 1849-1855*, 5 vols (Londres, Longman) ; 1965, réimpression, 3 vols (Londres, Cass).
Barth, H. (1965a) « Autenticity and general character of the discovery of Bornu », in *Travels and discoveries*, éd. 1965, Vol. 2, pp. 15-35.
Barth, H. (1965b) « Chronological table, containing a list of the Sefuwa, or kings of Bornu », in *Travels and discoveries*, éd. 1965, Vol. 2, pp. 581-605.
Bathily, I.D. (1961) « Notices socio-historiques sur l'ancien royaume Soninké de Gadiage », *BIFAN*, B, 31, 1, pp. 31-105.
Batran, A.A. (1973) « A contribution to the biography of Shaikh... Al-Maghili, Al-Tilimsani », *JAH*, 14, 3, pp. 381-94.
al-Battānī, Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Djābir, also known as Albatenius (*c.* 900) *Kitāh al-Zidj ;* 1896 ed. of astronomical tables, *Le tabelle geografiche d'al-Battānī* (Turin : Bona) ; 1899, 1903, 1907, éd. et trad. latine C.A. Nallino, *al-Battānī sive Albatenii opus astronomicum*, 3 vols (Milan : U. Hœplium).
Baumann, H. (? 1948) 1957, 1967, trad. franç. L. Hamburger, *Les peuples et les civilisations de l'Afrique*, avec trad. franç. de D. Westermann, « Les langues et l'éducation » (Paris : Payot).
Baumann, H. (1956) « Die Frage der Steinbauten und Steingräber in Angola », *Paideuma*, 6, 3, pp. 118-51.
Bautier, H.R. (1955) « Les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du nord et l'équilibre économique méditerranéen du XIIe au XIVe siècle », *BPH*, pp. 399-416.
Bayle des Hermens, R. de (1972) « Aspects de la recherche préhistorique en République centrafricaine » *A-T*, 18, 3-4, pp. 90-103.
Beattie, J. (1960) *Bunyoro : an African kingdom* (New York : Holt).
Beaujouan, G. (1969) *L'astronomie dans la péninsule ibérique à la fin du Moyen Age* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antiga, 24).
Beaumont, P. et Schoonraad, M. (1971) « The Welgelegen shelter, eastern Transvaal », in *Rock paintings of Southern Africa, SAJS*, n° spécial, n° 2, pp. 62-9.
Becker, C.H. (1910) « Zur Geschichte des östlichen Sudan », *Der Islam*, 1, pp. 153-77.
Becker, C.H. (1913) « Leo Frobenius und die Brille des Islam », *Der Islam*, 4, pp. 303-12.
Bedaux, R.M.A. (1972) « Tellem : reconnaissance archéologique d'une culture de l'Ouest africain au Moyen Age : recherches architectoniques », *JSA*, 42, 2, pp. 103-85.
Bedaux, R.M.A. (1974) « Tellem : reconnaissance archéologique d'une culture, de l'Ouest africain au Moyen Age : les appuie-nuques, *JSA*, 44, 1, pp. 7-42.

Bedaux, R.M.A. (1977) « Tellem », *Afrika Museum* (Groesbeck, Pays-Bas).
Bel, A. (1903) *Les Bénou Ghânya : derniers représentants de l'empire almoravide et leur lutte contre l'empire almohade* (Paris : Leroux, Bulletin de correspondance africaine de l'école des lettres d'Alger, 27).
Bel, A. (1937) « Les premiers émirs mérinides et l'Islam », in Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à E. F. Gautier (Tours : Arrault) pp. 34-44.
Bel, A. (1938) *La religion musulmane en Berbérie : esquisse d'histoire et de sociologie religieuses* (Paris : P. Geuthner).
Bello, M. : voir Muḥammad Bello, M.
Bender, M.L. (éd.) (1976) *Language in Ethiopia* (Londres, OUP).
Béraud-Villard, J.M.E. (1942) *L'empire de Gâo : un état soudanais aux* XV[e] et XVI[e] siècles (Paris : Plon).
Bernus, S. et Gouletquer, P. (1976) « Du cuivre au sel : recherches ethno-archéologiques sur la région d'Azelik (campagne 1973-1975) », *JSA,* 46, 1-2, pp. 7-68.
Bernus, S, Gouletquer, P. et Kleinman, D. (1976) « Die Salinen von Tegidda-n-tesemt (Niger) », *EAZ,* 17, 2, pp. 209-36.
Bertrandon de la Broquière (1982) tr. C. Schefer, *Le voyage d'outre-mer de Bertrandon de la Broquière,* (Paris : Leroux).
Betbedder, P. (1971) « The kingdom of Buzinza », *CHAI,* 13, 4, pp. 736-62.
Bezzola, R. (1944-63) *Les origines et la formation de la littérature courtoise en Occident ; 500-1200,* 5 vols (Paris : Champion).
« Bibliographie de l'histoire des grandes routes maritimes », (1968-73) in : *Boletim internacional de bibliografia luso-brasileira* (Lisbonne : Fondação Calouste Gulbenkian).
Allemagne : 9, 2, pp. 189-252
Danemark : 9, 2, pp. 254-72
France : 9, 2, pp. 274-352 ; 9, 3, pp. 433-57
Pologne : 9, 3, pp. 457-71
États-Unis : 10, 4, pp. 509-62 ; 11, 1, pp. 5-153
Espagne : 13, 1, pp. 7-149 ; 13, 3, pp. 373-446.
Grèce : 13, 3, pp. 447-98
Royaume-Uni : 14, 1, pp. 5-162, 14, 3, pp. 359-544, 14, 4, pp. 673-711.
Biebuyck, D.P. (1973) *Lega culture : art, initiation, and moral philosophy among a Central African people* (Berkeley : University of California Press).
Bikunya, P. (1927) *Ky'Abakama ba-Bunyoro : History of Bunyoro* (Londres : Sheldon Press).
Birkeli, E. (1936) *Les Vazimba de la côte ouest de Madagascar : notes d'ethnographie* (Tananarive : Imprimerie Moderne de l'Emyrne ; Mémoires de l'Académie malgache, fasc. 22).
Birmingham, D. (1965) « The date and significance of the Imbangala invasion of Angola », *JAH,* 6, 2, pp. 143-52.
Birmingham, D. (1966) *Trade and conflict in Angola : the Mbundu and their neighbours under the influence of the Portuguese,* 1483-1790 (Oxford : Clarendon Press).
Birmingham, D et Marks, S. (1977) « Southern Africa », in R. Oliver (éd.), *Cambridge History of Africa* (Londres, CUP), Vol. 3, pp. 521-620.
al-Bīrūnī, Abu'l-Rayhān Muḥammad b. Aḥmad (1030) *Kitāb Ta'rīkh al-Hind ;* éd. 1887 E. Sachau ; 1888 trad. angl. E. Sachau, *Alberuni's India ; an account of the religion, philosophy, literature, geography... of India about AD 1030* (Londres) ; 1964 (Delhi : S. Chand).
Bisson, M.S. (1975) « Copper currency in Central Africa : the archaeological evidence », *WA,* 6, 3, pp. 276-92.
Blount, B. et Curley, R. T. (1970) « The southern Luo languages : a glotto-chronological reconstruction », *JAL,* 9, 1, pp. 1-18.
Boahen, A.A. (1974) « Who are the Akan ? » in Bonduku Seminar Papers, q.v.
Boelaert, E. (1957-8) *Lianja-verhalen,* 2 vols (Tervuren : Annales du musée royal du Congo belge : sciences de l'homme : Linguistique, 17-19).
Boiteau, P. (1958) *Contribution à l'histoire de la nation malgache* (Paris : Ed. sociales).
Boiteau, P. (1974) « Les droits sur la terre dans la société malgache pré-coloniale », in *Sur le mode de production asiatique* (Paris : Éd. sociales), pp. 135-69.
Bonnassié, P. (1975-6) *La Catalogne du milieu du X[e] à la fin du XI[e] siècle : croissance et mutations d'une société,* 2 vols (Toulouse : Université de Toulouse-le-Mirail, Série A, 23, 29).
Boulègue, J. (1968) « La Sénégambie du milieu du XV[e] siècle au début du XVII[e] siècle » (thèse de doctorat, Université de Dakar).
Boulègue, J. (1972) *Les luso-africains de Sénégambie, XVI[e]-XIX[e] siècle* (Dakar : Université de Dakar, Département d'Histoire, Travaux et documents, 1).
Boulnois, J. et Hama, B. (1954) *Empire de Gâo : histoire, coutumes et magie des Sonrai* (Paris : Maisonneuve).

Bourouiba, R. (1972) *L'Art musulman en Algérie* (Alger : Sned).
Bourouiba, R. (1973) « La Doctrine almohade », *ROMM*, 13-14, pp. 141-58.
Bourrouiba, R. (1976) « Le problème de la succession de 'Abd al-Mumin', *RHCM*, 13, pp. 23-9.
Bousquet, G.H. (1954) *L'Islam maghrébin ; introduction à l'étude générale de l'Islam (Alger : Maison des livres).*
Bovill, E. W. (1927) « The Moorish invasion of the Sudan », *JAS*, 26, pp. 245-62, 380-7 : 27, pp. 47-56.
Bovill, E.W. (1933) *Caravans of the old Sahara ; an introduction to the history of the western Sudan* (Londres OUP pour IIALC) éd. révisée en 1968, *The golden trade of the Moors* (Londres : OUP).
Boxer, C.R. (1963) *Race relations in the Portuguese colonial empire, 1415-1825* (Oxford : Clarendon Press).
Brasio, A.D. (1952-71) *Monumenia missionaria africana : Africa ocidental,* 12 vols (Lisbonne : Agência geral do Ultramar).
Brasseur, G. (1968) *Les Établissements humains au Mali (Dakar : IFAN ; Mémoires, 83).*
Braudel, F. (1946) « Monnaies et civilisations de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique : un drame méditerranéen, *AESC*, 1, pp. 9-22.
Bréhier, E. (1971) *La Philosophie du Moyen Age* (Paris : Albin Michel).
Brett, M. (1972) « Problems in the interpretation of the history of the Maghrib in the light of some recent publications », *JAH*, 13, 3, pp. 489-506.
Brignon, J. Amine, A., Boutaleb, B. Martinet, G. et Rosenberger, B. (1967) *Histoire du Maroc* (Paris : Hatier).
British Museum (1877) *Catalogue of the Ethiopic manuscripts : voir Wright, W. (éd.).*
Brock, B. (1968) « The Nyiha », in A. Roberts (éd.), *Tanzania before 1900 (Nairobi : EAPH), pp. 59-82.*
Broecke, P. van den (1605-14) ; 1842, trad. franç., « Voyages au Cap Vert », in C. A. Walcknaer (éd.), *Collection des relations de voyages par mer et par terre... depuis 1400 jusqu'à nos jours, 21 vols.* (Paris : Walcknaer), Vol. 2, pp. 300-5 ; 1800, trad. angl., Charles, Sturring adventures in African travel.
Bruce, James (1790), *Travels to discover the source of the Nile in the years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, 1773 ;* 1964 réimpression (Edinburgh : Edinburgh University Press).
Brunschvig, R. (1940, 1947) *La Berbérie orientale sous les Hafsides : des origines à la fin du* XV^e siècle, 2 vols (Paris : Maisonneuve).
Brunschvig, R. (1948) *La Tunisie dans le haut Moyen Age : sa place dans l'histoire* (Le Caire, Institut français d'archéologie orientale).
Bucaille, R. (1975) « Takadda, pays du cuivre », *BIFAN*, B, 37, 4, pp. 720-78.
Buchanan, C.A. (1974) *The Kitara complex : the historical tradition of western Uganda to the sixteenth century* (thèse de doctorat, University of Indiana, Bloomington).
Budge, E.A.W. (1928) (éd.) *The books of the saints of the Ethiopian Church, Mashafa Sĕnkĕsâr,* 4 vols, (Londres : CUP).
Burssens, H. (1958) *Les peuplades de l'entre Congo-Ubangi : Ngbandi, Ngbaka, Mbandja, Ngombe et Gens d'Eau* (Tervuren : Annales du Musée royal du Congo belge, sciences de l'hommes. Monographies ethnographiques, 4).
Buzurg b. Shariyār (x^e s.) *Kitāb 'Adjāib al Hind* ; 1883 éd. P. A. van der Lith (Vol. 1) et 1886 trad. franç. M. Devic (Vol. 2), *Livre des merveilles d'Inde* (Leyde : Brill).

Ca da Mosto, A. da (xv^e s.) 1895 trad. franç. *Relations des voyages à la côte occidentale de l'Afrique d'Alvise da Ca' da Mosto, 1455-1457* (Paris, Leroux) ; éd. 1937 trad. angl. G. R. Crone (q.v.) ; 1948 texte italien avec trad. portugaise, *Viagens de Luis de Cadamosto e de Pedro de Sintra* (Lisbonne, Academia portuguesa da historia).
Cahen, C. (1960) 'Ayyūbids », in *Encyclopaedia de l'Islam* (q.v.), nouvelle éd., vol. 1, pp. 820-830.
Cahen, C. (1965) « Douanes et commerces dans les ports méditerranéens de l'Égypte médiévale d'après le Minhadj d'al-Makhzumi », *JESHO*, 7, 3, pp. 217-314.
Callet, R.P. (éd.) (1908) *Tantara my andriana eto Madagascar : documents historiques d'après les manuscrits malgaches,* 2 vols (Tananarive : Imp. officielle).
Calonne-Beaufaict, A. de (1921) *Azande ; introduction à une ethnographie générale des bassins de l'Ubangi-Uele et de l'Aruwimi* (Bruxelles : Lamertin).
Cambpell, D.E.H. (1926) *Arabian medicine and its influence on the Middle Ages,* 2 vols (Londres, Kegan Paul, Trench, Trubner).
Canard, M. (1939-41) « Relations entre les Mérinides et les Mamelouks au XIV^e siècle », *AIEOA*, 5, pp. 41-81.
Carbou, H. (1912) *La région du Tchad et du Ouadai,* 2 vols (Paris : Leroux ; Université d'Alger, Faculté des lettres et des sciences humaines, 47-8).

Cardinall, A.W. et Tamakloe, E.F. (1931, 1970) *Tales told in Togoland, by A. W. Cardinall to which is added : The mythical and traditional history of Dagomba, by E.F. Tamakloe* (Londres, OUP).
Carreira, A. (1972) *Cabo Verde : formacão e extinção de uma sociedade excravocrata (1460-1878)* (Lisbonne Memorias do centro de estudos da Guine portuguesa, 24).
Carreira, A. (1978) *Notas sobre o tráfico português de excravos : circunscritos a costa ocidental africana.* (Lisbonne Universidade Nova, ciencias humanas e sociais).
Carrère, C. (1967) *Barcelone, centre économique à l'époque des difficultés, 1380-1462,* 2 vols (Paris : Mouton).
Casciaro, J.M. (1969) *El diálogo teológico de Santo Tomás con muslumanes y judios* (Madrid : CSIC).
Castries, H. de (1923) « La conquête du Soudan par El-Mansour », *Hespéris, 3, pp. 433-88.*
Caton-Thompson, G. (1931) *The Zimbabwe culture : ruins and reactions* (Oxford : Clarendon Press) ; éd. 1971 (Londres : Cass).
Cavazzi, G.A. (1965) *Descrição histórica dos trés reinos do Congo, Matamba e Angola, de João Antonio Cavazzi de Montecúccolo, G. M. de Leguzzano* (Lisbonne, Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antiga, Secção de Lisboa, Publicações, 2).
Cerone, F. (1902-3) « La politica orientale di Alphonso di Aragona », *ASPN,* 27, pp. 31-93 ; 28, pp. 154-212.
Cerulli, E. (1931) *Documenti arabi per la storia dell Etiopia* (Rome : Memorie dell' Accademia nazionae dei Lincei, classe di scienze morali, storiche e filologiche, serie 6, 4, 2).
Cerulli, E. (1941) « Il sultanato della Scioa, nel secolo XIII secondo un nuovo documento storico », *RSE,* 1, pp. 5-42.
Cerulli, E. (1943, 1947) *Etiopi in Palestina : storia della communita estiopica di Gerusalemme,* 2 vols (Rome : Lib. dello stato).
Cerulli, E. (1949) *Il « Libro della scala » e la question delle fonti arabo-spagnole della Divina Commedia (Vatican : Biblioteca apostolica vaticana).*
Cerulli, E. (1956) *Storia della letteratura etiopica* (Rome, Nuovo academia editrice).
Cerulli, E. (1957, 1959, 1964) *Somalis : scritti vari editi ed inediti,* 3 vols (Rome : Amministrazione Fiduciaria Italiana della Somalia).
Césard, E. (1927) « Comment les Bahaya interprètent leurs origines », *Anthropos,* 22, pp. 440-65.
Césard, E. (1937) « Le Muhaya (l'Afrique orientale) », *Anthropos,* 32, pp. 15-60.
Chanaiwa, D. (1980) « Historical traditions of southern Africa », in Unesco (1980b), (q.v.), pp. 25-44.
Chapelle, J. (1957) *Nomades noirs du Sahara* (Paris : Plon).
Chapman, S. (1967) « Kantsyore Island », *Azania,* 2, pp. 165-91.
Charsley, S. R. (1969) *The princes of Nyakyusa* (Nairobi : EAPH for Makerere Institute of Social Research).
Chaunu, P. (1969) *L'expansion européenne du XIII^e au XV^e siècle* (Paris : PUF).
Cherbonneau, A. (1854-5) « Essai sur la littérature arabe au Soudan d'après le *Tekmilet ed dibadji* d'Ahmed Baba le Tombouctien », RSACNM, pp. 1-42.
Chéron, G. (1924) « Contributions à l'histoire du Mossi : traditions relatives au cercle de Kaya », *BCEHSAOF,* 7, 4, pp. 634-91.
Childs, G. (1964) « The kingdom of Wambu (Huambo) : a tentative chronology », *JAH,* 5, 3, pp. 365-379.
Chittick, H. N. (1959) « Notes on Kilwa », *TNR,* 53, pp. 179-203.
Chittick, H. N. (1961) *Kissimani Mafia : excavations at an Islamic settlement on the East African coast,* (Dar es Salaam : Government Printer).
Chittick, H.N. (1963a) « Kilwa and the Arab settlement of the East African coast », *JAH,* 4, 2, pp. 179-90.
Chittick, H. N. (1963b) « The last Christian stronghold in the Sudan », *Kusk,* 11, pp. 264-72.
Chittick, H. N. (1965) « The Shirazi colonisation of East Africa », *JAH,* 6, 3, pp. 275-94.
Chittick, H. N. (1966) « Kilwa : a preliminary report », *Azania,* 1, pp. 1-36.
Chittick, H. N. (1967a) « L'archéologie de la côte occidentale africaine », in P. Vérin (éd.), *Arabes et islamisés à Madagascar et dans l'Océan indien* (Tananarive : Revue de Madagascar), pp. 21-38.
Chittick, H. N. (1967b) « Discoveries in the Lamu archipelago », *Azania,* 2, pp. 37-68.
Chittick, H. N. (1968) « The coast before the arrival of the Portuguese », in B. A. Ogot, (éd.), *Zamani : a survey of East African history* (Nairobi : EAPH), pp. 98-114.
Chittick, H. N. (1969) « A new look at the history of Pate », *JAH,* 10, 3, pp. 375-91.
Chittick, H. N. (1970) « East African trade with the Orient », in D. S. Richard (éd.), *Islam and the trade of Asia* (Oxford : Cassirer ; Philadelphie University of Pennsylvania Press), pp. 97-104.
Chittick, H. N. (1971) « The coast of East Africa », in P.L. Shinnie (éd.), *The African Iron Age* (Oxford : Clarendon Press), pp. 108-41.

Chittick, H. N. (1974) *Kilwa : an Islamic trading city on the East African coast,* 2 vols (Nairobi : British Institute in Eastern Africa, Memoirs, 5 ; Londres distrib. par Thames et Hudson).
Chittick, H. N. et Rotberg, R. I. (eds) (1975) *East Africa and the Orient : cultural syntheses in precolonial times* (New York : Harvard University Press ; Londres Africana Publishing Co).
Chittick, H. N. et Shinnie, P. L. voir Shinnie, P. L. et Chittick, H.N. (1961).
Chojnacki, S. (1971) « Notes on art in Ethiopia in the sixteenth century : an inquiry into the unknown », *JES,* 9, 2, pp. 21-77.
Chou Yi Liang (1972) « Early contacts between China and Africa », *GNQ,* 12, 6, pp. 1-3.
Chrétien, J. P. et Coifard, J. L. (1967) « Le Burundi », *NED,* 3364.
Cissé, Y. (1964) « Notes sur les sociétés de chasseurs malinkés », *JSA,* 34, 2, pp. 175-226.
Cissoko, S. M. (1966) *Histoire de l'Afrique occidentale, Moyen Age et temps modernes,* VIIe siècle-1850 (Paris : Présence africaine).
Cissoko, S. M. (1968) « Famines et épidémies à Tombouctou, et dans la boucle du Niger du XVIe au XVIIIe siècle », *BIFAN,* B, 30, 3, pp. 806-21.
Cissoko, S. M. (1969) « La royauté (mansaya) chez les Mandingues occidentaux d'après leurs traditions orales », *BIFAN,* B, 31, 2, pp. 325-38.
Cissoko, S. M. (1972) étude présentée à la conférence sur les Mandingues, Londres.
Cissoko, S. M. (1975) *Tombouctou et l'empire Songhay : épanouissement du Soudan nigérien aux* XVe-XVIe siècles (Dakar : Nouvelles éditions africaines).
Cissoko, S. M. (1981a) « De l'organisation politique du Kabu » ; et (1981b) « Introduction à l'histoire des Mandingues de l'ouest », in *Colloque international sur les traditions orales du Gabu* (Dakar : Étiopiques, Numéro spécial, Octobre, 1981), pp. 195-206, 73-92.
Clark, J. D. (1970) *The prehistory of Africa* (Londres, New York : Thames et Hudson).
Cohen, D. W. (1970) « A survey of interlacustrine chronology », *JAH,* 11, 2, pp. 179-202.
Cohen, D. .W (1972) *The historical tradition of Busoga, Mukama et Kintu* (Oxford : Clarendon Press).
Cohen, R. (1967) *The Kanuri of Bornu* (New York : Holt).
Colloque inter-universitaire Gana-Côte-d'Ivoire » (1974) : voir Actes du Colloques de Bonduku.
Connah, G. (1969) « Archacelogical work in Bornu, 1964-1966, with particular reference to the excavations at Daima Mound », in *Actes du premier colloque international d'archéologie africaine,* 11-16 Déc., 1966 (Fort Lamy : Institut national pour les sciences humaines ; Études et documents tchadiens, mémoires, I), pp. 112-24.
Connah, G. (1971) « Recent contributions to Bornu chronology », *WAJA,* 1, pp. 55-60.
Conti Rossini, C. (éd.) (1903) « Gli atti di Abba Yonãs », *RRAL,* série 5, 12, pp. 177-201, 239-255.
Conti Rossini, C. (éd.) (1904) *Vitae Sanctorum Antiquiorium : 1 : Acta Yared et Pantaleon* (Paris : Corpus scriptorum christianorum orientalum, 36-7 ; Scriptores aethiopici, 9-10).
Conti Rossini, C. (éd.) (1922) « La caduta della dinastia Zagué e la versionne amarica del Be'ela nagast », *RRAL,* série 5, 31, pp. 279-314.
Cordell, D. (1973) « Throwing knives in equatorial Africa : a distribution study', *Ba-Shiru,* 5, 1, pp. 94-104.
Cornevin, R. (1967) *Histoire de l'Afrique des origines à nos jours,* 3 vols, Vol. 1, *Des origines au XVIe siècle* (Paris : Payot).
Cortès-Alonso, V. (1963) « La trata de esclavos durante los primeros descubrimientos (1489-1516) », *AEA,* 9, pp. 23-50.
Cortès-Alonso, V. (1964) *La esclavitud en Valencia durante el reinado de los reyes católicos, 1479-1516* (Valence, Ayuntamiento).
Cortès-Alonso, V. (1972) « Procedencia de los esclavos negros en Valencia (1482-1516) », *REAA,* 7, 1, pp. 123-51.
Cortesão, A. (1971) *Descobrimento e cartografia das ilhas de Sao Tomé e Principe* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar, Agrupamento de estudos de cartografia antiga, Secção de Coimbra, publicações, 62).
Cortesão, A. (1972) *Descobrimento e descabrimentos* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antiga, publicacões 72).
Cortesão, A. (1973) *A história do descobrimentos das ilhas de Madeira par Roberto Machim em fins do século 14* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antiga : secção de Coimbra, serie separata, 85).
Cortesão, J. (1958, 1961) *Os descobrimentos portugueses,* 2 vols (Lisbonne, Arcadia).
Costermans, J. (1953) *Mosaïque bangba : notes pour servir à l'étude des peuplades de l'Uele* (Bruxelles, IRCB, Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, 28, 3).
Coupez, A. , Evrard, J. B. et Vansina, J. (1975) « Classification d'un échantillon de langues bantoues d'après la lexicostatistique », *Africana Linguistica,* 6, pp. 131-58.
Cour, A (1920) *La dynastie marocaine des Beni-Wattâs, 1420-1544* (Constantine : Braham).
Crazzolara, J. P. (1950-4) *the Lwoo,* 3 vols (Verona : ed. Missionaria Italiana).

Crone, G. R. (éd. et trad. angl.) (1937) *The voyages of Cadamosto, and other documents on Western Africa in the second half of the fifteenth century* (Londres, Hakluyt Society).
Cruz Hernandez, M. (1970) « La estructura social del periodo de occupacion islámica de al-Andalus (711-755), y la fundación de la monarquia omeya », *Awrak*, 2, pp. 25-43.
Cuoq, J. M. (éd) et trad. franç. (1975) *Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII^e au XVI^e siècle (Bilād al-Sūdān)* (Paris : CNRS, Sources d'histoire médiévale, 3).
Cuoq, J. M. (1978) « La famille Aquit de Tombouctou », *RIBLA*, 41, 1, pp. 85-102.
Curtin, P. D. (1969) *The Atlantic slave trade : a census* (Madison : University of Wisconsin Press).

Dampierre, E. de (1967) *Un ancien royaume bandia du Haut-Oubangui* (Paris : Plon).
Dandouau, A, et Chapus, G. S. (1952) *Histoire des populations de Madagascar* (Paris : Larose).
Daniel, F. de F. (1940) *History of Katsina* (Londres, Colonial Office Library).
Daniel, N. (1962) *Islam and the West ; the making of an image* (Edinburgh : Edinburgh University Press).
Dapper, O. (1668) *Naukeurige Beschrijvinge der Africaensche gewesten van Egypten, Barbaryen, Libyen, Biledulgerid...* (Amsterdam : Van Meurs) ; 1970 trad. angl. et adaptation, J. Ogilby, *Africa : being an accurate description of the regions of Aegypt, Barbary, Lybia, etc.* (Londres) ; 1670 trad. allemande, *Beschreibung von Afrika...* (Amsterdam : Van Meurs) ; 1686 trad. française, *Description de l'Afrique* (Amsterdam : Wolfgang, Waesberge *et al.*).
Darraj, A. (1961) *L'Égypte sous le règne de Barsbay, 825-841/1422-1438* (Damas, Institut français de Damas).
Datoo, B. A. (1970) « Rhapta : the location and importance of East Africa's first port », *Azania*, 5, pp. 65-76.
Daux, P. (1952) *Histoire du pays gourmanché* (Paris : Challamel).
Daveau, S. (1963) « Géographie de l'expansion portugaise », COM, 16, pp. 313-18.
Daveau, S. (1969) « La découverte du climat d'Afrique tropicale au cours des navigations portugaises (xv^e siècle et début du xvi^e siècle) », *BIFAN*, B, 31, 4, pp. 953-87.
Davidson, B. (1959) *Old Africa rediscovered* (Londres, Gollancz).
Davidson, B. (1964) *The African past : chronicles from antiquity to modern times* (Londres : Longman ; Boston : Little, Brown).
Davidson, B. et Bush, F. K. (1965, 1967), *The growth of African civilisation : a history of West Africa 1000-1800* (Londres, Gollancz).
Davies, O. (1961) « Native culture in the Gold Coast at the time of the Portuguese discoveries », in *Actas do congresso internacional de historia dos descobrimentos* (Lisbonne), Vol. 3, pp. 97-9.
Davies, O. (1971) « Excavations at Blackburn », *SAAB*, 26, 103-4, pp. 165-78.
Davies, O. (1974) « Excavations at the walled Early Iron Age site in Moor Park near Estcourt, Natal », *ANM*, 22, 1, pp. 289-324.
Davis, R. W. (1970) « The problem of possible pre-Colombian contacts between Africa and the Americas : a summary of the evidence », *GNQ*, 6, 2, pp. 1-7.
De Craemer, W., Vansina, J. et Fox, R. C. (1976) « Religious movements in Central Africa : a theory », *CSSH*, 18, pp. 458-74.
De Jonghe, E. et Vanhove, J. (1949) « Les formes d'asservissement dans les sociétés indigènes du Congo belge », *BARSOM*, Section des sciences morales et politiques, 19, pp. 483-95.
De la Fosse, E., éd. R. Fouché-Delbosc (1897) « Voyage à la côte occidentale d'Afrique, au Portugal et en Espagne, 1479-1480 », *RH*, 4, pp. 174-201.
Delafosse, M. (1912) *Le Haut Sénégal-Niger*, 3 vols, 1972 éd. M. F. J. Clozel (Paris, Maisonneuve et Larose).
Delafosse, M. (1913) « Traditions historiques et légendaires du Soudan occidental, traduites d'un manuscrit arabe inédit », *AFRCD*, août, pp. 293-306 ; Septembre, pp. 325-9, 355-69.
Delafosse, M. (1922, 1941) *Les noirs de l'Afrique* (Paris : Payot) ; trad. angl. F. Fligelman, *The negroes of Africa* (Port Washington : Kennikat Press).
Delafosse, M. (1924) « Les relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges », Hespéris, 4, pp. 153-74.
Delgado, J. A. (1950) « La navegacion entre los Canarios prehispanicos », *AEDA*, 79, pp. 164-74.
Délivré, A. (1974) *L'histoire des rois d'Imérina : interprétation d'une tradition orale* (Paris : Klincksieck).
Denbow, J. R. (1979) « Iron Age research in eastern Botswana », *NAk*, 14, pp. 7-9.
Denoon, D. (1972) « Migrations and settlement in south-west Uganda », Documents du colloque de Makerere.
Derricourt, R.M. (1973) « Archaeological survey of the Transkei and the Ciskei : interim report for 1972 », *FHP*, 5, 4, pp. 449-55.
Deschamps, H.J. (éd.) (1970-1) *Histoire générale de l'Afrique noire*, 2, vols (Paris : PUF).
Deschamps, H.J. (1972) *Histoire de Madagascar*, 1972 4^e éd. (Paris : Berger-Levrault).

Deschamps, H. J. et Vianes, S. (1959) *Les Malgaches du sud-est : Antemoro, Antesaka, Antambahoaka, peuples de Farafangana* (Paris : PUF).
Desplagnes, A. M. L. (1907) *Une mission archéologique et ethnographique au Soudan français : le plateau central nigérien* (Paris : Larose).
Deverdun, G. (1959, 1966) *Marrakech des origines à 1912,* 2 vols (Rabat : Éditions techniques nord-africaines).
Devic, L.M. (1883) *Les pays des Zendjs, ou la côte orientale d'Afrique au Moyen Age.* (Paris : Hachette).
Devisse, J. (1972) « Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée : un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle », *RHES,* 50, pp. 42-73, 357-97.
Dez, J. (1967) « De l'influence arabe à Madagascar à l'aide de faits linguistiques », dans P. Vérin (éd.), *Arabes et islamisés à Madagascar et dans l'Océan indien* (Tananarive : Revue de Madagascar), pp. 1-20.
Dez, J. (1971) « Essai sur le concept de Vazimba », *BAM,* 49, 2, pp. 11-20.
Diabaté, H. (1974) « A propos de la reine-mère dans les sociétés akan », Actes du colloque de Bonduku.
Diabaté, M. (1970) *Kala Jata* (Bamako : Éditions populaires).
Diaby, K. (1972) « Inventaire partiel des manuscrits de la bibliothèque de Kadi Muhammed Mahmud à Tombouctou », dans *Tombouctou, la ville la plus riche en documents historiques et sociologiques sur l'Afrique de l'ouest, EM,* 3, pp. 1-20.
Diagne, P. (1965) « Royaumes sérères : les institutions traditionnelles du Sine Saloum », *PA,* 54, pp. 142-72.
Dias de Carvalho, H. A. (1890ff) *Expedição portuguêsa ao Muatiânvua,* 6 vols (Lisbonne, Imp. nacional).
Dieterlen, G. (1955) « Mythe et organisation sociale au Soudan français », *JSA,* 25, 1, pp. 39-76.
Dina, J. et Hoerner, J. M. (1975) « Étude sur les populations miké du sud-ouest de Madagascar », *OSA,* 3-8, pp. 269-86.
Diop, C.A. (1955, 1965) *Nations nègres et cultures* (Paris : Présence africaine).
Diop, C.A. (1960) *L'Afrique noire précoloniale : étude comparée des systèmes politiques et sociaux...* (Paris : Présence africaine).
al-Ḏjilali, 'Adb al-Raḥman b. Muḥammad (n.d.) *Ta'rikh al-Ḏjazā' ir al-amm ;* 1934-60 éd. (Alger).
al-Ḏjinhānī, al-Ḥabīb (s.d.) *al-Ḳayrawān 'abra 'usūr izdihār al-hadārah al Islāmiyāh,* éd. 1968 (Tunis).
Documents on the Portuguese in Mozambique and Central Africa, 1497-1840 ; aussi *Documentos sobre os Portugueses em Moçambique e na Africa central, 1497-1840 ;* 1962, Vol. 1, *1497-1506* (Salisbury : National Archives of Rhodesia and Nyasaland ; Lisbonne : Centro de estudos historicos ultramarinos).
Doke, C.M. (1954) *The southern Bantu languages,* (Londres : OUP pour IAI).
Domenichini, J.P. (1971a) « Artichiroka et Vazimba : contribution à l'histoire de la société du XVIe au XIXe siècle », communication, séance plénière de l'Académie malgache.
Domenichini, J.P. (1971b) *Histoire des palladium d'Imérina d'après des manuscrits anciens* (Tananarive : Travaux et documents du musée d'art et d'archéologie de l'Université, 8).
Domenichini, J.P. (1979a) « L'écuelle de Milangana, XVe siècle » *Ambario,* 1, pp. 127-31.
Domenichini, J.P. (1979b) « La plus belle énigme du monde », étude présentée au Colloque de Tuléar, 9-15 Avril 1979.
Donelha, A. (1625) *Descrição da Serra Leõa e dos rios de Guiné de Cabo Verda, 1625 ;* éd. 1977 et trad. angl. A Teixeira da Mota et P.E.H. Hair, *An account of Sierra Leone and the rivers of Guinea of Cape Verde, 1625* (Lisbonne : Junta de investigações do Ultramar, Centro de estudos de cartografía antiga, secção de Lisboa, 19).
Dramani-Issifou, Z. (1975) « Les relations entre le Maroc et l'empire songhai dans la seconde moitié du XVIe siècle » (thèse de doctorat, Université de Paris).
Dubois, H.M. (1938) *Monographie des Betsileo (Madagascar)* (Paris : Institut ethnologique).
Dufourcq, C.-E. (1966) *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIIIe et XIVe siècles, de la bataille de Las Navas Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hassan (1331)* (Paris : PUF : Bibliothèque de l'École des hautes études hispaniques, fasc. 37).
Dufourcq, C.-E. (1968) « Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIIIe siècle », *RHCM,* 5, pp. 37-62.
Dufourcq, C.-E. (1979) « Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et maxime musulmane : données connues et problèmes en suspens », dans *Actes du Congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb* (Tunis), pp. 161-92.
Dunbar, A.R. (1966) *History of Bunyoro-Kitara* (Nairobi/Londres, OUP pour East African Institute of Social Research).

Ducan-Johnstone, A.C. et Blair, H.A. (1932) *Inquiry into the constitution and organisation of the Dagbon kingdom* (Accra : Government Printer). Compte rendu dans *Africa* (L), 5, pp. 497-8.
Dupuis, J. (1974) « La diffusion du maïs dans l'ancien monde et hypothèse de voyages arabes en Amérique précolombienne », *CRTSASOM,* 34, 2, pp. 381-406.
Dyuvendak, J. J. L. (1938) « The true dates of the Chinese maritime expeditions in the early fifteenth century », *T'oung Pao,* 34, pp. 341-412.
Duyvendak, J. J. L. (1949) *China's discovery of Africa* (Londres : Probsthain).

East, R.M. (1933) *Labarun Hausawa da Makwabtansu,* 2 vols (Lagos : CMS Bookshop) ; 1970 réimpression (Zaria : Northern Nigerian Publishing Co.).
Ehrenkreutz, A.S. (1959) « Studies in the monetary history of the Near East in the Middle Ages », *JESHO,* 2, pp. 128-61.
Ehrenkreutz, A.S. (1963) « Studies in the monetary history of the Near East in the Middle Ages : 2. The standard of fineness of western and eastern dinars before the crusades », *JESHO,* 6, pp. 243-77.
Ehret, C. (s.d.) « Comparative culture vocabularies of Eastern, Southern and Central African languages » (manuscrit dactylographié non publié).
Ehret, C. (1967) « Cattle keeping and milking in Eastern and Southern African history : the linguistic evidence », *JAH,* 8, 1, pp. 1-17.
Ehret, C. (1971) *Southern Nilotic history : linguistic approaches to the study of the past* (Evanston : Northwestern University Press).
Ehret, C. (1972) « Outlining Southern African history : a re-evaluation AD 100-1500 », *Ufahamu,* 3, 1, pp. 9-38.
Ehret, C. (1973) « Patterns of Bantu and central Sudanic settlement in Central and Southern Africa (*ca* 100 BC to 500 AD) », *TJH,* 3, 1, pp. 1-71.
Ehret, C. (1974a) « Agricultural history in Central and Southern Africa (*ca* 1000 BC to 500 AD) », *TJH,* 4, 1, pp. 1-26.
Ehret, C. (1974b) *Ethiopians and East Africans : the problem of contacts* (Nairobi : EAPH).
Ehret, C. (1974c) « Lacustrine history and linguistic evidence : preliminary considerations » (Los Angeles : UCLA seminar paper).
Ehret, (1976) « Aspects of social and economic change in western Kenya, 1500-1800 », in B. A. Ogot (éd.), *Kenya before 1900* (Nairobi : EAPH), pp. 1-20.
Ehret, C. (1980) *The historical reconstruction of southern Cushitic phonology and vocabulary* (Berlin : Reimer).
Elphick, R. (1977) *Kraal and castle : Khoikhoi and the founding of white South Africa* (New Haven : Yale University Press ; Yale historical publications miscellany, 116).
Elugbe B.O. (1974) « A comparative Edo phonology Ibadan » (thèse de doctorat non publiée).
L'Empire du Mali (1959) *NA,* 82, pp. 1-63 ; 83, pp. 64-70.
Encyclopaedia of Islam (1913-38) 4 vols, supplément (Londres Luzac ; Leyde, Brill).
Encyclopaedia of Islam (1960-78) nouvelle éd., 4 vols ; 1979-82, Vol. 5, en cours (Khe-La) (Leyde, Brill).
Encyclopédie de l'Islam (1913-38) 4 vols et supplément ; 1960-78, nouvelle éd. 4 vols ; 1979-82, Vol. 5 en cours (Paris : Klincksieck ; Leyde, Brill).
Estermann, C. (1960) *Etnografia do sudoeste de Angola* (Lisbonne, Junta de investigações do Ultramar, Junta das missões geograficas e de investigações do Ultramar, memórias, serie antropologica, 4-5), 2ᵉ éd.
Everbroeck, N. van (1961) *M'bom'ipoku le seigneur à l'abîme : histoire, croyances, organisation clanique, politique, judiciaire, vie familiale des Bolia, Sengélé et Ntomb'e njalé* (Tervuren : Musée royal de l'Afrique centrale ; Archives d'ethnographie du musée, 3).
Evers, T.M. (1975) « Recent Iron Age research in the eastern Transvaal », *SAAB,* 30, pp. 171-82.
Evers, T.M. et Van den Berg, R. P. (1974) « Recent mining in southern Africa with reference to a copper mine in the Harmony block, northeastern Transvaal », *JSAIMM,* 74, pp. 217-26.
Eyre-Smith, St J. (1933) *A brief review of the history and social organization of the peoples of the Northern Territories of the Gold Coast* (Accra : Government Printer).

Fagan, B.M. (1964) « The Greefswald sequence : Bambandyanalo and Mapungubwe », *JAH,* 5, 3, pp. 337-61.
Fagan, B.M. (1965) *Southern Africa during the Iron Age* (Londres : Thames and Hudson)
Fagan B.M. (1967) *A short history of Zambia : from the earliest times until AD 1900* (Nairobi : OUP).
Fagan, B.M. (1967, 1969) *Iron Age cultures in Zambia,* 2 vols (Londres : Chatto and Windus ; Robins series, n° 5).

Fagan, B.M. (1969) « The Later Iron Age in South Africa », in L. Thompson (éd.), *African societies in Southern Africa* (New York : Praeger), pp. 50-70.
Fagan, B.M. et Yellen, J.E. (1968) « Ivuna : ancient salt-working in southern Tanzania », *Azania*, 3, pp. 1-44.
Fage, J.D. (1952) « Some general considerations relevant to historical research in the Gold Coast », *THSG*, 1, 1, pp. 24-9.
Fage, J.D. (1955) « Some problems of Gold Coast history », *Universitas*, 1, 6, pp. 5-9.
Fage, J.D. (1956) « Some notes on a scheme for the investigation of oral tradition in the Northern Territories of the Gold Coast », *JHSN*, 1, pp. 15-19.
Fage, J.D. (1964a) « Reflexions on the early history of the Mosi-Dagomba group of states », in *The historian in tropical Africa* (Londres IAI ; Travaux du IVe congrès international africain, Dakar, 1961), pp. 177-91.
Fage, J.D. (1964b) « Some thoughts on state formation in the western Sudan before the seventeenth century », (Boston : University papers in African history, 1), pp. 17-34.
Fagereng, E. (1971) *Une famille de dynasties malgaches : Zafindravola, Maroserana, Zafimbolamena, Andrevola, Zafimanely* (Oslo : Universitetsforlaget).
Fagg, B.E.B. (1956) « A life-size terracotta bead from Nok », *Man*, 56, 95, p. 89.
Fagg, B.E.B. (1959) « The Nok culture in prehistory », *JHSN*, 1, 4, pp. 288-93.
Fagg, B.E.B. (1969) « Recent work in West Africa : new light on the Nok culture », *WA*, 1, pp. 41-50.
Fagg, B.E.B. (1977) *Nok Terracottas* (Lagos : Nigerian Museum ; Londres : Ethnographica).
Fagg, W.B. (1963) *Nigerian Images* (Londres : Lund Humphries ; New York : Praeger) ; trad., française, *Les Merveilles de l'art nigérien* (Paris : Éditions du Chêne).
Fairley, N.J. (1978) « Mianda ya Ben'ekie : a history of the Ben'ekie » (Thèse de doctorat, Université de New York à Stonybrook).
Fall, Y.K. (1978) « Technologie et Idéologie au Moyen Age. L'école cartographique majorquine et la représentation de l'Afrique » (thèse, Université de Paris, ronéo).
al-Fashtālī : voir 'Abd al-'Azīz... al-Fishtālī.
Fernandes, V. (1506-7) 1938 trad. franç. P. de Cenival et T. Monod, *Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506-7)* (Paris : Larose ; Publications du Comité d'études historiques et scientifiques de l'Afrique occidentale française, 6).
Fernandes, V. (s.d.) 1951 éds. T. Monod, A. Teixeira da Mota, R. Mauny, trad. française P. de Cenival et T. Monod, *Description de la côte occidentale d'Afrique* (Sénégal du Cap de Monte, Archipels) (Bissau : Publicações do centro da Guiné portuguesa, 11).
Ferrand, G. (1891-1902) *Les Musulmans à Madagascar et aux îles comores*, 3 vols (Paris : Leroux, Bulletin de correspondance de l'École des lettres d'Alger, 9).
Ferrand, G. (1921-8) *Instructions nautiques et routiers arabes et portugais des XVe et XVIe siècles*, 3 vols (Paris : Geuthner).
Fiedler, R. (1978) « Arab rock inscriptions and drawings in the Czechoslovak archaeological concession in Nubia », *Archiv Orientalni*, 46, pp. 38-45.
Filesi, T. (1962a) *Le relazioni della Cina con l'Africa nel Medio Evo* (Milan : Giuffrè).
Filesi, T. (1962b) « Testimonianze della presenza cenesi in Africa », *Africa* — (R), 17, pp. 115-23.
Filipowiak, W. (1970) « Niani poraz drugi in z otchlani », *Wikow*, 1.
Filipowiak, W. (1979) *Études archéologiques sur la capitale du Mali* (Stettin : Musée Narodin).
Filipowiak, W., Jasnosz, S. et Wolaeiewicz, R. (1970) « Les recherches archéologiques polonoguinéennes à Niani en 1968 », *MZ*, 14, pp. 575-648.
Fisch, R. (1913) « Die Dagbamba », *BA*, 3, pp. 132-64.
Fisher, A.G.B. et Fisher, H. J. (1970) *Slavery and Muslim society in Africa : the institution in Saharan and Sudanic Africa and the Trans-Saharan trade* (Londres : Hurst).
Fisher, G.A. (1957) *Barbary legend : war, trade and piracy in North Africa, 1415-1830* (Oxford, Clarendon Press).
Fisher, H.J. (1977) « The eastern Maghrib and the central Sudan », in R. Oliver (éd.), *Cambridge History of Africa*, Vol. 3 (Londres : CUP), pp. 232-330.
Fisher, H.J. (1978) « Leo Africanus and the Songhay conquest of Hausaland », *IJAHS*, 11, 1, pp. 86-112.
Fisher, R.B. (1911) *Twilight tales of the Black Baganda* (Londres : Marshall) ; 1970 reimp. (Londres, Cass).
al-Fishtālī : see 'Abd al-'Azīz... al-Fishtālī.
Flacourt, E. de (1661) *Histoire de la grande île de Madagascar* (Paris) ; éd. 1905 (Troyes : Oudot).
Fleming, H.C. (1964) « Baiso and Rendille : Somali outliers », *RSE*, 20, pp. 35-96.
Ford, J. et Hall, R. de Z. (1947) « The history of Karagwe, (Bukoba District) », TNR, 24, pp. 3-27.
Forstner, M. (1979) *Das Wegenetz des zentralen Maghreb in islamischer Zeit : Vergleich mit dem antiken Wegenetz* (Wiesbaden : Harrassowitz).

Fortes, M. (1940) « The political system of the Tallensi of the Northern Territories of the Gold Coast, dans M. Fortes, E.E. Evans-Pritchard (éd.), *African political systems* (Londres : IAI), pp. 239-71.
Franco, de (Capitaine) (1905) *Étude sur l'élevage du cheval en Afrique occidentale* (Paris).
Franco Silva, A. (1979) *La esclavitud en Sevilla y su tierra a fines de la Edad Media* (Seville : Diputación Provincial de Seville).
Freeman-Grenville, G.S.P. (1955) « Chinese porcelain in Tanganyika », *TNR*, 41, pp. 62-5.
Freeman-Grenville, G.S.P. (1957) « Coinage in East Africa before the Portuguese times », *NC*, 17, pp. 151-79.
Freeman-Grenville, G.S.P. (1958) « Swahili literature and the history and the archaeology of the East African Coast », *Swahili*, 28, 2, pp. 7-25.
Freeman-Grenville, G.S.P. (1959) « Medieval evidences for Swahili », *Swahili*, 29, 1, pp. 10-23.
Freeman-Grenville, G.S.P. (1960a) « East African coin finds and their historical significance », *JAH*, 1,1 pp. 31-43.
Freeman-Grenville, G.S.P. (1960b) « Historiography of the East African coast », *TNR*, 55, pp. 279-89.
Freeman-Grenville, G.S.P. (1962a) *The East African coast : select documents from the first to the early nineteenth century* (Oxford : Clarendon Press) ; 1975, 2e éd. (Londres, Rex Collings).
Freeman-Grenville, G.S.P. (1962b) *The medieval history of the coast of Tanganyika* (Londres/New York : OUP).
Freeman-Grenville, G.S.P. (1981) « Kilwa », dans *Encyclopaedia of Islam* (q.v.), nouvelle éd. Vol. 5,pp. 106-107.
Fripp, C.E. (1940-1941) « A note on medieval Chinese-African trade », *RNADA*, 17, pp. 86-96 ; 18, pp. 12-22.
Frobenius, L. (1912-19) *Und Afrika sprach...*, 4 vols (Berlin : Vita).
Frobenius, L. (1925) *Dichten und Denken im Sudan* (Jena : Diederichs).
Fuchs, P.P. (1974) « Sozio-ökonomische Aspekte der Dürre-Katastrophe für die Sahara-Bevölkerung von Niger », *ASp*, 9, 3, pp. 308-16.
Fuglestad, F. (1978) « A reconsideration of Hausa history before the Jihad », *JAH*, 19, 3, pp. 319-39.

Gaden, H. (1912) « Légendes et coutumes sénégalaises d'après Yoro Dyao », *RES*, 3,3-4, pp. 119-37 ; 5-6, pp. 191-201.
Gaillard, J. (1923) « Niani, ancienne capitale de l'empire mandingue », *BCEHSAOF*, 6, pp. 620-36.
Galaal, Musa H.I. (s.d.) « Stars, seasons and weather » (non publié).
Garba, N. (1977) « Rise and fall of Zamiara » (dissertation, University of Zaria).
Garcin, J.C. (1972) « Jean Léon l'Africain et Aydhab », *AI*, 11, pp. 189-209.
Garcin, J.C. (1974) « La méditerranéisation de l'empire mamelouk sous les sultans bahrides », *RSO*, 48, 1, pp. 75-82.
Garcin, J.C. (1976) *Un centre musulman de la Haute-Égypte médiévale : Qûs* (Le Caire : Institut français d'études d'archéologie orientale ; Textes arabes et études islamiques, 6).
Garlake, P.S. (1966) *The early Islamic architecture of the East African coast* (Nairobi/Londres : OUP ; Memoirs of the British Institute of History and Archaeology in East Africa, 10) ; 1966, compte rendu dans *TNR*, 67, pp. 60-2.
Garlake, P.S. (1970) « Iron site in the Urungwe district of Rhodesia », *SAAB*, 25, 97, pp. 25-44.
Garlake, P.S. (1973) *Great Zimbabwe* (Londres : Thames and Hudson, New York : Stein and Day).
Gautier, E.F. (1935) « l'Or du Soudan dans l'histoire », *AHES*, 7, pp. 113-23.
Géraud, F. (1977) « The settlement of the Bakiga », in D. Denoon (éd.) *A history of Kigezi in south-west Uganda* (Kampala : National Trust, Adult Education Centre), pp. 23-55.
Germain, R. (1965) *Les biotopes alluvionnaires herbeux et les sabanes intercalaires du Congo équatorial* (Bruxelles : Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer), n.s., 15, 4.
Gerster, G. (1974) *L'Éthiopie, toit de l'Afrique* (Zurich : Éditions Atlantis).
Gevrey, A. (1972) *Essai sur les Comores* (Tananarive : Travaux et documents du musée d'art et d'archéologie de l'université, 10).
al-Ghazālī (1095) *Tahāfut al-falāsifa* ; éd. 1947, (Le Caire) ; éd. 1962 (Beyrouth Imprimerie catholique) ; 1927, trad. française M. Bouyes (Beyrouth : Imp. catholique) ; 1958, trad. angl. S. A. Kamali, *The incoherence of the philosophers* (Lahore : Pakistan Philosophical Congress).
al-Ghazālī (XIe s.) *Ihyā' 'ūlūm al-dīn*, éd. 1888 (Le Caire) ; éd. 1967-8, 5 vols (Le Caire) ; 1978-9 trad. angl. Fazul ul-Karim, 3 vols (Lahore : Sind Sagar Academy).
Gille P. (1970), « Les Navires des deux Indes Venise et Portugal, évolution des types, résultats économiques », dans *Méditerranée et Océan indien : travaux du sixième colloque international d'histoire maritime*, 1962 (Paris : SEVPEN), pp. 193-202.
Godinho, V. de Magalhães (1943-56) *Documentos sóbre a expansão portuguêsa, 3 vols (Lisbonne, Gleba).*

Godinho, V. de Magalhães (1952) « A economia das Canarias nos seculos 14-15 », *RHSP,* 10, pp. 311-348.
Godinho, V. de Magalhães (1962) *A economia dos descobrimentos henriquinos* (Lisbonne : Sá da Costa).
Godinho, V. de Magalhães (1969) *L'économie de l'empire portugais aux XVᵉ et XVIᵉ siècles* (Paris : SEVPEN).
Goes, D. de, *et al.* (xvᵉ s.) éd. 1749 R. Boache (Lisbonne) ; éd. 1926 J. M. Teixeira de Carvalho et D. Lopes (Coimbra : Scriptorum Rerum Lusitanorum) ; (s.d.) éd. trad. franç., dans V. de Castro e Almeida, *Les Grands Navigateurs et colons portugais du XVᵉ et du XVIᵉ siècles* (Bruxelles, Desmet-Verteneuil), vol. 4, pp. 191 suiv.
Goitein, S.D.F. (1966) *Studies in Islamic history and institutions* (Leyde : Brill).
Goitein, S.D.F. (1967-78) *A Mediterranean society ; the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Geniza,* 3 vols (Berkeley : University of California Press).
Goldenberg, S. et Belu, S. (1971) *Epoca marilor descoperiri geografice* (Bucarest : éd. Stiintifica).
Goldziher, I. (1887) « Materialen zur Kenntnis der Almohadenbewegung in Nord-Afrika », *ZDMG,* 41, pp. 30-140.
Goldziher, I. (1903) « Mohammed ibn Toumert et la théologie d'Islam dans le nord de l'Afrique au xɪᵉ siècle », préface de R. Luciani, *Le Livre d'Ibn Toumert* (Algiers).
Gomes, D. (xvᵉ s.) 1937 trad. angl. in G. R. Crone (q.v.) ; 1959 trad. franç., T. Monod, R. Mauny et G. Duval, *De la première découverte de la Guinée, récit* (Bissau).
González Palencia, A. (1926-8) *Los Mozárabes de Toledo en los siglos 12 y 13,* 3 vols (Madrid).
González Palencia. A. (1945) *Historia de la literatura arábico-espagñola* (Barcelone. Éd. Labor) ; 1955, trad. arabe, H. Mones, *Tar'ikh al-fikr al-Andalusi* (Le Caire).
Goody, J. (1966) « The Akan and the north », *GNQ* 9, p. 20.
Gorju, J.L. (1920) *Entre la Victoria, l'Albert et l'Édouard* (Rennes : Oberthür).
Goytom, W.M. (1970) *An atlas of Africa* (Addis Abeba).
Les grandes Voies maritimes dans le monde, XVᵉ-XVIᵉ siècle : Rapports présentés au 12ᵉ Congrès international des sciences historiques par la Commission internationale d'histoire maritime, à l'occasion de son 7ᵉ colloque (Vienne, 1965) (1966) (Paris : SEVPEN).
Grandidier, A. (1903) « Ouvrages ou extraits d'ouvrages portugais, hollandais, anglais, français, allemands, italiens, espagnols et latins relatifs à Madagascar : 1500-1613 », dans *Collection des ouvrages anciens concernant Madagascar* (Paris : Comité de Madagascar), Vol. 1.
Gray, J. (1935) « Early history of Buganda », *UJ,* 2, 4, pp. 259-70.
Gray, J. (1963) « The solar eclipse in Ankole in 1492 », *UJ,* 27, 2, pp. 217-21.
Gray, J.M. (1950) « Portuguese records relating to the Wasegeju », *TNR,* 29, pp. 85-97.
Gray, J.M. (1962) *History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856* (Londres : OUP).
Gray, R. et Birmingham, D. (1970) *Precolonial African trade : essays on trade in Central and Eastern Africa before 1800* (Londres-New York : OUP).
Gray, W. (1826) *voyage dans l'Afrique occidentale pendant les années 1818, 1819, 1820, 1821, depuis la rivière Gambie jusqu'au Niger* (Paris : Gastel).
Grebenart, D. (à paraître). Étude présentée au colloque tenu en 1979 sur « L'Histoire du Soudan central avant 1804 ».
Greenberg, J.H. (1947) « Islam and clan organization among the Hausa », *SWJA,* 3, pp. 193-211.
Greenberg, J.H. (1955) *Studies in African linguistic classification* (Bradford : Compass Pub.).
Greenberg, J.H. (1960) « Linguistic evidence for the influence of the Kanuri on the Hausa », *JAH,* 1, 2, pp. 205-12.
Greenberg, J.H. (1963) « The languages of Africa », *JAL,* 29, 1, (Partie 2) ; republiée comme publication du Bloomington Research Center in Anthropology, Folklore and Linguistics, 25.
Griaule, M. (1938) *Masques dogons* (Paris : Institut d'ethnographie).
Griaule, M. (1966) *Dieu d'eau : entretien avec M. Ogotemmêli* (Paris : Fayard).
Griffith, F.L. (1928) *Christian documents from Nubia* (Londres : Comptes rendus de la British Academy, 14, pp. 117-46).
Grottanelli, V.L. (1955) « A lost African metropolis : (Shungwaya) » dans J. Lukas, (éd.), *Afrikanistische Studien* (Berlin : Akademie Verlag), pp. 231-42.
Grottanelli, V.L. (1965) *Pescatori dell'Oceano Indiano ; saggio etnologico preliminare sui Bagiuni, Bantu costieri dell'Oltregiuba* (Rome : Cremonese).
Grottanelli, V.L. (1975) « Su un'antica scultura in avorio della Sierra Leone », *Africa-*(R), 30, 4, pp. 475-505.
Guerrero-Lovillo, J. (1949) *Las cantigas estudio-arqueologico de sus miniaturas* (Madrid : CSIC).
Guidi, I. (1932) *Storia della letteratura etiopica* (Rome, Istituto per l'Oriente).
Guillain, C. (1845) *Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de la partie occidentale de Madagascar* (Paris : Imprimerie royale).

Guthrie, M. (1948) *The classification of the Bantu languages* (Londres : IAI).
Guthrie, M. (1953) *The Bantu languages of western Equatorial Africa* (Londres : IAI).
Guthrie, M. (1962) « Bantu origin : a tentative new hypothesis », *JAL*, 1, pp. 9-21.
Guthrie, M. (1967-71) *Comparative Bantu...* 4 vols (Farnborough : Gregg International).

Hahn, C.H.L., Vedder, H. et Fourié, L. (1966) *The native tribes of South-West Africa* (Londres, Cass).
Hair, P.E.H. (1964) « Christianity in mediaeval Nubia and the Sudan : a bibliographical note », *BSACH*, 1, 3-4, pp. 67-73.
Hair, P.E.H. (1967) « Ethnolinguistic continuity on the Guinea coast », *JAH*, 8, 2, pp. 247-68.
Hair, P.E.H. (1969) « How African is the history of the Sudan ? », *SS*, 4, pp. 39-58.
Hair, P.E.H. (1974) « Barbot, Dolpper Davity : a critique of sources on Sierra Leone and Cap Mount », *HAJM*, 1, pp. 25-54.
al-Hajj Mbaye, A. (1968) « A seventeenth-century chronicle on the origins and missionary activities of the Wangarawa », *KS*, 1, 4, pp. 7-42.
Hājjīyāt, 'Abd al-Hamid (1974) *Abū Hammū Mūsa al-Zayyani, hayātuhu wa-ātharuh* (Alger).
Hallam, W.K.R. (1966) « The Bayajida legend in Hausa folklore », *JAH*, 7, 1, pp. 47-60.
Hama, B. (1966) *Enquête sur les fondements et la genèse de l'unité africaine* (Paris : Présence africaine), y compris « Un manuscrit inédit de Abkal Aould Aoudar », pp. 205-15.
Hama, B. (1967) *Histoire du Gobir et de Sokoto* (Paris : Présence africaine).
Hama, B. (1968) *Histoire des Songhay* (Paris : Présence africaine).
Hamaker, H.A. (éd.) (1820) *Specimen catalogi codicum Mss. orientalium bibliothecae Academiae lugduno-batavae* (Leyde, Luchtmans).
Hamani, D. (1975) *Contribution à l'étude de l'histoire des états hausa : l'Adar précolonial (République du Niger)* (Niamey : Institut de recherches en sciences humaines).
Hamann, G. (1968) *Der Eintritt der südlichen Hemisphäre in die europaïsche Geschichte. Die Erschliessung des Afrikaweges nach Asien vom Zeitalter Heinrichs des Seefahrers bis zu Vasco da Gama* (Vienne : Böhlau ; Veröfflentlichungen der Kommission für Geschichte der Mathematik und der Naturwissenschaften, 6).
Hamidullah, M. (1958) « L'Afrique découvre l'Amérique avant Christophe Colomb », *PA*, 18-19, pp. 173-83.
Harinck, G. (1969) « Interaction between Khasa and Khoi : emphasis on the period 1620-1750 », dans L. Thompson (éd.), *African societies in Southern Africa* (Londres : Heinemann ; New York : Praeger), pp. 140-70.
Harris, M.F. (1974) Étude présentée au colloque de Bonduku.
Hartwig, G.W. (s.d.) « The Bakerebe », *CHM*, 14, 2, pp. 353-76.
Hasan, Ali Ibrahim (1944) *Dirāsāt fi ta'rikh al-Mamālīk al-Bahrīya* (Le Caire).
Hasan, Y.F. (1967) *The Arabs and the Sudan : from the seventh to the early sixteenth century* (Edinburgh : Edinburgh University Press).
Hasan, Y.F. (éd.) (1971) *Sudan in Africa : studies presented to the first international conference sponsored by the Sudan Research Unit, February 1968* (Khartoum : Khartoum University Press).
Hazard, H.W. (1952) *The numismatic history of late mediaeval North Africa* (New York : American Numismatic Society).
Hébert, J.C. (1958) « La parenté à plaisanterie à Madagascar », *BM*, 142, pp. 175-216 ; 143, pp. 268-336.
Heers, J. (1957) « Le royaume de Grenade et la politique marchande de Gênes en Occident : xv^e siècle », *MA*, 1-2, pp. 87-121.
Heers, J. (1958) « Le Sahara et le commerce méditerranéen à la fin du Moyen Age », *AIEOA*, 16, pp. 247-55.
Heers, J. (1966) « Le Rôle des capitaux internationaux dans les voyages de découvertes aux xv^e et xvi^e siècles » dans *Les aspects internationaux de la découverte océanique au XV^e et XVI^e siècles : Actes du cinquième colloque international d'histoire maritime, 1960* (Paris : SEVPEN), pp. 273-94.
Heers, J. (1971) *Gênes au xv^e siècle : civilisation méditerranéenne, grand capitalisme et capitalisme populaire* (Paris : Flammarion).
Heine, B. (1973) « Zur genetischen Gliederung der Bantu-Sprachen », *AU*, 56, 3, pp. 164-85.
Heine, B., Hoff, H. et Vossen, R. (1977) « Neuere Ergebnisse zur Territorial-Geschichte der Bantu », dans W.J.G. Möhlig (éd.), *Zur Sprachgeschichte und Ethnohistorie in Afrika* (Berlin : Reimer), pp. 57-72.
Heintze, B. (1970) « Beitrage zur Geschichte und Kultur der Kisama, Angola », *Paideuma*, 16, pp. 159-86.
Heintze, B. (1977) « Unbekanntes Angola : der Staat Ndongo im 16 Jahrhundert », *Anthropos*, 72, pp. 749-805.

Heizelin, J. de (1957) « Pleistocene sediments and events in Sudanese Nubia », in W. W. Bishop and J. D. Clark (éd.), *Background to African evolution* (Chicago : Chicago University Press), pp. 313-28.
Henige, D.P. (1974) « Reflections on early interlacustrine chronology : an essay in source criticism », *JAH,* 15, 1, pp. 27-46.
Hennig, R. (1953-6) *Terrae incognitae : eine Zusammenstellung und kritische Bewertung der wichtigsten vorkolumbischen Entdeckungreisen an Hand der darüber originalberichte Vorliegenden,* 4 vols. (Leyde : Brill).
Hertefelt, M. d' (1962) *Les Anciens Royaumes de la zone interlacustre méridionale : Rwanda, Burundi, Buka* (Londres : IAI ; Tervuren : Musée royal de l'Afrique centrale ; Monographies ethnographiques, 6).
Hertefelt, M. d' (1971) *Les Clans du Rwanda ancien* (Tervuren : Annales du Musée royal de l'Afrique centrale, série in octavo, sciences humaines, 70).
Heurtebize, G. et Vérin, P. (1974) « Première découverte sur l'ancienne culture de l'intérieur de l'Androy (Madagascar) : archéologie de la vallée du Lambòmaty sur la haute Manambovo », *JSA,* 44, 2, pp. 113-21.
Heusch, L. de (1966) *Le Rwanda et la civilisation interlacustre* (Bruxelles : Université libre).
Heusch, L. de (1972) *Le Roi ivre, ou l'origine de l'état : mythes et rites bantous* (Paris : Gallimard).
Heyd, W. von (1959) *Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, 1885-1886* (Leipzig : Harrassowitz) 2 vols (Amsterdam : Hakker).
Hiernaux, J. (1968) « Bantu expansion : the evidence from physical anthropology confronted with linguistic archaeological evidence »,*JAH,*4, 4, pp. 505-16.
Hiernaux, J. (1974) *The people of Africa* (Londres : Weidenfeld et Nicolson).
Hiernaux, J. et Maquet, E. (1968) *L'Age du fer à Kibiro (Uganda)* (Tervuren : Musée royal de l'Afrique centrale ; Annales : série in octavo : sciences humaines, 63).
Hinkel, F.W. (1977) *The archaeological map of the Sudan : a guide to its use and explanation of its principles* (Berlin : Akademie Verlag).
Hinnebusch, T.J. (1973) *Prefixes, sound change and subgrouping in the coastal Kenya Bantu languages* (Los Angeles : University of California Press).
Hirschberg, W. (1931) *Die arabisch-persisch-indische Kultur an der Ostküste Afrikas ; ihre Beziehungen nach dem Inneren des Kontinents* (Vienne : Mitteilungen der anthropologischen Gesellschaft, 6).
Hirth, F. (1910), « Early Chinese notices of East African territories », *JAOS,* 30, pp. 46-57.
Hiskett, M. (1962) « An Islamic tradition of reform in western Sudan from the sixteenth to the eighteenth century », *BSOAS,* 25, pp. 577-96.
Hiskett, M. (1964, 1965) « The song of Bagauda : a Hausa kinglist and homily in verse », *BSOAS,* 27, 3, pp. 540-67 ; 28, 1, pp. 112-35 ; 28, 2, pp. 363-85.
Historia do Reino do Conga (*c.* 1624) MS 8080 da Biblioteca nacional de Lisboa ; éd. 1969 A. Brasio (Lisbonne : Centro de estudos historicos ultramarinos) ; éd. 1972 et trad. franç., F. Bontinck et J. Castro Legovia, *Histoire du royaume du Congo* (Louvain, Nauwelaerts ; Études d'histoire africaine, 4).
Historical relations across the Indian Ocean : voir Unesco (1980a).
Historiography of southern Africa : voir Unesco (1980b).
Hodgkin, T.L. (1970, 1975) *Nigerian perspectives : an historical anthology* (Londres : OUP).
Hofmann, I. (1968) « Die historische Bedeutung der Niltalkulturen zwischen Aswan und Sennar », *Saeculum,* 19, 27, pp. 109-42.
Hogben, S. J. et Kirk-Greene, A.H.M. (1966) *The emirates of Northern Nigeria : a preliminary survey of their historical traditions* (Londres : OUP).
Holt, P.M. (1960) « A Sudanese historical legend : the Funj conquest of Suba », *BSOAS,* 23, pp. 1-17.
Holt, P.M. (1963) « Funj origins : a critique and new evidence », *JAH,* 4, 1, pp. 39-55.
Holt, P.M. (1970) « The Nilotic Sudan », in *The Cambridge History of Islam* (Cambridge : CUP), Vol. 2, pp. 327-44.
Hopkins, J.F.P. (1958) *Medieval Muslim government in Barbary, until the sixth century of the Hijra* (Londres : Luzac).
Horton, R. (1971) « Stateless societies in the history of West Africa » in J.F.A. Ajayi et M. Crowder (éd.), *History of West Africa* (Londres : Longman), Vol. 1, pp. 78-119.
Hourani, G.F. (1951) *Arab seafaring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times* (Princeton : Princeton University Press ; Oriental Studies, 13).
Hourani, A.H. et Stern, S.M. (éd.) (1970) *The Islamic city : a colloquium* (Oxford : Cassirer ; Philadelphia : University of Pennsylvania Press).
Huffman, T.N. (1972) « The rise and fall of Zimbabwe », *JAH,* 13, 3, pp. 353-66.
Huffman T.N. (1974a) « Ancient mining and Zimbabwe », *JSAIMM,* 74, 6, pp. 238-42.

Huffman, T.N. (1974b) *The Leopard's Kopje tradition* (Salisbury : Memoir of the National Museums and Monuments of Rhodesia, 6).
Huffman, T.N. (1978) « The origins of Leopard's Kopje : an eleventh century *difawuane* », *Arnoldia*, 8, 23.
Hugot, H.J. et Bruggman, M. (1976) *Sahara : dix mille ans d'art et d'histoire* (Paris : Bibliothèque des arts).
Huici Miranda, A. (1949) « La leyenda y la historia en los origenes del imperio almohade », *al-Andalus*, 14, pp. 339-76.
Huici Miranda, A. (1954) « El reinado del califa almohade al-Rashid, hijo de el-Ma'mun' », in *Hespéris*, 41, pp. 9-45.
Huici Miranda, A. (1956a) *Las grandes batallas de la reconquista durante las invasiones africanas (Almoravids, Almohades y Benimerines)* (Madrid : CSIC).
Huici Miranda, A. (1956b, 1956-9) *Historia politica del imperio almohade*, 2 vols (Tetouan : Editora Marroquí).
Hui Lin, Li (1960-1) « Mu Lan p'i : a case for precolombian translantic travel by Arab ships », *HJAS*, 23, pp. 104-26.
al-Ḥulal al-Mawsh̲iyya fī dh̲ikr al-akh̲bār al-Marrākush̲iyya (1381) (?) attrib à Abū 'Abd Allāh Muḥammad b. Abi 'l-Ma'ālī Ibn Sammāk ; éd. 1936 I. S. Allouche (Rabat : Institut des hautes études marocaines ; Collection des textes arabes, 6).
Humblot, P. (1918, 1919) « Du nom propre et des appellations chez les Malinké des vallées du Niandan et du Milo (Guinée française) », *BCEHSAOF*, 3-4, pp. 519-40 ; 17-23, pp. 393-426.
Huntingford, G.W.B. (1963) « The peopling of the interior of East Africa by its modern inhabitants », dans R. Oliver et G. Mathew (éd.), *History of East Africa* (Nairobi : OUP), Vol. 1, pp. 58-93.
Hunwick, J.O. (1962) 'Ahmad Baba and the Moroccan invasion of the Sudan, (1591) », *JHSN*, 10, pp. 311-22.
Hunwick, J.O. (1964) « A new source for the biography of Ahmad Baba al-Tinbukti (1556-1627) », *BSOAS*, 27, 3, pp. 568-93.
Hunwick, J.O. (1966a) « Further light on Ahmad Baba al-Tinbukti », *RBCAD*, 1, 2, pp. 19-31.
Hunwick, J.O. (1966b) « Religion and state in the Songhay empire, 1464-1591 », dans *Islam in tropical Africa : studies presented at the fifth international African seminar, 1964* (Londres : IAI), pp. 296-317.
Hunwick, J.O. (1969) « Studies in the Ta'rīkh̲ al-Fettach : its author and textual history », *RBCAD*, 5, 1-2, pp. 57-65.
Hunwick, J.O. (1970) « Notes on a late fifteenth century document concerning al-Takrur', dans C. Allen et R. W. Johnson (éd.), *African perspectives : papers in the history, politics and economics of Africa presented to Thomas Hodgkin* (Londres : CUP), pp. 7-34.
Hunwick, J.O. (1971a) « A little known diplomatic episode in the history of Kebbi (*c.* 1594) », *JHSN*, 5, 4, pp. 575-81.
Hunwick, J.O. (1971b) « Songhay, Bornu and Hausaland in the sixteenth century », in J.F.A. Ajayi et M. Crowder (éd.), *History of West Africa* (Londres : Heinemann), Vol. 1, pp. 202-39.
Hunwick, J. (1973) « The dynastic chronologies of the central Sudan states in the sixteenth century : some reinterpretations », *KS*, 1, 1, pp. 35-55.
Hutton, J.H. (1946) « West Africa and Indonesia, a problem in distribution », *Man*, 10, p. 134.

Ibiraa (s.d.) 1970 trad. franç., Issaka Dankoussou, *Histoire du Dawra* (Niamey : Centre de recherche et de documentation pour la tradition orale, 2).
Ibn 'Abd al-Zāhir, Muḥyī'l-Dīn (xiie s.) *Tash̲rīf al-ayyām wa'l-uṣūr fī sīrat al-Malik al-Manṣūr*, éd. 1934, 1955, et trad. franç., E. Lévi-Provençal, dans *Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en Occident musulman au Moyen Age* (Le Caire) ; éd. 1961 M. Kamil (Le Caire).
Ibn 'Abdūn Muḥammad b. Aḥmad, al-Tud̲jībī (xiie s.) ; 1947, trad. franç., E. Lévi-Provençal, *Séville musulmane au début du XIIe siècle : le traité d'Ibn Abdun sur la vie urbaine et les corps de métiers* (Paris : Maisonneuve et Larose).
Ibn Abī Dīnār, al-Ḳayrawānī (1681 ou 1698) *Kitāb al-Mu'nis fī akh̲bār Ifrīkiya* wa Tūnis, éd. 1861-2 (Tunis : Imprimerie du gouvernement) ; 1845 trad. franç. Pellissier et Remusat, « Histoire de l'Afrique », dans *Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842* (Paris : Imprimerie royale), Vol. 7.
Ibn Abī Zar', Abu'l-'Abbās Aḥmad al-Fāsī (avant 1320) *Rawd al-Ḳirṭās (al-Anīs al-Nuṭrib bi-Rawd al-Ḳirṭās fī akh̲bār mulūk al-Magh̲rib wata'rikh̲ madinat Fās)* ; éd. 1843, 1846 et trad. latine, C.J. Tornberg, *Annales regum Mauritaniae* (Uppsala : Litteris academicis) ; éd. 1936, 2 vols (Rabat) ; 1860, trad. franç., A. Beaumier, *Histoire des souverains du Maghreb (Espagne et Maroc) et annales de la ville de Fès* (Paris : Imprimerie royale) ; 1975, trad. franç. partielle, J. Cuoq (q.v.), pp. 228-39.

Ibn al-Aḥmar Ismā īl b. Yūsuf (s.d.) *Rawḍat al-nisrīn* ; 1917 trad. G. Bouali et G. Marçais, *Histoire des Benī Merin, rois de Fās (Le Jardin des Églantines)* (Paris : Leroux ; Bulletin de correspondance africaine de l'École des lettres d'Alger, 55).
Ibn al-Athīr 'Izz al-Dīn (*c.* 1231) *Kitāb al-Kāmil fi 'l-ta'rikh* (« Histoire universelle ») ; éd. 1851-76 et trad. latine, C. J. Tornberg, *Chronicon, quod perfectissimus inscribitur,* 14 vols (Leyde : Brill) ; 1876-91, réimpression ; 1898, 1901, trad. franç. partielle, E. Fagnan, *Annales du Maghreb et de l'Espagne* (Alger : Jourdan) ; 1975, trad. franç. partielle dans J. Cuoq (q.v.), pp. 189-94.
Ibn Badjdja, Abū Bakr Muḥammad b. Yaḥya b. al-Ṣaīghal Tudjībī al-Andalusī al-Sarakusṭī, aussi connu sous le nom d'Avempace ou Ibn al-Ṣā'igh (XIIe s.) *Tadbīr al-Mutawaḥhid* ; 1859 trad. franç. S. Munk (Paris) ; 1946, trad. espagnole M. Acin Palacios, *El régimen del solitario* (Madrid : CSTC).
Ibn Bashkuwāl, Abu 'I-Kāsim Khala b. 'Abd al-Malik (1139) *Kuāb al-*Ṣila fi ta' *rikh a'immat al-Andalūs,* éd. 1955, 1966, 2 vols (Le Caire).
Ibn Bassām al-Shantarīnī, Abu 'l-Hasan 'Alī (XIIe s.) *al-Dhakhira fī maḥāsin ahl al-Djazīra ;* éd. 1975, 4 vols (Beyrouth).
Ibn Baṭṭūṭa (1357) *Tuhfat al-nuẓẓār fi gharā' ib al-amṣār wa 'adjā' ib al-asfar,* éd. 1853-9, 1922-49, et trad. franç. C. Defremy et J. B. R. Sanguinetti, *Voyages d'Ibn Batoutah,* 4 vols (Paris : Imprimerie impériale ; Collection d'ouvrages orientaux publiée par la Société asiatique) ; éd. 1960 (Beyrouth) ; 1958, 1962, 1971, trad. angl. H. A. R. Gibb, *The Travels of Ibn Baṭṭūṭa,* 3 vols en cours (Cambridge : Hakluyt Society) ; 1966, trad. franç. partielle, R. Mauny *et al, Textes et documents relatifs à l'histoire de l'Afrique : extraits tirés d'Ibn Baṭṭūṭa* (Dakar University : Publications de la section d'histoire de la faculté des lettres et sciences humaines, 9) ; 1975, trad. franç. partielle dans J. M. Cuoq (éd.), 1975 (q.v.), pp. 289-323.
Ibn Faḍl Allāh al-'Umarī : voir al-'Umarī.
Ibn al-Faraḍī Abu 'l-Walīd 'Abd Allzāh b. Muḥammad (avant 1013) *Ta'rīkh 'ulamā al-Andalūs ;* éd. 1954, 2 vols (Le Caire).
Ibn Fartua : voir Ibn Furṭūwa, Aḥmad.
Ibn al-Furāt, Nāṣir al-Dīn Muḥammad b. 'Abd al-Raḥīm (avant 1405) *Ta'rīkh al-duwal wa 'l-mulūk ;* éd. 1936-42. Q. Zuqayq (Beyrouth : Faculty of Arts and Sciences of the American University of Beirut, Oriental series, 9).
Ibn Furṭūwa, Aḥmad (XVIe s.) *Ta'rikh mai Idrī*s wa ghazawātihi Imām lil Imām Aḥmad Burnuwī, éd. 1932 H. R. Palmer (Kano : Amir's Press) ; 1926, trad. angl. H. R. Palmer, *History of the first twelve years of the reign of Mai Idris Alooma of Bornu (1571-1583), by his Imam* (together with the « Diwān of the sultans of Bornu ») (Lagos : Government Printer).
Ibn Furṭūwa, Aḥmad (XVIe s.) « Kanem wars of Mai Idris Alooma », 1928, trad. angl. H. R. Palmer dans *Sudanese Memoirs* (q.v.), Vol. 1 pp. 15-72.
Ibn Furtūwa, Aḥmad (XVIe s.) « Ghazawāt sultan Idrīs fī balad Bornū », éd. H. R. Palmer dans *Hadhāal-kitāb huwa min sha'n sultān Idrs Alawma* (Kano, 1932) ; trad. angl. J. W. Redhouse, *JRAS,* 19, pp. 43-124, 199-259.
Ibn Ghalbūn : voir Muḥammad b. Khalīl.
Ibn Ḥawkal, Abu 'l-Kāsim b. 'Alī al-Naṣībī (Xe s.) *Kitāb Ṣūrat al-arḍ* (ou, *Kitāb al-Masālik wa'l Mamālik*) ; éd. 1938 J. H. Kramers, 2 vols in 1 (Leyde : Brill ; Bibliotheca geographorum arabicorum, 2) ; 1964, trad. franç., J. H. Kramers et G. Wiet, *Configuration de la terre* (Beyrouth, Paris : Maisonneuve et Larose ; Collection Unesco d'œuvres représentatives, série arabe) ; 1975, trad. partielle franç. in J. Cuoq (q.v.), pp. 70-6.
Ibn 'Idhārī al-Marrākushī, Aḥmad b. Muḥammad (XIVe s.) *Kitāb al-Bayān al-mughrib fī akhbar al-Andalūs wa 'l-Maghrib* ; 1848, 1851, 1re, 2e partie éd. R.P.A. Dozy, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, intitulée al-Bayano 'l-Moghrib,* 2 vols (Leyde : Brill) ; (s.d.) (1929 ?) 3e part. éd. E. Lévi-Provençal, (Beyrouth, Dar Assakafa), 1930 réimp. (Paris : Geuthner ; Textes arabes relatifs à l'histoire de l'Occident musulman) ; 1948, 1951, nouvelle éd. texte de Dozy avec nouveau MSS, G. S. Colin et E. Lévi-Provençal, 2 vols (Leyde : Brill) ; 1961, part. suppl., éd. A. Huici Miranda, *Hesperis,* pp. 46-59 ; 1972 selections éd. Iḥsān Abbās (Rabat) ; éd. 1949 M. S. Iryan (Le Caire) ; 1901, 1904, trad. franç. du texte de Dozy, E. Fagnan *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne,* 2 vols (Alger) Imprimerie orientale Fontana), 1975, trad. franç. partielle in J. Cuoq (q.v.), pp. 219-24.
Ibn al-Ḳāsim (VIIIe s.) *al-Mudawwaña* A. H. éd. 1323, 15 vols (Le Caire) ; A. H. 1325 éd. 4 vols (Le Caire).
Ibn al-Ḳaṭṭān, 'Alī b. Muḥammad (s.d.) *Djuz' min Kitāb Naẓm al-Djuman,* 1925, éd. partielle E. Lévi-Provençal, in « Six fragments inédits... », q.v. ; non daté (1964 ?), éd. M. A. Makkī (Tetoua).
Ibn Khaldūn, Walī al-Dīn 'Abd al-Rahmān b. Muḥammad (XIVe s.) *al-Muḳaddima,* 1858, éd. E. Quatremère, 3 vols (Paris : Duprat) ; 1863-8, trad. franç. W. M. de Slane, *Les Prolégo-*

mènes d'Ibn Khaldoun, 3 vols (Paris : Imprimerie nationale) ; 1943-8, réimpr. (Paris : Geuthner) ; 1958, trad. angl. F. Rosenthal, 3 vols (New York : Pantheon ; Bollinger Series, 43) ; 1967-8, trad. franç. V. Monteil, *Discours sur l'histoire universelle,* 3 vols (Beyrouth, Commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvre) ; 1975, trad. franç. partielle dans J. Cuoq (q.v.), pp. 328-63.

Ibn Khaldūn... (XIVe s.) *Kitāb al-'Ibār wa-diwan al-mubtada wa 'l-Khabar* (« Universal History ») ; éd. 1868, 7 vols (Būlāk) ; 1852-6 trad. franç. partielle W. M. de Slane, *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale,* 4 vols (Alger), Imprimerie du gouvernement) ; 1925-6, réimpr. (Paris : Geuthner) ; 1956-9, trad. franç. complète, 7 vols (Beyroutyh, Commission internationale pour la traduction des chefs-d'œuvre) ; 1975, trad. franç. partielle, in J. Cuoq (q.v.), pp. 328-63.

Ibn al-Khatīb (1361-71) *Ihāta fī ta'rikh Gharnāta* (« History of Granada ») ; 1901-2 ; éd. partielle (Le Caire) ; 1975, trad. franç. partielle in J. Cuoq (q.v.), pp. 324-6.

Ibn Khayr al-Ishbīlī (XIIe s.) *Fahrasat mā rawāhu 'an shuyūkhi-hi min al-dawāwīn al-muṣannafa fī durūb al-'ilm wa-anwā' al-ma'ārif ;* éd. 1963 (Le Caire).

Ibn Kunfudh, Abu 'l-'Abbās Ahmad b. Hasan (VIIIe/IXe s.) *al-Fārisiyyah fī mabābī al-dawla al Hafṣiyah* ; éd. 1968 M. Nayfar, 'A. Turkī (Tunis).

Ibn Madā, Ahmad b. 'Abd al Rahmān (XIIe s.) *Kuāb al-Radd' ala 'l-muhāt ;* éd. 1947 S. Daif (Le Caire).

Ibn Madjid al-Dīn Ahmad (1490) *Kitāb al-Fawā'id fī uṣūl al-bahr wa'l-Kawā'id ;* éd. 1971 et trad. angl. G. R. Tibbetts, *Arab navigation in the Indian Ocean before the coming of the Portuguese* (Londres RASGBI, publications of the Oriental translation fund., n.s. 42).

Ibn al-Mukhtār : voir Ka'ti, Mahmūd.

Ibn Rushd (Abu 'l-Walīd Muhammad b. Ahmad b. Muhammad b. Rushd, connu aussi sous le non d'Averroes) (avant 1169), *Kitāb al-Kulliyāt ;* 1939, trad. espagnole, *Libro de la generalidades* (Larache : Artes gráficas Bosca).

Ibn Rushd (1169-78) *Talkhis ;* éd. et trad. anglaises 1977, C. E. Butterworth, *Averroes' three short commentaries on Aristotle's « Topics », « Rhetoric » and « Poetics »* (Albany : State University of New Yok Press).

Ibn Rushd (*c.* 1174-8) *Faṣl al-nakal ;* éd. 1959 G. F. Hourani (Leyde : Brill) ; éd. 1972 (Le Caire) ; 1948, trad. franç. L. Gauthier (Alger).

Ibn Rushd (1179) *Kashf- al-manāhidj al-adilla ;* éd. 1859, trad. allemande du *Kashf* et du *Faṣl al-makal,* M. J. Müller, *Philosophie und Theologie von Averroēs,* 1921, trad. angl. M. Jamilur-Rehman, *Philosophy and Theology of Averroēs* (Baroda : Widgery).

Ibn Rushd (c. 1180) *Tahāfut al-Tahāfut ;* 1930, trad. franç. M. Bouyges (Beyrouth, Imprimerie catholique) ; 1954, 1969, trad. angl. S. van den Bergh, *The incoherence of the incoherence* (Londres : Luzac).

Ibn Rushd (avant 1180) *Tafsīr ;* 1953, éd. latine, *Commentarium magnum in Aristotelis « de Anima Libros »* (Cambridge, Mass. : Medieval Academy of America).

Ibn Ṣāhib al-Ṣalāt, Abū Marwān 'Abd al-Malik b. Muhammad al-Badjī (XIIe s.) *al-Mann bi 'l-imāma'ala 'l-musta-d'afīn bi-an dja'alakum Allāh al-a'imma wa-dja' alahum al-wārithin ;* éd. 1964, 'Abd al-Hādī al-Tāzī (Beyrouth).

Ibn Sa'īd, Abu 'l-Hasan 'Alī b. Mūsā, al-Maghribī (1243), *Kitāb al-Mughrib fī hula l-Maghrib ;* éd. 1953 Z. M. Hasan, R. Dauf et S. Kashif (Le Caire).

Ibn Sa'īd, al Maghribī (XIIIe s.) *Mukhtaṣar Djughrāfiyā,* parfois appelé *Kitāb baṣt al-arḍ' fī tūlihā wa 'l-ard ;* éd. 1970 I. al-'Arabī (Beyrouth) ; trad. franç. partielle, in J. M. Cuoq (q.v.), pp. 201-19.

Ibn Taghrībirdī : voir Abu 'l-Mahāsin b. Taghrībīrdī.

Ibn Ṭufayl, Abū Bakr Muhammad b. 'Abd al-Malik... (*c.* 1169), *Risālat Hayy b. Yakzān fī asrār al-hikma musjrikiyya* ; 1671, trad. latine, E. Pocock, *Philophus utodidactus* (Oxford : H. Half) ; 1905, trad. angl. S. Ockley, *The improvement of human reason* (Le Caire : El-Maaref Printing Office) ; 1910 (4e éd. ?) ; trad. angl. , P. Brönnle (Londres : Murray) ; 1972, trad. angl. L. G. Goodman, *Ibn Tufayl's Hayy ibn Yaqzan : a philosophical tale* (New York : Twayne).

Ibn Tūmart (XIIe s.) *Kitāb A'azz mā yutlab ;* éd. 1903, trad. franç. R. Luciani, avec une préface par I. Goldziher (q.v.), *Le Livre de Mohammed Ibn Toumert* (Alger : Fontana).

Idris, H. R. (1961) « Commerce maritime et hirad en Berbérie orientale d'après un recueil inédit de *fatwās* médiévales », *JESHO,* 4, 3, pp. 235-9.

Idris, H. R. (1962) *La Berbérie orientale sous les Zirides : Xe-XIIe siècles,* 2 vols (Paris : Maisonneuve ; Publication de l'Institut d'études orientales de la faculté des lettres et sciences de l'Université d'Alger, 12).

Idris, H. R. (1970-4) « Le mariage en Occident musulman : analyse de fatwās médiévales, extraites du Mi'yar d'al Wancharichi », *SI,* 32, pp. 157-67, et ROMM, 12, pp. 45-64 ; 17, pp. 71-105.

Idris, H.R. (1973a) « Contributions à l'étude de la vie économique musulmane médiévale. Glanes de données chiffrées », *ROMM,* 15-16 (Mélanges le Tourneau, 2) pp. 75-87.
Idris, H.R. (1973b) « Des prémices de la symbiose arabo-berbère », in *Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes, 1972,* (Alger : SNED), pp. 382-93.
Idris, H.R. (1974) « Les tributaires en occident musulman médiéval d'après le Mi'yar d'Al-Wansarisi », in *Memorial Anouar Abdel-Malek,* (Bruxelles), pp. 172-96.

al-Idrīsī, Abū 'Abd Allā (1154) *Kitāb Nuznal al-mushtāk fī khtirāk al-āfāk* (aussi connu comme le « Livre de Roger » d'après son patronyme royal, Roger'II de Sicile) ; éd. partielle et trad. franç. 1866, R. Dozy et M. J. de Gœje, *Description de l'Afrique et l'Espagne* (Leyde : Brill) ; 1970, éd. complète en cours, éd. E. Cerulli *et al., Opus geographicum, sive Liber ad corem delectationem qui terras peragrare studeant* (Rome : Instituto Italiano per il Medio e l'Estremo Oriente) ; 1836-40, trad. franç., P. A. Jaubert, *Géographie d'Edrisi,* 3 vols (Paris : Imprimerie royale) ; 1975, trad. partielle franç. in J. Cuoq (q.v.), pp. 126-65.
al-Ifrānī, Abū 'Abd Allāh Muḥammad, sal-Saghīr (avant 1745). *Nuzhat al-ḥādī bi-akhbār mulūk al-Ḳarn al-ḥādī ;* 1888, 1889, éd. et trad. franç. O. Houdas, *Histoire de la dynastie saadienne au Maroc (1151-1670),* 2 vols (Paris : Leroux, Publications de l'École des langues orientales vivantes, série 3, 2-3).
Iglauer, E. (1973) *Goldewinnung und Goldhandel im Raum von Simbabwe in der portugiesischen Zeit von 1497-1840* (Vienne, Institut fur Völkerkunde, Universität).
Ikime, O. (1980) (dir. publ.) *Groundwork of Nigerian history* (Ibadan : Heinemann).
Imamuddin, S.M. (1966) *Some aspects of the socio-economic and cultural history of Muslim Spain, 711-1492 AD* (Leyde : Brill).
'Inān, Muḥammad 'Abd Allāh (1964) *'Asr al-Murābītin,* 2 vols (Le Caire).
Innes, G. (dir. publ.) (1974) *Sunjata ; three Mandinka versions* (Londres : SOAS).
Inskeep, R.R. (1978) *The peopling of Southern Africa* (Cape Town : Philip ; Londres, Global book Resources) ; 1979 (New York : Barnes and Noble).
International Geographical Union, Commission on early maps (1964-) *Monumenta cartographica vetustioris aeci, AD 1200-1500,* dir. publ. R. Almagia et Maral Destombes (Amsterdam : Israel ; Imago Mundi, supplement 4).
al-Ishbīlī : Ibn Khayr al-Ish bīlī.
Ishumi, A.G.M. (1971) « The kingdom of Kiziba », CHM, 13, 4, pp. 714-35.
Itandala, B. (1978) « Ilembo, Nkanda and the girls : establishing a chronology of the Babinza », in J. B. Webster (dir. publ.), *Chronology, migration and drought in interlacustrine Africa* (Dalhousie : Dalhousie University Press), pp. 145-72.
Izard, M. (1965-) *Traditions historiques des villages du Yatenga* (Paris : CNRS ; Recherches voltaïques, I-).
Izart, M. (1970) *Introduction à l'histoire des royaumes mossi,* 2 vols (Paris : CNRS ; Recherches voltaïques, 12-13).
Izard, M. (1971) « Les Yarsés et le commerce dans le Yatenga précolonial », in C. Meillassoux (dir. publ.), *The development of indigenous trade and markets in West Africa (L'Évolution du commerce africain depuis le XIX^e^ siècle en Afrique de l'ouest), Studies presented at the 10th International African Seminar, 1969* (Londres : IAI), pp. 214-19.
Izard, M. (1973a) « La lance et les guenilles », *L'Homme,* 13, 1-2, pp. 139-49.
Izard, M. (1973b) « Remarques sur le vocabulaire politique mossi », *L'Homme,* 13, 1-2, pp. 193-230.

Jackson, K.A. (1972) « An ethnohistorical study of the oral tradition of the Akamba of Kenya » (thèse de doctorat, University of California).
Jadin, L. (1966) « L'Afrique et Rome depuis les découvertes jusqu'au XVIII^e^ siècles », in *Acts of the 12th international Congress of Historical Sciences* (Vienne : Berger Verlag ; Louvain : Nauwaelerts), pp. 33-70.
Jarniat, L. (1968) *Contribution à l'étude de l'hippopotame nain, subfossile de Madagascar (craniologie)* (Tananarive).
Jeffreys, M.D.W. (1953a) « The Arabs discover America before Columbus », *Muslim Digest,* 4, 2, pp. 18-26.
Jeffreys, M.D.W. (1953b) « Precolombian maize in Africa », *Nature,* 172, 4386, pp. 965-6.
Jeffreys, M.D.W. (1953c) « Precolombian negroes in America », *Scientia,* 88, 7-8, pp. 202-12.
Jeffreys, M.D.W. (1957) « Origins of the Portuguese word Zaburro as their name for maize », *BIFAN,* B, 19, 2, pp. 111-36.
Jeffreys, M.D.W. (1963a) « How ancient is West African maize ? », *Africa*-(L), 33, pp. 116-18.
Jeffreys, M.D.W. (1963b) « Milho Zaburro-Milho de Guinée = Maize », *Garcia da Orta,* 11, 2, pp. 213-26.
Jeffreys, M.D.W. (1964) « Congo Maza = Portuguese Maise ? », *Ethnos,* 29, 3-4, pp. 191-207.

Jeffreys, M.D.W. (1969) « Precolombian maize north of the old world equator », *CEA*, 9, 35, pp. 146-9.
Jeffreys, M.D.W. (1971) « Maize and the Mande myth », *CA*, 12, 3, pp. 291-320.
Jobson, R. (XVII^e s.) *The Golden Trade* ; éd. 1932 (Londres).
Johnson, M. (1970) « The cowrie currencies in West Africa », *JAH*, 2, 1, pp. 17-49 ; 3, pp. 331-53.
Johnson, S. (1921) *The history of the Yoruba from the earliest times to the beginning of the British protectorate* (Londres, Routledge ; Lagos : CMS Bookshop).
Julien, C.A. (1961) *Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie, Algérie, Maroc.* (Paris : Payot) 2^e éd.

K. W. (1935-7) « Abakama ba Bunyoro-Kitara », *UJ*, 3,2, pp. 155-60 ; 4, 1, pp. 75-83 ; 5, 1, pp. 53-68.
Kabuga, C. E. S. (1963) « The genealogy of Kabaka Kintu and the early Bakabaka of Buganda », *UJ*, 27, 2, pp. 205-16.
Kagame, A (1951) *La poésie dynastique au Rwanda* (Bruxelles : IRCB ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politique, 22, 1).
Kagame, A. (1952a) *Le code des institutions politiques du Rwanda précolonial* (Bruxelles : IRCB ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, mémoires in octavo, 26, 1).
Kagame, A. (1952b) *La Divine Pastorale* (Bruxelles : Éditions du Marais).
Kagame, A. (1954) *Les organisations sociofamiliales de l'ancien Rwanda* (Bruxelles, IRCB ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, 38, 3).
Kagame, A. (1955) « La structure de quinze clans du Rwanda », *AL*, 18, pp. 103-17.
Kagame, A. (1959) *La notion de génération appliquée à la généalogie dynastique et à l'histoire du Rwanda des X^e-XI^e siècles à nos jours* (Bruxelles, IRCB ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, n. s. 9, 5).
Kagame, A. (1961) *L'histoire des armées bovines dans l'ancien Rwanda* (Bruxelles, IRCB ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, n. s. 28, 4).
Kagame, A. (1963) *Les milices du Rwanda précolonial* (Bruxelles, IRCB ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, n. s. 28, 3).
Kaggwa, A. (1905) *Ekitabo ky 'ekika kya nsenene (The history of the grasshopper clan)* (Mengo, Ouganda : A. K. Press).
Kaggwa, A. (1971) *The kings of Buganda*, trad. M. S.M. Kiwanuka (Nairobi : EAPH).
Kake, I. B. (dir. publ.) (1977) *Histoire générale de l'Afrique*, 12 vols (vol. 2 : *L'Ère des grands empires*) (Paris : ABC).
Kake, I. B. (1980) *Les armées traditionnelles de l'Afrique* (Paris/Libreville : Lion).
Kake, I. B. (1981) « Les Porgugais et le Gabu : XV^e, XIX^e siècles », in « Colloque international sur les traditions orales du Gabu » (communication non publiée).
Kalck, P. (1959) *Réalités oubanguiennes* (Paris : Berger-Levrault).
Kalck, P. (1974) *Histoire de la République centrafricaine ; des origines préhistoriques à nos jours* (Paris : Berger-Levrault).
al-Ḳalkaṣhandī, Aḥmad (avant 1418) *Ṣubḥ al-a'ṣhā fī ṣina' at al-inṣhā* ; 1913-19, ed. Dār al-Kutūb, 14 vols (Le Caire) ; 1975, éd. franç. partielle, in J. M. Cuoq (q. v.), pp. 369-80.
Kano Chronicle : voir Palmer, H. R. (1909).
Kanyamunyu, P. K. (1951) « The tradition of the coming of the Abalisa clan in Buhwezu, Ankole », *UJ*, 15, 2, pp. 191-2.
Karpinski, R. (1968) « Considérations sur les échanges de caractère local et extérieur de la Sénégambie dans la deuxième moitié du XV^e siècle et du début du XVI^e siècle », *AB*, 8, pp. 65-86.
Karugire, S. R. (1971) *A history of the kingdom of Nkore in Western Uganda to 1896* (Oxford : Clarendon Press).
Kasanga, F. (1956) *Tantaran 'ny Antemoro-Anakara teto Imerina tamin 'ny Andron 'Andrianampoinimerina sy Ilaidama* (Tananarive/Antananarivo).
Kasanga, F. (1963) *Fifindra-monina. Ny Antemoro-anakara voasoratra tamin'ny taona 1506.* (Tananarive : Iarivo).
Katate, A. G. et Kamugungunu L. (1953) *Abagabe b' Ankole (History of the kings of Ankole, Books 1-2)*, 2 vols (Kampala : Eagle Press) ; éd. 1967 (Nairobi : East Africa Literature Bureau).
Ka'ti, Maḥmūd b. al-Hadjdj al-Mutawakkil (avant 1593), terminé (1654-5) par son petit-fils, Ibn al-Mukhtār par N. Levtzion (1971c, q. v.), qui lui attribue l'ensemble de l'ouvrage, *Ta'rikh al-fattāsh ;* 1913-14 (révisé 1964) éd. et trad. franç. O. Houdas et M. Delafosse (Paris : Publications de l'École des langues orientales vivantes, 5^e série, 10) ; 1981 et Unesco, réimpression de l'éd. de 1913-14 et trad. (Paris : Maisonneuve ; Librairie d'Amérique et d'Orient).
Katoke, I. K. (1971) « Karagwe ; a pre-colonial state », *CHM*, 13, 5, pp. 515-41.

Katoke, I. K. (1975) *The Karagwe kingdom : a history of the Abanyambo of Northwestern Tanzania c. 1400—1915* (Nairobi : EAPH).
al-Kattān : voir Ibn al-Kattān.
Kawada, J. (1979) *Genèse et évolution du système politique des Mosi méridionaux : Haute-Volta* (Tokyo : Asia Africa gengo bunla kenkyūzyo).
Keech, S. et McIntosh, R. J. (1980) « Jenne-Jeno : ancient African city », *Times*, 1er septembre, p. 18.
Kent, R. K. (1969) « Alfred Grandidier et le mythe des fondateurs d'états malgaches d'origine asiatique », *BM*, 277-8, pp. 603-20.
Kent, R. K. (1970) *Early kingdoms in Madagascar : 1500-1700* (New York : Rinehart and Winston).
Kilhefner, D. W. (1967) « The Christian kingdoms of the Sudan : 500-1500 », *The Africanist*, 1, 1, pp. 1-13.
Kilwa Chronicle, in G. S. P. Freeman-Grenville (1962a), pp. 34-49.
Kimambo, I. N. (1969) *A political history of the Pare of Tanzania, c. 1500-1900* (Nairobi : EAPH).
Kirkman, J. S. (1954a) *The Arab city of Gedi : excavations at the great mosque, architecture and finds* (Londres, OUP).
Kirkman, J. S. (1954b) *Men and monuments on the East African coast* (Londres, Lutterworth).
Kirkman J. S. (1957) « Historical archaeology in Kenya : 1948-1956 », *AJ*, 37, pp. 16-18.
Kirkman, J. S. (1959) « The excavations at Ras Mkumbuu on the islands of Pemba », *TNR*, 53, pp. 161-78.
Kirkman, J. S. (1960) *The tomb of the dated inscription at Gedi* (Londres : Royal Anthropological Institute ; occasional papers, 14).
Kirkman, J. S. (1963) *Gedi : the palace* (La Haye, Mouton).
Kirkman, J. S. (1967) « Les Importations de céramiques sur la côte du Kenya », *Taloha*, 2, pp. 1-10.
Kiwanuka, M. S. M. S. (1971) *A history of Buganda : from the foundation of the kingdom of 1900* (Londres : Longman) ; éd. 1972 (New York : Barnes and Noble).
Ki-Zerbo, J. (1972) *Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain* (Paris : Hatier), 2e éd.
Klapwijk, M. (1974) « A preliminary report on pottery from north-eastern Transvaal, South Africa », *SAAB*, 29, pp. 19-23.
Kodjo, N. G. (1971) « Ishaq II et la fin de l'empire Songhai » (thèse de doctorat, Université de Paris).
Köhler, O. (1958) « Zur Territorial-Geschichte des Nizerbogens », *BA*, 61, 2, pp. 229-61.
Köhler, O. (1963) « Observations on the central Khoisan language group », *JAL*, 2, 3, pp. 227-34.
Köhler, O. (1975) « Geschichte und Probleme der Gliederung der Sprachen Afrikas », in H. Baumann (dir. publ.), *Die Völker Afrikas und ihre traditionellen Kulturen* (Wiesbaden : Steiner, Studien zur Kulturkunde, 34), pp. 305-37.
Kolmodin, J. (1912-14) « Traditions de Tsazzaga et Hazzega : textes tigrana », *Aeo*, 5, 5, pts 1-3.
Krieger, K. (1959) *Geschichte von Zamfara, Sokoto-Provinz Nord-Nigeria* (Berlin : Reimer).
Kuper, A. (1975) « The social structure of the Sotho speaking people of Southern Africa », *Africa-*(L) 45, 1, pp. 139-49.

Labarun Hausawa da Makwabtansu : voir East, R. M. (1933).
Labatut, F. et Raharinarivonirina, R. (1969) *Madagascar : étude historique* (Paris : Nathan).
Labib, S. Y. (1965) *Handelsgeschichte Agyptens im Spätmittelalter, 1171-1517* (Wiesbaden : Steiner).
Laburthe-Tolra, P. (1977) *Minlaaba : histoire et société traditionnelle chez les Béti du sud Cameroun*, 3 vols (Lille : Université de Lille II ; Paris : Champion).
Lacoste, Y. (1966) *Ibn Khaldoun : naissance de l'histoire, passé du tiers monde* (Paris : Maspéro).
Lambert (Captain) (1907) « Le Pays mossi et sa population : étude historique, économique et géographique suivie d'un essai d'ethnographie comparée » (Dakar : Archives du Sénégal, monographie non publiée).
Lampen, G. D. (1950) « History of Darfur », *SNR*, 31, pp. 177-209.
Landerouin, M. A. (1909) « Notice historique », in M. Tilho (dir. publ.), *Documents scientifiques de la mission Tilho* (Paris : Imprimerie nationale), vol. 2, pp. 341-417.
Lang, K. (1923-4) « Arabische Lehnwörter in der Kanuri Sprache », *Anthropos*, 18-19, pp. 1063-74.
Lange, D. (1977a) *Le dīwān des sultans du (Kanem)-Bornu : chronologie et histoire d'un royaume africain de la fin du Xe siècle jusqu'à 1808* (Wiesbaden : Steiner ; Studien zur Kulturkunde, 42).
Lange, D. (1977b) « Al-Qasaba et d'autres villes de la route centrale du Sahara », *Paideuma*, 23, pp. 19-40.
Lange D. (1978) « Progrès de l'Islam et changement politique du Kanem du XIe siècle au XIIIe siècle », *JAH*, 19, 4, pp. 495-513.
Lange, D. (1979a) « Les lieux de sépulture des rois sefuwa (Kanem-Bornu) : textes écrits et traditions orales », *Paideuma*, 25, pp. 145-57.
Lange D. (1979b) « Un text de Maqrizi sur " les races du Soudan " », *AI*, 15, pp. 187-209.

Lange, D. (1980) « La Région du lac Tchad d'après la géographie d'Ibn Said : texte et cartes », *AI*, 16, pp. 149-81.
Lange, D. (1982) « L'Éviction des Sefuwa du Kanem et l'origine des Butlala », *JAH*, 23, 3, pp. 315-32.
Lange, D. (à paraître), « The Chad region as a crossroads », in M. El Fasi (dir. publ.), *General History of Africa* (Londres, Heinemann ; Paris : Unesco ; Berkeley : University of California Press), vol. III, chap. xv.
Lange, D. et Berthoud, S. (1972) « L'intérieur de l'Afrique occidentale d'après G. L. Anania », *CHM*, 14, 2, pp. 299-351.
Langworthy, H. W. (1972) *Zambia before 1890 : aspects of pre-colonial history* (Londres, Longman).
Lanham, L. W. (1964) « The proliferation and extension of Bantu phonemic systems influenced by Bushman and Hottentot », in *Proceedings of the ninth International Congress of Linguists, 1962* (Paris/La Haye, Mouton), pp. 382-9.
Lanning, E. C. (1966) « Excavations at Mubende Hill », *UJ*, 30, 2, pp. 153-64.
Lapidus, I. M. (1967) *Muslim cities in the later Middle Ages* (Cambridge, Mass. : Harvard University Press).
Lapidus, I. M. (1972) « Ayyubid religious policy and the development of the law schools in Cairo », in *Colloque international sur l'histoire du Caire, 1969* (Le Caire, General Egyptian Book Organization), pp. 279-86.
Larochette, J. A. (1958) « Les Langues du groupe Moru-Mangbetu », *Ko*, 24, 3, pp. 118-35.
La Roncière, C. de (1919) « Une Histoire du Bornou au xvii[e] siècle », *RHCF*, 7, 3, pp. 78-88.
La Roncière, C. de (1924-7) *La Découverte de l'Afrique au Moyen Age, cartographes et explorateurs*, 3 vols (Le Caire, Mémoires de la Société royale de géographie d'Égypte, 5, 6, 13).
La Roncière, C. de (1967) « Portulans et planisphères conservés à la Bibliothèque nationale : la succession dans les écoles cartographiques », *RHES*, 45, 1, pp. 7-14.
La Roncière, M. de (1967) « Les Cartes marines de l'époque des grandes découvertes », *RHES*, 45, 1, pp. 15-22.
Laroui, A. (1970) *L'Histoire du Maghreb : un essai de synthèse*, 2 vols (Paris : Maspéro) ; 1977, trad. anglaise, R. Manheim, *The History of the Maghrib : an interpretative essay* (Princeton : Princeton University Press).
Latham, J. D. (1972) « Arabic into medieval Latin », *JSS*, 17, pp. 30-67.
Lavergne de Tressan, M. de (1953) *Inventaire linguistique de l'Afrique occidentale française et du Togo* (Dakar : Mémoire de l'IFAN, 30) ; 1972, réimpression (Amsterdam : Swets and Zeitlinger).
Lavers, J. (1971) « Islam in the Bornu caliphate : a survey », *Odu*, 5, pp. 27-53.
Law, R. C. C. (1973) « The heritage of Oduduwa : traditional history and political propaganda among the Yoruba », *JAH*, 14, 2, pp. 207-22.
Lebeuf, A. M. D. (1969) *Les Principautés kotoko : essai sur le caractère sacré de l'autorité* (Paris : CNRS).
Lebeuf, J.-P. et Mason-Detourbet, A. (1950) *La Civilisation du Tchad* (Paris : Payot).
Le Bourdiec, F. (1974) « La Riziculture à Madagascar : les hommes et les paysages » (thèse de doctorat, Université d'Aix-Marseille).
Legassick, M. (1969) « The Sotho-Tswana peoples before 1800 », in L. M. Thompson (dir. publ.), *African societies in Southern Africa* (Londres : Heinemann), pp. 86-125.
Le Moal, G. (1963) « Commentaire des cartes ethniques », in G. Brasseur (dir. publ.), *Cartes ethnodémographiques de l'Afrique occidentale française* (Dakar : IFAN), pp. 9-21.
Leo Africanus (1550) « Descrittione dell'Africa », in G. B. Ramusio, *Navigationi e viaggi* (Venise), vol. I ; 1956, trad. franç. A. Épaulard, *Description de l'Afrique* (Paris : Maisonneuve).
Lepionka, L. (1977) « Excavations at Tautswemogala », *BNR*, 9, pp. 1-16.
Le Rouvreur, A. (1962) *Sahéliens et Sahariens du Tchad* (Paris : Berger-Levrault).
Leroy, J. (1964) « La Peinture chrétienne d'Éthiopie antérieure à l'influence occidentale », in K. Wessel (dir. publ.), *Christendum am Nil* (Recklinghausen : A. Bongers), pp. 61-78.
Lesourd, M. (1960) « Notes sur les Nawakhid, navigateurs de la mer Rouge », *BIFAN*, B. 22, 1-2, pp. 346-55.
Le Tourneau, R. (1949) *Fès avant le protectorat : étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman* (Casablanca : SMLE).
Le Tourneau, R. (1961) *Fez in the age of the Marinides* (Oklahoma : Oklahoma University Press).
Le Tourneau, R. (1969) *The Almohad movement in North Africa in the twelfth and thirteenth centuries* (Princeton : Princeton University Press).
Le Tourneau, R. (1970) « Sur la disparition de la doctrine almohade », *SI*, 32, pp. 193-201.
Levaud, R. et Nelli, R. (dir. publ.) (1960) *Les Troubadours* (Paris : Desclée de Brouwer).
Lévi-Provençal, E. (1925) « Six fragments inédits d'une chronique anonyme du début des Almohades », in *Mélanges René Basset : études nord-africaines et orientales* (Paris : Geuthner ; Publications de l'Institut des hautes études marocaines, 10-11), vol. II, pp. 335-93.

Lévi-Provençal, E. (1928a) *Documents inédits d'histoire almohade* (Paris : Geuthner).
Lévi-Pronvençal, E. (1928b) « Ibn Tumart et Abd al-Mumin : le " Fakih du Sus " et le " flambeau des Almohades " », in *Mémorial Henri Basset : nouvelles études nord-africaines et orientales* (Paris : Geuthner; Publications de l'institut des hautes études marocaines, 17-18), vol. II, pp. 21-37.
Lévi-Provençal, E. (1930) « Notes d'histoire almohade », *Hespéris,* 10, pp. 49-90.
Lévi-Provençal, E. (1941a) *Majmu rasail muwahhidiyah : trente-sept lettres officielles almohades* (Rabat : Publications de l'Institut des hautes études marocaines, 10).
Lévi-Provençal, E. (1941b) « Un Recueil de lettres almohades : analyse et commentaire historique », *Hespéris,* 28, pp. 21-69.
Lévi-Provençal, E. (1948) *Islam d'Occident : études d'histoire médiévale* (Paris : Maisonneuve).
Levtzion, N. (1963) « The thirteenth- and fourteenth-century kings of Mali », *JAH,* 4, 3, pp. 341-53.
Levtzion, N. (1968) *Muslims and chiefs in West Africa : a study of Islam in the Middle Volta Basin in the pre-colonial period* (Oxford : Clarendon Press).
Levtzion, N. (1971a) « The early states of the western Sudan to 1500 », in J. F. A. Ajayi et M. Crowder (dir. publ.), *History of West Africa* (Londres, Longman), vol. I, pp. 120-257.
Levitzion, N. (1971b) « Maḥmūd Ka'ti fut-il l'auteur du Ta'rīkh al-Fattāsh ?; *BIFAN,* B, 33, 4, pp. 665-74.
Levtzion, N. (1971c) « A seventeenth century chronicle by Ibn al-Mukhtār : a critical study of Ta'rīkh al-Fattāsh', *BSOAS,* 34, 3, pp. 571-93.
Levtzion, N. (1973) *Ancient Ghana and Mali* (Londres, Methuen ; Studies in African history, 7).
Levtzion, N. (1977) « The western Maghrib and Sudan », in R. Oliver (dir. publ.), *Cambridge History of Africa* (Cambridge : CUP), vol. 3, pp. 331-414.
Lewicki, T. (1964) « Traits d'histoire du commerce transsaharien : marchands et missionnaires ibadites au Soudan occidental let central au cours des VIIIe-XXe siècles », *EP,* 8, pp. 291-311.
Lewicki, T. (1966) « A propos de la genèse de *Nuzhat al-Mūstāq fi-Htirāq al-āfāq* d'al-Idrîsî », *SM,* 1, pp. 41-55.
Lewicki, T. (1967) « Les Écrivains arabes du Moyen Age au sujet des pierres précieuses et des pierres fines en territoire africain et leur exploitation », *AB,* 7, pp. 49-68.
Lewicki, T. (1971) « The Ibadites in Arabia and Africa », *CHM,* 13, 1, pp. 51-81.
Lewicki, T. (1974) *Arabic external sources for the history of Africa to the south of Sahara* (Londres : Curzon Press), 2e éd.
Lewis, B. (1970) « The central Islamic lands », in P. M. Holt (dir publ.), *The Cambridge History of Islam* (Cambridge : CUP), vol. 2, pp. 175-230.
Lezine, A. (1971) *Deux villes d'Ifriqiya : Sousse, Tunis : études d'archéologie, d'urbanisme, de démographie* (Paris : Geuthner ; Bibliothèque d'études islamiques), 2.
Lhote, H. (1955, 1956) « Contribution à l'étude des Touareg soudanais », *BIFAN,* B, 17, 3-4, pp. 334-470 ; 18, 3-4, pp. 391-407.
Libro del conoscimiento de todos los reynos, tierras, senorios que son por el mundo (s. d.) ; éd. 1877 J. Jimenes de la Espada (Madrid : Fortanet) ; 1912, trad. angl., *Book of the knowledge of all the kingdoms, lands and lordships* (Londres, Hakluyt Society).
Linschoten, J. H. van (1885) *The voyage to the East Indies,* 2 vols (Londres, Hakluyt Society).
Livingstone, F. B. (1962) « Anthropological implications of sickle-cell gene distribution in West Africa », in A. Montagu (dir. publ.), *Culture and the evolution of man* (New York : OUP), pp. 271-99.
Lo Jung-Pang (1955) « The emergence of China as a sea power during the late Sung and early Yuan periods », *FEQ,* 14, 4, pp. 489-503.
Lo Jung-Pang (1957) « China as a sea power : 1127-1368 » (thèse de doctorat, University of California).
Lombard, M. (1972) *Espaces et réseaux au haut Moyen Age* (Paris : Mouton).
Lombard, J. (1973) « La Royauté sakalava : formation, développement et effondrement du XVIIe au XXe siècle : essai d'analyse d'un système politique » (non publié).
Lonis, R. (1978) « Les conditions de navigation sur la côte occidentale de l'Afrique dans l'antiquité : le problème du retour », in *Colloque : Afrique noire et monde méditerranéen dans l'antiquité* (Dakar : NEA).
Lopes, D. (1591) : voir Pigafetta, F. et Lopes, D.
Lopez, R. S. (1974) *La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale* (Paris : Aubier-Montaigne).
Lovejoy, P. E. (1973), « The Wangara impact on Kano », *KS.*
Lovejoy, P. E. (1978) « The role of the Wangara in the economic transformation of the central Sudan in the fifteenth and sixteenth centuries », *JAH,* 19, 2, pp. 173-93.
Lubogo, Y. K. (1960) *A history of the Basoga* (Nairobi : East Africa Literature Bureau).

Lucas, S. A. (1968) « Baluba et Aruund : étude comparative des structures sociopolitiques », 2 vols, thèse de doctorat, Université de Paris).
Lukas, J. (1939) « The linguistic research between Nile and Lake Chad », *Africa*-(L), 12, 1, pp. 335-49.
Lwamgira, F. X. (1949) *Amakuru ga Kiziba ;* 1969, trad. angl. E. R. Kamuhangire, *The history of Kiziba and its kings* (Kampala : Makerere University College).
Ly-Tall, M. (1972) « Quelques remarques sur le *Ta'rikh el-Fettach', BIFAN,* B, 34, 3, pp. 471-93.
Ly-Tall, M. (1977) *Contribution à l'histoire de l'empire du Mali (XIII*e*-XVI*e *siècles) : limites, principales provinces, institutions politiques* (Dakar : NEA).
Ly-Tall, M. (1981) « Quelques précisions sur les relations entre l'empire du Mali et du Gabu', in *Colloque international sur les traditions orales du Gabu, 1980* (*Éthiopiques,* numéro spécial, octobre 1981), pp. 124-8.

McCall, D. F. (1968) « Kisra, Chosroes, Christ », *AHS,* 1, 2, pp. 255-77.
MacGaffey, W. (1970) « The religious commissions of the Bakongo », *MAN,* 5, 1, pp. 27-38.
McIntosh, R. J. (1980) : voir Keech, S. et McIntosh, R. J.
McIntosh, R. J. et McIntosh, S. K. (1981) « The inland Niger delta before the empire of Mali : evidence from Jenne-Jeno », *JAH,* 22, 1, pp. 1-22.
MacMichael, H. A. (1920) « The Tungur-Fur of Dar Furnung », *SNR,* 3, 1, pp. 24-72.
MacMichael, H. A. (1922) *A history of the Arabs in the Sudan, and some account of the people who preceded them and of the tribes inhabiting Darfūr,* 2 vols (Londres : CUP).
MacMichael, H. A. (1967) *The tribes of northern and central Kordofan* (Londres, Cass).
al-Madani, A. T. (1972) *Harb al-thalathmi a sanat bayna al-Djaza'ir wa Isbaniyya 1492-1792* (Alger).
Magalhães Godinho, V. de : voir Godinho, V. de Magalhães.
Maggs, T. M. O'C. (1976a) *Iron Age communities of the southern Highveld* (Pietermaritzburg : Council of the Natal Museum ; Occasional publication, 2).
Maggs, T. M. O'C. (1976b) « Iron Age patterns and Sotho history of the southern Highveld : South Africa », *WA,* 7, 3, pp. 318-32.
al-Maghīlī, Muḥammad b. 'Abd al-Karīm (*c.* 1490), untitled treatise written for Askiya Muḥammad of Gao, 1932, trad. angl. T. H. Baldwin, *The obligations of princes : an essay of Moslem kingship* (Beyrouth : Imprimerie catholique) ; 1975, trad. franç. partielle in J. Cuoq (q. v.), pp. 398-432.
Mahefamanana, M. (1965) *Ali-Tawarath sy Madagasikara 1495-1548* (Tananarive : Impr. Iarivo).
Mahjoubi, A. (1966) « Nouveau témoignage épigraphique sur la communauté chrétienne de Kairouan au XIe siècle », *Africa* (Tunis), pp. 85-96.
Maḥmūd Ka'ti : voir Ka'ti Maḥmūd.
Mainga, M. (1973) *Bulozi under the Luyana kings : political evolution and state formation in pre-colonial Zambia* (Londres, Longman).
al-Maḳḳarī, Abu 'l-'Abbās Aḥmad Muḥammad (XVIIe s.) *Nafḥ al-Tīb minGhuṣn al-Andalūs al-Ratīb ;* éd. 1949, 10 vols(Le Caire) ; 1840, 1843, trad. angl. P. de Gayangos, *The history of the Mohammedan dynasties in Spain,* 2 vols (Londres, Oriental translation fund of Great Britain and Ireland) ; 1855, 1861, trad. franç. R. Dozy *et al., Annalectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne,* 2 vols (Leyde, Brill).
al-Maḳrīzī, Abu 'l-'Abbās Aḥmad b. 'Alī (avant 1442) MS (a) 'al-Khbar an adjnas al-Sudan' (MSS. arabe 1744, folio 194v-195r) (Paris : Bibliothèque Nationale).
al-Maḳrīzī, Abu 'l'Abbās Aḥmad b. 'Alī (avant 1442) MS (b) 'al-Khbar an adjnas al-Sudan' (MSS, Cod. Or 372a, folio 339v-340r) Leyde, Rijksuniversität Bibliothek) ; éd. 1820 et trad. latine H. A. Hamaker, *Specimen catalogi codicum Mss. orientalium bibliothecae Academiae lugduno-batavae* (Leyde, Luchtmans) 1979, trad. franç. D. Lange, « Un texte de Makrīzī sur les " races du Soudan " », *Annales islamologiques,* 15, pp. 187-209.
al-Maḳrīzī, Abu 'l-'Abbās Aḥmad b. 'Alī (avant 1442) *Macrizi historia regum islamiticorum in Abyssinia,* éd. 1790 et trad. latine F. T. Rinck (Leyde : Luchtmans).
al-Maḳrīzī, Abu 'l-'Abbās Aḥmad b. 'Alī (avant 1442) *al-Ilmām bi akhbar man bi-arḍ al-Ḥabasha min mulūk al-Islam,* éd. 1895 (Le Caire).
al-Maḳrīzī, Abu 'l-'Abbās Aḥmad b. 'Alī (avant 1442) *Kitāb al-Sulūk li-ma 'rifa duwal al-mulūk,* 1934, éd. 1956 (Le Caire).
al-Maḳrīzī, Abu 'l-'Abbās Aḥmad b. 'Alī (avant 1442) *al-Dhahab al-masbūk fī dhikr man hadjdja... ;* éd. 1955 (Le Caire) ; 1975, trad. franç. partielle, *Les Pèlerinages des sultans du Takrūr* in J.-M. Cuoq (q. v.), pp. 390-3.
Mâle, E. (1923) « Les Influences arabes dans l'art roman », *RDM,* sér. 13, 18, pp. 311-43.
Mālik b. Anas (VIIIe siècle) *Kitāb al-Muwaṭṭa' ;* 1962, 1967, éd. avec commentaires, *Muwaṭṭa' 'Imām Mālik* (Le Caire).

Malowist, M. (1966) « Le Commerce d'or et d'esclaves au Soudan occidental », *AB,* 4, pp. 49-72.
Malowist, M. (1969a) « Les Débuts du système de plantations dans la période des grandes découvertes dans l'île de St-Thomas », *AB,* 10, pp. 9-30.
Malowist, M. (1969b) *Europa a Afryka Zachodina w dobie wczesnej ekspansji kolonialnej* (Varsovie, Panstwowe Wydawnictwo Naukowe).
Malowist, M. (1970) « Quelques observations sur le commerce de l'or dans le monde occidental au Moyen Age », *AESC,* 25, pp. 1630-6.
Mané, M. (1978) « Contribution à l'histoire du Kaabu, des origines au XIX[e] siècle », *BIFAN,* B, 40, 1, pp. 87-159.
Mané, M. (1981) « Les origines et la formation du Kaabu », in *Colloque international sur les traditions orales du Gabu, 1980* (*Éthiopiques,* numéro spécial, octobre 1981), pp. 93-104.
Manessy, G. (1963) « Rapport sur les langues voltaïques », in *Actes du 2[e] Colloque international de linguistique négro-africaine, Dakar, 1962,* pp. 239-66.
Manoukian, M. (1951) *Tribes of Northern Territories of the Gold Coast* (Londres, IAI ; Ethnographic survey of Africa : Western Africa), p. 5.
Maquet, J. J. P. (1961) *The premise of inequality in Ruanda : a study of political relations in a Central African Kingdom* (Londres, OUP pour IAI).
Marc, L. F. (1909) *Le Pays mossi* (Paris : Larose).
Marçais, G. (1913) *Les Arabes en Berbérie du XI[e] au XIV[e] siècle* (Constantine/Paris : Leroux).
Marçais, G. (1950) *Tlemcen* (Paris : Renouard ; Les Villes d'art célèbres).
Marçais, G. (1954) *Architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc* (Paris : Arts et Métiers Graphiques).
Marees, P. de (1602), éd. hollandaise ; 1605, trad. franç., *Description et récit historique du riche royaume d'or de Guinée...* (Amsterdam : Claessen) ; 1605, trad. angl. abrégée, *Description and historical declaration of the golden kingdom of Guinea.*
Maret, P. de (1977) « Sanga : new excavations, mode data and some related problems », *JAH,* 18, 3, pp. 321-37.
Maret, P. de et Msuka, F. (1977) « History of Bantu metallurgy : some linguistic aspects », *Africana Linguistica,* 4, pp. 43-66.
Maret, P. de, van Noten, F. et Cahen, D. (1977) « Radiocarbon dates from West Central Africa : a synthesis », *JAH,* 18, 4, pp. 481-505.
Marks, S. (1969) « The traditions of the natal Nguni : a second look at the work of A. T. Bryant », in L. M. Thompson, *African societies in Southern Africa* (Londres : Heinemann), pp. 126-44.
Mármol Carvajal, L. del (1667) *L'Afrique de Marmol,* tr. N. Perrot, 3 vols (Paris : Billaine).
Marquart, J. (1913) *Die Benin-Sammlung des Reichsmuseums für Völkerkunde in Leiden* (Leyde : Brill ; Veröffentlichungen des Reichsmuseums für Völkerkunde in Leiden, Ser. 2, 7).
al-Marrākus̲h̲ī : voir Ibn 'Id̲h̲ārī al-Marrākus̲h̲ī.
Martin, B. G. (1969) « Kanem, Bornu and the Fezzan : notes on the political history of a trade route », *JAH,* 10, 1, pp. 15-27.
Martin, P. (1972) *The external trade of the Loango coast, 1576-1870 : the effects of changing commercial relations on the Vili kingdom of Loango* (Oxford : Clarendon Press).
Martini, R. (XIII[e] s.) *Pugio fidei adversus Mauros et Judaeos,* éd. 1687 (Leipzig, Frankfurt) ; 1872 (Paris : Sciaparelli) ; éd. 1968 (Farnborough : Gregg).
Martini, R. (XIII[e] s.) « Vocabulista in arabico », MSS (FLorence : Biblioteca Riccardiana).
Mashafa Senkesar (1928) *The book of the saints of the Ethiopian Church,* trad. angl. E. A. Wallis Budge, 4 vols (Londres : CUP).
Mas Latrie, L. de (1866) *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age* (Paris : Plon).
Mas Latrie, L. de (1886) *Relations et commerce de l'Afrique septentrionale au Maghreb avec les nations chrétiennes* (Paris : Firmin-Didot).
Mason, M. D. (1970-1) « The Nupe kingdom in the nineteenth century : a political history » (thèse de doctorat, Birmingham University).
Mason, R. (1962) *Prehistory of the Transvaal, a record of human activity* (Johannesburg : Witwatersrand University).
Mason, R. J. (1973) « Early Iron Age settlements of Southern Africa », *SAJS,* 69, pp. 324-6.
Massignon, L. (1906) *Le Maroc dans les premières années du XVI[e] siècle : tableau géographique d'après Léon l'Africain* (Alger : Jourdan).
al-Mas'ūdī Abu 'l-Ḥassan 'Alī b. al-Ḥusayn b. 'Alī (X[e] s.) *Murūd̲j̲ al-d̲j̲ahab,* éd. 1861-77 et trad. franç. C. Barbier de Meynard et J. Pavet de Courteille, *Les Prairies d'or,* 9 vols (Paris : Imprimerie impériale) ; 1962-71, trad. franç. C. Pellat, *Les Prairies d'or* (Paris : Société asiatique) ; trad. franç. partielle in J. Cuoq (q. v.), pp. 59-62.
Mathew, G. (1951) « Islamic merchant cities of East Africa », *Times,* 26 juin, p. 5.
Mathew, G. (1953) « Recent discoveries in East African archaeology », *Antiquity,* 27, 108, pp. 212-18.

Mathew, G. (1956) « Chinese porcelain in East Africa and on the coast of south Arabia », *OA*, n. s., 2, 2, pp. 50-5.
Mathew, G. (1958) « The East Coast cultures », *South Africa*, 2, pp. 59-62.
Matiyela (1979) « Port St John's Iron Age sites », *NAk*, 14, pp. 51 ff.
Matveiev, V. V. (1971) « Zaniatiia vostochnykh bantu (zindzhei v X-XIII vv : Les métiers des Zendjs est-africains pendant les x^{e}-xII^{e} siècles », in *Africana Etnografiia, istoriia, izzyki narodov Afriki*) (Leningrad ; Akademiia nauk SSSR. Trudy Institua etnografii im N. N. Miklukho-Maklaia, n. s., 96 ; Afrikanskii etnografischeskii sbornik, 8).
Matveiev, V. V. et Kubbel, L. E. (1965) *Arabsdkie istochniki X-XII vekov*. Podgotovka tekstov i perevody V. V. Matveieva i L. E. Kubbelia (Moscou : Nauka ; Drevnie i srednevekovye istochniki po etnografii i istorii narodov Afriki iuzhnee Sakhary, 2).
Mauny, R. (1948) « L'Afrique occidentale d'après les auteurs arabes anciens », *NA*, 6, 40, p. 6.
Mauny, R. (1949) « L'expédition marocaine d'Ouadane (Mauritanie), vers 1543-1544 », *BIFAN*, B, 11, pp. 129-40.
Mauny, R. (1950) « Les Prétendues Navigations dieppoises à la côte occidentale d'Afrique au xIV^{e} siècle », *BIFAN*, B, 12, pp. 122-34.
Mauny, R. (1957) « État actuel de nos connaissances sur la préhistoire et l'archéologie de la Haute-Volta », *NA*, 73, pp. 16-24.
Mauny, R. (1960) *Les Navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise, 1434* (Lisbonne : Centro de estudos históricos ultramarinos).
Mauny, R. (1961) *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie* (Dakar : IFAN ; Mémoires, 61).
Mauny, R. (1963) « Poteries engobées et peintes de tradition nilotique de la région de Koro Toro (Tchad) », *BIFAN*, B, 25, 1-2, pp. 39-46.
Mauny, R. (1965) « Navigations arabes anonymes aux Canaries au xII^{e} siècle », *NA*, 106, p. 61.
Mauny, R. (1971) « Hypothèses concernant les relations précolombiennes entre l'Afrique et l'Amérique », *AEA*, 17, pp. 369-84.
Mayers, W. F. (1874-6) « Chinese explorations of the Indian Ocean during the fifteenth century », *China Review*, pp. 219-331 ; 4, pp. 61-7, 173-90.
M'Baye, E. H. R. (1972) « Un Aperçu de l'Islam ou : réponses d'al-Magili aux questions posées par Askia El-Hadj Muhammad, empereur de Gão', *BIFAN*, B, 34, 1-2, pp. 237-67.
Médeiros, F. de (1973) « Recherches sur l'image des Noirs dans l'occident médiéval, xIII^{e}-xv^{e} siècles » (thèse de doctorat, Université de Paris).
Méditerranée et Océan Indien (1970) *Travaux du sixième colloque international d'histoire maritime*, Venise, 1962 (Paris : SEVPEN).
Meek, C. K. (1925) *The northern tribes of Nigeria : an ethnological account of the northern provinces of Nigeria together with a report on the 1921 decennial census*, 2 vols (Londres, OUP).
Meek, C. K. (1931a) *A Sudanese kingdom : an ethnographical study of the Jukun-speaking peoples of Nigeria* (Londres, Kegan Paul, Trench, Trubner).
Meek, C. K. (1931b) *Tribal studies in northern Nigeria*, 2 vols (Londres, Kegan Paul, Trench, Trubner).
Meillassoux, C. (dir. publ.) (1971) *The development of indigenous trade and markets in West Africa : studies presented at the 10th International African Seminar, 1969* (Londres, IAI).
Meillassoux, C. (dir. publ..) (1975) *Esclavage en Afrique précoloniale* (Paris : Maspéro).
Meillassoux, C., Doucouré, L. et Simagha, D. (dir. publ.) (1967) *Légendes de la dispersion des Kusa (épopée soninké)* (Dakar : IFAN ; Initiations et études africaines, 22).
Menéndez Pidal, R. (1941) *Poesia árabe y poesia europea* (Buenos Aires : Espasa-Calpe Argentina).
Merad, A. (1957) « Abd al-Mu'min à la conquête de l'Afrique du Nord, 1130-1163 », *AIEOA*, 15, pp. 109-63.
Merad, A. (1960-1) « Origine et voies du réformisme en Islam », *AIEOA*, 17-19, pp. 359-402.
Merad, A. (1962) *AIEOA*, 20, 2, pp. 419 ff.
Meyerhof, M. (1935) « Esquisse d'histoire de la pharmacologie et botanique chez les musulmans d'Espagne », *al-Andalus*, 3, pp. 1-41.
Michalowski, K. (1965) « La Nubie chrétienne », *AB*, 3, pp. 9-26.
Michalowski, K. (1967) *Faras, die Kathedrale aus dem Wüstensand* (Zürich : Benzinger).
Mieli, A. (1966) *La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale* (Leyde : Brill).
Miers, S., et Kopytoff, I. (dir. publ.) (1977) *Slavery in Africa : historical and anthropological perspectives* (Madison : University of Wisconsin Press).
Mille, A. (1970) *Contribution à l'étude des villages fortifiés de l'Imérina ancien*, 2 vols (Tananarive : Musée d'art et d'archéologie ; Travaux et documents, 2-3).
Mille, A. (1971) « Anciens horizons d'Ankatso », *Taloha*, 4, pp. 117-26.
Miller, J. C. (1972a) « The Imbangala and the chronology of early central African history », *JAH*, 13-4, pp. 549-74.

Miller, J. C. (1972b) « Kings and kinsmen : the Imbangala impact on the Mbundu of Angola » (thèse de doctorat, University of Wisconsin).
Miller, J. C. (1972c) « A note on Kasanze and the Portuguese », *CJAS*, 6, 1, pp. 43-6.
Miller, J. C. (1973) « Requiem for the Jaga », *CEA*, 49, pp. 121-49.
Miller, J. C. (1976) *Kings and Kinsmen : early Mbundu states in Angola* (Oxford : Clarendon Press).
Miller, K. (1926-31) *Mappae Arabicae ; arabische Welt-und Länderkarten des 9-13. Jahrhunderts in arabischer Ursschrift*, 6 vols (Stuttgart).
Millot, C. (1912) « Les Ruines de Mahilaka », *BAM*, 10, pp. 283-8.
Miquel, A. (1967-75) *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e siècle* (Paris : Mouton ; Civilisations et Sociétés, 7, 37).
Miracle, M. P. (1963) « Interpretation of evidence on the introduction of maize into West Africa », *Africa*, 33, pp. 132-5.
Miracle, M. P. (1965) « The introduction and spread of maize in Africa », *JAH*, 6, 1, pp. 39-55.
Mischlich, A. (1903) « Beitrage zur Geschichte der Haussastaaten », *MSOS :* Afrikanische Studien, 6, pp. 137-242.
Misiugin, V. M. (1966) « Suakhiliiskaia khronika srednevekovnogo gosudarstva Pate : La Chronique swahili de l'état médiéval du Paté », in *Africana. Kultura i iazyki narodov Afriki* (Moscou : Akademiia nauk SSR. Trudy Instituta etnograffii im. N. N. Miklukho-Maklaia, n. s., 90, Afrikanskii etnograficheskii sbornik, 6), pp. 52-83.
Misiugin, V. M. (1971) « Zamechaniia k starosuakhiliiskoi pis'mennosti : Notes sur l'écriture ancienne Souahéli », in : *Africana. Etnografiia, istoriia, iazyki narodov Afriki* (Leningrad : Akademiia nauk SSSR. Trudy Instituta etnograffii im. N. N. Miklukho-Maklaia, n. s. 96 ; Afrikanskii etnografischeskii sbornik, 8), pp. 100-15.
Misiugin, V. M. (1972) « K voprosu o proiskhozhdenii moreplavaniia : sudostroeniia v indiiskom okeane : Contribution à la question de l'origine de la navigation et de la construction navale dans l'Océan Indien », in *Soobshchenie ob issledovanii protoindiiskikh tekstov* (Moscou, Akademiia nauk SSSR. Trudy Instituta etnografii im. N. N. Miklukho-Maklaia).
Mollat, M. (1972) « Le Passage » de Saint Louis à Tunis : sa place dans l'histoire des croisades », *RHES*, 50, 3, pp. 289-303.
Mollat, M. (1980) « Historical contacts of Africa and Madagascar with south and south-east Asia : the role of the Indian ocean » in Unesco (1980a), q. v., pp. 45-60.
Monchicourt, C. (1939) *Études kairouanaises : Kairouan et les Chabbia*, 1450-1592 (Tunis).
Mones, H. (1962) « Le Malékisme et l'échec des Fatimides en Ifrikya », in : *Études d'orientalisme dédiées à la mémoire d'E. Lévi-Provençal*, 2 vols (Paris : Maisonneuve et Larose).
Monlaü, J. (1964) *Les États barbaresques* (Paris : PUF ; Que sais-je ? 1097).
Monneret de Villard, U. (1938) *Storia della Nubia cristiana* (Rome : Pontificium Institutum Orientalium Studiorum Orientalia christiana analecta, 118).
Monneret de Villard, U. (1944) *Lo studio dell'Islam in Europa nel 12 e nel 13 secolo* (Vatican, Biblioteca Vaticana ; Studi e testi, 110).
Montagne, R. (1930) *Les Berbères et le makhzen dans le Sud du Maroc : essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuh)* (Paris : Alcan).
Monteil, C. (1929) « Les Empires du Mali : étude d'histoire et de sociologie soudanaise », *BCEH-SAOF*, 12, 3-4, pp. 291-444 ; éd. 1968, *Les Empires du Mali* (Paris : Maisonneuve et Larose).
Monteil, C. (1951) « Problèmes du Soudan occidental : Juifs et Judaisés », *Hespéris*, 38, pp. 265-98.
Monteil, V. (1964) *L'Islam noir* (Paris : Seuil).
Monteil, V. (1966) *Esquisses sénégalaises : Wâlo, Kayor, Dyolof, Mourides, un visionnaire* (Dakar : IFAN ; Initiations et études africaines, 21).
Monteil, V. (1968) « Al-Bakri (Cordoue, 1068). Routier de l'Afrique blanche et noire du Nord-Ouest », *BIFAN*, B, 1, pp. 39-116.
Monteiro, A. (1970) « Vestiges archéologiques du cap Delgado et de Quisiva : (Mozambique) », *Taloha*, pp. 155-64.
Moorsel, H. van (1968) *Atlas de préhistoire de la plaine de Kinshasa* (Kinshasa : Université de Lovanium).
Morris, H. F. (1962) *A history of Ankole* (Nairobi : East African Literature Bureau).
Mufaḍḍal b. Abī 'l-Faḍā'il (Mufazzal) (XIV^e s.) 1973-4, trad. franç. E. Blochet, *Histoire des sultans mamelouks* (Turnhout : Brepols ; Patrologia orientalis, 12, 3 ; 14, 3 ; 20, 1).
Muḥammad al-Uḳbani al-Tilimsānī (n. d.) *Tuhfat al-nāzir ;* éd. 1967 A. Chenoufi, « Un Traité de ḥisba », *BEO*, 19, pp. 133-344.
Muḥammad b. Khalīl, Ibn Ghalbūn (s. d.) *Ta'rikh Tarābulus al-Gharb*, éd. 1930 (Le Caire) ; éd. 1970 Mahmad Naji (Benghazi).
Muḥammad Bello, M. (s. d.) *Infāḳ al-Maysūr ;* éd. 1922 et trad. E. J. Arnett, *The rise of the Sokoto Fulani* (Kano : Emirate Printing Department).

Munthe L. (1977) « La Tradition écrite arabo-malgache : un aperçu sur les manuscrits existants », *BSOAS*, 40, 1, pp. 96-109.
Murdock, G. P. (1959) *Africa : its peoples and their culture history* (New York : McGraw-Hill).
Musa, I. U. A. (1969) « Tanẓīmāt al-muwaḥḥidīn wa-nuzumbum fī 'l Magrib », *Abhath*, 33, 1. 4, pp. 53-89 (dissertation, American University of Beirut).
Mworoha, E. (1977) *Peuples et rois de l'Afrique des lacs au XIX^e siècle : le Burundi et les royaumes voisins* (Abidjan : NEA).

Nachtigal, G. (1879, 1881, 1889) *Sahara und Sudan : Ergebnisse sechsjahriger Reisen in Afrika*, vols 1 et 2 (Berlin : Weidmann), vol. 3 (Leipzig : Brockhaus) ; 1967, réimpressin (Graz : Akademie Drüker) ; 1971, 1974 (en cours), trad. angl. A. G. B. et H. J. Fisher (Londres).
Nadel, S. F. (1942) *A black Byzantium : the kingdom of Nupe in Nigeria* (Londres/New York : OUP the Institute of African Languages and Cultures).
al-Naqar, U. A. (1971) « The historical background to " the Sudan Road " », in Y. F. Hasan (dir. publ..), *Sudan in Africa* (Khartoum : Khartoum University Press), pp. 98-108.
Ndoricimpa, L., *et al.* (1981) « Technologie et économie du sel végétal au Burundi », in *La Civilisation ancienne des peuples des grands lacs ; colloque de Bujumbura* (Paris : Karthala, Centre de civilisation burundaise), pp. 408-16.
Nelli, R. (dir. publ.) (1960) *Les Troubadours* (Paris : Desclée de Brouwer).
Neufville, R. de et Houghton, A. A. (1965) « A description of Ain Farah and of Wars », *Kush*, 13, pp. 195-204.
Nganwa, K. K. (1948) *Abakozire eby'okutangaza omuri Ankole...* (Nairobi : Eagle Press).
Ngcongco, L. (1980) « Problems of Southern African historiography », in Unesco (1980b), q. v.
Niane, 2^e éd. (1960 ; 2e ed. 1971) *Soundjata ou l'épopée mandingue (Paris : Présence africaine).*
Niane, D. T. (1975) *Recherches sur l'empire du Mali au Moyen Age*, suivi de *Mise en place des populations de la Haute-Guinée* (Paris : Présence africaine).
Nicolas, G. (1969) « Fondements magico-religieux du pouvoir au sein de la principauté hausa du Gobir », *JSA*, 39, 2, pp. 199-231.
Nicolas, G. (1979) « La question du Gobir », document présenté au Zaria Seminar on the history of central Sudan before 1804.
Niven, C. R. (1957) « Nigeria : past and present », *AA*, 56, 225, pp. 265-74.
Noten, F. van (1968) *The Uelian : a culture with a neolithic aspect, Uele Basin (N. E. Congo Republic) : an archaeological study* (Tervuren : Annales du musée royal de l'Afrique centrale, série in octavo : sciences humaines, 64).
Noten, F. van (1972) « La plus ancienne sculpture sur bois de l'Afrique centrale », *A-T*, 18, 3-4, pp. 133-6.
Nougarède, M. P. (1964) « Qualités nautiques des voies arabes », in *Océan Indien et Méditerranée ; actes du sixième colloque international d'histoire maritime Lourenço Marques, 1962* (Paris : SEVPEN), pp. 95-122.
Nurse, D. (1974) « A linguistic sketch of the north-east Bantu languages with particular reference to Chaga history » (thèse de doctorat, University of Dar es Salaam).
Nurse, D. (1979) *Classification of the Chaga dialects : languages and history on Kilimandjaro, the Taita Hills, and the Pare Mountains* (Hambourg : Buske).
Nurse, D. et Philipson, D. W. (1974) « The north-eastern Bantu languages of Tanzania and Kenya : a classification » (University of Dar es Salaam).
Nyakatura, J. (1936-7) « Abakama ba Bunyoro-Kitara », *UJ*, 3, 1, pp. 155-60 ; 4, 1, pp. 75-83 ; 5, 2, pp. 53-69.
Nyakatura, J. (1947) *Abakama ba Bunyoro Kitara* (St Justin, P. Q., Canada : White Fathers Society) ; éd. et trad. 1973 *Abakama ba Bunyoro-Kitara : The Kings of Bunyoro-Kitara* (Garden City : Anchor Press).

L'Occidente e l'Islam nell'alto medievo (1965), 2 vols (Spolete, Centro Italiano di Studi sull'Alto Medievo).
O'Fahey, R. S. (1974) « The Sudan papers of the Rev. D^r A. J. Arkell », *SNR*, 55, pp. 172-4.
O'Fahey, R. S. (1977) « The office of Qadi in Darfur : a preliminary inquiry », *BSOAS*, 40, 1, pp. 110-24.
Ogot, B. A. (1967) *A history of the southern Luo*, vol. 1 : *Migration and settlement, 1500-1900* (Nairobi : EAPH).
Ogot, B. A. et Kieran, J. A. (dir. publ.) (1968) *Zamani : a survey of East African history* (Nairobi : EAPH).
Olbrechts, F. M. (1941) *Bijdrage tot de kennis van de chronologie der afrikaansche plastick* (Bruxelles, Van Campenhout ; Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, 10, 2).

Olderogge, D. A. (1960) *Zapadnyi Sudan v piatnadtsatykh deviatnadtsatykh vv* (The western Sudan in the sixteenth-nineteenth centuries) (Moscou : Nauk).
Oliver, R. (1953) « A question about the Bachwezi », *UJ*, 17, 2, pp. 135-7.
Oliver, R. (1955) « The traditional histories of Ankole, Buganda and Bunyoro », *JRAI*, 85, 1-2, pp. 111-18.
Oliver, R. (1959) « Ancient capital sites of Ankole », *UJ*, 23, 1, pp. 51-63.
Oliver, R. (1962) « Reflections on the sources of evidence for the precolonial history of East Africa », in *The historian in tropical Africa* (Londres/Ibadan/Accra : OUP for IAI), pp. 305-21.
Oliver, R. (1966) « The problem of the Bantu expansion », *JAH*, 7, 3, pp. 361-76.
Oliver, R. et Mathew, G. (dir. publ.) (1963-76) *History of East Africa*, 3 vols (Oxford : Clarendon Press).
Ottenberg, S. (1961) « Present state of Igbo studies », *JHSN*, 2, 2, pp. 211-30.
Ottino, P. (1974a) « La Hiérarchie sociale et l'alliance dans le royaume de Matacassi des XVIe et XVIIe siècles », *Tantara*, 1, pp. 52-105.
Ottino, P. (1974b) *Madagascar, les Comores et le Sud-Ouest de l'Océan indien : projet d'enseignement et de recherches* (Antananarivo : Centre d'anthropologie culturelle et sociale).
Ottino, P. (1975) *Le Moyen Age de l'Océan indien et le peuplement de Madagascar* (Île de la Réunion).
Ozanne, P. (1969) « Atmospheric radiocarbon », *WAAN*, 11, pp. 9-11.

Pacheco Pereira, D. (1505-6) *Esmeraldo de situ orbis*, éd. 1905 A. Epiphanio da Silva Dias (Lisbonne, Typ. Universal) ; éd. et trad. angl. 1937 G. H. T. Kimble (Londres, Hakluyt Society) ; éd. 1954 D. Peres (Lisbonne, Typ. Universal) ; 1956, trad. franç. R. Mauny (Bissau : Publicações do Centro de estudos da Guiné portuguêsa, 19).
Paden, J. N. (1973) *Religion and political culture in Kano* (Berkeley : University of California Press).
Pageard, R. (1962a) « Contribution critique à la chronologie historique de l'ouest africain, suivie d'une traduction des " tables chronologiques " de Barth », *JSA*, 32, 1, pp. 91-117.
Pageard, R. (1962b) « Réflexions sur l'histoire des Mossi », *L'Homme*, a, 1, pp. 115-15.
Pageard, R. (1963) « Recherches sur les Nioniossé », *EV*, 4, pp. 5-71.
Pagès, A. (1933) *Au Ruanda, sur les bords du lac Kivu (Congo belge). Un royaume hamite au centre de l'Afrique* (Bruxelles, Mémoires de l'Académie royale des sciences d'outre-mer, classes des sciences morales et politiques, 1).
Palmer, H. R. (dir. publ.) (1909) « The Kano Chronicle », *JAI*, 38, pp. 58-98 ; réimprimé dans H. R. Palmer (1928), q. v., vol. III, pp. 97-132.
Palmer, H. R. (1914, 1915) « An early Fulani conception of Islam », *JAS*, 13, pp. 407-14 ; 15, pp. 53-9, 185-92.
Palmer, H. R. (1927) « History of Katsina », *JAS*, 26, pp. 216-36.
Palmer, H. R. (1928) *Sudanese memoirs : being mainly translations of a number of Arabic manuscripts relating to the central and western Sudan*, 3 vols (Lagos : Government Printer) ; éd. 1967 (Londres : Cass).
Palmer, H. R. (dir. publ.) (1932) : Voir Ibn Furṭūwa, Aḥmad.
Palmer, H. R. (1936) *The Bornu, Sahara and Sudan* (Londres : Murray).
Pannetier, J. (1974) « Archéologie des pays Antambahoaka et Antaimoro », *Taloha*, 6, pp. 53-71.
Papadopoulos, T. (1966) *Africanabyzantina : Byzantine influences on Negro-Sudanese cultures* (Athen Grapheion Demosieymaton Akademias Athenon ; Pragmateia tēs Akademias Athenon, 27).
Pardo, A. W. (1971) « The Songhay empire under Sonni Ali and Askia Muhammade : a study in comparison and contrasts », in D. F. McCall et N. R. Bennett (dir. publ.s), *Aspects of West African Islam* (Boston : African Studies Center, Boston University, Papers on Africa, 5), pp. 41-59.
Paul, A (1955) « Aidhab : a medieval Red Sea port », *SNR*, 36, pp. 64-70.
Paulme, D. (1956-7) « L'Afrique noire jusqu'au XIVe siècle », *CHM*, 3, 2, pp. 277-301 ; 3, pp. 561-81.
Pauwels, M. (1967) « Le Bushiru et son Muhinza ou roitelet Hutu », *AL*, 31, pp. 205-322.
Pearce, S. et Posnansky, M. (1963) « The re-excavation of Nzongezi rock shelter, Ankole », *UJ*, 27, 1, pp. 85-94.
Peires, J. B. (1973) *Chronology of the Cape Nguri till 1900* (Madison : University of Wisconsin Press).
Pelliot, P. (1933) « Les Grands Voyages maritimes chinois », T'oung Pao, 30, pp. 237-452.
Penn, A. E. D. (1931) « The ruins of Zamkor », SNR, 14, pp. 179-84.
Peres, D. (1960) *Historia dos descobrimentos portuguêses*, 2e éd. (Coimbra : Edição do autor).
Perez-Embid, F. (1969) « Navegacion y commercio en el puerto de Sevilla en la Baja Edad Media », in *Les routes de l'Atlantique : travaux du 9e colloque international d'histoire maritime* (Paris : SEVPEN), pp. 43-96.

Perrot, C. (1974) « Ano Asema : mythe et histoire », *JAH,* 15, 2, pp. 199-222.
Perruchon, J. (1889) « Histoire des guerres d'Amda Seyou, roi d'Éthiopie », *JA,* série 8, 14, pp. 271-493.
Perruchon, J. (1893) « Notes pour l'histoire d'Éthiopie : lettre adressée par le roi d'Éthiopie au roi Georges de Nubie sous le patriarcat de Philothée (981-1002 ou 3) », *RS,* 1, pp. 71-6.
Perruchon, J. (1894) « Histoire d'Eskender, d'Amda-Seyou II et de Na'od, rois d'Éthiopie », *JA,* série 9, 3, pp. 319-84.
Person, Y. (1961) « Les Kissi et leurs statuettes de pierre dans le cadre de l'histoire ouest africaine », *BIFAN,* B, 23, 1, pp. 1-59.
Person, Y (1962) « Le Moyen Niger au xv^e^ siècle d'après les documents européens », *NA,* 78, pp. 45-57.
Person, Y. (1968) *Samori ; une révolution dyula,* 3 vols (Dakar : IFAN ; Mémoire, 80...).
Person, Y. (1970) chapitre in H. J. Deschamps (dir. publ.), *Histoire générale de l'Afrique noire* (Paris : PUF), vol. 1.
Person, Y. (1971) « Ethnic movement and acculturation in Upper Guinea since the fifteenth century », *AHS,* 4, 3, pp. 669-89.
Philipson, D. W. (1968) « The Early Iron Age in Zambia : regional variants and some tentative conclusions », JAH, 9, 2, pp. 191-212.
Philipson, D. W. (1974) « Iron Age history and archaeology in Zambia », *JAH,* 15, 1, pp. 1-25.
Phillipson, D. W. (1977) *The later prehistory of Eastern and Southern Africa* (Londres, Heinemann).
Pigafetta, F. et Lopes, D. (1591) ; 1881, trad. angl. M. Hutchinson, *A report of the kingdom of Congo and the surrounding countries* (Londres, Murray), réimpression 1970 (Londres, Cass) ; 1963, éd. révisée ; 1965, trad. franç. W. Bal, *Description du royaume de Congo* (Léopoldville/Kinshasa : Université de Lovanium ; Publication du Centre d'études des littératures romanes d'inspiration africaine, 4).
Poirier, C. (1954) « Terre d'Islam en mer malgache (îlot Nosy Langany ou Nosy Manja) », *BAM,* n° spécial du cinquantenaire, pp. 71-116.
Polet, J. (1974) « Feuilles d'enceinte à la Séguié », in Documents du colloque de Bonduku.
Polet, J. (1976) « Sondages archéologiques en pays éothilé : Assoco-Monobaha, Belibete et Anyanwa », *Godo-Godo,* 2, pp. 111-39.
Polo, Marco (1955) *Description du monde* (Paris : Klincksieck).
Portères, R. (1955) « L'introduction du maïs en Afrique », *JATBA,* 2, 5-6, pp. 221-31.
Posac Mon, C. (1959) « Relaciones entre Genova y Ceuta durante el siglo XII », *Tamuda,* pp. 159-68.
Posnansky, M. (1966) « Kingship, archaeology and historical myth », *UJ,* 30, 1, pp. 1-12.
Posnansky, M. (1968) « The escavation of an Ankole capital site at Bweyorere », *UJ,* 32, 2, pp. 165-82.
Posnansky, M. (1971) « East Africa and the Nile valley in early times », in Y. F. Hasan (dir. publ.), *Sudan in Africa* (Khartoum : Khartoum University Press), pp. 51-61.
Posnansky, M. (1974) « Archaeology and Akan civilisation », in Documents du colloque de Bonduku.
Posnansky, M. (1975a) « Archaeology, technology and Akan civilization », *JAS,* 3, pp. 24-38.
Posnansky, M. (1975b) « Redressing the balance : new perspectives in West African archaeology », *Sankofa,* 1, 1, pp. 9-19.
Poulle, E. (1969) *Les Conditions de la navigation astronomique au XV^e^ siècle* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antiga : serie separata, 27).
Premier colloque international de Bamako (1975) Actes du colloque, *L'Empire du Mali, histoire et tradition orale* (Paris : Fondations SCOA pour la recherche scientifique en Afrique noire, Projet Boucle du Niger).
Princeps, J. (dir. publ.) (1834-9) « Extracts from the Mohi't, that is the Ocean, a Turkish work on navigation in the Indian seas », trad. J. von Hammer, *JRASB,* 1834, pp. 545-53 ; 1836, pp. 441-68 ; 1837, pp. 505-12 ; 1838, pp. 767-80 ; 1839, pp. 823-30.
Prins, A. H. J. (1961) *The Swahili speaking peoples of Zanzibar and the East African coast : Arabs, Shirazi and Swahili* (Londres, IAI ; Ethnographic survey of Africa, East Central Africa, pt 12).
Prins, G. (1980) *The hidden hippopotamus : reappraisal in African history : the early colonial experience in western Zambia* (Cambridge : CUP).
Prost, A. (1953) « Notes sur l'origine des Mossi », *BIFAN,* B, 15, 2, pp. 1933-8.

Quatremère, E. M. (1811) *Mémoires géographiques et historiques sur l'Égypte et sur les contrées voisines,* 2 vols (Paris : Schoell).

Rabi, H. M. (1972) *The financial system of Egypt AH 564-741/AD 1169-1341* (Londres, OUP, London Oriental Studies, 25).

Raffenel, A. (1846) *Voyages dans l'Afrique occidentale exécuté en 1843-1844,* 2 vols (Paris : Bertrand).
Raffenel, A. (1856) *Nouveau voyage dans le pays des nègres,* 2 vols (Paris : N. Chaix).
Rainihifina, J. (1975) *Lovantsaina,* 2 vols (Fianarantsoa : Ambozontany).
Rainitovo (1930) *Tantaran 'ny Malagasy manontolo* (Tananarive : Paoli).
Raison, J.-P. (1972) « Utilisation du sol et organisation de l'espace en Imérina ancienne », in *Études de géographie tropicale offertes à Pierre Gourou* (Paris/La Haye : Mouton), pp. 407-26.
Raison, J.-P. et Vérin, P. (1968) « Le site des subfossiles de Taolambiby, sud-ouest de Madagascar, doit-il être attribué à une intervention humaine ? » *AUM,* 7, pp. 133-42.
Ralaimihoatra, G. (1969) « Le Peuplement de l'Imérina », *BLPHGAM,* 1, pp. 39-45.
Ralaimihoatra, G. (1971) « Éléments de la connaissance des protomalgaches », *BAM,* 49, 1, pp. 29-33.
Ramiandrasoa, F. (1968) « Tradition orale et histoire : Les Vazimba, le culte des ancêtres en Imérina du XVIe au XIXe siècle » (thèse de doctorat, Université de Paris).
Ramiandrasoa, F. (1971) *Atlas historique du peuplement de Madagascar* (Antananarivo : Université de Madagascar).
Ramilison, E. (1951-2) *Ny Loharanon 'ny Andriana manjaka teto Imerina,* 2 vols (Tananarive).
Ramon Marti : voir Martini, R.
Randall-MacIver, D. et Mace, A. C. (1902) *El Amrah and Abydos,* pts 1-2 (Londres/Boston : Egypt Exploration Fund).
Randles, W. G. L. (1968) *L'Ancien Royaume du Congo, des origines à la fin du XIXe siècle* (Paris : Mouton, Civilisations et sociétés, 14).
Randles, W. G. L. (1975) *L'Empire du Monomotapa du XVe au XIXe siècle* (Paris : Mouton, Civilisations et sociétés, 46).
Ratsimbazafimahefa, P. (1971) *Le Fisakana : archéologie et couches culturelles.* (Tananarive : Musée d'art et d'archéologie de l'Université de Madagascar ; Travaux et documents, 9).
Rattray, R. S. (1913) *Hausa folklore : customs and proverbs,* 2 vols (Londres : OUP) ; éd. 1969 (New York : Negro University Press).
Rattray, R. S. (1929) *Ashanti law and constitution* (Oxford : Clarendon Press).
Rattray, R. S. (1932) *Tribes of the Ashanti hinterland* (Oxford : Clarendon Press), 2 vols.
Rau, V. (1967) « Alfari mercanti in Portogallo dal 14 al 16 secolo : Economia e storia », *RISES,* pp. 447-56.
Rau, V. (1975) « Notes sur la traite portugaise à la fin du XVe siècle et le florentin Bartolomeo di Domenico Marchioni », in *Miscellanca offerts à Charles Verlinden à l'occasion de ses trente ans de professorat* (Gand), pp. 535-43.
Ravoajanahary, C. (1980) « Le peuplement de Madagascar : tentatives d'approche », in Unesco (1980a), pp. 91-102.
Recueil de littérature mandingue (1980) (Paris : Agence de coopération culturelle et technique).
Redhouse, J. W. (1862) « History of the journal of the events... during seven expeditions... against the tribes of Bulala », *JRAS,* 19, pp. 43-123, 199-259.
Redmayne, A. (1968) « The Hehe », in A. Roberts (dir. publ.), *Tanzania before 1900* (Nairobi, EAPH), pp. 37-58.
Reefe, T. Q. (1975) *A history of the Luba empire to 1895* (thèse de doctorat, Berkeley University).
Reefe, T. Q. (1977) « Traditions of genesis and the Luba diaspora », *HAJM,* 4, pp. 183-206.
Reefe, T. Q. (1981) *The rainbow and the kings ; a history of the Luba empire to 1891* (Berkeley : University Press).
Renan, E. (1866, 1925) *Averroes et l'averroisme : essai historique* (Paris : Calmann-Levy).
Rennie, J. K. (1972) « The precolonial kingdom of Rwanda : a reinterpretation », *TJH,* 2, 2, pp. 11-64.
Riad, M. (1960) « The Jukun : an example of African migrations in the 16th century », *BIFAN,* B, 22, 3, pp. 476-86.
Ribeiro, O. (1962) *Aspectos e problemas da expansão portuguesa* (Lisbonne : Junta de investigações do Ultramar).
Richard, R. (1936) « Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'empire portugais aux XVe et XVIe siècles », *AIEOA,* 2, pp. 266-85.
Richard, R. (1955) *Études sur l'histoire des Porgugais au Maroc* (Coimbra).
Rigby, P. (1969) *Cattle and kinship among the Gogo : a semi-pastoral society of central Tanzania* (Ithaca : Cornelle University Press).
Riley, C. L. (dir. publ.) (1971) *Man across the sea : problems of pre-Colombian contacts* (Austin : University of Texas Press).
Robert, D., Robert, S. et Devisse, J. (1970) *Tegdaoust* (Paris : Arts et métiers graphiques).
Roberts, A. (1976) *A history of Zambia* (Londres : Heinemann).

Robineau, C. (1962) « L'Islam aux Comores : une étude culturelle de l'île d'Anjouan », in P. Vérin (dir. publ.), *Arabes et islamisés à Madagascar et dans l'Océan indien* (Tananarive : Revue de Madagascar), pp. 39-56.
Robson, J. A. (1959) « The Catalan fleet and the Moorish sea power, 1337-1344 », *EHR*, 74, pp. 386-408.
Rockhill, W. W. (1915) « Notes on the relations and trade of China with the eastern archipelago and the coast of the Indian Ocean during the fourteenth century, Ormuz, coast of Arabia and Africa », *T'oung Pao*, 15, pp. 419-47 ; 16, pp. 604-26.
Rodney, W. (1966) « African slavery and other forms of social oppression on the Upper Guinea coast in the context of the Atlantic slave-trade », *JAH*, 7, 3, pp. 431-43.
Rodney, W. (1970) *A history of Upper Guinea coast : 1545-1800* (Oxford : Clarendon Press).
Romains, J. (1963) *Donogoo* (Paris : Gallimard).
Romano, R., Tenenti, A. et Tucci, U. (1970) « Venise et la route du Cap : 1499-1517 », in *Méditerranée et Océan indien ; actes du sixième colloque international d'histoire maritime* (Paris : SEVPEN), pp. 109-40.
Rombaka, J. P. (1957) *Tantaran-drazana Antaimoro-Anteony : Histoire d'Antemero Anteony (Tananarive : Sparano).*
Roncière, C. de la : voir Roncière, C. de.
Rosenberger, B. (1964) « Autour d'une grande mine d'argent du Moyen Age marocain : le Jebel Aouam », *H-T*, 5, pp. 15-78.
Rosenberger, B. (1970) « Les Vieilles Exploitations minières et les centres métallurgiques du Maroc : essai de carte historique », *RGM*, 17, pp. 71-107 ; 18, pp. 59-102.
Rouch, J. (1953) « Contribution à l'histoire des Songhay », in G. Boyer, *Un peuple de l'Ouest soudanais : les Diawara* (Dakar : IFAN ; Mémoires, 29), pp. 141-261.
Rouch, J. (1954) *Les Songhay* (Paris : PUF).
Rouch, J. (1960) *La religion et la magie des Songhay* (Paris : PUF).
Rudner, J. (1968) « Strandloper pottery from South and South-West Africa », *ASAM*, 49, 2, pp. 441-663.
Rudner, J. et Rudner, L. (1970) *The hunter and his art : a survey of rock art in southern Africa* (Cape Town : Struik).
Rwandusya, Z. (1972 et 1977) « The origin and settlement of people in Bufimbira », in D. Denoon (dir. publ.), *A history of Kigezi in South-West Uganda* (Kampala : National Trust, Adult Education Centre).

*Sa'ad, E. (1979) étude dans *KS*, 1, 4, pp. 52-66.
al-Sa'dī 'Abd al-Raḥmān b. 'Abd Allāh (1656) *Ta'rīkh al-Sūdān ;* éd. 1898 O. Houdas et E. Benoist, avec trad. franç. de 1900, O. Houdas, 2 vols (Paris : Leroux) ; 1964, trad. rev. (Paris : Maisonneuve et Larose).
Saidi A. (1963) « Contribution à l'histoire almohade : une première expérience d'unité maghrébine » (thèse de doctorat, Université de Lyon).
al-Sakhāwī, Muḥammad b. 'Abd al-Raḥmān (15th cent.) *Kitāb al-tibr al-masbuk ;* éd. 1897 (Le Caire).
al-Salāwī, Shihāb al-Dīn... b. Hammād al-Nāṣirī (1894) *Kitāb al-Istiḳṣā li-Akhbār Duwal al-Maghrib al-akṣā*, 4 vols (Le Caire) ; éd. 1906-7 et trad. partielle E. Fumey (Paris : Leroux ; Archives marocaines 9-10) ; éd. 1923-5 et trad. franç., 4 vols (Paris : Geuthner) ; éd. 1954-6 et trad. franç., *Histoire du Maroc*, 9 vols (Casablanca).
Salifou, A. (1971) *Le Damagaram, ou sultanat de Zinder au XIX^e siècle* (Niamey : Études nigériennes, 27, Centre nigérien de recherches en sciences humaines).
Salmon, M. G. (1904) « Essai sur l'histoire politique du Nord marocain », *AM*, 2, pp. 1-99.
Sanneh, L. (1976) « The origin of clericalism in West African Islam », *JAH*, 17, 1, pp. 49-72.
Sarton, G. (1927-48) *Introduction to the history of science*, 3 vols (Baltimore : Carnegie Institute).
Sayous, A. E. (1929) *Le commerce des Européens à Tunis, depuis le XII^e siècle jusqu'à la fin du XVI^e siècle* (Paris : Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales).
Schatzmiller, W. (1977) « Étude d'historiographie mérinide : La Nafha al-nisriniyya et la Hawdat al-nisrin d'Ibn al-Ahmar », *Arabica*, 24, 3, pp. 258-68.
Schaube, A. (1906) *Handelsgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzüge* (Berlin : Oldenbourg).
Schefer, C. (dir. publ.) (1892) *Le voyage d'outre-mer de Bertrandon de La Brocquière* (Paris : Leroux).
Schlüter, H. (1972) *Index libycus : bibliography of Libya, 1958-1969, with supplementary material 1915-1956* (Boston : Hall).
Schlüter, H. (1979) *Index libycus, bibliography of Libya 1970-1975, with supplementary material* (Boston : Hall).

Schofield, J. F. (1948) *Primitive pottery ; an introduction to South African ceramics, prehistoric and protohistoric* (Cape Town : South African Archaeological Society, handbook series, 3).
Schoonraad, M. (dir. publ.) (1971) *Rock paintings of South Africa* (South African Journal of Science, supplement 2).
Schwarz, E. H. L. (1938) « The Chinese connections with Africa », *JRASB*, 5, pp. 175-93.
Schweeger-Hefel, A.-M. et Staude, W. (1972) *Die Kurumba von Lurum : Monographie eines Volkes aus Obervolta (West-Afrika)* (Vienne, Schendl).
Scully, R. T. K. (1978a) « Phalaborwa oral tradition » (thèse de doctorat), State University of New York, Binghamton).
Seully, R. T. K. (1978b) « Report on South Africa », *NAk*, 13, pp. 24-5.
Sergew Hable Selassie (1972) *Ancient and medieval Ethiopian history to 1270* (Addis Abeba : United Printers).
Serjeant, R. B. (1963) *The Portuguese off the South Arabian coast : Hadramī chronicles with Yemeni and European accounts of Dutch pirates off Mocha in the seventeenth century* (Oxford : Clarendon Press). Serra Rafols, E. (s. d.) « Los Mallorquinas en Canarias », *RHC*, 7, 54, pp. 195-209.
Shaw, T. (1970) *Igbo-Ukwu, an account of archaeological discoveries in eastern Nigeria*, 2 vols (Londres : Faber and Faber pour the Institute of African Studies, Ibadan).
Shaw, T. (1973) « A note on trade and the Tsoede bronzes », *WAJA*, 3, pp. 233-8.
Shaw, W. B. K. (1936) « The ruins at Abu Sufyan », *SNR*, 19, pp. 324-26.
Shinnie, P. L. (1965) « New light on medieval Nubia », *JAH*, 6, 3, pp. 263-73.
Shinnie, P. L. (dir. publ.) (1971a) *The African Iron Age* (Oxford : Clarendon Press).
Shinnie, P. L. (1971b) « The culture of medieval Nubia and its impact on Africa », in Y. F. Hasan (dir. publ.), *Sudan in Africa* (Khartoum : Khartoum University Press), pp. 42-50.
Shinnie, P. L. et Chittick, H. N. (1961) *Ghazali : a monastery in the northern Sudan* (Khartoum : Sudan Antiquities Service, Occasional Papers, 5).
Shorter, A. (1968) « The Kimbu », in A. Roberts (dir. publ.), *Tanzania before 1900* (Nairobi : EAPH), pp. 96-116.
Siré-Abbās-Soh (1913) *Chroniques du Foūta sénégalais*, éd. M. Delafosse et H. Gaden (Paris : Leroux ; Collection de la Revue du Monde Musulman).
Skinner, D. E. (1978) « Mande settlement and the development of Islamic institutions in Sierra Leone », *IJAHS*, 11, pp. 32-62.
Skinner, E. P. (1957) « Ah analysis of the political organization of the Mosi people », *TNYAS*, 19, 8, pp. 740-50.
Skinner, E. P. (1958) « The Mosi and the traditional Sudanese history », *JNH*, 43, 2, pp. 121-31.
Skinner, E. P. (1962) « Trade and markets among the Mosi people », in P. Bohannan et G. Dalton (dir. publ.) ; *Markets in Africa* (Evanston : Northwestern University Press), pp. 237-78.
Skinner, N. (1968) « The origin of the name Hausa », *Africa*—(L), 38, 3, pp. 253-7.
Slaoui (Slāwī) : voir al-Salāwī.
Smith, H. F. C. (Abdullahi) (1961) « A further adventure in the chronology of Katsina », *BHSN*, 6, 1, pp. 5-7.
Smith, H. F. C. (Abdullahi) (1970a) « Some considerations relating to the formation of states in Hausaland », *JHSN*, 5-3, pp. 329-46.
Smith, H. F. C. (Abdullahi) (1970b) « Some notes on the history of Zazzau under the Hausa king's, in M. J. Mortimore (dir. publ.), *Zaria and its region, a Nigerian savanna city and its environs* (Zaria : Ahmadu Bello University, Department of Geography, occasional paper 4), pp. 82-101.
Smith, H. F. C. (Abdullah) (1971) « The early states of central Sudan », in J. F. A. Ajayi et M. Crowder (dir. publ.), *History of West Africa* (Londres, Longman), vol. 1, pp. 158-201.
Smith, H. F. C. (Abdullahi) (1979) « The contemporary significance of the academic ideals of the Sokoto Jihad », in Y. B. Usman (dir. publ.) (1979a), q. v., pp. 242-60.
Smith, M. G. (1959) « The Hausa system of social status », *Africa*—(L) 29, 3, pp. 239-52.
Smith, M. G. (1960) *Government in Zazzau, 1800-1950 (Londres, OUP pour IAI).*
Smith, M. G. (1964a) « The beginnings of Hausa society », in *The Historian in Tropical Africa* (Londres : OUP for IAI), p. 348 ss.
Smith, M. G. (1964b) « Historical and cultural conditions of political corruption among the Hausa », *CSSH*, 6, 2, pp. 164-94.
Snellow, I.(1964) « Die Stellung der Slaven in der Hausa-Gesellschaft », *MIO*, 10, 1, pp. 85-102.
Soh, S. A. : see Siré-Abbās-Soh.
Southall, A. W. (1954) « Alur tradition and its historical significance », *UJ*, 18, pp. 137-65.
Stanley of Alderley Lord : voir Alvarez, F. (1881).
Staude, W. (1961) « La Légende royale de Kouroumba », *JSA*, 31, 2, pp. 209-59.
Steenberghen, F. van (1946) *Aristote en Occident...* (Louvain : Institut supérieur de philosophie).
Steiger, A (1941) : voir Alfonso X, el Sabio.

Stewart, J. M. (1966) « Akan history : some linguistic evidence », *GNQ*, 9, pp. 54-7.
Storbeck, F. (1914) *Die Berichte der arabischen Geographen des Mittelalters über Östafrika* (Berlin, Humboldt University, Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen, 18, 2).
Stow, G. W. (1905) *The native races of South Africa : a history of the intrusion of the Hottentots and Bantu* (Londres : Sonnenschein ; New York : Macmillan).
Strandes, J. (1899) *Die Portugiesenzeit von Deutsch-und Englisch Östafrika* (Berlin : Reimer) ; trad. angl. 1961 J. F. Wallwork, *The Portuguese period in East Africa* (Nairobi : East African Literature Bureau).
Strong, S. A. (1895) « History of Kilwa, from an Arabic manuscript », *JRAS*, 14, pp. 385-430.
Sulzmann, E. (1959) « Die Bokope Herrschaft der Bolia », ARSP, 15, 3, pp. 389-417.
Summers, R. (1960) « Environment and culture in Southern Rhodesia », *PAPS*, 104, 3, pp. 266-92.
Summers, R. (1963) *Zimbabwe, a Rhodesian mystery* (Johannesburg/New York : Nelson).
Summers, R. (1969) « Ancient mining in Rhodesia », *MNMMR*, 3.
Suter, H. (1900) *Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke* (Leipzig : Teubner).
Sutton, J. E. G. (1972) « New radiocarbon dates for Eastern and Southern Africa », *JAH*, 13, 1, pp. 1-24.
Sutton, J. E. G. (1976, 1977) « Iron working around Zaria », *Zaria Archaeological papers*, n° 8, et « Addendum to n° 8 » (Zaria).
Sutton, J. E. G. (1979) « Towards a less orthodox history of Hausaland », *JAH*, n° 2, pp. 179-201.
Sutton, J. E. G. et Roberts, A. D. (1968) « Uvinza and its salt industry », *Azania*, 3, pp. 45-86.
Sykes, J. (1959) « The eclippe at Buharwe », *UJ*, 23, 1, pp. 44-50.
Sylla Djiri (1975) Étude présentée au *Premier Colloque international de Bamako* (Paris : Fondation SCOA pour la recherche scientifique en Afrique noire).
Szolc, P. (1977) « Die Konsequenzen der Isamisierung in Kordofan : Bemerkungen und Beobachtungen zum religiösen Wandel », *Am*, 10, 1, pp. 51-67.

Talbi, M. (1954) « Quelques données sur la vie en Occident musulman d'après un traité de *hisba* du xv^e siècle », *Arabica*, 1, 3, pp. 294-306.
Talbi, M. (1966) *L'Émirat aghlabide 184/296-800/909* (Paris : Maisonneuve).
Talbi, M. (1973) « Ibn Khaldun et l'histoire », in *Actas del secundo coloquio hispanico-tunecino de estudios historicos* (Madrid : Instituto hispanico-arabe de cultura), pp. 63-90.
Tamakloe, E. F. (1931) *A brief history of the Dagbamba people* (Accra : Government Printer).
Tamrat, T. (1972a) *Church and state in Ethiopia : 1270-1527* (Oxford : Clarendon Press).
Tamrat, T. (1972b) « A short note on the traditions of pagan resistance to the Ethiopian church, fourteenth and fifteenth centuries », *JES*, 10, 1, pp. 137-50.
Tamrat, T. (1974) « Problems of royal succession in fifteenth century Ethiopia », in *Quarto congresso internazionale di studi etiopici* (Rome : Accademia nazionale dei Lincei), pp. 526-33.
Tanghe, B. (1929) *De Ngbandi : geschiedkundige bijdragen* (Bruges : Walleyn).
Ta'rīkh al-fattāsh : voir Ka'ti, Maḥmūd.
Ta'rīkh al-Sūdān : voir al-Sa'dī.
Tauxier, L. (1917) *Le Noir du Yatenga : Mossis, Nioniossés, Samos, Yarsés, Silmi-Mossis, Peuls* (Paris : Larose).
Tauxier, L. (1921) *Le Noir de Bondoukou : Bondoukous, Koulangos-Dyoulas, Abrons* (Paris : Larose).
Tauxier, L. (1924) *Nouvelles notes sur le Mossi et le Gourounsi* (Paris : Larose).
Tauxier, L. (1932) *Religion, mœurs et coutumes des Agnis de la Côte-d'Ivoire (Indenie et Sanwi)* (Paris : Geuthner).
Taylor, B. K. (1962) *The western lacustrine Bantu* (Londres, OUP pour IAI ; Ethnographic survey of Africa, East Central Africa, pt. 13).
Teixeira da Mota, A. (1950) *Topónimos de origem portuguêsa na costa ocidental de Africa desde o Cabo Bojador ao Cabo de Santa Caterina* (Bissau : Publicações do centro de estudos da Guiné portuguêsa, 14).
Teixeira da Mota, A. (1954) *Guiné portuguêsa*, 2 vols (Lisbonne : Agência geral do Ultramar).
Teixeira da Mota (A.) (1958) « L'Art de naviguer en Méditerranée du XIV^e au XVI^e siècle et la navigation astronomique dans les océans », in *Le Navire et l'économie maritime du Moyen Age au XVIII^e siècle, principalement en Méditerranée : Travaux du 2^e colloque international d'histoire maritime, Paris, 1957* (Paris, SEVPEN), pp. 127-54.
Teixeira da Mota, A. (1963) *Méthodes de navigation et cartographie nautique dans l'Océan Indien avant le XVI^e siècle* (Lisbonne, Junta de Ivestigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antigua, secção de Lisboa, serie separata, 5).
Teixeira da Mota, A. (1969) « Un document nouveau pour l'histoire des Peul au Sénégal pendant les XV^e et XVI^e siècles », *BCGP*, 96, pp. 781-860.

Teixeira da Mota, A. (1970) *Fulas e Beafadas no Rio Grande no secula XI : achegas para a ethnohistoria da Africa ocidental* (Coimbra : Junta de investigações do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antigua, serie separata, 60).
Teixeira da Mota, A. (1978) *Some aspects of Portuguese colonisation and sea trade in West Africa in the fifteenth and sixteenth centuries* (Bloomington : Indiana University African Studies Program).
Teixeira da Mota, A. (1981) « Entrées d'esclaves noirs à Valence (1445-1482) : le remplacement de la voie saharienne par la voie atlantique », in *Le Sol, la parole et l'écrit : 2 000 ans d'histoire africaine : mélanges en hommage à Raymond Mauny,* 2 vols (Paris : Société française d'histoire d'outre-mer), pp. 579-94.
Les Tellem et les Dogon Mali (1973) (Catalogue de l'exposition du 9 juin au 23 août 1973, Galerie Numaga).
Temple, O. S. M. (1922) *Notes on the tribes, provinces, emirates and states of the northern provinces of Nigeria,* (Lagos : CMS Bookshop, Exeter : J. Townsend) ; réimpression 1967 (Londres : Cass).
Terrasse, H. (1949-50) *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français,* 2 vols (Casablanca : Atlantides).
Terrasse, H. (1958) *Islam d'Espagne : une rencontre de l'Orient et de l'Occident* (Paris : Plon).
Thoden, R. (1973) *Abu'l-Hasan 'Ali : Merinidenpolitik zwischen Nordafrika und Spanien in den Jahren 710-752, 1310-1351* (Freiburg : Schwartz ; Islamische Untersuchungen, 21).
Thompson, L. (dir. publ.) (1969) *African societies in southern Africa : historical studies* (Londres : Heinemann ; New York : Praeger).
Thurstan Shaw : voir Shaw, T.
Tibbetts, G. R. (1961) « Arab navigation in the Red Sea », *GJ,* 127, 3, pp. 322-34.
Tibbetts, G. R. (1969) *The navigational theory of the Arabs in the fifteenth and sixteenth centuries* (Coimbra : Junta de Investigaçoẽs do Ultramar ; Agrupamento de estudos de cartografia antigua, serie separata, 36).
Tibbetts, G. R. (dir. publ.) (1971) *Arab navigation in the Indian Ocean before the coming of the Portuguese* (Londres : RASGBI ; Oriental translation fund, n. s. 42).
al-Tīdjānī (xiv^e s.) *Riḥla ;* trad. franç. partielle A. Rousseau, « Voyage du Scheikh el-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 706, 707 et 708 de l'hégire (1306-1307) : « *JA,* série 4, pp. 57-208 ; série 5, 1, pp. 102-68, 354-424.
Tiendrebeogo, Y. (1964) *Histoire et coutumes royales des Mossi de Ouagadougou* (Ouagadougou : Naba).
Tolmacheva, M. A. (1969) « Vostochnoe poberezh'e Afriki v arabskoi geografischeskoi literature », in *Strany i narody Vostoka* (Moscou : Nauka ; Strany i narody Afriki. Akademiia naud SSSR. Vostochnaia komissiia geografischeskogo obshchsteva SSSR, 9), pp. 268-96.
Tonnoir, R. (1970) *Giribuma : contribution à l'histoire et à la petite histoire du Congo équatorial* (Tervuren : Musée royal de l'Afrique centrale ; Archives d'ethnographie, 14).
Toussaint, A. (1961) *Histoire de l'Océan indien* (Paris : PUF ; Peuples et civilisations d'outre-mer, 4.
Toussaint, A. (1972) *Histoire des îles mascareignes* (Paris : Berger-Levrault).
Tremearne, A. J. N. (1913) *Hausa superstitions and customs : an introduction to the folklore and the folk* (Londres : Bale and Daniels).
Triaud, J. L. (1973) *Islam et sociétés soudanaises au Moyen Age : étude historique* (Paris : Collège de France ; Recherches voltaïques, 16).
Trimingham, J. S. (1949) *Islam in the Sudan* (Londres : OUP).
Trimingham, J. S. (1962) *A history of Islam in West Africa* (Londres : OUP).
Trimingham, J. S. (1964) *Islam in East Africa* (Oxford : Clarendon Press).
Tubiana, M. J. (1964) *Survivances préislamiques en pays zaghawa* (Paris : Institut d'ethnologie ; Travaux et mémoires, 67).
Turaiev, B. (dir. publ.) (1906) *Vitae sanctorum Indigenarum : I : Acta S. Eustathii* (Corpus scriptorum christianorum orientalium, 32 : Scriptores aethiopici, 15, Paris).

al'Umarī, Ibn Faḍl Allāh (xiv^e s.) *al-Ta'rif bi'l-muṣṭalaḥ al-sharīf ;* éd. 1894 (Le Caire).
al-'Umarī, Ibn Faḍl Allāh (xiv^e s.) *Masālik al-abṣār fī Mamālik al-amṣar,* éd. 1924 (Le Caire) ; 1927, trad. Gaudefroy-Demombynes, *L'Afrique moins l'Égypte* (Paris : Geuthner ; Bibliothèque des géographes arabes, 2).
al-'Umarī, Ibn Faḍl Allā (xiv^e s.), 1975, trad. franç. in J.-M. Cuoq (q. v.), pp. 254-89.
Unesco (1980a) Relations historiques à travers l'océan Indien : compte rendu de la réunion d'experts de 1974 (Paris, Unesco, Histoire générale de l'Afrique, Études et Documents, 3).
Unesco (1980b) L'Historiographie de l'Afrique australe : compte rendu et documents de travail de la réunion d'experts de 1977 (Paris, Unesco, Histoire générale de l'Afrique — Études et Documents, 4).

Urvoy, Y. (1949) *Histoire de l'empire de Bornou* (Dakar : IFAN ; Mémoires, 7 ; Paris : Larose) ; éd. 1968 (Amsterdam : Swets and Zeitlinger).
Usman, Y. B. (1972) « Some aspects of the external relations of Katsina before 1804 », *Savanna,* 1, 2, pp. 175-97.
Usman, Y. B. (dir. publ.) (1979a) *Studies in the history of the Sokoto caliphate : the Sokoto seminar papers* (Zaria : Ahmadu Bello University, Department of History for the Sokoto Caliphate Bureau).
Usman, Y. B. (1979b) « The transformation of political communities : some notes on a significant dimension of the Sokoto Jihad », in Y. B. Usman (dir. publ.) (1979a), q. v., pp. 34-58.

Valette, J. (dir. publ.) (1964) *Madagascar vers 1750 d'après un manuscrit anonyme* (Tananarive : Imp. nationale).
Van Der Merwe, N. J. et Scully, R. T. K. (1971-2) « The Phalaborwa story : archaeological and ethnographic investigation of a South African Iron Age group », *WA,* 3, 3, pp. 178-96.
Van Sertima, I. (1976) *They came before Columbus* (New Yord : Random Press).
Vansina, J. (1960) *L'évolution du royaume Rwanda des origines à 1900* (Bruxelles : Mémoires de l'Académie des sciences d'outre-mer, classe des sciences morales et politiques, n. s., 26, 2).
Vansina, J. (1966a) *Introduction à l'ethnographie du Congo* (Kinshasa : Université Lovanium ; Bruxelles, Centre de recherches et d'informations sociopolitiques).
Vansina, J. (1966b) *Kingdom of the savanna* (Madison : University of Wisconsin Press).
Vansina, J. (1966c) « More on the invasions of Kongo and Angola by the Jaga and the Lunda », *JAH,* 7, 3, pp. 421-9.
Vansina, J. (1969) « The bells of kings », *JAH,* 10, 2, pp. 187-97.
Vansina, J. (1971) « Inner Africa », in A. A. Boahen, *et al.* (dir. publ.), *The horizon history of Africa* (New York : Heritage Printing), pp. 260-303.
Vansina, J. (1973) *The Tio kingdom of the Middle Congo, 1880-1892* (Oxford : OUP pour l'International African Institute).
Vansina, J. (1974) « Probing the past of the lower Kwitu peoples (Zaire) », *Paideuma,* 19, pp. 332-64.
Vansina, J. (1978) *The children of Woot : a history of the Kuba peoples* (Madison : University of Wisconsin Press).
Vedder, H. (1938) trad. angl. (de l'allemand), *South-West Africa in early times : being the story of South-West Africa up to the date of Maharero's death in 1890* (Londres), réimpression 1966 (New York : Barnes and Noble).
Velgus, V. (1969) « Issledovanie nekotorykh spornykh voprosov istorii morekhodstva y Indiiskom okeane : Études de quelques points controversés dans l'histoire de la navigation dans l'Océan indien », in *Africana. Etnografiia, istoriia, lingvistika* (Leningrad : Akademiia nauk SSSR. Trudy Instituta ethnograffii im. N. N. Miklukho-Maklaia, n. s., 93, Afrikanskii etnografskii sbornik, 7), pp. 127-76.
Verhulpen, E. (1936) *Baluba et balubaises du Katanga* (Anvers : Édition de l'avenir belge).
Vérin, P. (1967a) « Les antiquités de l'île d'Anjouan », *BAM,* 45, 1, pp. 69-80.
Vérin, P. (dir. publ.) (1967b) *Arabes et islamisés à Madagascar et dans l'Océan indien* (Tananarive : Revue de Madagascar).
Vérin, P. (1972) *Histoire du Nord-Ouest de Madagascar, Taloha,* 5 (numéro spécial).
Vérin, P. (1975) *Les échelles anciennes du commerce sur les côtes de Madagascar,* 2 vols (Lille : Université de Lille).
Vérin, P. (1980) « Les apports culturels et la contribution africaine au peuplement de Madagascar », in Unesco (1980a), q. v., pp. 103-124.
Vérin, P., Kottack, C. P. et Gorlin, P. (1966) « The glotto-chronology of Malagasy speech communities », *OL,* 8, pp. 26-83.
Verlinden, C. (1955a) *L'Esclavage dans l'Europe médiévale,* vol. 1, *Péninsule ibérique, France* (Bruges : de Tempel).
Verlinden, C. (1955b) « Navigations, marchands et colons italiens au service de la découverte et de la colonisation portugaise sous Henri le Navigateur », *MA,* 44, 4, pp. 467-98.
Verlinden, C. (1961) « Les Découvertes portugaises et la collaboration italienne d'Alphonse IV à Alphonse V », in *Actas do congresso internacional lde historia dos descobrimentos,* 6 vols (Lisbonne), vol. 3, pp. 593-610.
Verlinden, C. (1962) « La Crête, débouché et plaque tournante de la traite des esclaves aux XIVe et XVe siècles », in *Studi in onore di Amintore Fanfani* (Milan : Giuffrè).
Verlinden, C. (1966a) « Esclavage noir en France méridionale et courants de traite en Afrique », *Annales du Midi,* 128, pp. 335-443.
Verlinden, C. (1966b) « Les Gênois dans la marine portugaise avant 1385 », *SHG,* 41.

Verlinden, C. (1967) « Les Débuts de la traite portugaise en Afrique : 1433-1448 », in *Miscellanea medievalia in memoriam Jan Frederick Niermeyer* (Groningen : Wolters), pp. 365-77.
Verlinden, C. (1977) *L'Esclavage dans l'Europe médiévale*, vol. 2, *Italie, colonie italienne du Levant, Levant latin, empire byzantin* (Bruges : de Tempel).
Verly, R. (1977) « Le Roi divin chez les Ovimbundu et les Kimbudu de l'Angola », *Zaïre;* 9, 7, pp. 675-703.
Vernet, J. (1958) « La Carta magrebina », *BRAH*, 142, 2, pp. 495-533.
Vernier, E. et Millot, J. (1971) *Archéologie malgache : comptoirs musulmans* (Paris : Musée national d'histoire naturelle, catalogue du Musée de l'homme, série F, Madagascar, 1).
Viagem de Lisboa à ilha de S. Tomé, escrita por um piloto português (1940), trad. S. F. de Mendo Trigoso (Biblioteca das grandes viagens, 2, Lisbonne : Portugalia Editora).
Vianes, S. et Deschamps, H. J. (1959) *Les Malgaches du Sud-Est : Antemoro, Antesaka, Antambahoaka, peuples de Faragangana* (Paris : PUF).
Vidal, J. (1924) « La Légende officielle de Soundiata, fondateur de l'empire mandingue », *BCEHSAOF*, 2, pp. 317-28.
Vidal, P. (1969) *La civilisation mégalithique de Bouar : prospection et fouilles 1962-1966* (Paris : Firmin-Didot, Recherches oubanguiennes, 1).
Vidal, P. et David, N. (1977) « La civilisation mégalithique de Bouar », *NAk*, 2, pp. 3-4.
Vilar, P. (1974) *Or et monnaie dans l'histoire, 1450-1920* (Paris : Flammarion).
Vinnicombe, P. (1976) *People of the eland : rock paintings of the Drakensberg Bushmen as a reflection of their life and thought* (Natal : University of Natal Press).
Vogel, J. O. (1971) *Kamangoza : an introduction to the Iron Age cultures of the Victoria Falls region* (Londres/New York : OUP pour le National Museum of Zambia, Zambia Museum papers, 2).
Vogt, J. L. (1973) « The Lisbon slaves house and African trade : 1486-1521 », *PAPS*, 107, 1, pp. 1-16.
Voll, J. O. (1978) *Historical dictionary of the Sudan* (Metuchen : Scarecrow Press ; African Historical Dictionary, 17).

Wannyn, R. L. (1961) *L'Art ancien du métal au Bas-Congo* (Champles : Éditions du Vieux Planquesaule).
Wansbrough, J. (1968) « The decolonization of North African history », *JAH*, 9, 4, pp. 643-50.
al-Wansharīsī, Aḥmad ibn Yaḥyā (xv[e] s.) *Kitāb al-mi'yār ;* éd. 1896-8 (12 vols) Fez ; 1908-1909, trad. franç., E. Amar, *La Pierre de touche de fetwas (Kitāb al-mi'yār)* (Paris : Leroux ; Archives marocaines, 12-13).
Watson, A. M. (1967) « Back to gold and silver », *ECHR*, 20, pp. 1-67.
Watt, W. M. (1972) *The influence of Islam on medieval Europe* (Edinburgh : Edinburgh University Press ; Islamic survey, 9).
Wauters, G. (1949) *L'Ésotérie des Noirs dévoilée* (Bruxelles, Éditions européennes).
al-Wazīr, al-Andalusī : voir Abū 'Abd Allah Muḥammad'al-Wazīr al-Andalusī.
Webster, J. B. (1978) *A history of Uganda before 1900* (Nairobi).
Werner, A. (1914-15) « A Swahili history of Pate », *JAS*, 14, pp. 148-61, 278-97, 392-413.
Westermann, D. (1952) *Geschichte Africa : Staatenbildungen südlich der Sahara* (Cologne : Greven Verlag).
Westermann, D. (1957) : voir Baumann, H.
Westermann, D. et Bryan, M. A. (1970) *Languages of West Africa* (Folkestone : Dawsons ; Handbook of African languages, pt 2).
Westphal, E. O. (1963) « The linguistic prehistory of Southern Africa : Bush, Kwadi, Hottentot and Bantu linguistic relationships », *Africa*—(L), 33, pp. 237-65.
Weydert, J. (1938) *Les Balubas chez eux : étude ethnographique* (Luxembourg : Heffingen).
Wheatley, P. (1954) « The land of Zanj : exegetical notes on Chinese knowledge of East Africa prior to AD 1500 », in R. W. Steel (dir. publ.) *Geographers and the tropics : Liverpool essays* (Londres : Longman), pp. 139-88.
Wheatley, P. (1959) « Geographical notes on some commodities involved in maritime trade », *JMBRAS*, 32, pp. 111-12.
Wheeler, A. (1971) « Kitagwenda : a Babito kingdom in southern Toro » (Kampala : Makerere Seminar Paper, 4).
Wiener, L. (1920-2) *Africa and the discovery of America*, 3 vols (Philadelphie : Innes).
Wiet, G. (1937) « L'Égypte arabe, de la conquête arabe à la conquête ottomane, 647-1517 de l'ère chrétienne », in G. Hanotaux (dir publ.), *Histoire de la nation égyptienne* (Paris : Société de l'histoire nationale), vol. 4.
Wiet, G. (1951-2) « Les roitelets de Dhalak », *BIE*, 34, pp. 89-95.
Wilcox, A. R. (1971) « Domestic cattle in Africa and a rock art mystery », in *Rock paintings of southern Africa* (SAJS, n° spécial 2), pp. 44-8.

Wilcox, A. R. (1975) « Pre-Colombian intercourse between the old world and the new : consideration from Africa », *SAAB,* 30, pp. 19-28.
Willett, F. (1962) « The introduction of maize into West Africa ; an assessment of recent evidence », *Africa*—(L), 32, 1, pp. 1-13.
Willett, F. (1967) *Ife in the history of West African sculpture* (Londres : Thames and Hudson ; New York : McGraw-Hill).
Wilson, A. (1972) « Long distance trade and the Luba Lomani empire », *JAH,* 13, 4, pp. 575-89.
Wilson, M. (1959a) *Communal rituals of the Nyakyusa* (Londres : OUP pour IAI).
Wilson, M. (1959b) « The early history of the Transkei and Ciskei », *AS,* 18, 4, pp. 167-79.
Wilson, M. (1969a) « Changes in social structure in Southern Africa : the relevance oif kinsthip studies to the historian », in L. Thompsn (dir. publ.), *African societies in southern Africa* (Londres : Heinemann), pp. 71-85.
Wilson, M. (1969b) « The Nguni People », in M. Wilson et L. Thompson (dir. publ.), 1969, 1971 (q. v.), vol. I.
Wilson, M. (1969c) « The Sotho, Venda and Tsonga » in M. Wilson and L. Thompson (dir. publ.), 1969, 1971 (q. v.), vol. I, pp. 131-86.
Wilson, M. et Thompson, L. (dir. publ.) (1969, 1971) *The Oxford history of South Africa,* 2 vols (Oxford : Clarendon Press).
Withers-Gill, J. (1924) « The Moshi tribes : a short history » (Accra : Legon University).
Witte, C. M. de (1956) « Une ambassade éthiopienne à Rome en 1450 », *OCP,* 22, 3-4, pp. 286-98.
Wolde-Mariam, M. (1970) *An Atlas of Africa,* Addis-Abeba.
Wondji, C. (1974) « Conclusion », in Documents du colloque de Bonduku.
Writht, T. (1977) « Observation sur l'évolution de la céramique en Imérina centrale », in *Colloque de l'Académie malgache.*
Wright, T. et Kus, S. (1977) « Archéologie régionale et organisation sociale ancienne de l'Imérina central », in *Colloque de l'Académie malgache.*
Wright, W. (dir. publ.) (1877) *Catalogue of the Ethiopic manuscripts in the British Museum acquired since the year 1847* (Londres : British Museum, Department of Oriental Printed Books and Manuscripts).
Wrigley, C. (1958) « Some thoughts on the Bachwezi », *UJ,* 22, 1, pp. 11-21.
Wrigley, C. (1959) « Kimera », *UJ,* 33, 1, pp. 38-43.
Wrigley, C. (1973) « The story of Rukidi », *Africa*—(L), 43, 3, pp. 219-31.
Wrigley, C. (1974) « Myths of the savanna », *JAH,* 15, 1, pp. 131-5.
Wylie, K. C. (1977) *The political kingdoms of the Temne : Temne government in Sierra Leone, 1825-1910* (Londres/New York : Africana Publications).

Yahyā b. Abi Bakr, Abū Zakariyyā' (1878) *Chronique d'Abou Zakaria, trad. E. Masqueray (Alger : Allaud).*
al-Ya'ḳūbī Aḥmad b. Abī Ya'ḳūb (IXe s.) *Kitāb al-Buldān ;* éd. 1870-94 M. J. de Goeje, in *Bibliotheca geographorum Arabicorum* (Leyde : E. J. Brill) ; éd. et trad. 1937 G. Wiet, *Les Pays* (Le Caire, Publications de l'Institut français d'archéologie orientale : textes et traductions d'auteurs orientaux, 1).
Yāḳūt b. 'Abd Allāh al-Ḥamawī (XIIIe s.) *Mu'd͟jam al-Buldān ;* 1866-73 éd. J. F. Wüstenfeld, *Jacut's geographisches Wörterbuch,* 6 vols (Leipzig : Brockhaus) 5, pp. 75-6, 302-699.
Yoder, J. C. (1977) « A people on the edge of empires : a history of the Kanyok of central Zaïre » (thèse de doctorat, Northwestern University).
Young, M. W. (1966) « The divine kingship lof the Jukun : a re-evaluation of some theories », *Africa*-(L), 36, 2, pp. 135-53.
Yūsuf Kamāl (1926-51) *Monumenta cartographia Africae et Aegypti,* 5 vols (Le Caire).
Yver, G. (1903) *Le Commerce et les marchands dans l'Italie méridionale au XIIIe et au XIVe siècles* (Paris : Fontemoing).

Zahan, D. (1961) « Pour une histoire des Mossi du Yatenga », *L'Homme,* 1, 2, pp. 5-22.
Zanzibar and the East African coast : Arabs, Shirazi and Swahili (Londres : IAI ; Ethnographic survey of Africa, East Central Africa, pt 12).
al-Zarkas͟hī, Muḥammad b. Ibrāhīm (1872) *Ta'rīk͟h al-dawlatayn* (Tunis) ; 1895, trad. franç. E. Fagnan, *Chronique des Almohades et des Hafçides* (Constantine : Braham).
Zeltner, J. C. (1970) « Histoire des Arabes sur les rives du lac Tchad », *AUA,* F, 3, 2, pp. 109-237.
Zouber, M. (1977) *Ahmad Baba de Tombouctou, 1556-1627 : sa vie, son œuvre* (Paris : Maisonneuve et Larose ; Publications du département d'islamologie de l'Université de Paris-Sorbonne, 3).
Zunon Gnobo, J. (1976) « Le rôle des femmes dans le commerce pré-colonial à Daloa », *Godo-Godo,* 2, pp. 79-105.

Zurara, G. E. de (1896, 1899) *Cronica dos feitos de Guiné ; The chronicle of the discovery and conquest of Guinea,* éd. et trad. angl. C. R. Beazley et E. Prestage, 2 vols (Londres : Hakluyt Society) ; éd. 1949, *Cronica dos feitos de Guiné* (Lisbonne : Divisáo de publicações et biblioteca, agencia geral das colonias) ; 1960 trad. franç. L. Bourdon, *Gomes Eanes de Zuraga, Chronique de Guinée* (Dakar : IFAN ; Mémoires, 1).

كشّاف

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

ش

ص

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي